الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

رئاسة الجمهورية

المجلس الأعلى للغة العربية

الموسوعة الجزائرية

اللغة العربية ولهجاتها

اللغة العربية ولهجاتها

الحجم: 22X30 عدد

الصفحات : 402

عدد المقالات: 25

خطوط: عمر الجمني
الغلاف : نبيل دادوة

التّدقيق اللغوي: حسن بهول

تنسيق النصوص والاخراج: نبيل دادوة
طباعة : مطابع دار بهاء الدين للنشر والتوزيع
ردمك:
978-9931-322-72-6
الإيداع القانوني:
12/2021

محفوظة جميع الحقوق

المجلس الأعلى للغة العربية
بنك البركة الجزائر
مخابر بيوكالينيك قسنطينة
داربهاء الدين للنشروالتوزيع

المازيغيّة/ تمزيغت والعربيّة في الجزائر

أ. د .صالح بلعيد
رئيس المجلس الأعلى للّغة العربيّة

ـ الدّيباجة: يتحدّث هذا الموضوع عن سيرورة اللغتين: المازيغيّة/ تمزيغت والعربيّة بعد الفتح الإسلاميّ لشمال أفريقيا، ودراسة حالة اللغتين في الجزائر، منذ تجاورهما خلال الدّول المازيغيّة الثّلاث عشرة (13) التي فصلت في أمر اللغتيْن؛ **العربيّة** لغة رسميّة في الخطاب السّياسي، ولغة العلم والأدب، و**المازيغيات** لغات وظيفيّة للمصالح البسيطة في البيوت، وفي تفسير القرآن/ الحديث، وفي الخطاب المسجدي، وفي المعاملات اليوميّة، وكان التّفاعل البينيّ قوياً (المازيغيات+ العربيّة) لغات الهويّة، ولكلّ واحدة منها وظيفة تُؤدّيها في الحياة اليوميّة حسب المقام، وعاشتا في وئام ودّي تعايشاً متكاملاً، ودون خلاف، وهذا بفعل وصفة الأجداد الأوائل الذين أعْلَوْا مقام العربيّة على المازيغيات؛ لارتباط العربيّة بالدّين الإسلاميّ. هذا الدّين الذي دخل فيه ساكنةُ شمال أفريقيا بقوّة، ولفهمه والعمل به من الواجب فهم/ تعلّم لغته، وما لا يُفهم به الواجب فهو من الواجب. ذلك ما جعلهم يعتزّون بالدّين الإسلاميّ، ويحتضنونه ويعملون على انتشاره في جزيرة إيبيريا، وعمّر الدّين ولغة الدّين ثمانيّة (8) قرون في الفردوس المفقود الذي ضاع لعبث الحكّام. قرون من الحضارة الشّرقيّة التي فتحت علومها لتطبيقات الغربيين الذين أخذوا علوم المازيغيين والعرب المبدعين، وأضافوا إليها في تطبيقاتهم التي أبدعوا في تأسيس الفكر الغربيّ الذي أصبح مبدعاً في ثورة البُخار، وانقلب السّحر على السّاحر. وهكذا نرى تجلّيات ماضي اللغتيْن في تكامل أعطى الثّمار اليانعة في ذلك الماضي المُغدق.

1 ـ دور القبائل المازيغيّة في استكمال الإسلاميّة، وإقامة الكيانات السّياسيّة في الشّمال الأفريقي: كان للمازيغيين دور كبير في إكمال فُتوح بلاد المغارب، كما كان لهم دور كبير في فتح بلاد الأندلس بقيادة قائدهم (طارق بن زيّاد) ثمّ في فَتْح جزيرة صِقِلِّيَّة/ إيبيريا في أيام دولة الأَغالبة التّابعة للخلافة العباسيّة، وكان لها دور عظيم في نشر الدّين الإسلاميّ في كافة أفريقيا، وكما يعود الفضل للتّجار والفقهاء والشّيوخ الذين أبلوا البلاء الحَسَن من أجل تثبيت الدّين الإسلاميّ؛ مصحوباً بالعربيّة ليُفهَم الدّينُ فهماً صحيحاً. كما لا ننسى تلك الجهود العظيمة لعلمائهم في نقلهم الدّين الإسلاميّ إلى بلاد السّودان، وساكنة غرب أفريقيا، وعبر شمال تشاد إلى قبائل السّونكة، وبلاد السّهل الأفريقيّ... ويذكر (أحمد بن المقري) التّلمسانيّ صاحب (نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب) نحواً من مائتين وخمسين (250) ترجمة لمن رحلوا عن الأندلس إلى المشرق من العلماء والأدباء والفقهاء، ويذكر أيضاً ما يقرب من خمس وسبعين (75) ترجمة لمن رحلوا من المشرق إلى الأندلس. ولا بدّ من استنطاق التّاريخ الذي يقول: إنّ عدد الفاتحين للأندلس 12000 جنديّ، يقودهم المازيغيّ (طارق بن زيّاد) منهم 2000 من العرب الأقحاح الذين وفدوا من المشرق، والباقي مازيغيّون. وبعد الفتح عاد معظمُ العرب إلى المشرق، وبقي المازيغيّون تحت إمارات مشرقيّة: أمويّة/ عباسيّة... ولكن الحاشيّة بربريّة. وبهؤلاء البربر سادت الثّقافة في الأندلس وعمّ الرّخاء، وانتشرت المدارس، وامتزجت الثّقافة العربيّة بالمازيغيّة وبأولئك العلماء الذين أبدعوا في مختلف الفنّون، وحصل الازدهار لبلاد الأندلس، وتطوّرت العربيّة التي أضحت لغة العالم؛ ينشدها الأجانب من كلّ حدب وصوب، وكان ذلك تحت رعايّة ملوك العرب، وما كانوا يغْدِقون به على المُبدعين والصّناع...

2 ـ المصاهرة التّامّة بين المازيغيين والعرب: لقد عملت الدّولة الإدريسيّة على خلق انسجام جمعيّ تبنّته كلّ الدّول البربريّة المتتاليّة، فحدث انصهار تامّ، لا

فرق بين من يستعمل المازيغيّة ومن لا يستعملها، والمسألة تعود إلى السّاكنة البعيدين الممتنعين عن الاختلاط اللغويّ في الجبال الذين بقوا على لغتهم، وأما الذين تمرّ عليهم القوافل فقد اندمجوا مع الحدث اللغويّ الجديد، وهو حدث لغة الإسلام فتعلّموها وبدؤوا يستعملونها بصورة عفويّة، وافتقدوا لغتهم الأصل، تبعاً للانجذاب اللغويّ آنذاك، لا تبعاً للمحو اللغويّ. فلا توجد إثنيّات، ولا مزاعم هويات من خلال تعدّد اللغات، وهي وتيرة اجتماعيّة تواصليّة سواء كانت رسميّة أو شعبيّة. وفي المقابل لم يأمر العربُ الأمازيغَ بتغيير انتمائهم وهويّتهم عبر التّاريخ، وكان للبربريّة وجود بخصوصيّة الثّبات اللغويّ والأصالة التي انبنت عليها منذ القديم، ووجدت تآلفاً كبيراً مع العربيّة، فكانت لها الشّقيقة. وقد ترسّخت بذلك ثوابت المكارم بين السّاكنة التي لا تستطيع التّفريق بينهما بحكم توظيف اللغة العربيّة العامّة. وبذا يجب الجزم في القول في ظلّ التّمازج الاجتماعيّ والصّهر المتواصل لا يمكن تحديد من هم المازيغيّون، ومن هم العرب إلاّ توهّماً، كما أنّ مزاعم الهويّة الوطنيّة الآحاد غير صحيحة، فهناك هُوية بلغتيْن: **المازيغيّة+ العربيّة**، ولا يمكن الانسلاخ عن أحدهما، وهي الأصالة التي رسّخها السّلف. ونفتخر كجزائريين أنّ سلفنا طارق بن زياد، وموسى بن نصير، وعقبة بن نافع، والوغليسيّ، والمشدّاليّ، وابن باديس، والشّيخ بيّوض... عاشوا في وئام ودون أن يفسد للودّ قضية، ولا يجرّ المسألة للهاويّة، وكانت كلّ الأمور مرتّبة، بحكم العلاقات القائمة قبل الفتح في أرومة واحدة. ويسوق الدّكتور (محمّد بن عبد الكريم الجزائريّ) (في كتابه الثّقافة ومآسي رجالها) ص 169 أدلّةً وبراهينَ كلّها تؤكّد العلاقةَ الوطيدةَ بين العربيّة والمازيغيّة؛ منها:

أولاً: ثلث مفردات المازيغيّة عربيّة النّزعة.

ثانياً: وجود حروف في اللغة المازيغيّة لا وجود لها في غير اللغة العربيّة. ثم لا تكاد تجد حرفاً من هذه يعسُر النّطق به في تلك، مثل حرف الضّاد والعين والغين والطّاء، وبخاصّة حروف الإطباق التي لا توجد في اللاتينيّات، وجميع الحروف التي تفرّدت بها لغةُ الضّاد.

ثالثاً: هذه اللغة هي لغة ذات ضاد؛ كالضّاد العربيّة تماماً.

ويخلص إلى القول بأنّ «البربريّة ليست مستقلّة بذاتها، وإنّما هي عربيّة في أصلها قد تحرّفت بطول الزّمن، حتى أصبحت أكثر بُعداً عن العربيّة الفصيحة من هذه اللهجات العاميّة المختلفة التي تتكلمها الشّعوب النّاطقة بالضّاد». وهذا ما قرّرته دائرة معارف Universalis»/ يونيفرساليس» مؤكّدة: «أنّ اللغة البربريّة امتداد لصيغ اللغة العربيّة» وأنّ الآداب البربريّة «مستمدّة من المشرق العربيّ»، وأنّ «جميع اللهجات البربريّة مطبوعة بطابع اللغة العربيّة». وتبقى هذه الآراء لأصحابها، ولكن المهمّ في الأمر أنّه لا صراع لغويّ قائم، ولا خلاف في الرّأيّ الجامع. وهكذا نرى بأنّ مسألة **الهُوية اللغويّة** في الجزائر مفروغ منها؛ فهناك تعايش لغويّ منذ دخول الفاتحين هذه البلاد، فلقد تخصّصت كلّ لغة بمجال معيّن وما حدث صراع يمكن الإشارة إليه، فهنا نقول: **إنّ المازيغيّة والعربيّة صنْوان متكاملان غير متصارعيْن يكمّلان بعضهما البعض، ويتوجّهان لمستقبل مشترك، ووحدة المصير.**

3 ـ علماء مازيغيّون أَعْلَوْا الثّقافة العربيّة: ونشير لبعض العلماء الذين كانت لهم وقفات تبصّريّة في ظلّ الحضارة العربيّة الإسلاميّة، وقد خدموا اللغة العربيّة، وارتقوا بثقافتها في مختلف الفنّون، وأصبحوا لُمَّعاً في سماء العلم والعالم: يحي بن مُعطٍ الزّواوي+ ابن آجروم+ محمّد بن سعيد بن حمّاد البوصيري+ أبو العبّاس أحمد الغبريني+ أرزقي الشّرفاوي+ الشّيخ زكري+ ابن باديس الصّنهاجي+ الفُضيل الورثلاني+ أبو القاسم البوجليلي+ علي شّنتير+ الشّيخ بيوض+ الشّيخ أطفيّش+ السّعيد الياجري+ محمّد الحسن فضلاء+ الشّيخ أعليلي+ الشّيخ عسلة+ أحمد بن إدريس البجائي+ رابح بونار+ محمّد بن قاسم الزّواويّ+ يحيى بوعزيز+ أبو القاسم البهلولي+ أبو إسحاق الأجدابي+ الطّرابلسيّ+ الحمزاوي+ محمّد بن يحي الباهي+ سيدي يحي العيدلي+ الشّيخ إدريس السّحنوني+ المهدي السّكلاوي+ الشّيخ المقراني+ الشّيخ الحدّاد+ الشّريف بوبغلة الشّريف+ لالة فاظمة أنسومر+ سيدي أحمد بن إدريس+ محمّد الشّريف قاهر+ سيدي أحمد أويحي+ السّعيد البيباني بوتقجرت+ إبراهيم بن بوبكر الونوغي اليلماني+ عبد الرّحمن الوغليسيّ+ الطّاهر الجزائريّ+ أبو يعلى الزّواويّ+ مولود قاسم+ محمّد بقن يعقوب المنقلاتيّ+ الإيراثنيّ+ سي بلقاسم البويريّ+ عبد الرّحمن شيبان... علماء عمالقة من المشدّاليين الذين قيل فيهم «**لولا المشدّاليون ما كانت بجاية الحضارة والعلوم**» ونشير إلى: نصر الدّين المشدّاليّ+ أبو الفضل المشدّاليّ+ موسى بن عمران المشدّاليّ+ محمّد بن أبي القاسم المشدّالي، وهؤلاء كان لهم الحضور في: تلمسان وبجايّة وتونس

وقبرص وغرناطة والشّام والحجاز والقدس. وهؤلاء العلماء المازيغيّون كان لهم شرف نصرة الدّين وحمله ونشره، وشرف حمل رسالة الإصلاح والجهاد والاندماج الجمعيّ، وشرف الدّفاع عن المشترك اللغويّ. ولقد كانت العروبة عندهم هي اللسان لا في النّسب، فقد أبدعوا بالعربيّة المعجزة. هم علماء ما ينظرون بعقولهم إلى الأمور، بل يُحلّلون ويُبدعون، عرفوا الحقيقة وما وقعوا في الغريقة. هم علماء ما ضاقت عليهم الدّنيا وتماهَوْا في اللغة العربيّة التي تَبَنَوْها قناعة، في الوقت الذي كانت فيها لغات أخرى، لكنّهم عرفوا سرّ العربيّة، وعلموا أنّ أقوى لغة يومها كانت اللاتينيّة وتحوي سبعمئة (700) جذر لغويّ فقط وما احتووها، بل احتووا العربيّة المعجزة التي فيها ستة عشر ألف وثمانمئة (16800) جذر. وهذه اللغة التي ارتضاها الأجداد لأنفسهم وأوْصونا بها، وقالوا: العربيّة من المُقدّس بحمولتها الدّينيّة، فوجبت عليكم المحافظةُ عليها؛ لأنّها تمثّل مَعْلماً أساسياً من هُويتكم، فلا يأخذنّكم بالُ لغة أجنبيّة، ولا تستبدلوا الذي هو أعلى بالذي هو أدنى. بالفعل كانت وصيّة الأسلاف في محلّها، فهي اليدّ التي تُعطي، ولا تأخذ قدر ما تعطي، فهي النّبع الذي لا ينقضي، ألم يكن الغربيّون يأتون الأندلس أيام كانت الأندلس فردوساً للعلماء والعلم ليدرسوا فيها العربيّة وبالعربيّة، وعلى يدّ العرب والمازيغيين؟ ألم يأخذوا علم الفلك والهندسة والرّياضيات والكيمياء والجبر من حاضرتي: بجاية وتلمسان؟ ومن ثمّ بنوا قواعد علومهم من العربيّة وطوّروا لغاتهم التي لا تزال فيها آثار العربيّة شاهدة في مصطلحاتهم، وندعو المختصّين العودة إلى كتاب Nos ancêtre les Arabes ; Ce que notre langue leur doit للباحث المُنصف Jean Pruvost الذي يقرّ بهذه الحقيقة وهو الذي يقول «**لولا تلك القرون التي ساد فيها العربُ بلد الأندلس ما عرفت أوروبا نهضتَها الحاليّة**». ولكن ذلك من الماضي، وعسى أن يكون الاتّعاظ للخلف؛ بضرورة الإفادة من فِعْل السّلف، وكيف تعاطوا مع الفِعْل الثّقافيّ دون تَلَف.

4 ـ الصّفات المائزة لهؤلاء العلماء المازيغيين: إنّ معظم هؤلاء العلماء كانت لهم المواصفات التّاليّة:

4/ 1 ـ الموسوعيّة في العلوم.

4/ 2 ـ التّشبّع بعلم العربيّة، وحفظ القرآن، ومتون النّحو العربيّ.

4/ 3 ـ ربط القول بالفعل، والتّضحيّة بالأهل والوِلْدان، والارتحال في سبيل العلم.

4/ 4 ـ ربط الدّين بالدّنيا والدّولة، وعدم التّعارض في المصالح المرسلة.

4/ 5 ـ ربط المحسوس بالملموس، ودون الاعتماد على نزْعات النّفوس.

4/ 6 ـ التّماهي في الإيمان، ونشر الفضيلة والأخلاق، والعمل دون هوادة من أجل بلوغ الرّضا.

4/ 7 ـ تقديم العلم في صورته الواضحة الميسّرة حسب مقتضيات البيئة، وعقول النّاس.

4/ 8 ـ تأسيس الزّوايا والجمعيات الدّينيّة والخيريّة، والتّسابق إلى أفعال الخير، وتقديم الوعيّ على الوعظ.

4/ 9 ـ تدريس وتأليف الكتب وتكوين الرّجال والمريدين لمواصلة فعل التّأسيس.

4/ 10 ـ التّماهي في المجتمع والعيش مع الجماعة، وتكوين خلايا الإصلاح.

5 ـ موقع العربيّة عند هؤلاء العلماء: ولعلّ أهمّ سؤال يتبادر إلى الذّهن هو: كيف رُجحت الكفّة لصالح اللغة العربيّة؟ هل تمّ ذلك بقمع البربريّة/ المازيغيّة؟ يجب العلم أنّ إقبال أجدادنا على تعلّم العربيّة والإبداع فيها كان طوعاً باعتبارها لغة القرآن والإسلام الذي وصلهم للانعتاق من العهود الماضيّة الاستعماريّة، إضافة إلى نقص الاهتمام بتطوير الكتابة المازيغيّة، وعزوف أهلها عن تقعيدها وترقيتها، الأمر الذي جعلها تتدحرج إلى خارج الاهتمامات الفكريّة والعلميّة. وهكذا ما دام الإسلام قد ملأ قلوب أجدادنا المازيغيين؛ فمن الطّبيعيّ أن يقبلوا على تعلّم العربيّة إلى درجة امتلاك ناصيتها، ثم القيام بنشرها في أوروبا وأفريقيا، بأن صاروا أقلاما لها، فأسّسوا المدارس في بجاية والأندلس وتلمسان والقاهرة والشّام والقرويين والقيروان، ووقع الازدهار في عهد أبي عبد الله بن تومرت، ويوسف بن تاشفين، وأيام الموحّدين والزّيانيين والحماديين. وهكذا أنجبت منطقة الزّواوة علماء كثيرين سار بذكرهم الرّكبان، وكان لهم الحضور في بلاد المغارب، وفي المشارق، وفي أفريقيا.

6 ـ التّصاهر المازيغيّ العربيّ: هو تصاهر منسجم ألغى بالاختلاط صفاء الدّم، ومحا وجود الإثنيات، وحصل الذّوبان الفعليّ بين السّاكنة والفاتحين، وكان مصيرهم واحداً في تأسيس الدّول الوطنيّة القويّة على غرار (دولة الفاطميين+ الموحّدين+ الزّيانيين+ الحماديين+ إمارة كوكو+ المرينيين) وما يقابلها من دُوَل لها صفات العروبة (الدّولة الحفصيّة). قرون من التّآخي والتّكامل الذي أذاب كلّ صفات الخلاف والتّميّز، وذلك ما جعل سكان المغرب الأوسط والأقصى والأدنى يتّحدون أحياناً، ويختلفون أحياناً في

الحكم والسّيادة، ولكن لم يُسجّل التّاريخ أنّهم اختلفوا في سيادة اللغة العربيّة كلغة هويّة بما لها من حمولة دينيّة، وقيمة المازيغيات بما لها من تراث الأجداد، وكلتاهما تتكاملان بما لكلّ واحدة منهما وظيفة. ولقد عاركت الدّول الوطنيّة البربريّة/ المازيغيّة المستخرب الإسباني ولم تقبل بلغته، كما لم تذُب في اللغة العثمانيّة، وأبانت عن عراكها القوّي أمام المستدمر الفرنسيّ الذي عمل على المسخ والمسح للهويّة اللغويّة وللتّاريخ المشترك لكلّ الجزائريين. وعن طريق ذلك عمل المستدمر الفرنسيّ على استدراج المجتمع الجزائريّ إلى الصّراع العربيّ –القبائلي لتمكين اللغة الفرنسيّة على غرار ما هو موجود في العديد من المستعمرات الأفريقيّة، وخلْق نخبة وطنيّة مُشبَعة بفكر فرنسا القائم على سياسة (فرّقْ تسُدْ) وعند ذلك بدأت بعض النّعرات على شكل مطالب للهويّة البربريّة، وهذا منذ 1949م. ولكن رجال حرب التّحرير استطاعوا جمع العموم على التّحرير الوطنيّ وهو القاسم المشترك، إلى جانب تلك الحدود المانعة للاختراق الهوياتي التي سيّجتها الحركات الوطنيّة، ومختلف هيآت الإصلاح، وبخاصة جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين أثناء المستدمر الفرنسيّ على وحدة الهويّة، وتتمثّل أسسها في **الإسلام دينًا والعربيّة لغةً، والجزائر وطنًا**، وهذا ما ظهر في ذلك الإجماع من بيان أوّل (1) نوفمبر 1954م الذي يُعتبر مرجعيّة الجزائريين بمختلف عشائرهم وسكناهم وألوانهم السّياسية والأيديولوجيّة على اعتبار الجزائر دولة مسلمة، حيث بيّن الهدف الأوّل من الثّورة وهو **إقامة الدّولة الجزائريّة الدّيمقراطيّة الاجتماعيّة ذات السّيادة ضمن إطار المبادئ الإسلاميّة**، وأضاف البيان هدفاً خارجياً مفاده **تحقيق وحدة شمال أفريقيا في داخل إطارها الطّبيعيّ العربيّ والإسلاميّ**. ولهذا بقيت بعضُ الأفكار التي طرحت قبل الثّورة من مثل مطالب بربريّة سنة 1949م، لم تتحقّق؛ لأنّ ما جاء بعدها جبّ ما قبلها. ولم تسكت المسألة مع رجال الثّورة لكنّهم أرجؤوا أمر بعض الخصوصيات بشكل عامّ إلى مقام الأريحيّة بعد الخروج من قهر المستدمر الفرنسيّ، ولم تُحسم بعضُ المسائل في مؤتمر طرابلس. ولكن دستور سنة 1963م، أكّد الإسلام دين الدّولة في المادة الثّانيّة، والعربيّة لغة رسميّة في المادة الثّالثّة. وبالفعل حلّت القضايا اللغويّة في الحقيقة، ولكن هناك غليان يجري أحياناً مُسبّباً بعض المضايقات، وهذا بدءاً من 20 أفريل 1980م، حيث حصل منعُ إلقاء محاضرة (مولود معمري) في المركز الجامعيّ، بمدينة تيزي- وزو، وكان الشّرارة التي جعلت ولاية تيزي–وزو تنتفض وتبدع في تسميّة (الرّبيع الأمازيغيّ/ الأمازيغيّة) ويظهر بعض المستور والمخفي في المناداة بالهويّة الأمازيغيّة، وتكبر المناداة مع تأسيس حزب (التّجمّع من أجل الثّقافة والدّيمقراطيّة) وما والاها من مشاكل داخليّة في عشر (10) سنوات من التّدمير الأعمى، وحدث فيها تعطيل قانون تعميم استعمال اللغة العربيّة، وصاحبتها تلك المظاهرة التي جرت في العاصمة ضدّ التّعريب. من هناك وهناك، بدأت المسألة اللغويّة تظهر في الجزائر، وخلال ذلك وقع الإقرار بوطنية المازيغيّة كلغة وطنيّة بعد إضراب المحفظة سنة 1994م، ومن ثمّ جاء ترسيم الأمازيغيّة لغة وطنيّة في دستور 6 فبراير 2916م، حيث صادق البرلمان بأغلبية ساحقة على مراجعة جديدة للدّستور نصّت على أنّ الأمازيغيّة لغة رسميّة، بينما اللغة العربيّة؛ هي اللغة الوطنيّة والرّسميّة، **وتظلّ اللغة الرّسميّة للدّولة**. بدأ تدريس المازيغيّة منذ نهاية القرن العشرين بصورة محتشمة، بما وجدته من معارضة في بعض الولايات، ولكن بدأ الأمر يتحلحل، وتأخذ المازيغيّة مكانها في بعض المدارس وعلى مستوى بعض الولايات، وفي قليل من المتوسّطات، وفي قليل قليل من الثّانويات، وفي بعض الجامعات، وفي معاهد تكوين الأساتذة، وتأسيس بعض المخابر ذات العلاقة. ولحدّ الآن لا توجد معارك لغويّة بين لغتين وطنيتين، ولهما مصير مشترك بحكم ما تعيشانه من مضايقات. العربيّة ضعيفة أما لغات العولمة، والمازيغيّة فقيرة جدا جداً أمام العربيّة، وأمام اللغات الأخرى؛ لأنّها تحتاج إلى تهيئة، والوقت ليس في صالحها أن تنتظر مدداً، فما مصيرها الآن وعوامل الجذب قائمة بين العربيّة؛ وهي أختها ومن عائلة واحدة ولكنّها فقيرة علمياً، وأمام الفرنسيّة وهي ليست من حضارتها ولا من أُرومتها، ولكن المازيغيّة تربّت على يدّ نخبة فرنكفونيّة، وعلى أثير باريسيّ لا يزال يفعل فعله، وجاليّة كبيرة تعيش في فرنسا، وتعلّمت هذه اللغة فأصبحت تتعامل بها، وتنظر إليها مكسباً كبيراً (غنيمة حرب) ولا يمكن التّسامح فيها. فنلاحظ بأنّ مصير المازيغيّة ينتظر الجديد.

ينتظر الجديد لأنّ المسار الذي عرفته المطالب اللغويّة أخذت أبعاداً أخرى، وهي الدّخول في الجدل الهُوياتيّ المرتبط بالجدل اللسانيّ، وهذا يصعب السّيطرة عليه أمام منطق العولمة، وما سوف تأخذه من نصيب التّدريس، وما يراه البعض بأنّها

منافِسة للعربيّة، والبعض يراها تقويّة للفرنسيّة، ومتعلّقات كتابتها بالحرف اللاتينيّ مشكلة، وما كان من أثر سلبيّ في المطالبة بإغلاق مقرّات الدّرك الوطنيّ، وتحوّل المظاهرات إلى أعمال شغب، ومواجهات العنف، وتأسيس لجان العروش، وظهور بعض الأفكار التّطرّفية (الاستقلال/ الحكم الذّاتي) من قبل بعض جزائري الخارج. والمهمّ لم تعالج المسألة اللغويّة في وقتها؛ فأخذت بُعداً سياسياً، وزاد الإعلام الأجنبيّ من صبّ الزّيت على النّار، وبخاصّة ما سبّبته الأكاديميّة البربريّة/ أكراو إيمازيغن/ L'Académie berbère وهي ذات اتّجاه راديكالي، تشتغل على صقل المنتسبين إليها بشخصيات ذات توجّه سياسيّ متطرّف في كلّ ما يتعلّق بالقوميّة البربريّة والهويّة الأمازيغيّة. وهذه الأكاديميّة نالت الدّعم من بعض عناصر من الجاليّة الجزائريّة، ومن الإعلام الفرنسيّ الذي وفّر الجوّ الدّيمقراطيّ لفئة الشّباب والمغنين للمطالبة بالإقرار بالهويّة المازيغيّة. والمهمّ في الأمر أنّ هذه الأكاديميّة عمّرت عشر (10) سنوات، ولكنّها أوجدت فئة لا تزال ترافع عن المازيغيات، وتخلق قلاقل في الجزائر وفي المغرب، وبعضهم تحوّلوا إلى مجموعات MAK.

7 ـ التّنوّعات اللغويّة الأولى في الجزائر: منذ للفتح الإسلامي هناك لغة عربيّة أدبيّة واحدة، وبدأت تخرج منها لهجات عربيّة، وقد سادت تكلّماتها كما سادت في الجزيرة العربيّة، وأدّى ذلك إلى حدوث مستويات لغويّة فيها حسب المقام والحال وبقيت العربيّة الأدبيّة لغة كتابيّة إدارياً، واللهجات شفوياً في خطابات الأنس العاديّة. وهناك العديد من التّنوّعات المازيغيات في الجزائر، ونذكر أكبرها وأكثرها استعمالاً وهي: القبائليّة+ الشّاويّة+ الميزابيّة+ الشّنويّة+ التّرقيّة+ الزّناتيّة+ الشّلحيّة. ومع ذلك تعتبر القبائلية أكثر انتشاراً في الجزائر، وقامت الكثير من الأبحاث فيها وعنها، بالإضافة إلى الاهتمام بها خارج الجزائر؛ وبالخصوص لدى الجاليّة الجزائريّة في فرنسا، وفي مخابر فرنسا وألمانيا، وما تملكه من وسائل إعلام ناطقة بها في الدّاخل وفي الخارج. ومع هذا؛ فإنّ المازيغيّة تعرف الكثير من المضايقات، ونشير إلى بعضها:

7/ 1 ـ تعدّد المازيغيات. وحسب الدّراسات هناك ما يقرب من خمسة وثلاثين (35) أداء/ لهجة مازيغيّة، وهي على امتداد أربعة عشر (14) دولة بين قارتيْ: أفريقيا وأوروبا.

7/ 2 ـ مضايقات المصطلح بشكل عامّ: وهي أزمة كبيرة؛ لأنّ المازيغيّة لم توضع في سوق التّنافس/ الإنتاج/ الاستعمال العلميّ، فبقيت تابعةً للحاكم الذي يأتي بلغة أخرى/ يتبنّى لغة، والمازيغيات تابعات فقط. وهنا عرفت نقصاً كبيراً في المصطلح، ولا نتحدّث عن المصطلح العلميّ الذي تعرف فيه العدم، وهو جوهر التّقدّم في واقعنا الحالي. وهل يمكن أن تكون المازيغيات لغة العلم/ مجتمع المعرفة؟ وكم تحتاج من وقت لأن تتحوّل إلى لغة قادرة على مواكبة تطوّرات العصر؟ في حين يتّجه العالَمُ اليوم إلى طمس وإلغاء العديد من اللغات واللهجات المحليّة، وهل المازيغيات لا ينالها (كوليرا اللغات) أمام الفقر المدقع في كلّ المجالات، وهذا ما سوف نعرفه أمام خريطة اللغات في سنة 2030م، دون الحديث عن الخريطة القادمة التي لا تبقى فيها إلاّ القليل القليل من لغات العالم مع سنة 2050م.

7/ 3 ـ الدّعوة إلى مساواتها مع العربيّة: لنكن واقعيين في التّعامل مع نفس المسافة بين اللغتين، وهل يعني أن نوقِف عجلةَ التّطوير في العربيّة لتلحق المازيغيات؟ ولا تلحق إلاّ بعد ردح كبير من الزّمن، وهل يمكن بالفعل أن يحصل التّساوي بين اللغتين، وهذا غير ثابت مطلقاً في أيّة دولة تعتمد لغتين/ أكثر. والمناداة بالمساواة كمن يطلب العنقاء في الصّحراء، وَهْمٌ من أوهام صنف المتاجرين السّياسيين للمازيغيات، والذين يُعادون العربيّة، في الوقت الذي تحتاج المازيغيات إلى البحثة والأكاديميين.

7/ 4 ـ الشّفاهيّة: مشكلة كبيرة جعلت المازيغيات تعيش (شذر مذر) لغياب الكتابة، فبقيت في الصّدور، وذلك ما جعلها تخلو من الصّفاء الصّوتي/ اللغويّ، بحكم الرّواية الشّفاهيّة التي تنتقل بها كلماتها عبر الزّمان والمكان، وتخضع للتّأثير الحركيّ/ الصّوتيّ/ الحضاريّ، وتأخذ الكلمات الأجنبيّة بقوّة.

7/ 5 ـ غياب توحيد الخطّ: ما يعرف عن خطّ التّيفيناغ أنّه الخطّ الذي كتبت بها في أوّل عهودها، وعدد رموزه ثمانية عشر (18) حرفاً، وكان أحفورياً غير حِرْفِي، ولا يخضع لسرعة الكتابة اليدويّة، ولذلك احتواها الخطّ العربيّ بسهولة، وكُتبت به كلّ المخطوطات بعد الإسلام، ولا تزال الكتابة بهذا الخطّ قائمة، رغم منافسة الخطّ اللاتيني الذي بدأ يشتغل بعد الرّبيع الأمازيغيّ فقط. وهذا من العوائق التي تحدّ من ترقيتها، وينظر لها من منظور احتوائها لخطّ ليس من حضارتها، وما الفائدة

من قطف ثمار ترسيمها ويستولي عليها الحرف الذي حورب من كلّ الجزائريين. وبذا لا تزال تُعاني عدمَ الاستقرار على مستوى الكتابة، في حين يبقى تداولُها على الالسّن غير كافٍ لاستمرارها كلغة المستقبل لدى الأجيال، وهو ما يترجم الصّراع الخفيّ بين دعاة الحرف اللاتينيّ/ الفرنسيّ والعربيّ، وهو صراع أيديولوجيّ أكثر منه تمكيناً لتمازيغت وإعادة الاعتبار لها كلغة تحتاج إلى الرّعاية والتّطوير.

8 ـ مسار التّكامل: إنّ المسألة اللغويّة في الجزائر عرفت مسار التّكامل؛ هو مسار العربيّة الرّسميّة، ومسار المازيغيات المنسيّة بحكم الانبهار اللغويّ الدّيني في المقام الأوّل، وهذا الأمر جاء في إطار التّكامل والتّعايش بين اللغتين الشّقيقتين، بدل الصّراع والتّنافر؛ لأنّهما عرفتا مساراً/ سكّة واحدة عبر تناميهما في الاستعمال وفي التّدريس، وعرفت العربيّة مقامها في الاهتمام المحلّي/ الاهتمام العامّ/ الاهتمام الدّولي، والفرد يتأثّر باللغة التي يسمعها ويقرؤها ويتكلّمها أكثر؛ بحيث يمتدّ هذا التّأثير ليشمل نمط تفكيره وتصوّراته ومشاعره، وهذا ما يجعل اللغة هي الفكر نفسه، فليس ثمّة فكرٌ مجرّد بغير رموز لغويّة. وهذا مسار العربيّة التي أصبحت عبر الزّمان رمزاً للهويّة المازيغيّة العربيّة في نموذج لغة وطنيّة مشتركة لا جدال فيها. هي وصفة الذين أبدعوا بها وفي ذاتها، وحُقّ علينا اتّباعُها، وأما مراجعة/ التّراجع عن هذه الوصفة هو خلْق صراع بين لغتين وطنيتين لصالح **التّمكين للفرنسيّة** التي خلقت المشكلة من أجل نفوذ الفرنكفونيّة، وليس قصد نيْل المازيغيات مقامها في الواقع المحليّ، وهي في الاستعمال وفي المدرسة وفي بعض المصالح المرسلة بصورة عاديّة، والأمر في غاية التّفاؤل، ولا بدّ أن تأخذ الوقت المناسب في التّهيئة. وكان علينا أن نعرف أنّ المازيغيات والعربيّة حوربتا من قبل الفرنسيين بما وضعوه من قوانين وتدابير ردعيّة في منع استعمال اللغتين منذ سنة 1838م، ولما عرفت فرنسا أمر الجزائريين في أنّهم يؤسّسون المدارس، ويبنون الزّوايا بدأت في اللعب على الوتر عربيّ – قبائلي، وقد «أطلقت في 7 مارس 1944 مشروع قانون أصدرته اللجنة الفرنسيّة للتّحرير برئاسة (شارل ديغول) لمنح شهادات تعليميّة باللهجة البربريّة للجزائريين، واعتبروا تقوية اللهجة البربريّة بديلاً واقعياً لهيمنة اللغة العربيّة الفصحى (بعد جهد جمعية العلماء المسلمين في ذلك الوقت) وعمل المشروع الذي أُعِدّ له جيّداً بنيّة طرْد اللغة العربيّة من كامل التّراب الوطنيّ بعد نجاحه بمنطقة القبائل التي ركّزت عليها فرنسا كثيرًا». دون أن ننسى بعض المزايا التي تقدّم للنّخبة الوطنيّة التي تنحو منحى تصنيف السّاحة اللغويّة في الجزائر إلى: العربيّة الفصحى+ الفرنسيّة+ العاميّة الجزائريّة+ القبائليّة. وهنا نلاحظ أنّ المسألة اللغويّة وما يتبعها من المسائل الثّقافيّة أصبحت في صراع حول اللغة العربيّة/ التّعريب، وفي معناها العامّ يعني الصّراع حول صياغة الوعي الجماعيّ الذي يمثّل التّعبير الأرقى عن معادلة الجمع بين الماضي والحاضر/ القطيعة عن الماضي، ويعني القطيعة مع التّراث العربيّ/ القطيعة مع مرجعيّة العربيّة (القرآن الكريم) وهنا لبّ المشكلة التي لا تزال بعض الأطراف تعمل على تغذيتها بمصطلحات خادعة، أو بنمطيّة الحضارة المعاصرة، وبأسماء ثقافيّة كبيرة بدعوى التّفتّح الذي لا يكون إلاّ عبر لغة فرنسيّة لها عمق في المجتمع الجزائريّ، وأنّ مشروع التّعريب فشِل في بلاد العرب، فكيف ينجح في بلاد المغارب؟

هي أفكار دعاة الفرنكفونيّة، وتعدّ عند نشطاء الثّقافة والهويّة المازيغيّة مرجعيّة من أجل إعادة الاعتبار لهذه الهويّة المفقودة – حسبهم – بإرادة سياسيّة، حيث راحت اللغة المازيغيّة ضحيّة الخيار الاشتراكيّ الذي تبنّته الجزائر كأيديولوجيّة سياسيّة واقتصاديّة بعد الاستقلال مباشرة، فالخيار الاشتراكيّ الزّمَ القادةَ السّياسيين الاتّجاه للمشرق العربيّ لصياغة اشتراكيّة إسلاميّة، وأصبح المنادون باللغة المازيغيّة ضمن المغضوب عليهم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنّ عدم الحسم في بداية الاستقلال في قرار تعميم استعمال العربيّة، كان سبب تمكين الفرنسيّة في معظم القطاعات، وفي مواصلة الهيمنة اللغويّة من قبل لغة العدو الذي خرج اقتصادياً، ولا يزال ثقافياً بموروثه اللغويّ، وما نعيشه من مراجعة وتراجع أحياناً، ولكن في ذات الوقت لا ننكر التّعريب المرحليّ لمسار المدرسة الجزائريّة منذ الاستقلال، وما جاءت به من أفكار تحسينيّة خلال الإصلاحات التّربويّة والتي صاحبتها الثّورة الثّقافيّة، وتأسيس المدرسة الأساسيّة، ومقتضيات تعريب العلوم الإنسانيّة في الجامعات، وتعريب المدارس العليا، والقضاء على التّبعيّة في الميدان الثّقافي، وبروز الشّخصيّة اللغويّة الوطنيّة...

9 ـ هـل هنـاك صـراع لغـويّ؟ لقد حدث صراع على الأرض وعلى الحكم في شـمال إفريقيـا، فحاربـت الكاهنة الفاتحين، وصمدت سـنوات وسنوات رافضـة الحكـم العربيّ، كمـا حصلت مناوشـات كثيـرة فـي بعـض المناطق ويعـود بعضهـا إلـى رفـض الحاكـم العربـيّ، وبعضها إلـى السّـيطرة على الثّروات، وتشير كتب التاريخ بأنّه حدث صراع حربيّ بين عقبة بن نافع وأكسيل/ كسـيلة الملك البربريّ، وارتدّ البربر في رواية (ابـن خلدون) اثنتيْ عشـرة (12) مرّة، واستقرّوا في عهد موسى بن نصير على الإسـلام. والمهمّ فـي كلّ هذا أنّه لـم ينقل لنا التاريخ أنّـه حصل في بداية دخـول الفاتحين الصّـراع اللغويّ، ولا بعد ذلك، فلقد قبـل المازيغيون العربيّة قبولهم الدّين الإسلاميّ؛ فحصل أسلمة بلـدان المغرب العربيّ في ظرف قصير، وهي المهمّة الأسـاس عندهم. إذن لم يطرح الصّدام بين العربيّة والمازيغيّة إلاّ مع دخول فرنسـا التي أقصت المازيغية والعربيّـة مـن الاسـتعمال والتّوظيف بشـكل نهائـيّ، وبقـرار مـن الحاكـم الفرنسيّ، وتشهد المصادر بذلك القرار لسنة 1899، الدّاعي إلى إغلاق الكتاتيب القرآنيّـة، وتدميـر المسـاجد، وتحويل الكثير منها إلـى كنائس، بل وصل الأمر إلى منع الحجّ على اعتبـار أنّ الحجاج يحتكّون بالعرب الذيـن يحملون اللغة العربيّـة، أضـف إلى ذلك مـا تعرّضت له الصّحف المعرّبـة من غلق وملاحقة أصحابهـا، وهـذا كلّه يدخل فـي إطار الضمّ النّهائي، وتذويب الجانب الثّقافيّ فـي الجزائر في كيان فرنسـا، وإضعاف الشّـخصيّة العربيّة الإسلامية ومقوّماتها الدّينيّـة. ولقـد عملـت المدرسـة الاستداريّة على بثّ التّشكيك في لغتنا وهُويتنا وعرقنا، وحاولت أن تُعيدنا إلى البربريّـة الوحشـيّة؛ حيـث الصّراع بين الأهالي بسـبب مـن هـو الأصيل؟ من هو البربريّ؟ من هـو العربيّ؟ من صفا عرقُه؟ ولم يطرحوا هذا على أنفسـهم، رغـم أنّ التاريـخ يقـرّ بأنّهـم أعـراق وديانـات متباينـة وأجناس شـتّى، فهل نعتبر!

إنّ المازيغيـة لـم تصـارع العربيّـة؛ حيـث تحـدّدت مجـالات كلّ واحدة منها بشـكل طبيعيّ، كما لم يمنع القرآن ولا الحديث الشّريف استعمال اللغات والالسّـنة الأخرى، **وبذا عاشت العربيّة بلهجاتها، والمازيغية بلهجاتها وتأدياتها جنباً إلى جنب طوال القـرون الماضيّة، ولـم يحصل بينهما أيّ صـراع، بقدر ما كان التّكامـل والتّداخـل تلاقحاً وتبادلاً فـي الأدوار والوظائـف**. وفـي الوقت المعاصر لا تعـادي المازيغية ولا اللغة العربيّـة اللغـة الفرنسـيّة كلغـة علـم، فالفرنسـية لغـة راقية يجب الاسـتفادة من علومهـا، ولا يمكن نكـران بأنّ لها باعـاً طويلاً فـي علوم الطّـبّ والقانون والسّياسـية والسّـياحة، ولكـن لا تبقى لغة هيمنـة وهويّة عندنـا، أو اللغة التي يجـب المرور منهـا للوصـول إلى كلّ شيء؛ اللغة الوسيط. وأما ما حصل من صراع في مسـألة التّعريب، فهو ردّ فعل للتّغريـب، صـراع بين لغتيـن إحداهما أجنبية تصرّ على احتلال مكان السّـيادة في البلاد، ولغة وطنيّة ترى أنّ شـرعيتها قد انتُهكت، ومكانتها سُـلبت، فتطالب بـردّ حقّها، وهذا شـيء تقـرّه الحقوق اللغوية لكلّ اللغات **ومـن حقوق اللغة العربيّة عدم الاعتداء على شرفها**.

10 ـ الواقـع اللّغـوي بالجزائـر: قبل وصـف الواقع اللغـويّ الحديث، علينا تأكيد مـا ذكرناه مـن أنّ منطقة شـمال أفريقيـا عرفـت التّعدّديّـة اللغويّـة قبل الفاتحين، وأنّ اللغـة المحليّة/ البربريّة لم تَسُـد عنـد ملـوك البربر قبـل الفتح الإسـلاميّ، ولـم يكن لها مقـام إلاّ في التّفاهم العائليّ، واسـتمرّ ذلـك التّعدّد اللغـويّ بعد الفتـح الإسـلاميّ، إلاّ أنّ الغلبـة كثيراً ما سـجلت للّغـة العربيّة، رغـم أنّ البربـر القدامـى لـم يمتلكوا ناصيّة اللغة العربيّـة الفصيحة؛ إلاّ أنّهم أحبوّها واسـتعملوها في حديثهم كونها لغـةَ دينهم، ولـم تُمـحَ المازيغيات من التّـداول، مـع الاختيـار الحـرّ لوصفة الأجـداد بتبنّيهـم العربيّـة لغـة العلـم والتّعليم. وهكذا نـرى أنّ الازدواجيّة/ التّعددّيـة قائمـة، ولعِـب فيهـا العامل التّاريخيّ الحسم المنجز لصالح اختيار لغة واحدة تكون مشـتركة؛ وهي العربيّة الفصحى، وأصبحت لغـة الدّولة، ومع ذلك فـإنّ الواقـع المعيش لـم يحافظ على فِعل الأجداد، ونشـهد تعدّديّةً من نوع آخـر؛ حيث اسـتعمال اللغات غير مُتجانـس: مجموعات لغويّـة مختلفة، تأديـات مازيغيـات لا تفاهـم بينهـا، عربيـات/ دوارج الشّـارع فيهـا هجين لغويّ غير علميّ، هجمة فرنسيّة إقصائيّة للغات الهويّة، لغة رسميّة غير مستعملة، لغة أجنبيّة غير رسـميّة مهيمنة... ساحة مـن الفوضـى اللغويّـة التي لا توسـم بالتّعدّديّة المعروفة؛ وهي إنزال كلّ لغة مقامها، وهنـاك تكامل بينها في كثير من المهـام. وكلّ هذا يفسّـر بشـيء واحد وهـو أنّ رزوخ الجزائر تحت دمار طال أمده (132) سـنة أصاب اللغات الوطنيّة في المقتـل، وأنّ التّوجّهات الفرنسـيّة ركّزت على اللغة والثّقافة الفرنسيّة، وأن مشروع فَرْنَسَـة الجزائر حلم لم يتحقّق، وعليهـا أن تتـرك الأثر في اللاسـتقرار لغويّ. وهي سياسـة ترْك البؤر/ النّخبة

الفرنكفونيّة التي تدافع عن الفرنسيّة كلغة تفتّح وحضارة وعلم، وهذا ما نراه قائماً الآن في تدريس مجالات الطّبّ والهندسة والعلوم والتّقانة بالفرنسيّة، رغم ابتعاد الفرنسيّة علمياً عن بعض المجالات، وهي تعيش مضايقات تقنيّة كثيرة في بلادها التي تبتعد عنها، وتستعمل الإنكليزيّة في التّدريس في مجالات التّقانات، وما له علاقة بالتواصل العالميّ.

وإنّ الواقع اللغويّ يكشف عند الجزائريين أنّ هناك تعايشاً بين العربيّة والمازيغيات في حدود لزوم المنتوج العلميّ والاستعمال العفويّ، ويحتاج هذا التّعايش إلى التّمتين عن طريق القوانين والعمل على النّهوض باللغتيْن اللتيْن تعيشان القرابة اللغويّة والافتقار العلميّ، ومصيرهما المستقبليّ واحد، وهو تعدّد مُتجانس حميميّ اجتماعيّ مُنسجم، وهذا ما سوف يضمن النّجاح للمرحلة الجديدة في جزائر التّغيير، جزائر الإقرار بالتّعدّديّة النّاعمة التي تقرّ بكلّ الأطراف ضمن شراكة قوّة ما تعطيه إحدى اللغتين، والابتعاد عن النّظرة السّلبيّة لما تقدّمه أيّة لغة في الوقت الحاضر الذي نعرف تأخّراً فظيعاً في لغات الهويّة، ولكن هي أوّل الخَطْو، ويليها مسألة نزع الهيمنة النّخبويّة الفرنسيّة لناطقي الفرنسيّة، وما لها من سوء الازدواجيّة اللامتكافئة في زيادة ترسيخ الفرنسيّة التي تشتغل في الإدارة والبحث العلميّ، وهي **ازدواجيّة مُتوحشّة**، تعطي الأفضليّة للفرنسيّة بشكل عفويّ، وذلك ما يعطي لمستعمليها شارة الفخر والتّعالي على أنّهم أرقى من النّاطقين بلغات الهويّة. وخلاصة الكلام؛ هناك تعدّديّة لغويّة غير مُحكمة الإتقان، تحتاج إلى تخطيط في السّياسة التّربويّة، وإلى الخروج من وهن بيت عنكبوت الفرنسيّة التي تريد أن نعيش الصّراع اللغويّ لتبقى لها السّيادة. وهذه اللغة هي التي جعلتنا لا نتقدّم، ولم ننْل منها إلاّ السّراب والوهم والوهن، والخليط اللغويّ، وعدم التّحكّم في أيّة لغة، فنسمع لغات شوارعنا، ونجد الخليط اللغويّ والهجنة كأنّنا أمّة بلا لغة. هي معضلة عويصة، مصحوبة بداء ينخر عظام لغات الهويّة؛ لذا يجب حثّ الخُطى في اقتلاع هذا الدّاء من جذوره. وعلينا جميعاً السّياسيّ والنّخبة والمعلّم والمجتمع الاستماع إلى بعضنا البعض في حوار هادئ للتّشاور، وبناء أفكار الخروج من الصّراع الوهميّ الذي لم نُحسن فيه إدارةَ التّعدّدية اللغويّة، ولم نُحسم أمرَ الاستفادة من اللغات الأجنبيّة، ومن مختلف الثّقافات. وفي ظلّ هذا الواقع؛ فإنّ العربيّة عند الجزائريين تنال موقع الرّضا، وهي عنصر أساس في هوّيتهم وشخصيتهم وفي طريقة تفكيرهم، وهذا بحكم ما لها من قيمة رمزيّة وطنيّة ودينيّة.

وإنّ العربيّة صاحبت الأطوار التّاريخيّة للمجتمع الجزائريّ وعملت على تطويره فكرياً، وكانت لغته الحضاريّة، فلا يتسامح المجتمع الجزائريّ في لغة لها كلّ الرّقيّ العلميّ الذي نالته أمام اللغات الأمميّة رغم ما يلحقها من بعض العثرات التي لا تُنقِص من قيمتها العلميّة والحضاريّة. وإنّ العربيّة لغة ليست ككلّ اللغات، وسوف تلحق بركب لغات العلم، وهي منها، رغم ما تعرفه من مُضايقات المصطلح العلميّ، وما يوقف ضدّها في عمليات استعمالها، ومحاربة تعريب التّعليم، والعقبات المفتعلة عن عجزها العلميّ، وهي لم توضع في الاستعمال؛ حيث طغيان الفرنسيّة بوصفها لغة جاهزة، والعربيّة أُبعدت لأنّها غير جاهزة/ عاجزة، ونجهل شهادات العلماء الكبار الذين يقولون «... العربيّة أداة خالصة لنقل بدائع الفكر في الحقل الدّوليّ، وعنصر جوهريّ للسّلام في مستقبل الأمم والشّعوب». فقيمة العربيّة كبيرة لو كنّا على وعي بها وبحمولتها الحضاريّة والدّينيّة لو كنّا نعتبر، وإنّ كلّ تقصير فينا وليس فيها. وما يثير في النّفس ألماً أن تُحظى اللّغة العربيّة بهذه المكانة، ثمّ ترمى بشتّى النّعوت، ويُنظر إليها بمنظار الشّؤم والسّخط، على أنّها سبب التّخلّف، والعجب أنّ أشباه المثقّفين ينافحون من أجل الفرنسيّة، ولا يقومون بأيّة خطوة من أجل العربيّة. وأما موقع المازيغيات في الواقع الحالي فهو متذبذب بسبب ما يلمسه المجتمع الجزائريّ من واقع حقيقيّ خارج لغة الهويّة، وحسب المصادر والدّراسات التي أجريناها؛ فإنّ المجتمع الجزائريّ ينظر إلى بخس القيمة اللغويّة للمازيغيات بسبب عاملين:

10/ 1ـ العامل الأوّل هيمنة مازيغيّة على المازيغيات، وهذا يعني السّعي لاحتواء التّأدّيات المازيغيات الأخرى، وما يلحقها من إلغاء كلّ ما يمتّ بصلة لواقع القاموس المشترك بين العربيّة والمازيغيات في حدود ما يقرّ به الباحث (سالم شاكر) يصل إلى 49٪، إضافة إلى تلك الممارسات من قبل غير المختصّين في تصفيّة عرقيّة لقاموس المازيغيّة من كلّ ما هو عربيّ/ قريب من العربيّة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى الإتيان بكلمات اصطناعيّة غير مازيغيّة ومن افتراض باحثين يرمون لنا الكلمات من مازيغيّة وهميّة افتراضيّة

صناعيّة. وبذلك ستصبح المازيغيّة في لاحقٍ من الزّمان إسبرنتو/ Esperanto اللغات، وهذا سوف يقضي عليها، وهذا لا يجب أن يأتي من السّياسيين، وأن يُدلى في المسألة اللسانيّون المختصّون، وعلماء فقه اللغة، وهم الذين يقترحون عوامل النّمو اللغويّ.

10/ 2 ـ العامل الثّاني: كتابتها وتدريسها الحالي بالحرف اللاتينيّ، وهذا منقصة كبرى في غياب حرفها (التيّفيناغ/ العربيّ، ويعني إحياء/ بعث المازيغيّة لصالح اللاتين، واللاتينيّون في غنى عن المازيغيّة، كما يعني احتواءها من قبل اللغة الفرنسيّة بما لها من نُطق فرنسيّ دون غيرها من اللاتينيات. ومن يلاحظ عن بُعد هذه الكتابة يقول إنّها لغة فرنسيّة، وهذا ما يجري في التّدريس؛ حيث يكون درس النّحو عن المازيغيّة، وبلغة الشّرح الفرنسيّة فقط، وهذه طريقة المستشرقين عندما يدرّسون لغة من اللغات الأجنبيّة، فيتّخذون منها الأمثلة فقط، وهذا يصلح بالنّسبة لتدريس اللغات الأجنبيّة، والمازيغيّة ليست أجنبيّة في الجزائر. ومن هنا يرى المجتمع الجزائريّ في غالب فئاته أنّ هذه اللغة لا تُعبّر عن هويّته لأنّها لم تُحتوَ من حرفها/ الحرف العربيّ الذي أعطى لها صفة الوجود خلال خمسة عشر (15) قرناً، وكلّ مدوّناتها مكتوبة بالخطّ العربيّ إلاّ قليل القليل الذي كُتب باللاتينيّ في نهاية القرن العشرين. وهكذا نرى حرص المجتمع الجزائريّ على لغته الوطنيّة، ويعدّ في نظر اللّغويين من الأمور الطّبيعيّة التي تحتّمها ضرورة المحافظة عليها من كلّ تأثير أجنبيّ، فإنّ هذا هو خير هجوم قبل الدّفاع الذي سيتضاعف حين يكون الخطر على اللّغة العربيّة مع المازيغيات بما لهما من تجاور وتكامل حضاريّ لمّا يتّحدا في الكتابة التي تُعيدهما إلى أرومتهما المشتركة، وإلى الحضارة الشّرقيّة. ولهذا يراهن أغلب المجتمع الجزائريّ على النّهوض باللغتين في المدرسة؛ كونهما عامِلا استمرار للتّاريخ والحضارة، وعدم قطع الاستمراريّة والصّلة بآثار الأجداد، ممّا يؤدّي إلى ظهور شعب يجهل تاريخ ماضيه، ولا يتعرّف إلاّ على ما يُترجم له إلى اللّغة الجديدة، وبالتّالي يتّم القضاء على إحدى مُقوّمات شخصيته، ويسهل التّأثير عليه. وإذا ما أردنا الإصلاح المجتمعيّ علينا تربيّة المدرسة، وتغذيتها بالهويّة والخصوصيّة، وكلّ مُقوّمات الشّخصيّة من عقيدة ولغة وثقافة وتاريخ وقيَم ومفاهيم لتثبيت الهويّة على أحسن ما يُرام، وذلك لا يكون إلاّ بلغة جامعة، ولا يعني إلغاء اللغات الأخرى، بقدر ما يعني إنزال اللغات مقاماتها وحدودها فقط.

11 ـ العربيّة والمازيغيّة صراع إيديولوجيّ: لقد مُنيت اللغتان ببعض من النّخبة الوطنيّة التي أسهمت في عرقلة مشروع التّعريب، كما لم ينجح مشروع نيْل المازيغيات مقامها في الاستعمال، فهذا الصّراع عرف ثلاث فئات: الفئة الأولى **عروبيّة** ترى أنّه لا بديل عن العربيّة في الجزائر، وتبقى اللغة الوحيدة والرّسميّة دون غيرها من اللغات، وضرورة التّعريب الشّامل والكلّي في كلّ مرافق الدّولة. والفئة الثّانيّة **مزوغيّة** ترى ضرورة إقصاء العربيّة، ولا بدّ من التّمزيغ الكلّي بديلاً عن التّعريب الكلّي، وهو العودة إلى الهويّة البربريّة الأصيلة، وأنّ العرب نوع من أنواع الاستعمار. والفئة الثّالثة **بينيّة** ترى ضرورة تقريب المازيغيّة من العربيّة، والتّمكين لها كلغة لا كأيديولوجيّة، ومن الأحسن احتوائها بدل اتّخاذها لبوس الفرنسيّة، وسوف تعود الفرنسيّة من خلالها، وعلينا الاتّعاظ من الإقصاء الذي يولّد التّطرّف، وهذا ما يلاحظ في بعض المناطق من وجود الحميميّة بين الفرنسيّة والمازيغيات في الاستعمال، وفي عدم منع الفرنسيّة، وفي تقريب كتابة المازيغيات بالحرف اللاتينيّ، في حين ترفض بعض الفئات كلّ تواصل بالعربيّة، أو كتابتها بالحرف العربيّ، وهنا الخطر الذي يجب أن نحتاط له في منشئه قبل الاشتعال.

ومن المنطق المتفاوت، والذي لم يقع الفصل فيه في الكثير من العلاجات بما له من حساسيات، وما له من ركام تاريخيّ يصعب علاجه وفتح هذا الملفّ المثقل بحمولته التّراكميّة، رغم أنّ الدّساتير الوطنيّة أبانت عن وصفة مقام العربيّة بشكل صريح، ولم يتّضح الأمر بالنّسبّة للمازيّغية إلاّ مؤخّراً، ومع حسن نوايا السّياسيين في الوقت المعاصر يمكن أن نقول إنّ الملفّ المازيغيّ حالياً حظِي باهتمام بالغ من السّلطة السّياسيّة، ومن بعض النّخبة الوطنيّة البينيّة، وبدأت الكثير من الأمور تعرف الحلول عن طريق تأسيس المجمع الجزائريّ للّغة الأمازيغيّة الذي نروم أن يَقْدُم على خطوات علميّة جريئة في إطار التّكامل الوطنيّ، والنّظرة المستقبليّة التي تدعو إلى الوَحْدة والمصير المشترك، والابتعاد الكلّي عن الإيديولوجيّة التي لا تبني البلاد، كما أنّ الواقع يفرض على جميع الباحثين المستقلّين فكرياً العمل على استجلاء الخلفيات التي انبنت عليها مواقف كلّ فئة بما تراه مناسباً لها، واقتراح خطّة طريق استشرافيّة لهذا الملفّ الذي

يحتلّ مكانة جديدة في حياتنا السّياسيّة والأدبيّة والثّقافيّة في هذه الفترة الزّمنيّة الحرجة.

12 ـ هل المازيغيّة خطرٌ على الأمن اللّغويّ الجزائريّ؟ هناك من يطرح أفكاراً تخوّفيّة من ترسيم الأمازيغيّة لغة وطنيّة، وأنّها سوف تكون منافسة للعربيّة في التّدريس، أو على مستوى الانفصام الشّخصيّ للمتعلّم الذي يكتب بخطوط مختلفة، وبلغات عديدة، وأنّ المازيغيّة لا فائدة فيها ولا تحمل العلم، وسوف تخاطر بالمتعلّمين في ضياع وقتهم... ولا بدّ أن نقول إنّ الأمن اللغويّ جزء من الأمن العامّ، وهو مثل الأمن الغذائي والمائي، وأنّ احتواء اللغات الوطنيّة يدخل في باب الأمن العامّ، وتحتاج المسألة إلى إقامة روافد احتياطيّة وتدابير وقائيّة للمحافظة على التّوازن اللغويّ، والمسألة لا تشكّل الخطورة مطلقاً. فنحن البربر شحّتنا مختلف الأزمات بالثّورات ضد الظّلم، وثرنا ضد المستعمر الرّومانيّ والونداليّ، والفينيقيّ والبيزنطيّ، وقبلنا العرب، ورضينا بالإسلام ديناً، وباللسان العربيّ لسانا ولغة، كما أنّ الإسلام لم ينكر بأنّ ما أثبته التاريخ بأنّ الأصلَ أصلٌ، والفرعَ فرعٌ، والإسلام هو الذي علّمنا بأنّ التّمسك بالإنيّة التي تُعطي مستوى النّديّة، ولم يحصل ما يدخل في باب التّفرقة أو الكراهيّة بين شعبين اتّحَدَا بفعل القرآن الكريم. ولا ينكر عاقلٌ فضلَ اللّغة العربيّة على ساكنة شمال أفريقيا، والذي يشمل بلاد المغرب الأوسط، الذي حقّق المنعة والحماية والأمن بهذه اللغة التي رفعت من ملوكها حتى دخول المستخرب الأجنبيّ الذي عمل على استبدالها بلغته، ودمّر نسيج الأمن اللغويّ بما تركه من خلاف مرجعيّ، الذي كان سبب الخلاف على التّراث والموروث. وأنّ إحياء هذا الموروث بوصفة الأجداد لا يمكن أن يشكّل الخطر، بل يكون مبعث تمتين الوحدة الوطنيّة بتحقيق الأمن اللسانيّ والهوياتيّ حسب مقام كلّ لغة لننطلق لتجسيد مشاريع التّنميّة اللغويّة، وأنّ التّعدّدية اللغويّة قائمة منذ زمان، وهناك شعوب تحتكم إلى أربع لغات رسميّة، وتعيش الازدهار اللغويّ مع ما يقابلها من تعميم اللغات حسب مناطقها، أو تعليم اللغات حسب نفعيتها وقطبها وما تقتضيه المصلحة العامّة. فلا خطورة من ترسيم المازيغيّة، ولا تشكّل خطراً على الأمن العامّ مطلقاً؛ إذا أُحسِن إدارةُ المسألةِ اللغويّة، وقد يحصل الخلاف في المنهجيّة وهذا طبيعيّ جداً، والمهم تسطير الهدف مسبقاً، والاتّفاق على الخطوط التي لا يقع تجاوزها. وبناءً على هذا نرى ما يلي: عدم ربط المازيغيّة باللّغات الأجنبيّة؛ وخاصّة لغة المستدمر (الفرنسيّة) التي تدهورت قيمتها وتراجعت مكانتها بما يتعلّق بالذّكاء الاصطناعيّ والرّقمنة والشّابكة والبرمجيات، والابتعاد عن الثّقافات الأجنبيّة، وبخاصّة ثقافات ما وراء البحر في برامجه التّدريسيّة المتعلّقة بالمعاهد والمدارس والأقسام التّربويّة. وممّا نؤكّده إبعاد المازيغيّة عن الأيديولوجيات الغربيّة، وضرورة ربطها بالدّين الإسلاميّ، وبعادات وتقاليد وأعراف المجتمع الجزائريّ. وكتابتها بالحرف العربيّ لما فيه من ميّزات خاصّة ومرونة لاحتواء الحروف والأصوات، وخير شاهد التّراث الذي وصلنا من الكتب والمخطوطات المترجمة من العربيّة إلى المازيغيّة والمرسومة بالحرف العربيّ، مع إمكانية تحويره في بعض الأصوات، واحتوائه في وعاء الحضارة الإسلاميّة الشّرقيّة، وأن لا تخضع المازيغيّة لموقع المنافسة النّديّة مع العربيّة، وألا تُعطى لها أكبر وأعظم ممّا لا تستحقّ، وأن تلتزم المازيغيّة بمازيغيات الوطن، كلّ منطقة بمازيغيتها في حدود تواصلها تدريساً وإعلاماً لغاية التّوحيد الذي لا يكون بين عشيّة وضحاها. ولا بدّ في هذا المقام من تأكيد جانب التّحلّي باليقظة والنّباهة، والابتعاد عن الخلفيات القوميّة والرّكائز العرقيّة والأطروحات الإيديولوجيّة، وأن يكون الجزائريّ الوطنيّ الغيور مسلّحاً بالعقيدة السّليمة وبالمنهجيّة الأكاديميّة العلميّة، التي تعطي لنا موقع النّديّة التي سُلبت منّا في أيام الاستدمار الفرنسيّ الصّليبيّ الغاشم، وحُوّرت وكوّرت ثمّ أُلبست لباس الوطنيّة الزّائفة، ثمّ صدّرت إلينا باسم العلميّة والموضوعيّة في قالب المعلّمين النّاصحين. لذلك علينا وعلى كلّ من صدّر نفسه لدراسة هذه القضايا أن يكون نبيهاً ذكياً حكيماً ولا يُخدع بالمظاهر وبالشّعارات الرّنّانة، فقد استمال العسكر الفرنسيّون الباحثون ومن سار سيرهم في تصدير المعلومات الكاذبة والمغلوطة لجيل من الشّباب قد مضى، ولكن الشّبهات والأكاذيب باقيّة، ومن هذه الأغاليط بأنّ العربيّة لغة أجنبيّة للجزائريين، وأنّ الفرنسيّة هي اللغة الأمّ... فاقتنع بهذه الدّعوات بعض من الجيل السّاذج، وينطبق عليهم قول (ابن خلدون) المغلوب مولع بلغة الغالب. وأن يكون تعليم وتدريس المازيغيات وفق برنامج تربويّ بحيث لا يؤثّر على الاكتساب اللغويّ، ولا يتصادم تعليمها مع تدريس العربيّة، وخاصّة في المرحلة الابتدائيّة «والحقّ يُقال أنّه من غير المعقول منطقياً/ علمياً/ ديداكتيكياً أن نبرمج ثلاث (3) لغات لطفل في المرحلة الابتدائيّة تزامنا مع

اكتسابه للعلوم المختلفة». وهكذا لن تكون المازيغيّة خطراً على الأمن العامّ إذا التزم الجزائريون بالوطنيّة الصّحيحة، وتحلّوْا بالعقيدة السّليمة، وتولَوْا الدّفاع عن مقدّسات الوطن وهي لغته العربيّة والمازيغيّة، ودينه الإسلام، وحدوده الجغرافية والتّاريخيّة المعروفة بمساحة 2382000 كم2. ومن الضّروريّ بثّ روح ومبدأ أنّنا في الجزائر لا نعيش صراعات وحروباً لغويّةً، ونعرف أنّ العربيّة مكانها التّعليم والإدارة والعلوم الاسلاميّة، وغيرهما من وظائف الدّولة والمعاملات اليوميّة... وأنّنا أمّة واحدة ونطق بها الصّنهاجي المازيغيّ (ابن باديس) «إنّ أبناء يعرب وأبناء مازيغ قد جمع بينهم الإسلام منذ بضعة عشرة قرنا، ثم بدأت تلك القرون تمزج بينهم في الشّدة والرّخاء، وتؤلّف بينهم في العُسر واليُسر، وتُوحّدهم في السّراء والضّراء حتى كوّنت منهم في أحقاب بعيدة عنصراً مسلماً جزائرياً أمّه الجزائر وأبوه الإسلام».

إذاً المازيغيّة تشكّل الخطر إذا لم نقم بحمايتها وتطويرها بما ذكرنا سابقاً، ولم نجعلها تعش ألفة تكامل مع العربيّة لا تنافر، ولهذا، فأيّ قلاقل لغويّة يمكن أن يُدخلنا في حرب اللغات، وهذا ما يجب التّحرّز منه مسبقاً بمعطيات الحماية اللسانيّة الشّاملة التي تأتي من المدرسة، ومن اتّباع وصفة الأجداد؛ كي لا نعيش الحاضر المقلق. وبالفعل فإنّ علامات الخطر في ذات الأمازيغيّة على نفسها قائمة وليس على الأمن العامّ، وهذا ما يهدّدها.

13 ـ المازيغيّة في خطر: سبق أن كتبنا مقالة في ذات العنوان عندما لاحظنا ما يحدق بها من إيديولوجيّة توجيهيّة تصارعيّة، وقلنا إنّ المازيغيّة لا تذهب بعيداً، وسوف تعيش الخطر بحكم بعض العاملين عليها يقومون على إلقائها في الخطر نتيجة الممارسات التي تتعلّق بترقيّة المازيغيّة. وباعتبارنا معنياً بقضيّة المازيغيّة كمواطن ونخبة وطنيّة، والمازيغية أداة تواصل وطنيّ، فالأحرى بها أن تكون في مستوى الحدث الوطنيّ الذي يرجوه المجتمع الجزائريّ، ولا يجوز لأحد أن يقول: دعوا المازيغيّة للمختصّين، أو دعوا المازيغيين للمازيغيين، فمن هؤلاء المختصّون؟ ومن هؤلاء المازيغيون؟ بالفعل يجب أن يكون المنطلق من أنّ المازيغية كان الأحرى أن تُعالج بشكل علميّ من المدرّسين، ومن النّخبة، ومن العلميين، ومن رجال السّياسة ومن يهمّهم الأمر، شرط أن يترفّع المعنيّون عن التّوجيه التّعسّفيّ أو تنميطها تنميطاً لا يليق بمقامها، ولا يلين قناتها أو يكسّر إرادتها، ودون أن يشكّل ذلك عقدة للغة من اللغات المتعايشة في المجتمع الجزائريّ، أو يُحدث صراعاً لغوياً مع اللغات المستعملة في واقعنا، أو يشكّل وجود لغة ما يعني محو لغة أخرى، فنحن لا نعيش حرب اللغات، بل هناك تكامل اللغات، فلا توجد لغة أخذت مواطنة لغة أخرى، لكن توجد لغة مُهينة في الواقع الاجتماعيّ بفعل ما عشناه من استدمار ثقافيّ طويل، فنالت لغتُه (الفرنسيّة) كلّ شيء، وهنا العقدة اللغويّة في وطننا، وهذا هو الوضع اللغويّ الحالي الذي جعل الأمر ينحو نحو التّراجع، فما يزال الوضع يراوح مكانه بعدما أصبحت المازيغيّة في 8 أفريل 2002 لغة وطنيّة، والتّراجع قائم في أنّ تدريسها منذ 1995 يقرّ بحصيلة الانتكاس، وهذا على لسان (يوسف مراحي) من المحافظة السّاميّة للمازيغيّة (يوسف مراحي، جريدة الوطن Watan بتاريخ: 16 أفريل 2010). كما نرى تقاعس النّخبة والانشقاق بينها في الصّراع حول الحرف الذي تكتب به، ومكانها الاجتماعيّ أمام العربيّة، والعربيّة هي اللغة الجامعة كما يقول الأكاديميّ (محمّد العربي ولد خليفة) وتلك رؤية الباحث اللسانيّ (عبد الرّزاق دوراري) في استحالة تشكّل لغة مازيغيّة موحّدة بسبب أنّ العربيّة تلعب دور اللغة المشتركة في الجزائر وفي البلاد المغاربيّة، ومن الضّروريّ. إذاً أن يقع تدريس هذه اللهجات كلّ واحدة في الجهّة التي تتكلّمها... وأمام الوضع العشوائيّ فتح الباب لظهور أفكار غريبة عن المجتمع الجزائريّ. وهنا يأتي الخطر على المازيغيّة من هذه الأبواب:

13/ 1ـ بداية الخروج عن وصفة الأجداد في أنّهم لم يقوموا بترجمة القرآن الكريم إلى المازيغيّة؛ لأنّ اللسان العربيّ كان كافياً ومجيباً عن أغراضهم أكثر من (أموال أومازيغ).

13/ 2 ـ أجدادنا وضعوا سلّماً تراتبياً لوظيفية اللغتين:

13/ 2/ 1ـ العربيّة لغة التّعالي والحُكم والسّلطان والعلم.

13/ 2/ 2ـ المازيغيّة: لغة المِهَن والمحيط الضيّق، ولغة المعاملات البسيطة.

13/ 3ـ تدريسها تدريساً شبه كلّي بالفرنسيّة، ولا أثر لاستعمال المازيغيّة حتى في القوائم الاسميّة للمتمدرسين أو للإعلانات، وتجد نفسك في قسم البربريّة مكرّر قسم اللغة الفرنسيّة.

13/ 4ـ غياب تامّ لحرف التّيفيناغ/ العربيّ في الكتابة في المحاضرات والمحاضر والإعلانات وما له علاقة بجدول النّقاط والامتحانات...

13/ 5ـ مخابر تهيئة وتدريس اللغة المازيغيّة لا توجد فيها المازيغيّة، بل تنميط للفرنسيّة وبالفرنسيّة، وبخطّ اللاتينيّة، وبكلّ إسراف وتبجّح، وما يصحب ذلك من منشورات الأقسام والمخابر كلّها بالفرنسيّة وتجارب فرنسا/ كندا في التّعليميات.

13/ 6ـ أساتذة يعاقبة/ Jacobites أكثر دفاعاً عن الفرنسيّة من ڤولتير/ Voltaire وبقوّة جان دارك/ Jeanne D'arc، ويفتخر ريشيليو/ Richelieu بأنّ لغته تتنفخ في أقسام المازيغيات إلى جانب أقسام الفرنسيّة.

13/ 7ـ عباءة الاحتواء ظاهرة في برنوس لغة المستدمر الفرنسيّ قائمة، ورأينا بأنّ المازيغيّة جميلة ولكنّها أصابها السّل والمرض، انحراف في المازيغيّة كبير، أليس هذا خطراً في ذات اللغة التي يطلب ودّها فيها وليس في غيرها، فهل هذا ما ترتضيه قواعد التّعليم في أيّة لغة؟ وقد بصُرنا بلغات التّضاد فقط: العربيّة ⇔ الفرنسيّة. الفرنسيّة ⇔ العربيّة. **المازيغيّة ⇔ العربيّة الفصحى**. هذه صورة سوداويّة، ولكنّها صورة حقيقية، وفيها خطاب متوارٍ يحمل رسالة كلاميّة بليغة ومباشرة، أمست اليوم أبلغ وأسرع إيصالاً من أيّ تعبير. ومن هنا فما السّبيل إلى إحياء المازيغيّة التي نراها في خطر، وتعيش انتحاراً يومياً، ونشاهد احتضارها جرّاء الممارسات غير العلميّة التي تقوم بها بعض المؤسّسات التّربويّة، أو من يقوم على خدمتها؟ ذلكم ما نقترحه كما يلي:

ـ ضرورة تدريس المازيغيّة بالمازيغيّة على قول العالم اللسانيّ فرديناند دو سوسير/ De Saussure F. اللغة تدرس في ذاتها ولذاتها، وليس من خارجها.

ـ تدريسها بالرّجوع إلى تراثها القديم، وبعث منظّريها الأوائل، وتمجيد نصوصهم وجعلها شواهد على التّقعيد. ويا له من مخزون التّراث المازيغيّ المدوّن في المخطوط العربيّ، وما يزال في التّراث اللغويّ الشّفاهيّ، وتلك المكوّنات المركزيّة في الذات والوجدان الجزائريّ، وما يزال يسهم في تقوية روابط الهويّة والإخاء والتّواصل بين الأفراد والجماعات. وعلى الباحثين النّزول لجمع مدوّنات حكايا الجدّات+ أغاني الهدهدات+ المدائح الدّينيّة+ مدائح الأسواق+ الفكاهات والأحاجي والألغاز... وضرورة النّزول إلى بوادي الجزائر وأريافها واستطلاع مختلف التّكلّمات التي عرفها المجتمع الجزائريّ في مختلف الحقب الزّمانيّة، وإجراء التّحرّيات اللغويّة بالمسْح الجغرافيّ، ووضع أطلس لغويّ جزائريّ، وعقد مقارنات بين مختلف التكلّمات المازيغيّة واستخلاص أوجه الشّبه، والتّحكّم إلى النّظريات اللغويّة المعاصرة والتي تراعي خصوصيات هذه اللغة، وبخاصّة تلك النّظريات المعتمدة في اللغات ذات الأرومة الحاميّة، والتّحكّم إلى القواعد العلميّة فقط، دون إثارة بعض المتعلّقات الخاصّة بالعِرق والعِرقيّة، وعدم إقصاء اللغة العربيّة في دراسة خصائص المازيغيّة التي تشبهها في قواعدها وخصائصها، والتّحكّم إلى النّظريات اللغويّة المعاصرة التي قدّت نتائج نوعيّة في التّهيئة اللغويّة، والاستناد إلى التّجارب النّاجحة لدول عملت على إيلاء لغاتها الوطنيّة المقام الأعلى.

ـ كتابتها بالحرف العربيّ وهو الذي يضمن لها جزأرتها وانتشارها وقبولها لدى كلّ الجزائريين. وهذه مسألة مهمّة جداً؛ لأنّ المازيغيين طيلة 1300 سنة، كتبوا بخطّهم المغربي الشّهير، وكلّ مخطوطاتهم كانت في ذات خطّ العربيّة، ونجد آلاف المخطوطات في الزّوايا وفي المكتبات في الدّاخل وفي الخارج مدوّنة بالخطّ العربيّ، إلى جانب عقود الزّواج والأملاك والمواريث وآلاف الدّواوين الشّعرية، حتى المراسلات والمراسيم في زمن الإمارات والدّول المازيغيّة الإسلاميّة مثل الأدارسة والرّستميين والزّيريين والمرابطين والموحّدين والزّيانيين والمرينيين. وهذا ما يضمن لها الاستمراريّة والنّقلة نحو الرّقي.

ـ تمتين علاقاتها اللغويّة والعلميّة بالعربيّة، ولا مستقبل للمازيغيّة دون العربيّة، فإذا تخلّت عنها سوف تصبح عدماً، وتنقرض مع أوّل خريطة لغويّة في القريب العاجل، وسيكتشف الجزائريون أنّهم غُدروا في لغتهم. والتّمتين يكون في الأخذ والعطاء، وفي التّسامح اللغويّ، وما له علاقة بتقديم اللغة الكبيرة (العربيّة) سُبُل النّهوض للغة مازيغيّة تعرف مبادئ التّهيئة، وعدم نكران التّاريخ المشترك، وعوامل التّأثير والتّأثّر، أو نكران الفضل.

ـ ضرورة استعمال المازيغيّة في المعاملات اليوميّة، وهذا من متطلّبات الغمر اللغويّ الذي يأتي عن طريق اللغة وضع واستعمال.

كلّ هذه الأمور نظرنا إليها من خلال تخطيط سياسة لغويّة جادة تخرج منها سياسة لغويّة تربويّة عبر مراحل تدرّجيّة؛ حيث تنال المازيغيّة تهيئها المرحليّة، ومن ثمّ تكون فيها اللغتان= العربيّة+ المازيغيّة في تكامل علميّ مصلحيّ بعيد عن الصّراعات وحرب اللغات، والهدف هو الاستقرار اللغويّ الذي يجعل الشّعوب تفكّر في البناء الذي يُرسّخه النّظام التّربويّ الشّامل، يقبل المراجعة، ولا يرضى بالتّراجع، وخلالها تحصل فترات التّنقيّة اللغويّة/ الإصلاح اللغويّ/ الإصلاح التّربويّ/ التّقييس

اللغـويّ/ تحديـث المفـردات/ وضع المصطلحـات/ بنـاء القواميـس العامة والمتخصّصة...

إنّ اللغة المازيغية تشكو وتعاني **الخطر** من قبل بعض العامليـن على تنميتها، بل من قبل الموجّهين لهـا وجهة فرنكفونيّة على أنّ تحديثها وتهيئتهـا يمرّ حتماً عن طريـق La Tour Eiffel . وإنّـه لا يمكن لنا أن نذهب بعيـداً إذا وقعَ إقصاءُ عامل من عوامـل الهُويـة الوطنيّة السّـالفة الذّكر، وبالأخصّ الهُويـة اللسـانيّة الوطنيّة، أو ما يمكـن أن نعبّر عنه فـي المصطلحات المعاصرة بالمواطنة اللغويّةLa citoyenneté linguistique . و «هذا هو العمل المطلوب في المرحلة الرّاهنة، والذي يعلو فوق كلّ الأعمال، لأنّه ينصرف إلى تأصيل الذّاتيّة الثّقافيّـة والحضاريّـة للأمّة الإسـلاميّة وتأمين الأجيال الحاضـرة والقادمة ضدّ المؤثّـرات السّـلبية السّـالبة للقيـم التي تكسـب صاحبها القوة والقدرة والمتعة، والتي تهزم في نفس الوقت دواعي اليأس وتطـرد أسـباب الهزيمـة». بل هـذا هو الوعي الحضاريّ الذي يضيف إلى ثقافة السّـابقين أبعـاداً ثقافيّة جديـدة، ويثرى تلـك الثّقافة بآراء وإبداعـات وإضافات عصرية تُذكر بإعجاب وتقدير. وما يمكن أن نقولـه فـي هـذه النّقطـة، إنّ الحفاظ على الهُوية للمرحلة الجديدة مشـروطة بنجاح عملية التّحديث نفسـها، ومراعاة الثّوابت والمتغيّرات في ظلّ الامتياز عن الأغيار في كافـة النّواحي، وهكذا عرف مجتمعنـا المغاربـي الهُويـة الاجتماعيّة التي تكوّنت عبر عصور ضاربة في القدم، امتـزج فيهـا السّـكان بالفاتحين نسـجاً محكمـاً، وطبع هذا النّسـيج الاجتماعي طابعاً خاصّاً، انتموا إلى العروبة اللسـانية فظلّوا أوفيـاء لقوميتهـم الوطنيّة، وحين اقتبسـوا الحضـارة الغربية لـم يقبلوا أن يخضعوا للنموذج الغربي بكلّ تفاصيله، بل حافظـوا على التّقاليـد والأنظمة التي اعتبروهـا تمثّـل خصوصياتهـم، وظـلّ هذا المجتمـع ملتزماً بنموذجه. وإنّ أكبر تهديـد هو خلق هويّـة ذات مفاهيم وقيم هجينـة، تغيب فيـه مقوّمات الشّـخصيّة الأصيلـة، ولـذا يجـب أن تأخذ مسـألة الهويّـة البُعد الرّوحي فـي المقام الأوّل، وبه تتحصّن، ثمّ تأتي المعطيات الأخرى القابلة للتّغيّر مثل التّأقلم والتّطوّر حسب الأحـوال، وهـذا ما يجـب أن يتجسّـد واضحاً في المنظومـة التّربويّة، ولا ننظر إلـى الهُوية على أسـاس أنّنـا نخاف من الذّوبان في الغيـر، دون البحث في كيفية الوقوف في وجه كلّ التّحدّيات، وفرض الوجود الحقيقيّ أمام الصّراع الذي يجب أن نخوضه من موقع التّأثير فيه.

14ـ المازيغيّـة والعربيّـة المسـتقبل المشـترك: إنّ مـا ينتظـر اللغتيـن أعمق بكثيـر من التّحـوّلات التـي عرفتها ولم تعش الصّدامات، ولكن المسـتقبل الآن للغـات التي تعرف العلـم، وللغات التي تُنتجه، فكيف يكون الإنتاج إذا اشـتعلت حـربُ اللغـات التـي تبقينا علـى ذات تخلّفنـا. وكان علينا أن نأخـذ العبرة من نهـوض أوروبـا التي عرفـت الخلافات التّاريخيّة والجغرافيّـة والإثنيّة واللغويّة، وسـادت فيها لغة إيطاليا فـي القرن VIX ، ثمّ الفرنسـيّة فـي القـرن I IVX، ووقع الاهتمام أوّلاً بالعلوم الإنسانيّة، وركّزت على موضوعـات: الحريّـة+ التّعصّب+ التّسـامح+ الاهتمـام بالتّـراث+ خوض ميـدان ثورة البخـار، وكان ذلـك مفتاح التّطـوّر بإحيـاء التّـراث الكلاسـيكي وموطنه إيطاليا، فعملت على إحياء تراث الرّومان، وكان موقع إيطاليا الذي جعلها على اتّصـال بحضارات البحـر الأبيض المتوسّط بهجرة العلماء اليونان إليها من كلّ أوروبـا، ورعاية أمراء إيطاليا للآداب والفنّـون، وإحيـاء الحـركات الأدبيّـة ذات العلاقة بالعلوم الإنسـانيّة والنّهضة المعاصرة بصـورة عقلانيّة... وكان ذلك باب من أبواب ولوج العلوم الحديثة التي جعلت ثورة البخار تشـتعل وتأتي بنهضة لغويّـة فاقـت المتصـوّر. لمـاذا البداية بالعلوم الإنسانيّة؟ لأنّه إذا قوّمت الجانب الرّوحـيّ/ الإنسـانيّ يصبـح الإنسـان مبدعـاً لا آلة. وبذلـك تقـوّت الإيطاليّة وتعولمـت، ثـمّ تقوّضت، ثمّ انتشـرت الفرنسيّة وتعولمت وها هي تعرف أيامها الأخيرة. فما مصيرنا في عالم يعرف هذه التّحوّلات اللغويّة التـي لا تقرّ إلاّ باللغة الأقوى؟ ومصيرنا مشـترك بما نملك من تعدّديّة لغويّة، فهل يقع الثّبات اللغويّ في الزّمن القريب الذي يأتي على دحر لغات لا تنتج العلم وليس لها الإرث الحضاريّ ولا الآداب ومـا يجعلهـا (لغـة الفيـل) بميـزان المنتـوج الضّخـم. وإنّ النّهضة الأوربيّة عبـرة لنا وتجربة إنسـانيّة جيّدة وفذّة وخصبـة، وكان محورها الإنسـان في تقويم سـلوكه قبـل منتوجـه الآليّ، وسيطرته على الآلة لا سيطرة الآلة عليه. وبذلك تحقّق التّراث اليونانيّ والرّومانيّ، ودرس دراسـات وافيّة أخضعتـه للنّقد، ووقـع منه اسـتلهام قيم وأفـكار جديدة أسـهمت فـي إرسـاء قواعـد الحضارة الأوربيّة، وهل نحن فعلنا هذا في لسـاننا المشترك؟ ولهذا نرى بأنّ مصير المازيغيّة فـي العربيّـة التـي لهـا مناعـة الاندماج وقبـول الإنتـاج، وهـي المؤهّلـة لعالم الغـدّ دون غيرها مـن اللغـات الوطنيّة، ويقـول الفرنسـي (لويـس ماسـينيون/ Louis Massignon) «اللغـة العربيّة هي التي أدخلت في الغرب طريقة التّعبير العلميّ، وهي مـن أنقى اللغات؛ فقـد تفرّدت في طرائـق التّعبيـر العلميّ والفنّـي» ويقول

الإسباني (كاميليو جوزي سيلا/ Camilio Gozy Silla) «إنّ لغات العالم تتّجه نحو التّناقض، وأنّه لن يبق إلاّ أربع لغات قادرة على الحضور العالميّ وهي: الإنكليزيّة+ الإسبانيّة+ العربيّة+ الصّينيّة. وعلينا إذاً استلهام تلك البدايات للنّهضة العربيّة التي كانت بالعلوم الإنسانيّة، ومنطلقها الطّهطاوي+ الأفغاني+ محمّد عبده... وهذا الرّعيل قطع شوطاً كبيراً في عملية التّحديث في البنيات الفكريّة العربيّة العتيقة بفكر مستنير؛ عبر خلق توافق بين متطلّبات الحياة المدنيّة المعاصرة، وبين الدّين الإسلاميّ وقيمه السّمحة، وهذا الدّين مدنيّ يقبل المتغيّرات ويتفاعل معها، وكانت العربيّة تغرس الثّقافة العربيّة الوسطيّة من خلال الشّعر العربيّ واللغة العربيّة، وذلك ما جعلها تستلهم الحضارة الشّرقيّة في جانبها الإنسانيّ بداية بالفلسفة والمنطق والتّصوّف والأدب، ثمّ الفلك والطّبّ والرّياضيات والجغرافيّة، وكان العقل مبدعاً منفتحاً على معارف متنوّعة بدل الذّوبان في فكر فارس/ تركمان/ هنود/ مازيغيين. فما هي اللغة الاستثنائيّة التي يمكن أن تجد عمقها في المخاض القادم؟ لا شكّ هي اللغة العربيّة دون غيرها؛ لأنّها لم تعرف الذّوبان، بل صدّرت المعارف لأوروبا بمميّزاتها وبالفكر الفلسفيّ والرّياضيّ من أرسطو إلى بطليموس، وكانت حركة التّرجمة واعيّة، ووصلت مع نهاية القرن X إلى نهايتها بعد أن استنفذت موادها، وبدأت الأعمال الأصليّة تظهر وتزداد، وكان توسّع الفكر العلميّ متمشياً مع انتشار الإسلام واللغة العربيّة بصفتها لغة تواصل جديدة/ Lingua Franca بامتداد كبير وصل إلى الصّين، وأزاحت لغات كانت قويّة مثل السّريانيّة واليونانيّة والبيزنطيّة والرّومانيّة. إذا المصير المشترك للغتين الوطنيتين يكون تحت (عباءة) هذه اللغة المشتركة التي تحمل الاستعدادات الذّاتيّة والخارجيّة لمعركة الغدّ؛ معركة النّهوض اللغويّ.

15ـ ما هي هُويتنا التي ندخل بها هذا العالم، ونحتلّ موقعنا في ساحته؟ وهذا هو السّؤال المهمّ، فهل يكون انتماؤنا إلى المجموعة الغربيّة، وهل نملك تلك المقوّمات التي نتطبّع بها في تلك المجتمعات؟. ومن المعروف أنّ كلّ حضارة تعبّر عن هُويات واضحة، وأنّ الحضارة الغربيّة حضارة بعيدة عنّا قلباً وجسماً وهي التي أثارت النّعرات القبلية باسم الحضارات القديمة، والتّراث القوميّ للشّعوب، وأكبر سبّة أن تنتسب إلى مجتمع لا تحمل محدّداته وصفاته الجوهريّةَ، وقد جربنا الاستعمار الذي يستهدف سلب الهُويّة ويستهدف تغيير الخريطة السّياسية، كما أنّه لا يترك لك حرية التّفكير، بل يشدّك إلى ما يريد أن تفكّر فيه، ثمّ لا يمكن أن يقبلك بسهولة إلاّ على أساس أن تكون العبد الذي يُؤمر فيُطيع (الانسلاخ عن الإنيّة) أو ننتمي إلى المجموعة الشّرقيّة (الإسلاميّة) وهل لنا مقوّمات هذه المجموعة، ومن هذا الانتماء في الحقيقة أو ذاك نكسب الهُويّة. وعلينا الاعتراف بالواقع، لأنّ التّفاعل الإيجابيّ بين المازيغيين والعرب تطلّب منّا مواجهة المستقبل معاً، ومسألة الأعراق مسألة يصعب البتّ فيها أمام التّمازج الحاصل بين الشّعبين اللذين لا يمكن الفصل بينهما بأيّ معيار كان، فقد حصلت المصاهرة والتّداخل فلا يمكن إدراك الأثيل من الدّخيل، ومن هنا تكون المواجهة بالعمل لمستقبل واحد ومصير مشترك. والحقيقة هذا ليس مصير التّعايش، بل هو أمر واقع؛ لأنّ أصالة الدّم والسّاكن الأصيل واللغة الأمّ مسائل مبهمة، فالباحث فيها مثله مثل الذي يبحث عن العنقاء في أرض الغول. ويؤسفني مرّة أخرى أن نبحث هذه المسائل؛ لأنّها أصبحت من الأبحاث التي لا فائدة من ورائها لعدم دقّة النّتيجة، وأنّها لا تطرح على مستوى الشّعوب المتقدّمة التي اندمجت في ما بينها رغم التّباعد الدّينيّ واللغويّ بينها (أوروبا بلا حدود مثلاً) لكنّها تطرح عندنا بشكل حادّ، أليس من باب الغيرة أن نبحث في فضح مخطّطات التّنصير باسم استعادة الهُوية المازيغيّة، وهي الأجدر أن نعطي لها أهميّة قصوى لما تمثّله من خطورة على كثير من المستويات. وهكذا نرى أنّ مسألة **الهُوية اللغويّة** مفروغ منها؛ فهناك تعايش لغويّ منذ دخول الفاتحين هذه البلاد، فلقد تخصّصت كلّ لغة بمجال معيّن، وما حدث صراع يمكن الإشارة إليه، فهنا نقول: إنّ المازيغيّة والعربيّة صنوان متكاملان غير متصارعين يكمّلان بعضهما البعض ويتوجّهان لمستقبل مشترك، ووحدة المصير فأَنْعِمْ به من تكامل!

ومرة ثانية لا نطرح خطاب وعظ، وإنّما نريد خطورة ما قد ينتج من بعض الخروقات من طفح الشّباب وقد يؤثّر على العلاقات بين الأفراد داخل المنظومة الاجتماعيّة الواحدة، وبذا نرى ضرورة استجلاء جوانبه، والتزام فقْه الدّعوة، إلى جانب وقفة جادة تُعيد الأمور إلى نصابها، وتضع الحدود الفاصلة بين ما يجوز البحث فيه، وما لا يجوز، وما يمكن أن نعمل على مراجعته، وما لا تجوز فيه المراجعة، وهذا عملنا جميعاً بدءاً من شيخ الكتّاب، إلى معلم المدرسة، إلى التّاجر، إلى المسؤول، وإمام المسجد، **ويزع الله بالسّلطان ما لا يزع بالقرآن**. ويجب أن يتجسّد الخطاب

الدّينيّ والمدرسيّ والأدبيّ والنّفسيّ والاجتماعيّ والعلميّ في أنّ المعطيات الجديدة والعولمة تفرض علينا التّعامل مع غيرنا، بَلْهَ الحديث عن العلاقات بيننا، وتجبرنا على إقامة علاقات صحيّة مع الآخرين المختلف معهم لغةً وتاريخاً وحضارةً، وتلحّ على فتح أبواب الحوار ورفع الحواجز، والقفز على حدود الزّمان والمكان، وإلغاء الخصوصيات، وبناء علاقات إنسانيّة وحسن الجوار؛ فالشّعوب تتقارب أو توشك على ذلك، وتلتقي على أمرٍ قد قُدر، كما تعولَمَ النّسيج البشريّ رغماً عن الانعزال في حوزات مغلقة بعيداً عن تجارب الآخرين، فلا بدّ أن ننفتح على بعضنا، ونقبل بعضنا البعض، ونتكيّف بإرادتنا أفضل من أن تُفرض علينا أشياء ربّما لا تليق بمقاسنا ومقامنا.

16ـ اللغة العربيّة لغة جامعة: إنّ اللغة رابطة جماعيّة مجتمعيّة بامتياز، «ولم توجد ليتفرّد بها شخص دون آخر (حتى حين يبدع فيها وبها) بل إنّها **خير** يعمّ جماعة المتكلّمين بها والمتعلّمين لها، في **نظام لغويّ عالميّ متحوّل**، يتأسّس على التّواصل والتّبادل عبر اللغة قبل غيرها من الوسائط، وعلى علاقات متشابكة **غير متكافئة** وغير عادلة بين اللغات **وديناميّة** تتحدّد فيها المواقع اللغويّة، بحسب صعود اللغة في النّظام الهرميّ أو المجرّة أو الكوكبة، نتيجة صعوديّة عدد متكلّميها ومستعمليها ومتعلّميها، أو ضمور قيمتها العدديّة أو النّوعيّة، كلازمة لعزوف النّاطقين بها أو النّاطقين بغيرها عن توظيفها واستعمالها، أو تثمّن قيمتها الهوياتيّة/ الرّمزيّة، أو ضمور إرادتهم في الحفاظ عليها وتعزيز بقائها». ولهذا يحتاج الأمر اللغويّ إلى حسن تدبير شؤون اللغة/ سياستها التي تتعلّق بالحكّام/ الشّعوب/ الهيآت/ النّخب/ المنهاج/ المنهج/ الكلفة الماليّة... ومن خلال ما نعرفه من وضع لغويّ تعدّديّ، إلاّ أنّ السّياسات اللغويّة تتطلّب إقامة التّوازنات بين الالسّن، عبر قوانين استعمال اللغات، وعبر المراسيم. فنجد قانون تعميم استعمال العربيّة يقرّ بالعمل على تطوير العربيّة في التّبييئ اللغويّ الهُويّ، ويعني صدارة العربيّة في مجال التّعدّد، وهذا ما كان يجب أن تعمل الحكومات على إقرار سياسة لغويّة عادلة متماسكة ومواطنة. وعندما ننظر في العربيّة بما لها من عدد النّاطقين بها، والمساحة الجغرافيّة في القارات الخمس، وفي الجانب الدّينيّ والرّتبة الأمميّة، وعدد مستعمليها في الشّابكة، والزّيادة البشريّة المتسارعة، وعدد الجامعات والحضارة الشّرقيّة والمكتسبات القبليّة، والآفاق الواعدة... وهذه بشائر خيْر، ويعني العربيّة بخير، وليست مهدّدة في بقائها في المدى المنظور، وهي لغة تواصل عالميّة لكتلة بشريّة مهمّة تهيئ مستعمليها للاستفادة من خيرات هذا الوضع اللغويّ المتميّز. وهذا ما يجعلها في بلدنا تأخذ معايير التّدبير اللغويّ المجتمعيّ، وتحمل بنى المجتمع المزوغيّ والعروبيّ في سياسة مقاربة إدماجيّة (inclusive) طوعية ديمقراطيّة، تتعايش فيها الالسّن دون إقصاء، وتقام فيها توازنات معقولة يتبنّاها المواطنون، وتجد فيها المكوّنات اللغويّة المختلفة مكانة تراعى فيها العدالة والنّجاعة، وتمكّن المواطنين من تحديد الاختيارات والاستفادة من الفرص اللغويّة الموضوعيّة بأنّ العربيّة هي اللسان اللغويّ الجامع؛ بحيث يشترك فيه مختلف مستعملي التّنوّعات اللغويّة، وأنْ لا تنافر مبدئياً بين هذا اللسان والسّن الهويّة الأخرى التي يغتني بها وتغتني به، ولا تنافر بين تقويّة اللسان العربيّ وتقوية تعلّم اللغة/ اللغات الأجنبيّة. وهنا الوصفة النّموذج التي نروم أن تقوم على تدبير لغويّ يقوم على التّماسك، التّنوّع، التّعدّد، مع تحديد الخطط والطّرائق والشّروط التي تضمن النّجاح، مع ما يصحب ذلك من قوانين تزيد من تمتين هذه الفوارق المتّحدة. إذاً، **اللسان العربيّ يجمعنا**، وهذا ما تؤكّده الممارسات اليوميّة التّواصليّة أنّ الجزائريين موحّدون باللسان العربيّ بسجّلاته وأساليبه وتنوّعاته الفصيحة والدّارجة والمتوسّطة، وأنّ التّداول الدّيمقراطيّ والتّواصل الفعليّ مع مختلف طبقات الشّعب يتمّ بهذا اللسان المتنوّع، ولا يتعذّر التّواصل به إلاّ في حالات أقلّيات قليلة، ومن كبار السّن. هو إقرار بالواقع وإنصاف للمواطن في عروبة مزوغيّة مركّبة ذات رمزيّة متراكمة زادت من تمتين المصالح بلسان مشترك؛ لسان التّواصل عند الأغلبية السّاحقة. ومن خلال هذا؛ نجد تشكّل العروبة اللغويّة التي نالت الانتشار بسرعة مع السّاكنة الذين تعرّبوا ولكنّهم حافظوا على لسانهم. ولكن العربيّة تحوّلت إلى اللغة الإداريّة والأدبيّة والدّينيّة وعمّت وانتشرت، فتبنّت النّخبة الثّقافيّة اللغة العربيّة لغة للثّقافة والعلم.

وهكذا انتشرت العربيّة في شمال أفريقيا على مراحل متّسعة زمنياً، انتشرت كلغة تواصل، وإن كان السّكان الرّحل احتفظوا بلغتهم المازيغيّة حتى القرن 11م، عندما دخلت قبائل بني هلال وبني سليم المغرب الكبير. «وهذه القبائل قدمت من شمال الجزيرة العربيّة، ومن سوريا، ولحقت بها قبيلة ثالثّة من أصل جنوبيّ، قبيلة معقل. وقد قدر عدد

القبائـل المهاجرة بمليون وعدد سـكان المنطقة بـ6 ملايين». والمهمّ في كلّ هذا أنّ التّعريـب مسّ بلاد المغارب بشـكل شـبه كلّـي، ولعبت فيـه الـدّول البربريّة الصّنهاجيّة والمصموديّـة والزّناتيّة دوراً مهماً في تسـهيل الاختـلاط والاندماج، ابتداء مـن القـرن 7م عبر المعسـكرات والمدن، وهـذا التّعريب هـو الذي حدّد الهويّة اللغويّة المغاربيّة في اختيار لغويّ تـمّ بقناعة كبيـرة. وها نحن فـي وضعنا نـرى العربيّة فـي تاريخها القـوّي برزت كلغـة قويّة شـاملة، وعاشـت الكثير من الصّراعـات وخرجت أكثر قـوّة من ذي قبل، ونراهـا الآن تتصـدّر الرّتب ضمن اللغـات العاليـة الكبرى، وتجعـل منها سلعةً مُربحة لا مبخوسـةً، وأنّ موجَباتها أكثـر مـن نواقصهـا، وأنّها لغـة الإعلام بفضائيات عربيّة واسعة الانتشار، والتّأثير في الإعلام العربـيّ والدّولـيّ، وما يتبع ذلك من الصّحف المعرّبة بأرقام مبيعات مدهشـة، فهناك علامات قويّـة تدلّ على أنّ اللغـة العربيّـة عُملـة يُطلـب ودُّها، وهي سِـلعة مُربحـة، ومنتوج مسـتقبليّ صاعد فـي عالم المعلومـات والاقتصاد المعرفيّ. مـع ما لها مـن نقائص، وهذه موجـودة في كلّ اللغـات، وعلينا العمل على تجاوزهـا وتدبير شـؤونها بجديّة، وبسـهولة كبيرة يمكن تجـاوز النّقائص عند معالجة ضمـور أدوات البحث فيها، وإقامة معرفة لسانيّة متقدّمة، بسدّ المنتظر من الذّخيرة اللغويّة، والمعجم التّاريخي للّغة العربيّة، ومشـاريع المكانز الكبرى، والمشاريع اللغويّة الطّويلة المدى. وهنا كان على المعرّبيـن أن ينهضوا ويعملوا، وأن يخرجـوا مـن القـول إلـى الفعل، ومن (يجـب الذي يجب) إلـى المنتوج الملموس. وماذا نقول إذا عجز المعرّبون عـن تدبير شـؤون العربيّة، يعنـي العجز عن تدبير شـؤونهم الخاصّـة. ولا يمكن أن ترتقـي العربيّة وتبقى لها سـلطة اللغة الجامعة إلاّ بالتّغلّب على المشـاكل التي تحول دون تطويرها، ويكون بمرجعيات ديداكتيكيّـة منضبطـة في عـلاج علميّ يربط التّـراث بالحداثة، وبخلق ديناميات تفاعليّة من مرجعيـات اللغات المتقدّمة بما يجعلها تصمد في المنتديات العلميّة الدّوليّـة. وعلـى النّخبـة المعرّبـة أن تكـون على وعـي أنّنا بحاجـة إلى نخبة تخـدم العربيّة بـأدوات تعليميّـة جذّابة، وبمناطيق معاصـرة، وتطبيقات بسـيطة تحلّ مشـكل المعاجم المدرسـيّة وتسدّ نقـص المصطلحـات العلميّـة، وتعمل على إقامـة بنوك النّصـوص/ النّصوص المُحلّلـة، ووضـع ضوابـط المُدقّقات اللغويّة... ولننهض بلغتنا في مشـروعها الحضاريّ علينا خوض ثورة هوجاء على الممارسـات المتحجّـرة وغيـر المنتجة التـي تجـذّرت عنـد النّخبـة المعرّبـة، «ولا بد مـن تكوين نخبـة معرّبة جديدة تبتعد عن الأسـاليب المتجـاوزة، وعلى رأسـها التّباهي بالعلم من أجـل تمييعه، والسّعي إلى الكسـب بدون عمَلٍ فِعْليّ. ونحتاج كذلك إلى إقامـة محتوى عربيّ ومرجعيات عربيّة ومراتب معرفيّة عربيّة، إسـهاما في بنـاء اقتصاد معرفـيّ عربيّ، وتقوية فرص الشّغل للمعرّبين. وإنّ كثيراً من المعرّبين يمكـن أن يفيدوا في ارتقاء اللغة العربيّة، إن هـم ابتعدوا عن الأنانيّة مـن أجل خدمة هـذه اللغة، بمـا وهبهم الله مـن معرفـة أو تقنيّـة دون أن يلجوا مجـالات لا يقـدرون عليهـا، وإنّ لمن شـروط التّعريب المواكب أن تثبت قيمته في التّعجيم، وأن يتـمّ ذلك عبر الجماعة في شـبكات اتّصال وتعاون، خدمة لهذه اللغة». **اللغـة العربيّة لغة جامعة**، بالفعل، فهـل يمكن أن نواجـه العولمـة بغيرها، وهل اللغات الوطنيّـة الأخرى يمكن أن تبقى في مرتبـة النّديّة؟ هنا التّموقع الذي يجب أن نَعْلَمَه في إطـار التّغوّل اللغويّ الـذي لا يمكـن أن يكـون إلاّ بالعربيّة، وهي المؤهّلـة للبقاء والتّجاور والتّعايش والتّمـدّد فـي النّظـام اللغـويّ العالميّ وموقع الكوكبة اللغويّة الجيوستراتيجي. واللغـات كما نعلم «تتحـرّك في أنظومة لغويّـة عالميّة محكمـة بعلائق وضوابط بعيـداً عـن أن تكـون وليـدة الصّدفة/ الاعتبـاط وهي أنظومـة هرميّة أسـفلها لغات الجماعات الصّغيرة أو الهامشيّة أو الرّبضيّـة (Peripherale) وهي بالآلاف وإن كان عدد مسـتعمليها لا يتعـدّى ٪10 من البشـريّة وقوّتها أنّها لغـات ذاكرة وزاريّة وسـرديات وأحاديث شـفويّة بالأساس، وليسـت لغات تدوين أو كتابـة أو قراءة، وقليل أن يحـدث الاتّصال بين جماعات متكلّميها، بـل إنّهم يضطّـرون من أجل التّجـارة والإدارة والتّبادل أن يتعلّموا لغة مركزيّـة (Centrale) تربط بيـن جماعات أكبر، فـكأنّ الرّبضيات أقمار تلتفّ حول كوكب هـو المركز، وهنـاك حوالي 100 لغة فـي النّظـام العالمي تحتـلّ المواقع المركزيـة ويسـتعملها حوالـي ٪95 من البشر، وهي لغات التّعليم الأساسيّ على الخصوص، وربّمـا الثّانـويّ أو العاليّ، وهـي لغـات الصّحـف والمنشـورات والكتب المدرسـيّة والأدب، والإذاعات والفضائيـات، وجلّهـا تسـتعمل فـي السّياسـة والإدارة والمحاكم وتعدّ لغات (وطنيّة/ رسـميّة) وتستعمل في التّدوين والأرشـفة وكتابـة التّاريـخ وفـي أمّات الكتب والقصص والوسائط الإلكترونيّة حديثاً». والعربيّة من هـذا النّوع الأخير، علمـاً أنّ اللغـات الرّسـميّة عالميـاً جدّ محـدود، وموقـع العربيّة فـي كوكبات اللغـات المركزيّة ثابـت، ولا تتجزّأ من

النّظام اللغويّ لكبرى اللغات الرّسميّة/ الأمميّة. وهذا ما يجب عِلْمُه أنّ بقاءنا يرتبط بالكوكبيّة اللغويّة المعاصرة التي تُعطي صفة النّديّة التي لا نجدها حالياً في المزوغة، ونجدها في الفرنسيّة ولكنّها منقوصة؛ بحكم عدم نيل المقام بما لنا من تاريخ غير لاتينيّ، ومنشأ غير غربيّ، ودين غير كاثوليكيّ... كما لا نجد هذا المقام في اللهجات والدّوارج، ولا في لغات العلم الأخرى التي ليست منّا، فهي لن تقبل بنا، ولو أنفقنا عليها ما أنفقنا، فتكون عوناً لها لصالحها وليس لنا. ولهذا؛ فإنّ تعميم استعمال اللغة المشتركة هي سبيلُ الثّبات وفرض الوجود وطريق الإبداع، ولا يكون إلاّ بالعربيّة، وعلينا العمل بالتّماسك والتّعريب الشّامل الأفقيّ والعموديّ في سجل لغويّ لكافة المواطنين، وهذا لا ينفي المازيغيات على أنّها لسان حال بعض السّاكنة، ولكن لا تكون المازيغيّة اللغة الوحيدة في سجّلهم اللغويّ، بل تكون بعروبة اللسان أيضاً.

وللخروج من عنق الزّجاجة تجدر العناية بمواصلة تعميم استعمال العربيّة في الإدارة وفي التّعليم العالي، فذلك ما يزيل فتيل الحروب اللغويّة/ الصّراع اللغويّ، لوجود خلاف فكريّ بسبب عامل اللغة، ونخبوية المشرّع/ المسؤول. وإنّ تعميم استعمال العربيّة كان عليه أن يكون شاملاً؛ يشمل جميع المواد بما في ذلك المواد العلميّة والتّقنيّة، دون انغلاق تدريس هذه المواد في بعض الوحدات باللغات القطب في حدود المعارف الأوليّة ذات العلاقة بالمحدّدات المصطلحيّة، وأن تكون لغة الشّرح هي العربيّة. ولا بدّ أن نخرج من مرحلة الشّك/ عدم جاهزيّة العربيّة لتدريس العلوم بها، فهل الفنلديّة/ الرّومانيّة/ اليونانيّة/ المجريّة/ الكوريّة/ الهنغاريّة... أفضل من العربيّة في هذا المجال؟ وهذه اللغات غير مصنّفة في التّرتيب العالميّ، والعربيّة أعلى منها في كلّ شيء، لكن أين الخلل؟ بعد بداية التّعميم ستظهر فجوات ضعف كميّة مفردات المعاجم المتخصّصة+ نقص المدرّس+ ضعف المراجع العربيّة+ غياب لغة العلم في العربيّة... هي من الطّبيعي أن تكون لأنّ العربيّة لم توضع في الاستعمال، فكيف بها أن يتربّى فيها المصطلح ويستعمل وينال الانتشار وهي لم توضع في الحمام الاستعمالي. سنُعالج هذه الثّغرات، والمهمّ أن نبدأ، والطّريق تصنعه الأقدام.

وما يجب أن نكون على دراية به هو أنّ هذا الضّمور في المعارف التّواصليّة للعربيّة كان بسبب الإقصاء والقهر اللغويّ الذي مورِس عليها منذ الاحتلال الأجنبيّ، ولم تنل حظّها ومكانتها في العلوم وأصبحت لغة غير علميّة لعدم تنامي العلوم فيها، وهذا أمر بدهي، وربّما يدخل هذا في حرمان المواطن من نيل العلوم بلغته، ولذلك ينظر لها بعين الانتقاص، وعلى ذلك يتأسّس عنده منطق تصنيف لغته في خانة، واللغات الأخرى في خانة، بمبدأ النّفعيّة العلميّة لغة أدبيّة= لغة متخلّفة. لغة علميّة= لغة راقيّة. وتكون لغته في سلّم لغات الرّبض، فلا فائدة من ضياع الوقت في تعليمها، وفيها سجل التّماهي مع دينيها وهذا يكفي. وإنّ ضمور المعارف التّواصليّة جزء من قيمة اللغة في مقارنتها باللغات الأخرى، وجزء من قياسها ومقارنتها مع لغات التّدريس/ وسائل التّواصل اليوميّ/ لغات الحضارة، وهذا ما يعطي القيمة الحقيقيّة لمقام أيّة لغة، وهذا يتنافى مع الدّيمقراطيّة والحقوق اللغويّة التي يجب أن تؤدّى للمواطن بلغته الأمّ التي هي منعته وملجؤه وبيته وحصنه الممانع. ويتأسّف المتعلّم لما يرى أنّ لغته لم تنل المكان في القرار السّياسيّ/ الاقتصاديّ/ سوق العمل، غياب الهويّة العروبيّة اللغويّة/ الهويّة العربيّة الإسلاميّة/ نقص الثّقة في اللغة الأمّ/ عدم شموليّة التّعميم الأفقيّ والعموديّ... كلّها مثبطّات تعمل على إذكاء مواطن السّلبيّة لدى أهلها، وماذا نقول عند غير أهلها. ومن غير المعقول أن نسير في مجال العلم دون الرّجوع إلى الواقع ونبتعد عن التّجارب العالميّة وإلى العدالة وتكافؤ الفرص بين الشّعب ونخبه المسيّرة بتبنّي نظام لغويّ مفروض في التّعليم الجامعيّ والبحث العلميّ تكون اللغة الأجنبيّة فيه هي لغة التّدريس أو البحث الوحيدة في مختلف العلوم، وهذا غير مقبول، وليس من الطّبيعيّ أن تكون العربيّة هي لغة كلّ المجالات، بل أن تنال حِصَصاً في كلّ سنة، وعبر مراحل تدرّجيّة لغاية التّعميم الذي لا يعني الانغلاق، وذلك خطير أكثر، بل أن تكون وصفة التّفتّح على تعدّدية لغويّة أجنبيّة مدروسة للانتفاع من كلّ لغات العلم.

وما يجب أن نَعْلَمَه أنّه لا نهضة ولا منفعة مع التّبعيّة اللغويّة، وأنّ الحجر اللغويّ ضمن لغة واحدة لا يلبسنا طاقم التّقدّم. وعليه، ندعو إلى سياسة لغويّة عربيّة ربيعيّة تكون تكملة للاستقلال الاقتصاديّ بقرار وطنيّ ينفي الرّشد اللغويّ الذي وقف حجر عثرة في وجه التّحرّر الثّقافيّ والعلميّ واللغويّ. وعلينا واجب النّهوض باللغات الوطنيّة بما لها من عدّة، وما سوف تكسبه من عتاد ذاتيٍّ، وما سوف تكسبه من لغات أخرى، وهذا ليس بالأمر الصّعب. وعلينا واجب النّهوض بالقوّة والفعل تجاه

اللغة المشتركة التي تعمل على توحيدنا والدّفع بمقامنا مع الشّعوب الأخرى، ومع اللغات التي لا ترحم اللغات الضّعيفة. وإنّ سبُل النّهوض باللغة المشتركة تكمن في الخروج من طوْق الفرنكفونيّة التي جعلتنا دون صفة لغويّة مائزة، وعلينا تعميم لغتنا في التّعليم العاليّ والتّقنيّ في إطار تعدّديّ نفعيّ، واتّخاذ سياسة تعدّديّة في التّعامل مع اللغات الأجنبيّة، وفسح المجال أمام لغة أجنبيّة ثانيّة بدءاً من المرحلة المتوسّطة، ولغات أجنبيات أخرى في المرحلة الثّانويّة وفي الجامعة، والانفتاح على المازيغيات درساً وتدريساً، إلى جانب الحقّ في اختيار اللغة الأجنبيّة تكون لغة التّدريس من بين اللغات الثّمانيّة (8) لغات العلم المعاصر.

وكان علينا تأكيد الحقّ اللغوي للعربيّة في الإشهار والإعلام والإدارة، وتأكيد تمتّع المواطن بانتشار لغته المشتركة في كلّ المجالات، وفي فرص العمل، ولا يكون كلّ هذا في صميم العربيّة إلاّ إذا أتقنّا فنّ أدائها في التّدريس وفي التّبليغ، وهو المدخل الرّئيس لكلّ النّجاحات؛ باعتبارها لغة التّماسك الهُويّ. وعليها أن تكون في مستوى هذا التّماسك بما لها من حمولة ثقافيّة وتاريخ طويل، وماضٍ مُغدِقٍ، وحاضر مُشرِقٍ، وما لها من أثر في الدّاخل والخارج، وما تعرفه من تبادل علميّ مع المؤسّسات ذات العلاقة. وعلينا بناء مشاريع التّطوير اللغويّ بما يستجيب لتطلّعات الواقع اللغوي بالعربيّة وفي ذاتها، واستغلال إمكانيات هذه اللغة في بزوغ أكبر الفضائيات العربيّة وأجودها وأكثرها مصداقيّة في نقل المعلومة، إلى جانب التّنظير الشّبكي لشبكات التّواصل الإلكترونيّ، وهذا العقد شهد ارتفاعاً منقطع النّظير لمستعملي الشّابكة باللغة العربيّة. فهذه اللغة لها إمكانات عدديّة هائلة. وإنّ آفاق النّهوض اللغويّ من جديد واعدة، وعلينا فقط الوعي بما يسّرع الخطو، وما يوصل إلى الهدف بأقلّ جهد وتكلفة، وعندما تُسند الأمور لأهلها أبشر خيراً بأنّ المسائل العالقة سترى سبل الخروج من النّفق. وأنعمّ به من تنوّع لغويّ عربيّ مزوغيّ! ونروم من الذين يهمّهم أمر المواطنة اللغويّة أن يقدّموا لنا أفكار تدبير الحقل اللسانيّ الجزائريّ في تعدّدية مضيفة متماسكة تُخرجنا من الإلغاء والسّلبيّة إلى باب التّكامل الذي تُرسّخه الممارسات الاصطلاحيّة والمعجميّة والتّوليديّة، وإقدارهما على التّرجمات البينيّة؛ بالرّفع من حيويتهما ووظيفيتهما الحياتيّة. ومن الضّروريّ دعم جهود الباحثين في اللغتين تنظيراً وتطبيقاً، من أجل خدمة المواطنين المتعلّمين بها، من أبناء الشّعب والنّخبة ليعمّ الخير بهما في مختلف المستويات الاتّصاليّة والحضاريّة والاقتصاديّة والسّياسيّة والهّوياتيّة.

ـ الخاتمة:

لقد سعينا من خلال هذه المقاربة تأكيد ذلك التّمتين والتّفاعل الحاصل بين العربيّة والمازيغيّة عبر التّاريخ؛ لأنّ ثقافتنا مشتركة نحن الجزائريين، وقد انبنتْ في الأصل على الثّقافة المازيغيّة المركّبة من المازيغيّة والعربيّة، ومن ثقافة الإسلام، وهذه الرّوابط كثيرة وكبيرة. وهذا ما تُظهره الدّراساتُ التي أبانت عن تجاوز بُعد التّثاقف/ Acculturation التي تعني الاقتباس لبعض السّمات اللّغويّة/ الثّقافيّة/ العادات والتّقاليد، فقد تجاوزت صورة الأخذ، لدرجة المزج والتّصاهر والتّبادل، وهذا ما حصل لدى الفاتحين المسلمين وساكنة شمال أفريقيا، والذي تحوّل بعد هذا الزّمان الطّويل إلى المزج الكلّي الذي لا يمكن خلاله التّفريق بين السّاكنة؛ من التّفاعل الإيجابيّ في كلّ القضايا، فتكاد الفروق تنعدم في بعض المقامات. وكان علينا الوعي بمسألة مهمّة، وهي المازيغيّون/ البربر هم الذين تبنوْا العربيّة عن قناعة، فمازيغيون كُثّر تعرّبوا، وبقيت الخصوصيات اللغويّة قائمة في مقاماتها المناسبة، وذلك ما أعطى للسّجّل اللغويّ التّعدّديّة المفتوحة التي تضع كلّ وسيلة اتّصال في محلّه، وتجسّد ذلك في أطالسّ جغرافيّة مناطقيّة في أداءات مازيغيّة، ولغة عربيّة مشتركة تُعدّ اللغة الأمّ الجامعة. وكان ذلك عنصراً من عناصر الوَحْدة المتكاملة غير المتنافرة. وهو نوع من التّكامل اللّغويّ الطّبيعيّ، الذي أعاد اللغتين إلى مُكوّناتهما النّحويّة والصّرفيّة والدّلاليّة والمعجميّة، هذا ما تظهره طبيعة اللّغتين من حيث الأرومة والنّشأة والتّبادل اللّسانيّ؛ لأنّ المنطلق واحد، والتّكامل كان موجوداً في أصل وضع اللّغتين. ومن هنا يجب الوعي بأنّ المسألة اللّغويّة لم تكن محلّ صراع بتاتاً؛ فقد حدثت وضعيات تعايش تامّة. وصاحبها الرّأي القائل بأنّ حضارتنا حضارة شرقيّة لا غربيّة، كما أنّ أيام الشّدة حدثت هجرات إلى المشرق لا إلى الغرب، وهو شعور العودة إلى الأصل. كما أنّ هناك مباعث الاعتزاز الكثيرة التي يجب الافتخار بها على غرار كتاب (مفاخر البربر) فكيف كان أجدادنا أسوداً في الحروب، وكيف عملوا على حبّ العربيّة، والاعتزاز بالمازيغيّة، وكيف عمل ملوك البربر على إنزال العربيّة المقام العالي، وعملوا بها في دولهم ولم ينسوا التّمزيغت/ المازيغيّة؛

فكانت لغتهم الوظيفيّة التي يستعملونها في مناسبات تليق بها، وهذا مبعث الاعتزاز الذي كان عند السّلف، فكيف لا يتكامل أو يتعزّز أكثر عند الخلف، فلمَ لا يكون للسّابق فضل التّأسيس، وللاحق فضل التّطوير. ولهذا علينا الوعي بالمطلب الهُوياتيّ عند بعض العناصر التي تعمل على تغييب هذه المكوّنات لإحداث قلاقل تشقّ المواطنة اللّغويّة، وهذا يستلزم مرّة ومرّات الدّعوة إلى مزيد من التّأديّة الجماعيّة لتعميق التّكامل، وتصحيح الوضع اللغويّ الإلغائيّ، والتّركيز على التّعايش اللّسانيّ، وإظهار مواطن القوّة في هُوياتنا، وتكون قراءاتنا قراءات مضيفة لا تحريضيّة، وعدم القياس على الظّواهر الانعزاليّة الفرديّة، والإقرار الحقيقي بأنّ ساكنة شمال أفريقيا تبنّوا الإسلام عن قناعة، وتعلّموا الدّين الإسلامي بتدبّر وورويّة، ونشروه خارج مواطنهم، وجعلوا لغة الإسلام تنال الصّدارة، مع ما تلاها من حصول الوئام والتّناسق والتّجاور بفعل الإسلام الموحّد الذي يرفض الاعتداء مهما كان نوعه.

وفي الحقيقة بأنّ العربيّة والمازيغيّة ليستا في حالة تعايش، بل في حالة تبادل دائم، وما ينقص هو العمل على تجسيد الإسمنت الوطنيّ كإسمنت حديديّ يُقوّي العلاقات بين أفراد المجتمع الواحد كما قال Schnaper ومع ذلك يجب تجسيد هذا المبدأ عبر التّنشئة الاجتماعيّة، وتغذّيها المدرسة مهما تعدّدت السّنة تلاميذها، وتضفيها جمالاً مؤسّسات الدّولة ذات العلاقة، وتسعى إلى ثبْت المُكوّنات الوَحْدويّة المُجسّدة في السّلوك الاجتماعي؛ لأنّه عندما ترتبط اللّغة بهُويات وطنيّة لا يمكن أن تحصل الفُرقة ولا الضّغينة ولا الخلاف، وقد يحصل الاختلاف المنهجيّ لكن الهدف واحد. ومن هنا، يبدو لنا بأنّه يجب أن نستثمر في المطلب الوطني المازيغيّ بإجراء تكييفيّ يؤدّي إلى التّوازن والانسجام مع الرّاهن والمستقبل. ومن الضّروريّ المحافظة على الخريطة اللّغويّة المعاصرة بتكييف نفعيّ غرضه توزيع استعمال لغويّ نفْعيّ يَتَمَشى وتطلّعات السّاكنة. وفي كلّ هذا لا بدّ أن نصنع الكثير من التّسامح اللّغويّ؛ وصولاً إلى حسن التّأديّة بغية التّكامل، والحَذَر من ميكياڤيليّة عدو الأمس التي تسعى إلى إيجاد الفواصل والتّباعد اللغويّ والدّينيّ، وإعطاء أمثلة/ نماذج ضيّقة لمعاملات الأفراد على أنّها نماذج ثابتة ومعاملات يوميّة احتقاريّة للسّاكنة، وهذا ما رسّخته هذه الميكياڤيليّة= التّمييز+ تعدّد الأعراق+ النّزوح+ عرب+ بربر+ أقلّيات+ مهاجرون+ بدو... ومع كلّ هذا، فإنّه لا بدّ من الخروج من فكر الانغلاق القوميّ/ الهُوياتيّ، وعدم القفز على الحقائق، والإقرار بالهُوية الوطنيّة المازيغيّة، والتفتّح على اللّغات الأجنبيّة، وهي ضرورة قصوى تُمليها علينا آليات الانسجام الجمعيّ الوطنيّ؛ سعياً إلى بناء مستقبل يتجاوز العقبات اللّسانيّة.

وبهذا طبقت شهرتهم الآفاق، إذ يستحيل أن تقرأ في فنٍّ من الفنون العلميّة، دونما أن تجدَ من جهابذة أعلامِه وفحول علمائه شيخًا بربريًا مبرزًا.

أ. د .صالح بلعيد
رئيس المجلس الأعلى للّغة العربيّة

المصادر

1. عبد القادر الفاسي الفهري، اللسان العربيّ: بين التّماسك والتّنوّع والتّعدّد. مقالة في الشّابكة 61 جويليّة 1202.
2. صالح بلعيد، المازيغيّة في خطر. مخبر الممارسات اللغويّة في الجزائر. الجزائر 2102، منشورات المخبر، جامعة تيزي-وزو.

اللّغة العربيّة عند المُلوكِ البربر بدول المَغْربِ الأوَسَط (الجزائر)

د. عبد النّاصر بوعلي
جامعة تلمسان

عندما أدْرَكَ البربرُ بساطةَالدّين الوافدِ إليهم، اِجتهدوا في فهمِه، والتّعرُّف على مبادئِـه، فأقبلوا على العربيّـة يتعلّمونَها لبلـوغ غايتهـم، وقـد أذهـلَ الإقبـال التّلقائـي على الإسْـلامِ، بهذه السّـرعة المؤرّخيـن الغربيِّيـن، الَّذيـن لاحَظوا أنّ الإسـلامَ والعربيّة قد قَضيا بسـهولةٍ على المُحاولات التـي بذلتها اللّاتينيّة، والمسـيحيّة خـلال قـرونٍ طويلـة، لربطِ مصير الشّـمالِ الأفريقـي بأوربا. ولسْـنا في حاجةٍ إلى الإلحـاحِ على أنّ وضوحَ العقيدة الإسـلاميّة وبسـاطتِها دفعت البربرَ إلى الإقبالِ على الإسـلامِ واِعتناقـه. ومن أهـمِّ العَوامل الأخْرى التيأسـهمت في تحبيب العربيّـة للبربر أيضًـا العدالة والمُسـاواة التي نادى بها الإسـلامُ، والتـي أعطت حـقَّ الخِلافة لكلِّ مسلمٍ تتوفَّر لديْه الشّروط المطلوبَة بغـضِّ النَّظر عن عِرْقِه، كما كان من حقِّ البربـر أنْ يثوروا على الخَليفةِ إنْ خالفَ تَعاليم الشّريعة.

بعـد أنْ أقبـل البربـرُ على الإسـلام بشَـغفٍ، اتَّجهـوا إلى لغةِ الإسـلام التي كان تعلّمهـا جـزءًا مـن دينهـم الجديد. «فبعد أنْ حقَّق حسّان بن النّعمان غايتَه في نشر الأمْن والاسـتقرار في ربوع الشّمالِ الأفريقي، عمل على نشر الدّين الإسلامي بين البربر، فوزّع الفُقهاءَ إلى سـائرِ أنحاءِ البـلادِ لتَعليـم النّـاسِ قواعدَالدّيـن من عباداتٍ ومعاملاتٍ وأحكامٍ، ونشـرِ اللُّغة العربيّـة، فأقبـل البربرُ على الإسـلام في حَماسٍ منقطعِ النّظير، وحَسُن إسلامُهم»، وبذلك وجدتِ العربيّة بصحبَة الإسـلام مكانًا في قلوب ساكنة الشّمال الأفريقي، وفي ذلـك يقولَ الشّـيخ محمّد البشـير الإبراهيمي: «وعَـرفَ البربرُ على طريقِها ما لمْ يكونوا يَعرفون، وسِعَت إليها حكمةُ اليونان تستجديها البيانُ، وتستدعيها على الزّمانِ، فأجْدت وأعدَت، وطار إلى البربر منها قبسٌ لم تكـنْ لتطيّره لغـةُ الرّومان، وزاحَمـت البربريّـة علـى السّـنةِ البربر، فغلبت وبزَّت، وسـلَّطت سـحرَها على النّفوسِ البربريّة فأحالتّها عربيّة، كلّ ذلك باختيار لا أثَرَ فيه للجَبْرِ».

عواملُ إقبالِ ملوك البربر على ترسيمِ اللُّغة العربيّة في مماليكهم:

إنّ تعريـبَ بـلادِ المغربِ الأوسـط (الجزائـر) تحقَّـق نتيجـة تَضافـر عدَّة عوامل من أبرزِها:

1 – اقتناعُ البربر بأنَّ العربيّة ضَروريّة لفهـم الإسـلام، والإبـداع مـن داخلِ الحضـارةِ العربيّـة الإسـلاميّة، بحيثُ تحوّلَ هذا الاقتناعُ إلى شُـعورٍعام طاغٍ، لم تستطعْ اقتلاعه الجهودُالتي بُذلت في فتراتٍ تَلتْ الدّول التي نشأت بالمغربِ الأوسـط مـن مُرابطيـن، وموحّديـن، وحمّاديـن وزيّانيين وغيرهـم، بحيثُ يمكـنُ القـول إنَّ العربيّة دخلـتْ فيما يُعـرفُ فـي علـم النّفـس باللّاوعـي الجَماعـي. فهذه كانت نقطـةُ الارتكاز الرّئيسـيّة التـي مهّدت الطّريـقَ لنجاح باقي العوامل، وهذا هو وجهُ الاختلاف الرّئيسـي مع ما حدَث في باقي المناطقِ مـن العالـم التـي قبلت الإسـلامَ على نَحوِ ما حَدث في بـلاد فارس، والتّركِ، والهِنْـدِ، ولكـن دون لغتِـه، فأصبحت مُسـلمةً ولكن بدون عربيّة، ممّا جعلها دائمًـا خاضعـة لسـيطرة التّرجمَـة، والوسـاطة التـي يمثلُّها بعـضُ العلماء المتمكّنين من اللُّغةِ العربيّة.

عندمـا نتحـدّثُ عـن التّعريـب في بـلادِ المغـربِ الأوسـط، فالمقصـودُ تعريـب الثّقافـة العالمة التي تسـتخدم اللُّغة العربيّـة كأداة للتّواصلِ، والبحثِ المَعرفي، والتي أبدعَ من خلالها سكّانُ المغربي العربي وشـاركوا بشكلٍ فعّال في بناءِ الحضارةِ العربيّة الإسـلاميّة منذ القرن الثّاني الهجري.

إنّ قضيّـة تبنّي اللُّغـة العربيّة من لدُن المُلوك البربر في دولِ المغربِ الأوسطِ، تنسـجمُ مع المُعطى التّاريخـي الثّقافي للمنطقـةِ، وإنَّ اللغـةَ العربيّةاِرتضاهـا سـاكنةُ المغـرب العربـي عمومًـا منذ الفتوحـاتِ لتكـونَ لغة الثّقافـة العالمة بـدونِ مُنازع، وأنّ تَجـاوز هذا المُعطى هو ما يثير التّساؤل والاستغراب.

2 –الحاجةُ إلى لغة مُوحِّدة لتجاوز حالة التّعدُّد اللُّغوي السّائدة في المِنطقة، والتي لم تساعدْ القبائل في التّوحّد تحتَ رايّة نظام سياسي واحد، فكلّ واحدة تَرى أنّ لغتَها هي الأصل وترفضُ الخضوعَ للأخرى، لذلك وجدت في اللُّغة العربيّة المَلاذَ، لتحقيق الهدف المرجو، خاصَّة أنها لغة مُتعاليّة عن البُعد القبلي، اِختارها الله لتكونَ لغة رسالتّه الأخيرة إلى البشريّة.

3 – لقد أكَّد غيرُ واحد من المُؤرِّخين أنَّ سكَّان الشّمال الأفريقي إنّما نزَحوا من بلادِ العرب، يدعِّم ذلك التّلاقي في العديدِ من العاداتِ والتّقاليدِ في الملبسِ، والمَأكلِ، والمعاش، وهو الأمر الَّذي لم يكن قائمًا في بلاد الفرسِ مثلا، أو الأتراك، ولذلك فإقبالُ البربر على تبنّي اللُّغة العربيّة إنّما كان لوجودِ تلك العلاقات العِرْقيّة القديمة، بين السّكّان الأوائل للمغربِ العربيّ من جهة، وعرب الجزيرة من وجهةٍ أخرى، فالمتّفقُ عليهِ لدى جمهور المُؤَرّخين أنّالبربرَهاجروا من جنوبِ الجزيرة العربيّة، عبر بابِ المندب فالحبشة، فالسّودان، فالصّحراء، وفي مسار آخر عبر سيناء فمِصر. وأهمّ عنصر بقي عبر التّاريخ يؤكِّد هُويّة السّكان هو اللُّغة، فاللُّغة البربريّة لغة عرُوبيّة، تشير إلى جذور سكّان الشّمال الأفريقي.

تُشيرُ الدّراساتُ أنَّ اللُّغة العربيّة الأمّ انتشرت من الجزيرةِ العربيّة قبل آلافِ السّنين وتفرَّعت إلى لهجاتٍ، عمَّت الوطنَ العربي، بل وانتشرتْ في قارّات الدّنيا: آسيا، وأوربا، وأفريقيا، بل واجتازت المُحيطَ الأطلسي إلى أمريكا، حيث أوصلها الكنعانيّون. لقد عمَّت اللغة الآراميّة العروبيّة الدّنيا وصارت هي اللُّغة الكونيّة من نهر الهَندوس وحتّى أوربا، وقد رأي عالمٌ فرنسي بأنّ العربيّة هي أمّ لغات وثقافات البحر الأبيضِ المتوسّط، الَّذي يعتبر شمس الحَضارة الإنسانيّة. كما أنّ الأديان السّماويّة الثّلاثة أنزلت باللّغة العربيّة: التّوراة بالكنعانيّة، والإنجيل بالآراميّة، والقرآن الكريم بالعدْنانيّة.

4–كون العربيّة لغة دين ودُنيا، فالواقعُ يقول إنّ «العربيَّ الفاتح لهذا الوطن جاءَ بالإسلام ومعه العدل، وجاءَ بالعربيّة ومعها العلمُ».

5 – اشتغالُ البربر بمناصب هامَّة في مراكزِ الحُكم التي كانت تتعاملُ باللُّغة العربيّة، ذلك أنّ المسلمين الفاتحين لم يكونوا متعصِّبين فقد أفسحوا المجالَ واسعًا للبرابرة المُسلمين في تولِّي المناصب القياديّة، والقيام بالفتوحات الإسلاميّة.

6 – اختلاط الأنساب، حيث إنّ البربر«اختلطوا بالعرب وتزوَّجوا معهم، فاتّخذت كثرة من الأسر الإسلاميّة الجديدة أنسابًا عربيّة ليدخلوا في الأرستقراطيّة الحاكمة».

7 – أصبحت العربيّة هي لغة التّعامل بين الأندلسِ ودول المغرب العربي، بفعلِ آصرة الدّين فهي عند المغاربة أقوى من غيرهم، ولعل إحساسهم المتواصل بالمسؤوليّة في حمايّة ثغور الغرب الإسلامي من الخطر المسيحي بعد سقوط الأندلس، هو ما حفزهم على التّشبّث باللُّغة العربيّة والحرص على إتقانها وإجادتها، وصيانة تراثها اللُّغوي والأدبي.

8 – تشابه العنصر البربري والعربي في نمط الحياة من بداوة قبليّة ورعي، وفي هذا يرى ابن خلدون: «إنّ البربر أشبه الخَلق بالعربِ»، وكان هذا التّشابه عاملًا من عوامل الاندماج بين الجنسين، وكان من المُمكن أنْ يؤدّي هذا الاندماجُ إلى ذوبان العرب في البربر لولا أنّ اللقاء كان في إطار الإسلام والحضارة العربيّة الإسلاميّة، وبذا كان هذا الاندماج مشجِّعًا على تعريب أكثر البربر في المغرب.

ولقد أشادَ ابن خلدون بخلُقِ البربر بتبنّي تعليم الإسلام، وحملهم لأحكامه وشرائعه بصدق فقال:«وأمّا إقامتهم لمراسم الشّريعةً وأخذهم بأحكام الملّة، ونصرهم لدين الله، فقد نقل عنهم من اتّخاذ المُعلمين لأحكام دين الله لصبيانهم، والإستفتاء في فروض أعيانهم، واقتفاء الأئمة للصّلوات في بواديهم، وتَدارس القرآن الكريم بين أحيائهم، وتحكيم حملة الفقه في نوازلهم وقضاياهم، وصياغتهم إلى أهل الخير والدّين من أهل مَصرهم، التّماسًا في آثارهم وسوءًا للدّعاء عن صالحيهم، وإغشائهم البحر لفضل المُرابطة، والجهاد وبيعهم النّفوسَ من الله في سبيله وجهاد عدوّه مايدلّ على رسوخِ إيمانهم وصحّة معتقداتهم، ومتين ديانَتهم».

1 –العربيّة عند ملوك المُرابطين (460= 1056م/ 541 هـ=1147م)

1 –1: دولة المُرابطين:

المُرابطون دَوْلةٌ إسلاميّة بَربريّة حكَمت شَمال غرب أفريقيا والأَندلس، اِمتدَّ حكمُها من شمال غرب أفريقيا إلى شبهِ الجزيرة الإيبيريّة وجنوب الصّحراء. اتّخذت في بدايّة عهدها فاسَ عاصمةً لها بين 1056–1086م ثمَّ انتقلت العاصمة إلى مرّاكش، ووصلَ نفوذهم إلى تلمسان. يرجعُ أصل المُرابطين إلى قبيلة لَمْتُونَة –المشهورة في بلاد موريتانيا– والتي دخلت الإسلامَ في القرنِ السّابع

الميلادي. بينما يرجع أصلُ التّسميّة إلى أتباع الحركة الإصلاحيّةالتي أسّسها عبدُ الله بن ياسّين في منطقة التيدَرَة شمال العاصمة الموريتانيّة نْواكْشُوطْ، والّذي قاد حركة جهاديّة لنشر الدّين، وكان رجالُها يلزمون الرّباط (يُرابِطونَ) بعد كلّ حملة من حملاتهم الجهاديّة، بدأت الحركة بنشر الدّعوة في الجنوبِإنطلاقًا من شَنْقِيطْ، بدأ المُرابطون بنشر دعوتهم بين القبائل البربريّة في موريتانيا وكذلك بين الأفارقة بمناطق جنوب الصّحراء. وفي سنة 1054م تمكّنوا من إخضاع سَجل ماسة في الشّمال وبعدها أوداغُشْت سنة 1055م في الجنوب، وبهذا أصبحت طرقُ القوافل التّجاريّة التي تَعبُر الصّحراء تخضعُ بالكامل للمُرابطين.

1 –2: أَبْرَزُ ملوكِ المُرابِطين:

1 – أبو بكر بنُ عمر (448هـ – 480هـ)

2 – يوسُف بنُ تاشفين (480هـ – 500هـ

3 – على بنُ يوسُف (500هـ – 537هـ)

4 – تاشفين بنُ على (537هـ – 541هـ)

5 – إبراهيم بنُ تاشفين (541هـ، وتوفي سنةَ تولّيه)

1 –3: مجالات اهتمامهم بالعربيّة:

كانت دولةُ المرابطين تقوم على اِزدواجيّة أحد طرفيها الفقهاء، والطّرف الآخر القبائل الصّحراويّة، وهي ازدواجيّة تجلّت في علاقة عبدالله بن ياسّين بيحيى بن إبراهيم الدّكالي، ثمّ سار عليها فيما بعد أمَراء المُرابطين وفقهائهم، ولا مُغالاة في القول أبداً بأنَّ دولةَ المُرابطين دولةُ فقهاء، ولم تكن القبائل الصّحراويّةالتي قامت على اكتافها الدّولة إلّا جهازها التّنفيذي.

أدّى الفقهاءُ المرابطون دورًا أساسيًّا وفعّالاً في توجيهِ السّياسة المُرابطيّة بالاتّجاه الّذي يرونه يتمشى ويتناسب مع اتّجاهاتهم الدّينيّة فلقد كان لهم باعٌ طويل في اتّخاذ القرارات السّياسيّة والدّينيّة التي كانوا يملونها على الأمير علي بن يوسف بن تاشفين، ولعلَّ ذلك ما أسهمَ في الدّفع إلى اتّخاذِ المرابطين من العربيّة اللُّغة الرّسميّة في البلاد، وكان لذلك تأثير كبيرٌ في تعريبِ منطقة المغرب العربي، وهيّأته لأن يُصبحَ مركزًا هامًّا للعلوم، والحضارة خلال القرون التي تَلت الدّولة المُرابطيّة، وقد اعتنى السّلطان يوسف بن تاشفين بوظيفة الكتابَة بالخطّ العربي فاستجلب الكتّابَ من الأندلسِ إلى بلاد المغربِ العربي، وقام ابنُه بتطوير ديوان الرّسائل، وكان عُلماء اللُّغة يُحْظوْن بالمَكانةِ العليا لدى أمَراء المُرابِطين.

اِهتمَّ المُرابطون بالتّعليم ونشره منذ اللّحظة الأولى التي ارتبطوا بدعوة عبد الله بن ياسّين، وأخذوا يُقبلون على الكتاتيب والمَدارس في شَغفٍ، واعتنوا بنشرها وليس أدلَّ على ذلك من أنّ عبد الله بن ياسّين قبل سفرهِ للمشرقِ قد حفظ القرآن الكريمَ وجوّدَه، وألمَّ بقدر من علوم الدّين واللُّغة العربيّة، بنحوِها وصرفِها وبلاغتها، وحفِظَ أشعارَ العربِ وحكمهم وأمثالهم.

وعندما اِحتكَّ المُرابطون بحضارة الأندلس، تفتّحت أمامهم آفاقٌ جديدة في العلم، وبدأوا يتعلّمون من الأندلسيّين الّذين عُرفوا بحبّهم للعلمِ وشَغفهم الكبير بالتّعلم، وتقديسهم للعربيّة، فاهتمّوا بتربيّة أبنائهم وتعليمهم منذ نعومَة أظافرهم على الفَصاحةِ وحبّ اللُّغةِ العربيّة.

كان المُرابطون يرسلون أبناءَهم إلى الكُتّابِ الّذي يسمّونه «بالمَحَضْرة»، أو «المْسِيدْ»؛ لحضورِالتّلاميذ إليه، ولكونه يحضّرهم ويهيّئهم للتّعليم المتوسِّط، أو العالي، وكلمة المَحَضْرَة مازالتّ مُستعملة إلى اليوم، في مناطقِ تلمسانالتي أقام فيها المُرابطون كتاتيب بجانب الجامع الكبير مازالتّ قائمةًإلى ليوم، كما يَستعمل سكّان الجزائر في العديدِ من الجهات كلمة» المْسِيدْ» للتّعبير عن المدرسَة.

وكان النّاسُ في العَهْدِ المُرابطي يُراقبون تعليم أولادهم ويختبرون حقّهم، ولا يُقبلون عذرَ المؤدّب إذا أهمل أو قصَّر، ويجلس بعض الآباء بالقرب من المَحَضْرة ينتظرون خروجَ أولادهم، ومنهم من يدخل بين الفينة والأخرى يسأل عن شيءٍ، ويرون ضرورة استعمال السّيرة في تعليم هؤلاء الصّغار حتّى يتعوّدوا من صغرهم على العِلم، وأن يتعلّموا أشعارَ العرب ونوادرهم وقصصهم لما فيها من العِبرةِ والتّعلّم.

أما المواد التي كانت تدرّس لهؤلاء الصّغار في المرحلة الأولى، مرحلة الكُتّاب، فهي:

القرآنُ الكريمُ الّذي جعلوه أصلًا من التّعليم.

اللُّغةُ العربيّة نطقًا وكتابةً.

النّحوُ والصّرفُ والبلاغةُ.

الخطُّ والهِجاءُ، وحسن الألفاظ في القراءة، وتجويد التّلاوة.

أشعارُ العرب وآدابهم، ونوادرُهم وقصصهم.

وكان القاضي أبو بكر بن العربي يرى «تقديم العربيّة والشّعر على سائر العلوم، لأنَّالشّعر ديوان العرب، ثمَّ ينتقل منه إلى الحساب فيتمرّن حتّى يرى القوانين، ثمّ ينتقل إلى دروس القرآن الكريم، فإنّه يتيّسر عليه بهذه المقدّمة، لأنّه من

الصّعب أن يؤخذ الصّبّي بكتاب الله، يقرأ ما لا يفهم، فيكلّ ويتعب عن فهم غيره، ثم بعد ذلك ينظر في أصول الدّين، ثمَّ أصول الفقه، ثمّ الجدل، ثمّ الحديث وعلومه، ونهى مع ذلك أن يخلط في التّعليم علمان إلّا أن يكون المتعلّم متقبّلًا لذلك، لجودة فهمه ونشاطه وذكائه».

في هذا العصر شهدت الجزائر ازدهارًا ثقافيًّا كبيرًا، كما تطوّر المجال الفكري بشكل ملفت للنّظر، ففي القرنين الثّاني والثّالث للهجرة، ظهر نوابغ من أهل البلاد الجزائريّة بتشجيعٍ من ملوك المُرابطين، جمعوا بين مختلف المجالات الثّقافيّة والعلميّة. وممن عرف في ذلك العصر أذكر:

– الشّيخ أباالسّهل: البارع في اللُّغتين العربيّة والبربريّة

– يهود بن قريش التّاهرتي الذي كانَ متضلِّعًا في عدَّة لغات، كالعربيّة والبربريّة والعبرانيّة، والأرمنيّة، والفارسيّة، وقد اهتمَّ بالبحث المقارن في اللُّغات، وسعى إلى إنشاء أسس النّحو التّنظيري (المُقارِن).

2–عند ملوك الموحِّدين (515هـ=1121م / 674هـ= 1275م).

2 –1 دولةُ المُوحّدين:

دولة المُوحّدين هي دولةٌ إسلاميّة تأسَّست في عام 515هـ/ 1121م على يَد المهدي بن تومرت، وهو من سُلالة بربريّة، تُنسَب إلى جماعةٍدينيّة تُؤمن بأنَّ اللههو وحده فوق التّشبيه، وهم يُنزِّهونه عن كلِّ تشبيه له بالخَلْق، وقد ضمَّت دولة المُوحّدين في أَوْج ازدهارها مساحة جغرافيّة كبيرة؛ حيث شملت المغرب العربيّ (المغرب والجزائر وتونس وليبيا)، وامتدَّت من مصر إلى الأطلسيّ، بالإضافة إلى الأندلُس.

2 – 2 أبرزُملوك الموحّدين.

– المَهْدي بن تومَرت:

هو محمّد بن عبد الله بن وجليد بن يامْصال المشهور بالمهدي بن تومرت، من هرغة إحدى قبائل المَصامدة البربريّة في السّوس الأقصى، حفظ القرآن الكريمَ في سنٍّ مبكّرة، وتمكَّن من تحصيل قدر كبير من العلوم والمعارف. بدأ رحلته العلميّة من الأندلس، حيث تتلمذ على يدِ العديد من علماء زمانِه في قرطبة، مثل القاضي ابن حمدين الّذي كان من أكبر علماء الأَندلس في ذلك الوقت. ثم سافر إلى مصر، واستقرَّ بالإسكندريّة، كان من المُواظبين على حضور محاضرات الإمام أبي بكر الطّرطوشي. ثم توجَّه بعد ذلك إلى الحجاز وبلاد الشّام متّخذًا منها طريقًا نحو العِراق، حيث تلقّى العلم هناك على يد الكثير من العلماء الكبار من أبرزهم أبي حامد الغزالي. وأثناء رحلته هذه لاحظ بن تومرت حالةَالضّعف التي أصابت المُسلمين، سواء في أراضي الخلافة العبّاسيّة أو الأراضي التي كانت تابعةً للدَّولة الفاطميّة. ما جعله يتبنى منهجًا إصلاحيًا خاصًّا، ويفكِّر في إقامة دولة إسلاميّة تضمّ أقاليم العالم الإسلامي.

– عبد المُؤمن بن علي (487هـ/ 1094م – 558هـ/ 1163م)

كان الخليفة المؤسِّس لدولة الموحّدين وحكمها من العاصمة مراكش من سنة 1147 م وحتى 1163 م. وطبّق ما أخذه من سلفه من فقهٍ ظاهري وفكر أشْعري، فكان أوّل من وحّد كامل السّاحل المتوسطي من مصر إلى المحيط الأطلسي فحكمها دولة واحدةً وضمَّ إليها الأندلس، وجعلها تحت عقيدة واحدة وتحت حكومة واحدة.

وهو عبد المؤمن بن علي الكومي، ولد بهُنَيْنٍ من ولايّة تلمسان التي كانت تابعة لدولة المُرابطين. وفيها نشأ وتعلّممبادئ القراءة والكتابة، ودرس شيئًا من الفقه، والسّيرة النّبويّة، وفي تلمسان تلقّى العلم على عدد من كبار العلماء، في مقدمتهم الشّيخ «عبد السّلام التّونسي» إمام عصره في الفقه والحديث والتّفسير، ثم استعدَّ للرّحلة إلى المشرق؛ طلبًا للمزيد من المعرفة.

وقبل الرّحيل سمع بوجود فقيه جليل يتحدّث النّاس عن علمه الغزير، فاشتاق إلى رؤيته، فاتّجه إليه حيث يقيم في بلدة «مَلّالَة» القريبة من بِجايّة عاصمة الدّولة الحمّاديّة. وفي هذا اللِّقاء أُعجب عبد المؤمن بشخصيّة ابن تومرت، وغزارة علمه، وفصاحة لسانِه، وقدرته على حشد الأنصار والأتباع، وتخلَّى عن فكرة السّفر إلى المشرق، ولزم ابن تومرت، ودرس على يديْه، وكان عالمًا كبيرًا وفقيهًا متبحّرًا.

توثّقت الصّلةُ بين الرّجلين، ثم غادرا مَلّالة، واتَّجها إلى فاس، وفي أثناء الرّحلة لم يكفّ المهدى عن الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، حتّى وصلَ إلى مدينة فاس، فأقام بها يدرّس العلمَ إلى سنة (514 هـ/ 1120م)، ثمَّ ارتَحلَ ومعه عبد المؤمن بن علي الكومي، إلى مرّاكش عاصمة دولة المُرابطين، فأقاما بها في ربيع الأوَّل 515 هـ/ 1121م. وهنا وجد ضالتّها فأقاما دعوتهما، وتمّ تأسيس دول الموحِّدين.

وقد تتابع على حكم دولةالموحّدين ملوكٌ من ذريّة عبد المؤمن بن عليّ ومن أشهَرهم:

- أبو يَعقوب يوسف بن عبد المؤمن، الَّذي قرَّب إليه العلماء، ورفع قدرهم، وشجَّعهم على العمل، والإنتاج، وبذل لهم الأموال، ووسَّع لهم في العطايا، والمنح، والهدايا؛ ليتفرَّغوا للعلموالتّعليم، وقد كان يُكرمهم غايّة الإكرام، ولو كانوا من خصومِه، وهو الَّذي عفا عن ابن رشد القرطبيونِدِمَ عن التّنكيل به، بفعل الأكاذيب التي لفّقها له بعض خصومه من الفُقهاء.

- أبو يوسف يعقوب بن يوسف المنصور، كان مهتمَّاً باللُّغة العربيّة؛ لأنَّها لغة القرآن الكريم، كما أنَّها من اللُّغات العلميّة المنتشرة في ذلك العهد. وليس أدلَّ على اهتمامه باللُّغة العربيّة من أنَّه طلب إلى «المدرِّسين بالمدارس أن يجمعوا بين علوم الدّين وعلوم اللُّغةوالطّبيعيّات ». ودعَّم حركة التّرجمة، والتّأليف.

- محمّد النّاصر بن يعقوب بن يوسف، كانمهتمَّاً بالأدب عامَّةً، والشّعر خاصَّةً، وكان يصاحب الشّعراء، ويصطفيهم، واستوزرَ الكثير منهم.

- يوسف المستنصر، كان شاعراً جزيلاً، يحبُّالشّعر كثيراً ويحفظه، وغالباً ما يُلقى في مجالسّه ويتغنى به ويردِّده، وكان يهتم بالتّعليم وبالعلماء كثيرًا.

- إدريسُ المُؤمن. كان كثيرَ العنايّة بالأدب عامَّةً، محبًّا للشّعراء والعلماء، وكان يصاحبهم في حَلِّهِ وترحالِهِ.

- عبدُ الواحد الرّشيد: سار على شاكلة أسلافه يشجّعُ العلماء، واهتمَّ كثيرًا ببناء الجوامع والكَتاتيب.

2 -2 مجال اتُاهتمامهم باللُّغة العربيّة:

أدركَ ملوكُ الموحّدين أهميّة اللُّغة العربيّة في التّعليم الدّيني بُغيّة حشْدِ الهِمم، وإيصال الدّعوة المُوحِّديّة لشُعوبِ المَغربِ العربي والأندلس، فانكبّوا على تعلُّمها وتَعليمها. وقَد بالغَ عبد المؤمن بن علي، وخلفاؤه في التّعليم الإجْباري، وكانَ على كلّ من انْضَوى تحت رايّة الموحّدين أنْ يتعلّم العربيّة ويحذقها، ويكتسب الفصاحة والخطّ، ويتعلّم علوم العَصر من فقه، وسيرة، وتفسير، ولم يقتصر دور التّعليم الدّيني على الرّجال، فقد كانت النّساءُ يشاركن الفقهاء في نهضةِ العلوم الدّينيّة والدّنيويّة.

أنشأ الموحّدون الكتايبَ في كلِّ مكان لتعليم العربيّة وعلومها، وبنوا مدرسة لتعليم المِلاحة بمدينة الرّباط، وأخرى لتخريج الموظَّفين بمراكش.

كان عبد المؤمن بن علي يربِّي الحفّاظ، وهم من صغارَالطّلبة بحفظ كتاب (المُوطأ) وتواليف المَهْدي، وكان يُدخلهم في كلِّ يوم جمعة بعد الصّلاة داخلَ القصر، فيجتمع الحفّاظ فيه، وهم نحو ثلاثة آلاف كأنّهم أبناء ليلةٍ من المَصامدة وغيرهم، قصَدَ بِهم تعليم العربيّة، وسرعة الحفظ والتّربيّة على ما يريده، وكان يأخذهم يومًا بتعليم الرّكوب، ويومًا بالرّمي بالقوس، ويومًا بالعوْم في بُحيرة صنَعها خارج بُستانه، ويومًا يأخذهم بأن يحدّقوا على قوارب صنعها لهم في تلك البُحيرةِ؛ وكانت نفقتهم وسائر مؤونتهم من عنده، وخيلهم وعددهم كذلك، ولمَّا كمل له هذا المُراد فيهم عزل بهم أشياخَ المَصامِدة عن ولايّة الأعمالِ والرّئاسة وقاللهم:«العُلَمَاءُ أَوْلَى مِنْكُم فسَلّمُوا لَهُمْ».

اِمتازت مدارسُ المُوحّدين في عهدِ عبد المؤمن بن علي بالمُبالغة في اختيار مشاهير الأساتذة، فكانوا يجلبونهم من البلدان البعيدة ويجزلون لهم العطايا ويكرمون إقامتهم، وعلى غرارِ منهج مدرسة عبد المؤمن جرتَ مناهج ملوك الموحّدين من بعده.

ملوك الموحدين يقرِّبون العلماء ويشجّعون اِستعمال العربيّة:

لقد قرَّب ملوك الموحّدين العلماء إليهم، بل وقلَّدوهم المسؤوليَّات فقد اِتَّخَذَ أبو يوسف يعقوب بن عبد المؤمن الفلاسفة وزراء ومستشارين له، ومن هؤلاء ابن طفيل وهو من أعظم فلاسفة الأندلس ورياضييها وأطبّائها. تولّى منصب الوزارة، ومنصب الطّبيب الخاص للسُّلطان أبي يعقوب يوسف، وكانت له حُظوة عظيمة عنده. كان مُعاصرًا لابن رشد القرطبي وصديقًا لهُ. لم يصل إلينا من كتبه سوى قصَّة حيّ بن يقظان أو (أسْرار الحكمة الإشراقيّة) وقد ترجم إلى عدَّة لغات أجنبيّة، وهي قصّة تشتمل على فلسفة ابن طفيل وقد ضمنها آراءه ونظريّاته، وإنَّ الأساس الفلسفي لهذه القصَّة هو الطّريق الذي كان عليه فلاسفة المسلمين الذين نهجوا على مذهب الأفلاطونيّة الحديثة وقد صوَّر ابن طفيل الإنسان، الّذي هو رمز العقل، في صورة حيّ بن يقظان، وقد رمى ابن طفيل من ورائها إلى بيان الاتفاق بين الدّين والفلسفة، وهو موضوع شغل أذهان فلاسفة الإسلام أنذاك.

وكانَ ابن طفيل شاعرًا، بتشجيع من أبي يوسف، ومن شعره الأرجوزة في الأمراض وعلاجها، والقصيدةالتي يحرّضُ بها المسلمين على الجهاد في الحملة التي أعدَّها أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن لنجدة المسلمين في الأندلس وفيها يقول:

أقِيمُوا صُدورَ الخَيلِ نَحْوَ المَضارِبِ
لِغَزوِ الأعَادي واقتِناءِ الرّغَائِبِ

وأُذْكوا المَذاكي العادِياتِ عَلى العِـدا
فقد عَرَضَتْ للحَرْبِ جُرْدُ السّلاهِـبِ
فلا تقتني الآمال إلّا مِـن القَـنـا
ولا تُكتبُ العَلـيا بِغَـيْـرِ الكَتائِـبِ
إلى أَنْ يقَـولَ:
ألَا فابْعثوهـا همَّـة عَربيّـة
تحـفُّ بأطْـرَافِ القَنـا والقَواضِـبِ
وقُوموا لنَصْرِ الدّيـن قَومَـةَ ثائـرٍ
وفيئُـوا إلـى التّحقيـق فيئـةَ راغِـبِ
دعَوناكُـم نَبْغـي خَـلاصَ جَميعَكم
دُعـاءً بَريئًـا مِـن جَميعِ الشّـوائِبِ
بِكُـمْ نُصِـرَ الإسْـلامُ بَدْءً، فنَصْـرُه
عَليكُـم، وهـذا عُـودُهُ جِـدُّ واجِبِ
نُريـدُ لكُـم مـا نَبْغـي لنُفوسِـنَا
ونؤثِرُكُـم زُلْفـى بِأَعْلـى المَراتِـبِ

وفي قصر أبي يوسـف حدثت مِحنةُ ابن رشْد القرطبي، وهو من أكثر فلاسفة الحضارة العربيّة تمكّناً من وسائل التّنوير العلميّة، وأكثرهم اطِّلاعًا على منجزات عصره، وعصور الأوائل، وشـارح كتبَ أرسـطو فـي المنطـقِ التي تفتّـح عليها وعيُ الغربِ عن طريقه، وصاحبُ كتاب «الكُلّيّات» الطّبي، الأوّل من نوعه آنذاك الذي تحـدّث عن وظيفة شـبكيّة العين والتّشريح ووظائف الأعضاء، وصاحب كتاب «فَصـل المَقال فيما بيـن الحكْمةِ والشّريعة من الاتّصال»، وصاحِب كتاب الضّروري فـي صناعَة النّحو، لما رآه في طروحات غير لغويّة أثقلت كاهلَ النّحو العربي وحدَّت من سُهولة تعلُّمه.

وهو صاحبُ فكرة أنَّ تـراثَ اليونان العقلي لا يتعارضُ مع الإسلام، وللشَّريعة ميدانها، ولعلوم العقلِ والبرهان ميدانُها.

ولعلَّ أسـباب مُطـاردة هـذا المفكِّر متعـدّدة، حسـب روايـات مـن تناولوا محنتَه، وحسب مستوياتهم الفكريّة، فهي مرّة وِشـايّةمن بعض وعّاظ السّـلاطين من فقهاء، اتَّخـذوا الدّين تجارة، وبعض متنفـذي قصـر أبـي يوسـف يعقـوب وزعمهم بأنّه كتب في شـروحه لفلسـفة أرسطو أنّكوكب الزّهرة هو أحد الآلهة».»

وزعمـوا أيضًا بأنّه وصـف في مكان آخر الخليفة بأنّه «مَلك البَرْبر» في إجابَتِهِ عن سـؤال الزّرافَةِ، فقالَ: رَأَيْتها في قَصْرِ ملكِ البربر، وهي مرّة نزعته السّجاليّة التي تنفر من نزعة المنادمة التي تخلّلت أطوار الحضارة العربيّة بلا استثناء، ومنها علاقته الشّخصيّة بأبي يحيى، شقيق أبي يوسف المنصور والطّامح إلى الإطاحة به، والّذي سـيقطع المنصور رأسَه بتهمة «مُصاحبته الفلاسـفة وإضمـار الكفـر والضّلالة»، وأخيرًا، كتابـه «تهافُت التّهافُـت» الّذي فنّـدَ فيه مُغالطّات أبـي حامد الغزالي في كتابه «تهافُت الفلاسـفة»، مع معرفته أنّ الغزالي، صاحب مقولـة الكرة الأرضيّة المعلّقة بيـن قرني ثور، كانَ أسـتاذ دولة المُوحّدين الأكبر.

السّلطان أبو يوسُـف يَعقوب بن عبد المؤمن يتبنَّى اللُّغة العربيّة في المسـتوى الفكري:

يتّفق المؤرِّخون أنَّ السّلطان أبا يوسف الموحّدي نَدِم على التّنكيل الذي تعرض له ابن رشـد القرطبي في زمانِه، واعترف أنّـه كان ضحيّة مُغالطّـات الفُقهاء الّذين لم يسـتطيعوا فهم لغة ابن رشـد العلميّة عندَما تعرَّض لقضايا السّياسة، والحكم، والاقتصاد، والفقه في زمانه.

لقد أعاد السّـلطان يوسـف الاعتبار لابـنِ رشـد القرطبـي، بعـد توسّـط ابن طفيل، وغـدا طبيب قصـره، وقرَّبه إليـه، وأصبحَ ينصـت لآرائـه وأقواله، وكان يُمكن أَنْ يذهبَ معـه بعيدًا لو أنَّ العمرَ طال بابن رشـد، ولكنَّ وفاته عام 520هـ، جعلت السّلطان يوسف يتحسَّر على ما تبادر منه بحقِّ ابنرشد، حتّى إنهم يقولـون: إنَّه ترجّى من اِبنِـه أنْ لا يطبِّق وصيَّتـه، وأن لا ينقل جثمان ابن رشـدٍ إلى قرطبة للدَّفن، وأن يُدفن في مرّاكش.

وبذلك تكـونُ الدّولـة المُوحّديّة قد عرفت من اللُّغة العديد من مسـتوياتها، حيـث تبنّى الملـك أبو يوسـف «اللُّغة الفكريّـة» و«اللّغـة الفلسـفيّة» و«اللّغة الكلاميّـة» و«اللّغةالصّوفيّـة» و«اللّغـة الأصوليّـة» و«اللغـة التّفسـيريّة»؛ ومن هذه اللُّغـات التّقنيّة ما كانت اسـتجابته لشـروط مسـتوى أقوى من اسـتجابته لشـروط مسـتوى آخـر، أو أقْـوى من استجابة لغة أخرى للمستوى نفسه.

وهـو ماشـجّعه ملـوكُ الموحّدين في منهجهـم القائـم علـى تقريـب العلمـاء والفلاسفة منهم، وتشجيعهم، وكانَ ذلك قد تجلّى أكثر في السّابقِ عند عبد المؤمن بن علي الَّـذي اسـتبدلَ الفُقهاءَ الشّـيوخ بمجموعـة مـن الشّـبابِ المتعلِّـم على الطّريقة العَصريّة لزمانِه، كما أسلفنا سابقًا.

3 – عند ملوكالدّولة الحمّاديّة (398 – 547هـ/ 1007 – 1152م)

3 –1 الدّولة الحمّاديّة:

هـي إحـدى دول البربر فـي المغرب الأوسـط، وتُمثّل أوّل دولةٍ بربريّة مستقلّة تحكـم الجزائر فـي العصر الإسـلامي. أقامَهـا حمّاد بن بُلكين الزّيري، وتنسـب إليه. يبـدأ تاريخُها الحقيقـي حين اختطَّ حمّـاد القلعـةَ، وتعاقب علـى حكم هذه الدّولة تسـعة أمراء، اختلفوا قـوَّةً وضعفًا وأسلوبَ حكمٍ.

3 – 1 أَشهرُ مُلوك الحمَّاديين:

1–حمّـاد بن بلكيـن الصّنهاجـي (398 – 419هـ / 1007 – 1029م):

هو مـن أشـهر ملـوك صنهاجـة، وكان حمّـاد الرّابـع فـي ترتيـب أبنـاء بلكيـن،

وهو أوّل أمراء الأسرة الحمّاديّة، وكانت ولادتُه قبل استقلال أبيه بلكين بحكم المغرب الأوسط سنة 361هـ بعدة سنوات، ربما في عام 353هـ أو 354هـ.

بذل حمّاد جهدًا كبيرًا في مُحاربة الزّناتيين والقضاء على تمرُّدهم، ثمَّ شرعَ ببناء مدينة القلعة عام 398هـ/ 1007م قرب مدينة أشير وشمال شرقي مدينة المسيلة، وشيّد بنيانها وأسوارها وأكثر فيها المساجد والفنادق، فرحل إليها طلَّاب العلوم وأرباب الصّنائع من الثُّغور والبلاد البعيدة.

قال لسانُ الدّين بن الخطيبِ في الأعلام: «كان حمَّاد نسيجَ وحده وفريدَ دهره وفحلَ قومه. ملكًا كبيرًا وشجاعًا ثبتًا، وداهيّة حصيفًا. قد قرأ الفقه بالقيروانِ ونظر في كتب الجِدال».

وكان حمَّاد يعيش معيشة بسيطةً يحكم بنفسه بين رعيته، بحيث قضى شيخوخته في ظلال البساتين الوارفَة، إلى أن توفي في تازمرت عام 419هـ / 1028م على إثر مرض أصابَه وهو في نزهةٍ، ودُفن في القلعة التي بناها وتحمل اِسمَه من بعده.

2 – القائد بن حمّاد (419 – 446هـ / 1028 – 1054م):

توفي حمّاد فخلفهُ ابنُه القائد بن حمّاد، كان سديدَ الرّأي، عظيم القدر، فصيحَ اللِّسان، ورث عن أبيه طبعهُ الغليظ ووَحشيته، كان القائدُ جبّارًا، صارمًا، فكانت فترة توليه الحكم امتدادًا للفترة الأخيرة من حكم أبيه حمّاد وتنظيمًا للقواعد الأساسيّة للدَّولة التي كان أبوه قد بدأ العمل فيها.

3– مُحْسنُ بنُ القائد (446 – 447هـ / 1054 – 1055م):

بعد وفاة القائد تولّى الحكمَ ابنُه مُحسن الذي كان جبّارًا قويًا، تسّلم زمام الملك إثر وفاة والدّه القائد سنة 446هـ، بعد أن أخذَ البيعةَ من إخوته وأعمامه، وأفراد الأسرة الحمَّاديّة، لكّنه لم يكن بالصّورة التي تتوافر في حاكمٍ يقود أمورَ البلاد، فقد كان مندفعًا متسرِّعًا، لم يكن على درجةٍ عاليّة من الكيّاسة والفطانة التي تمكّنه من إدارة شؤون دولته، التي تتعرَّض للأخطار، وتحاول أن تعصفَ بها الرّياحُالتي كانت تهبُّ على المغرب الأوسطِ منذ عام 441هـ إثر الغزوة الهلاليّة؛ لأنّه امتاز بالقسوة الشّديدة، وكان ذا طبع عنيفٍ ومتجبِّر.

4 – بُلكين بن محمّد بن حمّاد (447 – 454هـ / 1055 – 1062م):

تولّى بلكين بن محمّد بن حمّاد الحكم في رجب سنة 447هـ، كان شهمًا، حازمًا. وكان أحد جبابرة الإسلام. خدَمَ العلمَ وشيّد المدارس والمعاهدَ واهتمَّ بالعلماء والشّعراء والكتّابِ.

5 –النّاصر علّناس بن حمّاد (454 – 481هـ/ 1062 – 1088م):

يعدّ النّاصر بن علناس بن حمّاد خامس أمراء الأسرة الحمّاديّة، الّذين حكموا البلاد، كانَ مُحِبًّا للعلم والعلماء، يسمعُ الأشعار ويشجعُ الشّعراء، وفي عهده الذي امتدَّ سبعة وعشرين سنة، شهدَ المغربُ الأوسطُ أحداثًا كثيرةً أهمّها تأسيس مدينة بِجايّة، وقبل قيامها بذلك مرَّت عدَّة أحداث وهي تنظيم الدّولة، فعظمت دولتهم وبلغت أوجَّ مَجدِها ورقيّها وازدهارها، وتوسّع ملكهم.

يذكر ابنُ خلدون أنَّ: «في أيّام النّاصر هذا عظم شأنهم، فبنى المَباني العجيبة المؤّنقة، وشيَّد المدائنَ العظيمة، وردّ الغزو إلى المغرب، وتوَّغل فيهم»

ونظَّم النّاصر بن علناس المَدارسَ، ورتَّبها على درجاتٍ، ومراحل، ووضع لها المناهج، وحدَّد العلومَ، والموادَّ التي تدرَّس في كلِّ مرحلةٍ، ووضع لها نظامَ الامتحانات، فلا ينتقل طالبٌ من مرحلةٍ إلى أخرى إلَّا بعد إتقانه لعلوم المرحلة السّابقة ويخضع لامتحانٍ دقيقٍ، وكان يتابعُ هذه الأمور، ويشرفُ عليها، وأحيانًا يحضر امتحانات الطّلبة، ويزورُ المدارسَ بين الحين والحين، ولا يأنفُ من استماع الدّروس التي يلقيها العُلماءُ، وكان يوصي الطّلبة بالجدِّ، والاجتهادِ، ولا يبخل بالعَطاء للنَّابغين، وجعل التّعليم في كلِّ مدارس الدّولة بالمجَّانِ، وكانت الموادُّ التي تدرَّس في تلك المدارس: التّفسير، والحديث، والفقه، والأدب، والبلاغة، وعلوم اللُّغة من المعاني، والبيان، والبَديع، والنّحو والصّرفَ، والهندسة، والحسابَ.

لقد سميت بجايّة في عصره بالنّاصريّة نسبة إلى اسْمه، فهو الَّذي حوّلها إلى منارة علميّة، وقصدها العلماء والطّلبة من الأندلس وشمال أفريقيا وأوربا، لما فيها من علوم كثيرة، ومن أبرز من زارها: العلّامة عبد الرّحمن بن خلدون، ومحيي الدّين بن عربي وسيدي بومدين شُعيب دفين تلمسان، والمهدي بن تومرت، وعبد المؤمن بن عليّ، والشّاعر بن حمديسالصّقلي، والكثير من الرّحالة، كالإدريسي، وابن بطّوطة، والعالم الرّياضي الإيطالي ليوناردو فيبوناتشي Leonardo Fibo-nacc، والفيلسوف الإسباني ريمو لول Rymond Lulle. وقد تغنّى الشّاعر الحسن

بن الفكُّون القسنطيني، بجمال مدينة بجايّة قائلًا:

دَعِ العِراقَ وبَغْدادَ وشامَهما
فالنّاصريّة ما إنْ مثلَها بَلَدُ
بَرٌّ وبَحرٌ ومَوجٌ للعيونِ بهِ
سارح بانَ عنْها الهمّ والنّكَدُ
حَيْثُ الهَوى والهَواءُالطّلْقُ مُجتمعٌ
حَيثُ الغِنى والمُنى والعيْشَةُ الرّغَدُ
يا طالبًا وَصْفَها إنْ كُنتَ ذا نَصَفَ
قُلْ جنَّةُ الخلدِ فيها الأهْلُ الوَلَدُ

6 – المنصورُ بن النّاصر (481 – 498هـ/ 1088 – 1104م):

اتَّخذ بجايّة معقلًا وعاصمةً له، ومع ذلك لم يترك القلعة نهائيًّا، ففي عهده كان لبني حمّاد عاصمتان يربطهما طريقٌ. وهو من جدَّد قصور بجايّة وشيّد جامعَها، وجلب لها خيرة العلماء، وشجَّع تعليم القرآن الكريم فيه، وعلوم العربيّة، وهو الَّذي حضَّر مُلك بني حمّاد كما يذكر ابن خلدون. فقد تأنّق في اختطاطِ المباني، وتشييد المصانع واتِّخاذ القصور وإجراء المياه في الرّياض والبساتين، فبنى في القلعة قصر الملك والمنار والكوكب وقصر السّلام.

قال عنه ابنُالخطيب:«إنّه كان قائمًا على أمره، حميد الخلال، ضابطًا للأمور، يكتبُ ويشعُر، ويذهبُ في أمورِه مذهبَ أبي جعفر المنصور من رقع الثياب، والتّحفُّظ على القليل من الأشياء».

7 – باديسُ بن المنصور (498هـ/ 1105م):

تمّلك بعد وفاة والدّه، وتعتبر شخصيتُه شبيهة لشخصيّة الأمير مُحسن بن القائد، وقد تقاربا في التّصرفات والطّباع، ممّا جعل فترة حكمهما أقصر فترة في تاريخ الحكّام.

قال عنه ابنُالخطيب:«كان شديدَ البأسِ، عظيم السّطوة، سريع البَطشِ».

قالَعنه ابنُ خلدون «كان شديدَ البأس، عظيم النّظر».

8 – العزيزُ بن المنصور بن النّاصر (498هـ – 515هـ/ 1105 – 1121م):

وهو مَنْ خلَّفه باديس، والّذي كان يُعرف بالميمون لولادته في ليلة ولايّة أبيه، توّلى الحكم وهو في السّابعة عشر من عمره بعد وفاة أخيه، بتعيينه مِن عليّ بن حَمدون حيث أجريت مراسم البيعة في جوٍّ من الفرحِ حضره الشّعراء والعلماءُ، وشرع الملكُ الجديدُ في ممارسة مهامه. يقول ابنُ الخطيب: «كان حَسَنَ الخلق، ومعتدلَالطّريقة، كاتَبَ ملوك زمانه وسالمهم، فكانت أيّامه أعيادًا لحسْنها وجمالها».

ويقول فيهابنُ خلدون: «كانت أيّامُه هُدنةً وأمنًا، وقد كرَّس العزيزُ جهوده لتشجيع الثقافة العربيّة، وتعليم اللغة العربيّة ونشْرها في ربوع البلادِ، وتحفيظ القرآن الكريم، ولإعداد بجايّة لإيواء وفود اللاجئين من العلماء والشّعراء والفنّانين الذين يُغادرون القلعةَ، بعد ما تدهورت وأصبحت نهبًا، وكان العلماء والفقهاء والشّعراءُ يتناظرون في مجلسِه».

9 – يحيَى العَزيز الحمّادي (515 – 547هـ/ 1121 – 1152م):

هو أبو زكريا يحي، وهو آخر ملوك بني حمّاد. تولّى الحكم بعدَ أبيه العزيز (515 – 547هـ/ 1121 – 1152م) كان يحيى رقيقَالنّفس، همُّه الوحيد وشغله الشّاغل إذا خرج من القصر، هو الصّيد. يقول فيهابنُ خَلدون: «كانَ مستضعفًا مُغلبًا للنّساءِ، مولَعًا بالصّيدِ، محبًّا للأشعارِ»، ويقولُ فيهِ ابنُ الخطيب: «كانَ يحيَ بن العزيز فاضلًا حليمًا، فصيحَ اللّسانِ والقلمِ، مليحَ العبارة، بديعَ الإشارةِ، وكان موّلعًا بالصّيد مُغرمًا بهِ، كلفًا بالملهين».

3–3 مجالاتُ اهتِمامهم باللُّغة العربيّة:

اتَّخذ الملوكُالحمَّاديون اللُّغةَالعربيّة لسانًا رسميًّا لدولتهم، ذلك أنَّهم استفادوا من أنظمة الحكم العربي الإسلامي الذي سادَ شَمال أفريقيا في ذلك الوقت.

وشجَّعوا علوم العربيّة من نحوٍ، وصرف، وبلاغة، وبرز عندهم العديدُ من العلماء لعلَّ من أبرزهم ابنرشيق المسيلي القيرواني صاحب كتاب العُمدة في مَحاسن الشّعرِ والأدبِ، وهو كتاب في النّقد والأدب، تحدث فيه عن فضلالشّعر، وتجاذب الأقوال في ذلك، وأثر الشّعراء في الحياة السّياسيّة والاجتماعيّة، وعقدَ فيه نحوَتسعين بابًا في تعريف الشّعر وحِكَمِه، وأساليبه، والأوزان والقوافي وفنون الشّعر، وأدب الشّاعر، وأبوابًا من البلاغَة وأساليبها، وطبقات الشّعراء.

وهو أبو علي الحسن بن رشيق المسيلي المعروف بالقيرواني، أحد الأفاضل البُلغاء، ولد بالمسيلة وتأدَّب بها، ثم رحلَ إلى القيروان سنة 406 هـ، وكانت صنعةُ أبيه في بلده المحمّديّةالصّياغة، فعلّمه أبوه صنعتَه، وقرأ الأدبَ بالمحمّديّة (المسيلة)، وقال الشّعر صغيرًا ثم تاقت نفسُه إلى التّزيد منه وملاقاة أهلِه، فارتَحلَ إلى القيروان واشتهرَ بها وعرف بالقيرواني وامتدحَ صاحبَها المعزّ بن باديس واتَّصل بخدمته، وبقي مُقيمًا بها أمدًا،

ثُـمَّ انتقل إلـى صقليّة وأقام بِمَـازَرْ إلى وفاتِه بها.

من أهمّ الكتّـاب الحمّادييـن الذين شـجَّعهم ملـوك دولتهم وأجزلـوا لهم فـي العَطايا، أبو القاسـم عبـد الرّحمن الكاتب المعروف بابن القالمي، والَّذي قيّد له صاحـبُ الخريدة نصًّـا لعلَّه من أهمِّ نصوص النّثر في الأدبِ الحمَّادي، وهو نصٌّ خفيف فيـه جمع بين الغرض من وضعه، والإنسـيابيّة والتّدفق للتَّعبير والإبلاغ.

يقول فيـــه:

«ولمَّـا كنـتُ فـي مضمارِ سـلفك جاريًّا، ولنـا مواليًّا، وفي قضـاءِ طاعتنا مُتباهيًـا، رأينا أن نثبـت مبانيك، ونؤكّد أواخيـك، ونوجـب لـك ولخلفك، ما أوجبَه سـلفُنا لسـلفك، تمييزًا لهم عن الأكفـاء، ومجـازاةً لهـم عـن محض الصّفـاء والولاء، فاسْـتَدِمْ هـذه النّعمةَ العظيم خطرها بالشّـكر فأنت به جدي، ومن يقترف حسـنةً نزد له فيها حُسْنًا إنَّ الله غفور شكورٌ».

وله رسـالَةٌ يقول فيها: «كتابُنا ونحنُ نحمد الله على ما شـاء وسـرّ، ورضي بالقسم، وتسـليمًا للقدر، وتعويلًا على جزائِه الَّذي به من شـكر، ونصلّي على النّبـي محمّـد خير البشـر، وعلـى آله وصحبه ما لاح نجمٌ بسـحر، وبعد، فإنَّه لمّـا أراد الله أن يقع ما وقـع، لقبح آثار من خان فـي دولتنا وضبع اسـتفزَّ أهل موالاتنا الشّـنآن، وأغرى من اصطنعناه وأنعمنا عليه الكفران، فأتوا من حيث لا يحذرون، ورموا من حيث لا ينصرون، فكنّا في الاسـتعانة بهم والتّعويل عليهم كمن يستشـفي مـن داء بـداء، ويفرّ من صل خبيث إلى حيّـة صمادٍ، حتى بغث مكرهـم، وأعجل عن التّلافـي أمرهم، ويردّ بال أمرهم إليهم، فعند ذلك اعتزلنا محلّـة الفتنة، وملنـا إلى مظنّـة الأمنة، وبعثنـا في أحيـاء هلال نسـتنجد منهم أهل النّجدة ونسـتقرّ من كنّا نراه للهمم عدّة، وأنتـم في هذا الأمر أوّل من يليهم الخاطر، وتثنى عليه الخناصر».

كان الملـوكُ الحمّاديـون يؤثـرون العلماء على سـائر الطّبقاتِ ويقدّمونهم فـي الدّولة، ويجـودون لهـم بالعَطاءِ، واهتمُّوا بالتّعليم في جميع أطواره، وقد أحدثوا لونًا مـن التّعليم في المسـتوى العالـي يقابل ما يسـمّى اليـوم التّعليم الجامعـي، فقد أنشـأ النّاصر بن علّناس في بجايّة معهد سيدي التّواتي الَّذي كان يقيم فيـه ثلاثـة(3) آلاف طالب، وكان يـدرّس العلـوم علـى اختلافهـا باللُّغة العربيّـة، وفـي بجايّـة درس المهندس ليونارد فيشي الرّياضيات، وتعلَّم الجبر والمقابلة وأدخلهما إلى أوربّاالتي كانت يومها خاليّة من هذه العلوم.

لقـد اِزدهـرت الحيـاةُ العلميّـة في بجايّـة بشـكل كبيرٍ فـي عهـد الملوكِ الحمَّاديين، وفي هذا الوقت ظهر تنافسٌ كبيـر بين حواضر العالم الإسـلامي في مجـال العلـوم، فاشـتهرت كل مدينـة بعلـم مُحدّد، فعُرِفَ عـن بجايّة بكونها ‌اعاصمـة الرّياضيـات‌ وذلـك بفضـل احتضانهـا لمعهد سـيدي التّواتي الَّذي كان بمثابة جامعة تقـدِّم التّعليم العالي، ولم تُسـتثنَ الإناث من فرصة الدّراسـة فيه، ومنه أخذ الأوربيون الأرقامَ العربيّة والجبـرَ والمقابلةَ وهندسـة الإغريقي إقليدس.

منحَ الملوك الحمَّاديّون الحريّةالتّامّة للعلمـاء، والأدبـاء، والمفكّريـن، ولم يلزموهـم بمذهـبٍ معيّـنٍ، ولا بطريقةِ تفكير خاصّة، ولذلـك اِزدهرت العلوم على اختلافهـا، والفنـون، والثّقافات، وبنـوا في البلاد المسـاجدَ، والجوامع، والمعاهـد العلميّـة، والكتاتيـب، والبيوتات العلميّة لتعليم العلوم باللِّسان العربي.

وقسَّموا التّعليم إلى مراحل، ابتدائي، ومتوسّـط، وثانـوي، فـكان التّعليـم الابتدائـي يقتصـر علـى قـراءة القرآن الكريم، وتعليم الإملاء والخطّ العربي، وكان المعلِّمون يحرصـون على تعليم الصّبيان الهجاء، وحسن الخطّ، والقراءة الحَسَـنة، إضافة إلى تعليم العبادات من صلاة، ووضوءٍ. وقد امتدحَ ابنُ خلدون هذه الطّريقة، فقال:

«فأمَّـا أهـل المغـرب فمذهبهـم فـي الوِلـدان الاقتصـار علـى تعليـم القـرآن فقـط، وأخذهـم أثنـاء الدّراسـة بالرّسـم ومسـائِله، واختـلاف حَمَلَةِ القـرآن فيه، لا يخلطـون ذلـك بسـواه فـي شـيءٍ من مجالـسّ تعليمهـم، إلـى أن يحـذق فيـه أو ينقطـع دونـه، فيكـون انقطاعـه فـي الغالـب انقطاعًـا عـن العلـم بالجملـة، وهـذا مذهب أهـل الأمصـار بالمغرب، ومـن تبعهـم مـن قـرى البربـر أمـم المغـرب فـي ولدانهم، إلـى أن يجاوزوا حـدّ البلـوغ إلى الشّـبيبة، وكـذا مذهبهم في الكبيـر إذا راجع مدارسـة القرآن بعد طائفـة من عمـره».

وفـي مرحلتـي التّعليـم المتوسّـط والعالي كانَ الطّلبة يَدرسـون التّفسـيرَ، والقـراءات، والحديـث، والفقـه، والحسـاب، والهندسـة، والطّبَّ. كما شـجّع الملـوك الحماديـون الرّحلات إلى بلاد المشرق، ونظموا الحجّ وأمّنوا طُرُقَه، وأحدثوا الإجازات العلميّة.

وقـد اشـتهر في هـذا العهـد الكثيرُ مـن العلماء الَّذيـن برزوا فـي مختلف العلومِ، وجمعوا بين علومالدّين وعلوم اللُّغة، والآداب والحساب والرّياضيات وغيرها نذكرُ من هؤلاء:

• **يحي بن مُعطي الزّواوي (564هـ/ 628هـ):** صاحب الدّرة الألفيّة في علم العربيّة أشتهر بغزارة العلم، وسَعة المعرفة، فقد ألّف وحقّق الكثير من الكتب، ولم يقتصر على علم واحد أو نهج معيَّن كما تدلُّ على ذلك مصنّفاته الكثيرة، وقد شهد له العُلماء والأدباء بأصالتّه، وعمق فكره، ويكفيه فخرًا ما وصفه به مؤرِّخ الإسلام الإمام الذهبي بأنّه العلّامة وشيخ النّحو، والفقيه، فيقول عنه حرفيًا في التّرجمة رقم 196: «العلّامة شيخ النّحو زين الدّين أبو الحسين يحيى بن عبد المعطي بن عبد النّور الزّواوي المغربي النّحوي الفقيه الحنفي، مولده سنة أربع وستّين وخمس مئة وسمع من القاسم بن عساكر وصنّف الألفيّة والفصول، وله النّظم والنّثر وتخرَّج به أئمّةٌ بمصر وبدمشق». وهو صاحبُ أوّل ألفيّة في النّحو وقواعد اللُّغة العربيّة، وهو الّذي ذكرهُ ابنُ مالك في مقدِّمة ألفيتِه اِعترافًا له بالأسبقيّة قائلًا:

قالَ محمّد هو ابْنُ مالكِ
أحمدُ ربِّيْ اللهَ خيرَ مالكِ
مصلِّياً على النّبيِّ المصطفى
وآلِهِ المُسْتكملينَ الشّرَفا
وأستعينُ اللهَ في ألْفيَّهْ
مقاصدُ النّحْوِ بها مَحْوِيَّهْ
تقرِّبُ الأقْصى بلفْظٍ مُوْجَزِ
وتبْسطُ البَذْلَ بوعدٍ مُنْجَزِ
وتقتضي رضىً بغيرِ سُخْطِ
فائقةً ألْفِيّة ابْنِ مُعْتطِ
وَهْوَ بِسَبْقٍ حائِزٌ تفضيلاً
مستوجِبٌ ثنائِيَ الْجميلا
واللهُ يقضي بهِبَاتٍ وافِرهْ
لي ولهُ في درجاتِ الآخِرَهْ

• **ابن الرّمامة (567هـ =1171م):** هو أبو عبد الله محمّد بن علي، وقد روى عن أبي الفضل النّحوي التّازي، وتعلَّم على يدِ مشايخ ذلك العصر، كما التّقى ابن رشد القرطبي بالأندلس، وتولّى القضاء والتّدريس.

• موسى بن حمّاد الصّنهاجي الذي تولّى القضاء في بِجايّة.

• الحسن بن علي التيهرتي (501هـ): كان لغويًّا نحويًّا، تعلَّم على يده العديد من العلماء الّذين انتشروا في البلاد، فتطوَّرت بفضلهم اللُّغة العربيّة، وانكبّ الطّلبة يتعلَّمون علومها في جميع رُبوع مناطق الدّولة الحمّاديّة.

• أبا علي حسن بن محمّد الميلي (ت580هـ=1185م) الذي نُعتَ بأبي حامد الصّغير تشبيها بأب حامد الغزالي.

• يوسف بن محمّد بن يوسف أبا الفضل المعروف با ابن النّحوي الّذي طافَ بلاد المشرق العربي ودرسَ على يدِ علمائها، وأخذَ الكثير عن أبي حامِد الغزالي.

4- عند ملوك بني زيّان (1235م - 1554م= 633هـ-962هـ)

4-1 دولة بني زيّان:

يرجعُ أصل الدّولة الزّيانيّة، أو كما يطلق عليهم أيضًا بنوعبد الواد إلى قبيلة زناتة وهي إحدى أكبر القبائل العرقيّة ذات الأصول البربريّة التي سكنت في بلادَ المغرب، وأصل تسميتهم عائدٌ إلى جدّهم عبد الواد، وهم من ولدِ يَادين بن محمّد بن رزجيك بن أُسّين بن ورسيك بن زناتة.

قبل استقرارهم بتلمسان، كان بنو عبد الواد عبارة عن قبائل رحُّل، يجوبون صحراء المغرب الأوسط بحثًا عن المراعي المناسبة لدوابهم بين سَجلماسة ومنطقة الزّاب بأفريقيا، ومع بدايّة الفتح الإسلامي سانَد بنو عبد الواد عقبةَ بن نافع الفِهري، وشكّلوا فرقةً من جيشهِ تابعت معه فتوحاته غَربًا.

استغلَّ بنو عبد الواد حالة التّخبُّط والصّراع على الحكم في إقليم تلمسان، ورغبة الموحّدين في تصفيّة كبار القبيلة لإضعاف قوّتها وإخضاعها لدولتهم، في الصّعود إلى الحكم والإمساك بزمام الأمور في المنطقة سنة 1235 م.

4- 2 أبرزُ ملوكِ الدّولة الزّيّانيّة:

- يغمراسن بن زيان هو أول ملوك الزّيّانين، فقد وصل إلى سدّة الحكم على إقليم تلسمان بعد أن كتب إليه الخيفة الموحّدي عبد الواحد الرّشيد بن المأمون بالعهد بتولي الحكم على ولايّة المغرب الأوسط وعاصمتها تلمسان.

بعد فترة وجيزة من بدايّة حُكمه، استغل يغمراسن تراجُعَالدّولة المُوحِّديّة وتداعي حكمها لتوسيع حدوده على حساب أقاليمها، ثم ألغى سلطة الموحدين على تلمسان واستقل بها مع إبقائه على الدّعاء والخطبة للخليفة الموحّدي وذكر اسمه في السّكّة، واتخذ الوزراء والكتاب والقضاة، واستمر عهده حتى سنة 1282م، مما مكنه من توطيد ملكه وتأسيس نظم دولة جديدة بالمغرب الأوسط.

- أبو سعيد عثمان الأوّل بن يغمراسن.

- ثم خلفه ابناه بالتّرتيب أبوزيان محمّد بن عثمان الأول، وأبوزيان عثمان الثاني.

- أبو موسى حمو الأول الذي دخل عليه المرينيون.

- أبو سعيد بن أبي زكرياء يحي بن يغمراسن.

- أبو موسى حمو الثاني الذي أرجع ملك بني زيان.

4 -3 مجالات اهتمام الزّيّانين باللُّغة العربيّة:

حَرَصَملوكالدّولة الزّيانيّة في مرحلة قوّتها على توفير الظّروفِ المُواتيّة لاستعمال اللغة العربيّة في حياتهم الاجتماعيّة والثّقافيّة والاقتصاديّة، فألحقوا كبار العلماء والخطّاطين بالدّواوين، وشجّعوا تعلّمها لدى النّاشئة ببناء الكتاتيب والجوامع وبيوت العلم، وقرّبوا إليهم الشّعراء والكتّاب. فاستحدثوا تنظيمات جديدة في الإدارة والتّنظيم، وفَسحوا المَجال واسعًا للعلماء، للبحث في علوم اللُّغة، وعلوم الدّين، والطّبيعيات، وربطوا علاقات متنوّعة مع المغربين الأدنى، والأقصى.

يصفُ الحسنُ الوزان إدارة الملك الزّياني الّذي أقام في ضيافته شخصيًا فيقول:

«كان الملكُ يُنفقُ على قصره وعلى ما يتطلّب تمثيله، لأنّه كان كريمًا مضيافًا إلى حدٍّ كبير، وقد أقمت بحاشيته شهورًا عند إقاماتي المختلفة بتلمسان، يتبع ملك تلمسان مراسم شديدة، فلا يظهر إلّا للعظماء وكبار الشّخصيّات من رجال حاشيته، يُحادثونه بلغة عاليّة في الجودةِ، لا سوقة فيها، ويبادلهم بفصاحةٍ كان يحبّها ويُؤْثِرها، ولا يستقبل إلّا هؤلاء وحدهم، وهم الّذين ينجزون القضايا، ويسهرون على حسن النّظام المقرّر، وفي هذا البلاط دواوين ومناصب عديدة، رجالٌ مهرة في التّسيير والكتابة، والفصاحة، وحسن التّدبير، يشرف عليها، أهمّها المَزْوار وهو نائب الملك الذي يُحدِّد الأجورَ، ويقودُ الجيوشَ أحيانًا ضدّ العدوّ فتخضع له كما تخضع للملك. ثم أمين الكتّاب المكلّف بكتابة الرّسائل الملكيّة والقرارات الخلافيّة، وقد كان خطّاطًا مُجيدًا للخطّ العربي، ثمَّ أمين بيت المال، ثم صاحب النّفقات الملكيّة، ثم قائد الباب المكلَّف بحراسة الإقامات الملكيّة». ممّا لا شك فيه أنّ سكّان تلمسان بمختلف فئاتهم وانتماءاتهم العرقيّة، كانوا يستعملون لغاتهم ولهجاتهم الخاصَّة، ويتمّ ذلك على نطاق ضيق، أمَّا اللغة التيكانت مُتداولة ومستعملة بصفة رسميّة، في المجتمع التّلمساني إبان العهد الزّياني فهي اللغة العربيّة، وإلى جانبها اللسان الزّناتي، لأن أغلب سكّان المدينة كانوا من زناتة ومن العرب، قد جمعهم الدّين الإسلامي، وجعل منهم مجتمعًا موحدًا في العادات والتّقاليد والسّلوكات، يتحدث أغلبهم اللغة العربيّة، لأنّها لسان الملّة وبها نزل القرآن الكريم .

وحتى يفهم النّاس معاني القرآن الكريم وقاصده كان لا بدَّ من تعلُّم العربيّة، ودراسة علوم هذه اللغة من نحو وصرف، وعلم البيان والأدب وغيره، وكانت الإدارة والتّعليم والبحث باللسان العربي، إلى جانب اللَّهجة الزّناتيّة، في التّخاطب والمُعاملات اليوميّة، التي كان يتحدث بها الكثير من النّاس في مدينة تلمسان، عاصمة موطن زناتة في المغرب الأوسط في ذلك الوقت.

إنَّ بعض ملوك بني زيّان الأوائل كانوا يستعملون اللّغة الزّناتيّة في بعض الأحيان، وينطقون بها في أحاديثهم الشّفويّة، وخاصَّة منهم يغمراسن بن زيان، حينما كان يغلب على دولته طابع البداوة في بدايّةالعهدِ.

وقد احتضن أهلُ تلمسان كغيرهم من سكّان الحواضر المغربيّة اللغة العربيّة، لأنَّهم كانوا يعدّونها جزءًا لا يتجزّأ من الإسلام وإحدى ركائزه، فتمسكّوا بها، لعنايتهم بالقرآنِ الكريم والسّنة النّبويّةالشّريفَةِ.

وكان كثيرٌ من العُلماء والفُقهاء التّلمسانيين، يُتقنون اللغة العربيّة واللّسان الزّناتي ويقرضون الشّعر بهما، مثل الفقيه الشّاعر أبي محمّد عبد الله عبد النّور التّلمساني، الذي كان محبوبًا عند سائر زناتة والعرب، لفصاحتِه وبلاغته بالعربيّة والزّناتيّة.

وكان الموحّدون، أسلاف بني زيّان، يستعملون اللّسان البربري في عهدهم على نطاق واسع، لنشر مذهبهم وعقائدهم ودعوتهم وفي مجالات أخرى كالتّأليف، وخطبة الجمعة والنّداء للصّلاة عند كمال الآذان باللغة العربيّة، وقد استنكر الفقيه أحمد الونشريسي التّلمساني هذا النّداء واعتبره من البدعِ، وكان الموحِّدون في كثير من الأحيان يفضّلون توظيف الخطباء الذين يتقنون العربيّة والبربريّة، حتّى يستطيعوا توصيل أفكار المذهب والعقيدة. زالتّ هذه الظّاهرة الازدواجيّة في العهد الزّياني، وأخذت اللغة العربيّة مكانتَها في المقدّمة، وريادتها في مجال الطّقوس، والعقائدِ، والأدب، والفقه، والتّأليف، والإدارةِ، وتسرَّب متقنوها من العرب الأندلسيين إلى جهاز الدّولة، فصار لهم ضلعٌ في الحياة السّياسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة بالمدينة وتغلَّب العنصر العربي على غيره، في هذه الفترة، فانتزعوا عامَّة الأوطان وشاركوهم فيما بقي من البلدانِ بملكتهم وبأسهم، وتمخَّض عن هذه الظّاهرة أن انتشرت اللغة العربيّة وتوطَّدت في أمصار متنائيّة من بلاد المغرب الأوسَطِ.

ومع مرور الزّمنِ، أخذت قبائل زناتة في المغرب الأوسط عامَّة، وفي مدينة تلمسان على وجه الخُصوص مثل: قبائل مَغْراوَة، وبني عبد الوادِ، وبني

يَفرَن، ومْغيلة، وبني توجِين وصنْهاجة، والمَصامِدةِ وغيرها من القبائل التي كانت تسكُن مدينة تلمسان، تفتقد اللِّسان الزّناتي والصّنهاجي المحليين تدريجيًّا، وصارت جميعًا تتحدَّث اللغةَ العربيّة، فتوحَّد بذلك لسانُ أهل تلمسان، وتعزَّزت وحدة اللغة والعقيدة والمذهب لسكّان تلمسان إلى الوقتِ الحاضر.

والملفت في سلاطين الدّولة الزّيانيّة أن الكثير منهم كانوا شعراء وخطباء ممتازين ومنهم:

الملك أَبُو موسَى حمّو الثّاني الشّاعرُ اللُّغويُّ (ت790هـ= 1387م)

أبو حمّو موسى بن أبي يعقوب، سلطانُ بني زيّان وحجَّة بلاد المغرب على سلاطين الأقاليم والبلدانِ، وسيّد زناتة الكرّار ورافع أمْجاد تلمسان.

ينتهي نسبُه إلى إيغْمُراسَنْ مؤسّسُ الدّولة الزّيانيّة، وُلد سنةَ (723هـ = 1223م) في غرناطة، وتلقّى تعليمه الأوّلي في مسقط رأسِه، ثمّ ارتحلَ إلى تلمسان صُحبة والدّته بدعوة من حاكمها أبي تاشفين الأوّل، وواصل تحصيل العلم فيها وعندما بلغَالرّابعة عشر من عمره استولى المرينيون على تلمسان، فاضطرَّ إلى الخروج مع أهله إلى نَدْرومَة، ثمَّ ارتحلَ من بعد إلى تونس الحفصيّة، ثم قفل راجعًا إلى منطقة الزّاب واستجمع جيشًا من قبائل الدّواوِدَة، وحرَّر تلمسانَ من سيطرةِ المرينيّين، وبذلك أحيا مجدَ الدّولة الزّيّانيّة من جديدٍ سنة 760 هـ.

كان لأبي حمّو آثارٌ فكريّة تَنمُّ عن سَعة اطلاعِه، كقرضه الشّعر في مدح المُصطفى ﷺ وكذا كتاب في توصيّة ابنه وأهل بلاطِه بعنوان «واسطة السّلوك في سياسة المُلوك». وقد ازدهرت الدّولة الزّيّانيّة في عهدِه، إذ تمكّن من تكوين جيش قويٍّ يَحمي تلمسان، كما أقام علاقاتٍ مع بلاد الأندلس، وساندَ ملوكَ الطّوائف فيها بالأموال والغذاء، وممَّا اشتهر به أن بلاطه كان قبلة للشُّعراء، والمُؤرِّخين، والعلماء، منهم يَحْيَ بن خَلدون. وكانت وفاته على يد ابنه أبي تاشفين الّذي ثار عليه بسببِالحكم، وقتلَه بعد صِراعاتٍ داميّة، وكان هذا سنة 790 هـ.

ترك التّرحالُ آثاره على الأمير السّلطان فنشأ غزيرَ العلمِ وافي الأدب واسع الفكر، عارفًا بأحوال تلمسان، وندرومَة، وفاسَ، وتونس ومُطّلعًا على طبائع أهلها، وكان خبيرًا ببلاد المغرب ومَسالكها وقبائلها، فلمّا استقرَّ بتونس وظفر بدعم صاحبها الحفْصي عزمَ على استردادِ تلمسان عاصِمة أجْدادِه ومَرتعَ شبابه، ولم يكنْ أبوه مَلكًا لا جدّه ولا جدّ أبيه وإنّما كان عمُّه السّلطان أبوسعيد عثْمان وجدّ جدّه يَغْمراسَن. فاستمالَ القبائلَ فبايعَه الدّواودةُ، وبنو عامِر، ونَصروهُ وفي هَذا يقولُ:

فَطُوبَى لعَبدِ الوَادِ عِندَ ازدِحَامِهم
لقدْ جَدَلوا فِي الحَرْبِ كُلَّ مُزَاحِمِ
وجَالتّ خُيولُ العَامِريّة فَوْقَهَا
أُسُودَالشّرَا فِي مَوْجِها المُتلاطِمِ

بَدأأبو حمُّو معركته في استرجاعَ تلمسان، من الجَريد، فقسنطينة، فميلةَ، ثم دخل بسكرة وقاتل مزني، ثم طوّعَالزّابَ ودخل طولقة، وأقام فيها، جعل أبو حمُّو أخاه أبا جميل أميرًا على طولقة، وتركَه مع والدّته زينب، وزوجته، وأولاده، وأصْحابِه، ومائة فارس من إخوانه بنو يلْمان، وسكن قصبتَها وهي القوسة وما حولها من الدّيار، والنّخيل؛ وفي الدّوْسَنأينَأقام حفل تنصيب ومبايعة أَبو حمو ملك على المغرب الأَوسط (الجزائر)، وقد حاول أبو حَمّو والدّته على الرّحيل معه إلى تلمسان فأبت، وتحيَّر حالُه على فراقها، وقد تعللت بأنَّها ستبقى مع أخيه أبي جميل لأنّه صغير ولا تقوى على فراقِه، فانصرف أبو حمّو باكيًا وقال شعرًا يستأنسُ به وقْتَ الوَحشَة:

ودَّعْتُ صَبْري بِالدّموعِ كَوابِل
يَجْري عَلى صَفَحاتِ الخَدِّ الذَّابِلِ
يا لَيْتَ شِعْري هَلْ نُطيقُ فِراقكَم
نَارٌ تأجَّجَ في الحَشا ونازِلِ
من لي بردِّ الوقتِ يَجمعُ شملَنا
بِديارِنا الحَسْناءَ تزْهى بَلابِل
يا أخي جَميلُ جَال فِكْري ومُهْجَتي
يا طولَ لَيْلي مِنْ فِراقِكَ فاصل
أَصْبِرْ فلعلَّ اللهَ يَجمَعُ شملَنا
إنْ لَمْ تعُقْني مُنيَّتي في الأجْتَلِ
لله يا والدّتي الرّضا يُسْبِلُ عَلى مُوسَى
وحَمُّو سِتْرَه مِنْ صايلِ

ثمَّ دعت له والدّتُه بخيرٍ، ورجعتْ مِن الدّوسَن الى طولْقة مع ولَدِها أبي جَميل، وغادرأبو حمّو مع جنودِه، وطُبولِه، ونَفيرِه، وأربابِ دولتِه.ودخلَ تلمسانَ مُنتصرًا سنةَ 760 هـ/ 1359 م، وأرسلت لهُ المدُنُ والبوادي بيعتَها، إذ كانَ أكثر أهلِ المغربِ الأوسَط (الجزائر) موالين للبيت الزّياني وفي هذا يقولُ:

دَخلتُ تلمسانَ التي كنتُ أرْتجي
كما ذكرتُ في الجفْر أهلَ المَلاحِمِ
فخَلَّصْتُ مِنْ غصابِها دارَ مُلكِنا
وطَهَّرْتُها مِنْ كُل بَاغْ وبارمِ
لَقَدْ أَسْلَمُوها عُنْوَةً دُونَ عُدَّةٍ
لقَدْ طَلقُوها بِالقنَا والصّوارمِ

لكن ما سلمت مُدة مُلكه الطّويلة من الكَدر، فقد كان بنو مرّين لا يفترون عن مهاجمة تلمسان ومحاولة الاستيلاء عليها طمعا منهم في إخضاع بلاد المغرب ووراثة الدّولة الموحّديّة

ولا يتم لهم ذلك إلا بإخضاع بابه وهي تلمسان . وقد أتعبهم أبو حمّو الثاني وأنهكهم فكان كثيرًا ما ينسحب إلى الصّحراء ثم يعود ليميل عليهم ميلة واحدة وفي هذا قال:

وخُضتُ الفَيافي فَدْفَدا بعدَ فَدْفِدِ
لنَيل العُلَى والصّبرُ إذ ذاك لازمي
وكمْ ليلة بتْنا على الجَدْبِ والطّوى
نُراقِبُ نَجْمَالصّبحِ في ليْلٍ عاتِمِ
على متنِ صَهّالٍ أغرَّ مُحَجّلٍ
مَديدِالخُطى لَمْيخشَ صَعْبَ الصّلادِمِ
مِكرٍّ بيومِ الحَرْبِ لا يشتكِي الوَنَى
مِفرٍّ إذا طالتّ عِظامُ الهَزائِمِ
رِجالٌ إذا جاشَ الوَطيسُتَراهُمُ
أُسُودَ الوَغَى مِن كُلِّ لَيْثٍضُبارِمِ
نُطارِدُ فيها الخَيْلَ بالخَيْلِ مِثْلِها
فكانَ عَلى الأعْداءِ كَرُّ الهَزائِمِ
فَهَذَا أسيرُ صَفَدَتْه يَدُ الوغَى
وهذا قَتيلٌ في عُجَاجِ المَصَادِمِ
فَكانوا إلى الطّيْرِ الغَشيمِ فَرائِسَ
وكانَتْ عَلى الأعْداءِ شُؤمَ الذّمائِمِ
ولَمّا قَضَينا الأمْرَ في الحَرْبِ مِنْهُمُ
رَجَعْنا بِعَوْنِ اللهِ نَحْوَ المَعالِمِ
دَخَلْتُ تِلمْسانَ التي كُنْتُ أَرْتَجِي
كَما ذَكَرْتُ في الجَفْرْ أَهْلَ المَلاحِمِ

مما جعله الدّ أعداء بني مرّين ويصفه ابنُ الأحمر الغرناطي كاتب بني مرّين في مخطوطِه «تاريخ الدّولة الزّيّانيّة» بأقبح الصّفات وأخبثها من الغدر والجبن والخيانة والبخل، وإن دلّ هذا فإنما يدلُّ على عمق حقد وكره سلاطين بني مرّين لأبي حمّو، والدّولة الزّيّانيّة ووصل به الأمرُ أن فرَّ إلى الزّاب موطن أجداده الأولين ثم استجمعَ أمرَه وعاد وفي هذا يقول:

أنَا المَلكُ الزّابِي ولسْتُ بِزَابِي
ولكِنّنِي مُّفْنِي الطّغَاةِ الطّمَاطِمِ

وهنا تبرز براعة أبي حمّو الثاني اللّغويّة، فهو يقصد بالكلمة الأولى «الزّابي» نسبة إلى منطقة الزّاب، وينسب نفسه إليها. أمّا كلمة الزّابي الثّانيّة فمعناها: الهرَّاب، ويقول فيها: أنا لست بزابي أي لستُ هَرابًا. وفي قصيدة أخرى نظمَها في أوّل إمارتِه، أشادَ فيها ببني عامربقوله:

أحْياهُا بِي وَبِأعْرابِي
وأنَا الزّابِي وَالدّوْلَةُ لِي

أبو موسى حمّو الثّاني يكرِّم رجال اللُّغة والأدب:

جعل أبو حمّو موسى من تلمسان منارةَ بلاد المغرب، فحصَّن بناءَها وأكرم أهلَها وجعلها محجّة للعلم والعلماء، فكان الرّجل إذا نبغ ابنُه في العلم رحلَ به إلى تلمسان مثل ابن مرزوق القيرواني، والمغيلي، والتّنسي، والونشريسي وغيرهم كثير من العلماء والأدباء، كما كانت قبلة للكثير من أهلِ الأندلس المُهاجرين للمغربِ مثل الإمام العُقباني، والشّاعر القيسي، وظهر من أبنائها ثلّة من أهل العلم مثل أبِي عبد الله الشّريف التّلمساني الذي شيّد له أبو حمّو المدرسةَ اليعقوبيّة سنة 1363هـ، وعينه مدرّسًا بها، وحضرَ بنفسه أوّل درسٍ للشّريف التّلمساني، وكان يوقّره ويُجلّه ويفتخرُ به على الأمصار، وقد زوّجه ابنتَه الأميرة، ويوم وفاة الشّريف قال لابنه أبي محمّد عبد الله الغريق «ما ماتَ من خلّفك، وإنّما مات أبوك لي، لأنّني أباهي به المُلوك». ولا غروَ في ذلك لأنَّ أبا عبد الله الشّريف التّلمساني كان الرّجل الأوّل في أسرة الشّرفاءبتلمسان، التي استطاعت فرض وجودها بفضل أبنائِها العلماء بين بقيّة أشْهَرِ الأسر العلميّةالتي عرفتها تلمسان والغرب الإسلامي، على الرّغم من أنّ عالِمَنا عاصر أكبر علماء عصره الّذين جمعوا بين الاجتهاد العلمي والنّشاط السّياسي، أمثال عبد الرّحمن بن خلدون ولسان الدّين بن الخطيبِ، وغيرهما، إلا أنّهم لم يحجبوا عنه مكانتَه العلميّة عند السّلطات الزّمنيّة بالغرب الإسلامي، فتنافست دول المغرب العربي على استقطابه والانتفاع بعلمه، وكذا محاولة توظيفه في السّفارات السّياسيّة، ليس لأنّه رجل سياسة فقط، وإنّما لنسبه الشّريف ومكانته العلميّة، وفصاحة لسانِه، ووقارِه لدى العامّة والخاصّة.

وكانَ المَشورُ في عهده من أعاجيب بلادِ المغرب في العُمران والحُسن، وكان يحتفلُ بليلة المولد النّبويّاحتفالًا باهرًا بالغًا يُدهش كلَّ من حضره، ويلقي فيها قصائده من المولدياتو كانت ساعة **المَنْجَانَة** التي وصفها يحي بن خلدون في بغيّةالرّواد من أروع مخترعات عهد الملك أبي حمّو موسى الثّاني. وهو الذي يقولُ في تلمسان

أهْلُ تِلمْسانَ فيدَوْلتِنا
كالشّمْسِ لَدَى بُرْجِ الحَمَلِ
ولَقَدْ بَذَلُوا في خِدْمَتنا
أقْصَى الغَاياتِ بلا كَسَلِ
فَلهمْ مِنّا عَدْلٌو ندى
ولَنَا مِنْهم أقْصَى الأَمَلِ

توفي أبو حمّو موسى الثّاني سنة 791هـ/ 1389م بعدما تحالَف ابنُه أبو تاشفين مع بني مرّين ضدّه، وكانت نهايّة أكبر رجل من آل زيان بعد يغمراسن، بعد حياة مليئة بالفروسيّة والأدب، والشّعر، والسّياسة، والملاحم.

وقد خلّف الكثير من القصائد والمولديات ومن آثاره:

كتاب «واسطة السّلوك في سياسَة المُلوك» وهو كتابٌ قيّم يعبرعن تجربةِ حياة. يتجلّى في هذا الكتاب علْمُه الغزيرُ، وأدبُه الوفيرُ وحكمته البليغةُ، وقد تركه كوصيّة لابنه.

أبـو العبَّـاس العاقـل أخـر الملوك العظام يهتمُّ بالعربيّة.

تولى السّـلطان أبو العبَّـاس بن أبي حمو عرش الدّولة الزّيانيّة سـنة 1432م، فاعاد لهـا هيبتَها، وقطـع تدخلات بني حفـص فـي شـؤونها، وقطـع الدّعوة لهـم في المسـاجد، فتحرك سـلطانهم ابو العزيز فارس قاصدا تلمسان، غير أنّه توفي في الطّريق وتبعثر جيشه، وهكذا تفرغ أبو العبّاس لشـؤون دولته فأصلح الدّيـوان، والأوقـاف، وسـن في ذلك القوانيـن والنّظـم، وكان راجـح العقل حسـن التّدبيـر حكيمًـا حازمًـا عاقلًا، فلقبتـه رعيتُـه والمؤرِّخون بالسّـلطان العاقل وغلب اللقب عليه.

اهتمّ أبو العباس العاقل كثيرًا بالعلمِ والعلمـاء، وشـجّع تعليم علـوم الدّين واللُّغـة، والطّبّ، والحسـاب والفلك، وقرَّب الأدباء والشّعراء، وبنى مسجدي سيدي السّنوسي ومسـجد سيدي البنَّاء الباقيين إلى الآن بالقيساريّة بتلمسان.

كمـا توافـدت فـي عهـدِه هجرات يهود إشـبيليّة خاصـة والأندلس عامة، ووفـد عليـه الحاخـام إفراييمأنـكاوة المقدس عند الطّائفة الاسـرائيليّة وكان طبيبًـا حاذقًـا متمكِّنًا من اللغـة العربيّة فتمكن من شـفاء ابنته، فكافَأَهُ ببناء حيٍّ له ولطائفته داخل أَسـوار تلمسان وبنى لهم كنيسًا ومدرسة كما تسهد به اللَّوحة التّأسيسيّة لهتين المَعلمتين.

و قـد ثـار المتـوكل على السّـلطان العاقل فاقتحم المشـور، ونفى السّلطان العاقل الـى الاندلس، غير أنـه عاد بعد سـنة محاولًا اسـترجاع ملكـه، فتوفي على أَسـوار تلمسـان، ودفن بالعباد في الأضرحة الملكيّة الزّيانيّة المعروفة.

و بوفاتـه انقضى عهدُ القـوة الزّيانيّة وبدأ عهد الانحلال والضّعف.

الخطُّ العربي عند الملوك البربـــر:

تبنّى الملوك البربر للـدّول المتعاقبة في الجزائر الخطَّ العربي في الدّواوين، والمُراسلات، وصكّ النّقود، والزّخرفة فـي المسـاجد والقصـور، ومختلـف البنايـات، ومن الخطوط التي انتشـرت كثيرًا الخـطّ الكوفي الحجـازي، وهو الأصـل الّـذي تطـوَّرت منـه الأنـواع المغربيّة الأخرى، ونجـده مكتوبًا على رقّ الغـزالِ فـي المَصاحـفِ والكتب القديمـة، والعقـود والوثائق الرّسـميّة للملوك والأمَراء، ومنقوشًـا في الحجر علـى أبـواب المـدُن والقصبـاتِ، ومحفـورًا فـي الجبـسِ على جُـدْرانِ المَدارس، والمسـاجد، وقبور الملوك، وأضرحة الأولياء والصّالحين.

لقـد ورث المغاربة هـذا الخطّ عن الاندلسـيّين، وشـجّع الملـوك البربـر الخطّاطيـن فـي الكتابـة ووفَّـروا لهم مسـتلزمات الكتابـة، حتّـى نشـأ خطٌّ مغاربي سـمّاه البعض بالخـطّ الكوفي القيروانـي، وقـد أمـر الملـك باديس الزّيـري الخطّـاط الجزائـري علـيَّ بن أحمـد الـورَّاق لكتابـة مصحف به، فكتـب مُصحـف « الحَاضِنَـة» وهـو مصحـفٌ ذو شـكلٍ طولي علـى جلد قضيم.

ثم ظهرَ الخـطُّ النّسـخي المغاربي، هو فـي الحقيقة اختـراع للخطّ الكوفي الأوّل، فيـه ليونة في اتّصـال الكتب في بعضها، وهكذا خرجت الدّول المغاربيّة من الخطّ الكوفي المشرقي واستعملت خطَّها، وانفتح الباب على خطوط كثيرة منهـا، وأصبـح هنـاك خطـوط مغربيّة محليّة ثلثي ونسخي.

وفيمـا يلي نمـاذج لهذا الخـطّ التي تركهـا بعضُ الملـوك البربـر بالمغربِ الأوسط (الجزائر).

صفحة من مخطوط

«نظـم الدّروالعقيان في بيان شـرف بني زيان» لمحمّد بن عبد الله التّنسي

و هـذه نسـخة خطُّها مغربـي جيد، وهي فاخـرة مذهّبة مزوّقة من المحتمل أن تكون نسخت لأحد أمراء بني زيان أو أحد أثرياء البلاط الزّياني.

مصحف ملكي زياني بخط السّلطان أبي زيّان، مكتوب على رقّ غزال، وكلّ أسماء الله الحسنى فيه محلّاة بالذّهب.

كتب بتلمسان سنة 801 للهجرة.

مـكانُ الحفـظ: الخزانـة الملكيّـة بالرّباط.

دينـار مـن عهـد الدّولـة المومنيّـة (الموحّديّـة) ضـرب بتلمسـان .. كانت السّـكّة ايـام الموحّديـن تضـرب فـي

ثلاث عواصم:مراكش، تلمسان، واشبيليّة

نلاحظ كلمة تلمسان في الأسفل.

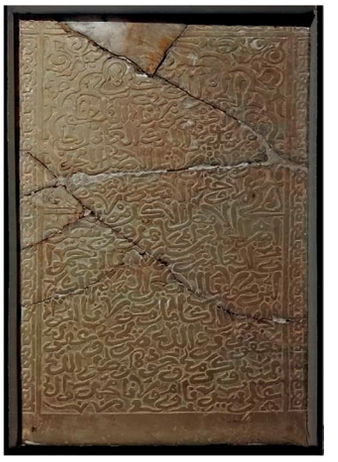

شاهدة ضريح السّلطان الأديب أبي حمو موسى الثّاني وقد نقش عليها:

«الحمد لله وحده، هذا قبر مولانا السّلطان أمير المسلمين الملك العادل الحافل الأثين الأثيل الأصيل الأمجد الأوحد الأسهيالأسنى الأفضل الأكمل مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل الله رب العالمين مولانا أبو حمّو بن مولانا الأمير الشّهير الكبير الجليل الكامل مولانا أبي يعقوب برد الله ضريحه وغفر له بيمنه وكرمه وجوده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمّد وآله».

أداة قياس (ذراع) قماش من العهد الزّياني (حكم السّلطان ابو تاشفين الأول) 1328م، مكتوب «الحمد لله والشّكر لله هذا قياس الذراع بالقيصريّة، عمرها الله في شهر ربيع الثاني عام ثمانيّة وعشرين وسبع مئة» القيساريّة هي سوق تلمسان القديمة ولا تزال باقيّة الى يومنا هذا

الخُلاصة:

لقد ملأ الإسلامُ قلوبَ ملوك البربر، وأقبلوا عليه بشغَف كبيرٍ، واعتنقوه عن طواعيّة واقتناع، فصاروا يشاركون إخوانهم العرب في خدمة الدّين وعمارة الأرض، حيث تشكلت هويّة مغربيّة متناغمة ومنسجمة اعتبرت أساس قوة المغرب واستقراره. ولعل السّرّ في ذلك يكمن في الفكرة الدّينيّة (الإسلام) التي شكّلت مركبًا حضاريًا لكلّ هذه الهُويات المتنوّعة لتنصهر في هُويّة جامعة ناظمة هي الهُويّة الإسلاميّة، فكان من الطّبيعي أن يقبلوا على تعلّم اللّغة العربيّة إلى درجة امتلاك ناصيتها، ثمّ القيام بنشرها في رعيتهم، بل وتحمّلوا عِبْءَ تطويرها وترقيتها، بأن صاروا أقلامًا لها فأسّسوا المدارسَ، والمعاهدَ في عواصم دولهم كتلمسان، وتيارت، وبجايّة، والمسيلة، وغيرها من حواضر الجزائر، وأغدقوا من الأموال والجهد، ما جعل هذه اللُّغة وكأنّها نشأت في هذهِ البلاد.

ولا يختلف عاقلان في أهميّة دورملوك بجايّة، وملوك تلمسانالرّائد منذ القرن الحادي عشر في نشر العربيّة وعلومها، أيّام عهد المرابطين، والموحّدين، والحمّاديين، والزّيّانيين فقد جعلوا من هاته الحواضر منارا ت علم ومعرفة استضاءت بهما شعوب حوض البحر الأبيض المتوسّط، ولا أدلَّ على ذلك من استقرار أعلام الفكر بها للتّدريس والدّراسة. نذكر منهم عبد الرّحمان بن خلدون الَّذي درَس ودرَّسببجايّة، ومن شيوخه الأجلّاء أحمد إدريس الذي انسحب فيما بعد من مدينة بجايّة إلى ناحيّةعزازقة حيث أسّس زاويّة ما زالتّ عامِرة إلى إلى يومنا هذا، والمهدي ابن تومرت وصنْوه عبد المؤمن بن علي مؤسّسا الدّولة الموحّديّة.

وإذا كانت هذه الحواضر قد استعانت بعلماء المشرق في نشر اللُّغة العربيّة، فإنَّه سرعان ما أنجبت الجزائر علماء كثيرين سار بذكرهم الرّكبان، ليس فقط في المغرب الأوسط أو المغرب الكبير، بل وذاع صيتُهم في المشرق العربي، حيث تولّى بعضُهم التّدريس والقضاء في الشّام، ومصر، بصفة خاصة. ولعلَّ أفضل شاهد على دور المغرب الأوسط الرّائد، كتاب «عنوان الدّرايّة» لأبي العبّاس أحمد الغُبريني، الذي جمع فيه أعلامًا كثيرة عاشت في بجايّة في القرن الثّالث عشر الميلادي، وقد انتشر الكثير من العلماء في عمقِالسّاكنة البربريّةفأسّسوا عدَّة مراكز للتّعليم، نذكر منها ناحيّةآث وغليس التي أنجبت محمّد بن إبراهيم الوغليسي الذي تولّى الخطابة بجامع القصبة ببجايّة، واشتهر بكتاباته اللغويّة والشّرعيّة والأدبيّة، والشّيخ الطّاهر الجزائري الوغليسي الّذي كان أحدَ روّاد النّهضة العربيّة في الشّام ومصر. وعرش مشذالة (البويرة) الذي أنجب العديد من العلماء منهم منصور المشذالي الذي درس ببجايّة، وأكمل دراسته بمصر التي مكث بها حوالي عشرين عامًا ونهل من معين عز الدّين بن عبد السّلام وغيره، ثم عاد إلى بجايّة حيث تولّى التّدريس وقد أصلح طرائق التّعليم بإدخال المناظرة العقليّة والاهتمام بالدّرايّة قبل الرّوايّة، وانتشر طلبته خاصة في تلمسان. لقد أنجبت الجزائر العديد من العلماء في ظلّ حكم الملوك البربر الَّذين طوَّروا اللُّغة العربيّة أمثال يحي بن المعطي الزّواوي الذي ذاع صيتُه مغربيًّا وعربيًا فدرّس في الشّام ومصر، وترك عشرات المؤلّفات في علوم اللُّغة، من أبرزها «الدّرّة الألفيّة في علم العربيّة»، وأمَّا علماء تلمسان فقد حفل بهم كتاب البستان في ذكر أولياء تلمسان لابن مريم.

ويصوِّر العلّامة ابن خلدون هذه الجهود قائلا: «وأمَّا إقامتهم لمراسم الشّريعة وأخذهم بأحكام الملّة ونصرهم لدين الله، فقد نقل عنهم من اتّخاذ المعلّمين كتاب الله لصبيانهم، والاستفتاء في فروض أعيانهم، واقتفاء الأئمّة للصّلوات في بواديهم، وتدارس القرآن بين أحيائهم، وتحكيم حَمَلة الفقه في نوازلهم وقضاياهم، وصاغيتهم إلى أهل الخير والدّين، من أهل مصرهم للبركة في آثارهم وسؤال الأعداد عن صالحيهم، وإغشائهم البحر أفضل المرابطة والجهاد، وبيعهم النّفوس من الله في سبيله وجهاد عدّوه، ما يدلّ على رسوخ إيمانهم وصحّة معتقداتهم، ومتين ديانتهم».

وما ذكره ابن خلدون هو عين الصّواب، فلو قمنا باستقراءٍ في هذا الشّأن، لضاقت الكتب عن احتواء جهودهم، إذ أن العمليّة تتطلّب إنجاز موسوعات لإيفاء المسألة حقّها، فالنّاظر إلى التّراث اللُّغوي العربي ليلمح الحضور اللاّفت للعلماء البربر الّذين بصموا تاريخ هذه الأمَّة بإسهاماتهم العلميّة المتميّزة التي نالتّ استحسان الدّارسين، إذ امتدّت عطاءاتهم السّخيّة لتشمل مختلف العلوم الشّرعيّة والآليّة، فصاروا يتسابقون في خدمة الإسلام إلى جانب إخوانهم العرب بكل تفانٍ وإخلاص، ديدنهم في ذلك إبلاغ رسالة الإسلام صافيّة لا دخنَ فيها.

وبهذا طبقت شهرتهم الآفاق، إذ يستحيل أن تقرأ في فنٍّ من الفنون العلميّة، دونما أن تجدَ من جهابذة أعلامِه وفحول علمائه شيخًا بربريًا مبرزًا.

• **د. عبد الناصر بوعلي**
جامعة تلمسان

المصادر

1. ابنُ خلدون أبو زيد عبد الرّحمان بن خلدون، المقدّمة، د.ط، منشورات دار الكتاب للطباعة والنّشر، بيروت، 1968م
2. ابن الخطيب التّلمساني، محمّد بن عبد الله، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق وتقديم محمّد عبد الله عنان، ج2، د.ط، دار المعارف، د.ت
3. أبوزكريا، يحي بن أبي بكر محمّد بن محمّد بن الحسن، بغيّةالرّواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات، د.ط، عاصمة الثقافة العربيّة، الجزائر، 2007م.
4. ابن قنفذ القسنطيني، أبو العبّاس أحمد بن الحسن بن علي بن الخطيب، الوفيات، تحقيق عادل نويهض، د.ط، مؤسسة نويهض الثقافيّة، بيروت، 1981م
5. المقرّي، شهابالدّين أحمد بن محمّد المقري التّلمساني، نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، تحقيق إحسان عبّاس، ج1، مجلد 6، د.ط، دار صادر، بيروت، 1931م
6. بومهلةتواتي، بجايّة حاضرة البحر ونادرة الدّهر، د.ط، دار المعرفة، د.ب، 2010
7. الحاج محمّد بن رمضان شاوش، باقة السّوسان في التّعريف بحاضرة تلمسان، عاصمة دولة بني زيّان، د.ط، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 1995 .
8. رشيد بورويبة، الدّولة الحمّاديّة تاريخُها وحضارتُها، د.ط، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 1977م.
9. عبد الحقّ حمّيش، سير أعلام تلمسان، ط1، دار التّوفيقيّة، المسيلة، 2011م.
10. عبد القادر بوطبل، تاريخ مدينة حمّو موسى في الماضي والحاضر، د.ط، موقم للنشر والتّوزيع، الجزائر، 2011م.
11. عبد الحميد حاجيّات، أبو حمّو موسى الزّياني، حياته وآثاره، د.ط، الشّركة الوطنيّة للنشر والتّوزيع، الجزائر، 1974م.
12. عبدلّي لخضر، تاريخ مملكة تلمسان في عهد بني زيّان، ط1، دار الأوطان، الجزائر، 2011م
13. ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 1986 .
14. يحي بن خلدون، بغيّةالرّواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج6، منشورات المكتبة الوطنيّة الجزائر، 1980 .
15. يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر، ج1، د.ط، دار الهُدى، الجزائر، 2009م.

العربيّة في شمال أفريقيا قبل الفتح الإسلاميّ

أ. د .صالح بلعيد
رئيس المجلس الأعلى للّغة العربيّة

ـ الدّيباجة: سيقع الحديث عن وجود استعمال **العربيّة** قبل **الفتح** الإسلامي في قارة أفريقيا؛ ويعني استعمالها في شمال أفريقيا تحصيلاً؛ باعتبار بلدانها تعرّبت بعد الفتح الإسلاميّ بسهولة، وحَدَثَ الانسجامُ والتّصاهر بين الفاتحين والسّاكنة بشكل سَلِس، رغم ما ينكُره بعضُ الباحثين من وجود استعمال **العربيّة** في أفريقيا قبل الفتح الإسلاميّ، ولم تكن للعربيّة مكانة في شمال أفريقيا إلاّ بعد الفتح العربيّ الإسلاميّ، ومن ثمّ تعوْلَمَت **العربيّة** على كامل القارة الأفريقيّة. ويرى المُنكِرون بأنّ بلدان شمال أفريقيا تعرّبت بالقوّة، بعدما عرفت سلسلةً من الحملات والمعارك العسكريَّة التي خاضها المسلمون تحت راية الخلافة/ الدّولة الأمويّة ضدّ الإمبراطوريّة البيزنطيّة ومن حالَفها من قبائل البربر، بغرض التّعريب والأسلمة، وذلك على مدى 66 سنة تقريبًا، وانتُزِعت على إثرها ولاياتُ شمال أفريقيا الرّومانيَّة من يدّ البيزنطيين، ودخلت في دولة الإسلام. هذا فعلاً حصل؛ لما دخل الفاتحون، ولكن اللغة **العربيّة** في مفهومها التّواصليّ/ لغة التّواصل والمصالح المُرسلة Lin-gua Franca في قضايا التّجارة كانت متداولة بشكل من الأشكال، وليس في مفهومها الأدبيّ الذي عرفته في عصر السّاميات أو ما شهدته في العصر الجاهليّ في أعلى فصاحتها عندما خرجت من منظومة السّاميات. وكانت مستعملة في نطقها العامّ كما يستعملها أعراب شبه الجزيرة **العربيّة** في مختلف التّأديات التي لم تكن مُشتركة أو مُوحّدة على غرار توحيدها في لغة قريش. وهنا نطرح إشكاليّة وجود **العربيّة** قبل نزول القرآن الكريم أم كان أوّل ظهور لها بعد نزول القرآن الكريم فقط؟ وهل هي **عربيّة** القرآن التي نقرأ بها القرآن؟ أم هي **عربيّة** ساميّة –على ما يراه البعض– قبل انفصالها عن أخواتها الكلدانيّة والعبرانيّة والفنيقيّة والآراميّة والأكديّة بقسميها البابلي والآشوري، ثم الأجريتيّة التي هي (لغة قريش) حسب نقوش رأس شمرا؟ ... هي مجموعة من الإشكاليات التي اختلفت فيها الدّراسات؛ بحكم أنّ شبه الجزيرة **العربيّة** كان لها أثر في تلوين لسانها، وأنّ الدّاخلين تنوّعوا في ثقافاتهم، فأثّروا وتأثّروا، وأدخلوا وتركوا بصمات لسانيّة تواصليّة كان لها الأثر في تلك المنطقة، أضف إلى ذلك عامل شساعة المنطقة التي احتوت القبائل الأصيلة والقبائل النّازحة بحكم التّرحال للرّعي. فكانت للحجاز لغة، ولليمن لغة/ لغات، ولانقسام العرب إلى عشائر أثر في تلك اللغات، ولكن الشّيء الذي يمكن أن نؤكّده على أنّه مهما اختلفت لغات هذه القبائل هناك لغة جامعة في أبعد حدودها، وإلاّ كيف كانوا يتواصلون في ترحالهم وعيشهم وغزواتهم وعلاقاتهم الرّعويّة/ التّجاريّة مع بعضهم.

وأما اللغة **العربيّة** في معناها المعاصر بدأت تتعمّق وتتجذّر في منظومة فِكْر ساكنة شمال أفريقيا بعد الإسلام لفهم الإسلام؛ على أنّ «ما لا يتمّ به الواجب، فهو من الواجب». وفي ذات الوقت لا ننكر الجذور التّاريخيّة للعلاقات **العربيّة** الأفريقيّة إلى ما قبل ظهور الإسلام؛ حيث كان المجتمع العربيّ الجاهليّ يزخر ببعض المجموعات الأفريقيّة التي استقرّت بين العرب وانصهرت في القبائل **العربيّة** عن طريق الولاء والانتماء الكامل، وبعض هذه المجموعات شقّت طريقها إلى الجزيرة **العربيّة** لعوامل غير الرّق والغزو. وكان الأحباش (وهم سكان بلاد القرن الأفريقيّ في الصّومال وبلاد الحبشة وإريتريا) أكثر من وَفِد إلى جزيرة العرب قبل الإسلام، وتأثّرت هذه المجموعات التي وفدت من السّاحل الأفريقيّ بالثّقافة العربيّة. ومن هذا الباب أقبل الأفارقة وبخاصّة البربر على اعتناق الإسلام، وتعلّم لغة الإسلام، شاركوا العرب في الغزوات والمعارك ضدَّ الرّوم، واستمرَّ البربر يدخلون

في الإسلام تباعاً مع تقدّم الفُتوحات. ونتيجة ذلك حدثت المثاقفة بطول الاختلاط، فاستعرب الكثير من البربر، وبالأخصّ ساكنة الحضر/ المُدن منهم، واستمرَّ ساكنة الرّيف يحتفظون بهُويَّتهم اللغويّة الخاصّة. وقد ظهرت عبر التّاريخ الإسلاميّ لبلاد المغارب أنّ كلّ المماليك البربريّة الثّلاثة عشر (13) حملت لواء الدّفاع عن الإسلام والمُسلمين وعن اللغة العربيّة، مثل الأدارسة والفاطميين والمُرابطين والمُوحّدين والزّيانيين والمرينيين... كما أصبحت بلاد المغارب مراكز الثّقل الإسلاميّ واللغويّ في العالم الإسلاميّ.

1ـ الأوضاع العامّة في شمال أفريقيا قبل الفتح الإسلامي:

كانت الأوضاع السّياسيَّة في شمال أفريقيا مضطربةً بسبب الحُروب بين القبائل الجرمانيَّة النّازحة من القارَّة الأوروبيَّة والبيزنطيين، وبين البيزنطيين والأهالي أنفسهم، وكانت شمال أفريقيا تُشكِّلُ جُزءاً من الإمبراطوريَّة الرّومانيَّة مُنذ سنة 146 ق.م، عندما تمكَّن الرّومان من إسقاط مدينة (قرطاج) خلال أواخر الحرب البونيقيَّة الثّالثة، والقضاء على القُوَّة العُظمى الوحيدة في المنطقة القادرة على مُنافسة روما وعظمتها. وفي ظلّ هذا المخاض عرفت المنطقة المذهب الدّوناتي الذي كان رمزاً للمقاومة الشّعبيّة، وازداد انتشاره بزيادة انتشار الفقر والبُؤس بين الأهالي الذين ثاروا ضدَّ الحُكومة والطّبقة الغنيَّة، ودعوا إلى المُساواة. وحاولت الحُكومة مُجادلة أصحاب هذا المذهب، فكان القدِّيس (أوغسطين) الدّ أعدائه، حيثُ هاجمَ المذهب الدّوناتي، وأباحَ للدّولة استعمالَ العُنف ضدَّ أصحاب هذا المذهب لِكَسْر قوّة تصاعد شوكتهم، وإعادتهم إلى حظيرة الكنيسة. ولكنْ تَحالفَ الكادحون والفُقراء مع الدّوناتيَّة استمرَّ إلى وفاة دونات سنة 355م، واتّخذ شكل الثّورة الوطنيَّة في طرابُلس ونوميديا إلى سنة 375م. واستمرّت بلاد المغارب خاضعةً للرُومان حتَّى سنة 435م تقريبًا، ثمّ جاءت قبائل الوندال بأعداد كبيرة، ووقع استقرارهم في شمال أفريقيا، ومَحَوا آثار الرّومان، وحصل في هذه الأثناء أن تعاظمَ نفوذُ قبائل البربر في مجموعات مشتّتة، لم تجمعها إلاّ الوَحْدة القوميّة، وبدؤوا يُشكّلون كتلةَ الولاء لقبائلهم وعشائرهم، وارتدّ الكثيرُ منهم عن المسيحيَّة. وفي السّنوات القليلة التي سبقت الفتح الإسلاميَ، عيّن قيصر الرّوم الإمبراطور (موريس) أحد قادته العسكريين (هرقل) قائدًا أعلى على بلاد المغارب، وكان ذلك سنة 600م. ثُمَّ حصل أن خُلع القيصر، وقُتل على يدّ أحد ضُبَّاطه (فوقاس) وتربّع هذا الأخير على عرش الإمبراطوريَّة، وعاث فساداً باستبداده حتى تدهورت أوضاع الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة بشكلٍ كبير، الأمر الذي دفع (هرقل) حاكم أفريقيا إلى إعلان العصيان، وشجَّعهُ موقف سكان شمال أفريقيا من البربر الذين أيّدوه نظراً لِحُكمه العادل مُقارنةً مع باقي الحُكّام السّابقين. وشهدت بلاد المغارب عهداً من السّلام لم يعرفه الأهالي من قبل، وتمتّع البربرُ بالكثير من الحُريَّة والاطمئنان، وعادت المسيحيَّة تتسرَّب إليهم. وفي أواخر عهد (هرقل) رجعت الاضطرابات لتنتشر في بلاد المغارب؛ بسبب مُحاولات الحُكومة البيزنطيَّة فرْض مذهبها على كافَّة أطياف الشّعب، فأخذ البربر والأفارقة يلتفّون حول بطاركتهم للدّفاع عن عقيدتهم ضدَّ الإمبراطوريَّة، وانتهى الأمر بأن نهض أحدُ القادة والقساوسة (جرجير) واستقلَّ عن الدّولة وحكم مُستعيناً ببقايا جُنود الرّوم وجُنودٍ البربر، وضرب العُملات باسمه، واتّخذ من قرطاج عاصمةً له، ثُمَّ تركها وانسحب إلى الدّاخل، وتحصَّن في سُبيطلة خوفًا من أي هُجوم روميٍّ مُحتمل. أمَّا في بقيَّة البلاد؛ فقد تحرَّر البربر من سُلطان الرّوم، وتلاشت المسيحيَّةُ من دواخل بلادهم للمرَّة الثّانيّة. وفي كلّ هذا لم يكن البربر يستعملون لغتهم القوميّة (البربريّة) في القضايا الرّسميّة، ولا اللغة **العربيّة**، بل يميلون حيث لغة المستعمر، ويدينون بها في معاملاتهم الرّسميّة، وبقيت لغتهم الوطنيّة (البربريّة) في الاستعمال الوظيفيّ حتى اليوم. ولكنّهم كانوا سريعي الفهم للغات الآخرين، وهذا ما جعلهم في سنواتهم الأخيرة قبل مجيء الإسلام يتفاعلون مع التّجار العرب في التّواصل **بالعربيّة** المعهودة آنذاك. ولم تُشر المصادرُ أنّ هناك تراجمة ينقلون الكلام بين التّجار العرب والسّاكنة، رغم ما يشير إليه صاحب كتاب (الجُمَان في أخبار الزّمان) أنّ «بربر أرياف وأطراف برقة لمَّا عرفوا بِقُدوم القائد المُسلم إليهم، أرسلوا إليه رُسُلًا يعرضون عليه أن يدخلوا في الإسلام على يديه، وأن يُوالوا المُسلمين ويُعاونوهم في الفُتوحات، فاستطاع (عمرو بن العاص) أن يفهم ما يُريدون بواسطة **مُترجم** نقل إليه كلامهم، فأرسلهم إلى الخليفة (عُمر بن الخطَّاب) في المدينة المُنوَّرة الذي رحَّب بهم أحسن ترحيب بعد أن عرف أنَّهم ينتمون إلى القوم الذي أخبر عنهم

الرّسول محمّد... وبعث إلى (عمرو بن العاص) أن يُقدِّمهم على الجُند». وهناك روايات تقول بأنّ (عمر بن الخطاب) استقبلهم وقال لهم «ما لكم تُبربِرون...» يعني تتكلّمون بكلام غير مفهوم. وأمثال هذه النّصوص يجب أن تؤخذ في سياقها، على أنّ هناك زيادات، وبعضها جاءت بعد الفتح الإسلاميّ الذي نالت فيه العربيّة أسمى تجلّياتها كخطاب أدبيّ عالٍ.

2ـ جذور الحضارات:

ليس سهلاً تأكيد بعض القضايا التّاريخيّة التي تعود إلى غابر الزّمان، ولكن عندما نحتكم إلى بعض الأدلّة يمكن تحليلها والبناء عليها وفق (قياس الماضي على الماضي) بأنّ منابع الحضارات تتبع المياه، وأنّ مصر وبابل وبعض مجاري الأنهار في آسيا كانت لها حضارات قديمة منذ فجر الحضارات والعصور، ولها معارفها في العلوم ونمط المعيشة، ولم تكن الحضارات الأوروبيّة إلاّ رجع الصّدى لها، بما فيها روما العظيمة التي تعدّ مهد الحضارات عند الغربيين. وأمام ذلك التّمدّن كان الشّرق مهوى العاشقين الرّاغبين في الاستمتاع والتّعلّم، ومقصد الهجرات من وإلى مهد الحضارات؛ وهي الحضارة الشّرقيّة؛ ومقرّها الشّرق العربي وآسيا. ولهذا تشير المصادر بأنّه حصلت هجرة الكنعانيين الفينيقيين إلى هذه المواطن الحضاريّة، كما تمّت هجرات من الشّرق إلى الغرب، ومن الجنوب إلى الشّمال. ثمّ حدث تبادل للهجرات غرباً شرقاً، وشرقاً غرباً... ويسجّل التّاريخ أنّه حصلت هجرة البربر من الجريد إلى مصر، وهجرة العرب من جنوب الجزيرة العربيّة إلى سيناء مصر، ومن سيناء إلى شمال أفريقيا، ونقلوا معهم لغتهم العربيّة التي تفرّعت إلى لغات تدعى (اللغات العروبيّة) ومنها البربريّة. إضافة إلى تلك الأقوال التي ترى بأنّ أصلهم من اليمن القديم، وسافروا إلى أفريقيا عبر البحر، كما يسجّل التّاريخ بأنّ معظم سكان شمال أفريقيا من القبائل البربريّة والقبائل العربيّة؛ فالبربريّة تتمثّل في: نفزاوة+ الزّناتة+ أربة+ عجيسة+ هسكور+ جزولة+ أزداجة+ غمارة+ نفوسة+ لواتة أدريسة؛ وهم من قبائل (حام بن نوح) توافدوا على شمال أفريقيا عبر العصور؛ فمنهم من ذهب إلى اليمن. وبعد قرون تلتحق بشمال أفريقيا في عهد (أفريقش/ أفريقس) قبائل أخرى من غرب اليمن وهم: صنهاجة+ هوّارة+ لمطة+ كتامة. وبعد الفتح تلتحق جماعات عربيّة من بني هلال من أبناء (سام بقن نوح) منهم قبيلة الأثيج+ بنو الرّياح+ زغبة+ المعقل+ بنو عوف+ بنو دياب+ بنو زغب+ بنو الوليد؛ وكانت هذه القبائل متداخلة، وبعد ذلك شكّلت البطون والأعراش والأفخاذ. ويميل (ابن خلدون) إلى أنّ البربر من ولد (كنعان بن حام بن نوح) عليه السّلام، فالكنعانيون ليسوا عرباً، وليسوا من أبناء (سام)، في ما يذهب اتّجاه آخر إلى ربط سكان هذه المنطقة بالمشرق وجزيرة العرب، حيث إنّهم نزحوا من هناك إلى شمال أفريقيا نتيجة لحروب أو تقلّبات مناخيّة وغيرها. وهناك من يقول إنّهم ربّما جاؤوا من أوروبا أو مناطق البحر الأبيض المتوسّط القديمة، في ما يذهب رأي آخر إلى اعتبار أنّ أصل البربر في هذه القارة أصيل لم يهاجروا، ولم يحتكّوا بغيرهم لأنّهم يخافون الذّوبان في غيرهم... هي آراء وأفكار بعضها صحيح، وبعضها مجانب للصّحة، وبعضها مغالطٌ، ونريد أن يثبت الباحثون الحقائق بموضوعيّة، وتأتي التّصحيحات من العلماء الذين يعملون البصيرة، ومن المتسلّحين بالعلميّة لإخراج المسألة اللغويّة من ليّ بعض الآراء التي تريد إحداث العزلة في ما هو متداخل، والتّفرقة بين ما هو جامع، أو البحث عن صفاء الدّم من أجل إحداث الفتنة والقطيعة بين الأصل الواحد. وما يجب وعيُه أنّ البربر لهم جغرافيّة كبيرة، ولهم تاريخ من الوجود يعود إلى أكثر من ثلاثة آلاف (3000) سنة، وهم من ساكنة شمال أفريقيّة، استعملوا في تواصلهم الرّسمي لغات المحتلّ/ لغات الوافد، ولم يوظّفوا (البربريّة) إلاّ في الجانب الوظيفيّ اليوميّ البسيط، وتعدّدت لغاتهم المحليّة لدرجة أن وصل عددها إلى خمسة وثلاثين (35) أداءً. وهم ساكنة سيوة المصريّة شرقاً إلى المحيط الأطلسيّ غرباً، ومن البحر الأبيض المتوسّط شمالًا إلى الصّحراء الكبرى جنوبًا. وهم سكان الجزائر والمغرب وتونس وليبيا وموريتانيا وشمال مالي وشمال النّيجر وبوركينا فاصو، وجزء من غرب مصر، ويوجدون في جزر الكناري.

3ـ العربيّة لغة خارج السّياق المحلّي:

هي عربيّة بما لها من تواجد خارج إطارها الجغرافيّ (شبه جزيرة العرب) ومصاحبتها لأهلها إلى قارة أفريقيا في نسق المنظومة السّياسيّة/ التّجاريّة ليكون لها موقع استعماليّ كلغة وسيط حاملة لمنظومة تواصليّة، ويكون لها حضور في لغات أفريقيا المتعدّدة، وتكون بديلاً في لاحق من الزّمان بما لها من حمولة دينيّة. ويبقى أنّها اللغة التي استطاعت أن يكون لها وجود بين أكبر عدد من الشّعوب الإفريقيّة بفضل امتداد نفوذها التّجاريّ،

وما صاحبها من المرجعيّة السّياسية للعرب؛ وهم يثبتون قوّتهم وشوكتهم أمام الإمبراطوريات الإفريقيّة ذات المرجعيات اللغويّة غير المتجانسة. وفي كلّ ذلك أصبح للعربيّة موقع في الانتماء الوطني البربريّ، والتّحدّث بها كلغة الثّقافة والفكر، فحصل في ظرف وجيز أنّ فئة من البربر تحمّست لها وذابت في الثّقافة العربيّة بسهولة بعد الفتح الإسلاميّ، ومن ثمّ انتشارها السّريع بعد دخول الإسلام إلى ممالك أفريقيا بكلّ أريحيّة.

4ـ عربيّة ما قبل الإسلام:

لا شكّ أنّ العربيّة التي كانت مستعملة في العصور القديمة، وما كان من لغة عربيّة قبل العصر الجاهليّ ليست هي عربيّة العصر الجاهليّ، ولا هي عربيّة الإسلام، ولكن ليست بعيدة عن بعضها بوجود القواسم المشتركة، وبقدر ما فيها من بعض الاختلافات التي تعود إلى التّكوين والتّكوير الذي حصل فيها عبر القرون مع أخواتها السّاميات، وهي تلك **العربيّة** التي خرجت من بيئة العرب ونالت الانتشار عبر الهجرات والتّجارة. وهنا يمكن أن نطرح السّؤال التّالي: هل كان العرب قبل الإسلام يتحدّثون لغة عربيّة نمطيّة واحدة؟ في الحقيقة لم يكن العرب يتحدّثون لغة عربيّة واحدة، حتى عرب شبه الجزيرة العربيّة اختلفت لغاتهم ولهجاتهم، وكانت لهم لهجات **عربيّة**، وقد ذكر (الطّبري) ذلك في تفسيره مثل اللسان العربيّ الجنوبيّ+ الحميريّة+ الأمهريّة. وهناك نصوص معينيّة ولحيانيّة وثموديّة وصفويّة، وهي تختلف في كثير من مداليلها عن عربيّة شبه الجزيرة العربيّة، وربّما ما يجملها هو كتابتها بخطّ المسند. ولكن ما يقع الاتّفاق عليه هو وجود بعض التّقارب مثل ما هو موجود الآن بين العربيّة والمهريّة/ الأمهريّة، والعربيّة الجنوبيّة، وبعض اللغات الأفريقيّة، والعربيّة والقبطيّة... وعلى كلّ حال إنّ عرب ذلك العهد القديم يختلفون عن عرب عصر الجاهليّة، وعن عرب الإسلام، في اللغة والدّين والأدب والأخلاق، ولكنّهم ليسوا منقطعين عن أسلافهم مهما اختلفت بيئاتهم، وكان الحبل السّري بينهم اللغة العربيّة في حدودها الوسطى تجمع بين عرب ما قبل الجاهليّة وعرب الجاهليّة وعرب الإسلام باختلاف الحضارات وما تدرّه من ألفاظ وما ينقرض فيها من أساليب. وحسب ما تنصّ عليه الدّراسات اللسانيّة هناك قواسم مشتركة بين لغة الحمورابيين ولغة الآشوريين، وهذه الأخيرة أقرب إلى عربيّة مُضر التي استعملها عرب قريش وسائر الحجاز... وقسْ على هذا ذلك التّلاقي اللغويّ بين «لغة مُضر ولغة عمالقة العراق في الفرق الذي ظهر بين لغة عرب الشّام في أوائل القرن الرّابع للميلاد مما قرأوه على قبر امرئ القيس بن عمرو ملك الحيرة، وبين لغة مُضر عند ظهور الإسلام؛ وذلك أنّهم عثروا في أطلال النّمارة في حوران على حجر عليه كتابة عربيّة بالخطّ النّبطيّ نقشت في أوائل القرن الرّابع للميلاد أي قبل الإسلام بثلاثة قرون، وهذه صورتها:

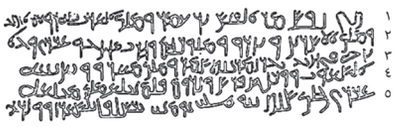

كتابة عربيّة بخطّ نبطيّ على قبر امرئ القيس بن عمرو سنة 328م. وإليك نصّها كما تقرأ كلّ سطر على حدة:

(1) تي نفس مر القيس بن عمرو ملك العرب كله ذو أسر التاج.

(2) وملك الأسدين ونزرو وملوكهم وهرب مذحجو عكدي وجاء.

(3) يزجو (؟) في حبج نجران مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه.

(4) الشّعوب ووكله لفرس ولروم فلم يبلغ ملك مبلغه.

(5) عكدي هلك سنة 223 يوم 7 بكسلول بلسعد ذو ولده.

هذا لسان عربيّ تشوبه صبغة آرامية يحتاج تفهّمها إلى إيضاح، وهاك تفسير هذه الكتابة باللغة العربيّة الفصحى؛ وهو:

(1) هذا قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلّهم الذي تقلّد التّاج.

(2) وأخضع قبيلتي أسد ونزار وملوكهم وهزم مذحج إلى اليوم وقاد.

(3) الظّفر إلى أسوار نجران مدينة شمر وأخضع معدًا واستعمل بنيه.

(4) على القبائل وأنابهم عنه لدى الفرس والرّوم فلم يبلغ ملك مبلغه.

(5) إلى اليوم... توفّي سنة 223 في يوم 17 أيلول (سبتمبر) وفق بنوه للسّعادة.

وكان أهل الشّام وحوران وما يليهما يؤرّخون في ذلك العهد بالتّقويم البصروي؛ نسبةً إلى بصرى عاصمة حوران، وهو يبدأ بدخولها في حوزة الرّوم سنة 105 للميلاد، فإذا أضيفت إلى 223 كان المجموع 328 للميلاد وهي السّنة التي تُوفّي فيها هذا الملك».

5ـ مَدَنيّة شبه الجزيرة العربيّة قبل الإسلام:

ما لا يمكن أن نخفيه بأنّ شبه الجزيرة العربيّة عرفت مَدَنِيّة بمفهومها الزّماني، رغم ما يوصم به العصر الجاهلي بالجهل، وكان الجهل في أمور الدّين، وانشغالهم بالغزو، ولكن ليسوا بالهَمَج، لأنّه وصلنا منهم أدب راقٍ لشعراء حكماء على غرار شعر زهير بن أبي سلمى، ووصلتنا حِكَم عالية

الجودة على غرار حِكَم: أبو العاص بن أميّة+ أبو رغال+ عبد المطّلب+ أبو عامر الفاسق+ أبو برّاء العامري+ أبو أزيهر الدّوسي... وهناك فلاسفة... وهناك ارتقاء في السّياسة والعمران... وصاحبت العربيّة هذا الارتقاء في المدنيّة، وكانت خير معبّر عمّا في أذهانهم. ومن الثّابت أنّ العربيّة لا تتولّد فيها كلمة إلاّ للتّعبير عن معنى حدث في أذهان أصحابها... فإذا وجدنا لغة من اللغات اسماً لنوع من اللباس، نحكم حكمًا قاطعاً بأنّ أصحابها عرفوه أو لبسوه، أو نوعًا من الأطعمة عرفنا أنّهم أكلوه، وبعكس ذلك خُلْوها من أسماء بعض الأدوات، فإنّه يدلّنا على جهلهم إيّاها... وإنّ **عربيّة** ما قبل الإسلام كانت من أغنى لغات الأرض؛ بما توفّر لقاموسها الكبير من مسكوكات وحِكَم وأمثال ومصطلحات... وحصل فيها الثّراء في المترادفات التي تدلّ الكلمة فيها على عشرات/ مئات على معنى واحد/ معان متشابهة/ تضاد، وتوسّعت العربيّة في مدلول اللفظ حتّى تعدّدت معانيه بالقوّة والفعل. وصاحبت العربيّة عرب ما قبل الإسلام في تجارتهم واقتصادهم، بكثرة الألفاظ الدّالة على المال، وغيرها من المصطلحات ذات العلاقة من أسماء النّقود والذّهب والفضّة، وقسْ على ذلك أمثالهم وعباراتهم ولطائف لغتهم في الفنّون العقليّة التي تحتاج إلى تفكير ومنطق كالأحاجي والألغاز وفُتيا العرب... وفي ذلك المخاض الاحتكاكيّ أعطى العرب كما أخذوا ونقلوا وتركوا، وأبدعوا بلغتهم التي تركت بصماتها حيث ارتحلوا، وحيث أقاموا. إنّها **عربيّة** التّأسيس التي جاءت على إثرها **عربيّة** التّرصيص بما لها من مقوّمات جديدة، ولكنّها هي أفكار وآداب لا ينبغي تحقيرها بمصطلح (الجاهليّة) على أنّها صحراء قاحلة. ألم يظهر فيهم النّابغة+ الشّاعر الفحل+ شاعر الحكمة+ علاّمة... وما وصلنا إلاّ القليل من الشّعر، وهناك الخطابة والعلوم ومختلف الفنّون التي ضاعت بفعل اللاستقرار، والحضارة لا تحصل إلاّ بالاستقرار. «... وكانت العلوم التي أخذوا جزءاً منها عن اليونان والفرس، وكذلك الرّياضيات، أما علوم ما وراء الطّبيعة، فبعضها انقرض كالكهانة والقيافة والزّجر، وبعضها تبدّل وتقدّم كتعبير الرّؤيا وخطّ الرّمل، فنقدّم الكلام في الأهمّ منها»، وهذا ما يقوله صاحب (تاريخ التّمدّن الإسلامي) ج5، ص 56.

6 – العربيّة قبل الإسلام:

تشير المصادر بأنّ العرب سكنوا شبه جزيرة العرب منذ غابر الزّمان، وكانوا بدواً رُحّلاً يسعون وراء الكلأ والغزو وكسب مئات الجمال في صحراء لا حدود لها، ولم تكن لهم لغة واحدة مشتركة، فتنوّعت لهجاتهم الضّيقة رغم بعض القواسم الخاصّة التي تتعلّق بالماء والرّعي وتبادل المصالح. ولكن الشّيء الذي أكّدته المصادر أنّ تلك اللهجات تبعد قليلاً عن **عربيّة** اليوم، وكانوا يسمّونها بعربيّة الجنوب مثل الحميريّة، إضافة إلى لهجات مثل المَهْرِية والشّحْرِيّة وتختلف عن بعضها البعض، كما تختلف عن **عربيّة** العصر الجاهليّ. ومما لا خلاف فيه أنّ بجوار هذا **اللسان العربيّ** كانت القبطيّة في بلد الأقباط، وتزاحمها اليونانيّة. والقبطيّة هي لغة المصريين وقد سبق استعمالها قبل الفتح الإسلامي، وظلّت اللغة القبطيّة منذ ظهورها لغة الكلام والعبادة بالمسيحيّة، وهي في بعض الآراء تطوّر للّغة المصريّة القديمة. ولكن وجود استعمال العربيّة بشكلها اللهجي كان موجوداً في بلاد مصر من خلال تنقّل التّجار العرب، والدّليل أنّ الفتح الإسلامي لمصر كان سهلاً ودون مصاحبة التّراجمة، وحصل القبول الطّوعيّ، ولم يحدث الصّراع اللغويّ بتاتاً، فقد أصدر والي مصر (عبد الله بن عبد الملك) أمر إحلال العربيّة بدلاً من القبطيّة، وحصل التّعريب الكلّي دون مضايقات. ومع ذلك ظلّت القبطية في الكنيسة، ولكنّها حصل أن تأثّرت بالعربيّة ووقع فيها التّعديل في بعض الحروف، وكتبت التّعاليم المقدّسة بالحرف العربي بعد الفتح الإسلامي. وفي شمال أفريقيا وجدت اللغة البربريّة؛ وهي إحدى اللغات القديمة التي تنتمي إلى عائلة اللغات الأفروآسيوية، بينما كانت اللاتينيّة هي لغة الكتابة، وقد قاومت البربريّة الهيمنة الرّومانيّة عدّة قرون، وظلّت لغة الثّقافة في شمال أفريقيا. وبعد الفتح الإسلاميّ انتشرت اللغة العربيّة بسهولة، وإن احتفظت البربريّة بمكانتها في التّواصل اليومي. كما كانت الآراميّة لغة بلاد الشّام، ولغة الثّقافة بين العراقيين حتى القرن السّابع الميلادي حين دخل الإسلام، وتمثل هذه اللغة مزيجاً بين اللغتين الأكديّة العراقيّة والكنعانيّة السّورية، ورغم سيادة الإمبراطوريّة الفارسيّة على المنطقة، ومحاولات الفرس فرض لغتهم وديانتهم؛ فقد ظلّت اللغة الفارسيّة لغة البلاط ورجال الدّين المجوس هناك فقط، وحافظ العراقيون على لغتهم وديانتهم. وبعد الفتح أصبحت العربيّة لغة ساكنة الشّام والعراق؛ بسبب التّقارب اللغويّ، فضلاً

عن التّقارب الكبير بين عرب الجزيرة والعراقيين؛ بسبب الاتّصالات السّكانية والحضاريّة، ونعلم الدّور اللغويّ الرّياديّ الذي قدّمته مدينتا البصرة والكوفة للنّحو العربيّ.

ومع كلّ ما يمكن أن يقال، فإنّ العربيّة أشهر اللغات السّاميّة على أرجح الأقوال، وفيها آراء متباينة حول نشأتها وتطوّرها، واختلفت الآراء، ولكن الشّيء الذي نستقرّ عليه بأنّها لغة العرب القدامى؛ لغة قحطان ارتبطت بالشّعراء القدامى أمثال: المهلهل بن ربيعة وامرئ القيس بن حجر، وذهب بعضهم إلى القول بأنّ عمر الشّعر العربي سبعة قرون قبل الإسلام. والمهمّ هناك **عربيّة** نالت تسميات عديدة لغة مكة والحجاز/ لغة اليمن/ لغة الشّعر الجاهلي/ اللغة الصّافيّة... والمتتبّع للدّراسات اللغويّة المقارنة ترى بأنّ **عربيّة** العصر الجاهلي تضمّ عناصر لغوية قديمة لا توجد في غيرها من لغات جزيرة العرب القديمة، كما أنّ بعض النّقوش التي خضعت للدّراسة: نقش أمّ الجمال/ نقش النّمارة/ نقش زبد/ نقش حران/ نقش أمّ الجمال رقم 2/ نقش قرية ذات كاهل، كتبت بلغة **عربيّة** صريحة تخالطّها بعض الظّواهر اللغويّة النّبطية الآراميّة. وأنّ العربيّة الفصحى بدأ ظهورها وانعزالها عن أخواتها منذ القرن الثّالث الميلادي، وعرفت مسار طفولتها حتى وصلت مكتملة في العصر الجاهلي ووقع الإبداع فيها وبها ومنها في أرقى قصائد المعلّقات، عند قبائل شبه الجزيرة العربيّة. وبها نرى الأدب العربي في العصر الجاهليّ يقدّم لنا صورة متكاملة للّغة العربيّة المتطوّرة التي عرفت مراحل التّهيئة والتّرقيّة والتّطوير بصورة المكتوب والمنقول والشّفاهي.

وحصل للعربيّة الكثير من الثّراء اللغويّ عبر محطّات زمانيّة في بيئة مفتوحة، وعبر لهجات تقاربت من أجل الإبداع، وضرورة الاحتكاك للتّفاهم، في صراع البقاء للّغة الأقوى؛ والتي تُستعمل في مواسم الحجّ والمعاملات التّجارية والأسواق واللقاءات الخاصّة، وفي الحروب والغزوات وأيام العرب وما إليها. وعندما اشتبكت في صراع لغويّ كان النّصر فيها للغة مشتركة؛ استمدّت أبرز خصائصها من لهجة قريش التي طغت على سائر اللهجات الأخرى. وكانت للمناظرات الأدبيّة في أسواق مكة/ سوق عكاظ/ ذي المجاز/ المجنّة... دور مهمّ في صقل وتهذيب اللغة العربيّة الفصحى، والارتقاء بها إلى ذلك المستوى المتأدّب.

7ـ تعريب السّاكنة مع الفتوحات الإسلاميّة:

يقصد به التّأثير العربيّ منذ الفتوحات الإسلاميّة للمناطق غير العربيّة، مما أدّى إلى اعتمادها التّدريجيّ للّغة العربيّة/ دمجها في الثّقافة العربيّة والهوية العربيّة والإسلام،ـ وهذا خارج شبه الجزيرة العربيّة من خلال الفتح الإسلاميّ/ التّجارة. وكانت العربيّة مصدرا رئيساً للمفردات لمختلف اللغات. بلغت هذه العملية ذروتها في القرن العاشر إلى القرن الرّابع عشر، وهي نقطة الثّقافة العربيّة، وحصل هذا بالقوّة بعد الفتوحات الإسلاميّة، وقبلها كان بالقوّة النّاعمة المصحوبة بالمال والغذاء وتبادل المنفعة، وقد مسّ التّعريب مناطق محاذية لبلاد العرب، إلى جانب تلك المناطق التي وصل إليها العرب على غرار شمال أفريقيا وشبه جزيرة إيبيريا والبرتغال، وإلى بعض الدّول في آسيا، كما مسّ دول السّهل/ السّاحل والسّودان وتشاد والنّيجر ونيجيريا والكاميرون وجمهوريّة أفريقيّة الوسطى. ولم يقع التّعريب في مفهومه استعمال العربيّة في مختلف الأنشطة التّواصليّة إلاّ بعد مجيء الإسلام، فتعرّبت مصر والسّودان بشكل كامل، حتى صلوات الأقباط تتلى بالعربيّة، كما تمّت عمليّة تعريب شمال أفريقيا، وجاء ذلك في نصوص دساتيرهم وفي مواثيقهم الرّسميّة.

8ـ حُجَجُ استعمالِ العربيّة في أفريقيا قبل الفتح الإسلاميّ:

هناك الكثير من الدّراسات ترى بأنّ العربيّة كانت موظّفة في شكلها البسيط ذات العلاقة بقضاء المصالح المرسلة، على غرار استعمال بعض مصطلحاتها ومسكوكاتها في طريق الحرير، باعتبار العرب تجاراً لم يتركوا بلداً إلاّ وأقاموا معه أسواق المقايضة وتبادل المنافع، وكيف بهم أن يصلوا إلى أقاصي آسيا، وبلاد السّند والقوقاز، وتفصلهم البحار، ولا يدخلون أفريقيا التي يأتوها براً وبحراً، عن طريق بلاد القبط/ مصر. وما يجب أن نعلمه بأنّ موقع العرب الجغرافيّ وأفريقيا لا يفصل بينهما إلاّ البحر الأحمر، ومساحة ضيقّة جداً. ولذلك كان العرب والأفارقة على تواصل دائم عن طريق تبادل المصالح المرسلة التي تجسّدت في التّجارة عن طريق الملح، وهذا قبل مجيء الإسلام. وذكر (ابن خلدون) هذا الأمر «إنّ اللغة العربيّة دخلت إلى إفريقيا قبل خمسة آلاف سنة عبر المداخل الجنوبيّة والشّماليّة لساحل البحر الأحمر، وأطلقوا على ساحل أريتيريا آنذاك، اسم بلاد الحبشة وبلاد (الزّيلع) وكان

عرب شبه الجزيرة العربيّة عامّة، وعرب اليمن، وحضرموت وعُمان خاصّة، هم أوّل من عرف منطقة شرق أفريقيا، قبل غيرهم من الأمم الأخرى، وحتى قبل ظهور الإسلام بعدّة قرون. فقد استطاع العرب –ومن خلال رحلاتهم البحريّة– أن يعبروا مضيق باب المندب منذ أقدم العصور، وأن يكتشفوا البلاد الواقعة على السّاحل الشّرقيّ الأفريقيّ من بلاد الدّناقلة والحبشة شمالاً، وحتى موزمبيق ومدغشقر جنوباً[0]». ولما جاء الإسلام، فقد كان للمسلمين أوّلُ لجوء سياسيّ إلى بلاد الحبشة، واستقرّ بعضُهم هناك، وتفاهموا بلغة مشتركة وهي العربيّة. ولما بدأ الإسلام يشتعل، وصلت دُفْعات كبيراتٌ من العرب عن طريق شمال أفريقيا، باستخدام مسالك تجاريّة قديمة عبر الصّحراء الكبرى، وقد عبد التّجار طريق التّلاقي والتّفاعل بين الأفارقة في الشّمال (البربر) والأفارقة في الصّحراء/ الجنوب/ السّهل مع (الزّنوج) وبدأ يمسّ القارّة الأفريقيّة عامّة «مسلك ورقلة إلى صحراء مالي، وما قامت به مدينة تيهرت من مدّ جسور التّواصل إلى الصّحراء الكبرى بغرض التّجارة... كما ضمنت تيهرت وصول السّلع السّودانيّة إلى مدن إفريقيّة[0]» وحصل تفاعل بين الحواضر العلميّة، مع ما صاحبها من حركة انتقال العلماء والطّلبّة، وبذلك حدثت روابط ثقافيّة عبر القرون، وهذا التّفاعل تمّ بقوّة ناعمة خلال العصور الوسطى القديمة حتى عمّ الإسلام كلّ القارة. كما شهدت المدنُ السّاحليةُ حركةً تجاريّةً نشيطّةً في جلب الدّافع بين التّجار العرب والأفارقة.

وعلى العموم كان للعربيّة موقعٌ استراتيجيٌّ معاصرٌ بما لها من موقع سابق في دول السّهل/ السّاحل وعُمق أفريقيا وفي شرقها، فالأمور متفاوتّة من مملكة أفريقيّة إلى مملكة، وما يمكن تأكيده أنّ العربيّة كانت بشكل من الأشكال من بين لغات الخطاب التّجاري العامّ. ولقد بصُرت بمجموعة من الحجج التي ترى وجود استعمال العربيّة بشكلها البسيط لقضاء الأغراض التّواصليّة:

الحجّة الأولى: تشير كتب التّاريخ أنّ الجزيرة العربيّة واليمن مقصد العلماء، وبخاصّة ما تأكّد في القرن الخامس الميلاديّ الذي عرف مدنيّة، وكانت العربيّة راقيّة في أساليبها ومعانيها وتراكيبها وأمثالها وحكمها، واللغة مرآة عقول أصحابها ومستودع آدابهم، وأنّ مبلغ اللغة العربيّة الرّاقيّة حصل لها بتوالي الأدهار، وهذا ما أبانته الاكتشافات الأثريّة من بقايا التّمدّن في اليمن قبل الإسلام بقرون، فضلًا عمّا ظهر من فضل العرب وأعراقهم في المدنيّة والعلم، مما قرأوه من آثار بابل وآشور، وما تركته دولة (حمورابي) من سبق المدنيّة في ما وصلت إليه شرائعهم وقوانينهم. وأنّ الحموراببين/ عمالقة العراق أقدم من أنشأ المدارس لتعليم الصّغار على نحو ما هو جارٍ الآن، وقد كشفوا في آثار زيبارا أنقاض مدرسة لتعليم الأطفال... فإذا صحّ أنّ هذه الدّولة عربية، كان العرب أسبق أمم الأرض إلى سنّ الشّرائع وتنشيط العلم، وأنّهم بلغوا في نظام الاجتماع ما لم يبلغ إليه معاصروهم، وأدركوا من الرّقي الاجتماعيّ مدارك الأمم المتمدّنة. ولا ننسى (سفر أيوب) والمرجّح عند المحقّقين «أنّ صاحب هذا السّفر في التّوراة عربيّ الأصل، نظم ذلك الكتاب شعرًا عربيًّا في نحو القرن العشرين قبل الميلاد على أثر نزوح الحموراببين من بين النّهرين، ثم ترجم إلى العبرانيّة وعدّ من الأسفار المقدّسة، وضاع أصله العربيّ كما ضاع أصل كليلة ودمنة الفارسيّ. فإذا ثبتت **عربيّة** (سفر أيوب) كان العرب أسبق الأمم إلى قرض الشّعر؛ لأنّه نظم قبل إلياذة (هوميروس) بألف سنة وقبل (مهابهاراتة) الهند بعدّة قرون». وهذا يعني أنّ بلاد العرب كانت مقصد التّعليم قبل الإسلام، وكانت العربيّة لغة التّعليم، وأنّ المتعلّمين يأخذون علمها إلى بلادهم، ويعملون على نشره بلغة التّعليم.

الحجّة الثّانيّة: عامل الهجرات، وكانت هجرة العرب إلى أفريقيا قديمة قِدم اختلاط الشّعوب واحتكاكها. ويقول حلمي الشّعراوي «إنّ في القرنين السّابقين للميلاد، انتقلت جماعات من العرب عبر سيناء إلى مصر، متتبعة السّاحل الشّمالي، وبعضها اتّجهت غربا، ثم جنوبا عبر الصّحراء الكبرى»[0] وذكر إبراهيم طرخان ما يفيد أنّ أصل مؤسّسي دولة غانة من وادي دجلة والفرات». والمعلوم أن تأسيس إمبراطوريّة غانة القديمة يرجع إلى ثلاثة قرون قبل الميلاد. وتنصّ بعض كتب التّاريخ على وجود اليمنيين في كوكيا – الواقعة في الشّرق من جمهورية مالي الحالية– في وقت مبكّر، ويرجع إلى بداية القرن السّابع الميلادي». إذن لا غرابة إنْ اعتبرنا حجّة عامل الهجرة دامغة في إيصال العربيّة إلى أفريقيا، وبواسطتها تمّ الاندماج الكلّي والتّزاوج بين الأفارقة والعرب، فدخلت بذلك عدة مفردات وتعابير **عربيّة** في تلك المناطق. وتشير كتب التّاريخ – دون القطع في المسألة– بأنّه حدثت هجرة العرب لشمال أفريقيا بما

قبل الميلاد، ولكن ما وقع تأكيده هي هجرات قحطانيّة من جنوب الجزيرة العربيّة، قبل آلاف السّنين، والذي سجّله التّاريخ كذلك هجرة الكنعانيين الفينيقيين في منتصف الألف الثّانيّة قبل الميلاد، وأقاموا مُدنا ساحليّة تجاريّة، وأخرجوا عن طريقها بني عمومتهم البربر من العصر الحجريّ، وأدخلوهم في التّاريخ، وأسّسوا إمبراطوريّة قرطاج الذي يعتبر تأسيسها تزاوجاً بين الكنعانيين والبربر.

الحجّة الثّالثة: الهجرة إلى بلاد الحبشة، ولم تكن لتحصل إلاّ بممهدّات سابقة، ولهذا كانت هجرة المسلمين للحماية والرّعايّة في كنف ملك الحبشة المسيحيّ، ولا شكّ أنّ العلاقات التّجاريّة كانت سائدة، وأنّ وسيلة التّفاهم ثابتة. وتشير كتب التّاريخ بأنّ العرب أنشؤوا أسواقاً تجاريّة في بلاد الحبشة، وكثر عدد الوافدين العرب إليها، وأدّى الاختلاط إلى سهولة التّواصل، وذلك ما مهّد للفاتحين الانتشار في الهضبة الحبشيّة وإريتريا وبلاد البجّة، وقامت الإمارات الإسلاميّة على ساحل البحر.

الحجّة الرّابعة: انتشار العربيّة بمُصاحبة الهجرات: إنّ **عربيّة** العصر الجاهلي كانت راقيّة ولم تكن مكتملة، ولا شكّ أنّها عرفت تهيئة عبر الاستعمال لدى أهلها وعند غير أهلها، وإنّ تاريخها الطّويل الذي كشفه علماء اللغات بأنّها قديمة جداً، وسارت في مضارب الأرض، ويقول (عباس محمود العقّاد) في كتابه (الثّقافة العربيّة أسبق من ثقافة اليونان والعبريين) «... المقابلة بينها وبين أخواتها السّاميّة يدلّ على أنّ التّطوّر لا يتمّ في بضعة أجيال، ولا بدّ له من أصل قديم يضارع أصول التّطوّر في أقدم اللغات، ومنها السّنكسريتيّة وغيرها من اللغات الهنديّة الجرمانيّة». ولهذا حصل لها الاستعمال في أراضي العرب وفي غير أراضي العرب حتى أصبح لها قانونها النّحويّ، وأحكامها في الإعراب، وصيَغ المشتقات، وأوزان الجمع والمثنّى وجموع الكثرة والقلّة، وحروف الجرّ والعطف، وسائر الحروف التي تدخل في تركيب الجملة بمعانيها المختلفة، وتولّدت فيها مداليل جديدة، وانفصلت إثر ذلك عن أخواتها السّاميّة. وما يُعزّز هذه الحجّةُ أنّ العرب كانوا من ساكنة الصّحراء المحبّين للهجرة والتّرحال، قبائل بدو كلّ مستقلّ عن غيره، وكلّ ينظر بعين طليقة من القيود، وكلّ في بيئة تجري دون حدود؛ حيث كانت الذّخيرة العقليّة عندهم ما تتوارثه القبيلة جيلًا عن جيل. وإذا كانت اللغة من الذّخيرة التي تدلّ على الحياة العقليّة لأمّة من الأمم، لا شكّ أنّها سايرت الهجرات، وتنامت عبرها الكلمات، وظهرت فيها المسكوكات التي عَمِلَت على الحفاظ على فكر هؤلاء العاشقين للهجرات، تناسب بيئتهم، وتعبّر عن انشغالاتهم في كلّ مقاماتهم. والنّاظر إلى اللغة العربية، والأدب العربيّ، في ذلك العهد يراها نتيجة طبيعيّة لتلك الحياة، وصورة صادقة لتلك البيئة، فألفاظ اللغة في منتهى السّعة والدّقة، إذا كان الشّيء الموضوع له اللفظ من ضروريات الحياة في المعيشة البدويّة التي تعرف التّرحال باستمرار، وتعبّر عن كلّ البقاع التي سكنها أهلها البدو.

الحجّة الخامسة: التقت مصالح العرب الاقتصاديّة عبر طرق التّجارة والحجّ، فالبضائع والسّلع التي كانت تنقل من الشّرق إلى الغرب، وكانت تعبر معها الثّقافة كجسر للتّواصل بين العقول، وبذلك توسّعت المدارك، وانتقلت المعرفة من مكان لآخر. وهذا ما نقرأه من وجود ثلاثة مسالك رئيسة كانت معبراً للسّلع وللدّين: صحراء سيناء إلى شمال أفريقيا+ البحر الأحمر إلى بلاد النّهرين+ المحيط الهندي إلى أفريقيا الشّرقيّة، دون الحديث عن طريق الحرير القديم، الذي كان يربط أعرق حضارتين في العالم؛ الحضارة الشّرقيّة وتمثّلها العربيّة، والحضارة الصّينيّة وتمثّلها اللغة الصّينية. وعبر هذا الطّريق تشير الرّوايات بأنّ الخليفة (عثمان بن عفان) أرسل مبعوثه إلى الصّين في عامّ 651م لنشر الدّين الإسلامي، وعبره أيضا انتقلت الاختراعات بين الجانب العربيّ والصّينيّ، مثل صناعة الورق واختراع البوصلة والتّمهير في فنّ الطّباعة، وتطوّرت العلوم الطّبيّة. ويضرب التّواصل بين العرب والصّين بجذوره إلى أعماق التّاريخ، وهو تواصل حضاري يمثّل الحوار الإيجابيّ الذي لم يشهد صدامات ولا صراعات، وإنّما شهد تبادلاً اقتصادياً وثقافياً، وتعاوناً سياسياً، عبر طريقي الحرير والعطور، اللذين ربطا الصّين والعالم العربي بعضهما بعضاً. وإنّ عامل التّجارة مهمّ في الجانب اللغويّ، وما يعرف عن العرب أنّهم أصحاب تجارة، وكانوا مُمارسين لها بشكل كبير؛ بحُكم وجودهم في أرض قاحلة ليس لها الخيرات التي ينشغلون فيها مثل الفلاحة والزّراعة، وتبقى التّجارة هي الملاذ الآمن في الغذاء اليوميّ. وبذلك ساحوا في بلاد الله، واختلطوا بغيرهم، وكانوا يقصدون البلدان والأسواق. ومهّدوا طرقاً تجاريّة عبر الصّحراء الكبرى. ولقد كانت لهم أرض أفريقيا موطن شراء/ بيع العبيد، فقصدوها في تجارة الرّقيق والملح، حتى سمّوا الطّريق الذي يسلك بـ(طريق

الملح). وعامل التّجارة شهد به القرآن. ولقد كانت رحلات القرشيين التّجاريّة شتاء وصيفاً، وما كان يُقام على مقربة منهم من كلّ عامّ من مهرجانات أدبيّة كسوق عكاظ والمجاز وذي المجنّة، والكعبة التي كان يحجّ إليها من العرب ومن غير في الجاهلية سنوياً، ويسعون إليها من كلّ فجّ عميق. وبذلك لم تكن العربيّة محصورة في شبه الجزيرة قبل الإسلام، وبعد الإسلام زاد انتشارها معه شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، من أواسط جبال الهند إلى جبل طارق، ومن البحر الأسود إلى بحر العرب، ودخلت في صراع مع ثقافات ولغات أخرى كالفارسّية والهنديّة، والقبطيّة والبربريّة. وخرجت من هذا الصّراع منتشرة أكثر ممّا كانت عليه قبل الإسلام، بل حلّت محلّ اللغات المحليّة بجدارة.

وإنّ حجّة/ عامل التّجارة من أهمّ العوامل التي جعلت لغة العرب تنال الانتشار، وبخاصّة في الأسواق المعروفة آنذاك على غرار سوق مدينة عيذاب؛ وهذه المدينة هي إحدى مدن وموانئ البحر الأحمر الشّهيرة بفعل اعتمادها على حركة التّبادل التّجاري، وكانت محطّة رئيسية رابطة بين كل من بلاد الحجاز ومصر وبلاد السّودان، وتعدّ من أكبر مرافئ الحجاز من العدوة الأفريقيّة. ثمّ مركز (مرزق وزويلة) الذي كان له فضل التّواصل التّجاريّ مع بلاد البرنو وشعب الهوسا، فضلاً عن علاقته الجواريّة مع طرابلس وغدامس عن طريق مصر، وكان محطّة تجارية مهمّة تتجمع فيها القوافل التّجارية من أنحاء بلاد المغارب وتتّجه إلى كانم وبرنو وتمبكتو. وسوق مدينة (أوذغست) في مدينة السّودان الغربيّ، وكانت تعتبر حاضرة من حواضر غانة. وسوق مدينة (تمبكتو) على الحافة الجنوبيّة من الصّحراء الكبرى، وتعتبر حلقة وصل بين السّودان الغربي والصّحراء، وشهدت هذه المنطقة حركة تجاريّة كبيرة اختلطت فيها الأجناس، وكان حضور العرب التّجار كبيراً.

الحجّة السّادسة: عامل التّجارة قبل وبعد الإسلام؛ وهي مسلّمة عليّ تأكيدها بحكم ما لها من أثر في دخول قارة أفريقيا؛ حيث يعود التّواصل العربي مع شرق القارة الأفريقيّة إلى عصور ما قبل الإسلام، مع نشاط حركة التّجارة في خليج عدن وعبر بحر العرب والمحيط الهندي. كما أشارت الدّلائل في فترة حكم الأمويين إلى تسارع التّواصل والتّفاعل نحو أفريقيا، وكان معظم التّجار من قبيلة الأزد، أضف إلى ذلك وصولهم إلى ساحل الزّنج. وكانت الهجرات العربيّة موغلة في القدم، وعرفت دفعات وربّما موجات بفعل الانتقال هروباً من القحط أو النّوازل... والذي يهمّنا أنّ عامل التّجارة أدّى إلى التّواصل العربي الأفريقيّ على شكل أفراد وجماعات قديمة متلاحقة عبر الأزمنة، وتمّ ذلك عبر منافذ الشّرق والشّمال والغرب، «فمن ناحية الشّرق نزحت بعض القبائل العربيّة وسكنت السّاحل الشّرقي المقابل للجزيرة العربيّة، وتجاوزته إلى السّودان الأوسط والغربي أحيانًا، بينما نزح بعضها إلى الشّمال عن طريق وادي النّيل، ونزح بعضها إلى الشّمال الغربيّ أو الطّريق الليبي الذي كان مصدرًا لكثير من الهجرات القديمة والحديثة». والمكسب من هذا أنّ الصّلات العربيّة الأفريقيّة كانت قائمة قبل/ بعد الإسلام، ولم تنقطع، وزادت بقوّة بعد الإسلام، وأدّى ذلك إلى ازدياد وشائج الاتّصال العربيّ الأفريقيّ؛ «لأنّ الإسلام أمدَّ العرب بسياج دينيّ وفكريّ ساعدهم على خلق وحدة وطنيّة وازدهار نهضة ثقافيّة، ومنذ البدء صار الإسلام الرّكيزة الأساسيّة للثّقافة العربيّة الجديدة، كما أصبحت اللغة العربية لغة القرآن الكريم، حاضنة الفكر الإسلاميّ والثّقافة الإسلاميّة، وتحت راية الإسلام خرج العرب صوب الشّرق والغرب والشّمال لإعلاء كلمة الله». وكان مسلك العرب في ربط العلاقات التّجاريّة عبر طريق الشّمال السّاحلي، والذي يربط آسيا بأفريقيا بواسطة برزخ السّويس، وطريق منخفض بينويه الممتد من وادي نهر لوقون حتى بُحيرة كوار (تشاد)؛ فقد كان هذا الطّريق بمثابة حلقة وصل تربط بين المحيط الأطلسي وبلاد حوض البحر الأبيض المتوسّط سواء عن طريق المنفذ البحريّ أم السّاحل أو المنفذ البريّ عبر طريق القوافل الصّحراويّة، وطريق جنوب شرق أفريقيا، فيما بين البحيرات طريق دخلت منه القبائل العربيّة، حتى وصلت إلى جنوب أفريقيا ووسطها، منذ قرون طويلة، وهناك طرق فرعيّة أخرى كثيرة ليس من الضّروريّ الإشارة إليها. والمهمّ أنّ القبائل العربيّة تتزاور وتتاجر مع الأفارقة حتى مكّنت العلاقات الثّقافيّة التي مهّدت لموقع وجود استعمال العربيّة في أفريقيا.

الحجّة السّابعة: تُعزى سُرعة انتشار الإسلام في صُفوف القبائل البربريَّة إلى التّشابه الكبير في ظُروف الحياة والعادات والتّقاليد بين العرب والبربر، فكِلا الطّرفين كانا من ساكنة مناطق قاسيّة الطّبيعة والمُناخ، وبعضهم عاش حياةً مُتطابقة تقريبًا، كبَرْبَر الصّحاري وبدو العرب. إضافة إلى جموحهم في الحماسة والدّفاع عن النّفس، وحبّ الحريّة والرّغبة في الحروب والجهاد

والمغامرة، وهذا ما جعلهم في ظرف قصير ينتشرون في بلاد العالم، بل يجتازون جبل طارق إلى أوربا؛ لذا جاء التّفاهمُ البينيُّ سريعاً بين بربر أفريقيا وأعراب شبه الجزيرة العربيّة.

الحجّة الثّامنة: الخليط العرقي بين ساكنة أفريقيا، ففيها العرق البونيقيّ والرّومانيّ والزّنجيّ والمازيغيّ والأبيض الصّافيّ والأوربيّ واليهوديّ، وقد استوطن أفريقيا الكثير من الأجناس والقبائل، وهناك أقليات **عربيّة** وكلّ هذا الخليط حصل بفعل الهجرات والتّنقلات ومضارب الأكل ومجاري المياه، وهذا كلّه عمل على المزج السّريع في التّقاليد والخليط اللغويّ الذي لم يظهر بالقوّة إلاّ في البربريّة في شمال أفريقيا. وهي من الحجّة التي عملت على امتزاج البربر بالعرب في شمال أفريقيا بعد الإسلام بشكل كبير، ويعني هذا العودة إلى نظرية الأصل الواحد، ومن الصّعب التّفرقة بين المكوّن البشري لكثرة الاختلاط، حتى ضاع صفاء الدّم.

الحجّة التّاسعة: لما ضيق على المسلمين في أوّل عهدهم بالإسلام، أمرهم الرّسول بالهجرة إلى بلاد الحبشة/ Abyssinie التي لا يُظلم فيها أحدٌ. وبلاد الحبشة بلد أفريقيّ، وله لغته، ولكن كان العرب يقصدونه في جاهليتهم، وتركوا أثراً في التّواصل البينيّ، ولذلك لم يجد أميرُهم وكبارُ المسؤولين الحبشيين صعوبة في فهم المرافعات بين المؤمنين الهاربين للحبشة، والكفّار الذين قدموا لاسترجاعهم لأهل مكّة.

الحجّة العاشرة: ويسمّيها البعض نظريّة العودة إلى الأصل، وتتعلّق بساكنة شمال أفريقيا فقط، وهي نظريّة لها ما لها من الصّواب، ولا تخلو من نقائص نظراً لتضارب الآراء فيها، ولبعض الآراء التي تنبع من العاطفة. ولكن لا بدّ من ذكرها في هذا المقام؛ حيث عنصر اللغة هو العنصر الحيّ الباقي بين أيدينا، وهو الذي يؤكّد بعض الخلافات وربّما ينفيها. فكلمة (السّاميّة) لا تنطبق على العربيّة، بل العربيّة لغة كنعانيّة، مع ما لها من قواسم منطقيّة مع اللهجات السّامية الأخرى، لأنّ بلاد العرب لم يخضع يوماً من الأيام للمستعمر. وهذه التّسميّة لا تستند على حجّة علميّة. كما أنّ الكنعانيّة الفينيقيّة كانت تستعمل لدى ساكنة البربر، وهذه اللغة لها علاقة باللغات العرويّة في مجموعاتها: المجموعة الشّرقية: الأكديّة والبابليّة والأشوريّة. المجموعة الشّماليّة: العموريّة والآراميّة. المجموعة الجنوبيّة: المعينيّة والحميريّة والسّبئيّة والأثيوبيّة والعربيّة والأمهريّة. المجموعة الغربيّة: الكنعانيّة والفينيقيّة والموابيّة والعبرانيّة والبربريّة. وهكذا نرى لغة شمال أفريقيا من جسم الكنعانيّة العدنانيّة التي نزل بها القرآن الكريم. ويعني عروبة البربر في الأصل بفعل الهجرات التي تقول إنّهم من اليمين الذين نزحوا إلى شمال أفريقيا بعد انهيار سدّ مأرب. كما نقرأ في كتاب (النّوميديون أصلهم وكتابتهم ولغتهم) للباحث أوتو روسلر/ Otto Rossler يقول: «إن اللغة النّوميديّة لغة سامية انفصلت عن اللغات السّامية في المشرق في مرحلة مغرقة في القدم». وهناك نظريات لا تسير في هذا الاتّجاه مطلقاً. وهناك بعض الأفكار النّيّرة التي ترى أنّ «الثّقافة اليونانيّة والثّقافة الرّومانيّة اللاتينيّة ما هما إلاّ شرفة صغيرة في صرح الثّقافة العربيّة الكبير، وأنّ النّزعة التّعصبيّة الأوربيّة أخفت هذه الحقيقة لتبرز زورا أن جذور الحضارة الأوروبيّة يونانيّة". ينظر پيير روسي/ Pierre Rossi، La Cité D'Isis histoire Vraie des Arabes .

الحجّة الحاديّة عشرة: خطبة طارق بن زيّاد: هي خطبة راقيّة عاليّة معنى ومبنى، فإذا كان البربر الذين دخلوا الأندلس يعرفون العربيّة لا شكّ أنّهم يفهمونها ويتفاعلون معها، بل يستجيبون لحماستها، والخلاف بأيّة لغة ألقيت؟ وهل كتبت له أم من وضْعِه؟ وما لا خلاف فيه أنّ (طارق بن زيّاد) رجل فذّ؛ يعني مدرك وعسكريّ وحكيم، ويعرف اللغات، وهو مطّلع على قضايا السّياسة، والدّليل أنه كان مهندس فتح الأندلس. فلا يُعقل أن ينسجم مع المسلمين ويصبح مسلماً، وعمره يتجاوز العشرين سنة، ولا يعرف العربيّة ولو في الخطاب التّواصليّ، ومن خلال الشّيوخ والمفسّرين للقرآن؛ يعني امتلك ناصيّة اللغة العربيّة، كما يعني أنّ حبّ الدّين الإسلاميّ يجعلك تفهم لغته في ظرف وجيز، وتستطيع أن تدبّج كلاماً حماسياً من ثراء العربيّة بسهولة، رغم أنّ الموقف حماسيّ، ولا يعني الفهم الدّقيق، بقدر ما يعني ربط الفتح باللغة العربيّة. وهنا سرّ ذكاء (طارق) في نسج الخطبة الرّائعة، والتي يقول فيها «أيّها النّاس أين المفرّ؟ البحر من ورائكم، والعدوّ أمامكم، وليس لكم واللهِ إلاّ الصّدقُ والصّبرُ، واعلموا أنّكم في هذه الجزيرة أضيعُ من الأيتام في مأدبة اللّئام، وقد استقبلكم عدوّكم بجيشه وأسلحته. وأقواتُه موفورة، وأنتم لا وزرَ لكم إلاّ سيوفُكم، ولا أقواتَ إلاّ ما تستخلصونه من أيدي عدوّكم، وإن امتدّت بكم الأيام على افتقاركم ولم تُنجزِوا لكم أمراً ذهبت ريحكم، وتعوّضت القلوب من رعبها منكم الجراءةَ عليكم، فادفعوا عن أنفسكم هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذه الطّاغيّة» المقرّي، نفح الطّيب، 1/ 240. وفي ما تعني هذه الخطبة أنّ (طارق

بن زيّاد) وأمثاله من الفاتحين يمتلكون طاقة لغويّة جبّارة في الثّقافة الإسلاميّة بسرعة، نتيجة الاختلاط السّابق بالتّجار؛ لدرجة أنّهم أصبحوا ظهير الإسلام المتين في شمال أفريقيا، وأصبحوا من حُماة الدّين، وهم يجهلون لغة هذا الدّين. فلا يُعقل أن يحصل هذا في ذلك الظّرف بالنّسبة لخاصّة الخاصّة، وليس لعموم النّاس، ونعرف بأنّ مسار التّعريب كان بطيئاً. فبعد مرور قرن ونصف على حملة (عقبة بن نافع) أصبح الإسلام الدّين الغالب في مناطق البربر، ومن ذلك عكس التّعريب تمكّنه بمرور الوقت.

الحجّة الثّانيّة عشرة: من المعروف أنّ الدّين الإسلاميّ والعربيّة دخلا معاً إلى أقاصي آسيا، ومسّ: بلاد السّند+ بلاد آسيا الوسطى+ أجزاء من أورپا الشّرقيّة+ أطراف من أورپا الغربيّة+ قارة أفريقيا، وتفاعل الدّين مع العربيّة في مناطق حدث فيها التّعريب على غرار: الأهواز+ دولة العثمانيين+ شمال أفريقيا، ولكن في ظرف وجيز نال الإسلام مجده وبقيَ في كلّ تلك البلاد، بينما اللغة العربيّة عادت إلى شبه الجزيرة العربيّة، وبقيت في شمال أفريقيا ببقاء الدّين الإسلامي، وهذا ما يتكئ عليه الباحثون بأنّ العرق واحد بين عرب الذين نزل في منطقتهم الدّين الإسلاميّ، وبين العرب الذين هاجروا من منطقتهم، ويعني أنّهم عرب مستعربة، وليسوا بالعرب العاربة الذين بقوا في ديارهم. يعني بقاء الدّين مع العربيّة في بلاد المغارب، وظلّ عرب مصر في مصر، فصارت اللغة العربيّة لغة أهل البلاد جميعاً، وتوقّفت عملية التّعريب في إيران وفي تركيا العثمانيّة، وعاد النّاس إلى لغتهم الأولى، وقبسوا من العربيّة حروفها وأخذوا من ألفاظها ألوفاً، وأخذوا كذلك أساليبها البلاغيّة وعروض شعرها.

٩ـ العربيّة في واقعها الأفريقيّ الحاليّ:

بعد هذه الحُجج التي تُرينا وجود استعمال العربيّة في شمال أفريقيا، وهي ليست لغة أجنبيّة، بل هي لغة طبيعيّة تعيش في موطنها، وتعتزّ بناطقيها، ونراها اليوم بين هوى المعتدي وشغف المهتدي، وتعيش القهقرى أحياناً، وتوصم ببعض الصّفات التي لا تشرّفها أحياناً، ولكنّها صامدة حيّة تعيش صدامات عنيفة، وفي كلّ مرّة تنتصر. ونرى القارة الأفريقيّة تضمّ أربع عشرة (14) دولة عربيّة، وهي: الجزائر+ تشاد+ جزر القمر+ جيبوتي+ مصر+ إريتريا+ ليبيا+ موريتانيا+ المغرب+ السّودان+ تونس+ تنزانيا+ الصّومال+ الصّحراء الغربيّة. وهذه القارة تصنّف بين قارات العالم السّبع، كثاني أكبر قارة من حيث المساحة، وعدد السّكان بعد آسيا، والتي توجد فيها أكبر صحراء رمليّة في العالم، وتتميّز بغنى أراضيها بالثّروات الباطنية والمعادن الثّمينة وفي مقدّمتها النّفط، والغاز، والذّهب، والماس. في حين تتألّف من 54 دولة، ومجموعة جزُر ألحقت بها. وعدد الدّول التي تستعمل العربيّة لغة رسميّة هي اثنتان وعشرون (22) دولة. دون أن نتحدّث عن اثنتي عشرة (12) دولة تستعملها لغة أجنبيّة أولى، وأنّ ستّا وعشرين (26) دولة تستعملها لغة أجنبيّة ثانيّة، وهذا كمّ معتبر من العربوفونيّة العالميّة التي تعرفها العربيّة في الفضاء العالميّ، وفي وسطها الدّولي كلغة أُمميّة، برتبة خامسة، وكلغة شبكيّة برتبة ثانيّة، ولكن هناك خلل...

ومع هذا الموقع المائز، فإنّ العربيّة تنتحر في أفريقيا؛ فنرى ثلاثاً وأربعين (43) دولةً، من بين ثلاث وخمسين (53) دولة أفريقيّة تستخدم اللغات الأوربيّة كلغات رسميّة؛ حيث اختارت اثنتان وعشرون (22) دولة أفريقيّة اللغة الفرنسيّة لغة رسميّة لها، بينما توجد تسع عشرة (19) دولة أفريقيّة تستخدم اللغة الإنكليزيّة لغة رسميّة لها، في حين اعتمدت خمس (5) دول أفريقيّة اللغة البرتغاليّة لغة رسميّة لها، أما اللغة الإسپانيّة فقد أقرّتها دولة واحدة لغة رسميّة. وهناك بعض الدّول اختارت لغة أفريقيا كلغة رسميّة أولى، أو ثانيّة إلى جانب إحدى هذه اللغات العالميّة. ليس بالأمر المدهش إذا علمنا بأنّنا لم نحافظ على فِعْل الأجداد رغم أنّ الوضع الحالي تحسّن منذ خروج المستدمر من قارة أفريقيّة، ورغم الإقرار بأنّ العربيّة بدأت تستعيد بعض عافيتها في بعض البلاد، وهي مُرشّحة لنيل مقامات أحسن إذا وقع رفْعُ مُضايقاتها المُتمثّلة في: ضعف الحضور المحليِّ والعالميّ، ومزاحمة اللَّهجات القُطريَّة، وتهميشها في التَّعليم الجامعيّ والبحث العلميّ، وعلاج عزوف الجيل الجديد عن تعلُّمها، وفقرها الواضح في المعلوماتيّة. وهذا كلّه يستدعي البحث في فرَص وإجراءات جديدة لنجاحات مستقبليّة بأنّ يكون للعربيّة موقعٌ بين لغات العلم، وتقوم بوظائفها في جميع فروع المعرفة، والعمل الجاد لعودة عولمة الحرف العربيّ في لغات القارة الأفريقيّة.

إذاً هناك واقع مُؤسف يحتاج إلى علاج، وهناك واقع مُغدق مرصود، وأمل مُشرق منشود، وعلينا الاستثمارَ في الواقع المأمول، وهو واقع يحتاج إلى تجديد ومرافقة، هناك جهود وطنيّة أفريقيّة؛ علينا تثمينَها والبناءَ عليها من أجل غدٍ جيّد. ولتكن لنا خريطة فِعْل الأجداد؛ وهي الاستثمار في هذه البلاد لغوياً وماديّاً، وحمْل راية المزيد على فِعْل السّلف الصّالح عن طريق العمل على التّفقّه بالمَنْعَة للوصول إلى درجة الاجتهاد؛ بتكوين شخصيات تفتخر

بتراثها، وتُخلص في إسلامها وللغة الإسلام؛ تطبيقاً لمبدأ السّلف «ما لا يُفهَم به الواجبُ فهو واجبٌ». فما هو مستقبلها في أفريقيّة؟ علينا الاستثمار في العربيّة بقوّة في قارة أفريقيّة، وعلينا ألاّ ننسى أنّ هناك حوالى أربعين (40) لغة إفريقية من جملة 2035 لغة في العالم تلعب دوراً مهمّا، بوصفها لغات تواصل مشتركة Lingua franca. ومن حسن الحظّ أنّها لا تتمركز في منطقة محدّدة من القارة، ولكنّها تشمل القارة بمناطقها المختلفة، شرقها وغربها وشمالها وجنوبها ووسطها. علينا الوعي بأهميّة ثلاث لغات: **العربيّة والسّواحلية والهوسا**، لما لها من سعة الانتشار جغرافيا، وأنّها ذات أكثرية متكلّمة، وأنها لا ينحصر التّكلّم بها في إثنيّة معيّنة. وأنّها ذات أدب وثقافة مدوّنة، يمكن وصفها بالتّفوّق والتّميز. وعلى ساكنة بلاد المغارب الوعي بأهميّة اللغة البربريّة/ المازيغيّة، فهي مكمّلة لرصيدنا العربيّ وانتمائنا الشّرقيّ، وهي لغة الأجداد، وعلينا المحافظة على إرثها الكبير، ومدوّناتها العربيّة التي تشكّل جزءاً من حضارتنا. وعلينا الانتصار للمازيغيات من أجل مرافقتها بدل اتّخاذها حصان طروادة للاحتماء فيها وبها من أجل مطالب سياسياويّة. ونترك الباحثين النّزيهين يعملون على ترقيتها بما يرونه من طريقة لا تحيد عن فِعْل الأجداد النّاجح، فهي حالياً لغة رسميّة في المغرب والجزائر، وهي لغة التّواصل اليومي، ولها تأثيرها على اللهجات العربيّة في بلادنا. دون أن ننسى أنّ ناطقيها في ما مضى من الزّمان هم الذين رافقوا العربيّة، وأبدعوا بها، ولم يتخلّوا عن البربريّة في خطابها التّواصلي. وهم الذين نقلوا العربيّة إلى شبه جزيرة (إيبيريا/ Péninsule Iberia)، وإلى بلاد السّهل/ قارة أفريقيا التي كانت المجال والفضاء الأقرب جغرافياً، وقد تفاعلوا وتواصلوا معه على مختلف المستويات، وعبر تاريخ طويل؛ حيث وصل العرب أفريقيا استكمالاً لما تمّ قبل الفتح الإسلامي، حتى أضحى النّصف الأفريقيّ من العالم العربي يشكّل الجزء الأكبر منه اليوم، على مستوى السّكان والمساحة. وبفضل ساكنة شمال أفريقيا الأصليين تمّ تعزيز التّواصل العربيّ الشّرق الأفريقي بعد صعود حكم النّباهنة في جنوب جزيرة العرب، وتمثّل ذلك في إمبراطوريّة سونغاي+ سلطنة دارفور+ سلطنة وادي؛ وفيها نسبة معتبرة من العرب الذين لهم كَلِمَتُهم في أعيان هذه المماليك، ولهم مناصبُ رفيعةٌ واحترامٌ قلّ نظيره.

إنّ ساكنة شمال أفريقيا وحكّام المغرب الأوسط والأدنى والأقصى بذلوا جهوداً معتبرة من أجل توسّع العربيّة في أفريقيا، وعملوا على وطنتها أو عودتها إلى ديارها، بل عملوا على نشرها في خارج أوروبا، على غرار فعل (طارق بن زيّاد) وكلّ الفاتحين الذين تركوا بصماتهم في إسبانيا، ولا ننسى أنّ التّاريخ يسجّل لمنقذ الأندلس القائد العسكري (يوسف بن تاشفين) وهو من رحم البربر الذي لبّى نداء ملوك الطّوائف وأوقف التّوغّل الصّليبيّ مدّة، وهو من الخالدّين الذين حملوا لقب (أمير المسلمين) ولم يشأ أن ينازع العباسيين سلطانهم، فترك لهم لقب أمير المؤمنين. وهذا الأمير العسكريّ ترك بصمات في الفتوحات الإسلاميّة. ويقول الإمام الذّهبي في سيَر أعلام النّبلاء: «كان (ابن تاشفين) كثير العفو مُقربًا للعلماء، وكان أسمراً نحيفًا خفيف اللحية، دقيق الصّوت سائسًا حازمًا». هذا الأمير وغيره من الذين عملوا على توسيع الفتوحات الإسلاميّة لتبلغ الفتوحات مع العربيّة المناطق الصّحراوية العتيقة، وكلّ بلاد موريتانيا الحاليّة، وأجزاء من السّنغال وقطاعات واسعة من المملكة المغربيّة الحاليّة، وأجزاء كبيرة من الجزائر. وكانوا للعربيّة عارفين ولمَدارسها بانين، ولعلمائها مُكرّمين.

10ـ اللغة العربيّة والمازيغيّة مصير مشترك: هناك من يرى أنّ الإقرار بالمازيغيّة لغة وطنيّة ورسميّة سيجعل البلاد في كفّ عفريت، وستعرف البلاد المصير المجهول، وهذا يشكّل زحزحة العربيّة من الاستعمال العلمي، ويتيح للفرنسيّة –عن طريق المازيغيّة– أعلى المقام... ويبدو لي بأنّ نظرة سوداويّة ليس إلاّ لأنّ للعربيّة مقاماتها التّواصليّة العلميّة، وللمازيغيات مقاماتها التّواصليّة التّراثيّة، وهذه تُكمّل الأخرى، وهكذا. فلا خطورة في الأمر اللغويّ ما دام هناك الإقرار بالمواطنة اللغويّة؛ لأنّ العربيّة أخذت شرفها من الإسلام، ومن القرآن الذي احتضنها ونزل بها، وستبقى رائدةً سائدة لا تُنازعها لغة أخرى، وأنّ المازيغيّة أخذت شرفها من عودتها لبيتها من الباب العريض إلى جانب شقيقتها التي لم تعرف معها الصّراع. لأنّ المازيغيين الفاتحين للأندلس حملوا **العربيّة** حبّاً فيها وفي خصوصياتها، فلا داعي لإثارة الأفكار المثيرة للجدل، ومن الضّروري تأكيد مسلّمات **وصفة الأجداد** في التّعامل اللغوي المضيف، على أنّ لكل لغة مرتبة، ولكلّ لغة وظيفة، والمشترك هو خدمة التّواصل في سيرورته التّكامليّة لا الصّراع الوهمي الذي يثيره أصحاب وهج أيام الأمازيغ، بل علينا النّظر في المصير المشترك للغتين هما مصيرنا التّنموي، بدل فتح

المجال الدّاخلي لعودة لغة المستخرب التي عطّلت التّنميّة في كلّ بلاد الأفارقة التي نالتها (الفرنسيّة) عكس الإنكليزيّة التي شهدنا نوعاً من التّنميّة في (جنوب أفريقيّة+ الرّوانـدا) لعدم الخضوع للفرنكفونيّة. إنّه المصير المشترك، وهذا المصير يحتاج إلى تمتين أركانه عن طريق الرّباط الجامع الذي التفّ حوله المازيغيّون والعرب وهو الإسلام ولغة الإسلام «إنّ أبناء يعرب وأبناء مازيغ قد جمع بينهم الإسلام منذ بضعة عشر قرنا، ثم دأبت تلك القرون تمزج ما بينهم في الشّدة والرّخاء، وتؤلّف بينهم في العُسر واليُسر، وتوحّدهم في السّراء والضّراء، حتى كوّنت منهم منذ أحقاب بعيدة عنصراً مسلماً جزائرياً أمّه الجزائر، وأبوه الإسلام، وقد كتب أبناء يعرب وأبناء مازيغ آيات اتّحادهم على صفحات هذه القرون بما أراقوا من دمائهم في ميادين الشّرف لإعلاء كلمة الله؛ وما أسالوا من محابرهم في مجالسّ الدّرس لخدمة العلم، فأيّ قوّة بعد هذا يقول عاقلٌ تستطيع أن تفرّقهم؟ لولا الظّنون الكواذب والأماني الخوادع، يا عجباً! لم يفترقوا وهم الأقوياء؛ فكيف يفترقون وغيرهم القويّ؟ كلا والله بل لا تزيدهم كلّ محاولة للتّفريق بينهم إلاّ شدّة في اتّحادهم وقوّة لرابطتهم". ومن هذا المقام فإنّ التّنوّع الثّقافي مسلّمة إلهيّة جيّدة، هي فتح على لغات أخرى، وهي من سبل التّواصل الإنساني، وقيمة مضافة في التّكامل بلغتين وطنيتين، فلم يسجّل علينا أنّنا اختلفنا في المسألة اللغويّة قبل وبعد الفتح الإسلاميّ، فكيف نختلف الان بعد التّفتّح على مظاهر التّواصل بصورتها العامّة. ولا ينبغي أن نضخّم المسألة من جانب أنّ صراعاً سيحدث في المسألة اللغويّة، بل هناك وصفات التّكامل التي تحتاج إلى احتذائها والسّير ضمن حكمة السّلف الصّالح. لا مشكلة في هذه المسألة عندما ننقل الوعي الدّينيّ واللغويّ لأبنائنا لنقول لهم: «إنّ الإسلام هو الذي حرّر المازيغيّ الحرّ النّبيل من ظُلم الوندال والرّومان، ولا يمكن أن يكون الإسلام المحرِّر عاملا من عوامل الاستغلال، أو عنواناً للعنصريّة على أساس الجنس والعِرق، لأنّ الإسلام بشهادة خصومه هو الذي أسقط نظرية العِرق الأنقى والأبقى لقول الرّسول b"يا أيها النّاس، ألا إنّ ربكم واحد، وإنّ أباكم واحد، ألا لا فضل لعربيّ على أعجميّ، ولا لعجميّ على عربيّ، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتّقوى».

ـ الخاتمة: ما لا يمكن أن نختلف فيه أنّ قوافل العرب في العصور السّابقة لظهور الإسلام كانت تنطلق من الجزيرة العربيّة إلى بلاد الأقباط، مصر الحاليّة، وعن طريقها إلى بلاد السّودان وتشاد، ومن شمال أفريقيا إلى الجنوب حاملة معها البضائع مصحوبة بأنواع العلوم والمعارف، وبهذا شكّلت هذه الصّلات التّجارية بين العرب والأفارقة البدايات الأولى لانتشار اللغة العربيّة والثّقافة العربيّة في أفريقيا قبل ظهور الإسلام، ونمت هذه الصّلات وتطوّرت بعد ظهور الإسلام بشكلها السّلمي. ونرى بأنّ ذلك من الصّلة العميقة التي حصلت فيها العربيّة على مرتبة عليا أكثر من غيرها من لغات السّوق الأفريقيّة، وكان من السّهل على التّجار الأفارقة التقاط هذه اللغة عن إخوانهم التّجار. وهكذا استطاع العرب أن يؤثّروا في شعوب تلك البلدان التي دخلوها وحلّوا بين أهلها. وممّا لا شكّ فيه أنّ العربيّة لها حضور قويّ في قارة أفريقيا، وأصبحت أفريقيا تلقّب بـ (قارة لغة العرب) حيث تعوّلَمَ خطّها، ونال التّعشيق –في شمال أفريقيا– مقاماً مزجياً بين المسند ونقوش الخطّ البربريّ، وهذا يرجع إلى تمازج الشّعبين في منطقة جغرافيّة واحدة، لتخرج إلى الوجود حضارة متميّزة بطابعها الخاصّ. وفي مناطق البربر حصلت سرعةٌ كبيرةٌ في الإقبال على الإسلام، ولغة الإسلام التي أصبح تعلّمها جزءاً من دينهم الجديد، وبذلك وجدت العربيّة بصحبة الإسلام مكاناً في قلوب السّاكنة، ولم يكن ذلك ليحصل لولا التصاقها بالإسلام، وكونها لغة الدّين والدّولة والدّنيا، ولغة الفتوحات العلميّة التي أسّست لحضارة الغرب في الفردوس المفقود، وأنّ النّزيهين منهم يقرّون بأنّ الثّمانيّة (8) قرون من وجود العرب والبربر باللغة العربيّة في إيبيريا كان فتحاً علمياً عليهم، وقد استفادوا في تطوير علومهم من قاعدة اللغة العربيّة.

وفي المُحصّلة؛ كانت بعض البلاد الأفريقيّة تعرف لدى العرب قبل الإسلام باسم (بلاد السّودان/ بلاد التّكرور) مثل نيجيريا، ووصل العرب إلى هذه البلاد عن طريق التّجارة، ولم يترك العرب التّجار منطقّة من مناطق أفريقيا التي لم تكن تعرف الحدود، وأخذت تسميات عديدة من مثل: المنطقة المجهولة/ بلاد الوحوش+ أرض القفار+ بلاد الخيرات... وتفيد المصادر التّاريخيّة بأنّ العلاقات التّجاريّة فتحت البلاد أمام العلاقات الثّقافيّة التي مهّدت للإسلام، وأنّ التّجار العرب كانوا يتاجرون بقوّة، ويبقون فيها مدداً في مقايضات وتبادل للسّلع، بل إنّ البعض منهم يستقرّ ويتصاهر ويصبح من السّاكنة. ومن بعد الإسلام كانوا السّباقين لقبوله ونشره، وأصبحوا يحملون الإسلام ولغة الإسلام؛ حيث كان لمعاملاتهم وتصرّفاتهم الدّينيّة أثر في

ساكنة هذه البلاد في نشر العربيّة وثقافتها. ومن بعد الفتح الإسلاميّ دخل الإسلام مصحوباً بالعربيّة رتقاً ملتصقين يصعب فتقهما، وهذا ما أعطى القبول والتّصاهر والتّلقي إلاّ بالعربيّة، وبلغ ذلك درجة الذّوبان. وبفضل التّعريب الذي عرفته المنطقة عبر الرّحلات العلميّة للعلماء في مضارب العرب، وبلاد المغارب، وأرض الأندلس، وما عرفته النّزوحات العربيّة من بني هلال وبني سليم في أعداد كبيرة انتشروا في بلاد الصّحراء... بالهجرة والإقامة الدّائمة، وتصاهروا مع سكانها واختلطت دماؤهم وأنسابهم وامتزجت، وعمّروا السّهول والواحات وفيافي الصّحراء، وعرّبوا أهل البلاد الأصليين، وانتشرت بينهم اللغة العربيّة وأصبحت لسانهم، وغدت هذه البلدان بلدانًا عربية إسلاميّة، ثمّ انطلقت منهم هجرات إسلاميّة نحو السّنغال والنّيجر وبحيرة تشاد، واستقرّت هذه الهجرات واحتفظت بأصولها العربيّة. وذلك ما أعطى جيلاً من المسيّرين الأفذاذ على غرار (ابن تاشفين) (عبد الرّحمن بن رُستم) (عبد المؤمن بن علي) وما شهدته حواضر (بجاية+ تيهرت+ تلمسان+ الصّحراء) في حواظرها من نجاح باهر، وكان بجهود علماء كبار اعتنوا بعلوم الدّين والأدب، والباغة، وبرعوا في مختلف العلوم والآداب والسّياسة، وكانت اللغة العربيّة لسان إبداعاتهم. فهذا الشّيخ (أبو سهل) البارع في العربيّة والبربريّة، وأكبر المؤلّفين بالبربريّة وهذا (يهود بن قريش التّاهرتي) المتضلّع في عدة لغات، كالعربيّة والبربريّة والعبرانيّة والأرمينيّة والفارسيّة، وقد اهتمّ بالبحث المقارن في اللغات، وسعى إلى إنشاء أسس النّحو التّنظيريّ (المقارن). وهذا (بكر بن حماد التّاهرتي) الأديب الشّاعر. وهذا (يحي بن معطٍ الزّواوي) صاحب (الدّرة الألفية في علم العربيّة). وهذا (ابن الرّمانة) وقد روى عن أبي (الفضل النّحويّ) التّازي، وتعلّم على يدّ مشايخ ذلك العصر، كما التقى (ابن رشد) بالأندلس، وتولّى القضاء والتّدريس. وهذا (الحسن بن علي التّيهرتي) اللغويّ الذي تخرّج على يده الكثير من العلماء... والقائمة تطول وتطول بالمجد الذي عرفته العربيّة في بلاد المغارب والأندلس وفي عموم أفريقيا. وكلّ هذا يعود إلى الجهود التي كانت تبذلها ممالك البربر من أجل بناء المدارس والمساجد والحواظر والزّوايا والمعمّرات، وإلى تلك التّشجيعات التي طالت كلّ الطّلبة والشّعراء والعلماء واللغويين. تلكم هي مسيرة العربيّة في نجاح مستمرّ، وهي تنتصر على الرّوميّة والإسبانيّة والعثمانيّة والفرنسيّة، وتبقى عمليّة تعميمها قائمة على الدّوام، واستعمالها الآن أضحى من القوام.

أ. د .صالح بلعيد
رئيس المجلس الأعلى للّغة العربيّة

المصادر

1-ع/ الشّابكة، موقع جوجل (العربيّة في أفريقيا) بتاريخ: 30 جوان 2019م.
2ـ عبد الباسط المسقين «التّلاقح الحضاريّ بين حواضر المغرب الأوسط والسّودان خلال العصرين الوسيط والحديث» مجلة آفاق الثّقافة والتّراث. الإمارات العربيّة المتّحدة، دُبي: 2017، مركز جُمعة الماجد للثّقافة والعلوم والتّراث، السّنة الخمسة والعشرون، العدد السّابع والتّسعون، ص 62.
3 – حلمي الشّعراوى «المغتربون العرب في غرب إفريقيا» العرب في إفريقيا، مجلّة كلية الآداب، جامعة القاهرة: 1987م. ص 308.

«اللغة العربيّة في عهد الاحتلال الإسباني للجزائر»

د. عبد الحليم بن عيسى
جامعة وهران ــ أحمد بن بلة

1 -الوجود الإسباني في الجزائر:

شهدت الجزائر مع بدايّة القرن العاشر الهجري الموافق للسادس عشر ميلادي مرحلة تاريخيّة جديدة، بعدما أن وجّهت السّلطات الإسبانيّة مدافعها نحوها، تجسيدا لأطماعها، بحجة ملاحقة المسلمين الفارين من الأندلس، بعد سقوط غرناطة؛ آخر معقل بالأندلس سنة 1492م. ثم بعد سقوط الموحدّين، وانفصال المغرب العربي إلى ثلاث دول؛ وهي الحفصيّة والزّيانيّة والمرينيّة، ثم انقسام هذه الدّول على نفسها ضمن دويلات خاصة، عجزت عن الوقوف في وجه الغزو الأوروبي الذي طال الشّمال الأفريقي ككل، نتيجة أسباب دينيّة واقتصاديّة وتجاريّة وسياسيّة وعسكريّة. وقد كتب مستشار الملك الإسباني «فرنامدو ثافرا Fernando Zafara» (ت:921هـ/ 1516م) يصف حال المملكة الزّيانيّة «إنّ البلاد مهيّأة؛ وكأنّ الله أراد أن يهبها لجلالتكم»، وهو وصف يشجّع فيه الإسبان على غزو بلاد المغرب الأوسط التي أضحت في ظلّ تلك الأوضاع في حالة ضعف شديد، يسهل احتلالها وإخضاعها.

وقد نركّز في هذه الفترة؛ أي خلال نهايّة القرن الخامس عشر وبدايّة القرن السّادس عشر، على الأوضاع الصّعبة في الجزائر (المغرب الأوسط)؛ إذ لم تستطع الدّولة الزّيانيّة في تلمسان، ثم بقيّة الدّويلات والقبائل في المدن الجزائريّة من حمايّة نفسها من أطماع الحفصيين من الشّرق، والمرينيين من الغرب، وقد أزّم هذا الوضع أكثر الهجمات الأوربيّة المتكرّرة، وبالخصوص بعد سقوط الأندلس حيث قامت القوات الإسبانيّة بحملات عدّة من أجل مطاردة المسلمين الذي نزحوا إلى الشّمال الأفريقي واحتلاله، ونهب خيراته، وقد استمرّ ذلك طيلة ثلاثة قرون.

ثمّ إنّ بقيّة المدن الجزائريّة؛ مثل مدينة الجزائر ووهران وبجايّة وعنّابة وتنس ومستغانم وقسنطينة، قد ظلّت تتجاذبها القوى المتصارعة الحفصيّة أو الزّيانيّة، وفي بعض الأحيان تتمتّع بالاستقلاليّة مع دفع الجزيّة، إلى أن تعرّضت إلى الهجمات الإسبانيّة المتكرّرة، ثم الاستنجاد بالإخوة بربروس والدّولة العثمانيّة.

ركّزت سلطات الاحتلال الإسباني أطماعها على مدن السّاحل الأفريقي، وبالخصوص المدن الجزائريّة، من أجل تحقيق مجموعة من الأهداف؛ منها على وجه الخصوص متابعة المسلمين النّازحين من الأندلس قصد القضاء على أي رغبة في استرجاعها، وبالتالي حمايّة إسبانيا من المناطق التي ترى أنّها تهدّدها، ثم استغلال الثّروات التي تتمتّع بها المدن الجزائريّة حتى تكون دعمًا كبيرًا للاقتصاد الإسباني الذي تدهور كثيرا بعد هجرة الأندلسيين، بالإضافة إلى السّيطرة على التجارة في البحر الأبيض المتوسط، يقول توفيق المدني: «إنّ اكتساح المغرب العربي وإخضاعه للحكم الإسباني، يضع حلًّا لهذه الأزمة الخانقة؛ فالمغرب العربي قد اشتهر يومئذ، ومن أزمان طويلة، بأنّه مهد الخيرات ومنبع الثّروات؛ مزارع غنيّة، وغابات كثيفة، ومروج خضراء لا يدرك البصر نهايتها، وثروة حيوانيّة تكاد تكون خياليّة، وسواحل غنيّة بالمرجان، وصناعة جلود وصوف وحرير تمتّعت بسمعة عالميّة، كل هذا، مع ما كان ينتاب هذا المغرب من حروب وفتن وقلائل، وعدم استقرار في أي مكان» (حرب الثّلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص88).

وقد استعملت السّلطات الإسبانيّة كلّ الوسائل من أجل تحقيق مشروعها، فاستولت على أهم اللمدن الجزائريّة والموانئ ذات الطّابع الاستراتيجي عسكريًّا وتجاريًّا؛ مثل المرسى الكبير بوهران؛ فقد كان هذا المرسى يتمتّع بشهرة واسعة منذ القدم، تمّ احتلاله بقيادة الدّون «دون دييغو فيرناندیز/ Don Diego Fernandez»، في 24 جمادى الأولى عام 911هـ، الموافق لـ23 أكتوبر 1505م، ثم السّيطرة على مدينة وهران

في 02 محرم 915هـ، الموافق لـ08 ماي 1509م، بخيانة اليهودي «أَشْطورا» والخونة الذين معه، وقد عمل المحتل على مصادرة كل ما في المدينة، وقد هتف الكردينال «غونزالو سيسنيروز/ Gonzala Cisneroz» لمّا شاهد وهران التي جاء لضمّها: «هذه أجمل مدينة في العالم».

وقد أرّخ العالم الأديب الشّيخ أحمد بن القاضي عبد الله أبي علي المساوري، شيخ العلاّمة سيدي قدورة الجزائري ذلك في قصيدة يقول فيها:

فَمَنْ مُبَلِّغٌ عَنِّي قَبائِلَ عَامِرٍ
ولا سِيَّمَا مَنْ قَدْ ثَوَى تَحْتَ كافِرْ
وَكُلَّ كَمْ مِنْ صَناديدِ راشِدٍ
بِتيجانْهِمْ، مَعَ رَأْسِها عَبْدٌ قادِرْ
وَجيرانُهُمْ في الغَرْبِ مِنْ كُلِّ ماجِدٍ
طَويلُ القَنا أَهْلُ الوَفا وَالمَغافِرْ
وَطَلْحَةُ وَالأَحْلافُ في غَرْبِ هَبْرَةَ
وشَيْخُ سويدٌ بَلْ وَكُلُّ مُفاخِرْ
وشَيْخُ بَني يَعْقوبَ الحامِي الحِمَى
بِكُلِّ قَبيلٍ مولَعٍ بِالعَساكِرْ
وَيا مَعْشَرَ الإِسْلامِ في كُلِّ مَوْطِنٍ
وفي كُلِّ نادٍ سالِفٍ ومُعاصِرْ
ويا مَعْشَرَ الأَتْراكِ، يا كُلَّ عالِمٍ
وكُلَّ وَلِيٍّ حافِظٍ لِلأَوامِرْ
ويا سادَةَ العُرْبانِ مِنْ آلِ هاشِمٍ
وغَيْرِهِمْ باللهِ ما صَبَرَ صابِرْ
أُناشِدُكُمْ باللهِ مَا عَذَرْ جَمْكُمْ
لَدى اللهِ فِ اللهِ في وَهْرانَ ذاتِ الخَنازِرْ
فَصِرْتُمْ مِنْ جورِ البُغاثِ كَأَنَّكُمْ
يَهودُ الجَزا، تَعْطونَها بِالأَصاغِرْ
فَلا هِمَّةَ تَعْلُو بِكُمْ دَنِيَّةٌ
وَلا غيرَةَ تَدْعوكُمُ لِلمَآثِرْ
ولا ذِمَّةَ تَرْعونَها في نَبِيِّكُمْ
أَما أَبْصِرُوا في السَّبْيِ خَيْرَ الحَرائِرْ؟
وتَحْتَ اليَهودِيِّ غادَةٌ عَرَبِيَّةٌ
يُعاليهَا الخِنْزيرُ فَوْقَ الهَزابِرْ
وَمَا مِنْكُمْ إِلَّا خَبِيٌّ، أَذَلَّهُ
بِمِيمِهِ النَّصْرانِيُّ يا آلَ عامِرْ
أَضَيْمُ المُلوكِ أَمْ تَغْلِبُ ظالِمٍ
عَلَيْكُمْ رَماكُمْ في جِوارِ الكَوافِرْ؟

وقد وصف أحمد بن سحنون الرّاشدي (ت بعد:1211هـ/ 1796م) ما حلّ بوهران بعد ذلك من ترهيبٍ وتخريبٍ؛ إذ يقول: «هذه المدينة التي رتعت فيها سوائم الكفر، وسرحت ولعبت فيها جوامعه، ومرحت وباض فيها بارحه وفرّخ، ونعق الشّيطان في خلالها وصرخ، حتّى قرّت بها عن الضّلال، ونامت منها الكفرة في أوراق الضّلال، فما مدّت لها يد الإسلام إلّا شُلّت، ولا أقدمت عليها جنوده إلّا ولّت، فما هي إلّا أفعى بين أحجار، أو نار مضرمة في وجار، كم قعقعت بها رعود المدافع ففتت الأكباد، وتطايرت منها صواعق المحاريق ففرّقت الأجناد، وتناثرت عليها عقود البنادق انتشار البرد بحيث لا تحصى، فهي على أديم أرضها، وفي خلال ترابها مثل الحصى، قد حماها البحر من شمالها، وأحاطت حصونها بيمينها وشمالها، وأحاطت بها الخنادق إحاطة المناطق، ودارت بها الأسوار دوران السّوار، فما لها عروة تنال منها فائدة سوى ما لازمها من جبل المائدة... وما زال الكفار يحصنونها في كل حال، حتى صار فتحها من قضايا المحال» (الثّغر الجماني، ص192).

وقد خلّد النّحّات الإيطالي «خوان دي بورغونيا Borgoña» غزو المدينة من قبل الإسبان في أيقونة على جدران كاتدرائيّة طليطلة، بطلبٍ من «خيمنيث دي ثيسنيروس Jiménez de Cisneros» أمين سرّ الملكة إيزابيلا، سنة (919هـ/ 1514م)، وقد استقى معلوماته من «كثايا Cazalla» الذي حضر حرب الاحتلال. توضّح الجداريّة الفرسان الإسبان يرفعون اللواء الصّليبي وهم يحاصرون المدينة من كل الجهات، مدجّجين بمختلف أنواع الأسلحة، في معركة حاميّة الوطيس، استعمل فيها الإسبان المتاريس والسّلالم لتسلم جدار المدينة، والأهالي يدافعون بشراسة عن مدينتهم، مع غروب الشّمس، والنّسور تحلّق في السّماء لنهش جثث القتلى الكثيرة والمتراميّة في كل مكان.

وقد اتّجهت أطماع الإسبان بعد احتلال مدينة وهران نحو السّواحل الشّرقيّة للبلاد؛ مثل بجايّة التي ظلّت مركز إشعاع حضاري وعلمي، لكنّها كانت تعاني حينئذ من الصّراع المحلي بين عبد الرّحمن الحفصي وابن أخيه عبد الله، فاستغلّت إسبانيا ذلك، واستولت على المدينة بعد حرب ضروس بقيادة «بيدرو نافارو Pedro Navarro»؛ فاتح وهران وجلّادها الفظيع، في 05 جانفي 1510م. وقد استشعر الشّيخ سالم بن التومي حاكم الجزائر العاصمة خطر الإسبان بعدما أن وقع وسط الطّرفين المحتلين الشّرقي (بجايّة)، والغربي (وهران)، فاجتمع مشيخة الجزائر واتّفقوا على وجوب استرضاء الإسبان، وعقد اتّفاق بينهم، يصون حياتهم، ويضمن لهم بقاءهم، مع دفع إتاوة ماليّة سنويّة للإسبان بالمبلغ نفسه الذي كانت تدفعه مدينتهم لبجايّة الحفصيّة، وتسليم صخرة الجزائر «اصطفلة» إلى القائد الإسباني الذي اتّخذها قاعدة عسكريّة، تراقب تحركات الملاحة الجزائريّة والأجنبيّة في حوض البحر الأبيض المتوسط.

ثم احتلّت بعد ذلك مدينة عنابة الجميلة المتحضّرة، بعد مقاومة لا

تكاد تُذكر، وسلك فيها جندها ما كان يسلكه في المستعمرات من سلبٍ ونهبٍ وسبيٍ، وارتكاب لأبشع الجرائم، وانتهاك للحرمات، وكان ذلك سنة (916هـ/ 1510م) بعد احتلال بجايّة، ثم تمت السّيطرة على شرشال ومستغانم ومزغران، وتنس وهنين أيضا، فأحكم بذلك الإسپان قبضتهم على سواحل الجزائر الشّرقيّة والغربيّة، كما أخضعوا إمارة بني زيان الضّعيفة بتلمسان لنفوذهم.

ولا يبدو أن السّرعة التي تمكن بها الإسپان من فرض سيطرتهم على المدن الجزائريّة السّاحليّة تعود إلى التفكّك الذي كانت تعاني منه الجزائر بدويلاتها في مطلع القرن العاشر الهجري/ السّادس عشر الميلادي فقط، ولكنها ترتبط أيضا بتطور سلاح الاحتلال الإسپاني، وتنظيم جيشه مقارنة مع سلاح الجزائريين، ووسائل دفاعهم؛ إذ يذكر «بروديل Brudel» أنّ المحاربين الجزائريين كانوا يحاربون بأسلحة تقليديّة كالسّيف والرّمح، في حين كانت القوات الإسپانيّة مدجّجة بالسّلاح النّاري والمدفعيّة الفتّاكة.

ولكن رغم أطماع القوات الإسپانيّة من أجل التوغّل في المدن الدّاخليّة الجزائريّة، إلاّ أنّها لم تستطع تحقيق ذلك، سواء بجندها، أو باستعمال الفتن والدّسائس، أو بتوظيف بعض الموالين لها، والذين لُقّبوا آنذاك بـ«المَغْطَسِين/ Mogatezes»، فقد لقوا مقاومة صلبة وعنيفة من لدن الأهالي والمجاهدين المخلصين، وبمساعدة العثمانيين.

وهنا نشير إلى أنّ المصادر تذكر أنّ من بين النّتائج المترتبة عن سقوط المدن الجزائريّة السّاحليّة الكبرى في أيدي الإسپان تعيين حكامهم وعملائهم عليها، ثم تدمير كل المعالم الحضاريّة والثّقافيّة التي كانت تزخر بها هذه المدن، مع الاستحواذ على المخطوطات والتحف الثّمينة ونقلها إلى «طليطلة Toledo»، ثم تعطيل المدارس، وتحويل المساجد إلى كنائس، وبناء الأبراج للمراقبة، والأسوار لردّ هجومات التحرير، مع إثارة الفتن بين الأهالي، والقيام بغارات للنهب والسّلب والإبادة، وتهديد القبائل المجاورة، واستغلالها في الحروب، أو في خلق النّزاعات المحليّة، وجمع الإتاوات.

وهنا نؤكد أنّ الإسپان قد أحكموا بناء وهران بإنشاء قلاع متينة، وأبواب محصّنة؛ وقد سمّتها بأسماء خاصة، تسرّبت هذه المسميّات إلى الاستعمال العربي المحلي؛ مثل القلعة التي شرع في بنائها «سانتا كروز/ Santa Cruz» عام (970هـ/ 1563م) من أجل مراقبة ميناء مدينة وهران وساحلها حتى إلى المرسى الكبير، وسُمّيت باسمه. تقع القلعة في أعلى قمّة جبل «المرجاجو» الواسع النّطاق، وقد شُيّدت بالقرب منها كنيسة «سانتا كروز»، كما تحتوي على تمثال ضخم للسيّدة مريم العذراء.

ونذكر من الأبواب التي شيّدها الإسپان باب إسپانيا، أُنشئ عام (997هـ/ 1589م) بأمر من قائد الجيش الملكي الإسپاني «دون بيدرو دي باديلا/ Don Pedro de Padilla» يقع في القصبة القديمة، و«باب الجيارة/ Rasserio de la Cantera»، و«باب البلبل أو باب الواد/ Rasserio de la Barera »، أو باب تلمسان، وما يزال قائما لحد الآن. بالإضافة إلى بعض الأسماء التي أطلقها الإسپان على بعض الأحياء والأماكن المحليّة، وما زلت متداولة، وبالخصوص في العاميّة الوهرانيّة.

ولكن بعدما أن طلب الأهالي المعونة من الأخوين **بربروس «عروج»** و**«خير الدّين»** تأسّست سلطة جديدة بمدينة الجزائر، عملت على تطهير جميع مدن الجزائر من الاحتلال الإسپاني. وفعلًا تمت استعادة كل المدن الجزائريّة من قبضة الإسپان في فترات متلاحقة، بدايّة بمدينة الجزائر التي تمركزت فيها الحكومة المركزيّة عام (921هـ/ 1516م)، ثم تحرير تلمسان سنة (961هـ/ 1554م)، ثم تحرير بجايّة التي لم يدم فيها الاحتلال الإسپاني طويلاً، حيث حُرّرت في عام (962هـ/ 1555م). أمّا وهران فقد أحكمت السّلطات الإسپانيّة قبضتها عليها، فدام لهم ملكها ما يناهز الثّلاثة قرون، وقد حصّنوها بسورها العظيم، وزادوا في بناء البرج الأحمر وبرج المرسى، وبنوا عدّة أبراج بسواعد الجزائريين، كبرج مرجاجو وبرج راس العين وبرج الحمارات والبرج الجديد وغيرها، فكان تحريرها متأخرا، حيث تمّ الفتح الثّاني والنّهائي في سنة (1206هـ/ 1792م).

ومع ذلك من الضّروري أن نشير إلى أنّ الحملات الأوربيّة ظلّت متواصلة من أجل إضعاف العاصمة الجزائر وجميع مدنها، سواء من لدن الإسپان مثل حملة الكونت «أورللي Orelly» على مدينة الجزائر سنة (1188هـ/ 1775م)، أو حملات إنكلترا والدّانمارك، وقد انتهت بالاحتلال الفرنسي للجزائر سنة (1245هـ/ 1830م).

2 –اللغة العربيّة والحياة الثّقافيّة:

لكي نقف على طبيعة اللغة العربيّة إبّان الاحتلال الإسپاني لبعض المدن الجزائريّة، والذي تزامن أيضا مع التواجد التركي، من الضّروري أن نطّلع على الحياة الثّقافيّة بصفة عامة؛ إذ يذكر الكثير من الدّارسين أنّ هذه الفترة على

امتدادها (ما يربو عن ثلاثة قرون) فإنّها محدودة المعلومات إلى حدٍّ كبيرٍ؛ حيث تصفها الكثير من المصادر والدّارسين، بالجمود والخمول والتحجّر، والضّعف العلمي والثّقافي؛ قال أبو راس النّاصري (ت:1238هـ/ 1823م) يصف ما انتهى إليه زمنه: «إنّي في زمن عُطِّلت فيه مشاهدُ العلم ومعاهده، وسُدَّت مصادره وموارده، وخلت دياره ومراسمه، وعفت أطلاله ومعالمه، لا سيّما فن التاريخ والأدب، وأخبار الأوائل والنّسب، قد طرحت في زوايا الهجران، ونسجت عليها عناكب النّسيان، وأشرفت شمسها على الأفول، واستوطن فحولها زوايا الخمول، يتلهفون عن اندراس العلم والفضائل، ويتأسفون من انعكاس أحوال الأذكياء، والأفاضل وإلى الله المشتكى من دهر إذا أساء أصر على إساءته، وإن أحسن ندم عليه من ساعته...». (عجائب الأسفار، ص109).

وهنا نؤكّد أنّه قد تأثّرت الحياة العلميّة والثّقافيّة خلال هذه الفترة تأثّرًا كبيرًا، فضعُفت نوعًا ما، نتيجة عدّة عوامل؛ منها تدهور الحضارة والعمران إثر ضعف الدّولة الزّيانيّة وبقيّة الدّول المجاورة، ثم سيطرة الاحتلال الإسباني على مدينة وهران والمرسى الكبير، بالإضافة إلى الحملات الأوربيّة المتتاليّة على السّواحل الجزائريّة، مما أدّى إلى عدم الاستقرار والحروب المتواصلة، ثمّ محدوديّة الاهتمام بالثّقافة والتعليم بصفة عامة، مع التركيز بالدّرجة الأولى على التجارة؛ لأنّها تدرّ على النّاس الأرباح، وتؤمّن لهم حاجياتهم اليوميّة. ومما زاد الأمر سوءًا تسرّب أشكال الخرافات لدى النّاس؛ بل حتى إلى عقول المعلّمين والمتعلّمين وبعض العلماء، فلا تكاد تقرأ سيرة أحد هؤلاء إلا وتجده يعتقد العقائد الغليظة، ويدّعي الكرامات والخوارق. ثم إنّ بعض المدرّسين كانوا يضلّون النّاس، ويستعملون الشّعوذة لكسب المال والنّفوذ لدى رجال الدّولة. وقد أشار إلى ذلك عبد الكريم الفكّون (ت:1073هـ/ 1662م) في «منشور الهدايّة في كشف حال من ادعى العلم والولايّة»، حيث أوضح أنّ من دواعي تأليف كتابه انتشار البدع وسيادة الجهل، وكساد العلم، وانحراف أهل الطّرق الصّوفيّة عن التصوّف الحقيقي، وتحالف هؤلاء مع الظّلمة واللصوص والولاة الفاسدين.

وقد ذكر أبو القاسم سعد الله في هذا السّياق أنّ معرقلات نمو اللغة العربيّة وانتشار الأدب في هذه الفترة كانت أقوى من المشجّعات؛ فالولّاة لا يفقهون العربيّة، ولا يتذوّقون أدبها، ولا نتوقع ممن هذه حالته تشجيع الأدباء والشّعراء وتذوّق إنتاجهم وتقديره. ثم منافسة اللغة التركيّة والإسپانيّة وشيوع اللهجات المتنوّعة، وتسرّب مظاهر اللحن على السّنة المتمدرسين، واعتماد العاميّة حتى لدى الكتّاب أنفسهم، كل ذلك أثّر سلبًا على اللغة العربيّة. وقد نركز ههنا على ظاهرة اعتماد التأليف بالعاميّة، حتى أصبح الأمر عاديا لدى البعض! وهذا ما يؤكّده أبو راس النّاصري في شرح «العقيقة» حيث كتب بالملحون، وقال: «ما في الملحون من بأس، فإنّه في هذا العصر لسان الكثير من النّاس». (شرح العقيقة، ص4)، وعلّل أنّه نظم «العقيقة» بالملحون لتسهل للعوام، كما تسهل للخواص، محتجًّا بأنّ بعض العلماء الكبار؛ مثل محمّد الهواري قد لحن في كتاب «التنبيه والسّهو»، وقد أصلح ما فيه من لحن الشّيخ مقلاش، وأنّ المنداسي قد كتب بالملحون أيضا. وهنا نؤكّد أنّ كل ذلك أثّر على حضور اللغة العربيّة ومستواها بين مستعمليها.

وقد حدّثنا الورتلاني أنّ هناك من كانوا يمدحون الرّسول ﷺ بالعاميّة، لكنّه تمنى لو يستعملون الفصحى حتى تدرك حلاوة قوة إبداع صاحبه وطلاوته، وقد مثّل لذلك بعلي بن درار وسعيد الفاني وغيرهما.

وحتى حينما نتكلّم عن العاميّة الجزائريّة التي وردت في أقلام بعض الكتاب والأدباء، وبالخصوص في المناطق التي احتلّها الإسپان، أو وفد إليها المورسكيون بعد عمليّة الطّرد الكبرى التي حدثت مطلع القرن السّابع عشر، بعدما أن أجبرتهم الحكومة الإسپانيّة على مغادرة المملكة إلى شمال أفريقيا، فإنّه قد تسرّبت إلى العربيّة الكثير من المفردات والتعابير الإسپانيّة، وبالخصوص العاميّة في مدينة وهران حيث بقي الاحتلال الإسپاني فيها لمدة تربو عن ثلاثة قرون؛ منها «سِّيمَانَا/ Semana»؛ أي الأسبوع، و«بَابُورْ/ Babor»؛ أي السّفينة، و«بَرَّاكَة/ Barraca»؛ أي الكوخ، و«پْلَاصَة/ Plaza»؛ أي السّاحة، و«بْلُوزَة/ Blusa»؛ أي الجُبَّة، و«القِيرَّة/ Guerra»؛ أي الحَرب، و«الفَامِيلِيا/ Familia»؛ أي العائلة، و«صَنْدَالَة/ Sandalia»؛ أي نعل صيفي، و«لَامْبَة/ Lampara»؛ أي المِصْبَاح، و«الرّوِينَة/ Ruina»؛ أي الخراب، وقد تعني أيضا أكلة من الدّقيق، و«بَنْدِير/ Pandero»؛ آلية إيقاع تقليديّة شبيهة بالدّف، و«صَبّاط/ Zapato»؛ أي حذاء، و«كُورْدَا/ Cuerda»، وغيرها من الكلمات الإسپانيّة الكثيرة التي تسرّبت إلى العاميّة أكثر من الفصحى.

وبالموازاة هناك كلمات كثيرة في اللغة الإسبانيّة من أصل عربي؛ قد تصل إلى نسبة 8٪، ثم إنّ اللغة الإسبانيّة هي اللغة اللاتينيّة الوحيدة التي يوجد في حروفها الخاء والثّاء، وهناك ارتباط بأنّ كل كلمة إسبانيّة تبدأ بأل التعريف (al) عربيّة الأصل؛ مثل «الرّزّ/ Arroz»، و«السّكّر/ Acuar»، و«الكرز/ Alcaraz»، و«القائد/ Alcaide»، و«القاضي/ Alcalde»، و«الفارس/ Alferez»، و«الخَرشوف/ Alcachofa»، و«الزّيتون/ Aceituna»، وغيرها.

وقد أُستحدثت بعض الكلمات ذات الدّلالات المحليّة في اللغة العربيّة في مناطق الاحتلال الإسباني؛ أي الجزائر بصفة عامة، ووهران التي امتدّ فيها الاستعمار الإسباني لحوالي ثلاثة قرون بصفة خاصة، وقد ظلّت هذه المفردات مستعملة في معظم المصنّفات التي ألّفها علماء تلك الفترة، منها:

– «المُورُو/ Moro» أطلقها الإسبان على المسلم (المُورِي) بعد الفتح في الأندلس والشّمال الأفريقي، وهي لفظة ظلّت مستعملة في الالسّنة، ومعتمدة في معظم الكتابات التي أُلفت في تلك الفترة، ويقت مستعملة حتّى أثناء الاحتلال الفرنسي للجزائر.

– «الخورنادا/ La jornadas»، وتعني الغارة أو الخروج إلى الغزو، وهي اصطلاح عسكري إسباني، تم تداوله كثيرا طيلة الاحتلال الإسباني للجزائر، وبالخصوص في وهران. وقد لجأ الإسبان إلى هذا الأسلوب طيلة بقوة حتى سمّاه «كاميل كيل/ Camille Kehl» «حرب أو حُمّى الغارات/ La fièvre de razzias» من أجل التموين والاستلاء على ثروات القوافل والقبائل المجاورة التي تزخر بالثّروة الزّراعيّة (الحبوب، والخضر والفواكه)، والحيوانيّة (الخيول، والأبقار، والأغنام والدّواجن).

– «المغاطيس والمغطّسون»، تُطلق على القبائل المتحالفة مع الإسبان، فهي تساعدهم في الحملات العسكريّة والتجسس والتموين بمختلف السّلع، والسّبي والتجنيد في صفوف الجيش الإسباني. وقد أُستعلمت هذه الكلمة منذ القرن السّادس عشر حيث ذكر الجندي «دييغو سواريز/ Diego Suárez» الذي حضر احتلال وهران أنّ «المغاطيس» كانوا يقومون بعمليات استكشاف، ويحددون مضارب القبائل والدّواوير المعاديّة للإسبان، وجلب المعلومات الكافيّة حول الدّواوير المراد مهاجمتها. وقد أطلق الإسبان على المغاطيس، أو القبائل الحليفة لهم «عرب السّلام/ Los moros de paz»، في حين سمّوا غيرهم «العرب الأعداء/ Los moros de guerra» ، لأنهم لم يتحالفوا ويتعاونوا معهم، بل قاوموهم، ولم يدفعوا لهم أي ضريبة.

– «الدّليل أو المستكشف/ Adalid»، يُطلق على من يتقدّم الكتيبة العسكريّة لقيادتها، قد يكون من الإسبان أو من العرب، يعرف الطّريق جيّدا، يكون خبيرا بتضاريس المنطقة، وله معلومات مسبقة عن القبيلة أو الدّوار الذي يريدون الإغارة عليه. وقد يكون لكل قائد عسكري أكثر من دليل، يتحمّل مسؤوليّة السّير بالجنود إلى الأماكن البعيدة عن الطّريق التي قد يحصل فيها الكمائن، باستغلال المعلومات التي يقدمها الجواسيس الذين يشتغلون لفائدة الإسبان مقابل مبلغ مالي معين، ففي سنة (1541م)، دفع «ريخون/ Rejon» أمين خزينة وهران ما تربو عن (264000) مرابيدس لفائدة الجواسيس اليهود والمورو.

– «دَمَلْيُون»؛ وهو اسم آخر يُطلق على المغاطيس، أورده الأغا المزاري في «طلوع سعد السّعود»، حيث بيّن أنّه يُطلق على قبيلة أولاد عبد الله، وهي بطن من بطون بني عامر، سمّاها عرب «دَمَلْيُونْ؛ لأنهم يشترطون عشرة ملايين للمشاركة مع الحروب والحملات العسكريّة الإسبانيّة.

– «الرّوميّة» وهي ضريبة تدفعها كل قبيلة أو دوّار من الدّواوير المحاذيّة لمدينة وهران للسلطات الإسبانيّة في وقت محدّد، غالبا ما تكون بعد موسم الحصاد؛ أي في شهر أوت، لينال الأمان لمدة سنة، تُقدّم على شكل مال أو كميّة من الحبوب أو غير ذلك. يحدّد قيمتها ونوعها الإسبان بعد عقد اجتماع الأعيان الذين يُطلب منهم التصريح بكل ممتلكاتهم، كما يقومون بتسليم أبنائهم للإسبان كرهائن ضمانا لتنفيذ ضريبة الرّوميّة.

– «السّيقورو/ Seguro»؛ تعني ضريبة الأمان، تدفعها القبائل التي قبلت الولاء والخضوع للإسبان سنويا، ويُطلق عليها أيضا اسم الثّمن، يحدد الإسبان قيمتها وشروطها على القبائل؛ وعند اختلال شرط من شروطها تعتبر تلقائيا «قبائل معاديّة».

– «الدّوبلة» وهي حجم المدود (جمع مدّ) التي تحدّد من خلالها مقدار الجزيّة التي يُقدمها كل دوّار للإسبان، تُحدد بعد اتّفاقات بين الطّرفين، فالدّوبلة في سنة (1707م)؛ وهي السّنة التي استرجعت فيها الجزائر مدينة وهران، بلغت 112 مدًّا عربيا؛ أي 28 برشالا إسبانيا، أي ما يعادل 2000كلغ.

– «الدّبلون/ Dablon»، أو ما عُرف لدى الجزائريين بالضّبلون، تُطلق على

العملة الإسبانيّة التي كانت متداولة في الجزائر آنذاك، وهي دينار ذهبي مصنوع من الذهب. وقد شاعت في المجتمع الجزائري خلال الاحتلال الإسباني عملات أخرى، مثل الدّرور الإسباني، والكرونة، والرّيال الإسباني، والمرابيطس، وهي أقل قيمة من الدّبلون (واحد 1 دبلون يعادل 350 مرابيطس).

ويذكر الشّيخ المهدي البوعبدلي أنّ أكثر المهتمين بالكتابة في هذه الفترة والتأليف عنها هم الإسبان، حيث خصّصوا مئات التآليف لهذا العهد، تصف كيفيات السّيطرة على مدن الجزائر، التجارة والاقتصاد وغير ذلك. وما زالت خزائن الوثائق في إسبانيا مملوءة بها، وقد نشر الكاتب الإسباني «رودريغيز/ Rodriguez Marin» فهرسًا بهذه الوثائق يحتوي على (900) تسعمائة صفحة.

ولهذا طالما أنّه ليس هناك مؤلّفات مباشرة تكشف عن طبيعة الدّراسات اللغويّة الجزائريّة في العهد الإسباني، وواقع اللغة العربيّة في مقابل اللغة الإسبانيّة واللغة التركيّة وبقيّة اللهجات المحليّة، فإنّنا سنعتمد على ما وصلتنا من الكتابات والمصادر التي تتحدّث عن ذلك العصر في مختلف مظاهره، من أجل استنباط حال اللغة العربيّة في المدن التي احتلها الإسبان. وحين نتصفّح الحياة العلميّة للعلماء ومؤلّفاتهم وأدبهم، ندرك أنّ حضور اللغة العربيّة كان كثيفًا نوعًا ما، سواء في التعليم، أو في التأليف، أو في التداول الوظيفي، وفي كلّ الحواضر التي ظلّت تحت الاحتلال الإسباني على الرّغم من مزاحمة العاميّة. كما يتّضح أنّ السّلطات الإسبانيّة لم تستطع إزاحة اللغة العربيّة من الاستعمال أو التعليم لدى الأهالي، على الرّغم من أنها قد عطّلت المدارس عن وظيفتها، وأحرقت وهدّمت الكثير من الزّوايا التي كانت منبرًا للتدريس والتوعيّة ضدّها، وبالخصوص في منطقة بني راشد.

وكانت اللغة العربيّة متفاوتة في بلاغتها وفصاحتها بحسب وظائفها ومواقف استعمالها، والفنون الأدبيّة التي كُتبت بها. قد نوضّح ذلك أكثر من كتابات العلماء والفقهاء والأدباء والشّعراء، والتي تكشف إلى حدٍّ كبيرٍ عن مستويات اللغة العربيّة من جهة، وتعكس مظاهر الحياة الفكريّة والاجتماعيّة والثّقافيّة لذلك العصر من جهة أخرى.

3 –اللغة العربيّة في الحياة التربويّة:

تشير معظم المصادر التاريخيّة إلى أنّ التعليم في الجزائر خلال القرن السّادس عشر والسّابع عشر والثّامن عشر قد غطّى كل المدن والقرى والأرياف، ومورده المالي الرّئيسي في ذلك هو الأوقاف والصّدقات والنّفقات الخاصة. أما مؤسساته فهي الكتاتيب والمساجد والمدارس والزّوايا والمكتبات. ولم يكن للسلطات الإسبانيّة –وحتى السّلطات التركيّة– سياسة معيّنة لتعليم العربيّة في المدن التي سيطرت عليها، وبالخصوص مدينة وهران. وذكر أبو راس النّاصري في هذا الصّدد أنّه كان في مدينة الجزائر على عهده مدارس كبيرة؛ مثل المدرسة القشّاشيّة، كما كانت المدرسة المحمّديّة بمعسكر، وعندما وصل إلى وهران ذكر أنّ المدارس قد استولى عليها الكفرة؛ أي الإسبان، وكفّوا رسمها، فلم يبق في رأيه في وهران لدراسة العلم سوى المساجد وبعض الزّوايا والكتاتيب.

لذا ارتبط التعليم أثناء الاحتلال الإسباني بجهود الأفراد والأهالي فقط؛ فالآباء هم الذين كانوا يسهرون على تعليم أبنائهم العربيّة وعلومها والمعارف الأخرى، إمّا امتثالًا للشريعة الإسلاميّة التي تحرص على القراءة والتعليم، أو من أجل تكوين المواطن المؤهل، حتى يتمكّن من ممارسة التجارة أو بعض الحرف، أو التطلّع لوظائف دينيّة كالإفتاء، أو الإمامة فقط. وهنا نشير إلى أنّ التعليم بصفة عامة، كانت تنقصه وسائل التشجيع والتنشيط المادي والمعنوي الذي يضمن الإقبال والمواصلة في التعليم العالي.

وكان من نتائج هذا الوضع انحسار غايات التعليم بما يخدم بعض الوظائف الرّسميّة المحدودة التي لا علاقة لها بالآفاق العليا التي تستدعي التعمّق في العلم والمعارف وتذوّق الأدب، وترقيتها تعليمًا وإبداعًا، مما أدّى في النّهايّة إلى الهجرة؛ إذ نجد معظم من كان لديهم طموح من أجل ترقيّة مستواهم العلمي أو الأدبي قد هاجروا إلى الحواضر التي اشتهرت آنذاك بالعلم والمعرفة؛ كفاس والقيروان والأزهر ودمشق والحجاز، أو انتقلوا إلى الشّيوخ ذوي المعارف القيّمة والمتخصّصة.

وقد اُعتُمدت اللغة العربيّة في التعليم بصفة عامة؛ وفي تدريس مختلف أصناف العلوم المرتبطة بالدّين بصفة خاصة. وهنا نركّز على دور المساجد في ذلك؛ إذ لم تكن حينئذ مكانًا للعبادة فقط؛ بل أضحت منارةً للتوعيّة والتعليم في مختلف المراحل، تبدأ بتحفيظ القرآن الكريم، وبعض الأحاديث النّبويّة، ثم تتدرّج بتقديم دروس في اللغة العربيّة وعلومها، ثم تعليم الفقه

وعلومه، وبعض العلوم كالحساب والفلك والطّب، وكلّ ذلك باستعمال اللغة العربيّة. بالإضافة إلى الزّوايا؛ وبالخصوص في الأرياف؛ فهي مركز للعبادة، ومقر للدراسة، وفق رزنامة مضبوطة؛ إذ هناك وقت لحفظ القرآن، وآخر لتدريس علوم الدّين والفقه والحساب ومبادئ القراءة والكتابة.

وقد عرفت الزّوايا خلال القرن السّادس عشر نموًّا واسعًا، وبالخصوص بعد ضياع الأندلس، حيث ظلّت مركزا لاستقطاب الجميع؛ تجمع بين التعليم والعبادة والإيواء والدّعوة إلى الجهاد والتحرّر. واستطاعت الزّوايا كسب ثقة النّاس، ويعود ذلك إلى فتحها لأبواب التعليم للجميع، ثم دورها في تحسين العلاقات الاجتماعيّة من خلال التوسّط في حلّ القضايا الخلافيّة والقضائيّة بين السّكان.

ولكي نتعرّف على نظام التعليم في الجزائر بصفة عامة، ووهران بصفة خاصة التي كانت تحت ويلات الاحتلال الإسباني، نعتمد على كتاب الشّيخ أحمد بن أبي جمعة الوهراني (ت:920هـ/ 1514م) "جامع جوامع الاختصار والتبيان فيما يعرض بين المعلّمين وآباء الصّبيان"؛ وهو كتاب مهم وقيّم؛ لأنّه يعكس لنا بدقّة طبيعة التعليم المعتمد في عصره. وإنما كانت له هذه الأهميّة والقيمة لاعتبارات كثيرة منها:

-تأكيده أنّ لغة التعليم المعتمدة في مختلف المراحل هي اللغة العربيّة الفصحى.

-دراسته لأساليب التعليم وطرقه، وإعطاؤه صورة حيّة عن واقع التعليم الابتدائي في الكتاتيب القرآنيّة لحفظ القرآن الكريم وتلقّي علومه، وتعليم القراءة وتعلّمها بالمناطق التي نشأ ودرّس بها بخاصة؛ وهي مدينة وهران وضواحيها، ثم بالمدن التي ارتحل إليها.

-دراسة الأحكام الفقهيّة التي تتّصل بالمعلمين وأجورهم، وما يقدّمه التلاميذ من أثمان مقابل تعليمهم، فالكاتب تعرّض للكثير من النّوازل التي تتّصل بالمعلّمين والأولياء والصّبيان.

-معالجته لمواضيع مهمة ودقيقة تحتوي وتقدّم الكثير من الحلول لمشاكل عصره، وبالخصوص في مجال التربيّة، قد نستفيد منها في عالمنا المعاصر.

-إشاراته واستشهاداته بمن كان لهم الفضل قبله في تقديم الكثير من الآراء التربويّة والفقهيّة للعلماء والفقهاء المسلمين، وبالخصوص في المغرب العربي.

وهنا نشير إلى أنّ اللغة العربيّة ظلّت اللغة المعتمدة في الجزائر للعلم والتعليم، ولتقديم مختلف أشكال العلم والمعرفة. وقد نصنّف هذه المعارف ضمن الأصناف التاليّة:

-المعارف الفقهيّة؛ وتشمل الفقه، والتفسير، والتوحيد، والقراءات، والحديث وعلومه، والمعاملات، والفتاوى، والنّوازل.

-المعارف اللغويّة والأدبيّة؛ وتضمّ علم النّحو والصّرف، والبلاغة وعلومها، والعروض والقوافي وموسيقى الشّعر.

-المعارف الأدبيّة؛ وتتمثّل في الشّعر والقصص، والمقامات، والإخوانيات، والسّير، والتراجم، وغير دلك.

-المعارف العلميّة والعقليّة؛ كالحساب، والطّب، والفلك، وغير ذلك.

وقد نستأنس في ذكر هذه العلوم بما ذكره المترجمون للمعارف والعلوم، ونظام التعليم الذي تلقّاه علماء ذلك العصر؛ مثل ما ذكره ابن مريم عن الكثير من الشّخصيات، مثل محمّد بن موسى الوجديجي (ت:981هـ/ 1573م)؛ إذ يذكر أنّه «حافظ مختصر ابن الحاجب الفرعي، ومختصر خليل وبعض شامل بهرام، وألفيّة ابن مالك، والأجروميّة، وعقائد السّنوسي والخراز، والضّبط وابن بري، وتلخيص المفتاح وابن السّبكي، والخزرجيّة، أخذ عن الشّيخ محمّد بن عبد الرّحمن الوهراني... قرأ القرآن على عثمان الشّاوي، وأخذ التوحيد عن سعيد المقري، والفقه عن محمّد بن أبي السّادات الصّغير، والأصول والبيان والمنطق والعروض عن شقرون بن هبة الوجديجي، والعروض عن محمّد بن أحمد الكناني» (البستان، ص271).

ويذكر ابن مريم أيضا عن محمّد الحاج المناوي قوله: «ألفيّة ابن مالك عندنا كخبز الجلوس»؛ فالألفيّة عندهم محفوظة متداولة لدى المبتدئين، يتحدّثون بها بأريحيّة في المجالسّ، لذلك طلب المناوي من تلاميذه أن يكون اهتمامهم بما هو أرفع من ذلك؛ لأنّ المعلومات التي يمنحها لهم في النّحو إنّما جاءت نتيجة جهود أخرى مضنيّة ومطالعات مستقصيّة، فانتهى إلى القول: «هذا الذي نملي عليكم مطالعة أربعين سنة». (البستان، ص266).

فالاهتمام بتعلّم اللغة العربيّة وعلومها من نحو وصرف ومعجم وبلاغة كان من البديهيات التي تكون في المراحل التعليميّة الأولى لدى الجزائريين؛ لأنّ المعرفة بها ضروريّة لإدراك بقيّة العلوم في المراحل اللاحقة؛ كالفقه والقراءات والتفسير والتوحيد والتصوّف، ونحو ذلك.

وحينما نقرأ السّير الذاتيّة لبعض العلماء، والتراجم التي أفردها بعض المؤلفين لعلماء تلك الفترة، نستطيع أن نصنّف المعارف اللغويّة والبلاغيّة التي تم تدريسها وإقراؤها وقراءتها من أجل تعلّم اللغة العربيّة وعلومها في مجموعة من المؤلّفات منها؛ ألفيّة ابن معط الزّواوي، وألفيّة ابن مالك، وتسهيل ابن مالك، ولاميّة الأفعال لابن مالك، والأجروميّة، وفصيح ثعلب، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب وقطر النّدى وبلّ الصّدى، ونتائج الفكر في النّحو للسهيلي، وشرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب لابن هشام، وأسرار البلاغة للجرجاني، وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي، والجوهر المكنون للأخضري، والتلخيص والإيضاح للقزويني، وأحيانا كتاب سيبويه، والمقتضب والكامل في اللغة والأدب للمبرد. بالإضافة إلى تلقي الدّروس عن الأعلام المشهود لهم بالمعرفة العاليّة باللغة العربيّة وعلومها؛ مثل الشّيخ النّحوي السّيّد العربي بن قيزان عالم مستغانم، وعبد الله الشّرقاوي الشّافعي، والشّيخ محمّد بن الحسن، وغيرهم كثير.

وهنا نشير إلى أنّ الاطّلاع على أمهات كتب اللغة والبلاغة العربيّة وتعليمها، جعلت بعض العلماء يؤلّفون حولها الشّروح والحواشي والتعليقات، أو التلخيصات، أو نظم المنظومات المختصرة؛ فقد شرح أحمد بن العباس الوهراني لاميّة الأفعال في علم الصّرف في كتاب سماه «شرح لاميّة الأفعال»، وشرح محمّد بن عامر الأخضري الألفيّة في صنيعه «شرح ألفيّة ابن مالك»، وشرح أحمد بن الصّبّاغ القلعي الهواري الأجروميّة في كتابه «الدّرّة الصّباغيّة في شرح الأجرّوميّة»، وألّف أحمد التيجاني «شرح الأجروميّة»، وشرح أيضا الشّيخ عبد القادر بن السّنوسي مقامات الحريري في مؤلف سمّاه «الحلل الحريريّة في بيان المقامات الحريريّة»، وكتب أبو راس النّاصري «النّكت الوفيّة بشرح المكودي على الألفيّة»، و«نيل الأماني على مختصر سيعد الدّين التفتزاني»، و«ضياء القابوس على كتاب القاموس»، و«نيل الأرب في شرح لاميّة العرب». وشرح النّاصري أيضا كتابًا في الحكم والمواعظ والآداب والأمثال بطلب من صاحبه مسلم بن عبد القادر الوهراني، سمّاه «إسماع الأصم وشفاء السّقم في الأمثال والحكم»، يحتوي هذا المصنّف على درر قيّمة من الحكم والأمثال والمواعظ الشّائعة في ذلك العصر، ذكرها مرتبة على حروف المعجم، مبتدئا بحرف الألف: «أَدَبُكَ ثَوْبُكَ، وَوَجْهُكَ عَرْضُكَ، والأَدَبُ سِلَاحُ زَمَانِ الكِفَاحِ»، ثم حرف الباء: «بُرُّكَ بَذْرُكَ، فَمَا نَبَتَ زَرْعُكَ، البَذْرُ بُرٌّ، إِذَا كَانَ المَطَرُ»، إلى غايّة حرف الياء: «يَأْتِيكَ مِنَ الأَمْرِ مَا لَا تَدْرِي وَتُضْمِرْ، اليَمينُ قَبْلَ السّؤَالِ مَطِيّة الضّلَالِ»، وقد ضمّنه الشّارح أشعارا وأمثالا ومأثورات وحكما من القصص القرآني والحديث النّبوي، ومما روته العرب من أخبارها وطرائفها ونتفها. ولا شكّ أنّ لهذا التأليف أهميّة خاصة في دراسة الأمثال والحكم الفصيحة السّائدة حينئذ.

وهنا نشير إلى أنّ العلماء قد أظهروا براعتهم اللغويّة والبلاغيّة مع هذه الشّروح؛ إذ كانت تعطيهم الفرصة أكثر لاستعراض محفوظاتهم وذوقهم الأدبي والنّقدي، وتكشف عن مدى اطّلاعهم على الأخبار والأحداث المحليّة والعالميّة. ثم إنّ أسلوبهم يعكس الخصائص الفنيّة للعصر، فأصحابه كانوا غالبا ما يقصدون في عناوين مؤلفاتهم إلى اعتماد العبارات المتوازيّة المسجوعة؛ مثل كتاب «بهجة النّاظر في أخبار الدّاخلين تحت ولايّة الإسپانيين بوهران كبني عامر»، لعبد القادر المشرفي (ت:1192هـ/ 1778م)، و«الحلل السّندسيّة في شأن وهران والجزيرة الأندلسيّة»، و«الشّقائق النّعمانيّة في شرح الرّوضة السّلوانيّة»، لأبي راس النّاصري، و«التحفة المرضيّة في الدّولة البكداشيّة في بلاد الجزائر المحميّة»، لمحمّد بن ميمون الجزائري (كان حيا سنة 1122هـ/ 1710م)، و«الزّهرة النّيرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة» لمحمّد بن عبد الرّحمن الجيلاني بن رقيّة التلمساني (ت:1194هـ/ 1780م)، وغير ذلك.

أما في المتن فيلجؤون إلى الاستطراد والاستشهاد بالمأثور من القرآن الكريم، أو الأحاديث النّبويّة، أو الأشعار والحكم والأخبار والأقوال المأثورة عن التراث أو الحضارة الإنسانيّة.

ورغم ذلك فقد ذكر أبو القاسم سعد الله أنّ الأدباء بدل أن يخترعوا القصص والرّوايات، أو يؤلفوا في الظّواهر الثّقافيّة والنّقد عمدوا إلى شرح الأعمال الجاهزة.

وقد ألّف بعض العلماء في اللغة وعلومها؛ مثل كتاب «إتحاف الألباب بفصل الخطاب» لعلي بن عبد القادر بن الأمين، كتبه سنة (1186هـ/ 1754م)، وكتاب «بغيّة المرتاد في كلا شيء وجئت بلا زاد»، و«رفيع الأثمان في لغة الولائم الثّمان» لأبي راس النّاصري، وبالمناسبة فقد شبّه أبو القاسم سعد الله أبا راس النّاصري بالجبرتي لكثرة مؤلفاته وتنوعها، وغيرها من المؤلفات.

4 -اللغة العربيّة عند العلماء:

حظيت اللغة العربيّة باهتمام كبير لدى العلماء في هذا العصر، بدايّة باعتمادها في التعليم والتعلّم، ثم بالحرص عليها كي تكون سليمة وصحيحة في الاستعمال، فهذا أبو راس النّاصري يذكر أنّه لما تكاثر عليه الطّلبة وازدحموا، عملوا له كرسيا، استعان به على الدّرس، فكان يدرّس وهو يلحن، فردّ عليه ذلك نحاة مجلسه، فأشاروا إليه بإصلاح اللسان، فاحتج عليهم بأنّ الشّلوبين ممن أحيا علم النّحو بالأندلس وهو يلحن، وناهيك به أنّ ابن عصفور وابن مالك من جملة تلامذته. لكن أصرّ عليه الطّلبة، وأكّدوا أنّه لا بدّ من النّحو، فاهتم النّاصري من جديد بما قالوا حتى تمكّن من حفظ ألفيّة ابن مالك؛ بل جعل على شرح الشّيخ المكودي حاشيتين صغرى وكبرى.

وقد اعتمد العلماء اللغة العربيّة الفصحى في الكتابة والتأليف في الإجازات والخطب والمناظرات وغير ذلك، وقد نذكر بدايّة نصوص الإجازات التي دوّنها بعض علماء ذلك العصر؛ قد نمثّل لذلك بالإجازة التي دبّجها محمّد بن عبد الله الجَلّالي (ت:1194هـ/ 1780م)، لأحمد بن سحنون الرّاشدي (ت:1211هـ/ 1796م)، فبعدما أن حمد الله تعالى، وصلّى على سيّد الخلق سيّدنا محمّد ﷺ قال: «هذا وإنّ وَلَدَنا الفقيه النّحرير، الحبيب الشّهير، السّيّد أحمد بن محمّد بن علي بن سحنون الشّريف، صاحبنا عدّة ليالٍ وأيام، وتردّد إلى مجالسنا تردّد الكرام، وسلك معنا عدّة مسالك، من غير اختصاص بألفيّة ابن مالك، حفظ الله نجابته للانتفاع، ووسّع صدره للعلم غايّة الاتّساع... فأنا والله لست ممن يجيز؛ بل ولا ممن يُجاز، ولا ممن ينحاز ويحاز، ولكن القضاء من الاقتداء بالسّلف، سهّل مثل ذلك على الخلف، والنّيّة لا زالت أساس الأعمال، وصلاح كل حال، فحينئذٍ قلت: قد أجزت ولدنا فيما قرأ عليَّ، وفيما تحصّل لي، وانتهى إليّ، من أصول وفروع، ومروي ومسموع، أو مُؤلَّف وموضوع، ولبيت دعوته، وقلبت طلبه، وقلت: قد أجزت الفقيه المذكور في جميع ذلك ما حضر قراءته عليّ، وما لم يحضره إجازة تامة، مطلقة عامة، بشرطها المقرّر، وقيدها المعتبر، وهو الصّدق والأمانة والتحرّي... وقد كان قرأ عليّ أكثر صحيح الإمام أبي عبد الله محمّد بن إسماعيل البخاري درسًا، وسمع باقيه بحضرتنا، وأكثر القرآن العظيم درسا، وقرأ علينا أوائل كبرى الشّيخ السّنوسي، ومعظم جمع الجوامع، بل معظم شرحه لجلال الدّين المحلي، وكل جوهر الأخضري وسلّمه، وباحثا بأكثر السّعدين وحواشيهما حالة قراءة الجوهر، كما قرأ علينا جميع ألفيّة ابن مالك مباحث أكثر شروحها، كما قرأ علينا رسالة الوضع، ونخبة ابن حجر قراءة تحقيق في الجميع، وغير ذلك مما أجزناه إجازة تامة، شاملة عالمة» (الثّغر الجماني، ص337).

فعربيّة هذه الإجازة تعكس إبداعيّة فنيّة متميزة، وكفاءة لغويّة راقيّة، تُظهر مستوى التعليم على ذلك العهد، أساسها قائم على الدّقّة في اختيار الألفاظ، والجودة في بناء الأساليب التعبيريّة وفق نسقيّة تبتلع المعنى المقصود في عفويّة وإلهام راقٍ، وتحتوي توارد الأفكار ضمن تراتبيّة خاصة؛ تبدأ قويّة، ثم تنتهي إلى النّظم المباشر بانحصار الأسلوب، وبروز المعنى، ضمن بنيّة أسلوبيّة قائمة على توظيف أصناف البيان، وألوان البديع، وفق ما يتطلّبه القصد العام للطبيعة الإجازة.

ثم تكشف هذه الإجازة عن قضايا مهمة جدًّا، تتعلّق بطبيعة الإجازة وقيمتها، والكتب المعتمدة في التعليم والتعلّم ليس في الإقليم الذي تعلّم فيه ابن سحنون فحسب؛ بل تكاد تمثّل البرامج التربويّة الأساسيّة في مختلف أقاليم الجزائر.

وقد نورد في هذه المناسبة أيضا أنماط استعمال اللغة العربيّة لدى بعض العلماء في خطب الزّواج التي كانت تُتلى عند عقد القران؛ قد نمثّل بما أورده ابن حمادوش في رحلته، في قول الخطيب: «الحمد لله الواهب جزيل الأنعام، الدّافع عن برياته وقائع الانتقام، الذي أشرق بنوره الظّلام، وخطت عن أمره الأقلام، جميع ما قضى به وحكم، من عاجل وآجل في الأمم، ثبت ذلك في اللوح المحفوظ ورسم، وأشهد أنّ لا إله إلا الله وحمد لا شريك له موجدنا من العدم، وجاعل أمة محمّد ﷺ خير الأمم، وأشهد أنّ محمّدا عبده ورسوله الذي طبع على أثر النّبوءة وختم، وشقّ قلبه بلا ألم، وملئ حكمة فالتحم، ومسح جرحه فالتأم، وظهرت منه ينابع الحكم، ﷺ وشرف وكرم، وأشرق بنوره الظّلام، ومحى الكفر بدعوته فبدد الحسام، وبعد؛ فإنّ الله تعالى أحلّ لنا النّكاح، وندبنا إليه، وحرّم علينا السّفاح، ونهانا عن اقترافه، فقال تعالى: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾، برأفته وامتنانه، والصّلاة والسّلام على سيدنا محمّد خير الأنام، صلاة تزلفنا وإياكم مستقر رحمته وإنعامه» (رحلة ابن حمادوش، ص245).

فهذه الخطبة تعكس بدقّة السّليقة اللغويّة والكفاءة العاليّة التي تمتّع

بها خطيب ذلك العصر في استعمال الأساليب التي تنجز فعل الزّواج، استقاها من القرآن الكريم والسّنة النّبويّة ومبادئ الدّين الإسلامي، وقد صاغها في عبارات متوازيّة، بتوظيف المحسنات اللفظيّة؛ كالجناس والسّجع والترديد، لما لها من قيمة دلاليّة وجماليّة وإيقاعيّة وحجاجيّة، تستثير المتلقي وتترك فيه أثرا طيبا طيبة هذا الزّواج.

5 -اللغة العربيّة واستعمالاتها في العهد الإسباني:

لم تكن اللغة العربيّة في التداول اللساني إبّان الاحتلال الإسباني في الوضعيّة الحسنة، فقد اتّسمت بالبساطة، وتسرّبت إليها أشكال اللحن ومظاهر العجمة واستعمال العاميّة، فهذا أبو زيد عبد الرّحمن الجامعي (ت:1144هـ/ 1734م) شارح أرجوزة أبي عبد الله محمّد بن أحمد الحلفاوي (ت:1122هـ/ 1710م) التي نظمها بمناسبة الفتح الأول لوهران سنة (1119هـ/ 1707م)، يؤكّد امتداد ذلك حتى لدى فرسان البلاغة والبيان، يقول: «ولولا قِصر همم الزّمان، وغلبة العجمة على الفصاحة والبيان، لأَمدَّت في هذا الفتح الحائز السّنة الأقلام، وتطاولت أقلام الالسّنة للنُّثار والنّظّام، وتسابقت فرسان البلاغة في ميدان التهاني، وجرت في ذلك غايّة الأماني، وتفنّنت في الشّعر بجميع الفنون بين موزون وملحون، لكنّ القرّاء كما علمت خامدة، وعيون الذّكاء في زماننا الكثير الفتن جامدة، وإنّ النّظم فيه أحدٌ بيتًا أو بيتين، أو ربط كيف اتفق بين فقرتين، استُحسن منه المقول، وعُدّ مجله الفحول». (مدينة وهران الرّباط والتحرير، ص148).

وقد اُعتمدت اللغة العربيّة الفصحى في الكتابات غير الأدبيّة، وتشمل عقود الزّواج، وخطب التعازي، والإجازات والمراسلات والتقاريض. وهنا نشير إلى أنّها في بعض الأحيان كانت راقيّة إلى حدّ كبير، يُظهر فيها الكاتب براعته اللغويّة والأسلوبيّة، لكنّها وردت في أحايين أخرى بسيطة ومبتذلة مثقلة بالألفاظ العاميّة، والعبارات الرّكيكة.

قد نمثّل للأساليب الرّاقيّة برسالة التعزيّة التي كتبها المفتي محمّد بن حسين يعزي ابن حمادوش بعد وفاة ابنه في سنة (1156هـ/ 1743م)، فبعدما أن بسمل وحمد الله تعالى قال: «لقد كانت نفسي غريقة في أبحر حزنها، والعين بحكم الرّقة البشريّة جاحدة بواكف مزنها، حتى أدركتني محنتك وموت ولدك، فأخذتني الصّدمة وهيجت لي المحنة، فلقد رمانا الدّهر بسهام صروفه فأصمانا، وتعهدنا خطبه فهد عروشًا وأركاناً. فاصبر صبر الأجواد، إنّما صبر الكريم على الرّزيّة أجمل، والله تعالى يلهمنا وإياكم الصّبر، ويعظم لكم الأجر، ويريحكم من الفزع ويزيح عنكم هول الجزع، فإنّ الصّبر لا بدّ منه، ولا محيد عنه، غير أنّ الثّواب لمن قدّمه، ومن فاته فقد عدمه، فاسلم نفسي وأخي فيما نزل بسيّد المرسلين، فهو أولى بأن أفجع عليه من الآباء والبنين. وها نحن على جناح السّفر، فهيهات أن ننفلت وأن يحصل لنا منه الظّفر. وقد ندب الله تعالى خاصة خلقه إليه فقال جلّ من قائل: ﴿**وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ**﴾. ومثلكم بهذا أجدر، وأعلم وأشهر، وما هو إلّا ريحانة الجنان، وشفيع في الأبوين عند الرّحمن، جعله الله من الذريّة الحسنة والنّطفة الطّيبة، وتقبّله الله وجعله ذخيرة وذخرًا يشفع وينفع...». (رحلة ابن حمادوش، ص150).

فالنّص يكشف عن طبيعة اللغة العربيّة وأنساقها الشّائعة آنذاك، فهي تقوم على احترام القواعد النّحويّة والدّلاليّة، وتوظيف علاقات التجاور اللفظي وفق ما ترسمه معايير الأساليب البيانيّة، وقواعد المحسنات البديعيّة. لكنّها تضم بعض الصّيّغ المتكلفة والمصطنعة، مع طول الجملة، واستعمال السّجع الثّقيل، ورتابة بعض الإضافات، كل ذلك جعل اللغة العربيّة ههنا متكلّفة.

ثم إنّنا نجد في هذه الفترة بعض العقود الشّرعيّة أو الخطب المنبريّة أو المراسلات ذات الأسلوب البسيط الذي تشوبه الألفاظ العاميّة، والرّكاكة في التركيب. ومن ذلك الرّسالة التي كتبها «حسن آغا» ردًّا على خطاب «شارل كان Charles Quint» الذي عقد العزم على أخذ مدينة الجزائر سنة (948هـ/ 1541م)، فقلّل حسن أغا من شأنه، ثم قال: «ولو سمع سلطاننا الأعظم بأنّك طغيت على الجزائر، لأرسل إليك عبدًا من عبيده، بشرذمة من عسكره، يَمْحيكْ بِحول الله وقوّته، أما علمت أنّ في عساكر الجزائر ما يقابلك ويَمْحِي أَثرك! وسترى عاقبة أمرك، فاجهد غير موفق، وسيعلم الكافر لمن عقبى الدّار، وقد استدللنا بكتابك على قلّة عقلك؛ إذ الإنسان لا يفتخر بشيء حتى يفعله، وأنت عكست ذلك». (الزّهرة النّائرة، ص117). فلغة هذه الرّسالة بسيطة بعيدة عن الإبداعيّة الأدبيّة الرّاقيّة، تتخلّلها تراكيب عاميّة مبتذلة (يَمْحِيكْ، ويَمْحِي أَثَرَكَ). ومثل هذه العبارات ما يزال مستعملا في العاميّة الجزائريّة.

وهذا ما نلاحظه أيضا في قول ابن رقيّة التلمساني، حينما ذكر حملة الإسبان على الجزائر سنة (1189هـ/ 1775م)، يقول: «فأخبرتهم بأنّ أهل الجزائر منبّهون إلى استعدادهم، وحشدوا مائة ألف أو أكثر، وهو مشتغلون بجمع العساكر وتحصين سواحلهم، فبذلك أَمْنُونِي وتركوني أن أخرج، والآن جئتكم لأن أخبركم بأن العمارة موجودة مهيأة للسفر، وأنا أخبرتكم بما هو الواقع، ولا بد أن أسافر الآن؛ لأن سفائن الإسبنيول إذا وجدوني بهذا المحل، أو بقربه لطلبوني لأنهم يُمسون هنا أو يصبحون»، (الزّهرة النّائرة، ص140). فالكاتب زاوج بين الفصيح كمعيار، والعامي كمتداول، والأجنبي كدخيل، مما ولّد ههنا تناقضا استعماليا شارخا، قد يقلق المتلقي، فلا يسعفه على المتابعة الجيدة لأفكار النّص ومقاصده وغاياته.

وقد نبقى مع ابن رقيّة التلمساني الذي كتب «الزّهرة النّائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة»، ليؤرخ للغزو الإسباني على الجزائر، ومدى قوة السّلطة في رد هذا الغزو والقضاء عليه، حيث كانت عربيته مثقلة بالألفاظ العاميّة، وبعض التراكيب الضّعيفة، كاستعمال لغة «أكلوني البراغيث»، مثل قوله: «فلما دخل سلطان تلمسان في عمالة خير الدّين أَطَاعُوهُ أَهْلُ العَمَالَةِ» (الزّهرة النّائرة، ص98). بتوظيف فاعلين لفعل واحد، وإثبات ضمير الجمع في الفعل، والأمثلة كثيرة في كتابه.

ونجد مثل هذه الأساليب في الرّسالة المنمّقة التي أرسلها يوسف باشا إلى محمّد ساسي البوني يحدّثه فيها عن عدوله عن حرب الإسبان بوهران، والتوجه بدلا عن ذلك إلى قسنطينة وبسكرة لمحاربة المتمردين (ثورة ابن الصّخري)، فبعدما أن بسمل وصلى على نبينا محمّد ﷺ، وأثنى ثناء مبالغا فيه محمّد ساسي البوني، قال: «هذا والمراد إعلامكم أنّا كنا أولا برمنا عقد العزم على الجهاد لوهران واستخلاصها من أيدي حزب الشّيطان، وإنقاذها من ورطة الكفر والضّلال، وإنارتها بنور الإيمان والإسلام وصالح الأعمال، حتى عرض لنا ما حال بيننا وبين هذا الغرض وصدّ عزائمنا عن إزالة ذلك المرض... وقد قاتل أبي أيوب الأنصاري تحت رايّة يزيد وأمثاله من الأعيان، وصلى عبد الله بن عمر خلف الحجاج، وبايع ابن مروان، وإنما فعلوا ذلك لئلا ينزعوا يدا من طاعة، أو يخرجوا قيد شبر من السّنة والجماعة... ولو كان الخطاب مع غيركم لهديناكم إلى نقول، وألقينا له حجج المعقول والمنقول، ولكن أنت اليوم والحمد لله سيد المسلمين في تلك الأقطار، وشيخ السّنة والجماعة الذي عليه المدار أبقاكم الله بركة في البلاد، ورحمة للعباد آمين». (أربعة رسائل بين باشوات الجزائر وعلماء عنابة، أبو القاسم سعد الله، مجلة الثّقافة، ع51، ص21). فأسلوب الرّسالة بسيط، ينحو منحى دينيا توجيهيا حجاجيا، يقوم على الاستشهاد بالآيات القرآنيّة والقصص والحوادث التي وقعت في عهد الخلفاء الرّاشدين، من أجل إقناع المتلقي بالغايّة المنشودة، وتوظيف المحسنات اللفظيّة كالسّجع والجناس والطّباق، واستعمال التلميح والتلغيز، مع التفنّن في المدح والدّعاء للمرسل إليه، مع وجود بعض الأخطاء اللغويّة.

ونشير إلى أنّ هذا النّمط من الأسلوب تشترك فيه الكثير من المصادر التاريخيّة في العهد الإسباني والتركي في الجزائر، فلغتها بسيطة، تتخللها الأخطاء اللغويّة والنّحويّة والصّرفيّة والإملائيّة والبلاغيّة، وتطغى عليها المحسنات البديعيّة كالسّجع والمطابقة، وتتخلّلها بعض الاستعمالات العاميّة، والألفاظ الأعجميّة، فهي تعكس المستوى الثّقافي والتربوي المتواضع.

6 -اللغة العربيّة في فنون الأدب:

أُعتمدت اللغة العربيّة الفصحى في الكتابات الفنيّة والأدبيّة المتنوّعة؛ فشملت أغراض الشّعر المختلفة، مثل المديح النّبوي ورثاء العلماء والمدن، والشّعري الصّوفي، وأصناف النّثر المتعددّة كالمقامات والرّحلات، أما مستواها فقد نجده راقيا أدبيا مع بعض العلماء، وقد يكون متواضعا بسيطا مع البعض الآخر.

أولا-القصائد الشّعريّة التي نظمها الشّعراء من أجل استنهاض الهمم، وتذكير المواطنين بواجبهم من أجل تحرير النّفس والوطن من الاحتلال الإسباني، قد نذكر قول الشّاعر ابن علي بن أبي عبد الله سيدي المهدي الجزائري (ت: 1093هـ/ 1682م) يرثي مدينة وهران:

عُيونٌ دَهَتْني أَمْ سُيوفٌ صَوارِمُ
وسُمْرٌ رَمَتْني أَمْ قُدودٌ نَواعِمُ
وهَلْ طاوَعَتْ وَهْرانُ قَبْلُ مُمَلَّكًا
سِواهُ فَأَضْحى أَنْفُها وَهْوَ راغِمُ
فَكَمْ سَماها مَنْ لا يُناهِضُها وَكَمْ
حَوالَيْ حِمَاهَا حَامَ بِالزّورِ حائِمُ
هِيَ البِكْرُ حِزْبُ الشّقاءِ وَلَمْ يَكُنْ
زَمانًا لِحِزْبِ الحَقِّ عَنْها مُخاصِمُ
بِها كُلُّ يَوْمٍ صَيْحَةٌ مِنْ خُيولِها
يَنوحُ لَهَا الإِسْلامُ والشّرْكُ باسِمُ
زَهَا واعْتَلى التَّثْليثُ فيهَا ونُكِّسَتْ
لِما دَهَمَ التَّوْحيدُ مِنْهُ العَمائِمُ

وكُلُّ رَئيسٍ يُرْتَجى لِخُطُوبِها
تَشاغَلَ في لَذّاتِهِ وَهْوَ نائِمُ
وَرُبَّ أَميرٍ أَزْمَعَ السّيْرَ نَحْوَها
فَيَرْجِعَ لَمَّا كَاثَرَتْهُ الدّراهِمُ

فالشّاعر يرثي مدينة وهران، ويتحسّر لمصابها، ويتألّم لما آل إليه حال المسلمين من قهر وتعسّف جائر من طرف الإسبان، فوعّى الشّاعر الشّعب بقضيته، واستنهض عزائمه، كي يكون من أمرائه من يستردّ مدينته. وهذا هو لسان حال الكثير من الشّعراء الذين رثوا حال وهران، فهذا الشّيخ أبو عبد الله محمّد بن عبد المؤمن (1101هـ/ 1690م) ينقل ما حلّ بها ضمن مشهديّة مؤثّرة، فيقول:

وَتَصَرَّفوا في المُسْلِمينَ بِمَا غَدَا
أُعْجوبَةً لِمَنْ اغْتَدى يَرْعاهَا
أَضْحى الصّليبُ مُؤَيِّدًا والدّينُ قَدْ
دَرَسَتْ مَعالِمُهُ فَلَسْتَ تَرَاهَا
جَعَلُوا بِها النّاقوسَ فِي أَوْقاتِهِمْ
بَدَلَ الأَذانِ وَغَيَّرُوا مَعْنَاهَا
كَمْ مِنْ أَسيرٍ حَوْلَهَا لا يُفْتَدَى
كَمْ مِنْ فَقيرٍ حَلَّ في مَثْوَاهَا
كَمْ مِنْ نِسَا مَعْ صِبْيَةٍ أَسْرَى بِهَا
أَسْرَى بِهِمْ مَنْ لَيْسَ يَدْرِي الله
حالَ الصّبِيُّ لِدينِهِمْ وَمِنَ النّسَا
المُحَرَّمَ هَلْ فَتًى يَغْشَاهَا

وقد نذكر أيضا بعض الشّعراء الذين تغنّوا بالفتح الأول لمدينة وهران في سنة (1119هـ/ 1707م)، مع الأمير محمّد بن علي داي الجزائر المعروف ببكداش. وقد خلّد أبو عبد الله محمّد بن أحمد الحلفاوي (ت: 1122هـ/ 1710م) هذا الفتح في أرجوزة تتألّف من اثنين وسبعين بيتًا، جمع فيها بين التاريخ والأدب، فهي كما يصفها شارحها أبو زيد عبد الرّحمن الجامعي (1144هـ/ 1734م) الذي كان يومئذ بتلمسان؛ وافيّة بالمرغوب، كافيّة للطالب بتوفيّة المطلوب إلى ما احتوت عليه من المعاني البيانيّة والأنواع البديعيّة من تجنيسات رائقة وتشبيهات فائقة. علمًا أنّه لم يحضر ذلك الفتح، وإنما التقط أخباره من أفواه المجاهدين.

تقع هذه الأرجوزة في خمسة فصول؛ الأول في ذكر دولة محمّد بكداش، والثّاني في وصف تجهيز الجيش وتوجّهه إلى وهران، والثّالث في كيفيّة محاصرة المدينة وبروجها، والرّابع في وصف ما آل إليه المسلمون الفاتحون، والإسبان المطرودون، والخامس في الثّناء على الله تعالى والصّلاة على رسوله ﷺ وقد أضاف الجامعي إليها خمسة أبيات من البحر نفسه، يقول الحلفاوي:

لَمَّا أَرادَ اللهُ بِالدّينِ جِلا
عَنْ أَرْضِ وَهْرانَ بَني الكُفْرِ جَلا
أَحادَ مَنْ حادَ عَنِ الخِلافَهْ
فَاسْتَنْهَضَ فَتًى لَهَا خِلافَهْ
أَحَلَّهُ مَحَلَّ مَنْ أَقامَهْ
وَلِلْقَضاءِ عِنْدَهُ أَقامَهْ
فَكانَ خيرَةً وَخَيْرًا وَمُنَى
وَجَلْبَ نَفْعٍ دائِمٍ ومَأْمَنَا
وَمِنْ عَظيمِ لُطْفِهِ بِالنّاسِ
سِرٌّ خَفِيَ عَنْ ذاكِرٍ وَالنّاسِي
فَلَمْ يَكُنْ فيهِ مَجالٌ لِلْوَرى
وإِنْ تَسَلْ عَنْ شَرْحِهِ قُلْ لامِرًا
هُوَ دَوْلَةُ الحَبْرِ محمّد بَكْداشَ
تاريخُها طِبْقَ محمّد بَكْداشِ
جاءَتْ بِعِزٍّ وسَناءٍ وَسَنَا
والْتَذَّتْ الأَعْيُنُ فيها وَسَنَا
وَهْوَ لَهَا كُفْءٌ وَظِلٌّ لِلأَنام
فَكَمْ أَزَاحَ ذَا عَنَا وَكَمْ أَنامْ
وَكَمْ أَتَى مِنْ قَبْلِهِ الجَزائِرَا
دَايٌ وَدَهْقانٌ كَمَنْ جَا زَائِرَا
فَلَمْ يَكُنْ لِلْخَلْقِ فِيهِ راحَهْ
وَلَمْ يَسَلْ عَنْ غيرِ ما بِالرّاحَهْ...
مُؤَمِّرٌ صِهْرَهُ أَوْزَنْ حَسَنَا
قَرْمًا رِضًى فَسارَ سَيْرًا حَسَنَا
والحَازِمَ العَارِفَ بَايَ مُصْطَفَى
وَهُوَ مِنَ الأَقْيالِ فَايِقْ مُصْطَفَى
ثُمَّتَ نادَى بِالجِهادِ في الأَفاقِ
فَأَعْزَمَ الحازِمَ والغُفْلَ أَفاقْ
فَسارَعَ النّاسُ لَهُ إِذْ طَلَبَهْ
لا سِيَّمَا جَمَاعَةٌ مِنْ طَلَبَهْ
وَقَصَدُوا حُصُونَهَا مِنْ كُلِّ شَقْ
بِزَمَنٍ تَاريخُهُ (يَهُدُّ شَقْ)
مِنْ بَعْدِ لُغْمٍ هَدَّ جُلَّ حَرْفِهِ
وَحَصْرُهُمْ بِهِ بِنَقْطِ حَرْفِهِ
ثُمَّ أَتَى الجَيْشُ لِوَهْرانَ وَلَمْ
يَكُ مُقاتِلٌ بِها إِلَّا أَلَمْ
وَبِ«الجَدِيدِ» بُرْجِها الحَامِي لَهَا
لَمْ تُغْنِ آلاتٌ بِهِ حامِلَهَا
فَفُتِحَا يَوْمَ العَرُوبَةِ مَعَا
فَتْحًا أَرَى في الأَنْدَلُسِ مَطْمَعَا
فَفُتِحَتْ مِنْ بَعْدِ حَرْقٍ وَعَنَا
وَرَمْيِ مُرْعِداتِ عِلْجٍ باعْتِنا
وَلَغَمٍ بِبُرْجِهَا قَدْ شَقَّهُ
وكانَ ذَاكَ عامَ «هَدُّوا شَقَّهُ»
ثَالِثَ عَاشِرٍ مِنَ المُحَرَّمِ
لا جَعَلَ اللهُ بِها مِنْ مُحْرَمْ
وانْكَسَرَتْ شَوْكَةُ مَنْ بِالكُفْرِ
يَلُوذُ أَوْ لَهُ اعْتَنَى بِأَمْرْ
وَأُخْرِجُوا بِالذُّلِّ لِلإِسَارِ
فِي عَدَدٍ «كُفْرٌ صَغَارٌ» سَارِي

وهي قصيدة ذات طابع سردي تاريخي، وردت في مشهديّة حيّة كاشفة لواقع هذا الفتح، من المعاناة التي كان يعيشها الجزائريون، ثمّ إقبال المجاهدين على الحرب، ثم التجهيز وأسلحة التحرير، وأخيرًا النّصر المبين، والاحتفال البهيج. كما أنّها تعكس إلى حدٍّ كبيرٍ طبيعة اللغة العربيّة المتداولة،

حيث وظّف الشّاعر ألفاظا وأساليب لها صلة مباشرة بالسّياق اللغوي والثّقافي والاجتماعي السّائد آنذاك؛ مثل كلمات: «الدّاي/ Dayi»؛ وهي لفظة تركيّة تدل في الأصل على الخال، لكنها أضحت تُطلق على رتبة من مراتب السّلطة في الدّولة العثمانيّة في الجزائر، وتعني في الاستعمال العربي السّلطان لا سبيل للحدّ عليه، و«الباي Bay»؛ وهي كلمة ولقب تركي معناه السّيّد أو الأمير ذو الشّأن العظيم. وكذلك لفظة «فايق Faik» تركيّة، معناها كبير العصافير، وظّف ذلك إشارة إلى مصطفى بوشلاغم أول بايات وهران الذي جمع الإيالة الغربيّة بتمامها.

بالإضافة إلى بعض الأساليب اللغويّة الخاصة بالمغرب العربي ككل؛ مثل «يَهُدُّ شَقْ»؛ أي باستعمال طريقة حساب الجمل؛ وهي تقوم على تسجيل صور الأرقام والتواريخ باستخدام الحروف الأبجديّة؛ إذ يُعطى كل حرف رقمًا معيّنًا يدل عليه، ومن تشكيلة هذه الحروف ومجموعها نصل إلى التاريخ المقصود، فقد ذكر الشّاعر أنّ الفتح كان في سنة تسع عشر ومائة وألف (1119هـ)، وذلك هو جملة عدد «يهد شق»؛ لأنّ «يهد» تسعة عشر، و«شقّ» مائة وألف على طريقة المغاربة. وكذلك في قوله: «وَحَصْرُهُمْ بِهِ بِنَقْطِ حَرْفِهِ»؛ إذ يريد النّاظم بحرفه الحرف الأول من لفظة «برج مرجاجو» وهو الباء التي تساوي اثنين بحساب الجمل؛ فيصبح المعنى أنّهم بقوا محاصرين «برج مرجاجو» لمدة يومين. وكذلك في تركيب «فِي عَدَدٍ «كُفْرٌ صَغَارٌ» سَارِي»؛ أي وكان عدد الأسرى (1461) أسيرا بحساب الجمل.

ثم إنّ لغة الشّاعر على الرّغم من أنّها تنقل حقائق واقعيّة تاريخيّة عن الفتح المبين، إلا أنّها قد وردت في إبداعيّة بلاغيّة ترقى إلى مستوى أساليب فحول الشّعراء، ولذلك وجدنا الجامعي شارح الأرجوزة يستأنس في الشّرح بأبيات فطاحل الشّعر العربي الموروث كالمتنبي وأبي تمام والبحتري، كي يوضّح مستويات البنيات الشّعريّة البليغة التي ارتقى إليها الشّاعر في لغته، مثل قوله يمدح الدّاي محمّد بكداش: «فَكانَ خيرَةً وَخَيْرًا وَمُنَى، وَجَلْبَ نَفْعٍ دائِمٍ ومَأْمَنَا»؛ فهو في أعلى طبقات البلاغة، وحقيقته أن يقصد المتكلّم إلى حقيقة واحدة، فيجعلها مركبة من حقائق مختلفة، بأن يجعل مثلا ممدوحه شخصًا مشتملا على أشخاص كثيرة؛ ففيه شخص هو أخير النّاس، وهو ما يتمنّاه النّاس، وهو جالب المنافع للناس، وهو مأمن النّاس، إنّه الشّخص الذي تمنى وجوده جميع النّاس، بعدما أن تيقنوا أنّه يستحيل إخراج الكفار من مدينتهم.

ثم إنّها لغة شعريّة سامقة وهّاجة ومكثّفة بمختلف أنواع الصّور البيانيّة؛ فكل بيت من الأبيات الشّعريّة يحمل صورة بيانيّة ما، أو محسِّنًا بديعيًّا بما يخدم الغرض المقصود؛ مثل «غَيَّضَ مِنْ أَجْفانِهِنَّ عَنْدَما»؛ فالعَنْدَمُ نباتٌ أحمر كنّى به عن جفاف الدّموع. والجناس التام في كلمة «الخِلافَة والخِلافَة»، و«أَقامَهْ وأَقامَهْ»، و«مُصْطَفَى ومُصطفى»، و«للأنام وأَنامْ»، ومُحَرَّم ومَحرّم، وأَفَاقْ وأَفَاقْ، طَلَبَهْ وطَلَبَهْ»، والنّاقص في «عِنْدَما وعَنْدَما»، وغير ذلك.

بالإضافة إلى هذه الأرجوزة فإنّ هذا الفتح قد أثار قريحة شعراء آخرين، فنظموا القصائد التي تخلده، كأحمد الفيلالي، وأبي عبد الله محمّد بن عبد المؤمن الحسني الجزائري، وعبد الرّحمن بن موسى، وأبي عبد الله بن محمّد الثّغْيْرِيُّ، وغيرهم من الأدباء. وقد أشار إليهم ابن ميمون في التحفة وذكر قصائدهم التي بلغت سبعمائة وخمسة وتسعين (795) بيتًا، أغلبها أُنشد من أجل إعلاء كلمة الله، وانتصار المسلمين على من غصب أرضهم من أولئك الإسبان الذين استعمروا البلاد واستعبدوا العباد. وقد نورد الأرجوزة التي دبّجها أبو عبد الله محمّد بن محمّد الثّغْيْري (كان حيًّا سنة 1115هـ/ 1703)، يقول فيها:

الحَمْدُ للهِ الَّذِي قَدْ فَتَحَا
وَهْرَانَ عَنْ أَيْدِي الرِّجَالِ الصّلَحَا
وَقَهَرَ القَوْمَ اللِّئَامَ الفَجَرَهْ
وَرَفَعَ الإِسْلاَمَ فَوْقَ الكَفَرَهْ
فِي مُدَّةِ السّلْطَانِ فَخْرَ النّاسِ
أَحْمَدَ خَاقَانَ أَبِي العَبَّاسِ
مَنْ مَلَكَ البَرَّيْنِ والبَحْرَيْنِ
وَمِصْرَ والشّامَ بِدُونِ مَيْنِ
وَخَادِمُ الحَرَمَيْنِ طُولَ المَدَى
دَامَ انتصارُهُ عَلَى جَمْعِ العِدَا
يَا سَائِلاً عَمَّا بِوَهْرَانَ ظَهَرْ
مِنْ أَخْذِهَا وفَتْحِهَا كَمَا اشْتَهَرْ
أَخَذَهَا الكُفَّارُ بِالثّبَاتِ
فِيمَا رَوَيْنَاهُ عَنِ الثّقَاتِ
سَنَةَ أَرْبَعٍ وعَشْرَةٍ مَضَتْ
مِنْ بَعْدِ تِسْعِمَائَةٍ قَدْ كَمُلَتْ
فَمِائَتَانِ مَعَ خَمْسَةٍ سِنِين
عَدَدُ مُكْثِهَا بِأَيْدِي المُشْرِكِينْ
ثُمَّ بَدَا العَزْمُ مِنَ الإِلهِ
وَجَاءَنَا الفَتْحُ بِنَصْرِ اللَّهِ
فِي سَادِسِ العِشْرِينَ مِنْ شَوَال
صَبِيحَةَ الجُمُعَةِ خَذْ مَقَالِي
عَنْ يَدِ مَنْ صَيَّرَ الجَزَائِرْ
جَنَّةَ كُلِّ قَاطِنٍ وَزَائِرْ
محمّد البَكْدَاش فَخْرِ الدّوْلَةِ
وَحَسَنِ صِهْرِهِ عَالِي الصّوْلَةِ
زَادَ الإِلَهُ لَهُمَا فِي النّصْرِ
والظّفْرِ وَافْتِتَاحِ أَرْضِ الكُفْرِ

لاَزَالَ مَـنْ عَادَاهُمَا فِـي الانْتِقَامِ
بِالقَهْرِ وَالنّهْبِ عَلَى طُولِ الدّوَامِ
ثُمَّ الصّـلاَةُ عَنْ محمّـد الأمِين
وَآلِـهِ وَصَحْبِـهِ وَالتّابِعِـين
مَـا جَاهَدَ الإِسْـلاَمُ فِـي الكُفّارِ
بِالقَتْـلِ والأَسْـرِ وَأَخْـذِ الثّـأرِ

ولكن لم يدم هذا الاستقلال طويلًا، فعاد الاحتلال الإسباني من جديد سنة (1144ه/ 1731م)، ثم يتحقّق الفتح الثّاني في سنة (1206ه/ 1792م)ـ على يد الباي محمّد بن عثمان الكبير؛ باي ولايّة وهران. وقد تناوله الكثير من الكتاب والأدباء كذلك بتآليف متنوّعة، وقصائد عديدة؛ منهم أبو راس النّاصري الذي شاركَ في هذا الفتح، ونظَم قصيدةً تُخلّد أحداثَه ووقائعَه، تسمَّى «نفيسة الجمّان في فتح ثغر وهران على يد المنصور بالله سيدي محمّد بن عثمان»، وتقع في ثمانيّة عشر ومائة (118) بيت، وحين عرضها عليه، دعاه كي يشرحَها شرحاً وافياً، ففسّرها في كتاب «عجائب الأسفار و لطائف الأخبار»، وقد ذكر أنّه أنشد هذه القصيدة على حرف السّين من البحر الكامل، جاءت كعين الإنسان، أو إنسان العين، محتويّة على اختبارات لا تمل تملأ المسامع والأفواه والمُقل، يقول فيها:

طَيِّبَ الرّيَاحِ جَمِيعَ أَرْضِ اللهِ جَسّي
وَبُشرَى البكم مَعَ الجنِّ والأنسِ
بمغربِ الأرضِ هُبِّـي وَمَشْـرِقِهَا
جَوْفـاً وقِبْلَتَنَـا وَالأَنْجُـمِ الخُنَّسِ
طَوامـي الأَبْحُـرِ وَأَهْـلِ جَزائِرِهَا
بِفَتْـحِ وَهْرانَ دَارِ الشِّـرْكِ والوَمْسِ
حَتّـى تَدارَكَهَـا اللـهُ بِرَأْفَتِـهِ
مِنْ بَعْدِ مَـا مَضَى لَهَا مُـدَّةُ العَنْسِ
مَلِـكٌ تَقَلَّـدَتْ الأَمْـلاكُ سِيرَتَهُ
دُنْيا وَأُخْرى تَراهُ مُحْسِـنَ السّـيسِ
شَـهْمٌ شَـجاعٌ بِحَزْمِ المَلِـكِ مُتَّزِرٍ
ومُرْتَدِ النّصْرِ وفي الحُلْمِ ذُو طَخْنَسِ
بِجَهْبَـذٍ شَـمْرٍ لِلْحَـرْبِ مُتَّـزِراً
مُجَلَّـلَ النّصْـرِ فَيَـا لَـهُ مِـنْ لَبْسِ
لا يُثْنِـي عَـنْ رَجـاءٍ غَيْـرَ مَبْتَسِـمٍ
حَتّـى يُزاوِلُـهُ بِالسّـيْفِ وَالفَـرَسِ
جُنْـدٌ عَرَمْـرَمٌ لَا شَـيْءَ يُقْـدِمُ لَـهُ
يَضِيقُ عَنْهُ فَضَاءٌ إِلَّا ثَلَاثَ وَالمفْسِ
مَـلَأَ هَنِيئًـا لَـهُ التَّمْكِينُ سَـاحَتَهَا
سَلاهِباً كَسَتْ الأَوْعَارَ وَالوَعْسِ....

وقد شرح أبو راس النّاصري هذه القصيدة مقدِّماً زخماً معرفياً ولغويًّا متنوِّعًا وثريًّا، حتى وإن كانت الكثير من المعارف مرتبطة في أساسها بالجانب التاريخي لمدينة وهران من حيث تأسيسُها وعمرانُها وثقافتُها وأعلامُها، إلا أنّه قد قدّم معلوماتٍ قيِّمةً في النّسب والفقه والفلك والتراجم والجغرافيا والأدب واللغة والبلاغة على عهده، قد تساعد الباحث الذي يريد أن يتعرّف على خصوصيات الثّقافة الوهرانيّة على وجه الخصوص، بالوقوف على طبيعتها وأبعادها الفكريّة والاجتماعيّة.

ويقوم منهج هذا الكتاب على ذكر البيت الشّعري، ثم العمل على تفسير مفرداته و تعابيره بالاعتماد على المعاجم اللغويّة ودواوين الشّعر وكتب النّحو والبلاغة، وينتهي بالشّرح التاريخي مستندا إلى المصادر التاريخيّة، مما يدلّ على إِلْمَامِه بعلوم عصره، ويؤكِّد مدى حفظه وقوّة ذاكرته.

وقد وظّف أبو راس النّاصري لغة معاصريه في الصّياغة والتصوير الفني، غير أنه أكثر من الصّور البيانيّة، كالاستعارة وأشكال التمثيل والتشبيه، وكل ذلك حتى يتمشى مع المقام؛ لأنّه أراد أن يجيد ويبرزَ في وصف تمجيد الباي محمّد الكبير، وتخليد الفتح الأعظم لمدينة وهران آخر معقل للإسبان.

وقد عمد أبو راس في أحايين كثيرة إلى الاستطراد، حيث ساق بعض القضايا الجانبيّة تحت عناوين مختلفة؛ منها فائدة ونادرة وغريبيّة وتتمة ولطيفة مستظرفة، قدّم فيها معلومات قيّمة عن ثقافة عصره أو الحضارة العربيّة على وده العموم، مما يكشف عن ثقافته وسعة اطّلاعه وفكره الموسوعي الذي طبع الثّقافة المغاربيّة القديمة. وقد استقى معارفه من مصادر متنوّعة منها القاموس المحيط للفيروز آبادي، وجمهرة الأنساب لابن حزم، وتاريخ ابن خلدون، ونفح الطّيب للمقري، وغيرها كثير.

وهنا نشير إلى أنّ مثل هذه الكتابات الأدبيّة تعكس المستوى الحقيقي للغة العربيّة في ذلك العصر، ومستواها ونسقها الثّقافي والاجتماعي والتربوي والتاريخي، ولهذا نجد الباحث «ڤورڤوس/ Gorguos» قد أعجب بهذه القصيدة من حيث المعلومات الجديدة التي جاء بها النّاصري حول العرب والأتراك في أفريقيا الشّماليّة، منبّها إلى أنّها قد تضمّنت معلومات غفل عنها ابن خلدون، أو حدثت وقائعها بعده، قائلا: «لقد فكّرت في أن أستخلص من هذه القصيدة كل ما يتعلق بتاريخ الشّعوب الأفريقيّة التي تعيش اليوم تحت سيطرتنا، لأضعه بين يدي قرّاء المجلة».

ثانيا-الكتابات النّثريّة: تُفصح الكتابات النّثريّة أيضا عن مستوى اللغة العربيّة إبّان الاحتلال الإسباني والوجود التركي الموازي أيضا، وهي تضم المقامات والرّسائل والخطب والرّحلات، وغير ذلك. وسنركّز على ما كُتِب عن الوضع العام للاحتلال الإسباني وآثاره التي تسرّبت في

الحياة الاجتماعيّة والثّقافيّة والسّياسيّة للمجتمع الجزائري، والكيفيّة التي انتهى بها. وقد نشير ههنا إلى المقامات التي دبّجها ابن ميمون الجزائري في كتابه «التحفة المرضيّة في الدّولة البكداشيّة في الجزائر المحميّة» الذي يضم ست عشرة مقامة، كتبها عن الدّاي محمّد بكداش وفترته، من صادق الخبر وصحيحه، على ما تجده فيها من ألفاظ لغويّة، وأنواع بديعيّة وأخبار مستلمحة. وقد نركز على المقامة الثّالثّ عشر التي كتبها محمّد بن ميمون الجزائري بعد الفتح الأول لوهران على يد الدّاي محمّد بكداش، وقد عنونها «في استفتاح مدينة وهران وكيف صار عزّ الكفرة إلى الهوان»، حيث يقول واصفا هذا الفتح: «وقد هزّت رياح النّصر عذبات الرّايات، وسدّ ما بين الخافقين علو كلمة الشّهادات، باختلاف الأصوات، وصكّت الأسماع رعود الطّبول، واستنجز المؤمنون الصّابرون من ربهم ميقات الوعد المفعول، فلا ترى إلا هاويا من ذرى شرفة تخلفه جمة، أو شهيدا تتراحم على مواقفه لمّة، أو ثنيّة تفرع، أو شعاراً يسمع، ونزل الصّبر وانجز الوعد، وقذف الله الرّعب في قلوب الكافرين، وأمدّ أولياءه بالملائكة المسوّمين، ففرغت أسوار المدينة، ودخلت والحمد لله عنوةً، وقد شُهرت السّيوف، وتخارقت الرّماح، وحق عليهم القول، وأخذتهم الرّجفة، ولولا أنّهم هربوا ليلاً لهبروهم بالسّيوف، وعاجلوهم بالحتوف، واستولوا على أقطار المدينة استيلاء عجل المجانيق عن الرّكوع، وصواعق الصّخر عن الوقوع... وقد كان –لما طال حصرها واشتدّ على المجاهدين ضرّها، خطر بخواطر الجم الغفير، أنّها لا تفتح على يد هذا الأمير، بل ادّعى بعضهم أنها لا تُفتح أبدا، وأنها لا تزداد إلا قوةً ومدداً» (التحفة المرضيّة، ص228). وهي مقامة تصوّر لنا في مشهد فني راقٍ القوة والعزيمة التي تمتّع بها السّلطان محمّد بكداش، وسكان وهران والمجاهدين، من أجل تحرير مدينتهم من براثن الاحتلال الإسباني الذي شوّهها وجرّدها من معالمها الخاصة. وقد وردت في بنيات لغويّة خاصة، توسّل فيها الكاتب سبلا إبداعيّة راقيّة قائمة على تصوير الواقع في لوحة فنيّة صادقة، رغم الانزياحات التي تعمّدها ابن ميمون وفق الطّاقات الدّلاليّة التي فجّرها انطلاقا مما تتيحه الإمكانات الكامنة في اللغة، ضمن أساليب فنيّة خاصة، ترجمتها تلك الاستعارات والتشبيهات والتضمينات والاقتباسات وفق نسقيّة لغويّة تتعالق مع القصد العام من هذه المقامات.

وقد نشير في هذه المناسبة إلى المقامات التي تناثرت في رحلة عبد الرّزاق بن حمادوش (لسان المقال)، ثم مقامة أحمد البوني (ت:1139هـ/ 1726م) المسماة «إعلام الأحبار بغرائب الوقائع والأخبار».

• **د. عبد الحليم بن عيسى**
جامعة وهران1 أحمد بن بلة

المصادر
- البستان في ذكر الأولياء والعلماءبتلمسان،ابن مريم التلمساني، تح: محمّد بن شنب، المطبعة الثّعالبيّة، الجزائر، سنة1908.
-تاريخ الجزائر الثّقافي، أبو القاسم سعد الله، طبع دار الغرب الإسلامي، ط1998/ 1م.

اللغة العربيّة في الجزائر في العهد التّركي

د.عبد الحليم بن عيسى
جامعة وهران – أحمد بن بلة

1 –اللغة العربيّة واللغة التّركيّة:

تحظى اللغة العربيّة بمنزلة مهمة لدى الشّعوب الإسلاميّة، فهي لغة القرآن الكريم والسّنة النّبويّة الشّريفة، ولذلك أثّرت في لغات هذه الشّعوب، فتسرّبت إليها الكثير من الألفاظ والمصطلحات والتّراكيب. وهذا ما حدث مع الأتراك منذ القدم، فبعد اعتناقهم الإسلام تعلّموها من أجل فهم الدّين وتعاليم الإسلام، وتلاوة القرآن الكريم، فكان من الطبيعي أن تتأثّر لغتهم بالعربيّة، وتستعير منها تأثيرًا وتأثّرًا.

ولم تأخذ التّركيّة عن العربيّة الألفاظ ذات الدّلالات الدّينيّة فحسب؛ بل تعدّى ذلك إلى الكثير من الكلمات ذات المعاني الأدبيّة والثقافيّة والسّياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة وغير ذلك. فهذا محمود بن الحسين بن محمد الكاشغري يذكر في كتابه «ديوان لغات التّرك» الذي ألّفه عام (466هـ=1073م) أنّ اللغة العربيّة كانت معروفة عند الأتراك، جعلته يأخذ عنها الكثير وهو يؤلف لعلوم اللغة التّركيّة، يقول «واستعرت ألقاب هذه الكتب والأبواب من العربيّة اصطلاحا، لمعرفة النّاس بها، ولقد تخالج في صدري أن أبني الكتاب كما بنى الخليل كتاب العين، واذكر المستعمل والمهمل معًا؛ لأُعلم أنّ لغات التّرك تُجاري العربيّة كفَرسي رهانٍ». وظلّ في هذا الكتاب يستحضر اللغة العربيّة بحروفها وصيغها وألفاظها وتراكيبها ودلالتّها ومصطلحاتها، لكي يدرس الظّواهر المشتركة بين اللغتين، ويفسّر الكثير من المسائل العلميّة المتعلّقة باللغة التّركيّة.

وحظيت اللغة العربيّة بالاهتمام الكبير عند سلاطين الدّولة العثمانيّة، بدايّة مع المؤسس الأول للدولة العثمانيّة عثمان بن أرطغرل (ت: 726هـ=1326م)، ثم بقيّة الأمراء الذين حرصوا على تعلّم العربيّة والتّحدّث بها في مختلف المناسبات، وتأسيس المدارس لتعليمها والتّرجمة إليها؛ فقد أنشأ أورخان بن عثمان (ت: 761هـ=1362م) مدرسة إزمير، لتدريس العربيّة وعلومها، بالاعتماد على العديد من الكتب اللغويّة البارزة في النّحو والصّرف والبلاغة. كما شُيِّدت مدرسة «أندرون»؛ وهي مدرسة في القصر السّلطاني، لإعداد موظفين في العربيّة من الدّرجة الأولى في القصر والجيش.

ولما كانت العربيّة لغة القرآن الكريم، فقد أصبحت لغة مرغوبة للشعب التّركي، بالرّغم من أنّها لم تكن اللغة الأصليّة لهم؛ يتعلّمونها ويستعملونها في قراءة القرآن الكريم والعبادات والمعاملات؛ بل هناك من تضلّع فيها، فأضحى يكتب بها حتى عن الدّولة العثمانيّة وحضارتها وأعلامها وعلومها، مثل كتاب «الشّقائق النّعمانيّة في علماء الدّولة العثمانيّة، لعصام الدّين طَاشْكُبْري (ت: 968هـ=1561م)، وقد تُرجم بعد ذلك إلى اللغة التّركيّة. ثم كُتُب العلّامة الموسوعيّة ابن كمال باشا شمس الدّين أحمد (ت: 940هـ=1534م) الذي أتقن العربيّة والتّركيّة والفارسيّة، غير أنّه كتب باللغة العربيّة في الدّين والآداب وعلوم اللغة وغيرها، رغم أنّه من الأتراك، حيث ألّف في تفسير القرآن الكريم وعلومه، والحديث الشّريف، والفقه والشّريعة والتّصوّف وعلم الكلام، وقد دبّج أكثر من عشرين مصنّفًا في علوم اللغة العربيّة، مثل «تحقيق تعريب الكلمة الأعجميّة»، و«رسالة في علم البيان»، و«تعليقات على مفتاح العلوم»، و«شرح تعريف الكلمة»، وغير ذلك.

وتؤكّد كل هذه الكتابات المكانة العاليّة التي حظيت بها العربيّة لدى العثمانيين، بل تعدّى الأمر ذلك حتى إنّنا نجد العديد من أسماء سلاطينهم باللغة العربيّة، والكثير من الوقفيات والأختام وأسماء الأحياء، وبعض السّفن بهذه اللغة، حتى وصلت نسبة المفردات العربيّة في اللسان العثماني إلى ما يقارب 40٪. وكل ذلك ناتج عن الحقيقة التي تبنّتها القوميّة التّركيّة، حيث تقرّر لدى الأتراك، وبالخصوص

بعد سقوط الدّولة العباسيّة، وانتقال الخلافة الإسلاميّة إلى إسطنبول، أنّهم سيبقون حملة الإسلام وقادة العالم الإسلامي، وأنّ فكرتهم المركزيّة هي خدمة الإسلام الذي لا تنفصل عليه لغته العربيّة. ولذلك تطوّرت اللغة العربيّة لدى الأتراك؛ فإذا كانت في البدايّة مجرد لغة دين وعقيدة، فإنّها سرعان ما تطوّر الأمر لتصبح لغة ثقافة وتعليم وتفكير أيضا، فصارت من مكوّنات الهويّة الحضارية الإسلاميّة التي تنفصل عن الهويّة القوميّة الخاصة بالعثمانيين.

2 –الوجود العثماني في الجزائر:

يرجع الوجود العثماني في الجزائر إلى بدايّة القرن السّادس عشر، نتيجة أسباب متنوّعة من أبرزها التّصدّي للحملات الأوربيّة المتكرّرة في حوض البحر الأبيض المتوسّط بصفة عامة، ومقاومة الاحتلال الإسباني بصفة خاصة الذي تمكّن من السّيطرة على بعض المدن الاستراتيجيّة للجزائر، وبالخصوص مدينة وهران والمرسى الكبير.

وقد تنوّع نظام الحكم أثناء العهد العثماني، حيث تعاقبت عدّة أنظمة سياسيّة عبر فترات زمنيّة محدّدة:

أولا– فترة حكم البايات (البايلربايات) (1518م – 1587م)، تبدأ مع استقرار الحكم التّركي مع الأخوين عروج وخير الدّين، وتمتدّ إلى غايّة وفاة علج علي سنة (1589م)، حيث تمكّن الحكم التّركي من التّوسّع في عدة مناطق من الجزائر في الغرب والشّرق، ومواجهة الاحتلال الإسباني وتحرير عدة مدن من قبضته، ومواجهة العديد من الحملات الأوربيّة.

ثانيا– فترة حكم الباشاوات من (1588م إلى 1659م)، وجاء هذا التّغيير نتيجة الصّراع بين طبقة الرّياس الذين كان لهم الفضل في تأسيس إيالة الجزائر، وجنود الانكشاريّة، لذلك غيّر السّلطان العثماني مراد الثاني رتبة الباي واستبدلها برتبة «الباشا»، على أن تدوم فترة الحكم ثلاث سنوات فقط.

ثالثا– فترة حكم الآغوات القصيرة (1659م – 1671م)، وقد عرفت الجزائر فيها اضطرابا في نظام الحكم، وفوضى في شؤون الإدارة.

رابعا– الفترة الرّابعة والأخيرة، وهي مرحلة حكم الدّايات الطويلة، وقد استمرّت من (1671م إلى 1830م)، عرفت فيها الجزائر مقوّمات السّياسة الخاصة، والمستقلة عن الدّولة العثمانيّة.

وبعد تنصيب الحكم العثماني بالجزائر ابتداءً من سنة (1518م) تأسّست الإيالة الجزائريّة؛ و«الإيالة» إقليم أو جهة يحكمها الوالي العام، وقد عُرِف بعدة تسميات منها: «البيكلربكي، والباشا، والأغا، والدّاي»، يعيّنه السّلطان العثماني، في إطار النّظام الذي اعتمدته الدّولة العثمانيّة في تسيير كلّ الأقاليم التّابعة لها بين القرن السّادس عشر والتّاسع عشر. وكانت مهمة الوالي إدارة الشّؤون الدّاخليّة والخارجيّة للإيالة بمساعدة مجلس الدّيوان الذي يتكوّن من أربعة أعضاء هم:

– **وكيل الحرج:** وهو موظّف سام يراقب النّشاط البحري، والتّرسانة البحريّة، ويشرف على العلاقات الخارجيّة والشّؤون البحريّة.

– **الخزناجي:** مكلّف بشؤون الخزينة العموميّة، وما تمثله من مداخيل ومصاريف.

– **المالجي:** وهو المشرف على الأموال التي تؤول إليه من الأموات الذين ليس لهم ورثة شرعيين، يساعده قاض يُعرف بالوكيل، وكاتبان ينعتان بالعدول.

– **خوجة الخيل:** مكلّف بمراقبة الحراس وإدارة أملاك الدّولة، ويشرف على تجنيد فرسان القبائل، وجبايّة الضّرائب، بمساعدة كتّاب وموظفين.

وقد وجد الأتراك صعوبة كبيرة في إقناع أهالي الجزائر بحكمهم، وضمان ولائهم، لكن بعدما أن تعرّفوا على ذهنيّة الجزائريين تعاملوا معهم بأساليب متنوّعة؛ كأسلوب التّرغيب تارة، والتّرهيب تارة أخرى، والتّحالف والمصاهرة وغيرها.

وقد قُسِّمت الجزائر خلال العهد التّركي إلى أربع مقاطعات؛ وهي:

– **دار السّلطان:** وهي مقر الحكم المركزي، وتابعة مباشرة للباشا، عاصمتها مدينة الجزائر، وتضم أيضا خمس مدن أخرى هي؛ البليدة والقليعة، وتنس، وشرشال.

– بايلك التيطري؛ وعاصمته المديّة.

– بايلك الشّرق؛ عاصمته قسنطينة، وهو أكبر البايلك من حيث المساحة وعدد القبائل والثروات الطبيعيّة.

– بايلك الغرب بمازونة، ثم معسكر ثم وهران بعد تحريرها من القبضة الإسبانية سنة (1792م).

وقد تم تنصيب على مستوى كل بايلك بايا، يكون في الغالب من أصل تركي أو كرغلي، مهمته السّهر على الأمن والاستقرار، والإشراف على القوات العسكريّة المدعة بالجنود المحليين، وجمع الضّرائب، وإصدار القرارات، يساعده مجموعة من الأعوان الذين لهم علاقة مباشرة بالباي، وهم: الخليفة، والخزناجي، وشيخ البلد، وآغا الدّواوير، والباش الكاتب، والباش مكاحلي، والباش سراج، والباش سير.

ورغم اختلاف أوضاع البايليكات إلا أنّ المناصب الإداريّة والصّلاحيات التّنفيذيّة كانت متشابهة، فالباي في كل بايلك يقوم بالمحافظة على الأمن والهدوء، ويتكفّل بدفع أجور الحاميّة التّركيّة بمركز البايلك، ويحرص على ضمان موارد قارة للخزينة، مع توفير مبالغ مهمة يبعث بها فصليا إلى الجزائر مع خليفته «الجنوش الصّغرى»، أو يتوجّه بها شخصيا ليسلّمها للوالي في السّلطة المركزيّة وحاشيته.

وقام الحكام من أجل فرض السّيطرة على البايلك بربط علاقات ثقافيّة واجتماعيّة وسياسيّة مع الأسر العلميّة والدّينيّة، ومع الأشخاص الذين يمتلكون نفوذًا روحيًا في النّفوس، فمنحوهم مناصب عليا في الإفتاء والقضاء والإمامة والتّدريس والخطابة، وحتى قيادة قوافل الحجيج.

3 -الحياة الثقافيّة في الجزائر في العهد التّركي:

ظلّت الحياة الثقافيّة في الجزائر قبل العهد العثماني مرتبطة بثلاثة حواضر أساسيّة كبرى هي؛ قسنطينة وبجايّة وتلمسان، حيث تأسست فيها العديد من المدارس التي تعنى بالنّشاطات التّربويّة والتّعليميّة. وقد انتشر التّعليم مع بدايّة القرن السّادس عشر، وخصوصا «التّعليم الأولي»، ليشمل الحواضر الصّغرى والأرياف؛ إذ تأسّست الكثير من الكتاتيب والزّوايا من أجل تحفيظ القرآن الكريم وتعليم القراءة والكتابة، وبعض العلوم المساعدة، غطّت القرى والمناطق الجبليّة والصّحراء. وهذا ما أبهر جميع الذين زاروا الجزائر خلال العهد العثماني، يقول القنصل الأمريكي «وليام شالرّ W.shaler» في مذكراته «إنّ مدينة الجزائر تملك كثيرا من المدارس العاديّة التي يتردّد عليها الأطفال ابتداءً من سنِّ الخامسة والسّادسة فصاعدا، حيث يتعلّمون القراءة والكتابة». ثمّ إنّ الفرنسيين حينما احتلّوا الجزائر أشاروا إلى أنّ نسبة الأميّة تكاد تنعدم، نظرا لكثرة المدارس والكتاتيب والزّوايا والرّباطات، ففي تلمسان وحدها وجدوا خمسين مدرسة ابتدائيّة، ومدرستين للتعليم الثانوي والعالي؛ وهما مدرسة الجامع الكبير ومدرسة أولاد الإمام. والمعروف أنّ الباي محمد الكبير هو الذي جدّد مدرستي تلمسان، وأعاد لهما أوقافهما. وكان عدد المداس الابتدائيّة في قسنطينة عند دخول الفرنسيين حوالي تسعين مدرسة، وسبع مدارس للتعليم الثانوي والعالي.

وقد برزت خلال العهد العثماني حواضر ثقافيّة جديدة؛ منها مدينة الجزائر التي أضحت قطبًا مهمًّا للثقافة والتّعليم، وبالخصوص بعد أفول هذا النّشاط نوعًا ما ببعض الحواضر كتلمسان وبجايّة، وكان كلّ ذلك بفضل سكانها وأهاليها، وضمن مبادرات خاصة، فلم يكن من ضمن سياسيّة السّلطة العثمانيّة بالجزائر الاهتمام بالتّعليم؛ بل ركّزت على الاستقرار السّياسي، ومجابهة الحملات الأوربيّة، وجمع الضّرائب. فلم يكن ضمن الوظائف السّاميّة للإيالة الجزائريّة وكيل أو موظّف سام مكلّفًا بشؤون التّربيّة والتّعليم، ولم تكن هناك مداخيل حكوميّة موجّهة لنشر التّعليم وتنميّة النّشاط الثقافي؛ بل لم تكن هموم الدّولة بأيّة حال منصرفة إلى تطوير المجتمع اقتصاديا وثقافيا وسياسيا، فانحصرت بعض نشاطات رجال الدّولة في المشاريع الدّينيّة والخيريّة، كأن يبنوا جامعًا لتعليم القرآن الكريم، أو إنشاء زاويّة لأحد الأولياء الصّالحين، ثم يوقفون على ذلك أوقافًا لحفظ هذه المشاريع وصيانتها.

ولكن قد نستثني بعض المبادرات الهامة التي قام بها بعض الباياات، مثل محمد الكبير وصالح باي وغيرهما، ببناء بعض المساجد والمدارس الخاصة. ورغم ذلك فهي محاولات فرديّة، لم تتحقق وفق إستراتيجيّة مدروسة وطويلة ومستمرّة، فكانت محاولتهم قصيرة الأمد، ونتائجها محدودة. فهم لم يؤسّسوا المراكز العلميّة الكبيرة التي تهتم بالتّعليم العالي، فتحاكي في قيمتها وصيتها الزّيتونة أو القرويين أو الأزهر أو الأموي بدمشق. وإذا كانت الدّولة العثمانيّة لم تعتن بالتّعليم والتّربيّة، فهي من جهة أخرى لم تعرقل النّشاطات التّربويّة، ولم تحارب التّعليم الذي انتشر انتشارًا واسعًا في الجزائر.

ولهذا ظلّ التّعليم مرتبطًا بجهود الأفراد والمؤسسات الخيريّة، يقوم بها الأهالي الذين يسهرون على تعليم آبائهم، انطلاقا من تقاليد الجزائريين القائمة على ضرورة التّعليم وحفظ القرآن الكريم، ثم احترامهم الكبير للمتّعلم، وتقديرهم للعلم والعلماء. لذا حرص الآباء على تعليم أبنائهم، وتحمّل الأعباء، ولو كانوا فقراء، وذلك بإرسال أبنائهم إلى الكتاتيب والزّوايا والمساجد من أجل حفظ القرآن الكريم، وتعلّم اللغة العربيّة، وبعض العلوم الدّينيّة والعمليّة.

ولكن رغم ذلك فإنّ معظم العلماء المعاصرين للعهد العثماني أو الدّارسين لهذه الفترة يؤكّدون على محدوديّة العطاء الثقافي الجزائري، وبالخصوص

خلال القرن السّادس عشر ميلادي، وذلك ناتج عن عدّة عوامل، قد نركّز على الوضع العلمي والفكري المحدود في الوطن العربي والإسلامي على وجه العموم، فلو كانت الثقافة الإسلاميّة نشيطة لاستفاد منها الجزائريون كذلك. ثم طبيعة الإدارة ونوعيّة الحكم في الجزائر الذي لم يشجّع العلم والعلماء، ثم تأثير الاضطرابات السّياسيّة والاجتماعيّة على المجتمع ككل.

ولهذا لاحظنا تهميش الجزائر العثمانيّة لأصحاب الثقافة والعلم، مما جعلهم يعيشون حالات من الضّيق والفقر، قد نمثّل لذلك بعبد الرّزاق بن محمد بن حمادوش الذي عكس في رحلته المسمّاة «لسان المقال في النّبأ عن النّسب والحسب والمال»؛ المعروفة إيجازًا برحلة ابن حمادوش الجزائري، فقدّم لنا مشهديّة مؤلمة ومؤثرة عن عصره؛ إذ يقول في حضرة الشّيخ أحمد بن المبارك السّجلماسي (ت:1156ه=1743م):

لَقَدْ عَمَّ بَحْرُ الجَهْلِ حَتّى رَأَيْتَهُ
مُحيطًا بِآفاقِ الأَنامِ عَلى البَرِّ
وقَدْ صارَ كُلُّ ديكٍ يَصْرُخُ وَحْدَهُ
ودَعْوَتُهُ تَحْكي مُسَيْلَمَةَ الشِّرِّ
وقَلَّتْ أَواصِرُ العُلومِ في وَقْتِنا
ومَنْ يَعْلَمِ التَّحْقيقَ لا يَدُلُّ لِلنَّصْرِ
وأَنْتَ إِمامٌ بِالعُلومِ مُحَقِّقًا
بِساحَتِكُمْ فَلَكَ النّجاةُ مِنَ البَحْرِ

وقد وصف ابن حمادوش في رحلته حاله وحال المثقّفين على عصره، حيث لم يرق به العلم على تنوّعه وقيمته إلى ما كان يصبو إليه، مما أدّى به إلى الهجرة من أجل الاستزادة من المعرفة، والاسترزاق عن طريق التّجارة وامتهان الطبّ التّقليدي. قال يخاطب الحكيم الكبير سيدي الحاج عبد الوهاب أدراق (ت:1159هـ=1746م) بفاس (في تاسع ربيع الأول 1156هـ الموافق لثاني وعشرين أبريل 1743م):

أَيا سَيِّدي عَبْدَ الوَهّابِ تَحِيّة
وبُشْرى لَكُمْ أَهْدى وأَنْدى مِنَ الطَّلِّ
سَلامٌ عَلَيْكُمْ، طَوَّلَ اللهُ عُمْرَكُمْ
ولا زِلْتَ تَرْقى في المَكارِمِ والفَضْلِ
أَتَيْتُكَ يا مَلْجَأَ البَرِيّة كُلِّها
تُنَوِّلُني عِلْمًا فَنَبْرَأَ مِنَ الجَهْلِ
وخَلَفْتُ أُمّي والعِيالَ وَصِبيّة
كَأَنَّها أَفْراخُ الحَمامِ لَدى الوَصْلِ
وجُبْتُ بِحارًا والغِمارَ دَخَلْتُها
وقَفْراءَ لا أُنْسَ ولا مَأْوى لِلظِّلِّ
ويَمَّمْتُكُمْ كَيْ أَسْتَنيرَ بِنورِكُمْ
وأَلْبَسَ مَنْ حَذَوْا خَباكُمُ عَلى قَلِّ
فَكُنْ لي يَكونُ اللهُ عَوْنَكَ كُلَّما
سالتّ، ويَهْديكَ القويمُ مِنَ السّبُلِ

وبالرّغم من علم ابن حمادوش وإجازاته المتعدّدة من علماء عصره داخل الوطن وخارجه، وعلاقاته، إلّا أنّه ظلّ مجهولا لدى الكثير من العامّة والمثقّفين أيضا، فلم ينل الحظوة لدى الحكام، ولم يتقلّد المناصب الإداريّة أو الدّينيّة كالفتوى والقضاء، وغير ذلك.

وأشار عبد الكريم الفكّون في «فتح اللطيف» إلى كساد التّأليف في عصره وضعف طرائق البحث والتّعمّق والاستنباط، حتى أصبح كل من جمع مادة، وحطَب بليل، يسمّى مؤلّفًا؛ فأكّد أنّ التّأليف جمع تحقيق لا جمع كتابة وتدوين، فما كان بهذه المثابة ليس فيه سوى تسويد الصّحف، كما هو شأن كثير ممن يتعاطى التّأليف في هذا الزّمان وقُبيله. وما علموا أنّه من صنّف استهدف، فإن أحسن فقد استعطف، وإن أساء استقذفَ، مع ما فيه من فضيحة العاجل والآجل، فهي مصيبة ليس تقابل إلّا بأنّا لله وإنّا إليه راجعون.

وقد وصف أبو راس النّاصري (ت:1238هـ=1823م) ما انتهى إليه زمنه وصفًا حيًّا، فقال: «إنّي في زمن عُطِّلت فيه مشاهدُ العلم ومعاهده، وسُدَّت مصادره وموارده، وخلت دياره ومراسمه، وعفت أطلاله ومعالمه، لا سيّما فن التّاريخ والأدب، وأخبار الأوائل والنّسب، قد طرحت في زوايا الهجران، ونسجت عليها عناكب النّسيان، وأشرفت شمسها على الأفول، واستوطن فحولها زوايا الخمول، يتلهفون عن اندراس العلم والفضائل، ويتأسفون من انعكاس أحوال الأذكياء، والأفاضل وإلى الله المشتكى من دهر إذا أساء أصر على إساءته، وإن أحسن ندم عليه من ساعته...».

وقد انتهى أبو القاسم سعد الله أيضا إلى سلبيّة الوجود العثماني في الجزائر في جانبه الثقافي، فقد اشتغل الأتراك بجمع المال والتّسلّط واستبعاد الجزائريين من الشّأن السّياسي، ثم يقول: «فلا غرابة إذن أن لا يشجع العثمانيون العلماء والشّعراء على الإنتاج في عصر كان فيه الإنتاج الأدبي والتّاريخي والعلمي محصورا في بلاطات الحكام. وهم لم يعقدوا المجالسّ العلميّة والمناظرات كما كان يفعل قبلهم أمراء بني زيان وبني حفص وغيرهم. وهي المجالسّ والمناظرات التي كانت تشحذ المواهب، ويتنافس فيها العلماء وتبرز القضايا الفكريّة والخلافات المذهبيّة. ثم إنّ حرمان الجزائر من جامعة أو معهد للتعليم العالي قد جعل معظم علمائها يتكوّنون خارج بلادهم، وكثير منهم كانوا لا يعودون أصلًا». ولذلك لم تك هناك حركات تجديد فكريّة عميقة، ولا انتفاضات علميّة ذاتيّة مميزة ومؤثّرة، كما حدث في البلاد الأوربيّة أو غيرها

مـن دول العالـم التـي انتعشـت فكريا وثقافيا في تلك الفترة.

ومع ذلك فقد نوّه أبو القاسـم سـعد الله بالقيمة العلميّـة للدروس التي كان يقدّمهـا العلماء فـي الجوامـع الكبيرة للجزائـر، حيث كانـت تضاهي وتفوق أحيانا دروس الجامع الأموي بدمشـق، والحرمين الشّريفين، لتنوّع موضوعاتها وقيمتهـا العلميّـة، فأقبـل الأسـاتذة عليها مـن مختلـف العالم الإسـلامي مـن الدّاخـل والخـارج. فـدروس سـعيد قـدورة (ت: 1066هـ=1655م) وعلـي بـن عبـد الواحـد الأنصـاري السّجلماسـي (ت1057هـ=1647م) وأحمد بن عمـار (ت: 1206هـ=1791م) بالعاصمة، ودروس أحمد المقري (ت: 1041هـ=1631م) بتلمسـان، وأبي راس (ت: 1238هـ=1823م) فـي معسـكر، وعمر الوزان وعبد الكريم الفكون (ت: 1073هـ=1662م) وأحمد العباسي وعبد القادر الرّاشـدي (ت: 1202هـ=1787م) فـي قسـنطينة، وأحمـد البونـي (ت: 1139هـ=1726م) فـي عنابـة، فـي قمّة العمق والرّقي في معالجة الموضوعات والإحاطة بمسائلها وقضاياها.

ولذلك عمّ الإشعاع العلمي والمعرفي في مختلف المـدن الجزائريّة، فتقلّصت نسبة الأميّة؛ بل تكاد تنعدم، وهذا ما شهد عليه الكثير من الباحثيـن والرّحالة الذين زاروا الجزائـر قُبيل الاحتلال الفرنسـي، حيـث أكّـدوا أنّ كلّ الجزائرييـن تقريبا كانوا يعرفون القراءة والكتابة، فقد وصف الجنـرال «فيـالار Vialar» أنّ الجزائريين يتقنون كلهم القـراءة والكتابة، وفي ككل قريّـة كانـت توجد مدرسـتان. أمـا عدد المدارس فقـد كان يناهز ألفي مدرسـة، كما توجد معاهـد وجامعات في الجزائر العاصمة وقسـنطينة ومازونة وتلمسـان ووهران، إنّ التّعليم في الزّوايا كان زاهدا، وكان لكل طريقة دينيّة عدّة مدارس منتشرة في القطر. وأشارت الكتابة الفرنسيّة.

وقـد تنوّعـت المعارف التـي كانت تقدّم في المراكز التّعليميّة بين المعارف الفقهيّـة، والمعارف اللغويّـة والأدبيّة، والمعـارف العلميّـة والعقليّـة. ويبـدأ التّعليـم فـي المراحـل الأولـى بحفظ القـرآن الكريـم، وبعـض المتـون، ثم يتطوّر بعـد ذلك ضمن علوم متخصصة ومعارف محدّدة. ولكن ظلّ التّركيز ههنا على العلوم الشّـرعيّة كالفقه والحديث والشّـريعة، بالإضافـة إلى علـوم اللغة العربيّـة كالنّحـو والصّرف وفقـه اللغة والبلاغـة وغيرهـا، ودون الاهتمـام بالعلوم الطبيّـة والعقليّة، ممـا أدّى في النّهايّـة إلـى قلّـة المشـتغلين بالطـب والكميـاء والفلك والحسـاب وغيرها. وهذا ما لاحظه الرّحّالة الإنليزي "شـو Shaw" حينما زار الجزائر بعدما أن طاف في مجموعـة من الـدّول العربيّة خلال القرن الثامن عشر ميلادي، حيث خلُص إلى تدهور تعليم الطبّ في الجزائر، كما في بقيّـة الأقاليم العثمانيّـة، مع اعترافه بقدرة بعـض الأطبّـاء الجزائريين على المعالجـة ببعـض الأعشـاب. ولذلك وجدنـا أبا القاسـم سـعد اللـه يصف الحكيم ابن حمادوش بأنّه جاء بعد ظلامٍ دامسٍ أصاب الحضارة الإسلاميّة.

وتكـون نهايّة الدّروس فـي المراكز التّعليميّـة في الكثير مـن الأحيان بمنح إجازة للمستحق من طرف الشّيخ الذي يقـوم بالتّدريـس، وهـي شـهادة تثبت نـوع الدّراسـة، والكتـب التي درّسـها لهذا الطالب، وهي تسـمح لـه بمزاولة التّدريس إن كان يريد ذلك.

وقد تنوّعت الآثار العلميّة التي أنتجها العلماء الجزائريون خلال العهد العثماني، شـملت العلوم الدّينيّة والأدبيّة والعقليّة والطبيّـة، منهـا كتابـات عبـد الرّحمن الأخضري وعبد الكريم الفكّون وأحمد المقري وأحمد بن سـحنون الرّاشـدي، وعبـد الرّزاق بن حمـادوش، وأبي راس النّاصـري، وعيسـى الثعالبـي، وغيرهم كثير. ولكن مـا يميّز حركـة التّأليف في الجزائر خـلال العهـد العثماني اتّسـام الكثيـر مـن المؤلّفات بظاهرة الشّـروح والحواشـي والتّعليقـات والرّسـائل، ومحدوديّة المؤلفات الإبداعيّة المحضة.

4 -الدّراسات اللغويّة في الجزائر في العهد العثماني:

اهتـمّ الجزائريـون باللغـة العربيّـة وعلومها تعلّمًا وتعليمًا وتأليفًا، وذلك من خلال إقراء الكتب الأساسيّة التي تعرّف بالعربيّة وعلومهـا وآدابها؛ بتعليم النّحو والصّـرف والبلاغة وموسـيقى الشّـعر والخطابة والسّـير والتّراجم. يتم التّعليم بحفظ المنظومات والمتون المتخصّصة، ثم الاطّلاع على أمّهات الكتب في النّحو والبلاغـة والأدب، وبعـض الشّـروح ومسائلها عن ظهر قلب، ثم تعليم الكتابة والقراءة. يتحقّق ذلك بطريقتين تسـمّى الأولى «السّرد»؛ ويُقتَصر فيها على إقراء المتن مفهومًـا ومنطوقًا، بفهمـه وإزاله غموضـه. ويكـون الـدّرس الأول مـن طلوع الشّـمس إلى الـزّوال، والثاني من بعد صلاة الظّهر إلى قُبيل المغرب، وقد يتمكّن الشّيخ من إلقاء ألفيّة ابن مالك في عشرة أيام، وقد يتجاوزها.

وتسمّى الطريقة الثانيّة «الأصل»؛ تتم بتدريس مجموعة من الكتب والشّروح المذيّلة بها، خلال السّـنة ككل، بحيث يُفتـح الكتـاب المـراد تدريسـه أواخر الخريـف أو بدايّة الشّـتاء، ليتم تقديمه بحصّـة واحـدة أو حصتين فـي اليوم،

وقد يختتم في سنة واحدة، وقد يستمر بشروحه إلى السّنة الموالية.

وتعتمد هاتان الطريقتان بقوة على التّلقين المباشر من طرف المدرّس، والاستعراض الدّقيق للمعلومات المقدّمة، مع عدم التّركيز على التّحليل والاستنتاج والاستقراء في التّعامل مع المعارف المقدّمة.

ويمكن ضبط العلوم اللغويّة التي كانت تقدّم للتدريس خلال العهد العثماني فيما يلي:

- النّحو بالأجروميّة وألفيّة ابن مالك وشروحها كالمكودي، وابن عقيل، وابن هشام.
- الصّرف بلاميّة ابن مالك في التّصريف.
- فقه اللغة.
- البلاغة العربيّة بجوهرة الأخضري، وحواشي السّعد التّفتزاني ومتنه، وتلخيص المفتاح.
- العروض بالخزرجيّة مع شرحها للشريف الغرناطي.
- المنطق بالسّلم المرونق للأخضري، وتهذيب السّعد والجمل للخونجي ومختصر السّنوسي.
- الخط العربي بمختلف أشكاله وأنواعه.
- السّير والأخبار والتّراجم.

وقد ذكر عبد الكريم الفكّون (ت: 1073هـ=1662م) أنّ تعليم النّحو يبدأ تعليمه بسيطا من خلال المتون وبعض الشّروح البسيطة، ثم يتم التّبحّر في أبوابه ومسائله من خلال ما قدّمه جهابذة النّحو؛ كسيبويه والمبرّد والزّجّاجي وابن جنّي وابن بابشاذ والسّهيلي وابن مالك وابن هشام والمرادي والدّماميني وغيرهم.

وقد نذكر بعض العلماء الجزائريين والمؤلفات التي دبّجوها في اللغة العربيّة وعلومها، ونبدأ بعلم النّحو حيث إنّ علماءنا قد ألّفوا مؤلّفات مهمة في هذا المجال، ويمتدّ ذلك إلى ما قبل التّواجد العثماني، وقد نستحضر ههنا العلّامة يحيى بن معطي الزّواوي (ت628هـ=1231م) صاحب «الدّرّة الألفيّة في علم العربيّة». ومنه تركّزت العيون على زواوة باعتبارها مدرسة مهمة في علم النّحو، ثم جاء أبو جميل زيان بن فائد الزّواوي القسنطيني (ت: 857هـ=1453م)، حيث تقدّم بالدّراسات النّحويّة أيضا، وألّف أرجوزته في النّحو بلغت واحدًا وستين ومائة (161) بيت، قصد بها كما قال إفادة النّاشئة، يقول في بدايّة أبوابها:

فَسَمِّ بِالكَلَامِ لَفْظَكَ المُفيدْ
أَوْ جُمْلَةً كـ: العِلْمُ خَيْرٌ مَا اسْتُفيدُ
لَكِنَّهَا أَعَمَّ مَعْنًى مِنْهُ
إِذْ شَرْطُهُ حُسْنُ السّكُوتِ عَنْهُ
إِنْ بُدِئَتْ بِالاسْمِ فَهِيَ اسْمِيّة
أَوْ بُدِئَتْ بِالفِعْلِ قُلْ فِعْلِيّة

وقد لاقت هذه المنظومة إقبالًا كبيرًا لدى العلماء، فتناولوها بالشّرح والتّخريج؛ مثل شرح أبي زكريا يحيى بن أحمد السّوسي البعقيلي في «المرشد الآوي ومعين النّاوي لفهم قصيدة الزّواوي»، وشرح الحسين مرداس السّباعي في «القبس النّحوي في نُظُمِ الزّواوي»، وعلال نوريم في «القول الجديد في شرح الزّواوي المفيد»، وغيرها.

وقد أخذت الأجروميّة وألفيّة بن مالك وشرح المكودي والمرادي حظًّا وافرًا من عنايّة العلماء الجزائريين، منهم محمد الصّبّاغ القلعي (ت: ما بعد 985هـ=ما بعد 1577م) الذي ألّف «الدّرّة الصّباغيّة في شرح الجروميّة»، كتبها كما يقول في زمان شره وقليل نفعه وخيره، مع شغل البال وتراكم الهموم والأهوال.

وقد نذكر كتاب عبد الرّحمن الأخضري (ت953هـ=1546م) «الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون»، وهو عبارة عن نَظْمٍ من بحر الرّجز، يقع في (291) بَيت، تناول فيه أبواب علوم البلاغة العربيّة؛ المعاني والبان والبديع، يقول فيه:

الحَمْدُ لِلَّهِ البَدِيعِ الهادِي
إِلى بَيانِ مَهْيَعِ الرّشادِ
هَذا وإِنَّ دُرَرَ البَيانِ
وغُرَرَ البَديعِ والمَعاني
تَهْدي إِلى مَوارِدٍ شَريفَةٍ
ونُبَذٍ بَديعَةٍ لَطيفَهْ
مِنْ عِلْمِ أَسْرارِ اللِّسَانِ العَرَبي
وَدَرْكِ ما خُصَّ بِهِ مِنْ عَجَبِ
لِأَنَّهُ كَالرّوحِ لِلإِعْرَابِ
وَهْوَ لِلْمِ النّحْوِ كَاللُّبابِ
وَقَدْ دَعَا بَعْضٌ مِنَ الطُّلّابِ
لِرَجْزٍ يَهْدي إِلى الصّوابِ
فَجِئْتُهُ بِرَجْزٍ مُفيدٍ
مُهَذَّبٍ مُنَقَّحٍ سَديدِ
مُلْتَقِطًا مِنْ دُرَرِ «التّلْخيصِ»
جَواهِرًا بَديعَةَ التّلْخيصِ
سَلَكْتُ ما أَبْدَى مِنَ التّرْتيبِ
ومَا أَلَوْتُ الجُهْدَ في التّهْذِيبِ
سَمَّيْتُهُ بـ«الجَوْهَرِ المَكْنونِ
في صَدَفِ الثَّلاثَةِ الفُنونِ
وَاللهَ أَرْجُو أَنْ يَكُونَ نَافِعًا
لِكُلِّ مَنْ يَقْرَؤُهُ ورافِعًا

ثم شرح عبد الرّحمن الأخضري هذا النّظم، بنفسه وفاق فيه تلخيص المفتاح للخطيب القزويني في البلاغة، ثم شرحه الشّيخ محمد بن علي بن موسى الثغري (كان حيّا 1115هـ=1703م)، وقد سمّاه «موضع السّرّ المكنون على الجوهر المكنون»، وشرح محمد بن الفكّون

(ت:1045هـ= 1635م) بعنوان «نزهة العيون في بيان شرح الجوهر المكنون».

وقد ألّف عبد الكريم الفكّون مصنّفات في النّحو والصّرف والأصوات؛ منها «فتح اللطيف في شرح أرجوزة المكودي في التّصريف»، انتهى من تأليفه سنة (1048هـ=1638م)، يقول في بدايته: «فلما كان العلم من أسنى المطالب، وأعلى المكاسب، والمبلِّغ في الدّارين أرفع المراتب، وكان علم التّصريف من أعظم ما ينطوي عليه الجنان، ويتعاهده اللسان، ويشرف بمعرفته الإنسان، رغِبَ مني بعض الطلبة أن أجعل لهم تقييدا على منظومة الشّيخ العالم العَلَم، النّحوي اللغوي، أبي زيد عبد الرّحمن بن علي بن صالح المكودي، يحل ألفاظها، ويعين على فهمها حفاظها». وقد ذكر العياشي بأنّه أجاد فيه غايّة الإجادة، وأحسن كل الإحسان، وأعطى النّقل والبحث فيه حقهما، ولم يهمل شيئا مما يقتضيه لفظ المشروح ومعناه إلا تكلّم عليه وأجاد، كما هو شأنه في تآليفه. وقد نقل الفكّون في هذا الكتاب عن العلماء قبله، واجتهد في البحث، وتوسّع في الشّرح، وناقش القضايا الصّرفيّة مناقشة دقيقة، ومن هنا استمدّ هذا الكتاب قيمته، كونه أوسع نقلا، وأكثر بحثا، وأتم تحريرا من غيره في هذا الميدان.

وكتب عبد الكريم الفكّون عدّة شروح على كتب لغويّة معتمدة في التّعليم منها:

- «فتح مالك على لاميّة ابن مالك»، وقد أشار إليه عدّة مرات في كتابه فتح اللطيف، مما يدل على أنّه قد ألّفه قبل سنة (1048هـ)، وهو شرح على لاميّة ابن مالك في التّصريف.

- «شرح شواهد الشّريف على الآجروميّة»، التزم فيه عقب كل شاهد ذكر حديث مناسب للشاهد معنى وإعرابًا، وقد أشار إليه العياشي في الرّحلة، وعيسى الثعالبي في «كنز الرّواة».

- «شرح مخارج الحروف من الشّاطبيّة» ذكر فيه مخارج الحروف في القراءات، ذكره العياشي في رحلته، وعيسى الثعالبي في « كنز الرّواة» أيضا.

ووضع العلّامة سعيد قدورة (ت: 1066هـ=1556م) مجموعة من الحواشي على الكتب التي درّسها لطلبته، منها حاشيته على شرح الخلاصة للمرادي سمّاها «رقم الأيادي على تصنيف المرادي».

وقد نذكر أبا زكريا يحيى بن محمد بن عبد الله بن عيسى الشّاوي النّائلي (ت: 1096هـ=1684م)، فهو وحيد عصره، حيث ألّف أربعة مصنّفات في علم النّحو. وقد وصفه المحبّي بأنّه «آيّة الله تعالى الباهرة في التّفسير، والمعجزة الظّاهرة في التّقرير والتّحرير... وهو في الفقه إمامه، ومن فمه تؤخذ أحكامه، وأما الأصول فهو فرع من علومه، والمنطق مقدمة من مقدمات مفهومه، وإن أردت النّحو فلا كلام فيه لأحد سواه، وإن اقترحت المعاني والبيان فهما أنموذج مزاياه، إذا أبدى القلم سحر العقول وإن جرت الحروف على وفق لسانه وفّق بين المعقول والمنقول، وإذا ناظر عطّل من مجاريه مجاري الأنفاس، واستنبط من بيان منطقه علم الجدل والقياس». وللشّاوي عدّة مصنّفات في النّحو وأصوله؛ منها شرح التّسهيل لابن مالك، ونظم لاميّة في إعراب اسم الجلالة جمع فيه أقوال النّحاة وشرحها، ومؤلّف آخر في أصول النّحو جعله على أسلوب الاقتراح للسيوطي، وكتبه برسم السّلطان العثماني محمد خان، وحاشيّة كبيرة على شرح المرادي في النّحو، وأجوبة على اعتراضات أبي حيان على ابن عطيّة والزّمخشري في التّفسير، يقول في مقدمة ارتقاء السّيادة في علم أصول النّحو العربي: «أردت أن أجمع مختصرًا من متفرقات كلامهم، يكون للنحوي في التّعويل، لمَعَ به أئمة النّحو كسيبويه والخليل، لكنّه في غضون كلامهم كالنّتيجة المطويّة في الدّليل. وقد كنت –وغصن الشّباب غضٌّ– جمعت من كل باب من أبواب النّحو ما إليه المرجع في التّكميل من الخصائص والسّراجيّة والكتاب الجليل... فجمعتها ورتبتها على أبواب أصول الفقه، فانقادت سهلة مسهّلة للتسهيل». وقد تطرّق يحيى الشّاوي في هذا الكتاب في البدايّة إلى النّحو وأصوله، ثم عرّف اللغة والدّلالة النّحويّة وأنواعها، ثم استعرض أصول النّحو المتمثّلة في السّماع والإجماع والقياس والاستصحاب والتّعارض والتّرجيح وأدلذة أخرى.

وقد ألّف خليفة بن حسن القماري (ت: 1207هـ=1792م) اللاميّة في نظم الجروميّة؛ وهي قصيدة عذبة على طراز الشّاطبيّة، يطرب لها النّاشئ، ويرقص لها المبتدئ، لسلاسة نظمها وعذوبة موسيقاها، يقول بعدما أن حمد الله تعالى وصلّى على سيّد الأخيار نبينا محمد ﷺ:

وبَعْدُ فَذُو المَنْظومِ يَنْشُرُ طَيَّهُ
بِنَشْرِ ابْنِ آجَرّومٍ إِذْ مِنْهُ نَقَلا
وَذَا لِكَوْنِ النَّشْرِ يَصْعُبُ حِفْظُهُ
وحِفْظُ بُيوتِ النَّظْمِ أَدْنى وَأَسْهَلا
وَأَسْأَلُ مِنْ فَضْلِ الكَرِيمِ تَمامَهُ
فَلا فَضْلَ يُرْجى مِنْ سِواه مُؤَمَّلا
كَلامُهُمْ لَفْظٌ مُفيدٌ مَرَكَّبٌ
بِوَضْعٍ كَـ: زَيْدٌ مُحْسِنٌ إِذَا تَوَكَّلا
وَأَقْسامُهُ فِيما بَعْدُ ثَلاثَةٌ
هِيَ اسْمٌ وَفِعْلٌ حَرْفٌ مَعْنى بِهِ جَلا

وكتب أبو راس النّاصري (ت: 1238هـ=1822م) حاشيتين على شرح المكودي؛ حاشيّة كبرى موسومة «الدّرة اليتيمة التي لم يبلغ لها قيمة»، وحاشيّة صغرى بعنوان «النّكت الوفيّة بشرح المكودي على الألفيّة»، وله أيضا «عماد الزّهاد في إعراب كلا شيء وجئت بلا زاد»، و«نفي الخصاصة في إحصاء تراجم الخلاصة».

وكتب العلماء الجزائريون في المعجم ومسائله؛ منهم أحمد بن محمد بن علي بن ويغلان البجائي الذي ألّف «الرّوض المنظم في معاني حروف المعجم». وصنّف محمد بن بدوي الجزائري المعسكري «الارتضاء في الفرق بين الضّاد والظّاء»؛ لخّص فيه كتاب «الارتضاء في الفرق بين الظّاء والضّاد» لأبي حيّان الأندلسي، وذكر في مقدّمة كتابه الذي دبّجه في سنة (1127هـ=1715م) أنّه رتّبه على ما فيه ظاء من حروف المعجم، وعدّد في كل حرف ما فيه من المواد، بدأ بالصّحيح ثم المضاعف ثم المعتل بالثلاثي ثم بغيره، وما وضح له من المقصور على انقلاب ألفه عن ياء أو واو. وأشار أبو راس النّاصري إلى أنّ من مؤلّفات في علم المعجم كتابا سمّاه «ضياء القابوس على كتاب القاموس»؛ ويبدو أنّه انطلق فيه من القاموس المحيط للفيروزآبادي، مثل صنيع صاحب «الجاسوس على القاموس».

وقد اهتم بعض العلماء الجزائريين بتراجم النّحاة، منهم بركات بن باديس (ت: 1107هـ=1695م) الذي ألّف كتابا سمّاه «التّنقيح في التّعريف ببعض أحوال رجال طالعة التّصريح على التّوضيح»، جمع فيه تراجم مختصرة لعلماء النّحو الذين تعرّض إليهم أثناء تدريسه للنحو بقسنطينة؛ منهم أبو الأسود الدّؤلي والخليل بن أحمد وسيبويه والكسائي والأخفش والمازني والسّيرافي وابن جني وغيرهم. وكتب تلميذه أحمد بن القاسم البوني (ت: 1139هـ=1726م) «فتح المتين في تراجم بعض مشاهير النّحاة واللغويين»؛ ترجم فيه للغويين المشهورين، وقدّم فيه الكثير من الأخبار اللغويّة والأدبيّة، سمّاها الفوائد.

وقد اشتهر الكثير من العلماء خلال العهد العثماني بدروسهم وحلقاتهم العلميّة، فكانوا قِبْلَة للطلبة الذين يودون في الاستزادة في العلم والتّبحّر فيه؛ مثل عمر بن محمد الكماد الأنصاري القسنطيني المشهور بالوزّان (ت: 960هـ=1552م) الذي كرّس حياته للتعليم بقسنطينة، فقد وصفه عبد الكريم الفكون بأنّه «شيخ الزّمان، وياقوتة العصر والأوان، العالم العارف الرّبّاني... كان بحرا لا يجارى في العلوم فقهًا وأصولًا ونَحْوًا وحديثًا». وكان الوزّان متمسكا بمهنة التّدريس متباعدا عن الأمراء والوظيفة السّلطانيّة، حيث اعتذر لحسن آغا كتابيا عن قبول وظيفة القضاء حين عُرضت عليه.

ونذكر أيضا العلّامة سعيد المقري (ت:1025هـ= 1616م) الذي درّس بتلمسان، فهو عالمٌ موسوعي، بارعٌ في اللغة العربيّة وعلومها، متبحّرٌ في الفقه والحديث والمنطق والأصول والتّوحيد، عارفٌ بالطب وعلم الجراحة، حافظٌ لأشعار العرب وأيامهم وأمثالهم وأخبارهم. ومحمد التّواتي (ت: 1031هـ=1622م الذي كان يلقّب سيبويه زمانه، حيث جلس في قسنطينة للتدريس فترة طويلة، وقد تخرّج على يديه عدّة علماء؛ منهم محمد راشد الذي درّس هو أيضا بقسنطينة ثم عاد إلى زواوة. ثم أبو عمران موسى الفكيرين (ت: 1054هـ=1644م) مدرس مدينة قسنطينة ومفتيها.

ونذكر أيضا العلّامة أحمد بن عمّار (ت-نحو 1205هـ*1790م)؛ فقد كان مدرّسا مشهورا بالجامع الكبير بالعاصمة، ومتوليا الفتوى المالكيّة، وقد حضر إلى درسه العالم المغربي أحمد الغزال الذي جاء إلى الجزائر سنة (1182م) فمدحه بقصيدة يقول فيها:

هَلُمُّوا إِلَى مَأْوى المَفاخِرِ وَالعُلا
هَلُمُّوا إِلى الأَسْمى ابْنِ عَمّارٍ أَحْمَدَ
بِوالِدِهِ دينًا وعِلْمًا قَدْ اقْتَدَى
لَقَدْ جَلَّ نَجْلُ كانَ بَالأَبِ يَقْتَدي
فَأَكْرِمْ بِهِ مِنْ ماجِدٍ وَابْنِ ماجِدٍ
وَأَنْعِمْ مِنْ سَيِّدٍ وابْنِ سَيِّدِ

بالإضافة إلى علماء آخرين أسهموا بقوة في تعليم اللغة العربيّة وعلومها وغيرها من المعارف كمحمد بن أحمد بن أبي جمعة المغراوي الوهراني (ت: هـ=1676م)، وأحمد الرّزوق بن عبد اللطيف (ت: 1739م)، وأبي عبد الله محمد بمن أحمد القسنطيني (ت: هـ=1704م)، والحسن بن أحمد بن زروق بن مصباح (عاش في القرن الثامن عشر)، ومحمد بن أحمد بن عزوز البرجي (ت: 1233هـ=1818م)، أبي طالب محمد بن علي بن الشّارف المازوني الغريسي (ت: 1233هـ=1818م)، وأبي راس النّاصري، وغيرهم كثير.

5 -اللغة العربيّة واستعمالاتها في العهد التّركي:

حظيت اللغة العربيّة باهتمام كبير لدى الجزائريين خلال العهد التّركي، فبالرّغم من سيطرة اللغة التّركيّة على الإدارة، ووجود بعض اللغات الأخرى المزاحمة لها؛ كالإسبانية نتيجة الاحتلال الإسباني لبعض المدن الجزائريّة، وسيطرة اللغة الخليط (لغة فَرَانْكَا) على التّبادل

التّجاري، إلا أنّها ظلّت عنوانًا للهويّة الوطنيّة والانتماء الإقليمي، وبالخصوص في التّعليم والمراسلات والتّأليف والمواقف الرّسميّة التي تستدعي البلاغة والفصاحة؛ كالخطب التي كانت تُلقى في المساجد والمناسبات. وهنا نشير إلى اهتمام الجزائريين بضرورة تمكّن المرشّح للخطابة من اللغة العربيّة إنشاءً وإلقاءً، فقد كان لأهل الحي الدّور الكبير في اختيار الخطيب، فهم الذين يرشّحون للباشا من استحسنوا صوته وفصاحته وعلمه وأخلاقه، ليكون خطيب جامع حيّهم.

ثم إنّ العارفين باللغة والعلماء كانوا ينفرون من الخطباء الذين يلحنون أو يعتريهم الخجل، أو التّردّد في إلقاء الخطب، ويعيبون عنهم؛ منهم المفتي عمار المستغانمي الذي كان مضرب المثل في العيّ رغم كفاءته؛ إذ ظلّ عاجزا عن أداء الخطبة، لذلك كان يُنيب عنه صهره في الخطابة.

وقد تعجّب العيّاشي (ت:1090هـ =1679م) في رحلته من خطيب الجمعة في جامع المالكيّة بتوات، حيث ألقى خطبة أكثر فيها اللحن والخطأ والتّحريف، والتّقديم والتّأخير، مع إدغام أكثر حروفها حتى كأنّها همهمة، فتخوّف ألّا تصحّ له معه جمعة إن كانت صلاته كخطبته، فنجّى الله، فأحسن في قراءة الفاتحة. فدعا الخطيب للإمام المهدي، ثم السّلطان الأعظم؛ الخاقان الأفخم محمد بن إبراهيم بن مراد، ثم لسلطان بلده مولاي علّاهم، فلما فرغ سأله العياشي عن المهدي المدعو له في الخطبة؛ أهو المنتظر أم أحد المتحلين ذلك مما مضى؟! فإذا هو لا يفقه شيئا من ذلك، أدرك أنّه وجد الخطبة مكتوبة في صحيفة عنده، لعلّها من خطب بعض من كان في أيام المهدي بن تومرت، حفظها كما وجدها.

وقد كان العلماء يعيبون على من لا يفقه اللغة العربيّة تلفّظًا وكتابةً، ومن ذلك ما ذكره عبد الكريم الفكّون عن المفتي أحمد الغربي (ت: 1030هـ=1620م)؛ حيث يصفه بأنّه أُميّ الخطابة والكتابة، لا يعرف الخط ولا الرّسم ولا الهجاء حتى إنّه كان يطلب ممن يجالسّه إصلاح فساد الرّسم. ويمدحون ويبجّلون في الوقت نفسه من يتمكّن من العربيّة ويتفنّن في مفاصلها، فهذا الفكّون أيضًا يثني على أبي العباس أحمد بن ثلجون (ت: 1031هـ=1621م)، ويصفه بأنّه طلق اللسان، فصيح الكلام، يُخرج الحروف من مخارجها، ذو خط حسن ورونق وبهاء. ويمدح الفكّون كذلك في رسالة له أحمد المقري (ت: 1041هـ=1631م)، فيقول:

لَقَدْ تَصَدَّرْتَ فِي المَعالِي
كَمَا تَعَالَيْتَ فِي العِنَايَة
مِنْ فِيكَ تَسْتَنْظِمُ المَعانِي
بَلَّغْتَ فِي حُسْنِهَا النّهايَة
أُعْجوبَةً مَا لَهَا نَظِيرٌ
فِي الحِفْظِ والفَهْمِ والهِدايَة
يَا أَحْمَدَ المَقَّرِي دَامَتْ
بُشْراكَ تَصْحَبُهَا الرّعايَة

ويشيد عبد الكريم الفكّون أيضا بعيسى الثعالبي (ت: 1080هـ=1669م)، ويصفه بأنّه رئيس علوم اللسان، وفخر المنابر إذا خطب، ولسان المحابر إذا شعر أو كتب.

وبهذا نلاحظ أنّه بقدر ما كان التّمكّن من اللغة العربيّة معرفة وإبداعًا ورسما وإلقاء مدحا، بقدر ما كان الجهل بها عيّا وعيبًا.

6 -المفردات المستحدثة في العربيّة في العهد العثماني:

اقتضى الوجود العثماني في الجزائر نظاما خاصا سواء في التّنظيم الإداري والسّياسي، أم النّظام العسكري، أم في المعاملات التّجاريّة والاقتصاديّة والحياة اليوميّة بصفة عامة. وقد أثّر كل ذلك في الحياة الثقافيّة والاجتماعيّة للمجتمع الجزائري ككل، تمظهر من خلال استحداث دلالات جديدة، ضمن مفردات ومصطلحات خاصة في اللغة العربيّة، بعضها دخيل، والآخر معرّب وفقما تقتضيه الصّيغ الصّرفيّة العربيّة، وقد تجسّدت في التّداول اللساني اليومي، وفي كتابات ومؤلّفات العلماء وخطبهم ورسائلهم وأدبهم شعره ونثره. نوضّح ذلك من خلال المفردات والتّراكيب الآتيّة:

أ-ألفاظ سياسيّة وعسكريّة:

كان من نتائج تأسيس الإيالة الجزائريّة العثمانيّة بناء نظام إداري خاص، تحكمه علاقات قانونيّة محددة، وقد تمظهرت من خلال مفردات مضبوطة؛ منها على وجه الخصوص:

- **الإيالة**: الإيالة ولايّة أو إقليم تابع للدولة العثمانيّة، وقد أُطلق هذا المصطلح على إيالة الجزائر وغيرها من الإيالات العربيّة التي ظلّت تابعة للحكم العثماني. وتعتبر «إيالة الجزائر» في نظر العثمانيين ثاني ولايات الدّولة من حيث الأهميّة في أفريقيا بعد مصر.

يرأس الإيالة الوالي، وهو خليفة السّلطان في البلاد، يمارس سلطته طبقا للفَرمانات الواردة من الباب العالي، ومن واجباته الدّفاع عن إيالة الجزائر والحفاظ على استقرارها وأمنها، وإرسال قطعًا من الأسطول الجزائري معزّزة بالجنود لمساعدة الدّولة في حروبها كلّما دعت الحاجة إلى ذلك، وإرسال مبلغ من المال سنويا إلى الأعتاب السّلطانيّة.

وكان الحكّام العثمانيون يعيّنون واليا لولايّة الجزائر لمدّة محدودة، تتراوح بين سنة وثلاث سنوات، ولكن في

الواقع هناك من شغل أكثر من ذلك؛ فقد بقي خير الدّين باشا في سدّة الحكم تسعة عشر عاما (1518م1537-م)، وبقي إسماعيل باشا لمدة ثلاثة وعشرين عاما (1662م1685-م)، في حين كانت ولايّة بعضهم قليلة جدّا، مثل رمضان باشا (1582م) الذي حكم أقل من شهر، وحكم إبراهيم باشا ثلاثة أشهر، وقد توالى على حكم الجزائر من سنة (1518م إلى 1659م) نحو سبعة وثلاثين واليا. وكان مقر الباشا في دار الإمارة المعروفة كذلك باسم قصر الجنينة، ويسكن الباشا في الطبقات العليا منها؛ والمسماة «السّرايا»، في حين يتضمّن الطابق السّفلي «المحكمة»؛ أي مجلس الباشا حيث يسّر شؤون الدّولة، وتنعقد فيه أهم هيئتين في جهاز الدّولة؛ وهما الدّيوان الخاص والدّيوان العام.

– **الباب العالي:** أُطلق هذا المصطلح على المقام الرّسمي للصدر الأعظم أو السّلطة المركزيّة، ويضم مستشاره، ورئيس الشّورى، ووزيري الدّاخليّة.

– **البايلك:** أي مقاطعة أو عمالة، وهو مصطلح تركي قديم أخذه الأتراك عن المغول والسّلاجقة، ويعد عثمان بن أرطغرل (ت: 726هـ=1324م) مؤسس الدّولة العثمانيّة أول من تولى إمارة البايلك عند الأتراك، وذلك سنة (678هـ=1280م). ويتألّف مصطلح «البايلك» من مقطعين «بك» و«لك»، وتلفظ «بك» باي في الأصل، وهو لقب أبناء السّلاطين الحائزين على لقب الباشويّة وذريتهم، ثم استعمل لقبا لمعظم كبار الموظفين والقادة الذين يكلّفون بإدارة الولايات أو المقاطعات التّابعة للدولة العثمانيّة. وقد اشتُق منه لفظ «بيكلربك» التي تعني أمير الأمراء، وهي الرّتبة الثانيّة بعد الباشويّة، وتلفظ «بيلربي»؛ لأنّ الكاف الفارسيّة تنطق ياءً.

ويقصد بمصطلح «بايلك» في الجزائر حكومة الباي وإدارته، ويرتكز نظام البايلك في تشكيليته على الجيش والمركزيّة والأعيان. كما ترتكز سلطة البايلك على ثلاثة أبعاد جيو-استراتيجيّة؛ البعد السّلطوي الذي يرتكز على الأعيان والقضاء، والبعد الجغرافي والإداري الذي يتأسس على القيادة وأراضي العزل وقبائل المخزن، والبعد الاقتصادي والمالي الذي يقوم على الضّرائب والرّسوم الخاصة بالأرض والمواشي والدّواب.

ويشيع استعمال مفردة «البايلك» لحد الآن، لتدلّ على كل ما هو ملك للدولة، أو عمومي وملك للجميع؛ فيقال «طريق البايلك»، و«أرض البايلك»، و«مصنع البايلك»، وغير ذلك.

– **الباي:** يُطلق الباي عند أتراك الجزائر لمن ولي بايلك من البايلكات الثلاثة، يعينه الوالي العام، ومعناه بلغة الأتراك قايد القياد، ولما يعظمونه يقولون له: الباي لار، يمثّل أعلى سلطة في البايلك، فهو حاكم المقاطعة، يتم تعيينه باعتباره أحد المقرّبين من حكام الإيالة، أو على أساس الكفاءة والخبرة السّياسيّة والحربيّة. وله خليفتان؛ أحدهما ينوب عنه في الخروج للرعيّة لأخذ مال الدّولة منها، وفي القدوم إلى الجزائر عند الافتقار. وثانيهما يقال له خليفة الكرسي ينوب عنه في قاعدته إن غاب. وله كاتبان يكتبان له جميع أوامره باللغة العربيّة؛ الأول كاتب السّرّ، ويقال له باش تافتار، وهو الكبير، والثاني يكتب الرّسائل ويسجّلها، وهو الصّغير.

– **الجيش الانكشاري:** يُطلق على فرقة عسكريّة من المشاة العثمانيين، يشكّلون تنظيمًا خاصا، وفق رتب وشارات خاصة، وكان من أعظم فرق الجيش العثماني، وأكثرها نفوذا وولاء للسلطان حتى أُطلق على جنوده «عبيد العتبة»؛ أي عبيد السّلطان. أرجع بعض المؤرخين تأسيس هذا الجيش إلى عهد «أورخان الثاني» (ت: 724هـ=1324م)، وقد دام خلال الحكم العثماني إلى أن قام السّلطان محمود الثاني بإلغائه عام 1826م.

ويرجع تأسيس الجيش الانكشاري في الجزائر إلى عام 1520م، حينما أرسل السّلطان سليم الأول إلى خير الدّين بربروس ألفين من الجنود الانكشاريّة، وأتبعهم بعد ذلك بأربعة آلاف من المتطوعين من الرّعيّة. وكانت مدينة الجزائر خلال القرن السّابع عشر تحتوي على خمس ثكنات كبيرة تضم الواحدة، منها ما بين أربعمائة وخمسمائة جندي، وثكنتين صغيرتين، ثم تطورت بعد ذلك لتضم ثكنات أخرى، ومن أشهرها: ثكنة المكررين أو المقرئين، وثكنة باب عزون، وثكنة صالح باشا وعلي باشا (أو ثكنة الخراطين)، وثكنة أوسطى موسى، وثكنة بالي (أو ثكنة القناصل)، وثكنة إسكي القديمة (الفوقانيّة)، وثكنة بني الجديدة (السّفلانيّة). والنّمط الهندسي المعماري الغالب على هذه الثكنات هو النّمط ذو الطابع العثماني، المكوّن من طابقين أرضي وعلوي، وتتوسط الثكنة العديد من الأسبلة المائيّة المخصصة للنظافة والوضوء، ويتمتّع كل جندي ببيت خاص.

– **السّباهين:** فرقة عسكريّة عثمانيّة، تتشكل أساسا من الإقطاعيين المتحصّلين على أراضٍ من الدّولة مقابل تعهدهم بإمداد الدّولة بالفرسان عند الحاجة، تأتي في الدّرجة الثانيّة بعد الانكشاريّة.

– **القَشْلَة:** وبالتّركيّة «Kisla»، وتُطلق على الثكنة بشكل عام، وتسمى أيضا دار العسكر، ودار الانكشاريّة.

– **الباشا:** لقب «الباشا Paşa» في اللغة التّركيّة يمنحه السّلطان العثماني

للسياسيين البارزين والشّخصيات الهامة والحكّام، وقد أطلقه العثمانيون على الوالي المشرف على إيالة الجزائر. وقد امتدت فترة نظام حكم البشوات في الجزائر بين (1587م و1659م)؛ أي بعد نظام البايلرباي، بدأت بقيادة أحمد باشا (1587م1589–م)، وانتهت بحكم إبراهيم باشا (1656م1659–م)، وقد حكم الجزائر خلال هذا النّظام أربعة وثلاثون (34) باشا.

يعيّن الباشا في إيالة الجزائر بايات البايلك الثلاثة، «ولذا يقال له باي البايات، ويقال له باشالار، وكلمة (لار) هي للتعظيم والتّنويه عندهم فهي بمعنى جميع، وإنّ عدد من تولى منهم بالجزائر بين ما كان يبعثه السّلطان من اسطنبول، وبين من تسمّى بالجزائر فقط على الصّحيح الذي اتّفق عليه محققو المؤرخين؛ كالحافظ أبي راس وغيره خمس وسبعون باشا».

– **الأغا:** لفظ الأغا يدل على الشّرف والقيمة والسّمو في كثير من اللغات كالتّركيّة والكرديّة والفارسيّة، وقد وُظّفت خلال الحكم العثماني لتدلّ على الرّئيس والسّيّد في الحياة العسكريّة والمدنيّة. أما في الجزائر العثمانيّة فيطلق على الحاكم العام للإيالة، وتبدأ مرحلة الأغوات مع الأغا البوكباشي خليل (1659م1660–م)، وتنتهي مع الحاكم علي أغا (1665م1671–م)، وقد حكم الجزائر خلال هذا النّظام أربعة (04) أغوات فقط.

ومازال لفظ «أغا» مستعملا في الجزائر كلقب عائلي في الكثير من العائلات، وفي بعض الدّول العربيّة كذلك.

– **الدّاي:** هو المسؤول الأول على الجهاز الإداري في الحكم لإيالة الجزائر، ويعتبر الممثل الشّرعي للسلطان العثماني بها، مهمته إقرار الأمن والمحافظة على النّظام وتوفير المداخل الضّروريّة للإنفاق على موظفي الدّولة، والسّهر على رعايّة مصالح الدّولة. يساعده في تأديّة مهامه مجموعة من الموظفين السّامين الكبار، منهم: الخزناجي، وبيت المالجي، وخوجة الخيل، ووكيل الحرج، وآغا العرب، وغيرهم.

أخذ الحاكم العثماني في الجزائر لقب «الدّاي» ابتداء من سنة 1671م مع محمد بكداش، ثم يمتد حكم الدّايات إلى غايّة نهايّة العهد العثماني مع آخر داي حسين باشا (1818م1830–م).

– **الدّيوان:** أُطلق هذا المصطلح ليدلّ على الجهاز الإداري التّشريعي الذي يناقش أمور السّلطة والأعمال والأموال وكل ما له علاقة بسياسة الإيالة الدّاخليّة والخارجيّة، يضم مجموعة من الأعضاء؛ وهم كبار الضّباط، والموظفين السّامين من العثمانيين، والأعيان من الأهالي. وينقسم إلى هيئتين هما الدّيوان الصّغير (الخاص) والدّيوان الكبير (العام).

❋ **الدّيوان الصّغير:** أو ديوان الباشا، وهو مجلس تنفيذي للدولة، ويضم حول الباشا آغا الإنكشاريّة والمفتي والقاضي الحنفيين المعينين من طرف الباب العالي، والخوجات الأربعة الكبار، وأربعة وعشرين من كبار ضبط الانكشاريّة برتبة آياباشي، بالإضافة إلى موظفين سامين يمثلون وزراء الباشا؛ منهم الخليفة أو الكاهيّة، والخزرناجي، والبايلرباي (قائد القواد)، والقبطان الرّايس (المسؤول عن البحريّة الجزائريّة). يجتمع يوميا تقريبا لدراسة المسائل الطارئة، قُبيل انعقاد الدّيوان العام، ويتم تسييره وفق نظام داخلي خاص نابع من التّشريع القانوني الذي يقتضي احترام بنوده التي تؤمن التّسيير الحسن والمشاورة في الرّأي والتّفكير العقلاني في اتخاذ القرار، ومن بنوده:

– التّشاور باللغة العثمانيّة مع وجوب حضور مترجم كرغلي وكاتب عربي.

– عدم حمل السّلاح خلال انعقاد الجلسات.

– مبدأ الحوار والمناقشة حسب السّلم الوظيفي والعسكري.

– إصدار لائحة نهائيّة عن محتويات الاجتماع من قبل كاتب الدّاي الأربعة، وتكون علانيّة في المجلس، وتصاغ بمقدمة تحمل جملة: «نحن الباشا والدّيوان وجند الجزائر الفطاحل...».

– للداي وحده صلاحيّة اختتام الجلسة، وتكون بلفظ «شرع الله» التي يرددها بعده أعضاء الدّيوان.

❋**الدّيوان العام أو الكبير:** يضم بالإضافة إلى أعضاء الدّيوان الصّغير آغا العسكر وكاهيته والمفتيتين والقضاة، ونقيب الأشراف والأعيان، يجتمع كل يوم سبت في دار الإمارة للنظر في المسائل الهامة التي تهم البلاد داخليا وخارجيا، وقد يكتفي بالمصادقة على القرارات التي يقررها مسبقا الدّيوان الصّغير.

– **الخزناجي:** يُعرف بالأمين أو أمين المال، وهو المتصرّف والمكلّف بخزينة الدّولة، يقوم بتسليم المداخيل، ويشرف على الإنفاق ودفع رواتب الموظفين والجند، ويراقب أمور السّكة، يساعده في مهامه أمين السّكّة وبعض الموظفين من الحضر واليهود.

– **الباش خزناجي (الخزندار):** يُطلق على من يُشرف على مصادر الدّخل بالبايلك، ويتولى تسديد مختلف أوجه الإنفاق.

– **أغا الدّائرة:** ويُعرف في بعض المقاطعات بآغا العرب أو الباش آغا، أو خوجة الخيل، وهو قائد الحاميّة التّركيّة المستقرة بالبايلك، يتلقى أوامره من الدّاي مباشرة، يقوم بتعيين البايات الجدد عندما تصدر أوامر بذلك، ويخضع لأوامره فرسان المخزن، يراقب البايات في تعاملهم

مـع السّـلطة المركزيّـة. وقد تزايـد نفوذه أواخر العهد العثماني داخل مدينة الجزائر بعد أن كُلّف بإقرار الهدوء والمحافظة على الأمن بالضّواحي القريبة من المدينة.

– **الكاهيّـة:** يُطلق على من يتولى حفظ أمـن المدينة، فهـو بمثابة القائـد الأعلى للشرطة المدنيّة.

– **الأسـطول:** كلمـة أصلهـا يوناني، اُسـتعملت في العهد العثماني لتدل على مجموعة من السّفن الحربيّة.

– **البحـر الأبيـض المتوسـط:** سـمّاه العثمانيـون بهذه التّسـميّة؛ لأنه يتوسـط العالم، ثم لأنّ سواحله تتكون من الصّخور الجيريّة، كان يسمى قديما بحر الرّوم.

– **اليولداش:** يُستعمل هذا اللفظ ليدل على الفرقة التي أنشأها خير الدّين في بدايّة حكمه من العثمانيين المسلمين والنّصارى الذيـن اعتنقـوا الإسـلام، يتّصفـون بالشّـجاعة والإقدام والصّلـف والعنف. يرّقون بالرّتب والمرتبـات وفق الأقدميّة. تمكّـن المنخرط فيها مـن الحصول على امتيازات عـدة منها؛ الإعفاء من الضّرائب والعقوبات. تتكون هذه الفرقة من الجندي البسـيط أو «اليولـداش»، و«الشّـاوش»، والأولاأباشـي»، و«البولوكاشـي»، ثـم «الأغاباشـي»، والوكيـل الخارجـي» المكلّف بـالإدارة، ثم الكاهيّـة، ثم الآغا (جنرال)، قد يرقى الآغا إلى «موصولاغا» حيث يفقد حقـه في كل قيادة عسـكريّة، لكنه يصبح عضـوا في الدّيـوان الأعلى، تمكّنه مـن أن يتحصّل على مسـؤوليات مدنيّة. وتُمنح الرّتب الأعلى للأتراك فقط، ولا يتحصّل عليها الكراغلة والجزائريون.

ولفرقة اليولـداش ديوان تقتصر مهمته على شـؤون الفرقة دون أن يكـون له أي تصرّف في شؤون الدّولة، وقد استمر ذلك على عهد خير الدّين، ومن بعده مع الحكام الباي لاربـاي. وهناك من قادة اليولدارش من كان يُـؤذن لهم حضور ديوان الباشـا الذي كان يجتمـع كل يومين أو ثلاثة أيام لمناقشـة شـؤون الدّولة، لكن الباشا كان يكتفي بأخذ الآراء فقط. وقد حاولت فرقة اليولداش أن تستولي على الحكم بالجزائر في مرات كثيرة لكنّها مُنيت بالفشـل، ولم تتمكّن من النّفاذ إلى الحكم إلا بعد موت قلج علي.

– **الرّيّـاس:** وهـم فرقة مـن البحارة، تأسّسـت لـردّ الاعتـداءات المسـيحيّة، وإعانة مسـلمي الأندلس من الهجرة إلى برّ الأمان، يسـودها الأخـوة والتّعاطف. تطـوّرت هذه الفرقة بعد اسـتقرار الحكم العثماني في الجزائر، تشرف على صناعة السّـفن والبواخـر، وقد شـيّدت مراكب بحريّة ضخمة في بـاب الواد، وأخرى في باب عزون. تتكوّن من الوكيل الخارجي؛ وهـو المكلّف بالتّمويـن، وعددهم ثلاثة في كل مركـب، ومن الورديـان، ورايس العسّـة، والبـاش رايـس، والرّايس. وقد يوجد فـوق كل مركب ضبـاط إضافيون يُطلق عليهم اسـم «رايس الطريق»، تُسند إليهـم قيادة البواخر المحجـوزة، ويوجد إلى جانب الرّايس كاتب يُطلق عليه اسـم «خوجـة»، يقـوم بوظيفـة الأمانـة. وكل مركب يتوجّه إلى الغزو يأخذ معه عددا من عسكر اليولداش يقودهم ضابط برتبة آغا، يقومون بدور الفرسان.

ولا يعطى لقب «رايس» إلا بعد امتحان يتـم أمام مجلـس الرّيّـاس الذي يرأسـه القبطـان، ومنصـب القبطـان مخصص لاسـتقدام الرّياس. وقد لجأ خيـر الدّين إلى الاعتماد على طائفة الرّيّاس في تدعيم سلطانه؛ لأنّه هو نفسـه كان واحدا منهم، مسـتبعدا اليولداش عن نفـوذه الحقيقي. وتشـكّل مجموعة الرّيـاس قـوة دفاعيّة هجوميّة، تجبر كل الـدّوّل على احترامها ومراعاتها، بل تضطرها إلى دفع الجزيّة.

– **المخـزَن:** نَعْـتٌ يُطلق فـي الجزائر العثمانيّـة علـى جميـع أعـوان البايلك، والموظفين القريبيـن من الباي حتى صار مرادفا للسـلطة أو الحكومة. ولكن عادة ما يُطلق لفـظ «المخزن» علـى مجموعة القبائـل المتحالفة مـع السّـلطة التّركيّة، والمكلّفة بحفظ النّظـام، وضمان الأمن، وتحصيـل الضّرائـب. يقـول الأغـا بن عـودة المـزاري: «المخـزن هـو النّاصر للدولة كيف مـا كانت، وحيث ما وجدت وتملكـت وبانت، والنّسـبة إليـه مخزن ومخازنـي مفـرد المخازنيّة فـي تحقيق المباني، سمي بذلك؛ لأنّه يخزن بصدره ما يؤلمه إلى وقت الظّفر وحصول الانتقال، فيفعلـه بصاحبـه وبـه يلزمه، وقـد يطلق المخزن مجازًا على دار الحكم نفسها في المسـتبن، ومنه قولهم إلى دار المخزن». فدلالة لفظ المخزن عامة، تشـمل كل من يخدم السّـلطة العثمانيّة من قبائل وأعيان وأشخاص.

– **الكراغلـة:** أو القرغـلان صفـة أو تسميّة قلّما ترد في الوثائق، تُطلق على شريحة من مجتمع تكوّنت بعد زواج أفراد الجيش التّركي بنساء الجزائر، وقد ظهرت في المـدن التي تمركزت فيهـا الحاميات التّركيّـة، وقد تحفّظ الحـكّام الأتراك في البدايّة من الكراغلة، فمنعوهم من توليهم الوظائف السّـاميّة في الجيـش والإدارة، كمـا منعوهم مـن الانخراط فـي الدّيوان والأوجاق، خوفًـا من نفوذهم وعائلاتهم من العـرب بعد ذلك فـي الحكم، ولكن مـع مـرور الوقـت، تمكّنوا من مسـتوى الإدارة المحليّـة، حيـث تولّـى بعضهـم منصـب البـاي والقائـد، وتحصّلوا على بعـض الامتيازات التـي جعلتهم يتعالون على العرب والأمازيغ، ومما دعّم ذلك أنّ معظمهم يملك ثروات وأموالا مما تركها لهم آباؤهم الأتراك.

– **أَوْجـاق:** يُقابل فـي التّركيّة (Ocak)، ومعناهـا الأصلـي الموقد، ثـم أضحت تُطلق علـى البيت، ثم على جماعة تتلاقى في مـكان واحد، ثـم طائفة مـن طوائف أرباب الحرف، وقد عُرّبت إلى «وجاق». وأُستعمل هذا اللفظ في الجزائر العثمانيّة للدلالـة على وحـدة عسـكريّة عثمانيّة، يقـال: أوجـاق الانكشـاريّة، وأوجـاق الغرب، وأوجاق التّفكجيّـة، وغير ذلك. ووُظِّـف أيضا ليدل على وحدة عسـكريّة من وحدات الجيش الانكشـاري. فضلا عن توظيفه للدلالة على الإيالة ذاتها نظرا لعلاقـة الجيش باسـتمرار نظـام الحكم العثماني في الجزائر.

– **بيت المالجي:** ويسـمى قاضي بيت المال أيضا، يتولّى إدارة الأملاك والثروات التي تعود للدولة نتيجة المصادرة أو انعدام الورثة، ويقوم بحفظ الودائع وتسيير أملاك الغائبين والتّصرّف فيها في حال شـغورها ببيعها أو تسـليمها لمسـتحقيها أو كرائها لفائـدة البايلـك، وبالإضافـة إلـى قيامه ببعض الأعمال الخيريّة كتوزيع الصّدقات على المسـتحقين، والتّكفّل بدفن الفقراء المعدمين.

– **الدّولاتـي:** هـو لقـب الباشـوات فـي الجزائر منـذ العهد المعـروف بعهد الباشوات؛ أي منذ سـنة 1075هـ، والعبارة تعني أنّه باشا وداي في الوقت نفسه؛ أي أنّه ممثّل للسلطان وحاكم الجزائر، وأول من لُقّب بذلك حسب روايّة ابن حمادوش هو القبطان الحاج محمد التّريكي.

– **فرمان:** يُسـتعمل للقرار الذي يصدر عن السّلطان للباشـا أو الدّاي أو غيرهما، يتضمّـن الأوامـر والتّوجيهـات. وقـد اسـتعمل هـذا المصطلح فـي العديد من المراسلات التي وجّهها السّلطان العثماني لإيالـة الجزائـر، مثـل فرمان السّـلطان محمود الثاني إلى سـلطات «إزمير» الذي يمنع تجنيد الأجناد من الولايات العثمانيّة وغيره كثير.

– **السّـنْجاقُ:** خُصّ هذا اللفظ باللّواء الـذي يمنحـه البـاب العالـي لولّاته في الأقاليم تعبيـرًا عن ثقته بهم، ثم تطوّر هذا اللفظ ليدلّ أيضا على قسم إداري معيّن في الدّولة العثمانيّة.

– **القادرغـة:** سـفينة ذات مجاديـف مزوّدة بشـراع مثلث الشّـكل، بلغ طولها حوالـي 45 مترًا، وعرضهـا 5.5متر، كانت تحمل من ثلاثة إلى خمسة مدافع كبيرة في المقدمة، بالإضافة إلى عـدد من المدافع الخفيفة على الجانبين.

– **الغليوطة:** سـفينة لا تختلـف كثيرًا عن القادرغة من حيث الشّكل والتّسليح، لكنّها أصغر قليلا وأسرع.

– الفَرجاطة: أو بركانطي؛ وهي سفينة صغيرة أيضا ذات مجاديف، ولها ساريتان.

ب–مفردات اجتماعيّة وتجاريّة:

انتشرت خلال التّواجد التّركي بالجزائر الـذي اسـتمر إلى مـا يناهز ثلاثـة قرون مفردات اجتماعيّـة واقتصاديّـة وتجاريّة متنوّعـة، وليـس بالضّـرورة أن تكـون هـذه الألفاظ مولّـدة؛ بل قد تعـدّ امتدادًا لاستعمالات اللغة العربيّة بصفة عامة، وقد تكون معرّبة وفق الأقيسـة العربيّة، نوضّح ذلـك بدايّة بحسـب بعـض المجالات، والبيئات الاجتماعيّة والاقتصاديّة المعيّنة.

فقـد شـاعت مفـردات خاصـة فـي مجـال الحرف والمهن، أجملتها عائشـة غطـاس اعتمادا علـى تصنيـف الحرف فيما يناهز مائة مصطلـح، وهي: «جماعة البابوجيّة، البجاقجيّة، البرادعيّة، البراملّية، البشماقجيّة، البلاغجيّة، البنّائين، البيّاضين، التّفكجيّـة، التّمّاقيـن، الجقماقجيّـة، الجيّارين، الحاكة، الحجّارين، الحدّادين، الحرّاريـن، الحصّاريـن، الحلاطجيّـة، الحلفاجيّـة، الحلواجيّـة، الخبّازيـن، الخرّازيـن، الخرّاطيـن، الخيّاطيـن، الدّبّاغين، الرّصايصيّة، الرّقاقين، الزّيّانين، السّـرّاجين، السّـركاجيّة، السّـفّاجين، السّـكاكريّة، السّـمّارين، السّـمّانين، الشّـبارليّة، الشّـربتجيّة، الشّـمّاعين، الشّواشـيّة، الصّبّاغيـن، الصّبّانيـن، الصّباولجيّـة، الصّفّاريـن، الصّيّاغيـن، الطبّاخين، الطرّازين، العطّارين، الغرابليّة، الغمّادين، الفحّامين، الفخّارين، الفراريّة، الفراصديّة، الفرّانين، الفنارجيّة، القزادريّة، القزّازين، القصّابين، القنداجيّة، القهواجيّة، القوقجيّـة، الكبابطيّـة، الكساسـيّة، الكوّاشين، اللبّانين، اللبلابجيّة، المقايسيّة، المقفولجيّـة، النّجّاريـن، النّشّـارين، الهرقمجيّة. (الحـرف والحرفيون بمدينة الجزائـر 1830–1700، ص152). وترتبـط دلالة هذه الألفاظ بالدّلالة الأصليّة للأسم التي أُشـتقت منه كل حرفة؛ فالحاكة مثلا تُطلق علـى صانع الحايـك، والحلواجيّة علـى صانـع الحلـوى، والخبازين على صانع الخبز وهكذا مع بقيّة الحرف.

أما في النّظام المالي فقد امتازت العملة الجزائريّـة إبّـان التّواجـد التّركـي بتنوّع مادتهـا، واختلاف قيمتهـا، وقد انتظمت ضمن مصطلحات خاصـة، فهناك العملة الذهبيّة كـ«السّلطاني» أو سـكّة الجزائر، والعملة الفضيّة المتمثّلة في «زوج بوجو» أو «دورو الجزائر»، أو فـي «ريال بوجو» و«ربـع بوجو» و«ثمن بوجـو»، بالإضافة إلى الموزونـة وزوج موزونة وريال درهم المعـروف ببدقـة شـيك المسـتعمل في العمليات الحسـابيّة، ونصف بدقة شيك والصّائمة. أما النّقود البرونزيّة والنّحاسيّة فهي متنوّعة وكثيرة التّداول، منها الخروبة ودراهـم صغار «غرامس» وأسـبر شـيك ونصف دراهم صغار.

وقد زاحمت العملة الجزائريّة عملات أجنبيّة أخرى سمح الحكام آنذاك بالتّعامل

بهـا، مثـل النّقـود الإسـپانية التي شـاع اسـتعمالها إثر هجرة الأندلسيين، وبقعل الوجود الإسـپاني بوهران؛ منها: الدّبلون والدّوكـة والكرونـة والـدّورو والقـرش والـدّولار والرّيـال والأسـبر والبسـتول والكاتريـل. بالإضافة إلى عملات أوربيّة أخـرى كقـرش ليفـرون وسـكة البندقيّة ولازور تسكانيّة وفرودار البرتغال وتالاري النّمسـا والرّيال واللوبيز والجنيه والفرنك الفرنسـي، فضلا عـن النّقـود التّونسـيّة كالسّـلطاني والرّيال والخروبـة والفلس والدّرهـم النّاصـري. ونقـود المغـرب الأقصى كالسّـلطاني والبندقي العشراوي والمثقال والدّرهم والفلس والموزونة. ثم نقود الدّولة العثمانيّة بالمشرق، كالمحبوب وزر محبوب والسّلطاني وغيره.

وهي كلّهـا مفردات لهـا علاقة بحقل المال والتّعامل التّجـاري، تم تداولها في العربيّة الفصحى خـلال العهد العثماني، ضمن مبادلات تنظيميّة خاصة.

أما فيما يخص النّظـام الضّرائبي الذي شـاع بقوة خلال التّواجـد العثماني الذي أثقل الأهالـي والقبائل بأصنـاف متنوّعة من الإتـاوات، منها: «اللّزمـة، والمعونة، وضيفة الباي، وضيفـة الدّنوش، والفرح، والبشـارة، وخيل الرّعيّة، وحق البرنوس، ومهر الباشـا والفـرس، والعوائـد». مع الإشـارة إلى أنّ هذه الضّرائب قد تعدّدت واختلفـت تسـمياتها، بحيـث أصبحت متداخلة لا تخضـع لأي ترتيب أو تنظيم ثابت، وليست محدّدة لا من حيث النّوعيّة ولا من حيث الكميّة، فبعضها يُؤخذ عينا، وبعضها يستخلص نقدا.

وقد نورد ههنا بعض الألفاظ التي ظلت مسـتعملة في العربيّة لتـدل على دلالات محددة، منها على وجه الخصوص:

– **الدّنّوش:** تطلق علـى المبالغ الماليّة والمواد العينيّة التي يحملها باي كل بايلك، أو خليفته إلـى الوالي، وهنـاك «الدّنوش الصّغرى» يقدّمها خليفة الباي خلال فصلي الرّبيع والخريف مـن كل عام، و«الدّنوش الكبـرى»؛ ويقدّمهـا الباي نفسـه مرّة في كل ثلاث سـنوات. وحسب الإحصاءات المتوفـرة فإنّ دنـوش بايلك قسـنطينة قد بلغت خلال القرن السّابع عشر حوالي مائة وعشـرين (120) ألف ريال بوجو، ودنوش بايلـك وهـران مائـة (100) ألـف ريـال، ودنـوش بايلـك التيطري خمسـين (50) ألف ريال، وعشيّة الاحتلال الفرنسي قدّر الفرنسيون هذه الدّنوش بـ: 778.811 فرنك فيمـا يخص بايلـك قسـنطينة، و622.402 فرنك فيما يتعلق ببايلك وهران، و141.213 فرنك فيما يتصل ببايلك التيطري.

– **العوائـد:** تُطلـق علـى الضّريبـة أو الرّسـوم التـي تُقـدّم إلـى السّـلطة المركزيّة، وهي أنـواع؛ منها العوائد التي كان يدفعها سـكان الأرياف والفلاحون، ومنها الرّسوم التي كانت تؤخذ عن سكان المدن؛ وهي:

❋عوائد بيت المـال: تتألف من مردود الأوقـاف والتّركات والأمـلاك التي ليس لها وريث، بالإضافة إلى الأملاك العقاريّة التي تعود ملكيتها للدولة، قد بلغت عشيّة الاحتلال أربعمائة بوجو شهريا.

❋ عوائد النّقابات المهنيّـة والدّكاكين التّجاريّة: يتكفّل شـيخ البلد أو قائد الدّار بجمعها من أمنـاء النّقابات الموجودة في المدن الكبرى، وقد قُدّرت سـنة (1822م) بما يعادل ثلاثة آلاف دولار إسپاني. وكان كلّ دكان ملزما بتقديم رسـم شـهري قُدّر عشيّة الاحتلال بثلاثين سنتيما.

❋ رسـوم الطوائف العرقيّة والأقليات الدّينة: فالأندلسـيون الذين اسـتقروا في المدن السّاحليّة كانوا يمدّون الدّولة بمبالغ ماليّة ضخمة قُدّرت أثناء القرن السّـادس عشر بثلاثمائة دولة بشرشال وحدها.

ثم إنّ المجموعات السّـكانيّة بالمدن الكبـرى ملزمة بالإسـهام بمبالـغ فصليّة وسنويّة متعارف عليه كـ«ضيفة دار الباي» التي يدفعها سـكان المدن التـي ليس بها حاميات عسـكريّة تركيّة «النّوبـة»، تُقدّر ما بين ثمانمائة وألفي ريال بوجو حسـب أهميّة المدينة وعدد سكانها. و«ضيفة دار السّلطان» التي يرغم بها سكان المدن التي تُقيم بها الحاميات العسكريّة، يسلّمها شيخ البلد لقائـد الفرقة العسـكريّة «الآغا» في أوقات محدّدة، ما بين خمسـين وثلاثمائة وثلاثة آلاف ريال، بحسـب غنى السّكان وأهميّة المدينة.

– **السّـبيقة:** أو أراضي العـرش، تُطلق علـى الأراضـي القبليّـة المشـاعة التي تُفرض عليها ضريبة سنويّة تُعرف باللزمة أو المعونة أو الخطيّة.

– **المَحَلَّةُ:** تُطلـق على الفرقة الخاصة التي تُكلّف بجبايّة أمـوال الزّكاة، وغيرها من أنواع الضّرائب التي كانت تثقل كاهل السّكان، تقضي هذه الفرقة حوالي خمسة أشـهر متنقّلة بين القبائل والسّكان لإجبار شيوخ القبائل على دفع الزّكاة والضّرائب.

– **الزّمـول أو الزّمالـة:** كيـان أوجدته السّـلطة المركزيّـة وشـكّلت وحدتـه الاجتماعيّـة عكـس القبيلـة التـي تقوم على القرابـة الدّمويّة، إنّهـا مجموعة من الأفراد مسـؤولة عن رعي ماشيّة البايلك، يقيمون في ضواحـي عاصمة البايلك، قد تخرج فرق منهم في أثـر القوات النّظاميّة حينما تجوب البلاد من أجل رعي ماشـيّة البايلك، ومع مرور الوقت تحوّلت الزّمالة إلى قوة أمدّها البايلك بالسّلاح والعتاد كي تدافع عن نفسها دون الحاجة إلى القوات النّظاميّـة، وقد يتقاضون أجورهم بنصيب من المؤونـة والخيـل والأبقـار والغنم، وقد توطّـدت العلاقات بيـن أفرادها عن طريق المصاهرة، إلى أن شكّلت مجتمعا

متجانسا، انتهى بالزّمالة إلى قبيلة عسكريّة عُرفت بالزّمول.

– **الأعـلاج:** أُطلِـق على المسـيحيين الأجانـب الذين ارتـدوا عن المسـيحيّة واعتنقوا الإسـلام، تجعله يتمتّع بعد ذلك بحقوق الرّجل الحرّ لا الأسـير أو العبد. وليس الحافز الدّيني هـو الدّاعي الوحيد للعلـج، بل شـكّل الطمـوح والرّغبة في الثراء والتّرشّـح لأعلى المناصب من أهم الدّوافع لذلك. ولذلـك فقد حظوا بنفس المكانـة والامتيـازات الاجتماعيّـة التي يتمتّع بها الأتراك.

– **الدّلّال والبرّاح:** يُطلق الأول على من ينادي علـى البضائع في الأسـواق مقابل مبلغ مالـي زهيـد، والثانـي يُوظّف لمن يعلن عن أوامر السّلطة الحاكمة وقراراتها، ويُشهر بالمجرمين واللصوص المحتالين.

– **الكيلة:** الكيلة الواحدة تعادل خمسة وعشرين (25) كيلوغراما.

– **البيلاف:** وهو طبـخ أناضولي ثابت شاع كثيرا في الجزائر حسب وليام سبنسر.

– **السّـقيفة؛** شـقة صغيـرة تبنـى عند المدخل بمحـاذاة المنزل، يسـتقبل رب البيـت فيها الـزّوار ويتولـى المعاملات؛ لأن الأجنبي غير مسموح له بالدّخول إلى المنزل بسـبب وجود النّساء. وهذه الشّقة فسيحة وفاخرة التّأثيث.

– **الطوبخانة:** لفظـة مركبة من جزأين؛ أولهما تركي وهو «طوب Top» وهو اسـم جامع يُطلق على الأسلحة النّاريّة والقذائف التـي تُسـتعمل كمدافع، و«خانـة Hane»، وهي فارسـيّة وتعنـي المنـزل أو الجارة الكبيرة أو المكان الواسع. وقد وُظّفت هذه الكلمة المركبة في العهد العثماني للدلالة على دور صناعة القذائف.

– **البَلَدِيّـة:** يُطلـق علـى المقيميـن في البلدة والمتأصّلين فيها، شـكّلت هذه الفئة في العهد العثمانـي نموذجا عرقيا اقتصاديا متميزا.

– **الصّنْدَل:** وبالتّركيّة الحديثة «Sandal»، وأصل الكلمة فارسـي أُطلق على السّفن الصّغيرة سريعة الحركة.

– **البومْبَجـي:** تقابل الكلمـة العثمانيّة «Bombaci»، وتنقسم إلى قسمين «Bomba» وتعني قنبلة، و«ci» أداة تسـتعمل للدلالة على امتهان الشّخص للوظيفة الكلمة التي قبلها، فيكون معناهـا صانع القنابل، أو ما قد يقابلها في العربيّة أيضا المدفعي.

– **البربـاريـا:** يُقصـد بهـا فـي العهـد العثماني السّواحل الشّـرقيّة من الجزائر، وبالخصوص منطقة القبائل.

– **الكَبُّـوس:** تُطلـق علـى الشّاشـيّة الحمراء التي كانت توضع على الرّأس.

– **الدّوبلة:** تُطلـق على كرة صغيرة من الحديـد ، غلظها مثـل بيضـة الدّجاجة، تُستخدم كذخيرة للمدافع.

– **الغَلائِـطُ:** تُطلق على نـوع من أنواع المراكـب الشّـراعيّة التـي كانـت ضمن القطع البحريّة العثمانيّة، يتسـع لخمسين راكبـا مع أسـلحتهم، تماثـل مقدّمة هذه السّـفن مؤخّرتها، تُعرف بالفرنسيّة باسم «Galiotes».

– **الغُرابُ:** يُوظّف هـذا اللفظ للدلالة على نوع مـن أنـواع المراكـب البحريّة، وهو سـريع الحركة وخفيف، يسير بأربعة وعشرين مجدافًا، وقد عُرف هذا النّوع من السّـفن بالغراب؛ لأنّ مقدمته تشـبه رأس الغراب.

● **د. عبد الحليم بن عيسى**
جامعة وهران1 أحمد بن بلة.

المصادر
– الجزائـر في التّاريـخ، د.نـاصر الدّيـن سـعيدوني والشّـيخ المهـدي البوعبـدلي، المؤسسـة الوطنيّـة للكتـاب، 1984م.
– تاريخ الجزائري الثقافي، أبو القاسـم سعد الله، طار الغرب الإسلامي، ط1998/1م.
– المصطلحـات المتداولـة في الدّولـة العثمانيّـة، د.محمود عامر، مجلة دراسـات تاريخيّـة، ع:118–117، كانـون الثاني–حيزران 2012م.

اللغة العربيّة في فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر

أ.د السعيد هادف – د. رضوان كبيش

سلسل
شعبا
جرده
أغلق فمه
لا يزال حرا
أحرمه من عمله
من جواز سفره
من المائدة التي يأكل عليها
من السرير الذي ينام عليه
ولا يزال حرا
شعب
يصبح فقيرًا وعبدًا
عندما نسرق لسانه (لغته)
الذي ورثه عن أسلافه
فيضيع إلى الأبد
إكنازيو بوتيطا(Ignazio Buttitta[1])

يتناول هذا المقال دراسة لواقع اللغة العربيّة في فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر. حيث يأتي حديثنا عنها إبّان هذا الاحتلال من باب التطلّع على حال هذه اللغة (كيف كانت ؟) وليس من باب التأريخ لها. حيث كانت تمثل الصورة التي انعكس فيها كفاح ونضال الشعب الجزائري، لذلك كانت هذه اللغة تكتسي طابعا مميّزا في نظر المجتمع الجزائري، فهي ليست كما يعتقد بعض اللسانيين وسيلة للحفاظ على الشخصيّة وضمانا لترابطها وتماسكها فحسب، بل أساس كل نهضة وتطّور مستقبلي، ولذلك كانت هدفا استراتيجيا نلمسه بوضوح في الجانب التاريخي للوضع اللغوي في الجزائر. ولهذا لم يكن غريبا أن تكون توصيات الحاكم الفرنسي لجيشه الزاحف على الجزائر أن «علّموا لغتنا وانشروها حتى تحكم الجزائر، فإذا حكمت لغتنا الجزائر حكمناها حقيقة»[2] وعليه يتضح أن فرنسا قد عملت على إحلال اللغة الفرنسيّة محلّ اللغة العربيّة في مجالات الحياة المختلفة. وذلك وفق برنامج ثقافي حسب منطلقات أيديولوجيّة استعماريّة محكمة، حاربت من خلاله التعليم باللغة العربيّة وعملت على نشر اللغة الفرنسيّة، مدعيّة بذلك أنها تهدف إلى نشر رسالة حضاريّة في الوسط الجزائري ليكون أقرب إلى منابع الحضارة الغربيّة الزائفة. ولقد تكشف بطلانه من خلال ممارساته العنصريّة التي ترتكز أساسا على سياسة فرّق تسد واضطهاده غير الأخلاقي للجزائريين.

ولعل الكاتب الفرنسي (Auguste Bernard/ اوگست برنارد) كان قد كشف عن وجه الاستعمار وهدفه الحقيقي في الجزائر إذ يقول: « إننا لم نحظر إلى الجزائر لإقرار الأمن، بل لنشر الحضارة واللغة والأفكار الفرنسيّة، وليست الجزائر مستعمرة كما الهند والصين... ولكنها جزء من فرنسا كما كانت أيام روما...إننا نريد أن نجعل هناك جنسا يندمج فينا عن طريق اللغة والعادات...وسيتم هذا بعد نشر لغة فيكتور هوجو.»[3] وهذا تعبير عن روح استعلائيّة وسعي للهيمنة.

اللغة مؤسّسة اجتماعيّة

عاشت الجزائر في ظل ظروف اجتماعيّة صعبة فرضها استعمار لا يرحم. هذا الاستعمار الذي كان نفيا ورفضا منظما من جهة، وقرارًا صارما وحازما لتجريد أهل البلاد من كلّ صفة إنسانيّة من جهة أخرى. كلّ هذا دفع الشعب الجزائري وباستمرار إلى التساؤل باحثا عن هويته: من أنا؟ محاولا إثبات وتثبيت نفسه وشخصيّته بكل أبعادها الاجتماعيّة والثقافيّة.

إن اللغة بوصفها ظاهرة اجتماعيّة فإنها ولا شك أحد العناصر الأساسيّة

التي تسهم في الحفاظ على وحدة المجتمع وتماسكه، حيث تستمدّ كل أهميتها من وظائفها الاجتماعيّة والتاريخيّة والسياسيّة والثقافيّة. وهذا ما يدل على مكانة اللغة وقيمتها بحيويتها وحياتها، إذ أننا نعتبر جميع اللغات عملاقة ما لم يكن أصحابها أقزاما. وهذا ما ذهب إليه (صفوان المقدسي) الذي يقول: «إن أزمتنا اللغويّة ليست أزمة اللغة ذاتها وإنما هي أزمة التعامل مع هذه اللغة، أي أن العلّة ليست في اللغة وإنما في الذين يتعاملون مع هذه اللغة»[1]. وكذلك «حياة الأمم تقوم بلغاتها...أما الموت بالنسبة لها فليس إلا الحرمان من اللغة الخاصة بها»[2] كما قال (أبو خلدون ساطع الحصري). إننا نجد في هذين القولين إشارة واضحة إلى ضعف الرأي القائل بأن هناك لغات حيّة ولغات ميتة، على اعتبار أن المشكلة ليست في اللغة نفسها وإنما العيب في من يحملها ويستخدمها. ومنه نستنتج أن هناك شعوبا حيّة بأفكارها وثقافاتها وابتكاراتها، وشعوبا ميتة تعيش الجمود والتخلف الفكري والإبداعي.

تعتبر اللغة العربيّة رمزاً للهويّة الوطنيّة، ووسيلة للإبداع الفكري، ومطلبا اجتماعيا ونخبويا، يهدف إلى تأكيد السيادة الوطنيّة والوحدة اللغويّة، إنها مكوّن أساسي من عناصر الهويّة الوطنيّة للشعب الجزائري وليست مجرد وسيلة اتصال. إن استقراءنا الواقع اللغوي الجزائري يدفعنا إلى الوقوف على دور ومكانة اللغة العربيّة في الذاكرة الفرديّة والجماعيّة الجزائريّة، والبحث عن المقوّمات الحضاريّة والمحدّدات الشخصيّة واللغويّة في ظل التصادم اللغوي والحضاري وتقنيات العصر الممزوجة بالثقافة الرقميّة.

بالإضافة إلى ذلك، تمثل اللغة فرصة لتنميّة المجتمع كما أكد (محمد المبارك) في قوله إنها، أي اللغة: «عامل مهم للترابط بين جيل وجيل، ووسيلة الانتقال للثقافات بين العصور، عبر هذه الوسيلة العجيبة»[3]. بهذا المعنى، يرتبط التطور الثقافي للمجتمع ارتباطًا وثيقًا بتطور استخدام اللغة؛ وهذا يعني أن التقدم العلمي يعتمد على دور الأداة اللغويّة في نقل المعرفة. وهي، أي اللغة، تمتلك القدرة على مقاومة كل أساليب الإقصاء أو الحد من الانتشار أو التطور. ومن مظاهر اعتزاز الأمم بلغاتها الدفاع عن لغاتها الوطنيّة والوقوف أمام كل دخيل من أجل التقليل منه أو نبذه، ومن أبرز الأمثلة على هذا ما حدث في اللغة الألمانيّة في القرن العشرين «حيث تم تطهير منظم لكلمات فرنسيّة دخيلة كان الزمان قد طال على قبول الألمانيّة لها»[4].

للغة قدرات جوهريّة على المقاومة والوقايّة ضد أي محاولة لاستئصالها أو تشويهها وتخطي العقبات التي تعيق تطورها. ومن ثم فهي تعتبر حلقة وصل بين مسير المجتمع ومصيره ماضيا وحاضرا ومستقبلا.

علمتنا الأحداث التاريخيّة المختلفة أن اللغة هي حافظة روح الأمم وحياتها، وهذا ما يتجلى في المجتمع الجزائري الذي قام بالدفاع عن هويته طيلة 132 سنة في معركة وجوديّة، حيث كان لجمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين المسلمين دور كبير في حمايّة التراث السوسيو-ثقافي والذاكرة الجزائريّة، وذلك من خلال دفاعها المستميت عن اللغة العربيّة. ولا عجب أن تكون اللغة دائما أوضح وأقوى وأدل ظاهرة تتجمع فيها كل مظاهر وسمات الوجه الحضاري الذي تعيشه الأمة، فإذا أردنا التعرف على الإطار الحضاري لشعب من الشعوب في زمن من الأزمان فلندرس لغته، ففي عروق اللغة يعيش نبض العصر.

لذلك عدها William Dwight Whit-ney/ ويليام دوايت ويتني) « مؤسسة اجتماعيّة»[5].

المشروع الثقافي الاستعماري الفرنسي وآليات تنفيذه

كيف استطاعت فرنسا الاستعماريّة أن تهيمن على الوضع الاجتماعي اللغوي في الجزائر؟

اللغة هي الوسيلة التي ينقل بها الناس ثقافتهم، ولقد كانت ولا تزال أحد أسباب الصراع والنزاع. وقد شهدت الجزائر خلال فترة الاستعمار صراعا دائما بين اللغة الفرنسيّة المستخدمة في مؤسسات الدولة واللغة العربيّة التي يتحدث بها الجزائريون. غالبًا ما اتسم هذا الصراع بالسيطرة والهيمنة اللغويّة الاستعماريّة، مما دفع بالجزائريين إلى مقاومة البرامج الكولونياليّة وكل أنواع المشاريع التي فرضت عليهم بالنار

والحديد، وقد وصف أحد المحدثين واقع اللغة والثقافة بأنها«عاشت بين الحياة والموت»[1] لأن الإدارة الاستعماريّة عملت باستمرار للقضاء على تلك الثقافة عن طريق تهديد اللغة العربيّة ومحاصرتها وتهميشها، فلقد « أبعدت اللغة العربيّة عن الإدارة وخلفتها الفرنسيّة ولم يبق العمل بها جاريا إلا بمحاكم الأحوال الشخصيّة الإسلاميّة...وانفردت الفرنسيّة وثقافتها حتى خشي على اللهجة العاميّة» وذلك من خلال المسارعة «إلى محاولة محو الشخصيّة الجزائريّة الأصيلة عن طريق فرنسة الألسنة والعقول».[2]

لقد كان مشروعًا تعليميا وتغريبيا ضخمًا، يهدف إلى تكوين جيل جديد من دون هويّة ولا قوميّة يتلاءم والسياسة الفرنسيّة، أي جزائريين يكونون في خدمة أهداف الاستعمار، حيث شنت فرنسا حربا لا هوادة فيها على اللغة منذ بدايّة الاستعمار، وقد تجلى ذلك في إغلاق المعاهد التعليميّة المحليّة وتقليص عدد المدارس القرآنيّة والمساجد التي كانت تستخدم أيضًا كأماكن تعليميّة. «إلا أن الشعب الجزائري ظل مستبسلا ثابتا مستميتا في تشبثه بلغته العربيّة التي يعرف يقينا من أنها مفتاح باب عزته ومصدر قوته ونبع حضارته والعروة الوثقى في ربط وحدته وذلك إذا أراد أن يعيش محترما سيدا بين أمم المعمورة[3]».

لقد سعى الاستعمار الفرنسي إلى نشر الفرنسيّة كلغة تعليم، يقول (أحمد توفيق المدني) «كان التعليم أيام الحكومة الفرنسيّة استعماريا بحتا، لا يعترف باللغة العربيّة ولا يقيم لوجودها أي حساب، فاللغة الفرنسيّة هي وحدها لغة التدريس في جميع مراحل التعليم»[4]. كما حاول القضاء على الذات الجزائريّة المتمثلة في اللغة العربيّة إذ « أراد أن يمحو آثار الشخصيّة الجزائريّة، فحارب اللغة العربيّة بكل قوة»[5]

ونتيجة للطغيان المفرط للغة الفرنسيّة في محاربتها اللغة العربيّة خلقت السياسة الفرنسيّة بيئة اجتماعيّة وثقافيّة فرنسيّة نموذجيّة جديدة تبنتها بعض الأجيال التي نشأت في ولاء للثقافة الفرنسيّة. ومع ذلك فإن عموم الشعب الجزائري المخلص لثقافته وتقاليده، كان مقتنعًا بضرورة الحفاظ على اللغة العربيّة التي تمثل مفتاح النجاح والكرامة والقوة والحصانة لحمايّة تراثه بكل مكوناته.

كانت فرنسا تدرك جيدًا أن اللغة العربيّة -وهي سلاح ثقافي في نضال الشعب الجزائري ضد السياسة الاستعماريّة- تمثل تهديدًا دائمًا لسياستها الاستعماريّة، لذلك طبقت القوة الاستعماريّة أولاً سياسة لغويّة قائمة على الرفض الضمني تارة والصريح تارة أخرى للغة العربيّة في المناطق التي تسيطر عليها.

يقول (Denis Turcotte et Hélène Aubé) (دينيس توركوت وهيلين أوبيه): « متعت اللغة العربيّة في بدايّة الاستعمار بمكانة شبه رسميّة وحظيت بمكانة كبيرة بين السكان المسلمين. هذا الوضع الذي يضر بمكانة اللغة الفرنسيّة وتأثيرها، لا يمكن أن يستمر. بمجرد أن انتشرت الفرنسيّة بشكل كافٍ، تراجع دور اللغة العربيّة، حيث كان من غير الوارد القضاء عليها، لكونها لغة القرآن المقدسة، كل محاولات منعها كانت تثير ردود فعل السكان المسلمين للدفاع عن معتقداتهم الدينيّة. ولهذا كان على الإدارة أن تتعامل مع هذه اللغة ولا سيما الحفاظ على المدارس القرآنيّة. ولكن تدريجيًا، تراجع وانحصر دور اللغة العربيّة كلغة دينيّة لصالح اللغة الفرنسيّة التي رسخت نفسها باعتبارها اللغة الرسميّة الوحيدة»[6]. وبهذا قررت فرنسا الاستعماريّة إبعاد التعليم التقليدي ونشر اللغة الفرنسيّة.

لم يمنع الحذر الذي ساد في بدايّة دخول فرنسا الاستعماريّة من بسط سيطرتها تدريجياً على جميع مجالات الثقافة والتعليم. فمن الواضح أن فرنسا بذلت قصارى جهدها لاستبدال البرنامج اللغوي الجزائري ببرنامجها حتى تتمكن من نشره وتعميمه. فقد كان التعليم في الواقع أداة لا غنى عنها للدفع قدما بالسياسة الاستعماريّة في الجزائر.

ولقد قامت فرنسا بخطوات عمليّة لتطبيق خطتها الثقافيّة التي كانت قد حضرتها مسبقا حتى قبل غزو الجزائر، ولكي يتسنى لها تطبيق ما قررت فعله «تم انتهاج سياسة تعليميّة ؛ تعتمد على التجهيل والفرنسة والإدماج والتغريب»، ونجاح هذه السياسة «يكمن في العزل القسري للمقومات الحضاريّة للتراث العربي الإسلامي في الجزائر وتغيير الهويّة الثقافيّة السائدة، ومن ثم على الجزائر أن تكون فرنسيّة في كل شيء، وأن تنسى ذاكرتها وجسور اتصالها بالماضي دفعة واحدة وإلى الأبد»[1] . وعليه فقد طبقت فرنسا سياستها الفرانكوفونيّة ومحاربتها للمدرسة، وكذاك سياسة الفرنسة ومحاولتها استئصال اللغة العربيّة من البيئة الجزائريّة .

لقد فرض الاستعمار الفرنسي على الشعب الجزائري صراعا عنيفا، وحاول تحطيم قيمه الثقافيّة والحضاريّة، وقد وُوجِه بمقاومة باسلة رغم المشاق والصعوبات ولمدة 132 عامًا من أجل الرد على ممارساته المخالفة لاحترام الشخصيّة الجزائريّة. إن هجومات الاستعمار المتكررة الشرسة على الثقافة العربيّة والإسلاميّة «كان ينبع من إدراك قادة الاحتلال الفرنسي أن هذه الثقافة هي العائق الرئيس الذي يمكن أن يقاوم ما كانت تسعى إليه من مسخ وتشويه» [2]. ومن ثم وجب أو كان لزاما تجريد الشعب الجزائري منها وطمس معالمها. وبهذا تكون فرنسا قد بدأت في تنفيذ سياستها اللغويّة.

تصف (خولة طالب الإبراهيمي) اللغة الفرنسيّة التي شكلت أحد العناصر الأساسيّة لسياسة فرنسا إزاء الجزائر بأنها « فرضت بالحديد والنار وعنف جم قلما شهد تاريخ البشريّة مثيلا له».[3]

لقد أدركت فرنسا إدراكا عميقا بأن اللغة العربيّة هي الرابطة بين ماضي الجزائر وحاضرها ومستقبلها، وهي اللغة الوطنيّة ولغة الدين واللغة القوميّة، وقد اعتبرتها فرنسا الصخرة الصلبة التي تتحطم أمامها كل المشروعات الكولونياليّة ومخططاتها الراميّة إلى فرنسة الجزائر، نعم لقد كانت بالنسبة للفرنسيّة «بمثابة الصخرة الغيور، والعدو الحقود اللدود»[4] ولهذا سعت بكل الوسائل إلى القضاء على هذه اللغة وما تحمله من مبادئ الشخصيّة الجزائريّة الحضاريّة والثقافيّة، وإجبارهم على تبني اللغة والثقافة الفرنسيّة، لأنه بالنسبة للإدارة الفرنسيّة، «فتح مدرسة لتعليم اللغة العربيّة في الجزائر أخطر من فتح محششة يدار فيها الأفيون والكوكايين وبقيّة السموم»[5]. ومن هنا جاء تركيز الاستعمار على هدم المدارس العربيّة، لأنها كانت عنصرا أساسيا في المقاومة الوطنيّة والثقافيّة والحضاريّة ضد الوجود الاستعماري.

لقد اتضحت معالم محنة اللغة العربيّة بعد نجاح خطة التجهيل، إذ «بدأت فرنسا بمخطط فرنسة الجزائر في جميع مجالات الحياة، باعتبار أنها كانت توهم نفسها بأن الجزائر قطعة لا تتجزأ من التراب الفرنسي أرضا ولغة وثقافة»[6] إنها إستراتيجيّة الفرنسة والإدماج ومصادرة الهويّة الثقافيّة.

وكرد فعل جزائري، فقد قام الشعب الجزائري بمقاطعة المدارس الفرنسيّة لأنهم كانوا يدركون أن الذي يفقد لغته ينتهي به الأمر إلى الذوبان، ذلك أن اللغة هي القوة الطبيعيّة الأولى لأمة ما، فهي صدى روحها وأصالتها، وهي لسان شخصيتها والمحافظة على تراثها، والضامنة لاستمرارها الروحي، والرابطة بين أجيالها، لذلك قد رفضوا كل ما هو فرنسي ولو كان يخدم مصلحتهم. ولقد كان المرور عبر المدارس الوسيلة المثلى لدمج الجزائريين إدماجا معنويا كاملا كإجراء كان الهدف من ورائه هو إضعاف الشخصيّة الوطنيّة، وجعل الجزائر مسرحا للهيمنة اللغويّة والثقافيّة الفرنسيّة. وهذه كانت أحلام وأماني الفرنسيين أن يروا اندثار اللغة العربيّة وترك مكانها للغة الفرنسيّة. بل ولقد امتدت يد الاستعمار إلى أبعد من ذلك، إذ عملت الإدارة الفرنسيّة على محاصرة اللغة العربيّة بالعاميّة والأمازيغيّة.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هذه الإدارة الاستعماريّة قد انتهجت كل أشكال الفرنسة التي مست بالفرد

والمدرسة والمسجد والزاويّة والإدارة من أجل تحقيق المشروع اللغوي الذي كان مخططا له مسبقا، وهذا لم يكن يتم دون تمويل ضخم وإمكانات ماديّة ومعنويّة، منها اعتمادها على الخزينة العامة للجزائر والأوقاف التي استولت عليها.

ولكي نوضح ذلك، نسوق المثال التالي وهو عبارة عن جدول يمثل خير دليل على «الميزانيّة (بالفرنك) المقدمة للتعليم العام في الجزائر بين 1902 و1908»[1]، وهي كما يلي:

السنة	التعليم العام	التعليم العام
1902	5081823	1389274
1903	5558978	1179165
1904	5732003	1299424
1905	7847368	1314234
1906	8189649	1385064
1907	8955390	1549464
1908	9923368	1617639

وهذه الأرقام كانت في وقت تحسين التعليم للجزائر، والذي لم يسفر إلا على 450 مثقفا من 5 ملايين نسمة.

وهنا نذكر بعض أشكال الفرنسة لتكريس المدنيّة الفرنسيّة. فقد قامت الإدارة الفرنسيّة بفرنسة أطفال الأعيان بتعليمهم في فرنسا، وفرنسة شخصيات جزائريّة مرموقة بإجبارهم على زيارة فرنسا، وهذا ما فعله الجنرال بيجو. كذلك قامت بفرنسة الأطفال المعوزين داخل الجزائر كالأولاد الصغار من اليتامى والمشردين وأبناء الفقراء. وهناك فئة أخرى وهي المهاجرون إلى فرنسا، فبحكم دراستهم اللغة الفرنسيّة واحتكاكهم بثقافتها، فقد أسهموا في ظهور هذه النخبة المفرنسة. وهناك طريقة أخرى ألا وهي إطلاق وتشجيع عمليّة التبشير إذ كانوا يستعملون لغة الأهالي، بل كان يترجم الإنجيل إلى اللغات المحليّة. ولتسهيل المهمة، كانوا يدرسون العربيّة الدارجة للفرنسيين. ولخدمة سياسة الفرنسة، أنشأت فرنسا المطابع وظهرت الصحافة وأنشأت منظمة الفرنكوفونيّة لنشر اللغة الفرنسيّة خارج حدود فرنسا .

لقد دعمت فرنسا إستراتيجيتها اللغويّة بترسانة تشريعيّة قانونيّة مسيّسة، فظلت الإدارة الاستعماريّة تستصدر مجموعة من القرارات لتُوجِد نوعا من الواقع اللغوي الذي لا رجعة فيه فجاءت « قرارات وتعليمات فرض التعامل بالفرنسيّة وإقصاء العربيّة»[2] كان أهمها : القرار الصادر عام 1948 ورد فيه أن اللغة الفرنسيّة هي اللغة الحاكمة. أضف إلى ذلك التعليمة الموجهة إلى حاكم الجزائر غداة الاحتلال فحواها أن تعميم اللغة الفرنسيّة تدريجيا بين الأهالي إلى أن تقوم مقام العربيّة. كذلك صدور قرار في 24 ديسمبر 1904 واستمر العمل به لغايّة 1947، يقضي بمنع كل جزائري من فتح مدرسة دون رخصة، كما لا ننسى القرار الذي صدر في 8 مارس 1938 والذي «بموجبه تعتبر اللغة العربيّة أجنبيّة في عقر دارها» [3] وهكذا واصلت الإدارة الاستعماريّة محاربة اللغة العربيّة عبر قراراتها المضادة التي لم تقر «برسميّة اللغة العربيّة إلى جانب الفرنسيّة إلا في سنة 1947، ولم يبدأ إدخال العربيّة بصفة جديّة إلى المدارس إلا في عام 1957، بعد استفحال الثورة».[4]

ومن جهة أخرى، أكثرت فرنسا من إنشاء المدارس في منطقة القبائل، لا لشيء إلا لنشر اللهجات الأمازيغيّة واللغة الفرنسيّة على حساب اللغة العربيّة « ففي سنة 1885 أسست في الجزائر العاصمة كليّة الآداب، وخصصت بها فرعا لدراسة اللهجات المحليّة ومنها الأمازيغيّة».[5]

تقييم جهود وآثار السياسة اللغويّة الفرنسيّة

لاحظت خولة طالب الإبراهيمي أن «النتائج التي تم الحصول عليها كانت متواضعة جدا، وهذا بالنظر للوسائل والغايات التي كانت تنشدها الفرنسة، فالمدرسة لم تمس سوى نسبة ضعيفة من السكان: ٪2 عام 1888، ٪3.5 عام 1902، ٪4.5 عام 1912، بالكاد ٪5 عام 1914، ٪8.9 عام 1938 و٪15 1954 مع ٪85 من الأميين»[6]. ومن هنا نفهم وندرك أن فرنسا لم تكن تهدف

(1) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنيّة، القاهرة، معهد البحوث والدّراسات العربيّة، 1977، ج2، ص142-143

(2) عبد القادر فضيل، محنة اللغة العربيّة في فترة الاحتلال الفرنسي ومعاناتها بعد الاستقلال، مجلة اللغة العربيّة، 2005، عدد ممتاز، ص257

(3) محمد الحسن الفضلاء، المسيرة الرّائدة للتعليم العربي بالجزائر، دار الأمة، الجزائر، ج1، 1999، ص18

(4) رابح تركي، التّعليم القومي والشّخصيّة الجزائريّة(1931-1956) ط2، الشّركة الوطنيّة للنشر والتّوزيع، الجزائر،1975، ص 135. وللمزيد ينظر، محمد جلال، السّياسة التّعليميّة الفرنسيّة في الجزائر، الإصلاحات، الدّوافع، الأهداف، النّتائج، 1944-1956، في المصادر حوليّة المؤرخ،ع6، 2005، ص ص 2013، 225.

(5) ينظر، مسلي مقران، الحرمة الدّينيّة والإصلاحيّة في منطقة القبائل، 2007، ص 119.

(6) خولة طالب الإبراهيمي، الجزائريون والمسألة اللغويّة، دار الحكمة، الجزائر، 2007، ص 27-30-31

إلى تثقيف الجزائريين، رغم أنه كان متوقعا منها بعد أن اضطهدت العربيّة أن تعوضها بالفرنسيّة، غير أن ذلك لم يحدث كما توقعت وأرادت. ولقد اصطبغت سياسة فرنسا الفرنكوفونيّة بطابع العدائيّة حيث أن «تاريخ التعليم بأكمله تميز بهذا العداء»[1]. علاوة على ذلك، يؤكد (لويس جان كالفي) أن (كلاوس بوخمان) وهو أحد اللسانيين الألمان الذي قارن بين السياسات اللغويّة في مختلف الدول الفاشيّة، أكد في هذا الصدد على أربعة خصائص ثابتة:

« 1 – تزمت لصفاء اللغة الوطنيّة، وكره للغات الآخرين.

2 – مركزيّة معاديّة للهجات.

3 – مركزيّة متعصبة للوطن معاديّة للأقليات الوطنيّة.

4 – نزعة إلى الاستعمار أو إلى التوسع اللغوي خارج الحدود»[2].

نجد هذه الاتجاهات الأربعة في السياسات اللغويّة المتعددة، ولا سيما تلك التي انتهجتها بفرنسا، في فترات مختلفة من تاريخها الاستعماري.

تم تنفيذ هذه السياسة نفسها في المستعمرات الفرنسيّة الأخرى. ولقد كانت اللغة العربيّة والثقافة الجزائريّة أكثر استهدافا، ومع ذلك فإن الانقسامات التي أنشأتها السياسات الاستعماريّة والمحاولات المريرة لتدمير الهويّة الثقافيّة لم تنجح في الجزائر، رغم أنه لم يكن لدى الجزائريين، الذين عانوا من العواقب المتعددة لهذه السياسة اللغويّة في جميع مجالات الحياة الاجتماعيّة، القدرة الكافيّة لصد هذه النزعات، حيث كان التجهيل والتخلف الثقافي نصيبهم الأوفر، حتى أن دهاء ومكر الاستعمار انتقل ببرنامجه من ثقافة الغزو إلى غزو الثقافة . كما يقول الطيب بن إبراهيم الذي يرى أن العلاقة بين ثقافة الغزو إلى غزو الثقافة»« موجودة ودقيقة ومرتبة ترتيبا أوليا ومرحليا ونوعيا، من ثقافة هامة ذات طابع غربي إلى ثقافة خاصة ذات طابع غزو استعماري فرنسي، هدفها بالدرجة الأولى خدمة الغزو الفرنسي الخاص ومصالحه الاستعماريّة، وخصوصيته الثقافيّة». [3]

إن هذه الخاصيّة الثقافيّة تتمثل أساسا في اللغة الفرنسيّة التي بسطت سيطرتها على العلوم والتاريخ والتقاليد والعادات، وهذا يمثل انعكاسا للتفوق الثقافي الذي أرادت فرنسا إظهاره من أجل قمع الشعوب المستعمَرة بسهولة. وبعبارة أخرى، كان التفوق الثقافي بمثابة مقدمة لاستراتيجيّة عزل الشعب الجزائري عن عناصر هويته.

والسؤال هو هل نجح الفرنسيون في فرض لغتهم وثني الجزائريين تمامًا عن استخدام لغاتهم الأخرى؟ وهل كان لدى الشعب الجزائري القدرة على مقاومة هذا الفرض اللغوي؟

يشير جان لويس كالفي في كتابه عن اللغات والاستعمار (1974) كيف تفرض السلطة الاستعماريّة الحاكمة لُغتها الفرنسيّة الفصحى وتعتبرها الأفضل والأجدر والأجدى لترسيخ وتقويّة نفوذها وتأكيد مشروعيتها، محتقرةً بذلك سوق اللغات المحليّة، ومعتبرة إياها سجلاتٍ لغويّة دونيّة، لا تتوفر على نفس الميزات والخصائص التواصليّة والإبداعيّة والجماليّة.

كان لهذه السياسة الاستعماريّة تأثيرات كبيرة في الحد من نظام التعليم في المقام الأول. لقد حُرمت أجيال كاملة من التعليم واكتساب المعرفة، وبالتالي عانت من الجهل والأميّة لفترة طويلة. كما أن هذه السياسة لا بد أن تؤدي في النهايّة إلى خلق طبقات ثقافيّة مختلفة، بل طبقات اجتماعيّة تتمشى مع هذا التفريق الثقافي، وهو أيضا وسيلة إلى إيجاد طبقة من الناس جاهلة بلغتها وثقافتها الوطنيّة، وربما لا يدرك بعض الناس أن السر في التخلف العلمي والفني والصناعي في البلاد التي عانت هذه التجربة، وهي نتيجة حتميّة لتلك النظم التعليميّة التي سادت الوسط التعليمي أدى بطريق مباشر أو غير مباشر إلى جمود اللغات الوطنيّة وعجزها عن متابعة أساليب التطور العلمي وقصورها عن أداء المعاني وتقديم المصطلحات التي تتطلبها البحوث الجديدة في شتى العلوم والمعارف.

ذلك أن اللغة ليست كائنا بنفسها، وإنما يحييها الاستعمال المتكرر والتفاعل المتبادل بينها وبين متكلميها. ويميتها الإهمال أو التنكر لها لأي سبب من الأسباب، أما وقد سُد باب العلم والمعرفة في وجه أصحابها فهي لابد أن تشاركهم وتصبح أعجز ما تكون عن سد حاجات هذا المجتمع من العلوم والفنون.

هذا السلوك قد أصاب اللغة العربيّة، حيث قضى على كل عوامل نموها

(1) Sayad, A.B. « Bilinguisme et éducation en Algérie », In Castel, Robert, Jean Claud Passeron, Éducation, Développement et Démocratie, cahiers du centre de sociologie européenne, Paris, mouton, 1967.p.208

(2) جان كالفي، حرب اللغات والسّياسات اللغويّة، المنظمة العربيّة للترجمة، ترجمة حسن حمزة،بيروت، 2008، ص 261–262– 466 .

(3) سكينة بوشلوح، عرض كتاب الطّيب بن ابراهيم، الإستشراق الفرنسي وتعدد مهامه خاصة في الجزائر، 2004

وتطورها وأغلق أمامها باب التقدم والرقي فظلت جامدة، متخلفة في كلماتها وأساليبها وطرائق تعبيرها، وهكذا صارت غير قادرة على أن تمد أهلها بحاجاتهم اللغويّة، أو أن تشبع رغباتهم الثقافيّة والحضاريّة، وكل هذا الذي أصابها إنما في الواقع يعود إلى عزلها عن استعمالها في الوسط الطبيعي الذي كان يفترض أن تعيش فيه، وبكل بساطة لم تسر في الطريق الطبيعي للغات. والمعروف أن نمو اللغة وتطورها لا يكونان إلا بتفاعل مستمر بينهما وبين من يستعملونها من أفراد المجتمع اللغوي الذي عدت أداته التواصليّة.

وعلى الرغم من الاعتقاد أن اللغة ذات أهميّة ضروريّة إلا أن المجتمع لا يعيش في العالم الموضوعي البعيد عن كل التأثيرات الخارجيّة وحده، ولكنه يقع تحت رحمة اللغة المفروضة عليه، ومن الوهم تصور مجتمع متماسك ومنسجم دون لغة، ولذلك فقد أدرك الاستعمار الفرنسي الهدف من فرض لغته على المجتمع الجزائري وما ينجر عنه من مسخ وانصهار يفقد المجتمع كل مقوماته وهويته المتميزة.

إن المشروع الثقافي الاستعماري الفرنسي استطاع أن يحدث في ذهنيّة أفراد المجتمع الجزائري آثارا لغويّة مدمرة، ليس من خلال الهيمنة اللغويّة فحسب، ولكن من خلال سياسة التجهيل والتفقير والحرمان مدة من الزمن، إلا أن هذه السياسة لم تتمكن من القضاء كليّة على اللغة العربيّة، بل بقيت محافظة على وجودها. يقول(عبد الكريم غلاب): «كان المنظرون الاستعماريون يؤكدون أن الإسلام واللغة العربيّة هما ركيزتا هذه الشخصيّة، فقد حاولوا أن يهدموا الركيزة الأولى عن طريق ما يسمى بالسياسة البربريّة، كما حاولوا أن يهدموا الركيزة الثانيّة بإحلال اللغة الأجنبيّة محل اللغة العربيّة للقضاء على الذاتيّة »[1]. ولقد بقي المجتمع الجزائري محافظا أيضا على عروبته ولغته داعيا إلى اعتبارها لغة رسميّة في المدارس والإدارة. يقول (البشير الإبراهيمي): «إن لغة العرب قطعة من وجود العرب وميزة من مميزاتهم، ومرآة لعصورهم الطافحة بالمجد والعلم والبطولة والسيادة»[2]. كما بقي المجتمع الجزائري متمسكا بهذه اللغة بفضل الزوايا والمساجد التي أدت دورا مميزا في تمكين الجزائريين من لغتهم، حيث بقيت منتشرة في مناطق عديدة، فشكلت بدورها مراكز تعليميّة وشبه مدارس أسهمت بدورها في تعميق الحس الوطني.« إن العربيّة في هذه البلاد لم تكن ولن تكون إلا لغة البناء، ولم تكن الفرنسيّة ولن تكون إلا لغة الهدم واللصوصيّة والخيانة وضرب الأمة»[3]، كما قال مصطفى محمد الغماري.

الواقع الاجتماعي اللغوي عشيّة اندلاع ثورة 1954

لقد واجه الاستعمار الثقافي الفرنسي بسياساته التي انتهجها لغزو مقومات الهويّة الجزائريّة وغرس بذور فكره وثقافته في عقول الجزائريين، وفرضها في هذه البلاد التي هي بوابة أفريقيا، ليمتد وجودها الاستعماري الثقافي واللغوي إلى بلدان أفريقيّة أخرى، مقاومة محليّة ووطنيّة باسلة. وقد اصطدمت أطماع الاستعمار بطموحات الشعب الجزائري الذي عقد العزم على القضاء عليها، فكانت من أجل ذلك المقاومة بشقيها المسلحة والثقافيّة النابعة من وعي وضمير المجتمع الذي ظل يحاول بوسائل بسيطة ومحدودة ورغم عدم توازن القوى، مقاومة ذلك المشروع التغريبي بمختلف تقلباته.

فكانت المقاومة المسلحة منذ اليوم الأول لدخول الفرنسيين الجزائر، حمل لواءها على الأغلب زعماء دينيون تبنوا فكرة الدفاع عن الأرض والدين والهويّة الجزائريّة. ففي أي كل مكان وضع الاستعمار قدمه إلا ولقي مقاومة عنيفة وتصديا حازما.

وقد استمر صمود الجزائريين طيلة القرن التاسع عشر إلى بدايّة القرن العشرين، ولعله من المفيد التذكير ببعض المقاومات الهامة التي خاضها الجزائريون، نذكر منها:

- مقاومة الأمير عبد القادر: 1832-1847 وكانت في الشمال الجزائري.
- مقاومة أحمد باي: 1837-1948 وشملت منطقة قسنطينة.
- مقاومة الزعاطشة: 1848-1849 وشملت بسكرة والأوراس.
- مقاومة المقراني: 1871-1872 وشملت منطقة القبائل وسطيف.
- مقاومة الشيخ بوعمامة: 1881-1883 وكانت بتيارت وعين الصفراء وسعيدة.
- مقاومة الطوارق: 1916-1919 بالجنوب الجزائري(الصحراء) كما

(1) عبد الكريم غلاب، التّعريب ودوره في تدعيم حركات التّحرر في المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، 1982،ص 162

(2) أحمد بن نعمان، التّعريب بين المبدأ والتّطبيق، ش ون ت، 1981، ص 180.

(3) مصطفى محمد الغماري، العربيّة بين مفهومين، جريدة الشّروق الثّقافي، العدد 6، الجزائر، 1993، ص19

ذكرها (محفوظ قداش).

وكما يتجلى، لم تكن تهدأ مقاومة إلا لتظهر أخرى، وتعد هذه المرحلة من تاريخ الجزائر من الأهميّة بما كان، حيث تمثل الجسر التاريخي الذي يرتبط بالنهضة التي اعتمدت على الضغط السياسي والإبداع الثقافي وذلك بنشأة الحركة الوطنيّة الجزائريّة التي قامت بالتعبئة الشعبيّة والعمل القاعدي من أجل تطوير أساليب النضال، حيث ظهر ذلك الشعور الوطني الذي أيقظته الغيرة على مقومات المجتمع الجزائري من لغة ودين وعادات...

ولقد ظل الشعب الجزائري متمسكا ببعض المؤسسات التي بقيت صامدة كالزوايا والمساجد والمدارس، يدافع عن لغته ودينه وثقافته. وقد كانت لبعض الأحداث التاريخيّة كالحرب العالميّة الثانيّة، وأحداث الثامن ماي 1945 تأثيرات على مجريات الأحداث الميدانيّة، وقد ظهرت خلال بدايات القرن العشرين مجموعة من الاتجاهات الوطنيّة التي مثلت الجزائريين، والتي في تقديرنا، كان لزيارة الشيخ محمد عبده سنة 1903 للجزائر أثر كبير عليها. يقسمها (أبو القاسم سعد الله) إلى ستة اتجاهات هي:[1]

1 – الاتجاه المحافظ: ويمثله مجموعة من الإقطاعيين الجزائريين.

2 – الاتجاه المعتدل: ويمثله مجموعة من النخبة المثقفة ثقافة فرنسيّة.

3 – الاتجاه الليبيرالي: وكان يضم القسم الباقي من النخبة.

4 – الاتجاه الثوري: وقد تطور من هذا الأخير.

5 – الاتجاه العربي الإسلامي: وكانت تمثله جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين.

6 – الاشتراكيون والشيوعيون: وقد بدأت أفكار هؤلاء تظهر من خلال الحزبين الاشتراكي والشيوعي الفرنسيين.

فكيف كان المشهد الثقافي واللغوي في إطار هذه الحركة الوطنيّة بمختلف تياراتها ومواقفها؟ وكيف تطور الوعي الفكري والسياسي وتم الحفاظ على مقومات الشخصيّة الجزائريّة؟.

ولعل التنافس أو الصراع بين البرامج السياسيّة لمختلف تشكيلات الحركة الوطنيّة وبين أشكال نضالها، يتم حسمه في الممارسة العمليّة من خلال التعبئة والحشد الشعبي، إذ نلحظ ذلك الانقسام الذي نخر كيان الحركة الوطنيّة فكانت هناك أحزاب ناطقة بالفرنسيّة في مقابل أخرى ناطقة بالعربيّة. وهنا بدأت بذور الصراع تتولد، خففت من حدته وحدة المطلب السياسي. بعدما كان محتدما بين الاستعمار والشعب الجزائري.

احتدم الصراع الثقافي بعدما تطورت أشكال المقاومة الثقافيّة والسياسيّة مع مكر وخداع الاستعمار، وقد انقسم حاملو الدفاع عن الهويّة الوطنيّة في طريقة معالجتهم للقضيّة، كل من منطلقه، إما المنطلق اللغوي والمطالبة بالحقوق الثقافيّة، وإما المنطلق السياسي، والجميع ينشد التحرر والاستقلال.

ولا شك أن خير من حمل لواء اللغة العربيّة وأخذ على عاتقه الصراع الثقافي جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين التي ظهرت كرد فعل للواقع اللغوي الذي آلت إليه السياسة اللغويّة الفرنسيّة، فاتخذت من العربيّة أداة وحيدة للتعليم. «وهو ما كان له انعكاسات في دفع عمليّة التعليم العربي في الجزائر بعد الاستقلال، فإليها يرجع الفضل في تكوين النخبة المفكرة من المعربين، وإليها يرجع الفضل في إعادة الاعتبار للغة العربيّة».[2]

لقد عملت جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين على توسيع استعمال اللغة العربيّة وجعلها قادرة على تحقيق الإبلاغ والتواصل المعرفي، فإن ذلك لم يجنبها بعض الصعوبات لا تكمن في غياب المعرفة الموضوعيّة للواقع اللغوي بقدر ماهي عائدة إلى تخوفات لا مبرر لها كالخوف من ضعف المستوى التعليمي لدى التلاميذ، وعدم مقدرة هذه المنظومة التعليميّة للاستجابة لرغباتهم اللغويّة، مما أحدث لديهم اضطرابا في التحصيل وتدهورا في مستواهم المعرفي. إضافة إلى التوهم بأن اللغة العربيّة ما يزال رصيدها عاجزا عن الاستجابة للتطور العلمي والتكنولوجي، إذ يفتقر قاموسها اللغوي إلى المصطلحات العلميّة لكل المبتكرات التي تنتجها الأسواق مما يضمن لها الاستمراريّة والبقاء.

يضاف إلى ذلك كله، قلة الإطار التعليمي الذي له القدرة والكفايّة اللازمة لأداء مهامه اللغويّة بشكل جيد. فما يزال التعليم يعاني من بعض العوائق وبخاصة ظاهرة الازدواجيّة اللغويّة التي أسهمت في الحد من انتشار اللغة العربيّة وحسن استيعابها من قبل الطلاب، مما يشكل خطرا يتهدد مستقبل اللغة العربيّة ويجعلها أكثر تقوقعا، فلا ترقى

(1) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنيّة، القاهرة، معهد البحوث والدّراسات العربيّة، 1977، ج2، ص228–229

(2) عبد الرّحمان سلامة، التّعريب في الجزائر ماضيا وحاضرا ومستقبلا، وزارة الإرشاد القومي، دمشق، 1976، ص15

إلى مصاف اللغات الحيّة التي تتحكم في التقنيّة الحديثة بكل سهولة، وهو مالا يسمح بقيام تكافؤ لغوي. ولذا يجب الحد من آثارها السلبيّة حتى تهيئ الأسباب الموضوعيّة لتمكنها.

إن النقائص والثغرات اللغويّة الواضحة في التعبير العربي كتابة وحديثا في الجزائر، فتحت المجال أمام اللغة الفرنسيّة، ولذلك نلاحظ أن المتحدث الجزائري يغلب عليه طابع الانتقال من العربيّة إلى الفرنسيّة أو العكس، مع الإشارة إلى أنه في بعض الأحيان تتعدى هذه الازدواجيّة اللغويّة لدى البعض إلى حد سيطرة اللغة الفرنسيّة كليّة على مجموعة الكلمات المستعملة نتيجة هول الفراغ المصطلحاتي.

وبذلك يكون الجزائري قد انقاد وانغمس إلى درجة الذوبان أحيانا في الثقافة الفرنسيّة. فالاقتصار على استعمال اللغة العربيّة هو وحده الذي يمثل تناغما وانسجاما مع بقيّة العناصر المكونة للهويّة الجماعيّة، كما أن استعمالها استعمالا كاملا وشاملا لا يمكن إلا أنه يعزز من الانتماء إلى الهويّة الجماعيّة عند المتحدثين بها.

وفي الواقع نلاحظ على المستوى اللغوي هروع المتحدث باللغة العربيّة إلى اللغة الفرنسيّة، والتنقل من نمط لنمط في سياق نفس الجملة ونفس الفكرة للتأكد أكثر من إيصال قصده، وهذا لشعوره المسبق بنقص الاقتناع الذاتي بالقدرة الخطابيّة بلغة واحدة. أما على المستوى الفكري فهناك عواقب وخيمة للازدواجيّة اللغويّة وما يلحق من جرائها من عقبات في سلم النهوض الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والتكنولوجي...

لقد عملت الحركة الوطنيّة بمختلف تياراتها الفكريّة التي وإن اختلفت اتجاهاتها، ووسائلها ومطالبها، إلا أنها أفضت بجهودها إلى بناء وتأسيس الهويّة الجزائريّة في إطارها العربي الإسلامي، المتميزة والمختلفة عن الهويّة الفرنسيّة في إطارها الغربي الصليبي، وذلك مع بدايّة تصور الدولة الوطنيّة على النحو الذي كان يعنيه بيان أول نوفمبر 1954، ضمن إطار الهويّة الحضاريّة القائمة على اللغة والثقافة العربيّة.

هذا ويجب التذكير بأنماط المتعلمين والثقافات المنبثقة التي أنتجتها الثقافة الفرنسيّة خلال القرن 19 ومطلع القرن 20، بل وحتى عشيّة اندلاع الثورة التحريريّة، وهي كما ذكرها ولخصها (عمار بلحسن):

1 – النمط الأول: هو ثقافة إنتاج المساجد والزوايا، وهي ثقافة تمثل استمراريّة تراثيّة لثقافة ما قبل الاستعمار، من نزعات مرابطيّة وتقليديّة، وهي فئة أحاديّة.

2 – النمط الثاني: هو منتوج التمدرس والفرنسة اللغويّة، والذي طبقته المدرسة الاستعماريّة بتكوين وسطاء بين الإدارة الكولونياليّة والمجتمع الجزائري.

3 – النمط الثالث: يتمثل في ثقافة مزدوجة المراجع الثقافيّة وثنائيّة اللغة.

4 – النمط الرابع: ويتجسد في الثقافة الشعبيّة الشفويّة التي لم تصل بعد إلى مرحلة الكتابة»[1].

في خضم هذا الخلط الثقافي، بدأت معالم اللسان العربي تترسم شيئا فشيئا، حتى تمثل ذلك في اختيار الحركة الوطنيّة الجزائريّة للعربيّة الكلاسيكيّة كلغة وطنيّة وحيدة، باعتبارها البديل اللغوي الوحيد للفرنسيّة.

ومن أجل ذلك تبنت جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين استراتيجيّة قائمة على تغيير عقليات الناس، وهذا بالضرورة يؤدي إلى تغيير محيطهم الاجتماعي واللغوي والثقافي. «فقد أدرك الشيخ عبد الحميد بن باديس بعد استقرائه لتاريخ الجزائر الحديث، أن الشعب الجزائري يواجه قوة كبيرة لا يستطيع أن يقاومها بالمعارك الحربيّة فحسب، بل يجب أن تتهيأ الأمة من جديد عبر إعادة تكوينها الثقافي والقومي والنهوض نهضة علميّة، تصحح انحرافات المجتمع وتزيل تناقضاته»[2].

وانطلاقا من ذلك، كانت الجهود منصبة على الإصلاح الديني والثقافي والحفاظ على اللغة العربيّة لتوحيد الجزائريين وتجنيدهم ضد الأيديولوجيّة الاستعماريّة. وقد أتت تلك الجهود أكلها حيث توجه الجو العام الثقافي إلى ترسيخ اللغة العربيّة التي تعبر عن الوعي العام والشعور المشترك، وهو ما دفع بجيل الثورة إلى مواصلة الكفاح وتأكيدا منهم على الشخصيّة الوطنيّة الجزائريّة العربيّة، وهذا ما نلمسه من خلال المجهود الفكري والعقائدي الذي أفضى إلى اتفاق اجتماعي على ضرورة إحياء عناصر الهويّة الوطنيّة اعتمادا على مبدأ توحيد بناء الدولة الجزائريّة.

وقد اتخذت اللغة العربيّة حيزا كبيرا في الإصلاح والنهضة، حيث عدها(الشيخ عبد الحميد بن باديس) رابطة

(1) عمار بلحسن، المشروعيّة والتّوترات الثّقافيّة حول الدّولة والثّقافة في الجزائر، من كتاب الأزمة الجزائريّة، الخلفيات السّياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والثّقافيّة، ط2، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربيّة، 1999، ص 468–469

(2) ساجد أحمد عبل، الشّيخ عبد الحميد بن باديس والوعي القومي العربي، مجلة المستقبل العربي، العدد 254، 2000، ص 280.

بقولـه: « لا رابطة تربـط ماضينا المجيد بحاضرنا الأغر والمسـتقبل السـعيد إلا هـذا الجيل المتيـن، اللغـة العربيّة، لغة الديـن، لغة الجنـس، لغـة القوميّة، لغة الوطنيّة المغروسـة، إنها وحـدة الرابطة بيننا وبين ماضينا... وهي وحدها اللسان الذي نعتز بـه، وهي الترجمـان عما في القلب من عقائد وما في العقل من أفكار، وما في النفـس من آلام وآمـال. إن هذا اللسـان العربي الذي خدم العلم، وخدم الإنسـان، هو الذي نتحدث عن محاسنه منذ زمان، ونعمل لإحيائه منذ سنين».[1]

هـذا ولا شـك أن اللغـة العربيّـة الفصحـى تعـد بامتيـاز لغـة الصمود، إذ لعبـت دورا فعالا في بقـاء المقاومة ضـد المسـتعمر، وقـد اعتـرف (جاك بارك) بكون اللغة أحد أقوى الأسـلحة فـي المقاومة قائـلا: «إن أقـوى القوى التـي قاومت الاسـتعمار الفرنسـي في المغرب هـي اللغـة العربيّة، بـل اللغة العربيّة الكلاسـيكيّة الفصحى بالذات، فهي التي حالت دون ذوبان المغرب في فرنسـا، إن العربيّة الكلاسيكيّة هي التي بلورت الأصالـة الجزائريّـة وقد كانت هذه الكلاسـيكيّة العربيّة عاملا قويا في بقاء الشعوب العربيّة».[2]

إن نشر وإشاعة اللغة العربيّة وجعلها لغـة العلم والتعلم والتعليـم لخير دليل على الحفاظ على وحـدة الأمة ولغتها، لأن الشـعب أول مـا يتحول مـن لغته التي هي وعاء تفكيره ومصنع أحاسيسه ومشاعره ومخزن تراثه.

وللغـة دور مـزدوج، إمـا ايجابـي يعـز حامليهـا إذا أعزوهـا، وإمـا سـلبي يـذل متكلميهـا إذا أذلوهـا. «ولقـد تنبـه الفكـر القومـي فـي الجزائـر إبـان الاحتـلال الفرنسـي إلـى خطـورة دور اللغـة العربيّـة فـي النهـوض والتحرير، وكذلـك أهميتهـا فـي التربيّـة والبنـاء الثقافـي، وكأداة في مواجهة الاسـتعمار والفرنسـة، اسـتنادا لإمكانات تلم اللغة وصلتهـا بالديـن وكونهـا عامـل تجميع ووحـدة».[3]

فبفضل اللغة العربيّة توحد الشـعب الجزائري، وقوي إيمانه بالمجد الوطني واسـتقلال الوطن، فأعز تلك اللغة التي أعزته، وحطم أحلام الاستعمار وتجبره وأدرك أنـه كما يقـول(مصطفى صادق الرافعي): «ما ذلت لغة شعب إلا ذل، ولا انحطـت إلا كان أمره في ذهاب وإدبار، ومن هذا يفرض الأجنبي المستعمر لغته فرضا على الأمة المسـتعمرة، ويركبهم بها، ويشعرهم عظمته فيها، ويستلحقهم من ناحيتها، فيحكم عليهم أحكاما ثلاثة في عمل واحد:

– أما الأول: فحبـس لغتهم في لغته سجنا مؤبدا.

– وأما الثاني: فالحكم على ماضيهم بالقتل محوا ونسيانا.

– وأما الثالث: فتقييد مسـتقبلهم في الأغلال التي يصنعها، فأمرهم من بعدها لأمره تبع»[4].

وتلك هي حالة التجاذبات التي عرفها الواقع السوسيو–لغوي الجزائري، وهي صورة تعكس مدى قـوة الصراع الثنائي بين المُسـتَعْمِر والمُسْتَعْمَر، نلمس آثاره في جزائر ما بعد الاستقلال.

واقع اللغات في جزائر ما بعد الاحتلال

هنـاك واقـع بيّـن وواضـح يجـب الإقـرار به، هو واقع اللغات في الجزائر، لغات الاسـتعمال والابتـكار والإبداع، واقع اسـتثنائي مقارنـة مع ما هـو عليه الحال في الـدول العربيّة الأخرى. فمن المفارقـات أن نجـد الطلبـة الجامعيين يدرسون باللغة العربيّة ويتكلمون باللغة الفرنسـيّة، هـذا مـن جهة، ومـن جهة أخرى، معظمهم –وبخاصـة في العلوم الإنسـانيّة– يتحصلون على شهادات في اختصاصات عربيّة تسـلم لهـم مكتوبة بالفرنسيّة، كما أنهم يلجون سوق العمل ولسـانهم يلهـج بالفرنسـيّة، وقد قالت العرب قديما: بضاعة الغريب أحلى.

لا أحد منا يعارض التفتح على اللغات الأجنبيّة وعلى رأسـها اللغـة الإنكليزيّة والفرنسـيّة، ولـم لا اللغـات الأخرى، ولكن شريطة أن تأخذ هذه اللغة أو تلك موقعها كلغة أجنبيّة على مستوى القاعدة السياسيّة والقانونيّة أو القاعدة الاجتماعيّة والثقافيّة.

لـذا ونحـن فـي القـرن الحـادي والعشـرين، علينا أن نضع حصيلة لواقع اللغات الأجنبيّة في بلادنا دون شعارات سياسـيّة أو أيديولوجيّـة متزمتـة. علينا أن نتـدارس واقع هذه اللغـات، ومدى وكيفيّة تموقعهـا داخل المجتمع الثقافي الجزائـري، لأنهـا لم تعـد غنيمة حرب بقدر ما صارت مطيّة لحب الغنائم.

إن الجـدل العقيـم الذي ولـد ذلك الصـراع اللغـوي الـذي رافـق ولمـدة تزيـد عن خمسـين عاما كل النقاشـات التي دارت حـول قضيّة اللغـة الأجنبيّة

(1) عبد الحميد بن باديس، كلمة مرة لأنها صريح الحث ولباب الواقع، مجلة الشّهاب، الجزائر، 1973،ج9،ع13، ص65.

(2) أنور الجندي، الفصحى لغة القرآن، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982، ص 304.

(3) راشد أحمد، تاريخ أقطار المغرب العربي السّياسي الحديث والمعاصر، بيروت، دار النّهضة العربيّة،2004، ص154.

(4) مصطفى صادق الرّافعي، وحي القلم،الجزء الثّالثّ، المكتبة العصريّة–بيروت، 2002، ص 30

وبالخصوص الفرنسيّة هو الذي جعلنا نفضل هذه اللغة الأجنبيّة من باب الاستعلاء على مكونات الهويّة الوطنيّة وهما قضيتان مختلفتان. تصادم فيها التيار المعرب أو العروبي مع التيار المفرنس أو الفرنكوفوني، ضف إلى ذلك دخول أنصار النزعة الأمازيغيّة حلبة الصراع.

هذا، وإلى جانب خضوع الواقع اللغوي والثقافي الجزائري للواقع السياسي وتطوره في ظروف مأساويّة أدت حتما إلى تناقضات اجتماعيّة وفكريّة أفرزت هي الأخرى بدورها أدوات تعبيريّة أجنبيّة.

إن الصراع اللغوي الذي نقصده، هو ذلك الصراع الذي نشأ وترعرع في ظل السياقات الاستعماريّة التاريخيّة والسياسيّة والثقافيّة والاجتماعيّة، أصبحنا ندعو من خلاله إلى تنظيم ما يؤمل حصوله أو سعي لبناء شيء لم تتضح معالمه بعد، عكس ما حدث ويحدث في الدول الأوربيّة مثلا: التي تنظم ما هو قائم ومعروف بحكم التجربة التاريخيّة.

وقد كانت الجزائر ولا تزال ساحة ومسرحا للصراع الجدلي اللغوي الذي كان في البدايّة صراعا ثنائيا بين الفرد الجزائري والمستعمر الفرنسي طيلة 132 سنة، ثم انتقل وتطور ذلك الصراع وأخذ منعرجا آخر، أخذ بدوره بعدا ثلاثيا بعد الاستقلال بين المتمسكين والمدافعين عن العربيّة وأنصار الفرنسيّة والمطالبين بالرجوع وإحياء الأصول الأمازيغيّة والعودة إلى الماضي البعيد الذي لن يعود.

لقد عمل الاستعمار الفرنسي على ضرب العربيّة بالأمازيغيّة وضرب العربيّة الفصحى بالدارجة، وذلك لترك الطريق معبدا أمام الفرنسيّة. وهذا ما تحقق للغة موليير التي اكتسبت الهيبة فهيمنت على الإدارة المركزيّة وسيطرت على المجالات الحيويّة.

ومن المفارقات هو أننا إذا استمعنا إلى ما يردده رجال السياسة، يتبادر إلى أذهاننا أن لا صراع لغوي في الجزائر، والعربيّة هي اللغة المهيمنة، وإذا استمعنا إلى المتكلم الجزائري العامي الذي يتوهم دائما بأن الأمر عادي وطبيعي وهو يشير إلى ذلك الخليط اللغوي، فنحن باعتبارنا لسانيين نقول ونؤكد أن الوضع جلل وخطير، لأننا نعتبرها مسألة سيادة ورمز للهويّة الثقافيّة.

إننا نعتقد أن السبب الأساسي وراء تأزم الواقع اللغوي في الجزائر- وربما كذلك في بلدان أخرى من العالم العربي- يتمثل في كون مسألة اللغة لم تطرح بشكل سليم وفي كل أبعادها، وخاصة مسألة التعدد اللغوي وشروط الانتقال من لغة إلى أخرى. فلم يحسب للوضعيّة اللغويّة بالجزائر حساب، ولم تتم برمجة الوظائف الأساسيّة للغة في المجتمع الجزائري الحديث بالشكل الذي يجعلها تتناغم فيما بينها، بل إن الهم الأيديولوجي السياسي – وهو موقف العرب قاطبة من لغتهم، أنبت ذلك الصراع السوسيو-لغوي وزاد الوضع سوءا، وهو يسير نحو المجهول خاصة في غياب الحكمة والرؤيّة السديدة في تدبر وتدبير هذه المسألة الحساسة.

إن هذه المسؤوليّة تقع على كاهل النظام السياسي من جهة، وعلى أهل الاختصاص والمجتمع بكامل أطيافه من جهة أخرى.

إذ لا بد من الاعتراف- والاعتراف سيد الأدلة، كما تقول القاعدة القانونيّة- بإرثنا اللغوي بتمامه وكماله، والعمل على تسيير السوق اللغويّة -المتميزة بالتعدد- وبخاصة العمل على تطوير العربيّة والأمازيغيّة كلغتين وطنيتين بعيدا عن كل اعتبار سلطوي، بل يجب أن يتم عبر حوار وطني ديمقراطي وأن يكون محصلة إجماع، بعيدة عن كل قيد قانوني، لأن القوانين لا تطور اللغات بل على العكس تجمدها. فقط الابتكار والإبداع والاستعمال والممارسة العلميّة والأكاديميّة الكفيل ببعث الروح في اللغات والضامن لاستمرارها في الزمان والمكان، في الحاضر والمستقبل، في الجامعات وفي ميدان البحث العلمي. وبذلك نكون قد قدمنا الحمايّة والارتقاء بهذه اللغات، ومن ثمة إعطائها المكانة التي تليق بها،عزة وكرامة. يقول مصطفى صادق الرافعي: «ليس في العالم أمة عزيزة الجانب تقدم لغة غيرها على لغة نفسها».[1]

إن السوق اللغويّة في الجزائر غير منظمة وتعاني من الفوضى والسباق المحموم نحو التربع على عرش لسان المتكلم الجزائري، الذي طار من بين فكيه إتقان اللغة وظهرت علامات التلوث اللغوي جليّة في حديثه اليومي، حتى أصبح كالمعلق من عرقوبه يعاني الفسخ والنسخ والمسخ والسلخ والوسخ اللغوي، هذا وقد بلغ الأمر حتى وصل إلى النخبة التي أصبحت تعيش بين مطرقة غياب السياسة اللغويّة لتسيير هذا التعدد والتنوع اللغوي وكيف يمكن أن يصل إلى الهدف المنشود، وبين سندان الواقع الاجتماعي الذي يعيش الضياع والتيه اللغوي.

(1) مصطفى صادق الرّافعي، وحي القلم،الجزء الثّالثّ، المكتبة العصريّة-بيروت، 2002، ص 30

لقد تعـددت العلاقات بيـن اللغات الموجـودة في الجزائر من تعايشـيّة إلى تنافسيّة إلى صراعيّة، وهذا ما نلحظه مثلا حتى في الصراع المحموم بين الفرنسـيّة والإنكليزيّـة اليوم وفي عقـر دارنا، لقد أزاحـت الإنكليزيّة الفرنسـيّة من بعض المؤسسـات الجزائريّة، كـوزارة الدفاع الوطني.

هـذا وإن دل علـى شـيء فإنما يدل على حرب اللغات والسياسـات اللغويّة كما يسميها (Jean– Louis Calvet) (جون لويس كالفي) أين المكانة الحقيقيّة للغة العربيّة في الجزائر أمام اللغات الأخرى ؟ وهنا نتسـاءل أيضا حول حقيقة سيادة الدولـة، لأن اللغـة تعتبر ثمـرة الوحدة السياسـيّة: «اللغة الرسـميّة جزء مرتبط بالدولة، وهذا سـواء من حيث نشأتها أو من حيث اسـتعمالاتها الاجتماعيّة»[1]. ولذلك يتوجب على السـلطة السياسـيّة أن تفـرض اللغـة العربيّـة والأمازيغيّـة بوصفهما لغتين شـرعيتين، وتوحيدهما ومقارنتهما باللغـات المهيمنة، من أجل تجنب عواقب اللاأمن اللغوي.

ولذلـك كان مـن الضـروري وضع حد لأنصـاف الحلول والتـردد في مثل هذه المسـائل التي نعتبرها في مسـتوى وثقل المسـائل الأخـرى، كالسياسـيّة والاقتصاديّة... وصياغة مخطط للتنميّة اللغويّـة طويل الأمد ينطلق كما أسـلفنا الذكـر مـن تصـور واضـح، ويصـوغ مراحـل التطـور التدريجـي التي يجب أن تراعـي العلاقة القائمـة بين الوظائف الأساسـيّة للغة، صياغـة مخطط يجب متابعتـه وإنجازه خطوة خطـوة، وتوفير الإمكانـات والوسـائل اللازمة من أجل تحقيقه، والاستفادة من تجارب وخبرات الأمم اللغويّة التاريخيّة كألمانيا وفرنسـا وكوريا... لأن: « اللغة هي صورة وجود الأمة بأفكارها ومعانيها وحقائق نفوسها، وجودًا متميزًا قائمًا بخصائصه... والدقة في تركيب اللغة دليل على دقة الملكات في أهلها...وإذا كانت اللغة بهذه المنزلة، وكانت أمتها حريصة عليها، ناهضة بها، متسعة فيها، مكبرة شأنها، فما يأتي ذلك إلا من روح التسلط في شعبها والمطابقة بين طبيعتـه وعمل طبيعته، وكونه سـيد أمره؛ ومحقق وجوده، ومسـتعمل قوته، والآخذ بحقه، فأمـا إذا كان منه التراخي والإهمال وترك اللغة للطبيعة السـوقيّة، وإصغار أمرهـا، وتهوين خطرها، وإيثار غيرهـا بالحـب والإكبار؛ فهذا شـعب خادم لا مخدوم، تابع لا متبوع، ضعيف عن تكاليف السـيادة، لا يطيق أن يحمل عظمة ميراثه... فلن يتحول الشعب أول ما يتحول إلا من لغته».[2]

تنـوع مظاهـر الصراع اللغـوي وضَع لسـان الناطق بالعربيّة في مأزق، أنتحدث الفرنسـيّة أو الإنكليزيّـة أم نخلطهما معا، وهذا الصراع حسـب ظننا يهمش اللغات الأخـرى كالألمانيّة والإسـپانيّة وهي من أرقى اللغـات أيضـا، ناهيك عـن وقوع الضحيّة الأساسيّة وهي اللغة العربيّة التي ضاع مسـتقبلها من بين أيدي أهلها، هذه اللغة التي قدمت لنا كل شيء ولم نكافئها إلا بالتحسر والبكاء، هذه اللغة التي كانت تنعت بالأمـس بلغة المتنبـي ولغة أمرئ القيـس ولغة محمـود درويـش ولغة ابن باديـس، أصبحـت اليوم تئـن وتحن إلى أطلالهم، فكيف نسـميها اليوم، وهل من حامل للوائها؟

إن هيمنة بعض اللغات خاصة الفرنسيّة والإنكليزيّـة عندنا فـي الجزائـر لها قوة مؤثرة وبالتالي يزداد النقل منها بل وتمثل روافدها الرئيسـة في عمليّـة الترجمة. إن جزءًا من مشـكلة الصـراع اللغوي يكمن في التبعيّة اللغويّة، في الاستعمار اللغوي الذي لم نستطع حتى الآن أن نتخلص منه، فلغة التدريس والبحث والتواصل والإدارة والعمل والمشاريع هي الفرنسيّة.

وهـذا الـكلام لا يحتـاج إلـى دليل فالمقالات العلميّة مثـلا تصدر إما باللغة الإنكليزيّة وإما باللغة الفرنسيّة حتى يتسنى لأصحابها نشرها في المجلات المحكمة، ومواقـع النشـر الإلكترونـي والورقـي، والعقل يقتضي أن تسـارع الجزائر لنفض غبـار الخمـول علـى اللغتيـن العربيّـة والأمازيغيّـة، لأنهما مفتاحنا نحو حضارة الآخر.

إن الوفـاء للفرنسـيّة أو الإنكليزيّـة، والتضحيّة بمسـتقبل الجزائـر وجامعاتها إرضـاءً للمشـروع الفرنكوفونـي أو الأنكلوفوني، وتشـبث النخبة السياسـيّة والمثقفة في الجزائر بهـذه اللغة أو تلك، لا يبـرره إلا اسـتمرارها فـي أداء الأدوار الرئيسـة والحساسـة للمحافظـة علـى المصالح الشخصيّة والضيقة للآخر.

إن هيمنة الفرنسـيّة على العربيّة، وهي اللغة الرسـميّة، تغـذي اسـتياء قطاعات واسـعة مـن المجتمـع، وهـي بعض ما يفسِّـر نجـاح التيار الإسـلامي النسـبيّ كتعبير غير مباشـر عن الفشل الاقتصادي والاجتماعـي واللغـوي، وهـي هيمنـةٌ تنعكس حتى فـي «نوعيّة» اللغـة العربيّة التي تستخدمها وسائل الإعلام الجزائريّة. ففصحاها ملوثـة ليسـت بفصحى قحة، إذ أنهـا تزخـر بالبنـى النحويّة الفرنسـيّة التـي انتقلت إليهـا عن طريـق الترجمة. ولا يسع أيّة سياسة لغويّة رشيدة سوى أن

(1) Pierre Bourdieu, ce que parler veut dire, Paris, Fayard, 1990, p.27

(2) Pierre Bourdieu, ce que parler veut dire, Paris, Fayard, 1990, p.27

تعمل على ترقيّة العربيّة الحديثة، وينبغي أن ترمي هذه السياسة إلى إنقاذ وتطوير اللغات الأمازيغيّة، وهي في الواقع اللغات المضطهدة الوحيدة في بلادنا، فتعليمها يتم بشكل تنقصه الاحترافيّة، فيما تجري عمليتا تقنينها وتوحيد لهجاتها بشكل فوضوي، خاصة فيما يخص طريقة كتابتها، أبالحرف العربي، أم بالحرف اللاتيني، أم بالحرف الأصلي التيفيناغ. وما لم تسند إلى علماء اللسانيات واللسانيات الاجتماعيّة وأهل الاختصاص الأكفاء، ستسفران حتما عن كارثة: خلق «أمازيغيّة موحدّة» اصطناعيّة، رغم أننا نعتقد أن الأمر جد صعب، لا تجتمع عليها أيّة مجموعة من المجموعات الأمازيغيّة.

إن من مظاهر التبعيّة اللغويّة أيضا هو تضمين الكلام العربي كلمات أجنبيّة وبخاصة الفرنسيّة، في محاولة للتميز، فيأتي الكلام ممسوخًا منسوخا مسلوخا موسوخا ومفسوخا مشوهًا، وهو تصرف لا نجده في الدول المتقدمة، والسبب أننا نشعر بالدونيّة وبتفوق الآخر الغربي علينا، وهذا هو المغلوب على أمره، والمغلوب مولوع بتقليد الغالب كما يقول (العلامة ابن خلدون).

يقول(مصطفى صادق الرافعي): «وما ذلت لغة شعب إلا ذل، ولا انحطت إلا كان أمره في ذهاب وإدبار؛ ومن هذا يفرض الأجنبي المستعمر لغته فرضًا على الأمة المستعمرة، ويركبهم بها، ويشعرهم عظمته فيها، ويستلحقهم من ناحيتها؛ فيحكم عليهم أحكامًا ثلاثة في عمل واحد:

أما الأول فحبس لغتهم في لغته سجنًا مؤبدًا؛ وأما الثاني فالحكم على ماضيهم بالقتل محوًا ونسيانًا؛ وأما الثالث فتقييد مستقبلهم في الأغلال التي يصنعها؛ فأمرهم من بعدها لأمره تبع. والذين يتعلقون باللغات الأجنبيّة ينزعون إلى أهلها بطبيعة هذا التعلق، إن لم تكن عصبيتهم للغتهم قويّة مستحكمة من قبل الدين أو القوميّة؛ فتراهم إذا وهنت فيهم هذه العصبيّة يخجلون من قوميتهم ويتبرؤون من سلفهم وينسلخون من تاريخهم، وتقوم بأنفسهم الكراهة للغتهم وآداب لغتهم...

وأعجب من هذا في أمرهم، أن أشياء الأجنبي لا تحمل معانيها الساحرة في نفوسهم إلا إذا بقيت حاملة أسماءها الأجنبيّة، فإن سمي الأجنبي بلغتهم القوميّة نقص معناه عندهم وتصاغر وظهرت فيه ذلة.. وما ذاك إلا صغر نفوسهم وذلتها؛ إذ لا ينتحون لقوميتهم فلا يلهمهم الحرف من لغتهم ما يلهمهم الحرف الأجنبي». [1]

لقد هانت اللغة العربيّة على الجزائريين، فلم يعد لهم إحساس لها، بل أصبح يعتريهم إحساس منها. وفي هذا السياق، يقول (مصطفى صادق الرافعي):«وإذا هانت اللغة القوميّة على أهلها، أثرت اللغة الأجنبيّة في الخلق القومي ما يؤثر الجو الأجنبي في الجسم الذي انتقل إليه وأقام فيه. أما إذا قويت العصبيّة، وعزّت اللغة وثارت لها الحميّة، فلن تكون اللغات الأجنبيّة إلا خادمة يرتفع بها، ويرجع شبر الأجنبي شبرًا لا مترًا.. وتكون تلك العصبيّة للغة القوميّة مادة وعونًا لكل ما هو قومي، فيصبح كل شيء أجنبي قد خضع لقوة قاهرة غالبة؛ هي قوة الإيمان بالمجد الوطني واستقلال الوطن ... وباللغة والدين والعادات، ينحصر الشعب في ذاته الساميّة بخصائصها ومقوماتها، فلا يسهل انتزاعه منها ولا انتساقه من تاريخه؛ وإذا ألجئ إلى حال من القهر لم ينخذل ولم يتضعضع، واستمر يعمل ما تعمله الشوكة الحادة إن لم تُترك لنفسها، لم تعط من نفسها إلا الوخز». [2]

إن الإنسان العربي بعامة، والجزائري بخاصة مسكون بهوس تعظيم الآخر وتفضيله على نفسه، حتى تشكلت لديه عقدة الانهزام والدونيّة والاهتمام بدقائق أمورهم، وفي شتى مناحي الحياة، وبخاصة الماديّة منها، وهذا ما يؤكده الروائي والكاتب السوداني(أمير تاج السر) بقوله: « إننا مهتمون بشكل كبير بنقل الآخر إلى ثقافتنا العربيّة، ناسين دائما أن ننقل ثقافتنا إلى الآخر بشكل جاد بعيدا عن المحاولات الفرديّة المفتقرة للدعم المؤسسي» [3].

يمكن لنا القول في خاتمة هذا المقال أن المشروع الثقافي الاستعماري فشل في إقصاء المشروع الثقافي الوطني في أبعاده: الدينيّة واللغويّة والتعليميّة والتاريخيّة ...إلى جانب أبعاد الهويّة الأخرى مثل: التمسك بالوطنيّة الجزائريّة حسا وانتماءً، وبالروح والانتماء القومي والحضاري العربي الإسلامي كأيديولوجيّة، ناهيك عن عجز المؤسسة التعليميّة والثقافيّة الاستعماريّة عن تخريج وإنتاج إنسان جزائري أهلي مرتبط بقيمها ووجودها السياسي والحضاري المفروض بسلطة الزيف والتدليس، وبسلطان السيف والقهر المادي والمعنوي... بل إن مشروعها الثقافي وخطابها التعليمي العنصري قد زاد الجزائريين تمسكا بكيانهم الوطني،

(1) مصطفى صادق الرّافعي، وحي القلم،الجزء الثّالثّ، المكتبة العصريّة-بيروت، 2002، ص 30

(2) مصطفى صادق الرّافعي، وحي القلم،الجزء الثّالثّ، المكتبة العصريّة-بيروت، 2002، ص 29-30

(3) أمير تاج السرّ، الأدب العربي ومأزق التّرجمة، مقال نشر على الموقع http://www.aljazeera.net/news/cultureandart/2012/9/9

وانتمائهم التاريخي، وعزز مناعتهم الوطنيّة. تلك كانت سياسة الفرنسة التي رفضها الجزائري وتصدى لها، لأنه آمن بمستقبل الثقافة الجزائريّة العربيّة.

يمكننا أن نوضح إجمالا حال اللغة العربيّة التاريخيّة والاجتماعيّة في النقاط التاليّة:

– لم يكن للغة العربيّة سياسة لغويّة مدروسة ومرسومة، بل كانت لها سياسة موروثة، فتقليديّة التعليم هي التي حفظت للغة العربيّة وجودها، لأن تعليم اللغة العربيّة كان تابعا للتعليم الديني، وعلى الرغم من ذلك تبقى العربيّة تصارع في وضع خطير جدا.

– كان لفرنسا سياسة لغويّة خاصة بالجزائر، رتبت فيها الأولويّة لنشر الفرنسيّة على حساب اللغتين العربيّة والأمازيغيّة، ففرنسا رصدت الوضعيّة اللغويّة الجزائريّة، ثم حددت استراتيجياتها وأهدافها.

– من نتائج السياسة اللغويّة التي رسمتها فرنسا ما يلي:

* عدم استفادة كل فئات المجتمع من التعليم الرسمي.
* تكوين نخبة جزائريّة فرنسيّة اللسان، مثقفة ثقافة غربيّة، مما أدخل هذه النخبة في صراع مع الذات ومع المحافظين الوطنيين.

– كانت اللغة العربيّة الفصحى والعاميّة والأمازيغيّة تنعم بالتعايش والاستقرار منذ قرون، إلا أن السياسة اللغويّة الفرنسيّة حاولت فتنتها وإدخالها في علاقة قوة وصراع، ليخلو الجو للغتها فتسود وسط الفرقة كحل محايد يرتضيه الجميع.

– السياسة اللغويّة الفرنسيّة في الجزائر كانت سياسة تهديم لكل البنى اللغويّة الاجتماعيّة المتعايشة.

– ظهور اللغة الفرنسيّة على الساحة اللغويّة الجزائريّة لم يكن بريئا، ومن آثاره السلبيّة العبث بالوظائف اللغويّة الاجتماعيّة للغات، حاولت فرنسا من خلاله إحداث الفتنة بين الفصحى والعاميّة وغرس الأمازيغيّة، إلا أن حنكة وذكاء الحركة الوطنيّة وخاصة جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين التي قدمت مشروعا رائدا، ذلك المشروع السوسيو– لغوي المتكامل الذي أعاد ترتيب وظائف اللغات التي عبث بها الاحتلال.

لقد أراد وقرر الاستعمار الفرنسي قتل ووأد الشخصيّة الجزائريّة بكل مكوناتها خاصة اللغويّة، إلا أن المجتمع الجزائري أراد وقرر أن يحيا ويعيش بكل مقومات هويته خاصة اللغويّة. فكان ذلك الصراع الفرنسي الجزائري، الصراع الحضاري ذو الطابع اللغوي، الأيديولوجي، الوجودي.

• **أ.د. السعيد هادف**
قسم اللغة والأدب العربي والفنون
جامعة باتنة–01 الحاج لخضر

• **د. رضوان كبيش**
جامعة جون جوراس– تولوز/ فرنسا

المصادر

Ignazio Buttitta, Lingna e dialetu)Sicile 1899(extrait de Marti F. et al. Un monde – de paroles, paroles du monde, Paris, L'Harmattan, 2006, p. 61.

المبارك مازن، دور اللغة العربيّة في التّعليم العالي، المؤتمر التّربوي للتطوير والتّعليم العالي والجامعي، وزارة التّعليم العالي والجامعي، دمشق، 1971، ص 562. اقتبسه تركي رابح، التّعليم القومي والشّخصيّة الوطنيّة، ش ون ت، الجزائر، 1975، ص 49.

–رشيد يلوح، عندما سقط تاريخنا في الإستشراق، صحيفة العرب القطريّة، 20 / 2008/ 08، الرّابط : www.alarab.com.qa

– صفوان المقدسي، اللغة العربيّة والعصر، مجلة المعرفة، العدد 178، ديسمبر، وزارة الإرشاد القومي، دمشق ، 1976، ص6
أبو خلدون ساطع الحصري، آراء وأحاديث في الوطنيّة والقوميّة، دار العلم للملايين، بيروت، 1957، ص 107 .
– محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربيّة، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2000، ص 232 .
محمود السّعران، اللغة والمجتمع، رأي ومنهج، الطّبعة الثّانيّة، الإسكندريّة، دار المعارف، 1963، ص 45
. Ferdinand de Saussure Cours de linguistique générale Paris Payot 2002 P.26–
–مصطفى بن سعد الجيجلي، قيمة الثّقافة العربيّة بالجزائر، في البصائر، الجزائر، ع 149، 1939، ص2 .
– أبو العباس أحمد الهاشمي، بعد غربة اللغة العربيّة أصبحنا نخشى على اللغة الدّارجة، في البصائر، 1936، ع 8، ص01
– محمد الصّالح بوسلامة، العربيّة في نصوص الثّورة الجزائريّة وتطبيقاتها أثناء الكفاح المسلح– اللغة العربيّة من محنة الكولونياليّة إلى إشراقة الثّورة التّحريريّة، منشورات المجلس الأعلى للغة العربيّة،2007، ص 431
أحمد توفيق المدني، جغرافيا القطر الجزائري، مكتبة النّهضة، الجزائر، 1963، ص 138
– عبد الرّحمن سلامة، التّعريب في الجزائر ماضيا وحاضرا ومستقبلا، وزارة الإرشاد القومي، دمشق، 1976، ص15 .
Turcotte D et Aube H. Lois règlements et textes administratifs sur l'usage des langues en Afrique occidentale–
. Française (1826–1959). Canada : éditions Presses de l'Université Laval. 1983 p.11
– عبد الكريم بوصفصاف، الأبعاد الثّقافيّة والاجتماعيّة والسّياسيّة في حركتي محمد عبده وعبد الحميد بن باديس، أطروحة دكتوراه دولة، ج1، جامعة تونس الأولى، السّنة الجامعيّة 1996–1997 .
– أحمد محساس، التّعليم والثّقافة في الجزائر خلال الحقبة الاستعماريّة، مجلة الثّقافة، الجزائر، عدد 85، 1985، ص57 .
– خولة طالب الإبراهيمي، الجزائريون والمسألة اللغويّة، دار الحكمة، الجزائر، 2007، ص 27–30–31
– عبد المالك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر (1925–1954)، ط2، المؤسسة الوطنيّة للنشر والتّوزيع، 1983، ص35
– الفضيل الورتيلاني، الجزائر الثّائرة، دار الهدى، الجزائر، 2009، ص 97
– بوحفص مباركي، المشروع الاستعماري الفرنسي، كتاب الرّواسي، مطبعة عمار قرفي، باتنة، 1994، ص28
– أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنيّة، القاهرة، معهد البحوث والدّراسات العربيّة، 1977، ج2، ص142–143
– عبد القادر فضيل، محنة اللغة العربيّة في فترة الاحتلال الفرنسي ومعاناتها بعد الاستقلال، مجلة اللغة العربيّة، 2005، عدد ممتاز، ص257
– محمد الحسن الفضلاء، المسيرة الرّائدة للتعليم العربي بالجزائر، دار الأمة، الجزائر، ج1، 1999، ص18
– رابح تركي، التّعليم القومي والشّخصيّة الجزائريّة(1931–1956) ط2، الشّركة الوطنيّة للنشر والتّوزيع، الجزائر،1975، ص 135.
وللمزيد ينظر، محمد جلال، السّياسة التّعليميّة الفرنسيّة في الجزائر، الإصلاحات، الدّوافع، الأهداف، النّتائج، 1944–1956، في المصادر حوليّة المؤرخ، ع6، 2005، ص ص 2013، 225 .
– ينظر، مسلي مقران، الحرمة الدّينيّة والإصلاحيّة في منطقة القبائل، 2007، ص 119 .
– خولة طالب الإبراهيمي، الجزائريون والمسألة اللغويّة، دار الحكمة، الجزائر، 2007، ص 27–30–31
Sayad A.B. « Bilinguisme et éducation en Algérie » In Castel Robert Jean Claud Passeron Éducation –
Développement et Démocratie cahiers du centre de sociologie européenne Paris mouton 1967.p.208
جان كالفي، حرب اللغات والسّياسات اللغويّة، المنظمة العربيّة للترجمة، ترجمة حسن حمزة،بيروت، 2008، ص 261–262– 466 .
– سكينة بوشلوح، عرض كتاب الطّيب بن ابراهيم، الإستشراق الفرنسي وتعدد مهامه خاصة في الجزائر، 2004
– عبد الكريم غلاب، التّعريب ودوره في تدعيم حركات التّحرر في المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، 1982،ص 162
– أحمد بن نعمان، التّعريب بين المبدأ والتّطبيق، ش ون ت، 1981، ص 180 .
– مصطفى محمد الغماري، العربيّة بين مفهومين، جريدة الشّروق الثّقافي، العدد 6، الجزائر، 1993، ص19
– أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنيّة، القاهرة، معهد البحوث والدّراسات العربيّة، 1977، ج2، ص228–229
– عبد الرّحمان سلامة، التّعريب في الجزائر ماضيا وحاضرا ومستقبلا، وزارة الإرشاد القومي، دمشق، 1976، ص15
– عمار بلحسن، المشروعيّة والتّوترات الثّقافيّة حول الدّولة والثّقافة في الجزائر، من كتاب الأزمة الجزائريّة، الخلفيات السّياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والثّقافيّة، ط2، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربيّة، 1999، ص 468–469
– ساجد أحمد عبل، الشّيخ عبد الحميد بن باديس والوعي القومي العربي، مجلة المستقبل العربي، العدد 254، 2000، ص 280 .
– عبد الحميد بن باديس، كلمة مرة لأنها صريح الحث ولباب الواقع، مجلة الشّهاب، الجزائر، 1973،ج9،ع13، ص65 .
– أنور الجندي، الفصحى لغة القرآن، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982، ص 304 .
– راشد أحمد، تاريخ أقطار المغرب العربي السّياسي الحديث والمعاصر، بيروت، دار النّهضة العربيّة،2004، ص154 .
– مصطفى صادق الرّافعي، وحي القلم،الجزء الثّالثّ، المكتبة العصريّة–بيروت، 2002، ص 30
– مصطفى صادق الرّافعي، وحي القلم،الجزء الثّالثّ، المكتبة العصريّة–بيروت، 2002، ص 30
– Pierre Bourdieu ce que parler veut dire Paris Fayard 1990 p.27
– Pierre Bourdieu ce que parler veut dire Paris Fayard 1990 p.27
– مصطفى صادق الرّافعي، وحي القلم،الجزء الثّالثّ، المكتبة العصريّة–بيروت، 2002، ص 30
– مصطفى صادق الرّافعي، وحي القلم،الجزء الثّالثّ، المكتبة العصريّة–بيروت، 2002، ص 29–30
– أمير تاج السّر، الأدب العربي ومأزق التّرجمة، مقال نشر على الموقع
http: / /www.aljazeera.net /news /cultureandart /2012 /9 /9

كتابات العسكر الفرنسي عن اللغة العربيّة في فترة الاحتلال

أ.د كريم ولد النّبيّة

أولاً: بدايّة اهتمام أوروبا باللغة العربيّة.

يوافق يوم الثّامن عشر من ديسمبر اليوم العالمي للّغة العربيّة بقرار من منظمة الأمم المتحدة أصدرته عام 1973، يتم بموجبه إدخال اللغة العربيّة ضمن اللغات الرّسميّة ولغات العمل في هذه المنظمة، ومنذ ذلك التّاريخ، والاهتمام باللغة العربيّة يتزايد رسمياً وشعبياً في مختلف القارات عبر العالم، بل اللافت للانتباه الاهتمام الخاصّ بالعربيّة خارج إطار العالم العربي. في حين يُلاحظ نوع من التّرهّل في استخدام اللغة العربيّة الفصحى داخل الفضاء العربي مقابل انتشار اللهجات العاميّة في وسائل التّواصل الاجتماعي والإعلام، أو التّخاطب باللغة الأجنبيّة وهي مفارقة عجيبة لدى الأجيال الصّاعدة، لا يمكن فهمها إلا بالرّجوع إلى التّاريخ. علمًا أن ووجود العاميّة بجانب الفصحى على ما بينهما من اختلاف، ظاهرة طبيعيّة في كل اللغات.

لقد تركت الحقب التّاريخيّة في العلاقات الأوروبيّة- الإسلاميّة بصمات ثقافيّة واضحة على المستوى الثّقافي الحضاري الأوروبي، سواء من حيث تأثر اللغات الأوروبيّة باللغة العربيّة أو من حيث الجاذبيّة التي تُحدثها العربيّة لدى نسبة من الرّأي العامّ، ولعل الاهتمام الفلسفة الاسلاميّة أو بجماليّة الخط العربي دليل على تناغم ثقافي بين العقليّة الأوروبيّة المُحبّة للفكر وللفن الجمالي وروح الإبداع، وما تمثله اللغة العربيّة من حاضنة للمخزون الحضاري الذي أشع على أوروبا منذ القرون الوسطى.

1 – القرن العاشر الميلادي وبدايّة الاحتكاك مع أوروبا.

إن الاهتمام باللغة العربيّة قديم؛ يرجعه أغلب الباحثين إلى القرن العاشر الميلادي. في هذا الصّدد، يرى المفكر السّوري فيليب دي طرازي(1865 – 1956) المولود والمتوفي في بيروت، ومؤلف كتاب «اللغة العربيّة في أوروبا»، أن ظهور اللغة العربيّة في أوروبا يعود إلى القرون الوسطى، وتحديداً إلى القرن العاشر للميلاد. ويقول في هذا الصّدد: «فمنذ ذلك الحين أخذ الأوروبيون يحشدون في خزائنهم ما ألّفه العرب في الطّب والفلسفة والرّياضيات والطّبيعيات والكيمياء والأدب واللغة، وجعلوا يترجمونها إلى لغاتهم، ولا سيما إلى اللغة اللاتينيّة التي كانت وما برحت لغة العلم عندهم، ثم ازداد هذا الاهتمام على أثر احتكاك الإفرنج بالشّعوب الشّرقيّة في أثناء الحروب الصّليبيّة (1096 – 1291)، فكانوا يبتاعون ما تقع عليه عيونهم من المخطوطات الشّرقيّة؛ لاعتبارهم إياها من الآثار القديمة الغريبة الشّكل واللسان والمجهولة في بلادهم».

لعله من المفيد التّذكير بأن اللغة المالطّيّة المستعملة اليوم في جزيرة مالطّا وسط الحوض الغربي للبحر المتوسط تحتوي على الكثير من الكلمات والمصطلحات العربيّة، وذلك ناتج عن الفتح العربي الإسلامي عام 870م على يد الأغالبة (في تونس) فاتحي جزيرة صقليّة، وهذا يعنى ان الاحتكاك في هذه المنطقة بدأ في الرّبع الأخير من القرن التّاسع الميلادي. وعلى ذكر المخطوطات، علما أن مكتبات أوروبا تزخر بكنوز من هذه المخطوطات، ومن بينها المكتبة الأمبروزيانيّة في ميلانو بإيطاليا، والمكتبات الملكيّة والوطنيّة للأعرق الدّول الأوروبيّة في لندن، ڤيينا، موسكو، برلين، وباريس.

في العصر الحديث انكب الغرب على دراسة التّراث العربي والإسلامي، فالمستشرقون قاموا بجمع المخطوطات العربيّة والإسلاميّة وفهرستها وحققوا العديد منها بأعلى المقاييس العلميّة المتعارف عليها حينئذ ونشروها نشرًا علميًا خالصًا وترجموا الآلاف من هذا التّراث إلي اللغات العالميّة، فضلاً عن التّوجّه إلى الأخذ بالمناهج الحديثة في البحث والدّراسة وعرّفوا الآخرين بحضارتنا وتراثنا ومآثرنا وقدموا للفكر

الإسلامي أشياء كثيرة نافعة لا يمكن تجاهلها.

اهتمام أوروبا والغرب بصفة عامّة باللغة العربيّة هو في الحقيقة أصدق تعبير عن الفكر العربيِّ والإسلامي المستقلِّ. إنه ايضا التّعبير المتَرجِم عن شخصيّة العرب والمسلمين وهُوِيَّتهم، ولا يمكن أن نقيس بها أيَّ لغةٍ أخرى؛ لأنها لغةُ القرآن الكريم، الذي هو كتاب الله الخالدّ، كما هي اللغةُ الأكثر قدمًا في تاريخ اللغات البشريّة الحيّة على الاطلاق.

2 – ظاهرة الاستعمار الحديث وعودة الاهتمام باللغة العربيّة.

يوجد الكثير من الأهداف الخاصّة بـ الاستعمار والتي وضعت من قبل الدّول المستعمرة منها ما هو ظاهر للجميع ومنها ما هو خفي لا يعلمه سوى الدّارس لحقيقة الاستعمار الفرنسي في الجزائر حيث ظلت الأهداف اثقافيّة من أخطر وسائل السّيطرة وخضاع الشّعوب المقهورة حيث تم تدمير البنيّة التّحتيّة للجزائر المتمسكة عبر العصور بالمبادئ والقيم التّاريخيّة. كما سيطر الاستعمار الفرنسي على ثقافة الشّعب الجزائري من خلال محو اللغة الأم وجعل اللغة الخاصّة بالبلاد القويّة هي اللغة الرّسميّة لهم. وه من جهة اخرى ظل الاستعمار يعزى لحب الاستكشاف دفعه لحب الاستكشاف للمزيد من السّيطرة.

ظل المجتمع الجزائري، قبل الاحتلال، في سبات عميق مثله مثل باقي العالم الاسلامي. فتلك المدن القليلة التي عرفت ازدهارا كبيرا في العصر الوسيط مثل تلمسان، بجايّة، بسكرة، الجزائر، قسنطينة، معسكر(الكرط)، ندرومة... خضعت بدورها لانحطاط كبير، بحكم التّحولات الاقتصاديّة والسّياسيّة في التّجاريّة العالميّة نحو أوروبا ابتداء من القرنين الخامس عشر والسّادس عشر، بعيدا عن العالم الإسلامي الواسع وعن بلاد المغارب بصفة خاصّة. وقد مست هذه التّحولات نشاطات القرصنة البحريّة أيضا التي سمحت منذ الإعلان عن الوصايّة العثمانيّة للجزائر سنة 1519 بتحويل جزء كبير من الثّروات التي تعبر الجهة الغربيّة من البحر الأبيض المتوسط لصالح الوصايّة في الباب العالي، إذ انعدمت من جراء الهيمنة الكاملة للأسطول الغربي على البحر المتوسط.

كما قامت فرنسا بإنشاء مدارس لتدريس اللغة العربيّة مثل ريمس وشارتر، وإنشاء كرسي للّغة العربيّة في باريس وإنشاء كرسي للدراسات الاسلاميّة في جامعة السّوربون والتي الحق بها فيما بعد معهد الدّراسات الإسلاميّة وكانت جامعة السّوربون ولا زالتّ تلعب دوراً هاماً في مضمار الدّراسات العربيّة والإسلاميّة.

أنشأت الحكومة جريدة ناطقة باللغة العربيّة «المبشّر» (Mobachir)، التي حاولت تمرير أفكار نشر الحضارة المزيفة إلى الأهالي. يمكن القول أنّ مهمة المترجمين الإثنوغرافيين اتسمت بالازدواجيّة، فمن جهة، عملوا على تهيئة الأرضيّة أمام الغزو الاستعماري وتوفير المعطيات الميدانيّة اللازمة للمستعمر في سبيل نجاح مشروعه الاستعماري، ومن جهة أخرى، عملوا على جمع معارف علميّة هامة حول البلدان المغاربيّة ونشروا الكثير منها في شكل كتب ومؤلفات حاملة لمشاريع حدثية.

3 – ظاهرة الهجرة الجزائريّة إلى أوروبا واستمرار الاهتمام باللغة العربيّة.

إن منطق التّفتح الثّقافي للدولة الأوروبيّة والعلاقات الدّوليّة بصفة عامّة وحجم المصالح المتبادلة بين أوروبا والعالم العربي الإسلامي وفرنسا بصفة خاصّة، دفع باتجاه البحث عن صيغة توفيقيّة بين الاهتمام باللغة العربيّة انطلاقاً من قناعة بدورها كأداة تواصل مع الحرص على عدم إبراز الأبعاد الثّقافيّة والحضاريّة والدّينيّة لهذه اللغة.

وبتطور الزّمن، بدايّة من نهايّة الحرب العالميّة الأولى (1914–1918) ظهرت معطيات جديدة أثرت في النّظرة الأوروبيّة للّغة العربيّة، وعلى رأسها الهجرة الجزائريّة إلى فرنسا وبالتّالي كثافة الحضور الإسلامي في أوروبا الذي ازداد توسعا عند بدايّة لستينيات، وما ترتب عنه من احتكاك أبناء العرب والمسلمين بأبناء الأوروبيين في المدارس والجامعات، وعلاقات الجوار والعمل، وانتشار المداس العربيّة الخاصّة، وظهور قنوات وإذاعات عربيّة يديرها عرب في أوروبا، علاوة على كثافة العلاقات الاقتصاديّة والاستثماريّة الأوروبيّة مع البلاد العربيّة وما يترتب عنها من صفقات تجاريّة وعسكريّة، كل ذلك أثار اهتمام النّخبة الفكريّة والسّياسيّة الأوروبيّة باللغة العربيّة، وتم إنشاء الموسوعات الاسلاميّة على غرار الموسوعة البريطانيّة وكذا تأسيس مؤسسات أهمها معهد العالم العربي في باريس عام 1980 الذي يهدف إلى تطوير معرفة العالم العربي وبعث حركة أبحاث معمقة حول لغته وقيمه الثّقافيّة والرّوحيّة. وتضم مكتبة المعهد رصيداً مهمّاً من المصادر التّراثيّة للثقافة العربيّة والمتعلقة أيضاً بالعالم العربي المعاصر، يشمل 65 ألف كتاب

ووثيقة، من بينها 1880 كتاباً بالعربيّة هي أمّهات الثّقافة العربيّة التّراثيّة والمعاصرة، وتتراوح بين الدّين والفلسفة والأدب والتّاريخ ودلائل المخطوطات، و1360 مجلّة، وأربعة وعشرين ألف مقال يشمل جميع ميادين الفكر والاختصاص، و60 طريقة وأسلوب لتعليم اللغة العربيّة الفصحى، مرفَقَة بأشرطة مسجَّلة.

بيد أن هذا الاهتمام باللغة والثّقافة العربيتين يجد تصدياً كبيراً من المتطرفين في أوروبا، ويتمثل جوهر المشكل في ربط هؤلاء مسألة اللغة بالدّين الإسلامي، وبالتّالي يضغطون من أجل تهميش اللغة العربيّة بكل الوسائل ومنع تبني وزارات التّعليم لتوجه يوحي بتقدير خاصّ بهذه اللغة. والنّتيجة تعطل مشاريع لإدراج اللغة العربيّة ضمن اللغات الحيّة التي يتم تدريسها للطلبة وغيرها من المشاريع. إضافة إلى ذلك، فإن تنامي الاهتمام باللغة العربيّة بارز من خلال اهتمام الأولياء المتزايد بتعليم أبنائهم هذه اللغة، إما بدافع ديني انطلاقاً من كون العربيّة هي لغة القرآن الكريم، أو بدافع ثقافي للحفاظ على عنصر التّواصل مع ثقافة البلد الأصل للوالدّين. وذلك من خلال إنشاء المدارس والمؤسسات التّعليميّة الحرة، وتزامن تنامي مثل هذا الاهتمام مع مراجعات كبرى في مناهج تعليم العربيّة بما يجعلها مواكبة للبيئة الأوروبيّة؛ الأمر الذي يفسر الحاجة إلى دورات تكوينيّة متواصلة لمدرّسي اللغة العربيّة من أجل اكتساب مهارات متقدمة.

ثانيًا: الإدارة العسكريّة الاستعماريّة في الجزائر واللغة العربيّة.

خضعت الجزائر إلى أخطر أنواع الاستعمار المعروف بالاستعمار الاستيطاني. هذا الذي أراد تبديل شعب بشعب آخر مُستورد من جنوب أوروبا. وبعد الحملة العسكريّة مباشرة، تم طرح مشكل التّنظيم الإداري باعتباره الرّابط الأساسي للهدف الأسمى للاستعمار، وهو توسيع الاحتلال واستمراره بالجزائر، سلط على الجزائر سياسة استعماريّة شاملة منها الغزو العسكري المباشر ولكن أيضا سياسة إداريّة مسمومة وقاتلة. لم تكن هذه السّياسة مُوجهة للجميع بل كانت موجهة للجزائريين وحدهم نفذتها بمديريّة الشّؤون الأهليّة التي كانت ضمنيا وراء كل المخططات المعاديّة للّغة العربيّة في الجزائر.

توسع الاستعمار الفرنسي عبر البلاد الجزائريّة بالرّغم من المقاومة الشّعبيّة البطوليّة للأمير عبد القادر الجزائري واكثر من مائة وستون مقاومة عبر كامل التّراب الوطني، أقام الاستعمار الفرنسي بصفته استعمارا استيطانيا في أساسه ظل يركز على تشجيع هجرة السّكان الأوروبيين والتّركيز على النّشاط الزراعي، بتفكيك البنيّة الرّيفيّة الجزائريّة وإطارها القبلي التّقليدي، باستخدام العنف المسلح والعنف الاداري. ويتمثل هذا الأخير بخاصّة في تلك التّرسانة التّشريعيّة التي يمكن أن نجد ضمنها: تأسيس المكاتب العربيّة عام 1844 ومكتب الشّؤون الأهليّة الذي أخذ يصدر مناشير مركزيّة في الحكومة العامّة باللغة العربيّة مثل جريدة المبشر (Mobachir) منذ 15 سبتمبر 1847 موجهة أساسا إلى السّكان الجزائريين وكان أسلوبها اللغوي ضعيفا. نشير إلى أن هذه الجريدة لناطقة باللغة العربيّة حاولت تمرير أفكار نشر الحضارة المزيفة إلى الأهالي. بالإضافة إلى جريدة الأخبار الحكوميّة (Akhbar 12) جويليّة 1848. وصدور السّيناتوس كونسيلت في 22 أفريل 1863، الذي رسم الاعتراف بملكيّة الدّوار والسّكان الأهالي داخل التّنظيم الاداري الاستعماري وقانون فارنيي (Warnier) الصّادر سنة 1873 الذي فتح مجال استكتاب الملكيات العقاريّة بين الجزائريين والمعمرين. وكذا قوانين الأنديجينا او ما عرف بقانون الأهالي (code de l'indigénat) الصّادر منذ بدايّة الاحتلال في عهد الجنرال توماس بيجو والذي تم تدونه رسميا سنة 1881، حيث نشط مساعدي الادارة المحليّة الاستعماريّة (الخوجة، القياد، البشاعادل...) في توثيق مظالم الاستعمار بوثائق باللغة العربيّة ستظل شاهدا على استغلال الجيش الفرنسي لطمس مقومات المجتمع الجزائري. وهكذا تمر مقاومة توسع النّظام الاستعماري الجديد عبر تعبئة الإطار القبلي والعشائري، لكن بواسطة الدّعم الحتمي للزوايا التي تعطي الشّرعيّة الدّينيّة للكفاح ضد المستعمر عبر إمدادها بقيادات لا يمكن أبدا الاختلاف حولها مثل الأمير عبد القادر في بدايّة الاحتلال من سنة 1832 إلى سنة 1847، وكذلك قيادات أخرى ويمكن ذكر بعضها مثل الشّيخ بوعمامة وكذا الشّيخ الحداد مع الشّيخ المقراني بالنّسبة لثورة منطقة القبائل والتي امتدت إلى مناطق أخرى سنة 1871، وثورة أولاد سيدي الشّيخ في الجنوب الغربي للجزائر ابتداء من سنة 1862 إلى غايّة سنة 1884.

1 – إنشاء أول ديوان عربي عام 1833 يهتم باللغة العربيّة.

تذكر المصادر التّاريخيّة أن إنشاء أول ديوان متخصص في الشّؤون العربيّة يهتم بجمع المعلومات والمراسلات باللغة العربيّة لمخاطبة الأهالي الجزائريين، كان في عهد الجنرال لامورسيار (Lamoricière) في فترة حكم الجنرال أفيزار (Avizard) في

الجزائر من 04 مارس إلى 20 أفريل 1833. وكان التّأسيس لهذا الدّيوان العربي قد تم من خلال توجيهات الجنرال تريزال (Trézel) قائد الأركان لجيش الاحتلال، وما عرف عن هذا الدّيوان أنه كان مصلحة عسكريّة وإداريّة وجهاز استخبارات للعمليات الحربيّة يراقب ويراسل أعيان الأهالي الجزائريين في مراسلات مترجمة إلى اللغة العربيّة في كثير من الأحيان . ومما قاله لامورسيار وأحد الضّباط المعربين عن هذا الجهاز: «أن السّلطات العسكريّة الفرنسيّة أرادت أن تقوم بنوع من الإحصاء لكل ما هو تحت سيطرتها في المناطق الخاضعة لها في الجزائر، وللقيام بهذه المهمة، كان على الإدارة الفرنسيّة أن تتعرف على نظام الملكيّة في الجزائر قبل مجيئ الفرنسيين من خلال التّقرب من الأهالي ومعرفة لغتهم خاصّة أولائك الذين قبلوا بالتّعاون معها». وقد وضع تريزال (Trézel) تحت تصرف لامورسيار، أربعة مترجمين وعناصر أخرى من الأهالي المتعاونين مع الإدارة الفرنسيّة لتنظيم مكتب الدّيوان العربي. وباستدعاء لامورسيار إلى مهام أخرى عين بدله الجنرال فورول (Voirol) على رأس إدارة مكتب الدّيوان العربي. ويذكر أن المكتب العربي هذا قد تحول إلى أداة فعالة في التّقاط المعلومات وجمعها والدّعايّة للاستعمار. كما أسهمت إدارة الشّؤون العربيّة في تسهيل عمليّة الاتصال بشيوخ القبائل والتّفاوض معهم وإقناعهم بقبول مبدأ التّعاون مع فرنسا.

بعد مجيء أفيزار (Avisard) وباقتراح من قائد الأركان تريزل (Trézel) أنشأ مكتب خاصّ للشؤون العربيّة ذو طابع عسكري إداري أيضا، مكلف بجمع المعلومات وتنظيمها لأجل العمليات العسكريّة وكذا متابعة المراسلات والعلاقات مع القبائل بأمان بترجمة الوثائق الواردة من عندهم أو متعلقة بهم من اللغة العربيّة إلى اللغة الفرنسيّة. وعُين على رأس المكتب رئيس يساعده ضابطان وثلاثة مترجمين، وكان المكتب يقدم يوميا عرضا عن الأوضاع على الجنرال مرفقا بوثائق مترجمة من العربيّة إلى الفرنسيّة.

تولى رئاسة المكتب الضّابط لامورسيار (La Moricière) الذي كان يجيد اللغة العربيّة ومطلعا على العادات والتّقاليد ودارسا شعائرهم الدّينيّة. هذا ما أهله للمنصب وخير دليل شهادة مسؤولي الحكومة العامة ومن رشحه يوم 10 أفريل 1833ما يلي: «... من أجل متابعة العلاقات بصدق وأمان مع القبائل يجب اختيار الضّابط لامورسيار، فبواسطة اجتهاده وصبره تمكن من اتقان العربيّة، يتولى مراقبة وتصحيح عمل المترجمين، يمكن أن يضع تقارير يوميّة عن وضعيّة البلاد...». لقد نجحت هذه الهيئة بفضل ذكاء وخبرة هذا الرّجل المحنك، حيث جعل من المكتب جهازا للدعايّة والإعلام والدّليل عندما أشار الوزير أنه لم يجد صعوبة لتأكيده في المنصب باعتباره لم يكن مرشحا ومطلوبا من القادة العسكريين فقط وإنما حتى من السّلطات المدنيّة، الأمر الذي أعطاه دفعا قويا للاجتهاد في منصبه، وتزويد السّلطات بمعلومات يوميّة والاتصال بالقبائل. والاهتمام الكبير من الحكومة بأن يحظى بمقر لمكتبه العربي بنفس إقامة القائد العامّ، يضم أربعة مترجمين وسكريتير وموظفين من الأهالي، ورصيد مالي سنوي يقدر بـ 60000 فرنك فرنسي.

أما الموظفون الأهالي، فنستثني منهم الخوجة فقط حيث يشترط في تعيينهم إتقان اللغة العربيّة، أما الباقي فكانوا أغلبهم أمّيين لا يعرفون الكتابة والقراءة ومنهم:

• الحاجب أو الشّاوش، يعمل داخل المكتب وخارجه بتنفيذ الأوامر ونقل المراسلات. خوجة أو كاتب عربي مكلف بالمراسلات العربيّة.

• في البدايّة سعى بيجو إلى توظيف الزّعامات التّقليديّة التي قبلت التّعامل معه مقابل إمتيازات ماديّة ومعنويّة، وتم توظيفها وفق السّلم الإداري المعتمد لدى الأمير عبد القادر في دولته من ناحيّة الشّكل بإبقاء الألقاب ومراتبها. ومن هذه المناصب نذكر: الباشاغا الأغا كانت ألقاب شرفيّة فقط، يعتبرون في حقيقة الأمر قياد أو يحملون لقب شيخ تقع تحت امرتهم الدّواوير. بعد 1919 أصبحوا يحملون اسم مساعد أهلي.

تميز هؤلاء الموظفون بنوع من الاستقلاليّة في التّعامل مع الأهالي إلى درجة أصبحوا يمثلون في نظر الأهالي الحكومة ذاتها، وأصبح رئيس المكتب العربي بمثابة السّلطان وهو ما سوف يتسبب في الصّراع بين الجيش الفرنسي والمعمرين.

2 – إنشاء مديريّة الشّؤون العربيّة عام 1837.

إن ضرورة التّوسع الاستعماري داخليا والابتعاد شيئا فشيئا عن منطقة الوسط المحيطة بمدينة الجزائر أكد أمام المسؤولين الفرنسيين عدم نجاعة تبني إدارة باعتماد منصب الأغا، فالاحتلال بدأ يمتد شرقا وغربا، مما استوجب نظاما إداريا يتمشى وطبيعة قبائل المنطقة، أي نظاما إداريا أكثر شموليّة في شكل مؤسسة إداريّة. تأسست مديريّة الشّؤون العربيّة في 22 أفريل 1837 بقرار أوكلها إلى الضّابط بليسي رينود (Pellissier Reynaud) الذي

كان يتقن الكتابة باللغة العربيّة وتولى سابقا إدارة المكتب العربي 1834، والأكيد إعادة تعيينه راجع لقدراتـه ومعرفته للّغة العربيّة وسلوكيات السّكان. تتولى هذه المؤسسة عمليّة تسهيل الاتصال بالقبائل ومعرفتهم أكثر من أجل السّيطرة عليهم وإخضاعهم للسلطة الفرنسيّة.

فـي سـنة 1841 أصبح الجنـرال بيجو (Bugeaud) حاكمـا عاما، وأدرك أن العمل العسـكري وحـده لا يحقـق الاحتلال، بل وجب وجود نظـام إداري يضمن بقاء الجزائريـين تحـت سـلطته ولا يفكرون فـي العصيـان، وهنـا تجـدد التّفكير من جديد في إدارة السّـكان لذا أعيد تأسيس إدارة شـؤون الأهالي فـي 16 أوت 1841 وأصبـح مديرهـا يمـارس سـلطته على القيـاد والشّـيوخ والحـكام والقضاة في مجال الشّـرطة والإدارة على حد سـواء. كما يعمل علـى إقامة علاقات مع القبائل خاصّة الرّافضة للولاء وجمع المعلومات المختلفة لصالـح الحاكم العامّ ومختلف رؤساء المصالح الأخرى. منح المنصب إلـى الرّائـد أوجيـن دومـاس (Eugène Dumas) المتقـن للّغـة العربيّـة، العارف بالعـادات والتّقاليـد للسـكان الأصليين بحكـم توليه سـابقا منصـب قنصل لدى الأميـر عبـد القادر بمعسـكر، ثـم تولى مصلحة الشّؤون العربيّة بمقاطعة وهران.

ثم أدخلت تعديلات على إدارة الشّؤون الأهليّة لتكون قاعدة المكاتب العربيّة فيما بعد، فأسهم في الحفاظ على تنظيم الأمير وطبقه علـى القبائل التي أعلنـت الولاء، كما ألغى الطّابع المركزي للإدارة تمشـيا مع ظـروف الاحتلال المتقـدم كثيرا على حسـاب المقاومـة المتراجعـة. ومن هنا ترسـخت لـدى الفرنسـيين بقيـادة بيجو ضرورة وجود نظام ثابت يعنى بالجزائريين حتى يتحقق الاحتلال الاستيطاني.

3 – العسـكر المعربـون فـي الإدارة الأهليّة مع شرط إتقانهم للّغة العربيّة.

كتب العميد أونجان دوماس (Dumas) الـذي تولى المكتـب المركـزي للإدارة الأهليّـة ووضـع الخطـوط العريضـة للسـلم الإداري فقـد عرفـه قائـلا: «... مؤسسـة لأجل تثبيت السّلم الحقيقي بين القبائـل بواسـطة إدارة عادلـة ومنضبطة لتحضيـر مؤيديـن لاسـتيطاننا وتجارتنا بواسـطة الأمن العـامّ وحمايّـة مصالحنا الشّرعيّة...».

وأضاف الكلونيـل إدفيـل (Ideville): «... إنشـاء المكاتب العربيّة ليس لشـيء آخر سـوى إدارة البلاد بواسـطة الضّباط الذين جاؤوا لاستكمال التّوسع... ».

أمـا النّقيـب ريتشـارد (Richard) أحد ضبـاط المكاتـب العربيّـة، ، كتـب فـي مذكراته: « في بلاد تعد السّـيطرة هي أول هدف للسياسة، فإن الشّرطة عنصر أساسي بما أنهـا تحفظ الأمن الوطني، ولكي تقوم الشّـرطة بعملها على أحسن وجه، توجب أن يخدمهـا جواسـيس مهرة تتقـن اللغة العربيّة، وفي هذا الاطـار كانت المكاتب العربيّـة تقوم بأعمـال في بالـغ الأهميّة، بما أنهـا تضع من كل قبيلـة قائمة الرّجال المشـتبه فيهم، ومعرفـة حركاتهم ومكان استقرارهم، حتى تتمكن السّلطة من معرفة مخططهم عن ثورتهم وتخطفها ليلا».

الأكيد أن السّلطة الاستعماريّة انطلاقا من القرار الصّادر سنة 1844 لم تكن تسعى إلـى ترقيّة الجزائريين والسّـهر على تلبيّة حاجاتهم بقدر ما كانت تسعى إلى تحديد أهـداف اسـتعماريّة بحتة تضمـن بقاءها الدّائم في كامل القطر الجزائري.

احتوى المكتـب العربي على موظفين فرنسيين وجزائريين. نركز في البدايّة على العسـاكر الفرنسـيين. بعد وضوح معالم الإدارة الأهليّة مع قرار التّأسـيس الرّسمي للمكاتـب العربيّة فـي أول فبرايـر 1844. اقتضـى الأمر بأن تكـون المكاتب العربيّة بعناصرها بمثابة الوسـيط بين السّـلطات الفرنسـيّة العليـا والأهالـي، أصبـح من الضّروري الاهتمـام بالعناصر التي تتولى تسيير وإدارة المهام بهذه المؤسسة، حيث طرحت عدة تسـاؤلات على العسكريين وبخاصّـة بيجـو (Bugeaud) حول مسـألة اختيار الضّبـاط وانتدابهـم كموظفين في السّلك الإداري.

المهمـة للادارة الاسـتعماريّة لم تكن بالسّـهلة لكونها مرتبطة بالهدف الرّئيسي الاحتـلال الاسـتيطاني ومعرفـة اللغـة العربيّـة. وعليـه الفرد المنتـدب لابد أن تتوفـر فيه شـروط واعتبـارات. أولا، أن يكون من السّـلك العسكري وبالفعل كل الضّباط الذين عينـوا ينتمون إلى مختلف الجيـوش ولا سـيما فرقـة المشـاة ولم يشـكلوا أبدا سـلكا نظاميا بل انتدبوا من فيالقهـم. أما ثانيا فلابـد أن يجيدوا اللغة العربيّـة، ملمين بعادات وتقاليد السّـكان وطبائعهـم، وليسـت لهـم أيّة عقـدة أو خجل للغـوص في حيـاة الأهالي، وهي النّقطـة التي ركـز عليها بيجو فـي قيادته لـلإدارة الأهليّـة وحـث الضّبـاط على ضرورة تعلـم اللغة العربيّـة لأن مهمتهم تعد إحدى الوسـائل المسـتعملة لتحقيق المصالح الاسـتعماريّة من سيطرة مطلقة وشـاملة ماديا وبشـريا، وكذا بسط الأمن والاستقرار. وللإشـارة فإن فكرة التّقرب مـن الأهالـي ومعرفة لغتهم لـم تكن مع بيجـو (Bugeaud) بـل هنـاك مـن سـبقه وأجاد العربيّة مثل ماري مونج والكلونيل بيليسي (Pelissier).

إن هـذه التّجاوزات المذكـورة ما هي إلا غيض من فيـض، قامت بـه المكاتب العربيّة في حق الجزائريين، لأن الغرض الـذي أنشـأت لأجلـه كان موجـه لقمع

الانتفاضات والمقاومات التي واجهت الاحتلال الفرنسي منذ أن وطأت أقدامه أرض الجزائر. ولقد ظلت الإدارة الفرنسيّة تعتمد على منظريها السّياسيين والعسكريين والاقتصاديين، لأجل إيجاد الطّرق والمناهج وكيفيات لإبقاء الجزائر تابعة لها. فالمكاتب العربيّة المستحدثة من طرف بيجو عام 1844 ما هي إلا اسم لجهاز قمعي ظلت فرنسا تعتمد عليه لضمان بقائها منذ 1830 إلى 1962. إذ اعتمدت الإدارة الفرنسيّة خلال ثورة التّحرير الكبرى على جهاز المكاتب الاداريّة المتخصصة SAS) – لاصاص) للقضاء على الثّورة وعزلها عن الشّعب الجزائري.

4 – قائمة الضّباط المعربون مدراء الشّؤون الأهليّة.

احتوى كل مكتب عربي على عدد معين من الموظفين العسكريين الفرنسيين ذوي رتب مختلفة وعددهم في حدود العشرة أشخاص وهم: رئيس المكتب العربي: وهو ضابط برتبة قائد بمكتب الدّرجة الأولى وضابط بمكتب الدّرجة الثّانيّة يعمل تحت إمرته ملحقون ومتربصون برتب مختلفة يعينون بأقدميّة. بالإضافة إلى كاتب فرنسي برتبة ضابط صف أو عريف أو جندي. ثم مترجم وقاضي وضابط مسؤول عن الصّحة. وكانت هذه المكاتب العربيّة تسير من قبل إدارة مركزيّة في الحكومة العامة على رأسها ضباط سامون يتقنون اللغة العربيّة.

- الكابتان دوماس أونجان (DAUMAS. Eugène 1803–1871) وهو القنصل الفرنسي السّابق في دولة الأمير عبد القادر في الفترة الممتدة من 1837 إلى 1839. كان مكلفا بمراسلات الأمير والإجابة عنها باللغة العربيّة. ثم تولى مصلحة الشّؤون العربيّة بمقاطعة وهران بعد قطع العلاقات مع الأمير بحيث كانت المصلحة في فترته مكتبا مثاليا للمخابرات فزود الحاكم العامّ العسكري بيجو (Bugeaud)) بمعلومات مهمة أفادته كثيرا في حربه ضد الأمير عبد القادر.

اشتهر دوماس بكتبه حول الجزائر خاصّة منها الصّحراء الجزائريّة عام 1845 (Le Sahara Algérien)، وكتاب الحياة العربيّة والمجتمع المسلم عام 1869.

- الكلونال لويس رين (RININ. Louis Marie 1838–1905) وهو المؤرخ العسكري المعروف، مؤسس المدرسة الاستعماريّة وصاحب المؤلفات الكثيرة في تاريخ الجزائر. أشهرها حول الزّوايا والطّرق الصّوفيّة وايضا ثورة المقراني.
  - Marabouts et khouan. 1884
  - Les origines berbères; études linguistiques & ethnologiques. Alger, A. Jourdan, 1889.
  - Histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie. Alger 1891
  - La femme berbère: dans l'ethnologie et l'histoire de l'Algérie. 1903
- الكلونال ألفونس ديفو (.DEVOULX) (Simon Alphonse 1793 –1874.
- الكلونال نولي أوجان (NULLY. (Eugène de) (1809 –1845)
- جان دولابورت (DELAPORTE. Jean Honorat 1812 –1871)
- نكوليمري . ج (NICULYLIMBERY. George. OuAli (1805 ou 1812 –1862
- بروسلار ش. إهنري (BROSSELARD. Charles Henri Emmanuel 1816 –1899)
- ألكسندر بلمار (BELLEMARE. Alexandre 1818 –1885) صاحب كتاب معروف عن الأمير عبد القادر الصّادر في باريس في طبعته الأولى عام 1863 بعنوان: الأمير عبد القادر – حياته العسكريّة والسّياسيّة.
- كادوز. فرانسوا ماري .CADOZ) François Marie 1823 –1898)
- دوفو جوزاف. ماري فرانسوا (DEVOULX. Joseph M /Albert (1826 –1876) مؤرخ فرنسي له عدة مؤلفات أهمها حول التّاريخ العثماني في الايالة، تتعلق بالبحريّة الجزائريّة وكذا كتاب حول الرّايس حميدو.
- فايسات أوجان .VAYSSETTES) Eugène 1826 –1899)
- روي برنارد – ROY. Bernard 1845) 1919)
- لوشياني جان دومنيك .LUCIANI) (Jean Dominique 1851 –1932
- أرنو جززيف (ARNAUD dit RANDAU Joseph M /Robert1873–1950)
- أرين أوغست إمانيال (ARIN. Auguste Emmanuel 1884 –1968)
- بيرك أوغستين (BERQUE. Augustin (1884 –1946أب جاك بيرك.
- ميليو لويس ألكسندر .MILLIOT) Louis Alexandre 1885 –1961)

ثالثا: المترجمون في الجيش الفرنسي واهتمامهم باللهجات الجزائريّة العاميّة.

حظيت اللغة العربيّة وآدابها بقسط لا يستهان به من هذه الدّراسات والتّرجمات من قبل العسكر الفرنسي طيلة الوجود الاستعماري في الجزائر. وشكّلت التّرجمة غداة الحملة الفرنسيّة على الجزائر أحد أهم الرّهانات المُعوّل عليها في عمليّة تحويل معالم

الهويّـة المحليّة عن توجهاتها المكتسـبة والموروثـة عبـر التّاريـخ. فالتّرجمة من أهمّ القنوات التي ظلت تسـهم في تمرير المشروع الاسـتعماري في الجزائر. وقد لعبت حينها أدوارا شـتى تعـدّدت بتعدّد الاسـتخدامات والغايات، وكانت وسيلة لإطلاع أوروبا كلها علـى خصائص هذا المجتمـع الدّينيّة، التّاريخيّـة والثّقافيّة. و كان المسـتعمِر قد خاطب المستعمَر في الجزائر لأول مرّة بلغته المحليّة من خلال قناة التّرجمة، فإنّ من الضّباط العسكريين من انغمس بين السّكان الأصليين وجاب الجبال والسّـهول والصّحراء مسـتقصيا أحـوال العامّة مـن السّـكان الأصليين. ومن جهة أخـرى كانت التّرجمة وسـيلة اتصال وتواصل بين الإدارة الاسـتعماريّة والأهالـي في الجزائر. ولهـذا فقد أولت الإدارة الاسـتعماريّة في الجزائـر أهميّة كبيرة للترجمة والمترجميـن الذين كانوا في الغالب عسكريين.

عرفت حركـة التّرجمة نشـاطا مكثّفا فـي مختلف مجالات الحياة العسـكريّة، والسّياسـيّة والقضائيّـة، وصـولا إلـى مجـالات التّاريـخ، الجغرافيـا، الفـنّ والمعرفـة، وهـو مـا أفضى بالمسـتعمِر إلـى تحصيـل ذخيـرة هامة مـن الوثائق والمخطوطات التي انكبّ على ترجمتها، واعتمـد عليها فـي صياغة أولـى الكتب الاستشراقيّة حول الجزائر .

1 - تشـكيل سـلك المترجميـن العسكريين و ضمهم لوزارة الحربيّة.

صـدر أول تصريـح لتشـكيل أول مجموعـة مـن المترجمين والمرشـدين العسـكريين بالجزائر في شـهر جانفي من سنة 1830 أي قبل الحملة العسكريّة بشهور. فقـد قامـت آنـذاك وزارة الحربيّـة تحت إشـراف الجنرال دي لوفردو (De Loverdo) بتكليف» دي كليرمونت تونار (De Clermont Tonner) بهـذه المهمّـة، إضافة إلى إنشـاء مكتب خاصّ لإنجـاز خرائط ومخططات الأرياف. وتهافت المترجمون والطّلبة في معهد الدّراسات الشّـرقيّة في باريس على تقديـم طلباتهـم للالتّحاق بحملـة الغزو علـى أراضي شـمال أفريقيـا أي الجزائر. وكان في طليعة هؤلاء المترجمين سيلفستر دي سـاي (Silvestre De Sacy) وهو مترجم يهودي مشهور وتلامذته وأيضا براسفيتش (Bracevich)، وكذا جون ميشال فونتور دي بارادِيـز (Jean Michel Venture de Paradis) وبراسـيفيتش (Bracevich)، دولابـرت (Delaporte)، بيليتسـت (Belleteste) ومارسـيل (Marcel) ماغالون (Magallon)، لومـاكا (LHomoca)، رايـج(Raige)، وهم جميعا من المقربين مـن فرقة المترجمين التي أسسـها نابليون بونابرت (Bonaparte) في مصر.

كان للمترجمـون العسـكريون فـي الحملة الفرنسـيّة عـام 1830 على الجزائر دور بارز، من خلال وظائفهم كوسـطاء، وبفضـل كفاءاتهم اللغويّـة والأدبيّة التي تقتضيها طبيعة مهامهم وكذلك قربهم من مختلـف الجماعـات، أدّوا دورا هاما في التّبادل بين المسـتعمِرين والمستعمَرين، وفي بنـاء أول «معرفة اسـتعماريّة عالمة حـول الجزائـر»، وبالأخص فـي الفترة الممتدة بيـن 1830 و1870، حيث أنّه وفي هذه السّـنة الأخيرة (1870)، تـمّ تهميش هـذا النّوع مـن الأبحـاث والدّراسـات لتحلّ محلهـا تدريجيا العلـوم الجامعيّة والدّراسات الأكاديميّة.

لقد بلغ العدد الإجمالـي للمترجمين والمخبرين المترجمين الذين شاركوا في الحملة العسـكريّة في الغزو على الجزائر عام 1830، ما يعادل خمسـة وتسعين (95) عنصـرا وهم يصنفـون درجـات تتراوح بين الصّـف الأول والصّف الثّالثّ، منهم خمسـة (05) ينتمون إلـى الصّف الأول، وثلاثـة (03) إلـى الصّف الثّانـي، إضافة إلى سبعة (07) آخرين ينتمون إلى الصّف الثّالـثّ، فـي حين قُـدر عـدد المخبرين المترجميـن بثمانيّـة (08) ينتمـون إلـى الصّـف الأول واثنان وسـبعون (72) إلى الصّـف الثّانـي، كما كان مـن بين هؤلاء المترجمين أربعة (04) ضباط سابقين.

انتهت تحضيـرات البعثة في أول ماي 1830 وتجمعـت فرق الأقسـام الثّلاثة في تولـون(Toulon) ومرسـيليا (Marseille) منتظـرة إشـارة للانطـلاق في مشـاركة حملة غزو الجزائـر. وفعلا انطلقت فرق المسـتخدمين مـن المترجميـن تحـت قيـادة الجنـرال ديسـبري (Desprès)، لتحطّ بشواطئ سـيدي فرج في 14 جوان 1830. وفـي كل مرّة كانت هـذه الخطوة، الضّروريّـة والحاسـمة تتصـدّر قائمـة أولويـات العمليّة الاسـتطلاعيّة والخطّة الاسـتراتيجيّة المحبوكة في سـبيل غزو الميادين العلميّة والعسـكريّة المستهدفة، ولا شك أنّ وتكفلت وزارة الحربيّة نفسها بتوظيف هـؤلاء المترجمين وضمّهم إلى السّلك العسـكري أكبر دليل على الصّبغة الاسـتعماريّة للمهـام الموكلـة إليهم في الحملـة الاسـتعماريّة التـي شـنّت ضد الجزائـر. وذلك قبـل أن ينـزاح بعضهم إلى توجّهات وتطلّعـات علميّة أكثر منها عسكريّة.

2 - إسـهامات المترجمين العسكريين في الكتابات باللغة العربيّة

كان الهدف المنشود توظيف مترجمين يتقنون اللغتين الفرنسـيّة والعربيّة، وأيضا تشكيل سلك من الإداريين الذين يجمعون بين معرفة القوانين الفرنسيّة وأعراف العرب وقوانينهم. حصل هؤلاء المترجمين على

مناصب هامة وحساسة. كما تمّ تنصيب المترجم دوبينيوز (D'Aubignose) ملازما عاما (Lieutenant Général)على رأس الشّرطة، وترأس جيراردا (Gérardin) مصلحة هامة تمثلت في مصلحة دومين الدّولة (Domaines de l'Etat)، في حين أوكلت مهمة دراسة موارد وإيرادات البلد لأوسيب دي سال (Eusèbe de Salles)، كما تقلّد الضّابط المترجم جون ميرونت (Jean Mirante) منصب مدير شؤون الأهالي في الحكومة العامة بالجزائر.

أسهم المترجمون في الدّراسات المعمقة باللغة العربيّة في موضوعات كثيرة عن الجزائر. وجمعوا معارف حولهما نذكر على سبيل المثال لا الحصر ليون روش (Léon Roches) بين سنتي 1884–1885 بباريس كتابا دعائيا خطيرا، بعنوان اثنتان وثلاثون سنة عبر الإسلام 1832–1864، Trente-deux ans à travers l'Islam1832-1864 وهو بمثابة حوصلة لمختلف أعماله الخبيثة في الجزائر، تونس والمغرب والحجاز.

وأيضا المترجم الرّئيسي إسماعيل حامت (أو حامد) (Ismaël, Hamet) الذي أصدر سنة 1901 بالجزائر كتابا عنوانه خمسة أشهر في المغرب الأقصى، Cinq mois au Maroc، إضافة إلى إسهامات أخرى منها مسلمو شمال أفريقيا الفرنسيون عام 1906. وتعد الدّراسة الإثنوغرافيّة الخادمة للمشروع الاستعماري التي قام بها المترجم العسكري شارل فيرو (Charles De Foucault) عن منطقة القبائل الشّرقيّة من أهم الدّراسات التي أنجزت حول هذه المنطقة، فقد اهتم بدراسة وتدوين عادات وتقاليد المنطقة وركز هذا الجاسوس في العديد من كتاباته على الذهنيّة الجزائريّة عموما والقبائليّة على وجه التّحديد. إضافة إلى العديد من الدّراسات التّاريخيّة الأخرى التي قام بها حول مدن الشّرق الجزائري كمدينة القالة ومدن أخرى من الصّحراء.

نذكر أيضا أن وزارة الحربيّة كلّفت الضّابط مالشّيور تيران (Melchior Tiran) بجمع الكتابات التي تحيل إلى هيمنة العرب بإسبانيا وكذلك الوثائق المتعلقة بالاحتلال الإسباني للسواحل الأفريقيّة، ليتمّ تحويلها إلى الحكومة العامة في الجزائر، وفي هذا الإطار كتب تيران «وثيقة حول وهران خلال فترة الاحتلال الإسباني» سنة 1847، مستفيدا بذلك من الرّصيد الأرشيفي الذي تمّ جمعه.

كما حظيت اللغة العربيّة وآدابها بقسط لا يستهان به من هذه الدّراسات والتّرجمات حيث ألّف بارون أنتوان سيلفستر دي ساسي وبأمر من وزارة الحربيّة، كتابا حول النّحو العربي المعاصر، نشر لأول مرة سنة 1810، بالإضافة إلى العديد من المؤلفات الأخرى في النّحو العربي وفي أدب الاستشراف.

ولضمان الاستمراريّة ومواصلة المهام التي اضطلعت بها هيئة مترجمي جيش أفريقيا التي تشكلت سنة 1830، صدر بتاريخ 3 نوفمبر 1845، وتحديدا في النّشرة الرّسميّة للحكومة (رقم 125)، مرسوم وزاري يقضي بإنشاء سلك للمترجمين العسكريين الموجّهين خصيصا إلى مصلحة الجزائر (Service de l'Algérie)، وبعد صدور قرار إنشاء وزارة خاصّة بالجزائر والمستعمرات في 24 جوان 1858، وضعت ثلّة من أهم المترجمين تحت تصرف هذه الأخيرة.

بعد مرور أكثر من مئة سنة على الاحتلال، لم ينتقص شيء من أهميّة مهام ودور المترجمين العسكريين في تقريب الغايات والمبتغى الاستعماري . فظهرت إلى الوجود هيئة جديدة تأسست سنة 1938 عرفت باسم « هيئة الشّؤون العسكريّة الإسلاميّة » (Le Corps des Affaires Militaires Musulmanes /AMM). وهي الهيئة التي قضت بإنشائها حكومة دلاديي (Daladier)، تحديدا في 14 جوان 1938، والتي لم تكن في الواقع سوى تغييرا لتسميّة سلك المترجمين الضّباط (Officiers interprètes) ومن ثّمة كانت هذه الهيئة، التي ضمّت مختصين في اللغة العربيّة والعالم الإسلامي، بمثابة وريث رسمي لسلك مترجمي جيش مصر (1798) وجيش شمال أفريقيا (1830)، حيث كان لكل كتيبة « أنديجينا « ضابط مترجم ينتمي إلى هيئة ضباط الشّؤون العسكريّة الإسلاميّة، يتقن اللغة العربيّة ويقوم بدور الوسيط بين القائد العسكري والأهالي . النّقيب روني كاستين(René Castaing) حكم هذه الهيئة إلى غايّة 1940، ليخلفه الملازم فارنون شرافا (Fernand Charavin) في 21 ماي 1940، لتتحوّل هذه الهيئة سنة 1941 إلى سلك مدني، ثم إلى سلك عسكري من جديد سنة 1942 وتختفيّ تماما مع بدايّة القرن الماضي.

تمخضت المعرفة الواسعة للمترجمين العسكريين الذين جابوا ربوع الجزائر عن إصدار عدّة مؤلفات في التّاريخ والجغرافيا والدّين. ومن بين تلك المؤلفات نذكر الإخوان (Khouan)، عن الطّرق الدّينيّة الإسلاميّة في الجزائر (1859) لمؤلفه شارل بروسلار (Charles Brosselard)، بالإضافة إلى كتب غورجو حول الجزائر مثل كتاب شرائح الجزائر السّبعة (1891) Les sept plaies de l'Algérie، وكتاب حالة الجزائر السّياسيّة (1881) Situation politique de l'Algérie.

كما زاد انضمام المترجمين العسكريين إلى الجمعيات العالمة

«Sociétés savantes» من انتعاش نشاطهم البحثي باللغة العربيّة واللغة الفرنسيّة وهيّأ لهم ظروف الإنتاج والنّشر بشكل يسمح بعرض أعمالهم وإخراجها إلى النّور من خلال المجلات العلميّة الصّادرة عن هذه الجمعيات منها الجمعيات «الجمعيّة الآسيويّة» سنة 1822، «الجمعيّة الأركيولوجيّة» سنة 1852 و«الجمعيّة التّاريخيّة الجزائريّة» سنة 1856، بالإضافة إلى المجلة الأفريقيّة الصّادرة عن الجمعيّة التّاريخيّة الجزائريّة التي أقدمت على تصنيف ونشر وثائق تشكل عناصر رئيسيّة في التّأريخ للجزائر.

رابعًا: اهتمام العسكر الفرنسي باللغة العاميّة على حساب الفصحى.

أهتم العسكر الفرنسي منذ بداية الاحتلال بدراسة اللهجات الجزائريّة العاميّة . ومن مظاهر هذا الاهتمام، اول نداء إلى الشّعب الجزائري وكذا مشاريع المستشرق هنري بريسني Bresnier Henry 1814-1869)) ومحاولة كتابة العاميّة الجزائريّة بأبجديّة لاتينيّة الذي صدر بعد وفاته بثلاث سنوات عام 1871 . وكان من قبل قد أصدر كتابه الأول الجارومية (Djaroumia) عام 1846 وأهدى أول نسخة منه إلى صديقه الحنين المؤرخ العسكري الكولونال دين وفو (Colonel De neveu). كما ظل يدافع عل الخط العربي ويطالب بجمع المخطوطات العربيّة من مختلف الزّوايا ويطالب بحماس كبير بإدخالهم تدريس اللهجات العاميّة في مدارس وجامعات. ونذكر أيضا أن بريسني يعتبر أول مدرس فرنسي باللغة العربيّة في الجزائر.

نذكر أن هذه المشاريع الخطيرة لم تقتصر على فرنسا وحدها بل كانت منتشرة في كامل أوروبا الغربيّة حيث تم ادخال تدريس اللهجات العربيّة المحليّة في مدارس وجامعات أكبر المدن الأوروبا مستعينين بذلك بالشّرقيين الذين كانوا يعملون في بلادهم، ففي ايطاليا درست العربيّة العاميّة في مدرسة نابولي للدروس الشّرقيّة، وكذلك في النّمسا أنشئت مدرسة فينا، أطلقوا عليها اسم «مدرسة القناصل»، وكذلك وروسيا والمجر وانكلترا.

كان من نتيجة اهتمامهم بإدخال تدريس اللهجات العاميّة العربيّة في مدارس وجامعات أوروبا، ظهور كتب كثيرة في اللهجات العاميّة على غرار ما حدث في مصر، ولعل كتاب ميخائيل الصّباغ والموسوم « الرّسالة التّامة في كلام العامّة والمناهج في أحوال الكلام الدّارج» يشهد على ذلك. علما أن هناك الكثير من الأبحاث اختصت كل منها بدراسة لهجة من لهجات الأقطار العربيّة مثل اللهجة المصريّة والسّوريّة والعراقيّة والتّونسيّة والمراكشيّة والجزائريّة طبعا.

إن هذا الاهتمام لم يكن من أجل البحث العلمي كما يزعمون، ولا من أجل حاجتهم إلى معرفة لهجات البلاد العربيّة التي تقتضي مصالحهم أن يعيشوا فيها ويتعاملوا مع أهلها، وإنما من أجل القضاء على العربيّة الفصحى وإحلال العاميّة محلها. بالإضافة إلى أنها كانت أحد أهداف الاستعمار الفرنسي في فصل العرب عن البربر عن ماضيهم وتفتيت وحدتهم اللغويّة بالقضاء على العربيّة الفصحى كما شرحها المستشرق القاضي الانكليزي لسلدن ولمور في كتابه « العربيّة المحكيّة في مصر».

إن أغلب الكتب التي ألفها العسكر الفرنسي مثل الفرنسي شارل بريسني في العاميّة الجزائريّة، تتفق على الدّعوة إلى اتخاذ العاميّة لغة الأدب، وعلى استبدال الحروف اللاتينيّة بديلاً عن العربيّة، وبالطّبع على الشّكوى من صعوبة اللغة العربيّة، وقد وصلت إلينا هذه الدّعوات مستترة تحت ستار البحث العلمي.

1 – مخاطبة المُستعمر للمستعمِر لأول مرة باللغة العربيّة.

يعتبر المستشرق أنطوان إسحاق سيلفستر دي ساسي (Antoine–1757–1838 Issac Silvester de sacy)، بعد انضمامه لما كان يسمي بجيش أفريقيا (L'Armée d'Afrique) ضمن عسكر الحملة الفرنسيّة على الجزائر عام 1830، أول من كتب نصا باللغة العربيّة موجه للجزائريين. لعله من المفيد التّذكير أن دي ساسي هذا، كان يعتبر أكبر شخصيّة مُعربة في ذلك الوقت يناهز عمره 73 سنة. كان قد اكتسب تجربة كبيرة من مشاركته مع زملائه المترجمين في حملة نابليون على مصر عام 1799. وكان قد أصدر من قبل كتاب «تاريخ العرب قبل الاسلام» عام 1785، وأيضا كتاب « قواعد اللغة العربيّة عام 1810 (Grammaire Arabe).

بالإضافة إلى نشر كتاب «تعليم اللغة العربيّة بالحروف اللاتينيّة» عام 1826. زيادة على أنه كان أحد مؤسسي مدرسة اللغات الشّرقيّة في باريس.

في الحقيقة دي ساسي لم يكتب نص البيان بنفسه بل قام بترجمته إلى العربيّة وهذا ما أخبر به أدريان بيربروجير (Adrien Berbrugger) في مقال له في المجلة الأفريقيّة عام 1862. و المعروف عنه أنه كتب كتاب سفر عند الأمير عام 1837.

(Voyage au camp d'Abd el-Kader)

كتب دي ساسي، أول بيان وزع على سكان الجزائر عشيّة الاحتلال وهو بيان كتب بلغة عربيّة دارجة طغت عليها اللهجة الشّرقيّة بدلا من اللهجة الجزائريّة. لقد علق المؤرخ أبو القاسم سعد الله على هذا الموضوع في كتابه . تاريخ الجزائر الثّقافي(الجزء السّادس).

2 – النص الكامل للنداء الفرنسي (المترجم) لسكان الجزائر 14 جوان 1830.

بسم الله المعيد وبه نستعين. يا أيها ساداتي القضاة والأشراف والعلماء وأكابر المشايخ والاختياريّة، اقبلوا مني أكمل السّلام وأشمل على اشراف قلبي بمزيد من العز والإكرام.

أما بعد أعلموا هداكم الله إلى الرّشد والصّواب سعادة سلطان فرانسه، مخدومي وعزة جنابه الأعلى عز نصره، قد أنعم علي بتوليته أياي منصب **سار عسكر**. ويا أعز أصدقائنا ومحبينا سكان الجزائر ومن ينتمي إليكم من **شعب المغاربة أن** الباشا حاكمكم من حيث أنه تجرأ على **بهدلة بيرق فرانسه** المستحق كل اعتبار، وإقدامه على إهانته فقد سبب بجهله هذا كل ما هو عتيد أن يحل بكم من الكوارث والمضرات لكونه دعى عليكم الحرب من قبلنا، فإن عزة اقتدار **سلطان فرانسه**، دام ملكه نزع الله من قلبه ورأفته المعروفة المشهورة، فلا بد أن هذا الباشا حاكمكم من قلة بصيرته وعماوة قلبه قد جذب على نفسه الانتقام المهول، وقد دنا منه القدر **المقدر عليه** ومن قريب يحل به ما استحقه من العذاب المهين.

أما أنتم يا شعب المغاربة، اعلموا أو تأكدوا يقينا أني **لست آتيا لأجل محاربتكم**، فعليكم أن لا تزالوا آمنين ومطمئنين في أماكنكم وكل ما لكم من الصّنائع والحرف براحة سر. ثم إني **أحقق لكم أنه ليس فينا من يريد يضرّكم** لا في مالكم ولا في أعيالكم ومما أضمن لكم أن بلادكم وأراضيكم وبساتينكم وحوانيتكم وكل ما هو لكم صغيرا كان أو كبيرا يبقى على ما هو عليه **ولا يتعرّض لشيء من ذلك جميعه أحد من قومنا**، بل يكون في أيديكم دائما، **فآمنوا بصدقي كلامي**، ثم إننا نضمن لكم أيضا ونعدكم وعدا مؤكدا غير متغير ولا متأول أن جوامعكم ومساجدكم لا تزال معهودة معمورة على ما هي عليه الآن وأكثر، وأنه **لا يتعرّض لكم أحد في أمور دينكم وعبادتكم**، فإنّ حضورنا عندكم **ليس هو لأجل محاربتكم وإنما قصدنا محاربة باشتكم** الذي بدأ وأظهر علينا العداوة والبغضاء. ومما لا يخفى عليكم غايّة تحكمه وقبح طبعه المشؤوم. ولا ينبغي لنا أن نطلعكم على أخلاقه الذميمة وأعماله الرّذيلة . فإنّه واضح لديكم لأنّه لا يسعى إلا على خراب بلادكم ودثارها وتضييع أموالكم وأنفسكم. ومن المعلوم أنّه إنما يزيد أن يجعلكم من الفقراء المنحوسين المبهدلين الخاسرين أكثر من السّخط عليهم، فمن أعجب الأمور كيف يغبى عنكم أن باشتكم لا يقصد الخير إلا لذاته. والدّليل كون أحسن العمارات والأراضي والخيل والسّلاح واللبس والحلي وما أشبه ذلك كله من شأنه وحده.

فيا أيها أحبابنا سكان المغرب أنّه عزّ وجل ما سمح بأن يصدر من باشتكم الظّالم ما فعله من أعمال الخبث والرّدى إلا إنعاما منه سبحانه وتعالى عليكم حتى تحصلوا بهلاكه وبزوال سلطنته على كل خير، ويفرج عنكم ما أنتم فيه من الغم والشّدة وإذ والحال هذه أسرعوا **واغتنموا الفرصة ولا تعمى أبصاركم** عما أشرفه الله عليكم من نور اليُسر والخلاص، **ولا تغفلوا عما فيه مصلحتكم**، بل استيقضوا لكي تتركوا باشتكم هذا وتتبعوا شورنا الذي يؤول إلى خيركم وصلاحكم. وتحققوا أنه تعالى لا يبغي قط ضرر خليقته، بل يريد أن كل واحد من برایاه يجوز ما يخصه من وافر نعمه التي سبغها على سكان أرضه.

يا أيها **أهل السّلام** إن كلامنا هذا صادر عن الحب الكامل، وإنّه مشتمل على الصّلح والمودّة وأنتم إذا شيعتم مراسليكم إلى أوردينا حينئذ نتكلم وإياهم والمرجو من الله تعالى أن محادثتنا مع بعضنا بعض تؤول إلى ما فيه منافعكم وصلاحكم، وعشمنا بالله أنكم بعدما تحققتم أن مقاصدنا **وغياتنا الفريدة ليست هي سوى خيركم ومنفعتكم** . تشيعوا لنا صحبة مراسليكم **كل ما يحتاج إليه عسكرنا المنصور من الذخائر ما بين طحين وسمن وزيت وعجول وغنم وخيل وشعير وما يشبهه**، وحين وصلت مرسلاتكم هذه إلينا فحالا ندفع الثّمن فلوسا نقديّة على ما تريدون وأكثر. هذا وأما إن كان منكم معاذ الله خلاف ذلك حتى تختاروا محاربتنا ومقاومتنا، إعلموا أن كل ما يصيبكم من المكروه والشّر إنما يكون سببه من جهتكم فلا تلوموا إلا أنفسكم فأيقنوا أنّه ضدّ إرادتنا. **فليكون عندكم أنّ عساكرنا المنصورة تحيط بكم بأيسر مرام ودون تعب**، وإن الله يسلّطها عليكم فإنه تعالى كما أن يأمر من يجعل لهم النّصر والظّفر بالرّحمة والمسامحة على الضّعفاء المظلومين، فكذلك يحكم بأشد العذاب على المفسدين في الأرض العائثين على البلاد، فلا بد أنكم **إن تعرّضتم لنا بالعداوة والشّر هلكتم عن آخر**.

هذا يا أيها السّادة ما بدا لي أن أكلمكم به فهو نصيحة مني إليكم وايقنوا يقينا مؤكدا **أن كلام سلطاننا المنصور المحفوظ من الله تعالى غير ممكن تغييره لأنه مقدّر والمقدر لا بد أن يكون، والسّلام على من سمع وأطاع**.

3 – مظاهر العنف والخداع في هذا النّداء.

يعتبر هذا النّص باللغتين الفرنسيّة والعربيّة (مترجم) عبارة عن نداء للسكان. لكن هو في الأصل نصا دعائيا واضحا. وهذا طبعا من خصائص الاستراتيجيّة لمختلف الحروب والمعارك. لكن ما

لحظناه، أنه نصا مترجما من الفرنسيّة إلى اللغة العربيّة بصيغة غلبت عليها العاميّة وطبعا هذا مقصود. النّص طغت عليها اللهجة الشّرقيّة بدلا من اللهجة الجزائريّة.

الهدف الرّئيسي من هذا النّداء، هو الدّعايّة المغرضة، فالأخطاء الاملائيّة الكثيرة، والتّعبير الضّعيف لا يهم في مثل هذه الحالات.

نلاحظ أن نص النّداء العسكري الفرنسي، يميز منذ البدايّة بين سكان مدينة الجزائر وباقي مناطق البلاد، أي يركز على سياسة فرق تسد. يستعمل المترجم مصطلح « المغاربة» لنعت باقي سكان الجزائر. وهذا يعني ان هذا المصطلح لم يكن في ذلك الوقت يحمل نفس الأبعاد التي هو عليها اليوم. وهو يعني أيضا أن هذا المصطلح لم يكن له مقابل باللغة الفرنسيّة، لأن المصطلح الرّسمي لسكان الجزائر في عهد الاحتلال كان مصطلح «الأهالي».

نلاحظ ايضا أن البيان يركز كثيرا على شخصيّة الدّاي حسين دون أن يذكر إسمه، وينعته بكل النّعوت القبيحة على أنه رجل شرير. وهذا يتناقض مع المعاهدة التي تم التّوقيع عليها بين قائد الحملة العسكريّة المرشال دي يبرمون والدّاي حسين يوم 5 جويليّة 1830، حيث تم السّماح له بمغادرة البلاد نحو ليفورنيا في إيطاليا بكل حريّة بدلا من عقوبته وتسليط اكبر قصاص عليه. وهذا تناقض سافر، يدل على النّيّة المبيتة للمستعمر.

الملاحظ أيضا، أن النّص جاء فيه: « وقد دنا منه القدر المقدر عليه». وهذا يعني أن المحتل يخاطب عقليّة الجزائريين في ذلك الوقت المغفلين والغير واعين بخطورة ما كان يحدث لهم. وصحيح أن المجتمع الجزائر في ذلك الوقت، كان يؤمن بأن ما يحدث هو قضاء وقدر.

في النّص مغالطات كثيرة يستعمله المحتل اتجاه الجزائريين. كان يصرح ان لا أحد سوف يتعرض لأملاكهم وتجارتكم ولا إلى معتقداته وطبعا لم يكن هذا إلا وعود كاذبة.

في النّص أيضا، إشارة واضحة إلى ما يحتاجه الفرنسيون من سكان الجزائر. جاء في النّص: « فآمنوا بصدقي كلامي... غياتنا الفريدة ليست هي سوى خيركم ومنفعتكم . تشيعوا لنا صحبة مراسليكم كل ما يحتاج إليه عسكرنا المنصور من الذخائر ما بين طحين وسمن وزيت وعجول وغنم وخيل وشعير وما يشبهه. « وكل هذا الكلام مجرد دعايّة حربيّة.

في الأخير، نلاحظ أن البيان ينهي توجيهاته بالتّهديد. وهذا طبعا مقصود ويدل في نفس الوقت أن البيان يترفع عن الوعود الكاذبة وينهي خطابه بالتّهديد، لأن الهدف الرّئيس للبيان هو تهديد السّكان بتسليط العقاب على الجميع في حالة المقاومة. جاء في النّص: «إن تعرّضتم لنا بالعداوة والشّر هلكتم عن آخر». وفي الخلاصة النّداء يطلب من سكان الجزائر قبول ما يحدث لهم بل ليس لهم خيار في ذلك. عليهم تقبل القضاء والقدر.

لقد وجه المحتل نداء آخر إلى الكراغلة والباقي قبائل القاطنين بإيالة الجزائر، يؤكد أهداف هذا النّداء حيث كتب المحتل: « نحن الفرنسيون أصدقائكم سنذهب إلى مدينة الجزائر لنطرد منها الأتراك الذين قد طغوا عليكم واضطهدوكم واغتصبوا جميع ممتلكاتكم ومنتوجات أراضيكم أولائك الذين لم ينفكوا عن تهديد حياتكم.

يذهب النّداء الموجه للكراغلة إلى أكثر من ذلك حيث جاء فيه: «نحن لا نغزوا المدينة لنقيم بها ونسكن فيها كأسياد أو رؤساء اننا نقسم لكم بدمنا أن لا يكون ذالك . فانضموا إلينا وكونوا جديرين بحمايتنا كي تسودوا في وطنكم مثلما سدتم فيه سابقا وتصبحوا رؤساء أحرارا في مسقط رأسكم». وأخيرا، من الواضح، أن المحتل كان يريد منهم البقاء حياديين أي عزلهم عن المجتمع الأهلي من جهة ومن جهة أخرى عن سلطة الايالة العثمانيّة بهدف إفتكاك الفريسة بسهولة.

4 – تقرير جنرال بيدو حول وضعيّة اللغة العربيّة في الجزائر 12 فيفري 1847.

الجنرال ألفونس بيدو (Bedeau Alfonse 1804–Marie 1863)، قائد فرقة قسنطينة العسكريّة والحاكم العامّ للجزائر عام 1848، كتب تقريرا مفيدا حول وضعيّة التّعليم باللغة العربيّة في الجزائر في بدايّة الاحتلال يثبت فيه التراجع الوضعيّة العامّة للتعليم وايضا للّغة العربيّة. النّص وثيقة أرشيفيّة تاريخيّة محفوظة في مركز أرشيف أكس بروفنس – فرنسا – السّلسلة H 229 /Série H – Anomالمؤرخة في تاريخ 12 فيفري 1847، المكان الجزائر العاصمة – الوثيقة مترجمة من قبل المؤرخ عبد الحميد زوزو – نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر، / . و. ك، 1984، ص ص 209–213.

... لا جدال فى أن مدينة قسنطينة كانت منذ الفتح الاسلامي مركزا رئيسيا بالمنطقة أو بباليك الشّرق كما كانت تسمى، فكانت مدارسها أعلى من مدارس الجزائر ووهران ولم تتفوق عليها في مضمار السّمعة سوى مدارس تونس والقاهرة بالمشرق. ولازال بها الى يومنا هذا مقدمون رئيسيون يمثلون جميع الطّرق الدّينيّة، كما كانوا فى السّابق.

وعند الاستيلاء عليها سنة 1837، كان يوجد بها خمسة وثلاثون مسجدا وسبع مدارس، تتسع لعدد من التّلاميذ يتراوح بين 600 و700 ويتلقون فيها تعليما يعرف بالتّعليم الثّانوي، بالإضافة الى دروس أخرى كان يلقيها أشخاص ذوو سعة واسعة، يحضرها جمع غفير من الطّلاب والمستمعين حتى لتغص بكثرتهم المساجد.

وفي نفس الفترة كانت بالمدينة تسعون (90) مدرسة ابتدائيّة يتردد إليها حوالي 1350 طفلا، لم يبق منهم اليوم سوى ستون (60) شابا يتابعون تعليمهم الثّانوي، أما عدد المدارس فقد انخفض الى ثلاثين (30) كما انخفض عدد التّلاميذ الى 350.

وهكذا تلمح فروقا مؤسفة جدا، وأن الدّخول تفصيلا فى قضيّة التّأسيس المدرسي يبدو مناسبا لفهم أسباب الفروق هذه، وإدراك أثرها السّلبي النّاجم عن عدم اهتمامنا بالتّعليم فى عاصمة المقاطعة، وعليه يجب فحص الأهميّة التي تكتسبها الدّروس على اختلاف انواعها، وتقدير الحظر النّاتج عن اهمالنّا للتعليم لما يعطيه لرجال الزّوايا من نفوذ، وبما يزيده لسمعتهم من قوة كل ذلك بسبب الحالة التي تركنا فيها المدارس المركزيّة.

كانت المدارس الابتدائيّة تتبع دائما مسجدا معينا أو زاويّة معينة، كما كانت نفقات صيانتها أو الاعتناء بأدواتها تؤخذ من عائدات أحباس ذلك المسجد أو تلك الزّاويّة.

وكان الأستاذ يعينه النّاظر المتصرف في الأوقاف بتوصيّة من أرباب العائلات (وهذا ما يسمى عندنا في فرنسا بلابرواس). ويخصص له دار للإقامة تابعة للأوقاف.

وكان الأستاذ عادة لا يتحمل عبئ التّعليم فقط وإنما يعمل إلى جانب ذلك عمل الحزاب والمؤذن والإمام وهلم جرا، وفي المقابل كان يتلقى من أولياء التّلاميذ ما يلي:

1 – منحة ماليّة بحسب الوضع المادي لكل عائلة، والتي يمكن تحديدها بأربعة عشر فرنكا.

2 – هدايا بحلول عيد من أعياد السّنة والبالغ عددها 11، وقيمتها 5 فرانكات.

3 – تبرعات في فترات متباينة يكون خلالها الولد قد حفظ جزءا من أجزاء القرآن، وتقدر بأحد عشر فرنكا. وبذلك يكون معدل ما يتلقاه الأستاذ سنويا هو 30 فرنك، أضف إليها الأرباح الآتيّة إليه من المحسنين وفعلة الخير الأبرياء.

أما بخصوص التّلاميذ فقد كان عددهم 15 ولدا بكل مدرسة يدخلونها عند سن السّابعة، وفيها يتعلمون القراءة والكتابة ويحفظون القرآن، وكان تعلم المادتين الأوليتين يستغرق عادة سنتين في حين يتطلب حفظ القرآن خمس سنوات، إلا أن معظم التّلاميذ يغادرون المدارس عند نهايّة السّنة الرّابعة، كما أن دراستهم للقرآن كانت تقتصر على تنميّة الذاكرة ولا تتعداها إلى شرح وتفسير آياته المحفوظة بالتّتابع وهناك أبناء العشائر المجاورة الذين كانوا يرسلون إلى قسنطينة حيث يجدون كفالة لدى اصدقائهم وأقربائهم طيلة اقامتهم الدّراسيّة.

لكن منذ الاحتلال اختفت بعض المدارس والمساجد من جراء انعدام الصّيانة وبسبب تحويلها الى مصالح عموميّة. ولسوء الحظ فقد مسها الأذى العامّ الذي لحق كل شيء . وبالرّغم من أن ادارتها كانت قد أسندت الى مصلحة أملاك الدّولة فإن المصلحة الماليّة لم تكن بدورها متفهمة لحاجيات هذه المؤسسات اذ لم تبق على المساكن المجانيّة التي كانت مخصصة للأساتذة، كما لم تأبه بنقص اعتمادات التّجهيز المخصصة للمدارس بالإضافة الى ابقائها لمرتبات موظفي المساجد على حالتّها السّابقة فى الوقت الذي انخفضت فيه القيمة النّقديّة. وأمام هذا الوضع لم يعد جمعهم للوظائف يشكل امتيازات كما في السّابق، مما أدى بأولياء التّلاميذ إلى الرّفع مَنّ منح الأساتذة، إلا أن غلاء المعيشة قد أدى بمعظم العائلات إلى توجيه أبنائهم لهم نحو مهن أخرى مربحة، والكف عن استقبالاتها السّخيّة لأبناء العشائر. وهكذا تردى وضع الأساتذة نحو التّذمر والفقر، وتبعه انخفاض فى مستوى التّعليم مدة وانتظاما... وكان التّخلى عن التّعليم الثّانوي قد ادى الى نتائج أكثر انزعاجا، وهو كالتّعليم الابتدائي من حيث استفادته من عائدات الأوقاف. وكان أساتذة هذا المستوى يعينهم الدّاي باقتراح من النّاظر الذي ينتخبهم من ضمن هيئة العلماء وكان معدل المنح بالنّسبة اليهم يتراوح بين 160 و200 سنويا، بالإضافة الي حصولهم على اسكان مجانا، والاستفادة من جمعهم بين الأستاذيّة والقضاء والافتاء. مع امتيازات أخرى خاصّة تتمثل فى الزّيت والماء والتّوزيع اليومي للحلويات ابان شهر رمضان وهذا يرجع الى كون درجة أستاذ كانت محل طلب كبير واعتبار واسع.

وكانت الدّروس العليا كالتّالي:

1- النّحو: ويشمل تقريبا مجموع المعارف التي تدرس بفرنسا ضمن مادتي البلاغة والفلسفة.

2- الفقه، والمقصود به الحقوق بقسميه، الأول يتعلق بالفرائض وأحكام العبادات، إلى جانب تعاليم دينيّة أخرى، وبالتّالي يشتمل على القوانين الأساسيّة بالأشخاص وبنظام العقوبات وطرق تطبيقها.

3- التّفسير ومعناه، مختلف الشّروح القرآنيّة، وهذه الدّراسة لا تكتفي بشرح معاني الآيات، وإنما تبحث كذلك في أسباب نزولها، وفي الظّروف التي استوجبتها.

4- الحديث، أي مجموعة الأحاديث النّبويّة.

5- علما الحساب والفلك.

وتستغرق دراسة مختلف هذه المواد مدة سبع سنوات، ولا شيء يدرس بعدها في المدارس، إلا أن بعض المجتهدين ينكبون على قراءة كتب التّاريخ والجغرافيا، وكتب الطّب والفيزياء.

وكان عدد المتتبعين للدروس العليا بقسنطينة قبل الاحتلال سبعمائة، يتلقى من ضمنهم حوالي 150 طالبا، منحا، قوامها 18 ريالا (36فرنك) تشجيعا لهم ومكافأة على تفوقهم، ثم هم يختارون لتأديّة بعض الأعمال بالمسجد، والتّمتع المجاني بالسّكن، والحصول على الماء والزّيت وحلويات رمضان.

وكانت نسبة الثّلثين من طلبة الدّروس العليا من خارج قسنطينة، من أبناء العشائر القريبة منها والبعيدة، يقصدون الشّهرة العلميّة التي كانت لعلماء المدينة. أما اليوم فإن عددهم بها قليل لا يزيد عن السّتين (60)، في حين أصبح معظم الشّبان المسلمين يرتحلون إلى زوايا بلاد القبائل أو لزوايا الجنوب طلبا للعلم، بعدما ساءت حالة الأساتذة من حيث السّكن والمرتبات، وانقطاع التّبرعات، وانعدام المساعدات، وعقب تشتيت المهن والهجرة والموت لشملهم.

هذا ويجب أن أضيف لتكلمة هذا العرض عن وضع المدارس بأنه كانت توجد زاويّة انتظمت بها دروس ابتدائيّة للأولاد الفقراء، كان قد أسسها قائد الدّار السّابق المسمى رضوان، وكان المعلم بها يتقاضى دخلا قوامه 150 فرنك، علاوة على منح أخرى، أما اليوم فإن المعلم بهذه المؤسسة الخيريّة لا يجد في دخله ما يكفي حاجاته الأوليّة.

كان هذا وضع التّعليم العمومي من قبل، وهذا هو الوضع الذي آل إليه منذ الاحتلال.

حرر يوم 12 فيفري 1847.

توقيع الجنرال ألفونس بيدو

● **د. كريم ولد النّبيّة**

– مدير مخبر الجزائر– تاريخ ومجتمع/ جامعة سيدي بلعباس

المصادر

– سعد الله(أبو القاسم): تاريخ الجزائر الثّقافي، الجزء السّادس، 1830 – 1954، دار الغرب الإسلامي، الطّبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1998.

– زوزو (عبد الحميد): نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر(1830 – 1900)، م. و. ك، الجزائر، 1984.

- OULDENNEBIA (Karim): «Chrestomathie Arabed'orientalistes Françaisen Algérie – Le Casde Sylvestre De SacyetJacques Bresnier», In revue Maghrébine des études Historiques, Tunis, n°141, Avril 2011, pp 45 – 55.

https://www. aecid. es/galerias/bibliotecas/descargas/RevistasBI/revuehistoiremaghrebine141_38_2011. pdf

https://islam-akademie. de/islamwissenschaften/bibliographie-terminologie/451-antoine-isaac-silvestre-de-sacy-1758-1838-bibliographie

الزّوايا والكتاتيب ودورها في الحفاظ على اللّغة العربيّة في الجزائر

د. نسيمة لوح

لقد كانت مراكز الاشعاع العلمي والثّقافي في (الجزائر) كثيرة ومتنوعة ومنتشرة في كل ربوع هذا الوطن، فمن حلقات العلم في (المساجد) و(الكتاتيب القرآنيّة) إلى (الزّوايا) ثم (المدارس الحرة)؛ حيث كان لها دور لا يستهان به في توفير فرص التّعلّم والتّثقيف، والانكباب على حفظ القرآن الكريم، وتحصيل المعارف التي من شأنها تحصين المواطنين ضدّ سياسة المسخ والجهل التي تبنّتها قوات الاحتلال الفرنسي.

وقد كان الجو الفكري في (الجزائر) قبيل الاحتلال الفرنسي نيّرا وكان العلم منتشر الآفاق واسع الاقبال في الحواضر والبوادي وذلك بشهادة المحتلّين أنفسهم، لكنّ هذا الوضع تغيّر بدخول المحتل الفرنسي الّذي اغتصب هذه الأرض الطّاهرة وشنّ حرب إبادة لكل مقوّمات شعبها وحاول بكل السّبل طمس هويته، وتكبيل إرادته وتكميم أفواه نخبته، من خلال سنّ القوانين الجائرة، وشنّ حملات الاعتقالات، وسجن الرّموز وتخويفهم ونفيهم، وترهيب المواطنين وقمعهم.

إنّ إدراك المحتل الفرنسي لأهمّيّة اللّغة العربيّة عند الجزائريّين لارتباطها بالدّين، جعلته يشن حربا شعواء ضدّها في محاولة لشلّها وحظرها عن الاستعمال ومن ثمّ تغريب الشّعب وضربه في دينه، ونتيجة لمختلف تلك المحاولات نجح المحتل في جعل أكثر من تسعين في المئة من الشّعب الجزائري أمّيّا لكن وفي المقابل كانت جهود الأحرار من أبناء هذا الوطن تتكاتف رغم صعوبة الوضع لدحض سياسة المستدمر، والحفاظ على لغتهم التي تشبّثوا بها لتحي وتبقى، فالعقيدة الإسلاميّة جعلت الجزائري يقدّر اللّغة العربيّة على أنّها مرادف للدّين نفسه، وأنّ حفاظه عليها حفاظ على أهم مقوّم من مقوّمات شخصيته، ويعود الفضل إلى (الزّوايا) التي حافظت على بقاء العربيّة وعلومها وإن لم تساعد على تطوّرها « ولولا تلك الجهود العظيمة التي بذلتها والتي نقف أمامها موقف المعترف المعجب لما كنّا نجد السّاعة في بلادنا أثرا للعربيّة ولا لعلوم الدّين».

وقد كان للزّوايا التي تهتمّ بنشر العلم وتعليم النّاس فضل كبير في تربيّة النّاس على الارتباط بتراثهم وبلغتهم، لأنّها كانت بمثابة مراكز ثقافيّة ومعاهد تعليميّة للكبار والصّغار، وكانت ملجأ وملاذا للجزائريّين الّذين احتموا بها من خطر الابتلاع الّذي ظلّ يهدّدهم، وظلّت كثير منها صامدة في وجه الاحتلال رغم التّضييق الّذي مارسه ضدّها كما سيأتي.

1 ـ تعريف الزّاويّة:

أ ـ لغة:

(الزّاويّة) واحدة الزّوايا، وزاويّة البيت: ركنه والجمع زوايا، فالزّاويّة: هي ركن البيت ومجمع الجدران، والرّكن الّذي يقام عليه البنيان، قال (ابن فارس) : «وزاويّة البيت سمّيت لاجتماع الحائطين»، وتعني كذلك الجمع والطّي، وفي الحديث الشّريف قوله صلّ الله عليه وسلّم: «إنّ اللّه زوَى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإنّ أمّتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها....».

والزّاويّة من الفعل زوى، يقال زوى الشّيء أي جمعه وقبضه، وسمّيت بذلك لأنّها تجمع العلم والضّيوف والفقراء، وعند الصّوفيّين هي مكان التّقاء الشّريعة بالحقيقة.

وقيل أنّ الزّاويّة تعني الرّكن أو المكان المنعزل، فهي مشتقّة من الفعل انزوى، بمعنى اتّخذ ركنا من أركان المسجد للاعتكاف والتّعبّد أو آوى إليه.

أ ـ اصطلاحا:

تعرّف (الزّاويّة) على أنّها « مجموعة من الأبنيّة ذات الطّابع المعماري الإسلامي... شيّدت قبابها على أضرحة الأولياء الصّالحين أو بنيت تخليدا لذكراهم»، ويرجع سبب إطلاق اسم (الزّاويّة) إلى كونها «مشتقّة من الفعل

انزوى، بمعنى ابتعد وانعزل، وسمّيت كذلك لأنّ الّذين فكّروا في بنائها أوّل مرّة من المتصوّفة والمرابطين اختاروا الانزواء بمكانها والابتعاد عن صخب العمران وضجيجه طلبا للهدوء، الّذي يساعد على التّأمّل والرّياضة الرّوحيّة».

وقد انحصر مفهومها في العصر الحديث لتدل على أماكن التّعبّد والخلوة، فهي: «مؤسّسة تعليميّة قائمة بذاتها تستقبل الطّلبة لتعلّمهم العلوم العربيّة، بدايّة من مبادئ اللّغة العربيّة الأولى (تعليم الحروف والأصوات) إلى تحفيظ القرآن الكريم وتدريس العلوم الدّينيّة من فقه وحديث وتفسير والعلوم اللّغويّة من نحو وبلاغة وصرف، إضافة إلى ذلك توفير الإقامة والإعاشة للطّلاّب الوافدين مجّانا، كما يجد الزّوّار وعابر السّبيل الإقامة المريحة وراحة البال فيها، ...».

وقد عرّفها المستشرق (دوماس) في كتابه (منطق القبائل عام1847م) بقوله: «إنّ الزّاويّة هي على الجملة مدرسة دينيّة ودار مجّانيّة للضّيافة، تحتوي عادة على مصلّى وغرفة لتلاوة القرآن، ومدرسة لتحفيظ القرآن وتلقين علوم الدّين وقواعد اللّغة العربيّة، كما تضم غرفا ومراقد لإيواء الطّلبة وضيوف الزّاويّة والحجّاج والمسافرين ويلحق بها أيضا ضريح الولي الصّالح، ويكون هذا الولي في الغالب هو مؤسّس الزّاويّة».

وتسمّى في (المشرق) (التّكيّة) جمع تكايا وخوانق أو خانقات، أمّا في (المغرب العربي) فتسمّى (دار الكرامة) أو (دار الضّيوف)، وقد جمع تعريفها الشّيخ (باي بلعالم) في أبيات منها:

أمّا الزّوايا فهي ركن يبنى
كدير أو صومعة في المبنى
وفي شمال القارّة السّمراء
ينمى لما خصّ بالأولياء
وقيل اسم لبناء قد جمع
مدرسة وغرف لها تبّع
فيجد فيها الطّالب مثوى
وهي للضّيوف أيضا مأوى

صورة للزّاويّة الرّحمانيّة بخنقة سيدي ناجي

2 – ظهورها وانتشارها في الجزائر:

ظهرت الزّوايا في (المغرب العربي) منذ القرن السّادس الهجري (06هـ) والثّالث عشر ميلادي (13م)؛ حيث حلّت تدريجيّا محلّ الرّباط، ثمّ تطوّرت مهامها وتوسّعت على يد المرابطين وشيوخ الطّرق الصّوفيّة، وجمعت بين العبادة والتّعليم والتّوجيه والإصلاح والجهاد، في وقت واحد –كما سيأتي–.

ويرى بعض الباحثين» أنّ أقدم زاويّة تأسّست في (الجزائر) هي زاويّة (الشّيخ سعادة) بالقرب من (طولقة) في القرن (06هـ – 13م)، ثمّ انتشرت الزّوايا عبر أنحاء البلاد خاصّة خلال القرن (08هـ – 15م) والقرن (09هـ – 16م)، ويرجع سبب هذا الانتشار السّريع والواسع للزّوايا في (المغرب الإسلامي) عامّة وفي (الجزائر) خاصّة إلى تدهور الأوضاع في (الجزائر) خلال نهايّة القرن (15م) وبدايّة القرن (16م)»، بسبب الفراغ السّياسي الرّهيب الّذي كان جرّاء ضعف (الدّولة الزّيانيّة) وما ترتّب عنه من تدهور في جميع المجالات، فكثرت الصّراعات الدّاخليّة وانتشرت الفوضى، ممّا أدّ إلى « ظهور وحدات سياسيّة مستقلّة تحت حكم قبلي يتزعّمها شيوخ القبائل أو شيوخ الدّين، ففي هذه الفترة ورغم وجود دول بمنطقة (المغرب الإسلامي) إلاّ أنّها كانت دولا بالاسم فقط؛ حيث شهدت استقلال القبائل التي تصارعت فيما بينها، ولم ينج من هذه الظّاهرة إلاّ المدن وما جاورها»، وهو ما فتح المجال للقائمين على الزّوايا لسدّ هذا الفراغ نتيجة حاجة النّاس إلى من يؤطّرهم ويوجههم.

وإضافة إلى هذا الضّعف الّذي ميّز المشهد السّياسي آنذاك، تعرّضت السّواحل للتّهديدات (الإسپانيّة)، وعجز السّلطة السّياسيّة (الحفصيّة) و(الزّيانيّة) في صدّها، وهو ما أدّى بالقائمين على الزّوايا على إحياء الرّباط كرد فعل على ضياع (الأندلس) وعلى الغزو (الإسپاني) للسّواحل (الجزائريّة)، لتجمع الأربطة بهذا بين العبادة والتّعليم والجهاد؛ حيث برزت هذه الأخيرة كمؤسّسة عسكريّة ودينيّة، تأسّست بالدّرجة الأولى من أجل الدّفاع عن الحدود مع أدائها وظيفة التّعليم؛ حيث كان الطّلبة جنودا وعلماء في الوقت نفسه، وكانت أمكنة للعبادة والخلوة والزّهد، وبعد انتهاء الغزو الأجنبي تحوّل المرابطون إلى دعاة لنهضة دينيّة حديثة في شمال (أفريقيا) وتحوّل معها الرّباط إلى مؤسّسة دينيّة حقيقيّة وهي الزّوايا.

ويرجع ظهور الزّوايا بكثرة كذلك إلى وصول (الأسر المرابطيّة) إلى (الجزائر) قادمة من (المغرب الأقصى)، والتي أطلقت أسماءها على قبائل بأكملها، هذه الأسر أسّست بدورها زوايا أصبحت مراكز استقطاب القبائل في ظلّ غياب سلطة مركزيّة قويّة، وهذا من خلال الوعظ والإرشاد والتّعليم، وهو ما جعل القبائل تلتف حولها وتحمل أسماء هذه الأسر، وهو ما أدّى إلى ظهور كيانات

ومشيخات دينيّة شريفة، مثل: (مشيخة الثّعالبيّة) بمدينة (الجزائر)، و(إمارة كوكو) غرب منطقة (القبائل) ترأّسها أسرة (ابن القاضي)، و(إمارة بني عبّاس) تحت حكم أسلاف (المقرانيّين)، وغيرها من (الأسر المرابطيّة) التي عملت على كسب ثقة النّاس من خلال التّوسّط للإصلاح بين السّكّان، وجعل زواياها مركزا لبثّ العلم وتيسيرها التّعليم للجميع.

لقد عرفت (الجزائر) في العهد (العثماني) مرورا بالاحتلال الفرنسي إلى يومنا هذا، وجود العديد من الزّوايا المنتشرة في كلّ مناطق الوطن، فحسب إحصاء سنة (1871م) كان عدد الزّوايا حوالي (2000) زاويّة موزّعة على القطر (الجزائري).

وقد قام (أبو القاسم سعد الله) بإحصاء الزّوايا في كتابه (تاريخ الجزائر الثّقافي)، وكان توزيعها كالآتي:

في مدينة (الجزائر العاصمة) وضواحيها: وصل عدد الزّوايا بها إلى (22) زاويّة، أمّا (دوفو Devoulx) فقد أحصى بها سنة (1830م) اثنتي عشرة (12) زاويّة واثنان وثلاثين(32) ضريحا، وبالإضافة إلى زاويّة (سيدي عبد الرّحمان الثّعالبي) وزاويّة (الوالي دادة)، وزاويّة (سيدي عبد القادر الجيلالي)، وهناك عدد كبير منها منسوب إلى الأفراد ومنها ما هو منسوب إلى الجماعة كـ: (زاويّة الأشراف) و(زاويّة الأندلسيّين).

وفي (قسنطينة) ونواحيها: بلغ عددها (16) زاويّة، منها: زاويّة (سيدي الكتّاني)، و(سيدي المناطقي)، و(سيدي عبد المؤمن).

واشتهرت مدينة (تلمسان) بزواياها وأضرحتها، فوصل عددها إلى أكثر من (30) زاويّة، منها: (زاويّة سيدي بومدين)، و(زاويّة محمّد السّنوسي) و(زاويّة الشّيخ بن يلّس).

كما عدّت منطقة (زواوة) و(بجايّة) من أكثر مناطق (الجزائر غنى بالزّوايا؛ حيث وصل عددها بالتّقريب إلى (50) زاويّة، منها: (زاويّة سيدي راشد)، و(زاويّة محمّد التّواتي)، والتي كان يدرس بها نحو (200) طالبا والتي كانت تعدّ مركزا لتخريج القضاة والعلماء لكامل البلاد، وزاوية سيدي بهلول ب عاصم (عزازگة).

كما عرفت مدينة (وهران) وضواحيها عددا معتبرا من الزّوايا، منها: (زاويّة محمّد الهوّاري)، و(زاويّة إبراهيم التّازي)، و(زاويّة عبد القادر الشّريف)، و(زاويّة الشّيخ محمّد بن علي المجاجي)، و (زاويّة مازونة)...إلخ.

وفي (الجنوب الجزائري) بلغ عددها حوالي (18) زاويّة، منها: (زاويّة النّاصرّة) و(زاويّة الرّحمانيّة) بخنقة (سيدي ناجي)، و(زاويّة سيدي علي بن عمر) بـ(طولقة) (بسكرة)، و(زاويّة سيدي أحمد بن موسى)، و(زاويّة سيدي عبد الله بن طمطم)، و(زوايا توات) (الوزّانيّة والكرزازيّة والبكائيّة والبكريّة).

3 ــ أنواع الزّوايا :

لقد صنّف الباحثون أنواع الزّوايا في (الجزائر) حسب عدّة مؤشّرات، أهمّها:

الانتساب الّذي تنتمي إليه.

الموقع.

الوظيفة.

أ)ــ من حيث الانتساب:

تنقسم الزّوايا إلى:

أ.1 ـ (زوايا المرابطين):

فهي للطّلبة ونشر العلم واستقبال الغرباء والبؤساء والمحرومين، الّذين يبحثون عن ملجأ أو هي مكان للزّوّار الّذين يأتون لتقديم التّبرّعات والصّدقات، كما أنّ زوايا هذا النّوع ليس لها طريقة صوفيّة تتبعها ومريدين تابعين، فالمرابطون فيها يعملون دون مقابل على الرّغم من فقرهم واحتياجهم.

أ.2 – (زوايا الطّرق الصّوفيّة):

وهي قد تكون زاويّة الطّريقة الأم أو فرعا تابعا لها، وهي ملكيّة خاصّة، ونظامها يشبه النّظام الملكي الوراثي؛ حيث يكون الشّيخ هو المشرف والمسؤول المباشر في كلّ شيء، والطّريقة لها مريدون وأتباع هم الّذين يقومون بتموين الزّاويّة، وفي حالة وفاة الشّيخ فالخلافة تكون عن طريق الوصايّة التي يتركها الشّيخ أو تختاره عائلة الشّيخ وفق شروط خاصّة.

أ.3 ـ (الزّاويّة المنسوبة):

وهي زوايا منسوبة إلى شخص ميّت تقدّسه العامّة وتحيي ذكراه، وهو مدفون بالزّاويّة، وتنسب إليه، وفي هذه الحالة تأتي العامّة إلى هذه الزّاويّة زائرة وطالبة للبركة لا للعلم والإحسان، أي زيارة الأضرحة.

ب)- من حيث الموقع:

ويقسّمها المتخصّصون إلى نوعين:

ب.1 ـ (زوايا الأرياف):

« وتكون مبنيّة حول قبر مرابط غير معروف كثيرا، ويوجد القبر في مكان تقطنه إحدى القبائل، وفي هذا المكان أحفاد المرابط، وهذا المجتمع يطلق عليه زاويّة، وتكون لهذه الزّاويّة أوقاف كبيرة من أراضي وبساتين تطعم منها الفقراء والضّيوف، وحقّ الزّاويّة هو العشر (العشور)، ومن العادة أنّ القائم على الزّاويّة هو حفيد المرابط، ومن احتمى

بها فهو آمن، ومن مهامها التّعليم، ولا يقوم المرابطون ولا أحفادهم بالأعمال اليدويّة لكونهم مختصّون في التّعليم وتربيّة الأطفال».

ب.2 ـ زوايا المدن:

« فالزّاويّة عبارة عن بنايّة كبيرة لإيواء المشرّدين والطّلبة والعلماء الغرباء، وتتوفّر فيها الإضاءة والماء وقد تصبح الزّاويّة مدرسة عليا إذا تخصّص لها ولحق بها مدرّس شهير لتدريس العلوم العاليّة، وتحمل الزّاويّة اسم مؤسّسها أو الحي الموجود فيه، وأحيانا اسم المرابط التّابعة له».

جـ) أنواع الزّوايا من حيث الوظيفة أو الدّور الذي تقدّمه:

جـ.1 ـ زوايا العلم:

وتعرف بالمدارس القرآنيّة أو المدارس الفقهيّة، وهي الزّاويّة التي تأسّست لممارسة النّشاط التّعليمي، مثل الاعتناء بتحفيظ القرآن الكريم، وتعليم الطّلبة ما يلزمهم من العلوم اللّغويّة والشّرعيّة والتّاريخيّة والفلسفيّة، ونشر القيم والفضائل الإسلاميّة، يلتحق بها الطّلبة بعد اجتيازهم مرحلة الكتّاب، ومن هنا فالتّعليم بهذه الزّوايا وإن كان بسيطا مقتصرا على الدّين والأخلاق واللّغة العربيّة، فإنّ له أهمّيّة كبيرة في تكوين شخصيّة الفرد المسلم.

وكانت هذه الزّوايا بمثابة مخازن ودواوين للكتب والمخطوطات في مختلف العلوم والفنون، وذلك بفضل اهتمام شيوخها وأتباعها بالنّسخ والنّقل والتّأليف والجمع، ونشر الدّين الإسلامي في الأماكن التي يصلون إليها خاصّة الأقاليم الصّحراويّة النّائيّة.

جـ.2 ـ زوايا السّحر:

« وتتمثّل في بعض الزّوايا التي أدّت الدّور السّلبي الّذي يبدو جليّا في تلك الأعمال، التي تجري في معظمها من الرّقص وما يتبعه من التّصفيق وضرب الدّفوف واللّعب بالنّار والبدع التي أحدثتها في الدّين، وهذا النّوع من الزّوايا هو الّذي جلب إلى الزّوايا الصّالحة الأذى والتّجنّي عليها، فأصبح في ذهن الكثير من عموم الشّعب أنّ لفظة زاويّة تعني مزيجا من الرّهبانيّة ومن فلكلور، ...ومن سحر وشعوذة لا طائل من ورائها سوى شدّ الإنسان إلى الوراء».

كما قسّمت الزّوايا في (الجزائر) حسب بعض المختصّين إلى نوعين:

(زوايا حرّة) لا تنتسب إلى ولي أو طريقة صوفيّة، يدير شؤونها مجلس يتكوّن من الطّلبة.

وزوايا أخرى عكس النّوع الأوّل تخضع في تسييرها للشّيخ المؤسّس أو خلفه، كما نجد فيها النّوع الخلواتي وغير الخلواتي.

فالأوّل يدّعي شيوخها المعرفة بالأسرار الغيبيّة لهم مريدون وورد خاص بهم، ويسمّون بالطّرقيّين ويقومون بـ(الحضرة) لهم فروع في كامل أنحاء البلاد، أمّا النّوع غير الخلواتي لا يدّعي شيوخه معرفة الغيب، وهم أيضا لهم ورد خاص.

وعن الرّسالة السّاميّة للزّوايا يقول (محمد المأمون المصطفى القاسمي الحسني): «إنّ رسالة الزّوايا كما يتّضح لكل دارس نزيه رسالة شاملة شموليّة هذا الدّين، إنّها رسالة حضاريّة ارتبط بها تاريخ (الجزائر) العلمي والثّقافي في ارتباط وثيق، فلم يقتصر دورها على التّربيّة والتّعليم، بل كانت وظائفها أشمل وأعمالها أعمّ وأوسع، فهي معقل تربيّة وجهاد، ومعهد علم وعمل، وموطن تلاوة وذكر ومجلس إصلاح وقضاء، ومكان رأي ومشورة وملتقى تعاون وتضامن وتكافل».

صورة لزاويّة الهامل

4 ـ طرق التّعليم في الزّوايا:

لا تختلف طرق التّعليم في الزّوايا من زاويّة إلى أخرى عموما؛ حيث تقوم الزّوايا عادة بتحفيظ القرآن الكريم، وهو المادّة الواجبة في المنهاج التّعليمي، كما تدرّس مواد مختلفة كالحديث والفقه ويقتصر الأمر على الفقه المالكي، بالإضافة إلى اللّغة العربيّة وعلوم القرآن والحديث، ولطلبة الزّاويّة نظام داخلي يحكمهم يسمّى (السّفارة)، ويخضع الطّلبة في هذا النّظام إلى ترتيب حسب حفظهم، فالأوائل المقدّمون هم حفظة القرآن الكريم، يليهم المعيدون وهم الذين لم يحفظوا القرآن بعد، ثمّ المبتدؤون.

أمّا بالنّسبة لدروس الفقه، فترتيب طلبة العلم في حلقة الدّرس لا يتمّ إلاّ بعد حفظ القرآن الكريم إلى جانب قدر كبير من المتون العلميّة والنّحو والصّرف، ثمّ يلتحق بعد ذلك الطّلبة بحلقة العلم لفهم وإدراك ما حفظوه.

وفي تلك الحلقات يتدارس الطّلبة (متن الشّاطبيّة في علوم القرآن) وكتاب (مورد الضّمآن في رسم القرآن)

لـ(محمّد بن محمّد الأموي الشّريشي الخرّاز)، وكتاب (فتح المنّان المؤدي لمورد الضّمآن) لـ(عبد الواحد بن أحمد بن عاشر الأنصاري الأندلسي الفاسي)، أمّا في الفقه فيأخذون كتاب (المرشد المعين إلى الضّروري من علوم الدّين) المعروف بـ(متن ابن عاشر في الفقه المالكي)، ثمّ يقرؤون شرحه المسمّى (ميّارة الصّغرى)، ويدرسون (رسالة مختصرة في التّوحيد) لـ(محمّد بن يوسف السّنوسي التّلمساني)، و(رسالة ابن أبي زيد عبد الرّحمن القيرواني)، ويتدارسون في اللّغة (متن الأجروميّة) التي تعرف بـ(المقدّمة في اللّغة العربيّة)، وكتاب (مرّاح الأرواح) لـ(حسام الدّين) في الصّرف، وكتاب (قطر النّدى وبلّ الصّدى في قواعد اللّغة) أيضا، كما يحفظون (جوهرة التّوحيد) لـ(إبراهيم اللّقاني)، ويحفظون إلى جانب ذلك المعلّقات ومتون أخرى في الشّعر.

وبعد الوصول إلى هذه المرحلة، يدخل الطّلبة في مرحلة أعلى من الدّراسة؛ حيث يتفقّهون أكثر في الدّين، وفي الحديث، والقرآن، والفقه، واللّغة، ويحصلون على إجازة من شيوخهم في كلّ علم على حدّة.

ويتّبع علماء ومشايخ الزّوايا الطّريقة التّقليديّة في تعليم الدّروس والمحاضرات للطّلبة، وهي طريقة الحوار والمناظرة، وهي طريقة تساعد الطّلبة على تكوين الملكة العلميّة واكتسابها، ويشير (تركي رابح) إلى هذه الطّريقة قائلا: «تسود في الزّوايا والمساجد طريقة الحفظ والتّلقين، ....، فالمعلّم هو الّذي يشرح وهو الّذي يحلّل ما يحتاج إلى تحليل والمتعلّمون عليهم أن يتقبّلوا ما يقوله المعلّم في معظم الأوقات»، ويتمّ ذلك في حلقة حيث يجتمع الطّلبة حول أستاذهم الّذي يعالج فيها قضيّة من القضايا اللّغويّة نحوا كان أو بلاغة أو غيرها من العلوم، ثمّ يشرحها ويبسط القول فيها مستعملا الشّفاهة والاستدلال بالكتاب إن احتاجت الضّرورة لذلك، وبعدما ينتهي الشّيخ من درسه يتولّى الطّلبة الأمر وذلك بأن يقوم واحد منهم بإعادة الشّرح ومراجعته لزملائه، وغالبا ما يكون الأقدر فيهم ويسمّونه (المعيد للدّرس)، وذلك حتّى يستفيدوا مرّة ثانيّة، وتكون حينئذ الفائدة أعمّ نتيجة التّكرار بإعادة المعلومات التي أبداها الشّيخ شفاهة وكرّرها الطّالب على أسماع زملائه، ثمّ يفتح الشّيخ النّقاش بينه وبين طلبته، وفي الأخير يطرح الشّيخ قضيّة عولجت في المحاضرة ليعرف مستوى الطّلبة وقدراتهم ودرجة استيعابهم للمسائل المعالجة، وهنا تظهر براعة الطّلبة وقدرة إبداعهم الفكري، وهذه الطّريقة التّعليميّة أرساها (أبو عبد اللّه الشّريف التّلمساني) في القرن (14م) ليتوارثها العلماء بعده جيلا بعد جيل، وتتمّ بقيّة المحاضرات بنفس الشّكل، وتستخدم هذه الطّريقة في تعليم الطّلبة الّذين يميّزون بين الكتابة والقراءة، بينما التّلاميذ الصّغار الّذين لا عهد لهم بالحروف العربيّة فيبدأ تعليمهم هذه الحروف كتابة وتهجئة وتكون هذه الطّريقة في (كتابة الحروف على لوح من الصّفيح أو الخشب في شكل مجموعات أو العودة لها في كتاب مبادئ القراءة مشيرا إليها حرفا وناطقا بأسمائها، والطّلبة يردّدون حتّى يحفظونها، وهكذا تسير بقيّة المجموعات، وقد يستعين على الحفظ بالتّلحين، مثل: الألف لا شيء عليها، والباء نقطة من تحتها، فإذا حفظت أشكال الحروف وأسماؤها من قِبل الطّلبة، انتقل المعلّم إلى تعليم أصواتها بالحركات الثّلاث (بَ، بِ، بُ)، ثمّ ينتقل إلى تعليم مقاطع تنتهي بحرف من حروف المد، مثل: (بَا، بُو، بِي)، ثمّ ينتقل المعلّم بطلاّبه إلى قراءة الكلمات، ثمّ إلى قراءة الجمل، وبذلك يكون الجزء الأكبر من تعليم القراءة قد انتهى ولم يبق إلاّ التّدريب والتّمرين على قراءة قطع أكبر، وكان تعليم الكتابة يسير جنبا إلى جنب مع تعليم القراءة»، ثمّ تأتي مرحلة تعليمهم القرآن الكريم ومختلف العلوم العربيّة.

ولا تلتزم الزّاويّة ببرنامج تعليمي متخصّص مثل المدارس النّظاميّة، إنّما تعتمد على أسلوب تنوّع العلوم ما بين العقليّة والنّقليّة، ما عدا تعليم الفقه المالكي باعتباره المذهب الرّسمي في (الجزائر)، وقد أخذت هذه العلوم الشّرعيّة، وعلوم اللّغة العربيّة النّصيب الأوفر من البرامج التّعليميّة.

ولقد انبرى عدد من العلماء لخدمة اللّغة العربيّة وعلومها، نظرا لحاجتهم إليها في علومهم الأخرى التي اشتغلوا بها كالتّفسير والفتوى وغيرها؛ حيث أنّ بعضهم جعل من النّحو يحتل الصّدارة في عمليّته التّدريسيّة كالشّيخ (أبي الأنوار) والشّيخ (محمّد بن عبد الرّحمن بن عمر) الّذي تميّز بالفصاحة ممّا جعله يتربّع للدّرس اللّغوي في (زاويّة تينيلان) بمنطقة (توات)، واعتمد العلماء المدرّسون على المنظومات التّعليميّة -كما رأينا- لسهولة حفظها ومن المنظومات التّعليميّة المتداولة، (ملحة الإعراب) (للحريري)، و(متن المرشد المعين) لـ(عبد الواحد ابن عاشر)، و(ألفيّة ابن مالك)، وكذلك (لاميّة ابن الوردي) المعروفة بـ(هديّة الألباب في جواهر الآداب).

وفي آخر مرحلة من التّعليم في الزّاويّة يحصل الطّالب على الإجازة، بحيث يجيز شيخ الزّاويّة النّاجحين من الطّلبة المتفوّقين ويكرّمهم، وتدل الإجازة العلميّة حمل صاحبها كتاب الله، في علم من العلوم العقليّة والنّقليّة ومختلف العلوم العربيّة، والتي تجعل منه إماما أو خطيبا أو مدرّسا في المدارس القرآنيّة.

والإجازة في اللّغة هي الإذن، وهي مصطلح علمي ابتكره علماء الإسلام في بدايّة عصور الرّوايّة، كان يهدف إلى توثيق العلوم، يحصل الباحث من خلال الإجازة على حقّ الرّوايّة، أي الإذن في الرّوايّة وبذلك يمكنه المشاركة في السّاحة العلميّة، وتكون الإجازة بإذن الشّيخ لتلميذه بروايّة مسموعاته أو مؤلّفاته ولو لم يسمعها منه، ولو لم يقرأها عليه، وذلك بقوله أجزت لك أن تروي عنّي كتابي هذا أو كتاب فلان الّذي حدّثني به، أو ما صحّ عندك من مسموعاتي.

وعندما يجيز الشّيخ الطّالب في علم أو مجموعة من العلوم أخذها عنه يذكر سنده في تلك العلوم، مبيّنا الشّيوخ الّذين أخذ عنهم، متسلسلين إلى مصدرها الأوّل، فقد كان ذكر السّند من علامات الثّقة، لذا أصبح العديد من طلبة العلم يقطعون الفيافي ويبذلون الغالي والرّخيص من أجل الحصول على إجازة من عالم مشهود له، وقد يرتحل الطّالب خارج الوطن طلبا لها، ولا يقتصر طلب الإجازة من شيخ واحد، فقد كانت إجازتهم تتعدّد تعدّد العلوم أو الكتب التي درسوها أو المشايخ الّذين أخذوا عنهم، وكان حرصهم على إثبات سند ما تعلّموه طلبهم الإجازة فيه مهما كثر عدد الشّيوخ الّذين أخذوا عنهم، وكثيرا ما كانت رحلة الحجّ طريقا للحصول على الإجازات، فقد جعل بعض طلبة العلم من رحلات الحجّ فرصة يتحيّنونها للالتّقاء بالعلماء والاستفادة من علومهم، والحصول على الإجازات منهم.

لقد جمعت الزّاويّة في تعليمها بين التّربيّة الرّوحيّة والعسكريّة كونها مبنيّة على نشر الدّعوة الصّوفيّة والتّهيّئ للجهاد، فهي بديل متطوّر للرّباط.

صورة لطريقة حفظ القرآن الكريم على الألواح

5 – تعريف الكُتّاب:

المكتَبُ : موضع الكتّاب، والمكتب والكتّاب: موضع تعليم الكتّاب، والجمع: الكتاتيب والمكاتب، قال (المبرّد): المكتب موضع التّعليم، والمكتب المعلّم، والكتّاب الصّبيان، قال ومن جعل الموضع الكُتَّابَ، فقد أخطأ.

«فالكُتّاب: جمع كاتب وهو من صِيغ المبالغة المسموعة، وهو أبلغ من فُعَال، رجل كاتب والجمع كُتَّاب وكتبة، فعّالٌ: جمعُ فاعِل لمحترفٍ عملا دائما.. فالكُتّابُ: اسم جمع للصّبيان الّذين يتعلّمون الكتابة والقراءة، وأطلق على الموضع تجوزا، ولهذا يرى المبرد: من الخطأ أن يطلق لفظ الكتاب على الموضع الّذي يتعلّم فيه، كما تقدّم، ولكن الاستعمال غلب بهذا الشّكل لأنّهم يطلقونه على مكان التّعليم القرآني».

والكتّاب كما عرّفه (أحمد الأزرق): «ذلك المكان الّذي يتلقّى فيه التّلميذ دروسه الأولى وتربيته الأساسيّة على يد الشّيخ»، « فالكتّاب عبارة عن مكان مستقل، أو غرفة في منزل أو حجرة مجاورة للمسجد أو ملحقة أو خيمة من جملة خيام الحي في الباديّة (خيمة مؤدِّبٍ)»، يقوم ببنائها الخواص في أغلب الأحيان لبساطتها، أو يقوم بعض المعلّمين باستئجار بيوت تتّخذ مكانا للتّعليم أو تقوم جماعة من النّاس ببناء منازل أو غرف قرب المسجد احتسابا لله، ولا تكاد تخلو قريّة أو قصر من الكتّاب، إذ هو بمثابة المرفق العمومي يلتحق به الصّبي منذ بلوغه سن الرّابعة أو الخامسة من عمره، وقد أطلق عليها عدّة تسميّات في(الجزائر)، منها: كتّاب، وامْسيد، والجامع والشّريعة، والمَعَيْمِرَة، وتمعمِيرت، والمحْضَرَة، وأقربيش.

صورة للكتّاب

6 – وظيفة الكتّاب:

ويرتبط الكتّاب بالمسجد عموما، فهي بمثابة مؤسّسات تعليميّة صغيرة انشقّت عن المؤسّسة الأم المسجد، وقد كانت بمثابة مرحلة التّعليم الأولى أو المدرسة الابتدائيّة في عصرنا الحاضر، ووظيفتها تحفيظ القرآن الكريم للأطفال وترتيله لهم، ولقد دعت الحاجة لتأسيسها من أجل « تجنيب المساجد أوساخ الأطفال وضوضائهم والاحتفاظ بنقاوتها وطهارتها، ووقارها، وهذه الكتاتيب أحيانا بيوت منفردة وأحيانا مجموعات من البيوت، وقد تكثّفت في عهد الاستعمار الفرنسي خلال القرنين التّاسع عشر والعشرين الميلاديين، كأسلوب لمواجهة سياسة التّنصير والتّمسيح والفرنسة وحمايّة الشّخصيّة

الجزائريّة، ومقاومة سياسة التّجهيل الفرنسيّة».

وكانت هذه المؤسّسة التّعليميّة منتشرة في كامل البلاد، الأمر الّذي أدهش الفرنسيّين عند احتلالهم (للجزائر)، إذ كتب (الجنرال دوماس) (Daumas) في تقرير له: «أنّ التّعليم الابتدائي في الجزائر كان منتشرا .... فاتّصالاتنا بالأهالي في الأقاليم الثّلاثة أظهرت أنّ نصف السّكان من الذّكور يعرفون القراءة والكتابة، كما علّقت على ذلك الباحثة (إيفون توران) (Yvonne Turin) صاحبة كتاب (مجابهات ثقافيّة بقولها): «إن لم يكن كل الأطفال قد تعلّموا القراءة والكتابة، فإنّهم جميعا قد مرّوا بالمدرسة الابتدائيّة (الكُتّاب) وكانوا يستطيعون قراءة القرآن في صلواتهم.»

وقد خُصِّص الكتّاب لحفظ القرآن وتعليم القراءة والكتابة وبعض مبادئ الحساب، وكان عدد المتمدرسين في الكتّاب الواحد بين خمسة عشر (15) وعشرين (20) صبيّا، يقضون في الكتّاب ثلاثة أو أربعة أعوام، والّذين يرغبون في مواصلة الدّراسة يمكثون به سنين أخرى لحفظ القرآن عن ظهر قلب أو يلتحقون بالمدرسة، أين يتلقّون تعليمهم في الفقه والتّوحيد والنّحو على يد العلماء من أئمة ومفتيين وقضاة هذا في الحواضر، أمّا بالرّيف فيلتحقون غالبا بالزّوايا لإكمال دراستهم الثّانويّة.

ولا يقتصر دور الكتّاب على تعليم الصّبي فقط، بل تربيته وضبط سلوكياته من خلال غرس القيم النّبيلة التي هي من أبرز سمات الكتّاب، وأهمّها:

الرّوح الجماعيّة: باعتبار أنّ الكتاتيب توفّر لطلبتها العمل في جماعات، أو محاكاة عمل الجماعة وذلك بوجود التّفاعل بين الأفراد وتوفّر أهدافا مشتركة.

الاشتراك: يبرز في وجود قاسم مشترك بين أعضاء هذه المدارس، ووجود تجانس نفسي يمكّنهم من التّفاهم والتّقارب واحترام بعضهم البعض.

التّنافس: نظرا لكون هذه الكتاتيب تسعى لتحفيظ طلّابها القرآن الكريم فمن الطّبيعي أن يوجد تنافس يؤدّي إلى المثابرة والجدّ من قبلهم، وهذا راجع للمكانة التي يحظى بها حافظ كتاب الله في المجتمع من خلال إقامة حفلات خاصّة به وكذلك الولائم فرحا به، ممّا يجلب فخرا لدى الأولياء.

فالكتاتيب توفّر تعليما قاعديّا للمبتدئين، لذا كانت هذه المرحلة ضروريّة لكلّ طالب، لأنّه بدونها لا يتأهّل لمزاولة الدّراسة في بقيّة المراحل، إلاّ أنّها ورغم تاريخها الطّويل فإنّها لم تشهد تطوّرات ملموسة من حيث بنيتها التّحتيّة.

7 ـ طريقة التّعليم في الكتاتيب:

لقد كانت الكتاتيب رمز استمرار التّعليم القرآني، فكان الطّلبة يتعلّمون حفظ القرآن، والكتابة، والرّسم القرآني، وكذلك التّربيّة الدّينيّة، وحفظ الأحاديث، وأداء الصّلوات، وحسن الأخلاق، وكانت الوسائل المستعملة تقليديّة تتمثّل في لوح ودواة (السّمغ من صوف الغنم) وقلم القصب، والطّين والصّلصال، وكان الطّالب (معلّم القرآن) يعتمد « التّعليم الشّفوي بقراءة القرآن وتكراره من قبل التّلاميذ بدايّة من تعليم الحروف وتلقينها وتدريبهم على التّهجّي ونطق الصّوائت من النّصب إلى الضّم إلى الخفض والسّكون، ثمّ مرحلة التّحنيش، تشريط اللّوح بمؤخّر قلم القصب أو قلم الرّصاص، والصّبي يتبع ذلك بالصّمغ، ثمّ تدريبه على قراءة ما كتب ويبدأ بحفظ السّور القصار الفاتحة والمعوذتين والإخلاص...، فإذا تدرّب على الكتابة والحفظ يبدأ يملي عليه الشّيخ وهو يكتب مقدارا (خروبة) وهي أقلّ من الثّمن فإذا تمرّن أكثر كتب ثمنا ثمّ ربعا ثمّ نصفا حتّى يختم القرآن –السّلكة– وتكرّر السّلكة والختمات حتّى يحفظ القرآن جيّدا»، وطريقة الحفظ تكون بعد إملاء الشّيخ وكتابة اللّوح، فيشرع الطّالب في الحفظ بصوت مرتفع ويصحّح له الشّيخ اللّوحة ويقرأها معه، ويقرأها مع زملائه الطّلبة حتّى يحفظها، وبعد حفظ القرآن الكريم كلّه يأتي الختم والاحتفال به في المنازل، وأخيرا التّخرّج كطالب والقرآن في الصّدر.

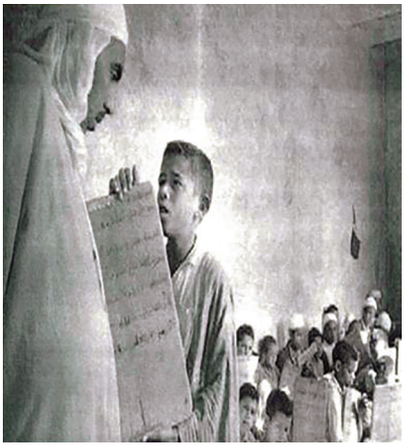

صورة لطريقة تحفيظ القرآن الكريم للصّبيان

صورة كتابة القرآن الكريم على اللّوح باستعمال دواة (السّمق من صوف الغنم) وقلم القصب

صورة للوسائل المستعملة في كتابة القرآن الكريم

(اللّوح، الدّواة (السّمغ من صوف الغنم) وقلم القصب

وقد وصف أحد الفرنسيّين (بولسكي) طريقة التّعليم داخل الكتاتيب قائلا: «إنّ حصّة الحفظ تجري في مدرسة (مكتب) صغير مفتوح عادة على الشّارع، وكلّ المارّة يشاهدون ما يجري، الأرض مغطّاة بالحصير، والتّلاميذ يجلسون عليها حفاة متربّعين، ويقف المؤدّب وسطهم بعصا في يده، وللتّلاميذ ألواح خشبيّة يكتبون عليها بأقلام مبراة من القصب، وهم يكتبون من إملاء المؤدّب، وبعد أن يطّلع المؤدّب على ما كتبوا يقرأون جميعا بصوت عال، إنّ هناك الكثير من الضّجيج في هذه المكاتب، وقلّما يفقد المؤدّب صبره، وله شخصيّة مهابة، والتّلاميذ غالبا ما يظهرون الحماس والاهتمام، ثمّ أنّ الصّياح والقراءة العاليّة تشغل التّلاميذ عمّا يجري في الشّارع وعن الزّوّار، إنّ هناك علاقة متينة وثقة متبادلة بين المؤدّب والتّلاميذ... وعلاقة الود والاحترام بين المؤدب والتّلميذ تستمر مدى الحياة ولا تنتهي بالخروج من المدرسة».

صورة لتعليم الصّبيان المبتدئين عن طريق التّلقين

8 – الدّعوة إلى إصلاح طرق التّعليم في الكتاتيب:

لقد انتقد (أبو يعلى الزّواوي) طريقة التّعليم في الكتاتيب وخاصّة اعتمادها على تعليم التّلاميذ من كلّ الأعمار معا، واقترح منهجا آخر في التّدريس، فيقول: «أرى أن يجعل الأولاد المتعلّمون طبقات على حسب الأسنان والإدراك، أي قسما قسما ويكون تعلّم الصّغار من سبعة أعوام إلى اثنتي عشرة سنة مقتصرا على قراءة القرآن بالإملاء والكتابة على قاعدتنا في الألواح من خشب أو قصدير، وكذلك العنايّة بالحفظ وصناعته لأنّه معراج وسلم إلى الأدب واللّغة العربيّة، فيتمادون إلى حدّ البلوغ مع قواعد عربيّة ومسائل صرفيّة إلى دراسة الفقه والتّوحيد والتّفسير، والتّاريخ العامّ، وسيرة النّبي ﷺ وأصحابه، والجغرافيا، والإنشاء، والحساب، والفرائض، والمعاني، والبيان والمنطق، إلى أن يبلغوا ثمانيّة عشر عاما من أعمارهم، فيزيدون سنة أو سنتين في الأصول والعلوم العاليّة ودراسة السّياسة العامّة الدّوليّة، فيمتحنون أثناء ذلك ويتخرّج منهم أفراد يتولّون الوظائف الدّينيّة وغيرها».

9 – الزّوايا والكتاتيب قبيل الاحتلال الفرنسي ودورها في تعليم العربيّة ونشرها:

لقد أخذت الزّوايا على عاتقها تعليم النّاس ونشر الوعي الدّيني بينهم في ظلّ غياب السّلطة، التي لم تهتم بالتّعليم والتّوجيه خاصّة في الرّيف، فعمل القائمون على الزّوايا خاصّة المرابطون على ملء الفراغ السّياسي والثّقافي في المجتمع الّذي عاش في عزلة عن الحكومة التّركيّة، وذلك بعد تحوّل زوايا المرابطين الجهاديّة إلى مراكز للتّعليم؛ حيث كانت المباني جاهزة ولم تتطلّب حركة التّعليم سوى جلب الطّلبة إليها، وكانت تقدّم لهم تعليما في العلوم الدّينيّة، واللّغويّة، وتحفيظ القرآن، والحساب.

لذا أصبحت هذه الزّوايا مقصدا للعديد من الطّلبة «فـ(زاويّة سيدي التّواتي) بـ(بجايّة) كان يدرس بها نحو (200) طالب، وهي تعد مركزا لتخريج القضاة والعلماء لكامل البلاد»، في حين (زاويّة جماعة السّحاريج) ببلاد (القبائل) والتي لا زالتّ قائمة إلى يومنا هذا كان يدرس بها (500) طالب وتقوم بالإنفاق عليهم كلّهم، و(زاويّة نقاوس) كانت تنفق على (200) طالب، أمّا (زاويّة سيدي منصور) فقد كان يقصدها من(100) إلى(150) طالبا، في حين (زاويّة سيدي عبد الرّحمن اليلولي)، والتي تميّزت بمستوى تعليمي عال كان يدرس بها(125) طالبا ويدرّس بها (25) مدرّسا، أمّا (زاويّة أسرة المجاجي) (أبهول) بـ(تنس) كان يقيم بها نحو(300)طالب يدرسون مختلف العلوم الدّينيّة من فقه وحديث وتفسير وعلوم اللّغة».

« وكانت الزّوايا المشهورة خاصّة ذات التّعليم العالي تستقطب الطّلبة لاستكمال دراستهم العليا، من كلّ أنحاء الوطن وحتّى من (تونس) و(طرابلس) و(مصر) و(المغرب) مقابل (4) بوجو ونصف طول فترة مكوثهم بها «.

كما أنّ بعض هذه الزّوايا اتّبعت طريقة البعثات العلميّة مثلها مثل المعاهد العلميّة الحاليّة، فقد كانت بعد مرحلة من التّعليم ترسل طلبتها إلى (جامع الزّيتونة) بـ(تونس) أو (جامع القرويّين) بـ(فاس) (المغرب)، أو (جامع الأزهر) بـ(القاهرة) (مصر)، وبعد إتمام الدّراسة يعودون إلى التّدريس بالزّاويّة الأم أو زوايا أخرى أو مساجد بالوطن.

فهذه الزّوايا كانت الإطار العامّ للحياة الثّقافيّة في الرّيف؛ حيث فتحت أبواب العلم والمعرفة للطّلبة وأنفقت عليهم بسخاء، فأصبح التّعليم الابتدائي بصفة خاصّة منتشرا في كلّ دوّار أو قريّة، وفي هذه الزّوايا كان الطّالب يستفيد من المبيت طوال فترة دراسته.

وبفضل الزّوايا التي كانت بالأرياف والمدن، انتشرت المعارف والثّقافة الدّينيّة وساعدت في الحدّ من الأمّيّة، وأسهمت في تخريج عدد من الكتّاب والفقهاء، كما أنّ أغلب علماء (الجزائر) في العهد (العثماني) كانوا من خرّيجي الزّوايا، أمثال: (سعيد قدورة)، و(أبو راس المعسكري النّاصري) و(الأمير عبد القادر) و(محمّد بن علي السّنوسي)، ... وغيرهم.

كما كانت الزّوايا مخازن للكتب والمخطوطات في مختلف العلوم، وهذا راجع لاهتمام شيوخها وطلّابها بالتّعلّم ونسخ الكتب ونقلها، وجمعها وشرائها، لكن الكثير منها ضاع أو سُرّب إلى (أوروبا) بعد الاحتلال الفرنسي (للجزائر)، لذلك نجد أنفس المخطوطات العربيّة موجودة بالمكتبات الأوروبيّة.

وبالإضافة إلى هذا الدّور الدّاخلي الّذي كانت تقوم به الزّوايا، فنستطيع القول أنّه كان لها دور خارجي، متمثّل في نشر الإسلام والعربيّة في (أفريقيا)؛ حيث ظهر شيوخها كدعاة وحاملي رسالة الإسلام إلى قلب (الغابات الاستوائيّة) لـ(أفريقيا) (جنوب الصّحراء كتمبكتو)، و(السّودان الشّرقي والغربي) و(السّينغال) و(النّيجر) و(الغابون)، خاصّة (الطّريقة التيجانيّة) التي عملت على نشر الإسلام في هذه المناطق النّائيّة التي لم يصل إليها في العهود السّابقة، انطلاقا من القوافل التّجاريّة، أمّا (الطّريقة القادريّة) فقد وصلت هي الأخرى حتّى (غرب أفريقيا السّوداء) عن طريق القوافل التّجاريّة الصّحراويّة، المنطلقة من مدن الشّمال (الأفريقي)، والتي كانت تضمّ دعاة ووعاظا وعلماء تصوّف عملوا على نشر الإسلام ومحاربة الوثنيّة.

وبهذا فالزّوايا والكتاتيب إضافة إلى بقيّة المؤسّسات التّعليميّة الأخرى من مساجد ومدارس، ومن خلال نشرها للمعارف والثّقافة الدّينيّة أسهمت في الحدّ من ظاهرة الأمّيّة كما أسلفنا، وهو ما جعل الفرنسيّين يجمعون عند احتلالهم (للجزائر) على انتشار التّعليم بها خاصّة التّعليم الابتدائي.

صورة لطريقة تحفيظ القرآن الكريم بمعيّة الشّيخ ـ

و«كل الّذين درسوا موضوع التّعليم في (الجزائر) غداة الاحتلال اندهشوا من كثرة المدارس وحرّيّة التّعليم وكثرة المتعلّمين ووفرة الوسائل من أجل التّعلم، كالمداخيل الوقفيّة، ومحلّات الأوقاف والأجور العاليّة، وفي المدن كما في الأرياف كان التّعليم جزءا أساسيّا من حياة النّاس، وكان المعلّم والمتعلّم موضع تقدير الجميع، وحبّ العلم كان جزءا من العبادة، كما اندهش أولئك من وفرة المدارس التي كانت تزيد ربمّا عن نسبة السّكّان، وكان التّعليم حرّا وخاصّا ويكاد يكون مجّانيّا وإجباريّا قبل أن تشرعه (فرنسا) لأبنائها بعد(1873م)، فالسّيد والمسود والحاكم والمحكوم كلّهم سواسية في البذل من أجل تعليم أبنائهم في ديموقراطيّة متناهيّة، إذ يلتقي أولاد الأغنياء وأولاد الفقراء على صعيد واحد ويتلقّون نفس البرنامج على يد نفس المعلّم، وبنفس اللّغة والرّوح، وربما وظّف الأغنياء معلّمين (مؤدّبين) خاصّين لأبنائهم».

لذلك عرفت (الجزائر) جوّا فكريّا نيّرا وثقافة مزدهرة قبل سنة (1830م)؛ حيث كان العلم منتشر الآفاق واسع الإقبال كما يصف ذلك الرّحّالة الألماني (فيلهم سيمبر) (1804م-1878م) حين مرّ بـ(الجزائر): «لقد بحثت قصدا عن عربي واحد في (الجزائر) يجهل القراءة والكتابة غير أنّي لم أعثر عليه، في حين وجدت ذلك في بلدان (جنوب أوروبا)».

ويضيف (أوجن لومب) : «ممّا لا شكّ فيه أنّ التّعليم في (الجزائر) خلال عام (1830م) كان أكثر انتشارا وأحسن حالا ممّا هو عليه الآن، فقد كان هناك أكثر من ألفي مدرسة تعليم بدرجاته المختلفة فضلا عن مئات المساجد»، وهو نفس ما وقف عليه النّائب الفرنسي (ألكسي طوكفيل) في تقريره إلى (الجمعيّة الوطنيّة الفرنسيّة) سنة (1846م) يقول: «إنّ المجتمع الجزائري لم يكن غير متمدّن بل ما كانت مدنيّته إلاّ متأخّرة وناقصة ... وكان يحتوي على عدد كبير من المؤسّسات الدّينيّة، مهمّتها البرّ والإحسان ونشر التّعليم في جميع أنحاء (الجزائر)، وقد استحوذنا على مداخيلها وحرّفنا أهدافها وقضينا على الجمعيّات الخيريّة، وخرّبنا المدارس، فهدّت دعائم العرفان وشتّتنا شمل الزّوايا – ثمّ أضاف – لقد انطفأت في (الجزائر) مشاعل العلم، وأهملنا العلماء والفقهاء المسلمين فصاروا قوما بورا وقذفنا بهم في البؤس والجوع فأصبحوا ينادون ويلا وثبورا، ثمّ رمينا بهم في حالة أكثر همجيّة ممّا كانوا عليه فسخطوا علينا سخطا كبيرا».

10 – دور الزّوايا والكتاتيب إبّان الاحتلال الفرنسي في المحافظة على اللّغة العربيّة ونشرها:

لقد وصلت نسبة الأميّة في فجر الاستقلال إلى (89٪)، نتيجة القوانين

التي سنّها الاستعمار الاستيطاني في حظر ومنع استعمال اللّغة العربيّة واعتبارها لغة أجنبيّة في الإدارة وكل المعاملات الرّسميّة وتضييق الخناق على مستعمليها، وتشجيع العامّيّة على حسابها وذلك بعد صدور (قرار 1938) الّذي عرف باسم (قرار شوطان)، نسبة إلى واضعه وهو وزير داخليّة فرنسا في ذلك الوقت، وقد نصّ القرار على اعتبار اللّغة العربيّة لغة أجنبيّة ولا يجوز تعليمها في مدارس التّعليم، سواء كانت حكوميّة أم شعبيّة إلاّ على هذا الأساس (أي أنّها أجنبيّة)، وقد اعتبر القرار تعليم اللّغة العربيّة ونشرها بين الجزائريّين محاولة عدائيّة لصبغ (الجزائر) بالصّبغة العربيّة، كما أهن انتشار بعض الجرائد الموالية للاستعمار كـ(جريدة المبشّر) (1847م–1927م) في تكسير اللّغة العربيّة وشلّها عن التّداول، ويصف (محمّد فريد المصري) هذا الوضع في تعليق له بعد عودته من زيارته الاستطلاعيّة (للجزائر) عام(1901م) يقول: «إنّ الأهالي هناك يعاملون بقوانين مخصوصة غايّة في الشّدّة والصّرامة، فهم محرومون من حرّيّة الكتابة وحرّيّة الاجتماع وحرّيّة السّفر، وقد منعت عنهم الجرائد العربيّة، لم أجد في جميع مدينة (الجزائر) نسخا من (اللّواء) ولا (المؤيّد) ولا تصل هذه الجرائد إلاّ إلى إدارة (المبشر) الحكوميّة مبادلة، وهناك تحفظ في حرز مكين، حتّى لا تخرج بعض أعدادها من الإدارة فتصل أخبار الإسلام والمسلمين إلى إخوانهم الجزائريّين، إلى أن يقول: ولمّا أرسلت إليّ الجرائد العربيّة أثناء إقامتي في الجزائر حجزتها إدارة بوسطة».

لقد سخرّت (فرنسا) (ضبّاطا) مثقّفين لمواجهة الصّمود الثّقافي بـ(الجزائر)؛ حيث قام هؤلاء بدراسات عميقة حول دور الزّوايا ومختلف المراكز التّعليميّة، وفي هذا الإطار نستشهد بـ(الضّابط) (Louis Rinn) فقد كان قائد فيلق للمشاة، ورئيس المصلحة المركزيّة للشّؤون الأهليّة في الولايّة العامّة وقد تفطّن هو الآخر للخطر الّذي تشكّله الزّوايا على مشاريع الاحتلال، خصوصا مع وجود مثل (الأمير عبد اقادر) الّذي جمع بين فروسيّة الحرب وفروسيّة العقيدة واستنارة المثقّف المتفتّح، لذلك وضع دراسة ضخمة بعنوان (Marabouts et Khouan) وعنوان فرعي (Etude sur L'ISLAM en Algerie) يشتمل الكتاب على خمسمائة وخمسين (550)صفحة، مع خرائط تبيّن مواقع الزّوايا، نستطيع أن نتبيّن الهدف من هذا الكتاب بقوله: «إنّ فرنسا بوصفها أمّة ذات سيادة، مسيطرة على شعوب إسلاميّة ومجاورة لها، تفرض مصلحتها السّياسيّة أن تعرف عدد الطّرق الدّينيّة، ومذاهبها واتّجاهاتها، ومراكز دعاياتها ومجالات نشاطها وأساليب بحثها عن الأتباع، وكيفيات تنظيمها إلخ»، وطبع هذا الكتاب بمدينة (الجزائر) عام(1884م).

ويمكن أن نضيف لهذه النّوعيّة من (الضّبّاط) المنظرين (Brosseelard) الّذي وضع عام (1862م) كتابا بعنوان (Les Khouans)، كما أنّ (هانو تو) وهو مسؤول عسكري وضع بمعيّة (Letourueux) كتابا بعنوان (La Kabylie et Les Coutumes Kabyles)، الّذي تعرّض فيه للزّوايا طبع في باريس عام1873م.

لقد أدرك المحتل الفرنسي لمّا دخل إلى (الجزائر) أهمّيّة الكتاتيب والزّوايا في المجتمع الجزائري، ودورها الفعّال في المجال الدّيني وتعليم اللّغة العربيّة، وهو الأمر الّذي أراد مسخه وطمسه، فكلّ مراكز الاشعاع العلمي والثّقافي تسلّط عليها للحدّ من سطوتها الرّوحيّة والفكريّة، فأخذ يضيّق الخناق عليها، وشنّ حربا شعواء ضدّها، فتوقّف عدد كبير من الزّوايا في أداء رسالتّها منذ نهايّة القرن (19م)، بسبب استيلاء الاحتلال الفرنسي على الأوقاف الإسلاميّة (الأحباس) التي كانت تعتمد عليها الزّوايا وتعد مصدر عيش لها، فمنذ سنة (1863م)، صدر (المرسوم) الشّهير حول تمليك الأرض والّذي قضى على أوقافها أيضا إذ كان كثير من الزّوايا يعيش على الأرض الموقوفة، فلم يبق للزّوايا بعد ذلك من الموارد سوى الزّيارات التي يأتي بها أتباع الزّوايا في مواسم معيّنة، وقد تدخّلت السّلطات الفرنسيّة في هذه الزّيارات أيضا فمنعتها عمّن تشاء وأبقتها فقط لبعض من الشّيوخ الّذين خدموا (فرنسا) بإخلاص، كما حورب التّعليم العربي حيثما كان وتمّ تعويضه بالتّعليم الفرنسي في محاولة إلى فرنسة أبناء الجزائريّين وتغريبهم تمهيدا لإدماجهم.

وقد أرجع بعض الكتّاب فشل الفرنسيّن ومنهم (الدّكتورة إيفون تورين) «في سياسة الفرنسة في الجزائر...إلى الزّوايا التي بقيت منتشرة في البلاد رغم قضاء الاستعمار على العديد منها، وكانت بمثابة مراكز دينيّة وثقافيّة ومدارس للكبار والصّغار، ودور للمعالجة وإسعاف الفقراء، وملتقى ذوي الرّأي لحث المواطنين على الجهاد وعدم الولاء للكافر.. ولم يعرف الفرنسيّون لهذه الزّوايا مثيلا في أوروبا، ولذلك لم ينتبهوا لخطورتها إلاّ بعد زمن طويل».

فقد تحوّلت الزّوايا إثر الاحتلال إلى مراكز جهاديّة، إذ أنّ أغلب زعماء المقاومة الوطنيّة ينتمون إلى هذا الصّرح الدّيني، وهذا ما صرّح به (مارسيل سيميان) قائلا: «إنّ تلك المؤسّسات الدّينيّة غالبا ما تتحوّل إلى معقل الثّورة ضدّ الأجنبي وضدّ الرّومي المدنّس لأرض الإسلام...وإنّ الزّاويّة لم

تعد فقط مكانا لتعليم القرآن الكريم، بل أصبحت معلما للجهاد ترسم في ظلام أركانها مخطّطات الانتفاضات والثّورات»، فكلّ الثّورات الشّعبيّة انطلقت من هذه الزّوايا، فثورة (الأمير عبد القادر) انطلقت من (زوايّة القيطنة) بـ(معسكر)، وثورة الشّيخ (بوعمامة)، وثورة (أولاد سيدي الشّيخ)، والشّيخ (المقراني) والشّيخ (الحدّاد)، و(بوبغلة)، وغيرهم خرجت من رحم الزّوايا، فنظر إليها المستعمر على أنّها سبب التّعصّب الدّيني وظهور العديد من المقاومات، لذلك بدأ التّأثير على بعضها ونجح في التّقليل من مهامها التّعليميّة، كما عمل على نفي وتهجير شيوخ الزّوايا وسجن بعضهم وحكم عليهم بالإعدام، ومن بين الشّيوخ الّذين تّم نفيهم عن زواياهم الشّيخ م(حمد بن يلّس) شيخ (زاويّة رحمة الله) بـ(تلمسان) الّذي نفاه المستعمر إلى بلدة (المالح) بـ(عين تموشنت) بعد أن تقدّم بمطالب دينيّة واجتماعيّة إلى الحاكم العام، فقوبل بتهمة التّعاون مع الأجانب ضدّ (فرنسا)، وذلك على خلفيّة استقباله للشّيخ (الثّعالبي) وجمع من أصحابه من (تونس)، ثمّ هاجر إلى الشّام بعد رفضه قانون التّجنيد الإجباري لأبناء الجزائريّين، ولم يسلم من ظلم الاستعمار فبعد احتلال (سوريا) اتّهمته سلطات الاحتلال الفرنسي بمساعدة الثّورة السّوريّة والتّحريض ضد (فرنسا) وأكدت تهمها بمواقفه من التّجنيد الاجباري عندما كان في (تلمسان) ومن عدم التّقيد بقرارات الدّولة الفرنسيّة وهروبه من (تلمسان) دون جواز سفر وهجرته السّريّة ومواقفه من التّعليم في زاويته خاصّة تعليم النّساء، ولم ترحم مرضه وكبر سنّه وكان ذلك سنة (1925م)، ومن بين الّذين حكم عليهم بالسّجن، الشّيخ (الحدّاد) مقدم (زاويّة صدوق الرّحمانيّة) لمدة (05) سنوات.

إنّ تعليم الزّوايا والكتاتيب على العموم حورب وحوصر بالمدرسة الفرنسيّة منذ الاحتلال؛ حيث حاول (الفرنسيّون) جرّ (الجزائريّين) إلى إدخال أبنائهم في مدارس فرنسيّة في المدن أوّلا، وفي المرحلة الثّانيّة أنشأوا ثلاث مدارس إقليميّة لتمتصّ التّلاميذ الّذين كانوا من قبل يتوجّهون إلى المعاهد الإسلاميّة والزّوايا الرّيفيّة وإلى المرابطين للتعلّم أو يقصدون المعاهد الإسلاميّة خارج (الجزائر)، أمّا خلال المرحلة الثّالثّة فإنّ (الفرنسيّين) قد أنشأوا المدرسة الابتدائيّة الفرنسيّة بجوار الزّوايا وضيّقوا على هذه الزّوايا مجال النّشاط، وفتحوا مع قادتها باب التّدجين والتّوظيف، وهكذا حوربت الزّوايا والكتاتيب على عدّة جهات، فقد درس الفرنسيّون وضع التّعليم القرآني الّذي يعدّ بمثابة التّعليم الابتدائي منذ أوائل الاحتلال، ورأوا أنّه تعليم قاعدي تنبني عليه الدّراسات الإسلاميّة في البلاد، وفي العالم الإسلامي كلّه، فإذا حاربوه ومنعوه ثارت عليهم ثائرة السّكان، فاتّفقت كلمتهم على الإبقاء عليه مع تجريده من مؤسّساته في المدن، والتّحكم في المؤدّبين من النّاحيّة الماليّة والفكريّة، وقطع التّواصل بينه وبين التّعليم المتوسّط والثّانوي، ومنع المؤدّبين من تجاوز الحفظ إلى التّفسير والتّفهيم أو تعليم أي مادّة أخرى معه، ثم إنشاء المدارس الضّرة إلى جانبه كما أسلفنا، ونعني بها المدارس الفرنسيّة ذات الطّراز العصري والبرنامج العملي والمنهج المتطوّر.

يقول (لويس رين) : «في مجال التّعليم تهدف جهودنا منذ (1830م) للحدّ من التّعليم القرآني واستبداله تدريجيّا بمجّانيّة التّعليم أكثر عقلانيّة وأكثر ملاءمة، وفق كلّ هذا يكون أكثر فرنسيّا»، فقد خاضت السّلطات الفرنسيّة حربا على اللّغة العربيّة لإعاقة انتشارها وازدهارها، فاستبعدت تدريس التّاريخ الجزائري وتاريخ العرب المسلمين وجغرافيّة (الجزائر) والأدب العربي وطبّقت سياسة التّعليم المزدوج عربي فرنسي، قصد ادماج الشّعب الجزائري لسلخه من هويتّه، ففتحت مدرسة سمّيت بـ(المدرسة العربيّة الفرنسيّة) وتوجد واحدة بـ(الجزائر العاصمة) سنة (1981م) والأخرى بـ(عنّابة) سنة (1987م) وكلاهما كانتا تنافسان التّعليم العربي.

ويورد (أبو القاسم سعد الله) بعض التّقارير الفرنسيّة حول وضعيّة التّعليم العربي منها : «تقرير فرنسي بيّن أنّ المدارس لم تندثر دفعة واحدة، ففي (العاصمة) كانت حوالي مائة (100) مدرسة سنة (1830م) لم يبق منها سنة (1840م) سوى حوالي (24) مدرسة) مسيد(، يتردّد عليها (600) تلميذ، وفي سنة (1846م) انخفض عدد هذه المدارس إلى (14) فقط يتردّد عليها بين (320) و(400) تلميذ، ومع ذلك فإنّ الأولياء كانوا يفضّلون هذا النّوع من المدارس لأولادهم على المدرسة الفرنسيّة، لقد كانت المدارس تحت إشراف) الطّلبة) الّذين يعلّمون التّلاميذ اللّغة العربيّة والقرآن الكريم ومبادئ الدّين، وهي منتشرة بكثرة خارج (العاصمة)، سيما (قسنطينة) ومنطقة (زواوة)، ويقول التّقرير أنّ هذه المدارس بقيت حتّى الآن (1846م) خارج مراقبة السّلطات الفرنسيّة، وقد أوصى التّقرير بضرورة وضع كل أنواع التّعليم تحت الرّقابة، لأنّ الوجود الفرنسي لا يمكن أن يتأسّس نهائيّا ... إلاّ إذا تولّت السّلطة المديرة تعليم كل الأجيال الجديدة في البلاد وأمسكته بيدها «.

وفي تقرير(أوغيست ليبيشو) عن التّعليم وصف حي للتّجربة الإسلاميّة فيه

ومدى معاناته بعد الاحتلال، وكان السّيّد (لييشو) نفسه مسؤولا عن التّعليم في (الجزائر)، وقد شهد أنّ التّعليم العربي – الإسلامي كان منتشرا في المدن والأرياف وحتّى في الخيام، وكانت المدارس والزّوايا تضم المخطوطات أيضا، ولكن كل ذلك تغيّر، حسب رأيه، فالحملات العسكريّة بعثرت كل تجمّعات الطّلبة والعلماء، ولم يبق إلاّ بعض المدارس التي لا تقدّم سوى تعليم غير كامل على الإطلاق، ذلك أنّ دراسة الدّين قد أهملت، بينما لا يمكن فهم الدّين إلّا بالرّجوع إلى الشّروح التي يجب لفهمها إتقان اللّغة العربيّة، وأصبح المتعلّمون نادرين تدريجيّا، وبذلك كثر أعداء (فرنسا)، حسب قوله، أمّا عن المخطوطات فقد قال أنّها أيضا تبعثرت وأتلفت في معظمها، وكانت هي أساس التّعليم.

وقد جاء في تقرير (الجنرال دوماس)، أنّه بعد عشرين (20) سنة من الاحتلال لم يعد في إمكان السّلطات الفرنسيّة أن تجد من توظّفه في القضاء إلاّ بصعوبة، وتمثّل ذلك في الشّؤون الدّينيّة والتّعليميّة الأخرى، أمّا عن الأدب والثّقافة والفن فلا حديث».

«وتؤكّد مختلف الكتابات الفرنسيّة على هذا التّحول الّذي أصاب التّعليم العربي – الإسلامي نتيجة الاحتلال، وقد جاء في إحداها أنّ (التّعليم التّقليدي) قد توقّف عن أداء مهمّته، لظروف الحرب من جهة، والاستيلاء على الأوقاف من جهة أخرى، وهجرة المعلّمين أو نفيهم من جهة ثالثة، فقد خرّبت المدارس الثّانويّة وهي التي كان منها يتخرّج العلماء، وغادر المتعلّمون الزّوايا القريبة من مراكز الاحتلال، والأساتذة إمّا اكتفوا بأداء الشّعائر الدّينيّة دون التّعليم وإمّا انتقلوا إلى أماكن غير محتلة، وامتنع الأهالي عن إرسال أولادهم إلى المدرسة الفرنسيّة، لأنّ المدرسة في نظرهم هي حيث يتعلّم الطّفل القرآن والصّلوات وقواعد الدّين، بينما المدرسة الفرنسيّة لا تعلّمهم إلاّ اللّغة وربمّا تعلّمهم أيضا مبادئ دين آخر، ومن ثمّة اقترح (صاحب التّقرير (وهو غير مذكور: العودة إلى النّظام القديم في التّعليم الابتدائي والثّانوي بعد خمسة عشر عاما من الإهمال، لأنّ التّقرير مكتوب حوالي سنة (1845 م)، مع الرّقابة التّامة والدّقيقة للفرنسيّين على هذا التّعليم حتّى في اختيار المؤدّبين في الابتدائي والمدرّسين في الثّانوي، كما اقترح صاحب التّقرير إدخال بعض المواد كالحساب والجغرافيّة في برنامج التّعليم الابتدائي، وإدخال التّاريخ والفيزياء والكيمياء إلى برنامج الثّانوي، واقترح كذلك جلب المعلّمين من (تونس) و(مصر)، لخلو (الجزائر) منهم عندئذ أو لعداوتهم للفرنسيّين، أمّا بالنّسبة للتّعليم العالي فقد اقترح التّقرير تركه إلى حين آخر، أي عندما يصل الجيل الّذي سيتكوّن تحت الإدارة الفرنسيّة إلى المرحلة العاليّة، ومعنى ذلك توقيف دورة الحياة العلميّة، وما دام القرآن نفسه قد مجّد العلم فقد اقترح صاحب التّقرير أن يبقي التّعليم التّقليدي على ما هو عليه في) المدارس الصّناعيّة والزّراعيّة) الفرنسيّة لأنّ المسلمين سيقبلون عليه باعتباره واجبا دينيّا، ومن الطّبيعي أن يوصي التّقرير بأن يكون الهدف من كل هذه المحاولات هو خدمة الوجود الفرنسي في (الجزائر) ».

وبعد احتلال (قسنطينة) كتب (الجنرال بيدو) تقريرا عن التّعليم فيها، وقدّمه إلى (وزير الحرب)، وقد جاء فيه « أنّ التّعليم في (قسنطينة) كان منتشرا بصورة غير متوقّعة للفرنسيّين، فقد كان فيها مدارس من مختلف المستويات الإقليميّة، فمدارسها الثّانويّة والعاليّة تضم بين (600) و(700) تلميذ يدرسون علوم التّفسير (القرآن) وعلوم الحديث، ومحاضرات في الحساب والفلك والبلاغة والفلسفة، كما يوجد بها (95) مدرسة ابتدائيّة (مكتب(أو كتاب يتردّد عليها بين (1300) و(1400) طفل، وكانت دروس المساجد وعددها (35) مسجدا والمدارس الثّانويّة وعددها سبع) غاصّة بالمستمعين)، والأساتذة لهم شهرة تجلب إليهم الطّلبة من بعيد، والمدارس الابتدائيّة تابعة للمسجد أو الزّاويّة، والنّفقات جميعا كانت من الأوقاف المخصّصة للمسجد أو الزّاويّة، وكان المؤدّب يعيّنه ناظر الأوقاف بوصيّة من العائلات، وهو (المؤدّب) يقوم بدور الإمام والحزاب أيضا، وله منزل خاص به، وله أجر من أولياء التّلاميذ يقدر بحوالي (14ف)، بالإضافة إلى الهدايا التي يتلقّاها بمناسبة الأعياد وعددها أحد عشر عيدا، ويتلقّى أيضا تبرّعات مختلفة سيما عندما يحفظ التّلميذ أجزاء من القرآن، وبذلك قدر دخل المعلم (المؤدّب) بحوالي ثلاثين فرنكا سنويّا، زيادة على عطاءات أهل الخير والإحسان».

ولكن منذ الاحتلال تدهور كل ذلك، ففي عشر سنوات (1847م) ، كاد يختفي التّعليم في مدينة (قسنطينة)، ولم يبق من (600) أو(700) تلميذ في الثّانوي سوى (60)فقط، والمدارس الابتدائيّة التي كانت تسعين لم يبق منها سوى ثلاثين، ولا يتجاوز عدد الأطفال فيها (350) بعد أن كانوا بين (1300) و(1400)، «وقد كان صاحب التّقرير (الجنرال بيدو) والمعلق عليه (دي طوكفيل) صريحين جدّا في ذلك، فقد قال (بيدو) أنّنا أهملنا التّعليم في عاصمة الإقليم (قسنطينة) ممّا سيعطي لرجال الزّوايا أهمّيّة كبيرة ويزيد من نفوذهم وقوّتهم بين السّكّان، وواضح

مـن تقرير (الجنـرال) أنّ خوفه ليس على الجزائريّين من الجهل، ولكن على مصير الوجود الفرنسـي من نفـوذ الزّوايا، ذلك أنّ اختفاء المعلّمين قد حوّل أنظار النّاس إلى (شـيوخ الزّوايـا) في الأريـاف، أمّا (دي طوكفيـل) فهـو صاحـب الصّيحـة الشّهيرة: «إنّنا جئنا لإضاءة الشّموع فأطفانا الموجود منها»، وهو يقصد هنا بالشّـموع المدارس، ولكن (دي طوكفيل) كان أيضا فـي صالح الرّسـالة الحضاريّة الفرنسـيّة وتثبيت الاستعمار في (الجزائر)».

وكانـت نتيجـة نقـص المـدارس والمسـاجد في (قسـنطينة) بعد التّضييق عليها وتدهور حال المدرّسـين والعلماء بها بعدما نال منهـم الفقر، رحيل التّلاميذ القادرين إلى زوايـا المناطق غير المحتلّة بعـد، مثـل منطقـة (زواوة) و(مناطـق الجنوب) طلبا للعلم.

ويقـول تقرير كتـب عـن (بجايّة) وما حولها سنة (1840م) « أنّ كل دشرة (قريّة) كان لهـا طالـب يحسـن اللّغـة العربيّة، وهو يقوم فـي نفس الوقـت بوظيفة إمام المسجد، ويعلّم الأطفال الكتابة والقراءة وحفـظ القـرآن، ولـه أجـر يشـترك فيه الجميـع، وكان بعـض هـؤلاء الطّلبة قد حصلوا على مبادئ الفقه في الزّوايا، وهم يحكمون بالصّلح بيـن النّاس أيضا، وفي كل قبيلة أماكن مخصّصة للتّعليم وتكوين التّلاميذ في المواد التي ذكرناها، في أماكن عـادة تكون قريبة من الزّاويّـة التي فيها أو كان فيها مرابط اشـتهر بيـن النّاس بالورع والتّقـى، والدّراسـة مجّانيّـة ومدّتها غير محدّدة، والجميـع، المعلّمون والتّلاميذ، يعيشـون من تبرّعـات وإحسـان القبائل المجاورة، وأحيانا من مداخيل مخصّصة لهم بمقتضـى الأوقـاف التّابعـة للزّاويّة منذ عهود سـالفة، والزّاويّـة مكان مقدّس لدى الجميع ولا أحد يجـرؤ على انتهاك حرمتها، وأبرز هـذه الزّوايا فـي المنطقة هي (زاويّة شلاطة) التي كانت تبعد مسافة يومين عن (سـوق بجايّة)، وهي تقع على الضّفّـة اليسـرى(لوادي آقبو)، وتسـمّى أيضـا (زاويّة ابن علـي الشّـريف)، ولها سمعة علميّة تجاوزت حدود (الجزائر) إذ كانت الهدايا تأتيهـا من (فاس) و(تونس) و(إسطنبول) «.

وفي دراسـة (هانوتو) و(لوتورنو) عن (منطقة القبائل) ما يؤكّد هذه الظّاهرة، فقد قالا «إنّ كل فرد في المنطقة يعرف القراءة والكتابة، وللسّكان مدارس عامّة، واعتزاز قويّ بدعم هذه المدارس إذ يرون في ذلك واجبا دينيّـا ونخوة خاصّة، ولغة التّدريس هـي اللّغة العربيّة والمواد كلّها إسـلاميّة، وهي تتّبع المنهج الإسلامي، والتّعليم في هذه المؤسّسـات على مرحلتين: ابتدائي وثانوي، وهنـاك بعض المدارس الخاصّة تحت إشـراف المرابطين، وهـم يقومون عليها بحماس ديني قوي، فهم يسـتقبلون العديد من الشّباب ويوفّرون لهم المسكن والمأكل، ويعلّمونهم مجّانا، وكان التّعليم نفسه عموميّا».

فـإذا كان حـال العلم غـداة الاحتلال هـو الازدهار والانتشـار والاحترام، فأين هو بعـد ربع قرن مـن ذلك؟ لقـد أهمل الفرنسـيّون التّعليم في المدن والأرياف، علـى السّـواء، لأسـباب مختلفـة منهـا اغتصـاب مـوارده، وكثـرة الحـروب، ومشاركة الطّلبة في واجب الجهاد، وبعد ضعـف التّعليم بل نكاد نقـول انهياره في المدن على إثر الاحتلال، بقي التّعليم في الزّوايا والمعمّـرات، فخرج إليها التّلاميذ واغتربـوا فيهـا طلبـا للعلـم والمقاومة الثّقافيّـة، وبعـد نجـاح الاسـتعمار فـي التّوغل في الرّيف أيضا ومراقبة المعلّمين والتّلاميـذ ضعـف التّعليـم هنـاك أيضا وحوصر إداريّا بالقوانين ولغويّا بالفرنسّيّة، سـيما منـذ السّـتّينات، وفي هـذه الأثناء نشـأت زوايا جديدة مثل زوايا: (الهامل) و(أولاد جـلال) و(قصـر البخـاري)، وفتحت (زاويّة نفطة) أبوابها للجزائريين، وظلت (زوايا زواوة) مسـتمرّة في التّعليم إلى (ثورة 1871م)، وكل هذه الزّوايا ترجع إلى (الطّريقة الرّحمانيّة) عدا (زاويّة قصر البخـاري) التـي كانـت (شـاذليّة)، ومع ضغط الاسـتعمار في عهـد (الجمهوريّة الثّالثّـة) كادت حركـة التّعليـم العربي – الإسـلامي تختفي، وهكذا ارتمى النّاس في أحضان (الطّرق الصّوفيّة) والغموض والدّروشة، واعتقدوا أنّ الخلاص لم يعد بالسّلاح ولا بالتّعليم ولكن ببركة (الشّيخ الصّوفي) و(المرابط).

أمّا فـي (النّاحيّة الغربيّـة) فقد أصيبت حركـة التّعليم بالشّـلل، نتيجـة الحروب القاسـيّة أثناء المقاومة التي قادها (الأمير عبد القادر)، فـ(تلمسـان) و(معسـكر)، و(مسـتغانم) و(وهران)، تعرّضت جميعا إلى خروج أهلهـا منها عدّة مرّات، ومنهم بالطّبـع المعلّمـون والتّلاميـذ، وتوقّفت (مدرسة مازونة) عن وظيفتها مدّة طويلة، وتعرّضت المكتبات والمسـاجد والزّوايا والمدارس إلى النّهب، والهدم، والهجر.

« وقد اعتمـد (الأمير عبد القادر) على فئة العلماء والمثقّفين فـي إدارته، فجعل منهم القضاة والخلفـاء والكتّاب، ورغم اهتمامـه بالتّعليم في الخيـام وفي المدن التي كانت تحت يده، فـإن حركة التّعليم قد تأثّرت بشـدّة، ونفس الشّيء يقال عن (ملیانـة) و(المديّة) اللّتين كانتـا تابعتين لحكـم (الأمير) إلى سـنة (1840م)، ومن الزّوايـا الرّيفيّة في (الجهة الغربيّة) (زاويّة القيطنة) التي توقّفت أيضا عن أداء مهمّتها فـي التّعليـم أثنـاء المقاومة، سـيما بعد (1836م)، وقد عاشت هذه الظّروف (زاويّة سـيدي محمد بـن عودة) ناحيّـة (زمورة

الغربيّة)، و(زاويّة سيدي العريبي) نواحي (مينة)، والتي يمتد نفوذها من (مستغانم) إلى (أم السّنام (الأصنام قديما)، و(زاويّة أولاد سيدي دحو) بـ(معسكر)، و(زاويّة أولاد سيدي الشّيخ) بـ(البيّض)، و(زاويّة أولاد سيدي عمار بن دوبة) (كاشرو)... إلخ، ومنذ حوالي السّتّينات ظهرت زوايا جديدة نصّبت نفسها للتّعليم العربي الإسلامي رغم المراقبة والمضايقة الفرنسيّة والقيود القانونيّة وجفاف الموارد، ومن ذلك (زاويّة أولاد الأكراد (بتيهرت) (تيارت).»

إنّ مختلف المؤسّسات التّعليميّة المتمثّلة في الزّوايا، والمساجد، والكتاتيب، وإن كان مردودها ضعيفا بسبب ظروفها الماليّة الصّعبة، فهي في نظر الاستعمار عقبة تعيق المشروع الاستعماري، لهذا خصّصت الإدارة الاستعماريّة مبلغا ضئيلا للمؤسّسات الدّينيّة الاسلاميّة مقارنة بالمؤسّسات الدّينيّة الأخرى، المسيحيّة واليهوديّة، والجدول التّالي يوضّح ذلك:

المذاهب	عدد الأفراد (نسمة)	قيمة الإنفاق الفرنسي	معدّل الإنفاق (الفرنك)
الكاثوليك	310.000	920.000	2.93
البروتستانت	7.500	83.100	11.08
اليهود	35.665	26.100	0.731
المسلمين	2.842.497	216.340	0.076

ويذكر(المهدي البوعبدلي) أنّ ميزانيّة كافّة الوظائف الشّرعيّة الدّينيّة في مدينة (الجزائر) قدّرت بـ(60 ألف فرنك) سنة(1892م)، في حين كانت تصل في العهد (العثماني) إلى سبعة (07) ملايين فرنك (للعاصمة) وأربعين (40) مليونا(للجزائر) كلّها، وهذا المبلغ الضّئيل المخصّص للمسلمين مخصّص فقط لتسديد رواتب الموظّفين من مفتين وأئمّة وغيرهم، بينما لم يكلّف الاستعمار نفسه عناء ترميم المؤسّسات الدّينيّة الإسلاميّة فضلا عن بناء مؤسّسات جديدة رغم الأموال الضّخمة التي يجمعها من الضّرائب، بل وحوّلت الكثير من تلك المؤسّسات إلى كنائس، وثكنات عسكريّة، واسطبلات للخيول وغيرها، وهدّمت كثيرا من الزّوايا، والمدارس القرآنيّة أو الكتاتيب ففي سنة (1381م) أغلقت (فرنسا) (18) مسجدا و(122) زاويّة، وكانت معظم المدارس القرآنيّة ملاصقة للجامع أو الزّاويّة، فهي جزء منه أو منها، وهي داخلة في الاستفادة من الأوقاف من جهة الصّيانة والإضاءة والتّجهيز بالماء ونحوه.

ويؤكّد المؤرّخ (موريس فاهل) (Mau-rice Wahil)، وهو أحد الغلاة المتحمّسين للإشعاع الثّقافي الفرنسي في (الجزائر)؛ حيث يقول: «لقد شرعنا بادئ ذي بدء في هدم كل المساجد تقريبا (وهي المدارس الابتدائيّة)، والزّوايا(الرّيفيّة)، والمدارس(الثّانويّة)، وبعض المدارس الإسلاميّة الأخرى الموجودة قبل (1830م)، وبعدها انهمكنا في إجراء تجارب ارتجاليّة لم تنجر عنها سوى نتائج هزيلة وأحيانا سلبيّة».

وهذه قائمة ذكرها (أبو القاسم سعد الله) واستقاها من (ألبير ديفوكس) لبعض المدارس القرآنيّة التي هدّمت منذ الاحتلال في مدينة (الجزائر)، مع تاريخ هدمها، والملاحظ أنّها تذكر إلى جانب المسجد أو الزّاويّة التي كان مصيرها في الغالب واحدا:

1. (مدرسة تابعة لجامع ساباط الحوت) (جامع البطحاء)، شارع القناصل.⇦تاريخ الهدم سنة (1854م).
2. (مدرسة جامع السّلطان)، شارع تريكولور.⇦ تاريخ البيع والهدم سنة(1838م).
3. (مدرسة جامع خير الدّين) (جامع الشّواش)، قرب مدخل الجنينة.⇦ هدمت مع قصر الجنينة سنة (1831م).
4. (مدرسة جامع ستي مريم) (جامع ابن نيقرو).⇦ تاريخ الهدم سنة (1838م).
5. (جامع مدرسة فرن ابن شاكر)، شارع طولون.⇦ بعد جعله ثكنة، حوّل إلى مدرسة للبنات المسلمات.
6. (جامع سوق الكتّان)، شارع الباب الجديد.⇦ بعد استعماله من المصالح العسكريّة، جعل مدرسة فرنسيّة (ودادية) ثمّ هدّم.
7. (مدرسة جامع الشّيخ الثّعالبي) وهو غير الزّاويّة الحاليّة، شارع لاشارت. ⇦تاريخ الهدم سنة (1859م).
8. (مدرسة جامع الرّحبة القديمة)، كان الجامع يستعمل مدرسة قرآنيّة. ⇦هدّمت وضمّت إلى إحدى الدّور، (1840م).
9. (مدرسة بجوار الجامع المذكور السّابق). ⇦عطيت لملاك أروبي، سنة (1841م).
10. (مدرسة جامع عبدي باشا). ⇦منذ سنة (1870م) وهو ثكنة عسكريّة.
11. (مدرسة مسيد الغولة). ⇦ألحقت بمكاتب الكاتب العامّ للحكومة.
12. (مدرسة القهوة الكبيرة أو مدرسة (مسيد) ابن السّلطان).⇦ هدّمت سنة (1836م).
13. (المدرسة العنانيّة) (المولى بوعنان) كانت ملحقة بالجامع الجديد. ⇦مصيرها غير معروف .
14. (مدرسة حي القيساريّة). ⇦هدّمت منذ بدايّة الاحتلال ودخلت في ساحة الحكومة (ساحة الشّهداء).
15. (مدرسة جامع السّيّدة)، بناها (ساري مصطفى).⇦ هدّمت مع الجامع، سنة (1830م)، وهي أوّل عمليّة هدم لمؤسّسة دينيّة – علميّة.

16. (مدرسة (مسيد) الدّيوان). ⇦مصيرها غير معروف .

17. (مدرسة ساحة الجنينة) قرب (زاويّة الشّرفة) (الأشراف). ⇦لا نعرف مصير المدرسة لكن الزّاويّة المذكورة باعها وكيلها، كما قيل، إلى أحد الأروبيّين سنة (1832م)، وفي سنة (1841م) صادرتها السّلطات وضمّتها إلى المكاتب الرّسميّة.

18. (مدرسة (مسيد) الدّاليّة). ⇦ خرّبت سنة (1839م).

19. (مدرسة زاويّة الشّبارليّة). ⇦هدّمت ودخلت في بازار (سوق أورليان) سنة (1840م).

20. (مسجد الرّكرك)، يقوم مقام مدرسة قرآنيّة. ⇦هدّم سنة(1839م).

21. (مدرسة جامع الحاج) أحد (الباشوات، المدعو ميزمورطو). ⇦هدّمت المدرسة والجامع سنة (1836م)، استمر الهدم (18) شهرا.

22. (مدرسة كوشة بولعبة). ⇦هدّمت سنة (1841م).

23. (مدرسة مسجد سيدي الهادي). ⇦جعلها الفرنسيّون مدرسة عربيّة – فرنسيّة، ثمّ هدما معا سنة (1855م).

24. (مدرسة شيخ البلاد)، من أحدث وأهم المدارس. هدّمت سنة (1848م).

25. (مدرسة (مسيد) كوشة الوقيد). ⇦دخلت في السّاحة التي أقامها الجيش الفرنسي بأعلى المدينة.

26. (مدرسة (مسيد) البرميل). ⇦ هدّم سنة (1855م).

«ويقول رحالة أوروبي زار مدينة (الجزائر) سنة (1854م)، أنّه لم يبق من حوالي مائة (100) مدرسة سوى النّصف، ولا نظن أنّه بقي الكثير بعد ذلك، فقد استعمل الفأس والمطرقة والجرّاف في المساجد والقباب والزّوايا، وكانت المدارس تنهار معها بالتّبعيّة، وكانت معظم المدارس القرآنيّة في أعلى المدينة تبعا للمؤسّسات الدّينيّة والسّكّان، ولا شك أنّ سكّان المدينة لم يهملوا أولادهم بعد ذلك، فقد أصرّوا على لسان(المفتي الكبابطي) سنة (1843م) على ضرورة تعلّم أولادهم القرآن قبل كل شيء، ولعل بعضهم اضطر إلى جلب المعلمين (المؤدبين) إلى منازلهم».

صورة قديمة وحديثة لمسجد كتشاوة الّذي حوّله الاستعمار الفرنسي إلى إلى كنيسة (كاتدرائيّة)

ويورد (أبو القاسم سعد الله) كذلك حال مدينة (قسنطينة)، قائلا :»سبق أن عرفنا من تقرير (الجنرال بيدو) أنّ عدد المدارس القرآنيّة في (قسنطينة) سنة (1837م) بلغ (95) مدرسة وأنّه لم يبق منها بعد عشر سنوات (1847م) سوى (30) مدرسة، أمّا الباقي فقد سقط بفؤوس ومطارق الحقد على كل ما هو إسلامي أو عربي في (الجزائر)، وإذا كانت (مدرسة سيدي الكتاني) (مدرسة صالح باي) قد انتعشت حين جعلت مقرّا للدّراسات الشّرعيّة – الفرنسيّة، منذ (1851م)، فإنّ مدارس أخرى قد حوّلت عن وجهتها أو هدّمت نتيجة مد الطّريق الوطني (العربي بن المهيدي اليوم)، ونتيجة هدم (دار الباي الحاج أحمد)، من ذلك (مدرسة جامع سيدي الأخضر) التي بناها أيضا (صالح باي)، فقد عطّلها الفرنسيّون عن غرضها واغتصبوا أوقافها وجعلوها مقرا لكرسي (حلقة) اللّغة العربيّة الّذي أحدثوه ليتعلّموا هم العربيّة ويعلّموا الجزائريّين الفرنسيّة، وكان السّيّد (شير بونو) أوّل من فتح ورأس هذا الكرسي وقام بهذه المهمّة في المدرسة المذكورة، منذ(1856م)، وكذلك حوّلوا جامع وزاويّة (مدرسة سيدي التّلمساني) إلى(جمعيّة فرنسيّة – دينيّة) تسمّى (سيدات ليون باستور) سنة (1853م)، وكان مصير(مدرسة جامع رحبة الطّابيّة) أو (الشّيخ علي مخلوف) توفّي (586 هـ) أتعس من ذلك، إنّ قاعة الصّلاة فيها (المصلّى) قد حوّلت إلى (إسطبل) لخيول (فرقة الصّبايحيّة)، ثم اندثرت، وبقيت المدرسة فقط فلم تترك لتعليم المسلمين ولكن حوّلت إلى مقر للجمعيّة الأثريّة التي كانت تصدر المجلة الشّهيرة بـ(روكاي)، وكان مع (جامع سوق الغزل) مدرسة أيضا، ولكن تحويل الجامع إلى كنيسة عطّل المدرسة عن مهمّتها، وهكذا تعرقل التّعليم الابتدائي الإسلامي وتوقّف النّاس عن استقبال أبناء الرّيف في (قسنطينة)، كما لاحظ (تقرير بيدو)».

وقد وقع لمدارس (بجايّة) و(عنّابة) نفس المصير بعد الاحتلال، لأنّها كانت تابعة للبنايات الدّينيّة التي وقع هدمها ومصادرة أوقافها، وظاهرة الفقر التي أشار إليها بعض الكتّاب نتيجة توقّف الموارد هي ظاهرة عامّة، ولا سيما في المدن حيث

ركّز الاحتلال قواعده من البدايّة، فمدن مثل (وهران) و(مستغانم) عانت مدارسها نفس المصير الّذي عانته فيها المساجد والزّوايا والأضرحة، ومحاولة تعويض المدارس القرآنيّة بمدرسة عربيّة – فرنسيّة.

أمّا في الرّيف والمناطق غير المحتلّة فقد استمرّت المدارس القرآنيّة في أداء وظيفتها في مقاومة عنيدة، رغم أحداث المقاومة والثّورات المتواليّة، يقول (الإسكندر بيلمار) عن موقف (الأمير عبد القادر) من التّعليم:» لقد جعل التّعليم مهمّة أساسيّة، باعتباره سلطانا ومسلما، كما جعل من مهامه الأساسيّة رفع شأن الدّين والعلم، ولكي ينتعش الدّين الّذي حارب به الفرنسيّين، أنشأ (الأمير) مدارس يتعلّم فيها الأطفال الصّلوات وقواعد الإسلام والقراءة والكتابة، أمّا الّذين يرغبون منهم في مواصلة التّعلّم، فكان عليهم أن يتوجّهوا إلى الزّوايا أو المساجد»، ومعنى هذا أنّ (الأمير) رتّب التّعليم من الابتدائي القرآني إلى الثّانوي المسجدي إلى العالي أيضا، وقد كان خبيرا في ذلك ويعرف مراحل التّعليم من زاويّة جدّه في (القيطنة)، وكان هو قد درس على نفس الوتيرة، وكان يشارك بإلقاء الدّروس على جنوده في التّفسير وغيره، وبذلك كانت المدن التي تحت يده إلى حوالي (1843م)– (مليانة)، (المديّة)، (تلمسان)، (معسكر)، (تاقدامت)، الخ – كلّها تنشط في التّعليم القرآني كأساس للدّراسات الثّانويّة والعاليّة بالمنهج الإسلامي، ومنذ واقعة (الزّمالة) سنة (1843م) كان التّعليم القرآني قد انحصر في الخيام رغم صعوبة الحياة ومطاردات العدو.

وفي إحصاءات نشرت سنة (1851م) جاء أنّ المدارس القرآنيّة في الرّيف بلغت (851) مدرسة وكانت كلّها تعلّم القرآن والكتابة والقراءة، ويتردّد عليها عدد كبير من التّلاميذ، وهذا بفضل جهود المواطنين لأنّ الدّولة الفرنسيّة لم تفعل شيئا، بل إنّ الحروب ومصادرة الأوقاف وإفقار العلماء جعل حركة التّعليم تسوء، « وفي تقرير رسمي رفع إلى (رئيس الجمهوريّة الفرنسيّة) سنة(1851م) من قبل (وزير الحرب)، أنّه لا وجود لتعليم فرنسي في الأرياف – البوادي –، ولا يتعلّم الأطفال سوى القرآن على يد (الطّلبة)، الّذين يدفع الآباء إليهم مبلغا من المال، وأنّه لا وجود لمدارس حائطيّة لذلك، وإنّما هناك خيام فقط، ومعنى هذا أنّ التّعليم في الأرياف بعد عشرين سنة من الاحتلال بقي على حاله: نفس المكان، نفس المنهج، والجديد فيه هو فقط أنّ الدّولة الفرنسيّة اغتصبت من السّكّان مواردهم وشرّدت معلّميهم».

ولم تكتف الإدارة الاستعماريّة بالتّضييق المالي على الكتاتيب والزّوايا، بل أخضعتها ومختلف المؤسّسات التّعليميّة إلى الرّقابة والتّفتيش بموجب (قانون 30أكتوبر1886م)، وأكّد على ذلك (المرسوم الوزاري المؤرّخ في15ديسمبر1906م)، وتخضع للرّقابة فيما يتعلّق بالنّظافة والصّرف الصّحّي والالتزام المفروضة أو المعلومة المقدّمة، كما أنّ للحاكم صلاحيات تحديد عددها وبالتّالي فإنشاء كتّاب مثلا يتمّ بترخيص من الدّائرة الاستعماريّة، كما منعت من ممارسة عملها فترة التّدريس في المدارس الفرنسيّة الموجّهة للأهالي. وكان الحاكم العام، (الجنرال شأنزي) (Chanzy)، ضدّ التّعليم القرآني، وكان يعتبره تعليما معاديا لـ(فرنسا)، ولم يكن وحده في ذلك، فقد سبقه إليه معظم الحكّام الآخرين، سيما (ديقيدون) (De Guydon)، فإذا كان الحكام أنفسهم ضدّ هذا النّوع من التّعليم الإسلامي، فماذا سيكون مصيره؟

ولعل الفرق بين حاكم وآخر هنا هو أنّ (شأنزي) قد طال عهده حوالي ست سنوات وأنّه أصدر قرارا يحد فيه من فتح المدارس القرآنيّة ويضع نصوص العقوبة للمخالفين، فكانت الرّخص لفتح هذه المدارس قبل (شأنزي) يمنحها (جنرالات المناطق العسكريّة) أو (الولاة) في المناطق المدنيّة، لكن (شأنزي) رفض منح هذا الشّرف لمؤدّبي الصّبيان، وأصدر بدلا من ذلك قرارا ينص على أنّ كل الرّخص سيمنحها منذئذ (1877م) إداريون فقط مثل (رؤساء البلديات) أو (الضّبّاط السّامين)، بعد أخذ رأي المساعد الأهلي (جزائري) في المدرسة الفرنسيّة، أو رأي شيخ الدّوّار الّذي يتبعه المؤدّب الرّاغب في فتح المدرسة القرآنيّة والاستقرار فيه، وأضاف قرار (شأنزي) أنّ هذه الرّخص يجب أن يرفضها المسؤولون المذكورون بصفة مطلقة بالنّسبة:

1 – لمن كان أجنبيّا من (الطّلبة (أي (المعلّمين – المؤدّبين).

2 – للطّلبة الرّاغبين في فتح مدرسة قرآنيّة عامّة في مكان توجد فيه مدرسة بلديّة (فرنسيّة) وفيها مساعد أهلي، أو مدرسة عربيّة – فرنسيّة، وكوسيلة أخرى من وسائل الحرب ضدّ المدارس القرآنيّة والتّعليم العربي – الإسلامي على العموم، فإنّ قرار (شأنزي) زاد في التّضييق حتّى أصبح من المستحيل تقريبا منح الرّخصة، فقد نصّ على أنّه إذا كان طالب الرّخصة جزائريّا وليس من الدّوار الّذي يرغب الإقامة فيه، فلا بد أوّلا من جمع المعلومات المفصّلة عن هذا الطّالب في المكان الّذي كان يقيم فيه قبل ذلك، عن طريق السّلالم الإداريّة، أي البحث عن سلوكه، وماضيه، وسلوك وماضي أهله في علاقتهم بالفرنسيّين، أمّا إذا أرادت إحدى العائلات أن تأتي بمؤدّب لأطفالها

فقد اشترط قرار (شأنزي) شروطا أخرى، فعلى هذه العائلة أن تطلب هي الرّخصة لهذا الطّالب المؤدّب، سواء كان جزائريّا أو أجنبيّا، وأن تكتب عليها ملاحظة وهي أنّها رخصة خاّصة بالإقامة مع الإشارة إلى كونه معلّما خاصّا لعائلة فلان، ومن ثمّة يمنع عليه فتح مدرسة أو قبول تلاميذ آخرين غير أولاد العائلة الطّالبة للرّخصة، وهذه العائلة هي التي تدفع له أجره، وهي الضّامنة فيه أمام الإدارة الفرنسيّة، واضح أنّ الهدف من هذا القرار الصّادر من حاكم يكره التّعليم العربي الإسلامي، هو تكريس جهل الجزائريّين بلغتهم ودينهم من جهة وتمكين المدرسة الفرنسيّة من التّوغّل في المناطق الرّيفيّة من جهة أخرى.

ويبدو أنّه كان لهذا الإجراء نتائجه، فقد انكمشت الكتاتيب وكادت تنعدم في بعض الجهات، سيما تلك الواقعة تحت النّظر المباشر للسّلطات الفرنسيّة، فقد شنّت الحرب على العربيّة والإسلام في منطقة (زواوة)، كما ذكرنا، على يد الإدارة وكذلك على يد الكنيسة بقيادة (الكاردينال لافيجري)، ولاحظ الدّارسون سنة (1904م) أنّ أرياف منطقة (التيطري) أصبحت أمّيّة تماما في القراءة والكتابة باللّغة العربيّة، إذ ليس فيها مدارس عربيّة ولا زوايا، ولم يجد هذا الدّارس سوى (الآغا عبد القادر بن الجيلاني) يعطي تعليما قرآنيّا محدودا ناحيّة (المديّة)، وأصبح وجود معلّمي القرآن نادرين حتّى إن من كان يرغب منهم في معرفة اللّغة العربيّة عليه أن يذهب إلى زوايا منطقة (زواوة)، لأنّ (زاويّة الهامل) و(زاويّة قصر البخارى) فقدتا جاذبيتهما بعد وفاة شيخيهما (القاسمي) و(الموسوم)، وكان الأطفال يذهبون أحيانا إلى الشّيخ (سيدي العربي بن الطّاهر) في (معسكر)، ولكن حظّهم كان ضعيفا في التّعليم، وإصلاحات (1892م) الخاصّة بالتّعليم للجزائريّين كان أوّل ضحاياها التّعليم القرآني أيضا، فمن جهة انغرست إلى جانب الزّوايا الشّهيرة بتعليم القرآن مدرسة فرنسيّة (أهليّة)، ومن جهة أخرى حدّدت شروط فتح المدرسة القرآنيّة ولم يعد الأمر متروكا للزّاويّة أو المؤدّب، فقد نصّ (مرسوم 18 أكتوبر1892 م) على ضرورة أن يلبّي المؤدّبون في المدارس القرآنيّة (الكتاتيب) شروط الصّحّة، وهذا شيء مهم ولا جدال فيه، ولكن الّذي يلفت النّظر في هذا (المرسوم) هو الاشتراط عليهم عدم استعمال وظائفهم لتعليم أمور أخرى غير القرآن، تلك الأمور الأخرى المضادة للأمن العام والتي تعود إلى عهود مضت، ونص (المرسوم) على الغلق الدّائم أو المؤقّت للمدارس التي تخالف هذا القانون.

استمرّت الحكومة الاستعماريّة في ابتكار الأساليب لمحاربة اللّغة العربيّة، فأصدرت (قانون 8مارس1938م) الّذي اشترطت فيه وجوب حصول المعلّمين وهيئات التّعليم العربي على رخصة التّعليم من الإدارة الفرنسيّة، وقد وضعت شروطا للحصول على هذه الرّخصة منها:

- كفاءة المعلم العلميّة.
- لياقته البدنيّة.
- معرفته للّغة الفرنسيّة.
- صلاحيّة المحل للتّعليم وتوفّر الشّروط الصّحّيّة فيه.

كما استعملت سلطات الاحتلال أسلوب التّرهيب والتّخويف والعنف، مثل قتل شيوخ الزّوايا ووضع حد لنشاطهم الدّيني، ونفت الكثير لمناطق بعيدة ومعزولة وأرغمت البعض على الاشتغال بالجوسسة، وذلك بتهديده بعائلته وأولاده وخلق بعض الفتن والنّزاعات وضرب الزّوايا بعضها ببعض، وأخطر هذه النّزاعات كان يؤدّي للقتل وخيانة الوطن والتّعاون مع العدو، كما شجّعت الكثير من الزّوايا على نشر الخرافات والدّجل.

ففي مدينة (بسكرة) قام المحتل بقمع المعارضين وشراء ذمم المتعاونين، بالضّغط عليهم بالاعتداءات، ورفع ضرائب النّخيل في(مارس 1889م) من (211 فرنك) الى(818 فرنك) للنّخلة والاستيلاء على الاوقاف، لكسب ودّها والتّحكم فيها فأصدر المحتل (مرسوم في 12 يونيو 1911 م)، يقضي بصرف منحة تشجيعيّة شهريّة قدرها (811 فرنك) تقدّم لكل شيخ زاويّة يقوم بتخصيص وقت لتعليم الفرنسيّة.

كما قامت (الحكومة الفرنسيّة) بإصدار عدّة قرارات ومراسيم، تهدف لتصفيّة أملاك الأحباس التي تشكّل موردا أساسيّا من مداخيل الزّوايا وادخلتها في نطاق التّعامل التّجاري، وتقرّب الحكّام من الزّوايا والتّحالف معهم من مرابطين وشيوخ وادخالهم في وظائف إداريّة مقابل التّعهد بالمحافظة على الأمن والنّظام.

كما قام(الضّباط) بتقليص شدّة تأثير الزّوايا من خلال إعفاء الزّوايا و شيوخها من تسديد الضّريبة مقابل تخليّها عن مواصلة المقاومة ضد(فرنسا)، مقابل منح امتيازات ومن ذلك مثلا تشجيع (زوايا الطّريقة العلويّة) وخدعتهم بأنّها تحافظ على وجودهم بين مختلف الزّوايا، وفي هذا النّطاق استخدمت(فرنسا) في (الجنوب الجزائري) مثلا (التيجانيّة) و(السّنوسيّة) و(الطّيبيّة) و(القادريّة)، فأصبح بعضها عميلا للاستعمار الفرنسي مثل (الطّريقة التيجانيّة) وذلك باعتراف شيوخها حيث خطب شيخ الطّريقة (محمد الكبير) في(الجزائر) سنة (1911م)، ونعت أعداء(فرنسا) من المسلمين بناكري الجميل وأراذل وقال

عن(فرنسا) أنّها حملت لنا الأمن والثّروة والسّعادة.

ونظرا لكلّ هذه المضايقات أصبح من المتعذّر إيجاد مدرّس للأطفال، خاصّة في المناطق الرّيفيّة، وبعد فترة من نقص التّأطير بدأ الجهل يتفشّى بين أفراد المجتمع، فاستعانت المدارس التّعليميّة بمعلّمين من (تونس) و(المغرب) وتمركزوا في المناطق الغربيّة خاصّة، غير أنّ هذا العمل لم تتقبّله السّياسة الاستعماريّة، واعتبرته نشاطا يشكّل خطرا على السّياسة الفرنسيّة، ومن هنا بدأت المقاومة الجزائريّة بمحاربة الخطّة الثّقافيّة التي سنّتها السّلطات الاستعماريّة، وحرص المثقّفون على رفض هذه السّياسة وبيّنوا أهدافها وخطورتها، وجعلوا كلّ المراكز الموجودة في (الجزائر) من مسجد ومدرسة وزاويّة مركزا محصّنا لمحاربة العدو وثقافته وحمايّة الشّخصيّة الوطنيّة، والدّفاع عن اللّغة العربيّة في فترة كانت (الجزائر) فيها بدون عون أو نصير، فقد كانت (5/ 4) العالم العربي تحت الاحتلال الكامل أو الحمايّة الأجنبيّة.

ومن أهم أساليب مقاومة الجزائريّين لسياسة الاستعمار الثّقافيّة:

تمسّكهم القوي بلغتهم إلى درجة التّقديس، ورفضهم الكامل لكل المحاولات الهادفة إلى التّقليل من حبّهم للغتهم، وتشويه صورتها في أذهانهم، وإقناعهم بأنّ الفرنسيّة هي اللّغة التي تصلهم بعالم الحضارة.

الحرص الشّديد على تعليم أبنائهم في الكتاتيب القرآنيّة، وفي المؤسّسات الدّينيّة التي كانوا يرون فيها الملاذ الآمن الّذي يحفظهم من كل تسيّب خلقي، ويحميهم ممّا تريده فرنسا منهم.

رفضهم القوي للمدرسة الفرنسيّة ولبرامجها وامتناعهم عن تسجيل أبنائهم فيها، لأنّهم يرونها وسيلة من وسائل التّنصير، والتّكفير، ونشر العادات الفرنسيّة التي لا تنسجم مع عاداتهم.

وقد كان التّعليم في الزّوايا والمساجد والكتاتيب في هذه الفترة العصيبة بمثابة الحلّ الوحيد للتّصدّي لسياسة التّجهيل، التي مارستها سلطات الاحتلال ضدّ الشّعب الأعزل من أجل تهميشه ثقافيّا وفكريّا.

ولولا الزّوايا والكتاتيب والمدارس الحرّة ودروس المساجد التي وجدت فيها الأجيال ضالتّها لما وجدنا في بدايّة الاستقلال من يتكلّم اللّغة العربيّة الصّحيحة أو يفهم نصوصها أو يحفظ شيئا من القرآن الكريم.

د. نسيمة لوح
جامعة البليدة

المصادر
1. تاريخ الجزائر الثّقافي، أبو القاسم سعد الله (ت 1435 هـ)،الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، 1981م.
2. اللّغة العربيّة من منحة الكولونياليّة إلى إشراقة الثّورة التّحريريّة، منشورات المجلس الأعلى للّغة العربيّة، دار الأمّة للطّباعة والنّشر والتّوزيع،برج الكيفان، الجزائر،2007م.

تاريخ الخطّ العربي في الجزائر

أ.د الطّيب دبّة

1 - الخطّ العربي في الجزائر بعد الفتح الإسلامي:

انتشر الخطّ العربي في جميع بلدان العالم الإسلاميالكبير، وقد كان انتشاره مرافقا لانتشار الفتوحات؛ ذلك أن سكان الأراضي التي فتحها الإسلام سرعان ما كانوا يُقبلون على تعلم العربيّة وتعلم القرآن الكريم، وسرعان ما يندمجون في مرافق الحضارة الإسلاميّةالتي كان الخطّ العربي من أبرز أنشطتها، ومن أهم قنواتها التّواصليّة؛ يقول (Arnold Toynbee/ أرنولد توينبي): «لقد انطلق الخطّ العربي الذي كُتِب به القرآن غازياً مع الجيوش الفاتحة إلى الممالك المجاورة والبعيدة وحيث ما حلَّ أباد خطوط الأمم المغلوبة».

ولما وصل الإسلام إلى المغرب انتشر الخطّ العربي بأفريقيا انطلاقا من قاعدته الأولى القيروان وكان سكان شمال أفريقيا، قبل الفتح الإسلامي يستعملون في تواصلاتهم الكتابيّة حروف التيفيناغ، وهي حروف اللهجات البربريّة، التي لا تزال مستعملة إلى الآن عند (الطّوارق) في الصّحراء الجزائريّة، لكنهم هجروا حروف التيفيناغ، مع أوائل الفتح الإسلامي، وبدأوا يعتنون بكتابة الحروف العربيّة وبحفظ القرآن الكريم، وكانت وسيلتهم الأولى هي تعلم الكتابة دون مراعاة قواعدها الفنيّة.

ومعلوم أن الخطّ العربي اتَّخَذ -في الأقاليم المفتوحة في شمال أفريقيا وإسپانيا منذ سنة (50هـ/ 670م)- أساليب يختلف بعضها عن البعض اختلافاً بسيطاً، وإن كانت كلهاقد قامت وتفرعت عن أصل واحد هو الخطّ الكوفي(وهو الخطّ الكوفي المجرد من النّقط والشّكل، وقد كان سائداآنئذٍ في بلاد المشرق). وهو الخطّ الذي جلبه المسلمون الفاتحون معهم، وكانوا يستخدمونه في نشر الدّين الجديد وفي تعليم نصوصه وتعاليمه للناس، ومن أراد أن يتحرى عنه يجده مكتوباً على رقّ الغزال في المصاحف والكتب القديمة، ومنقوشاً في الحجر على أبواب المدن والأحياء، ومحفوراً في الجبس على جدران المدارس، والمساجد العتيقة، وقبور الملوك وأضرحة الأولياء والصّالحين.

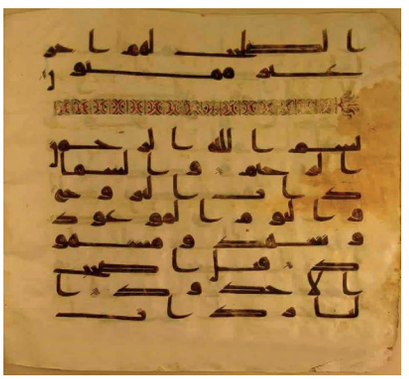

الخطّ الكوفي

وقد سُمّي الخطّ الكوفي في بدايات هذا العهد بـ«الخطّ العُقباني» نسبة إلى عقبة بن نافع الفهري -رضي الله عنه- ثم أصبح يُسمّي بـ«القيروانيّ» حين بُنيت حاضرة القيروان. وكانت هي عاصمة بلاد المغرب في تلك الحقبة، ومنها انطلقت مواكب الدّعاة والفاتحين، ولمّا شاع استعماله في سائر أقاليم شمال أفريقيا المسلمة صار يُسمى بالخطّ الأفريقي، أو الخطّ الكوفي الأفريقي.

أما عن السّمات الشّكليّة للخطّ الكوفي فهو يمتاز بتشكل حروفه منخطّ مستقيم أبداً، أو منتصب ومسطح فلا يدخله التّعريق والانفراج، ولا يقبل الانحناء؛ فلا تجده إلاّ زوايا قائمة وحادّة ومنفرجة، ولا يدخله تنقيط الإعجام، ولا ينحدر تحت السّطر أبدا.

الخطّ الكوفي القيرواني
أو الخطّ الكوفي الأفريقي

ولما فتح المسلمون بلاد الأندلس سنة (92هـ/ 670م) على يد طارق بن زياد اتخذوا من مدينة قرطبة عاصمة

لهم، وشرعوا في بناء العمران، وإنشاء الحواضر، وترقيّة العلوم، وبلغوا في ذلك مع مرور الزّمن، ذروة التّقدم، وارتفع مستوى الحياة لديهم إلى درجة عاليّة. وكان الخطّ الكوفي، في البدايّة، هو المرافق لهذا المشوار الحضاري، لكنه ما لبث أن خضع لشيء من التّطور، وتولد منهخطّ جديد سُمي بالخطّ الأندلسي أو القرطبي.ومن سمات الخطّ الأندلسي أنه تكثر فيه الزّوايا، ويتميّزبانحائه واستدارتهمختلفا بذلك عن الكوفي الذي كان يتميّز بالاستقامة.

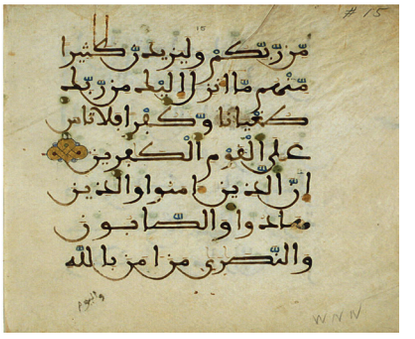

الخطّ الأندلسي

وقد انتشر الخطّ الأندلسي وتوغل في إسپانيا وجنوب فرنسا حتى بلغ، في ظل فتوحات المسلمين، إقليم «اللوار» الجنوبيّة في العقود الأولى من القرن الثاني للهجرة.ومنذ ذلك التّاريخ قُدر للعربيّة وكنوزها العلميّة أن تبلغ الذروة انتشاراً بين الرّاغبين في العلم من الأوربين في إسپانياوالأمم المجاورة ممن كانوا ينزحون إلى ديار الأندلس طلباً للعلم في وقت كان المسلمون فيه يَحذقونه ويحتفظون بتراثه. ونظرا إلى هيمنة هذا التّراث وعلو شأنه في المقامات العلميّةلم يجدالأوربيون من محبي العلم بدا من أن يتعلموا لغةَ المسلمين ليتعلموا بها العلوم، ويقرؤوا بها المخطوطات، ويحفظوا بها الآداب العربيّة من شعر ونثر وزجل.

ومنذ ذلك التّاريخ قُدِّر للكثير من ألفاظ العربيّة أن تدخل في لغات هؤلاء، وما يزال أثرها واضحاً شديد الوضوح في لغات الإسپان وصقليّة وإيطاليا الجنوبيّة.وقد بلغ من تأثير غزو الحروف العربيّة أن اتخذها الإسبان والصّقليون وكثير من أمم أوروبا لزخرفة المباني والعملة، وظل (المدجّنون) يكتبون لغتهم الإسپانيّة بالحروف العربيّةردحا طويلا من الزّمن (والمدجنون: هم المسلمون الذين تنصّروا بعد زوال ملك المسلمين في إسپانيا) .

وتروي لنا المصادر الأندلسيّة، أنه كان في (الرّبَض) شرقي (قرطبة) مئة وسبعون امرأة كلُّهن يكتبن المصاحف بالخطّ الكوفي، وأن الخطاطة (راضيّة) مولاة (عبد الرّحمن النّاصر لدين الله) ممّن كُنَّينسخن الكتب في الدّواوين السّلطانيّة من الأندلسيات، ويذكر أن الخليفة (النّاصر لدين الله) حين ضعُف بصره في أواخر أيامه استحضر خطاطةً بارعة تُدعى (ستّ نسيم البغداديّة)، كانت تكتب خطاً قريباً من خطِّه فجعلها بين يديه تكتب الأجوبة والرّقاع.

وتذكر الرّوايات أن أهل (الأندلس) افترقوا في الأقطار عند تلاشي ملك المسلمين فيها، وشاركوا أهل العمران بما لديهم من الصّنايع، وغلب خطهم على الخطّ الأفريقي وطغى عليه، ونُسي خطّ القيروان، وصارت خطوط أهل أفريقيا كلُّها على الرّسم الأندلسي بتونس وما إليها لوجودالأندلسيين الذين قدِموااليها من شرق (الأندلس)، وصار خطّ أهل أفريقيا من أحسن خطوط أهل (الأندلس).

وبعد الانتشار الواسع الذي حظي به الخطّ الأندلسي، لا سيما في عهد الدّولة المرينيّة، انتقل إلى بلاد المغرب الكبير، وحصلت له بعض التّطورات البسيطة، وأصبح يسمى – بموجبها- الخطّ المغربي، وهو الخطّ ذاته الذي قال عنه (ابن خلدون) إنّه قد تغلّب على الخطوط الأخرى في المغرب، وترجع بداياته إلى القرن العاشر على وجه التّقريب، إذ كثرت في هذا الوقت هجرة الكتب الأندلسيّة مع هجرة أهلها بسبب ضغوطات الإسپانو تحرّشاتهم، وقد كانوا أحذق النّاس في النّسخ والوراقة. وتُعتبر مدينة (قسنطينة) من بين الحواضر الجزائريّةالتي جُوّد فيها هذا الخطّ، إلى جوانب حواضر أخرى برع أهلها كذلك في تجويد الخطّ المغربي المتحول عن الخطّ الأندلسي مثل تلمسان، وفاس، ومراكش، وغيرها من حواضر بلاد المغرب العربي الكبير التي ورثت الخطّ الأندلسي من جملة ما ورثته من الحضارة الأندلسيّة التيما تزال نغماتها تتردد في الآذان وروحها ما تزال تتجلى وتتجدد في سائر الشّؤون والمرافق.

الخطّ المغربي

وقد كان انتشار الخطّ المغربي في أفريقيا والأندلس متوافقاً في ذلك العهد مع انتشار مذهب الإمام مالك، وظل هو الخطّ العربي الوحيد المستعمل في بلاد المغرب العربي إلى نهايّة وجود الاحتلال الفرنسي.ويجدر التّنبيه ههنا إلى أن تسميّة هذا الخطّ بـ«المغربيّ»لاتقتصر على المغرب الأقصى فحسب مثلما قد يوحي به ظاهر اللفظ، بل هي تسميّة تغطي مجموع

الاستعمالات السّائدة للخطّ العربي في شمال أفريقيا والسّودان والسّنغال. وقد اصطلح المهتمون على نعتِ كلٍمن هذه الاستعمالات الخطيّة بنسبته إلى البلد الذييوجد به(الخطّ التّونسي، والخطّ الجزائري، والخطّ الفاسي، والخطّ السّوداني). وعلى الرّغم مما بينها من الاختلاف في الاصطلاح وفي السّمات الدّقيقة لأشكال الرّسم الخطي فإنها ترجع جميعا إلى أصل واحد هو الخطّ المغربي؛ ذلك أنها، في النّهايّة، ليست إلا فروعا له وتمثلاتٍ مختلفة لصور حروفه وأشكالها، وفيما يلي تعريف بهذه الخطوط الأربعة:

– **الخطّ التّونسي**: هو الخطّ الذي يشابه كثيراً الخطّ المشرقي، غير أنه يتبع الطّريقة المدينيّة (هي إحدى الطّرق الصّوفيّة) في تنقيط الفاء والقاف (وضع نقطة أسفل حرف الفاء، وأخرى فوق حرف القاف، ولعلها من أهم السّمات التييتميّز بها الخطّ المغربي عن خطوط المشرق)،

– **الخطّ الجزائري**: وهو على العموم حاد وذو زوايا وصعب القراءة غالباً.

– **الخطّ الفاسي**: يُنسب إلى مدينة (فاس)، ويمتاز باستدارة حروفه، وهو خطّ مراكش كذلك.

– **الخطّ السّوداني**: وهو على العموم غليظ وثقيل، وغالباً ذو زوايا أكبر مما هو مستدير، وقد انتشر هذا الخطّ انتشاراً عظيماً في القرن الثاني عشر بانتشار الإسلام بين شعوب وسط أفريقيا.

ومن الباحثين من يضيف نوعاً آخر هو الخطّ السّنغالي، أو التّنبكتي نسبةًإلى مدينة (تنبكتو)، وهي مدينةفي شمال (مالي)، ومن أهم العواصم الإسلاميّة في غرب أفريقيا، وهي من أشهر المدنالتي انتشر فيها الإسلام على يد أهل المغرب في القرن السّابع الهجري، وقد كان الخطّ المغربي من أهم أدوات التّلقي للإسلام ولحضارته في تلك الرّبوع الأفريقيّة المتباعدة.

هذا وقد عرف الخطّ المغربي أنواعا أخرى باعتبار مجالات استعماله؛ ذلك أن ممارسة الخطاطين له، على مرِّ الزّمان، جعلته يتجسد في خطوط تختلف سماتها وصور حروفها باختلاف مجالات استعماله؛ وهذه الخطوط هي:

– **الخطّ المبسوط**: ويسمى، كذلك، خطّ المصاحف، إذ به تطبع في المطابع، وهو الخطّ الذي يُتعلّم في الكتاتيب، وتُنسخ به كتب الصّلوات والأدعيّة، ويُسمى بالمبسوط لبساطته وسهولة قراءته، ويوجد في المصاحف القديمة، وبه طُبع المصحف الشّريف في المطابع؛

– **الخطّ المجوهر**: هو أكثر الخطوط استعمالا، ومن نماذجه خطوط المراسيم السّلطانيّة، والرّسائل الخصوصيّة والعموميّة، وبه طُبعت الكتب العلميّة بالمطابع. وسبب تسميته بـ«المجوهر» نسبة إلى عِقد الجوهر لجماله وتناسب حروفه وتناسق تطوره؛

– **الخطّ المُسند**: ويسمى كذلك الزّمامي نسبة إلى «الزّمام»، وهو اصطلاح شاع في دور المحاكم في بلدان المغرب الكبير، ويراد به دفتر المحكمة الذي تُضبط فيه أحكامُها، وتُقيّد عقودها، وبيانات وثائقها، ويُستعمل هذا الخطّ لدى المشتغلين في العدول والمحاكم في كتابة الوثائق العدليّة، والمُقيِّدات الشّخصيّة، وعقود الزّواج، وما شابه ذلك، ومن سماته أن قوائمه تميل نحو اليمين كالخطّ الفارسي، وبه تشابهٌ لبعض حروفه؛

– **الخطّ المشرقي المتمغرب**: خطّ مقتبس من الكتابة المشرقيّة، ولكن مَغْرَبَتْهُ يدُ المُبدعين المتقدمين، وتصرفت فيه أذواقهم، وبه تُزخرف عناوين الكتب، وتُرسم تراجمها وخواتمها، ويُكتب–عادة– بحروف غليظة متداخلة بعضها في بعض، وكثيرا ما يُكتب بماء الذهب، ويُزخرف ويشجر بألوان وأشكال مختلفة، ومن نماذجه الوقفيات المنقوشة على اللوحات الرّخاميّة؛

– **الخطّ الكوفي المتمغرب**: ويسمى كذلك بالكوفي القيرواني، وهو، في أصله، خطّ كوفي، وإضيفت إليه فنيات وأساليب ابتكرها المغاربة، وهو الخطّ المستعمل في كتابة المصاحف والكتب القديمة، ونجده منقوشا في الحجر على أبواب بعض المدن والقصور، ومحفورا في الجبس على جدران المدارس والمساجد العتيقة، ومدافن الملوك والأمراء والأولياء الصّالحين.

وللخطّ المغربي، في عموم وصفه، حظ كبير من الجمال والأناقة بفضل أسطره العموديّة، والتّباعدِ بين أحرفهالتي تمتد أشكالها، وأسطرِهالتي اتَّحد حجمها ورقَّ مظهرها قليلاً، وحروفِه المدوَّرة التي يسهل التّعرف عليها، وهو من أنفس الخطوط العربيّة وأجملها شكلاً وهندسةً، وبلغ مكانة هامة جعلت الخاصّة يهتمون به، ويستعملونه في تزيين جدران القصور والمساجد وسقوفها، كما تحت به نفائس المخطوطات التي تعد درّة في عقد الفنون الإسلاميّة. ومع ذلك لم يعرف انتشارا خارج حدود البلاد التي ظهر فيها، وانحصرت شهرته في أفريقيا الشّماليّة، وإسپانيا المسلمة، وفي جزء من أفريقيا السّوداء.ويرجع ذلك إلى

سياسة الإقصاء والتّجاهلالتي مارسها العثمانيون على شعوب منطقة المغرب العربي من جهة، وإلى ثقافة المناجزة والتّنادّ التي تعاطاها المشارقة إزاء كل ما يقدمه المغاربة من منجزات علميّة وحضاريّة من جهة ثانيّة.

2 – الخطّ العربي في الجزائر خلال العهد العثماني (1518–1830):

حل العثمانيون بالجزائرسنة 1518م بعد استجابة لنداء الحمايّة الذي أطلقه الجزائريون جراء هجمات العدوان الصّليبي الذي قادته(إسپانيا) و(البرتغال) على السّواحل الجزائريّة، وكانت سفن الأسطول العثماني آنذاك تجوب عرض البحر الأبيض المتوسطلإنقاذ مسلمي الأندلس الهاربينمن بطش الصّليبيين الحاقدين. فلما اشتدّت الحملة الصّليبيّة على أهل المغرب هبّ العثمانيونفي نجدتهم، وكان نتيجة ذلك دخول الجزائر تحت الحمايّة العثمانيّة، ثم أصبحت (ولايّة) يحكمها قانون الباب العالي. وبقيت الجزائر تحت حكم العثمانيين إلى أن أصابتها نكبة الغزو الفرنسي سنة 1830م.

وكان الحكام الأتـرك الذين حكموا الجزائر طيلة ثلاثة قرون في معزل عن الشّعب وهمومه؛فبدلاًمن أن يطبقوا تعاليم الإسلام في الحكم، وأن يؤاخوا بينهم وبين السّكان، وأن يشاوروهم في الأمر، وأن يفسحوا المجال أمامهم، وأن يختلطوا بهم ويخالطّوهم، بدلاً من ذلك كله أساؤوا التّصرف كمعظم الحكام في ذلك الوقت؛ فاستأثروا بالحكم دونهم، واحتكروه في أيديهم طيلة الفترة العثمانيّة، واستبدّوا بالسّلطة، واستعلوا على السّكان، وعاملوهم معالمة المنتصر للمهزوم.

بالإضافة إلى ذلك كان الوجود العسكري هو الطّابع المميز للحكم العثماني في الجزائر، فقد كان جهاد العثمانيين للصليبيين جهادا متواصلا، نظرا إلى استمرار التّهديد الأجنبي لا سيما من قبل الإسپانيين والبرتغاليين. وقد كان لهذين العاملين – وهما عامل الخوف الدّائم من تهديدات العدوان الصّليبي في الخارج، وعامل الاستبداد المطلق في ممارسات الحكم في الدّاخل – بالغ الأثر في ركود الحياة الثقافيّة في الجزائر، وفي توقف حركيّةالتّنميّة لا سيما على مستوى مظاهر التّمَدْيُن، وفي الحياة العلميّة، وغيرها. فقد كان همُّهم العمل السّياسي، والحفاظ على الكراسي، وعدم تمكين الجزائريين من الحكم، وتقسيم المجتمع الجزائري إلى طبقات اجتماعيّة متفاوتة يكون في قمتها الأتراك.

لذلك لم يكن الجزائريون على علم أو داريّة بما يحيط بهم من النّهضات العلميّة والفنيّة، والتّقدم الصّناعي الذي شهدته الأمم الأوربيّة، وذلك لأن الحكومة التّركيّة الحاميّة كانت على عداوة بالغة مع الدّول الأوربيّة، وعلى حروب مستمرةمعها.

وفي ظل هذه الأجواء لا غرابة أن تعرف الجزائر ركودا علميا في كل الميادين في الفترة العثمانيّة، ومع ذلك ظلالجزائريون محافظين على موروثهم الدّيني، وعلى تراثهم القرآني، وثقافتهم العربيّة الإسلاميّة إلى أن غزاهم الفرنسيون واحتلّوا أرضهم في نهايّة العقد الثالث من القرن التّاسع عشر.

وقد كانت ممارسة الخطّ العربي (والمغربي منه على وجه الخصوص) لدى الجزائريين على درجة عاليّة من الحذق والمهارة، وكانت لديهم طريقة فنيّةمميّزة، وكانت مهنة الخطّ مهنة شريفة، ونشاطا فنيا راقيا يتنافس عليه المتنافسون، ويمتهنه من كانت لديه القدرة على الكتابة والنّسخ، وكان الخطّ المتداول والمعتاد هو الخطّ المغربي الموروث عن الخطّ الأندلسي مثلما سبق بيانه.

وقد عَرف الخطاطون الجزائريون –ومعهم في ذلك سائر المغاربة في بلدان شمال أفريقيا– خلال العهد العثماني مختلف الأنشطة والفنون الخطيّةالتي كان لها حضور كبير في توجيه الحياة العلميّة والثقافيّة، وإسهام واضح في ترقي المستوى الفني للبناء المعماري، والفنون التّشكيليّة بعامة. ومن هذه الأنشطة نذكر: كتابة المصاحف، ونسخ المخطوطات، وكتابة اللوحات الخطيّة، ونقش الخطوط وزخرفتها على جدران المباني.

2 – 1 – مهنة النّساخة في الجزائر خلال العهد العثماني:

شاعت حركة النّسخ والاستنساخ في الجزائر في العهد العثماني حتى إنه كان لمهنة النّساخة اختصاصيون مشهورون. ومن شروطها جودة الخط، والمهارة في التّوثيق، والدّقة في العمل، وصحّة النّظر، وحسن اختيار الورق، وإتقان صناعة الوراقة. والنّسخ نشاط فني تجاري يطال كل مكتوب يحتاج النّاس إلى قراءته؛ كالكتب، والرّسائل، واللوحات الفنيّة. ومن أهم أنشطة النّسخ كتابة المصاحف، وقد دأب الجزائريون على كتابة المصحف الشّريف والعنايّة به خطا ورسما بالألوان. وتجليدا وحفظا لقراءاته. وقد تعوَّدوا على كتابة المصاحف بالخطّ المغربي المبسوط. كما دأبوا على نسخ المخطوطات، وتنافسوا في إتقانه، وكانوا يدوّنون نسخهم بالخطّ

المغربي، ومن أصناف المخطوطات التي يُقبل الخطاطون على نسخها: التّفاسير، والعلوم الدّينيّة، ومختلف العلوم اللغويّة والأدبيّة والفكريّةالتي كان النّاس يحتفون بالاطلاع عليها وبتحصيلها آنذاك، وذلك قبل ظهور الطّباعة.

ولئن كانت النّساخة لدى الجزائريين حرفة معروفة لها أهلها واختصاصيوها المشهورون فقد كانت، كذلك، طريقا من طرق اقتناء الكتب. ذلك أن الحريصين على جمع الكتب كانوا ينسخونها بأنفسهم أو يستنسخونها غيرَهم، مثل تلاميذهم إذا كانوا أساتذة، أو يستنسخون كتَّابَهم إذا كانوا أمراء ومسؤولين. وكان بعضهم يستنسخ المؤلفين أنفسهم.

وقد ظهرت حرفة النّساخة في العديد من المدن الجزائريّة، غير أن المدينة التي اشتهرت بها هي مدينة (قسنطينة) التيبلغ فيها بعض النّساخ والخطاطين مرتبة عاليّة من المهارة والإبداع حتى قارنهم بعض الكتاب بـ(ابن مقلة) في حسن الخط. ومن هؤلاء (أبو عبد الله بن العطار)، و(إبراهيم الحركاتي)، و(محمّدالزّجاي)، وسنأتي إلى بيان بعض جهودهم في فن الخطّ عند التّعرض لأشهر الخطاطين.

وكان النّسخ يتم بالخطّ المغربي الذي قال عنه (ابن خلدون) إنه قد تغلّب على الخطوط الأخرى في المغرب العربي، وهو الخطّ الذي تولّد عن الخطّ الأندلسي. ويستعمل بعض الخطاطين، كذلك، الخطّ المعروف بالعثماني، وهو الخطّ الذي وفد مع العثمانيين. ومع أهل العلم الذين حلوا بالجزائر، كما وفد مع الخطاطين المختصين أيضا؛ فقد أخبر (محمّد خليل المرادي) أن المسمى (حسينا بن عبد الله الجزائري) قد أسهم في إدخال الخطّ العثماني إلى الجزائر.

وتشير المصادر إلى انتشار صناعة الكتب في الجزائر خلال العهد العثماني، وتقوم هذه الصّناعة على الاشتغال بجملة من الأعمال كالوراقة، والتّجليد، والنّسخ، والخط، ونحو ذلك؛ فقد جاء في «منشور الهدايّة» أن الطّالب (محمّد النّقاوسي) كان سمسارا في الكتب في قسنطينة. وفي تلمسان اشتهر (علي بن تجيرست) بالاشتغال بالوراقة، كما كان يُسمِّع الحديث في الجامع الكبير بتلمسان. وروى (ابن حمادوش) عن نفسه أنه كان يشتغل بالكتب بيعا وتجليدا ونسخا في مدينة الجزائر وأنه كان يملك دكانا لهذا الغرض قبالة الجامع الكبير. وكان في الجزائر سوق يُدعى سوق الوراقين، ولعله هو سوق القيصريّة الذي ذكر (حمدان خوجة) في (المرآة) أنه كان مخصَّصا لبيع الكتب، وأن النّساخين كانوا فيه بكثرة.

ومن أشهر المسؤولين الذين شجّعوا على حركة النّسخ والاستنساخ الباي (محمّد الكبير). فقد شجع الطّلبة وكتابه الخصوصيين على اختصار الكتب المُطولة، ونسخِ بعض الكتب الأخرى له. وكان يجزي كل واحد منهم بسخاء حسب عمله وجهده؛ من ذلكأنه أمر بعضهم بنسخ «فتاوى العلماء في جوائز الملوك» في كراسة، وجمع له بعضُهم كلام شارح السّلوانيّة في الباز، وكلام صاحب التّذكرة في أقل من كراسة. وقام مؤلف «الثغر الجماني» باختصار كتاب «الأغاني» في نحو ثمانين كراسة، وباختصار «طب القاموس» وزاد عليه من كلام الأطباء، وأمر الباي بعض كتابه أيضا، وهو (محمّد المصطفى بن زرفة)، بتقييد حوادث الجهاد التي كانت تجري بين الجزائريين والأسبان.

وكان التّفنن في الخطّ والكتابة من وسائل التّعبير الجمالي في هذا العهد؛ ففي الوقت الذي غاب فيه التّصوير –استجابة لفتاوى العلماء في تحريم التّصوير– لعب الخطّ دورا بارزا في إظهار المواهب الفنيّة المحليّة، وفي منح الخطاطين مكانة مرموقة بين النّاس، وتقديرا معتبرا لمهنتهم، وقد كان من آثار ذلك انتشار فن الخط، وحرفة النّساخة، وازدياد مظاهر البراعة والتّنافس بين الخطاطين والنّساخين.

2 – 2 – الطّباعة في الجزائر خلال العهد العثماني:

منذ ظهور الطّباعة في أوربا على يد الخبير (Johannes Gutenberg/ يوحنّا غوتنبرغ) (1398–1468) سنة 1431م ببلده الأصلي (ألمانيا) اهتم الأوربيون بنشر الكتب العربيّة للاستفادة من معارفها، فكانت أول مطبعة تطبع الحرف العربي هي مطبعة فانو بإيطاليا، تأسست بأمر من البابا (IuliusII / يوليوس الثاني)، ودشنها البابا (Leo X/ ليون العاشر) سنة 1514م... وكان أول كتاب طبع فيها كتاب ديني يصف ترانيم النّصارى وصلواتهم، ثم كتاب سفر الزّبور سنة 1516م. وكانت أول طباعة للقرآن الكريم بواسطة ماكينات الطّباعة في مدينة (البندقيّة) بإيطاليا عام 1530م ـ ولكن السّلطات الكنسيّة أمرت بإحراق هذه الطّبعة فور ظهورها خوفا من تأثيرها على عقيدة النّصارى. وفي سنة 1547م صدرت ترجمة للقرآن الكريم باللغة اللاتينيّة.

ومن العجيب أنه عند أول ظهور للمطبعة لدى الإيطاليين طعن علماؤهم فيها طعنا جارحا، حتى إنهم قالوا عنها إنها بدعة همجيّة ألمانيّة، ونادى كهَنَتُهُم: «لنهْدِم كيان الطّباعة أوتهْدِمُ

هـي كياننا». وفـي بدايّة ظهـور الكتب المطبوعة اسـتنكرها النّـاس ولم يقبلوا علـى شـرائها. وكان أول مصحف طبع باللغـة العربيّة وانتشـر هـو المصحف الـذي طُبع فـي همبـرج بألمانيا سـنة 1701م، ويوجـد منه نسـخة بدار الكتب العربيّة بالقاهرة.

ولم تدخل الطّباعـة باللغة العربيّة إلى البـلاد الإسـلاميّة إلا في عهد السّـلطان العثماني (أحمد الثالث) (1703 – 1730م)، حيث أفتت مشيخة الإسلام بجوازها في الكتـب الدّينيّـة، ولكنها حرّمـت طباعة المصحف الشّـريف في بـادئ الأمر، ثم أُذِن لمطبعة (إبراهيم الهنغاري) بإسطنبول بطباعـة المصحف الشّـريف، فكان أول مصحفطُبع في (إسطنبول) سنة 1727م.

وانتشـرت المطابع باللغة العربيّة بعد ذلك في المشرق وكثرت؛ فأنشئت مطبعةٌ في (حلب) سـنة 1702م، ثم في (الشّـوير بلبنان) سـنة 1720م، ثم في (بيروت) سنة 1751م، ثم في (مصر) مع حملة (Napoléon Bonaparte/ نابليون بونابرت) سنة 1798م.

والغريب أن الجزائر لم تعرف الطّباعة في فتـرة الحمايّة العثمانيّة، سـواء أكانت طباعة الصّحف أو الكتب العلميّة، فضلا عـن القرآن الكريـم، على الرّغـم من أن بعـض الجزائرييـن سـبق لهـم أن زاروا أوربـا قبل 1830م (تاريخ الغزو الفرنسـي للجزائـر)، واطلعواعلـى الصّحـف في فرنسا وبريطانيا وغيرهما، ذلك أن طباعة الصّحف قد نشـأت قبـل قرنين من ذلك الزّمان، ولم تعـرف الجزائر هذه الظّاهرة الإعلاميّـة الثقافيّة الهامـة إلا بعد دخول الفرنسيين غزاةً.

وقـد كانت فـي الجزائر – فـي العهد العثماني – قنصليات لبلدان أوربيّة كانت تصلهـا صحـف بلدانها علـى الأرجح، وقد كان عـدد من الجزائرييـن المثقفين يعملـون فـي هـذه القنصليـات، ولكنه لـم يثبـت أن أحدهم حـاول إدخال هذه الوسـيلة الإعلاميّـة إلى بلده، مـع أنه قد ثبت ظهورها في (مصر) و(إسطنبول) قبل الاحتلال الفرنسي.

وهنا يقوم التّسـاؤل عن سـبب غياب الصّحافـة وطباعـة الكتب فـي الجزائر خـلال العهـد العثمانـي: هل كان سـببا دينيا؟، وقد ثبـت أن الإمام مفتي الجزائر (محمّد بن محمـود بن العنابي) (1775– 1850م) كان يدعو إلى تقليد الأوربيين في مدنيتهم ونهضتهم ما لم يخالف الشّريعة، ولا خـلاف فـي أن الصّحافـة والطّباعة داخلة فـي هـذا، أم كان سـببا اجتماعيا سياسيا؟

ويقول الدّكتور (أبو القاسم سعد الله) محاولا الإجابـة على هذا السّـؤال: «إن أحد الغربيين ـ وهو (بنانتي) ـ يُرجِع عدم إنشاء المطبعة، في الجزائر [أي في العهد العثماني]، ونشـرِ الكتب والمطبوعات، ومنهـا الصّحافـة، إلـى كـون الوراقين لا يرغبـون فيهـا لأنها ستسـبِّب كسـاد بضاعتهم، وهي النّساخة، ويذهب إلى أن الحكومة كانتتجاري هذه الرّغبة محافظة على التّوازن الاجتماعي، ولكَّن موضوع الصّحافة كوسيلة إعلاميّة ظل غير مطروح عندئذ، سـواء في المسـتوى الرّسمي أو الشّعبي».

ويمكن القـول إن غيـاب الطّباعة في الجزائـر في هـذه الحقبة منَحَ لممارسـة فن الخطّ مزيـدا من الظّهور والانتشـار، واستمرارا في النّشاط والانتعاش؛ إذ ظلت الحاجـة قائمةً إلى النّسـخ والنّسـاخين، وإلى الخطّ والخطاطين، ذلك أن الحرف العربي، فـي تلك الفترة، لـم يجد النّاس طريقهـم إليـه إلا عبـر فن الخـطّ ومهنة النّساخة اللذين من شأنهما، حينما يشيعان بين النّاس، أن يغذيا في النّفوسإحساسـا جميلا بعراقـة الثقافة العربيّة الإسـلاميّة وبأصالتّها، وأن يتركا مجالا واسعا لتربيّة الذوق الفني عند التّعامل مع الخطّ العربي وممارسته.

والدّليـل على ذلك أن ظهـور الطّباعة غداة غزو الفرنسيين للجزائر قد أدى إلى تغيير مسار التّعامل مع الخطّ العربي، ومع نشاط النّسـاخة، وهو النّشـاط الذي كان يشـغل حيزا كبيرا من اهتمامـات النّاس في عالمي القـراءة والكتابة قبل الطّباعة، لا سـيما في طباعة المصحف الشّريف. ولمّا ظهـرت الطّباعة عـرف المصحف الشّـريف مرحلة جديدة من الانتشار في بيوتات المسلمين، وبدأ يظهر المصحف المطبوع بشـيء من التّدرج؛فمن انتشـار محتشم قليل، إلى انتشـار واسع النّطاق، كبير المجال، متعدد الصّور والأنواع، ومع ذلك لم يكـن ظهورالطّباعة مسـتمرا في الجزائر آنذاك، وقد اقتضت ظروف انتشار الطّباعة وقتا طويلا حتى يتعود النّاس على التّعامل مع منشـوراتها، وقـد كان لذلك أثـره في اسـتمرار وجود الخـطّ العربي، واستمرار مهنة النّساخة.

2 – 3 – فن زخرفة الخطوط ونقشـها على الجدران فـي الجزائر خلال العهد العثماني:

ظهرت الزّخارف الفنيّة بواسطة الخطّ العربي فـي بلاد المغـرب الكبيرفي عهد مبكر، وبـدأ أول هذا العهد بما اسـتلهمه المغاربـة من حضـارة البنـاء المعماري فـي الأندلس، وبمـا ورثوه من أسـاليب وطرائق شـاعت أيام الأغالبة والحفصيين والزّيانييـن، كل ذلـك أمدَّ بـلاد المغرب الكبيـر بعامـة والجزائـر بصـورة خاصّة بلمسـة فنيّـة فريـدة، فـي زخرفـة الدّور والقصور والمساجد، وجعلها تتميز بطابع فني متميز.

وسجلت الفترة العثمانيّة لجهود الخطاطين الجزائريين في زخرفة العمائر آثارا معتبرة، ولكنها لم تدم طويلا. وكانت مهارتهم قد برزت في فنون الخطّ والزّخرفة في المنازل والتّجليد وبعض الرّسوم والنّقوش. وعلى الرّغم مما يتداول عن تحريم التّصوير في الإسلام فإن الآثار تدل على عدم الالتّزام بذلك دائما. وقد ظهرت الزّخرفة على الأكثر في توظيف النّباتات أكثر من الحيوانات في الرّسم والتّصوير. والمعروف أن أوليات الرّسم عند الجزائريين تبدأ من المدرسة القرآنيّة حين يرسم التّلميذ على لوحته رسوما مختلفة ويلونها بما أمكنه من الألوان. وقد يرسم عندئذ ما في محيطه من أشجار وعصافير وخطوط. وهو يلجأ إلى رسم معين ويتفنن فيه كلما أكمل (ختمة) لحزب من القرآن. وكثيرا ما يباهي التّلميذ بذلك أقرانه. وقد يكتب سورة الفاتحة ويحيطها بإطار ملون جميل فيه أشكال هندسيّة على قدر عقله ومحيطه.

وكان المتوقع أن تزدهر الفنون بالجزائر مع تقدم العلم والفن والاتصال مع الخارج. ولكن الذي حدث هو العكس مثلما لاحظ بعض المؤرخين؛ فقد انقطع الإنتاج القديم، ولم يحدث الجديد. وعاش الفنانون الجزائريون عهدا طويلا من الظّلام الدّامس دام أكثر من سبعين سنة (جيلان تقريبا). وخلال هذا العهد الطّويل لا نكاد نجد من استعمل الرّسم والزّخرفة، لأن الأذواق اختلفت، والإمكانات انقطعت، ومجالات العمل بهذه الفنون قد تولاها غير المسلمين، مثل فن البناء والتّجليد، وغيرهما.

وقد اشتهرت أسرة (ابن صارمشق) التّلمسانيّة بهندسة البناء والنّقش والخطوط، ونذكر منها المعلم (أحمد بن محمّد بن صارمشق) الذي بنى جامع العين البيضاء في معسكر سنة 1175، والمهندس (الهاشمي بن صارمشق) الذي رسم جامع سيدي بومدين في (تلمسان)، سنة 1208، وعُرف من فناني هذه الأسرة وخطاطيها (محمّد بن صارمشق) الذي وُجدت نقوشه على عدة آثار عمرانيّة، وكان موجودا سنة 1164. ومن النّقاشين أيضا الأصطا (حسين) و(علي بن محمّد التّونسي) و(أحمد بن عمر التّونسي) أيضا، وهم الذين وُجدت خطوطهم على مسجد ومدرسة (الخنقة). وكذلك (إبراهيم الجركلي) الذي نقش الآيات المحفورة في جامع كتشاوة، والمعلم (اللبلابشي) الذي نقش باب جامع (عليبتشين). وهكذا. ومن هنا نقول إن الخطّ العربي بالجزائر ظل في تواصل مستمر مع الماضي، ذلك أن استجابتَه لنوازع الخطاطين الإبداعيّة جعلت منه عنصراً تشكيلياً مهماً، إذ حاولوا الاستفادة من قدراته الإبداعيّة الهائلة على التّنويع والتّعبير والتّشكيل.

ونضيف هنا أن الكتابة المنحوتة أو المنقوشة على جدران المساجد وأبوابها ومحاريبها، وفي القصور ونحوها من المنشآت، كانت تجمع بين فن الخط، والتّصوير، والنّحت، وهي من الفنون التي لا تزال تحيا وتُمارس إلى اليوم، ومع ذلك فلا نجد تأليفا خاصّا بهذا الفن من علماء الجزائر خلال العهد العثماني.

2 – 4 – أشهر الخطاطين الجزائريين في العهد العثماني:

– حسين بن عبد الله الجزائري (ت:1713م): من أهم إسهامات (حسين الجزائري) إدخال الخطّ المعروف بالخطّ العثماني إلى الجزائر. وكان اسمه الحقيقي دِلاور، وهو رومي الأصل. وكان عبدا عند سيده الدّرويش (علي الكاتب القسطنطيني). وكان سيده مشهورا بالكتابة وحسن الخط. وبعد أن أخذ (حسين الجزائري) عن سيده الكتابة وحسن الخطّ فر هاربا منه إلى الجزائر، وسمّى نفسه حسينا واشتهر بالجزائري. ثم جاء إلى مصر ومات في القاهرة سنة 1125هـ. وقالعنه (محمّد خليل المرادي)في «سلك الدّرر»: «اشتهرت خطوطه بين النّاس وأخذ عنه الخطّ أناس كثيرون، وفاق أقرانه وشاع صيته، وله مهارة في صناعة التّوريق. وعلى الرّغم من أن المرادي لا يذكر أين حلّ حسين الجزائري فإن المتوقع منه أن يكون قد حل بمدينة (الجزائر). ولعله قد أقام في غيرها من المدن، كما أن المدة التي قضاها في الجزائر غير معروفة، ولا التّلاميذ الذين تخرجوا على يديه فيها.

– أحمد التّليلي: هو من أصل تونسي من مدينة (قفصة)، لكنه رحل إلى مدينة (قمار) بـ(وادي سوف) (الجزائر)، وأقام بها مع عائلته سنة 1760م، وكان بديع الخطّ سريع اليد، وكان ينسخ كراسا من القالب الكبير أثناء السّفر. أما عند الإقامة فكان ينسخ أكثر من ذلك. ومن الكتب التي نسخها: «رحلة الدّرعي»، وكتاب الصّباغ عن (الملياني)، وجميع ذلك حوالي ستين كراسة. وكان التّليلي من علماء الظّاهر والباطن.

– بكير حفيظ خوجة: يُعدّ بكير حفيظ خوجة من أشهر الخطاطين في مدينة الجزائر، وقد كان أيضا يشغل وكالة ضريح سيدي يحيى.

– أبو عبد الله بن العطار: كان من أسرة شهيرة تولّت الوظائف الرّسميّة في العهد العثماني. وقد عرف العطار بجودة الخطّ وربما اشتهر به على (ابن مقلة). وكان يقصده الخاصّ والعامّ في الوثائق والعقود.

– الشّيخ إبراهيم الحركاتي: كان الشّيخ إبراهيم الحركاتي مدرسا بمهنة الخط،

ولكنه اشتهر أيضا بالنّساخة وجودة الخط، وقد شهدله بذلك معاصروه.

– محمّد الزّجـاي (ت:1822م) هو أحد علماء التّفسـير، وعُـرف بالنّسـاخة حتى أصبح لـه فيها مهـارة وطاقة كبيـرة. ومن مهارته أنـه كان يكتب ويحـدث الجالسّ بدون كلل ولا زلّةِ قلم. وكان الزّجاي ينسخ الكتب لنفسه.

– ابن حمادوش: يـروي ابن حمادوش عن نفسـه أنـه كان يشـتغل بالكتـب بيعا وتجليدا ونسـخا في مدينة (الجزائر)، وأنه كان يملك دكانا لهذا الغرض قبالة الجامع الكبير.

3 – الخـطّ العربي فـي الجزائر في عهد الاحتلال الفرنسي:

ابتُليـت الجزائـر علـى مـر تاريخهـا بالاسـتعمار، فمـن عهـد الفنيقييـن إلى الأوربيينالوندالييـن، إلـى الرّومـان، إلى احتلال الإسبان لبعض أراضيها مدة معتبرة من الزّمـان، إلى فرض الحمايّـة العثمانيّة عليها، إلـى غزو الفرنسـيين فـي احتلال شامل لأراضيها لمدة تزيد على قرن وثلاثة عقود.

لقـد كان تاريـخ الشّـعب الجزائـري مع الاحتـلال الفرنسـي البغيـض أعنف تاريـخ عرفته البشـريّة، إنـه تاريخ المحن والشّـدائد والويـلات، تاريـخ المشـاقّ والأهوال، تاريخ الآلام والحرمان، تاريخ المسـخ والفسخ والتّشـويه، تاريخ الإبادة والتّدمير، فمنذ بواكير غـزوه لم يتوانَ في هدم المساجد، أو في تحويلها إلى ثكنات لعسكره، أو اصطبلات لحيواناته، وصادر الأوقـاف والممتلـكات، وهجّرالعلمـاء ونفـى المثقفيـن، وقتّـل المناوئيـن والمعارضيـن. وقد أنصف أحدالسّاسـة فـي وصفـه، وهـو الرّئيـس الأمريكـي (Franklin Roosevelt)/ فرانكليـن روزفلت (1882–1945م) لمّـا قال: «إن الاسـتعمار الفرنسـي هو أسـوأ وأخبث مـا يمكن أن ينكّبَ به شعب من الشّـعوب»، وقال عنه الكاتـب (Alfred Aloysius Horn/ ألفريـد لوسـيس هورن) (1861–1931م): «إذا كان الله قد خلق مستعمرا أسوأ من الاستعمار الفرنسي فإنه لم يطلعني عليه ولم يخبرني به».

3–1– مهنة النّسـاخة في الجزائر في عهد الاحتلال الفرنسي:

كان فـن الخـطّ ضحيّـة للاسـتعمار فـي الجزائـر؛ فقـد تدهـور بتدهـور الثقافـة العربيّـة نفسِـها. فأصبحـت الكتابـة بالحـروف العربيّـة قليلـة. وانتشـرت الأميّة، وسـاد الجهـل، ومن هنـا كانالذيـن يقبلـون عليالخـطّ إذا أرادوا الكتابـة الفنيّـة بالحـرف العربي، أو ممارسـة الخـطّ العربـي فإنهـم يلجـأون إلـى النّقـل والتّقليـد لأنهـم لـم يتعلمـوا غالبـا فـن الخـط، ولـم ينخرطوا فـي الثقافـة العربيّـة، وربما لا تزيـد معرفتهـم فـي العربيّـة عـن حفـظ القرآنالكريـم أو أجـزاء منـه.

وإن الـذي يتأمـل في بعض أسـماء الشّوارع في الأحياء العربيّة القديمة التي تسامح الفرنسـيون في كتابتها بحروف عربيّـة فإنه قد يرى عجبا؛ سـيرى كيف تحول الحـرف المنسـاب الجميل إلى قطعة حجـر أو حديـد لا ذوق فيها ولا انسياب. ولقد أصبحت الحروف نفسها ممسـوخة متأثرة بالأصابـع الغربيّةالتي خطّتها. ولا شـك أنها كانـت من عمل النّقاشين الفرنسـيين أواليهود. وليست من عمل الفنانين الجزائريين.

وقـد كان مـن نتائـج هـذا الواقـع العلمـي والثقافـي البئيـس فـي الجزائـر اختفـاء الاهتمام بمجالات الخـطّ الفنيّة، كالصّحـف، والنّقـش، واللوحـات إبـان عهـد الاحتـلال الفرنسـي، ولـم يبـق من ممارسـات فـن الخـطّ العربـي إلا نسْـخُ المصاحـف. وحتـى كتابـة المصاحـف، لـم يكـن يتعاطاهـا الخطاطـون بـروح الفنـان، ونفسـيّة المتـذوق، وإنمـا كانت مجـرد عمـل آلـي يخلـو مـن الجديّـة، ويقـوم علـى التّسـرع، ولا يُقبـل عليـه أصحابـه إلا لأخـذ الأجـرة لا غيـر، وقد نتـج عـن ذلـك قلـة الخطاطيـن الفنانين الـذي يجيـدون فـن كتابـة المصاحـف، ويتنافسـون علـى إتقانهـا.

وفـي غيـاب الممارسـة لفـن الخـطّ العربـي كادت تنعـدم أيضـا المؤلفـات الخاصّـة بالخـط، تلـك التـي ترسـم القواعـد وتعلـم حـذاق التّلاميـذ كيف يرسـمون ويخطـون علـى بيِّنـة. ومـن كتابـات الجزائرييـن القليلـة المهتمـة بتعريـف فـن الخـطّ العربـي فـي فتـرة الاحتـلال الفرنسـي نذكـر مـا يلـي:

– **منيّـة الكتاب**: يشـير (أبو القاسـم سـعد اللـه) إلى أنـه يذكر هـذا العمل بكل تحفظ لأنه لا يعـرف هويّة مؤلفه، والعمـل يتمثـل فـي قصيـدة طويلـة، وتاريخها مجهول كمؤلفها، ولها بعض الشّـروح، وهي مبتـورة الأول والآخر. وتحتوي علـى 136 بيتا. وذكـر ناظمها عنوانها ومحتواها فقال:

سميتـــه بمنيّـــة الكتـــاب
فـي صفـة التّخطيـط للكتاب

– **رسـالة في الخطّ العربـي**: ذكرها المترجمون للشـيخ (محمّد بن يوسف أطفيش)، وهي ليست في فن الخط، بل في رسم المصحف.

– **رسـالة فـي علـم الخـط**: كتبهـا (أبو يعلـى الزّواوي): وقـد وجّهها إلى الشّـيخ محمّد الحسـن فضـلاء، مدير التّعليم في مدرسة الشّبيبة سنة 1947.

3 – 2 – الطّباعــة في الجزائر في عهد الاحتلال الفرنسي:

حلَّ الأسـطول الفرنسـي الغازي على سـواحل الجزائـر فـي 15 محـرم 1246هـ الموافـق لــ 05 يوليـو 1830م، وكان ممـا أحضـره الفرنسـيون معهـم فـي غزوتهم مطبعة عسكريّة محمولة في إحدى سفنهم، وكانت تسمى (المطبعة الأفريقيّة)، وكانوا يسـحبون منها أعدادا من صحيفة أسموها (الإسـطافيت)، (L'éstafètte) بمعنـى: السّـاعي، وكان أول أعدادها يوم: 06 صفر 1246هــ الموافق لـ 2 يوليـو 1830، وكانت تُرسَـل إلى (فرنسـا) حاملةً أخبار النّصر، ونجاح الحملة، وسـقوط حكومة الدّاي. وتُعدّ هذه الصّحيفـة أول محاولة للطباعة علـى الأراضـي الجزائريّـة، ونـواةًلأول صحيفة في الجزائر، وإن كانت على أيدي الفرنسيين، وقد تحولت المطبعة الأفريقيّة إلى مطبعة رسـميّة تابعة للإدارة الفرنسـيّة التـي اسـتولت علـى مقاليـد الحكم في الجزائر.

وفـي سـنة 1832م جـاءت الإدارة الفرنسـيّة بمطبعة جديدة تَطبع باللغتين: الفرنسيّة والعربيّة، وقد طبعت فيها جريدة Le Moniteur (المونيتورالجزائـري)، وكانت مكلَّفةً بإصدار المعاجم الأولى: فرنسي ـ عربي.

ثـم قوِيَـت حركة النّشـر، وأسسـت الإدارة الفرنسـيّة مطبعـة فـي كل مدينة، وكانـت مهمتهـا طبع الجرائـد والكتب والمنشورات والبطاقات، وقد وصل عدد المطابع الفرنسيّة في الجزائر سنة 1957م: 280 مطبعـة. ومن أشـهر هـذه المطابع: مطبعـة (Fontana فونتانـة)، ومطبعـة (Jordan جـوردان)، ومطبعـة (Carbonyl كاربونيل)، ولم تكتف هذه المطابع بطبع الكتب الفرنسيّة، بل كانت تطبع كثيرا من الكتب العربيّة، لحاجة تراها في سياستها الاستعماريّة، فنجد من أسماء الكتب التي طبعتها: الكتب التي حققها المحقق (ابن أبي شـنب)، وكتاب «تعريـف الخلف» لـ(أبي القاسم الحفناوي) وغيرها.

ومع ذلك لم يتسـن للجزائريين، في ظل سيطرة المحتل الفرنسي وغطرسته، إنشاء مطبعة متخصصة في طباعة الكتب إلا فـي نهايّـة القـرن 19م، فقـد كانت الكتـب العربيّة المطبوعة تتسـرب إلى الجزائر من (سـوريا) و(مصـر)، وكان الفرنسيون يتعاملون، في هذا الشّأن، مع بعض تجار الكتب من المشـرق، ولهم في ذلكأغراض دينيّة وسياسيّة وتجاريّة؛ فالقناصل الفرنسـيون كانوا نشطين في المشرق، ويتعاملون مع أرباب المطابع لتحسين سمعة (فرنسا) من جهة، ولربط علاقات تجاريّـة معهم من جهة أخرى، وكان المستشـرقون الفرنسـيون فـي (الجزائر) وغيرهـا في حاجة إلى معرفة ما صدر من المشرق.

وقد كانت أول مطبعة عربيّة جزائريّة هي مطبعةالتّركيين (أحمد وقدور ابنَيْ رودوسـي)، والتيأسّساها سـنة 1896م، وسـمّياها (المطبعة الثعالبيّـة)، وذلك بعـد قدومهما مـن جزيـرة (رودوس) إلـى الجزائـر للإقامة فيها والاشـتغال بالتّجـارة، وكان هدفهما منإنشـاء هذه المطبعة طباعـة الكتب الدّينيّة والعربيّة، ومـن ضمنهـا المصحـف الشّـريف. وقـد نجحا فـي ربط علاقـات طيبة مع السّلطات الفرنسيّة، وسمح لهما الحاكم الفرنسي بالجزائر(Cambon Jules/ جول كامبون) (1845–1935م) بالاستقرار في مدينة الجزائـر والمتاجرة فـي الكتب. ومهما كانت الأغراض السّياسـيّة لدى المحتل الفرنسـي من هـذه الصّفقة فقد كانت صفقـة مفيدة ومربحة للجزائر، إذ أصبحـت مطبعة رودوسـي أول مطبعة عربيّة فـي الجزائـر يملكها مسـلم من أصـول تركيّـة، وكان لهـا دور بارز في طباعـة المصحف الشّـريف، وكثيرٍ من الكتب العربيّة.

وتخصصـت المطبعـة بالتّـدرج في الكتـب الدّينيّة والمصحف الشّـريف، وقد طبعـت تراثـا ضخما مـن الكتب الإسـلاميّة، ولـم تكـن ثمـة مطبعـة تنافسـها، وكان ممـا طبعتـه: «تفسـير الإمـام الثعالبـي»، و«تفسـير الإمـام الطّبري»، و«تفسـير البيضاوي»، و«متن الشّـاطبيّة»، و«شـرح ابن القاصح على متـن الشّـاطبيّة»، و«متـن الآجروميّـة فـي النّحـو»، و«متـن تحفـة الأطفال في التّجويـد»، و«صحيـح البخاري»، و«شـرح ابن حجر لصحيح البخاري»، و«صحيـح مسـلم»، و«شـرح النّووي لصحيح مسلم»، وغيرها كثير.

وقـد آثرأصحاب المطبعـة أن يكون لهـا خطّ خاصّ بها مسـتمد مـن الخطّ المغربـي، وقـد اسـتعانوا فـي هـذه المهمةبالخطـاط المعـروف بالشّـيخ (محمّدالسّفطي) (1856–1946م) ـرحمه اللهــ وكان مـن أشـهر ما طبعتـه هذه المطبعة، وبه حازت الشّـرف الأسـنى، والمجد المؤثّل، ونالتّ الأوليّة في هذا المجال في الجزائر: القرآن الكريم.

والواقع أن طباعة المصحف الشّـريف لم تلـق الرّواج غـداة الاحتلال الفرنسـي للجزائـر، والسّـبب فـي ذلـك أن فـن النّسـاخة كان لا يـزال فـي رواجـه الذي عرفه إلـى غايّة نهايّـة الوجـود العثماني، لا سـيما فـي المـدن والأريـاف، وكان المتقلـد لمهنـة النّسـخوالمُتقن لأصولها يحظـى بمكانـةٍ معتبرة ومكسـب عظيم، بالإضافة إلـى أن النّاس كانوا يكرهون، بل ويحرّمونالمصاحـف التـي تُطبع بحروف المطابع.

فلما قويت حركة استيراد الكتب من المشرق في نهايّة القرن 19م، وانتشرتثقافة اقتناء الكتب وشرائها بين المثقفين وسائر المتعلمين دعت الحاجة إلى طبع المصحف بخطّ اليد، وبروايّة (ورش عن نافع) إذ كانت هي الرّوايّة السّائدة في الجزائر آنذاك.وقد جاءت طباعة المصحف في المطبعة الثعالبيّة بخطّ مغربي واضح جليٍّجميل، وعلى كاغد جيد، وبرسم مصحّح، وإعداد متقن، فاستحسنهاالنّاس وأقبلوا على شراء المُصحف المطبوع.

وكان أول إصدار أصدرته المطبعة الثعالبيّة للمصحف سنة: 1323هـ/ 1905م، وقد نال شرف خطه الشّيخ (المنصالي)، وليس في الحوزة معلومات عن هذا الخطاط.غير أن المطبعة لم تُصدرإلا أجزاءً من هذا المصحف فقط، ولم يُنشر المصحف كله.

ثم أصدرت المطبعة سنة 1325هـ/ 1907م (الرّبع الأخير) بخطّ الخطاط الجزائري البارع (عمر راسم) (ت:1378هـ/ 1959)، وقد كان خطاطا ألمعيا، وكاتبا إصلاحيا موهوبا، وسنأتي إلى تعريفه وبيان جهوده في فن الخطّ حينما نتعرض لأشهر الخطاطين في هذه الحقبة.

ثم وقع اختيار رودوسي على الخطاط الجزائري المتميز (محمّدشرّادي) المشهور بلقب (السّفطي(لتُسنِد إليه كتابة المصحف الشّريف كاملا، وكان ذلك سنة 1911م، ولقد برع السّفطي، فعلا، في كتابة المصحف بالخطّ المغربي الذي يُدعى «المبسوط»، وتعد نسخته أول نسخة كاملة للمصحف الشّريف تُطبع في الجزائر، كما أسند إليه كتابة بعض الكتب العلميّة ككتاب «الآجروميّة»، وبعض القصائد الشّعريّة.وسيأتي تعريف هذا الخطاط وبيان جهوده في فن الخطّ عند التّعرض لأشهر الخطاطين الجزائريين في عهد الاحتلال الفرنسي.

ومع ذلك يمكننا القول إن تأثير ظهور الطّباعة على ممارسة الخطاطين لفن الخطّ العربي إن كان قد شرع في بسط هيمنته، في الجزائر، مع مطلع القرن التّاسع عشر فإنه لم يجد سبيله إلى التّأثير الحقيقي إلا بعد عقود طويلة من السّنين، ذلك أن استنساخ الكتب واللوحات ظل بين النّاس مطلبا ضروريا وحاجة قائمة حتى بعد ظهور الطّباعة.

ويمكننا القول في المحصلة إن الخطاطين الجزائريين – كغيرهم من الخطاطين في سائر أنحاء العالم- وجدوا في الطّباعة – لا سيما بعد انتشارها، وإقبال النّاس على منشوراتها- منافسا قويا يحاول مجاراتهم في فنهم، ويسعى إلى الاستحواذ، دونهم، على اهتمام النّاس في عالمَيْ القراءة والكتابة، ويدفع، مع مرور الزّمن، ببضاعتهم إلى البوار والكساد.ولعل من أبرز آثار ظهور الطّباعة على ممارسة فن الخطّ العربي انحسار دائرة المهتمين به من جراء غياب حرفة النّساخة لانصراف النّاس عنها، وانعدام حاجتهم إليها، وقد كانت قبل الطّباعة سببا من أسباب الرّزق يدفع إلى التّنافس، ويغري بتحمل المشاق. ومما زاد الأمر سوءًا غياب كل أنواع التّشجيع والتّحفيز في ظل سلطة المحتل التي كانت حريصة كل الحرص على تغييب كلِّ ما من شأنه إحياء الثقافة العربيّة الإسلاميّة في مجتمع الجزائريين.

ومع ذلك لم تخل فترة ما بعد ظهور الطّباعة، خلال عهد الاحتلال الفرنسي، من وجود خطاطين فنانين ظلوا متمسكين بفن الخطّ في ذاته، محبين له، راغبين في تحصيله، وفي نشره بين النّاس، وتجدر الإشارة إلى أن بعض المشاهير من هؤلاء الخطاطين وجدوا من يشجعهم ويؤازرهم ولكن من خارج الجزائر، ومثال ذلك ما حصل لـ (محمّد راسم) الذي لفت إليه أنظار بَعض المهتمين بفن الخطّ والرّسم ممن أعجبوا بأدائه وسهّلوا له مهمته، كالسّيد (Edgard Blochet/ إدغار بلوشيه) (1870–1937م) المحافظ بالمكتبة الوطنيّة بباريس، والسّير (Edward Denison Ross/ إدوارد دنيسون روس) (1871–1940م) المختص في الدّراسات الإيرانيّة.

3 – 3 – النّقش والزّخرفة بالخطوط على جدران المباني في عهد الاحتلال الفرنسي:

عرفنا أن فن نقش الخطوط وزخرفتها على جدران المباني شهد – في الجزائر- شيئا من الرّكودفي آخر العهد العثماني، ولم تستأنف مسيرة هذا الفن نشاطها إلا في آخر القرن التّاسع عشر، مع أفراد من عائلات عريقة كعائلة ابن الحفاف، وعائلة ابن سمايّة، وسارمشق، وفرفارة.

ولا ندري إن كانت عائلة الهاشمي صارمشق قد واصلت فنها خلال العهد الاستعماري؛ إذ لا يكاد يوجد لها صدى في هذا العهد، بينما كانت لها آثار هائلة في تلمسان ومعسكر في آخر القرن الثامن عشر، ومن آثارها النّقش والزّخرفة على مدخل ضريح سيدي بومدين (1208هـ/ 1793م).

وفي عهد (الأمير عبد القادر) نجد عائلة فرفارةالتي كانت تعمل لحساب الأمير (ويمثلها في هذا الفن ابنا عمٍّ واسمهما: (سالم بوجنان بن فرفارة) و(محمّد بن حسن بن فرفارة). وقد قام أحدهما بنقش الخشب الخاصّ بمنبر

جامع (سيدي إبراهيم) بتلمسان سنة 1248هـ/ 1832م. كما أن نفس الشّخص ربما هو الذي صمّم الكرسي الموضوع في جامع (سيدي بومدين) والذي أمر به (الأمير عبد القادر) حوالي سنة 1843م.

وعندما بُنيت الزّاويّة التّجانيّة بـ(قمار)، جيء لها بفنان (نقاش) من (فاس). لا نعرف الآن اسمه، ولكنه كان ذا شهرة واسعة، وقد بنى الزّاويّة ورسم عليها نقوشا كثيرة وزخرفها حسب الذوق العربي الإسلامي متأثرا بالطّراز المغربي – الأندلسي. وقد بهر فنه عددا من الموهوين في قمار، فتعلموا منه الصّنعة، نذكر منهم: (عمر قاقه) الذي أسهم في نقوش أخرى في (قمار)، وفي مبنى البريد المركزي بالجزائر إذ كان النّاس يستدعونه لهذه المهمة من شتى النّواحي. وأخذ عنه الصّنعة بعض الموهوبين الآخرين، ومنهم ابنه (التّجاني قاقه) الذي بنى ونقش عدة مساجد وزوايا. ومنهم (عبد الفتاح حنّى) الذي نقش دار البريد المركزي أيضا بعد تجديدها، وهو الذي نقش كذلك ضريح (محمّد الحبيب الصّغير التّجاني) في (عين ماضي) بولايّة (الأغواط).

ولم يبق النّقش حكرا على الجزائريين بعد الاحتلال، فقد جاء النّقاشون الفرنسيون وغيرهم، وكثرت أعمال النّقش في غير البناء، ومن ذلك نقش الأختام الرّسميّة. وكان النّقاشون الفرنسيون يملكون حق الإعلان عن حرفتهم. فنحن نجد مثلا إعلانا للنقاش (ليون) يصف نفسه بأنه نقاش لدى الولايّة (الحكومة) العامّة، وأنه صانع أختام وطوابع الولايّة. وهذا «الإعلام» بالعربيّة وموجه إلى الرّؤساء المسلمين الرّاغبين في طابع جميل. كما يصفه بأنه حامل وسام العلم، وأنه قد فتح «مصنعه» منذ 1868. ولا شك أن هناك غيره أيضا، قبله وبعده.

3 – 4 – أشهر الخطاطين الجزائريين في عهد الاحتلال الفرنسي:

على الرّغم من محاولات المستدمر الفرنسي طمس الهويّة العربيّة الإسلاميّة مما أدى إلى غياب الثقافة العربيّة الإسلاميّة، وضعف التّحصيل في اللسان العربي وانحسار مجالات تعليمه وتعلمه في هذه الحقبة المظلمة من تاريخ الجزائر، على الرّغم من ذلك استطاع بعض الخطاطين أن يثبتوا حضورهم، وأن يبرزوا مواهبهم في فن الخطّ العربي، وأن ينمّوا قدراتهم فيه، وأن يحافظوا على بقائه وديمومته، وأن يشاركوا في تطوير مسيرته. وفيما يلي أشهر هؤلاء الخطاطين القليلين:

– محمّد بن القاسم القُندوسي (ت:1861م): خطاط وعالم متصوف جزائري، ويُعدُّ من أشهر الخطاطين في الخطّ المغربي. ولد بـ(القنادسة)، وهي بلدة تابعة لولايّة (بشار) الجزائريّة. انتقل إلى (فاس) عامّ 1828، واستقر بها إلى أن وافته المنيّة هناك، واتخذ فيها حانوتا بسوق العشابين، وكان يبيع فيه الأعشاب. عاش متواضعا ووُصف بأنه «كان إذا جلس بين النّاس يُخفي عنهم أمره. ألف الكثير من الكتب، ونسخ دواوين عديدة، وهو من رَسَم لفظ الجلالة في الضّريح الإدريسي بـ(فاس). ومنحه السّلطان العَلوي المغربي (سليمان بن محمّد) إجازة في قراءة «دلائل الخيرات» للمتصوف (محمّد بن سليمان الجزولي). توفي في (فاس) سنة (1278هـ/ 1861م)، وقيل 1270هـ.

كان جيد الخط، وابتكر أسلوبا مبدعا وعجيبا في الخطّ المغربي يعرف باسم الخطّ القندوسي، وبِهِ كتب مصحفا في 12 مجلدا أتمَّه في 7–8 سبتمبر من عام 1266هـ (1850م)، وهذا المصحف محفوظ بالخزانة الحسنيّة.

– عمر راسم (1884–1959): هو (عمر بن علي بن سعيد راسم)، أحد إخوةٍ من عائلة واحدة اشتهرت بفن الرّسم والفنون الجميلة كالخطّ والمنمنمات. ويذهب بعض المؤرخين إلى أن الأسرة قد تكون جاءت من المشرق في وقت غير معروف، واستقرت أولا في (بجايّة)، ثم انتقلت إلى العاصمة. ومهما يكن الأمر فإن (بجايّة) قد عُرفت بعائلاتها الأندلسيّة أيضا، وربما تكون عائلة (راسم)، مثل عائلة (ابن خلدون) ذات منابت عديدة.

ابتدأت شهرة عمر راسم منذ بدايّة القرن العشرين، وكان، إضافةً إلى كونه خطاطا ورساما، يعمل في الصّحافة، وكان مناضلا منذ زمن مبكر في ميدان الصّحافة والأدب. أصدر جريدة «الجزائر» وجريدة «ذو الفقار»، وهما جريدتان حافلتان بخطوط يده ورسوماته حسب رواياتا لرّواة، وكان قد عمل في جريدة المبشر الرّسميّة التي استجلبته للاستفادة من معارفه وخطوطه ورسوماته.

وكان مولعا بمختلف الخطوط العربيّة، ولا سيما الكوفي، والنّسخي، والعثماني، وكان قد خطّ ذلك على لوحات أسماء الشّوارع في القصبة، وفي زخرفة الكتب، وعلى لوحات خطيّة، وإن كانت قليلة، وقد درس الخطاط الموهوب (محمّد شريفي) بعض لوحاته في رسالته للدكتوراه «اللوحات الخطيّة في الفن العربي»، التي ركّز فيها اهتمامه بشكل خاصّ على اللوحات المغربيّة والجزائريّة.

وأكثر لوحات (عمر راسم)نجدها في أغلفة بعض الكتب المعاصرة، ولعلّ أشهرها اللوحة التي رسمها لغلاف «كتاب الجزائر» لـ(أحمد توفيق المدني). وهو غلاف لو أتيح له أن صدر بالألوان لكان تحفة فنيّة. ومع ذلك فإن الذوق العربي والإسلامي بارز فيه؛ فالعنوان داخل في إطارٍ من الرّسم التّقليدي في الفن الإسلامي، وعبارة «كتاب الجزائر» مكتوبة بخطّ كوفي جميل ومتداخل. وقد صُمِّمت اللوحة كاملة لتعطينا نافذة تطل على مدينة الجزائر وماضيها، ويظهر من خلالها البحر، وأمامه أبرز بناء تعلوه صومعة أو فنار، وتتحرك داخل مياه البحر سفنٌ، وتوجد على ساريّة إحداها رايّة تُخفق وهلالٌ بهذه العبارة (حب الوطن من الإيمان)؛ فاللوحة حينئذ ذات رسالة وطنيّة موجهة ومحتوى فني أصيل.

ويذكر المؤرخون أن عمر راسم قد ترك صفحات من الفن الزّخرفي – ديكوراتيف – وأنه مال بالخصوص إلى الخطّ العربي. وهذه شهادة أخرى على أن الخطاطين كانوا موجودين في الجزائر غير أن عددهم قليل.

– محمّد راسم (1896–1975): هو (محمّدبن علي بن سعيد راسم)، أخو (عمر راسم)، وهو أصغر من أخيه بسنوات عدة، ويذكر بعضالمؤرخين أن والدّهما (علي بن سعيد) كان أيضا رساما ونقاشا ونحاتا. فقد كان يرسم وينقش وينحت إبداعات نادرة على الزّجاج، كما كان رساما على الورق، ونقاشا على الخشب، فمحمّد وأخوه عمر إذن قد تلقيا الفن في ورشة العائلة عن والدّهما. ولكننا لا نعرف إلا القليل عن أعمال هذا الوالدّ الموهوب. وقد عاش في النّصف الثاني من القرن التّاسع عشر، ولكن عهد الاحتلال الفرنسي أقل ما يوصف به – في الجزائر – أنه عهد ظلام في العلم والفن، لولا بعض النّادرين من العلماء والفنانين.

ومهما يكن من أمر فإن عمر ومحمّدا قد تعودا على الإزميل منذ الطّفولة ولاحظا تناسق الألوان، وقد أمدتهما الطّبيعة من حولهما والموهبة بطاقات الإبداع. وكل منهما ظل وفيا لتقاليد العائلة والبلاد.

تخصَّص محمّد راسم في فن المنمنمات. وتخرّج من مدرسة العائلة والطّبيعة والموهبة، وعلى الرّغم من أنه، كما يذكر بعض المؤرخين، قد مر بمدرسة الفنون الجميلة الفرنسيّة. فلم يتأثر بما فيها. ومنذ بلغ السّنة الرّابعة عشر لفت إليه نظر أستاذ فرنسي، هو (Prosper Ricard/ بروسبيريكارد) (1852–1974) فأدخله في مكتب الرّسم بأكاديميّة الجزائر – وكانت مدرسة الفنون الجميلة تابعة لها– وهناك اشتغل (محمّد راسم) بنماذج الزّرابي وأنواع المطروزات، كما اشتغل في الكتب التي تحتاج إلى التّصوير. ولاحظ الفرنسيون أنه قد أدخل حياة الشّرق في فنه، وجذب إليه بالتّالي أنظار علماء الرّسم. وتوسعت صلاته بدوائر الإنتاج الفني والمستفيدين منه، واستدرجوه بعيدا عن محيطه (الأهلي) كما يفعلون عادة مع الفنانين الموهوبين. وقدّمه مدير الأكاديميّة للناشر (بيازا) فطلب منه هذا زخرفة كتاب «حياة محمّد» الذي ألفه (Étienne Dinet/ إيتيان ديني) (1861–1929م)، و(سليمان بن إبراهيم) (1870–1953م).

وبعد هذه المرحلة الاستكشافيّة ذهب محمّد راسم إلى فرنسا ونزل باريس، فاستقبله فيها المهتمون بالخطوط والفنون. ومنهم السّيد (بلوشيه) المحافظ بالمكتبة الوطنيّة بباريس. وأبقاه عنده حيث عمل في قسم المخطوطات، كما اطّلععلى المجموعات الفنيّة هناك، وفيها آثار شرقيّة نادرة. ومن باريس ذهب (محمّد راسم) إلى (لندن) لكي يطلع على مجموعاتها الشّرقيّة (العربيّة – الإسلاميّة)، واستقبله هناك السّير (دنيسون روس) المختص في الدّراسات الإيرانيّة وسهّل له مهمّته. ثم قصد إسپانيا (الأندلس) ممنوحا بمنحة من الحكومة العامّة في الجزائر. وقد وجد (محمّد راسم) في (الأندلس) العصر الذهبي للفن العربي الإسلامي، وبالخصوص في (قرطبة) و(غرناطة)، فتعمقت معارفه واتصل بالماضي الفني، ونشطت موهبته للإبداع.

وشارك (محمّد راسم) في عدة معارض دوليّة، ونال عدة جوائز وميداليات؛ ومن المعارض التي شارك فيها معارض: القاهرة، وروما، وبوخاريست، وباريس، وفيينا، واستكهولم، ومن الجوائز التي حصل عليها: ميداليّة المستشرقين سنة 1924، والجائزة الفنيّة الكبرى للجزائر سنة 1933، ومن أعماله: رسمه للوحة كتاب «ألف ليلة وليلة». وقد نوه مختلف الكتاب الذين تناولوا تاريخ الفن بمجهود (محمّد راسم) وإبداعاته، لا سيما في فن المنمنمات الذي يكاد يختص به. وفي سنة 1975 توفيمع زوجته بالأبيارفي ظروف أليمة وغامضة.

– سعدي حكّار (1920–1963): درس الخطاط (سعدي حكّار)بجامع الزّيتونة، وتعلم الخطّ على يد الخطاط التّونسي الشّهير (محمّدالصّالح الخماسي)، وسُجن لمدة خمس سنوات على يد السّلطات الفرنسيّة من 1954م، إلى غايّة 1959م، وتوفي سنة 1963م.

كان (سعدي حكّار) من أبرز الخطاطين وقت الثورة وقبلها، اشتغل بتدريس الخطّ العربي بالمدرسة الوطنيّة للفنون الجميلة، ومن أعماله أنه خطّ مجموعة من القصائد والأدعيّة عام 1960م، وله نماذج خطيّةفي مجلتي البصائر والمنار، وهو الذي خطّط عناوين إذاعة «هنا الجزائر»التي تحولت إلى مجلة فيما بعد، وكان حكّار يقدم أحاديث فنيّة في الإذاعة كل خميس، وله كلمة قصيرة بعنوان: «نظرة في الفنون» مع صورته، وهو يقصد بالفنون: الزّخرفة والتّخطيط والنّقش والتّصوير. وفيها يطالب بالرّجوع إلى الكتب للاطلاع على معاني هذه الفنون على مدى العصور، وما أحدثته في الإنسان من الحزن والفرح واليأس والألم. ويبيّن أن هذه المشاعر لا يمكن أن يُعبِّر عنها إلا الفنان الملهم خلافا للمؤرخ والكاتب والشّاعر الذين يعبرون بالقلم تعبيرا فكريا جافا، ومن أعماله، كذلك، إعداد عناوين كتُب رضا حوحو، وبعض الكتب الأخرى، وإعداد يوميات وتقويمات، وغيرها من الأنشطة الفنيّة.

وقد مدحه الشّاعر محمّد العيد آل خليفة بما هو أهل له عندما زاره حكّار، فقال الشّاعر مقارنا إياه بالخطاط الشّهير ابن مقلة:

هذا فتى الخطّ والتّصويرِحكَّارُ
هذا (ابنُ مُقلتِنَا) مــا فِيهِ إنْكارُ
أعـدَّ للخـطّ مَولانـا أنامِلَـهُ
كمـا تُعَـدُّ لحُلْـوِ اللَّحـنِ أوْتارُ
انظُـرْ إطاراتِـهِ تـزدانُ فاتِنـةً
كأنّها فـي اختِلافِ اللَّـونِ أزْهارُ
إنّ الجزائـرَ أحـرَى أن تُكَرِّمَـهُ
فخطُّه من خُطـوطِ الجيلِ مُختارُ
يـا زائرا قدْ طَـوى للفَـنِّ مَرحَلَةً
يُرجى لَـهُ شـرَفٌ فيهـا ومِقدارُ
أقِـمْ علـى الرّحـبِ مَحفوفـا
بِتكْرُمَةٍ وإنْ رَحَلْتَ فهذا الشّعرُ تِذكارُ

- محمّـد السّـفطي (1856-1946م):

محمّدالسّـفطي أو محمّـد السّـفاتي، ويسـمى، كذلك، محمّد الشّرادي، كان قيِّما على مسجدٍ بالعاصمة يُعرف بمسجد سيدي رمضان، ثم صار قيّما على إحدى المقابر وسـط العاصمة. ويُعدّ السّفطي من أوائل من حظي تنسخهم للمصحف الشّـريف بالطّباعـة، وتعد نسـخته أولَ نسـخة كاملة تطبع للمصحف الشّريف في الجزائـر، وقـد ضبطها علـى روايّة ورش عن نافـع، وكتبهابالخطّ المغربي «المبسـوط»، لكنه جعل عناوين السّور بخطّ الثلث المشرقي، وتمت طباعة هذه النّسخة مرات عديدةفي المطبعة الثعالبيّة المعروفة بمطبعة (رودوسي).وأقدمُ هذه الطّبعات كانت سـنة 1331هـ/ 1912على ما تذكره بعـض البحـوث المحققة في الموضوع.

وقـد كان محمّدالسّـفطي فنانـاً متكامـلاً، فعلاوةً علـى اهتمامه بالخطّ كان يعمل على تجليـد الكتب والنّقش على الجلد، ويُعدُّالشّيخ من الأشخاص الذين حـازوا فضـل كتابـة المصحف لثلاث دفعـات، ويتميّز الخـطّ العربي عنده كما وصفه الأسـتاذ محمّد شريفي بالرّسوِّ على السّـطر بوتيرة موحدة تدل على تمكُّن يده، وصبـره الدّؤوب على مواصلة الكتابة بنَفَسٍ مُركّز ورصين.

- الشّيخ الزّواوي (1862-1952): هو (أبو يعلى الزّواوي)، نسـبة إلى زواوة، واشـتهر بهذا الاسم، واسـمه الحقيقي (سـعيد بن محمّد الشّـريف بن العربي بن يحـي بن الحـاج) مـن قبيلـة (آيت سـيدي محمّـد الحاج)بـزواوة. ولـد (أبو يعلى الزّواوي) عام (1862م) بقريّة تدعى (إغيلإنزكـري)، وهذه القريّة غير قريته الأصليّة، وإنما انتقل إليها أبوه بعد أن عُين إماما لمسجدها، وبها تزوج.

وللشـيخ الزّواوي إسهامات واضحة فـي الفقه والفكر والدّعـوة والإصلاح، ولـه العديـد مـن المؤلفـات فـي هذه المجالات. وإضافـة إلى ذلك، فإنه كان مجيدا للخـطّ العربـي، وله فيـه كتاب عنوانه: «رسـالة في علـم الخط»، وكان ينسـخ المصاحف ويحفظها، وقد ورث ذلك عن أبيه.ومما يميز خطه أنه جمع بين الرّوح الجزائريّة والتّعريقةالشّـرقيّةعلى الرّغم مـن قوله إنه تأثر بالخطّ الفاسـي الموروث عـن الأندلس .ولتفننه وإتقانه للخطّ أعجب به كثيرون، ومدحه (بشير الرّابحـي) بقصيدة يثنـي فيها على خطه فـي المصحف الشّـريف، وكذلـك نوّه به إمام جامع بئر خـادم، وطلبة الزّواوة، وطلبة العاصمة.

وعُرف عنه أنه كان ينسخ المصاحف ويخطُّها بيده. وقد بـرع (الزّواوي) في الخطّ منـذ صغره، وقال إنـه وجد أهل زواوة قـد ابتعـدوا عن الخـطّ الجميل شـأنهم شـأن غيرهم من أهل المغرب العربـي، ولذلـك مـال هو إلـى الخطّ الفاسـي (المغربي) قائـلا: «إذ قد ملت كثيرا إلى الفاسي المنتقل من الأندلسي». ونال، وهو في صغـره، الجائزة الأولى في الخطّ بمدرسـة قسـنطينة، وأعجب بخطه أحد المستشـرقين الكبراء، وقال عنه مـا حاصله: «مـا ظننـت أن يوجد خطاط مثل هذا، وهو قادم من الباديّة».

وله ملاحظات متميزة سـجّلها على جمهـور الخطاطين في زمانـه في كتابه «رسـالة في علم الخط»؛ فهو يتحدث، فـي هذه الكتـاب، عن كـون الخطّ من الفنـون الجميلة، وعن كونـه هو وغيره من العارفين، أصبحوا يتعجبون من فعل طلبة الخطّ الذين لا يكادون يفرقون بين الخطـوط الجميلة. ويشـير- رادا على رأي ابن خلدون الذي يقول فيهإن الخطّ

صناعة، وأن خطوط أهل أفريقيّة صارت رديئة صعبة القراءة- إلى أن الخطّ الأندلسي يمتاز، في ذاته، بالجمال والذوق اللطيف، ولكن طلبة زواوة قد انصرفوا جملة عن الخطّ الأندلسي، واهتموا بالرّسم بدلا منه. ويرجع جمال الخطّ الأندلسي وشهرته-في رأيه- إلى كونه قائما على الصّنعة والتّفنن والتّنافس في الإتقان والجودة، وقد عاب الزّواوي على خطاطي العصر أنهم لا يتنافسون في ذلك، وإنما يسرعون في كتابة المصاحف مثلا، ويكتبونها بدون توسع، ولا مراعاة للفن، لأن هدفهم من ذلك هو الحصول على الأجرة.

والشّيخ الزّواوي كان أيضا من كتاب المصاحف، وله مصحف بخطه الذي اشتهر به. وقد نبَّه الزّواوي إلى وجود عدة مصاحف بخطوط أهلها في الجزائر. وأنهم اختلفوا في ذلك من حيث الإتقان والتّجميل.ويبدو أنه بعد اختفاء مجالات الخطّ الفنيّة، كالصّحف، والنّقش، واللوحات، إبان عهد الاحتلال الفرنسي، استقر فنانو الجزائر على نسخ المصاحف. وهم في ذلك، كما قال الزّواوي، بين متسرع لأخذ الأجرة، وبين متقن لفنّه، وهؤلاء قليلون.

- **عمر بن سماية:** يُعدُّ (عمر بن سمايّة) من مشاهير الرّسامين والخطاطين الجزائريين في حقبة الاستعمار الفرنسي. وكان قد نال وسام الأكاديميّة سنة 1896. وهو من عائلة (ابن سمايّة) التي أنجبت (علي بن سمايّة) الذي تولى التّحرير في جريدة «المبشر» مدة طويلة، وتولى أيضا التّدريس. وكذا (عبد الحليم بن سمايّة) الذي اشتهر أمره أستاذا في الثعالبيّة في أول هذا القرن، وكانت له مواقف ضد التّجنيد الإجباري، وضد آراء بعض المستشرقين.

وليس لدينا الكثير من أعمال عمر بن سمايّة الفنيّة. ولعله لم يجد من يسجل سيرته ويصف تجربته الفنيّة كما فعل المؤرخون بغيره من الفنانين. ولولا اللوحات الفنيّة التيرسمها لكتاب (ديبونوكوبولاني) عن «الطّرق الدّينيّة الإسلاميّة» لما وُجد اسمه في بعض وثائق المؤرخين. ولعل الصّحف المعاصرة كالمبشر، والأخبار، وكوكب أفريقيا تضم أخبارا هامة عنه.وهناك على الأقل أربع لوحات ذات طابع إسلامي ظهرت ملونة بخطوط مختلفة الجمال والأحجام في كتاب ديبونوكوبولاني:

اللوحة الأولى تمثل الطّرق الصّوفيّة، وهي في شكل وردة مفتحة الأوراق ذات ألوان ويعلوها الهلال والنّجمة.

واللوحة الثانيّة موجودة على مساحة صفحة كاملة من الكتاب الضّخم. وهي ضمن إطار ملون بالرّسم الإسلامي- العربي الجميل. وداخل هذا الإطار شجرة ذات أوراق، على كل ورقة منها اسم طريقة من الطّرق الصّوفيّة.

واللوحة الثالثة تمثل إطارا عاما أيضا على صفحة كاملة من الكتاب، وهو إطار بنيّ اللون ومنقط بالأحمر. وبداخله زخرفة نباتيّة من زهور وأغصان متعانقة.

أما اللوحة الرّابعة فهي في شكل ورقة نباتيّة كبيرة ولكنها ذات أغصان متداخلة ومتعانقة.

وفي كل واحدة من هذه اللوحات يتعرض الرّسام الخطاط (عمر بن سمايّة) لكتابة اسم الجلالة، ثم اسم جبرائيل، ثم اسم محمّد صلى الله عليه وسلم، ثم أسماء الخلفاء الأربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي رضي الله عنهم أجمعين . ثم يخص، بعد ذلك، كل لوحة باسماء توجد فيها ولا توجد في غيرها مثل كتابة كبار المؤسّسين للطرق الصّوفيّة: عبد القادر الجيلاني، والنّقشبندي، والجنيد، في اللوحة الرّابعة، ومثل تعرضه، في اللوحة الثالثة، لكلمات مثل: الكتاب والسّنة، ثم الإجماع والقياس والمصالح العامّة (المرسلة)، والاستحسان والاستصحاب. كما يتعرّض فيها، كذلك، لكتابة أسماء المذاهب الإسلاميّة الأربعة.

4 - الخطّ العربي في الجزائرفي فترة ما بعد الاستقال:

لقد حضع فن الخطّ العربي في الجزائر، في حقبة ما بعد الاستعمار، للعديد من التّحولات؛ لعل أهمها أنّ «أغلب» الخطاطين في الجزائر والبلدان المغاربيّةأبدوا عزوفا واضحا عن الخطّ المغربي، وانصرفوا إلى الكتابة بالخطوط المشرقيّة التي طغت في إبداعات الخطاطين وفي المهرجانات والمعارض والمسابقات، ويذكر محمّد شريفي أن السّبب في ذلك يعود إلى أن الخطّ المغربي لم يتطوّر تاريخيا على غرار بقيّة الخطوط المشرقيّة، كما أنّه لا يزال مكبّلا بالخطّ الكوفي القديم، مضيفا أنه لا يحوي قواعد، وهذا ما يجعل منه كتابة مرسلة لا خطا يقوم على مقاييس جماليّة وقواعد.

ومن التّحولات كذلك ما عرفته الطّباعة حينما انتقلت من طباعة الحرف العربي المخطوط باليد، وذلك عبر نسخ صوره بطريقة ميكانيكيّة على سطح بارز، مثلما هو الحال في الطّبعات الحجريّة، إلى طباعة الحرف المكتوب بتقنيّة الحروف المنتظمة، تلك التي تقوم على السّرعة في الإنجاز، وتستغني عن خطّ اليد. وقد أثر ذلك – بالتّدريج-

على كساد مهنة النّساخة مثلما سبق بيانه في عهد الاحتلال الفرنسي.

ثم ظهرت في أيامنا هذه الطّباعة الرّقميّة، وظهرت أشكال التّواصل بالخطابات الرّقميّة التي أصبحت تقدم الجديد كل يوم في مجاراة جميع أنواع الخطوط التي يعرفها فن الخط، بل أصبحت جميع أشكال التّواصل إنما تتم بالطّريقة الرّقميّة، وقد انجرّ عن ذلك الاستغناء ليس عن ممارسة الخطّ العربي فقط بل حتى الكتابة باليد لم تعد بالنّاس حاجة إلى تعاطيها إلا قليلا.

وهكذا كلما ازداد التّواصل الرّقمي انتشارا، كلما ازداد العزوف عن ممارسة فن الخطّ العربي، وعن الكتابة، وتقلصت دائرة المهتمين بفن الخطّ العربي. وما ضعفُ تحصيل العلوم والمعارف، وانتشار رداءة الخطّ لدى المتعلمين، لا سيما لدى الشّباب منهم، وما غياب الإحساس بجماليات الخطّ العربي، وانعدام القدرة على تذوّق فنياته إلا علامات دالة على تردّي مستوى التّعامل مع الكتابة، ومع فن الخطّ العربي، وعلى هيمنة الممارسة الآليّة الجافة في تبادل الخطابات، وفي تلقي المعارف، وتحصيل الفنون.

ومع ذلك نجد، من جانب آخر، من المبشرات ما يدفع إلى استشراف مستقبل زاهر لفن الخطّ العربي في الجزائر، وذلك ما نلحظه في تحول ثالث من التّحولات التي خضع لها هذا الفن في الحقبة المعاصرة؛ يظهر ذلك في ارتفاع مستوى الإبداع لدى الممارسين لفن الخطّ العربي؛ ذلك أن منجزاتهم أصبحت متمحّصة لخدمة فن الخط، ولترقيّة أساليبه، ومتحررة من ظروف النّسخ والاستنساخ التي عرفها الخطاطون – إبان عهد الاحتلال الفرنسي – والتي تبدو فيها أعمالهم متصلةً بأغراض يمتزج فيها الفني بغير الفني، ولم تكن دائما فنيّة خالصّة.

ومما يرفع من مستوى الإبداع، كذلك، في ممارسة فن الخطّ العربي في هذه الحقبة ما تقوم به المهرجانات والمعارض والمسابقات من أدوار كبيرة في التّحفيز والتّشجيع على تعلم فن الخطّ العربي وعلى التّنافس في إبداعاته لنيل الجوائز واستحقاق الشّهادات والتّكريمات.

4 – 1 – أشهر الخطاطين الجزائريين في فترة ما بعد الاستقلال:

لقد شهدت الحركة الفنيّة للخطّ العربي، في هذه الفترة، عودة مجموعة من الفنانين الخطاطين الجزائريين الذين عادوا من المهجر بعد أن تلقوا تعليما مكثفا في مبادئ فن الخطّ العربي وقواعده، وقد تخرجوا من مختلف أكاديميات العالم. ومن أبرز هؤلاء الخريجين: الفنان الخطاط عبدالحميد إسكندر من مدرسة تحسين الخطوط من القاهرة، والخطاط محمّد سعيد شريفي من مدرسة تحسين الخطوط بالقاهرة. وفيما يلي نتعرض لأشهر هؤلاء الخطاطين ولبعض منجزاتهم في الخطّ العربي:

– محمّد بن سعيد شريفي (1935 ــــ): هو أحد أشهر الخطاطين في الجزائر والعالم العربي، عُرف بكتابته للمصحف الشّريف، وبتصميم العملات النّقديّة الجزائريّة، وبكثير من الأعمال الفنيّة في الخطّ العربي. ولد (محمّد شريفي بالقرارة (بني ميزاب) بجنوب الجزائر سنة (1935)، ودخل المدرسة فحفظ فيها القرآن الكريم، ثم درس في معهد الحياة بنفس المدينة إلى أن تخرّج منه حاصلا على الشّهادة الثانويّة سنة 1956، ثم التّحق بـ(القاهرة) وفيها حصل على شهادة خطاط من مدرسة تحسين الخطوط العربيّة بعد أن قضى فيها أربع سنوات، وكان تخرجه منها سنة 1962، وفي هذه السّنة حصل من الأستاذ (سيد إبراهيم) على إجازة في الخطّ العربي، كما حصل على بكالوريوس كليّة الفنون الجميلة (قسم الحفر) بـ(القاهرة) حيث قضى خمس سنوات، وكان موضوع تخرجه سنة 1963 بعنوان «مساجد القاهرة».

وبعد رجوعه إلى الجزائر تولّى تدريس الخطّ في المدرسة الوطنيّة للفنون الجميلة، وغيرها، وظل يواصل رسالته متوِّجا مسيرته الفنيّة بالعديد من الإجازات والشّهادات في الخطّ نذكر منها:

العديد من الجوائز والتّكريمات في الجزائر، وبغداد، والشّارقة؛

إجازة «حامد الآمدي» باسطنبول في رمضان من عام 1389 (1969 م)؛

شهادة في الخطّ والتّذهيب من مدرسة تحسين الخطوط العربيّة بالقاهرة حيث قضى، في تحصيلها، سنتين، وكان تخرجه منها سنة 1970؛

دبلوما في الفن الحديث من جامعة الجزائر سنة 1971؛

شهادة دكتوراه الحلقة الثالثة في تاريخ الفن الإسلامي بعنوان: «خطوط المصاحف عند المشارقة والمغاربة من القرن الرّابع إلى العاشر الهجري»؛

شهادة دكتوراه الدّولة في التّاريخ الإسلامي في موضوع عنوانه: «اللوحات الخطيّة في الفن العربي بخطّ الثلث الجلي» سنة 1997 من جامعة الجزائر، وقد حظيت هذه الأطروحة بالطّبع سنة 1998 في دشمق.

ولـ(محمّد شريفي) مجموعة من المصاحف بخطّ يده، وبعض أجزاء من

القـرآن الكريم بروايّـة ورش، وبعضها بروايّـة حفص عن عاصم، وقد نشـرت هذه المصاحـف في الجزائـر وكذلك فـي دار الغرب الإسـلامي بـ(بيروت)، ودار ابن كثير بـ(دمشـق)، وقد شـارك (شـريفي) فـي ملتقيـات جـرت بعدة عواصـم وحواضـر منهـا (تلمسـان)، و(بغداد)، و(الرّبـاط)، وكلها ملتقيات تناولـت الخطـوط والآثـار والزّخرفة الإسلاميّة، وهو عضو في لجنة التّحكيم للمسابقة الدّوليّة لفن الخط،

وإلـى جانـب كتابـة المصحـف الشّـريف، وتعليم الخطّ في المدرسـة العليـا للفنـون الجميلـة بالجزائـر منذ 1964 فإن لـ (محمّد شريفي) العديد من الأعمال نذكر منها:

– طبـعُ كراريـس بمختلـف أنـواع الخطوط: الثلث، الفارسـي، النّسـخي، الرّقعي، الدّيواني، وغيرها؛

– إعداد بحوث في الفنون التّشـكيليّة وسـبل تطويرهـا، وفـي الخـطّ العربي وأصالتّه وفنونه وحاضره وتاريخه؛

– تصميم عملة العشرة دنانير الجزائريّة النّحاسيّة ذات الأضلاع العشرة؛

– إعـداد الخطوط للحـروف العربيّة واللاتينيّة لأوراق النّقد الجزائريّة؛

تصميم شهادات التّعليم العالي؛

– عبـد الحميد اسـكندر (1939 ــ): ولـد (عبد الحميـد اسـكندر) بالجزائر العاصمة سـنة 1939م، ودرس الابتدائي في المديّة، ثم درس في مدرسـة الشّبيبة الإسلاميّة بالعاصمة، ثم التّحق بالزّيتونة فـي تونـس 1955. وخلال ذلـك تقرب اسـكندر من (محمّدالصّالح الخماسي) (ت:1992م) الخطاط التّونيسـي الشّهير، وقد أعجـب به الخماسـي، وأصبح من تلاميذه، وأشـركه معه في يوميّة الحائط ويوميّـة الجيـب اللتيـن كان يصمِّمهما ويكتبهما بالخطّ الجميل. وفي سنة 1959 التّحـق بالقاهـرة حيث درس بمدرسـة تحسـين الخطوط العربيّة، ومن أساتذته فيهـا (سـيد إبراهيـم)، و(محمّـد علي مكاوي) و(الشّـيخ رضوان)، ونال منها الدّبلوم العالي في الخطّ والزّخرفة.

وبعد الاسـتقلال رجع إلـى الجزائر وعمل مشـرفا على القسـم العربي في مطبعـة المعهد التّربـوي الوطنـي، ثمّ معلّما للخطّ في مدرسة الفنون الجميلة الوطنيّة، مدّة عشـر سـنوات، كما عمل مدّة عشرين سنة مدرّسـا لفن الخطّ في المركز الوطني لتكوين إطارات التّربيّة، وفي سنة 1423 أُحيل على التّقاعد.

ويُعتبر (عبـد الحميد اسـكندر) من الخطّاطيـن الأوائـل فـي الجزائـر بعد الاسـتقلال مع (محمّد سـعيد شريفي) وإليهمـا يرجع الفضل فـي إحياء تراث الخطّ العربي ونشـره في الجزائر. ومن أعماله:

– كتابة خطـب رئيـس الجمهوريّة، وقد عمل لـدى معظم رؤسـاء الجزائر ابتـداء من الرّئيـس بن بلة إلـى الرّئيس بوتفليقة، ولهذا سُمّي خطاط الرّؤساء.

– إنجـاز العديـد مـن اللوحـات الخطيّةالتي شـارك بها فـي المعارض، ونال بها الجوائز والتّكريمات؛

– إنجاز لوحات التّدشـين الرّسـمي مثل مقام الشّـهيد، والمتحف المركزي للجيش، ومجمع الفنون؛

تصميم الكتب المدرسيّة وتخطيطها، وكذلك بعض المجلات الوطنيّة؛

وتتميـز لوحاتهباسـتعمال الخـطّ الكوفـي المظفـر والمزخـرف، وخطّ الثلـث، وخـطّ الإجـازة، والخـطّ الفارسـي، والخـطّ الدّيوانـي، والخطّ الجلّي الدّيواني، وغالبا ما يستمدّلوحاته من سـور القـرآن الكريـم أوالأحاديث النّبويّة، أو الأقوال المأثورة، وقد شارك بلوحاته فـي العديد مـن المعارض في داخل الجزائـر وخارجها، وحصل على عدة جوائز وشهادات تقدير، نذكر منها:

– وسـامين ذهبييـن فـي معرضيـن متتاليين للخطّ أُقيما في بغداد سنة 1993 وسنة 1995؛

– تكريمه بمناسبة الذكرى 50 للثورة، مع زميله محمّد بن سـعيد شريفي، سنة 2004.

– رشـيد قريشـي(1947مــ): هو من أشـهر الفنانين المعاصرين العالميين، ولد سنة(1947م)، درس بالمدرسة العليا للفنون الجميلـة بالجزائـر، وتخـرّج مـن معهد الفنون الزّخرفيّة، ومن مدرسـة الدّراسات الحضاريّة فـي (باريس).ومما يميز هذا الفنان أنه ينظر إلى العالم بعيون المتصوّفة، ويمـارس فنُّ الخطّ العربـي، عنده، تعبيراً فلسـفيّاً كطرحـه لفلسـفة (ابـن عربي)، وترجمته لأعمال (ابن الرّومي).

يهتـم رشـيد قريشـي بالبحـث فـي روح الخـطّ العربي وعلاماتـه وتصاميم المخطوطـات الشّـعبيّة المغاربيّـة، وبالثقافة الصّوفيّة. وتتسم أعماله بالتّحرر والحيويّـة، وتجمع بيـن التّقاليد القديمة والحداثة.

حصل في عام 2011 على جائزة جميل مـن متحف ڤيكتوريـا وألبـرت، بلندن، ويتألف عملـه الفائز من لافتـات مطرزة بأحرف ورموز عربيّة.

– الأستاذ محمّدبوثليجة (1951ــ):

خطـاط دولـي محتـرف، وهـو مـن مواليد 1951 بسوق أهراس، زاول دراسته بالمدرسـة الوطنيّـة للهندسـة المعماريّة والفنون الجميلة بالجزائر ابتداءً من سـنة 1968، ثم سـافر بعدها الى (فرنسا) حيث التّحق بمدرسة (فرساي) للفنون الجميلة سـنة 1973، ثم بالمدرسـة الوطنيّـة العليا

للفنـون الجميلـة بباريس سـنة 1974، ثم التّحق بمدرسة تحسين الخطوط الملكيّة بجمهوريّة مصر العربيّة.

خـلال مسـاره الفنـي تـوج الفنـان (محمّـد بوثليجـة) بعـدة جوائـز وتكريمات دوليّة ووطنيّة.

ومـن منجزاتـه عـدة معـارض محليّة بمسـقط رأسـه، وأخـرى دوليّة فـي (المملكـة العربيّةالسّـعوديّة)، و(باريس)، و(كوريا الشّـماليّة). ناهيك عن المشاركة في صالونات فنيّة متعددة وتظاهرات ثقافيّة علميّة مختلفة.

– الأستاذ عبد القادر بومالة (1952ــ):

من مواليد 10 ديسمبر 1952، يعمل أستاذا فـي المدرسـة العليـا للفنـون الجميلة بالجزائـر العاصمـة. بـ(الطّاهير) ولايّة (جيجل). وعمـل خطاطا ومصمما في جريدة «أضواء» الأسـبوعيّة فـي الفترة من 1992 إلـى 1989، وخطاطا في ديوان رئاسـة الجمهوريّة في الفتـرة من 1985 إلى 1982.

وخطاطـا بمديريّة الكتاب (الشّـركة الوطنيّة للنشـر والتّوزيع)، بالجزائر في الفترة من 1982 إلى 1979.

ومن شـهاداته الدّالة على كفاءته في فن الخط:

– شـهادة الماجسـتير في الدّراسات الفنيّـة بعنـوان: «عمر راسـم الخطاط والمزخرف».

– شـهادة التّخصـص فـي الخـطّ والتّذهيب من مدرسة تحسين الخطوط العربيّة بالقاهرة (مصر).

– لديه عدة استحقاقات ومشاركات دوليّة ووطنيّة.

ومن الجوائز التي حصل عليها:

الجائـزة الثالثـة فـي المسـابقة الكبـرى للفنـون الإسـلاميّة لمدينـة (الجزائـر) سـنة 1972.

الجائـزة الثانيّـة فـي المسـابقة الكبرى للفنـون الإسـلاميّة لمدينة (الجزائر) سـنة 1984.

وإلـى جانـب هـذه الطّائفـة مـن المشـاهير الذيـن تميزوا بأداء مشـرف وبقدرات عاليّة في فن الخط، وبحضور فني فاعـل محليـا ودوليا تُلـوِّح طائفة أخرى من الخطاطين الذين على الرّغم مـن تكوينهـم المحلـيّ اسـتطاعواأن يتميّـزوا بإبداعاتهم فـي مختلف أنواع الخطـوط، وأن يثبتوا أنّ فـن الخطّ في الجزائر في «تطوّر كبير»، يدل على ذلك نجاح كثير منهم في مختلف المسابقات الدّوليّة. وفيما يلي نختار عينةً من هؤلاء الخطاطين:

– دوني مارتيناز(1941 ــ): من مواليد (30–11–1941م)، وُلد بمرسى الحجاج بوهـران، وأثر على العديـد من الفنانين الموجوديـن حاليـاً بالسّـاحة الفنيّـة، وأحد المؤسّسـين، مع شـكري مسلي، لمجموعـة (Aouchem الوشـم)عام 1967م، وقد جعل من الخطّ العربي مادة لينة يحولها ويحورها كما يشاء فأبدع في ذلك، حيث قام بتحوير أشكال الخطوط العربيّة مسـتعيناً بالخطّ النّسخي، وخطّ الثلث، لإنجاز مجموعـة من اللوحات التّعبيريّـة يمكن من خلالهـا رؤيّة مدى تمكن الفنان من إتقان العمل التّعبيري.

– الأسـتاذ نور الدّين كـور (1960ــ):

مـن مواليـد 15 ديسـمبر 1960 بوهـران، يعمـل أسـتاذالمادة التّربيّةالتّشـكيليّة بثانويّة(حيرشـمحمّد)بوهران سـابقا، وهو حاليـا متقاعد، حاصل على شـهادة الليسـانس فـي الفنـون التّشـكيليّة مـن جامعـة مسـتغانم. وقـد بلغـت إنجازاته الفنيّـة منذ عام 1980 ألفا وسـتمائة لوحة، ويغلـب على أعماله أسـلوب المدرسـة الحروفيّـة؛ فمعظـم لوحاتـه لهـا علاقة بالحـرف والألـوان والتّركيـب، مع غلبة الطّابع العصري، إذ تعبر هذه المدرسة عن حركة فنيّة يغلب عليها الحرف العربي بقوةٍ تبرهن على قوتـه، ومكانته الرّاسـخة في الفن التّشكيلي.

ومن إسـهاماته في تنشيط الوسط الفني للفنون التّشـكيليّة الأعمـال والعضويات التّاليّة:

– مؤسّـس جمعيّـة الفنون التّشـكيليّة «حضارة العين».

– عضـو في الإتحـاد الوطنـي للفنون الثقافيّة سابقا.

– عضـو في الاتحـاد الوطنـي للفنون التّشكيليّة،

– عضو في تأطير الورشة الوطنيّة للخطّ العربي بـ(المديّة).

– لـه تأليـف عنوانـه: «قواعـد الخطّ الكوفي الحديث»

ومن منجزاته:

– مصمم عدة لوحات ومعارض.

– مشـارك في عدة تظاهرات فنيّة عربيّة ودوليّة.

كما حصل على عدة جوائز وتكريمات منها:

– الجائـزة الثانيّـة فـي الحروفيّـة في الصّالـون الوطنـي الأول للخـطّ العربي بـ(مستغانم) سنة 2014.

– تكريم من دائرة الثقافة في (الشّارقة) سنة 2019.

– الأستاذ أمحمّد صفار باتي (1971ــ):

مـن مواليد 1971 بالجزائـر، يعمل خطاطا محترفـا، وأسـتاذا لفـن الخـطّ العربـي بالجزائر العاصمة

من الشّهادات الدّالة على كفاءته الفنيّة:

– حاصل على شهادة ليسانس في علم النّفس التّربوي؛

– له شـهادة إجازة من أستاذه الدّكتور (محمّد شريفي)؛

– حاصل على شهادة الدّكتوراه الفخريّة من المركز الثقافي الألماني الدّولي.

وله العديد من المشاركات في المعارض والمسابقات المحليّة، وقد حصل على الجوائز التّاليّة:

– جوائز المرتبة الأولى في مسابقات محليّة بالجزائر خلال السّنوات: من 2004 إلى 2007.

– الجائزة الأولى مناصفة مع الخطاط السّوري فاروق الحداد في فن الخطّ الكلاسيكي الأصيل بالمهرجان الدّولي للخطّ العربي بـ(دبي) (الإمارات العربيّة المتحدة).

–الأستاذ خالدّ الخالدّي (1971ــ):

فنان تشكيلي، وخطاط دولي، وباحث أكاديمي متخصص في فلسفة علم الجمال، تتلمذ على يد الأستاذ نبيل الغانم من سوريا، وهو من مواليد 21 ماي 1971 بالمشريّة، يعمل أستاذالفن الخطّ العربي والرّسم بجامعتي (سعيدة) و(تلمسان)، حاصل على شهادة الليسانس في الفنون التّشكيليّة بجامعة (عبد الحميد ابن باديس). وعلى دكتوراه العلوم في الفنون البصريّة(تخصص: الفنون التّشكيليّة). شا ر كفيا لعد يد منو ا لملتقيا ت ، وأطَّرالكثيرمن الورشات، وقدّم الكثير من المحاضرات الوطنيّة والدّوليّة، ونال جوائزوطنيّةودوليّة في فن الخط.

• **أ.د الطيب دبّة**
جامعة الأغواط

المصادر
– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت– لبنان، ط1، 1998.
– خالدّ خالدّي،وبلبشير عبد الرّزاق (جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان – الجزائر)، مكانة الخطّ العربي في كتابة المصاحف بالجزائر، مجلة الميادين للدراسات في العلوم الإنسانيّة، فرع الدّراسات النّقديّة والجماليّة، المجلد 1، العدد1، 2020.

كتابة اللغات الأفريقيّة بالحرف العربي

د.طارق ثابت

كان الحرف العربي هو الحرف الرّئيس لكتابة لغات شعوب العالم، كتبت به 146 لغة في آسيا وأفريقيا وأوروبا، كتبت به الإسپانيّة والبرتغاليّة واليونانيّة والتّركمانيّة والمنغوليّة ثم تدهور الحال بهبعدذلكلأسباب كثيرةللأسف، ونظام الكتابة العربيّة من أوفى النّظم الكتابيّة في العالم بالغرض الذي وضع له، وأقربها للاطراد في القاعدة، بل إن اللغة العربيّة قد امتازت بهذا النّظام الكتابي الفريد حتى عُرفت به، ونُسب إليها، فأطلق عليه مصطلحات: الخط العربي، والحرف العربي، والأبجديّة العربيّة، ونظام الكتابةالعربيّة.

كان وصول الإسلام إلى أفريقيا معبرا لسفر اللغة العربيّة إلى المنطقة، مكرسا بذلك ظلال وجودها التي سبقت دخوله، سواء اعتبارا لما يجمعها ببعض اللغات الأفريقيّة كالأمهريّة، أو من خلال التّأثير القديم المرتبط بحركة التّبادل التّجاري، وشكل دخول اللغة العربيّة مع الإسلام مصدر تحول ثقافي ولغوي حقيقي داخل مشهد لساني حافل باللغات واللهجات التي تصل إلى أكثر من ألف لغة متداولة، وهو تحول تهم امتداداته، ثلاث تجليات أساسيّة، ارتبطت باستعمال اللغة العربيّة نفسها في عدد من المناطق، وبالتّأثير الذي مارسته العربيّة على مستوى عدد من اللغات الأفريقيّة، ثم بتوظيف الحرف العربي لكتابة لغات أفريقيّة، وبذلك، أصبحت اللغة العربيّة خلال فترات معينة، حسب (توماس أرلوند)، لغة للتداول بين قبائل نصف القارة الأفريقيّة. وهو الأمر الذي يعكسه اعتماد اللغة العربيّة كلغة رسميّة أو لغة للتداول، إلى جانب لغات أخرى أحيانا، في مجموعة من الدّول الأفريقيّة، من بينها الصّومال والجيبوتي وإثيوبيا وإريتريا، فليس من شك في أن الإنتاج الثقافي للقارة الأفريقيّة في أغلب صوره كان شفهيا قبل دخول الإسلام وانتشاره فيها مع الفتوحات الإسلاميّة: كالرّوايات والقصص والعلوم وجميع الفنون المعرفيّة؛ غير أن بعض القبائل الأفريقيّة تمتلك حروفها الخاصّة. إن انتشار الإسلام واللغة العربيّة في أفريقيا نتج عنه ميلاد الثقافة الجديدة وهي التّراث العربي الإسلامي خلفه جهابذة العلماء في مختلف ميادين المعرفة، وعلى سبيل المثال كانت اللغة العربيّة في خلافة (صكتو) وفي مملكة (كَانِمْ بَرْنُو) ومملكة غانا (1076–1085) وإمبراطوريّة مالي(خوالي 1100–1754)، وإمبراطوريّة (صنغاي) (1473–1591) لغة رسميّة تستخدم في جميع المجالات الحيويّة؛ وفي (تنبكتو وجني) ومدينة "السّوق" بجمهوريّة مالي الحاليّة، وكذلك في (أغدسوكاوار) في جمهوريّةالنّيجر الحاليّة ذلك لأن المسلمين يهتمون بالكتابة وبحفظ القرآن ومبادئ الدّين الإسلامي، ومن الجدير بالذكر التّنويه هنا إلى الدّور الذي كان لعبه الملوك والسّلاطين في تشجيع العلماء على الكتابة عن طريق المكافأة التي يقدمونها مما كان له أثر فعال في تحريك عجلة الكتابة إلى الأمام.

ولم تكن اللغة العربيّة لغة للتداول العملي واليومي فقط، بل كانت أيضا لغة للتأليف في مختلف المجالات، وهو الأمر الذي يعكسه بشكل جلي إسهام عدد من العلماء الأفارقة في التّأليف باللغة العربيّة، ولم ينحصر الإنتاج في المجالات الدّينيّة فقط، بل شمل أيضا الكتابة الأدبيّة، حيث شكلت العربيّة إحدى اللغات الرّئيسة التي كانت مجالا لغويا للأدب الأفريقي المكتوب، وهو ما تشهد عليه الآلاف من المخطوطات التي تحتفظ بها عدد من مكتبات أفريقيا. كما هو الحال بالنّسبة لرصيد مخطوطات (تمبوكتو) الشّهيرة.

❋ وقد قام العرب من خلال اتصالاتهم الأولى بالأفارقة عبر العصور بدور حضاري وفكري وإنساني بارز، ترك أثره الإيجابي في مجرى التّاريخ

لهذه القارة، ولقد لعبت الإمبراطوريات والممالك الأفريقيّة الإسلاميّة الكبرى دورا عظيما في دفع عجلة الثقافة العربيّة الإسلاميّة والتّبادل التّجاري بين الشّعوب العربيّة والأفريقيّة، إلى الأمام. و«قد كان لتشجيع الملوك للعلم والعلماء وازدهار المنطقة اقتصاديا وثقافيا أكبر الأثر في التّراكم الهائل للكتب المخطوطة في المنطقة، بالإضافة إلى المؤلفات الكثيرة التي ألفها العلماء وفقهاء محليون عرفوا بغزارة الإنتاج العلمي».

❋ ظل الحرف العربي لقرون طويلة الحرف الأول الذي ينقل الثقافة والفكر في ربوع القارة السّمراء شمالاً وغرباً وشرقاً ووسطاً، ولكن تراجع الحرف العربي عن دوره في نقل التّراث الإنساني عبر القرون تحت وطأة محاولات المستعمر المستمرة لإحلال الحرف اللاتيني مكانه قبل وأثناء القرن العشرين، وقد عملت قوى الاستعمار على تغيير الخارطة الثقافيّة والسّياسيّة والدّينيّة والاجتماعيّة لأفريقيا بشكل يُلائم سياستها القائمة على محو هويّة المنطقة وثقافتها، واعتمدت في ذلك، على سبيل المثال، على خلق بنيّة تعليميّة جديدة تنسجم مع سياستها، وتقوم أساسا على محاربة سواء التّعليم الإسلامي والعربي أو الأفريقي، ويندرج في هذا السّياق إصدار السّلطة الاستعماريّة الفرنسيّة بالسّينغال لقرار، سنة 1875، يفرض الحصول على تصريح قبل افتتاح أي مدرسة عربيّة، ولم يكن الاستعمار العامل الوحيد وراء تذبذب الحضور الثقافي العربي والإسلامي بأفريقيا، بل أسهم في ذلك أيضا ابتعاد العالم العربي والإسلامي نفسه عن المنطقة وعزوفه عن تكريس وتمتين وشائج الحوار وأفق التّضامن مع بلدانها، كما أن كثيرا من العناصر التي كانت عوامل لتقويّة الحضور الإسلامي بأفريقيا تحولت، مع تغير السّياقات والشّروط، إلى عوامل مضادة لهذا الحضور. فإذا كانت الطّرق الصّوفيّة، على سبيل المثال، طرفا فاعلا، خلال اللحظات السّابقة، على مستوى نشر الإسلام وضمان وجود نظام تعليمي مساعد، فقد تحولتإلى أطراف متصارعة في ما بينها حينا، أو مساندة للاستعمار أو صامتة عليه أحيانا أخرى.

وكان تزامن مختلف العوامل السّابقة وراء إكراهات انعكست بشكل سلبي، من جهة على بنيّة الثقافة الأفريقيّة نفسها ومكوناتها اللغويّة والفكريّة والإبداعيّة، ومن جهة أخرى على علاقة هذه الثقافة مع مثيلتها بالعالم العربي، بشكل صار معه الصّمت والغربة والبعد عناوين جديدة لمرحلة جديدة، وبالتّزامن مع ذلك عرف حضور اللغة العربيّة بأفريقيا اندحارا كبيرا وسط مشهد لغوي حافل بأكثر من ألف لغة متداولة، وحامل لأكثر من سؤال، من علامته التّوزع اللغوي داخل البلد الواحد. ويعكس ذلك الجانب المركب والحافل بكثير من الإشكالات لسياق يجعل حياة اللغة العربيّة بأفريقيا عسيرة، كما أنها تعرف تراجعا حتى في المناطق التي شكلت داخلها، خلال لحظات سابقة لغة أساسيّة؛ وهو الأمر الذي ينطبق مثلا على كينيا التي تخلت عن العربيّة بعد أن كانت لغتها الرّسميّة إلى حدود ستينات القرن الماضي.

❋ غير أن الحرف العربي أضحى اليوم أكثر انتشاراً من ذي قبل، وذلك بفضل جهود عدد من الحادبين على نشر الحرف العربي الذين دافعوا عنه في أروقة الأمم المتحدة مثل مدير اليونسكو الأسبق (أحمد مختار أمبو) السّنغالي الجنسيّة، و (كريم توري) السّيراليوني الجنسيّة.

وقد بدأت الجهود تتوجه نحو إعادة استخدام الحرف العربي في كتابة اللغات الأفريقيّة حينما انتبه المثقفون الأفارقة في إطار سعيهم لفهم أعمق لمشكلة محو الأميّة إلى أن تعريف الأمي نفسه ضمن مشاريع محو الأميّة كان قاصراً، وذلك لأن الأمي في ممارسات اليونسكو كان هو من لا يعرف كتابة لغته بالحرف اللاتيني، وعليه لم تكن الإحصاءات الرّسميّة تضع في حسبانها من يقرأ ويكتب لغته الوطنيّة بالحرف العربي.

وقد أشارت الإحصاءات إلى أن ثلثي الأطفال في هذه الدّول يتلقون تعليمهم الأساسي بالحرف العربي، ويستخدمه الكبار في المكاتبات اليوميّة إلى جانب أن هناك تراثاً أدبياً ضخماً لهذه الشّعوب كُتب بهذا الحرف لم يصل إلينا منه سوى جزء يسير كتب بالحرف العربي.

في مارس عام 1984م وقعت اليونسكو مع منظمات شريكة على المشروع الإقليمي لليونسكو (بريدا) الخاصّ باستعمال الحرف العربي في مكافحة الأميّة في أفريقيا، وقد تضمن المشروع عدداً من البرامج منها: إجراء دراسة لواقع استعمال الحرف العربي في مالي والسّنغال والنّيجر ونيجيريا، وعقد ندوات حول وضع حروف لكتابة لغات البولار/ فلفدى، الصّنغي/ زرما، الولوف، الكانوري والهوسا، وإنشاء فصول نموذجيّة لاستخدام الحرف العربي في تعليم اللغات المحليّة بالمدارس القرآنيّة في مالي والسّنغال والنّيجر، بجانب وضع رموز موحدة

للأصوات (حروف) بدلاً عن كتابة كل لغة برموز مختلفة مما يجعل نفس الصّوت يأخذ أكثر من رمز.

وقد أثمر هذا التّعاون في عام 1989م عن توحيد حروف ست لغات من شرق أفريقيا هي القمريّة، والسّواحيليّة، والأرومو، والدّينكا، واللكبارة، واللوكندة، إلى جانب البولار/ فلفدى والصّنغي/ زرما من غرب أفريقيا، وتوسع المشروع ليضم من لغات غرب أفريقيا: والكانوريوالتّماشقوالمالينكي/ بمبراوالصّوصوولونكي/ سراكولي.

ثمبعدها تم الاتفاق عام1991م على رموز كتابة مجموعة اللغات التي سبق دراستها مستنبطة من الحروف العربيّة بعد دراسة الجوانب الصّوتيّة ومراعاة العوامل العمليّة والتّاريخيّة والبيداغوجيّة والجماليّة، ثم انتقل المشروع إلى مرحلة جديدة عندما تم تمويل صناعة 600 آلة كاتبة يدويّة عربيّةأفريقيّة استخدمت فيها مجموعة الأحرف المنمطةالصّالحة لكتابة نصوص 16 لغة أفريقيّة تمهيداً لاستخدامها في المشروعات التّربويّة وخاصّة محو الأميّة.

❋ اللُّغة العربيّة حضورها ومكانتها بأفريقيا: تحتل قارة أفريقيا المرتبة الأولى على مستوى العالم من حيث تعدد اللغات الأم فيها والثقافات لكثرة الحضارات المتعاقبة، تتميز بتعدد لغاتها ولهجاتهاوالتي تصل إلى (2000) لغة أصليّة في أفريقيا، أي ثلث لغات العالم، ونصف لغاتها تقريباً في ثلاث دول فقط، و(80٪) منها لا تملك صياغة كتابيّة محددة، فأغلب اللغات الأفريقيّة تُستعمل شفهياً، كما تتواجد بها عدة لغات معزولة، ولغات لم يتم بعد تصنيفها، ف دولة بابوا غينيا الجديدة مثلا تضم أكبر تنوع لغوي في العالم، بامتلاكها على أكثر من (800) لغة متداولة، وكذلكنيجيريا واحدة من أكثر الدّول ذات التّنوع اللغوي، بها (521) لغة؛مما جعل من السّياسة اللغويّة قضيّة حيويّة في عصر ما بعد الاستعمار، وإنَّ نظرةً عجلى في الخريطة اللُّغويّة بأفريقيا تضع أناملنا على الوضع الحقيقي للّغة العربيّة بالقارة الأفريقيّة، وتكشف عن العلاقات المتشابكة بين اللُّغات الأفريقيّة وبين العربيّة.

يتمظهر هذا أوّلاً في العلاقة العضويّة بين اللُّغة العربيّة وبين مجموعة كبيرة من اللُّغات الأفريقيّة؛ إذ إنَّ العربيّة تقع ضمن المجموعة السّاميّة التي هي تفرُّع من أسرة اللُّغات الأفروآسيويّة (عددها 371)، أمَّا بقيّة الأسر اللُّغويّة الأفريقيّة الثّلاث، فهي: أسرة اللُّغات النّيجركونغويّة (1,436)، والنّيليّةالصّحراويّة (196)، الخويسانْ (35).

والملاحظة السّريعة فيما سبق؛ أنَّ اللُّغة العربيّة تقع ضمن الأسرة الثّانيّة من حيث الكثرة، وفوق ذلك تعدُّ العربيّة أكثر اللُّغات الأفروآسيويّة الأكثر انتشاراً؛ حيث يبلغ عدد المتحدِّثين بها أكثر من (150) مليون نسمة، ومعظمهم بأفريقيا الشّماليّة، أمَّا عن انتشارها بأفريقيا تحديداً؛ فتفيد الإحصاءات أنَّ من بين (1030) مليون نسمة بأفريقيا، بحسب إحصاءات عام 2011م، تتحدَّث بالعربيّة نسبة تقارب (17٪) من هذا العدد، بينما لا يتحدَّث بالسّواحليّة إلاَّ حوالي (10٪)، والهوسا (5٪)، وهما اللُّغتان الأكثر انتشاراً بالقارة، فالعربيّة – بلغة الأرقام – هي أكثر لغات القارة الأفريقيّة انتشاراً.

كذلك، فإنَّ للّغة العربيّة علاقاتٍ وظيفيّة بلغاتٍ أفريقيّة كثيرة في الأسر الأخرى، من ذلك: علاقتها مع لغات الأسرة النّيليّةالصّحراويّة (كانوري، كانيمبو، زغاوة...)، واللغات النّيجريّةالكونغويّة (بمبارا، جولا، سوسو، سوننكي، كبيلي، ولوف، فلفلدي، تمني، بساري...).

إنَّ للّغة العربيّة علاقاتٍ تاريخيّة عميقة بهذه اللُّغات وتأثيراً واضحاً فيها، وهو تأثيرٌ وصفه الباحث (سلاوُو) في مستوى الاقتراض بأنَّه (flood of words)؛ أي: «طوفان» من المفردات العربيّة في اللُّغات الأفريقيّة، بالإضافة إلى تلك الإحصاءات المؤكِّدة للحضور العربيِّ بأفريقيا، فإنَّ حضور اللُّغة العربيّة بالقارَّة، من ناحيّة تاريخيّة، حضورٌ قديم، سبق ظهور الإسلام بها، وذلك في مناطق الشّرق الأفريقي، وبالتّحديد: منطقة القرن الأفريقي، أمَّا في المناطق الدّاخليّة الأخرى فإنَّ الحضور العربيَّ بها قد رافق الحضور الإسلاميَّ في حدود القرن الثاني الهجري (الثّامن الميلادي).

أيضاً، تظهر مكانة العربيّة بأفريقيا باعتمادها على مستوى سياسيٍّ رفيع؛ لتكون لغةً رسميّة بمنظَّمة الوحدة الأفريقيّة، وذلك مع اللُّغات الاستعماريّة الثّلاث (الإنكليزيّة والفرنسيّة والبرتغاليّة) المعتبرة «لغات عمل» (workingpaper) رسميّة بالمنظمة، وبذلك فإنَّ اللُّغة العربيّة والسّواحليّة هما اللُّغتان غير الاستعماريَّتين المعترف بهما بهذه المنظَّمة.

❋من مكاسب الحرف العربي واللغة العربيّة في أفريقيا أن العربيّة أصبحت لغةً من اللغات الوطنيّة المعترف بها دستورياً في بعض الدّول مثل تشاد والنّيجر، وظهرت صحافة عربيّة لأول مرة في عدد من دول المنطقة خلال السّنوات الأخيرة، وإن كان ظهورها في السّنغال أسبق، فقد صدرت بعد

الاستقلال مجلة حكوميّة سنغاليّة بالعربيّة تحمل اسم (المسيرة)، ثم مجلة (الأفكار) النّاطقة باسم الاتحاد الوطني للكتاب والصّحافيين النّاطقين بالعربيّة، وتوالتّ بعدهما صحف ومجلات أخرى، وفي النّيجر ظهرت منذ عام 1995م إلى اليوم صحيفتان ومجلة ناطقة كلها بالعربيّة، وهي صحيفة (الوطن) التي ظهرت سنة 1995م، ومجلة (الواحة) التي صدرت منها بضعة أعداد ثم توقفت، وأخيراً صحيفة التّواصل، وفي مالي تصدر حالياً صحيفتان على الأقل باللغة العربيّة، هما (الصّحافة) و(المستقبل).

❋ هذا وقد اختارعددمن الدّول الأفريقيّة اللغةالعربيّة لغةً رسميّة[1]؛ ويقصد باللغة الرّسميّة اللغة المستخدمة في إدارة وتسيير الأعمال الحكوميّة، والتي تتم بها المكاتبات والمراسلات وكافة أعمال الدّولة، وغالبا ما ينص دستور الدّولة، ويحدد لغتها، أو لغاتها الرّسميّة، وفي أحيان قليلة أخرى يمسك عن ذكرها، أما عن الدّول التي اختارت اللغة العربيّة كلغة رسميّة لها في أفريقيا، فنجد أنها لم تقتصر فقط على دول شمال أفريقيا النّاطقة بالعربيّة، والتي تضم مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب، بالإضافة إلى السّودان وموريتانيا؛ بل تعدتها لتضم أربع دول أفريقيّة أخرى اختارت اللغة العربيّة لغة رسميّة لها، إلى جانب لغات أخرى؛ وهذه الدّول هي: تشاد، وجزر القمر، وجيبوتي؛ والتي تبنت العربيّة كلغة رسميّة إلى جانب الفرنسيّة، والصّومال التي اختارت العربيّة كلغة رسميّة إلى جانب اللغة الصّوماليّة؛ ليصير بذلك عدد الدّول الأفريقيّة التي اختارت العربيّة لغة رسميّة لها إحدى عشرة دولة. هذا ولا يعد وجود اللغة العربيّة كلغة رسميّة في بعض دول أفريقيا جنوب الصّحراء الشّكل الوحيد لحضورها هناك، بل نجدها حاضرة بقوة في عدد من الدّول الأخرى؛ باعتبارها لغة وطنيّة لبعض القوميات بها؛ بحيث تتحدث هذه القوميات اللغة العربيّة، وتستخدمها في التّعامل فيما بين أفرادها، أو تستخدمها كلغة إدارة للإقليم الذي تقطنه، أو تستخدمها في بعض مراحل التّعليم بها؛ فعلى سبيل المثال نجد أن دولة إثيوبيا، التي حوربت فيها اللغة العربيّة لفترات طويلة، وتم العمل على تحجيمها من قبل ملوك وحكام إثيوبيا، رغم عدد المسلمين الكبير بها، شهدت مؤخرا الاعتراف باللغة العربيّة كلغة وطنيّة لإقليم (بني شنقول – جوموز) المتحدث بالعربيّة والمجاور للحدود السّودانيّة، والذي اختار اللغة العربيّة كلغة للإدارة والعمل بالإقليم، وكلغة تعليم في مرحلة التّعليم الأوّلي؛ وذلك وفقا لدستور1994 الذي نص على اعتبار الأمهريّة لغة العمل والإدارة للحكومة الفيدراليّة الإثيوبيّة، مع إعطاء وضع متساو لكل اللغات الإثيوبيّة، كما منح كل إقليم في الاتحاد الفيدرالي الحق في تحديد لغات العمل الخاصّة به. وفي دولة مالي تعد اللغة العربيّة –المتمثلة في اللهجة الحسانيّة– إحدى اللغات الوطنيّة الأساسيّة المفصلة في القانون (049–96) المتضمن كيفيّة ترقيّة اللغات الوطنيّة، والذي حرره واعتمده المجلس الوطني للنواب في (أغسطس 1996)،وتولت رئاسة الجمهوريّة نشره وإذاعته. وبناء على هذا القانون تتمتع هذه اللهجة بكافة الحقوق المكفولة لسائر اللغات المحليّة، وتلعب نفس الأدوار؛ كالتّوعيّة ونشرة الأخبار في الإذاعة والتّلفزة الوطنيّة. كما تعد اللغة العربيّة إحدى اللغات الوطنيّة في النّيجر طبقا لدستور(1989)؛ رغم أن نسبة متحدثيها كلغة أم في النّيجر قليلة نسبيا؛ حيث تصل لحوالي 0.3٪ من عدد السّكان البالغ 8 ملايين نسمة، أما في بقيّةالدّول الأفريقيّة جنوب الصّحراء التي لا تستخدم فيها العربيّة كلغة رسميّة أو كلغة وطنيّة، فنجد أن حضورها قد يكون ماثلا أيضا من خلال دورها الدّيني، ومن خلال وجودها في منظومة التّعليم الأهلي أو الرّسمي.

وإذا أردنا أن نختار لغة من اللغات الأفريقيّة الكثيرة لكي نرشحها لتكون لغة أفريقيا الرّسميّة لوجدنا العربيّة على رأس اللغات الثلاث الكبرى التي يمكن أن تحظى بهذا الشّرف، ويقصد باللغات الثلاث الكبرى: العربيّة والسّواحيليّة ولغة الهوسا وسواء أصبحت العربيّة في يوم من الأيام لغة رسميّة للقارة الأفريقيّة أم لم تصبح، فهي الآن تحتل بلا مُنازع المرتبة الأولى بين اللغات الأفريقيّة، ليس فقط لكونها اللغة التي يتكلمها نحو ثلث سكان القارة، أو يتبناها نصفُ سكانها باعتبارها لغة قرآنهم، ولكن أيضاً لكونها أعرق هذه اللغات كتابة وتراثاً وأغزرها عطاء، ولكونها اللغة الوحيدة التي دُوِّن بها تاريخ أفريقيا القديم والوسيط، ولولاها لكانت أفريقيا بدون تاريخ وبلا حضارة.

❋يتباين وضع اللغة العربيّة في المؤسّسات التّعليميّة الحكوميّة في دول أفريقيا جنوب الصّحراء(2)، فهناك دول

(1) مقال بعنوان: اللغة العربيّة في أفريقياحضور قوي ودور متراجع، موقع https://www. arabiclanguageic. org/view_page. php?id=757

(2) مقال واقع اللغة العربيّة في أفريقيا جنوب الصّحراء، عمر عبد الفتاح، موقع https://www.ikhwanwiki.com

تُدرِّس العربيّة في كل أو معظم مراحل التّعليم،وهناك دول تدرسها في التّعليم الأوَّلي فقط،أو في المرحلة الجامعيّة فقط. وهناك دول لا وجود للّغة العربيّة في مناهجها على الإطلاق،وهي في الغالب البلاد التي يمثل المسلمون فيها أقليّة محدودة للغايّة.

وللغة العربيّة حضور في التّعليم الحكومي في دول شرق أفريقيا، ولكنه لا يسير على نمط واحد حيث يختلف شكل هذا الحضور من دولة لأخرى؛ ففي إثيوبيا لم يكن للعربيّة حضور في التّعليم الحكومي حتى صدور دستور 1994 الذي بُنيت علي أساسه السّياسة التّعليميّة للدولة،والتي منحت كل إقليم في الاتحاد الفيدرالي الحق في تحديد لغات التّعليم الخاصّة به في مرحلة التّعليم الأوَّلي، فاختار إقليم (بني شنقولجوموز) اللغة العربيّة كلغة تعليم في مرحلة التّعليم الأوَّلي، أما على مستوى التّعليم الجامعي فقد تم تأسيس شعبة للّغة العربيّة في جامعة أديس أبابا منذ عدة سنوات،وفي إريتريا نجد أن اللغة العربيّة يتم تدريسها كمادة دراسيّة في المرحلة الأوَّليّة وفي المرحلة الثانويّة، وطبقا للسياسة التّعليميّة للحكومة الإرتريّة فإن لكل قوميّة الحق في استخدام لغتها كلغة تعليم في مرحلة التّعليم الأوَّلي، بينما تستخدم الإنكليزيّة كلغة تعليم في مراحل التّعليم التّاليّة، في حين تدرس اللغات الأخرى كمواد دراسيّة.

وفي جيبوتي تدرس اللغة العربيّة في المدارس الحكوميّة مع الإنكليزيّة ابتداء من الصّف السّابع، هذا بالإضافة إلى إنشاء قسم عربي في جامعة (بول Paul) التي تأسست عام 2002، كما أدمجت المدارس التي تدرس باللغة العربيّة كاملة ضمن نطاق المؤسّسة التّعليميّة الرّسميّة.

أما في أوغندا فيتم تدريس اللغة العربيّة في جامعة (ماكيريري) الحكوميّة، وقد بدأ تدريس العربيّة في هذه الجامعة في سبعينيات القرن الماضي ولكنها لم تكن تدرس كمادة منهجيّة للطلاب إنما كان يدرسها الرّاغبون كمادة إضافيّة، وفي عام 2006 أفتتح القسم مرحلة الدّبلوم العالي في التّربيّة باللغة العربيّة. كذلك أُفتتح نادي ثقافي عربي في الجامعة يجمع كل الطّلاب الدّارسين بالقسم، وتلقى فيه المحاضرات والدّروس بالعربيّة،وتناقش فيه مسائل ثقافيّة واجتماعيّة تخص الطّلبة المسلمين بالجامعة خاصّة والمجتمع الأوغندي بصورة عامة.

وفي الصّومال ورغم اعتماد العربيّة لغة رسميّة إلى جانب الصّوماليّة، إلا أن اللغة الصّوماليّة هي المسيطرة على التّعليم الحكومي بشكل كبير، ويتم التّدريس بالعربيّة فقط في المدارس الأهليّة.

وفي زنجبار بتنزانيا يتم تدريس اللغة العربيّة كمادة دراسيّة في التّعليم الحكومي، وذلك في المرحلة الابتدائيّة بدايّة من الصّف الرّابع وفي المرحلة المتوسطة والمرحلة الثانويّة.

❋ويبدو أن واقع اللغة العربيّة في المؤسّسات التّعليميّة الحكوميّة في غرب أفريقيا أسعد حالاً منها في شرق أفريقيا؛ فقد قررت كل من مالي والسّنغال والنّيجر وغينيا وجامبيا ونيجيريا إدراج تعليم اللغة العربيّة ضمن برامج المدارس الحكوميّة بها؛ ففي مالي تتم دراسة اللغة العربيّة في التّعليم الحكومي بشكل بارز؛ ففي التّعليم الابتدائي تدرس العربيّة من الصّف الأول حتى السّادس بالمدارس ثنائيّة اللغة (الفرنسيّة-العربيّة)، وهي تدرس مع اللغة الفرنسيّة على حد سواء باعتبارهما لغة تعليم. ويجب أن نشير هنا إلى أنه يتم تدريس العربيّة في هذه المدارس باعتبارها لغة فقط دون ربطها بالدّين الإسلامي، وذلك استناداً إلى المادة التي تنص على علمانيّةالدّولة وعلمانيّةالتّعليم في دستور دولة مالي، ومن ناحيّة أخرى يرسل أولياء الأمور أطفالهم إلى هذه المدارس لغرض ديني؛ إذ يعتقدون أن تعليمهم مبادئ اللغة يساعدهم على فهم الإسلام، ويُسهل عليهم قراءة القرآن، وفي المرحلة الإعداديّة (الصّف السّابع والثامن والتّاسع) تتحول العربيّة لمادة اختياريّة من بين اللغات الأجنبيّة؛ حيث يترك للتلميذ حريّة اختيار اللغة التي يرغب في تعلمها وهذا على المستوى النّظري العام فقط،وأما في الواقع العملي فلا يوجد في هذه المرحلة عدا الإنكليزيّة والعربيّة،ويخصص لهذه المادة الاختياريّة ثلاث ساعات أسبوعياً. وفي المرحلة الثانويّة تستمر العربيّة كلغة اختياريّة مع لغة أجنبيّةأخرى ؛ ويتم اختيار اللغة الأولى وفقا للّغة التي درسها التّلميذ في المرحلة الإعداديّة،الإنكليزيّة أو العربيّة،وغالبا ما تبقى اللغات الأخرى دائما في الاختيار الثاني.

❋كذلك للعربيّة حضور في المعاهد التّربويّة وفي التّعليم الجامعي بمالي، فقد أُفتتح في عام 1997 معهد الهجرة التّربوي في مدينة (تنبكت)،وهو معهد حكومي لتلبيّة حاجة المدارس العربيّة من مدرسي العربيّة سواء في مواد اللغة العربيّة أو المواد العلميّة كالرّياضيات والكيمياء والفيزياء. وتعتبر اللغة العربيّة هي لغة التّدريس في هذا المعهد،وفي

التّعليم الجامعي نجد العربيّة تدرس في المدرسة العليا لإعداد المعلمين. كما تدرس أيضا في شعبة اللغة العربيّة بكليّة الآداب والتي تضم تخصصين،الأول في اللغة العربيّة فقط،والثاني في اللغتين العربيّةوالإنكليزيّة. وتدرس اللغة العربيّة في الجامعة بأشكال أخرى فتدرس كمادة اختياريّة في الأقسام والشّعب الأخرى، وكذلك تدرس في كليّة الإدارة والحقوق والعلوم السّياسيّة في السّنتين: الثالثة، والرّابعة.

وفي السّنغال تدرس العربيّة حالياً في كل المؤسّسات التّعليميّة العموميّة من المرحلة الابتدائيّة إلى المرحلة الجامعيّة، وفي جامبيا نجد أنه منذ عام 1977م تم إقرار مادتي اللغة العربيّة والتّربيّة الإسلاميّة ضمن مقررات المدارس الحكوميّة كلها بما فيها المدارس الكنسيّة.

وفي نيجيريا يتم تدريس اللغة العربيّة في التّعليم الحكومي كمادة اختياريّة من الصّف الأول حتى الصّف السّادس، وفي النّيجر تدرس اللغة العربيّة من خلال المدارس ثنائيّة اللغة،كما تدرس أيضا في التّعليم الجامعي الحكومي وذلك في قسم العلوم الإسلاميّة بجامعة نيامي.

❋ولا شك فإن هذا الحضور الواضح للّغة العربيّة في التّعليم الحكومي لغالبيّة دول غرب أفريقيا يعكس الاهتمام الكبير باللغة العربيّة في هذه الدّول سواء على المستوى الشّعبي أو الرّسمي،كما يشير كذلك للتقدم الواضح الذي أحرزته اللغة العربيّة في مؤسّسات التّعليم الحكومي في غرب أفريقيا، وخاصّة في ضوء التّجربة الاستعماريّة القاسيّةالتي عاشتها تلك المنطقة،وما صاحبها من حجر وإقصاء على تعليم العربيّة وخاصّة في مؤسّسات التّعليم الحكومي.

❋ إن نظام الكتابة العربيّة من أوفى النّظم الكتابيّة في العالم بالغرض الذي وضع له، وأقربها للاطراد في القاعدة، بل إن اللغة العربيّة قد امتازت بهذا النّظام الكتابي الفريد حتى عُرفت به، ونُسب إليها، فأطلق عليه مصطلحات: الخط العربي، والحرف العربي، والأبجديّة العربيّة، ونظام الكتابةالعربيّة، ومن المهم هناأننذكرأهم المؤسّسات الرّائد ةفيخدمةالحرفالعربيالأفريقي وهي:

1 –المنظمة الإسلاميّة للتربيّة والثقافة والعلوم (إيسيسكو): أولت المنظمة الإسلاميّة للتربيّة والثقافة والعلوم (إيسيسكو) اهتماماً خاصاً بمشروع الحرف العربي، وأفردت له موقعاً ثابتاً ضمن خطط عملها المتعاقبة على مدى الثلاثين سنة الماضيّة، ووضعت له أهدافاً ثابتة وأخرى إستراتيجيّة، تتمثل في تنميط الحرف العربي وتكييفه صوتياً وتقنياً لكتابة لغات الشّعوب المسلمة المتعددة، والمحافظة على تراثها الحضاري، وتنميّة لغاتها وثقافاتها وتمكينها من مسايرة الثورة العلميّةوالتّقانيّة، ومحاربة الأميّة وفق المنظور الثقافي المتسق مع عناصر الهويّة وبالحفاظ على التّنوّع الثقافي، وتستند (إيسيسكو) في اهتمامها بمشروع الحرف العربي(1) إلى تراث ضخم وممتد عبر التّاريخ لثمانين (80) لغة من لغات الشّعوب المسلمة التي استعملت الحرف القرآني، وجعلت منه رمزاً لتنوع الأمة الإسلاميّة في إطار الوحدة، قبل أن يقوم المستعمر في منتصف القرن العشرين، بإحلال الحرف اللاتيني محله وإبعاده بالتّدريج وحصره في مجالات التّعليم الدّيني.

ومن ثمار الجهود المتصلة التي قامت بها (الإيسيسكو) بالتّعاون مع شركائها، وضع الأبجديّة العربيّة الأفريقيّةالتي أثبتت صلاحيتها،عبر الدّورات التّدريبيّة، لكتابة نحو ثلاثين (30) لغة أفريقيّة وآسيويّة، قابلة للزيادة. وشهد البرنامج تطوراً ملموساً تمثل في حوسبة هذه الأبجديّة واستحداث البرامج الطّباعيّة الحاسوبيّة وبرامج تحويل النّصوص من الأبجديّة اللاتينيّة إلى الأبجديّة العربيّة الأفريقيّة، واتسع المشروع ليتم في إطاره استحداث دبلومين علميين، وسيط وعال، يؤهلان الدّارسين للحصول على شهادتي الماجستير والدّكتوراه، إلى جانب استحداث كراسي علميّة للحرف القرآني في عدد من الجامعات الأفريقيّة والآسيويّة.

2 –المجلس الدّولي للّغة العربيّة: وهو منظمة عربيّة عالميّة تأسست في 2008م، وتتخذ من بيروت مقرا لها، ونشأ هذا المجلس بمبادرة تنادى إلى تأييدها ودعمها عدد كبير من الوزراء وأمناء المنظمات والهيئات والاتحادات العربيّة والعالميّة الحكوميّة والأهليّة المعنيّة باللغة العربيّة وثقافتها، ويهدف المجلس إلى الإسهام في النّهوض باللغة العربيّة وثقافتها ونشرها وربطها باللغات المختلفة في العالم من خلال تقديم البرامج التّعليميّة والتّدريبيّة والدّراسات والأبحاث التّقنيّة والعلميّة وعقد وتنظيم المؤتمرات والنّدوات والمحاضرات والمعارض وغيرها.

من أولويات عمل المجلس التّعريف بالجهود والإمكانات الفرديّة

(1) مقال فيصحيفة اللغةالعربيّة https://www. arabiclanguageic. org/view_page. php?id=11556

والجماعيّة والمؤسّسيّة في مجال اللغة العربيّة، وتعمل مؤسّسات المجلس ممثلة في الاتحاد الدّولي للّغة العربيّة والجمعيّةالدّوليّة لمدارس اللغة العربيّة على تحقيق أهداف المجلس وبرامجه التي يتم تحديثها وتطويرها باستمرار حسب المستجدات والاحتياجات التي تظهر مع تطور عمل المجلس ومؤسّساته وبرامجه ومشاريعه المختلفة، ومن ذلك عمل المجلس على تقديم البرامج التي تسهم في الاهتمام بالخط والحرف العربي في جميع الدّول التي لها علاقة بالحرف العربي.

3 -مركز الملك عبدالله بن عبد العزيز الدّولي لخدمة اللغة العربيّة: أُنشيء عام 1429هـ تحقيقاً لعدد من الأهداف للمحافظة على اللغة العربيّة، ودعمها ونشرها، وتكريم علمائها، حيث يسعى لمعالجة قضايا اللغة العربيّة من زوايا علميّة متعددة، والخروج بمشروعات علميّة متعددة في خدمة اللغة العربيّة للأفراد والمؤسّسات، كما يقيم الفعاليات والأبحاث العلميّةالتي تعزز قيمة الحرف العربي الذي تكتب به أكثر من مئة لغة في أنحاء العالم لا زال عدد مقدر حيا إلى اليوم، ويرجو المركز أن يسهم في إحياء بعضها أو في الحفاظ على تراثها، وأهميّة تعزيز محل العربيّة في المنظمات الدّوليّة، ومن خلالها، وأهميّة سن الأنظمة والتّشريعات الهادفة إلى الحفاظ عليها، ومتابعة العمل على تطبيق تلك الأنظمة والتّشريعات وعدم الإخلال بها.

4 -المعهد الثقافي الأفريقي العربي في (باماكو): وهو من المؤسّسات التي تضطلع بدور كبير لإبراز قيمة اللغات الأفريقيّة المكتوبة بالحرف العربي، وقد أصدر هذا المعهد عددا من الدّراسات منها كتاب « تراث مخطوطات اللغات الأفريقيّة بالحرف العربي» الذي صدر الجزء الأول منه في عام 2005، والمعهد بصدد طباعة الجزء الثاني، ليقدما معًا مخطوطات ست عشرة لغة أفريقيّة كتبت منذ قرون بالحرف العربي ومنها السّواحيليّة، والهوسا، والأمازيغيّة وغيرها.

5 -مركز يوسف الخليفة لكتابة اللغات بالحرف العربي بجامعة أفريقيا العالميّة: أنشأت جامعة أفريقيا العالميّة بالسّودان عام 2002م وحدة متخصصة في مجال الحرف العربي، تطورت عام 2011م إلى مركز متكامل هو(مركز يوسف الخليفة لكتابة اللغات بالحرف العربي)، ويعمل المركز علىإعادة المكانة التي فقدها الحرف العربي في كتابة لغات الشّعوب الإسلاميّة مضيفاً إليها لغات أخرى، ويتعاون المركز في ذلك مع المؤسّسات المعنيّة بالحرف العربي، ونشره، وتطويره تقنياً وتربوياً، وربطه بتعلم اللغة العربيّة وقراءة القرآن، وإظهار جمالياته، وحوسبة المخطوطات التّراثيّة، وترجمة كتب الثقافة الإسلاميّة إلى لغات المسلمين المختلفة مكتوبة بالحرف العربي.

يمارس المركز اليوم مهامه في مجالين؛ الأول: التّدريب على استخدام الحاسوب في كتابة لغات الشّعوب الإسلاميّة بالحرف العربي، وإعداد المواد التّعليميّة، وذلك على مستوى الدّورات القصيرة، والدّراسات العليا (الدّبلوم العالي والماجستير)، أمّا المجال الثاني: فيعنى بترجمة كتب الثقافة الإسلاميّة إلى لغات المسلمين، وكتابتها بالحرف العربي، ويعنى كذلك بجمع المخطوطات، وتحقيقها، وطباعتها ونشرها، وأبرز أهداف المركز هو الارتقاء بمشروع كتابة لغات الشّعوب الإسلاميّة بالحرف العربي، والتّرويج لإشاعة ونشر الحرف العربي، ومساعدة الجماعات التي ترغب في كتابة لغاتها بالحرف العربي، بجانب إكساب الدّارسين، والباحثين مهارات كتابة، وحوسبة لغات الشّعوب الإسلاميّة بالحرف العربي، واختيار الرّموز الكتابيّة لكتابة الأصوات غير العربيّة، وحوسبة كتابة اللغات بالحرف العربي، وإعادة كتابة تراث الشّعوب الإسلاميّة المخطوط، وحوسبته، وحفظه تقنياً، وتحقيقه، كما يدرس المركز أصوات لغات المسلمين التي لم تدخل في المشروع لاختيار الرّموز المناسبة لكتابتها بالحرف العربي بطريقة علميّة صوتيّة، كما يقوم بإعداد المواد التّعليميّة للغات الشّعوب الإسلاميّة المختلفة بالحرف العربي، وترجمة كتب الثقافة الإسلاميّة إلى لغات الشّعوب الإسلاميّة وكتابتها بالحرف العربي المحوسب، وعمل قاعدة بيانات لنشاطات الحرف العربي بجانب إجراء البحوث، والدّراسات الصّوتيّة، والصّرفيّة، والنّحويّة، والدّلاليّة حول لغات الشّعوب الإسلاميّة، والحرف العربي المُنمط هو الرّكيزة الأساسيّة في كتابة اللغات بالحرف العربي في مركز يوسف الخليفة، وهو مجموعة من الحروف العربيّة الثمانيّة والعشرين والحركات، مضاف إليها أبجديّة (آيسيسكو) المُنمطة، وقد كتب المركز بهذه التّقنيّة للحرف العربي المنمط عشرات الكتب، بعضها مترجم، وبعضها مؤلف، ومن

اللغـات التي صدرت بها هـذه الكتب: اللغة السّـواحيليّة، الهوسا، والفلفلدي، والصّوماليّـة، واليوربـا، والقمريّـة، والبجا، والبني عامر، والنّوبيّة.

❋وقد بـدأت الجهـود تتوجـه نحو إعادة استخدام الحرف العربي في كتابة اللغات الأفريقيّة حينمـا انتبه المثقفون الأفارقة فـي إطار سـعيهم لفهم أعمق لمشـكلة محو الأميّـة إلـى أن تعريف الأمي نفسه ضمن مشـاريع محو الأميّة كان قاصـراً، وذلـك لأن الأمـي فـي ممارسـات اليونسـكو كان هـو من لا يعرف كتابـة لغتـه بالحـرف اللاتيني، وعليـه لم تكـن الإحصاءات الرّسـميّة تضع في حسـبانها من يقرأ ويكتب لغته الوطنيّة بالحرفالعربي.

وقد أشارت الإحصاءات إلى أن ثلثي الأطفال فـي هذه الدّول يتلقون تعليمهم الأساسـي بالحرف العربي، ويستخدمه الكبار في المكاتبـات اليوميّة إلى جانب أن هناك تراثاً أدبياً ضخماً لهذه الشّعوب كُتب بهذا الحرف لم يصل إلينا منه سوى جزء يسـير كتب بالحـرف العربي، ففي مـارس عام 1984م وقعت اليونسـكو مع منظمات شريكة على المشروع الإقليمي لليونسـكو (بريدا) الخاصّ باسـتعمال الحرف العربـي في مكافحـة الأميّة في أفريقيا، وقد تضمن المشـروع عدداً من البرامج منها: إجراء دراسة لواقع استعمال الحـرف العربـي في مالـي والسّـنغال والنّيجـر ونيجيريا، وعقـد ندوات حول وضع حـروف لكتابـة لغـات البولار/ فلفـدى، الصّنغـي/ زرمـا، الولـوف، الكانـوري والهوسـا، وإنشـاء فصـول نموذجيّة لاسـتخدام الحرف العربي في تعليم اللغات المحليّة بالمدارس القرآنيّة في مالـي والسّـنغال والنّيجـر، بجانب وضع رموز موحدة للأصوات (حروف) بدلاً عن كتابة كل لغة برموز مختلفة مما يجعل نفس الصّوت يأخذ أكثر من رمز.

وقـد أثمـر هـذا التّعـاون فـي عام 1989م عـن توحيـد حـروف سـت لغات مـن شـرق أفريقيا هـي القمريّة، والسّـواحيليّة، والأرومـو، والدّينـكا، واللكبـارة، واللوكندة،إلـى جانـب البـولار/ فلفـدى والصّنغـي/ زرمـا من غـرب أفريقيا، وتوسـع المشـروع ليضـم مـن لغـات غـرب أفريقيـا: والكانوريوالتّماشـق، والمالينكـي/ بمبرا، والصّوصوولوننكي/ سراكولي.

❋وفـي عـام1991م تم الاتفـاق على رمـوز كتابـة مجموعـة اللغـات التـي سـبق دراسـتها مسـتنبطة من الحروف العربيّة بعد دراسـة الجوانـب الصّوتيّة ومراعـاة العوامـل العمليّـة والتّاريخيّة والبيداغوجيّـة والجماليّـة، ثـم انتقـل المشـروع إلـى مرحلـة جديـدة عندما تـم تمويـل صناعـة 600 آلـة كاتبـة يدويّـة عربيّةأفريقيّـة اسـتخدمت فيها مجموعـة الأحـرف المنمطةالصّالحة لكتابة نصـوص 16 لغة أفريقيّـة تمهيداً لاستخدامها في المشـروعات التّربويّة وخاصّة محو الأميّة.

من مكاسـب الحرف العربي واللغة العربيّـة في أفريقيـا أن العربيّة أصبحت لغـةً من اللغـات الوطنيّـة المعترف بها دسـتورياً في بعـض الدّول مثل تشـاد والنّيجر، وظهـرت صحافة عربيّة لأول مـرة في عـدد مـن دول المنطقة خلال السّـنوات الأخيـرة، وإن كان ظهورها في السّـنغال أسـبق، فقد صـدرت بعد الاسـتقلال مجلـة حكوميّـة سـنغاليّة بالعربيّة تحمل اسم (المسيرة)، ثم مجلة (الأفكار) النّاطقة باسم الاتحاد الوطني للكتاب والصّحافيين النّاطقين بالعربيّة، وتوالـتّ بعدهمـا صحـف ومجـلات أخـرى، وفـي النّيجر ظهـرت منذ عام 1995م إلى اليوم صحيفتان ومجلة ناطقة كلهـا بالعربيّة، وهي صحيفـة (الوطن) التـي ظهـرت سـنة 1995م، ومجلـة (الواحة) التي صدرت منها بضعة أعداد ثـم توقفت، وأخيراً صحيفـة التّواصل، وفي مالي تصدر حاليـاً صحيفتان على الأقل باللغـة العربيّة، همـا (الصّحافة) و(المسـتقبل)، وفيهذا يقول (يوسـف الخليفـة أبـو بكـر)(1): فـإذا أردنا أن نختار لغة من اللغـات الأفريقيّة الكثيرة لكي نرشحها لتكون لغة أفريقيا الرّسميّة لوجدنـا العربيّـة علـى رأس اللغـات الثـلاث الكبرى التي يمكـن أن تحظى بهذا الشّـرف، ويقصد باللغات الثلاث الكبـرى: العربيّـة والسّـواحيليّة ولغـة الهوسا، وسواء أصبحت العربيّة في يوم من الأيام لغة رسـميّة للقارة الأفريقيّة أم لـم تصبح، فهـي الآن تحتل بـلا مُنازع المرتبـة الأولى بين اللغـات الأفريقيّة، ليـس فقط لكونهـا اللغة التـي يتكلمها نحو ثلث سكان القارة، أو يتبناها نصفُ سـكانها باعتبارهـا لغة قرآنهـم، ولكن أيضاً لكونهـا أعرق هذه اللغـات كتابة وتراثـاً وأغزرها عطـاء، ولكونها اللغة الوحيـدة التـي دُوِّن بها تاريـخ أفريقيا القديـم والوسـيط، ولولاهـا لكانـت أفريقيا بدون تاريخ وبلا حضارة.

❋ أ هما للغا تا لأ فر يقيّة ا لتـي كتبتبالحرفالعربي: لقد قام مركز(يوسف الخليفة لكتابة اللغات بالحرف العربي) بدراسة[2] حول عدد اللغات التي كتبت

(1) الحرف العربيين المُهددات والفُرص – صحيفة اللغة العربيّة، https://www. arabiclanguageic. org/view_page. php?id=11556

(2) مقال اللغة العربيّة باعتبارها لغة ثانيّة وحرفاً مستخدماً،صحيفة البيان، ttps://www.albayan.co.uk/MGZarticle2.aspx?ID=7824

بالحرف العربي فوجدها تزيد عن مائة لغة، منها أربعون لغة في أفريقيا، وست وثلاثون لغة في آسيا الوسطى وتركيا وما جاورها من لغات تركمانيّة، وتشمل الفارسيّة وما جاورها، وعشر لغات في أوروبا والبقيّة في جنوب شرق آسيا وشبه القارة الهنديّة والصّين، ومن هذه اللغات لغات كتبت حديثاً (أي في القرن العشرين)، منها تسع لغات في جنوب السّودان كتبت بالحروف العربيّة في منتصف القرن العشرين، ولغات أخرى كتبت في شرق السّودان وشماله، وفي غرب أفريقيا، وهي لغات (البجا، والنّوبيّة، والدّنقلاويّة، ولغة مودي في بوركينا فاسو). وقد تنبهت جماعات كثيرة لم تحظَ لغاتهم بالكتابة، ويرغبون في أن تكتب بالحرف العربي المنمَّط الذي طورته المنظمة الإسلاميّة للتربيّة والعلوم والثقافة (إيسيسكو) ويلجؤون إلى جامعة أفريقيا العالميّة باعتبارها الجهة المعنيّة الفنيّة لمشروع الحرف العربي تأليفاً وتدريباً وتقنيّة.

ولا غرابة في أن الخط العربي استطاع أن يحتوي على لغات كثيرة؛ فقد أحصى مركز خليفة عدد الحروف العربيّة المعدَّلة التي كتبت بها هذه الشّعوب لغاتها فكانت أكثر من ثمانين حرفاً، وكان التّعديل بنسبة 90٪ عن طريق النّقط، فدل ذلك على المرونة الفائقة للحرف العربي الذي أمكن أن تُكتب به تلك اللغات، وكما ذكرنا سابقا أناستعمال الحرف العربيتطور في مالي والسّنغال والنّيجر ونيجيريا، وعقدت ندوات كثيرة حول وضع حروف لكتابة لغات البولار/ فلفدى، الصّنغي/ زرما، الولوف، الكانوري والهوسا، وإنشاء فصول نموذجيّة لاستخدام الحرف العربي في تعليم اللغات المحليّة بالمدارس القرآنيّة في مالي والسّنغال والنّيجر، بجانب وضع رموز موحدة للأصوات (حروف) بدلاً عن كتابة كل لغة برموز مختلفة مما يجعل نفس الصّوت يأخذ أكثر من رمز، فتم توحيد حروف ست لغات من شرق أفريقيا هي القمريّة، والسّواحيليّة، والأرومو، والدّينكا، واللكبارة، واللوكندة،إلى جانب البولار/ فلفدى والصّنغي/ زرما من غرب أفريقيا، وتوسع ليضم من لغات غرب أفريقيا: والكانوريوالتّماشق، والمالينكي/ بمبرا، والصّوصوولوننكي/ سراكولي.

ومنبين عديداللغاتالأفريقيّة التي كانتتكتبالحرفالعربيأوبدأتبهأوتقهقرتال كتابةبهبسببعواملكثيرةنجد:

أ- الحروف العربيّة للّغة آري: كانت لغة آري تُكتب بالحروف العربيّة، ثم بدأت الحكومة الإثيوبيّة والمنظمات التّبشيريّة دعم كتابتها بالحروف الجأزيّة (الإثيوبيّة)، مع انتقال الكثير من شعب الآري إلى بلاد المهجر، وعدم توافر الحروف الجأزيّة (وخاصّة مع انتشار الإنترنت) بدأت تظهر كتابتها بالحروف اللاتينيّة، وحالياً بدأت الحروف اللاتينيّة تسيطر أكثر وانتهت كتابتها بالحروف العربيّة.

ب-الحروف العربيّة للّغة الأفريكانيّة: اللغة الأفريكانيّة في الأساس لغة هولنديّة؛ فقد جاء المستعمرون الهولنديون إلى جنوب أفريقيا فاختلطت لغتهم بلغة الأفارقة، واكتسبت بعض المفردات الجديدة، ومع مرور الوقت أصبحت لهجة مختلفة عن اللغة الهولنديّة في أوروبا، فسميت بـ(الأفريكانيّة)، ومع مرور الوقت أصبح يستخدم اللغة الأفريكانيّة بعض المسلمين الذين كتبوا هذه اللغة بالحروف العربيّة منذ 1815م، واستمر المسلمون الأفريكانز يستخدمون الحروف العربيّة حتى عام 1957م، وما تزال معظم نصوصها موجودة في مكتبات جنوب أفريقيا.

ج- الأبجديّة العربيّة للّغة الأمازيغيّة: كتب بعض الأمازيغ لغتهم بخط قديم يدعى (تيفيناغ)، لكن لم تنتشر تلك الحروف بشكل واسع ولم يكتب الأمازيغ أدبهم ووثائقهم بهذه الحروف إلا بشكل محدود لدى الطّوارق فقط، ومع انتشار العرب في شمال أفريقيا أصبحت اللغة العربيّة هي لغتهم الأدبيّة والرّسميّة، ومع الاستعمار الغربي بدأت تظهر الدّعوات لكتابة اللغة الأمازيغيّة بالحروف اللاتينيّة، وهنا ظهرت عدة اتجاهات تدعو لكتابتها بالحروف العربيّة أو اللاتينيّة أو التّافيناغ، كما ظهر التّعدد اللهجي للسطح حيث أصبحت كل مجموعة تؤكد أحقيّة لهجتها بالكتابة، مع هذا الخليط أصبحت بعض اللهجات تكتب بالأبجديات الثلاث وبعضها بأبجديتين.

* وحتى لانطيل كثيرا في هذا سوف نستعرض أهم اللغات الأفريقيّة الكبرى التي كتبت بالحرف العربي وأهم خصائصها:

1 -لغة الهوسا: تعتبر هذه اللغة واحدة من اللغات الرّئيسيّة الثلاث التي يتحدث بها المسلمون وغيرهم في قارة أفريقيا، وهي من العائلة اللغويّة التّشاديّة[1]، التي امتد استخدامها حتى نيجيريا وعدها البعض لغة تعامل تجاري في أسواق غرب أفريقيا لأنها بدأت كلغة مشتركة في مناطق توقف قوافل التّجارة، واصل الهوسا هو اسم لغة قبل أن تكون اسم جماعه أو قبيلة،حتى أصبحت بعد ذلك

(1) مقال بعنوان: مخطوطات اللغات الأفريقيّة بالحرف العربي، صحيفة البيان، 772366 .1-06-03-2007/paths/books/ae.albayan.www://https

علماً على جميع سكان شمال نيجيريا وما يجاورها من النّيجر،ولا نستطيع أن نفهم الانتشار الواسع للّغة الهوسا في غرب أفريقيا إلا بفهم طبيعة الهوساويين، فهم يعتمدون في حياتهم على الزّراعة من المطر وعندما يأتي فصل جفاف طويل يتجه الكثير منهم إلى حرفه التّجارة،ونتيجة لذلك يقطعون مسافات طويلة حتى وصلوا إلى الكثير من الأماكن مثل السّواحل غرب أفريقيا فنجدهم في (غانا) وأيضا في (داهومى) و(ساحل العاج) وغير ذلك،وقد دار جدل واسع في الجامعات الأفريقيّة حول هذه اللغة كواحدة من اللغات التي قد تعبر عن طبيعة إثنيّة أو ثقافيّة أو سياسيّة حيث استخدمت كلغة رسميّة لبعض الممالك في غرب أفريقيا، وتُصنَّف اللغات الهوسيّة في أسرة اللغات الأفريقيّة الآسيويّة. ولها صلة رحم في هذا الإطار مع لغات مثل العربيّة والصّوماليّة والأمازيغيّة، وهناك عدة مظاهر صوتيّة وصرفيّة ونحويّة مشتركة تؤكد تلك الصّلة، منها احتواء الهوسيّة على الأصوات الدّفعيّة التي نجدها أيضًا في الأمهريّة، والصّوماليّة، ونجد بعض ملامحها في توصيف صوت الطّاء باعتباره صوتًا مجهورًا لدى كل من ابن جني وسيبويه، ولعل أهم ما يميز لغات هذه الأسرة وجود ظاهرة التّذكير والتّأنيث في جميعها، على أنّ التّشابه بين اللغة العربيّة والهوسيّة في هذه الظّاهرة وفي الأنواع المختلفة لصيغ الجموع أقوى ممّا هو عليه بين اللغة العربيّة وكثير من أفراد هذه الأسرة. إلّا أنّ الهوسا تنفرد بالأصوات المشفَّهة labialized مثلkw والمغوَّرة palatalized مثلky،التي تخلو منها الغالبيّة العظمى من أعضاء هذه الأسرة اللغويّة.

❋وبعد انتشار الإسلام في غربي أفريقيا تأثرت كثيرا لغة الهوسا باللغة العربيّة[1]،وتعتبر من أقدم اللغات الأفريقيّة التي تكتب بالحروف العربيّة وذلك نتيجة العلاقة التي توجد بين العرب وتلك القبائل،وقد أخذت لغة الهوسا كلمات كثيرة من اللغة العربيّة، وتعتبر أول الكلمات التي دخلت هذه اللغة هي أسماء بعض البضائع التي كانت تستورد من البلاد العربيّة ولم تكن معروفه عند هذه القبائل، مثل السّرج وحرير والزّعفران وغير ذلك وأيضا قد دخلت ألفاظ العقود من عشرين إلى تسعين، وقد دخلت أيضا بعض الكلمات التي يستخدمها التّجار مثل الغش والأمانة، وأمثالها،وكان بعض من التّجار يتعاملون مع السّكانالمحليين في الأسواق وقد تعلموا الكثير من اللغة وكان أبناؤهم يتعلمون منهم. وقد دخلت أيضا بعض المصطلحات الدّينيّة كالرّكوع والسّجود والكفارة وغيرها،وفى تلك الفترة دخلت أيضا أسماء الأيام العربيّة وتعلمها الشّعب وانتشر استعمالها مثل Asabat, lahadi , litinin, talatalaraba, alhamis, jumua ويعبر ثراء لهجات الهوسا الآن عن هذا التّاريخ الغني بالثقافة وحركة المجتمع بما يجعل التّميز الواضح في اللهجات، تميزا في طبيعة التّاريخ الاجتماعي نفسه. فلهجة (كانو)للثقافة والتّجارة، و(سوكوتو) الكلاسيكيّة للنصوص الدّينيّة التّقليديّة و(زندر) و(جوبير) عابرة للصحراء، و(داجومبا) لهجة ذات محليّةخاصّة..إلخ، ومن هذه الأجواء جميعا انطلقت كتابة الهوسا، من عوامل التّوحيد الرّئيسيّة في المنطقة، الدّين والتّجارة، وكلاهما لم يستقرا في المنطقة قبل القرن الثاني عشر الميلادي ولذا يجري الحديث عن أدوار علماء الإسلام الوافدين أولا لتعليم الدّين، واستقرارهم في (كانم وبورنو) ثم في (كانو)، وغيرها أمثال (عبد الكريم المغيلي) وغيره، أتاح ذلك الكثير من آثار التّراث العربي الإسلامي إلى أن بدأت الكتابة بالعربيّة أيضاً من قبل علماء الإسلام المحليين، استغرق هذا الانتشار أكثر من عدة قرون حددت بين القرنين الثاني عشر والسّادس عشر الميلاديين حتى بدأت الكتابة «بالهوسا» بالحرف العربي أو ما يعرف «بالعجمي» حيثكان لها السّيادة على يد أمثال (محمد بللو) وغيره، وهنا تنوعت بين الدّيني والتّاريخي والوعظي، وبين ثروة في الشّعر في معظم هذه المجالات.

وتتعدد مواقع مخطوطات لغة الهوسا بشكل لا يكاد يتوفر لتراث أيه لغة أخرى، كما توفر لها من الدّارسين ما يصعب حصره، ويستطيع الباحث أن يعاين هذه المخطوطات بالخط الكوفي وغيره في (سوكوتو) و(كاتسينا) و(كانو) و(زاريا) و(مايدوجوري).....ويحتل بعضها شهرة كبيرة وخاصّة ما توفرت له ظروف الحفظ في هذه المواقع.

❋لعل هذا الانتشار للّغة الهوسا – ومخطوطاتها – هو الذي جعلها لم تتدهور أبدا كلغة، وان كتابتها بالحرف العربي هو الأساس في ثباتها حتى ظلت تقاوم حتى الآن، وتقوم جامعات كثيرة في غرب أفريقيا بدور رئيسي في هذا الصّدد حيث تعترف بالهوسا لغة جامعيّة يمكن إعداد الرّسائل العلميّة بها.

وكانت لغة الهوسا إلى عهد قريب تكتب الخطا لعربي والذي يسمى عندهم بالخطا لعجمي، وهو عبارة عن

(1) مقال من موقع لخصلي، https://lakhasly.com/en/view-summary/lcEeyp4M1x

كتابة اللغات الأفريقيّة بالخط العربي المشرقي أو المغربي، وكماقلناسابقا فإن العلاقة بين الهوساويين والعربحين بدأت في التّجارة بدأ الهوسايون يتعلمون نظام الكتابة عند العرب لتسجيل ما يجب بقاؤه، ولمعرفة جذور تلك العلاقة بين الهوسا والعرب فقد كان المغاربة هم أقرب النّاس إلى الشّعب الهوساوي لأسباب كثيرة وأهمها :

أ-منطقة المغرب العربي كانت ممرات تجاريّة بين الشّرق العربي والغرب الأفريقي، إذ كان التّجار العرب يسلكون طريقهم نحو غرب أفريقيا من بلادهم حتى إلى (تمبكتو) و(جاوا) و(جنى) في دولة مالي، مرورا إلى (غانة القديمة) وهي بين موريتانيّة والسّنغال وجامبيا حاليا، ثم تنتهي الرّحلة إلى مدينة (كاتشنا) و(زاريا) و(كنو) بنيجيريا، وفي بعض الأوقات يتجهون إلى (أغاديس) بدولة النّيجر.

ب-إن الدّعاة الذين أدخلوا الإسلام إلى بلاد الهوسا من المغرب العربي، ولذا كانت نمطيّة المسلمين في غرب أفريقيا على نظام المغاربة.

ج-إن نظام التّدريس الدّيني لشعب الهوسا كان على طراز المغرب العربي كما في الكتاتيب.

د-إن الفقه المالكي ورجاله المغاربة هو السّائد والمنتشر في بلاد الهوسا وغرب أفريقيا، إذ لم يكن في الفقه الإسلامي ما انتشر هو ورجال عندهم غير الكتب المالكيّة المغربيّة.

ه-إن التّصوف الإسلامي المنتشر في المغرب العربي هو المنتشر في بلاد الهوسا، إذ أوضحت بعض الأرقام على أن الشّعب الهوساوي هو الأول في العالم من حيث تبني الطّريقة التيجانيّة التي كان المغرب العربي مصدراً لهذه الطّريقة، وعلى هذا فإن الكتابة العربيّة لدى الشّعب الهوساوي على قسمين:

أولاً - الخط المغربي: وهو السّائد والمنتشر في الكتاتيب، وهو المستعمل في دواوين الشّعر والكتابة القرآنيّة والمراسلات الإخوانيّة وفي دور العبادة، قديما عند الهوسا؛ بل هذا النّظام من الخط هو المنتشر في قصور الأمراء والملوك في بلاد الهوسا، وهو الذي نراه في العملة النّيجيريّة، وهو ما نراه في شعار الجيش النّيجيري المكتوب (نصر من الله).

ثانيا: الخط المشرقي أو المصري (RubutunMisra)؛ وأكثر ما يكون هذا الخط للأكاديميين، والذين يتعلمون في المدارس النّظاميّة المعاصرة دون المدارس التّقليديّة المتمثلة في الكتاتيب والدّهاليز.

ولما كانت مدينة (كنو) هي معقل الثقافة الإسلاميّة والهوساويّة في بلاد الهوسا قاطبة وفي غرب أفريقيا قد بدأت بعض الصّحف الهوساويّة في مدينة (كنو) تظهر على السّاحة مستخدمة الخط العجمي في نشر الأخبار بلغة الهوسا.

2 -السّواحيليّة: تُعَدّ السّواحيليّة أهمَّ اللغات المتداولة في إقليم شرق أفريقيا من جنوب الصّومال حتى مشارف جنوب أفريقيا، في كل من: (زامبيا، ورواندا، وبوروندي، وزائير، وموزمبيق، وملاوي، وجزر القَمَر، والصّومال، وأقاصي جنوب السّودان)، وحول أصل اللغة السّواحيليّة، هناك عدة نظريات بهذا الخصوص، فيرى بعض الباحثين أنّ السّواحيليّة نابعة من اللغة العربيّة المبسطة التي كانت مستخدمة للتواصل بين الرّحالة والتّجار العرب من جهة، وسكان السّاحل الشّرقي لأفريقيا من جهة أخرى، ويرى بعضهم أنها مزيج من اللغات ذات الأصل الأفريقي البانتوي؛ تطورت وأصبحت لغة تواصل مشتركة يَسَّرَت الاتصال بين العرب والأفارقة في المدن الواقعة على السّاحل الشّرقي لأفريقيا، ويرى آخرون أنها لغة يرجع تطورها إلى عهد العبوديّة وتجارة الرّقيق وذلك بعامل المصاهرة بين الرّقيق (وهم من أصول مختلفة ومتباينة) وبين العرب في زنجبار، ويرى بعضهم أنها لغة أفريقيّة بانتويّة كانت تستخدم في منخفضات وادي (السّباكي) بكينيا، نقلها النّاطقون بها إلى مناطق أخرى بالسّاحل الشّرقي عن طريق التّنقل والمعاملة مع التّجار العرب، ثم تعرضت لمؤثرات ثقافيّة عربيّة مكثفة على مر العصور بسبب النّشاط التّجاري والدّيني (الإسلام) والسّياسي إلى أن تبلورت في هيئتها الحاليّة، وترجع أهميّة اللغة السّواحيليّة إلى كونِهاواحدةً من أهم لغات أفريقيا الشّرقيّة، فهي تعتبر الرّباط القومي والثقافي لهذاالسّاحل، وتحديدً امن (مقديشو) شمالاً، حتى الحدود التّنزانيّة الموزمبيقيّة جنوبًا؛ إضافةًإلىالجزرالمتناثرة في غرب المحيط،وقداكتَسَبت هذه اللغة مكانةً علميّة في الدّوائرِ والمراكزِ الأكاديميّة في شتّى بِقاعِ العالم، وأضحت تُدَرَّسفيالجامعات ومعاهد اللغات، ليس فيأ فريقيافحسب؛بلفيكلٍّمنأور وبا، وأمريكا، وآسيا؛كما اتخذتها منظمة اليونسكو لغةَ عملٍ في نشراتها.

*تُشير الوثائق السّواحيليّة[1] المكتوبة بالحروف العربيّة إشارة

(1) مقال بعنوان:اللغة السّواحليّة باللغةالعربيّة، http://afriazhar. blogspot. com/2015/10/blog-post_17. html

واضحة إلى أثر اللغة العربيّة، وجهود المسلمين العرب في تدوين اللغة السّواحيليّة. وإن لم يكن هناك من الوثائق ما يدلنا على تاريخ أول مخطوطة كُتبت بالحروف العربيّة في اللغة السّواحيليّة، فليس هناك أيضا ما يدل على أن اللغة السّواحيليّة كُتبت – أول ماكُتبت– بغير الحروف العربيّة، وذلك يؤكد لنا أن اللغة السّواحيليّة كانت لغةمنطوقة، غير مكتوبة قبل وصول العرب إلى شرق أفريقيا، وبعدما تم لهم الاستقرار، بدأوا في تدوين اللغة السّواحيليّة المنطوقة إلى لغة مكتوبة. وكان من المنطق أن يدونوها بالحروف العربيّةالتي يجيدون الكتابة بها، وذلك يؤكد لنا أيضا أن العرب هم أول من كتب اللغة السّواحيليّة بالحروف العربيّة، بعد توطنهم في شرق أفريقيا، منذ القرن الأول الهجري (السّابع الميلادي). ومنذ ذلك الحين واللغة السّواحيليّة وآدابها تُكتب بالحروف العربيّة، وتستقى مصادرها من الأدب العربي الإسلامي.

والحروف الرّومانيّة التي تُكتب بها اللغة السّواحيليّة الآن حديثة العهد فيأفريقيا، وذلك لأن الحروف الرّومانيّة واللغات الأوربيّة التي تستخدمها، لم تعرف طريقها إلى أفريقيا قبل الاستعمار البرتغالي، بل وفى كثير من أجزاء القارة الأفريقيّة لم تعرف الحروف الرّومانيّة طريقها إلا في القرنين السّابقين. وبالرّغم من أن أقدم ما وصل إلى أيدينا من تراث أدبيسواحيلي مكتوب بالحروف العربيّة –أو من التّراث الأدبي السّواحيلي على الإطلاق– يرجع إلى القرن الثامن الهجري (الثامن عشر الميلادي)، إلا أننا لا نستبعد وجود تراث أدبي مكتوب بالحروف العربيّة قبل هذا.

فقد عرفت اللغة السّواحيليّة شكل الكتابة المأخوذ من الحروف العربيّة، منذ ثمانيّة قرون على الأقل، لأن هذا الشّكل قد وصل إلى ساحل أفريقيا الشّرقيّةفي فترة سابقة على ذلك، قد تصل إلى القرن الأول الهجري (السّابع الميلادي) خلال هجرات العرب والفرس. وقد وُجد الشّاهد الحقيقي لاستخدام الحروف العربيّة، متمثلا فى عملة نحاسيّة مكتوب عليها بالخط العربيالكوفيفي زنجبار، وتحمل تاريخ 500 هـ (1107 م) هذه العملة تحمل اسم (إسحاق بن حسن)، وهو أحد ملوك جزيرة (باتىPATE) والذي سجل التّاريخ زواج ابنته من (سُليمان بن سُليمان بن مظفر النّبهانى)، الذي أسس مدينة (باتى PATE.).

أما بالنّسبة للتراث التّاريخي؛ المتمثل في الوثائق والمخطوطات السّواحيليّة المكتوبة بالحروف العربيّة، فإننا نجد من بينها ما يرجع إلى مطلع القرن العاشر الهجري (السّادس عشر الميلادي) وربما قبل ذلك التّاريخ. فعلى سبيل المثال نجد أن مخطوطة كلواقد عثر عليها البرتغاليون في عام 1505م (911 هـ)، إبان غزوهم لشرق أفريقيا فإذا كان هذا التّاريخ هو زمن العثور عليها فإننا لا نستبعد احتمال كتابتها خلال القرون السّابقة عليذلك.

❋والحقيقة أن السّواحيليين كانوا يتلقون علومهم باللغة العربيّة، قبل وصول الأوربيين. وذلك لأن علومهم كانت مرتبطة باللغة العربيّة والدّين الإسلامي. فلم يكن لهم كتاباتهم الخاصّة بهم، قبل وصول المسلمين. وبعدها تعلم السّواحيليون اللغة العربيّة وحروفها، فبدأوا هم أيضا يكتبون مؤلفاتهم بالحروف العربيّة، ولكن بالنّطق السّواحيلي الذي عهدوه.

ومن المخطوطات التي كتبت بالحرف العربي السّواحيلي قصيدة الانكشاف، التي تعد من أقدم نصوص اللغة السّواحيليّة الرّاسخة، (كتبها عبد الله بن ناصر) الذي عاش ثمانين عاما بين 1720 و1820 في جزيرة باتي على السّاحل الكيني، تتضمن القصيدة 79 بيتا وفق نظام الشّعر العربي «الرّباعيات» وهي مكتوبة بلهجتي (لاموومباسا).

❋ومن الضّروري حتى نفهم علاقة اللغة السّواحيليّة بالحرف العربي أن ننقل الرّسالة التي أرسلها الشّيخ (الأمين بن على المزروعى) الكاتب المعروف وقاضى قضاه كينيا الأسبق ـ في ذلك الوقت إلى (السّير النّ) المندوب السّاميالبريطاني وحاكم (ممباسا) الإنكليزي، وقد كتب هذه الرّسالة بالحروف العربيّة باللغة السّواحيليّة، قائلا فيها مترجمة « أما بخصوص كتابة السّواحيليّة بالحروف العربيّة أو الرّومانيّة، فإن لكل منها فائدة كما لها ضررا، أما فائدة الحروف العربيّة؛ أن النّطق العربي في معظم جوانبه يماثل النّطق السّواحيلي، كما في نطق: الله، فضل، طبيعة، قلم، حال، صفة و ظالم. وينطبق ذلك على كل منطوق به الحروف: ح، خ، ص، ض، ط، ظ، ع، ق؛ غير الموجود مماثل لها في الحروف الرّومانيّة. أما الفائدة الثانيّة؛ أن العرب سيظلون مع كتاباتهم الحاليّة المتطورة التي كتبوها بأيديهم. أما الضّرر؛ أن ما يُكتب بالحروف العربيّة سيتناسب مع أهل السّاحل فقط، أما أهل البر سيلزمهم تعلُم هذه الحروف وإلا لن يعلموا شيئا مما يُكتب بها، والضّرر الثاني فإننا بحاجة إلى معرفة الحروف الرّومانيّة من أجل تعلم الإنكليزيّة، وتركها خسارة كبيرة ونحن بحاجة إليها. أما فائدة

الحروف الرّومانيّة تتمثل في انتشارها في مناطق (كينيا، وتنجانيقا، وأوغندا، وزنجبار)، وما يُكتب بها سيعرف في هذه المناطق، والفائدة الثانيّة؛ أن بعض الأصوات السّواحيليّة ليس لها ما يماثلها من الحروف العربيّة مثل: ch, p, g, v, e, o.أما ضررها يتمثل في هدم النّطق العربي لدرجة أن العرب أنفسهم لايستطيعون تمييز النّطق الجديد لبعض الكلمات، فيقرؤ ونكلمة أرض بالنّطق أرذ، وتفضل: تفذل، وصحيح: سهيه، وضامن: دامن، وعلى الله: الالا، وقاعدة: كائده، ومطيع: متى، وهكذا. والضّرر الثاني الأكبر أنه إذا استمر العرب يكتبون بالحروف الرّومانيّة سوف ينسون حروفهم وماكُتب بها، وهذا عيب كبير وخسارة كبرى. ووجهة نظري الخاصّة؛ أن الحروف العربيّة أكثر ملائمة للعرب والسّواحيليين أيضا ولكن بشروط أذكرها في:

1 ـ زيادة بعض الحروف التي تغطى كل منطوقات اللغة السّواحيليّة

2 ـ لابد أن يتعلم أهل السّاحل والبر (ممثلا لداخل تنزانيا) هذه الحروف.

3 ـ ألا يُستبدل النّطق العربي الموجود في اللغة السّواحيليّة.

4 ـ تعليم الأطفال الحروف الرّومانيّة واللغة الإنكليزيّة قبل أن يكبروا.

5 ـ استبدال الحروف العربيّة بالحروف الرّومانيّة في جميع الكتب المكتوبة بها.

إذا نُفذت هذه الشّروط فسيُصبح من الأفضل استخدام الحروف العربيّة بدلا من الحروف الرّومانيّة،.....»

هذه رسالة (الشّيخ الأمين) لـ(لسير النّ)، وتظهر فيها النّظرة الحياديّة فى إبرازه للفوائد والأضرار لكل نوع من الحروف، ولكن بإتباع بعض الإضافات البسيطة تصبح الحروف العربيّة أكثر ملائمة للأصوات السّواحيليّة وللعرب والسّواحيليين على حد سواء[1].

❋ وكخلاصة لهذاالبحث يُمكننا القول أن معظم اللغات الأفريقيّةقد اقترضت كَمًّا هائلًا من المفردات والعبارات العربيّة واستوعبتها بحيث شكلت هذه المفردات والعبارات نسبة كبيرة من الذخيرة اللغويّة لهذه اللغات، وقد تشابهت أيضًا الحقول الدّلاليّة للألفاظ العربيّة في كثيرمناللغات الأفريقيّة،ويقف الحقل الدّلالي المتصل بالعقيدة الإسلاميّة على رأس هذه الحقول الدّلاليّة، أما الحقول الدّلاليّة الأخرى، فتضم التّجارة، ونظام الحكم، والأدوات المنزليّة، والملبوسات، والنّحو، والحساب، وعلم الفلك، والتّرقيم، والتّوقيت، والمقاييس، والموازين، والمنتجات العضويّة، والمحاصيل النّباتيّة، والقراءة، والكتابة، والمعادن، والأحجار الكريمة، والمعمار، ومئات الألفاظ التي تعبِّر عن الألفاظ المجردة، واتفقت اللغات في أنّ آدابها المكتوبة قد تطورت متفرعة من الأدب العربي الإسلامي ومنطلقة في هذا الصّدد من المنظومات الدّينيّة، وقد استفادت كثيرًا من التّقنيات الأدبيّة العربيّة من أوزان شعريّة وإبداعات بلاغيّة، مستخدمة الحرف العربي أداةً للتدوين،وأنّ الاتصال بين اللغة العربيّة والثقافة الإسلاميّة من جانب، واللغة المحليّة السّائدة في شرق أفريقيا مثلا من جانب آخر، هو من نوع الاتصال اللغوي المباشر بين متحدثي اللغات المعنيّة أنفسهم، إلّا أنّ عدد المتحدثين بالعربيّة هناك لم يكن بالقدر الذي يمكنهم من جعل لغتهم تتغلب على اللغات المحليّة، كما حدث في (سودان وادي النّيل) مَثَلًا، ولكن تأثيرها في اللغة المحليّةالسّائدة- التي عُرِفت في وقت مّا بالسّواحيليّة-وصل حدًّا لا مَثيل له، لدرجة أنّ أهلها في أماكن- مثل زنجبار- يتكلمونها بالعربيّة، الأمر الذي جعل كثيرا من المهتمين بها يعتقدون أنها خليط من اللغة البانتويّة والعربيّة، وقد ظل الحرف العربي لقرون طويلة الحرف الأول الذي ينقل الثقافة والفكر في ربوع القارة السّمراء شمالاً وغرباً وشرقاً ووسطاً، ولكن تراجع الحرف العربي عن دوره في نقل التّراث الإنساني عبر القرون تحت وطأة محاولات المستعمر المستمرة لإحلال الحرف اللاتيني مكانه قبل وأثناء القرن العشرين، فالحرف العربي أضحى اليوم أكثر انتشاراً من ذي قبل، وذلك بفضل جهود عدد من الحادبين على نشر الحرف العربي الذين دافعوا عنه في أروقة الأمم المتحدة، فبدأت الجهود تتوجه نحو إعادة استخدام الحرف العربي في كتابة اللغات الأفريقيّة، حيث تشير الإحصاءات إلى أن ثلثي الأطفال في كثيرمن الدّولالأفريقيّة يتلقون تعليمهم الأساسي بالحرف العربي، ويستخدمه الكبار في المكاتبات اليوميّة إلى جانب أن هناك تراثاً أدبياً ضخماً لهذه الشّعوب كُتب بهذا الحرف لم يصل إلينا منه سوى جزء يسير كتب بالحرف العربي، وقد وقعت اليونسكو مع منظمات شريكة على المشروع الإقليمي لليونسكو (بريدا) الخاصّ باستعمال الحرف العربي في مكافحة الأميّة في أفريقيافي مارس عام 1984م،وقد تضمن المشروع عدداً

(1) مقال بعنوان : اللغة السّواحليّة باللغةالعربيّة، http://afriazhar.blogspot.com/2015/10/blog-post_17. html

من البرامج منها: إجراء دراسة لواقع استعمال الحرف العربي في مالي والسّنغال والنّيجر ونيجيريا، وعقد ندوات حول وضع حروف لكتابة لغات (البولار/ فلفدى، الصّنغي/ زرما، الولوف، الكانوري والهوسا)، وإنشاء فصول نموذجيّة لاستخدام الحرف العربي في تعليم اللغات المحليّة بالمدارس القرآنيّة في مالي والسّنغال والنّيجر، بجانب وضع رموز موحدة للأصوات (حروف) بدلاً عن كتابة كل لغة برموز مختلفة مما يجعل نفس الصّوت يأخذ أكثر من رمز، وقد أثمر هذا التّعاون في عام 1989م عن توحيد حروف ست لغات من شرق أفريقيا هي (القمريّة، والسّواحيليّة، والأرومو، والدّينكا، واللكبارة، واللوكندة، إلى جانب البولار/ فلفدى والصّنغي/ زرما) من غرب أفريقيا، وتوسع المشروع ليضم من لغات غرب أفريقيا: (الكانوري والتّماشق والمالينكي/ بمبرا والصّوصو ولونكي/ سراكولي).

ثمبعدها تم الاتفاق عام1991م على رموز كتابة مجموعة اللغات التي سبق دراستها مستنبطة من الحروف العربيّة بعد دراسة الجوانب الصّوتيّة ومراعاة العوامل العمليّة والتّاريخيّة والبيداغوجيّة والجماليّة.

و بعد:إذا أردنا أن نختار لغة من اللغات الأفريقيّة الكثيرة لكي نرشحها لتكون لغة أفريقيا الرّسميّة لوجدنا العربيّة على رأس اللغات الثلاث الكبرى التي يمكن أن تحظى بهذا الشّرف، ويقصد باللغات الثلاث الكبرى: العربيّة والسّواحيليّة ولغة الهوسا، وسواء أصبحت العربيّة في يوم من الأيام لغة رسميّة للقارة الأفريقيّة أم لم تصبح، فهي الآن تحتل بلا مُنازع المرتبة الأولى بين اللغات الأفريقيّة، ليس فقط لكونها اللغة التي يتكلمها نحو ثلث سكان القارة، أو يتبناها نصفُ سكانها باعتبارها لغة قرآنهم، ولكن أيضاً لكونها أعرق هذه اللغات كتابة وتراثاً وأغزرها عطاء، ولكونها اللغة الوحيدة التي دُوِّن بها تاريخ أفريقيا القديم والوسيط، ولولاها لكانت أفريقيا بدون تاريخ وبلا حضارة.

• **د. طارق ثابت**
جامعة باتنة

المصادر

1. المخطوطات العربيّة والعجميّة في بلاد الصّحراء والسّاحل، منشورات معهد الدّراسات الأفريقيّة، الرّباط، 2006م.
2. المخطوطات العربيّة في النّيجر، مجلة العربي، الكويت العدد 619، 2010.
3. مخطوطات اللغات الأفريقيّة بالحرف العربي، المعهد الثقافي العربي الأفريقي، القاهرة 2007.

اللغة العربيّة والمخطوط

د.أمينة طيبي
د. نجيدة ولهاصي

أولا: المخطوطات العربيّة في الجزائر عبر التّاريخ

الجزائر بلد لـه تاريخ عريق، تعاقبت عليها العديد من الحضارات وامتزجت بها ثقافات متنوعة فكانت طليعة البلدان التي أولت اهتماما كبيرا بالتّراث المخطوط بحيث نجده منتشرا بكثرة، خاصة في الزّوايا التي تعد مركز إشعاع فكري وثقافي كبير....

تمتد جذور الحركة الفكريّة في الجزائر إلى العصور القديمة، حيث عرفت نوميديا علماء أجلاء مثل الملك هيم بصال الثّاني، الذي ألف كتابا حول «أصل شعوب أفريقيا»، وحفيده يوبا الثّاني الذي كان يلقب بـ: «ملك العلماء»، نظرا لما أنتجه من مؤلفات علميّة التي أثرى بها المكتبة المعتبرة التي ورثها عن جده همبصال واشتهر ايليوس، بدوره بثقافة واسعة جدا حيث ألف الكثير من الكتب كانت في مختلف الحقول المعرفيّة، كالطّب والفيزياء والرّياضيات والفلك والنّبات، كذلك القديس أگسطين، ومن أشهر كتاباته: الإعترافات ومدينة الله، جمع العديد من المخطوطات التي شكلت مكتبة ثريّة. ومدينة تيمقاد القديمة المستعمرة الرّومانيّة التي أسست سنة 100 بعد الميلاد كان لها مكتبة في بالغ الأهميّة تقدر بحوالي 23000 مخطوط في مختلف العلوم والمعارف.

ويعتبر انتشار الإسلام في منطقة شمال أفريقيا، منعطفا جديدا في التّاريخ الثّقافي للجزائر، حيث ظهرت مراكز إشعاع ثقافي في كل من تاهرت، وبجايّة، والجزائر، ومازونة وغيرها من المدن الأخرى، التي حملت وحافظت على مشعل الحضارة الإسلاميّة والازدهار الفكري وذلك من خلال مختلف الدّول الإسلاميّة الأمازيغيّة، وهنا يدخل الحديث عن المخطوطات العربيّة، من خلال تبني الثّقافة العربيّة الإسلاميّة، وتعرّب البربر أنفسهم ومشاركتهم في هذه الثّقافة التي تمثلت في المخطوطات والمؤلفات العربيّة عبر العصور. فما هو الدّور الذي قامت به الدّول التي توالتّ على الجزائر، أو ما عرف بالمغرب الأوسط في إرساء دعائم الثّقافة العربيّة الإسلاميّة، ومن ثمة العنايّة بالمخطوطات العربيّة خاصة في هذه المنطقة ؟

الدّولة الرّستميّة:

بعد الفتح الإسلامي لشمال أفريقيا تحولت المنطقة إلى ولايّة تابعة للخلافة الإسلاميّة في ظلّ الدّولة الأمويّة، ففي سنة 682م أصبحت مدينة ميلة مركزا لقيادة ولايّة شمال أفريقيا وتعد الدّولة الرّستميّة أول دولة مستقلة تظهر على أرض الجزائر في العهد الإسلامي تأسست سنة 160ه/ 776 م على يد عبد الرّحمان بن رستم الفارسي الأصل الإباضي المذهب، وكانت عاصمتها تيهرت، امتدت حدودها من من تلمسان غربا إلى قسنطينة شرقا، ومن البحر شمالا إلى الصّحراء جنوبا، واستمرت حتى سنة 296هـ/ 909م أين سقطت على يدّ الفاطميين.

عرفت استقرارا وازدهارا في جميع المجالات الصّناعيّة والزّراعيّة والتّجاريّة، وربطت علاقات مع الدّول المجاورة خاصة الأمويّة في الأندلس.

ومعلوم أن الرّخاء الاقتصادي والاستقرار السّياسي من أهم العوامل المساعدة على تطور الجانب الفكري وهو ما أهل تيهرت لأن تصبح عاصمة للفكر، والعلم في المغرب الأوسط بالإضافة إلى عامل آخر لا يقلّ أهميّة عن سابقه والمتمثل في اهتمام السّلطة الرّستميّة بالعلم والعلماء، فقد كان أئمة الدّولة من طالبي العلم ومن المساهمين في نشره،و اشتهروا باقتنائهم الكتب من المشرق، كما اشتهروا بالتّأليف في مختلف فنون العلم،و أهم ما يلاحظ في أئمة الدّولة الرّستميّة هو اهتمامهم بالكتاب واقتنائه...؛ حيث نجد عبد **الرّحمان بن رستم** (160 – 171هـ) مؤسّس الدّولة من كبار العلماء أخذ

العلم عن شيخ الإباضيّة الثّاني في البصرة أبي عبيد مسلم بن أبي كريمة الذي أجاز لعبد الرّحمان الاجتهاد دون غيره ممن كانوا معه... وتذكر الرّوايات أن عبد الرّحمان بن رستم خص المساعدة الماليّة التي وردت له من المشرق لشراء الكتب ونسخها.

والخليفة الثّاني «عبد الوهاب بن عبد الرّحمن بن رستم»، كان مهتما بالكتابة، والشّعر، والسّياسة فله عدة رسائل سياسيّة، كرسالة وعظ وتذكير إلى أحد معارضيه وإلى عامة رعيته ورسائل أخرى، كما حرص الإمام عبد الوهاب على تحصيل أبنائه كل العلوم خاصة العلوم الدّينيّة، وهذا ما نستشفه من خلال ما أورده الوسياني بقوله: «ونذكر عن الإمام أفلح أراد السّفر إلى جوجو» فلما برز رحله خرج إليه عبد الوهاب فرمى عليه السّؤال في مسائل الرّبا، حتى وقف في مسألة واحدة قال له: ارجع لئلا تطعمنا الرّبا مع تفحصه لفنون العلم»، واستطاع فعلا عبد الوهاب أن يجعل من ابنه أفلح ذا ثقافة واسعة وهذا ما يؤكده أبو زكريا بقوله: «وبلغنا انه قعدت عليه أربع حلق يتعلمون عنه فنون العلم قبل أن يبلغ الحلم»، هذا وكانت الظّروف التي أحاطت به أثرا إيجابيا في تكوينه العلمي خاصة مع عنايّة والدّه باقتناء الكتب مما أثمر في ازدهار مختلف العلوم في تاهرت؛ إذ يذكر أنه بعث بألف دينار إلى إخوانه بالبصرة ليشتروا له بها كتبا فاجتهدوا في توفير المال واستغلاله أحسن استغلال فاقتضى نظرهم أن يشتروا به ورقا وتطوّعوا في نسخ الكتب والمجلدات الموجودة عندهم، فنسخوا له أربعين جملا من كتب فبعثوها بها إليه.

وهذه النّهضة العلميّة لابد وأن تواكبها نهضة في مجال التّأليف، فحازت الدّولة الرّستميّة قصب السّبق في ذلك، فقدم أئمتها وعلماؤها للأمة الكثير من المؤلفات في مختلف فنون العلم سواء الدّينيّة أم الدّنيويّة، وكان أئمة الدّولة الرّستميّة في مقدمة الرّكب في ذلك، كالأمام عبد الرّحمن الذي ألف كتابا في التّفسير، وكتابا جمع فيه خطبه، والأمام عبد الوهاب الذي ترك لنا كتابا يعرف بـ« مسائل نفوسة الجبل»، وأما الإمام أفلح فقد ترك لنا الكثير من المؤلفات والرّسائل العلميّة منها المطبوع ومنها المخطوط، وأما الإمام أبو اليقظان فكان من المكثرين في التّأليف ومن مؤلفاته « رسالة في خلق القرآن « وغيرها من المؤلفات، هذا بالنّسبة لأئمة الدّولة الرّستميّة، وأما علماؤها فحدث عنهم في مجال التّأليف بلا حرج، كذلك فإن الدّولة الرّستميّة لم تهمل جانب العلوم العقليّة كعلم الكلام وغيره، فكانت تجري بين العلماء من مختلف المذاهب الإسلاميّة والتيارات الفكريّة المناظرات والمناقشات العلميّة بحريّة تامة وبلا تضييق، وذلك أن الدّولة الرّستميّة عاش في كنفها الكثير من أتباع المذاهب الإسلاميّة كالإباضيّة والمعتزلة والصّفريّة والحنفيّة والمالكيّة والشّيعة وغيرهم، بل كان هناك وجود لليهود والنّصارى...

كذلك نجد أن الدّولة الرّستميّة كان لها اهتمام بالأدب العربي من شعر ونثر، فأما النّثر فيظهر ذلك جليا من خطب أئمة الدّولة الرّستميّة ومراسلاتهم، وأما الشّعر فكان لهم نصيب فيه ولكن ليس كالنّثر، ومن شعراء الدّولة الرّستميّة الإمام أفلح بن عبد الوهاب، ومن قصائده العصماء تلكم القصيدة في فضل العلم التي يقول في مطلعها:

اِلعِلْمُ أَبْقَى لأَهْلِ العِلْمِ آثَارا
وَلَيْلُهُمْ بِشُمُوسِ العِلْمِ قَدْ نَارا
يَحْيَى بِهِ ذِكْرُهُمْ طُولَ الزّمَانِ وَقَدْ
يُرِيكَ أَشْخَاصَهُم رُوحًا وأَبْكَارَا

ومن شعراء الدّولة الرّستميّة شاعر تيهرت بكر بن حماد الزّناتي.....

فاهتمام الأئمة الرّستمين بمجال التّأليف، نتج عنه إنشاء أول مكتبة بالمغرب الأوسط، وهي «المعصومة»، التي كانت تحوي الآلاف من المصادر القيمة بمدينة تاهرت، أوصلها بعض الباحثين إلى ثلاثمئة ألف مجلد، فكانت تحوي بين رفوفها كتبًا في علوم الشّريعة من تفسير وحديث وفقه وتوحيد، وكتبًا في الطّب والرّياضيات والهندسة والفلك والتّاريخ واللغة وغيرها من العلوم المختلفة، ولم تكن كتبها مقتصرة على مذهب بعينه بل كانت تجمع مؤلفات لمختلف المذاهب الإسلاميّة؛ ففي عهد الدّولة الرّستميّة ازدهرت العلوم الشّرعيّة والعقليّة ازدهارًا كبيرًا حتّى أصبحت تيهرت تلقب بـ: «عراق المغرب»، وهذا الأمر الهام يعود الى حريّة الفكر وحريّة المذاهب الإسلاميّة الأخرى التي كانت تعيش تحت ظل الدّولة الرّستميّة؛ كالمالكيّة، والمعتزلة، والشّيعة.

ومن المكتبات المشهورة الأخرى أيضًا «خزانة نفوسة» الجامعة لآلاف الكتب، إلا أن جميعها تم هدمه من الفاطميين عند احتلالهم للجزائر، فيما قاموا بأخذ الكتب العلميّة المهمة معهم إلى المهديّة في تونس وإلى القاهرة في مصر...

وكذلك لم تخل منازل العلماء في الدّولة الرّستميّة من وجود المكتبات الخاصة. كما بذل الأئمة الرّستميون ومنهم أفلح بن عبد الوهاب جهودا جبارة لتعريب البربر وكانت من أهم الخلفيات الثّقافيّة التي انطلقت منها دولة بني حماد في المغرب الأوسط،

حتى لم ينته القرن الرّابع الهجري، حيتى صار كثير من علماء البربر يناظرون فقهاء العرب في قواعد الأصول، الفقه ومبادئ علم الكلام. مما أدى إلى تزايد المخطوطات باللغة العربيّة في مختلف العلوم والفنون.

فقد اقتدَت الأمة البربريّة بحكومتها والنّاس على دين ملوكهم في العنايّة بالعربيّة وعلومها وآدابها. ولم يصدهم عنها ثورتهم على الحكومة العربيّة؛ ففكرة عداء البربر للعرب والعربيّة لم تكن موجودة لدى الأمم الإسلاميّة يومئذ.

وعاشت البربريّة مع العربيّة عيشة العاميّة اليوم مع الفصحى. وكان من البربر شعراء بالبربريّة مجيدون نظير ما نسمع اليوم من قصائد عاميّة بليغة. وألفت بها التّأليف الدّينيّة حرصا من رجال الدّين على إيصال عقائده وعباداته إلى العامة إذ لم يكن البربر يحسنون – طبعا جميعهم العربيّة.

وقد كان للتجار الرّستميين الدّور الأساسي في إخراج قبائل المغرب الأوسط من بداوتها وتكوين سكانها وشحذ أخلاقهم ومداركهم عبر السّنين والحقب، ذلك لأن التّجار يحتكون بمعظم الشّعوب والأجناس فينقلون ثقافاتهم المتعددة إلى المغرب.

الدّولة الفاطميّة:

...استمرت الدّولة الرّستميّة إلى غايّة سقوطها على يد الفاطميين الذين احتلوا تيهرت سنة 269هـ / 909م، وأسسوا الدّولة الفاطميّة على يد أبي عبد الله الشّيعي واستطاعت السّيطرة على المغرب الأوسط والمغرب الأدنى على أبناء المنطقة (كتامة)، ثم وجهت أنظارها إلى المشرق فضمت مصر وبنَت فيها عاصمتها الجديدة القاهرة كما استطاعت بسط نفوذها إلى الشّام والحجاز.

اهتم الفاطميون بالعلم، وبمختلف الالسّنة واللغات وهذا ما أدى إلى بروز العديد من العلماء منهم: يعلى بن يوسف الفلكي، الحسن بن الهيثم في الفيزياء، علي بن رضوان في الطّب، ابن هانئ الأندلسي في الشّعر، وكانت لهم عنايّة بالمخطوطات العربيّة.

الدّولة الزّيريّة:

ومن بعد الفاطميين تأسست الدّولة الزّيريّة (بنو زيري بتونس، والحماديون بالجزائر من سنة 362هـ/ 972م، ثم استقل الحماديون بالجزائر من سنة 404هـ – 547هـ.

ينتسب الزّيريون إلى قبيلة صنهاجة التي ساندت الفاطميين لبسط نفوذهم ببلاد المغرب، ولما عزم الخليفة المعز بدين الله على نقل سلطته إلى القاهرة عهد بإمارة الغرب إلى بلكين بن زيري، وقد اتخذ الزّيريون من مدينة آشير جنوب شرق المديّة حاليا عاصمة لدولتهم ثم المنصورة بالمغرب الأدنى في عهد المنصور بن بلكين.

والدّولة الزّيريّة من الدّول الموحدة تأسست سنة 362هـ/ 972م وانفصلت عنها الدّولة الحماديّة سنة 405هـ/ 1014م.

الدّولة الحماديّة:

استقل الحماديون بالجزائر من سنة 405هـ / 1014م، إلى 547ه/ 1153م)، وظهرت بالمغرب الأوسط الدّولة الحماديّة، وأهي أول دولة إسلاميّة بربريّة، تنتسب إلى حماد بن بلكين بن زيري الصّنهاجي الذي انفصل عن الدّولة الزّيريّة متخذا من القلعة عاصمة لدولته ثم بجايّة (النّاصريّة).

وكانت العربيّة هي اللسان الرّسمي للدّولة، ثم إن حمادا مؤسس الدّولة نشأ بالقيروان نشأة عربيّة إسلاميّة، درس الفقه والجدل وعلوم العربيّة. وجاء الهلاليون بلغتهم القريبة يومئذ جدا من الفصحى فنشروها بين سائر الطّبقات وسهلوا على الخاصة تعلم العربيّة وعلى العامة تعلم دينها. و كان لهجرة الهلاليين دور كبير في تعريب البربر، حيف اختلطوا بهم عن طريق المصاهرة، ومع الزّمن اندمجوا في المجتمع، فأثرت الأجيال الجديدة في تكوين مجتمع مختلط.

وفي العهد الحمادي الصّنهاجي، بدوره ازدهرت الحياة العلميّة؛ فهو لايقل عن العهد الرّستمي، فعاصمتهم القلعة كانت مركز إشعاع علمي استقطب جمهرة كبيرة من العلماء، أما بجايّة العاصمة الثّانيّة للحماديين، تربعت هي الأخرى على عرش الحياة الفكريّة والعلميّة، التي نشطت بأقلام علمائها ورواد الفكر الإسلامي، هذا الأخير نما أكثر بديناميكيّة مؤسساتها التّعليميّة كالمساجد، والجوامع، والزّوايا، ومجالسّها العلميّة، فكانت بذلك منارة العلم، حيث تذكرها المصادر أنه وصل بها تسعة وتسعون مفتيا، وهي التي احتضنت شيخ المشايخ ومقام العلم والعلماء العالم «الصّوفي أبو مدين شعيب الإشبيلي» الذي كان يدرس بجامع قصبتها، كما درس واستوزر بها العلامة عبد الرّحمن بن خلدون والعلامة عبد الرّحمن الثّعالبي «وغيرهم من كبار علماء المغرب الأوسط..

لم تكن بجايّة وحدها مركز الفكر، ومقر العلم والعلماء، بل كان لمدينتي بونة» (عنابة)، وقسنطينة أدوارا عظيمة في تنشيط الحياة العلميّة، وهذا بسواعد علمائهم كالعالم «عبد الكريم بن فكون، القسنطيني»، والعالم «أبو العباس أحمد بن قاسم بن محمّد السّامي البوني».

ظهر بالجزائر الحماديّة العلماء، والشّعراء، والكتاب، والمؤرّخون، والأطباء، علماء الرّياضيات وغيرهم، ظهورا لا عهد للجزائر به من قبل. وكانت لعلوم الدّين المنزلة الأولى ويليها علوم العربيّة.

واتسعت الدّراسات الفقهيّة بالدّولة الحماديّة وباتت هي التّخصص الأول المفضل في دراسة العلوم النّقليّة، ومن العلماء الذين برزوا في الفقه أبو الفضل يوسف بن محمّد المعروف بابن النّحوي (ت513هـ/ 1119م) الذي تتلمذ على يد أبي عبد الله محمّد بن أبي الفرج المازوني المعروف بالذكي، وهو من أهم رواد أصول الفقه في القلعة إذ كان متفوقا ومتميزا في الفقه المالكي عارفا بأصول الدّين يميل إلى النّظر والاجتهاد، ومن العلماء الذين كان لهم أيضا إسهامات فقهيّة، أبو عبد الله محمّد بن علي بن حماد بن عيسى بن أبي بكر الصّنهاجي، قرأ بمدينة القلعة ويعد من كبار الأئمة، والفقيه أبو العباس أحمد بن محمّد ابن عبيد الله المعافري، وأبو عبد الله محمّد بن محمّد بن صمغان القلعي الفقيه القاضي، ومنهم أيضا أبو محمّد عبد الله محمّد بن عمر بن عبادة القلعي (169هـ/ 1270م) كان حافظا للمذهب المالكي حسن النّظر والتّوجيه»، والفقيه أبو عبد الله محمّد بن محمّد بن أبي بكر المنصور القلعي (ت670د/ 1271م) وكان عالما بأحكام الشّروط والوثائق، وأبو عبد الله محمّد بن صمغان القلعي والفقيه القاضي، ومحمّد بن يوسف السّنوسي القلعي.....

وقد ازدهرت العلوم اللسانيّة بكامل حواضر بلاد المغرب الإسلامي لا سيما في قلعة بني حماد؛ فقد اتخذ بنو حماد العربيّة لسان الدّولة الرّسمي ذلك لأنهم استفادوا من أنظمة الحكم العربي الإسلامي الذي ساد شمال أفريقية في ذلك الوقت، حيث نجد أن حماد مؤسس الدّولة قد نشأ بالقيروان نشأة عربيّة إسلاميّة ودرس الفقه وعلوم العربيّة....

واشتهر في النّحو واللغة كل من أبي الفرج المازري، الذي كان متقدما في علم اللسان، وأبي الفضل يوسف ابن النّحوي، وأبي عبد الله محمّد بن محمّد المعافري المعروف بابن الخراط الذي كان يوصف بـ: «الشّيخ الفقيه النّحوي».

أما في فنون الأدب فقد برز ابن النّحوي، والحسن بن الرّشيق (390هـ – 363هـ/ 1071م) وابن البذوخ (ت 576هـ/ 1180م) ولد بالقلعة أو ضواحيها، ولقد كانت له ميولات في الكتابة والشّعر إضافة إلى أبي عبد الله محمّد بن عبد الله بن زكريا القلعي الأصم، وعلي بن إسماعيل القلعي المعروف بـ: «الطّميش» وله كتاب «ذخائر الواعظين وسر أسر العاملين».

اتسم الشّعر في العصر الحمادي وخاّصة في القلعة بالوزن والقافيّة واستخدام البحور الشّعريّة التّقليديّة واتسم بالاحتشام والوقار والحياء وتعددت أغراضه من توسلات، وابتهالات، ومدح، ورثاء.

والعلوم العقليّة بقلعة بني حماد كانت موجودة إلى حد ما على الرّغم من قصر بقائها كعاصمة لهم؛ إذ برز عدة علماء في الرّياضيات خاصة في علم الحساب الذي يدرس في مساجدها ومعاهدها، ومن أعلام الحساب علي بن معصوم بن أبي ذر القلعي ولد (489هـ/ 994م)، نشأ وتعلم بقلعة بني حماد ثم رحل إلى المشرق، كان بحرا في الحساب..

وازدهر علم الفرائض الذي يختص بمعرفة فروض الوراثة ويجمع بين المعقول والمنقول من أجل الوصول به إلى الحقوق في المواريث بأوجه صحيحة يقينة، ومن الذين نبغوا في هذا العلم محمّد بن علي بن الحسن بن علي بن أبي علي القلعي له مؤلف بعنوان: «إيضاح الغوامض في علم الفرائض»، كما له مصنفات كثيرة مشهورة انتفع بها الكثيرون...

وبطبيعة الحال لا يخلو مجتمع من المجتمعات في القديم أو الحديث من علوم الطّب والصّيدلة، وذلك لأهميتها في حياة النّاس، ولقد شهدت قلعة بني حماد بروز أطباء كبار منهم: أبو جعفر بن علي البذوخ (ت575هـ/ 1079م) المعروف بابن البذوخ القلعي الطّبيب، كان خبيرا بمعرفة الأدويّة المفردة والمركبة، إلى جانب حسن نظره في الإطلاع على الأمراض وعلاجها، له كتب لا تزال مخطوطة منها «حواشي على كتب قانون ابن سينا»، و«شرح الفضول لأبي قراط»، وكتاب «ذخيرة الألباب أو الباء في الباء»، و«لطائف الأنوار في الطّب، أما الطّبيب الثّاني هو ابن أبي المليح، كان طبيبا مشهورا حاذقا في صناعة الطّب... كما عرف أهل القلعة المداواة بالأعشاب؛ وهو ما يعرف اليوم بالطّب البديل، إلى جانب معرفتهم المداواة بـ: سم العقارب، في حين أن العلم الحديث لم يتوصل حتى اليوم لدواء مضاد للسعتها سوى مصل من سمها..

مقابل كل هذا؛ وجه الحماديون عنايّة خاصة بالكتب والمخطوطات على اختلاف أنواعها، وكان لهم نشاط كبير في تشجيع العلماء وخاصة في العلوم الرّياضيّة، ويروى أن بعض الأوربيين من سكان روما جاءوا إلى بجايّة عاصمة الحماديين ودرسوا فيها مختلف العلوم وخاصة الرّياضيات والحساب والجبر والفلك والتّنجيم والميقات.

أما ما يخص المكتبات في قلعة بني حماد فإنه كان هناك نوعان من المكتبات العامة والتي ستجسد بشكل جلي في مكتبة «جامع المنار» التي كانت عبارة عن مكتبة مليئة بالكتب المحمولة إليها من أقطار المغرب وبلاد المشرق والأندلس، وكذا المنقولة عن تدريس أئمة وفقهاء الجامع.

أما النّوع الثّاني من المكتبات فتمثل في المكتبة الخاصة، وإن كنا نسميها خاصة فذلك لأنها تخص أفرادا معينين أنشأوها لفائدتهم ومصلحتهم، وفي الغالب من أموالهم الخاصة، إلا أنها كانت نصف عامة.

ولم يكن كبير حاجة إلى التّدريس أو التّأليف باللسان البربري في الجزائر كما كان الأمر في أيام الرّستميين. ففقد تقهقرت البربريّة من الميدان العلمي والأدبي، وزاحمتها العربيّة في المجالسّ العامة فاستعرب كثير من البربر. ولم يبق للبربريّة موطن إلاّ جبال أوراس وتيطري، وجرجرة ونحوها حيث لم يختلط البربر بالعرب. والذي دعا البربر الى هذا الاستعراب والدّولة دولتهم والحكومة حكومتهم ما يعتقدونه من شرف العربيّة وغناها، وكونها لغة الدّين. فصاروا يتشرفون بإجادة النّطق بها، وهكذا تأثير الأديان في رفع الفوارق الجنسيّة.

سقطت الدولة الحمدية على يدّ الموحدين بسبب الصّراعات الدّاخليّة في الدّولة، وضعف ملوكها الأواخر، وتزايد زحف قبائل بني هلال على بلاد المغرب. وانتهت الدّولة الحماديّة بما في ذلك الزّيريّة سنة 547هـ/ 1153م.

الدّولة الموحديّة:

تمكن الموحدون من توحيد كل دول المغرب العربي تحت رايتهم سنة 1146م/ 541هـ؛ بفضل دهاء عبد المومن بن علي الكومي النّدرومي مؤسس الدّولة؛ و الذي يعتبر شخصيّة جزائريّة وعسكريّة، وقد أصبح الموحدون ولاة على مناطق المغرب الإسلامي الثّلاثة (الأدنى، والأوسط، والأقصى) بالإضافة إلى الأندلس.

ومع نهايّة عهد المرابطين وبدايّة عهد الموحدين، بدأت كتب الفلسفة والتّصوف تتجاوز كتب الفقه والحديث في الخزانات العامة والخاصة،..

وعلى كل فإن الدّولة الموحديّة شكلت منطلقا لتجديد ثقافي هام، تمثل أساسا في التّفتح على نظريات المعتزلة، والأشاعرة في المجال الاعتقادي، وعلى علوم الحكمة من فلسفة ومنطق وغير ذلك.مما أدى إلى انتقال الحياة الثّقافيّة في الجزائر وغيرها من أقطاب المغرب الإسلامي من مرحلة التّقليد والنّقل إلى مرحلة التّفتح والاجتهاد والإبداع...

وتجدر الإشارة إلى أن هذا التّطور الفكري نحو التّفتح على آراء الأشاعرة ومناهجهم في التّحليل والتّأويل قد بدأ قبيل تأسيس دولة الموحدين وبخاصة في بجايّة وغيرها من مدن أفريقية...

وفي هذا العهد عرف التيار الصّوفي ذيوعا كبيرا دون أن يجد مقاومة، بل استعين به لمقاومة الأعداء ومواجهة الخطر الصّليبي، يمثل هذه المرحلة أبو حامد الغزالي الذي ألف كتبا عديدة مثل: «المنقذ من الضّلال»، و«إحياء علوم الدّين»، و«الاقتصاد في الاعتقاد» من أجل الاسهام في تحقيق هذا الهدف.

و خلاصة إن لابن تومرت، والخلفاء الموحدين دورا ملحوظا في التّحولات الفكريّة لاسيما في المجال الاعتقادي والتي ستعرف أوج ازدهار خلال القرن 8هـ(14م) عصر أبي عبد الله الآبلي وتلميذه عبد الرّحمان بن خلدون..

وكانت لهم عنايّة بالكتب المخطوطة.

..... بعد سقوط الدّولة الموحديّة سنة 1235م انقسمت المنطقة إلى ثلاث دول، الدّولة الزّيانيّة في التّراب الجزائري، والحفصيّة في تونس، والمرينيّة في المغرب الأقصى...

الدّولة الزّيانيّة:

تمتد مملكة الجزائر الزّيانيّة غربا إلى مدينة تاوريرت التي هي اليوم داخل التّراب المراكشي على بعد 132 كيلومترا غربي وجدّة، وتبلغ في بعض الأحيان شرقا إلى قسنطينة ودلس ويجايّة وهي في ذلك تسير حسب تقدم الدّولة وانتصاراتها على منافسيها ومزاحميها من بني أبي حفص وبني مرين، وبلغت حدودها الجنوبيّة الغربيّة إلى سجلماسة – تافيلالتّ.

لقد عرف الغرب الجزائري ازدهارا ثقافيا واسعا في العهد الزّياني (1236م–1557م)، وكانت تلمسان هي العاصمة الثّقافيّة التي أسهمت في خلق بيئة ثقافيّة وعلميّة سطع نجمها في سماء الحضارة العربيّة الإسلاميّة؛ حيث كان هناك اهتمام بالفن والأدب والعلوم والعمران الذي لازالتّ آثاره باقيّة لحد الأن.

اهتمت الدّولة بالعلماء والأدباء والشّعراء خاصة في زمن الأمير أبي حمو موسى الثّاني الذي عرف بحبه للعلماء والأدباء وعلى رأسهم الشّاعر يحيى بن خلدون شقيق عالم الاجتماع الشّهير عبد الرّحمان بن خلدون، بالإضافة إلى بروز عبد الرّحمان الثّعالبي مؤلف الجواهر الحسان في تفسير القرآن، والمقري مؤلف نفح الطّيب وقد دعم هذا الاهتمام بناء المدارس وتسخير الأوقاف لرعايّة طلبتها وشيوخها من أشهرها: « مدرسة ولدي الإمام»، و«المدرسة التّاشفينيّة» التي بناها عبد الرّحمان أبو تاشفين بجانب

الجامع الكبير بتلمسان..، و تنوعّت مظان تأليف العلماء الجزائريين من أدبيّة وتاريخيّة وتجريبيّة.

وفي العهد الزّياني تم نسخ كل المؤلفات التي تعالج علوم الفقه والرّياضيات والفلك وعلوم أخرى، وهو ما زاد من رصيد المخطوطات في الجزائر وتنوعها بحيث كان علماء الجزائر، وحكامها يأتون بالكتب من تركيا والقاهرة وشبه الجزيرة العربيّة، سواء عن طريق الحج أم السّفر أم الرّحلات في إيطار التّبادل المتعارف بين العلماء، وكان اهتمام هؤلاء الحكام بهذا التّراث يعود الى مشاركتهم في البحث والتّأليف والتّرجمة،، فتذكر الرّوايات مثلا أن أبا حمو موسى الثّاني الذي حكم ما بين 760هـ- 791هـ، ألف كتابا عرف باسم «واسطة السّلوك في سياسة الملوك»

فأهم ما ميز الزّيانيين الاهتمام بشراء الكتب ونسخها وجمعها في الخزانات والمكتبات، وينطبق هذا مثلا على تلمسان عاصمة الدّولة الزّيانيّة التي اشتهرت مساجدها وزواياها بمكتبات احتوت على مجموعات هامة من المخطوطات، والشّيء نفسه بالنّسبة لـــــمازونة، ومعسكر، وقسنطينة، وبجايّة، وكذا مدينة وهران خلال القرن التّاسع هجري (15م) حيث وجدت مكتبة خاصة بزاويّة إبراهيم التّازي التي احتوت على الخزائن المملوءة بالكتب العلميّة وآلات الجهاد»، ولقد كتب التّمغروطي في»النّفحة المسكيّة» في أواخر القرن العاشر هجري (16م) بأن مدينة الجزائر كانت كثيرة الكتب وأنه لا يضاهيها بلد في ذلك من البلدان الأفريقية....

لكن بدأ نجم الدّولة الزّيانيّة يضمحل، والأسباب عديدة أهمها صراعها المرير مع المرينيين غربا، و الحفصيين شرقا، ثم الصّراع بين الأمراء الزّيانيين على السّلطة والولاء بين القبائل وأخيرا الهجومات الإسپانيّة عليها.

الدّولة العثمانيّة:

بعد الزّيانيين ارتبطت الجزائر بالدّولة العثمانيّة (1518م – 1830م)؛ فقسمت إداريا إلى أربع ولايات هي:

– دار السّلطان وعاصمتها مدينة الجزائر

– بايلك التيطري وعاصمته مدينة المديّة

– بايلك الشّرق وعاصمته مدينة قسنطينة.

امتدت حدودها من جبال طرارة بالغرب حتى القالة شرقاً، ومن الجزائر شمالاً حتى حدود الصّحراء الكبرى جنوباً نشأت سنة 1515م واستمرت حتى 1830 تاريخ الغزو الفرنسي للجزائر. بعد هزيمة كارلوس الخامس عام 1541 أصبحت الجزائر أقوى ميناء في الشّاطئ الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط. كان اسمها العربي تحت الحكم العثماني ولايّة الجزائر...

ورغم أن الأتراك لم يكونوا مهتمين بالحركة العلميّة بالدّرجة الأولى إلا أن التّراث الذي ورثوه من قبل، ورسوخ الحركة العلميّة في الجزائر وامتداد حلقاتها جعل تيار هذه العنايّة يستمر، كما ساعدت المراكز العلميّة المنتشرة في الجزائر على استمرار العنايّة بالمخطوطات العربيّة، فقد أدت هذه المراكز من مساجد وزوايا، ورباطات، ومدارس دورها الفعال في نشر الثّقافة العربيّة بين الطّلاب، فقد كانت تدرس فيها كتب الفقه والأصول والتّوحيد والقراءات والفلك والتّنجيم واللغة والنّحو والأدب وغيرها وخاصة ما اتصل بالمدائح النّبويّة والتّوسلات والتّضرعات.

كما وجهت هذه المراكز عنايّة خاصة بتحفيظ القرآن الكريم وبإتقان قراءاته المختلفة، ومن أشهر هذه الزّوايا زاويّة سيدي عبد الرّحمن اليلولي بـ«جرجره» في بلاد القبائل الكبرى وزاويّة «شلاطة» في بلاد القبائل الصغرى أيضا، وزاويّة الهامل، وزاويّة طولقة، وزوايا مازونةبالقطاع الوهراني. وقد حافظت هذه الزّوايا على الكتب العربيّة المخطوطة.

وأثناء التّواجد العثماني بالجزائر انتشر التّعليم في كل مناطق الأيالة، وكان للكتاب مكانة مرموقة بين سكانها، فقد خصص في القصبة شارع لشراء وبيع الكتب ونسخها، فقد أشارت الدّراسات أنه كان يوجد من يهتم بصناعة الكتب من الوراقة والتّجليد ونسخ وخط وغير ذلك، فقد جاء في منشورات الهدايّة أن الطّالب محمّد كان سمسارا في الكتب في قسنطينة، وفي تلمسان اشتهر علي بن تيجيرست بالوراقة، ويقول إبن حمادوش أنه كان يجلد الكتب ويبيعها في دكانه بمدينة الجزائر أمام الجامع الكبير، وذكر حمدان خوجة في كتابه المرآة أن سوق القيسريّة خصص لبيع الكتب ونسخها.

ومن الأمور التي ساعدت على نشر اللغة العربيّة هجرة الأندلسيين المضطهدين من قبل الإسپان إلى الجزائر خاصة، حيث قام خير الدّين وأخوه عروج من إنجاد العديد من مهاجري الأندلس ونقلهم إلى البلاد الإسلاميّة من بينها الجزائر أين استقروا بالعديد من مدنها (تلمسان، وهران، تنس، الجزائر، مستغانم...)، ثم إن هؤلاء المهاجرين اندمجوا في المجتمع الجزائري مما يرجح أنهم بمرور الزّمن تيقنوا أن عودتهم إلى الأندلس شيئ ليس ممكنا، فاعتبروا أن هذه الأرض هي وطنهم وأن أبناءها إخوان لهم...بل قد شكلوا الأغلبيّة، فيذكر أن الجزائر في أواخر القرن السّادس عشر ميلادي كانت تضم خمسة وعشرين ألف

من العرب المهاجرين من إسبانيا، و12 ألف من المغاربة العرب والبربر، و15 ألف تركي ومشرقي، و6 آلاف يهودي، ثم إن هؤلاء الأندلسيين ونظرا لعددهم الكبير أثروا في المجتمع الجزائري خاصة في النّاحيّة الثّقافيّة، فبعد مرور السّنين تماهت أصولهم الأولى وأصبحوا يلقبون بالجزائريين لاسيما رجال العلم والثّقافة منهم.

ويرى الباحثون الجزائريون في مجال المخطوطات أن الجزائر تحتفظ في خزائنها بمخطوطات لم تفهرس، ولا يزال الكثير منها مجهولا في الخزائن الخاصة قد يفوق عددها ما هو محفوظ ومفهرس.

لقد لعبت مكتبات المساجد دورا هاما في المحافظة على هذا الموروث الثّقافي فقد كانت بمثابة الجامعة يتوافد عليها طلبة العلم من جميع البقاع، كخزانة «جامع القرويين»، وخزانة «جامع الزّيتونة» بتونس، وخزانة «حمو موسى»، بتلمسان، دون أن ننسى فضل الزّوايا في حمايّة المخطوطات من الضّياع.

ولقد دخلت إلى الجزائر كتب عديدة من المناطق الإسلاميّة المذكورة سابقا خاصّة أواخر القرن الثّاني عشر الهجري (18م) وخاصة الكتب العلميّة وهذا ما يؤكد اهتمام وعنايّة الجزائريين بالكتب.

لقد كان التّأليف من الوسائل الهامة لنمو وشراء المكتبات حيت لا نجد عالما الّا وله قائمة من المؤلفات في مختلف العلوم المتداولة، ومن أشهر المؤلفين نذكر كلا من: - عبد الرّحمن الأحضري - أحمد المقري - عبد الكريم الفكون - اين مريم - أحمد البوتي - أبي راس النّاصر - ابن حمادوش - سعيد قدورة - المشرقي وغيرهم كثير.....

وكانت المساجد والجوامع والزّوايا تحتوي على خزائن الكتب الموقوفة على الطّلبة العلماء، وكانت كتب هذه الخزائن تختلف من حيث قلتها أو كترتها حسب أهميّة الوقف الذي كانت تتغذى منه وحسب أهميّة الجامع، وأمانة وكيل الوقف وتبعا كذلك لعدد السّكان، ومن أشهر هذه المكتبات العامة نذكر على سبيل المثال:

- مكتبة الجامع الكبير بالجزائر - مكتبة المدرسة الكتانيّة التي أسسها صالح باي بقسنطينة - مكتبة المدرسة العربيّة التي أسسها الباي محمّد الكبير في معسكر - مكتبة زاويّة الشّيخ التّازي بوهران رغم أنها كانت قبل مجيء العثمانيين، كما أن صاحب كتاب «القول البسيط في أخبار تمنطيط» تحدث عن وجود كتب كثيرة في الزّاويّة البكريّة، كما كانت زاويّة القيطنة بمعسكر تحتوي على كتب كثيرة وهي الكتب التي تثقف منها الأمير عبد القادر، تم لابد من ذكر مكتبة مدرسة مازونة)

أما عن المكتبات الخاصة، والتي نقصد تلك المكتبات الفرديّة أو الشّخصيّة أو العائليّة؛ فكان عددها كثير جدا في فترة الجزائر العثمانيّة ومن الصّعوبة حصرها، ورغم ذلك هنالك من هذه المكتبات التي اشتهرت كثيرا مثل:

- مكتيّة عائلة الفكون بقسنطينة حيث كانت مكتبة ضخمة حتى أصبحت مضرب الأمثال خاصة خلال الاحتلال الفرنسي.

- مكتبة أبي راس النّاصر التي حبسها عليه أحد بايات وهران وسماها: (بيت المذاهب الأربعة).

- مكتبة الزّجاي، التي قيل عنها بأنها: «إحدى الخزائن الكبار التي تحتوي على أحمال من المجلدات والأسفار.

وهناك مكتبات شخصيّة وعائليّة أخرى، المعروفة منها أقل بكثير من غير المعروفة خاصة وأن هناك عائلات تقدس مكتباتها إلى درجة إخفائها والتّستر عليها.

كانت معظم مخطوطات وكتب تلك المكتبات بنوعيها في العهد العثماني لا تخرج عن نطاق العلوم الدّينيّة الإسلاميّة، حيث كانت مواضيعها حول التّفاسير والأحاديث النّبويّة الشّريفة وشروحها وكتب الفقه والأصول ثم التّوحيد، وهذا لا يمنع من وجود كتب حول العلوم اللغويّة، و العقليّة مثل: كتب التّاريخ، و الجغرافيا، والفلسفة، والمنطق، والحساب، والفلك، والطّب، لكن ذيو عها أقل.

وتشير المصادر إلى أنه كان بالجزائر العثمانيّة، بعض المشتغلين بصناعة الكتب من وراقة وتجليد ونسخ وخط وغيرها من المهن التي لها علاقة بالكتاب المخطوط والمكتبات.

لقد عرفت الجزائر العثمانيّة بالإضافة إلى جمع الكتب في المكتبات، عمليّة نسخ الكتب واستنساخها، وهي حركة انتشرت في الجزائر فاختص فيها عدد كبير، ومن شروطها، جودة الخط، حسن اختيار الورق، المهارة في التّوثيق، الدّقة في العمل وإتقان صناعة الورق.

وذكر ابن خلدون بأن النّسخ بالخط الأندلسي كان هو الغالب على الخطوط الأخرى في الغرب الإسلامي وهو المعروف اليوم بالخط المغربي، زيادة على الخط المعروف بالعثماني، ومن أشهر الخطاطين أبو عبد الله بن العطار، خاصة في قسنطينة، وكان يقصده العام والخاص في الوثائق والعقود، ثم الشّيخ إبراهيم الحركاتي وخدر الزّجاي، وأحمد التّليلي الذي قال عنه الورتلاني الذي رافقه في حجته الأولى سنة 1153هـ، أنه كان بديع الخط، سريع اليد وكان من علماء الظّاهر والباطن، ثم حسين بن عبد الله الجزائري الذي كانت له مهارة في صناعة التّوريق.

وفي الأخير نخلص إلى أن الجزائر قبل دخول الاستعمار الفرنسي سنة (1830م)، عرفت مثل باقي الأقطار الإسلاميّة الأخرى، حيويّة ونشاط كبيرين في مجال المخطوطات والكتب والمكتبات، وهذا بشهادة ضباط الأحتلال الفرنسي أنفسهم، حيت أنهم ذهلوا أمام العدد الكبير للمخطوطات والمكتبات المتناثرة في أرجاء الجزائر وذلك رغم اتسام الحكم العثماني بالبرودة اتجاه العلم والعلماء، إذ لم يسهموا اسهامات فعالة في تنشيط الحياة الفكريّة بالجزائر، بل إن ما أنتج من كتب ومخطوطات وتخزينها في المكتبات يرجع الفضل فيه للجزائريين أنفسهم.

الاحتلال الفرنسي:

وأخيرا جاء الاستعمار الفرنسي من سنة 1830م – 1962م، وقد اهتمت قلة من المستشرقين الفرنسيين بجمع المخطوطات العربيّة وتكوين أول نواة للمكتبة الجزائريّة لكن الكثرة منهم قامت بنهب هذه المخطوطات لصالحها ونقلتها إلى فرنسا، وقد عثر على عدد كبير من المخطوطات الجزائريّة في مكتبات أسر فرنسيّة كان أحد أفرادها – من الأجيال السّابقة- عنصرا من عناصر الاحتلال العسكري للبلاد والاستغلال الاقتصادي لخيراتها.

وقد ذكرنا أن بعض المخطوطات المسجلة في» فهرس فانيان « ضاعت نتيجة لتسربها إلى فرنسا، ويقال إن بعض المخطوطات التي تتصل بالمذهب الإباضي لسكان غردايّة في الصّحراء جيء بها من الجنوب إلى المكتبة الوطنيّة، ولكنها لم تسجل في الفهرس وأخذت إلى باريس.

وطيلة مدة الاحتلال نهبت المكتبات العامة، والخاصة في أنحاء القطر الجزائري على أيدي المسيرين القدماء للمستعمرة من ضباط وموظفين، والمساعدين لهم من مستشرقين وباحثين بطرق شتى من ضغط وتهديد وإغراء ومخادعة أحيانا مقابل دريهمات معدودة.

وبعد غلبة الاستعمار وما أحدثه من تغيرات في أنظمة بلاد المسلمين في الجوانب السّياسيّة والتّشريعيّة والتّعليميّة؛ أصاب الثّقافة العربيّة الإسلاميّة ركود شديد نتيجة ما شنّه الاستعمار من حرب منظمة ضدها، بفرض لغته، وتحويل التّعامل في دواوين الدّولة إليها، وحصر العلوم الإسلاميّة في نطاق ضيق، وهو ما أضعف الاهتمام بالمخطوطات، وأفقدها شيئاً من قيمتها العمليّة، فأوصدت عليها الخزائن ونهب كثير منها، وصارت إرثاً يتوارثه الأحفاد، ضمت بعضها مكتبات خاصة سيئة الحفظ، ومن أفضلها حظاً تلك التي وجدت طريقها إلى معاهد المخطوطات ومراكزها في الجامعات وغيرها، أو أدت بها الهجرة والسّرقات إلى خارج ديارها لتجد مستقراً لها في أشهر متاحف المخطوطات في العواصم الغربيّة.

إذن لقد وجدت الإدارة الفرنسيّة الاستعماريّة في الجزائر تراثا فكريا مخزنا في الخزانات والمكتبات المتناثرة هنا وهناك عبر التّراث الوطني، وهو تراث فكري تراكم عبر قرون من الزّمن أنجزته مختلف الحضارات التي تعاقبت على الجزائر وخاصة الحضارة العربيّة الإسلاميّة، وهكذا كان تفكير الاستعمار أولا وقبل كل شيء في هذا التّراث الفكري المخزن في مكتبات المساجد والزّوايا والمدارس الخاصة أو العائليّة، التّفكير فيه من حيت كيفيّة جمعه والمحافظة عليه وتوجيهه وفق ما يخدم مصالح فرنسا الاستعماريّة.

بعد الاحتلال مباشرة وضع الفرنسيون أيديهم على المساجد والزّوايا والكتاتيب القرآنيّة ومكتباتها وذا الخزانات العائليّة خاصة في العواصم الجزائريّة العلميّة والثّقافيّة ومنها عواصم القطاع الوهراني (تهرت، تلمسان، مازونة، معسكر، وهران وومستغانم) وصادروا ما فيها فاختفت العديد من المخطوطات والكتب. لقد قام عدد من المستشرقين الفرنسيين والضّباط المثقفين وهواة جمع المخطوطات الاتصال بالمساجد والزّوايا وبعض العائلات، فجمعوا ما تحتوي عليّة خزانات تلك المراكز من مخطوطات حيث لم تكن فيها من الكتب المطبوعة طباعة حجريّة إلا النّادر. هؤلاء المستشرقين لم يكتفوا بجمع المخطوطات فحسب بل كتبوا حولها دراسات ومقالات وأعدوا لبعضها فهارس وقوائم، وهذا الأمر لم يكن مألوفا في المراكز العلميّة عندنا.

إن هذه الثّقافة التي تجسّدها المخطوطات ستظل الدّعامة الرّئيسة في ترسيخ وحدة الأمة التي تحقق لها الانسجام وهي تراث غني يجسد المسيرة التّاريخيّة لها.

والجزائر كغيرها من الأقطار العربيّة، عملت منذ نشأة الدّولة الإسلاميّة، بفضل رجالها من العلماء والحكام على تنشيط الحركة العلميّة والثّقافيّة، فأنشأت المراكز العلميّة، وشجعت التّعليم، والتّأليف وجمع المخطوطات، وكانت فيها مدن علميّة شهيرة، كما إنها كانت محطة عبور بين المشرق العربي والغرب الإسلامي وأفريقيا، وقد استمرت هذه الحركة وتنامت حتى أيام الاحتلال الفرنسي حيث قل نشاطها، وكاد يقضى عليها. وأصبح اليوم على عاتق جيل الاستقلال العنايّة بهذه المخطوطات بفهرستها، وإخراجها، وتحقيقها، ودراستها... وظهرت جهود في هذا السّبيل خاصة في العشريتين الأخيرتين.

ثانيا: أهميّة المخطوطات وواقعها في الجزائر

يعد المخطوط كنز كل أمّة وسجّل تاريخها الحافل بالانجازات، الواصف لمراحل تطورها الفكريّة، والجزائر واحدة من الأمم التي تألقت وارتقت بفضل منجزات علمائها في مراحل زمنيّة مختلفة، تاركين خلفهم سجلا لا ينضب، يستقي منه أحفادها إلى يومنا هذا ما يبهرهم في كل مرّة، ويؤجج افتخارهم بأسلافهم الذين ناظروا وقارعوا علماء المشرق والأندلس.

المخطوط وإن تعددت تعاريفه هو كل ما خطّ باليد، سواء كان كتابا أم وثيقة أم رسالة، ويبدو أن المصطلح ظهر بعد الطّباعة للتمييز بين المطبوع وما وصل إليهم مخطوطاً، وإذا أردنا تحديد عمر زمني لبدايّة المخطوطات العربيّة واستثنينا من ذلك النّقوش والرّسائل في عهد الجاهليّة فإن كتابة القرآن الكريم على أيدي الصّحابة (رضي الله عليهم) والرّسائل التي كانت تُرسل إلى الأمصار لأجل توسيع الدّعوة المحمّديّة، من بدايات المخطوط، ثم بدأت المصنفات بالظّهور وارتبطت في بدايّة ظهورها بالقرآن الكريم وتفسيره، فظهرت أمّهات الكتب في التّفاسير والنّحو والبلاغة والصّرف والقراءات، وكلها كانت في شكل مخطوط، ثم تلاحت التّصنيفات في القرون التّاليّة فتطّورت المعارف وكثرت التّصانيف، وانتقلت بين الأمم، فمن بغداد إلى مصر ثم الأندلس ومرّة أخرى إلى شمال أفريقيا أين ظهر علماء تشبّعوا بالثّقافة الإسلاميّة الوافدة مع الفتوحات حيناً ومن الأندلس حيناً آخر، فألّفوا في القراءات والتّفاسير والنّحو والعروض والبلاغة

هذا كانت المصنّفات تكتب على الرّق في بادئ الأمر ثم كتبت على ورق البردى إلى أن ظهر الورق، وخلال تلك القرون العديدة انتشرت العديد من المؤلفات وظهر الكثير من الوراقين وأنشئت المكتبات إبان الدّولة العباسيّة وازدهرت حركة التّرجمة ازدهارا ملحوظاً سواءً من العربيّة إلى اللغات الأخرى أو العكس، ووصلت الحضارة العربيّة الإسلاميّة إلى ذروتها في وقت كان الجهل يعم العالم الغربي.

إن تراث العرب والمسلمين في تاريخهم الطّويل المجيد يعتبر ثروة هائلة تمثل حضارة الإسلام والمسلمين بصرحها الشّامخ المتين، الذي لا تزعزعه صروف الدّهر والسّنين، تلك الحضارة التي سادت أربعة عشر قرناً من الزّمان، صنف فيها العلماء العرب والمسلمون المصنفات في مختلف ميادين العلوم في اللغة والأدب وأصول الدّين وعلوم الحديث والسّيرة النّبويّة وعلوم الفلك والحساب والطّب وغيرها.

إن هذا التّراث الضّخم وصل إلينا منذ قرون في شكل مخطوطات تصدع بها المكتبات العالميّة، ولكم أتألم عندما أقرأ أن بعضها لا يزال في المكتبات الألمانيّة أو الفرنسيّة أو غيرهما من الدّول الغربيّة التي انتفعت منه وانطلقت في حضارتها في حين أننا سمعنا به منهم فقط ولم تسعفنا الفرص حتى لمعرفته أو تصفحه، ومثال على ذلك رسائل الكندي الطّبيب المرصوصة في المكتبة الألمانيّة وغيرها.

الحال نفسه بالنّسبة للجزائر هذه الدّولة العظيمة التي تعاقبت عليها حضارات متنوعة في الفكر والثّقافة استطاع علماؤها أن يتركوا لنا إرثا حضاريا وفكريا ضخما يعكس اليقظة الفكريّة التي اتسم بها علماؤنا الأجلاء، وما أكثر المخطوطات في الجزائر، لكنها للأسف لم تحظ بما حظيت به نظيراتها في العالم الغربي، لعدة أسباب لعل أشهرها عدم تمكن النّخبة من الوسائل المساعدة في تحقيق المخطوطات، أو عدم رعايّة الدّولة لها، وأهمها تمسك العائلات المالكة للمخطوط على أنه إرث عائلي يستحيل التّفريط فيه، وللأسف ما أكثر المخطوطات التي كانت جرفتها السّيول ولم يتمكن العلماء منها ل،ها كانت في بيوت أصحابها لا هم اهتموا بها ولا تركوا أمرها للوزارة المختصة.

المخطوط ذاكرة أمّة، والحديث عنها يعني الحديث عن تاريخ ووسيلة لتحريك فكرها وربط ماضيها بحاضرها، وحلقة وصل بين سلفها وجيلها الجديد، وعتبة انطلاق وتألق لعلمائها، وثقافة تؤصل للذات الجزائريّة، لكنه للأسف مبعثر بين رفوف مكتباتها أو مخازن عائلاتها أو مساجدها أو زواياها.

مع مرور الوقت والزّمن، أصبحت هذه المخطوطات محل اهتمام العلماء والباحثين والدّارسين لا سيما بعد ظهور تخصص تحقيق المخطوطات وكيفيّة ذلك في الجامعة الجزائريّة، ومع ظهور مخابر بحث وزاريّة تهتم فقط بالمخطوط، كمخبر جامعة أدرار، الذي من شأنه أن يقدم الكثير في هذا الشّأن بعد معرفتنا أن معظم المخطوطات تتوزع على الجنوب الجزائري، وفي الحقيقة هناك خطوات جبارة تبذل في هذا المجال، وقد تمكن بعض الباحثين حقا من تحقيق مخطوطات مختلفة نحويّة حينا وصرفيّة حينا آخر وبلاغيّة في مرات كثيرة في انتظار تحقيق المزيد.

نحن نعلم أن المخطوطات قد تعرضت في الفترة الاستعماريّة إلى عمليات نهب وإحراق أتت على بعضها وتركت البعض الآخر، الذي سُرق معظمه إلى متاحف فرنسا، أو حُقق بعضه على رأي عبد

الكريم عوفي، ولعل اعترافات الفرنسيين أنفسهم تؤكد ذلك مثل «أدريان بيريروجر» وكان قائدا للحملة الفرنسيّة على ولايّة قسنطينة ومعسكر وتلمسان آنذاك حيث ذُهل لمخازن المخطوطات التي وجدها عند العائلات المالكة في هذه الولايات، الأمر نفسه أكدّه «شارل فيرو» في كتاباته حولها جودتها العلميّة وحالتّها الممتازة.

ليطفوا لصوص المخطوط - بعد المستعمر الفرنسي وبعد بعض العوامل الطّبيعيّة المسهمة في إتلاف المخطوط الجزائري مثل الفيضانات أو الحرائق- إلى الواجهة حيث عملوا في فترة من الزّمن على سرقة بعضها حينا وشراء بعضها الآخر بثمن زهيد بسبب جهل ملاكها لقيمتها ثم بيعها بأغلى الأثمان، والحقيقة أن لصوص المخطوطات لا يزالون إلى يومنا هذا حسب تصريحات بعض القائمين على أهم الخزائن التي تحتوي على المخطوطات في الجزائر.

ورغم المحاولات العديدة التي قامت بها وزارة الثّقافة، ووزارة الشّؤون الدّينيّة من أجل جمع وتدوين هذه المخطوطات إلا أنها تبقى مجهودات ضئيلة جداً، حيث لم تسجل الإحصاءات ونحن في عام 2011، العدد الحقيقي للمخطوطات الموجودة في الجزائر.

لمعرفة واقع هذا التّراث الحضاري الهام، «يفتح «الفجر الثّقافي»، في العدد الجديد، هذا الموضوع بعيون أحفاد هؤلاء المشايخ الذين تركوا لنا هذا الإرث الذي يتعرض يوما بعد آخر إلى النّهب والسّطو والتّلف، حيث أسفرت آخر عمليّة جرد لأهم المخطوطات الموجودة في الجزائر عن إحصاء حوالي 35 ألف مخطوط على المستوى الوطني، وهو رقم ضئيل جداً حسب رأي المختصين والمهتمين بهذا التّراث مقارنة ما هو موجود في أرض الواقع، خاصة وأن هناك عددا معتبرا جداً من المخطوطات رفض الورثة الشّرعيون لها من الإفصاح عنها، أو تدوينها لدى المركز الوطني للمخطوطات، أو وزارة الثّقافة أو المكتبة الوطنيّة التي يتواجد بها قرابة الـ(4000) مخطوط عربي وفارسي وتركي، بعضها يعود إلى القرن الحادي عشر أو الثّاني عشر أو الثّالثّ عشر ميلادي، ربما لهذا تحظى المكتبة الوطنيّة بدعم الدّولة الجزائريّة، نظير محافظتها على هذا الإرث.

غير أن الحقيقة عكس ذلك تماما إذ يقول عدد كبيرة من القائمين على الزّوايا بمختلف المدن الجزائريّة الغنيّة بها، إنّ كمًّا كبيراً جداً من المخطوطات تمتلكه عائلات جزائريّة، رفضت أن تفصح عنهم للجهات المعنيّة، وهي تقدر بمئات الآلاف ولا يمكن المقارنة بينها وبين تلك الموجودة بالمكتبة الوطنيّة.

خزانة كنتّه - أدرار

يقول الشّيخ «كنتاوي سالم»، أحد أحفاد سيدي الشّيخ، والقائم بأعمال زاويّة كنته، إن الدّار الكبير التي لا زالتّ تحتفظ بالعديد من المخطوطات النّادرة جداً في الجزائر، وتحتوي على آثار قيمة بالنّسبة لهم، كانت إلى وقت غير بعيد مفتوحة أمام جميع الباحثين والمهتمين بالمخطوطات من الجزائر والعالم وكذا الدّارسين والطّلبة الجامعيين الذين يتوافدون على هذه الزّاويّة كل حين، لكن في الوقت الحالي، وبعد عمليات النّهب التي طالتّ عدّة مخطوطات بل وأهم المخطوطات الجزائريّة، أصبح من الصّعب عليهم السّماح لأي كان القيام بعمليّة نسخ أو أخذ هذه المخطوطات خاصة وأن أغلب الزّوار الذين يتوافدون على المنطقة، يأتون في الغالب باسم جمعيات ومؤسسات ثقافيّة، وفي الأخير لا يقوم هؤلاء بإعادة المخطوطات إليهم.

ويضيف المتحدث قائلاً «إنه شخصيا لو وجد الثّقة في المسؤولين على قطاع الثّقافة عندنا باعتبار وزارة الثّقافة هي التي تختص بهذا النّوع من المخطوطات، لما تردد في تسليمها لمن يبحث عنها بغرض الاستفادة منها. وأوضح المتحدث أن الجهات الوصيّة -أي وزارة الثّقافة - أثبتت مع مرور الوقت أنها مؤسسة غير مؤهلة للحفاظ على هذا الموروث الثّمين بدليل أن أغلب المخطوطات التي تخرج من الخزائن المترامية عبر التّراب الوطني، باسم هذه المؤسسة تتعرض للضياع والسّرقات، «كما يدّعي الأشخاص الذين سلمناهم إيّاها والأدلة على ذلك كثيرة».

وعاد بنا «المتحدث إلى الواقع التي أصبحت عليها المخطوطات اليوم، بخزانة كنته، أين تعرضت الخزانة التي تحتوي على أهم مخطوطات الشّيخ، إلى التّلف من جراء الحريق الذي شبّ بالمكان، وأدى إلى ضياع أغلب المخطوطات، فيما تبقى للجيل القادم نسخ عنها ليس إلا، وما هذا إلا عينة واحدة عن عشرات الخزائن المتواجدة بالتّراب الوطني والتي طالتّها النّيران وأدت إلى تلف البعض منها، وضياع البعض الآخر. وفي هذا الصّدد نوّه المتحدث بالدّور الذي يلعبه النّساخون القلائل الموجودين بالخزائن، حيث يقبعون بالخزانة لشهور طويلة، وسنوات حتى يحافظوا على ما بقي من هذه المخطوطات، خاصة وأن هناك عددا كبيرا من المخطوطات التي لا تتوفر إلا على نسخة أو نسختين فقط، ومع مرور الزّمن، وبفعل الطّبيعة التي تتواجد فيها تلك المخطوطات، ضاع الكثير منها، وهم اليوم، يناشدون السّلطات المعنيّة بضرورة التّدخل العاجل لحمايّة هذا الإرث الهام.

ويقيّم كنتاوي سالم المجهودات التي بذلتها وزارة الثّقافة بالسّطحيّة جداً، إذ أنهم سبق لهم وأن ناشدوا الوزارة بضرورة التّدخل العاجل لحمايّة هذا التّراث، لكن مناشداتهم ظلّت مجرد حبر على ورق، وتساءل المتحدث عن جدوى إنفاق ملايير الدّولارات على تظاهرات تُعنى بالتّراث والثّقافة وهم عاجزون حتى عن الاهتمام بالزّوايا والخزائن التي تحتوي على موروث هو الأهم بالنّسبة لنظرائنا المسلمين، الذين يحجون سنويا إليهم بغرض محاولة شراء بعض المخطوطات واستعراضها في متاحفهم، بينما عندنا -يقول كنتاوي - يتم العكس، إذ أن الاهتمام بهذا التّراث لا يعني شيئا مقارنة بما يصرف باسم الثّقافة الإسلاميّة. وعرّج المتحدث في حديثه مع محاوره من جريدة «الفجر» إلى تظاهرة «تلمسان عاصمة للثقافة الإسلاميّة 2011»، الذي تمنى لو أنفقت وزارة الثّقافة 1 بالمئة من الميزانيّة الضّخمة التي خصصت لهذه التّظاهرة على الخزائن والقائمين عليها، خاصة النّسّاخين الذين أفنوا حياتهم في إعادة الاعتبار إلى عديد المخطوطات من خلال سهرهم على إعادة كتابة المخطوطات التي تعرضت للتلف.

خزانة كُوسَامْ - أدرار

إلى جانب مخطوطات نادرة وقيمة، تأوي خزانة كوسام، أشهر نساخ في الجزائر، وهو الشّيخ «شاري الطّيب» أحد أحفاد «الشّيخ البلبالي»، والقائم بأعمال خزائن كُوسَامْ، الذي تعرّض من جراء قيامه بعمليّة نسخ أهم المخطوطات الموجودة اليوم بالجزائر، إلى فقدان بصره، فمع مرور الوقت وعشرات النّسخ التي يخرجها إلى المكتبات والخزائن المجاورة لخزانة كوسام، أصبح هذا الشّيخ عاجزا حتى عن مواصلة عمليّة نسخ هذه المخطوطات التي يجد غيره صعوبة في معرفة الخط الذي كتبت به. ورغم «مناشداته العديدة للجهات المعنيّة من أجل الوقوف على حالة ومساعدته في إجراء عمليّة جراحيّة له، من أجل مواصلة مهمته في الحفاظ على هذا الموروث الحضاري الهام، إلا أن مناشداته باءت بالفشل دوماً»، ورغم أن الوعود التي قدمتها له وزيرة الثّقافة، آنذاك، أثناء زيارتها إلى الخزانة في السّنوات الماضيّة، لم تجد بعد طريقها إليه، وكأنه باستطاعتها إيجاد أشخاص آخرين يمكنهم القيام بهذا العمل الذي يقوم به منذ سنوات طويلة، تقارب الـ40 سنة. وعلى الرّغم من أن الوزيرة لم تف بوعدها الذي قدمته إليه، إلا أن النّسّاخ لم يفقد الأمل مطلقا وبفضل مساعدة أطراف أخرى لا علاقة لهم بالثّقافة استطاع أن يجري عمليّة جراحيّة ناجحة، ليعود بعدها إلى عمله السّابق وهو نسخ بعض المخطوطات، إلى أن تعرض مرة أخرى إلى فقدان طفيف للبصر، هو ينتظر اليوم مبادرات إنسانيّة أخرى تتكفل به، من أجل العودة إلى مهمته في المحافظة على موروثنا. وغير بعيد عن الحالة الإنسانيّة هذه التي يعاني منها أحد أشهر النّساخين الجزائريين الذين لا زالوا على قيد الحياة، تحدث معنا الشّيخ على أهم المخطوطات التي تحتويها الخزانة، حيث تحتوي الخزانة على كتب تهتم بعديد المجالات الفكريّة، الأدبيّة، العلميّة، السّياسيّة، والدّينيّة، وهو ما كان يعتمد عليه أجدادنا السّابقون في تسيير شؤونهم وشؤون الدّولة والمجتمع، لهذا وجب على الجهات المعنيّة بهذا الإرث المحافظة عليه والسّعي إلى جمع المخطوطات التي لا تزال مترامية هنا وهناك، خاصة وأن هناك وعي كبير بأهميّة هذا التّراث الثّقافي الهام من قبل عدّة جهات حكوميّة وغير حكوميّة أجنبيّة، سعت ولا تزال تسعى للاستفادة والاستحواذ عليها من العائلات التي لا تزال تحتفظ بهذه المخطوطات، وذلك بعرض مبالغ ماليّة ضخمة جداً عليهم. وأضاف المتحدث قائلاً إن العديد من الأسر والعائلات القاطنة بمدينة أدرار التي تزخر بعدد هام وكبير من المخطوطات الموجودة بالجزائر، تتعرض بشكل متسمر ودائم إلى عروض جديّة من قبل بعض السّياح الأجانب وبعض المؤسسات الأجنبيّة التي تحج سنويا إلى هذا المكان من أجل التّخلي على بعض المخطوطات أو السّماح لهم بنسخ عدد منها بغرض الاستفادة منها، والحقيقة أنّ هؤلاء يسعون إلى الاستحواذ عليها وجعلها ضمن موروثهم الحضاري، فيما تتعامل الجهات المعنيّة عندنا وعلى رأسها وزارة الثّقافة، بجفاء ونوع من اللامبالاة بهذا التّراث، حيث قدمت لهم وزيرة الثّقافة منذ ما يزيد عن 3 سنوات وعوداً بكونها ستقدم لهم الدّعم المادي والمعنوي، من أجل جمع كافة المخطوطات التي لا زالتّ لم تجمع بعد في هذه الخزانة، وكذا تقديم المساعدة لهم في نسخ بعض المخطوطات التي أصابها التّلف، لكن ظلت هذه التّصريحات مجرد وعود ليس إلا، وإن استمر الوضع على حالة، فلن تبقى هذه المخطوطات موجودة، لا بخزانة كوسام ولا غيرها من الخزائن المترامية في مختلف مناطق التّراب الوطني، لأن الوضع لا يتعلق فقط بهذه الخزانة، بل بأغلب خزائننا. وأشار المتحدث إلى أن الخزانة تتلقى زيارات طوال السّنة من مختلف مناطق العالم، وبخاصة من منطقة الخليج العربي، وفرنسا، وبريطانيا، كما يلقى عدد من الطّلبة والباحثين دروسا في الفقه

والسّنة، والأدب، وغيرها من المجالات التي عرف بها الشّيخ «سيدي أمحمّد البلبالي»، بهدف توعيّة الأجيال القادمة وضرورة المحافظة على هذا الإرث الهام. وتعد خزانة كوسام، الواقعة بمدينة أدرار، أحد أهم الخزائن الموجودة الآن في الجزائر، والبلدان المحيطة بها، وهي خزانة أسسها الشّيخ العلامة «سيدي بن عبد الرّحمن بن أمحمّد البلبالي»، الذي ينتمي إلى قبيلة البلبالي، ولدّ سنة (1250 ه)، تفوق في عديد العلوم والثّقافات، مارس التّدريس وكان مجلسه مجلس إفادة، كما كان أول قاضي في عهد الاستعمار الفرنسي. عدد مخطوطاته التي تركها تقدر بحوالي 160 مخطوط، من بين أشهر مخطوطاته وأقدمها، مخطوط «مقتصد المسائل»، وهو مخطوط موجود الآن بالخزانة حيث أعيد نسخ هذا المخطوط بعد التّلف الذي تعرض له، خاصة وأنه مخطوط يتجاوز وجوده الزّمني 600 سنة، تماما كسابق المخطوطات التي تعرضت بفعل الزّمن، إلى التّلف، فيما تبقى عديد المخطوطات الأخرى غائبة عن هذه الخزانة، بفعل صعوبة جمعها من الورثة الشّرعيين لهذه المخطوطات، والتي توارثوها جيلا بعد الآخر.

خزانة المغيلي – أدرار

يبدو للعيان أن خزانة الشّيخ المغيلي، قاهر اليهود، أكثر خزانة تتلقى زيارات من الباحثين والمهتمين بالمخطوطات في العالم الإسلامي، كما أن المظهر الخارجي للخزانة التي تقع بجانب قبر الشّيخ «المغيلي رحمه الله»، يبدو في حالة جيدة مقارنة بما سبقه من خزائن موجودة في ولايّة أدرار، إلا أن الخزانة وأثناء زيارة صحفي جريدة «الفجر»، «مؤخراً إليها، كانت في حالة يرثى لها، وهي على نفس الصّورة التي كانت عليها الخزائن الأخرى، حيث طالتّ عمليات النّهب والسّرقة والتّلف هذه الخزانة، منذ القدم، ولكن حرص أحفاد الشّيخ المغيلي على إعادة أهم المخطوطات التي وجدت في بعض الدّول الأخرى لا يزال قائماً، وهم يتوارثون حلم جمع كل مخطوطات الشّيخ وإعادتها إلى الخزانة». وفي هذا الصّدد طالب «عبد الله كروم»، أحد أحفاد الشّيخ المغيلي، بضرورة استرجاع المخطوطات الخاصة بالشّيخ والتي وجدت في عديد الدّول الأجنبيّة الأخرى على غرار مصر، إذ يقول المتحدث أن معظم التّراث الصّوفي للشيخ المغيلي وغيره من الشّيوخ الكبار الذين تركوا آلاف المخطوطات منذ قرون سابقة، موجود الآن في عديد دول العالم، كتركيا، فرنسا، بغداد، ومصر، وهو ما يجعلهم يتساءلون كأحفاد لهذا العلامة، عن الكيفيّة التي وصلت فيها تلك المخطوطات إلى هذه الأماكن، والأطراف الضّالعة في تهريب هذا الإرث الخاص بنا إلى غيرنا، كما استهجن المتحدث غياب الوعي لدى الورثة الشّرعيين لهذا الإرث، وهو ما أدى إلى ضياع أهم المخطوطات على مرّ العصور. ولعل أهم عائق تعاني منه مخطوطات الشّيخ المغيلي اليوم، بالجزائر، هو الصّراع الذي نشب بين مختلف أحفاد الشّيخ، حيث إن كل واحد منهم يسعى للاستحواذ على هذا التّراث، غير مهتمين بالأهميّة التي تكتسيها تواجد هذه المخطوطات عندنا، هذا الأمر الخطير جداً، يستوجب التّدخل العاجل من الجهات المعنيّة بالمحافظة على التّراث المادي واللامادي، من أجل وأد هذه الخلافات وجعل المخطوطات جميعا في مكان واحد يستطيع الطّلبة والباحثون من الاستفادة منها في بحوثهم ودراساتهم، لأن الأمور إذا خرجت عن السّيطرة لن يكون أمام الجيل القادم فرصة للتعرف على أي من هذه المخطوطات.

خزانة بن عبد الكبير – أدرار

إذا كان القائمون على الخزائن الأخرى قد سمحوا لوزارة الثّقافة بجرد وتصوير المخطوطات التي تتواجد هناك، ومطالبتها بمدّ يد العون لهم، فإن حفدة «سيدي بن عبد الكبير»، يرفضون ذلك جملة وتفصيلاً، وهذا ما أوضحه أحد أفراد عائلة بن عبد الكبير حيث قال إن اللجنة التي سبق لوزارة الثّقافة وأن شكّلتها لتقوم بعمليّة جرد المخطوطات التي تركها الشّيخ بن عبد الكبير، كانت لجنة غير مؤهلة علميا للقيام بهذه المهمة، كما أنهم أشخاص غير أكفاء ولا علاقة لهم بالمخطوط، لذلك هم يرفضون المساس بالإرث الذي تركه الشّيخ سيدي بن عبد الكبير، ويحرصون على إعادة نسخ كل المخطوطات التي تركها الشّيخ رحمة الله عليه، كي تبقى هذه المخطوطات منارة للعلماء والباحثين والمهتمين بمختلف العلوم والآداب، خاصة وأنّ زاويّة سيدي بن عبد الكبير مفتوحة أمام هؤلاء متى رغبوا في الاستفادة من علمه ومعرفته. وفي سياق متصل، «طالب الدّولة الجزائريّة، بضرورة تجهيز كل الخزائن الموجودة في الجزائر، بالمعدات اللازمة من أجل العمل في جو مريح يمكنهم من نسخ المخطوطات وصيانة بعضها وفق خبرتهم هم، باعتبارهم شبّوا مع هذه الأمانة العلميّة وشاهدوا كيف كان حرص آبائهم في الحفاظ عليها من عدّة عوامل بشريّة وطبيعيّة منذ عصور طويلة جداً.

من خلال هذه النّظرة السّريعة على أهم الخزائن الموجودة في مدينة أدرار، والتي

تحتوي على أشهر وأندر المخطوطات التي لازالتّ موجودة لحدّ السّاعة والتي يعود تاريخ البعض منها إلى سنة 400 للهجرة، تبيّن أن الدّولة الجزائريّة لا زالتّ لم تول بعد اهتماما نوعيا بهذا النّوع من المخطوطات الذي أصبح يعيش الإهمال، كما استغرب هؤلاء عدم سعي الدّولة الجزائريّة ممثلة في وزارة الثّقافة في الاستعانة بالمختصين للمحافظة على هذه الذاكرة الجماعيّة، وطالبوا في هذا الصّدد خليدة تومي بتخصيص زيارة ميدانيّة إلى تلك الخزائن حتى ترى الواقع المرّ الذي تعيش عليه تلك الأماكن، فدراسة التّراث حسبهم لا يتم من المكاتب بل من الميدان، لهذا يجد المكلفون بإحصائها صعوبة في ذلك، خاصة وأن هناك العديد من العائلات بمدينة أدرار والتي تتحفظ لحدّ السّاعة من فتح خزائنها، والتي في الغالب هي خزائن تضم مخطوطات عن تاريخ اليهود وعن أصول بعض العائلات الجزائريّة الكبيرة، ذات الأصول اليهوديّة، الذين اندمجوا مع مرور الوقت مع المسلمين، وتصاهروا معهم أيضا، فهذا النّوع من المخطوطات سريّ للغايّة، سيعاب على أي خزانة قامت بالكشف عنهم بخيانة الأمانة التي رفض أجدادنا الحديث عنهم، لكونها مخطوطات ستسبب الضّرر أكثر من النّفع على الأمة الجزائريّة. كما رجح البعض فكرة وجود مخطوطات لحد السّاعة مكتوبة باللغة العبريّة القديمة، هي الآن لدى عائلات بمدينة توات بأدرار، ولكنها تتحفظ عن ذكرها أو التّصريح بها، بل ولحد السّاعة لم تقم تلك العائلات بفتح تلك الخزائن.

أهم المخطوطات الموجودة بهذه الخزائن

مخطوطات، سيدي محمّد الصّوفي سيدي إبراهيم الواشدي، سيدي بن جوزي أحمد، مخطوطات الشّيخ المغيلي، أقدم المصاحف خاصة تلك التي كتبت على الرّق، الجامع الصّحيح للإمام البكاري، حياة وآثار ومقولات الشّيخ المغيلي، سيدي عمر الشّيخ، أهم مخطوطات الطّريقة القادريّة.

أهم مراكز المخطوطات في الجزائر

هناك مراكز رسميّة وأخرى غير رسميّة للمخطوطات في الجزائر، فمن المراكز الرّسميّة المكتبة الوطنيّة الجزائريّة، التي تعد المؤسسة الأولى المعنيّة بقضايا الكتاب المخطوط والمطبوع وتضم حوالي (4000) مخطوط، تليها المكتبة المركزيّة الدّكتور أحمد عروة بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميّة، والتي تحتوي على (719) مخطوط، أما المكتبة المركزيّة لجامعة منتوري بقسنطينة فتحتوي على (480) مخطوط، وبعدها مكتبة وزارة الشّؤون الدّينيّة بباتنة التي تحتوي على(70) مخطوطاً، أما مكتبة المركز الثّقافي الإسلامي بولايّة قسنطينة فتحتوي على (170) مخطوطاً، وكذلك مكتبة ثانويّة ابن زرجب بتلمسان التي تحتوي على(100) مخطوط، وكذا مكتبة مديريّة التّراث بوزارة الشّؤون الدّينيّة بالعاصمة التي تحتوي على(700) مخطوط. أما فيما يتعلق بالمراكز غير الرّسميّة، فهي في الأغلب خزائن بيوت أو مستودعات – كما وقفت على ذلك شخصيا في ولايّة أدرار– أوزوايا، فمن الخزانات: الخزانات الشّعبيّة في منطقة صحراء تانزروفت بالجنوب الجزائري، ومن المكتبات: مكتبات أدرار الموزّعة على توات، قورارة، تيديكلت، وهذه المناطق الثّلاث تشكل أقاليم استراتيجيّة معروفة بتاريخها فقد كانت ممرا للقوافل في قديم الزّمان بين شمال الصّحراء وجنوبها، خصوصا دولة مالي في الجنوب وموريتانيا في الجنوب الغربي، والمغرب في الغرب والشّمال الغربي. ولهذا السّبب تعد "أدرار" عاصمة المخطوطات بامتياز، وخزانة الشّيخ التّوهامي صحراوي بباتنة، وكذا خزانة زاويّة القرقور بسريانة ولايّة باتنة، خزانة الزّاويّة القندسيّة بولايّة بشار، خزانة الزّاويّة العتمانيّة بطولقة ولايّة بسكرة، خزانة الشّيخ حسين بسيدي خليفة ولايّة ميلة، خزانة وادي ميزاب بغردايّة، وخزانة علي الرّاغا بولايّة أم البواقي، خزانة محمّد زقادب بأولاد جلال بسكرة، خزانة زاويّة محمّد المختار الحكاني بتندوف، خزانة أهل العبد بقصر الرّماضين الدّويرة ولايّة تندوف تندوف.

إن حال المخطوطات في هذه المراكز لا يختلف عن حاله في مراكز ولايّة أدرار– الملقبة بعاصمة المخطوطات في الجزائر–، واليوم علينا جميعا أن نكثف الجهود وأن نتعاون جميعا لغرض الحفاظ عليها، هي منا ونحن بها، هي تاريخنا النّاصع ونحن جنودها الذين سنخرجها إلى العالم في محاولة إثبات الذات والتّفوق لأن الاهتمام بها لا يزال دون المستوى المطلوب.

وبعد هذه الجولة في حال المخطوطات الجزائريّة، ونحن في عصر التّكنولوجيا، هل يحق لنا الحديث عن رقمنة المخطوطات في الجزائر؟

ثالثّا: تجربة الجزائر في فهرسة المخطوط العربي ورقمنته.

تزخر الجزائر بتراث علمي وثقافي كبيرٍ، تشكل المخطوطات جزءاً هاما منه، لما تحمله من أفكار وإبداعات وتجارب جادت بها عقول العلماء في تلك المؤلفات. ما يحدو الأمة الجزائريّة إلى الاعتزاز بهذا التّراث المخطوط، والعمل على حمايته من الضّياع من

خلال توالف عدد من العمليات انطلاقا من البحث والتّنقيب والجمع والتّحقيق والفهرسة والنّشر والرّقمنة... كل هذا في سبيل تحقيق أقصى استفادة ومنفعة من هذا التّراث العلمي والفكري الزّاخر.

التّعريف بمصطلح المخطوط:

المخطوط في اللغة هو كل ما كتب بخط اليد سواء كان كتابا أم وثيقة أم نقشا على الحجر، ولكنه في الاصطلاح يقتصر على الكتاب المخطوط بخط اليد. وبذلك تستبعد أشكال عديدة من دائرة المخطوط كالنّقوش والكتابة على الجدران والعملات والأنسجة... لأنها تدخل في مجال اختصاصات علوم أخرى كعلم الوثائق وعلم الآثار. فعلم المخطوط ينصبُّ على الكتاب ولا يتجاوزه إلى غيره من الأشكال المخطوطة.

ووصفُ المخطوط بأنه عربي، بمعنى عروبة اللسان، فكل مخطوطٍ كتب بالعربيّة يعدُّ مخطوطا عربيّا بغض النّظر عن الأصول العرقيّة لكاتبه، أما عن وصفنا المخطوط بأنه جزائري أي أن كاتبه جزائري الأصل عربيُّ اللسان.

وينبغي الإشارة كذلك إلى أن المخطوط سابق للمطبُوع، وقد كان الانتقال من عصر المخطوطات إلى عصرِ الطّباعة إتاحةً للمخطوطِ (الكتاب) بالانتشار والاشتهار بين النّاس، بدلا من القبوع في زوايا المكتبات عرضةً للتلف والتّآكل... وقد ساهمت الطّباعة في تقليص أعداد المخطوطات لتحل محلها المطبوعات المتعددة.

ولكن، هل طبع تلك المخطوطاتِ كَافٍ لإتاحتها بما يمكن الاستفادة المطلقة منها من طرف الباحثين والدّارسين؟ أم يتوجب القيام بما هو أكثر من ذلك لتيسير الوصول إلى المخطوط بوصفه أحد أوعيّة المعرفة والعلم التي لا غنى عنها؟

النّتاج الفكري والعلمي للمخطوطات الجزائريّة:

تعد الجزائر من بين البلدان العربيّة الغنيّة بالمراكز العلميّة، التي تحتفظ بالمخطوطات، كالزّوايا، والخزانات الشّعبيّة، والمساجد، والكتاتيب القرآنيّة، والقصور، ومكتبات الأفراد والأسر. إن هذه المراكز وغيرها ملأى بكنوز من التّراث المخطوط، وهي تشمل مختلف فنون المعرفة الإنسانيّة؛ من فقه، وأصول، وعقيدة، وتوحيد، وتفسير، وقراءات، وتجويد، وحديث، وفلسفة، وطب، وزراعة، وفقارات، وفلك، ومنطق، وكيمياء، وميقات، وحساب، ورياضيات، وجبر، وجغرافيّة، وتاريخ، ورحلات، وسير، وتراجم، وآداب، ونحو، وصرف، وبلاغة، وتصوف، ووثائق، وغير ذلك مما تفرع عن هذه الأصول.

كل هذا التّراث الهام متمثلا في المخطوطات موجود في المراكز العلميّة كالزّوايا والمساجد والكتاتيب القرآنيّة، ومكتبات الأفراد والأسر... ومن بين هذه المراكز نذكر على سبيل المثال المكتبة الوطنيّة في الجزائر، والتي تعد من أهم المصادر الفكريّة والثّقافيّة، وقد كان لها دور هام في إبراز العلماء والمفكرين الذين أثروا الحياة العلميّة في الجزائر.

وقد تبنت هذه المكتبة فكرة جمع المخطوطات من المكتبات العامة والخاصة؛ ويبلغ رصيدها أزيد من 4200 مجلد مخطوط باللغة العربيّة، وقليل باللغات التّركيّة والفارسيّة، يعود تاريخها إلى عهود مختلفة كما يرجع تاريخ نسخ أقدم مخطوط في القرن الثّالثّ أو الرّابع الهجري، وهو جزء من القرآن الكريم بخط طوفي ونسخ على جلد الغزال.

فهرسة المخطوط العربي الجزائري:

تعد الفهرسة إحدى العمليات التي تسهم في الحفاظ على المخطوطات، ويعنى بها إنجاز المادة الأساسيّة عن المخطوطة، كبيان اسمها، ومؤلفها وسنة وفاته، وأولها وآخرها، وعدد أجزائها، وأوراقها وسطور صفحاتها وقياسها، واسم ناسخها، وغير ذلك من المعلومات المفيدة عن المخطوطة، فالفهرسة جزء هام وأساسي في التّعريف بالمخطوط وتقديم بيانات عن محتواه، إذ بدونها وبدون طبع الفهارس ونشرها، تظل المخطوطات في المكتبات العامة، والخاصة، سرا لا يمكن معرفته، أو الوصول إليه والاطلاع عليه إلا عن طريق الصّدفة.

ونظرا للأهميّة التي تكتسيها عمليّة الفهرسة وما لها من دور في حمايّة التّراث الفكري والمعرفي ونشره والتّعريف به عالميا، عمدت الجزائر أفرادا وهيئات، إلى فهرسة ما اجتمع لديها من مخطوطاتٍ لعلماء جزائريين وغير جزائريين قصد تصنيفها.

لقد بدأ الاهتمام بالمخطوط العربي في الجزائر من طرف المستشرقين الفرنسيين منذ بدايّة الاحتلال، وبالطّبع فإن هذا الاهتمام كان خدمةً لمصالحهم. إلا أن دراساتهم حول المخطوطات وإعدادهم لفهارس وقوائم لها تعد تجربة رائدة بالنّسبة للمكتبة الجزائريّة.

أما بعد الاستقلال فقد تم تشكيل لجنة للبحث في المخطوطات ودراستها في سبتمبر 1969، كان من بين أعضائها السّادة: أحمد طالب الإبراهيمي وزيراً للتربيّة، ومحمود بوعياد مديراً للمكتبة الوطنيّة، وأصدرت هذه اللجنة أول فهرس لها سنة

1970م، قام بإعداده كل من جلول بدوي، ورابح بونار، وأنجز باعتماد فهارس سابقة لكل من المستشرقين: البارون دوسلان، وبير بروجي، ومحمّد بن أبي شنب، ومحمود بوعياد، وعبد الغني بيوض.

ولكن للأسف فإن هذه المحاولة لم تطبع ولم تنشر، وفقِدت بعد تقديمها للمؤسسة الوطنيّة للكتاب لنشرها.

ومن بين الفهارس المتوفرة في المكتبة الوطنيّة سابقة الذكر، والتي تكفل إتاحة المخطوطات للباحثين وطلبة الدّراسات العليا نذكر:

1 – الفهرس العام لمخطوطات المكتبة الوطنيّة الجزائريّة: أعده إدمون فانيان، نُشر هذا الفهرس باللغة الفرنسيّة، وطبع في باريس سنة 1893، ويعد هذا الفهرس في نظر الفرنسيين الجزء18 من فهارس المخطوطات في المكتبات العامة في فرنسا، ويشتمل على وصف 1987 مخطوطة.

2 – فهرس مخطوطات المكتبة الوطنيّة: وضعه عبد الغني بيوض حين كان محافظاً بالمكتبة الوطنيّة في عهد الاحتلال، وبعد الاستقلال انتقل إلى المكتبة الوطنيّة في باريس، وقد أنجز هذا الفهرس سنة 1953م باللغة العربيّة، وهو بخط يده من الحجم الكبير، وهو غير مرقم، يشتمل على وصف 343 مخطوطة، بها 65 مجموع، وهو يبتدئ من الرّقم الذي توقف عنده فانيان (1988 إلى 2332).

إلا أن هذا الفهرس لم يطبع بسبب ضياع النّسخة الأصليّة في مديريّة المكتبات الفرنسيّة في باريس، ولم يبق منه في المكتبة الوطنيّة الجزائريّة إلا المسودة.

3 – السّجل العام لمخطوطات المكتبة الوطنيّة: وضعه محمود بوعياد، وقد كان مديرا سابقا للمكتبة الوطنيّة، وشرع فيه سنة 1954م، وقيل سنة 1962م، وهو عبارة عن قائمة عاديّة مكتوبة على الحاسوب، تشمل على 318 مخطوطة، تبدأ من (2333 إلى 2651)، به أزيد من 20 مجموعا حسب دراسة الدّكتور عبد الكريم عوفي.

4 – سجل مكمل لمخطوطات المكتبة الوطنيّة: وهو عبارة عن قائمة عاديّة مرقونة باللغة العربيّة، لعلها لرابح بونار وجلول بدوي، ويشمل على 720 مخطوط، تبدأ من (2610 إلى 3329) وهذا الفهرس غير متداول خارج المكتبة الوطنيّة.

5 – سجل مخطوطات الأمير عبد القادر وحسن بن رحال الموجودة بالمكتبة الوطنيّة: وهو عبارة عن فهرس كتب باللغة العربيّة، وضعه محمود بوعياد، وهو غير مؤرخ، يضم 59 مخطوطة، منه: 21 مخطوطة في خزانة الأمير عبد القادر، و38 مخطوطة في خزانة ابن رحال. وكلتا الخزانتين في المكتبة الوطنيّة.

6 – فهرس مخطوطات مكتبة ابن حمودة: وضع هذا الفهرس حسن غوارزو، وهو باحث من نيجيريا، زار المكتبة الوطنيّة، لإنجاز بعض المتطلبات العلميّة حول الإمام الشّيخ محمّد بن عبد الكريم المغيلي، فانتهز الفرصة وأعد الفهرس سنة 1993 م، وهو متداول في المكتبة فقط. وحسب الدّكتور مختار حساني فإن فهرسة بن حمودة، تحتاج إلى إعادة فهرسة لأنها لم تكن كاملة.

جهود الجزائر في رقمنة المخطوطات:

إن صناعة المحتوى الرّقمي العربي المخطوط مؤشر حيوي على الدّخول نحو عصر المعرفة، فإنتاج المحتوى المعلوماتي وتنظيمه ومعالجته وإخراجه في قالب يناسب روح العصر، يعد خطوة نحو استثمار المعلومة للوصول إلى المجتمع المعرفي، ذلك أن المعلومات الرّقميّة تعد محور نشاط العلماء والباحثين.

يمكننا تلخيص مفهوم الرّقمنة *Numériser—Digitilization* في: أنها عمليّة تحويل مصادر المعلومات على اختلاف أشكالها (الكتب والدّوريات والتّسجيلات الصّوتيّة والصّور والصّور المتحركة...) إلى شكل مقروء بواسطة تقنيات الحاسبات الآليّة، والرّقمنة عمليّة أو إجراء لتحويل المحتوى الرّقمي الفكري المتاح على وسيط تخزين فيزيائي تقليدي (مقالات، دوريات، كتب، مخطوطات، خرائط...) إلى شكل رقمي. وتستدعي السّرعة التي يتجه بها العصر نحو الأمام ضرورة تشييد مكتبات رقميّة تتيح محتوى فكريا ومعرفيا في شكل إلكتروني.

وفي الجزائر نجد تجربة المركز الوطني للمخطوطات بأدرار، بوصفه المؤسسة الوطنيّة المسؤولة عن جمع المخطوطات وإتاحتها للباحثين عبر الوطن. فهو مؤسسة عموميّة ذات طابع إداري يتمتع بالشّخصيّة المعنويّة والاستقلال المالي، وهو تحت وصايّة الوزير المكلف بالثّقافة. ومن بين مهامه الرّئيسة حفظُ المخطوطات بالطّرق العلميّة الحديثة، وإجراء جرد عام وتصنيف شامل لها، والقيام بالفهرسة العلميّة للمخطوطات، وتحقيقها من طرف الباحثين المختصين، وغيرها من المهام...

وينقسم المركز إلى أربعة أقسام وكل قسم به مصالح وهي كما يلي:

1 – قسم الإدارة والوسائل

- مصلحة الموارد البشريّة والماليّة
- مصلحة الوسائل العامة

2 – قسم الجرد والبحث
• مصلحة جرد المخطوطات
• مصلحة الدّراسات والبحث
• مصلحة النّشر
3 – قسم الحفظ
• مصلحة الحفظ الوقائي
• مصلحة التّرميم
• مصلحة التّصوير الآلي
4 – قسم التّنشيط والمبادلات الثّقافيّة
• مصلحة المبادلات الثّقافيّة والعلميّة
• مصلحة التّنشيط والاتصال

بـدأت عمليّـة رقمنـة المخطوطـات بالمركز الوطني في 2012، ثم احترق الجهاز المخصـص للرقمنة في2013، بسـبب توتر عالـي للكهربـاء، وفي سـنة 2014 تم إعادة اسـتئناف عمليّـة الرّقمنـة مـن جديد بعد إصلاح الجهاز.

ويعمل بالمركز فريق مختص في الإعلام الآلـي يشـتغل بتجهيـزات وبرامج خاصة من بينها جهـاز 7600DIGIBOOK Suprascan II الذي يقوم بتصويـر المخطوطات، وهو مصمم للحفاظ على تـوازن المخطوطات ومقابلة صفحاتها أثناء الرّقمنة.

ونود أن نشير إلى موقع **البوابة الجزائريّة للمخطوطـات** علـى النّت، التّابـع لمخبر المخطوطات الجزائريّة في أفريقيا بجامعة أدرار، وما لأهميته في تيسير التّعرف على المخطوطـات والوصول إليهـا من طرف الباحثيـن وهـذا بعـد طلبها مـن القائمين عليها مرفقة بسـبب الطّلب مع اتباع بعض الإجـراءات الأخـرى، كمـا تتيـح البوابة الاطـلاع علـى فهـرس للمخطوطات مع توفـر خاصيّة البحـث في الفهرس سـواء بذكر كلمة مـن عنوان المخطوط أو اسـم المؤلـف أو الدّولـة والولايـة... الخ. كما تتوفـر البوابة علـى تصنيفـات خاصة مثل أخبار المخطوطات، ونوادر المخطوطات، وصورها وغير ذلك..

رابعا: الشّـروح الشّـعريّة واللغويّة في المخطوطات الجزائريّة

يسـهم التّراث المـادي واللامادي في الحفاظ على الذاكـرة الفرديّة والجماعيّة للجزائـر، فهو الـذي يربط بيـن ماضيها وحاضرهـا، وهو أحـد خصوصيات هذه الأمـة، حاملا وحاويا لهويتهـا التي تتفرد بها عن باقي الأمم، ومن بين أنواع التّراث التـي كان لهـا دور بـارز في نقـل العلوم وتاريخ وثقافـة الجزائر من جيل إلى جيل المخطوطـات، فالمخطـوط هـو الوعاء الذي يحمـل ما جادت بـه قرائح العلماء في مختلـف الميادين العلميّـة والأدبيّة والدّينيّـة وغيرها من المجالات التي اهتم بها المؤلفون منذ أن نشأت حركة التّأليف فـي مناطق متفرقـة من هذا الوطـن، وإذا تتبعنا أكثر المواضيع التي ألهمت الكتاب هي المواضيـع الدّينيّـة تليهـا المباحث اللغويّة والأدبيّة، إذ تعجّ المكتبات الوطنيّة والخزائـن بهـا، وجد بعضها سـبيلا إلى التّحقيق والنّشر بينما لا يزال أغلبها حبيسَ رفوف هاته المكتبات والخزائن.

والجديـر بالذكـر أنـه بـرزت ظاهرة جديـدة عنـد علمـاء الجزائـر تتمثل في شـروح النّصـوص الشّـعريّة والمتـون اللغويّـة، ويحـدد أبو القاسـم سـعد الله الفترة الزّمنيّة لنشـأة هذه الحركة في قوله: «يمثل الشّـرح في نظرنا شكلا من أشكال النّثر الأدبي الذي شـاع فـي العهد التّركي في الجزائر». فقد شـهدت تلك الفترة وما بعدها نشاطا واسعا للشروح؛ التي من أهم أهداف التّأليف والبحث، فقد ذكر حاجي خليفة في كتابه كشـف الظّنون عن أسامي الكتـب والفنون أن « التّأليف على سـبعة أقسام، لا يؤلف عالم عاقل إلا فيها، وهي: إما شيء لم يسـبق إليه فيخترعه، أو شيء ناقص يتممه، أو شـيء مغلق يشـرحه، أو شـيء طويل يختصره دون أن يُخل بشيء من معانيه، أو شيء متفرق يجمعه أو شيء مختلط يرتبه، أو شـيء أخطـأ فيه مصنفه فيصلحه». فالشّروح أبرز الغايات وأهمها نظرا لهدفها النّبيل،

جاء في المعاجم تعريف مادة (شـرح) كالآتي:

شـرح: يشـرح، شـرحا، فهو شـارح والمفعول مشروح، شرح المسألة: بسّطها ووسعها، وفسرها: وكشف ما خفي منها.

وصنعة الشّـرح أو الشّـروح علم قائم علـى درس نص مـن النّصـوص العلميّة أو الأدبيّـة أو اللغويّة من خـلال توضيح معناه بحسـب منهج من المناهج، وتبيان مـا هو غامض فيه، أو « أن يقف على كلام الأولين وتآليفهم، فيجدها مسـتغلقة على الإفهام ويفتح الله له في فهمها، فيحرص على إبانة ذلك لغيره ممن عسـاه يستغلق عليه لتصل الفائدة لمستحقيها وهذه طريقة البيـان لكتـب المعقول والمنقـول، وهو فصل شـريف». فالشّـرح ممارسة يهدف الشّـارح من خلاله تفكيك النّصوص بغيّة تبسـيطها وتحديد معناها وتوضيح ما هو غامض فيها لغايات تعليميّة تربويّة.

بـدأ الاهتمـام بشـرح النّصـوص الشّـعريّة واللغويّة وانكب الشّرّاح حولها بغيّة حفظها وتفسـيرها، فدرسـوا معانيها واستنبطوا الأغراض البلاغيّة منها، وبينوا مميزاتهـا الفنيّة والجماليّة فـي الحلقات العلميّـة والتّعليميّـة. فقد «عـرف علماء الجزائـر بحفـظ متـون النّحـو وبعـض الشّروح، وإدراك مسائلها عن ظهر القلب حتى أصبحوا لا يعانون في ذلك رهقا ولا مشقة».

نمـاذج عـن الشّـروح الشّـعريّة فـي المخطوطات الجزائريّة:

ومـن أهـم الشّـروح الشّـعريّة فـي المخطوطـات الجزائريّة مخطوط بعنوان

نفث القلم بشرح لاميّة العجم للطغرائي

لمؤلفه ابن أبّ المزمري، ولاميّة العجم قصيدة شعريّة نظمها الشّاعر الوزير الحسين بن علي بن عبدالصّمد الأصفهاني الطّغرائي الذي عاش ما بين القرنين الحادي عشر والثّاني عشر سميت بلاميّة العرب محاكاة لقصيدة لاميّة العرب للشنفرى، فهي تضاهيها في حكمها وأمثالها، بينما رأى آخرون أنها سميت بذلك ردا على من يعتقد أن العجم عاجزون عن نظم قصائد بليغة، وتضم لاميّة العجم 59 بيتا مطلعها:

أَصَالَةُ الرّأيِ صانَتْني عَنِ الخَطَلِ
وحِلْيَةُ الفَضْلِ زَانَتْني لَدَى الْعَطَلِ.

وللاميّة العجم مكانة في التّراث العربي إذ تناقلها العديد من العلماء بالشّرح والتّحليل والتّلخيص والنّقد، ذكر حاجي خليفة أصحاب هاته الشّروح في كتابه كشف الظّنون، وكارل بروكلمان في كتابه تاريخ الأدب العربي، فهي تزيد عن خمسة عشر شرحا، ومن خلال اطلاعي على عناوين المخطوطات لابن أبّ المزمري لاحظت أنه أقدم على شرح هذه القصيدة في مصنفه نفث القلم. واتفق الدّارسون لهذا المصنف أنه تفوق في شرح القصيدة فـــــ: «النّاظر في نفث القلم ينتبه إلى تلك الغزارة الأدبيّة التي امتلكها المزمري، فقد ظهر خلال شرحه في مستوى بياني وبلاغي عال يعكس حجم اهتمامه بالبيان العربي واطلاعه عليه». أما عن منهجه والمباحث اللغويّة التي اعتمدها في الشّرح نجد أنه بدأ بذكر الدّافع لتأليفه، والهدف المتوخى من ذلك، كما استهل الشّرح بمقدمة وتعريف مفصل بصاحب القصيدة، ثم عرّج إلى شرح القصيدة حسب ترتيب الأبيات، فكان يستخرج المفردة ويردفها بمعناها المعجمي، ثم يذكر تصاريفها ويشير إلى موقعها الإعرابي أحيانا، ويخصص بعد ذلك حيزا لشرح المعنى العام للبيت كاملا على النّحو الآتي:

مُجْدي أَخيرًا ومُجدي أَوَلا شَرَع
والشّمْسُ رَأْدُ الضّحى كَالشّمْسِ في الطّفَلِ

«مجدي أي: شرفي، وأخيرا وأولا ظرفان، وشرع بفتحتين سواء يقال: همّ في هذا الأمر: شرع أي سواء، والواو في قوله: والشّمس للابتداء والاستئناف، ورأد الضّحى أي ارتفاعه، وهو براء ودالٌ مهملتين بينهما الهمزة السّاكنة وانتصابه على الظّرفين كالشّمس في الطّفل بفتحتين آخر النّهار.

المعنى: إن شرف قدري في الابتداء أمري، وأيام ولايتي كما كان في آخر عمري وأيام عزلي بلا تفاضل. كما أن الشّمس شمس في أول النّهار وفي آخره وهذا النّوع يسميه أهل البديع الافتخار، وهو كثير في هذه القصيدة». كما يستحضر الآيات القرآنيّة والأحاديث النّبويّة والشّعر والأمثال في شرحه للاستشهاد مثل الآيّة الكريمة ﴿**فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا**﴾ –سورة النّمل الآيّة 38 – التي اتخذها استدلالا لشرح كلمة: «قِبَلي» الواردة في البيت الآتي:

أُرِيدُ بَسْطَةَ كفٍّ أَسْتَعينُ بِها
عَلى قَضاء حُقوق للعُلى قِبَلي

الذّخائر الكنزيّة في حل ألفاظ الهمزيّة:

انتشر في التّراث العربي شكل من أشكال النّثر اللغوي والأدبي هو المدائح النّبويّة، وهو فن من فنون الشّعر يهتم بذكر الصّفات الخَلْقيّة والخُلُقيّة لخير البريّة صلى الله عليه وسلم والاشتياق لرؤيته، ومن أشهر من نظم في هذا الفن الإمام شرف الدّين أبو عبد الله محمّد بن سعيد بن حماد البوصيري فله عدة قصائد منها الهمزيّة في مدح خير البريّة والمسماة أيضا «أم القرى» مطلعها:

كَيْفَ تَرقَّى رُقَيكَ الْأَنْبِياءُ
بِأَسْماءٍ ما طاوَلَتْهَا سَماءُ.

وقد انكب اللغويون على هذه القصيدة بالشّرح والتّفسير من بين هذه الشّروح شرح مختصر وضعه ابن أب المزمري أسماه الذخائر الكنزيّة في حل الألفاظ الهمزيّة، وانتهج المزمري في مصنفه شرح كل بيت على حدة وحسب التّرتيب، كما كان يفسر كل كلمة بذكر مرادفها أو توضيح دلالتّها داخل السّياق وكان حريصا على ذكر الموقع الإعرابي للكلمات وتحديد وظيفتها وتبيان أوزانها وصيغها مع ذكر القاعدة الصّرفيّة وضبط حركات حروفها في غالب الأحيان، فجعل من كل هذه الأمور تتضافر من أجل تقريب وتبسيط المفهوم للمتلقي، وعلى سبيل الأمثلة من الذخائر قوله: «**ازدهاء** أي. افتخار قاله الشّارح أي: افتخار به على سائر الأديان... **توالتّ** أي. تتابعت... وهو **يدعو**: الواو للحال والجملة بعدها حال... **الاستسقاء**: مصدر استسقى...». ومن أجل تقريب المفهوم أكثر كان يلجأ إلى توظيف شواهد من القرآن الكريم والأحاديث النّبويّة والأبيات الشّعريّة، ونجد أيضا ان ابن المزمري التّزم بالضّوابط العلميّة والأخلاقيّة من خلال الإشارة الصّريحة إلى المصادر التي اعتمدها في شرحه، منها الشّروح السّابقة للهمزيّة مثل: خير القرى في شرح أم القرى لشمس الدّين الجوجري، والمنح المكيّة في شرح الهمزيّة لابن حجر الهيثمي، واستعان بطائفة من الكتب النّحويّة على رأسها مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام وألفيّة ابن مالك، ناهيك عن ذكر المعاجم التي استخرج منها معاني

الكلمات كالقاموس المحيط لفيروز أبادي، والصّحاح للجوهري.

لم تقتصر الشّروح في المخطوطات الجزائريّة على الشّعر بل تجاوز ذلك إلى الدّرس اللغوي بمختلف مباحثه وقضاياه الصّرفيّة والنّحويّة والبلاغيّة والعروضيّة، فتعددت مواضيع الشّروح بتعدد المصادر التي اختارها الشّرّاح ما بين مصادر جزائريّة وغير جزائريّة. وجلهم السّبل الموضحة وأسهم في تنوير النّص من خلال تبسيط المفاهيم للمتعلمين وخدمة للغة العربيّة. وفيما يلي أردت ذكر عناوين بعض الشّروح حسب مباحث اللغة العربيّة على سبيل المثال لا الحصر،

نماذج عن الشّروح اللغويّة في المخطوطات الجزائريّة:

النّحو: يرى بعض الباحثين أن أولى الشّروح النّحويّة تزامنت مع بدايّة تدريس متن مقدمة الآجروميّة فعند زيارة أبي يعلى الشّريف التّلمساني لمدينة (فاس) وجد حينها ابن المؤلِف ابن آجروم يعلمها لطلابه، فقرر وضع شرح لها لأهميتها ولاختصارها وتيسيرها لمباحث النّحو، كما اتجه البجائي في شرحه للآجروميّة على تيسير ألفاظها، فشرح متن الآجروميّة عند العلماء الجزائريين تواصل لما يقارب سبعة قرون بدءا من القرن الثّامن هجري حتى القرن الخامس عشر هجري، وتعددت المصنفات حوله نذكر منها:

• الدّر المنظوم في شرح الأجروميّة لمحمّد بن يوسف بن عمر بن شعيب أبو عبدالله السّنوسي.

• الدّرر الصّباغيّة في شرح الأجروميّة لمحمّد بن محمّد بن علي الصّباغ وهو مخطوط موجود بمكتبة علي بوشاقور: مؤلف وضع للمبتدئين لطلاب العربيّة

• شرح على شواهد الشّريف على الأجروميّة لعبدالكريم فكون.

• الدّليل على الأجروميّة للرحموني محمّد صالح بن سليمان

مفيد الطّلبة وهو شرح على الأجروميّة للزواوي أحمد الطّيب بن محمّد الصّالح سليمان العيساوي.

ولم يكتف العلماء الجزائريون بشرح الآجروميّة، بل اهتموا أيضا بمؤلفات نحويّة أخرى منها منظومة لاميّة الجمل هي قصيدة HYPERLINK «https://ar.wikipedia.org/wiki/Ø³Ø¹Ù‘Ù‘Ù» تعليميّة في إعراب الجُمل، تشتمل على 72 بيتاً، وهي من نظم الشّيخ أبي عبد الله السّلاوي محمّد بن محمّد بن عمران الفقيه النّحوي، من أهل HYPERLINK «https://ar.wikipedia.org/wiki/Ø³Ù‘Ø§Ø§» سلا بالمغرب. وهي من المصنفات النّحويّة التي ذاع صيتها أيضا بين المتعلمين والمهتمين بعلم النّحو ومن شروحها في المخطوطات الجزائريّة نذكر:

• الدّرر البهيّة على القصيدة المجراديّة لعبدالقادر المجاوي التّلمساني

• فتح الهادي بشرح المجرادي عبد الكريم فكون.

• نيل المراد من لاميّة ابن المجراد لمؤلفه محمّد بن أبّ المزمري.

• فتح الهادي بشرح المجرادي لعبدالكريم فكون متواجد بمجاميع تيمور.

وتجاوزت الشّروح هذين المصنفين إلى مصنفات أخرى على سبيل المثال:

• القولة الشّافيّة بشرح القواعد الكافيّة للعربي بن سنوسي القيزاني المستغانمي.

• شرح على تحفة ابن الوردي في النّحو ابن أب المزمري: أسماه النّفحة الرّنديّة بشرح التّحفة الورديّة،

• فتح المولى بشواهد ابن يعلى لعبد الكريم فكون متواجد بالمكتبة العباسيّة في البصرة.

الصّرف: خصص العلماء الجزائريون لبعض المخطوطات الصّرفيّة شروحا أيضا منها

• شرح لاميّة الأفعال لعبد الكريم فكون أو فتح المالك في شرح لاميّة بن مالك، ومن مميزات هذا الشّرح أنه غزير المادة، كثير المسائل، فقد كان عبدالكريم الفكون يشير لمختلف آراء العلماء السّابقين في الدّرس الصّرفي. لهذا أتى هذا الشّرح مطولا قيّم المحتوى.

• فتح اللطيف في أرجوزة المكودي في التّصريف لعبد الكريم فكون: يرى العياشي صاحب الرّحلة أنه استفاد من هذا الكتاب، وأن ابن فكون قد أجاد الشّرح والبحث، وصرح أنه يفضله على شرح أبي عبدالله المرابطي الدّلائي، وأضاف العياشي أنه افتتح الكتاب بقوله: « الحمدلله الذي أجرى تصاريف المقادير بواسطة أمثلة الأفعال، وأوضح بيان افتقارها إليه بتغيير حالاتها من حركة وصحة واعتلال». كما ذكر عبد الكريم الفكون الدّافع إلى تأليفه ومحتواه بقوله: « أما بعد: فلما كان العلم من أسنى المطالب وأعلى المكاسب، ومبلغ في الدّارين أرفع المراتب، وكان علم التّصريف من أعظم ما ينطوي عليه الجنان، ويتعاهده اللسان، ويشرف به الإنسان رغب مني بعض الطّلبة أن أجعل لهم تقييدا على منظومة الشّيخ العالم العلم النّحوي اللغوي أبي زيد عبدالرّحمن بن علي بن صالح المكودي، يحل ألفاظها ويعين على فهمها حفاظها».

• شرح روضة النّسرين في مسائل التّمرين لابن أب المزمري: روضة النّسرين في مسائل التّمرين أرجوزة في التّصريف نظمها ابن أب المزمري يقول فيه:

سميت بروضة النّسرين لجمعه مسائل التّمرين.

حقق منظومة روضة النّسرين احمد أبا الصّافي الجعفري مع شرحها ضمن كتابه رجال في الذاكرة، ومن شروح الدّرس البلاغي في المخطوطات الجزائريّة نذكر بعض منها:

• شرح الرّسالة السّمرقنديّة لسيدي حسين الورثيلاني

• شرح الجوهر المكنون في الثّلاثة الفنون، وهو شرح لمنظومة في البلاغة لعبدالرّحمن الأخضري

لدى تتبعي للمخطوطات اللغويّة والشّعريّة في الجزائر وشروحها اتضح أن من أهم دوافع تأليفها هو خدمة اللغة العربيّة، وتمكين القارئ والمتعلم منها باعتبارها لغة القرآن الكريم والآحاديث النّبويّة الشّريفة.

أهم المصادر والمراجع:

عبد الغفار بن نعميّة قراءة في مخطوط نفث القلم في شرح لاميّة العجم المجلّة الجزائريّة للمخطوطات العدد 14 يناير 2016.

عادل النّويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى منتصف القرن العشرين، منشورات المكتب التّجاري للطباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، ط1 1971

ابن أب المزمري، الذخائر الكنزيّة في حل ألفاظ الهمزيّة، تحقيق امحمّد مزايني، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الدّراسات اللغويّة جامعة حسيبة بن بوعلي الشّلف.

أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطّبعة الأولي، الجزء الثّاني

مؤلفات ومقالات الدّكتور أحمد أبا الصّافي الجعفري منها المخطوطات الجزائريّة وأعلامها في المكتبات الأفريقية

• د.أمينة طيبي
د. نجيدة ولهاصي
جامعة سيدي بلعباس

المصادر

– عبد الغفار بن نعميّة قراءة في مخطوط نفث القلم في شرح لاميّة العجم المجلّة الجزائريّة للمخطوطات العدد 14 يناير 2016.
– عادل النّويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى منتصف القرن العشرين، منشورات المكتب التّجاري للطباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، ط1، 1971
– ابن أب المزمري، الذخائر الكنزيّة في حل ألفاظ الهمزيّة، تحقيق امحمّد مزايني، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الدّراسات اللغويّة جامعة حسيبة بن بوعلي الشّلف.
– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطّبعة الأولي، الجزء الثّاني
– مؤلفات ومقالات الدّكتور أحمد أبا الصّافي الجعفري منها المخطوطات الجزائريّة وأعلامها في المكتبات الأفريقية

اللغة العربيّة في المواثيق والقوانين والمراسيم الجزائريّة

أ. عامر بغدادي

لقد أولت الجزائر المستقلة للّغة العربيّة المكانة التي تستحقها بوصفها اللغة الوطنيّة والرّسميّة، كما كرسها الدّستور الجزائري في مادته الثّالثة وجعل منها لغة الدّولة الجزائريّة في مواجهة اللغة الفرنسيّة التي سعت الإدارة الاستعماريّة الفرنسيّة لفرضها وبسط هيمنتها عبر القوانين التي سنتها منذ منتصف القرن التّاسع عشر حتى وصل الأمر بها إلى إصدار قانون في سنة 1938 جعل من اللغة العربيّة لغة أجنبيّة في الجزائر إمعاناً في محاربتها وسعياً لإقصائها وطمسا لمقومات الشّخصيّة الوطنيّة. وهو ما دفع بالحركة الوطنيّة بشقيْها الاستقلالي والاصلاحي لتجعل من الدّفاع عن اللغة العربيّة قضيّة أساسيّة في نضالاتها، وجزءا لا يتجزأ من كفاحها في سبيل حريّة الجزائر واستقلالها. فجعلت اللغة العربيّة في صلب المطالب الحزبيّة وفي صميم النّضالات السّياسيّة.

إن توجه الدّولة الجزائريّة، في مرحلة ما بعد استرجاع السّيادة الوطنيّة، لسن مجموعة من القوانين تستهدف الحد من سيطرة اللغة الفرنسيّة وتكريس اللغة العربيّة كلغة وطنيّة ورسميّة ولغة علم وعمل وأداة تواصل مجتمعي ومحور انتماء حضاري، يستند إلى خلفيّة ثقافيّة – اجتماعيّة ارتبطت بالتّطور التّاريخي للمجتمع الجزائري. فلم يكن ذلك التّوجه وليد الصّدفة، ولا تعبيرا عن نزوةِ حاكمٍ، ولا موقفا أيديولوجيا لمجموعة فرضته على الجزائريين، بل كان استجابة لتوجه شعبي نابع من حقائق التّاريخ ومعطيات الاجتماع والثّقافة. وهذا ما سنحاول معالجته في هذا المقال المخصص للغة العربيّة في المواثيق والقوانين والمراسيم الجزائريّة منذ تبلور الكيان السّياسي الجزائري الحديث في القرن X (العاشر) الهجري/ XVI (السّادس عشر) الميلادي، مرورا بالعهد الاستعماري الفرنسي وانتهاء بمرحلة ما بعد الاستقلال. وكتوطئة للموضوع نقدم نبذة تاريخيّة عن ظروف انتشار اللغة العربيّة في الجزائر وعبر الفضاء المغاربي منذ ظهور الإسلام كقيم سماويّة تسعى لنشر التّوحيد وبسط العدل وتحرير الانسان من عبوديّة الانسان وحثّ الفرد على الالتّزام بقيم التّسامح والتّضامن والتّآخي وتوجيهه لرفض مختلف أشكال الجور والكهنوت.

فمنذ منتصف القرن الأول الهجري الذي يوافق القرن VII (السّابع) الميلادي، بدأت اللغة العربيّة تأخذ مكانها في بلاد المغرب بعد تأسيس مدينة القيروان سنة 51 هـ/ 671م كحاضرة من حواضر الإسلام، وإقامة أبي المهاجر دينار بمدينة ميلة لمدة سنتيْن بعد أن كلف بأمر أفريقيا ابتداء من سنة 55 هـ/ 675م، وقيام حسّان بن النّعمان بطرد آخر حاميّة روميّة من شواطئ تونس في حدود سنة 78هـ/ 698م ووضعه لنُظم الإدارة والتّسيير. ويلخص الكاتب المصري كريم زكي حسام الدّين، في كتابه **العربيّة تطور وتاريخ** الوضعيّة اللغويّة في بلاد المغرب خلال تلك الفترة بقوله: «مع نهايّة القرن الأول الهجري عرفت المدن المغربيّة على ساحل البحر المتوسط طريقها للتعريب كالقيروان وتونس وسوسة، ولم يمض القرن الثّاني حتى تصبح العربيّة لغة هذه المدن السّاحليّة، أما المدن الدّاخليّة فقد ظلت البربريّة لغة الحياة اليوميّة إلى جانب العربيّة التي كانت لغة الشّعائر الدّينيّة. أما اللغتان اللاتينيّة واليونانيّة فقد خرجتا مع أصحابهما. بينما اللغة البونيّة، التي كانت تربطها علاقة القرابة اللغويّة بالعربيّة فكلاهما ترجعان إلى أصل واحد، لم يجد أصحابها مشقة في الانتقال إلى العربيّة» (ص 209).

وفي ذات السّياق، يقول المؤرخ محمّد الصّغير غانم بهذا الصّدد في كتابه **المملكة النّوميديّة والحضارة البونيّة**: «إن اللغة البونيّة كانت قد عمرت فترة طويلة، سواء كان ذلك في قرطاج أو في الممالك النّوميديّة، وقد توفرت تلك اللغة في التّخاطب في معظم الحواضر النّوميديّة إلى درجة أن القديس أُغسطينوس الذي عاش بعد خمسمائة سنة من تهديم

قرطاجة كان يردد بأن سكان البادية المحاذية لمدينة عنابة، هيبون القديمة، كانوا لا يزالون حتى وقته يتكلمون البونية»(ص 110).

ويؤكد هذا الرأي ما أورده الشيخ مبارك الميلي في كتابه **تاريخ الجزائر في القديم والحديث** نقلا عن المؤرخ الفرنسي ستيفان كزال بقوله «إن بقاء الفينيقية بالسنة البربر سهل عليهم تعلم العربية».

عندما ننتقل إلى المرحلة الموالية نجد أن الشيخ عبد الرحمن الجيلالي يقول في كتابه **تاريخ الجزائر العام** إن الحركة العلمية التي عرفتها الدولة الحمادية (405هـ/ 1014م – 547هـ/ 1153م) كانت سببا في انتشار العربية حيث «نشط العلماء وأقبل العامة عليهم فأكثروا من الكتابة في مختلف أنواع العلوم والفنون، وبمفعول هذه الحركة العلمية والنشاط الأدبي تقلص ظل اللغة البربرية وانتشرت العربية في المدن الجزائرية بين جميع طبقات الشعب»(ص 292).

وهو نفس ما ذهب إليه المؤرخ أحمد توفيق المدني إذ يقول في مصنفه المشهور **كتاب الجزائر**: «لقد قامت العربية بدور حاسم في بلاد الجزائر أثناء الدولة الحمادية، وذلك إثر هجرة الهلاليين إلى أفريقيا. ذلك أن العربية كانت لغة بحث وتدريس وكانت لغة الطبقة الراقية»(ص 82).

ومع تتابع التطورات التاريخية والاجتماعية الحاصلة في المغرب الأوسط، نرى أن العديد من المؤرخين والكتاب يؤكدون أن اللغة العربية انتشرت كما نعرفها اليوم خلال العهد الزياني. وهي المرحلة التي تمتد من منتصف القرن VII (السابع) إلى منتصف القرن X (العاشر) للهجرة أي من منتصف القرن XIII (الثالث عشر) إلى منتصف القرن XVI (السادس عشر) حسب التقويم الميلادي (من 633–963هـ الموافق لـ1235–1554م). وتصادف تلك الفترة مرحلة اندماج القبائل العربية العدنانية المعروفة تاريخيا ببني هلال في الكيان السياسي الجزائري. وفي هذا الصدد يقول محمود آغا بوعياد في كتابه **جوانب من الحياة في المغرب الأوسط** في القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي: «لقد تم في العهد الزياني امتزاج عناصر هذا المجتمع بعضها ببعض، وتم تكوينه من النّاحيّة الفكريّة على الوجه الذي نعرفه اليوم. إن الدّين الذي أصبح في هذا العصر راسخا في النّفوس سواء في الحواضر أو الأرياف قد امتد تأثيره إلى معالم الحياة كلها، كما أصبحت لغة القرآن هي لغة التّخاطب لأغلبيّة السّكان عدا من قطن منهم الجبال وغيرها من الأماكن المنعزلة، وأصبحت العربيّة لغة الكتابة أي لغة الحضارة» (ص45).

وهو نفس ما ذكره رابح بونار في كتابه **المغرب العربي** بقوله: «كادت العربيّة أن تعم القطر الجزائري في عهد بني زيان ملوك تلمسان»(ص 283).

ونجد هذه الرّؤيّة ذاتها لدى المؤرخ الفرنسي Gilbert Meynier/ جيلبر مينْيي حيث قال في كتابه **الجزائر قلب المغرب القديم** L'Algérie cœur du Maghreb classique: «ساعد استقرار العرب الرّحل في القرن XI، ثم انتشارهم حتى المغرب الأقصى في تعريب البوادي في الهضاب العليا والسّهول، وكان التّقدم الذي سجلته العربيّة في القرنيْن XIV وXV بلا رجعة» (ص 241).

ويذهب الكاتب الفرنسي Yves Lacoste/ إيف لاكوست في كتاب **الجزائر بين الماضي والحاضر** في نفس الاتجاه، فقد ذكر أن «المغرب الأوسط أخذ، في القرن الخامس عشر تقريبا، الملامح الأساسيّة التي تبقى معه حتى الغزو الاستعماري ... فقد نال المغرب الأوسط في هذا العصر مميزاته اللغويّة: امتد التّعريب إلى جميع السّهول ويعود ذلك للعلاقات التّجاريّة والسّياسيّة التي أدامها السّكان بالمدن وكذا الحكومات» (ص 119).

ويلخص كل تلك التّطورات المؤرخ محفوظ قداش في كتابه L'Algérie Médiévale أي **جزائر العصر الوسيط** بقوله: «كان هناك انسجام كبير في المجتمع. فالإسلام لحِم مختلف العناصر واللغة العربيّة ظهرت كعامل أساسي في ذلك الانسجام»(ص 69). ويضيف: «العرب الرّحل نشروا اللغة العربيّة وسهلوا لسكان الأرياف من البربر الولوج إلى الثّقافة الإسلاميّة. والعربيّة حلت شيئا فشيئا مكان البربريّة في الأرياف، ولكن الحدث الأكثر أهميّة يظل انصهار العنصرين. وقد صبغ هذا الانصهار بطابعه الخاصيّة الأساسيّة للمجتمع الجزائري الحالي»(ص 88).

وهو نفس الاستنتاج الذي توصل إليه المؤرخ الفرنسي Charles-André Julien/ شارل أندري جوليان في كتابه **تاريخ أفريقيا الشّماليّة** بقوله: «إنه من العسير أن نميز ابتداء من العهد الحفصي بين الجهات البربريّة والجهات العربيّة لأن الحدود اللغويّة لم تعد متطابقة مع الحدود العرقيّة، نتيجة لتغلغل اللغة العربيّة تغلغلا عميقا حتى في المناطق التي يسكنها البربر، ولا نستثني من ذلك إلا بعض الجهات بفضل عزلتها النّسبيّة مثل القبائل وسكان الأوراس وجربة وجبال الجنوب التّونسي وطرابلس»(ج 2، ص 189).

عندما نتجاوز مرحلة العصر الوسيط وننتقل إلى العصر الحديث نجد أن المؤرخ ناصر الدّين سعيدوني يقول في كتاب **الجزائر في تاريخ، العهد العثماني**: «نلمس هذا التّبلور الاجتماعي في اختفاء لغة الفرانكا بين أغلبيّة سكان المدن وانحسار اللغة التّركيّة بين جماعة الأوجاق واقتصارها على المراسلات الخارجيّة والمكاتبات الشّخصيّة والحكام، في الوقت الذي كانت تتحول فيه جهات كثيرة من استعمال لهجاتها المحليّة إلى استعمال اللغة العربيّة، ولهذا يمكن القول حسب الأدلة المتوفرة الآن إن تعريب الجزء الأكبر من البوادي الجزائريّة إنما حدث لأسباب مختلفة في أواخر العهد الحفصي والزّياني وطيلة العهد العثماني»(ص 114). ويبرز ناصر الدّين سعيدوني الدّور الكبير الذي قامت به الجاليات الأندلسيّة النّازحة إلى الجزائر وبلدان المغرب في نشر اللغة العربيّة بالمناطق السّاحليّة التي استقرت بها. إذ يقول بهذا الصّدد: «لقد استطاع الأندلسيون منذ أواخر القرن 9 هـ/ 15م نشر اللسان العربي الدّارج في المناطق الجبليّة القريبة من شرشال والبليدة وتيبازة ويضيف: «إن تأثير العنصر الأندلسي في مجتمع المدن كان عميقا جدا ومس مختلف أوجه الحياة، وذلك لكونهم أكثر ثقافة وتطورا ونشاطا، فقد طوروا المهن والأشغال اليدويّة واستصلحوا الأراضي وأنشأوا السّواقي وجلبوا المياه وساعدوا على شيوع اللغة العربيّة في بعض الجهات التي ظلت تستعمل لهجاتها المحليّة كنواحي أرزيو وتنس وشرشال ودلس وبجايّة» (ص 98).

وهو نفس ما ذكره الباحث فوزي سعد الله في كتابه **الشّتات الاندلسي في الجزائر والعالم** حيث قال: «كما استطاع الأندلسيون منذ أواخر القرن التّاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي نشر اللسان العربي الدّارج في المناطق الجبليّة القريبة من شرشال والبليدة «(ج 2 ص 419).

ويؤكده كذلك المؤرخ الفرنسي شارل أندري جوليان بقوله: «احتفظت اللهجة العربيّة الدّارجة بمنزلة مرموقة، إذ لم يقتصر استعمالها على البلْديّين (أهل العاصمة) واللاجئين من إسبانيا(الأندلسيون) بل كانت أيضا اللغة الوحيدة التي تفهمها القبائل المجاورة» (ج2، ص 339).

تلك هي الظّروف التي ساعدت على انتشار اللغة العربيّة في الجزائر وسائر بلدان المغرب، بصورة تكاد تكون طوعيّة، فتجذّرت في الفضاء المغاربي. ويمكن تلخيصها كالتّالي:

أ التّوجه الطّوعي لتعلّم العربيّة بوصفها لغة القرآن لضرورات أملاها ارتباط الفهم الصّحيح للإسلام بمعرفتها. فقد واكب حركيّة انتشار الإسلام، استخدام العربيّة بوصفها اللغة الحاملة لقيم الدّين الجديد، وكانت المدن، التي ظهرت كحواضر ثقافيّة كبرى في العصر الإسلامي كالقيروان وتونس وطبنة (ضواحي بريكة) والمحمّديّة(المسيلة) وقلعة بني حماد والنّاصريّة(بجايّة) وحمزة (البويرة) وتلمسان وفاس، مراكز إشعاع ثقافي باللغة العربيّة.

ب اعتماد اللغة العربيّة منذ أواخر القرن الأول للهجرة الموافق لأواخر القرن VII (السّابع) للميلاد كلغة علم وعمل وناقل للثقافة والحضارة، ثم كعامل تواصل وتسيير لدى مختلف الحكومات التي تعاقبت على الكيان السّياسي الجزائري منذ طرد آخر الحاميات للوجود البيزنطي سنة 698م على يد الفاتح حسان بن النّعمان الغساني. وترسخ ذلك التّوجّه خلال عصر الممالك الأمازيغيّة الإسلاميّة التي ظهرت خلال العصر الوسيط، حسبما أملته حاجيات ذلك الزّمان في تسيير شؤون الحكم وإدارة المجتمعات. ويقول المؤرخ عبد الرّحمن الجيلالي بهذا الشّأن إن «جميع الأعمال الإداريّة في دولة الموحدين كان يجري تحريرها بالقلم العربي» (ج 2 ص 5).

ج استقرار العديد من القبائل العربيّة العدنانيّة المعروفة ببني هلال في الجزائر وعموم بلاد المغرب منذ بدايات الألفيّة الثّانيّة أي ابتداء من منتصف XI (الحادي عشر) الميلادي. وقد كان للاختلاط الطّوعي بين المجموعات المتساكنة عبر القرون أثر بارز في تشكل الجسم الرّئيسي للمجتمع الجزائري المعاصر.

د نزوح أعداد كبيرة من الأندلسيين الفارين من إسبانيا ولجوئهم إلى سواحل بلاد المغرب خاصة بعد سقوط غرناطة في 2 يناير 1492م وما تلاها من مرحلة الطّرد القسري لمن بقي من الأندلسيين والتي انطلقت منذ أوائل القرن XVII (السّابع عشر) أي سنة 1609م وما بعدها. فقد شكل توافد أعداد ضخمة من النّازحين عاملا حاسما في نشر اللغة العربيّة عبر السّواحل الجزائريّة والعديد من المدن الدّاخليّة التي يعود الفضل سواء في تأسيسها أو إعادة بعثها لأولئك الاندلسيين.

هـ اعتماد اللغة العربيّة كلغة رسميّة للدولة الجزائريّة، إلى جانب اللغة التّركيّة، وخاصة منذ بدايات القرن الثّامن عشر، ابتداء من سنة 1711م، على عهد الدّايات الذي يمتد من سنة 1671 إلى 1830م والذي شهد بروز الكيان السّياسي

الجزائـري كفاعل محـوري في حوض البحر المتوسط.

و- ارتبـاطُ نضـالِ الحركـة الوطنيّة مـن أجـل تحريـر الجزائر مـن الوجود الاستعماري الفرنسـي بالدّفاع عن اللغة العربيّة والمطالبة بإحلالها المكانة اللائقة بهـا فـي المجتمـع. واعتبـرت الحركة الوطنيّة بشقّيْها الاستقلالي والاصلاحي، أن إعادة الاعتبار للغة العربيّة في منظومة الحياة وفـي مقدمتهـا التّربيّـة والتّعليم يشكل جزءا لا يتجزأ من كفاحها من أجل حريّـة الجزائر واسـتقلالها. وخير معبر عن ذلك هو الشّـعار الثّلاثي الذي رفعته جمعيّة العلماء المسـلمين الجزائريين: «الإسـلام ديننا، العربيّة لغتنـا، الجزائر وطننا». ولا يختلف هذا الشّعار كثيرا عن الشّـعار الذي كان يرفعه حزب الشّـعب الجزائري فـي بعض المناسـبات وهو: «الجزائر وطننا، الإسـلام ديننـا، العربيّة لغتنا».

تلـك هـي الظّـروف التي أسـهمت في ترسـيخ اللغـة العربيّة فـي المجتمع الجزائـري عبر القرون وجعلـت الدّولة الجزائريّة المستقلة، بعد استرجاع السّيادة الوطنيّة، تكرسـها كلغة وطنيّة ورسميّة، وتولي لها العنايّة اللازمة التي تستحقها. وقـد ظهـر ذلـك واضحا فـي مختلف المواثيق والدّساتير والقوانين والمراسيم التي صـدرت بعد الاسـتقلال. وهذا ما سـنتعرض له في الفقـرات اللاحقة بعد أن نتكلم عن وضعيّة اللغة العربيّة خلال العهد العثماني عبر اسـتعراض نصوص بعض المعاهدات التـي أبرمتها الجزائر مع بعض الـدّول الغربيّـة، ونضيف إلى ذلـك الاتفاقيتين اللتيـن وقعهما الأمير عبد القادر مع القوات الفرنسـيّة الغازيّة، بوصف تلـك المعاهـدات والاتفاقيات مستندات قانونيّة.

أولا: اللغـة العربيّـة فـي المعاهدات والاتفاقيات الموقعة بيـن الجزائر ودول غربيّة منذ القرن XVII حتى النّصف الأول من القرن XIX

لعلـه مـن الأهميّـة التّأكيـد على أن تكريس اللغة العربيّة كلغة وطنيّة ورسميّة بعد الاسـتقلال لم يكن لحاجة في نفس حكام الجزائر خلال تلـك المرحلة من تاريـخ الجزائـر المعاصر، ولكن سـبق للعربيّـة أن كانت لغة رسـميّة، لغة علم وعمـل واتصال ومراسـلات واتفاقيات منـذ بدايات تبلـور الكيـان السّياسـي الجزائري الحديث في خضم الصّراعات التي شـهدها البحر الأبيض المتوسـط. ونورد أمثلة عن بعـض المعاهدات التي وقعتها الجزائر مع دول غربيّة منذ منتصف القرن XVII (السّابع عشر) باللغة العربيّة. وتعتبـر المعاهـدات والاتفاقيات، وهي نصـوص قانونيّة تنظم مسـائل مطروحة بين الأطراف الموقعة عليها سـواء على الصّعيد الدّولي أو على المستوى الثّنائي، ملزمة لمن وقعها باعتبارها تنشئ قواعد قانونيّة يتوجب تطبيقها. وهي بذلك تعد مـرآة للعصر الـذي كتبت فيـه بوصفها اتفاقـا خطيا بيـن بلدين أو أـكثر حول قضايـا سياسـيّة أو اقتصاديّـة أو غيرها. فـإذا كانـت المعاهـدات والاتفاقيـات الجماعيّة تكتـب بلغة يتم التّوافق حولها بيـن الموقعين فـإن الاتفاقيـات الثّنائيّة تصاغ بلغة الدّولتيـن المعنيتين بتوقيعها باعتبار اللغة هي رمز السّـيادة والاتفاقيّة تحترم سيادة البلد. ولذلك عادة ما تكتب المعاهـدات والاتفاقيـات الثّنائيّة باللغة الرّسـميّة للبلدين الموقعيْـن عليها. من هنا تأتي أهميّة الحديث عن موقع العربيّة في المعاهدات والاتفاقيات التي أبرمتها الجزائر مع بعض الـدّول الأوروبيّة منذ بـروز الكيـان السّياسـي الجزائري في العصر الحديث خلال القرن (X العاشر) الهجري، الموافق للقرن XVI (السّـادس عشر) الميلادي.

ونسـتعرض فيما يلي أربعة نصوص قانونيّة كتبت جميعهـا باللغة العربيّة إلى جانب لغة البلـد الموقعة معه المعاهدة. المعاهـدة الأولـى وقعـت سـنة 1679م بين الجزائر وفرنسـا والثّانيّة وقعت سنة 1813م بين الجزائـر والبرتغال، بالإضافة إلى الاتفاقيتين اللتين وقعهما الأمير عبد القادر مع القوات الفرنسيّة الغازيّة سنتيْ 1834 و1837.

1 – معاهدة 1679 بين الجزائر وفرنسا

كانـت أقـدم معاهـدة كتبـت باللغة العربيّـة بين الجزائر ودولـة أوروبيّة هي تلك التـي أـبرمتها الجزائر مع فرنسـا بتاريـخ 27 فبراير 1089هـ الموافق لـ 11 مارس 1679م أي فـي النّصف الثّاني من القرن السّـابع عشـر. وتعـرف بمعاهدة الباسـتيون. والباسـتيون هـو مجموعة من المسـاكن بناهـا الفرنسـيون لإيواء صيادي المرجـان في منطقـة القالة وما جاورها، ولذلـك يقع قرب مدينة القالة. وقـد اتخذوهـا مقرا لنشـاطهم البحري والتّجاري. وهناك جملة من المعاهدات التـي وقعـت بيـن الطّرفيـن الجزائري والفرنسي حول موضوع الباستيون هذا، ولتلك المعاهـدات ملاحـق تابعة لها. وهذه واحدة من تلك المعاهدات. النّص العربي لغته سليمة لا ركاكة فيها، وتتسم بصيغة قانونيّة واضحة ودقيقة فالأسلوب أو الصّياغـة هـي جزء مـن روح العصر ولذلـك يجب إبرازه كما يقول الأسـتاذ جمال قنان. وقد وقعت الجزائر وفرنسا، وكذا الجزائر وبعض البلـدان الأوروبيّة الكثير مـن المعاهدات قبل عـام 1830م تاريخ غزو فرنسا للجزائر واحتلالها.

تتضمن المعاهـدة الموقعة في 1679م بيـن الجزائر وفرنسـا ديباجـة و13 بندا، وتبدأ هكذا:

معاهدة أبرمناها نحن الأمجد الباشا، الدّيـوان وأوجـاق الجزائر مـع صديقنا المخلص السّيد دونيس ديسو الذي تقدم وطلب منا إعادة نشـاط التّجـارة وصيد المرجان في الباسـتيون، القالـة، الرّأس الحمراء بونة وشـتورة والقـل وجيجل وبجايّة والأماكن الملحقة بها، لقد وافقنا على هذا الطّلب نظرا للتقدير الذي نكنه لشخصه والقبول الذي حظي به طلبه عند امبراطور فرنسا حليفنا المخلص سيده.

وبعد استعراض بنود المعاهدة، تنتهي بهذه الصّيغة: حررت وأُشـهرت في دار السّـلطان والدّيـوان مجتمعـا بمحضر الأمجد إسماعيل باشـا، والحاج محمّد داي وآغا المليشـيا والمفتـي والقاضي والفقهاء ورجال القضاء والحرب في 11 مـارس 1679 الموافـق للتاريخ الهجري 27 من هـلال شـهر فبراير (كـذا) 1089، فالصّدق عندنـا هو الصّدق والكلمة هي الكلمة. توقيع وختم الباشا.

ويبـدو واضحا مما تقـدم أن حكومة الجزائر هـي التي وقعـت المعاهدة مع الشّـريك الفرنسـي دون المرور بالباب العالي أو الحكومـة العثمانيّة، مما يعني أن الجزائـر في تلك الفتـرة كانت تتولى زمام أمورها وتتمتع باسـتقلاليّة قرارها، ومن هنا كان النّص بالعربيّة مع أن الكثير مـن المعاهـدات أبرمت باللغـة التّركيّة والبعض الآخر تم إبرامـه باللغة العربيّة والتـي أصبحت لغة رسـميّة فـي العهد العثمانـي ابتداء مـن سـنة 1711م، لكن لم يصلنا من تلك المعاهـدات المدونة بالعربيّة إلا هذه.

ووفقا لمـا ذكره الأسـتاذ جمال قنان فإن الجزائر خـلال العصر الحديث كان يطلق عليها في المعاهدات والمراسلات الدّيبلوماسيّة اسم مدينة ومملكة الجزائر، أو مملكـة الجزائر. ولـم يظهر مصطلح الإيالـة أو إيالـة الجزائـر إلا مـع أواخر النّصف الثّاني من القرن الثّامن عشر، في حدود سنة 1790 وما بعدها، أي مع أواخر القرن XVIII (الثّامن عشر) وبدايات القرن XIX (التّاسع عشر) الميلاديْن.

2– معاهدة 1813 بين الجزائر والبرتغال

أما المعاهدة الثّانيّة التي ستكون محل دراسـة فهي تلك الموقعة بيـن الجزائر والبرتغال في شهر يونيو/ جوان 1813م، وتقول في ديباجتها:

بسم الله الرّحمن الرّحيم

انعقـدت المهادنة الكاملـة والصّلح التّام بين الأسـعد الأكرم السّـيد الحاج علـي باشـا الجزائـر وباقـي الأقاليـم المتصلة إليها وكبراء دولته وأهل ديوانه وبيـن ذي غايّـة القـدر والجـلال دون جوان أمير البرطقال والغربيْن والبرازيل والغنـاوة والهنـد وغيرها بواسـطة من فوض لـه وناب عنـه في عقـد الصّلح المذكـور وأقامـه مقامه وهـو جوزف جواكيم دروزة كويلو، رئيس السّـفينة، ورفيقـه الرّهبان الباباص يوسـف مورة ترجمـان وكاتـب مكاتبـة السّـلطان وباشتور الإنكليز المسمى ويليام أكورط المرسول بأمر سـلطانه ليكون الوسيط والضّامن عنه في هذا الصّلح حتى يكون ثابتا ضابطا بين الجانبين وهو المرسـوم نصـه. وتسـتعرض المعاهـدة بعد هذه الدّيباجة ستة عشر شـرطا تشكل جسم المعاهـدة. وتنتهي بخاتمـة وتوقيعات الأطراف المعنيّة.

كتب نـص المعاهدة بعربيّة سـليمة، واضحـة المعانـي، خاليّـة مـن التّكرار والرّكاكـة، وباسـتثناء ورود بعـض الكلمات الأجنبيّـة التي كتبت كما تنطق باللسـان العامي، فإن النّـص لا يختلف تمامـا عن النّصـوص المعاصـرة. ومن الكلمـات الأجنبيّة ذات النّطـق العامي نذكـر: «البرطقـال» أي دولـة االبرتغال و«جنس البرطقيز» أي شـعب البرتغال، و«البابـاص» وهو رجل دين مسـيحي، وباشـطور أو باشـدور الانكليـز وتعني القس أو راعي الكنيسـة، و«الباصبرط» وهي تحريـف عامي لكلمة باسـبورت الإنكليزيّة أي جواز السّفر، و« الجنوس» أي الأمـم أو الشّـعوب والمقصـود بها الرّعايا، و«السّـنجق» وهـي كلمة تركيّة تعني الرّايّة أو العلم، و«الكمرك» وتعني الجمرك و«القونصـوا «وتعني القنصل، وغيـر ذلك. لكـن عموم النّـص عربيته واضحة المعنى صحيحـة المبنى تؤدي الغـرض المقصـود منها وهـي معاهدة صلـح بيـن الجزائـر والبرتغـال تنص على أن تعامـل مراكب وسـفن البلدين ورعاياهمـا معاملـة حسـنة فـي موانئ كل طرف، ويسـمح للرعايـا البرتغاليين في ممارسـة أي معامـلات تجاريّة بكل حريّة داخـل الجزائر على أن تكون نفس المعاملة للرعايا الجزائريين في البرتغال، وكذا حمايّة مراكب كل منهما عندما يلجأ للطرف الآخر وغيرها. وتختتم المعاهدة بالشّرط السّـادس عشر والأخير، والذي نصه:

«وأمـا ليثبت ويدوم أبـدا هذا الصّلح بين الجانبين ورعيّة الدّولتين فإن سلطان البرطقيـز لحفظه وباشـدور السّـلطان المذكـور يسـجل أيضـا هذه الشّـروط ويمضيها. ومنها تدفع نسختان للرسولين المذكورين، واحدة لسلطانهما والأخرى للقونصوا الذي يقعـد في الجزائر وصار الاتفاق بحضوره. الجزائر في أربعة عشر

من شهر يونيّة، عام ألف وثمانيّة مايّة وثلاثة عشر الذي يوافق لخمسة عشر من شهر جمادي الثّاني عام ألف ومايتين وثمانيّة وعشرين من الهجرة».

3 – الاتفاقيات الموقعة بين الأمير عبد القادر وفرنسا

بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830م وظهور المقاومة الشّعبيّة التي قادها الأمير عبد القادر ابتداء من سنة 1832م كانت كل المراسلات التي وجهها الأمير، سواء للشعب لتحفيزه على الجهاد أو للقوات الفرنسيّة الغازيّة، باللغة العربيّة وحدها. كما أن الاتفاقيتين اللتين أمضاهما الأمير مع الإدارة الاستعماريّة الفرنسيّة وهما اتفاقيّة دي ميشال الموقعة في شهر فبراير من سنة 1834 واتفاقيّة التّافنة الموقعة في شهر مايو من سنة 1837 كان النّص الأصلي بالعربيّة إلى جانب الفرنسيّة وإن طغى عليهما الأسلوب العامي خاصة في معاهدة التّافنة.

فمعاهدة دي ميشال، وهي أول معاهدة وقعها الأمير في 20 فبراير 1834 مع القوات الاستعماريّة الفرنسيّة كتبت باللغة العربيّة إلى جانب اللغة الفرنسيّة. وتبدأ هكذا:

الجنيرال حاكم جيوش الفرنصيص في بلاد وهران، وأمير المؤمنين السّيد الحاج عبد القادر بن محي الدّين رضِيوا في الشّروط الآتيّة أدناه:

شرط أول. من اليوم وصاعدا يبطل الطّراد بين الفرنصيص والعرب. الجنيرال حاكم جيوش الفرنصيص وأمير المؤمنين عبد القادر كل واحد من ناحيته يعمل جهده لكي تحصل المودة والعهد الذي يلزم أن تكون بين شعبين اللذين مقدر عليهم من عند الله أن يعيشوا تحت حكم واحد. ولأجل هذا أمير المؤمنين لازم يرسل من عنده ثلاثة قناصل واحد لوهران، واحد لأرزيو، وواحد لمستغانم. والجنرال كذلك يرسل من عنده قناصل لمعسكر بيش ما يكون النّزاع بين الفرنصيص والعرب.

واضح من النّص أنه يتضمن بعض الكلمات باللسان العامي ربما ليسهل فهمه وبالتّالي تطبيقه ك «الفرنصيص» و«الطّراد» أي القتال ومطاردة كل منهما للآخر، «لازم» أي لابد، و«عوايد» أي عادات و«محامي عنهم» أي مدافع عنهم أو محل حمايّة من طرفهم، و« مرابيط» تعني مساجين، «السّوق مسرح» أي التّجارة حرة، و«بيش» وتعني كيْ لا يكون، وهي اختصار لعبارة بأي شيء.

وكتب بجانب الختم في النّص العربي: «بأمر المعظم الأرفع مولانا أمير المؤمنين السّيد الحاج عبد القادر نصره الله، ءامين، ءامين» (ءامين ضبطت حسب روايّة ورش المعتمدة في الجزائر).

ولا يختلف الأمر كثيرا بالنّسبة لمعاهدة التّافنة الموقعة في 30 مايو 1837م، فقد كتبت بنص عربي إلى جانب النّص الفرنسي ولكن تغلب عليه صيغة العربيّة العاميّة، وكما يبدو فإن الميل إلى الصّيغة العاميّة قد يكون استجابة لرغبة الجانب الفرنسي. ونكتفي بعرض ديباجتها وبعض البنود فيها كنموذج للأسلوب الذي كتبت به في ذلك العصر. ونوردها كاملة ضمن الملاحق:

اليتنان جنيرال بيجو حاكم جيوش الفرنصيص في وطن بلاد وهران والأمير عبد القادر اتفقوا بينهم على الشّروط الآتيّة بعده. وتتضمن الاتفاقيّة 15 شرطا، ونورد فيما يلي البعض من تلك الشّروط.

شرط ثالثّ. الأمير يحكم في وطن بلاد وهران والمديّة ونصيب من عمالة الجزائر التي ما دخلت في حدودنا وغربا الحدود المذكورة في الشّرط الثّاني وما يقدر يحكم غير في الحدود المذكورة أعلاه.

شرط خامس. العرب السّكان في بلاد الفرنصيص يتبعوا دينهم بكل حريّة ويقدروا يبنوا جوامع ويسلكوا بموجب شريعة دينهم على يد قاضيهم كبير الإسلام.

شرط سابع. الأمير يشتري من فرانسا البارود والكبريت والسّلاح الذي يستحق.

شرط خامس عشر. فرنسا تقدر تضع عند الأمير وكيلا وكذلك في البلد الذي في حكمه لأن يكونوا واسطة بين رعيّة الفرنصيص لأجل النّزاع متاع التّجارة أو غير ذلك الذي يمكن أن يكون مع العرب والأمير يقدر يضع كذلك في البلاد ومراسي الفرنصيص.

كتب برشقون في 24 صفر عم 1235هـ.

ثانيا: اللغة العربيّة في المواثيق والقوانين والمراسيم الوطنيّة

قبل أن نستعرض مكانة اللغة العربيّة في الدّساتير والقوانين والمراسيم الوطنيّة خلال مرحلة ما بعد الاستقلال، لا بد من التّذكير بموقع هذه اللغة في العهد الاستعماري وفي برامج الحركة الوطنيّة وكذا في المواثيق الوطنيّة منذ الثّورة وحتى فترة الثّمانينات. لأنه بدون فهم تلك العلاقة التي نشأت بين الدّفاع عن الوطن من جهة والدّفاع عن الدّين والعربيّة من جهة أخرى، يصعب فهم التّوافق العام الذي نشأ لدى القادة الجزائريين والقاضي بتكريس العربيّة كلغة وطنيّة ورسميّة للدولة الجزائريّة بعد الاستقلال، والعمل على تعميمها والنّظر إلى تلك المهمة كقضيّة أساسيّة في الجزائر المستقلة.

1 – وضعيّة اللغة العربيّة في العهد الاستعماري الفرنسي

لا يمكن فهم خطورة الصّراع الذي كان قائما في عهد الاستعمار الفرنسي ضد الإسلام والعربيّة، بوصفها اللغة الحاملة لقيمه، إلا إذا تأكدنا من خطورة مسعى فرنسا الاستعماريّة لإعادة الجزائر وعموم بلدان المغرب إلى الانضواء تحت هيمنة الحضارة الغربيّة ذات الجذور اليهوديّة – المسيحيّة. وكل ذلك لا يفهم إلا إذا عدنا بالذاكرة إلى تلك الأيام التي سبقت الحملة الاستعماريّة الفرنسيّة لغزو الجزائر. فهذا شارل العاشر ملك فرنسا الذي جرت عمليّة الغزو في عهده، أفصح عن النّوايا الحقيقيّة من غزو الجزائر بقوله في خطاب شهير له أمام الجمعيّة الوطنيّة الفرنسيّة ألقاه في 2 مارس سنة 1830، أي قبل الغزو بأربعة أشهر: «إن التّعويض الهائل الذي أريد الحصول عليه وأنا أثأر لشرف فرنسا (يقصد ضربة المروحة) هو أن يتحول بمعونة الله لصالح المسيحيّة». ونفس التّوجه نجده عند وزير الحربيّة الفرنسي وقتئذ والذي تشير وقائع تلك الفترة إلى أنه قال في التّقرير الذي رفعه إلى مجلس الوزراء في 14 أكتوبر 1827: «بأنه من الممكن ولو بمُضيّ الوقت أن يكون لنا الشّرف في أن نمدنهم (يقصد الجزائريين) وذلك بجعلهم مسيحيين».

لقد رأينا فيما بعد، الجهود التي قام بها المبشرون المسيحيون كالكاردينال Charles Martial Lavigerie/ شارل لا فيجري خلال النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر ومنظمة الآباء البيض التي أسسها، والأب Charles de Foucauld/ شارل دي فوكو وغيرهم. وكما حاولت فرنسا بعث حركة تنصير منظمة في الجزائر، سعت لتقييد استعمال اللغة العربيّة وتحييدها من المنظومة التّعليميّة لتسود لغتها وبالتّالي ثقافتها والقيم الغربيّة المرتبطة بها. وسنّت العديد من القوانين وأصدرت المراسيم ووجهت التّعليمات في سبيل الوصول إلى غاياتها، وكلما تصاعد كفاح الجزائريين ضد هيمنتها، ضاعفت فرنسا من عدائها للدين الإسلامي واللغة العربيّة.

ضمن هذه الأجواء المعاديّة للغة العربيّة، أصدرت الإدارة الاستعماريّة الفرنسيّة مع بدايات القرن العشرين مرسوما يمنع فتح مدارس لتعليم القرآن واللغة العربيّة إلا بترخيص مسبق من الإدارة الفرنسيّة، وهو المعروف بمرسوم 24 ديسمبر 1904/ Décret du 24 décembre 1904. شكل ذلك المرسوم البدايّة الفعليّة لمحاربة اللغة العربيّة بصفة رسميّة تحت غطاء توحيد المنظومة التّعليميّة والتي كانت باللغة الفرنسيّة وحدها، بالرّغم من فتح مدارس مزدوجة اللغة فرنسيّة/ عربيّة لأن الهدف من تلك المدارس لم يكن تعليم العربيّة ولكن لتكوين نخبة جزائريّة توظفها الإدارة الاستعماريّة في التّعامل مع «الأهالي» في مجالات الإفتاء والقضاء والإمامة وغيرها مما تراه فرنسا يخدم أغراضها.

ولعل أخطر قانون أصدرته فرنسا لمحاربة اللغة العربيّة هو القانون المعروف باسم قانون شوتون Loi de Chautemps، وهو رئيس الوزراء الفرنسي خلال الفترة من 29 يونيو/ جوان 1937 إلى 13 مارس 1938. وقد عرف عنه ارتباطه بالحركة الماسونيّة. صدر هذا المرسوم في 8 مارس 1938م ونشر في الجريدة الرّسميّة الصّادرة بتاريخ 15 مارس 1938. ويقضي بحظر تعليم العربيّة واستعمالها إلا بتصريح مسبق. إذ يشترط من أجل فتح مدرسة خاصة لتعليم العربيّة بالحصول على إذن رسمي من السّلطات الاستعماريّة. وهو بالتّالي يعتبرها لغة أجنبيّة في الجزائر. وقد جاء قانون شوتون ردا استعماريا على محاولات جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين تعميم المدارس الحرة التي تدرس فيها العربيّة ومبادئ العلوم الشّرعيّة. كان ظاهر «مرسوم شوتون» القيام بتفتيش ومراقبة المدارس الحرة التي أسستها جمعيّة العلماء وإخضاعها للقوانين، لكن في جوهره كان يهدف لمراقبة نشطاء الحركة الوطنيّة ومحاربة اللغة العربيّة ومنع تعميم تدريسها. وهو ما أثار ردود فعل قويّة مناهضة له من طرف القوى الوطنيّة الجزائريّة في تلك المرحلة الفاصلة من مسيرة كفاح الجزائريين في سبيل انعتاقهم وتحرير بلدهم.

2 – اللغة العربيّة في برامج الحركة الوطنيّة

سعى الاستعمار الفرنسي لإقصاء العربيّة من التّعليم عبر سن القوانين، وعمل على تهميشها في الحياة العامة للجزائريين لإدراكه حجم قوتها في المجتمع. وكان الهدف الأساسي هو التّمكين للغة الفرنسيّة، وقد أدى ذلك الاقصاء الممنهج والتّهميش المبرمج للعربيّة إلى دفاع الجزائريين عنها بقدر دفاعهم عن دينهم ووطنهم. ومنذئذ ارتبط الدّفاع عن الدّين وعن حريّة الوطن واستقلاله بالدّفاع عن العربيّة. فالشّيخ عبد الحميد بن باديس رائد الحركة الإصلاحيّة ورئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين، لم يكن مجرد مصلح ديني ولكنه كان رائدا من رواد الدّفاع عن اللغة العربيّة. ففي مقال له تحت عنوان «الشّعب الجزائري لن يموت» قال: «إنه لا رابطة تربط ماضينا المجيد بحاضرنا الأغر

والمستقبل السّعيد إلا هذا الحبل المتين، اللغة العربيّة، لغة الدّين، لغة الجنس، لغة القوميّة، لغة الوطنيّة». وقد جعلت جمعيّة العلماء المسلمين اللغة العربيّة في صلب شعارها المعروف «الإسلام ديننا، العربيّة لغتنا، الجزائر وطننا». وهو لا يختلف كثيرا عن الشّعار الذي كان يرفعه حزب الشّعب الجزائري في بعض المناسبات وهو «الجزائر وطننا، الإسلام ديننا، العربيّة لغتنا». وتقول حركة الانتصار من أجل الحريات والدّيمقراطيّة، وهي غطاء سياسي لحزب الشّعب، في مؤتمرها الوطني الثّاني المنعقد من 4 إلى 5 أبريل 1953: «الثّقافة الوطنيّة إن الهدف الأساسي الرّابع هو محاربة الأميّة وبوجه أخص نشر اللغة الوطنيّة أي اللغة العربيّة وتعميمها. وإنه بقدر ما يرتفع المستوى الثّقافي عند الشّعب والمناضلين نتغلب على الصّعاب التي تعترضنا». أما حزب الاتحاد الدّيمقراطي للبيان الجزائري فطالب في مؤتمره الأول المنعقد بسطيف من 25 إلى 27 سبتمبر 1948 تحت باب «واجباتنا المستعجلة» في النّقطة 5 بـ«رسميّة اللسان العربي وتدريسه الاجباري».

3 – اللغة العربيّة في المواثيق الوطنيّة

نقصد بالمواثيق، مواثيق الثّورة كبيان أول نوفمبر وأرضيّة الصّومام وبرنامج طرابلس وكذلك المواثيق اللاحقة التي صدرت في جزائر ما بعد الاستقلال كميثاق الجزائر لسنة 1964 والميثاق الوطني لسنة 1976 وتعديله الذي جرى سنة 1986.

أ – بيان أول نوفمبر 1954

يعتبر نداء أول نوفمبر 1954 الوثيقة المرجعيّة المؤسّسة للجزائر المستقلة، باعتباره البيان الذي أعلن عن الثّورة تحت رايّة جبهة التّحرير الوطني التي قادت الكفاح المسلح ضد الوجود الاستعماري الفرنسي من أجل حريّة الجزائر واستقلالها واسترجاع سيادتها. وقد نص البيان على دعوة فرنسا، القوة الاستعماريّة، إلى الاعتراف بالجنسيّة الجزائريّة وإلغاء كل القرارات والقوانين التي تجعل من الجزائر أرضا فرنسيّة رغم التّاريخ والجغرافيا واللغة والدّين والعادات للشعب الجزائري. وحدد البيان هدف الثّورة المسلحة في تحقيق الاستقلال الوطني بـ «إقامة الدّولة الجزائريّة الدّيمقراطيّة الاجتماعيّة ذات السّيادة ضمن إطار المبادئ الإسلاميّة». و«تحقيق وحدة شمال أفريقيا ضمن إطارها الطّبيعي العربي الإسلامي».

ب – برنامج طرابلس 1962

بعد التّوقيع على اتفاقيات إيفيان يوم 18 مارس 1962 وإعلان وقف إطلاق النّار في 19 مارس 1962، انعقد المجلس الوطني للثورة الجزائريّة وذلك في جلسة عامة بطرابلس في ليبيا ابتداء من يوم 27 يونيو/ جوان 1962. كان الاجتماع هو السّادس والأخير من بين اجتماعات المجلس بوصفه برلمان الثّورة وأعلى هيئة قياديّة فيها. وجرى بمشاركة الزّعماء الخمسة الذين كانوا معتقلين بفرنسا، وذلك قبل تنظيم استفتاء تقرير المصير في أول يوليو/ جويليّة 1962 والذي أدى إلى إعلان استقلال الجزائر في 5 يوليو/ جويليّة 1962. وعلى الرّغم من ظهور خلافات بين المشاركين الذين انقسموا إلى كتلتيْن إلا أنه تمت المصادقة على مشروع برنامج كان قد أُعد قبل ذلك بمدينة الحمامات في تونس خلال سلسلة من الاجتماعات. وعرف المشروع لاحقا ببرنامج طرابلس أو ميثاق طرابلس. وتضمن البرنامج فقرة عن اللغة العربيّة، نص فيها على «تمكين اللغة العربيّة في ظل الاستقلال من استعادة مكانتها كلغة ثقافة وحضارة وعمل»، وهو ما عكسته لاحقا كل الدّساتير الجزائريّة. كان التّنصيص على ذلك في برنامج طرابلس يهدف أساسا لكسر هيمنة اللغة والثّقافة الفرنسيتين استجابة للمطالب التي رفعتها الحركة الوطنيّة بشقيها الاستقلالي والاصلاحي.

ج – ميثاق الجزائر 1964

يعتبر ميثاق الجزائر الصّادر سنة 1964 الوثيقة الختاميّة للمؤتمر الأول لجبهة التّحرير الوطني الذي انعقد في الفترة ما بين 16 و21 أبريل 1964. وقد احتوى على التّوجّهات الكبرى للدولة الجزائريّة في مرحلة ما بعد الاستقلال. ونص في البند المتعلق بـ«خصائص المجتمع الجزائري على «أن الجزائر بلد عربي إسلامي غير أن هذا التّعريف ينبذ كل مرجعيّة ذات مقاييس عرقيّة ويعارض كل انتقاص من المساهمة السّابقة لدخول العرب». وجاء في الفقرة 26 الموقف من اللغة العربيّة بالنّص على أن: «الثّقافة الجزائريّة تكون وطنيّة، ثوريّة وعلميّة. وإن دورها كثقافة وطنيّة تتطلب في المقام الأول أن يعاد للغة العربيّة، المعبرة عن القيم الثّقافيّة لبلدنا، كرامتها وفعاليتها كلغة حضارة».

د – الميثاق الوطني 1976

صدر الميثاق الوطني الصّادر سنة 1976، بمناسبة الذكرى الرّابعة عشر لعيد الاستقلال. وهو

كوثيقة مرجعيّة للدولة الجزائريّة يتميز بخاصيّة السّمو على الدّستور وباقي القوانين، فالأمر رقم 76–57 المؤرخ في 7 رجب عام 1396هـ الموافق لـ 5 يوليو/ جويليّة 1976م يعتبر الميثاق في

المادة الأولى المصدر الأسمى لسياسة الأمة وقوانين الدّولة. ودخل حيز النّفاذ بعد صدوره في الجريدة الرّسميّة بتاريخ 30 يوليو/ جويليّة 1976، وذلك بعد تنظيم مناقشات شعبيّة عامة حوله انتهت بالاستفتاء عليه يوم 27 يونيو/ جوان 1976. بخصوص اللغة العربيّة، أكد الميثاق الوطني في باب المحاور الكبرى لبناء الاشتراكيّة على «أن اللغة العربيّة عنصر أساسي للهويّة الثّقافيّة للشعب الجزائري. ولا يمكن فصل شخصيتنا عن اللغة الوطنيّة التي تعبر عنها. ولهذا فإن تعميم استعمال اللغة العربيّة وإتقانها، كوسيلة عمليّة خلاقة، يشكلان إحدى المهام الأساسيّة للمجتمع الجزائري في مجال التّعبير عن كل مظاهر الثّقافة. وإن الجزائر باستعادتها توازنها من خلال التّعبير عن ذاتها الوطنيّة، بالأداة المشروعة الأصيلة والمحكمة التّجهيز، ستساهم في إثراء الحضارة الإنسانيّة بصورة أفضل. إن الخيار بين اللغة الوطنيّة ولغة أجنبيّة أمر غير وارد البتة. ولا رجعة في ذلك. ولا يمكن أن يجري أي نقاش حول التّعريب بعد الآن إلا فيما يتعلق بالمحتوى، والوسائل، والمناهج، والمراحل». ويضيف الميثاق الوطني «إن هذه الاستعادة التّامة للغة الوطنيّة، وتكييفها الضّروري مع كل حاجيات المجتمع لا يمنعان من التّشجيع الأكيد على اكتساب اللغات الأجنبيّة». وحسب منطوق الميثاق الوطني، فإن اللغة العربيّة لم تعد فقط اللغة الوطنيّة والرّسميّة للبلاد ولكنها اللغة التي يجب على الأمة تطويرها، وعليه فإن عمليّة تعميم استعمال اللغة العربيّة لم تعد محل جدال.

تم إثراء الميثاق الوطني سنة 1986، بعد أن طرح أمام مؤتمر استثنائي لجبهة التّحرير الوطني وصدرت النّسخة المعدلة في 16 يناير 1986م. ويبدو أنه تم تجميد العمل بالميثاق الوطني بعد أحداث 5 أكتوبر 1988م، خاصة بعد إصدار دستور جديد في نوفمبر 1989 الذي فتح الباب أمام تعدديّة سياسيّة وحريّة اقتصاديّة وتحولات ثقافيّة.

اللغة العربيّة في الدّساتير والقوانين والمراسيم الجزائريّة

أ – الدّساتير

الدّستور هو أسمى القوانين، وهو في جوهره عقد اجتماعي يتم التّوافق بشأنه بين المجموعات المتساكنة بتعدد روافدها واختلاف مشاربها، ليحدد القواعد التي يسير عليها المجتمع بوصفه القانون الحافظ لقواعد البنيان الاجتماعي ولوحدة الشّعب والبلد. ولذلك نفرد هذا الجزء من المقال لتوضيح مكانة اللغة العربيّة في الدّساتير الجزائريّة وفي القوانين والمراسيم أو الأوامر التي صدرت بشأنها منذ الاستقلال وحتى سنة 2020. فقد نصت كل الدّساتير الجزائريّة منذ دستور 1963 إلى غايّة التّعديلات الدّستوريّة المعروضة على الاستفتاء الشّعبي بتاريخ 12 نوفمبر 2020، على أن اللغة العربيّة هي اللغة الوطنيّة والرّسميّة. وتم التّنصيص منذ التّعديل الذي جرى سنة 2016 على أن العربيّة تظل اللغة الرّسميّة للدولة الجزائريّة وهو أمر استوجبته، بالتّأكيد، علاقات الجزائر مع الدّول والمنظمات الإقليميّة والدّوليّة، كإبرام الاتفاقيات والمعاهدات مع البلدان الأخرى.

1 – دستور 1963

كان أول دستور للجزائر المستقلة يصدر سنة 1963 بعد اعتماده من طرف المجلس الوطني التّأسيسي. صدر في عهد الرّئيس أحمد بن بلة. نص هذا الدّستور في ديباجته على أن «الإسلام والعربيّة مَثّلَا قوة فعالة في الصّمود أمام محاولة النّظام الاستعماري تجريد الجزائريين من شخصيتهم». وقال إنه «يتعين على الجزائر التّأكيد على أن اللغة العربيّة هي اللغة الوطنيّة والرّسميّة لها». ونص في الأحكام الانتقاليّة في المادة 76 على أنه يجب تحقيق التّعريب بصورة فعليّة في أقرب الآجال الممكنة عبر كامل أراضي الجمهوريّة. بيد أنه استثناء لأحكام هذا القانون، يجوز استعمال اللغة الفرنسيّة مؤقتا إلى جانب العربيّة». كما نص في المادة 5 على أن اللغة العربيّة هي اللغة الوطنيّة والرّسميّة للدولة الجزائريّة.

2 – دستور 1976

صدر في عهد الرّئيس هواري بومدين، بموجب الأمر الرّئاسي رقم 97 – 76 المؤرخ في 22 نوفمبر 1976، بعد استفتاء شعبي، وذلك بعد إصدار الميثاق الوطني في شهر يونيو/ جوان 1976 ونص في المادة 3 منه على أن «اللغة العربيّة هي اللغة الوطنيّة والرّسميّة. تعمل الدّولة على تعميم استعمال اللغة الوطنيّة في المجال الرّسمي».

3 – دستور 1989

صدر في عهد الرّئيس الشّاذلي بن جديد عقِب أحداث 5 أكتوبر 1988، وذلك بموجب مرسوم رئاسي رقم 89–18 مؤرخ في 28 فبراير 1989م بعد استفتاء شعبي نظم في 23 فبراير 1989 المستجد في دستور 1989 هو النّص في الدّيباجة على أن «الجزائر أرض الإسلام، وجزء لا يتجزأ من المغرب العربي الكبير،

وأرض عربيّة، وبلاد متوسطيّة وأفريقيّة». ونص في مادته 3 على أن اللغة العربيّة هي اللغة الوطنيّة والرّسميّة.

4 – دستور 1996 والتّعديلات اللاحقة له

صدر في عهد الرّئيس ليمين زروال بموجب مرسوم رئاسي رقم 96 – 438 مؤرخ في 7 ديسمبر 1996، بعد طرح تعديل دستوري صادق عليه الشّعب في استفتاء نظم في 28 نوفمبر 1996م. حافظ هذا الدّستور على المادة 3 كما وردت في الدّساتير السّابقة له. المستجد في دستور 1996 هو تحديد المكونات الأساسيّة للهويّة الوطنيّة وهي **الإسلام والعروبة والامازيغيّة**.

تم إدخال تعديلات متتاليّة على هذا الدّستور، في عهد الرّئيس عبد العزيز بوتفليقة، عبر البرلمان دون المرور باستفتاء شعبي، وذلك بموجب أحكام المادة 174 الواردة فيه. تم التّعديل الأول في 10 أبريل 2002 وصدر بموجب قانون رقم 02 – 03، والتّعديل الثّاني في 15 نوفمبر 2008 بموجب قانون رقم 08 – 19. وجرى التّعديل الثّالث بموجب مرسوم رئاسي رقم 16 – 01 بتاريخ 26 جمادى الأولى 1437 هـ الموافق لـ 6 مارس 2016م. وقد حافظت التّعديلات الثّلاثة على مضمون المادة 3 التي تنص على أن اللغة العربيّة هي اللغة الوطنيّة والرّسميّة.

المستجد في التّعديل الذي جرى سنة 2008 هو استحداث المادة 178 التي نصت في الفقرة 4 على أنه لا يمكن لأي تعديل دستوري أن يمس بالعربيّة باعتبارها اللغة الوطنيّة والرّسميّة. وحافظت التّعديلات اللاحقة على هذا النّص. كما أنه تم في التّعديل الثّالث الذي جرى سنة 2016 النّص على أن العربيّة تظل اللغة الرّسميّة للدولة، كما تم دسترة المجلس الأعلى للغة العربيّة بوصفه هيئة استشاريّة تابعة لرئيس الجمهوريّة.

5 – دستور 2020

صدر، في عهد الرّئيس عبد المجيد تبون، بمرسوم موقع بتاريخ 30 ديسمبر 2020، ونشر في الجريدة الرّسميّة بتاريخ 03/ 01/ 2021، وذلك بعد استفتاء شعبي جرى في 1 نوفمبر 2020. بالنّسبة لمكانة اللغة العربيّة، حافظ دستور سنة 2020 على ما ورد في التّعديلات التي تم إدخالها على الدّستور الصّادر سنة 1996م. كما حافظ على الفقرة الواردة في المادة 3 والمتعلقة بإحداث المجلس الأعلى للغة العربيّة كهيئة استشاريّة توضع تحت إشراف رئيس الجمهوريّة. ويكلف المجلس الأعلى للغة العربيّة على الخصوص بـ «العمل على ازدهار اللغة العربيّة وتعميم استعمالها في الميادين العلميّة والتّكنولوجيّة والتّشجيع على التّرجمة إليها لهذه الغايّة».

ب – القوانين والمراسيم

بالتّوازي مع ما تضمنه الدّستور الجزائري حول تكريس اللغة العربيّة بوصفها اللغة الوطنيّة والرّسميّة، صدرت مجموعة من القوانين والأوامر تتعلق بالعربيّة أبرزها القانون رقم 86 – 10 المؤرخ في 13 ذي الحجة 1406هـ الموافق لـ 19 أوت 1986م والمتعلق بتأسيس المجمع الجزائري للغة العربيّة، والقانون رقم 91 – 05 المؤرخ في 30 جمادي الثّانيّة 1411 الموافق لـ 16 يناير 1991م والمتضمن تعميم استعمال اللغة العربيّة.

أما الأوامر وهي كالمراسيم، قوانين ساميّة تصدر عن رئيس الجمهوريّة أو رئيس الدّولة طبقا لإجراءات معينة يضبطها الدّستور. ولذلك يكتسب الأمر كالمرسوم قوة القانون. ومن هنا تأتي أهميّة الأوامر التي صدرت مع أواخر السّتينات وبدايّة السّبعينات من القرن العشرين في عهد الرّئيس هواري بومدين، حول اللغة العربيّة. وأبرز مثال عنها، الأمر رقم 68–92 المؤرخ في 28 محرم 1388هـ الموافق لـ 26 أبريل 1968م المتضمن إجباريّة معرفة اللغة الوطنيّة على الموظفين ومن يماثلهم، وكذا الأمر رقم 70 – 20 المؤرخ في 13 ذي الحجة 1389هـ الموافق لـ 19 فبراير 1970م المتضمن وجوب استعمال اللغة العربيّة في تحرير جميع وثائق الحالة المدنيّة، والأمر رقم 73 – 55 المؤرخ في 4 رمضان 1393هـ الموافق لأول أكتوبر 1973م والمتضمن تعريب الأختام الوطنيّة. وفي التّسعينات صدر الأمر رقم 96 – 30 مؤرخ في 21 ديسمبر 1996 تضمن إنشاء المجلس الأعلى للغة العربيّة، كهيئة استشاريّة لدى رئيس الجمهوريّة. ونبدأ باستعراض القوانين حسب التّدرج التّاريخي لصدورها.

1 – قانون تأسيس المجمع الجزائري للغة العربيّة

تم تأسيس المجمع الجزائري للغة العربيّة بموجب القانون رقم 86 –10 المؤرخ في 13 ذي الحجة 1406هـ الموافق لـ 19 أوت 1986، في عهد الرّئيس الشّاذلي بن جديد. يتكون القانون من 28 مادة تبدأ بالأحكام العامة ثم الأهداف والوسائل يليها التّنظيم والتّسيير والتّمويل وينتهي بأحكام انتقاليّة. وتتمثل أهدافه في تنميّة وترقيّة اللغة العربيّة وعلومها (المادة 2). وهو، حسب القانون المنشئ له، هيئة وطنيّة ذات طابع علمي وثقافي توضع تحت الرّعايّة الساميّة لرئيس الجمهوريّة

(المادة 3). وتوضع تحت وصايّة رئاسة الجمهوريّة (المادة 4). يتكون المجمع من 30 عضوا دائما وأعضاء مراسلين وأعضاء شرفيين (المادة 7). ويتشكل من مجلس ومكتب تنفيذي ولجان (المادة 11). من أبرز المهام التي تدخل في نطاق عمل المجمع حسب قانونه التّأسيسي:

– خدمة اللغة الوطنيّة (العربيّة) من خلال العمل على إثرائها، وترقيتها وتنميتها

– الحفاظ على نقائها والسّهر على تكييفها مع الحقائق المعاصرة بوصفها حاملة للمخترعات العلميّة والتّكنولوجيّة

– إحياء استعمال المصطلحات الموجودة في التّراث العربي الإسلامي

– نحت المصطلحات الجديدة بالقياس أو الاشتقاق أو أي طريقة أخرى

– اعتماد المصطلحات الجديدة التي أقرها اتحاد المجامع العربيّة

– ترجمة أو تعريب المصطلحات المتداولة في شتى حقول المعرفة والنّشاطات الجاريّة

– نشر المصطلحات المعتمدة في الأوساط التّعليميّة والإداريّة

– وضع قاموس يكون شاملا للمصطلحات الحديثة في شتى المجالات

– نشر البحوث والدّراسات التي لها علاقة باللغة العربيّة وآدابها وفنونها وعلومها

– تنظيم مؤتمرات وملتقيات علميّة والمشاركة في اللقاءات والمؤتمرات الدّوليّة

– ربط صلات بالمجامع اللغويّة العربيّة والتّعاون معها في سبيل خدمة اللغة العربيّة.

كان أهم نشاط اهتم به المجلس في عهد رئيسه الأستاذ عبد الرّحمان الحاج صالح هو مشروع «الذخيرة اللغويّة العربيّة»، والهدف منه إنشاء بنك معطيات يشمل أهم ما كتب باللغة العربيّة منذ القديم حتى اليوم. وقد تبنت الجزائر هذا المشروع الذي تقدم به الحاج صالح سنة 1986م، وتم اعتماده من طرف المنظمة العربيّة للتربيّة والثّقافة والعلوم سنة 1988م، وتبنته، في وقت لاحق، جامعة الدّول العربيّة، وهذا جهد يحسب للمجمع الجزائري للغة العربيّة. يصدر المجمع مجلة تعني بنشر البحوث والدّراسات العلميّة التي ينجزها الباحثون في علم اللسانيات هي مجلة المجمع الجزائري للّغة العربيّة.

ما يجدر تسجيله بهذا الصّدد هو أن هناك بعض الدّراسات الجامعيّة المعدّة حول المجامع اللغويّة العربيّة صنفت المجمع الجزائري للغة العربيّة من بين المجامع قليلة النّشاط ربما لحداثته أو لنقص في الإطارات المسيرة له من ذوي الاختصاص، وهذا مقارنة بمجامع عربيّة أخرى كمجمع القاهرة ومجمع دمشق ومجمع بغداد، علما بأن قانونه التّأسيسي ينص على تعيين علماء من اختصاصات متعددة تسند لهم مهام القيام بأعماله.

آخر رئيس للمجمع الجزائري للغة العربيّة هو الأستاذ عبد الرّحمن الحاج صالح الذي عين على رأسه سنة 2000، وبعد وفاته لم يتم استخلافه بشخص آخر.

2 – قانون تعميم استعمال اللغة العربيّة

كان من أبرز القوانين التي تبنت مسألة تعميم استعمال اللغة العربيّة في الجزائر المستقلة. صدر بمرسوم رئاسي تحت رقم 91–05 بتاريخ 30 جمادي الثّانيّة 1411هـ الموافق لـ 16 يناير 1991 في عهد الرّئيس الشّاذلي بن جديد بعد أن أجازه المجلس الشّعبي الوطني في جلسة عامة بتاريخ 27 ديسمبر 1990. استند القانون في مرجعيته إلى المادة 3 من الدّستور ومجموعة من القوانين والأوامر التي سبق إصدارها حول مكانة اللغة العربيّة، ومن بينها القانون الصّادر في 13 ذي الحجة سنة 1406 الموافق لـ 19 أوت 1986م والمتضمن إنشاء المجمع الجزائري للغة العربيّة.

يتكون النّص من 41 مادة تتضمن أحكاما عامة وأحكاما جزائيّة وأحكاما انتقاليّة. يحدد القانون في المادة 1 القواعد العامة لاستعمال اللغة العربيّة في مختلف ميادين الحياة الوطنيّة وترقيتها وحمايتها. ويعتبر في مادته 2 اللغة العربيّة مقوما من مقومات الشّخصيّة الوطنيّة وثابتا من ثوابت الأمة، ويجسد العمل بها مظهرا من مظاهر السّيادة. وتنص المادة 3 منه على منع كتابة العربيّة بغير حروفها، بينما تحدد المادة 4 مجالات التّطبيق بالزّام جميع الإدارات العموميّة والهيئات والمؤسّسات والجمعيات على اختلاف أنواعها باستعمال اللغة العربيّة وحدها في كل أعمالها من اتصال وتسيير. وتمنع المادة 5 استعمال أي لغة أجنبيّة في المداولات والمناقشات خلال الاجتماعات الرّسميّة.

من بين أحكامه الانتقاليّة تطبيق أحكامه فور صدوره على أن تنتهي العمليّة في أجل أقصاه 5 يوليو/ جويليّة 1992، مع منح أجل أقصاه 5 يوليو 1997 لتعميم التّدريس باللغة العربيّة وحدها في كل مؤسّسات التّعليم العالي وكذا منح استثناء في كتابة التّقارير والتّحاليل والوصفات الطّبيّة باللغة العربيّة إلى أن يتم التّعريب النّهائي للعلوم الصّيدلانيّة والطّبيّة. كما ترافق تطبيقه بمجموعة من الاحكام الجزائيّة حيث اعتبر، القانون، الوثائق الرّسميّة المحررة بغير العربيّة

باطلة، وأن كل إخلال بأحكامه يعد خطأ جسيما يستوجب جزاء تأديبيا.

في 4 يوليو/ جويليّة 1992، وقبل يوم واحد من الانتهاء من تنفيذ أحكامه، تم إصدار مرسوم يحمل الطّابع التّشريعي يقضي بتجميد قانون تعميم استعمال اللغة العربيّة بمناسبة الذكرى الـ30 للاستقلال الموافقة ليوم 5 يوليو/ جويليّة 1992. صدر مرسوم التّجميد في عهد رئيس الدّولة علي كافي وباقتراح من رضا مالك رئيس المجلس الوطني الانتقالي، والمجلس هو هيئة تشريعيّة تم استحداثها لتحل محل المجلس الشّعبي الوطني بعد أحداث 11 يناير 1992م واستقالة الرّئيس الشّاذلي بن جديد. وما يزال ذلك الأمر ساري المفعول بالرّغم من أنه في عهد الرّئيس ليمين زروال تم إصدار أمر رئاسي في 21 ديسمبر 1996م يعيد العمل بقانون تعميم استعمال اللغة العربيّة.

وباستثناء إحداث مجلس أعلى للغة العربيّة، كهيئة استشاريّة لدى رئيس الجمهوريّة في عهد الرّئيس ليمين زروال، فإن القانون لم يعد ساري المفعول وتطبيقه يواجه صعوبات في الميدان بعضها نابع من تخوف لا أساس له حيث هناك من يرى بأنه يمس بطبيعة التّعدد اللغوي في المجتمع الجزائري، والبعض الآخر ينطلق من موقف سلبي تجاه اللغة العربيّة وهو أمر له علاقة بوجود اللغة الفرنسيّة. وهي إشكاليات تستوجب بحثها من ذوي الاختصاص لإيجاد حلول ملائمة لها حفاظا على الدّور الحيوي الذي قامت به اللغة العربيّة في المجتمع الجزائري عبر القرون، وبما يضمن تعزيز وحدة المجتمع والانسجام بين مكوناته والحفاظ على هويته وموروثه الثّقافي والحضاري خاصة وأن هذا الموروث الضّخم تم توثيقه باللغة العربيّة، كما أن المعارف التي يكتسبها الجزائري اليوم تتم عبر هذه اللغة.

3 – الأمر المتضمن تعديل قانون تعميم استعمال اللغة العربيّة

صدر هذا الأمر الرّئاسي تحت رقم 96 – 30 بتاريخ 10 شعبان 1417هـ الموافق لـ 21 ديسمبر 1996، في عهد الرّئيس ليمين زروال، بعد مصادقة المجلس الوطني الانتقالي عليه. ويتضمن تعديلا لبعض المواد التي لها في الغالب علاقة بالتّعامل مع الخارج كتبادل المراسلات وتوقيع الاتفاقيات. ومن بين المواد التي تم إدخال تعديلات عليها المادة 11 التي أصبح نصها كالتّالي: تكون المعاملات والمراسلات في جميع الإدارات والمؤسّسات والجمعيات على اختلاف أنواعها باللغة العربيّة. غير أن تعامل الإدارات والهيئات والجمعيات مع الخارج يكون وفقا لما يتطلبه التّعامل الدّولي. والأمر نفسه بالنّسبة للمادة 12 التي عدلت الفقرة 2 فيها كالتّالي: تبرم المعاهدات والاتفاقيات باللغة العربيّة مع مراعاة ما يتطلبه التّعامل الدّولي. كما عدلت المادة 23 لتصبح كالتّالي: ينشأ مجلس أعلى للغة العربيّة ويوضع تحت إشراف رئيس الجمهوريّة. يقوم على الخصوص بما يلي: متابعة تطبيق أحكام هذا القانون وكل القوانين الهادفة إلى تعميم استعمال اللغة العربيّة وحمايتها وترقيتها وتطويرها. التّنسيق بين مختلف الهيئات المشرفة على عمليّة تعميم استعمال اللغة العربيّة وترقيتها وتطويرها. تقييم أعمال الهيئات المكلفة بتعميم استعمال اللغة العربيّة وترقيتها وتطويرها. فضلا عن ذلك تم تعديل المادة 36 لتصبح كالتّالي: يجب استكمال عمليّة تعميم استعمال اللغة العربيّة في أجل أقصاه 5 يوليو 1998 م. غير أنه يجب التّدريس باللغة العربيّة بصفة شاملة ونهائيّة في كل مؤسّسات التّعليم العالي والمعاهد العليا في أجل أقصاه 5 يوليو سنة 2000 مع مراعاة أحكام المادة 23. وألغت المادة 8 من الأمر أحكام المادة 37 من القانون. كما أمرت المادة 9 منه بإلغاء جميع الأحكام المخالفة لهذا الأمر.

يتضح مما تقدم أن الأمر الرّئاسي الذي صدر في عهد الرّئيس ليمين زروال ألغى الأمر الذي صدر في عهد الرّئيس علي كافي وأمر بإعادة العمل بالقانون رقم 91 – 05 الصّادر في 16 يناير 1991. كما أنشأ هيئة استشاريّة تابعة لرئيس الجمهوريّة هي المجلس الأعلى للغة العربيّة، وفي الوقت نفسه نص على تأجيل تطبيق قانون رقم 91 – 05 إلى غايّة 5 يوليو/ جويليّة 1998، وكذا تأجيل تعميم الدّراسة في الجامعات والمعاهد العليا إلى غايّة منتصف سنة 2000 مع مراعاة ظروف التّعامل مع الخارج. لكن يبدو حسب منطوق نص المادة 3 من دستور سنة 2020، أن تعميم استعمال اللغة العربيّة سيتمحور أساسا حول الميادين العلميّة والتّكنولوجيّة بما في ذلك التّرجمة إلى العربيّة في إطار هذا التّوجه.

4 – المجلس الأعلى للغة العربيّة

جاء استحداث المجلس الأعلى للغة العربيّة كهيئة وطنيّة تعنى باللغة العربيّة بموجب أمر رئاسي صادر تحت رقم 96 – 30 ومؤرخ في 21 ديسمبر 1996، في عهد الرّئيس اليمين زروال، وذلك تطبيقا لقانون تعميم استعمال اللغة العربيّة رقم 91 – 05 المؤرخ في 16 يناير 1991م. وقد حدد الأمر الرّئاسي المنشئ لهذه الهيئة مهامها فيما يلي:

– متابعة تطبيق أحكام هذا القانون وكل القوانين الهادفة إلى تعميم

استعمال اللغة العربيّة وحمايتها وترقيتها وتطويرها،

– التّنسيق بين مختلف الهيئات المشرفة على عمليّة تعميم استعمال اللغة العربيّة وترقيتها وتطويرها،

– تقييم أعمال الهيئات المكلفة بتعميم استعمال اللغة العربيّة وترقيتها وتطويرها.

في التّعديل الدّستوري الذي جرى سنة 2016، تم دسترة المجلس كهيئة استشاريّة تعمل تحت إشراف رئيس الجمهوريّة، حيث نصت المادة 3 على أنه: «يحدث لدى رئيس الجمهوريّة مجلس أعلى للغة العربيّة. يكلف المجلس الأعلى للغة العربيّة على الخصوص بالعمل على ازدهار اللغة العربيّة وتعميم استعمالها في الميادين العلميّة والتّكنولوجيّة والتّشجيع على التّرجمة إليها لهذه الغايّة». وهو ما يعني أن الدّستور قد أعاد تحديد المهام التي يقوم بها المجلس مستقبلا وبموجبها ستعطي الأولويّة للعمل على تعميم استعمال اللغة العربيّة في الميادين العلميّة والتّكنولوجيّة.

تعاقب على رئاسة المجلس الأعلى للغة العربيّة منذ تأسيسه العديد من الكفاءات الوطنيّة المشهود لها بخدمة العربيّة من بينهم الدّكتور عبد الملك مرتاض والدّكتور محمّد العربي ولد خليفة والسّيد عز الدّين ميهوبي والدّكتور صالح بلعيد. والرّئيس الحالي هو الدّكتور صالح بلعيد تم تعيينه رئيسا للمجلس في الأول من شهر سبتمبر 2016 خلفا للسيد عز الدّين ميهوبي. وهو أستاذ جامعي، متضلع في العربيّة وله العديد من المؤلفات في اللسانيات الخاصة بها. يقوم المجلس بإصدار الكتب والمجلات ونشر البحوث والدّراسات التي تعني باللغة العربيّة، وله العديد من اللجان من بينها لجنة تعميم استعمال العربيّة في العلوم التّكنولوجيّة ولجنة اللغات الوظيفيّة. كما يصدر مجموعة من المجلات تعني باللغة العربيّة في مختلف المجالات هي مجلة اللغة العربيّة ومجلة العلوم والتّكنولوجيا ومجلة معالم للترجمة. ويشرف المجلس على الاحتفاء باليوم العالمي للغة العربيّة الذي يصادف يوم 18 ديسمبر من كل عام، وكذا الاحتفاء باليوم العالمي للغة الأم الذي يصادف يوم 21 فبراير من كل سنة، إلى جانب الاحتفاء باليوم العربي للغة الضّاد الذي يصادف يوم الأول مارس من كل سنة. ويقدم المجلس جائزة سنويّة للغة العربيّة تهدف إلى تشجيع الباحثين وتثمين منجزاتهم، وجائزة اللغة العربيّة لوسائل الإعلام. وينظم المجلس مجموعة من النّدوات والأيام الدّراسيّة والملتقيات حول مجال نشاطه. كما يعكف على إعداد **الموسوعة الجزائريّة** التي تغطي مختلف المجالات. وبدأ في إصدار المجلدات الأولى في مجال الأعلام.

في الأخير نرى أن الدّولة الجزائريّة سهرت على تكريس اللغة العربيّة كلغة وطنيّة ورسميّة منذ الاستقلال. ويبدو ذلك واضحا من خلال الآليات التّاليّة:

– أعادت للغة العربيّة المكانة التي تستحقها في العديد من القطاعات الحيويّة المرتبطة بالمجتمع كالتّعليم بمختلف أطواره وكذا قطاعات الدّاخليّة والاعلام والثّقافة والقضاء وبعض فضاءات الحياة،

– إحداث هيئة تابعة لرئاسة الجمهوريّة تتمثل في المجلس الأعلى للغة العربيّة الذي تم دسترته بموجب التّعديل الصّادر في 2016، وتم تأكيد ذلك في الدّستور الصّادر سنة 2020،

– تعميم استعمال العربيّة في الحالة المدنيّة، فكل الوثائق المستخرجة كبطاقة الهويّة الوطنيّة وعقود الميلاد والزّواج وشهادات الوفاة وغيرها تصدر بالعربيّة،

– تعميم استعمال العربيّة في إعداد وثيقة جواز السّفر، واعتماد العربيّة كلغة أساسيّة فيه مع هامش باللغة الأجنبيّة يخصص لكتابة الاسم واللقب فقط لا غير،

– تعريب الأختام الرّسميّة ومنع استخدام الأختام بلغة غير العربيّة في مختلف الإدارات،

– استخدام العربيّة في مناقشات مجلس الأمة والمجلس الشّعبي الوطني وإعداد التّقارير بالعربيّة،

– تعريب التّعليم في المدرسة الوطنيّة للإدارة التي تخرج الإطارات الجزائريّة العاملة في مختلف الوزارات والإدارات مع استثناءات محدودة كقطاعات الماليّة والتّجارة والمياه والنّقل وما شابه ذلك.

ومع ذلك ما يزال أمام اللغة العربيّة قطاعات استراتيجيّة لم تدخلها كالماليّة والطّاقة بما فيها النّفط والغاز والشّؤون الخارجيّة والاقتصاد والمال والأعمال وغيرها.

ختاما، لا بد من التّذكير بأن اللغة العربيّة لما اندمجت في الفضاء المغاربي كانت اللغة البونيّة، وهي لغة تولّدت عن اللغتين الكنعانيّة واللوبيّة القديمة، ما تزال سائدة في بعض الجهات من تونس والجزائر كما ثبت ذلك من كتابات العديد من المؤرخين. وكانت اللغة اللاتينيّة مهيمنة في المدن وفي مراكز الحاميات البيزنطيّة، بينما كانت اللغة اللوبيّة تسود في الأرياف. فحلت العربيّة محل اللغتين البونيّة واللاتينيّة لأنها ارتبطت، في بدايات وجودها،

بالمدن. في العصر الوسيط برزت اللغة العربيّة كحاملة لقيم الإسلام، فرافقت انتشاره وبلّغت قيمه وحافظت على ديمومته في قلوب الجماهير المؤمنة به. وسادت خلال عصر الدّول الإسلاميّة، وهي دول أسستها أسَرٌ أمازيغيّة، عبر الأرياف لعوامل مختلفة ذكرناها في بدايّة هذا المقال. في التّاريخ المعاصر استعادت العربيّة في عهد الجزائر المستقلة مكانتها، كما يتوجب أن تكون فيها، أمام اللغة الفرنسيّة التي كانت لها اليد العليا في العهد الاستعماري الفرنسي وما يزال لها وجود فاعل في قطاعات عديدة ذات أهميّة. ولذلك ما يزال أمام العربيّة معوقات يتطلب تجاوزها وفي المقدمة منها ضرورة تعميم استعمالها في مختلف فضاءات الحياة وجعلها لغة وظيفيّة مع العمل على ترقيتها كلغة علم وتكنولوجيا، مما يستدعي بذل جهود أكبر لتتمكن لغة الضّاد من منافسة اللغات العالميّة الأخرى في زمن طغت فيه نزعة العولمة واشتعال الحروب الثّقافيّة والصّراعات اللغويّة.

• أ. عامر بغدادي
ديبلوماسي (سفير سابق)

المصادر
- معاهدات الجزائر مع فرنسا، جمال قنان، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، 1987.
- نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر، عبد الحميد زوزو، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب،
- المجامع اللغويّة ودورها في ترقيّة اللغة العربيّة، مذكرة جامعيّة من إعداد الطّالبتين: ناديّة بوجريس وصليحة بوطريق، جامعة البويرة. السّنة الجامعيّة 2011 / 2012.

ملاحق

معاهدة 11 مارس 1679 الخاصة بالباستيون

معاهدة أبرمناها نحن : الأمجد الباشا، الديوان وأوجاق الجزائـر مع صديقنا المخلص السيـد دونيس ديسو الـذي تقدم وطلب منـا اعادة نشـاط التجارة وصيد المرجان في الباستيون، القالة، الرأس الحمراء، بونة وشتورة والقل وجيجل وبجاية والأماكن الملحقة بها، لقد وافقنا على هذا الطلب نظرا للتقدير الذي نكنه لشخصه والقبول الذي حظي به طلبه عند امبراطور فرنسا حليفنا المخلص سيده.

البند - 1

بصفة عامة، كل ديون السادة بيكي، أرنولاتور، لالو، لافونتين، بِرْتِيلو ورِيبُوتي، الذين كان لهم في السابق مصالح في الباستيون (أي شركاء) سواء تلك التي اقترضوها في مدينة الجزائر أو غيرها من الأماكن، تعتبر منتهية، وملغية كلية، ولا يمكن لأي أحد تقديم طلب بشأنها مطلقا، وعلى هذا الشرط فقط قبل السيد ديسو التعاقد معنا.

البند - 2

يمنع على كل ضباط سفننا ومراكبنا عرقلة نشاط مستخدمي الباستيون كما يمنع عليهم زيارتهم في الباستيون والاماكن الملحقة به فهم مـزودون برخص من أميرال فرنسا عند قدومهم وبجوازات من حاكم الباستيون عنـد ذهابهم، كما يمنع عليهم عرقلة نشاط مراكب الصيد وتفتيشها واذ ما حدث شيء من ذلك فان هذه المراكب سترد بسلعها وركابها مع نقودهم وأمتعتهم بمجرد قيام وكيل السيد ديسو المقيم في مدينة الجزائر بتقديم شكوى بذلك.

البند - 3

نظرا لكون الباستيون والمباني الموجودة في القالة في حالة سيئة جدا فانه يسمح له باعادة بنائها بالصورة التي كانت عليها وأخذ المواد الضرورية لذلك في عين المكان، كما يسمح له ببناء رحى على كل مرتفع يحيط بالباستيون، ذلك أن الرياح التي تهب من ناحية البر لا تستطيع تشغيل الرحى في الموقع الموجودة فيه حاليا، مما جعل مستخدمي الباستيون ينقصهم الخبز وهو شيء يجب تلافيه لضمان استمرار التجارة.

البند - 4

واذا وقع نزاع بين الاهالي وبين ديسو ونجم عنه تعذر حصوله على القمح لاعالة مستخدميه فانه يسمح له بأن يحصل عليه في بونة وفي الاماكن الأخرى من البلاد، ودفع ثمنه حسب السعر الجاري في السوق، كما يرخص له بشحن مركبين منه لارسالهما الى فرنسا لاعالة النساء وأطفال أولئك الذين هم في خدمته سواء في صيد المرجان أو في التجارة.

البند - 5

يدفع لكاهية بونة ثلاثة الآف بطاك في السنة على ستة أقساط متساوية. يدفع القسط الأول في نفس الوقت الذي تدفع فيه اللزمة للجزائر، كما تدفع كل الاكراميات والهدايا للمسؤولين كما كانت تحدث في وقت السيد صانصون. وتلغى جميع التجديدات التي أحدثت منذ ذلك الوقت. ولا يحق للكاهية الارتياد الى الباستيون إلا بأمر من الديوان.

البند - 6

لا يدفع لمدينة بونة أي رسم على الدخول والخروج، كما يمنع على كل السكان بيع الشمع والجلود والصوف والشحم أو أية سلعة أخرى، كما لا تباع الجلود التي لآغاوات الزواوة ولا التي تزيد عن حاجة المدينة الا للسيد ديسو وبالثمن الذي كانت عليه في وقت صانصون، ويعاقب المخالفون بمصادرة سلعهم لحساب جماركنا، كما يسمح للمراكب أن تشحن

التجارة التي تمارس بنية حسنة. فان السيد ديسو سوف يعتبر في هذه الحالة مثل متعهدنا وصديق حميم، سيستمر في التمتع بامتياز الباستيون وملحقاته بهدوء واطمئنان. إذ أن ذلك سيعود بفائدة كبيرة بالنسبة لرواتب العسكر ولسكان هذه المملكة.

البند - 11

لقد التزم السيد ديسو بارسال مركبين الى مدينة الجزائر من أجل التجارة ويمكن له أن يرسلها بعد ذلك إلى باستيون القالة أو الى الساحل دون أن يجبره على شحن الجلود أو الشمع أو أية سلعة أخرى الا برغبته، واذا لم يتم ارسال هذين المركبين فانه يتحتم عليه دفع ستة الآف دوبل فوق مستحق اللزمة.

البند - 12

إن الخلافات وسوء التفاهم الذي وقع بين الشركاء الذين سبقوا السيد ديسو في تجارة الباستيون قد أدت الى كثير من الفوضى، حسب علمنا، في هذه التجارة، فاللزمة لم تدفع لا الى ديواننا ولا الى قائد بونة ولا للأهالي، كما تم التنصيص بذلك في عشاننا، وعلى ذلك فاننا نمنع السيد ديسو من قبول أي شخص في شركته بدون رضانا وموافقتنا واعتمادنا إياه، كما نمنع على أي شخص ارتياد هذه الاماكن الا بموافقته ورضاه.

البند - 13

مقابل هذه الرخصة وهذا الامتياز الذي نمنحه للسيد ديسو وذويه والتي لا نعطيها لأي شخص آخر الا بموافقته، وعندما يقوم بالدفع الى ديواننا اللزم المتأخرة الى شهر جانفي الأخير فقد تم الاتفاق على أن يدفع لنا في المستقبل أربعة وثلاثين ألف دوبل ذهب كل سنة على ستة أقساط متساوية، تدفع كل شهرين ابتداء من شهر فبراير الآخير، مقابل هذا، فاننا نتعهد باستمرار السيد ديسو وذويه في استغلال والتمتع باطمئنان بامتياز الباستيون والاماكن الملحقة به.

حررت وأشهرت في دار السلطان والديوان مجتمعا بمحضر الأمجد اسماعيل باشا، والحاج محمد داي وآغا المليشيا والمفتي والقاضي، والفقهاء ورجال القضاء، والحرب في 11 مارس 1679 والموافق للتاريخ الهجري 27 من هلال فبراير (كذا) 1089، فالصدق عندنا هو الصدق والكلمة عندنا هي الكلمة. توقيع وختم الباشا.

بسم الله الرحمن الرحيم

نداء إلى الشعب الجزائري

هذا هو نص أول نداء وجهته الكتابة العامة لجبهة التحرير الوطني إلى الشعب الجزائري في أول نوفمبر 1954

«

أيها الشعب الجزائري.

أيها المناضلون من أجل القضية الوطنية.

أنتم الذين ستعتمدون حكمكم إشارتنا. فهيئ الشعب بصفة عامة، وللمناضلين بصفة خاصة. فلعلكم إن عرضنا من نشر هذا الإعلان هو أن نوضح لكم الأسباب العميقة التي دفعتنا إلى العمل، بأن نوضح لكم مشروعنا والهدف من عملنا، ومقومات وجهة نظرنا الأساسية التي دفعتنا إلى الاستقلال الوطني في إطار شمال الإفريقي، ورغبتنا أيضا هو أن نحتكم إلا الناس الذين لكي أن نوقعكم في الأمبريالية ومملاؤها الإداريون وبعض محترفي السياسة الانتهازية.

فنحن نعتبر قبل كل شيء أن الحركة الوطنية، بعد مراحل من الكفاح، قد أدركت مرحلة التحقيق النهائية. فإذا كان هدف أي حركة ثورية، في الواقع، هو خلق جميع الظروف الثورية للقيام بعملية تحريرية، فإننا نعتبر أن الشعب الجزائري في وضاعه الداخلية متحدا حول قضية الاستقلال والعمل، أما في الأوضاع الخارجية فإن الانفراج الدولي مناسب للقضية بعض المشاكل الثانوية التي من بينها قضيتنا التي تجد سندها الذي يملو ما سبي وخاصة من بلدان العرب والمسلمين.

إن أحداث المغرب وتونس لها دلالتها في هذا الصدد فهي تمثل بصفة مراحل الكفاح التحريري في شمال إفريقيا، وما يلاحظ في هذا البلدان أنها مدة طويلة أول الناعين إلى الوحدة في العمل هذه الوحدة التي لم يتح لها مع الأسف التحقيق أبدا بين الأقطار الثلاثة.

إن كل واحد منها اندفع اليوم في هذا السبيل، أما نحن الذين نقف في موقع الركب فإننا نتعرض إلى مصير من يحاوزه الأحداث، وهكذا فإن حركتنا الوطنية قد وجدت نفسها محطمة، نتيجة لسنوات طويلة من الجمود والرؤيتين، وتوجهها بين محروم من الرأي العام الضروري، فتحاوزتها الأحداث الأمر الذي جعل الاستعمار يطير فرحا ظنا منه أنه قد أحرز أضخم انتصاراته في كفاحه ضد الطليعة الجزائرية.

إن المرحلة خطيرة.

أمام هذه الوضعية التي يخشى أن يصبح علاجها مستحيلا، رأت مجموعة من الشباب المسؤولين المناضلين الواعين التي جمعت حولها أغلب العناصر التي لا تزال سليمة وصممت، إن الوقت قد حان لإخراج الحركة الوطنية من المأزق الذي وقعها فيه صراع الأشخاص والتأثيرات لدفعها إلى المعركة الحقيقية الثورة، إلى جانب إخواننا المغاربة والتونسيين وبهذا الصدد فإننا نوضح بأننا مستقلون عن الطرفين اللذين يتنازعان السلطة. أن حركتنا قد وضعت المصلحة الوطنية فوق كل الاعتبارات الشخصية والعاطفية لتصفية الأشخاص والسمعة، ولذلك فهي موجهة فقط ضد الاستعمار الذي هو العدو الوحيد الأعمى، الذي رفض أمام وسائل الكفاح السلمية أن يمنح أدنى حرية.

ونظرا إن هذه أسباب كافية لمحمل حركتنا التحديدية تظهر تحت اسم: جبهة التحرير الوطني.

وهكذا نخلص من جميع التأويلات المحتملة، وسنتيح الفرصة لجميع المواطنين الجزائريين من جميع الطبقات الاجتماعية، وجميع الأحزاب والحركات الجزائرية، أن تنضم إلى الكفاح التحريري دون أدنى اعتبار آخر.

ولكي نبين بوضوح هدفنا فإننا نسطر فيما يلي الخطوط العريضة لبرنامجنا السياسي.

الهدف: الاستقلال الوطني بواسطة:

1. إقامة الدولة الجزائرية الديمقراطية الاجتماعية ذات السيادة ضمن إطار المبادئ الإسلامية.
2. احترام جميع الحريات الأساسية دون تمييز عرقي أو ديني.

الأهداف الداخلية: 1. التطهير السياسي بإعادة الحركة الوطنية إلى نهجها الحقيقي والقضاء على جميع مخلفات الفساد وروح الإصلاح التي كانت عاملا هاما في تخلفنا الحالي.

2. تجميع وتعبئة جميع الطاقات السليمة لدى الشعب الجزائري لتصفية النظام الاستعماري.

الأهداف الخارجية: 1. تدويل القضية الجزائرية.

2. تحقيق وحدة شمال إفريقيا في داخل إطارها الطبيعي العربي والإسلامي.

3. في إطار ميثاق الأمم المتحدة تؤكد عطفنا الفعال تجاه جميع الأمم التي تساند قضيتنا التحريرية.

وسائل الكفاح: انسجاما مع المبادئ الثورية، واعتبارا للأوضاع الداخلية والخارجية، فإننا سنواصل الكفاح بجميع الوسائل حتى تحقيق هدفنا.

إن جبهة التحرير الوطني، لكي تحقق هدفها يجب عليها أن تجر مهمتين أساسيتين في وقت واحد وهما: العمل الداخلي سواء في الميدان السياسي أو في ميدان العمل المحض، والعمل في الخارج بجعل القضية الجزائرية حقيقة واقعة في العالم كله، وذلك بمساندة كل مخلفات الطليعيين.

إن هذه مهمة شاقة طويلة العبء. وتتطلب كل القوى وتعبئة كل الموارد الوطنية. وحقيقة إن الكفاح سيكون صعبا ولكن النصر محقق.

وفي الأخير، ومهما تكن الأويلات الخاطئة وللذليل على رغبتنا الحقيقية في السلم، وتحديدا للخسائر البشرية وإراقة الدماء، فقد أعددنا للسلطات الفرنسية وثيقة مشرفة للمفاوضة. إذا كانت هذه السلطات تحدوها النية الطيبة. وتعترف نهائيا للشعوب التي تستعمرها بحقها في تقرير مصيرها بنفسها.

1. الاعتراف بالجنسية الجزائرية بطريقة علنية ورسمية، ملغية بذلك كل الأقاويل والقرارات والقوانين التي تجعل من الجزائر أرضا فرنسية رغم التاريخ والجغرافيا واللغة والدين والعادات للشعب الجزائري.
2. فتح مفاوضات مع الممثلين المؤهلين من طرف الشعب الجزائري على أساس الاعتراف بالسيادة الجزائرية وحدة لا تتجزأ.
3. خلق جو من الثقة وذلك بإطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين ورفع كل الإجراءات الخاصة وإيقاف كل مطاردة ضد القوات المكافحة.

وفي المقابل: 1. فإن المصالح الفرنسية، ثقافية كانت أو اقتصادية والتحصيل عليها بالتراضي، سنحترم وكذلك الأمر بالنسبة للأشخاص والعائلات.

2. جميع الفرنسيين الذين يرغبون في البقاء بالجزائر يكون لهم الاختيار بين جنسيتهم الأصلية ويعترفون بذلك كأجانب تجاههم القوانين السارية أو يختارون الجنسية الجزائرية وفي هذه الحالة يعتبرون كجزائريين بالهم من حقوق وما عليهم من واجبات.

3. تحديد الروابط بين فرنسا والجزائر وتكون موضوع اتفاق بين القوتين الاثنتين على أساس المساواة والاحترام المتبادل.

أيها الجزائري، المناضل، هو ذا جهادك المقدس الذي نناديك لتباركه بالوقفة، وواجبك هو أن تنضم إليها لاعتقادنا بلادنا والعمل على أن نسترجع له حريته بانخراطك في جبهة التحرير الوطني في جبهتك، وانتصارها هو انتصارك.

أما نحن العازمون على مواصلة الكفاح، الواثقون من مشاعرك النبيلة والأبية، فإننا نقدم للوطن أنفس ما نملك.»

فاتح نوفمبر 1954

الجبهة الوطنية

اللغة العربيّة في المجلة الأفريقيّة

د. أحمد عزوز

المقدمة

المجلّة الأفريقيّة هي مجلّة الجمعيّة التّاريخيّة الجزائريّة التي كانت تصدر بالجزائر تحت رعايّة الاحتلال الفرنسي، ولم تكن موضوعاتها خاصّة بالقارّة الأفريقيّة كما يُعتقد؛ وإنّما ركّزت على الجزائر مع تناول من حين لآخر موضوعات حول المغرب وتونس أو أخرى. ولم تعالج التّاريخ كما يتجلّى من عنوان الجمعيّة التي أسّستها، وإنّما كانت موضوعاتها عامّة كالإثنوغرافيا والمياه والجغرافيا واللهجات والجيولوجيا والتّعازي وغيرها، وقام بعض الباحثين بتحقيق وقراءة بعض المخطوطات ودراسة للمصادر العربيّة. وكانت من أهداف روّادها نشر النّتائج العلميّة وجهودهم، لتشريف أمّتهم الفرنسيّة، وملء فراغها العلمي التي ترى نفسها تقود قافلة الحضارة الأروبيّة.

وتتّسم المجلّة بقيمة محتوى دراساتها العلميّة والأكاديميّة في مختلف مجالاتها، على الرّغم من خفاياها الاستعماريّة، فهي تبرز الحياة الثّقافيّة للجزائر، وتحظى باهتمام كثير من الباحثين الذين يرغبون التّعرّف على الشّأن الجزائري والمغرب العربي. كما تكشف التّفكير الذي رافق الاستعمار العسكري، الذي لا يختلف في جوهره وأبعاده من الاستعمار الفكري؛ بل هو أشدّ، ولهذا كان الفكر العسكري حاضرا قبل وأثناء وبعد القيام بالدّراسات ومنها البحث اللغوي.

وكانت الوفود الثّقافيّة والفكريّة وحملاتها مرافقة للجيوش العسكريّة الاستعماريّة، وكانت ومهامهما التّعاون حتى وإن اختلفت الأدوات، ومن أغراضها الرّئيسة إحداث خلخلة في تاريخ الجزائريين وثقافتهم والعلاقات التي بينهم، وتوجّهاتهم وإيمانهم وحفر هوّة في فهم واقعهم حتّى ينساقوا وراء طموحات الاستعمار الفرنسي.

1 – مخبريّة البحوث المنشورة في المجلة الأفريقيّة

تأسّست «المجلة الأفريقيّة» في 07 أفريل 1856 برعايّة أعلى هرم السّلطة الاستعماريّة الفرنسيّة، وبدعم من الحاكم العامّ الفرنسي (1795–1871) Jacques Louis Randon، الذي تولّى الجزائر من 1851 إلى 1858.

وأول من ترأّس الجمعيّة Andrian BERBRUGGER Louis وهو من أبرز أسماء أعضائها، قدِم إلى الجزائر في 1834، وكان يجيد اللغة العربيّة، وهو مؤسّس المكتبة الوطنيّة، وجمع لها ألفي مخطوطا، وهو من أنصار السّانسيمونيّة التي تعدّ حركة فكريّة سياسيّة نادى أنصارها بالعلاقة بين الشّرق والغرب. وكتب في المجلّة كبار المستشرقين الذين رافقوا الاستعمار بدعاياتهم مثل روني باسييه، وشربونو، ودوسلان، فحملت دراساتها فكره ووضّحت رؤاه ومنهجيته.

وكانت بحوثها مخبريّة أي تطبيقيّة، منطلقة من الواقع، إذ يحتكّ الدّارس بالأهالي؛ فيجمع منهم الأفكار التّاريخيّة والاجتماعيّة والشّواهد وطريقة النّطق والتّعبير والمصطلحات والدّلالات وغير ذلك ممّا يسمح له بالاستماع والتّعرّف، وبالتّالي التّحليل ليس اللغة فقط؛ وإنّما العقليّة التي تتكلّم باللهجة والسّلوكات التي تتحكّم في الأفراد أيضا، وهو ما كان يشغل السّلطات الاستعماريّة، وهذا لفهم الحياة الاجتماعيّة والأدبيّة واللسانيّة في الجزائر، ومعرفة شعبها، وهكذا تميّزت المجلة بمقالاتها وتنوعّت حول تاريخ الجزائر والمغرب وتونس. وقد صدر العدد الأول في21 أفريل 1856، وكان آخر عدد هو 106 في 1962.

وانطلاقا من مضامين المجلّة يلاحظ أنّ المجتمع الجزائري أصبح غداة الاحتلال الفرنسي مشروعا ضخما للتمحيص والتّنقيب، ومادة بحث سُخِّرت من أجله كل الأدوات والمناهج والعلوم مثل الجغرافيا، والتّاريخ،

والإثنوغرافيا، وغيرها، وغايتها إعادة صياغة تاريخ وفكر وثقافة الجزائر بما يتمشى ورؤيّة فرنسا الاستعماريّة.

3 – وصف لبعض المقالات

كتب في المجلّة الأفريقيّة بعض الجزائريين الذين كانت لهم سمعتهم العلميّة في الوسط الفرنسي، ومنهم الدّكتور محمّد بن أبي شنب الذي كان له نصيب وافر من قراءة المصادر العربيّة، كـ«البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم المليتي المديوني التّلمساني 1908م، بالإضافة إلى البحوث الأخرى التي نشرها في المجلّة مثل «اشتقاق كلمة الشّاشيّة». وجاك أوجست شربونو(1882–1813) وهو مستشرق فرنسي، وكان يجيد العربيّة، وخصّص جهده من أجل أن يصهر العنصرين العربي والفرنسي في الجزائر عن طريق التّعلّم.

و«ألكسندر جولي» الذي نشر «الشّعر العربي الحديث عند البدو الرّحل الجزائريين»، فقدّم ملاحظات حول ما كان يستعمل من مصطلحات وما يرادفها أو يقابلها في بعض اللهجات المحليّة. ونشر Joseph Desparmet في العدد 71 من سنة 1930 موضوعا حول «الاجتياح الفرنسي للجزائر العاصمة» في 1830، وهو شرح لقصيدة الأمير عبد القادر إبان ذلك الاجتياح، ووضّح أهميّة الشّعر الشّعبي في شحن همم الرّجال، ودفعه إلى التّضحيّة بالنّفس والنّفيس في سبيل الوطن، وهو شعر يخاطب كلّ شرائح المجتمع.

وتركّزت بحوث المستشرقين على لهجات اللغة العربيّة، والنّقوش والتّاريخ والتّصوّف وتحقيق المخطوطات، والقراءة للمصادر وترجمة النّصوص الأدبيّة والفقه والأنثوغرافيا والفنون الشّعبيّة. وعلى الرّغم من أنّهم حاولوا أن تكون بحوثهم أكاديميّة من حيث المنهج إلاّ أنّ الهدف منها كان تقديم خدمات لضبّاط الجيش من أجل السّيطرة والهيمنة على أمّة الجزائر وبلادها.

4 –قراءة في المصادر

تناولت المجلّة الأفريقيّة موضوعات نقد النّقد أو القراءة للمصادر الأدبيّة والتّاريخيّة ومنها: «عنوان الدّرايّة فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجايّة» للإمام القاضي أبي العباس أحمد الغبريني المعروف بسيدي بلعباس الزّواوي المولود في (644ه – 1246م) (ت704ه) في العدد 7، سنة 1863 لـDewulf.E الذي ينتقد فيه ما كتبه شربونّو حول الغبريني وعنْوَن مقاله بـ«ملحوظة ابن حمّاد وحول مذكّرة شربونّو المعنونة بـ: ملحوظة ومقاطع من عنوان الدّرايّة في مشايخ بجايّة»، وقد كتب العنوان بالعربيّة، وطرح سؤالين هما:

من هو ابن حماد، وما هي كتبه التّاريخيّة؟ ومن هو مؤلّف كتاب عنوان الدّرايّة؟ وهو مقال يشكّك فيه في تاريخ وفاة الغبريني، ويرى أنه توفي في 714ه،(1314م)، ويذكر كتاب أبي عبد الله محمّد بن علي بن حماد بن عيسى أبي بكر الصّنهاجي القلعي(548ه – 628ه) بعنوان «أخبار ملوك بني عبيْد وسيرتهم»، ويعرف بابن حماد أو الصّنهاجي نزيل بجايّة ومعاصر للدولة الفاطميّة.

ويرى شربونّو في عنوان الدّرايّة أنّه: «مصدر نفيس لدراسة القرن السّابع الهجري على الأقل من ناحيّة الأدب الأفريقي». ويذكر أن الكتاب التّاريخي لابن حماد يتناول سيطرة صنهاجة على أفريقيا وبجايّة.

ويتناول ترجمة ابن حماد باللغة العربيّة في هذا المقال، ويرى أنّه أبو عبد الله محمّد بن علي بن حماد بن عيسى بن أبي بكر الصّنهاجي القلعي، ولد بسوق حمرة قريّة (بالقرب من البويرة اليوم) المجاورة لقلعة بني حماد، فيقول عن سوق حمرة إنّها كانت حاضرة علم وافر ببجايّة، وقد لقي بها أبا مدين المغيث، وسمع عليه «المقصد الأسني لأبي حامد الغزالي (ت505ه) في شرح أسماء الله الحسنى».

ودرس ابن حماد أوّلا في القلعة، ثمّ في بجايّة تحت ملوك العلم كما يقول الغبريني، بمعنى أبومدين، وعلي المسيلي...وفي الأخير توفّي في بجايّة سنة 628ه(1230م). وألف أيضا: «النّبذة المحتاجة في أخبار ملوك صنهاجة وأفريقيا وبجايّة».

ويذكر في مقاله بعض الأعلام الذين كانوا يزورونه لطلب العلم والفتيا فكان منهم: أبو محمّد عبد الحقّ الأزدي الأندلسي الإشبيلي العالم المحدث القاضي الذي روى عن ابن حماد كتاب «الموطّأ» وغيره من الكتب، وكذا القاضي الإمام أبو علي المسيلي، كما لقي غيرهم بالقلعة والجزائر وتلمسان. وممن أخذ عنهم العلم نجد القاضي العالم أبو عبد الله محمّد بن عبد الله بن عبد الحق التّلمساني. ويذكر أنّ كتبَه بلغت المائتين واثنين وأربعين كتابا مسنَدة كلها إليه وبالإحالات، ومن المصادر التي كان قد اطلع عليها تاريخ الطّبري ولخصه.

كما تشبّع بعلوم القرآن الكريم، وعلم الحديث وعلم الأصول وعلم النّحو وعلم الأدب والتّاريخ وعلم الأذكار، وكان له من كل فنّ من هذه الفنون حظ وافر وعلم ماهر، وولي القضاء في سلا سنة 613ه.

وفي العدد الثّامن 8 من المجلة ترجم براسنييه Bresnier الفصل الأخير من

كتاب» الزّهرة النّائرة فيما جرى للجزائر حين أغارت عليها الكفرة» لمحمّد بن محمّد بن عبد الرّحمن الجيلالي بن رقيّة التّلمساني والذي ترجمه إلى الفرنسيّة ألفونسو روسو ونشره في 1841، ومنه استلّ فصله.

ونشر Adrian.Delpech ملخص «البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان» لأبي عبد الله محمّد بن محمّد بن أحمد الملقب بابن مريم المليتي المديوني التّلمساني في العدد: 27، وكان مترجِما لدى المحكمة في الجزائر آنذاك، ويذكر في المقدّمة سي إبراهيم بن الزّروقي الذي أهداه هذا المصدر، وهو من عائلة عريقة في مدينة تلمسان.

وكان الهدف من تأليف الكتاب هو التّعريف بالعلماء والأولياء والرّفع من قيمتهم. ويقدّم مختصرا لهذا الكتاب، لأن صاحبه يتوسّع في ذكرهم، وتم ترتيبه حسب الحروف الأبجديّة، وهو يترجم ما ورد في الكتاب إلى اللغة الفرنسيّة ليقدّمه لأبناء بلده، ويشير إلى أن صاحبه لم يذكر تواريخ هؤلاء العلماء والأولياء لتكون مؤشرات لمعرفة تاريخ البلد.

وفي العدد 31 نشر المترجم العسكري M.Arnaud دراسة في التّصوّف للشيخ عبد الهادي بن رضوان، فقدّم ترجمتها، ووضع تعليقات عليها في الهامش، والعنوان نفسه تابعه في العدد 32، ساعيا إلى أن يطّلع أبناء بلده على هذا النّوع من الموضوعات.

أمّا في العدد 34 فقد نشر في التّصوّف F.Fagnan مقالا بعنوان» الحلقة المفقودة من حياة ابن الخطيب والمجهول» والذي ترك ذكراه في الحياة الأدبيّة والسّياسيّة لإسبانيا المسلمة، ومثله ابن خلدون صاحب السّمعة الحسنة وهو صديقه ومنافسه، وتكلّم عنه مطوّلا، في كتابه تاريخ البربر الذي نشر سيرته Dozy.

ويشكّك في مصدر ابن الخطيب ويرى أنّه لم يكتمل، ويظهر ذلك بما أضافه النّاسخ في آخر المخطوط رقم 586 الموجود في المكتبة الوطنيّة بالجزائر والذي بقي غير تامّ، ليس فيه سوى ثلاثة سطور ونصف سطر مخصصة لحكم أول أمير الموحدين عبد المؤمن بن علي (ت558ه)، كما أنّ عنوان المصدر لم يذكر في المقدمة الطّويلة والشّارحة، ولكن سجّله في الفصل الثّاني: «أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام»، وتتغيّر نهايته في أعلى الفصل الثّالث، «وما يجر ذلك من شجون الكلام»، وهكذا عند المقري، وتناول الكتاب تاريخ دول الإسلام -كما فعل ابن خلدون- ويعالجه بإطناب ودقّة. وعلى الرّغم من أنّ الكاتب لا يذكر اسمه، إلاّ أنّه لا يمكن الشّكّ بأنّه مصدره.

ومن مؤلّفاته:

أ- أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام

ب- (ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب)

ج- الإحاطة في أخبار غرناطة

د- المشاهير الطّيبيّة (المباخر الطّيبيّة، فى المفاخر الخطيبيّة).

ويظهر أن كتابة الإعلام كانت قبل وصول ابن الخطيب إلى المغرب وذلك بين 773 ه و776ه. فقد تكلّم عن محمّد بن يوسف بن إسماعيل بن ناصر، وكأنه لا يزال حيا في 763 ه، وهو الأمير الذي احتلّ «مالقة»، وذكر تأبين المرينيين في خاتمة المصدر.

كما يقدّم وصفا للمخطوط، وعدد صفحاته وخطه المغربي الذي لم يكن جيّدا، ويمكن أن يعود تاريخ كتابته إلى القرن العاشر الهجري. ويتألّف هذا المصدر من ثلاثة أجزاء، والأول أقلّ أهمّيّة، ويلخّص مراحل حياة محمّد(ص)، والأمويين، والعباسيين، وملوك الشّرق من المماليك إلى أمراء مكة والمدينة.

ويخصّص القسم الثّاني لتاريخ إسبانيا منذ دخول المسلمين إلى نهايّة حكم الموحّدين التي كانت على يد أبي عبد الله محمّد بن سعد بن مرداش(518-567ه) وهو أمير أندلسي حكم شرق الأندلس بين سنتي 542ه حتى 567ه.

ويعالج الفصل الثّالث تاريخ المغرب العربي من برقة إلى سوس، والأغالبة وصنهاجة، وبني حماد، وبني مدرار، ومغراوة، وبني إفران، وبني توجين، وبني حمير والرّيف، والأدارسة، وبني أبي العافيّة، والمرابطين ليقف في الأخير على حكم الموحّد عبد المؤمن بن علي.

5- الشّعر العربي الحديث في المجلة الأفريقيّة

من الموضوعات الأدبيّة التي نشرتها المجلّة «ملاحظات حول الشّعر الحديث عند الرّحال الجزائريين» في العدد44، ويقول صاحبه أنّه جمع خلال بعض الليالي بعض الأغاني العربيّة سماعا من الأهالي؛ وهذا لأخذ فكرة عن الشّعر الشّعبي في الجنوب الجزائري. ويرى أنّ هذه الأشعار تختلف كثيرا عن تلك التي تردّد في السّاحل الشّمالي، ولدى البرابرة في الشّمال، سواء من حيث الأفكار أم الموضوعات المعالجة، والصّور المستعملة، ولها تميّزها الموسيقي أيضا. فهي هتافات بطيئة وحزينة في أغلب الأحيان: فلهم «الزّغَوِيّة»، و«المدح» و«القول» (الجيم المصريّة)، و«الهجوة»،

و«القطاعة» أو «أغنيّة الطّريق»، و«العيدي»، و«أغنيّة الحرب» و«الحفلة»، والأغنيّة التي تلازم صوت الآلة الموسيقيّة بالأوتار.

ومن الصّعب وضع الفروق بينها لأن القواسم المشتركة بينها كثيرة، ومن أنواع ذلك الشّعر:

– القول (بالجيم المصريّة): وهو نوع من الشّعر يُغنّى بإيقاع بطيء مقارنة بشعر الغناء، ويمكنه أن يتناول أكثر من غرض، وله شكل منظّم، وفيه اتسّاع وله معجم دقيق، ويشرح المفردات ويعطي اشتقاقها، وبنيتها الصّرفيّة وصيغها الاشتقاقيّة، ومفرد الكلمة وجمعها، كما يعطي ترجمتها. وحين يبحث في تشكيل تلك القصائد أو بنائها، يعتمد في مصادره وشروحه على Beaussier ، وينقل القصائد في عاميتها.

وكتب ألكسندر جولي (Joly) في العدد 45 مقالا بعنوان «ملاحظات حول الشّعر الحديث عند البدو الجزائريين»، ويخصّص لنوع من الشّعر يطلق عليه الزّغويّة، وهو من الغناء البطيء الذي فيه شكوى من الحبيب، بتعلّقه بالمحبوب ثم يبرز حزنه، وهو ذو نمط واحد، وتتقارب مفرداته وعباراته، وينقل قصيدة لعلي بن الأخضر شريف المدينة، جمعها من القرارة من حدود شبكة امزاب. ونظمت القصيدة للشيخة بنت المولود، امرأة من أولاد الكحل، فرع من قبيلة أولاد سيدي عيسى من مجموعة أولاد نايل. وهي قصيدة ذات 33 بيتا على منوال القصيدة العربيّة الفصحى ذات الشّطرين، وبقافيّة واحدة للشطر الأول وأخرى للشطر الثّاني وتبدأ ب:

قعدت قافرة دارت أيام الحمان
صات سجرة بلادنا يا تشطاني.(:209-208)
بعد أن كانت لذة زاهرة تزيان
سقطت ورقتها على شوف أعياني
أنا ماني شي على خُضُر سجرة بستان
بي واحدة جنّها ملك جنّي
نوريها تعرفوها بالتّفنان
من ألي راحت سافرة القلب خطاني

ويشرح كلماتها ويعطي مشتقاتها، ويبحث عن جذورها، ودلالتّها، وأدوات الرّبط وتعلّقها، ثم يعطي ترجمة القصيدة باللغة الفرنسيّة، بحسب المعنى تارة، وترجمة حرفيّة تارة أخرى. وكل بيت يترجم لوحده وله رقمه ليسهل الرّجوع إلى القصيدة الشّعبيّة. وفي شرحه للكلمات يذكر استعمالها من هذه القبيلة أو تلك، ويضع بعض الموازنات في ذلك، ويذكر طريقة نطق الكلمات بذكر المخارج وصفات الأصوات وتأثر هذا الصّوت بذاك في التّعبير، كما ويذكر زغويّة أخرى، وفيها خمسة عشر بيتا، ومطلعها:

أسابق الجوانح تعانَى رسالة
يالجرّة ببرأة تتغرّب
شُف لي الطّفلة المعثّلة
ناس فاطنة واين مضرب
ناس فاطنة رحلوا ولاّ لالا
خلّفوا الموكر والأرحب

ويلاحظ أنّ هذه الزّغويّة، على الرّغم من أنّها تنتمي إلى منطقة أخرى، فلها نفس النّمط والنّظام، فالتّشبيهات والمقارنات مستمدّة من الطّبيعة التي يراها البدوي يوميا.

وتختلف الزّغويات فيما بينها من حيث الإيقاع الدّاخلي حيث يكون هنا أسرع من الأخرى، وهذه أحزن من تلك. فتكون هذه أغنيّة لفارس التي ترتبط بسرعته، والأخرى لراكب الجمل الذي يسير بإيقاع معين ونمطي مرتبط به. ويجد تلك الزّغويات تختلف من منطقة إلى أخرى، فالنّوع الأول لبدو الأغواط وقرارة، والجلفة وبوسعادة، وأفلو، وشلالة، وبوغار وسيدي عبسى، وسعيد عتبة لورقلة، والنّوع الثّاني هي للقبائل التي يكون مهورها للرحلة والحرب بمعنى هي للشعامبة، وبني طهور، والمخادمة.

ويُطلق على النّوع الآخر من الشّعر الغنّايّة أو الغناء، وهي أقلّ شهرة في الجنوب من الزّغايّة، وهو غناء لا يغنّى تحت الخيمة، وإنّما في القصور، أو قرى الأهالي للأطلس الصّحرواي أو المزاب. وهذا مثال نظمه سي إبراهيم بن الشّيخ الدّين أحد أحفاد الحاج عيسى من أربعاء الأغواط، وهي كلّ شطر لوحده:

سَلْبَتْنِي ذَهْ الخَوْدَه
ادّات عقلي غدا
والكيده مصهودة
وحر قلبي غزير
وياريم الوهدة
آلّي اسمها الميّر

وهي قصيدة ذات السّتّة والأربعين بيتا، ويشرح القطعة الأولى ثم ينتقل إلى الأخرى. كما أتبعها بترجمتها، ثم الملاحظات التي منها:

أنّ الموضوع الأساسي للقصائد هو المرأة والحب. وإذا استثنينا في بعض الأحيان المدح والهجاء، فالحب هو مرتكز للشعر العربي بالعاميّة، كما تتناول بعض جوانب من حياة البدو التي منها الفروسيّة، ويتكلّم عن الصّيد والجمال والأحصنة، ولكن تكون في الاستطرادات؛ بحيث الحب والكراهيّة والدّين قبل كل شيء ثم يأتي الصّيد، وحرب القطعان، ولكن الطّابع الذي يُصبغ به هو الوطن. فهذه هي الموضوعات التي تثير البدوي، وهي التي تلبي حاجيات الشّخص، ولكن الفائدة الفرديّة تتلخّص في الدّين، فهو تقريبا المحرك الأساسي لنشاطات العربي. وهناك بعض الموضوعات الأخرى مثل التّقاليد والعادات.

ويتابع ألكستدر جولي موضوع الشّعر في العدد 47 وبالعنوان نفسه، ويعطي نموذجا من الغناء وهي قصيدة جمعها من واد الأحمر، في جنوب الأغواط، يسمى بعفو بن سليمان في 1900 والتي يجهل قائلها، وهي أربعة عشر بيتا ومطلعها:

املاح النّاس ألي بي
ساكنين السّد الوعر

ويتناولها بشرح كلماتها مع إعطاء ما يقابل المفردة في بعض مناطق أخرى من الجزائر، ويعطي ترجمتها، ليسهل على الفرنسيين الاطّلاع عليها ومعرفة مضامينها ودراستها.

ويوازي بين هذه الأغنيّة والزّغويّة، والفرق بينهما يكمن في الإيقاع الدّاخلي المهيمن عليهما وفي طريقة قراءتهما. وهو ما يميّز بينهما. وهذه القصائد كثيرة، وأغلبها رائعة، وتتميز أيضا بتلك المناظرة بين الأشياء مثل قصيدة: نزاع بين امرأة وغزال.

يا مرقوم الرّيش اسعاني
حشمتك ادّ عنواني
خفّق بجناحين
تغد الي لسبب امحاني
ميشومة اليدين
الطّفلة ألي عشقها جني.

وتناول عبد السّلام مزيان في العدد79 حياة ابن خميس ونشأته وعلاقته بالدّولة الزّيانيّة واغتياله، وكذا حول الشّعر العامي بتلمسان للشاعرين ابن مسايب وابن التّريكي وقصائده التي تقال في المناسبات مثل الجمعة، واللقاء أو التّرحيب.

6 – البحوث اللغويّة في المجلّة الأفريقيّة

كتب شربونّو في العدد 11 من المجلّة الأفريقيّة قراءة لمقال كتبه برسنييه Bresnier Louis Jacques والذي كان أستاذا بالجزائر وهو بعنوان «مبادئ أساسيّة للّغة العربيّة»، ويشير في مقدّمته إلى أهميّة اللغة العربيّة للأروبيين في الجانب الإداري والتّجاري، ويرى أنّه ظهرت قلة الاهتمام بتعلّمها، وعلى الرّغم من وجود الكتب حول ذلك، إلاّ أنّ الجيّد منها مفقود، ممّا جعل من يرغب في تعلّمها يبتعد عنها.

وBresnier من المستشرقين الذي خاضوا في هذا المجال، ويطلقون عليه «العالم»، فقد احتلّ مرتبة عاليّة. فكتابه «درس نظري وتطبيقي للّغة العربيّة» الذي نال التّكريم به في 1855 الذي لا يتميّز نحوه عن الأنحاء الأخرى بجديد خطواته فقط، ولكن بالعقليّة المنهجيّة الخاصّة التي بحث بها العناصر الأساسيّة مثل استعمال الأشكال الزّمنيّة للأفعال والاستعمال المتعدّد للأدوات.

ويفضّل الطّلبة الأوروبيون كتاب براسنييه على الأجروميّة، التي عرفت بأسلوبها المختصر أو الموجز والتي كثر شرّاحها وأعادوا صياغتها، كما لو أنّهم لم يستطيعوا تحسينها بتحرير كتاب أوسع منها وتبسيط أوضح. ولبراسنيه منتخبات هي مجموعة من النّصوص الأدبيّة والإداريّة تعدّ مصادر مهمّة. والتي يعتبرها المترجمون النّموذج والمثال، وكان يسعى إلى تدريب تلاميذه على الأسلوب الجيّد والحديث بتقريب الآداب، والأحكام، وكانت بعض النّصوص من محاكمة الأهالي والأخرى من الإدارة المسلِمة.

ويرى شربونّو أنّ الجمهور الجزائري من الأروبيين كان ينتظره كتاب برسنييه بكل شغف، لأنّه توضيح مختصر لمبادئ اللهجة المستعملة ، متبوعا بقواعد اللغة الفصحى، ويتمشى التّطبيق مع النّظري، وخطوات الحوار بجانب عناصر الأسلوب، فهو تقديم للكتاب الذي يسعى صاحبه إلى تعليم اللهجة المستعملة للأروبيين.

ويرى أنّه «لا يمكن أن تتعلّم اللغة العربيّة في الجزائر بالطّريقة نفسها التي تتعلّم بها في أوروبا، والتي ليس لها من هدف سوى التّكهنات العاليّة للعلم» وينبغي أن تكون مرتكزة على النّظري والتّطبيق، والعبارات المستعملة في الشّفوي التي تعبّر عن رغبات الإنسان.

والحقيقة فهي قواعد وأداة أسلوبيّة ينطق بها أو عبارات يتواصل بها الأفراد، فيكتبها باللغة الفرنسيّة ويضع لها ترجمتها، ويضع الملاحظات على فعل الملكيّة، وكيف يستعمله الجزائريون في لهجتهم، ويحاول في بعض المرّات أن يقارنه باللغة الفرنسيّة.

وينتقل إلى تصريف الفعل، ويرى أن الفعل الرّباعي تمّ المرور عليه مرور الكرام، فإذا كان في الفيلولوجيا حدثا مهمّا، ويستحق الدّراسة فبالصّيغة الرّباعيّة يصبغ المتكلّم أفكاره، ويعيد إنتاج الأصوات والحركات بدون حيلة امتزاج واحتمالات الحروف والإيقاع.

وهي صيغ موجودة في اللهجة أكثر من الفصحى وهي تمثّل الأونوماطوبيا. وهي تتصرّف مثل الفعل الثّلاثي، كما أنّ هناك صفات خاصّة باللهجة مثل شلاوشي ، ضحوكوكي، ومخازني وهو التّابع للإدارة، يمكن القياس عليها أثناء التّعلّم.

وتناول في الفصل الثّالثّ من الكتاب اللغة العالمة، وانطلاقا من الجذر الذي يعدّ الرّكن المهم عند النّحاة العرب لاشتقاق مختلف الأفعال والأسماء والصّفات، ويشكّلون من هذه الجذور المصطلحات التّقنيّة التي تصبح أسماء للأشكال النّحويّة.

وقد كتب شاربونو قراءة في المقال 12 في 13 جوان من سنة 1867 لكتاب براسنييه الموسوم «درس نظري وتطبيقي للّغة العربيّة»، ويقصد بالعنوان هنا اللهجة التي يتكلّمها الأهالي.

وله أيضا مقال في العدد 12 عنوانه: «ملاحظات حول أصل وتكوين الكلام الأفريقي»، فاللغة العاميّة المشتركة في المدن وبين العرب المستقرّين ليست لغة مضر، ولا لهجة الجيل الحالي لعرب البدو، فهي لغة أخرى، ولغة خاصّة وقائمة بنفسها، وتبتعد عن لغة مضر، وعن عرب اليوم، وتلك هي عبارات ابن خلدون في مقدمته التّاريخيّة التي تأكّدت قيمته في عيون الغربيين والمستشرقين، وأغلب أجزاء العالم الإسلامي الذي دراسة جادّة النّظر في اللهجات لكل السّاكنة.

ولاحظ الأسلوب الموحّد للهجة بين هذا وذاك، فالمفتِي والقاضي لا يتكلّمان أحسن من النّسّاج أو الحلاّق، إذ يستعملون كلهم نفس الكلمات وفي نفس المواقع، ولهم نفس النّطق ممّا يكوّن لهجة خاصّة، بسيطة تنتقل بها الأفكار وبكلّ وضوح. ويضع معجما لبعض الكلمات بالعربيّة، ويرى أن الطّلاّب كانوا ينتظرونه، وهو مكوّن من مجموعة من الصّفات وكيفيّة تشكيلها مثل:

– فرايجي أي فضولي بمعرفة الأشياء النّادرة، وأصلها: فرجة. – حشايشي: مغرم بالحشيش أو قزم القنب، وأصلها:حشيش. –فسايدي: لا يمكن إصلاحه،وأصله: فساد. –مداييني: الدّائن، الذي له دين عند الآخر. –صنايعي: صاحب الحرفة. وهذه صيغة تفيد استمراريّة الحدث. ونجد صيغة أخرى رباعيّة مثل: برابشي الذي تعود التّفتيش مع الخدش. وأصلها: بربش.

– مخازني: رجل سياسة ودبلوماسيّة والجذر مخزن (الحكومة). –طلامسي: الخداع، والجذر طلمس، بمعنى يدهش. وغيرها من الأمثلة التي يريد من خلالها تيسير تعليم اللهجة للطلاب كما يذكر ذلك. ويذكر الصّفات الأخرى والألوان ويشرحها باللغة الفرنسيّة ويكتب الأمثلة باللغة العربيّة.

ويوضّح في خاتمة بحثه بعض الأمثلة مثل كيفيّة تشكيل الكلمات في اللهجة، وهي التي يعترف بها ابن خلدون في أفريقيا، كما يقول إنّه يسّر للفيلولوجيين تذوّق قائمة العبارات الأكثر استعمالا في اللهجة.

وكتب A.Joly في العدد 50 من سنة 1906 مقالا بعنوان: «في اللغة المشتركة بين المغنّين العرب»، ويقصد بالمغنّين الذين ينشدون باللغة العربيّة العاميّة في الجزائر، فيذكر بعض مفرداتها التي تستعمل في تلك الأغاني بدلالات مغايرة عن اللغة المستعملة، ويعطي اشتقاقاتها.

ومن ذلك « كلمة بريولي» التي تعني حسب رونيه ماسي René Basset الكسكس، ويسّجل أن للكلمة وزنا بربريا، من الجذر (برن) مع تغيّر في النّون، بمعنى أدار البراغي، ولكن الجذر (برل) عربي، ويعطي القاموس برائل بمعنى الرّيش الذي حول عنق الطّير، فيشكّل طوقا، ويقال ذلك عن الحبارى التي تدلّ عن النّفش في المعركة.

ثم كلمة (برأل) تعني نفش الرّيش الذي يدور على العنق، ومجازا التّهيؤ للمعركة، وسواء في هذه الحال أو تلك فإنّ بريولي لها أحد جذورها التي تتضمّن دلالة الدّائرة، أدار فذاك شيء طبيعي ما دام إحضار الكسكس يتطلّب إدارة حباته. وهكذا يستمرّ في شرح كلماته، ويختم مقاله بقوله: «إن أغلب كلمات اللغة المشاركة للرحالة العرب في شمال ضاحيّة الجزائر العاصمة عربيّة، ولمفرداتها فائدة كبيرة للتفاهم». وإن معرفتها يمكن أن يملأ الثّغرات الموجودة في حلقة البحث التّاريخي، وهذا له أهميته في الدّراسة الموازيّة لمشتقات الدّلالة واشتقاقات الشّكل للجذر المعيّن.

ويبحث محمّد بن شنب اشتقاق كلمة الشّاشيّة بعنوان «أصل كلمة شاشيّة» في العدد 51 من سنة 1907، وكلمة الشّاشيّة معروفة لدى الكثير من النّاس، فهي القبعة أو الطّاقيّة من الصّوف الرّقيق ذات لون قرمزي، توضع على الرّأس، يغطّي بها أغلب الأهالي في الشّمال الأفريقي والسّوريون والأتراك رؤوسهم.

ويرى أنّه حسب باسي ودوزي في معجمه» المفصل لأسماء الألبسة عند العرب» المنشور في 1845، إنّ كلمة الشّاشيّة من «شاش»، وهي نوع من القماش الذي تصنع منه عمامة، تُلفّ بها القبعة التي توضع على الرّأس، وهذا الاشتقاق يبيّن أنّ القبّعات كانت مصنوعة من مادّة الموسلين، ثمّ من الصّوف، ويتوقّف عند عبارة يذكرها الجاحظ في رسائله، ويؤكّد أنّه بالرّجوع إلى «معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع لعبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي أبي عبيد (ت487ه) فإنّ كلمة شاش من بلد شاش، ومنه اشتقّت كلمة شاشيّة.

وشاش هي إقليم في بلاد ما وراء النّهر في آسيا الوسطى، وهي مدينة جليلة من عمالة سمرقند، وكان يسكنها الأتراك. ويذكر كلّ من الجاحظ (ت255ه) والبكري أنّ كلمة شاشيّة أصلها من شاش، أو كانت تصنع فيها، وأصبحت متداولة بهذا المعنى دون

البحث في نوعيّة القبّعة التي تلبس، أو شكلها أو بلد منشئها. وكانت طلبات كثيرة على هذه القبعات من الجزائريين، وكانت أسعارها مرتفعة أكثر من تلك المصنوعة في أوروبا.

وتناول الملازم كونسال Cancel Gérard في العدد52: «دراسة في لهجة تبلبلة بمنطقة توات» التي كان يحكمها، فحلّل الجانب الصّوتي منها بذكره الكلمات وكيفيّة نطقها، والضمائر الشّخصيّة والملكيّة، والمفاعيل وتحويل الأفعال، وصيغ الجمع.

وفي العدد 85 مقال كانتينو بعنوان «التّكلمات العربيّة في منطقة وهران»، ويذكر منهجه الذي لم يعتمد فيه على جمع المادة اللغويّة مدينة مدينة فحسب؛ وإنما دوّارا دوّارا، وهذا لتحديد كيفيّة النّطق، مع الإشارة إلى أنّه لم يجمع اللغة من كلّ المناطق. ويلخصّ النّتائج المتوصل إليها حول الحالة اللغويّة لإقليم وهران كالآتي:

– أنّ الرّابط البربري ضعيف في المناطق المدروسة باستثناء بعضها مثل بني سنوس وبني بوسعيد وغيرهما. ولا يوجد من يتكلّم البربريّة في بعض المناطق بالهضاب العليا. ولكن هناك مناطق مثل عين الصّفراء ما زالتّ تحافظ على النّطق الأمازيغي، وبني ونيف ويستشهد في ذلك بما ذكره Basset A. في كتابه الموسوم: «الوضع الحالي للهجة البربريّة في إقليم وهران».

والتّحدّث في وهران بالعربيّة أكثر وأقرب من قسنطينة والعاصمة. كما يبيّن طريقة نطق بعض الأصوات في لهجتي تلمسان ومستغانم مثل التّاء والقاف والظّاء والضّاد. ويحاول توزيع النّطق عبر المناطق، والكيفيّة التي يتمّ بها في تلك المناطق والاختلاف بينها.

وفي العدد 85 ورد مقال لكانتينو بعنوان: اللهجات العربيّة في أقاليم الجنوب»، ويظهر من جمله الأولى التّعريف بهذه التّكلّمات التي ليست معروفة للكثيرين، ويتدرّج ويعالج توزيعها الجغرافي في الجنوب، ويذكر 75 منطقة، جمع منها لغتها وهي: توقورت 20، وغردايّة 21، الواحات 6، عين الصّفراء 28. ومع ذلك فمن النّاحيّة المنهجيّة فإنّ شبكة البحث ليست كاملة، لأنّه بقيت بعض الأقاليم لم تجمع منه مادّته.

وتركّز الدّراسات حول اللّهجات على الواقع الاستعمالي للغة، أي المنطوق دون مراعاة المكتوب، وفي هذا المجال يذكر الملتقيات التي عقدت في تلك المواضيع ومنها: « الجغرافيّة اللسانيّة للتكلّمات العربيّة الجزائريّة (أشغال المؤتمر الثّاني سنة 1906، التّكلمات العربيّة لعمالة الجزائر، أشغال المؤتمر الثّالثّ، سنة:1937، الكلمات العربيّة لعمالة قسنطينة، وفي أشغال المؤتمر الثّالثّ لسنة 1938، ملتقى بعنوان التّكلّمات العربيّة في عمالة وهران).

ويذكر في هامش المقال الأعمال التي تناولت التّكلمات العربيّة للجنوب حسب علمه وهي:

ملاحظات حول الشّعر الحديث عند رحالة الجنوب الجزائري لـ A. Joly . وأشعار من الجنوب لنفس المؤلف. والعربيّة المستعملة في الجنوب الوهراني وغيرها من الأعمال.

واتّبع الخطوات الآتيّة في جمع اللّهجات: قدّم استمارة محضرة مسبقا خاصّة بمجموعة من المفردات(أقسام من الجسد، أدوات الزّراعة، الحيوانات، علاقة القرابة...)؛ والعناصر الصّوتيّة والعناصر المورفولوجيّة. ويطرح من خلالها أسئلة بسيطة جدّا. كما أنّ المستجوبين تكون لهم معرفة بسيطة أيضا، لتمكّنهم من ملء الاستمارة في أقلّ من ثلاث ساعات، ويتوجّه لمجموعة من الأشخاص المختارين بشكل عفوي، مع استبعاد المثقفين، وهو يعتمد في ذلك أيضا على الإداريين والضّباط العسكريين الموجودين في هذه المناطق من الجنوب.

وعلى الرّغم من الثّغرات الموجودة في شبكات البحث، إلا أنه حسب كانتينو يمكن تصنيف لهجات الجنوب الصّحراوي، والإشارة إجمالا إلى توزيعها الجغرافي، وتكون كيفيّة نطق الأصوات والكلمات كالآتي:

– الجزار والعجوز والجبس والزّيش(فرق الجيش) زحش(حمار صغير) تغيير الجيم زايا.

– الانتقال من الغين إلى القاف (القابة: الغابة)، قْنم (خراف)، ما بغاش(لم يرد)،

– وفي بعض الأحيان أخطاء في الانتقال من القاف القديم إلى الجيم (المصريّة) في مثل (قايد) (جايد)، ميل بالألف نحو الكسرة في مثل نْسى(الألف الطّويلة). ويشرح بذلك كيفيّة نطق هذه الأصوات في الكلمات عند أهل الصّحراء مثل بيت ولون ولبان وبرق.

أمّا في الجانب المورفولوجي فيتوقف عند تصريف الفعل في الضّمير الغائب المفرد المؤنث، وفي الجمع الغائب. ويرى أن تصنيف (أ) يشمل حوالي ثماني مائة كيلومتر من الغرب الجنوبي، وخمسمائة كيلومتر من الشّرق إلى الغرب، فهو يضع الخريطة اللغويّة لذلك التّكلّم، والفروق بينها وحدودها.

ويرى أنّ للمناطق المستقرّة لهجة أقرب إلى الصّنف (أ) منها إلى الصّنف(ج) مثل طولقا وبسكرة، وسيدي عقبة ومغاير. ومن هذه التّكلمات يستنتج أن تلك التي تتشابه كانت بسبب الانتقال من هذه المنطقة إلى أخرى، والتي تنتشر أكثر والتي لها تأثير على حياة النّاس.

ويتّضح من منهج كانتينو أنّه كان يفكر في وضع أطلس لغوي تفيد منه الإدارة المدنيّة والعسكريّة لكي تعرف التّعامل مع الأهالي حسب لهجاتهم. والحقيقة إنّ الدّراسات التي قام بها هؤلاء الباحثين حول اللغة العربيّة لا تقدّم شيئا كثيرا للعربيّة الفصحى ومصادرها، فقد كانت من أجل التّواصل اليومي فقط، فقد تغيّرت بنيتها وكثير من دلالات مفرداتها، وأصواتها، ولكنّها تفيد من النّاحيّة التّاريخيّة التّغير الدّلالي والصّوتي، والعلاقات اللغويّة بين المناطق المعيّنة التي تكشف عن غنى مفرداتها من جهة، والتّرابط بين الأفراد من جهة أخرى.

ولجان كانتينو عدّة دراسات للهجات العربيّة العاميّة في الجزائر، منها في محافظة الجزائر، وجنوب الجزائر. ويرجع اهتمامه باللهجات إلى أنه كان أستاذ فقه اللغات واللغات السّاميّة في كليّة الآداب في جامعة الجزائر. ودراساته كانت من 1899 إلى 1956.

وكان منهجه وصفيا، وأبرز التّأثير الجغرافي على نطق تلك اللهجات، ويلاحظ في أعماله التّأثير العسكري على دراساته والغايّة التي أنجزت من أجلها.

كما نشر في العدد 86 رشيد بن شنب «العاميّة العربيّة في الجزائر العاصمة» حيث قدّم الفرق بين اللغة الأدبيّة واللغة المستعملة التي تقسّم بدورها إلى لغات مألوفة التي يتكلّمها المجتمع الرّاقي، واللغة االمبتذلة التي يتكلّمها أهل الرّيف وعامّة الشّعب.

ويرى أنه في هامش مجتمع الفقر والنّصّابين توجد لغة تتضمّن معجما مميّزا يُبحث عنه في المفردات والمعاجم المخصّصة للمنطوق العربي الجزائري، وهذا الجانب غير معروف في علم اللهجات في شمال أفريقيا. ومن الكتب التي يستشهد بها «اللهجة العربيّة المتكلّمة في تلمسان» لوليام مارسيه، و«اللهجة العربيّة المتكلمة في سعيدة» لكوهان. وهو يسعى بذلك إلى توضيح أن هذه اللهجات تسعى إلى تكوين ذاتها انطلاقا من العربيّة الأدبيّة.

الخاتمة

في الأخير لقد عالجت المجلة الأفريقيّة موضوعات كثيرة خاصّة في اللغة العربيّة المنطوقة أي اللهجات، تناولها المستشرقون والعسكريون الفرنسيون قصد دراسة المجتمع الجزائري ، وكانوا يرون أنّ أول مفتاح نفتح به هذا المجال هو اللغة المستعملة في الحياة اليوميّة؛ ولكن هذه الدّراسات لا تفيد الفصحى في مرحلتها الآنيّة، وتحدّياتها مع الرّقمنة وتلكنولوجيا الاتصال والعلوم الدّقيقة.

ولقد كان الهدف منها هو تعليم الأجنبي تلك اللهجات من أجل التّواصل مع الأهالي، وتواصل الإدارة والجيش مع السّكّان، وتكوين علاقات معهم، وفهم روابطهم من خلال اللغة المستعملة، وليس لتعلّم العلوم بها لأنّه ليس لها هذا المضمون.

• أ. أحمد عزوز
– جامعة وهران

المصادر

1. – المجلة الأفريقيّة من العدد 01 سنة 1856 إلى 106 سنة 1962، جريدة أعمال الجمعيّة الجزائريّة التّاريخيّة، المطبعة والنّاشر أ. جوردان، الجزائر. الموقع: http://www.algérie ancienne.com

اللّغة العربية في جهود الإصلاحيين الجزائريين

أ.د. رويسات محمّد

لمواجهة الاستعمار الفرنسي الّذي جثم على صدر الجزائر ما يربو على قرن وربع قرن من الزّمن، كان رجال الإصلاح الجزائريون متشبّثين بأركان الشّخصيّة الجزائريّة المتمثّلة في اللّغة العربيّة والدّين الإسلامي، والوطن الجزائري، وفي هذا الإطار يندرج موضوعنا.

ومن أهّم تجلّيات الجهود الإصلاحيّة للحفاظ على اللّغة العربيّة الشّريفة لغة القرآن الكريم والدّفاع عنها، مجال التّعليم والصّحافة، لذا ارتأيت أن أتناول بالبحث مايلي:

1-القسم الأوّل: حالة التّعليم في الجزائر قبل وإبان الاحتلال الفرنسي.

2 -القسم الثّاني: تجلّيات جهود روّاد الإصلاحيين الجزائريين لخدمة اللّغة العربيّة في مجال التّعليم والصّحافة. (جهود فرديّة)

3 - القسم الثّالث: تجلّيات جهود الجمعيات الإصلاحيّة لخدمة اللّغة العربيّة في مجال التّعليم والصّحافة (جهود جماعيّة) – جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين أنموذجاً-

القسم الأوّل: حالة التّعليم في الجزائر قبل وإبان الاحتلال الفرنسي.

أوّلاً-: حالة التعليم في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي

ادّعى بعض الفرنسيين أنّ وضع التّعليم في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي كان متدهوراً، وأنّ نسبة الأميّة كانت مرتفعة بين السّكان، وذلك بغرض التّرويج لوهم (الرّسالة الحضاريّة) الّتي جاء بها الاستعمار، لكن الحقيقة خلاف ذلك، فالتّعليم في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي كان مزدهراً نسبيّاً، وكان يمارس بمستوياته المختلفة، (ابتدائي، ثانوي، عالي) وله مؤسّساته وعلماؤه وإجازاته.

وبشهادة الفرنسيين أنفسهم، يؤكّد (رُوزِيت/ Roset) ذلك بقوله: إنّ هؤلاء السّكان (أي الجزائريين)» كانوا أكثر تعليماً من الشّعب الفرنسي حيث أنّ كلّ الرّجال تقريباً يعرفون القراءة والكتابة والحساب»، وفي تقرير للجنرال (Alexandre Dumas/ أَلِكْسَندر دُومَا) جاء فيه: «كان التّعليم الابتدائي أكثر انتشاراً في الجزائر، وذلك على عكس الاعتقاد السّائد آنذاك، ولقد أثبتت معرفتنا للسّكان الأصليين في المقاطعات الثّلاث، أنّ نسبة الذّكور الّذين يحسنون القراءة والكتابة كانت على الأقل مساوية لتلك الّتي تذكرها الإحصائيات عن نسبة المتعلّمين في أرياف فرنسا، (أي حوالي 40٪). وكذلك الجنرال (Walsln– Eesterhazy/ ويلْسِن اسْتِرْهازي) والجنرال (/ Ismail Urbain اسْمَاعِيل عَرْبَان) يؤكّدان بأنّ عدد الجزائريين الّذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة أكثر من الفرنسيين، والدّليل على ذلك حسب اسْتِرْهازي هو توقيع السّكان وإمضاؤهم في دفاتر الحالة المدنيّة باللّغة الفرنسيّة وباللّغة العربيّة في السّنوات الأولى للاحتلال الفرنسي.

هذا ويعترف الجنرال (/ Gerasi– mov–Valery جِيرَاسِيمُوف فاليري)عام 1934م بأنّ وضعيّة التّعليم في الجزائر كانت جيّدة قبل التّواجد الفرنسي؛ لأنّ كلّ العرب الجزائريين تقريباً يعرفون القراءة والكتابة، إذ تنتشر المدارس في أغلبيّة القرى والبوادي.

ويصرّح ديشي المسؤول عن التّعليم العمومي في الجزائر في قوله: «كانت المدارس بالجزائر والمدن الدّاخليّة، وهي في أوساط القبائل كثيرة، ومجهّزة بشكل جيّد، وزاخرة بالمخطوطات، ففي مدينة الجزائر هناك مدرسة بكلّ مسجد، يجري فيها التّعليم مجّاناً، ويتقاضى أساتذتها أجورهم، من واردات المسجد، وكان من بين مدرّسيها أساتذة لامعون تنجذب إلى درسهم عرب القبائل.»

إنّ هذه الشّهادات تفنّد وتدحض كلّ الادّعاءات والمزاعم الّتي مفادها أنّ

الشّعب الجزائري كان شعباً أمّياً، وأنّ الاستعمار الفرنسي هو الّذي أدخل معه التّعليم إلى الجزائر، فالتّعليم قبل الاحتلال الفرنسي كان منتشراً في مختلف مناطق البلاد، وخاصّة المدن العريقة كتِلِمْسَان ونَدْرُومَة ومُعَسْكَر وبجَايَة ومازُونَة، والجَزائِر العاصمة وقُسَنْطِينَة، والْمَدِيّة وغَرْدايَة...الخ إذ كانت الكتاتيب والمساجد والزّوايا تقوم بمهمّتها في تعليم الأمّة وتنشئتها تنشئة عربيّة إسلاميّة، حيث ترك العثمانيون أمور التّعليم للسّكان المحلّيين، ولم يكن لهم سياسة تعليميّة واضحة، «وكان أساس تحقيق هذا الرّقي في التّعليم واكتساب المعرفة الدّافع الشّعوري المنبثق من أعماق الشّعب.»

فبالنّسبة لمدينة تِلِمْسان على سبيل المثال لا الحصر، و«الّتي كان عدد سكّانها عند الاحتلال يتراوح ما بين 12000 و15000 نسمة، كان بها خمسون مدرسة ابتدائية وثلاثة معاهد للتّعليم الثّانوي والعالي.»

تؤكّد هذه الشّهادات والإحصائيات أنّ حالة التّعليم في الجزائر قبل الاحتلال كانت مزدهرة إلى حدّ ما، وأنّ الاستعمار الفرنسي لا فضل له في تنوير وتثقيف الجزائريين، وما يردّده أذناب المحتلّ في هذا الشّأن ما هو إلاّ ادّعاء باطلا، وافتراء كاذبا لا يثبت في الميدان، ويكذّبه سلطان التّاريخ وشهادات المنصفين من الدّارسين والمؤرخين بمن فيهم الفرنسيون.

- ثانياً -: حالة التّعليم في الجزائر إبّان الاحتلال الفرنسي.

إبان فترة الاحتلال، لم يكتف الفرنسيون بعد سيطرتهم على البلاد بوضع أيديهم على كلّ أملاك الدّولة الجزائريّة العثمانيّة، (أَمْلاك البايْلَك)، بل راحوا ينهبون بكلّ نهم وجشع الأملاك المحبوسة (أملاك الأوقاف الإسلاميّة) والّتي غالباً ما تخصّص مواردها لتغطيّة نفقات التّعليم بكلّ أطواره، وكذالك الخدمات الاجتماعيّة الّتي تُبقِي المجتمع بكلّ فئاته وطبقاته متماسكاً ومستقراً، وذلك إثر إصدار القرار المشؤوم بمجيء الجنرال (Clauzel/ كْلُوزِيل) إلى الحكم، بشأن أملاك الأوقاف الإسلاميّة في الثّامن من ديسمبر 1830م، الّذي يقضي بمصادرة الأوقاف وضمّها إلى (Domaine/ الدّومين)، وجعل دخلها لصالح الإدارة الاستعماريّة دون تعويض أصحابها...، وهذا رغم الاتّفاق المعقود بينهم وبين حكومة الجزائر في 04 يوليو (جويلية) 1830م عند تسليم مدينة الجزائر لقادة الاحتلال، وتعهّداتهم باحترام الدّين الإسلامي وأوقافه، ومعاهده، واحترام ملكيّة المواطنين الجزائريين وحرّيتهم الدّينيّة.

وفي 07 ديسمبر 1930م أصدر قادة الاحتلال أمراً آخر يكفل لهم (حق التّصرّف في أملاك الأوقاف الإسلاميّة والتّأجير والكراء)، كما أمر قائد الحملة بالاستيلاء على أعظم وأجمل جامع في المدينة من أجل تحويله إلى معبد لإلاه المسيح، وأرسل خطاباً للقسيس الّذي رافق حملة الغزو، يقول له فيه: «إنّكم جئتم معنا إلى هنا لتفتحواْ من جديد أبواب المسيحيّة في إفريقيا.»

لقد كانت إدارة الاستعمار الفرنسي تسعى إلى تحقيق مشروع (الجزائر الفرنسيّة) واستئصال شعبها من مقوّماته الأساسيّة، حيث قامت بمحاربة اللّغة العربيّة الفصحى، وتشجيع اللّهجات المحلّيّة، وتشويه التّاريخ الإسلامي في الجزائر، وركّزت على التّاريخ الأوربي البيزنطي في الجزائر، بإيحاء فكرة الانتماء والتّواصل، فقامت بإغلاق المدارس القرآنيّة، والكتاتيب، ومصادرة أملاك الأوقاف في 1830م، والزّوايا في 1844م، لتجهيل الشّعب الجزائري، وتشجيع الخرافات والبدع والأباطيل، كما قامت باضطهاد العلماء وتشريدهم،، واستعانت في ذلك بمراسيم أصدرتها لتنفيذ سياستها التّعليميّة، منها مرسوم 30/ 09/ 1850م يخصّ المدارس العربيّة الفرنسيّة، وضرب هذا الإجراء حركة التّعليم القرآني في الصّميم، لاسيّما في الأرياف، كما في المدن، حيث انعدمت الدّروس المسجديّة الرّفيعة، وحلقات الزّوايا المفيدة، ونهبت كنوز المخطوطات، وغاب مشاهير العلماء والفقهاء.

وبارتكاب هذه الجرائم من قبل الإدارة الفرنسيّة الّتي منها الاستيلاء على أملاك الأوقاف والأملاك التّعليميّة، فقد جُرِّد التّعليم الجزائري من أهمّ موارده ومؤسّساته.

وقد حرّك هذا بعض أولائك الفرنسيين الّذين كانواْ يقفون من الجزائريين موقفاً معادياً، مثل(Alexis de Tocqueville/ ألكْسِيس دو تُوكْفيل) الّذي صرّح بقوله: «لقد وضعنا أيدينا

في كلّ مكان على هذه الأملاك (الأوقاف) ثمّ وجّهناها غير الوجهة الّتي كانت تستعمل فيها في الماضي، لقد عطّلنا المؤسّسات الخيريّة، وتركنا المدارس تموت، والنّدوات العلميّة تندثر، « والقضاء على المؤسّسات التّعليميّة كان يعني اضطهاد اللّغة الوطنيّة وهي العربيّة، لقد اعتبرها الفرنسيون لغة أجنبيّة ميّتة، بحكم قرار الإلحاق سنة 1834 م الّذي كان يعني أنّ الجزائر نفسها أصبحت فرنسيّة، وصارت لغتها ميّتة، لا لأنّ مصيرها قد انتهى كمصير اللاّتينيّة والإغريقيّة فقط، ولكن أيضاً لأنّها لن تكون قادرة على أن تصبح لغة حضارة.

وعلى هذا الأساس أهمل الفرنسيون تعليم العربيّة للجزائريين، واكتفوا باستعمالها لأغراض إداريّة استعماريّة فقط. وهكذا بعدّ ازدهار التّعليم قبل الاحتلال الفرنسي صار إبّانه في انكماش للأسباب الّتي ذكرناها وغيرها.

لكن العربيّة – وعلى الرّغم من ذلك – حافظت على وجودها من خلال ثلاث قنوات، الأولى هي المدارس القرآنيّة، (الكتاتيب) والثّانيّة الوعظ والإرشاد في المساجد، وأمّا الثّالثّة فهي خلق ثلاث مدارس ثانويّة باللّسانين سنة 1850م مع التّركيز طبعاً على اللّسان الفرنسي.

ففي الرّيف والمناطق غير المحتلّة، فقد استمرّت المدارس القرآنيّة على أداء وظيفتها في مقاومة عنيدة رغم أحداث المقاومة والثّورات المتواليّة، يقول (Alexandre Belmar/ الإِسْكَنْدَر بِيلْمَار) عن موقف الأمير عبد القادر من التّعليم: «لقد جعل التّعليم مهمّة أساسيّة باعتباره سلطاناً مسلماً، كما جعل من مهامه الأساسيّة رفع شأن الدّين والعلم، والأمير رتّب التّعليم من (الابتدائي إلى الثّانوي المسجدي إلى العالي) يعرف مراحل التّعليم من زاويّة جدّه في / EL Guetna القِيطْنَة بمعسكر، وفي إحصائيات نشرت سنة 1851م جاء فيها أنّ المدارس القرآنية في الرّيف بلغت 85 مدرسة تعلّم القرآن مع مبادئ القراءة والكتابة، والدّين، يتردّد عليها حوالي 10925 تلميذاً، وهذا بفضل جهود المواطنين ؛ لأنّ الإدارة الفرنسيّة قامت بمصادرة الأوقاف، وإفقار العلماء ونفيهم.»

وفي تقرير رسمي رفع إلى رئيس الجمهوريّة الفرنسيّة سنة 1851م من قبل وزير الحرب،: «أن لا وجود لتعليم فرنسي في الأرياف (البوادي) ولا يتعلّم الأطفال سوى القرآن على يد (الطّلبة) الّذين يدفع الآباء لهم مبلغاً من المال.»

وقد قامت الجمهوريّة الثّالثّة بإجراءات انتقاميّة من الجزائريين، منها: غلق المدارس القرآنيّة، في مناطق الثّورات، ومصادرة الأراضي الباقيّة في أيدي الثّائرين، وإعطاؤها إلى مشرّدي الالزّاس واللّورين، كما فرضت الضّرائب الثّقيلة على المشاركين في الثّورات، ونفت الأعيان والطّلبة الّذين رأت فيهم الأعداء الدّائمين.

لذا يعدّ التّعليم ونشر العربيّة من أهمّ المطالب الأساسيّة والأهداف المركزيّة للإصلاحيين في الجزائر أفراداً وجمعيات، وهو بمثابة رد فعل على السّياسة التّعليميّة للاستعمار الفرنسي، باعتباره شكلاً من أشكال المقاومة الوطنيّة، يتمّ ذلك بفضل جهود رجال الإصلاح في مجال التّعليم بمستوياته ووسائله: الكتاتيب والمدارس الحرّة، المساجد والزّوايا، والجمعيات والنّوادي.الخ

وممّا يلاحظ بهذا الصّدد أنّ رجال الإصلاح في الجزائر بانتهاجهم هذا المنهج، إنّما يلتقون في ذلك مع أبرز أعلام النّهضة الإسلاميّة، مثل الأفغاني، محمّد عبده، محمّد رشيد رضا، شكيب أرسلان، عبد العزيز الثّعالبي.وغيرهم.

–القسم الثّاني: تجلّيات جهود روّاد الإصلاحيين الجزائريين لخدمة اللّغة العربيّة في مجال التّعليم والصّحافة. (جهود فرديّة).

توطئة: عوامل ظهور الحركة الإصلاحيّة في الجزائر:

إنّ عوامل ظهور الحركة الإصلاحية في الجزائر كثيرة، أهمّها:

1 – تأسيس الجامعة الإسلاميّة في أواخر القرن X1X، حيث بدأت تنضج أفكارها مع بداية القرنxx، بظهور مجلّة (العُرْوَة الْوُثقى) الّتي تركت تأثيراً واضحاً في بعض الشّيوخ بالجزائر المتطلّعين للإصلاح في مواجهة الاستعمار الاستيطاني الفرنسي، والطّرق الصّوفيّة الّتي استطاعت الإدارة الاستعماريّة تحويلها من مراكز ثوريّة ضدّ الاحتلال إلى زوايا تعمل بالتّعاون معها ؛ وذلك أنّ الحركة الإصلاحيّة الإسلامية بقيادة كلّ من الشّيخ (جمال الدّين الأفغاني) والشّيخ (محمّد عبده) مثّلت منهجاً وسطاً بين أهل الجمود والتّقليد لعصر التّراجع الحضاري للمسلمين وبين المنبهرين بالنّموذج الحضاري الغربي.

2 – زيارة الشّيخ محمّد عَبْدُه إلى الجزائر سنة 1903م وهي مناسبة مهمّة لدخول أفكار الإصلاح إلى الجزائر، حيث يقال أنّه اصطدم وحزن من بعض المظاهر المؤسفة، أهمّها مظهر اختفاء اللّغة العربيّة، وقد التقى بجماعة من العلماء الجزائريين، كان أبرزهم (عَبْدُ الْقادِرِ الْمَجَّاوي) و(عَبْدُ الْحَليم بْنُ سَمايَة)، نصحهم بلزوم الصّبر وأوصاهم بالتّركيز على التّكوين الأخلاقي والمعنوي للأفراد، والامتناع عن نقد الاستعمار، وحذّرهم من عواقب الخوض في السّياسة.يقول (الْبَشِير الْإِبْراهيمي): «لا نزاع في أنّ أوّل صيحة ارتفعت في العالم الإسلامي بلزوم الإصلاح الدّيني والعلمي، في الجيل السّابق لجيلنا هي صيحة إمام المصلحين الأستاذ الإمام الشّيخ محمّد عَبْدُه، رضي اللّه عنه، وأنّه أندى الأئمّة المصلحين صوتاً وأبعدهم صيتاً في عالم الإصلاح، وحمل لواء الإصلاح بعد موت الإمام تلميذه الأكبر ووارث علومه السّيد (محمّد رَشِيد رِضَا)،، وقد كان في حياة الإمام ترجمان أفكاره، والمضطلع بعد موته بحمل أعباء الإصلاح....»

فإقرار الشّيخ الْإبْراهيمي هذا يبرز درجة تأثّر الحركة الإصلاحيّة في الجزائر بأختها في المشرق العربي.

3 – من العوامل أيضاً عودة الاتّصال الفكري الخصب من جديد بأقطار الأمّة العربيّة، وهو الاتّصال الّذي انقطع بدخول الاحتلال الفرنسي إلى الجزائر سنة 1830م.وذلك عبر بعض الصّحف والمجلاّت الشّرقيّة، منها:

أ – مجلّة **العُرْوَة الْوُثقى**: الّتي أصدرها رائدان من روّاد النّهضة الإسلامية العربيّة في هذا العصر، وهما جمال الدّين الأفغاني ومحمّد عبده، والّتي كانت تدعو إلى يقظة العرب والمسلمين، وتدافع عن بلادهم ضدّ الاحتلال الأجنبي.

وقد كانت (الْعُرْوَة الْوُثقى) تصل إلى بعض المثقّفين الجزائريين وتدعو من خلالهم الجزائر إلى رفض التّغريب وإلى الاحتفاظ بأحوالهم الشّخصيّة كمسلمين في وجه إمكانيّة التّجنيس.

ب – **مجلّة الْمَنار**: أصدرها الشّيخ محمّد رَشيد رِضا في الْقاهِرة سنة 1889م وكان يرسلها إلى مختلف البلاد العربيّة والإسلاميّة –وقد طلب الجزائريون من الشّيخ محمّد عَبْدُه لمّا زارهم: أن يوصي صاحب (المنار) بألاّ يذكر في مجلّته دولة فرنسا بما يسوؤها، لئلا تمنع دخول (المنار) إلى الجزائر، وقالو له: «إنّنا نعدّه مدد الحياة لنا، فإذا انقطع انقطعت الحياة عنّا»

ج–**جريدة المُؤَيِّد**: أسّسها الشّيخ (عَلِي يوسُف) في القاهرة، في عام 1889م وكانت تدعو إلى اليقظة والإصلاح، ومقاومة الاستعمار والاستبداد، وكانت رائجة في أقطار المغرب العربي.

د–**جريدة اللِّواء**: أسّسها الزّعيم المصري (مُصْطَفى كامِل) في القاهرة سنة 1900 م

وكانت تكتب عن الجزائر كثيراً، وتدافع عن الخلافة الإسلاميّة في الأستانة.

4 –الحرب العالميّة الأولى وما كان لها من تداعيات وآثار على زعماء الطّرقيّة بعدما انكشفت خباياهم وانفضحت مزاعمهم، وثبتت اتّجاهاتهم الحقيقيّة، فانحدرت بذلك قيمة المقدّسات الوهميّة لديهم في نظر كثير من النّاس.

5 – البعثات العلميّة إلى كلّ من الحجاز أو جامع الزّيتونة بتونس أو الأزهر الشّريف بالقاهرة أو سوريا، أو المغرب، الّتي لعبت دوراً هامّاً في إذكاء فكرة الإصلاح في الجزائر، بعد أن عادت طائفة منهم بالهدي المحمّدي والعلم النّافع، والتّطلّعات المستقبليّة.

6 –ومن هذه العوامل: الثّورة التّعليميّة الّتي أحدثها أبرز روّاد الإصلاح الجزائريين في هذا الشّان، وهو الشّيخ (عبد الحميد بن باديس)، وهو أحد المهاجرين الشّغوفين بالعلم والإصلاح، وتجلّت ثورته التّعليمية في دروسه الحيّة وتربيّته الصّحيحة .

7 – هذا إضافة إلى الاستعداد الفطري للشّعب الجزائري وما لحقه من دمار مادّي ونفسي، نظراً لما سلّطه عليه الاستعمار الفرنسي من تعذيب واضطهاد وحرمان في شتّى مناحي الحياة.

كلّ ذلك وغيره مهّد لظهور الحركة الإصلاحية في الجزائر بداية من النّصف الثّاني للقرن XIX.فكان السّبق لرواد الإصلاح بجهودهم الفرديّة في مختلف المجالات والميادين والوسائل، تليها الجهود الجماعيّة للعلماء عن طريق الجمعيات والمؤسّسات، وغيرها.

أوّلاً: جهود رّواد النّهضة والإصلاح في مجال التّعليم: (جهود فردية):

أ – شخصيات إصلاحيّة جزائريّة رائدة في مجال التّعليم:

ظلّ الصّراع المسلّح محتدماً بين الشّعب الجزائري والاحتلال الفرنسي حتّى أواخر القرن XIX الميلادي، كما هو الحال في النّضال الثّقافي. وما يكاد يطلّ القرن XX حتّى برز رجال من صلب هذا الشّعب الأبي المجاهد، يتسلّحون باليقظة ويرسمون الطّريق إلى النّهضة، وتمثّل ذلك في جهود فرديّة لمجموعة من العلماء المصلحين سعت إلى إرساء المبادئ الإصلاحيّة الدّينية والاجتماعيّة والثّقافيّة مستعينة في ذلك بالكتاتيب والمدارس القرآنية، والمؤسّسات التّعليميّة والمواعظ المسجديّة، وبنشر المقالات الصّحفيّة.

وقد تميّزت الحركة الوطنيّة الجزائريّة – في مستهلّ القرن XX – ببروز اتّجاهين –ضمن هؤلاء الرّواد– هما:

–**الاتّجاه الأوّل**: يتمثّل في المثقّفين بالثّقافة الغربيّة، أمثال ابن التّهامي، وأحمد بن ضربة، وغيرهما من خريجي المدارس الفرنسيّة، وهذا مالا نتعرّض له.

–**والاتّجاه الثّاني**: وهو الاتّجاه المحافظ حيث تزعّمه (بْنُ الْمَوْهوب)، و(عَبْدُ الْحَليم بْنُ سَمايَة)، و(عَبْدُ الْقادِر الْمَجَّاوي)، ومن بين هذه الشّخصيات الّتي تنتسب إلى هذا الاتّجاه: (حَمْدان لُونِيسي) أستاذ الإمام عَبْدُ الْحَميد بْنُ باديس، (سَعيد بْنُ زَكْري)....الخ

وقد تكوّنت هذه الجماعة في المدارس القرآنيّة والمدارس العربيّة والفرنسيّة الجزائريّة، ثمّ في بعض جامعات الشّرق الأدنى، فكانت تعارض الأفكار الغربيّة، وتنادي بالحفاظ على النّظم الإسلاميّة، والتّعليم العربي، وغير ذلك،

وكان هـؤلاء العلمـاء الجزائريـون معاصرين للشّـيخ محمّد عَبْدُه، ورَشيد رِضا، إنّ هؤلاء العلمـاء كانواْ الممثّلين للثّقافـة الجزائريّة، والمتحدّثين باسـم الجامعة الإسلاميّة في الجزائر.

***- من جهود روّاد النّهضة والإصلاح غير المنتسبين لجمعيّة العلماء:**

هنـاك مجموعـة مـن الـرّواد الّذين أسـهموا بمجهوداتهم الفرديّة في مجال التّعليـم والصّحافة في مطلـع القرن xx وقبل نشأة الجمعيّة.

وكان لهـم حظ وافر فـي خدمة اللّغة العربيّة والمحافظة على الثّقافة الإسلاميّة عـن طريـق التّدريـس فـي المسـاجد والمـدارس، أو تأليـف الكتـب باللّغة العربيّة، ومن هؤلاء العلماء:

1 – (الشّـيخ الْمَجّـاوي): (1848م – 1913م) وهو عالم متمكّـن، يعدّ إحدى دوائر المعارف لسـعة اطّلاعـه وغزارة علمه، من أهمّ شـيوخه (الشّيخ حَمْدان لُونِيسي) الأسـتاذ الأوّل للشّـيخ (عَبْدُ الْحَميـد بْـنُ باديس)، لـه مؤلّفات يبلغ عددهـا ثلاثة عشـر كتابـاً حـول اللّغة وعلومها، قاوم البدع والضّلالات كبقيّة رجال الإصلاح.

2 – (الشّيخ أبو الْقاسِـم الْحَفْناوي): (1852م – 1942) وهو شاعر ومؤرخ، كان كاتباً بليغاً وباحثـاً مدقّقاً، درّس بالجامع الكبير بالعاصمـة، كما تولّى الإفتاء على المذهب المالكي ابتداء من عام 1936م.

ومن أهـمّ أعمالـه الثّقافيّـة: الكتاب الموسـوعة (تعريـف الخلـف، برجال السّـلف) ألّفه بهدف تذكير الجزائريين بمآثر أسـلافهم فـي العلـوم والآداب حتّى يقتدواْ بهم في الإقبال على العلوم العربيّـة الإسـلاميّة، والمحافظـة على تراثهم القومي الثّقافي.

3 – (الشّـيخ عبْدُ الحَليم بْنُ سَمايَة): (1866م – 1933م) وهـو مـن العلمـاء القلائل الّذين نشرواْ الفكرة السّلفيّة في الجزائر، وقد ذكر الشّـيخ (محمّد رَشيد رِضـا) في كتابـه (تاريخ الإمـام محمّد عَبْـدُه،) أنّـه ممـن اجتمع بهـم الإمام (محمّـد عَبْـدُه) عند زياتـه للجزائر في عام 1903م، وقد تخرّج على يد الأسـتاذ (ابْنُ سَـمايَة) جيل من طلاّب العلم في المدرسة (الثّعالبيّة) الرّسميّة بالعاصمة، شارك ببحث قيّم عن الفلسفة الإسلاميّة فـي المؤتمـر الدّولـي الرّابـع عشـر للمستشـرقين الّذي انعقد فـي الجزائر سنة 1905م.

وكان ذا شجاعة في إبداء الرّأي، فقد أرغمت فرنسـا بعض العلماء الضّعاف النّفـوس علـى الفتوى بجـواز محاربة الجزائريين للدّولة العثمانيّة في الحرب العالميّة الأولى فأفتوهـا بذلك، وامتنع الشّـيخ (عَبْـدُ الْحَليـم بْنُ سَـمايَة)من الفتوى، وقـال للجزائريـين: (لاَ تَجُوزُ مُحَارَبَةُ الْعُثْمَانِيين فَهُمْ دَوْلَتُنَا.).

4 – (الشّـيخ مصْطَفى بْـنُ الْخُوجَة): (1865–1915) وهو المشـهور بالشّـيخ الْكَمَـال، وهو من أتبـاع (محمّد عَبْدُه) وعلى رأس مدرسته في الجزائر.

كان يولـي اهتماماً كبيراً لنهضة المرأة الجزائريّـة، ويـرى أنّها الطّريق السّـليم لإصلاح الجيل الجزائـري الّذي أصبح لا يعرف ثقافة آبائه وأجداده العربيّة، وقد ألّف كتاباً عن حقوق المرأة في الإسـلام أسماه (الاكتراث في حقوق الإناث) كما عني بتحقيق ونشـر مجموعـة من كتب التّراث العربي التـي ألّفها جزائريون في عهـود مختلفـة، مثل تحقيقـه لكتاب ل (الجواهر الحسان في تفسير القرآن).

عيّـن مدرّسـاً في مسـجد (سـفير) بالجزائر العاصمة، وكان يدرّس التّفسير والتّوحيد والفقـه، والأدب العربي،كما اشـتغل محرّراً فـي الجريدة الرّسـميّة (المبشّـر) مـن سـنة 1886 م إلى سـنة 1901م.

5 – (الأسـتاذ الدّكتور محمّـد بْنُ أبي شَـنَب): (1869–1929م): وهـو مـن أهمّ الشّـخصيات المثقّفة الّتي أسـهمت في الجهـود النّهضويّة للّغة العربيّـة والثّقافة الإسـلاميّة في الجزائر، ابتـداء من مطلع القرن xx، وقد سـاعده علـى ذلك إجادته لعدّة لغات أوربيّة وشـرقيّة بالإضافة إلى اللّغة العربيّة على ما قام به من عمل جليل لخدمة الثّقافة العربيّة في الجزائر، لِما ألّف من كتـب قيّمة، وأنجز من بحـوث راقيّة المسـتوى، ألقاها في المؤتمرات الدّوليّة للمستشـرقين في مختلف جهات العالم، وقـد كان الدّكتـور محمّد بن أبي شـنب يعمل أسـتاذاً للأدب العربـي والحضارة الإسـلاميّة فـي كلّيـة الآداب –جامعـة الجزائر، كما كان عضواً بالمجمع العلمي العربي في دمشـق، وكتب بحثاً نشـر قبل وفاته في مجلّة الشّـهاب فـي عام 1929م. وقـد قال عنـه الشّـيخ (عَبْدُ الْحَميـد بْنُ بَاديس) يوم وفاته: «(لَمَّا عَرَفْناهُ فَقَدْناهُ)». ومـن الكتـب الّتـي حقّقها علميـاً على الطّريقة الحديثة ثمّ نشرها نذكر ما يلي:

1 – كتاب (عنوان الدّراية فيمَن عُرَف مِن العلماء في الْمِائة السّابِعَة بِبِجايَة) لـ(أبي الْعَبّـاس الْغِبْرينـي) المتوفّي سنة 714هـ

2 – كتاب (الْبُسْـتان في ذِكْر الْأَوْلِياء والْعُلمـاء بِتِلِمْسـان) لـ(ابـن مَرْيَـم التِّلِمْساني).

3 –كتـب (طبقـات علمـاء إفريقيا) ل (أبـي الْعَـرَب التَّميمي)، مـع كتاب (طَبقـات عُلمـاء إفريقيـا) لـ(محمّـد الْخَشْـني)، وكتـاب (طبقـات عُلمـاء تُونس) لأبي العرب المذكور أعلاه.وقد

طبعت الكتب الثّلاثة في مجلّد واحد في باريس سنة 1915م.

4 –كتاب (نزهة الأنظار في فضل علم التّاريخ والأخبار). للشّيخ الحسين الورتيلاني.

ب – تأليف أو طبع أعمال علمية أو تاريخيّة أخرى باللّغة العربيّة:

1 – تأليف كتاب هام عن حياة وتراث الأمير عبد القادر بعنوان (تحفة الزّائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر)، وقد أنجز هذا العمل محمّد باشا ابن الأمير عبد القادر، الّذي كان يتمتّع بمركز محترم، وسمعة واسعة في الشّرق الأدنى.

وهكذا بمطلع سنة 1924م كانت الحياة الثّقافيّة قد بعثت في الجزائر.

وتمثّل جهود هؤلاء الأعلام الشّعلة الأولى في طريق النّهضة والإصلاح رغم قساوة الظّروف، وقلّة ذات اليد، بما كانواْ يسهمون به في إصلاح العقيدة الدّينيّة، ودعوة الشّعب إلى التّشبّث بمقوّمات شخصيّته، والأخذ بأسباب العلم والإفادة من وجوه المدنيّة الحديثة.

-* من جهود رواد الإصلاح من علماء جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين قبل تأسيسها:

ومن أبرز روّاد الإصلاح الجزائريين، والّذين يعدّون من الطّلبة والعلماء الّذين هاجرو إلى الشّرق الأدنى وتونس وغيرها، وعادواْ إلى وطنهم الجزائر متشبعين بأفكار الإصلاح وقد نهلواْ من العلم كثيراً، ولهم فيه باع طويل، وهم يمثّلون -بحق- النّواة الأولى لنشأة جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين في فترة لاحقة، هم:

1 – (الشّيخ عَبْدُ الحَميد بْنُ باديس): تخرّج من جامع الزّيتونة على يد شيوخ كبار أمثال: (النّخْلي الْقَيْرَواني) والشّيخ (محمّد الطّاهِر بْنُ عَاشور)، وإثر تخرّجه وعودته من البقاع المقدّسة بدأ مهمّة التّدريس سنة (1913) ورابط بمعهده العلمي الدّعوي (الْجامِع الْأَخْضَر) بقُسَنْطينَة لنشر العلم والمعرفة، ومقاومة الجهل والجمود، عن طريق دروس عامّة وخاصّة، يلتقي فيها بجمهور الأمّة وناشئتها،مرشداً عاماً ومفسّراً للقرآن، ودارساً للغة العربيّة وناشراً لآثار السّلف، فقد تأثّر (ابْنُ بَاديس) بالحركة الإصلاحيّة الّتي عرفها المشرق العربي، وخاصّة بمحمّد عَبْدُه الّذي يرى «بأنّ إصلاح الفرد والمجتمع لا يتمّ إلاّ بإصلاح المؤسّسات التّربويّة، مثل الأزهر وغيره»..

2 – (الشّيْخُ البَشير الإبْراهيمي): رحل إلى الحجاز ومصر والتقى بالعلماء هناك وحضر بعض دروس الأزهر، درس في المدينة المنوّرة على كبار العلماء الوافدين من كلّ أنحاء العالم الإسلامي، ثمّ صار يلقي الدّروس في الحرم النّبوي، انتقل إلى دمشق لتدريس الآداب العربيّة بالمدرسة السّلطانيّة، وإلقاء دروس الوعظ والإرشاد بالجامع الأموي.

عاد الشّيخ الْبَشير الْإبْراهيمي إلى الجزائر سنة 1920م،وأقام بمدينة سَطِيف وأنشأ بها مدرسة ومسجداً بعد أن رفض الوظيفة الّتي عرضت عليه من طرف السّلطات الفرنسيّة، واشتغل بالتّجارة، كما كان يُدبّج بعض المقالات والمحاضرات الّتي نشرت في مجلّة (الشّهاب).ابتداء من سنة 1929م.

3 – (امْبارَك الْمِيلي): ، درّس في الجامع الأخضر بقُسَنْطينَة على يد الشّيخ عَبْدُ الْحَميد بْنُ بَاديس، ثمّ انتقل إلى جامع الزّيْتُونَة تحصّل على الشّهادة سنة 1924م، قام بتجربة مميّزة، تمثّلت في نشر اللّغة العربيّة بمنهجيّة واضحة في كلّ من قُسَنْطينَة والأغْواط، استقرّ هناك وواصل مهمّته النّبيلة في المدرسة الحرّة المسمّاة (الشّباب)، ه كتاب هام عنوان (تاريخ اجزائريين في القديم والحديث في ثلاثة أجزاء).

4 – (الشّيْخ الْعَرْبي التّبَسّي): هاجر إلى تُونَس سنة 1915م ودرس بجامع الزّيتونة، ثّم رحل إلى الْقاهِرَة 1920م وانضمّ إلى طلبة الأزهر الشّريف،

عاد إلى الجزائر في 1927م للعمل مع الإمام ابْنِ باديس على خلاص الأمّة الجزائريّة من ويلات الاستعمار، والجهل والفقر، والبدع والضّلالات. وبدأ نشاطه العلمي والسّياسي والاجتماعي، فشرع في تعليم العربيّة لغة القرآن بمدرسة تأوي البنين والبنات، كما أسّس مسجداً حراً لإلقاء دروس الوعظ والإرشاد، ولمّا ضايقه الاستعمار نصحه الشّيخ ابن باديس بالانتقال إلى مدينة (سِيق) في الغرب الجزائري، حيث أقبل عليه النّاس ليستفيدواْ من علمه وخلقه.

5 – (الشّيخ الطّيّبي الْعُقْبي): هاجر إلى الحجاز في 15 يناير 1890م حفظ القرآن وتلقّى العلم هناك، وكان من شيوخه: الشّيخ عَبْدُ اللّه الشّنقيطي، والشّيخ حَمْدان لُونيسي، وغيرهما، كما لازم الحرم النّبوي الشّريف ينهل من علوم اللغة والفقه، واكتسب شخصيّة لامعة بفضل ما يتمتّع به من ذكاء وفطنة.

ولما رجع إلى الجزائر أقام بمدينة بسكرة وانتصب للدعوة إلى الله تعالى، فشرع في إلقاء الدّروس العلمية والوعظية لطلبة العلم، ولكل العامة وذلك في مسجد (بَكّار) وهو المسجد الوحيد الذي بقي محافظا على مكانته

دون أن تدخله الطّرقيـة التّيجَانِية، فمما كان يدرّسـه للطلبـة كتـاب الجوهـر المكنون، وكتاب القطر في النّحو، وأما درس العامـة فكان موضوعه التفسـير، وقد اختار له الشّيخ تفسير (الْمَنار)، هذا إضافة إلى مجالسّـه الأدبية فـي «جْنينَة الْبايْليك» أين كان يجري الحوار الأدبي يومياً في شـتى أنواعه وألوانه ويحضره أدبـاء ومثقفون أمثال الأميـن العمودي ومحمّد العيد آل خليفة وغيرهما.

ثانيـاً: روّاد إصلاحيـون فـي مجال الصّحافة:

أ- روّاد ظهرت صحفهم قبل الحرب العالميّة الأولى:

1 - (الرّسـام الكَبيـر الأُسْـتاذ عُمَـر راسِم): الّذي كان يحرّر جريدة (الْجَزائِر) الشّهريّة ابتداء من عام 1908م ذات اللّسان العربي فقط. وقد كان هدفهـا هو التّوعيّة وتثقيـف الجزائريين بالوضـع العالمي. أوقفتها الإدارة، ثمّ عـادت وصدرت في 1911م، كما أصدر صحيفة (ذو الْفِقار) الّتي كانت تظهر في الجزائـر العاصمة خلال 1914-1913 في شكل مجلّة مصوّرة.

2 - (الشّيْخ عُمَر بَنْ قَدّور): الّذي أصدر صحيفة مؤثّرة هي (الْفَارُوق) سنة1912م، وهو من أتباع مدرسة الإصلاح الإسلامي المتأثرة بالشّيخ (محمّد عَبْده).

ب - روّاد ظهـرت صحفهـم بعـد الحرب العالميّة الأولى:

1 - (الأَمِيـرُ خَالـدّ حَفِيـدُ الأَمِيـرِ عبـد القادر): أصـدر جريـدة (الْإِقْدَام) باللّسـانين العربي والفرنسي سنة 1919م وكانت أوّل جريدة عربيّة تكلّمت بلهجة حارّة.

2 - (عبدُ الحَفيظ بْنُ الْهاشِـمي): في سـنة 1919 أصدر جريـدة (النّجَاح) في مدينة قُسَـنْطينَة وقد اشترك الشّيخ (عَبْدُ الْحَميد بَنْ باديس) في تأسيسها.

3 - السّـيدان: (مُصْطَفـى بَن حَافظ) و(ابْن عَبْد الْعَزيز حَسَن)، في سنة 1923م صدرت لهمـا جريـدة (لِسَـان الدّين) جريدة أسبوعيّة دينيّة سياسيّة.

4 - أصدر السّـيد (عُمَر بَـنْ قَدُّور): مرّة ثانيّة جريدة (الْفَارُوق) سـنة 1924م في صـورة مجلّـة أسـبوعيّة. ثمّ أوقفها واشترك مع السّيد/ (محمّد بَنْ بَكير) في إصدار جريدة جديدة باسم (الصّديق).

3 -الشّـيخ (عَبْدُ الْحَمِيد بَنْ بَادِيس): كانت الصّحف التي يصدرها أو يشارك فـي الكتابة فيها مـن أهمّ وسـائله الّتي تنشـر أفكاره الإصلاحيّة، أصدر جريدة (الْمُنْتقِـد) سـنة (1345هــ1926-م)، لكـن الاحتلال عطّلهـا، فأصدر جريدة (الشّهاب) واستمرّت في الصّدور حتّى سنة (1358هـ1939-م)،

4 -الشّاعر والصّحافي: (محمّد سَعيد الزّاهِري): أصـدر جريدة (الجزائر) في عام 1925م وسرعان ما عطّلتها الإدارة.

5 -أصدر الشّيخ (الطّيبي العقبي) في سـنة 1936م جريدة (الْحَقّ) في بِسَـكْرَة بالجنوب الجزائري.

6 -الشّـاعر الكبيـر، الأسـتاذ (أَبُـو الْيَقْظان): أصـدر مجموعة من الجرائد منهـا (وادي ميـزاب)، وبعـد عامين ونصف أقفلتهـا الإدارة الاسـتعماريّة، فأصدر بعدها جريدة (ميزاب) فحجزت الإدارة الفرنسـيّة عددها الأوّل وعطّلتها نهائياً. كما أصدر جرائـد (الْمَغْرِب). و(النّور) و(النّبْراس) كلّ منهاعاشت مدّة قصيرة وأقفلت.

7 -ثمّ أصـدر الشّـيخ الطّيبي العقبي جريدة أخـرى هي: (الْإِصْـلاح) كانت تحـرّر فـي الجزائـر وتطبع فـي تونس ثمّ تـوزّع فـي الجزائـر، لكـن الإدارة الاستعماريّة منعتها من الطّبع في تونس، توقّفت مـدّة ثمّ اسـتأنفت الصّدور من (بِسَكْرَة) بالصّحراء الجزائريّة.

القسـم الثّالـثّ: تجلّيـات جهـود الجمعيـات الإصلاحيّـة لخدمـة اللّغة العربيّـة في مجـال التّعليـم والصّحافة (جهـود جماعيّـة) -جمعيّـة العلمـاء المسلمين الجزائريين أنموذجاً-

مـن الجمعيّـات الإصلاحيّـة فـي الجزائـر الّتـي بقيـت بصماتهـا خالدّة فـي نصرة اللّغـة العربيّة وخدمـة الدّين والوطن هي جمعيّة العلماء المسـلمين الجزائريين؛ لأنّ أخطـر مـا اسـتهدفه الاسـتعمار الفرنسـي في إطار مخطّطه التغريبي للشّـل من الشّـخصيّة الوطنيّة الجزائريّة شـنّ حربا ضروسا ضدّ اللّغة العربيّـة، ولكـن الشّـعب الجزائـري لم يقـف مكتـوف الأيـدي أمـام هذه المحـاولات، وإنّمـا قـام يتحدّاهـا، واسـتطاع أن ينجـح فـي وضـع خطّة معاكسـة لها في القلوب والعقول، وفي ميادين الحيـاة المختلفـة، وفـي ذلك تدخل الإسـهامات الإصلاحيّة لرجال جمعيّـة العلماء المسـلمين الجزائريين من أجـل رفع مكانـة اللّغـة العربيّة في قلـوب وحياة أفـراد المجتمـع العربي الجزائري.

وفي هذا الشّـأن يقول الشّيخ محمّد الْبَشـير الْإِبْراهيمـي: «إنّ هذا اللّسـان العربي العزيز الّذي خـدم الدّين وخدم العلم وخدم الإنسـان هو الّذي نتحدّث عن محاسـنه منذ زمان، ونعمل لإحيائه منذ سنين، فليحقّق اللّه أمانينا)»

ويؤكّد الشّيخ عَبْدُ الْحَميد بْنُ باديس هذه الآصرة الصّلبة بين الخلف والسّلف من أبناء وطننا الحبيب الجزائر، فيقول: «إنّهـا وحدة الرّابطة بيننـا وبين ماضينا،

وهي وحدها المقياس الّذي يقيس أرواحنا بأرواح أسلافنا، وبها يقيس من يأتي بعدنا من أبنائنا وأحفادنا الغرّ الميامين، أرواحهم بأرواحنا، وهي وحدها اللّسان الّذي نعتزّ به، وهي التّرجمان عمّا في القلب من عقائد وما في العقل من أفكار، وما في النّفس من آلام وآمال.»

أ - عوامل تأسيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين:

من العوامل الّتي أدت إلى تأسيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين:

***-عوامل داخليّة:**

1 - محاولة الاستعمار الفرنسي القضاء على الثّقافة العربيّة الإسلاميّة في الجزائر وإحلال الثّقافة الفرنسيّة المسيحيّة مكانها،وتهديم أركان الشّخصيّة الوطنيّة الجزائريّة، ولا سيّما اللّغة العربيّة، عنوان التّميّز الثّقافي بمحتواه للشّعب الجزائري بتحطيم مؤسّسات التّعليم الموجودة قبل الاحتلال.

2 - سياسة الفرنسة والتّجنيس المفروضة على الجزائريين.

3 - نشاط حركات التّنصير المسيحي المدعومة من طرف الاستعمار، والهادفة إلى تنصير أبناء وبنات الجزائر.

4 - ومن أسباب إنشاء جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين الوقوف في وجه بعض الجزائريين المثقّفين ثقافة فرنسيّة، وذلك أنّ مجموعة كبيرة منهم تنكّرت لقيم الأمة الجزائريّة المستمدّة من الإسلام..

5 - ورد في سجل الجمعيّة (الثّورة التّعليميّة الّتي أحدثها الشّيخ (عَبْدُ الْحَميد بْنُ باديس) بدروسه الحيّة وتربيّته الصّحيحة، والرّوح الدّينيّة والوطنيّة الّي كان يبثّها في نفوسهم إذ اعتبر الشّيخ (عَلِيّ الْمَغْرِبي) ابن باديس -في سنة 1935م- أبا النّهضة الجزائريّة، وبناء على رأي المغربي فإنّ الجزائر قبل 1912م كانت تعاني من التّخلّف والجهل، ولكن ابن باديس ظهر في ذلك العهد ليفتح لها عهداً جديداً، وقد بدأ يقود البلاد في الطّريق الّذي تتطوّر به الأمم، ف (ابْنُ باديس) إذن جاء ليحيي الرّوح الوطنيّة، ويعلّم الشّباب، وينشئ المدارس العربيّة، ويحطّم الجهل والكسل، ويخدم دينه ووطنه.

ولكن ابن باديس لم يكن وحده في الميدان، فقد ساعده رجال وطنيّون مخلصون، يتقاسمون معه الرّأي والوسيلة والهدف، ومن أبرز هؤلاء: الشّيخ محمّد الْبَشير الإبْراهيمي، والطّيّبُ الْعُقْبي، والْعَرَبي التّبّسي.. وغيرهم.»

***-عوامل خارجيّة:**

1 -زيارة الشّيخ محمّد عبده إلى الجزائر، ودعوته الإصلاحيّة.

2 - عودة فئة من أبناء الجزائر من الحجاز مهد الإسلام الأوّل، ومنبت الدّعوة ومبعث الإصلاح الإنساني.

3 -آثار الحرب العالميّة الأولى على الشّعب الجزائري والتّطوّر الفكري الّذي طرأ على عقول النّاس آنذاك.

4 -المؤلّفات والصّحف الّتي كانت تصل سراً إلى الجزائر، منها: العروة الوثقى، المنار، جريدة اللّواء، جريدة المؤيد.

5 -ويرى بعضهم أنّ السّبب المباشر لنشأة الجمعيّة هو احتفال المستعمر بمرور قرن من الزّمن على احتلال الجزائر، وبأنّه قد اطمأنّ على فريسته، وقد قال بعض القادة من الفرنسيين: بأنّ هذا الاحتفال لنصلّي صلاة الجنازة على الإسلام والعربيّة في الجزائر، فقد قبرناهما إلى الأبد وصارت الجزائر فرنسيّة، فثارت ثائرة الجزائريين، بهذا العيد للمستعمر، الّذي كشف عن عزيمته ونواياه في القضاء على الإسلام والعربيّة، فازداد العلماء المصلحون إيماناً بوجوب اتّحادهم في جمعيّة تنظّم الجهاد الّذي يجب أن يقوموا به لحماية دينهم ووطنهم، فكان العيد المئوي الّذي قصد به الاستعمار النّكاية بالمسلمين خيراً وبركةً لهم، حيث ضاعف من حماسهم، فكان ذلك من الأسباب المباشرة لنشأة جمعيّة العلماء.»

ب-نشأة جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين:

كان الشّيخ (الْبَشير الإبْراهيمي) قد التقى خلال إقامته بالمدينة المنوّرة في موسم حج 1913م بالإمام (عَبْدُ الْحَمِيد بْنُ باديس)،وجرت بينهما لقاءات مطوّلة شهدت ميلاد فكرة تأسيس جمعيّة العلماء للقيام بمشروع نهضوي، علمي وتربوي، لصالح الشّعب الجزائري في مواجهة الاحتلال الفرنسي، وبناء على رواية له، فإنّ الشّيخ (عَبْدُ الْحَميد بْنُ باديس) قد زاره بسَطِيف سنة 1924م وأخبره بعزمه على تأسيس جمعيّة للعلماء بقُسَنْطينَة تحت اسم (جمعيّة الإخاء العلمي) وقال له: «إنّ هذه الجمعيّة ستوحّد جميع العلماء وطلابهم، وإنّها ستساعد على ربطهم جميعاً ببرنامج مشترك.»

وقد أعجب الإبراهيمي بالفكرة، ثمّ عملا معا على وضع خطّة تتضمّن الدّستور، وعاد بن باديس إلى قسنطينة

واستشار زملاءه، وتمّ تبنّي الفكرة والدّستور المؤقّت، ولكنّ ظروفاً أدت إلى تأخر المشروع ستّ سنوات، إلى حين عادت الفكرة تفرض نفسها بأكثر حدّة، للعوامل السّالفة الذّكر، ولسبب آخر طارئ ومباشر على صورة ردّ فعل للعلماء على احتفالات فرنسا باحتلال الجزائر،

و لغرابة وخطورة ما حدث دعت صحافة العلماء (نخبة الأمّة) إلى اليقظة وإنقاذ شعبهم (الّذي تستير بقصّته الحزينة الرّكبان في كلّ مكان) واستنفرتهم إلى أن يظهروا للعالم (أنّهم قادرون على تكوين كتلة من الوطنيين للدّفاع عن وجود الأمّة.).

وهكذا تمّ تأسيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين رسميّاً في 05 ماي 1931م.بـ(نادي التّرقي) بالجزائر العاصمة، وانتخب الشّيخ (عَبْدُ الْحَميد بْنُ باديس) رئيساً لها.

-ج- من أهداف الجمعيّة:

ممّا قاله الإمام عبد الحميد بن باديس بصدد تحديد الأهداف للجمعيّة في اليوم الثّالث من الاجتماع التّأسيسي للجمعيّة ما يلي: «من مقاصدها جمع شمل هذه الطّائفة المتفرّقة للتعاون على ما هي مهيّأة له، من نصح الأمّة وإرشادها لما ينفعها في دينها ودنياها.»

كما ذكر البشير الإبراهيمي: «أنّ الجمعيّة قد أسست لغايتين شريفتين، هما: إحياء مجد الدّين الإسلامي، وإحياء مجد اللّغة العربيّة.»

كما لخّص أحد أعضاء الجمعيّة في سنة 1935م أهدافها فيما يلي: «إحياء الإسلام بإحياء القرآن والسّنّة وإحياء اللّغة العربيّة وآدابها، وإحياء التّاريخ الإسلامي وآثار قادته.»

ولخّص عبد الكريم بو الصّفصاف برنامج العلماء في هدفين رئيسين، أوّلهما: آني والثّاني بعيد المدى. أمّا الأول فيتمثّل في تصفيّة الدّين الإسلامي ممّا علق به من شوائب، ومحاربة جمود الزّوايا وإحياء اللّغة العربيّة، ومعالم التّاريخ القومي الإسلامي، وإنشاء المدارس والمساجد الحرّة، وفصل الدّين عن الحكومة، وتوعيّة وتثقيف الشّعب الجزائري صغيره وكبيره.»

وفي سنة 1934م حدّدت (الشّهاب) مجلّة العلماء غير الرّسميّة، في عددها الصّادر في ماي، هدف الجمعيّة، فقالت: إنّه يتمثّل في: (إصلاح الشّعب الجزائري العربي من الوجهة الدّينيّة والوطنيّة، والأدبيّة والعلميّة).

والعلماء بناء على رأي كاتب فرنسي، لهم هدفان هامان: أحدهما فوري، والثّاني طويل المدى، فالأول كان يتمثّل في تجميع القوى المثقّفة، بما في ذلك المحافظون...تحت راية الإصلاح، أمّا الثّاني فقد كان يتمثّل في فصل الجزائر عن فرنسا تحت علم الوطنيّة.

د-الجهود الإصلاحيّة لجمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين ووسائلها:

وقد تميّز نشاط جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين في إطار القيام بجهودها الإصلاحيّة، بالتّركيز على الجانب الثّقافي والدّيني، واستعمال: المدرسة، والمسجد، والنّادي، والصّحيفة، كوسيلة لتبليغ دعوتها ورسالتها إلى الجزائريين.سواء داخل البلاد الجزائر أو خارجها وخاصّة في فرنسا حيث توجد جاليّة كثيرة العدد، بهدف وضع تصوّر سليم لمشروع تربوي ناضج.

أوّلاً: في مجال التّعليم والثّقافة:

1 -المساجد:

كان الشّيخ (عَبْدُ الْحَميد بْنُ باديس) يدعو إلى التّعليم المسجدي، وأوقف جزءاً من حياته للتّدريس بالمساجد، لذا يعدّ المسجد من أهمّ الوسائل الّتي اعتمدتها جمعيّة العلماء في تكوين أبناء الشّعب االجزائري كباراً وصغاراً بنين وبنات.

لذا يؤكّد الشّيخ (عَبْدُ الْحَمِيد بْنُ باديس) على التّعليم المسجدي فيقول في إحدى مقالاته المنشورة في الشّهاب: «إذا كانت المساجد معمورة بدروس العلم، فإنّ العامّة الّتي تنتاب تلك المساجد تكون من العلم على حظ وافر، وتتكوّن منها طبقة منطلقة الفكر صحيحة العقيدة، وبصيرة بالدّين...وقد عرفت العلم وذاقت حلاوته بتعلّم أبنائها، وهكذا ينتشر العلم في الأمّة ويكثر طلابه من أبنائها» إذ كانت تقام في المساجد دروس الوعظ والإرشاد والتّوجيه الإسلامي العام للكبار نهاراً وليلاً، وقد كان أعضاء الجمعيّة وأنصارها من العلماء والأدباء يتولّون عملية إلقاء هذه الدّروس في سائر أنحاء الجزائر مجاناً وبدون مقابل مادّي، وتكمن أهمّية المساجد في الدّور الّذي تؤدّيه في المجتمعات الإسلاميّة حيث اتّخذت الجمعيّة من المساجد أداة فعّالة لتربيّة العامّة وتعليمها، ونقطة التقاء بين قادة الجمعيّة ومختلف طّبقات المجتمع الجزائري.

ونلاحظ أنّ انتشار المساجد في أنحاء الجزائر بسرعة مذهلة أدهش الإدارة الاستعماريّة، فسارعت بإغلاق بعضها ومنع العلماء المصلحين من إلقاء الدّروس والمحاضرات من أعلى المنابر الخاصّة بإشراف الجمعيّة، فثارت ثائرة الأمّة حسب قول الإبراهيمي فأنشأت بمالها بضعة

وتسعين مسجداً في سنة واحدة في أمّهات المدن والقرى..»

ومن أهمّ المساجد الّتي اعتمدت عليها الجمعيّة نذكر: الجامع الأخضر، المسجد الكبير، سيدي قموس، سيدي عبد المؤمن، سيدي بومعزة، سيدي فتح اللّه، وهذه المؤسّسات كلّها ما زالت موجودة بمدينة قُسَنْطِينَة إلى اليوم. وقد كان عدد التّلاميذ في الْجَامِع الْأَخْضَر وحده سنة 1936يقدّر ب300 طالباً.

أمّا المنهجيّة أو طريقة التّعليم، فقد كان العلماء ينتقدون النّظام القديم في التّعليم، على اعتبار أنّه ضحل وغير عملي، لذلك اتّبعواْ في المساجد (طريقة السّلف الصّالح) لتعليم القرآن والسّنّة، وكانواْ يدعون إلى تناول عملي ومتحرّر في تفسير هذين المصدرين الإسلاميين.

2 –المدارس:

أ – ما هو التّعليم العربي الحرّ؟

هو التّعليم الّذي يجري بالعربيّة في مدارس تابعة لأفراد أو منظّمات شعبيّة، ويقوم بها الشّعب تأسيساً وتمويلاً، ولا يخضع لإدارة الاحتلال، ويتميّز التّعليم العربي الحرّ، بأنّه تعليم ذا طابع ديني ولغوي في الغالب، مع شيء من التّاريخ والجغرافيا، والعلوم، والرّياضيات، ظهر في الجزائر قبل الحرب العالميّة الأولى كردّ فعل على محاربة المستعمر لمقوّمات الشّخصيّة الوطنيّة، ونشط أكثر بعد تأسيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين.

وقد سمّي بالحرّ لتمييزه من التّعليم الحكومي الّذي تشرف عليه الإدارة الفرنسيّة، سواء باللّغة الفرنسيّة أو باللّغتين لأهداف استعماريّة.

أمّا التّعليم الحرّ فهو من تأسيس الجماهير الشّعبيّة دون مساعدة من المحتلّ وإدارته الّتي تسير في فلكه، لذلك يمثّل حلقة من حلقات الكفاح المرير الّذي تخوضه الأمّة الجزائريّة ضدّ الاحتلال.

ب – من عوامل ظهور التّعليم الحرّ:

1 –مواجهة السّياسة الاستعماريّة في الميدان الثّقافي وإفشال المشروع التّربوي الاستعماري عن طريق التّأسيس لمدرسة وطنيّة ذات مرجعيّة عربيّة إسلاميّة.

2 –التّأثر بتجارب المدارس القرآنيّة في الشّرق العربي وفي تونس، والإصلاحات الّتي عرفتها، وخاصّة من طرف الطّلبة الجزائريين الّذين درسوا في هذه البلدان.

3 –ضمان التّعليم للأطفال الّذين لم يجدواْ أماكن في المدرة الفرنسيّة، أشار إلى ذلك الشّيخ البشير الإبراهيمي: « إنّ مدارسنا عامرة بهذا الصّنف من الأطفال وهو الصّنف المتشرّد الضّائع الّذي لم يجد إلى التّعلّم الحكومي سبيلاً وإنّ عدده لكثير، إنّه يقارب التّسعين في المائة من أبناء الأمّة.»

ج – نشأة المدارس الحرّة:

المدارس الحرّة هي تلك الّتي حاول أصحابها أن يطوّرواْ المدارس القرآنيّة (الْكَتاتيب) القديمة، فبدل المسجد أو الكتاب الملحق بالجامع، والّذي بقي مقتصراً على تحفيظ القرآن ومبادئ القراءة والكتابة، ولدت المدرسة العصريّة ذات الأقسام والإدارة والبرنامج المدرسي المتكامل في مراحله، والذي على أساسه يتخرّج التّلاميذ بشهادات تسمح لهم بممارسة بعض المهن، أو متابعة الدّراسة الثّانويّة أو العاليّة.

و الحقيقة أنّ أوّل المدارس الحرّة الّتي ظهرت في مطلع القرن العشرين أسّسها (عبّاس بَنْ حمَاية) والّتي تعتبر أوّل مدرسة نظاميّة حرّة في الجزائر. حيث تحمس بعض الجزائريين، وأخذتهم الغيرة على الهوية الجزائرية المستهدفة باستهداف الإسلام ولغة القرآن، فأسسوا أول مدرسة قرآنية عصرية حرة في تِبَسَّة سنة 1913م. لقد كان أحد رواد هذا المشروع هو الشّيخ (عَبَّاس بَنْ حمَاية) الذي ترأس جمعية خيرية باسم (الجمعية الصّديقية الخيرية للتربية الإسلامية والتعليم العربي والإصلاح الاجتماعي).

وبعد الحرب العالميّة الأولى تعدّدت التجارب والمحاولات لإنشاء مدارس حرّة، في الجزائر العاصمة نجد مدرسة (مُصْطَفى حافِظ) وفي تلمسان تمّ فتح مدرسة حرّة سنة 1920م لكن تمّ غلقها بعد زيارة الأمير خالدّ لها.

وتعتبر تجربة جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين من التّجارب الرّائدة في مجال تأسيس المدارس الحرّة، سواء من حيث عدد المدارس الّتي أسّستها أو التّنظيم والتّسيير الدّقيق الّذي كانت تخضع له، لهذا أسهمت بفعّاليّة في بعث نهضة تعليميّة حقيقيّة في الجزائر، وعملت على نشر المعرفة وبثّ الوعي وتحرّير الفكر، ووضعت منظومة تربويّة تجمع بين الأصالة والحداثة.

أمّا المنهجيّة أو طريقة التناول للدّروس في هذه المدارس، فقد طبّق العلماء طريقة سهلة وحديثة في تعليم العربيّة، فقد حاولواْ أن يطهّرواْ العربيّة من الدّخيل والاستعمالات اللّهجيّة، كما كانواْ يعلّمون القرآن في هذه المدارس ولكن بتفسير حديث.

وكانت أعظم وسيلة لتحقيق هذه المهمّة النّبيلة هي تأسيس المدارس العربيّة الحرّة

الّتي لم تكن تحت سيطرة إدارة الاحتلال، وتفتح بأموال ومساهمات شعبيّة حرّة.

والحقيقة أنّ جهود جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين في مجال التّعليم، تشكّل إنجازاً ذا أهمّيّة سواء من حيث نوعيّة التّعليم المقدّم أو من حيث عدد المؤسّسات التّعليميّة والمدارس الّتي بنتها، وقد ذكر الدّارسون أرقاماً مختلفة لذلك، منهم عبد المالك مرتاض الّذي يتحدّث عن 400 مدرسة (معهد) سنة 1955م يرتادها 75000 تلميذاً، يؤطرهم 700 معلّماً.

ويقدّم توفيق المدني رقم 170 مدرسة، وهنالك من يتحدّث عن 181 مدرسة،

أمّا الدّكتور تركي رابح فإنّه يورد في كتابه (الشّيْخ (عَبْدُ الْحَميد بَنْ باديس) – رائد الإصلاح والتّربيّة في الجزائر) 150مدرسة في عام 1954 م، يتردّد عليها أكثر من 50000 طفلاً وبنتاً،–وهذا ما نرجّحه– يدرسون فيها مبادئ اللّغة العربيّة وآدابها، وأصول الدّين الإسلامي، والتّاريخ الجزائري والإسلامي، طبق برنامج يجمع بين ضرورات العلم وبين إيجابيات التّربيّة الإسلاميّة،و القوميّة، والوطنيّة الصّحيحة..

وقد تخرّج من هذه المدارس عشرات الآلاف من أبناء الجزائر يحملون علماً قليلا، ولكن معه فكر صحيح، وعقيدة قوميّة سليمة، ونظرة إلى الحياة جديدة.

وتمتاز مدارس جمعيّة العلماء بطرازها الهندسي المعماري الجميل الّذي يجمع بين الفنّ المعماري الإسلامي الأندلسي من ناحيّة وبين ذوق العصر الحديث ومتطلّبات الصّحة العامّة.

وهذه المدارس هي ملك للأمّة الّتي تقوم بإنشائها بواسطة التّبرّعات العامّة، ثمّ يعود الإشراف على تسييرها إدارياً وبيداغوجياً إلى جمعيّة العلماء، الّتي تزوّدها بالمعلّمين والبرامج الدّراسيّة والكتب، وغيرها من اللّوازم المدرسيّة.

هذا إضافة إلى كثير من النّوادي الثّقافيّة والمساجد الحرّة في كامل أنحاء الجزائر، وذلك رغم تضييق فرنسا عليها ومحاربتها سراً وعلانيّةً.

د– نماذج من مدارس (معاهد) جمعيّة العلماء:

د – 1 – مدرسة التّربية والتّعليم الإسلاميّة:

من مدارس العلماء الرّائدة (مدرسة التّربيّة والتّعليم الإسلاميّة) التّي أنشأها (عبد الْحَميد بَنْ باديس) بمدينة قُسَنْطينَة، في سنة 1930م، وقد حرّر قانونها الأساسي وقدّمه باسمها إلى الحكومة فصادقت عليه. وبقيت المدرسة تنشط تحت لواء جمعيّة العلماء، وقد تخرّج من هذه المدرسة جيل جزائري كامل تحت إرشاد ابن باديس.

د – 2 – مَدرسة دار الْحَديث:

تعتبر مدرسة دار الحديث بتِلِمْسان من أهمّ منجزات جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين، في الغرب الجزائري ؛ وذلك لأنّ تأسيسها في حدّ ذاته كان تحدّياً للإدارة الاستعماريّة وسياستها التّعليميّة، تمّ تدشينها في صباح يوم الإثنين 22 رجب 1356هـ الموافق لـ 27 سبتمبر 1937م، وذلك بحضور المكتب الإداري للجمعيّة، وعلى رأسه الشّيخ عبد الحميد بن باديس، والشّيخ (الْبَشير الْإبْراهيمِي)، إضافة إلى (محمّد الْعِيد آلُ خَليفَة)، و(الْفُضَيْل الْوَرْتيلاني)، وجمع غفير من كافة أنحاء البلاد، وبعض الضّيوف من خارج الجزائر، ثلاثة منهم من تونس، ووفد من المغرب يتكوّن من خمسة عشر عالماً، وقد بعث (عَلاَّل الْفاسِي) ببرقيّة تهنئة للجمعيّة بهذه المناسبة.

كانت تتكوّن المدرسة من حوالي ستّة أقسام وتضمّ 130 تلميذاً. وتشمل هيئة التّدريس 10 معلّمين سنة 1948م يشرفون على التّأطير في نظام محكم؛ فالشّيخ الإبراهيمي كان يلقي دروس التّفسير بعد الغروب، ودروس الموطّأ بعد صلاة الفجر، أمّا (الشّيْخ بَابَا أَحْمَد) فكان يعلّم اللّغة العربيّة والكتابة، و(الشّيخ مَرْزُوق محمّد) يلقي دروساً في تفسير القرآن.

نشاط المدرسة المتزايد أقلق الإدارة الاستعماريّة، فأقدمت على إغلاقها، بعد ثلاثة أشهر من افتتاحها، وذلك يوم 1937/ 12/ 31م، وبقيت كذلك إلى غاية 1943م، حيث استأنفت نشاطها بعد إطلاق سراح (الشّيخ الْبَشير الْإبْراهِيمي)، لتغلق نهائياً في 1956/ 05/ 29م،على غرار باقي مدارس الجمعيّة الّتي تمّ تعطيلها تعسّفاً من قبل الإدارة الاستعمارية، وذلك بعد أن تداول على إدارتها أربعة مديرين هم: (الشّيخ البشير الإبراهيمي)، (محمّد الصّالِح رَمَضَان)، (عَبْدُ الْمَجِيد مَزْيان)، (عَبْدُ الْوَهّاب بْنُ مَنْصُور).

د – 3 – مَعْهد بَنْ باديس:

إنّ معهد ابن باديس بقُسَنْطينَة والّذي افتتح أبوابه لاستقبال الطّلبة في 06 ديسمبر 1947م يعدّ قيمة مضافة وامتداد للدّروس العلميّة الّتي كانت تقدّم بالجامع الأخضر من قبل الشّيخ عبد الحميد بن باديس، مع تطوّر في الإدارة

والتّجهيز ومنهجيّة التّعليم، كما يدخل تأسيسه في إطار تلبيّة حاجة مدارس الجمعيّة في مجال التّعليم الثّانوي، حيث أنّ المعهد كان معداً لاستقبال التّلاميذ الممتازين من خريجي مدارس الجمعيّة الّذين بعد استكمال مسارهم به يلتحقون بجامع الزّيْتُونَة بِتُونَس،أو يرسلون في شكل بعثات علميّة للجامعات العربيّة بالمشرق العربي، مثل مِصْر وسُوريا والْكُويت والْعِراق، والْمَمْلَكَة العربيّة السّعودِيّة لمواصلة تعليمهم العالي.

ويعدّ هذا الإنجاز مفخرة ومكسباً يشهد لجمعيّة العلماء، لأنّه النّواة الأولى للدّراسة الثّأنويّة المعرّبة في تاريخ الجزائر المعاصر، وقد تعدّت تكلفته في ذلك الوقت 50مليون فرنك فرنسي قديم، كلّها من تبرّعات الشّعب.

يقول فيه الشّيخ الْبَشِير الْإِبْراهِيمي: «المعهد الباديسي هو مفخرة الأمّة الجزائريّة، وهو غرّة أعمال جمعيّة العلماء وأعظمها خطراً، وأعلاها قدراً، وأكثرها نفعاً، فهو يؤوي سبعمائة تلميذ من أبناء الأمّة، ويهيئهم لأن يصبحواْ قادة لحركتها، ومسيّرين لنهضتها، في جميع الميادين الحيويّة، ومنه تخرج البعثات العلميّة والصّناعيّة، ومن صفوفه يتخرّج الوعاظ المرشدون، والخطباء والكتّاب والمعلّمون.»

بلغ عدد طلبة المعهد 913 طالباً سنة1954 م، تؤطرهم هيئة تدريس تتكوّن من ثلاثين أستاذاً، نذكر منهم: (الشّيخ أحمد حمّاني)، (المولود النّجار)، (الشّيخ العبّاس بن الشّيخ الحسين)، و(الشّيخ نعيم النّعيمي)، (الشّيخ أحمد حسين)، وطاقم إداري على رأسه كمدير الشّيخ العربي التّبسّي، وذلك من سنة1947 إلى سنة 1952م ثمّ الشّيخ (محمّد خَيْر الدّين)، الكاتب للمدير، الأستاذ (الْمَوْلود النّجّاح)مراقباً عامّاً والأستاذ (أَحْمَد رِضَا حُوحُو) كاتباً عامّاً.

-وقد ضبطت شروط للا تحاق بالمعهد حدّدت كما يلي:

-أن يكون التّلميذ حاصلاً على الشّهادة الابتدائيّة.- أو يتمّ دخوله عن طريق امتحان، مع استظهار ربع سورة (يَس) على الأقلّ.

- ألاّ يقلّ عمره عن ست عشرة سنة.

-أن يتحمّل نفقات الإطعام والإيواء وإحضار كسوته وفراشه وغطائه.

- أن يتقدّم لتسجيله والدّه أو وكيل عنه.

- أن يكون سليماً من أيّ مرض معد.

ومن حيث منهاجه الدّراسي يذكر الشّيخ (عَبْدُ الرّحْمَن شِيبان)-وكان أحد أساتذته- أنّه مطابق للمنهاج المطبّق في جامع الزّيتونة بتونس، وخاصّة منهاج النّحو، وقد سعى الشّيخ شيبان بصفته (رئيساً لجمعيّة الطّلبة الجزائريين بتُونس آنذاك) إلى ربط الصّلة بين المعهد وجامِع الزّيتونة بطلب من الشّيخ الإبراهيمي للاعتراف بالشّهادة الّتي تمنح به، فلبّى مشايخ الزّيتونة رغبة الجمعيّة ووافقواْ على أن يكون معهد بن باديس فرعاً لجامع الزّيتونة، لذا كانت الدّراسة بالمعهد محدّدة بأربع سنوات تنتهي بشهادة تساوي في القوّة مثيلتها في جامع الزّيتونة، وتخوّل لحاملها الدّخول في القسم التّكميلي لهذا الجامع.

ورغم اعتماد الكتب المقرّرة بجامع الزّيتونة إلاّ أن منهجيّة التّدريس بالمعهد تختلف عنها في هذا الجامع ؛ لأنّها أكثر تطوّراً من حيث التّجهيز والوسائل، وطرائق التّدريس وفنّياته، فكان تدريس الأدب مثلاً يعتمد (المقاربة النّصّية) حيث تنتقى النّصوص حسب العصور الأدبيّة، وهي منهجيّة عربيّة إسلاميّة بحتة كانت معتمدة منذ العصر العباسي ثمّ تراجعت في عصور الانحطاط، والبعض يظنّها من إبداع الغرب.

أي أنّه بالنّسبة لكيفيّة التّدريس بالمعهد ؛فإنّ الجمعيّة اعتمدت غلى منهجيّة تقوم على نبذ الطّرق التّعليميّة العتيقة الّتي كانت تعتمد على الحفظ والتّلقين، واتّباع الطّريقة الحيويّة أو الفعّالة المعتمدة على إيجابيّة المتعلّم وفعّاليّته، بحيث لا يكون متلقّياً فقط، ولكن يشارك في الدّرس من أوّله إلى آخره، وذلك من خلال السّؤال والجواب، والحوار المتبادل بينه وبين المتعلّم.

كما أنّ منهاج المعهد يتطابق مع منهاج مدارس جمعيّة العلماء من حيث الأهداف، فهو يرمي إلى تربيّة الجيل الجديد وغرس العقائد الصّحيحة في ذهنه، وأداء العبادات، والتّشبّع بالرّوح الوطنيّة والغيرة على اللّغة العربيّة، وتاريخ الإسلام وتاريخ الجزائر لمواجهة الزّحف القادم من الغرب.

كما أولت الجمعيّة اهتماماً كبيراً للكتاب المدرسي، وحرصت على حسن اختياره وانتقائه، ومن بين الكتب المستعملة نذكر كتاب (المحفوظات المدرسيّة) (للهواوي)، النّحو الواضح: الابتدائي الأول والثّاني، دروس في التّاريخ الإسلامي، للخيّاط، القراءة واللّغة العربيّة، لكن فيما يتعلّق بتاريخ وجغرافيّة الجزائر فكان يتمّ الاعتماد على المختصرات من كتاب (مُبَارَك الْمِيلي)، (تاريخُ الْجَزائِر في الْقَدِيم والْحَدِيث) و(كِتاب الْجَزائر) ل (أَحْمَد توفِيق الْمَدَني)..

وقد بلغ عدد أساتذته عند افتتاحه خمسة عشر أستاذاً متفرّغاً، يقومون بتدريس العلوم الدّينيّة واللّغويّة والاجتماعيّة، إضافة إلى آخرين متطوّعين يدرّسون المواد العلميّة.

استمرّ المعهد في تأديّة مهمّته النّبيلة حتّى عام 1957م حيث صدر قرار بغلقه من قبل السّلطات الفرنسيّة، وتحويله إلى ثكنة عسكريّة إلى غاية 1962م تاريخ استقلال الجزائر. علماً بأنّ عدد غير يسير من شيوخه وتلامذته التحق وأسهم في ثورة التّحرير المباركة بفعاليّة كبيرة.

ومن تلامذته المشهورين: الدّكتور (أَبُو الْقاسِم سَعْدُ اللّه)، الدّكتور (عَبْدُ اللّه الرّكِيبي)، الدّكتور (عُثْمان سَعْدي)، والكاتبة (زْهُور وْنِيسي)، والأديب (جْنِيدي خَليفَة)، والشّاعر (بَلْقاسِم خَمّار)، واللّغوي (محمّد فَارِح)، واللّواء (رَابَح بوغابَة)، والعقيد (محمّد شَعْبَانِي)، و(محمّد الصّالِح يَحْياوي)، (ضابط ووزير سابق وأمين عام الأفلان) و(السّعيد عْبادو)، (وزير سابق) وأبو (عَبْدُ اللّه غُلامُ اللّه) (وزير سابق) واللواء عبد المجيد تاريكت، العميد الصادق هجرس، العميد العربي لحسن، اللواء محمّد علاق، وسي فصيل محمّد، والوزير الأسبق أحمد بن فريحة وغيرهم.

وبعد الاستقلال ألحق المعهد بوزارة التّربيّة، ثمّ بوزارة الشّؤون الدّينيّة والأوقاف، وبدأت بنايته تتدهور شيئاً فشيئاً إلى أن تمّ ترميه سنة 2004م، وحوّل إلى معهد للقراءات القرآنيّة.

د – 4 – معهد عثمان بن عفّان لتدريس القرآن الكريم وعلومه:

وقد أولت جمعيّة العلماء عناية كبير لمجال التّكوين الصّحيح النّافع عبر فتح معاهد متعدّدة أينعت ثمراتها في بعض الولايات كقُسَنْطينَة ومُعَسْكَر والمِديّة والْبُرْج وسَطيف وغيرها..ومنها: معهد عثمان بن عفّان لتدريس القرآن الكريم وعلومه: والموجود في مدينة (عين الكبيرة) ولاية سَطيف.

والمعهد مؤسّسة تربويّة تعليميّة تابعة لجمعيّة العلماء، يهتمّ بتدريس العلوم الشّرعيّة والدّراسات القرآنيّة،حسب المستويات، للجنسين الذّكور والإناث.

برنامج المعهد برنامج أكاديمي متكامل يشرف عليه نخبة من المشايخ والأساتذة والدّكاترة المتخصّصين في علوم الشّرع واللّغة.

يتضمّن مجال التّكوين: حفظ القرآن، التّفسير، الفقه، الأخلاق، السّيرة النّبويّة الشّريفة، النّحو والصّرف (قواعد اللّغة العربيّة)، العقيدة الإسلاميّة.

من مميّزات برنامج معهد عثمان بن عفّان أنّ الدّراسة فيه مناسبة وملائمة لغير المتفرّغين وغير المتفرّغات، مع مراعاة المستويات التّعليميّة في تقسيم أفواج الدّراسة، وهذا يسمح بالتحاق كلّ ذي رغبة في استكمال النّقص العلمي الشّرعي والدّعوي، تبعاً للأوقات المناسبة، علماً أنّ المتخرّج من المعهد يحصل على شهادة تزكيّة من قبل الأساتذة،ة فضلاً عن إجازات في العلوم الشّرعيّة،..

كما يقدّم المعهد أيضاً دورات علميّة وتدريبيّة مصاحبة ومرافقة للبرنامج الدّراسي، بعد التّخرّج، يضاف إلى ذلك كلّه العناية والاهتمام باللّغات الأجنبيّة والإعلام الآلي.

3 – النّوادي:

لقد كانت النّوادي من أهمّ وسائر الجمعيّة إلى جانب المسجد والمدرسة والصّحافة في نشر العلم والثّقافة بين الطّبقات الشّعبيّة الجزائريّة، وكانت الجمعيّة تعتبر النّوادي همزة وصل بين المدرسة والمساجد ؛ لأنّ هناك أعداد هائلة من الشّباب لم تجد الجمعيّة أيّة وسيلة لتبلّغهم المبادئ الإسلاميّة والثّقافة العربيّة إلاّ في تلك النّوادي.

أمّا طريقة التّعلّم والتّعليم في النّوادي، فقد كان العلماء يهدفون منه إلى التّربيّة على الشّجاعة والخطابة باللّغة العربيّة، والنّظرة العلميّة، وكانت كتبهم المقرّرة تختار لفائدتها، وسهولتها، وحداثتها، وكان الطّلاب يتعلّمون أفضل الطّرق في البحث، وقراءة التّاريخ والأدب، وعلم الاجتماع، وتراجم أولائك الّذين أسسهموا في التّراث الإنساني.

ومن أشهر النّوادي الّتي تنشط تحت إشراف جمعيّة العلماء:

3 – 1 – النّادي الإسلامي:

تأسّس النّادي الإسلامي في سنة 1933م أسّسه (الشّيخ مْبَارَك الْمِيلي)، أحد أعضاء الجمعيّة بعد عودته من الْأَغْواطِ.

وفي هذا النّادي تُلقى الدّروس والمحاضرات، ويهدف إلى تربيّة الشّباب تربيّة عربيّة إسلاميّة، وإبعادهم عن الانحلال، وعن تعاطي الخمور، وغيرها من الآفات الاجتماعيّة.

3 – 2 – نادي التّرقّي:

حيث تعقد فيه المؤتمرات السّياسيّة، وتوجد الصّحف العربيّة القادمة من الشّرق الأدنى، وكان ابن باديس يعقد المؤتمرات ويلقي المحاضرات في هذا النّادي، كلّما زار الجزائر العاصمة، كما أنّ هذا النّادي، كان مركز لقاء الطّبقة الجزائريّة المثقّفة، والزّائرين الأجانب،

ولا سيّما من الشّرق الأدنى، ولعلّه من المهمّ أن نلاحظ أنّ جمعيّة العلماء قد ولدت في هذا النّادي.

لقد كانت جمعيّة العلماء تعمل في ثلاثة ميادين متنوّعة، ولكنّها متكاملة في نفس الوقت، وهي الميادين العلميّة والدّينيّة والثّقافيّة، ففي الميدان العلمي مثلاً كانت تدعو إلى العلم وترغّب فيه، وتعمل على نشره وتمكينه في النّفوس، عن طريق المدارس الّتي أنشأتها والمساجد الّتي كوّنتها، والنّوادي العديدة الّتي أسّستها في طول البلاد وعرضها.

3 – 3 – نادي التّهذيب: بغرض تأطير الجاليّة الجزائريّة في فرنسا، أسّس الشّيخ الفضيل الورتيلاني حين وصوله إلى باريس في 22 جويلية 1936م جمعيّة (نادي التّهذيب) لباريس وضواحيها، وذلك بعد تعيينه نائباً عن جمعيّة العلماء من قبل الشّيخ ابن باديس بعد اطّلاع هذا الأخير على معاناة المهاجرين الجزائريين والأخطار المحدقة بشخصيّتهم لمّا كان في باريس ضمن وفد المؤتمر الإسلامي الجزائري، ممّا سمح له بفتح أقسام لتعليم المهاجرين وأبنائهم.القراءة والكتابة والقرآن الكريم والأخلاق الإسلاميّة.

أمام ازدياد النّشاط التّعليمي والفكري للجمعيّة في فرنسا، وخاصّة بباريس، اضطرّ الشّيخ الورتيلاني إلى طلب الدّعم من الجمعيّة، وذلك بإرسال بعض العلماء الأعضاء فيها، فعزّزته الجمعيّة بالشّيخ سعيد صالحي، والشّيخ صالح بن عتيق، والشّيخ الزّاهي الميلي، والشّيخ سعيد البيباني، والشّيخ فرحات الدّرّاجي..الخ

وهذا ما سمح بتوسّع مجال تأثير الجمعيّة في فرنسا. «أن فتحت 13 مدرسة و14 ناديا وست جمعيات محلّية، وهذا بناء على تقارير الشّرطة الفرنسيّة في أفريل 1939م.»

وعلى هامش النّشاط التّعليمي كان الورتيلاني يلقي المحاضرات في مختلف نواحي فرنسا وينظّم النّدوات الفكريّة الّتي كان يستدعي لها شخصيات علميّة مختلفة، مثل الشّيخ (عَبْدُ الرّحْمَن تاج الدّين) الّذي سيصبح شيخاً للأزهر فيما بعد، والشّيخ (محمّد دَرَّار) أحد كبار علماء الأزهر، والأمير (شَكيب أَرْسُلان) الّذي نشّط ندوة فكريّة بنادي التّهذيب.

ثانياً: في مجال الصّحافة:

أمّا الصّحف الّتي أصدرتها جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين واتّخذتها وسيلة هامّة لمواجهة الاستعمار والدّفاع عن مقوّمات الشّخصيّة الوطنيّة الجزائريّة، مصداقاً لشعار الجمعيّة: (الإسلام ديننا والعربيّة لغتنا والجزائر وطننا). كما جعلت الجمعيّة من الصّحافة الوسيلة الأولى لنشر دعوتها وأهدافها بين الجزائريين، وسلاحاً خطيراً تستخدمه ضدّ خصومها كالإدارة الاستعماريّة ورجال الطّرق الصّوفيّة وضدّ كلّ من أصبح يسير في ركاب المحتلّين.

وأهمّ هذه الصّحف، ما يلي:

1 – السّنّة المحمّديّة: صدرت في 8 ذي الحجّة 1351هـ/ 1933م، وهي جريدة أسبوعيّة، أصدتها الجمعيّة تحت إشراف رئيسها الشّيخ عَبْدُ الْحَميد بْنُ باديس، يرأس تحريرها: الشّيْخُ الطّيّبي العُقْبي والسّعيد الزّاهري، تحت شعار﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾ سورة الأحزاب، رقم21 والحديث النّبوي الشّريف (مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي) وهما يدلاّن على مهمّتها لمواجهة الطّرق الصّوفية المنحرفة. صدر قرار من الإدارة الاستعمارية يقضي بتعطيل الجريدة بتاريخ 16 فيفري 1933م

2 –جريدة الشّريعة المطهّرة: صدرت بتاريخ 17 جويلية 1933م وهي استمرار لجريدة السّنّة المجمّديّة المعطّلة، وهي بدورها صدر أمر من طرف الإدارة الاستعماريّة لإغلاقها في 28 أوت 1933م.

3 –جريدة الصّراط السّوي: أصدرت الجمعيّة جريدتها الثّالثة هذه في 11 ديسمبر 1938م وتمّ توقيفها في شهر جانفي 1934م، وإثرها صدر قرار بحرمان الجمعيّة من إصدار أيّة جريدة في المستقبل.

–4جريدة البصائر: وبعد جهود كبيرة تمكّنت الجمعيّة من الحصول على رخصة من أجل تأسيس جريدة جديدة هي (البصائر) وذلك سنة 1935م تحت شعار﴿ **قَد جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُم فَمَن أَبصَرَ فَلِنَفسِهِۦ وَمَن عَمِيَ فَعَلَيهَا وَمَآ أَنَاعليكم بِحَفِيظ** ﴾ سورة الأنعام، رقم 104. وأصبحت لسانها الرّسمي، وهي الجريدة الّتي تحمل راية البيان العربي بشمال إفريقيا، وتكافح من أجل اللّغة العربيّة، وإرجاع الإسلام إلى عهده الزّاهر، وتتصارع مع الإدارة الاستعماريّة، دفاعاً عن مؤسّسات الجمعيّة ومبادئها.

وجريدة (الْبَصَائِر) وهي صحيفة جامعة تعبّر عن الاتّجاه الإصلاحي السّلفي، الّذي تتبنّاه الجمعيّة، وهي تتناول مواضيع ثقافيّة وعلميّة وأدبيّة وسياسيّة، وكانت محلّ إعجاب في المشرق والمغرب، منبهرين بنوع مواضيعها، وبرقيّ أسلوبها، وصفها الإبراهيمي وصفاً جامعاً فقال: «سيف من سيوف الإسلام، وقبس من روح

الدّيـن، ومنبر للعربيّة، وهي شَـجِيّ في حلق الاسـتعمار، وهـي ترجمان أفكار جمعيّـة العلمـاء»، اسـتمرّت الجريدة في الصّـدور إلى حين إعـلان الحرب العالميّة الثّانيّة.في سبتمبر 1939م.

كما صدرت البصائر –في سلسـلتها الثّانيّة – من سـنة 1947م إلى أفريل سنة 1656م.

وقـد اسـتطاعت البصائـر أن تنقـل صـوت الجمعيّـة إلى خـارج الجزائر، فقـال عنهـا أحـد قرّائها: »فأسـمعت العالمين الشّرقي والغربي صوتها العالي المرفوع»

وقـد عملت هـذه الصّحـف جميعا علـى نصـرة اللّغـة العربيّة لغـة القرآن الكريم، وكشـف التّزييـف والتّحريف الصّـادر من داخـل العالم الإسـلامي وخارجـه، كمـا انتهجـت مقاومـة الاسـتعمار ومحاربته في كافّة مظاهره، الاجتماعيّـة والسّياسـيّة والاقتصاديّـة والثّقافيّـة. كمـا التزمـت بالدّعـوة إلى ضرورة الإصـلاح والتّجديد، والجمع بين الأصالـة والإبداع فـي إطار مبادئ وتعاليم الإسلام الصّحيحة.

• أ.د. رويسات محمّد

جامعة سعيدة

المصادر

1. – المجلة تاريخ الجزائر الثّقافي، د/ أبو القاسم سعد اللهّ، ج3.
2. الشّيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتّربيّة في الجزائر، د/ تركي رابح.
3. الحركة الوطنيّة الجزائريّة، د/ أبو القاسم سعد اللهّ.ج2.

تعليم اللغة العربيّة بين القديم والحديث

د. عبد الحميد بوفاس - د. زوبير بن سخري

1. الحاجة للّغة جديدة خارج الصّراعات الإمبراطوريّة الحضاريّة القديمة:

كان العالم الثقافي القديم رهين صراعات إمبراطوريّة حضاريّة –لغويّة– تحول دون تواصلها الإنساني الحقيقي على مر التّاريخ في ما يعرف بالدّائرة الحضاريّة الكبرى شرق المتوسط، حيث يقر أغلب الدّارسين أنه لم تكن الغلبة لحضارة دون أخرى، ولم تسد لغة بالإطلاق –على العموم– إلا في محطتين اثنتين؛ الإمبراطوريّة الإسلاميّة العربيّة وهيمنتها اللغويّة والمعرفيّة على حوض المتوسط والعالم القديم، واللغة الإنجليزيّة في تجربة العولمة الأمريكيّة، حيث اندمج فيهما العالم المتعدد بثقافته وعلومه وأبدع في لغتهما دون أي حسابات إيديولوجيّة أو قوميّة، بل بكل موضوعيّة واعتزاز على أنهما قرّبا الإنسانيّة أكثر.

شكّلت الثقافة العربيّة الإسلاميّة ملمح العصور الوسطى من أقصى الشّرق إلى أقصى الغرب معرفة وثقافة وتنظيما وتنظيرا في كل المجالات ابتداء من القرن VII م؛ مستفيدة من اندماج حضاري متعدد تحت نظم الحكم الإسلامي من جهة – كنظام اقتصادي واجتماعي وسياسي– واللغة العربيّة – كوسيلة للتواصل وأداة لتدوين المعرفة– من جهة أخرى؛ مشكّلين في تناغم ثقافة عربيّة إسلاميّة مركبة متينة ومنفتحة إلى حدود وصفها بالعالميّة في العالم القديم، وما استمرارها بهذا الشّكل حتى القرن XVI م إلا لسببين اثنين؛ لغة حضاريّة جديدة متجاوزة لكل الصّراعات الإمبراطوريّة القديمة موفرة فضاء واسعا للتواصل والتّبادل الحر، لغة وحي ودين جديد يدعو للمعرفة والتّحضر والحريّة كقيم جديدة من المنظور الحضاري القديم.

كان تعلم القراءة والكتابة صناعة قليلة الانتشار في الأوساط الحضاريّة القديمة؛ حكرا على رجال الدّين والدّولة والعائلات الميسورة أو لانتشار البداوة كنمط اجتماعي غالب مقارنة بنط التّمدن، وظلت هاتان الثنائيتان (الحضر/ البداوة) مؤشرا على مدى انتشار هاته الصّنعة حتى القرن XIXم. أما نموذج المجتمع الإسلامي فقد بدأ بتأكيد الوحي على المعرفة العقليّة ووسائلها ثم بهجرة الرّسول ﷺ إلى «يثرب» وتغيير اسمها إلى «المدينة» سنة 622م، وبناء أول مسجد بها كمؤسّسة دينيّة معرفيّة، إضافة إلى فدائه بعض الأسرى من معركة بدر بتعليم صبيان الأنصار الكتابة والقراءة كواقعة تاريخيّة تبين الجهود المبذولة لتأسيس مجتمع إسلامي معرفي، ولضمان استمرار هذا التّوجه البديل كان القرآن واللغة العربيّة محل اهتمام وجوهر التّعليم في أغلب مجتمعات الحضارة العربيّة الإسلاميّة، ومن أوليات صنائعها.

ارتبط تعليم اللغة العربيّة في الجزائر بانتشار الإسلام وتعاليمه بالدّرجة الأولى؛ متضمنا الثقافة العربيّة، خاصّة منذ خلافة عمر بن عبد العزيز (681م – 720م) كبدايّة حقيقيّة للاستقرار السّياسي في شمال أفريقيا حيث أرسل إليهم عشرة من كبار الفقهاء لتعليمهم أصول الدّين الإسلامي، ولا يخلو وسم الفاتحين من أثر ، خاصّة أن أغلبهم من التّابعين، وقد كان لهؤلاء العلماء والفقهاء أثر اجتماعي كبير في تأطير الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة وفق الثقافة الإسلاميّة، حتى أن هناك من سماهم بالأشراف لعلو مكانتهم الاجتماعيّة ولقربهم من عهد النّبوة.

كان تعليم اللغة العربيّة قديما يعني في عمومه تدريس فنون وعلوم الثقافة العربيّة على تراتبيتها؛ فاللغة العربيّة كانت الوعاء الجامع والمؤثر الأول في تنظيم المعارف ونضجها، فمحدوديّة المعرفة كانت تتكامل في الموسوعيّة.

2. إنشاء الحواضر وتعليم اللغة العربيّة:

كان توسع الإسلام غربا يعني توسع وامتداد نموذجه الحضاري من أبسط

الأيقونات إلى أكثر المؤسّسات التّنظيميّة على حساب الأنظمة الحضاريّة السّابقة، فكان تأسيس الحواضر والمدن على الطّرق التّجاريّة والمواقع الاستراتيجيّة وبناء المساجد والحصون والقلاع وإنشاء الدّواوين وتنظيم حياة النّاس وفق النّظم الجديدة من خلال اللغة العربيّة تعليما وتعلما. أسس (عقبة بن نافع) (622م- 683م) القيروان سنة 650م ببناء مسجدها، فتحولت مع الأيام إلى مركز حضاري مهم في علاقة المشرق والمغرب، وتحولت إلى حاضرة ذائعة الصّيت في العالم الإسلامي لا تقل سمعة عن بغداد والقاهرة وقرطبة.

يقر (عبد الرّحمن بن محمّد بن خَلدون) (1332م – 1406م) في مقدمته أن التّعليم ظاهرة حضاريّة عمرانيّة بتميز»... وذلك أن القيروان وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب والأندلس، واستبحر عمرانها، وكان فيهما للعلوم والصّنائع أسواق نافقة وبحور زاخرة. ورسخ فيهما التّعليم لامتداد عصورهما، ما كان فيهما من الحضارة « . وكان حظ الجزائر-المغرب الأوسط- منهما؛ التّوسط بين حاضرتين كبيرتين، كانت وصلا بريا مهما بينهما، إضافة إلى انفتاح القيروان على المشرق الإسلامي كمعين لا ينضب، وريادة قرطبة شمالا في الأندلس كحاضرة طليعيّة في الغرب المسيحي. فقد انتظمت الكتاتيب كشكل أولي في القيروان لتعليم الصّبيان، وبدأ انتشارها يزيد برغبة النّاس في التّعلم، وكان الإشراف على الكتاتيب من قبل العلماء بدايّة ثم نزل إلى المعلمين والمدربين لشيوع الظّاهرة اجتماعيا وانتشارها، ويذكر المؤرخون (أبا علي شقران بن علي الهمذاني) (ت 69 هـ/ 791 م) الذي كان من فقهاء أفريقيا يقوم بتعليم التّلاميذ في كتّابه بالقيروان، كما كانت تضرب الخيام لمثل هذا الدّور في الحروب والفتوح والاستقرار تداركا لمصلحة الصّبيان في تعلم اللغة والقرآن وكانت تسمى «الشّريعة».

أمّا تأسيس وضبط النّظام التّعليمي أو ما يمكن أن نصطلح عليه بفلسفة التّعليم فقليلة هي المصنفات فيه إلا ما استحدث في القرون المتأخرة كنوع من الدّراسات الاسترجاعيّة التّاريخيّة، أما المتفق عليه أن تأسيس المعرفة والتّعليم في الحواضر العربيّة الإسلاميّة كان ممركزا حول القرآن كنص عربي معجز وكإطار لامتداد وانطلاق المعارف منه، فالنّحو والبلاغة ونقد الشّعر والتّدوين- كنظام ضبط لتاريخ الأفكار والمعارف- كلها انطلقت كآليات لدراسة هذه الظّاهرة المعجزة، ثم انتظمت بقيّة المعرفة تدافعا وترجمة وتجديدا وتنقيحا لما سبق، « اعلم: أن العلوم التي يخوض فيها البَشر ويتداولونها في الأمصار، تحصيلا وتعليما، هي على صنفين: صنف طبيعي للإنسان يهتدي إليه بفكره، وصنف نقلي يأخذه عمن وضعه. والأول: هي العلوم الحكميّة الفلسفيّة، ... والثاني هي العلوم النّقليّة الوضعيّة.»

توالت على الشّرق الجزائري ووسطه سلطة الرّستميين (776 م-909 م) بمملكة تيهرت، ووسطه حتى منطقة الزّاب سلطة الأغالبة (800م-909م) مما جعلهما يتقاطعان زمانيا وحضاريا في علاقات متشابكة ومتبادلة قوامها لغة عربيّة واحدة تتجاوز الحدود السّياسيّة وتوطد التّبادل المعرفي في الاتجاهين، فقد أقبل الطّلبة في أعمار مختلفة – انتظم السّن القانوني للصبيان والشّباب في الإقبال على التّعليم وفق ظروف اجتماعيّة-اقتصاديّة وهي تختلف في بلاد المغرب العربي من حاضرة إلى أخرى، أدناها خمس سنوات وأعلاها ست عشرة سنة-على علوم الدّين والأدب ، خاصّة علم الكلام والفروق بين المذاهب الإسلاميّة المختلفة التي هي حديث سياسة أكثر منها دينا أحيانا كثيرة. فكان الصّبيان يقصدون الكتاتيب الملحقة بالمساجد أو المفصولة عنها؛ يتعلمون القرآن الكريم واللغة العربيّة كتابة وقراءة وبعض المعارف الدّينيّة واليوميّة البسيطة،» اعلم: أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدّين، أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم، لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث. وصار القرآن أصل التّعليم الذي ينبني عليه ما حصل بعده من الملكات. وسبب ذلك: أن تعليم الصّغار أشد رسوخا وهو أصل لما بعده».

كما أسس بنو رستم مكتبة نفيسة تعتبر أيقونة ذاك العصر تدعى» المعصومة»، تعزز النّظام التّعليمي وتعمقه نحو الاختصاص والعلميّة والموسوعيّة، جمعوا فيها من الكتب القيمة في مختلف العلوم والتاريخ والرّياضيات والفلك وعلم النّبات، إضافة إلى تفاخر الحواضر بأيقونات المعرفة في تلك العصور لما للمعرفة من مكانة وقيمة في نفوس النّاس والوافدين الجدد على الإسلام.

ثم انتظم التّعليم بعد الكتاتيب في نظام الحلقة، وتكون عادة بالمسجد أو الجامع، يؤم الحلقة شيخ أو عالم يلقي عليهم درسه شرحا وتحليلا ومناقشة، ثم مليا عليهم خلاصة درسه، وقد اشتمل نظام الحلقة على الكثير من العلوم، كالتّفسير والحديث والفقه وأصوله، وعلم النّحو والبلاغة والبيان.

وما إن ينتظم ويترتب أي نظام تعليمي في أي مجتمع وينضج حتى يصبح متكررا في الأمد المتوسط إلى الأمد البعيد مع اختلاف النّتائج مهما اختلفت الحقب السّياسيّة، ويبقى الشّرط الأساس في هذه الاستمراريّة هو التّمويل، فقد عرفت المجتمعات الإسلاميّة نظام الوقف والهبات التي تخصص مداخيلها لأجور الشّيوخ ومصاريف الإيواء والإنارة والمعاش وعلاوات تصرف للطلبة، إضافة إلى تبرعات ميسوري الحال، أو الوصايّة السّياسيّة والحكم من خليفة أو أمير أو بيت مال المسلمين، وقد كان الوقف في المرتبة الأولى؛ لأنه أكثرها فعاليّة على مر العصور.

وكانت جودة النّظام التّعليمي في مدى نيل المجازين فيه على شهرة تجوب الآفاق إلى الحواضر شرقا وغربا، إضافة إلى التّصانيف والإجادة والأثر الاجتماعي والسّياسي في الحياة اليوميّة، اشتهر في عصر الرّستميين والأغالبة المحدثون(سيدي إبراهيم بن عبد الرّحمن التّنسي المالكي، قاسم بن عبد الرّحمن، زكرياء بن بكر)، ومن الأدباء (بكر بن حماد، أحمد بن الفتح بن خزار، ابن الهرمة)، ومن الإباضيّة (أبو عثمان سعد بن أبي يونس، والقاضي محمّد بن عبد الله بن الشّيخ)، أما بجهة الزّاب فاشتهر(أحمد بن علي بن أحمد البغاتي، بلقاسم بن علي بن خويلد البسكري)، أمّا مدينة طبنة فاشتهرت بمحدثيها (أمثال علي بن منصور، أبي محمّد القاسم، أبي الفضل عطيّة).

وفي أيام الفاطميين(912 / 913م-971م) أراد أصحابها أن يثبتوا وجودهم على مستويين مستوى سياسي ومستوى معرفي؛ لأنهم ينطلقون من تأويلات نصيّة جديدة مقارنة بما عرفه السّلف/ السّنة، فأضحت البلاد تنافس الأندلس، وخاصّة في علم الكلام، فقد حدث في مسجد القيروان تحول خطابي سياسي كبير سيفتح المجال أمام أدبيات الشّيعة وأيقوناتهم، حيث خطب (عبيد الله الشّيعي) (ت 934م) يدعو النّاس للالتّفاف حول دعوته؛ مغيرا في يومها آذان الصّلاة، فكانت الانطلاقة الحقيقيّة للمذهب الشّيعي في شمال أفريقيا، وقبل هذا كانت خطب الشّيعة في مساجد ميلة وسطيف وقسنطينة إلى درجة أن ظلت بعض أثارهم العقائديّة ومواقفهم السّياسيّة في الخطاب الشّعبي، فالنّاس يتداولون اليوم في الجزائر عبارة» عمار بوالزّور»، و»عايشة راجل»، والمقصود من الكنيتين عمر بن الخطاب ﷺ وعائشة أم المؤمنين ﷺ ، ومن أشهر حواضر الفاطميين بالمغرب الأوسط مدينة المسيلة بالجزائر.

لم يتغير النّظام التّعليمي في بنائه ونظامه لتغير النّظام السّياسي بقدر ما نقول تمذهب أو تأدلج، فتظهر من التّقنيات المعرفيّة ومن العلوم ما يخدم هذا الغرض في خضم التّراث السّابق المتراكم في الأعمال والمؤلفات والمكتبات. وقد أشار (القاضي عياض) (1083م – 1149م) في كتاب ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك» إلى هذا الصّراع المذهبي وكيف أن علماء المالكيّة «كأنهم ذمة تجري عليهم في كثرة الأيام محن شديدة»، وكان (أبو الحسن القابسي) (935م-1012م) بصفته عمدة المدرسة المالكيّة بالقيروان يسفه الشّيعة وسلطتهم وسلطة بني زيري(971م-1152م) المتشيعين في بدايّة حكمهم، ويقال أن (أبا الحسن القابسي) لا يأكل ما يباع بصبرة المنصوريّة ولا ما يشترى منها، ولا يشرب ماء صبرة، وكان (أبو عبد الملك مروان البوني) (ت 1048م) من أشهر تلامذته؛ درس في القيروان وهو صاحب «شرح كتاب الموطأ»، «شرح صحيح البخاري»، ورغم هذا الصّراع المذهبي إلّا أن نشاط المالكيين لم يتوقف في الدّولة الفاطميّة واستمرت كتاتيبهم ومدارسهم؛ مما يوحي بفكرة التّعايش والتّسامح في مستوى من المستويات.

كما أن المغاربة لم يكونوا ميالين كثيرا إلى اللجج والجدال المذهبي، فلم يحظ علم الكلام من اهتمامهم حظوته في المشرق، حتى أن أصحاب الدّعوة الشّيعيّة كانوا يسمون أرض أفريقيّة بلد المهجر لمكوثهم الآني والمؤقت فيه، فالتّشيع كان تغطيّة سياسيّة على بعض المنافسين في الجهة الغربيّة ولم يكن عقيدة حقيقيّة عميقة في حياة النّاس. ونبغ فيهم العلامة (دونش بن تميم الطّبيب) الفيلسوف اللغوي، وانتشر علم الجغرافيا وألف فيه (محمّد بن الوراق) . كما اشتهر العلامة (أحمد بن الجزار) في علم التّاريخ وبأبحاثه في علم النّبات وعلم الحجارة، و(ابن رشيق المسيلي) (ت 1064م) في البلاغة والشّعر، والشّاعر (باديس عبد الكريم بن إبراهيم النّهشلي) (ت 1015م) ودرايته بأيام العرب، والشّاعر (ابن هانئ الأندلسي) الذي أظهر تشيعه، والملفت للنظر أن الكثير من علماء وأدباء هذه الفترة ينسبون للقيروان كحاضرة للفاطميين دون غيرها من الحواضر في الشّرق الجزائري.

أمّا في دولة بني حماد(1014م-1152م) فقد طرأ عليها حدثان اثنان؛ أولهما التّنصل من التّشيع كمذهب، وثانيهما سيادة قبائل البربر بدل العنصر العربي، ولكن الاهتمام باللغة العربيّة

وثقافتها كان في أوجّه لأن العنصر البربري مندمج في الثقافة العربيّة الإسلاميّة ، وربما ذلك نتاج التّسامح الإسلامي الثقافي في كل نظمه من التّعليم إلى نظام الحكم في تشاركيّة الحياة. ويعتبر عصر بني حماد العصر الذهبي الذي انتشرت فيه اللغة العربيّة بقوة وخاصّة مع مجيء الهلاليين.

كما اشتهرت المهديّة بعلم الكيمياء وصقلّيّة عاصمة التّرجمة، اشتهرت بجايّة بعلم الرّياضيات ونقل الأرقام العربيّة إلى أوروبا ومفاهيمها المجردة، حيث كانت اللغة العربيّة تعيش تجربة فريدة من نوعها في ذاك العصر وهي التّأسيس لعلم الرّياضيات الحديثة ترجمة وإبداعا.

كانت قلعة الحماديين عامرة بالكتاتيب لتعليم الصّبيان، ومن معلميها البارزين (أبو حفص العديري)، كما أنشأ (النّاصر) في بجايّة « معهد سيدي تواتي» الذي احتوى ثلاثة آلاف طالب، تدرس فيه كل العلوم، ويحاضر فيه أساتذة من الأندلس وأفريقيا والمشرق. كانت بجايّة مقصد طلاب العلم، هجر إليها (ابن حمديس الصّقلي) و(أبو الفضل بن النّحوي)، وغصت دولة بني حماد بالفقهاء والعلماء والشّعراء إلى أن اعتذر (الغبريني) صاحب» عنوان الدّرايّة في علماء المائة السّابعة ببجايّة»،» وقد بقي خلق كثير من أهل المائة السّادسة ممن لهم جلال وكمال، ولكن شرط الكتاب منع من ذكرهم».

كما نبغ أمراء بني حماد في العلم والأدب واهتم بهما أيّما اهتمام، وأسسوا المدارس، وأغرموا بمجالسّ المناظرة، واشتهر فيهم (أبو عبد الله محمّد بن علي الصّنهاجي)، واشتهر كذلك المؤرخ (ابن حماد)، و(مطرف بن علي بن حمدون)، و(أبو الحسن علي بن شكر القلعي)، و(ابن عفراء النّحوي)، (ابن الرّماح محمّد بن عبد المعطي).

(فمحمّد بن محمّد بن أحمد) الأموي هاجر مرسيّة وانتصب للتدريس بمسجد بجايّة الجامع، في علوم الطّب والرّياضيات، وكذلك (أحمد بن خالدّ) المهاجر من مالقة في علوم شتى، و(عبد الله الحضرمي القرطبي) من فطاحل الأدب ورواة الحديث الثقاة، وكان (عبد الحق الأزدي الإشبيلي) قد ولي الإمامة والخطابة بمسجد بجايّة وجلس للتدريس واعتكف للتصنيف، كما قدم الشّاعر الكبير (محمّد بن الأبار)، ومن الإباضيّة (الشّيخ أبو عبد الله محمّد بن بكر النّفوسي)، الشّيخ (أبو العباس أحمد بن الشّيخ محمّد بن بكر).

شهد عصر الموحدين (1121م – 1269م)، انفتاحا على أفكار الأشاعرة والمعتزلة لامتدادها الكبير شرقا وغربا وشمالا، كما ذكر (الغبريني) في كتابه «عنوان الدّرايّة» أخبارا جليلة عن حالة العلم والعلماء ومجالسّهم في ذلك الوسط الرّاقي وكيف كانوا يتناظرون في منتديات لهم، وكان لهم ناد صغير يسمى « مدينة العلم» وهو دكان يجتمع فيه أمثال (أبو علي المسيلي) و(عبد الحق الإشبيلي) وأضرابهما للمجادلة الحسنة وللتحقيق والتّدقيق.

ولم تخلُ في عصر الموحدين مدينة أو حارة من المساجد والكتاتيب والمؤدبين، فكان التّعليم بكل درجاته موجودا عاما مجانيا. فقد نبغ في الشّعر (حسن بن الفقون)، (ابن عمارة الشّريف) في نظم الموشحات، السّيدة عائشة بنت ابن عمارة الشّريف، كما ونبغ الشّيخ أبو عمار عبد الكافي التّناوتي الوارجلاني(ت ق 570 ه)، أما الشّيخ (أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني) فقد ارتحل إلى الأندلس فأقام بجامع قرطبة زمانا حصل فيها على جميع العلوم العقليّة والرّياضيّة من النّحو والصّرف والبلاغة والمنطق والحساب والهندسة والفلك ثم رجع إلى وطنه.

انتقل مركز الحضارة في ظلّ الدّولة الزّيانيّة (م1235 – 1556م) من بجايّة إلى تلمسان، فأصبحت هذه المدينة تضاهي في سمعتها القاهرة وبغداد وقرطبة. وقد بالغ أمراء بني زيان وأمراء بني مرين في المدة التي حكموا فيها تلمسان في تشييد المدارس الأنيقة التي لايزال بعضها قائما إلى يومنا هذا يشهد لتلك المدنيّة بالعلو والعظمة. ورتبوا لها المدرسين لتعليم الطّلبة العلوم العقليّة والدّنيويّة والرّياضيّة، أما دروس المساجد فقد كانت خاصّة بالعلوم الدّينيّة القرآنيّة، وتمتاز المدرسة عن المسجد بكونها تحوي أماكن للطلبة يستقرون فيها مدة مزاولتهم للعلم، لا يفكرون في أمر مسكن ولا ملبس ولا مأكل، بل يجدون هنالك كل ما تحتاج إليهم حياتهم مما يجود به الأمراء والفضلاء والأعيان. وانتشرت هذه المدارس في كل أنحاء القطر الجزائري ونبغ منهم الكثير؛ (محمّد بن مرزوق بن الحاج التّلمساني)، (محمّد بن محمّد القرشي)، (أحمد بن محمّد الونشريسي)، و(أحمد بن محمّد بن زكري)، و(محمّد السّنوسي)، و(أحمد الجزائري)، و(أبو الرّبيع سليمان بن عبد الرّحمن بن المعز الصّنهاجي)، والشّيخ (سيدي عبد الرّحمن الثعالبي)، و(محمّد المغيلي).

وألف الكثير من الجزائريين في علوم الفلك والهيأة، منهم: (أبو الحسن علي بن محمّد بن علي القرشي البسطي) المعروف (بالقلصادي)،

و(ابن قنفـذ) و(محمّـد الحبـاك)، أما علـوم الحسـاب والجبـر والفرائـض فقـد نالـتّ عنايّـة خاصّة، كثـرت بها المصنفـات والمؤلفات، فهنالك تأليف فـي الجبـر والمقابلـة للشـيخ (محمّد السّنوسـي)، وتأليف للقلصادي اسـمه «كشـف الجلباب عن علم الحسـاب»، وله كتاب كذلك اسمه قانون الحساب، ولابن قنفذ « بغيّة الفارض في الحساب والفرائض»ونبـغ من الأدبـاء (المقري التّلمسـاني)، (ابن الخطيب)، و(الحاج أبو عبد الله محمّد بن جمعة التّلالسّـي التّلمساني)، و(ابن خميس).

يمكن القـول إن تعليم اللغـة العربيّة من الفتـح حتى بدايّـة الدّولـة العثمانيّة شهد تطورا واهتماما خاصّا من الفاتحين ومؤسّسي الدّول المختلفة على اختلاف مذاهبهـم وإيديولوجياتهـم، إلا أن مؤسّسـات التّعليم النّظاميّـة كانت ثابتة ويختلف انتشارها من منطقة إلى أخرى، أمـا تقديم المحتـوى وأصنـاف العلوم فيتوقف على الحاجة وطبيعة الحاضرة، وقـد لخـص ابن خلـدون التّعليـم في المغرب في جملة مـن الملاحظات، أن تعليم الصّبيان يمتد من السّـن الخامسة حتى السّن السّادسة عشرة ، فكان يطول أمد التّحصيل لقلة جودة التّعليم وعسره أحيانـا، « واختلفـت طرقهم فـي تعليم القرآن للولدان، باختلافهم باعتبار ما ينشأ عن ذلك التّعليم من الملكات، فأمّا أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليـم القرآن فقـط، وأخذهم أثناء المدارسـة بالرّسم ومسـائله واختلاف حملـة القـرآن فيـه، لا يخلطـون ذلك بسواه في شيء من مجالسّ تعليمهم، لا من حديث ولا من فقه ولا من شـعر ولا من كلام العـرب، إلى أن يحـذق فيه أو ينقطع دونه، فيكـون انقطاعه في الغالب انقطاعا عن العلم بالجملة، وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغـرب ومن تبعهم من قـرى البربر، أمم المغـرب، في ولدانهم إلى أن يجاوزوا حد البلوغ إلى الشّـبيبة. وكذا في الكبير إذا راجع مدارسـة القرآن بعـد طائفة مـن عمره، فهـم لذلك أقوم على رسـم القرآن وحفظه من سواهم»، ولكن طريقـة التّدريس وتـداول العلوم ليسـت واحدة، ومـن ثـم كان التّفاضل والتّرحـال، والأمـر قـد يعـود إلـى أنه لـم يقم ديـوان يضبـط ويوحـد التّعليم والتّدريس حتى أن المصنفات والتّآليف فـي التّدريب والتّعليم قليلـة جدا، فكان يقوم على الارتجال والمنافسة من جهة، وتذبـذب جانبـه الاقتصـادي جعله في حركـة دائمة وعـدم اسـتقرار ، من جهة أخرى،» وأمّـا أهل أفريقيّة فيخلطون في تعليمهـم للولدان القـرآن بالحديث في الغالب، ومدارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسـائلها؛ إلا أن عنايتهم بالقرآن، واسـتظهار الولدان إيـاه، ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته أكثر مما سواه، وعنايتهم بالخط تبع ذلك».

ويعيب ابن خلـدون كثيـرا على آداء اللغة العربيّة في قيامها على نظام تعليمي يقوم على قراءة القـرآن وحفظه فقط في آداء فـردي أو جماعي يعـود إلى طبيعة الحياة الاجتماعيّة بين القبيلة/ الحاضرة « فأمّـا أهل أفريقيّة والمغـرب، فأفادهم الاقتصار على القـرآن القصور عن ملكة اللسـان جملة، وذلك أن القرآن لا ينشـأ عنه الغالب ملكة لما أن البشر مصروفون عـن الإتيان بمثله، وليـس لهم ملكة في غير أسـاليبه، فلا يحصل لصاحبه ملكة في اللسـان العربي، وحظـه الجمود في العبارات وقلة التّصرف في الكلام» وهذا الحكـم لا ينفي عنهم المبدع والشّـاعر وإنما يحكم على فئة المتعلمين.

أمّا الاستغراق في متون النّحو والفقه فقد يحيد عن الغايّة من التّعليم والتّأليف « ...وأما العلوم التي هي آلة لغيرها مثل العربيّـة والمنطق وأمثالهمـا، فلا ينبغي أن ينظـر فيها إلا من حيث هي آلة لذلك الغير فقط. ولا يوسـع فيهـا الكلام ولا تفرع المسـائل، لأن ذلك يخرج بها عن المقصود، إذ المقصود منها ما هي آلة له لا غير. فكلما خرجت عن ذلك خرجت عن المقصود وصار الاشتغال بها لغوا، مع مـا فيه مـن صعوبة الحصـول على ملكتها بطولهـا وكثرة فروعهـا. وربما يكون ذلـك عائقا عن تحصيـل العلوم المقصـودة بالـذات لطـول وسـائلها، مع أن شـأنها أهـم، والعمـر يقصر عن تحصيل الجميع علـى الصّورة، فيكون الاشـتغال بهذه العلـوم الآليّـة تضييعا للعمـر وشـغلا بمـا لا يغنـي»، وربما ابن خلـدون يريد الإشـارة إلـى نضج بعض النّظريات وانتهائهـا فلم يعد فيها جديد، وعليـه يكون التّعمـق فيها دون طائـل يرجـى، أم أن النّظـام التّعليمـي عجز عن تجديد نفسـه وفـق الحاجات الجديدة المسـتجدة في واقع النّاس، « وهذا كمـا فعله المتأخـرون في صناعة النّحو وصناعة المنطـق، لا بل وأصول الفقه، لأنهم أوسـعوا دائرة الكلام فيها (نقلا واسـتدلالا) وأكثروا من التّفاريع والمسـائل بمـا أخرجها عـن كونها آلة وصيرها من المقاصـد. وربما يقع فيها لذلك أنظار ومسـائل لا حاجـة بها في العلوم المقصودة (بالذات فتكون لأجل ذلك) من نوع اللغـو، وهي أيضا مضرة بالمتعلمين على الإطـلاق، لأن العلوم المقصودة أكثر من اهتمامهم بوسائلها».

امتـد عصـر الضّعـف والانحطـاط في الفتـرة العثمانيّـة (1515م – 1830م) ليشمل العالم الإسـلامي العربي أجمع

في العلـوم والفنون والآداب كما يمكن القول أن اهتمامات الإمـارات والدّول تحولت إلى العسكرة والحروب مهملة الجانب المعرفي والثقافي لمجتمعاتها، وقـد تراجعـت كثيـرا حواضـر العالم الإسلامي مقارنة بما كانت عليه.

لم يهتم حكام العثمانيين في الجزائر بالحيـاة العلميّة ولا الدّينيّـة، وكان هذا من شـؤون المجتمع الخاصّـة، فهم لا يتقنون اللغة العربيّة من جهة وما يهمهم مـن الدّين إلا الإيديولوجيـا، وكان هذا عُرف الكثير منهم عدا بعض الباشاوات الذي نشأوا في الجزائر مولدا ونشأة.

لم تكـن فـي الجزائـر إدارة للتعليم قصد تنظيمه، بـل كان التّعليم حرا، بين الرّسـمي وغيـر الرّسـمي، فالمجتمع بأسره مسـؤول عن تعليم أطفاله، حيث يمكـن القول أن النّظـام التّعليمي الذي تأسس ورسخ في القرون الماضيّة مازال مسـتمرا كما هو مع بعـض التّغييرات، وهـذا لا ينفـي اشـتراك العثمانيين في إقامـة مؤسّسـات التّعليـم بإمكانياتهم بعد الاسـتقرار؛ بـدأوا بالكتاتيب حول المسـاجد في الأحياء الآهلة بالسّـكان وانتهـوا بالمـدارس والمسـاجد، وقد حبسـوا لذلك الأحباس ووفروا الكتب وعينوا المدرسـين ورتبوا لهم الرّواتب « ولقد اسـتمر الأهالي أيضـا في إقامة الشّـعائر الدّينيّـة وفـي بناء المسـاجد والأضرحـة والزّوايـا، وفـي تحبيـس الأحباس التـي تخدم هـذه الأغراض، وفي دراسـة التّاريخ الإسلامي ورجاله. وكانـوا بالطّبـع تحـت تأثيـر العقائـد الصّوفيّـة»، وفي هذه الفتـرة من تاريخ الجزائـر تطرح قوة المذاهـب الصّوفيّة والزّاويّـة وأثرها في التّعليـم والتّحول به إلى شـكل بسيط من كسـب معارف لغويّـة ودينيّة مكـرورة لا جديـد فيها، « فالفلسـفة والحسـاب والطّبيعيـات والطّب التي كانت ملكا لهم خلال عدة قرون قد أصبحت الآن لا تكاد تعرف أو تدرس، ويرجع ذلك إلى عدم الاستقرار وإلـى الصّراع بيـن العـرب والأتراك، فالعثمانيـون لم يوفروا الأمـن والحريّة والاسـتقرار الضّروري للإنتـاج الفني والعلمي والأدبي، ولم يتخذوا تشـجيع الأدباء بين العلماء والفنانين سياسة لهم أثناء حكمهم باسـتثناء بعض الحالات المنعزلة. وقد كان الأدب والعلم والفن في العالم الإسلامي وليد التّشجيع»

كثـرت المـدارس الابتدائيّـة فـي الجزائر حتـى كان لا يخلو منها حي من الأحياء في المدن والقرى، بل إنها كانت منتشـرة حتى بين أهل الباديّـة والجبال النّائيّة، وذلك للحاجة لمثل هذا المنحى في تعلـم الحسـاب والقـراءة والكتابة فقط. وهذا ما جعـل جميع الذين زاروا الجزائر خلال العهـد العثماني ينبهرون مـن كثرة المدارس بها وانتشـار التّعليم وندرة الأميّـة بين السّـكان، أي تحقيق رصيد معرفي منفعي.

طيلة القـرون الماضيّة لـم تنضج ولا مؤسّسة واحدة بالجزائر في شكل الأزهر أو القرويين أو الزّيتونـة للإشـراف على التّعليـم عمومـا، تنظيمـا ووصايّـة، غير أن دروس جوامعهـا الكبيـرة كانت أكثر اختصاصا وأكثر عمقا ، لتنوع الدّراسـات فيها وتردد الأسـاتذة عليهـا من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، ولكنها محصورة فـي الحواضر الكبيـرة فقط، مـن ذلك : دروس (سعيد قدورة) و(علي الأنصاري) و(أحمـد بن عمار) بالعاصمـة، ودروس (سعيد المقري) في تلمسان، ودروس(أبي راس) في معسكر ودروس (عمر الوزان) و(عبد الكريم الفكون) و(أحمد العباسي) و(عبـد القادر الرّاشـدي) في قسـنطينة، و(أحمـد البونـي) فـي عنابـة... غير أن شهرة هؤلاء العلماء كانت نتيجة جهودهم الشّـخصيّة وليـس نتيجة انتمائهـم لنظام شـامل تخضع لـه المؤسّسـات التّابعين لها، كما لا ننسـى دور القرون السّابقة في التّأليف وبنـاء المكتبات والحركة الدّائمة اتجـاه المشـرق. وقـد اشـتهرت بعض المدارس كالمدرسـة القشاشيّة ومدرسة شيخ لبلاد والجامع الكبير.

اشـتهرت حاضـرة تلمسـان بوفـرة المدارس والعلماء لرصيدها الحضاري المتعـدد، فبالإضافـة إلـى المـدارس الابتدائيّـة كان بهـا علـى الأقل خمس مدارس ثانويّة وعاليّة بالمفهوم الحديث أو يمكـن تسـميتها مـدارس الإجازة، وهـذه المـدارس أشـاد بهـا الرّحالـة المصـري (عبـد الباسـط بـن خليـل) (1440م- 1514م، دخـل تلمسـان فـي المحـرم سـنة 869هـ (1465م)، جلس دروس العلامـة (محمّـد بـن علي بن فشوش) أشـهر أطباء تلمسان ، و(ليون الأفريقـي) (الحسـن الـوزان 1494م-1554م). قد وجد الفرنسـيون بتلمسـان خمسـين مدرسـة ابتدائيّة ومدرسـتين للتعليم الثانوي والعالي، وهما مدرسـة الجامـع الكبير ومدرسـة أولاد الإمام، والمعـروف أن (الباي محمّـد الكبير) خـلال حكمـه (1779م-1797م) هو من جدد المدرستين وأعاد لهما أوقافهما .

ولم تكن حاضرة قسـنطينة أقل عنايّة بالمدارس، فقد كانت مدارسها الابتدائيّة كثيرة في العهود السّـابقة وكذلك العهد العثمانـي رغـم تراجعهـا، إلـى أن أعاد بعثها (صالح بـاي) (1725م - 1792م) من جديـد ، وقـد ثبتت في عهده مدرسـتان ثانويتان؛ وهما سـيدي بوقصيعة وسيدي ابن خلـوف، وقـد كان عـدد المدارس الابتدائيّة بها تسـعون (90) مدرسـة عند

الاحتلال مخصصة للصبيان من سن السّادسة حتى السّن العاشرة؛ وهو تطور ملحوظ في تخصيص سن محددة للتعليم الابتدائي ربما فرضته الحياة الاقتصاديّة الاجتماعيّة، ويزيد العمر في بعض المناطق حتى سن الرّابعة عشر، إضافة إلى تراجع المعرفة من حيث النّوع، ووجدوا بها سبع ثانويات للتعليم العالي.

أما في الجزائر العاصمة فكان بها ما يزيد على المئة مدرسة ابتدائيّة وقت دخول الاستعمار الفرنسي في مختلف أشكالها من الكتاتيب إلى المسجد (المسيد) وكانت تسمى في الغالب بأسماء أحيائها، وغالبا ما كانت أوقاف الكتاتيب غير مصرح بها عند القضاة، فأغلب الأهالي وخصوصا أغنياء الحضر، كانوا يفضلون عدم الإعلان عن صدقاتهم، ولذلك توجد في وثائق الوقف أسماء كبار المسؤولين فقط الذين يسجلون أعمالهم الخيريّة.

معظم مؤسّسات التّعليم الابتدائي كانت من النّوع العامّ في أغلب الحواضر والمدن، ولم يظهر شكل آخر يوصف بالخاصّ إلا في تمويل بعض الزّوايا والمدارس الخيريّة، أما تعليم الصّبيان فرادى للذكور والإناث فكان حكرا على مر التّاريخ لأبناء الأعيان والأثرياء.

يقدم (محمّد بن أبي جمعة الوهراني) (ت 1514–1524م) في كتابه «جامع جوامع الاختصار والتّبيان فيما بين المعلمين وأباء الصّبيان» أوائل القرن العاشر الهجري (1493م) ملمحا مهما عن تعليم الصّبيان في بدايّة العهد العثماني، وهو من الرّسائل القليلة في قواعد التّعليم والتّربيّة أو مناهج التّدريس في الجزائر خلال العهد العثماني. يعتمد التّعليم الابتدائي على الحفظ، فمن الصّبيان من يختم القرآن حفظا وهو دون العاشرة، غير أن معدل سن الحفظ كله هو الثانيّة عشرة.

ويقضي الصّبي بقيّة السّنوات في العادة إلى الرّابعة عشر أو أكثر في تكرير القرآن على شيخه بروايّة ورش وقالون وغيرهما، كما أنه يأخذ في إتقان الكتابة والقراءة وتعلم مبادي الحساب وقواعد الدّين وحفظ بعض المتون التي ستكون مدخلا مهما في تعليمه الثانوي، كما يتعلمون الخط ، « ويعلمهم مبادئ عقائد الإيمان، وفروع الشّريعة ويستخبرهم كيف وضوؤهم وصلاتهم، ومما جرت العادة به تعليمهم أسماء الشّهور العربيّة والعجميّة، وتلقينهم القنوت والتّشهد، واقراءهم تلقينا من « سبح اسم ربك» إلى أخر القرآن» من الجنة والنّاس»...كما أن شأن أهل الباديّة تلقينهم الشّهادتين والأسماء الحسنى».

ولم يكن الانتقال من التّعليم الابتدائي إلى التّعليم الثانوي يتم بطريقة منتظمة، فكثير من التّلاميذ ينقطعون لفقرهم وحاجتهم للانقطاع لأعمالهم وصنائعهم.

أما في التّعليم الثانوي فينقطع عن المسجد لينتقل إلى قطب حضاري أو زاويّة ذات سمعة، والمدرس حر في وضع البرنامج الدّراسي وفي تحديد أوقات التّدريس حيث كانت تراعى الظّروف المناخيّة ومواسم الحصاد والبذر بالضّرورة، كما كان هناك من يتوجه إلى الأزهر أو الزّيتونة أو القرويين لاستكمال المشيخة كلقب يطلق على الأفذاذ والمقتدرين في كل مجال وخاصّة في الفقه، لأن الأداء الأكاديمي للّغة كان يغلب عليه الأداء الاجتماعي الشّفوي في الغالب.

كانت تقنيّة الشّرح والإملاء هي ميزة الدّروس في التّعليم الثانوي أو العالي ، فقد كان لكل مدرس مسمع يساعده على قراءة النّص أو جزء من الكتاب المدروس، ثم يأخذ المدرس في شرح المسألة وتوضيحها والاستشهاد، وكلما أطال المدرس في المسألة وأفاض فيها تفصيلا وتخريجا كلما كان ذلك من ميزات نجاحه، وعادة ما تكن لهم كصفات مهنيّة تعليميّة تجعل الطّلبة يختارونهم عليها، وهنا تطرح مسألة في غايّة الأهميّة–وتميز بين المجازين– فهناك من يحفظ ويقيس فقط ويكرر حتى أضحى التّكرار صفة سيئة ملولة وهناك من يجتهد ويعمل فكره في علاقة الواقع بالنّصوص الموروثة وخاصّة في تقديم الأمثلة وتبسيطها، ثم يختم الدّرس بالإملاء في شكل خلاصات تطول وتقصر وتكرر وتبدع، وكلما كانت أقرب إلى البلاغة الموروثة كانت أقرب للنضج والصّواب. وقد أسهمت بدائيّة الأدوات المستعملة من لوح وقصب ودواة وكاغد في التّركيز على الأداء الشّفوي أكثر من الكتابي.

وكان لقب الطّالب يطلق على من اختار تعليم الصّبيان القرآن والشّيخ لمن اجتازه للفقه وخاصّة المواريث كعلم يستحق الجدارة والاعتراف، وكثيرا ما كان المتخرجون حفظة ورواة، قال الشّيخ ويرى الشّيخ والقليل منهم من يجترئ إلا فيما هو مألوف وعادي وبسيط .

كان الحفظ أو الرّوايّة من أبرز صفات المدرس أو الأستاذ، فالمدرس الكفء هو الحافظ لعدة علوم مع أسانيدها، وحفظ المتون ونحوها بل وحفظ بعض الكتب كاملة كشرح خليل بن إسحاق بن موسى) والرّسالة لابن الحاجب)أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس الدّويني الأسنائي) وغيرها من الكتب والشّروح، ولذلك كان يوصف في الجزائر العالم

بـ«الحافظ لعدة علوم»، وكانت ميزة الجمع بين عدة علوم من الميزات المهمة في الأستاذ الكفء والطّالب كذلك.

كما شاعت روايّة الحديث وأسانيده الصّحيحة وخاصّة ما يتوافق مع المذهب المالكي في بلاد المغرب والأندلس، وقد ألف الجزائريون في ذلك عدة تآليف، وأشادوا بالحفظة والمسندين والرّواة، ولهم في ذلك طرق معهودة وصيغ محفوظة، ومن أشهرهم (أحمد بن عمار) و(عيسى الثعالبي) و(أبو راس) و(ابن العنابي). كذلك كانت الرّوايّة تشمل الفقه والتّفسير ، إضافة إلى طرق الصّوفيّة التي يعتبر فيها السّند طريقا للحق في حد ذاته.

وقد تقلصت المواد الرّياضيّة والطّبيّة من البرامج الثانويّة والعاليّة واقتصرت العلوم المدروسة على العلوم الدّينيّة واللغويّة وبعض كتب التّاريخ والسّيرة وقانون ابن سينا في الطّب، وهذه قائمة العلوم الدّينيّة الشّائعة:

- تفسير القرآن الكريم بعدة كتب منها تفسير الثعالبي وتفسير السّيوطي.
- الحديث الشّريف، وخصوصا صحيح البخاري الذي كاد يقرا أكثر من القرآن، ومختصر ابن أبي جمرة، وكتاب الشّفاء للقاضي عياض.
- مصطلح الحديث بألفيّة العراقي
- الفقه المالكي برسالة ابن أبي زيد القيرواني، ومختصر ابن الحاجب الفرعي.
- الفقه الحنفي بكتب مختلفة وأساسيّة في المذهب.
- التّوحيد أو علم الكلام بالمنظومة الجزائريّة وعقائد السّنوسي الثلاث.
- أصول الفقه وأصول الدّين بجمع الجوامع للسبكي ومختصر ابن الحاجب الأصلي.
- القراءات بمنظومة الجزري والخرازز وابن بري والشّاطبيتين الصّغرى والكبرى.
- التّصوف بدراسة حكم ابن عطاء الله وكتاب إسقاط التّدابير له أيضا.

وليس معنى هذا أن جميع المدارس تقدم هذه العلوم ودروسها، فقد عرف أن بعض المجالسّ كانت مقتصرة على علوم خاصّة. كما أن طريقة تدريس كل علم كان لها دخل في تحبيبه إلى الطّلاب أو إبعادهم عنه. وقد عرف أيضا أن بعض الكتب الدّينيّة المشبعة بالأفكار والأوراد قد شاعت شيوعا خاصّا خلال هذا العهد مثل «دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصّلاة على النّبي المختار» (لمحمّد بن سليمان الجزولي) ، و«تنبيه الأنام في بيان علو مقام نبينا عليه الصّلاة والسّلام» (لعبد الجليل بن عظوم المغربي القيرواني)، ولكن خارج حلقات الدّرس.

أما العلوم اللغويّة ونحوها فلم تتجاوز بدورها المواد التّقليديّة المعروفة، يضاف إلى ذلك هبوط مستوى التّحليل والاستنتاج وشيوع روح التّصوف والدّروشة أحيانا لدى مدرسيها أيضا، وهذه أهم هذه العلوم:

النّحو بالأجروميّة وألفيّة ابن مالك وشروحها كالمكودي.

- الصّرف بلاميّة ابن مالك في التّصريف
- فقه اللغة
- البلاغة بجوهرة ألأخضري وحواشي السّعد التّفتزاني ومتنه وتلخيص المفتاح.
- العروض بالخزرجيّة مع شرحها للشريف الغرناطي
- المنطق بالسّلم المرونق للأخضري وتهذيب السّعد والجمل للخونجي ومختصر السّنوسي.
- الخط
- السّير والأخبار

اهتم بعض المدرسين بالعلوم المحضة ولكن عددهم قليل، وتدريس هذه العلوم عندهم لا فائدة منه عمليا. ثم عن دراسة هذه العلوم لم تكن متطورة. فالحساب كان لفهم العمليات الأربع وممارسة التّجارة، والفرائض لمعرفة قسمة التّركات ونحوها وهذا أهمها وأجلها لطبيعة المجتمع الإسلامي الجزائري، وكذلك الأمر بالنّسبة لعلم الوثائق وعلم الوضع، أما الفلك فقد كان يدرس لمعرفة الزّوال وأوقات الصّلاة والهلال ونحو ذلك، وليس للملاحة ونحوها فتلك تدخل في الصّنائع المحضة التي تمارس فقط ولا ينظر لها، فهذه هي طبيعة العلوم التي كانت متداولة في العهد *العثماني ولو بشكل محدود:

* الحساب
* الفرائض
* الوثائق
* علم الوضع
* علم الفلك لأبي مقرع بالسّراج للأخضري
* الطّب والصّيدلة

ولم تكن العلوم التّجريبيّة والتّاريخيّة تدرس في الجزائر خلال العهد العثماني، فلم يعرف أحد بتدريس الطّب مثلا كما كان مدرسو تلمسان أيام الدّولة الزّيانيّة، رغم وجود بعض المتطببين والصّيادلة، وكانا يؤخذان بالعادة والممارسة لا بالتّدريس. كما لم يعرف من اشتهر بتدريس علوم النّبات والحيوان أو الرّياضيات أو الكيمياء أو علم الملاحة. ومن العلوم التي كان الحديث يكثر فيها، علم الجغرافيّة والتّاريخ والتّراجم (المناقب) وهناك من ألف طبعا في

هـذه العلـوم الثلاثـة، ويجـب التّنويه أن التّاريـخ كان مايـزال فرعـا من فروع الأدب، وكان يـروى فـي شـكل أخبار عامّة فيها الصّـدق والكذب والمبالغات العجيبـة والحكايـات الغريبـة، وممن اشـتهر بروايّة الأخبار والتّواريخ (محمّد بن عبد الكريم الجزائـري) و(أبو راس) و(أحمد المقري). أمّا الجغرافيّة فالظّاهر أن المعرفـة بها كانـت لا تعـدو معرفة بعض مواقع الأقاليم والطّرق والعواصم الإسـلاميّة وبعض الخرائـط. وقد ألّف بعـض الجزائريين عددا مـن الرّحلات التي تدخل عادة ضمن علم الجغرافيّة أو أدب الرّحلة.

لايمكـن اعتبـار النّظـام التّعليمـي في الفتـرة كلا متكاملا، فـلا يوجد من يحـرص علـى ضبـط المناهـج ومواد التّدريس وامتحانـات الإجازة، بل كان خاضعا لرؤى فرديّـة وغايات اجتماعيّة يتعاطـف ويشـارك فيها الجميـع، كل من جهته وبما يسـتطيع، لكـن الجانب القانوني شبه معدم « وقد كانت الإجازة المكتوبـة فـي البدايّة محـددة ومقننة، فـلا يتعاطاها أي طالـب. ولكن بتوالي الزّمن وضعف التّعليم والتّعلم وتدهور الحيـاة العقليّة بصفة عامّـة أصبح منح الإجـازات سـهلا وشـائعا، وكثيـرا ما كان يمنـح الطّالـب الإجـازة سـواء كان يسـتحقها أم لا يسـتحقها، أي من جلـس للدرس وتتلمذ، ومـن كان عابر سـبيل، بل أصبحت الإجازة تعطى عن طريق المراسـلة دون أن يـرى الطّالب المـدرس أو يأخـذ عنه شـيئا، وبعد أن كانت الإجازة مقيدة بعلم أو كتاب بعينه أصبحـت مطلقة غيـر مقيدة، واشـتهر بعـض المدرسـين بمنـح الإجـازات فـي الجزائـر (كعلي بن عبـد القادر بن الأمين) الذي قال عنه تلميذه (محمّد بن العنابي) بأنه «أجاز كل من أدرك حياته» وقد قلده ابن العنابي في ذلك أيضا».

لـم يتكلم العثمانيون لغـة البلاد ولا تذوقوا أدبها وشـعرها ولا قـرأوا كتبها ولا اتصلـوا بعلمائهـا اتصـالا عاطفيا وعقليا كما فعل مثلا سـلاطين المغرب أو بايـات تونـس بعـد تأسـيس العائلة الحسينيّة، فأنى لهم أن يشجعوا العلماء والشّـعراء علـى الانتاج فـي عصر كان فيه الإنتاج الأدبـي والتّاريخي والعلمي محصورا في بلاطـات الحكام، كما لم يعقدوا المجالـسّ العلميّة والمناظرات كما فعـل قبلهم أمـراء بني زيـان وبني حفـص وغيرهـم، فهمهـم الحـروب وغنائمها، أين المجالـسّ والمناظرات التي كانت تشـحذ المواهـب ويتنافس فيهـا العلماء ويحتـدم الفكر والخلاف والاختلاف كسـنة كونيّة تحكم الأشياء ، فأغلب العلماء كانـوا يكتفون بالقليل مـن العلم لأنـه لا عائـد مـن تجويده بالزّيـادة والنّقد والتّطويـر، وكثير منهم يقصد المشرق للإجازة لا يعود للجزائر بعدها.

فبعـد النّـزاع السّياسـي الكبير الذي عانت منه هـذه الثقافة في القرن XVI م، الذي شهد هجرة العلماء الواسعة وكثرة الحروب، أخذت الحيـاة تدب فيها في القرن الحادي عشـر باستقرار الأوضاع السّياسـيّة وازدهار الحيـاة الاقتصاديّة وتوارد العلماء المسـلمين على الجزائر ووفـرة الكتب. ثم شـهد القـرن الثاني عشـر(XVIII م) وأوائـل الثالث عشـر حركة قويّة فـي صفوف العلماء والعنايّة بالتّعليـم وكثرة التّآليف على بسـاطتها. ففقي أواخـر القرن الثاني عشـر بدأت حركة نشـيطة بتشـجيع التّعليم والعنايّة بالأوقـاف والاهتمام بالعلماء والكتب، وقـد أسـهم فـي هـذه الحركـة بعض البايـات أمثـال (صالح بـاي) والحاج (محمّد الكبير)، كما أنه ومنذ اسـترجاع وهران الأخير سنة 1205 هـ أخذ العلماء الجزائريون يهتمـون بالعالم الخارجي، فاهتـم (ابن سـحنون) بأخبـار الثـورة الفرنسـيّة، وكتـب (أبـو راس) عن أثر الحملة الفرنسيّة على مصر والشّام، وعن الحركة الوهابيّة، وكتـب (ابن العنابي) كتابه عن الإصلاح الاجتماعي والحربي للجيوش الإسـلاميّة ودعـا إلى الأخذ بنظـم الغربييـن فيما لا يخالـف قواعد الإسلام، يمكن اعتبار مثل هذه اللحظة بنهايّة مرحلة ثقافيّة تعليميّة سـاد فيها ما ساد، ودعوة حقيقيّة للتجديد والتّحديث فـي الجزائر في سـائر مناحـي الحياة، ولكن الأمـر تأجـل بفعل الاسـتعمار الفرنسـي إلـى بدايات القـرن XXم مع جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين.

يمكـن اعتبار نقـد ابن خلـدون في مقدمتـه حـول تدريـس اللغـة العربيّة وعلومهـا ومـا يتعلـق بهـا مـن أهـم الخلاصات التي وصفـت التّجربة على اقل فـي أربعـة قـرون كاملة- تشـمل نهايّـة القـرن XVم حتـى نهايّـة القرن XVIIم- من العمل المتشـابه والمكرور دون نقد نوعـي أو تغييـر أو إضافة، أو يمكن القـول إن الجوهر الـذي تمركز حوله تعليم العربيّـة وعلومها قد انتهى، واسـتجد جوهر جديد بدأ في التّشـكل فـي نهايات الأندلـس، « ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطّرق والأنحاء في العلـوم، يولعون بهـا ويدونون منها برنامجـا مختصرا في كل علم يشـتمل على حصر مسـائله وأدلتهـا، باختصار في الألفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن. فصار ذلك مخلا بالبلاغـة وعسـيرا على الفهـم. وربما عمدوا إلـى الكتب الأمهـات المطولة

في الفنون للتفسير والبيان فاختصروها تقريبا للحفظ، كما فعله (ابن الحاجب) في الفقه (وأصول الفقه) و(ابن مالك) في العربيّة و(الخونجي) في المنطق وأمثالهم. وهو فساد في التّعليم وفيه إخلال بالتّحصيل، وذلك لأن فيه تخليطا على المبتدئ بإلقاء الغايات من العلم عليه، وهو لم يستعد لقبولها بعد، وهو من سوء التّعليم ...

ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم بتتبع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم بتزاحم المعاني عليها وصعوبة استخراج المسائل من بينها. لأن ألفاظ المختصرات نجدها لأجل ذلك صعبة عويصة، فينقطع في فهمها حظ صالح من الوقت. ثم بعد ذلك كله فالملكة الحاصلة من التّعليم في تلك المختصرات، إذا تم على سداده، ولم تعقبه آفة، فهي ملكة قاصرة عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة لكثرة ما يقع في تلك من التّكرار والإحالة المفيدين لحصول الملكة التّامة. وإذا اقتصر على التّكرار قصرت الملكة لقلته كشأن هذه الموضوعات المختصرة، فقصدوا إلى تسهيل الحفظ على المتعلمين، فأركبوهم صعبا يقطعهم عن تحصيل الملكات النّافعة وتمكنها»، فالكثير من المختصرات حسب ابن خلدون شوهت تعليم اللغة العربيّة كوسيلة للبحث والفهم وأوقعتها في النّظم المغلقة التي لا فائدة ترتجى منها غير الاجترار وتمرين الذاكرة.

يمضي ابن خلدون أبعد من ذلك إلى رفض اللغة العربيّة كجوهر في التّعليم وغايّة بل هي وسيلة وعليها ألا تتجاوز ذلك درسا وتعليما ، « ثم من دون هذا الأمر الصّناعي، الذي هو المنطق، مقدمة أخرى من التّعليم وهي معرفة الألفاظ؛ ودلالتّها على المعاني الذهنيّة تردها من مشافهة الرّسوم بالكتاب ومشافهة اللسان بالخطاب . فلا بد أيها المتعلم من مجاوزتك هذه الحجب كلها إلى الفكر في مطلوبك»، ناهيك عن كثرة التّأليف والمدونات وهي إشارة ضمنيّة لغياب سلطة تنظيم التّعليم وتركه للرؤى الفرديّة.» اعلم: أنه مما أضر بالنّاس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التّآليف واختلاف الاصطلاحات في التّعاليم، وتعدد طرقها، ثم مطالبة المتعلم والتّلميذ باستحضار ذلك. وحينئذ يسلم له منصب التّحصيل، فيحتاج المتعلم إلى حفظها كلها أو أكثرها ومراعاة طرقها. ولا يفي عمره بما كتب في صناعة واحدة إذا تجرد لها، فيقع القصور ولا بد دون رتبة التّحصيل. ويمثل ذلك من شأنه الفقه في المذهب المالكي بالكتب المدونة مثلا وما كتب عليها من الشّروحات الفقهيّة ، مثل كتاب: (ابن يونس) و(اللخمي) و(ابن بشير) «والتّنبيهات» و«المقدمات» «والبيان» «والتّحصيل على العتبيّة» وكذلك كتاب (ابن الحاجب) وما كتب عليه. ثم إنه يحتاج إلى تمييز الطّريقة القيروانيّة من القرطبيّة والبغداديّة والمصريّة وطرق المتأخرين عنهم، والإحاطة بذلك كله، وحينئذ يسلم له منصب الفتيا وهي كلها متكررة والمعنى واحد... ويمثل أيضا علم العربيّة من كتاب سيبويه، وجميع ما كتب عليه، وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والأندلسيين من بعدهم، وطرق المتقدمين والمتأخرين مثل ابن الحاجب وابن مالك وجميع ما كتب في ذلك. وكيف يطالب به المتعلم، وينقضي عمره دونه، ولا يطمع أحد في الغايّة منه إلا في القليل النّادر؟

3.الفترة الاستعماريّة (1830م – 1962م)

وصلت نسبة الأميّة في الجزائر أعلى مستوياتها مقارنة بما كانت عليه في الفترة العثمانيّة، فهناك من يقدرها نسبة 95 بالمئة؛ كنتيجة طبيعيّة لعدم الاستقرار والحروب وسياسة التّخريب والتّهجير وإيديولوجيا مسح ثقافة واستبدالها بثقافة أخرى أو ما يمكن الاصطلاح عليه حديثا بتغريب المكان والثقافة؛ أي جعل اللغة العربيّة وعلومها غريبة في الجزائر، وقد نجح هذا الأمر إلى حد ما، فكل الجرائد الصّادرة في الجزائر بعد الاستقلال باللغة الفرنسيّة لمدى انتشارها مقارنة باللغة العربيّة.

طرح التّعليم وقت الاستعمار طرحا إيديولوجيا لتأهيل الأهالي وتسهيل الإدماج في ثقافة غربيّة مخالفة تماما لثقافة السّكان والمكان، والمعرفة الاستشراقيّة بالحضارة العربيّة الإسلاميّة تعرف وتدرك مدى ثراء رصيد اللغة العربيّة ونصوصها وعلومها ومدى أثرها في تكوين هويّة أصحابها، ثم احتاجت إيديولوجيا التّغريب إلى جهاز كامل لمحاربة الثقافة العربيّة الإسلاميّة.

حاولت السّلطات الاستعماريّة استغلال الزّوايا وجعلها وسيطة بينها وبين الأهالي لتوفرها على شرطين اثنين؛ الانتشار الواسع والدّروشة، ورغم ذلك كان خطر النّصوص الدّينيّة والنصوص الكلاسيكيّة العربيّة قائما لمن يعرف الكتابة والقراءة، فلجأت السّلطات الفرنسيّة إلى تجهيل الشّعب الجزائري بثقافته ولغته وتسهيل إدماجه من خلال تخصيص مدارس حكوميّة فرنسيّة للأهالي وفقا للمرسوم المؤرخ في 14 جويليّة 1850، ثم مرسوم 30 سبتمبر 1850م الذي ينظم تأسيس المدارس العربيّة الإسلاميّة والمرسوم التّنظيمي 16 فيفري 1863م؛ ينص على إنشاء ثلاث مدارس– بمثابة مدارس عليا– في كل من

المديّة وقسنطينة وتلمسان؛ وحتى اختيار الأماكن ليس عفويا، بل هي حواضر ثقافيّة منذ قرون مؤثرة في محيطها الثقافي الاجتماعي، يكون التّكوين فيها لمدة ثلاث سنوات، ويتلقى الأهالي تعليما شرعيا دينيا أدبيا مؤدلجا يقتصر على البسيط من ممارسات الشّعائر الدّينيّة، يسمح للمتخرجين بشغل مناصب إداريّة قانونيّة تناسب الأهالي في الدّولة الفرنسيّة.

تدوم الدّراسة بهذه المؤسّسات ثلاث سنوات، يدخلها المترشح بعد اجتياز مسابقة ويعفى منها المتحصل على شهادة الابتدائيّة، أما السّن المشروطة بين 15 – 20 سنة، وينقسم التّعليم إلى مرحلتين؛ الأولى وتدرس فيها مادة اللغة الفرنسيّة والتّاريخ والجغرافيا والقانون العامّ والجبر والهندسة والعلوم الطّبيعيّة واللغة العربيّة ومبادئ الشّريعة الإسلاميّة، أمّا المرحلة الثانيّة فتشمل دراسة تاريخ الحضارة الفرنسيّة، اللغة العربيّة بلاغة ونحوا وصرفا، مصادر الشّريعة الإسلاميّة بالإضافة إلى القانون الفرنسي، وأضيفت مادة اللهجة والعادات والتّقاليد القبائليّة بمدرسة الجزائر.

كانت نسبة الدّروس باللغة العربيّة بمثابة اللغة الأجنبيّة من حيث الحجم السّاعي المخصص لها، أمّا الفقه فيدرس أربع ساعات، يركز على النّحو لصعوبته، اختبارات الكتابة، تمارين التّعبير والأسلوب والإملاء.

أمّا المرجعيّة الفقهيّة فكان الفقه المالكي (الموطأ)، كتاب الشّيخ خليل، أمّا علم الكلام فمساحته جد ضيقة، كان التّركيز على مهارة الكتابة باللغة العربيّة نظرا للوظائف التي يمكن أن يشغلوها في المحاكم الأهليّة والمساجد وتوثيق المراسلات مع الأهالي.

كان المشرف القانوني على هذه المدارس الثلاث السّلطات العسكريّة التي تطمح لتوفير أئمة للمساجد وقضاة للعدالة من خريجها الذين يحملون شهادة الأهليّة. ما يمكن ملاحظته على الفترة الاستعماريّة؛ أولا تنظيم إنشاء المدارس الحكوميّة تحت إشراف هيئات حكوميّة مختصة تنظم كل ما يخصه، ثانيا محدودة الانتشار في أماكن محددة ولغايات مضبوطة، فهي في الأخير جزء من السّياسة الاستعماريّة.

عمل الاستعمار الفرنسي على الحد من نظم التّعليم التّقليديّة على بساطتها المنتشرة في المجتمع الجزائري بكثرة ومنذ قرون، كونها لا تتوافق ومؤسّساته المعرفيّة والقانونيّة الرّقابيّة فهي في الأخير تعلم القراءة والكتابة وتحافظ على الهويّة، تم إصدار قرار 8 سبتمبر1830م من طرف الحاكم العامّ الذي استولت بمقتضاه الدّولة الفرنسيّة على جميع أملاك الأوقاف الإسلاميّة في سائر البلاد وهذه نهايّة حتميّة لنظام تعليمي تشكل خلال قرون، حيث قدر عددها بالجزائر العاصمة فقط 2600 ملكيّة، تبع بقرار 7 ديسمبر في السّنة نفسها يقضي بحريّة التّصرف في هذه الأملاك والأوقاف.

كان تأسيس المدارس الحكوميّة مضبوطا ومحددا جدا وكل ما يخص هيكلتها القانونيّة، فقد أصدر مرسوم 1863.10.31م، ينص على تأسيس منصب مفتش عامّ للمؤسّسات التّعليميّة الخاصّة بالأهالي لكل الجزائر، وارتفع عدد المدارس الخاصّة بالذكور في سنة 1864م إلى حوالي ثماني عشرة مدرسة، بها 646 تلميذا.

وفي سنة 1866م فتحت مدارس أخرى في منطقة وهران، وأصبح عدد المدارس العربيّة الفرنسيّة في 1870م في الجزائر كلها هو 36 مدرسة.

تطور الاهتمام بالتّعليم في سنة 1865م بعد زيارة نابليون III للجزائر، ومحاولات الحاكم العامّ (/ Patrice de Mac Mahon باتريس دو مكماهون) الموافقة من رئيس مديريّة التّربيّة والتّعليم بالجزائر في أن تكون البرامج التّعليميّة في المدارس العربيّة الفرنسيّة، مشابهة للمدارس الفرنسيّة مع التّركيز على إعطاء مكانة خاصّة للّغة العربيّة والتّعليم الإسلامي، كما حاول إعادة بعث المدارس العربيّة الفرنسيّة، ولكنه فشل، فأصدر الحاكم العامّ (ماكماهون) منشورا في 1867م يقضي بتوسيع المدارس البلديّة وفتحها أمام الجزائريين فواجه معارضة شديدة من طرف المجالسّ البلديّة.

صدور قرار ملكي في 4 مارس 1865، ينص على إنشاء مدرسة عليا خاصّة بالأوروبيين والجزائريين، تستقبل 20 فرنسيا و10 جزائريين وكان مقرها ببوزريعة حاليا، كانت تسعى لتكوين أساتذة متمكنين في اللغة العربيّة ولكن النّتيجة كانت العكس التّمكن من اللغة الفرنسيّة، فلم يخصص للعربيّة إلا ثلاث ساعات فقط في الأسبوع، كان يوجه خريجوها للتدريس في التّعليم الابتدائي واشترط أن تكون نسبة الجزائريين فيها 20 بالمئة فقط.

في 22 أفريل 1835م فتح معهد في العاصمة، أصبحت ثانويّة وطنيّة في 6 أكتوبر 1848م، ثم في سنة 1859م بدأ تظهر ثانويات في كل من قسنطينة وعنابة، مليانة، وتلمسان 1870م وكلها للفرنسيين، مايقابلها معاهد عربيّة فرنسيّة أنشأت واحدة بالجزائر 1857م ، وأخرى بقسنطينة ووهران سنة 1865م، وفي الغالب يصلها ميسورو الحال وأبناء الأعيان والمقربين من السّلطات الفرنسيّة، ففي سنة 1950م كان عدد الطّلبة في الثانويات 25 ألف طالب أغلبهم فرنسيون، منهم ألف طالب جزائري.

إن المواد التي ركزت عليها البرامج الفرنسيّة في التّعليم الابتدائي هي اللغة

الفرنسيّة والعربيّة والدّين الإسلامي، والمسيحيّة والقانون، والتّكوين المهني والخياطة والطّرز للبنات والتّاريخ الفرنسي، كما أبعدت اللغة العربيّة من الاستعمال الرّسمي من وثائق إداريّة وعقود وصحافة ومنشورات وفي التّعليم، واتهامها بالعجز والجمود والتّخلف، عكس قرينتها الفرنسيّة، وعادة ما تكون مادة اختياريّة مع دفع رسوم تعلمها من طرف التّلميذ.

تدرس اللغة العربيّة في البرنامج على طريقتين ، العربيّة المستعملة والعربيّة الأدبيّة، اللغة الأدبيّة هي اللغة الكلاسيكيّة المستعملة في الصّحافة وفي الكتب الدّراسيّة وتلك التي تدرس في المدارس القرآنيّة ، وأمّا العربيّة المتداولة فهي مجموع اللهجات العربيّة لمتكلميها في شمال أفريقيا، هذه الأخيرة هي المستعملة في المدرسة الابتدائيّة لتعليم الأهالي بدل الفصحى، أريد لها أن تكون لغة شفهيّة لا غير، فالطّريقة المتبعة حسب برنامج الدّراسة تنبع من فكرة تدريس اللغة بهدف الاستعمال والتّواصل أكثر منها لأجل الكتابة أو التّفكير الأكاديمي المنطقي الذي ينتج عنه الفكر والسّؤال.

يكتفي المدرس بدروس المحادثة، محادثة حواريّة بينه وبين التّلاميذ، بالإضافة إلى تمارين النّحو والقراءة والخط؛ وقد يكون المعلم فرنسيا لا يملك معرفة كافيّة بها، وبالكاد يتكلم العامّي منها، فيحصّل التّلميذ الابتدائيّة وتكوينه شبه معدم في اللغة العربيّة الأكاديميّة الفصحى.

أصدر الحاكم العامّ الفرنسي في 24 ديسمبر 1904م قرارا ينص على عدم السّماح لأي معلم جزائري أن يفتح مدرسة لتعليم العربيّة دون الحصول على رخصة من السّلطات العسكريّة بشروط أهمها:

ألا يدرس تاريخ الجزائر وجغرافيتها والعالم العربي الإسلامي

ألا يشرح آيات القرآن التي تتحدث عن الجهاد

الخضوع للإدارة الفرنسيّة تسييرا ومراقبة.

قانون08 مارس 1938م القاضي بحضر استعمال وتعلم اللغة العربيّة بل واعتبارها لغة أجنبيّة في الجزائر، بموجب هذا القانون منع أساتذة جمعيّة العلماء المسلمين من التّدريس، حيث ينص القرار على «إغلاق المدارس العربيّة الحرة التي لا تملك رخصة للعمل، ومنع كل معلم تابع للجمعيّة من مزاولة التّعليم في المدارس إلا بعد أن يتحصل على رخصة التّعليم، تقدمها له السّلطات المعنيّة».

ما يمكن أن نحوصله حول تعليم اللغة العربيّة في الفترة الاستعماريّة أنه كان مؤدلجا سياسيا من القوانين التي تنظم المدرسة إلى البرامج إلى النّصوص إلى الشّهادة ومصداقيتها، ولكن الجديد أن تعليم اللغة العربيّة طرح في فضاء مدني مؤطر قانونا ومنظم ويجبر الجميع على التّعليم، ناهيك عن تقدميّة اللغة الفرنسيّة وفتوحاتها الحضاريّة في الكثير من العلوم والفكر؛ مما يجعل الكثير يفكر في مستقبل اللغة العربيّة بطريقة مدنيّة وجديدة.

4. جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين (1931م- 1962م)

تعتبر التّجربة الأكثر نضجا في القرن XXم للّغة العربيّة نتيجة السّياق الذي بعثت فيه، فأسباب بعث اللغة العربيّة من جديد كشرط للهويّة شيء طبيعي، ولكنها طرحت كمنافس وبديل في وسط حضاري تسيطر فيه اللغة الفرنسيّة بعلومها وفكرها، ومن هنا كان التّحدي لأعضاء الجمعيّة، إذن فالسّؤال هو لغة عربيّة علميّة عمليّة ومعاصرة.

يجب التّوضيح أن تعليم اللغة العربيّة في هذه المرحلة-الاستعمار الفرنسي- كان نشاطا جمعويا هامشيا في القانون الفرنسي، موجها بالدّرجة الأولى للجزائريين، كما كان بموازاته نظام طرقي صوفي منافس في الأرياف والقرى.

إن اهتمام جمعيّة العلماء بمناهج التّعليم، لم يكن أكاديميا وفق العلوم الحديثة من بيداغوجيا وعلم النّفس، فلا الوسائل تسمح بذاك ولا القوانين الفرنسيّة، بل كان براغماتيا بالمعنى الحديث، غايته المقاومة وإبقاء هويّة واعيّة بوجودها وحضورها أمام خطر يتهددها باستمرار، وهذا الخطر له من الوسائل والقوانين والعلوم ما يمكنه من التّفوق عليك وطمسك، فوسائله مشروعة عصرا ويجب الإفادة منها.

أيقنت جمعيّة العلماء المسلمين أن شبكة النّظام التّعليمي التي تشكلت خلال قرون وقاومت كل القوانين الفرنسيّة يمكن الاستفادة من انتشارها ومن قبولها الاجتماعي ولكن لابد من تجديد روحها في حلقات الدّروس والكتاتيب.

يعرّف العلّامة (عبد الحميد بن باديس) الإصلاح فيقول: «هو إرجاع الشّيء إلى حالة اعتداله، بإزالة ما طرأ عليه من فساد»، ويقول: «صلاح الشّيء: هو كونه على حالة اعتداله في ذاته وصفاته، بحيث تصدر عنه أو به أعماله المرادة منه على وجه الكمال»، فالاعتدال أن يتعلم الجزائري لغته الطّبيعيّة الصّحيحة في شكلها الصّحيح وفي ذوقها الجمالي الرّفيع، لا أن يجتر خطابا يوميا خليطا من العربيّة والتّركيّة والفرنسيّة والأمازيغيّة، «لن يصلح هذا التّعليم إلا إذا رجعنا به للتعليم النّبوي في شكله وموضوعه، في مادته وصورته»، اللغة ليست تشكيلا معزولا عن مجتمعها بل تحمل تاريخه وثقافته، فالجزائري الذي رفض التّنازل عن عاداته وتقاليده وزيه أمام مدنيّة الحضارة الفرنسيّة ليس رفضا لها

بقدر ما هو إقرار أن له قيما حضاريّة بدوره ولا يجب حجبها وهي قيم الإسلام وله أصول يعود إليها وهي العروبة ، فمن ثم كان تعليم اللغة العربيّة في جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين متمركزا حول الهويّة الجزائريّة وقيمها ثم المعرفة بالدّرجة الثانيّة وسيحين دورها بعد الاستقلال؛ لأن الكتاتيب لا تصنع معرفة.

يحثّ (ابن باديس) رجال التّربيّة في عصره على ضرورة إعادة النّظر في البرامج التّربويّة «فهل نعدّ منهجًا ينبت به أبناؤنا نباتًا حسنًا فيكون رجاؤنا عظيمًا، أم نستمر على ما نحن عليه فيضيع الرّجاء؟ «، ويوضح في هذا السّياق أهميّة إصلاح تلك البرامج، مؤكدًا على المنهج مقرونا بقيم المجتمع التي يجب الدّفاع عنها والحياة بها، فيقول «فالتّعليم هو الذي يطبع المتعلّم بالطّابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته، وما يستقبل من عمله لنفسه وغيره»، كانت دروس الجمعيّة مفتوحة لجميع الفئات الاجتماعيّة دون استثناء ولكل الأعمار».

يقول الشّيخ (محمّد البشير الإبراهيمي)، واصفًا الطّريقة التي توافق عليها وابن باديس لتربيّة النّشء «وكانت الطّريقة التي اتفقنا عليها أنا وابن باديس في اجتماعنا في المدينة، في تربيّة النّشء، هي ألا نتوسّع له في العلم، وإنما نربّيه على فكرة صحيحة، ولو مع علم قليل، فتمت لنا هذه التّجربة في الجيش الذي أعددناه من تلامذتنا».

أمّا بالنّسبة لمحتوى المنهج الذي اعتمدته جمعيّة العلماء المسلمين فيشمل علم التّفسير وتجويده، وعلم الحديث الشّريف، وعلى الفقه في المختصر وغيره، وعلى العقائد الدّينيّة، وعلى الآداب والأخلاق الإسلاميّة، وعلى العربيّة بفنونها كالمنطق والحساب والتّقويم.

أمّا التّفسير، فقد تصدّر العلامة (عبد الحميد بن باديس) لتعليمه وهو خطوة جريئة ومهمة في بعث الثقة في العقول الجزائريّة، ومدى قدرتها على استنطاق مقدسها إحياء لقيمها ولوجودها معه، وأمّا الحديث فمن (موطأ الإمام مالك)، والفقه من (أقرب المسالك)، و(رسالة ابن عاشر)، والعربيّة من (قَطْرِ النّدَى)، والشّعر من (ديوان الحماسة وديوان المتنبي)، إضافة إلى تدريس (مقدّمة ابن خلدون)، وتعليم الطّلبة بعض الصّنائع اليدويّة. إنّ المتمعن في مثل هذا المحتوى يدرك مدى روح التّجديد التي تبعث في اللغة العربيّة وعلومها مقارنة بما سبق من العهود ومقارنة بالتّدجين الفرنسي.

ولم توضح آثار (ابن باديس) تفصيل أكثر حول برامج المستويات المختلفة، سوى أنها تشير إلى أن المتعلمين كانوا على أربع طبقات، فظروف الاستعمار حرمت الكثير من الصّبيان في الالتّحاق بالكتاتيب والمدارس في السّن المناسب، فاحتضنهم جميعا. كما أثروا نشاط الجمعيّة بتعليم الحساب والصّنائع اليدويّة، لأهميتها في حياة النّاس وحاجياتهم.

وقد دعا (عبد الحميد بن باديس) في إحدى رسائله الموجهة لرجال التّربيّة والتّعليم في الجزائر، إلى عقد مؤتمر عامّ لتبادل الآراء والخبرات في مجال التّربيّة، قصد تحسين وتطوير الموضوعات الآتيّة:

- أسلوب التّعليم.
- أسلوب التّربيّة للناشئة.
- اختيار الكتب.
- تعليم المرأة المسلمة ووسائل تحقيقه.
- وسائل تنظيم وترقيّة التّعليم بالمساجد.

ترأس (البشير الابراهيمي) اجتماع الجمعيّة المنعقد في سبتمبر 1951م وقدّم فيه التّقرير المالي والأدبي لنشاطاتها منذ سنة 1943م، فقد أصبح للجمعيّة 123 مدرسة ذات طابع عمراني إسلامي أندلسي، أمّا عدد المعلمين فبلغ 175 معلما، ومن الأعمال التي أعلن عنها أن الجمعيّة أنشأت "لجنة عليا للتعليم والتّفتيش" والمعروف أن هذه اللجنة تطورت ونمت إلى غايّة 1956م كنوع من تنظيم التّعليم وتطوير البرامج التّعليميّة.

في سنة 1952م أصبحت هناك حوالي 300 مدرسة حرة لتعليم القرآن الكريم واللغة العربيّة ومبادئ العلوم العصريّة، وكانت جمعيّة العلماء تشرف على 140 منها، أما البقيّة فمدارس حرة، والتّعليم الحر يخص مرحلة الابتدائي فقط، أمّا ما يشبه التّعليم الثانوي الحر فكانت تقوم به بعض الزّوايا مثل زاويّة الهامل وزاويّة اليلولي وزاويّة ابن الحملاوي ومعهد الحياة في ميزاب ومساجد الجنوب عموما، وكان تعليمها مقصورا على العلوم الإسلاميّة والفقه وعلوم اللغة والثقافة العربيّة الإسلاميّة.

وفي سنة 1954 أعلنت الجمعيّة قائمة بـ124 مدرسة و274 معلما وما يقارب أربعين ألف تلميذ. كما أنشأت الجمعيّة معهد عبد الحميد بن باديس في قسنطينة، يضم حوالي 700 تلميذ واثني عشر معلما، وهو بمثابة جسر للتعليم الثانوي فهو يوصل لشهادة الأهليّة، وبعدها ينتقل تلاميذه إلى الزّيتونة للحصول على شهادة التّحصيل أو الثانويّة العامّة، فقد أصبح هذا المعهد فرعا لجامع الزّيتونة يحتذي حذوه في البرنامج والشّيوخ، وكانت امتحانات المعهد تجري بحضور لجنة زيتونيّة إذا أرادوا، والإجراءات نفسها يخضع لها المعهد الكتاني بقسنطينة.

وتحدث (الابراهيمي) في الاجتماع نفسه عن نشاط الجمعيّة في فرنسا لأجل الجاليّة البالغ عددها مئة ألف أو أكثر ولهم

قرابة العشرين ألف طفل، فأرسل وفدا من الشّيوخ منهم (الفضيل الورتلاني)، (سعيد صالحي)، (عبد الرّحمن اليعلاوي)، ثم (الرّبيع بوشامة) و(سعيد البيباني)، وقد حاولوا الحصول على مكتب دائم للجمعيّة بباريس ولم ينجحوا، ولكنهم نجحوا في فتح نوادي تعليميّة، كما نجحت في فتح مكتب دائم لها بالقاهرة وإرسال بعثات طلابيّة لمصر وباكستان.

كما تجدر الإشارة إلى تجربة للّغة العربيّة في الجزائر وهي الصّحافة وما تفتحه من آفاق في تطوير الخطاب الاجتماعي وتحسين الأداء اللغوي، إضافة إلى توفير مادة للقراءة كان يندر وجودها في ظل استعمار غاشم ينسف كل بارقة للأمل.

5. الجزائر المستقلة (1962م)

دائما ما يكون هناك حد في لحظة تاريخيّة محددة لنظام سياسي أو امبراطوريّة أومملكة، ولكن الأنظمة الثقافيّة والاجتماعيّة والنّفسيّة تتجاوز هذه الحدود عشرات السّنوات أو حتى مئات السّنوات، فقانونها في التّغير معقد وبطيء نسبيا، وبعد نضال استرد الشّعب الجزائري حريته وهويته، فكيف سيعيد بناء واقعه الذي غاب عنه مدة 132 سنة.

كانت البدايّة مع استصدار بيان ثورة أول نوفمبر 1954م باللغة العربيّة موضحا قيم الشّعب الجزائري وملامح الدّولة الجزائريّة وعناصر هويتها، وهذا نتاج التّعليم الحر وجمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين.

بعد الاستقلال مباشرة في الخامس من شهر جويليّة كان على الدّولة أن تحضر لأول دخول مدرسي وطني ، وكانت الإحصاءات تشير إلى 3452 مدرسا في مختلف المستويات ممن يتقنون اللغة العربيّة فكان التّفكير في الاستعانة بالدّول العربيّة الشّقيقة، ثم بعدها اعتمدت اللغة العربيّة لغة وطنيّة ورسميّة للدولة الجزائريّة في أول دستور لها سنة 1963م، كان موضوع الإصلاح التّعليمي مطروح بقوة سنة 1968م وترجم إلى واقع سنة 1972م بتشكيل اللجنة الوطنيّة للتعريب؛ مشكلة من 120 عضوا كنخب في اختصاصاتهم، وممثلين عن المجتمع ومختلف الهيئات، تشكلت منها أربع لجان: لجنة قطاعات السّيادة– لجنة القطاع الاقتصادي– لجنة القطاع الثقافي والتّربوي والاجتماعي– لجنة فرعيّة لتعريب المحيط.

وقَبلها نجحت بعض المبادرات بإنشاء فروع للّغة العربيّة بجانب الفروع الفرنسيّة في جامعة الجزائر، فأنشئ قسم التّاريخ سنة 1965م وقسم الفلسفة في 1966 وفرع الحقوق في 1967م، وبعدها تجربة تعريب القضاء سنة 1971م. ليشمل التّعريب ا وزارة التّربيّة، إذ فرض على كل مدارس الوطن تعريبا للقسم الثالث في كل مدرسة تعريبا كاملا وأبقي على الفرنسيّة كلغة أجنبيّة، وفرض تعلم المواد الاجتماعيّة باللغة العربيّة في الأقسام الفرنسيّة، ثم قسم البكالوريا آداب ومادة الفلسفة، كما فرض التّكوين باللغة العربيّة في المعاهد التّربويّة لتكوين المعلمين.

شرع في تعريب المحيط فتشكلت لجان على مستوى الولايات والدّوائر والبلديات وانطلقت اللجنة في شهر نوفمبر 1975م وحدد تاريخ 31 أكتوبر 1976م كنهايّة للعمليّة، فقد شملت العمليّة تسميّة مختلف الوزارات والولايات والإدارات والشّركات والبلديات بأسماء شهداء الثورة التّحريريّة.

كما قدم اقتراح بتوحيد تعليم العلوم الإنسانيّة في مختلف الجامعات، وتم تحديد فروع العلوم الإنسانيّة بأسمائها: علم الاجتماع، تاريخ، فلسفة، جغرافيا، حقوق، اقتصاد، علوم سياسيّة أي كل مشمولات العلوم الإنسانيّة، واقتصر تدريسها على اللغة العربيّة وحدها ابتداء من الموسم الجامعي 1980–1981م.

أنشئ المجلس الأعلى للّغة العربيّة بالجزائر، وهو هيئة استشاريّة لدى رئاسة الجمهوريّة بموجب الأمر رقم 96 / 30 المؤرخ في 21 ديسمبر 1996، المعدل والمتمم للقانون 91 – 05 المؤرخ في 16 جانفي 1991م.

فبعد القرارات التي اتخذت في ديسمبر 1979م من تعريب المدرسة الأساسيّة والعلوم الإنسانيّة بالجامعات، وبعد إعداد اللجنة مشروعها لتعريب الإدارة في جميع القطاعات وحددت جميع المراحل والوسائل والكيفيات، خرج أعضاء اللجنة لجميع الولايات وكان النّص جاهزا وبقي مجمدا إلى غايّة قانون 1991م الذي صدر عن المجلس الشّعبي الوطني نتيجة بعض الأزمات السّياسيّة.

وفي 1991 صدر عن المجلس الشّعبي الوطني قانون تعميم استعمال اللغة العربيّة وكان شاملا معتمدا على أغلب توصيات النّدوة الوطنيّة للتعريب، وحدد التّاريخ النّهائي للتطبيق في 05 جويليّة 1992.

إنّ تدريس اللغة العربيّة في الجزائر الحديثة يختلف كليا عن النّظام التّقليدي القديم، ابتداء من موضع اللغة العربيّة قانونيا وابستمولوجيا انتهاء بإعداد البرامج في الأطوار المختلفة وفق الطّرق البيداغوجيّة الحديثة وفي إطار مدارس وهيئات حديثة مجهزة بوسائل بيداغوجيّة تساعد وتسهل عمليّة التّعليم.

كما أشرنا سابقا فرؤيّة جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين والتّعليم الحر للّغة العربيّة كمقوم للهويّة الجزائريّة يستدعي بعثها وإحياءها بأي طريقة، أمّا رؤيّة ما بعد

الاستقلال فاللغة العربيّة وسيلة لصناعة البحث العلمي والمعرفة والعمل على توسعة آفاقها خارج الموروث الحضاري إلى مستجدات العصر وعلى مستويات عميقة.

تدرس اللغة العربيّة ابتداء من الرّوضة إلى الجامعة الجزائريّة في أغلب التّخصصات، ففي التّعليم الابتدائي يدرسها التّلميذ في مختلف نشاطاته العلميّة والأدبيّة ممّا يثري رصيده اللغوي في لغته العربيّة ويساعده على التّفاعل بها في مختلف السّياقات.

أمّا في المرحلة المتوسطة والثانويّة فتطور مهارات الكتابة باللغة العربيّة وتتعدد مقارباتها في التّعليم والتّقويم، معتمدة مختلف النّظريات اللسانيّة الحديثة دون نسيان حظ التّراث من التّكوين الجمالي للتلميذ، وأصبحت اللغة العربيّة مادة أساسيّة في كل الامتحانات الرّسميّة وبمعاملات مرتفعة حسب الملمح المعرفي.

ويطرح تعليم اللغة العربيّة في الجامعة آفاقا واعدة ولا يخلو من انشغالات وهنات، فهي تدرس في مئة وثمانيّة (108) مؤسّسة للتعليم العالي بين جامعات ومراكز جامعيّة ومدارس عليا في مختلف التّخصصات ما عدا التّخصصات التّقنيّة، وهي معدودة. كما تصدر بها الكثير من المجلات الوطنيّة والدّوليّة في كل المجالات، وهي اللغة الأولى في إعداد مذكرات التّخرج وأطروحات الدّكتوراه.

وتسعى أقسام اللغة العربيّة باستمرار إلى تجديد وتطوير آفاقها من خلال البحث والتّرجمة وتدريس الاختصاصات المختلفة بين اللغويّة والأدبيّة والتّعليميّة، وتكوين الطّلبة في ثلاث مراحل؛ مرحلة الليسانس، ومرحلة الماجستير/ الماستر ومرحلة الدّكتوراه، في تخصصات أكاديميّة وأخرى مهنيّة.

تعمل الجامعة الجزائريّة من خلال مختلف مؤسّساتها على تطوير اللغة العربيّة في الشّبكات والبرمجيات والعلوم التّقنيّة من خلال مختلف صيغ البحث الوطني المعمولة، ومن خلال استحداث مراكز للبحث ومخابر للبحث في مختلف الاختصاصات.

● **د.عبد الحميد بوفاس**
وزوبير بن سخري
جامعة ميلة

المصادر

1. عبد الرّحمان ابن خلدون. ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشّأن الأكبر. دار الفكر للطباعة والنّشر والتّوزيع. بيروت-لبنان. 2004م.
2. أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. دارالغرب الإسلامي. ط1. بيروت. 1998م.
3. أحمد توفيق المدني. كتاب الجزائر. المطبعة العربيّة. د ط. د ت.

مكانة اللغة العربيّة في المغرب الأوسط (الجزائر-حاليا)

د.آمنة بلعلى

لم تكن اللغة العربيّة في المغرب الإسلامي القديم طرفا في النّزاع والخلاف عليها، ولا كانت موضوعا للصراع، على الرّغم من المبرّرات التي كان يمكن أن يفرزها اختلاف الإثنيات والمذاهب وأنظمة الحكم التي أقيمت في المنطقة. إن الدّول التي تأسست في المغرب الأوسط (الجزائر-حاليا) قد تميزت بهيمنة العنصر الأمازيغي، وهم السّكان الأصليون، بمختلف قبائلهم وبطونها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، لتمتدّ من مصر غربا إلى أقصى المغرب شرقا وإلى موريتانيا وبعض الدّول الأفريقية جنوبا، إضافة إلى وجود العرب الفاتحين الذي دخلوا البلاد مع الفتوحات الإسلاميّة، وبعد ها مما استدعته الظّروف السّياسيّة منذ الخلافة الأمويّة والعباسيّة وانتقالها إلى الأندلس، وكذا وجود بعض الطّوائف الدّينيّة كالمسيحيين واليهود الذين تشكلت من خلالهم التّركيبة الاجتماعيّة عبر العصور.

اهتم سكان الجزائر القديمة وحكامها بتعلّم اللغة العربيّة وتعليمها والكتابة بها وتوسيع مجال استعمالها، حتى غدت بمثابة فرض عين لا يختلف عن الشّهادتين اللتين تنطقان بالعربيّة، فقد كانت وسيلة لتعلم القرآن وحافزا للتفقّه فيه، وكان مثلما يرى المفكر عبد الله شريط «الأساس الأول للثقافة والأدب في المغرب والأندلس هو القرآن الكريم وعلوم الدّين واللغة والأدب الجاهلي كما كان الأمر في المشرق». ومن هنا اكتسبت اللغة العربيّة مكانة في أنظمة الحكم لكل الدّول التي ظهرت في المغرب الإسلامي، وتعايشت جنبا إلى جنب مع اللغة المحليّة، واتخذت وسيلة لتسيير الإدارة والتّعاملات والكتابة والتّأليف في مختلف العلوم والآداب كما كانت دليلا على مجاراة ندّيّة لجهود المشرق الإسلامي وهو محضن اللغة العربيّة وتراثها.

لم تحدثنا كتب التّاريخ عن صراع حدث بسبب اللغة العربيّة في الجزائر المسلمة، ولا عن رفض لها، وقد تم إيعاز ذلك إلى الصّلات القديمة بين اللغة الأمازيغيّة واللغة العربيّة، تارة حين ربط بعض المؤرخين هذه العلاقة بينهما من خلال اللغة البونيقيّة، المنحدرة عن اللغة الكنعانيّة القديمة، التي انتشرت في شمال أفريقيا مع دخول الفينيقيين إلى شمال أفريقيا في القرن13 (ق م) وهو ما يرجح سرعة انتشار العربيّة مع الفتح الإسلامي، والقبول الذي لاقاه الدّين الجديد، وهو ما ذهب إليه الباحث الفرنسي (سارج لونسال/ Serge Lancel) من أنه من المحتمل جدا أن يكون عقبة بن نافع ورفاقه في فتحهم لأفريقيا الشّماليّة واستيلائهم على هيبون في أواخر القرن السّابع قد تفاجأوا بوجود أناس في الأرياف يتكلمون لغة ساميّة قريبة من لغتهم (العربيّة) في الوقت الذي كانت فيه الحقبة اللاتنيّة مشرفة على نهايتها بعد قرون طويلة من الزّمنّ وهي اللغة القديمة لسكان شمال أفريقيا التي كانت تسمى البونيقيّة والليبيّة.

وكان سكان الجزائر قبل دخول المسلمين إليهم قد حافظوا على لغتهم، فلم يكن هناك تأثير لغة الرّومان واسعا عليهم مثلما يذهب إلى ذلك محمّد الميلي في كتابه عن تاريخ الجزائر؛ حيث إنّ « الرّومان لم يؤثروا على البربر في اللغة والآداب مثل تأثير القرطاجنيين ولا قريبا منه. وذلك للفرق بين مقاصد الأمتين في الشّعب الجزائري. إذ القرطاجنيون مقاصدهم تجاريّة، والرّومان مقاصدهم استعماريّة بالمعنى العصري. فالبربر أقبلوا على من كانت مقاصدهم معهم حسنة. ونفروا من أصحاب المقاصد السّيئة».

ومرّ الوندال على الجزائر وكانت عاصمتهم بونة، لكن لم تكن لهم حضارة تستحق أن نشير إليها حيث يرى بأن سكان الجزائر: «لم يستفيدوا من الوندال لا علما ولا صناعة ولا أخلاقا ولا نظاما» في حين تبدو تأثيرات

الإسلام واللغة العربيّة واضحة جليّة، على الرّغم من اتساع الرّقعة والتي تمتد من تونس إلى موريتانيا، وهو ما يعني أن الدّول التي كانت تظهر في جزء من المغرب الكبير، كانت لها تأثيراتها بشكل أو بآخر في أماكن أخرى، إضافة إلى أواصر التّواصل والصّراع المستمر بين هذه الدّول الذي ساهم في الإطاحة بدول لحساب أخرى، غير أن اللغة العربيّة لم تكن لتتأثر بهذه الصّراعات نظرا للفصل بين مفهومهم المنفتح للهويّة الذي تعلموه من الإسلام والصّراع على السّلطة الذي هو اختلاف في الأحقيّة بالقيادة والزّعامة.

يمكن أن نلاحظ هذا الموقف في جميع الدّول التي توالتّ على الجزائر سواء تلك التي ظلت مرتبطة بالحدود الحاليّة كالدّولة الرّستميّة في تيهرت، والزّيانيّة في تلمسان والحماديّة في بجايّة، أو تلك التي انطلق مؤسسوها من الجزائر- المغرب الأوسط آنذاك ليؤسسوا حكمهم في فاس مثل الدّولة المرينيّة وفي تونس كالدّولة الحفصيّة، فشمل حكم هذه الدّول جزءا من الجزائر والمغرب الأقصى وتونس، مثلما امتد أيضا حكم الموحدين والمرابطين إلى الجزائر، وامتد حكم دولة الأغالبة إلى الشّرق الجزائري وحكم الأدارسة إلى مشارف الشّلف وذلك راجع لاعتبارات قبليّة وسياسيّة وصراعات ارتبطت عادة بالولاء لدولة والانفصال عن أخرى، مثلما حدث مع بني زيري والفاطميين، والمرينيين والموحّدين، والموحّدين والمرابطين وغيرهم.

وقد فصّل **محمّد الميلي** في هذا التّواصل والتّداخل الجغرافي والسّياسي في بلاد المغرب بقوله:»

لقد أسس المسلمون العرب في بدايات الفتح لشمال أفريقيا إمارة عربيّة تابعة للخلافة في المشرق الإسلامي وانخرط الأمازيغ معهم حينا من الدّهر. ثم أخذوا كعادتهم يسترجعون قوتهم الحربيّة ويعملون للاستقلال. فاقتطعوا من تلك الامارة جانبا من الوطن الجزائري أسسوا به دولة مستقلة. هي الدّولة الرّستميّة. ثم جاء **إدريس الأكبر** إلى المغرب الأقصى. وأسّس به دولة مستقلة امتدت إلى النّواحي الغربيّة من الجزائر. ثم استقل بنو الأغلب بتونس من غير أن يقطعوا صلتهم بالخلافة. وكان شرق الجزائر تابعا لهم. ثم جاءت الدّولة العبيديّة فقضت على هذه الدّول الثّلاث. وفي عهدها شغل العرب البربر أهم مناصب الحكومة».

يمكن أن نؤكد بدءا على دور التّواصل الذي فرضته هذه العلاقات بين المغرب والخلافة في المشرق، والتّنقل إليه للاستزادة من تعلم العربيّة وعلومها المختلفة؛ حيث تسجل كتب التّاريخ رحلات المغاربة إلى المشرق، حتى أنّ الكثير منهم أصبحوا ينتسبون إلى المدن التي رحلوا إليها واستقروا فيها لطلب العلم أو التّعليم، كما كان لأمراء الدّول المتعاقبة على الحكم في المغرب القديم دور في قيام نهضة علميّة وأدبيّة أساسها اللغة العربيّة، على الرّغم من الاضطرابات والصّراعات التي ظلت مستمرة بين هذه الدّول ومعارضيها، وكان الاهتمام بالشّعر كبيرا لانخراط أصحابه في هذه الصّراعات بالمدح والهجاء واتخاذه وسيلة لجلب المدافعين والموالين، وهو ما جر أيضا الاهتمام باللغة العربيّة وعلومها المختلفة كالنّحو والعروض حتى أنه تشكلت مدارس في هذا المجال كالمدرسة النّحويّة المغربيّة بعد أن تكرس التّدوين كمرحلة تاليّة لعقود من المشافهة والمناظرات الشّفويّة والحوارات التي كان وجودها أمرا طبيعيا نظرا لطبيعة التّركيبة اللغويّة والاجتماعيّة آنذاك.

ارتبط واقع اللغة العربيّة إذن، بتلك الحركة العلميّة التي رافقت إنشاء هذه الدّول، التي اشتد التّنافس بينها بسعيها إلى إنشاء مراكز علميّة تحفّز على تعلم العربيّة والعلوم المختلفة، ولذلك سنجد اهتماما بإنشاء المكتبات وتشجيع العلم والعلماء، من لغويين وفقهاء ومفسرين وشراح حديث وأدباء، ليتم تأسيس مدرسة مغربيّة متميزة لا تجاري المدارس الشّرقيّة ، بقدر ما تضيف إليها من خصوصيات العقليّة المغربيّة والظّروف السّوسيو-ثقافي والسّياسيّة في ذلك الوقت، وكان ذلك بدايّة من القرن الرّابع، حيث ظهر علماء لغة يتفوقون على أقرانهم من المشارقة الذين أصبحوا يأخذون عنهم، فاختلف أمر التّرحّل نحو المشرق لنشهد، بعد ذلك، حركة معاكسة نحو المغرب الإسلامي، كمركز إشعاع فكري منفتح، كان للعربيّة نصيب منه.

ظهر الاهتمام باللغة العربيّة، كما أسلفنا منذ بدايّة الفتح لبلاد المغرب، وتوطدت معالمه مع الدّويلات التي نشأت، وهي، وإن قامت على أنقاض بعضها، واختلفت سياسيا ومذهبيا، إلا أنها توافقت على الاهتمام باللغة العربيّة، واستعمالها ونشر العلوم بها، وخلق فضاء يجاري وينافس الفضاء المشرقي، فكان فضاء المغرب الإسلامين الذي نشأت فيه دول، وأنظمة سياسيّة تؤمن بالاختلاف والخصوصيّة في الوقت ذاته، وفي ظل

هذا الاختلاف والخصوصيّة الأمازيغيّة كان للعربيّة الحظ الأوفر من الاهتمام، في التّعاملات الإداريّة والمراسلات وفي التّواصل والإبداع والعلوم. مثلما سنعرض إليه في هذه الدّول:

1 – الدّولة الرّستميّة: أسّس **عبد الرّحمن بن رستم** أول دولة في الجزائر القديمة عندما بنى مدينة تيهرت، وجعلها عاصمة سنة 160ه/ 777م. وكان حكام تيهرت يتسمّون بالأئمة، لما لهذا الاسم من علاقة بالدّين الإسلامي والحفاظ على اللغة العربيّة ولذلك وجدنا علماء وأدباء يضاهون علماء المشرق، وامتدت لمئة وخمسين سنة حتى انتصار الفاطميين سنة909م، و»كانت العربيّة هي لسان الدّولة الرّستميّة، بلا منازع، يدل لذلك رسائل الرّستميين إلى الأمازيغ في الحث على الطّاعة والتّمسك بالدّين، وعقود ولايتهم لعمالهم بطرابلس. وقد أثبت البارونـي نصوص رسائل وعقود. وكانت العربيّة لسان علومهم وآدابهم أيضا. إذ جل عنايتهم بالعلوم الدّينيّة التي لا لغة لها غير العربيّة. «ولذلك ولع الأمازيع في الدّولة الرّستميّة باللغة العربيّة، على الرّغم من قرب عهدهم بالإسلام وباللغة العربيّة، فاعتنوا بها وأنشأوا بها العلوم وتعلموا بها وتم تداولها في البيوت بعد أن تعايشت اللهجات الأمازيغيّة معها تعايش العاميّة مع الفصحى.وتمثل الدّولة الرّستميّة مثلما يذهب إلى ذلك المؤرخون، أبرز حركة استقلاليّة مبكرة بالمغرب الأوسط، وما يُسجله التّاريخ لدولة الجزائر – المغرب الأوسط- أنها كانت أول دولة حققت استقلالها في العهد الإسلامي بالمغرب الأوسط، وسجلت قيام حكم إباضي منفصل نهائيا في المجال السّياسي والإداري عن الحكم المركزي الإسلامي «وبلغ التّسامح المذهبي والدّيني في المجتمع الرّستمي مبلغا عظيما، فوجدنا تنوعا لغويا وثقافيا مميّزا سمح لعناصر اليهود بمزاولة العلم والأدب باللغة العربيّة، والتّبحر فيها حتى نبغ من بينهم عالم في اللغة ألا وهو **يهوذا بن قريش التيهرتي** الذي كان يجيد اللغة العربيّة إلى جانب العبريّة والآراميّة والفارسيّة والبربريّة» وهو دليل على إدراك البعد المشترك بين اللغات السّاميّة، فكان بذلك مؤسسا لفقه اللغة المقارن، الذي يبحث في علاقات اللغات ببعضها والكشف عن المصدر الواحد الذي تعود إليه، على الرّغم من المسار الذي تتخذه في استعمالها عبر العصور، ويخلق ما يعتبر بعد ذلك اختلافات لغويّة فيما بين اللغات.

ولذلك ليس غريبا، كما يذهب إلى ذلك الباحثون، أن نجد حركة التّأليف قد بدأت مبكرا في الدّولة الرّستميّة، أي منذ نهايّة القرن الثّاني وبدايّة الثّالث، كتفسير **عبد الرّحمن بن رستم** (ت:171هـ)، وتؤشر بدايّة التّأليف بالتّفسير إلى وضعيّة اللغة العربيّة لدى مستعمليها، ذلك أن التّفسير لا يستقيم إلا بعلوم العربيّة كالنّحو والصّرف والبلاغة، وما تقتضيه من تمكن مراعاة لمقاصد الشّريعة، وخشيّة الوقوع فيما يخالف كلام الله.

وكانت مكتبة «**المعصومة**» شاهدة بذكرها على حجم المؤلفات التي كانت توجد فيها سواء مما كتب في المشرق وتم تداوله، أو مما كتبه الإباضيون، قبل أن يتم إحراقها من قبل **أبي عبد الله الشّيعي** في نهايّة القرن الثّالث (ت: 288ه) الذي أمر بإحراق ما ألف في المذهب الإباضي، ومنه التّفسير الأول لمؤسس الدّولة الرّستميّة. ولذلك توجه التّأليف شيئا فشيئا نحو الاحتراز، بعد الصّراع السّياسي الذي حدث قبل وبعد سقوط الدّولة الرّستميّة، حيث يذكر **حسن مسعود الطّوير** بأن تفسير **هود بن محكم الهواري** أخذ وجهة الدّراسات الإعجازيّة على الرّغم من أن الباحث نفسه يؤكد أن المفسر كان يعود إلى الآيات القرآنيّة ليدلل بها على آراء عقديّة إباضيّة.

كانت اللغة العربيّة في هذه التّآليف وغيرها من المجالات القاعدة الأساسيّة في منهجيّة التّأليف، حيث كانت توضع كشرط ثان بعد حفظ القرآن، أن يكون المفسر للقرآن ملما بقواعد اللغة العربيّة من نحو وصرف وإعراب وكذا يكون ملما بوجه القراءات وهي مبحث لغوي دقيق، لا يمكن لأي علم أن يقوم إلا بالاشتراط به.

وكان للمكتبات وأحباس الكتب المخطوطة دور في نشر اللغة العربيّة والحفاظ عليها، فيذكر **عبد العزيز فيلالي** الدّور الذي لعبته هذه المكتبات والأحباس التي سارع الحكام والنّاس في المغرب الأوسط إلى تحبيس المخطوطات فيها، إضافة إلى المساجد وإنشاء الخزائن، من أجل الانتفاع بها من المعلمين والمتعلمين على السّواء.

تم تبني اللغة العربيّة، إذن، في التّعليم والكتابة، وساهم الرّستميون، كما أسلفنا، في حركة التّأليف بتيهرت، وكان إسهاما مبكّرا، الأمر الذي دفعهم إلى الاهتمام بإنشاء مكتبة **المعصومة**، لما لهذا الاسم من دلالة تقوم على قيمة اللغة العربيّة والقرآن الكريم وعلومه المختلفة التي شيدت من أجلهما المكتبة، على الرّغم من أن صاحب

المسالك والممالك، **أبو بكر العبيدي**، يرجع التّسميّة إلى وجودها في القصبة المشرفة على السّوق، والتي تسمى **المعصومة**، ليصبح اختيار المكان ذا دلالة ورمزيّة كبيرة لقيمة المكتبة والكتاب في الدّولة الرّستميّة.

تعتبر مكتبة **المعصومة** من أضخم المكتبات على غرار مكتبات المدن الإسلاميّة التي عرفت حياة فكريّة مزدهرة. حوت ثلاثمائة ألف مجلد أو كتاب في مختلف العلوم الأدبيّة والفنيّة والدّينيّة والتّاريخيّة» باللغة العربيّة، تفرق بعضها في خزائن خاصّة، مما نجا من الحرق أو هربت بقايا من صفحاته وخاصّة من المؤلفات الإباضيّة كتفسير **عبد الرّحمن بن رستم**.

لعل» أشهر أعلام الدّولة الرّستميّة في مختلف العلوم هم: **هود بن محكم الهواري** الذي كان أبوه قاضيا للإمام **أفلح بن عبد الوهاب** ويُعتبر أول مفسر للقرآن الكريم في مجتمع المغرب الإسلامي، ويقع هذا التّفسير في مجلدين كبيرين أو أربعة أجزاء وتم تحقيقه ونشره من بعض علماء الإباضيّة» وهو إشعاع علمي حملت لواءه اللغة العربيّة ليمتد على رقعة جغرافيّة واسعة في شمال أفريقيا وغربها وشرقها، ويصل إلى جنوب شبه الجزيرة العربيّة، وقد أنجبت هذه الرّقعة الجغرافيّة الرّستميّة الإباضيّة، عددا كبيرا قد لا يحصى من العلماء والأدباء والشّعراء والفقهاء، وقادة الفكر المجتهدين خاصّة في المذهب الإباضي، تركوا بصماتهم على كل جوانب الفكر الفقهي والفلسفي والجدل وعلم الكلام (...) ورغم أن تيهرت كعاصمة سياسيّة، لم تعمر أكثر من قرن ونصف القرن إلا أن تأثيرها العلمي، وإشعاعاتها الفكريّة والمذهبيّة بقيت خالدّة حتى اليوم في مواطن عديدة بالجزائر وخارجها» وهو ما يضفي الأهميّة على التّاريخ الحضاري لهذه الدّولة مثلما يؤكد ذلك المؤرخ **يحي بوعزيز**؛ حيث يذكر أن معظم أئمة الدّولة الرّستميّة كانوا «علماء، وأدباء وشعراء، يهتمون باللغة العربيّة وبالعلم، وقضايا الفكر، والثّقافة ويُجلون العلماء والفقهاء، والشّعراء، ويتخذون منهم مستشارين لهم، ويقربوهم منهم، ويسندون إليهم مناصب الوزراء، والقضاة، وحكام الأقاليم، ويعقدون معهم مناظرات، ومحاورات علميّة: فكريّة، وأخلاقيّة وتنظيريّة، ويهتمون بجمع الكتب، ونسخها واستجلابها من كل مكان حتى من أقاصي المشرق»

عمل الرّستميون الأمازيغ، إذن، على نشر علوم اللغة العربيّة وعلوم الدّين، وتجلى ذلك من خلال بناء عدد المساجد من طرابلس حتى وهران، واتخذوها مدارس وجامعات لتحفيظ القرآن الكريم ونشر علوم العربيّة، بين الرّجال والنّساء، ولذلك، تؤكّد كتب التّاريخ الدّور الذي كان للمرأة في الدّولة الرّستميّة حيث شاركت في الحركة التّنويريّة التي قامت عليها الدّولة، وفي مقدمتهن، شقيقة الإمام أفلح التي حذقت علم الحساب والفلك والتّنجيم لتثبت هذه الحركة العلميّة سرعة تبنّي اللغة العربيّة لحسن إسلامها، فأحسن أصحابها الاهتمام بالعربيّة تأليفا واستعمالا. «وقد أدى نشاط الحركة الفكريّة على هذا النّحو، إلى أن يتجه الرّستميون إلى توثيق علاقاتهم الثّقافيّة بمختلف البيئات العلميّة والاحتكاك بمراكز الثّقافة سواء في المغرب والأندلس – في القيروان وفاس وقرطبة- أو في المشرق – في بغداد والبصرة ومصر- وكان الأئمة الرّستميون في طليعة الباحثين عن هذه العلاقات، فتروي بعض المصادر أنَّ الإمام عبد الوهاب بن **عبد الرّحمن بن رستم** «أرسل ألف دينار إلى المشرق إلى إخوانه بالبصرة أن يشتروا له بها الكتب فلما وصلهم الألف اشتروا بها رقا فنسخوا له فيها وقر أربعين جملا من الكتب التي هيأ لها قرّاؤها من طلبة العلم ورجالاته، ولذلك كانت تيهرت بحق مركز ازدهار ثقافي وعلمي وفضاء لغويا نبغ فيه أدباء وعلماء في مختلف المجالات، وبخاصّة الثّقافة الدّينيّة؛ لأن أئمة الإباضيّة كانوا علماء دين ورؤساء مذهب يتطلب من أصحابه أن يكونوا على أهبة للدفاع عن آرائهم ومبادئهم بالحجة الدّامغة والدّليل القوي، لذا فقد امتلأت مساجد تيهرت بطلاب العلم يتلقفونه على أيدي كبار علماء الإباضيّة»، وكثر شراح ألفاظ القرآن الكريم لفهم آياته، وفقه أحكامه، ولم يكن ذلك ليتم إلا بترجمة تلك الألفاظ إلى اللغة الأمازيغيّة، وهو ما يفسر استمرار هذه اللغة جنبا إلى جنب مع اللغة العربيّة، ويؤكد تلك التّداخلات اللغويّة بين اللغتين، الأمر الذي يعكس اللحمة الاجتماعيّة للمجتمع الجزائري.

اهتمت الدّولة الرّستميّة، إذن، بتعليم العربيّة والكتابة بها، وكانت تقام الحلقات العلميّة في المساجد لتدريس القرآن والفقه والتّفسير على فهم المذهب الإباضي، كما اهتمت بإنشاء المكتبات العلميّة التي تحتوي على المجلدات في مختلف العلوم الدّينيّة، الطّب والرّياضيات والفلك والهندسة واللغة العربيّة وتعريب الأمازيغ.

كل هذا الاهتمام من الرّستميين

بالحياة العلميّة كان لا بدّ له من أن يكون مصاحبا بطفرة وافرة من التّأليف والإبداع، فاهتم كثير منهم بالأدب العربي من الشّعر والنّثر، ومن أبرز شعرائهم الإمام **أفلح بن عبد الوهاب** ومن أبرز وأجمل قصائده في مدح العلم والتي قال فيها:

العلم أبقى لأهل العلم آثاراً
وليلهم بشموس العلم قد ناراً
يحيى به ذكرهم طول الزّمان وقد
يريك أشخاصهم روحا وأبكاراً
حي وان مات ذو علم وذو ورع
إن كان في منهج الأبرار ما مارا

وأيضاً شاعر تيهرت الكبير بكر بن حماد الزّناتي حيث قال:

قف بالقبور فنادي الهامدين بها
من أعظم بليت فيها وأجساد
قوم تقطعت الأسباب بينهم
من الوصال وصاروا تحت أوطاد
راحوا جميعا على الأقدام وابتكروا
فلن يروحوا ولن يغدو لهم غادي

أمّا فيما يخصّ النّثر فقد كان لهم حظ وافر متمثلاً في خطب الجمعة، ودواوين الدّولة ومراسلاتها فحملت مشعل العلم والحضارة في المغرب الأوسط، فكانت تنافس القيروان من حيث الأهمّيّة. وبلغت بذلك حياة فكريّة لا مثيل لها من النّاحيّة الثّقافيّة جنبا إلى جنب مع القيروان وقرطبة الإسپانيّة أكبر عاصمتين مغربيّتين في تلك الفترة.

لقد كان للرّستميّين دور بارز في الحياة الدّينيّة بالمغرب الأوسط. ولقد حملت هذه الدّولة كما يقول «**ابن تاويت الطّانجي**» مشعلا عظيما للحضارة والعلم في بلاد المغرب، فكانت تلي القيروان في ذلك، وما كان لمدينة فاس عاصمة الأدارسة أن تبلغ مبلغ تيهرت الرّستميّة في الحياة الدّينيّة، والحضاريّة منها. والحقيقة أنّ الرّستميّين بحكم ثقافتهم الواسعة شجّعوا الحركة الفكريّة فنشطت تيهرت في هذا الميدان كما نشطت في الميادين الأخرى وذاع صيتها في الآفاق بعد تعميرها حتّى دُعيت «**عراق المغرب وبلخ المغرب**» إلحاقا بها في المعارف والعمران والحضارة.

وإذا كانت تيهرت قد برزت كمركز ثقافيّ مشهور في شمال أفريقيا خلال القرن الثّالث الهجريّ، فإنّ ذلك راجع إلى كونها عاصمة دولة مستقلّة. والواقع أنّ دور الحكّام الرّستميّين في الحياة الفكريّة كبير كما، أسلفنا، ويثبت هذا ما قاموا به من جهود في نشر العلم وبناء المساجد وجلب الكتب من المشرق. وقد كان أصحاب المذهب الإباضي في الدّولة الرّستميّة من المهتمّين باللّغة العربيّة، وإتقانها ليخيّل إلينا أنّ الضّابط لها والحافظ لرسمها ونطقها يعتبر عندهم عالما».

و تشير بعض الدّراسات أنّ الجهود التي بُذلت في عهد الدّولة الرّستميّة لتعريب الأمازيغ، جهود جبّارة كانت من أهمّ الخلفيّات الثّقافيّة العربيّة التي انطلقت منها دولة بني حمّاد بأفريقيا وأصبح علماؤها يناظرون فقهاء المشرق في قواعد الأصول ومبادئ علم الكلام، ممّا سهّل تعريب المغرب، وكانت العربيّة في الدّولة الرّستميّة لغة الأدب، وتتّفق الدّراسات الحديثة تقريبا على أنّ الدّولة الرّستميّة لم تبرز في الحياة الأدبيّة الصّرفة بروزها في الحياة الدّينيّة من فقه وفلسفة وحديث ومناظرات.

ولا شك أن الجهود التي بذلها الرّستميون في سبيل النّهضة الفكريّة عامة كتشجيع العلم والعلماء، وإنشاء المكتبات، كانت جزءا من أهداف كبرى قامت على تعريب الأمازيغ، وجعل اللغة العربيّة لسان حالهم وآدابهم وعلومهم، نظرا لمكانتها التي ارتبطت بمكانة القرآن الكريم في حياتهم.

2 – **ولما قامت دولة الأغالبة:** كانت كغيرها من الدّول التي امتدت إلى الجزائر، تهتم باللغة العربيّة وبالدّين الإسلامي، وتعقد لذلك الحلقات والدّروس والمناظرات، وينسب إلها علماء جزائريون كثيرون أشهرهم «**أبو عبد الله ابن قاضي ميلة**». ابن قاضي ميلة **عبد الله بن محمّد التّنوخي** الذي قال عنه **ابن رشيق** في الأنموذج بأنه «شاعر لسن مقتدر يؤثر الاستعارة ويكثر الزّجر والعيافة ويسلك طريق عمر بن أبي ربيعة وأصحابه في نظم الأقوال والحكايات، وله في الشّعر قدم سابقة ومجال متسع وربما بلغ الإغراق والتّعمق إلى فوق الواجب هو لهج بذلك مطالب له».

3 – **كما كانت الدّولة الإدريسيّة** مملكة واسعة الأطراف، امتدت من المحيط الأطلسي إلى نهر شلف، فشملت المغرب الأقصى والنّصف الغربي من الجزائر الحاليّة، ولقد كان شرف نسب الأسرة الإدريسيّة وقربها من رسول الله ﷺ عاملا قويا لنشر الدّين الإسلامي وإخماد ثائرة بعض المذاهب المتطرفة التي تسرّبت من المشرق إلى المغرب. ولقد سارت الأدارسة في طريق التّعريب، وذلك بوفادة القبائل العربيّة على المغرب للإقامة أو العبور إلى الأندلس. وتنظيم الحكومة على أساس عربي. وإنشاء مدن ذات طابع عربي، وبناء المساجد والمدارس والمعاهد وترتيب الفقهاء والعلماء بها لتعليم القرآن وأحكام الدّين وقواعد اللغة العربيّة، ومن

أعظمها بناء جامع القرويين، ولا يقل دور الأدارسة الحضاري والعمراني عن دورهم السّياسي والدّيني، فقد جددت أسوار مدينة تلمسان وبني جامعها الكبير يومئذ، وبنيت جرواة (تمتد تقريبا من وجدة إلى تلمسان وندرومة وأرشكول (قرب تلمسان)» وكلّها كان لها دور كبير في نشر اللغة العربيّة وعلومها وآدابها، وخاصّة عندما استوى الحكم لدى بني عبد الواد في تلمسان التي رفعت لواء العربيّة بمختلف معارفها، مثلما نرى.

4 – والشّغف نفسه نجده في الدّولة الزّيريّة، وهي الجيل الأول من الدّولة الصّنهاجيّة- كانت قائمة في المغرب الأدنى (تونس) والمغرب الأوسط (الجزائر) والمغرب الأقصى (المغرب) وصولا إلى شنقيط (موريتانيا). « فبعد وفاة زيري بن مناد انتقلت قيادة صنهاجة إلى ابنه **بلكين بن زيري** (984–972م)، الذي سعى للأخذ بثأر أبيه وأمده المعز لدين الله بالرّجال والعتاد ورخص له الاحتفاظ بالمناطق التي سيستولي عليها، وخرج بلكين على رأس قوات غفيرة وبادر بتطهير ضواحي ومدن المغرب الأوسط من المعارضين من زناتة وطارد الأمير المغراوي حتى وصل سجلماسة وخاض معارك عديدة قتل فيها الكثير من الزّناتيين، ثم قفل راجعا إلى أشير بعد أن أخذ بثأر أبيه ووهبه الخليفة الفاطمي إقطاع مسيلة والزّاب».

وكانت هناك عدة طرق ربطت مدن المغرب الأدنى بمثيلاتها بالمغربين الأوسط والأقصى وكذلك المدن الهامة بالأندلس، ومن خلال هذه الطّرق كانت اللغة العربيّة توطد أركانها، من خلال التّرحل في طلب العلم الذي لم ينقطع ولم تحل دونه هذه الصّراعات

وقد سلك العلماء وطلبة العلم هذه الطّرق، سواء في رحلتهم لطلب العلم أو التّجارة أو لأداء فريضة الحج لتساهم الطّرق في إثراء الحركة العلميّة بالمغرب الكبير قديما – الأقصى؛ الأوسط؛ الأدنى- وتمتد من خلالها المعارف قادمة من الأندلس، متجهة نحو المشرق في حركة دؤوبة لنشر العلم والمعرفة، وتلقين تعاليم الدّين الإسلامي واللغة العربيّة لساكنة المغرب، وهو مثلما يشير إليه أيمن السّيّد ما نجده عند « أبي جعفر الدّاودي» (402هـ1111–م) أصيل طرابلس بالمغرب الأوسط وقد كان عالما وفقيها مشاركا في الحديث والنّظر واللسان، أصّل كتابه في شرح الموطأ وكان له رحلات عدة، واستقر به المقام بتلمسان وظل بها حتى توفي.

وخلال الفترة الصّنهاجيّة كان التّعليم يقام في المساجد والكتاتب إذ «كان الصّبيان يتعلمون في الكتاب القراءة والكتابة وتلاوة القرآن. وكانوا يكتبون الآيات القرآنيّة على الألواح، ويرتلون القرآن بصوت واحد. ويبدو أنَّ تعليم مبادئ الفقه للصبيان لا يبدأ إلا بعد الختم الكلي أو الجزئي للقرآن الكريم».

ولعل أهم الإمارات الصّنهاجيّة هي إمارة « بني يفرن» التي امتدت بين ولايتي **معسكر وسيدي بلعباس وتلمسان وتيارت** ، وإمارة «**مغراوة**» – امتدت رقعة حكمها من الأوراس إلى المحيط الأطلسي التي استوطنت الأوراس وتحالفت مع الأمويين، وساهمت في نشر اللغة العربيّة عن طريق كثرة الاتصال والتّنقل بين الأندلس والمغرب، وعلاقاتهم مع العنصر العربي، فكان لذلك تأثير كبير على تطور الثّقافة العربيّة.

وتطورت الحركة الأدبيّة في عهد **المعز بن باديس** الذي اشتهر بتشجيع أهل الأدب والعلم، وأحسن معاملتهم، مثلما أخبر عنه ياقوت بقوله: «وكانت القيروان في عهده وجهة العلماء والأدباء، يشدون إليها الرّحال من كل فجّ، لما يرونه من إقبال المعز على أهل العلم والأدب وعنايته بهم».

5 –تعتبر الدّولة الحماديّة بقلعة بني حماد بالمسيلة وببجايّة فرعا من الدّولة الزّيريّة، وكانت الحياة السّياسيّة، مثلما يذهب إليه المؤرخون والدّارسون، مضطربة جدا في العصر الحمادي؛ حيث كان هناك تنافس شديد بين أفراد العائلة الحماديّة، فقد اقتتل الأميران محسن وبلقين ومات الأمير باديس مسموما، ويوسف بن حماد وبلقين بن محمّد ثارا على الأمير محسن، وبلبار بن علناس وأبا يكني بن محسن وويقلان بن محسن ثاروا على الأمير منصور فحدثت الكثير من الحروب الأهليّة.

وعلى الرّغم من هذه القلائل وبعد انتقال الحكم إلى بجايّة، أصبحت الحياة الفكريّة من الثّراء والتّنوع ما جعل **بجايّة** تكون حاضرة يتنافس في الإقدام عليها كبار العلماء والكتاب كابن **خلدون وأبي مدين** وغيرهما؛ بل إن كتب التّاريخ تؤكد أن بجايّة عندما أصبحت عاصمة سياسيّة، وانتقال الحكم إليها من قلعة بني حماد بعد ضغط بني هلال اضطرت النّاصر إلى استبدال العاصمة، فانتقل إليها جل العلماء وطلبة العلم، حيث ظلت بجايّة تقوم على إنشاء المدارس وتعليم الأطفال القرآن الكريم واللغة العربيّة، وانتشرت الجوامع والمداس والزّوايا، وكثر الولع بإنشاء المكتبات، ليس فقط بانتقال العاصمة إلى بجايّة، بل منذ تأسيس الدّولة الحماديّة باتساع رقعتها في المغرب الأوسط منها العام

المشاع للجميع، كمكتبة مسجد المنار بالقلعة، وكذا الخزانات التي كانت منتشرة في أبواب الجوامع، وهناك المكتبات الخاصّة أيضا مثل مكتبة **أبو عبد الله بن الحسن بن ميمون القلعي** (ت:673ه) من قلعة بني حماد، الذي انتقل إلى بجايّة وقرأ فيها وبرع في النّحو والبلاغة والأدب، وكان له مثلما يذكر **الغبريني** درس منتظم يحضره نبهاء وأفضل الطّلبة، وقد جعل مكتبته الخاصّة متاحة لطلاب العربيّة.

في بجايّة ظهر علماء أجلاء في الفقه والقراءات التي تقوم على التّفقه في أسرار العربيّة، أمثال **أبو العباس بن عبد الله بن أحمد المعافري** الذي قال عنه صاحب عنوان الدّرايّة بأنه «الشّيخ المقرئ المتقن الأستاذ النّحوي المحصل المقدم في القراءات» وغيره من القراء **كابن مزي القلعي وابن عفراء، وأحمد بن الطّاهر الأنصاري** المدرس بالجامع الكبير، و**ابن النّحوي** من علماء الفقه وأبي بكر **الصّنهاجي** وغيرهم كثير ممن أثروا الكتبة العربيّة بمؤلفاتهم وكذا بنشاطهم في التّعليم وتقريب اللغة العربيّة والعلوم القرآن إلى أهل بجايّة والقادمين إليها لطلب العلم.

وقد ترجم **الغبريني** لهم وذكر فضلهم على اللغة العربيّة في العهد الحمادي من ذلك ما ذكره عن **ابن ميمون القلعي** الذي قال عنه أنه «كان بارعا في العربيّة، مقدما محكما لفنونها الثّلاثة: النّحو واللغة والآداب، وكان له درس يحضره من الطّلبة فضلاؤهم ونبهاؤهم ويجري فيه المذكرات المختلفة في التّفسير والحديث وأبيات الغريب وغيرها، وتمضي في ذلك المعاني المنقحة ما لا يكاد أن يوجد في نوادر الكتب (...) وتقرأ عليه الكتب النّحويّة والأدبيّة»

وهو الأمر نفسه مع ابن النّحوي الذي برع في شعر التّوسل واشتهر بقصيدته المشهورة **المنفرجة** التي يقول فيها:

اشتدي أزمة انفرجي
قد أذن ليل بالبلج
وظلال الليل له سرج
حتى يخشاه أبو السّرج
وسحاب الخير له مطر
فإذا جاء الإبان تجي

ولقد لاقت المنفرجة رواجا بين العامّة والخاصّة، وأصبحت تعويذة لكل من حل به اليأس إلى أيامنا هذه، حتى وإن غفل النّاس عمّن هو قائلها.

ويعتبر **ابن معطي الزّواوي** (ت: 628هـ) من أشهر علماء العربيّة، له تآليف في النّحو تضاهي ما كتبه **سيبويه**، وله شروح لأصول ابن السّراج، وغيره من النّحاة وعلماء اللغة كسيبويه.

أما في ميدان علم الشّعر ونقده فنجد **عبد الكريم النّهشلي**(ت: 405هـ) أستاذ **ابن رشيق المسيلي**(ت: 463هـ) وغيرهم، من النّقاد والأدباء **كابن الفكون** الذي مدح بجايّة النّاصريّة سنة 602هـ بقصيدته المشهور التي لا تزال تُردد لدى التّلاميذ في المدارس الجزائريّة، ويقول فيها:

دع العراق وبغداد وشامهما
فالنّاصريّة ما إن مثلها بلد
بر وبحر وموج للعيون به
مسارح بان عنها الهم والنّكد
حيث الهوى والهواء الطّلق مجتمع
حيث الغنى والمنى والعيشة الرّغد

وبما أن قيام الدّولة الحماديّة تزامن مع زحف الهلاليين على أفريقيا سنة 442هـ، فقد أحدثوا تأثيرا في المجتمع والثّقافة في ترسيخ اللغة العربيّة بين أفراد المجتمع وكان لهذا التّفاعل دور في تعريب الجزائر منذ ذلك الوقت.

6 -على الرّغم من أن الدّولة الموحديّة نشأت في المغرب الأقصى، إلا أن مفهوم الوحدة الذي انطلقت منه، هو الذي جعل المغرب الأوسط يتوحد، ولأول مرة مع الأندلس، وتحت رايّة واحدة، الأمر الذي يجعل الحديث عن أي حركة علميّة في دولة الموحدين، مرتبطا بمشاركة سكان المغرب الأوسط فيها، على الرّغم من إغفال المؤرخين غير المبرر لدور الجزائر في هذه الدّولة وفي الحركة العلميّة واللغويّة والأدبيّة آنذاك، بل في حلم سياسي بتوحيد المغرب الإسلامي الكبير الذي لايزال حلما يراود شعوبه.

جاء تقدم الموحدين شرقا نحو الجزائر، في ظل ظروف ضعف الدّولة الحماديّة في تصديها للقبائل العربيّة والهجوم النّورماندي، ويرجع المؤرخون نشأة الدّولة **الموحديّة** انطلاقا من المغرب الأوسط آنذاك ، أين التّقى **المهدي بن تومرت** قادما من تونس بعبد المؤمن بن علي في بجايّة، ليشدا الرّحال إلى المغرب الأقصى، ليعود **عبد المؤمن** بعد عشر سنوات من قيام الدّعوة الموحديّة، بالتّوجه إلى المغرب الأوسط ويأخذ الدّعم منه، في ظل ضعف الدّولة الحماديّة الذي أشرنا إليه سالفا سنة534ه، فيتوجه إلى تلمسان ثم ندرومة التي دخل أهلها في دعوته لقرابتهم به، وأنشأ الجيوش ونصب على رأسها قادة علماء في **وهران** و**تلمسان** وبمساعدة **بجايّة** ليتم التّخلص من المرابطين بعد حروب وحصار وانهزامات حتى سقطت الدّولة الحماديّة في أيدي الموحدين، وانهزام **يحي بن عبد العزيز ابن المنصور**، ثم دخلت جيوش الموحدين قسنطينة سنة547ه، وعين **عبد المؤمن بن علي**

ابنه عبد الله واليا على بجايّة، وحارب القبائل العربيّة، وواصل ضم المدن الشّرقيّة كبونة، ثم إلى تونس، لنشهد أول حركة توحيد لبلاد الأمازيغ مثلما يذهب إلى ذلك الباحث علي عشي، لتدخل مرة أخرى في صراعات وحروب، تفتت فيها الوحدة ونشأت دول أخرى ويتفكك حلم الموحّدين.

غير أن الفترة التي شهدها المغرب عامّة من الحكم الموحّدي، كانت فترة تسيير محكم، أصبحت فيه بجايّة وتلمسان عمالتين مهمّتين لهما وزنهما في كيان الدّولة الموحديّة، ليس سياسيا فحسب، بل ثقافيا واجتماعيا أيضا، إضافة إلى قسنطينة التي كانت جزءا من ولايّة أفريقيا.

وما يهمنا في هذه الإشارة من تكوين دولة الموحدين هو وضع اللغة العربيّة الزّاهي، بنشاط العلوم الدّينيّة واللغويّة وانشار المؤسسات التّعليميّة كالزّوايا والمساجد التي ظلت من أهم مراكز الإشعاع العلمي الذي هيأ لنشأة المدارس بدءا من القرن السّادس. وفي ظل الوحدة اجتمعت المذاهب والتّوجهات الدّينيّة، وكان هناك نوع من التّوافق الذي تشهد عليه تعدد الحواضر العلميّة كبجايّة وتلمسان والقلعة وجزائر بني مزغنة وقسنطينة ووركلا ووهران، وخاصّة بعد توافد القادمين من الأندلس، وتصدرت بجايّة وتلمسان المشهد العلمي لثلاثة قرون شهدت فيه اللغة العربيّة أوج ازدهارها، وخاصّة عندما سُنّ التّعليم الإجباري، فبرزت المدرسة التّلمسانيّة في التّفسير مثّلها عثمان بن صاحب الصّلاة 582هـ، وهو شارح الأحكام الصّغرى في الحديث لابن الخراط الإشبيلي، وكذا محمّد بن أبي العيش 654هـ، وشهدت تلمسان ثورة علميّة كعلم أصول الكلام، فبرز علماء منهم الحسن بن زكون التّلمساني 553هـ، ومحمّد بن عبد الرّحمن التّجيني610هـ، وبرز علماء في القراءات ساهموا في فرض قراءة ورش عن نافع، وترسخ المذهب المالكي، كالفقيه أبو بكر بن سعادة التّلمساني 600هـ وأبي نصر المرادي وأبو محمّد البكاء 641هـ.

والأهم في كل هذا أن هذا الثّراء المعرفي لم يكن ليحدث لولا الازدهار في علوم اللغة العربيّة في هذه الفترة الموحّديّة، ووجدت مدارس نحويّة مثلما يذهب إلى ذلك الباحث علي عشي، تفردت بآراء خاصّة في مسألة الإعراب، حيث يقول عبد الله كنون عن مدرسة تلمسان: فهذه مدرسة تلمسان التي سيختلف أهلها عن مدرسة فاس في مسألة صرف أبي هريرة.

إن هذا الحضور العلمي وصل إلى البلاط الموحدي فكان فيه الكاتب الشّاعر محمّد بن أحمد السّلمي وغيره من الأدباء وعلماء اللغة العربيّة الذين أثثوا المشهد الأدبي واللغوي في البلاط الموحّدي.

وشأنها شأن تلمسان وأكثر، كانت بجايّة قبلة العلماء في عهد الموحّدين، ويذكر أن ابن تومرت لما التّقى فيها بعبد المؤمن بن علي قال له» العلم الذي تطلبه بالمشرق قد وجدته بالمغرب» ويذكر الغبريني النّهضة العلميّة التي عاشتها بجايّة، والكم الهائل من علماء اللغة والفقه والتّفسير وعلوم أخرى، حيث أحصى مائة وخمسين من علمائها مثل الفقيه عبد الحق الإشبيلي البجائي 581ه وابن دحيّة السّبتي 633ه وعبد الحق بر ربيع الأنصاري675هـ، وغيرهم.

والأمر نفسه نجده في قلعة بني حماد التي حافظت على نشاطها العلمي، وخاصّة في مجال الدّراسات القرآنيّة والحديثيّة، كمحمّد بن عبد الله المعافري 581هـ وابن الرّماة وغيره.

أما مدينة جزائر بني مزغنة فعلى الرّغم من دورها الثّانوي لتقدم بجايّة، إلا أن علماء كثيرين برزوا فيها لخدمة علوم اللغة والدّين مثل أبو محمّد اللخمي الجزائري 537هـ وعبد المنعم بن عشير الجزائري 537هـ، وحجاج بن سكات أبو يوسف الجزائري 561هـ.

إن هذه الأسماء وغيرها مما لا يسع المجال لذكرها كانت تشتغل في إطار مؤسسات اهتم بها الموحدون، وخاصّة المساجد التي كانت في كل مدينة مع جامع كبير، وكتاتيب يعلم فيها الأطفال الصّغار القراءة والكتابة، وحفظ القرآن، كما انتشرت الزّوايا والمدارس التي يرجع المؤرخون أمر تعميمها إلى عبد المؤمن بن علي، وتشتغل بالنّظام للداخلي مع منح للطلبة الفقراء، وكانت تدرس فيها الكتب الأساسيّة في اللغة ككتاب سيبويه والزّجاجي وأبي علي الفارسي، والجزولي والزّمخشري، وغيرهم. وكانت لغة التّدريس هي العربيّة مثلما كانت لغة التّواصل، في المعاملات وشؤون الدّولة، إلا العامّة من النّاس، حيث تمّ تأليف كتب خاصّة بهم ككتاب القواعد، وكتاب الإمامة اللذين ألفهما ابن تومرت، إضافة إلى كتابه المشهور في التّدريس باللغة العربيّة « أعز ما يطلب» الذي كان يضاهي موطأ مالك»، وتبعه الخلفاء الموحّدون الذين جاؤوا من بعد من خلال الاعتناء باللغة العربيّة؛ ولذلك شهدت الفترة الموحدة ازدهارا في الكتابة في علوم اللغة والأدب، ككتاب الاشتقاق لعبد الله بن محمّد الصّنهاجي 561هـ، وبرز عميد الكتابة النّثريّة ركن

الدّين الوهراني575هـ الذي اخترع نمطا جديدا هو"المنامات» على غرار المقامات، والغوث أبي مدين الذي كتب شعرا صوفيا ، وغيرهم ممن برع في اللغة العربيّة ونافسوا المشارقة سواء بالرّدّ عليهم بتأليف ما ينافسونهم ويجارونهم، أو من خلال إضافاتهم المميّزة، كأحمد عبد الجليل التّدمري 555هـ العالم بالعربيّة والأدب، وألف ببجايّة كتاب «نظم القرطين، وضم أشعار السّقطين» وكتاب «التّوطئة في العربيّة، والمختزل، وشاء الصّدور، والفوائد والفرائد، وكتب محمّد بن أحمد السّلمي 557هـ «الغريبين في اللغة» مجاراة للغريبين للهروي. ولعل أشهر اللغويين اللغوي والأديب يحي بن معطي 628هـ، عالم العربيّة والأدب، كتب «المثلث في اللغة»، و«العقود والقوانين في النّحو»، و»الفصول الخمسون في النّحو» وله ديوان خطب وآخر للشعر وأرجوزة في القراءات السّبع، ونظم ألفاظ الجمهرة، والبديع في صناعة الشّعر مثلما يحصي ذلك الزّركلي. وقد نبغ شعراء كثر في هذا العهد كابن قرقول وابن عمارة وعبد الله الصّنهاجي، والشّهير ابن الفكون القسنطيني 602هـ، وغيره من المساهمين في ثراء اللغة العربيّة في المغرب الأوسط، من تراجمة ومؤرخين وعلماء أنساب، وعلماء النّقل أيضا كالطّب والرّياضيات، وتم التّعرف على الفلسفة اليونانيّة في هذا العهد كدلالة على التّفاعل الإيجابي بين اللغة العربيّة واللغات الأخرى.

وليس غريبا أن تكون هذه النّهضة العلميّة من دون اهتمام بالمكتبات التي عرفت تنظيما جديدا، هو خطة الخزانة العاليّة» كما تذهب إليها المصادر التّاريخيّة، يتولاها عليّة القوم من العلماء ومن لهم درايّة بالكتب والمكتبات، وهي طريقة تشبه تخصص علم المكتبات في وقتنا الرّاهن، إضافة إلى جعلها مقرا لاستنساخ الكتب التي كانوا يرحلون من أجل اقتنائها.

7 -الدّولة الزّيانيّة (العبد الواديّة)

681هـ: شغلت الدّولة الزّيانيّة إقليم المغرب الأوسط، وعمل حكامها بدءًا بجدّهم **يغمراسن بن زيان** على توسيع حدودها وتثبيت قواعدها وضم القبائل إلى سلطتهم وتمكن يغمراسن من التّوسع غربًا، وصار الحد الفاصل بينه وبين دولة بني مرين بالمغرب الأقصى وادي ملويّة، كما امتدّ نفوذه إلى مدينة وجدة. وتاوريرت وإقليم فجيج في الجنوب الغربي. وكانت حدودها تمتد من تخوم بجايّة وبلاد الزّاب شرقا إلى وادي ملويّة غربًا، ومن ساحل البحر شمالاً إلى إقليم توات جنوبًا، وبقيت هذه الحدود في مد وجزر بسبب هجمات بني مرين غربًا وبني حفص شرقًا وكانت العاصمة مدينة تلمسان.

وقد استقر الملك في بني زيان ثلاثمائة سنة غير أنهم اضطهدوا من قبل ملوك فاس، أي بني مرين الذين احتلوا مملكة تلمسان نحو عشر مرات، حسبما جاء في التّاريخ. وكان مصير ملوك بني زيان حينئذ إما القتل أو الأسر أو الفرار إلى المفازات عند جيرانهم الأعراب، وتعرّضوا أحيانا أخرى إلى الطّرد من قبل ملوك تونس إلا أنهم كانوا يسترجعون ملكهم كل مرة، واستطاعوا ان يتمتعوا في أمن وسلام قرابة مائة وثلاثين عاما، دون ان يتعرّضوا إلى أذى أي عاهل غريب.

وعلى الرّغم من ذلك مثلما يذهب إلى ذلك الباحث في التّاريخ عبد الحميد حاجيات، فقد كانت هذه الفترة بالنّسبة للحركة الفكريّة في المغرب الأوسط، مرحلة نمو وإشعاع، نبغ فيها عدد وافر من العلماء في سائر الميادين، وذاع صيتهم، وشغلوا مناصب ساميّة في أقطار المغرب، من قضاء وتدريس وكتابة وغير ذلك، ونشطت العلوم كلها من نقليّة وعقليّة، فأحرزت البلاد على تقدم ملحوظ في هذه المجالات».

ويرى عبد الحميد حاجيات وهو يفكك خلفيات التّطور العلمي والفكري الذي كان في العهد الزّياني، بدءا من سياسة التّوحيد، شتات الإمارات التي انضمت في إمارة واحدة قويّة، فيرى أن «أكبر عامل لهذا التّطور الفكري الهام بالمغرب الأوسط، هو ما حدث فيه من تأسيس الدّولة العبد واديّة التي جمعت شتات الإمارات الصّغيرة القائمة آنذاك، وكوّنت إمارة قويّة، استطاعت أن تبعث الحركة الفكريّة، وتنهض بالعلوم وتشجع طلبة العلم والقائمين بتدريسه، وتتيح للشعراء والأدباء الفرص التي تمكنهم من إثراء الإنتاج الأدبي كما كان لهجرة الأندلسيين، أثناء عصر الموحدين وبعده، إلى تلمسان وغيرها من مدن المغرب الأوسط، أثرا هاما في هذا التّطور، فورثت قسطا وافرا من الحضارة الأندلسيّة، ونهلت من معينها الزّاخر».

كما كان لتأسيس المدارس بتلمسان، أيام أبي حمو الأول وابنه أبي تاشفين، ثم أثناء الاستيلاء المريني، أثر هام في بعث الحركة الفكريّة وإقبال الكثير من الطّلبة على اكتساب العلوم المختلفة من نقليّة وعقليّة وإتقانها، وكان الأمراء الزّيانيون يولون أهل العلم رعايّة خاصّة ويمنحون الطّلبة ما يساعدهم على تحمل أعباء دراستهم، فخصّصوا لهم

الأرزاق والجرايات وأنشأوا المكتبات العامّة في المدارس وغيرها من المؤسسات العلميّة التي تسهل عمليّة تحصيل العربيّة وعلومها وتنافس دولا أخرى في العالم الإسلامي آنذاك.

إن الاهتمام بالكتب تأليفا وتحبيسا في المكتبات الذي بدأ منذ العهد الرّستمي وترسخ لدى الموحّدين، ظل مستمرا، ويتطور بطريقة مذهلة، فما إن وصل الحكم إلى الزّيانيين حتى استوى للغة العربيّة من خلال التّأليف رصيدا ضخما من الكتب والمخطوطات التي حوتها المكتبات وولع النّاس بها، حيث يذكر الباحثون والمؤرخون بأن العهد شهد رواجا للكتب المتنوعة التي أصبحت تعج بها المساجد والمكتبات والخزائن كمكتبة الجامع الكبير بتلمسان التي أنشأها السّلطان أبو حمو موسى الثّاني (ت: 791ه) وهو باعث الدّولة الزّيانيّة بعد أن سيطر عليها المرينيون، ويذكر الباحث عبد العزيز فيلالي بأنها «كانت توجد على يمين المحراب، وكان قد دوّن على بابها: أمر بعمل هذه الخزانة المباركة السّلطان أبو حمو من الأمراء الرّاشدين أيد الله أمره وأعزّ نصره ونفعه بما وصل ونوى وجعله من أهل التّقوى وكان الفراغ من عملها يوم الخميس ثالثّ عشر لذي القعدة عام سبعمائة وستين»

وأصبحت تلمسان على عهد بني زيان حاضرة الأدب والعلم والفن الجميل، ويذكر الباحثون أن السّلطان أبا زيان محمّد بن حمو (ت: 796ه) «كلف بالعلم حتى صار منهج لسانه وروضة أجفانه، وكان ناسخا للمصاحف ولكتب الفقه والحديث» وهي إشارة مهمة للاهتمام بالخط العربي الذي أصبح ذا خصوصيّة عرف بها الخط المغربي، الذي تم نسخ الكثير من الكتب به، وتم التّفنن فيه حتى أصبح ينافس الخط الكوفي وغيره من أنواع الخطوط، وعبر عن خصوصيّة بلاد البربر، وطريقة ولعهم باللغة العربيّة، تأليفا وقراءة وتفننا، فتكونت مدرسة في التّخطيط المغربي، ساهمت في حفظ علوم العربيّة في المغرب الإسلامي، بله تصديرها إلى بلاد الحرمين، حيث تشير الكتب إلى أن سلاطين بني زيان، كانوا ينظّمون قوافل الحج، يختارون لها عالما من كبار الفقهاء، برفقة علماء يحملون معهم مصاحف وكتب الصّحاح المنسوخة بالخط المغربي، وجعلها وقفا في البقاع المقدسة، سواء في بيت المقدس أو في مساجد مكة المكرمة، ومن ذلك ما ذكر عن المصحف الذي نسخه بطريقة بديعة النّاسخ أحمد بن حسن البلياني التّلمساني للسلطان المريني أبي يعقوب يوسف، أثناء حصاره للمنصورة بتلمسان، وقد وصفه ابن خلدون بقوله: «مصحف رائق الصّنعة ، كتبه ونمقه أحمد بن الحسن الكاتب المحسن، واستوسع في جرمه، من بديع الصّنعة، واستكثر فيه من مغالب الذهب المنظم بخرازات الدّرر والياقوت، وجعل منها حصاة وسط المغلق تفوق الحصيات، مقدرا وشكلا وحسنا، ووصف لضخامته بأنه حمل على بعير نقل في موكب للحجاج إلى مكة عام 703ه»

إن الوقف والتّخطيط له دلالة كبيرة في الاهتمام باللغة العربيّة والعلم في سبيل الله، حتى أن التّأليف والنّسخ والخط كان يضاهي في وظيفته مكانة الجهاد، كما أسلفنا،

وقد لعب التّصوف والمتصوفة أيضا دورا في تحبيس الكتب في الزّوايا، و»ذكر محمّد بن صعد الأنصاري التّلمساني (ت:901ه) أن زاويّة الشّيخ أبراهيم التّازي بمدينة وهران كانت تحوي على الخزائن المملوءة بالكتب وآلات الجهاد» وهذا القول يؤكد المكانة التي وضع فيها الزّيانيون الكتب التي تضاهي مكانة آلات الجهاد، وذلك ليقينهم بأن الحرف سلاح مثله مثل السّيف، ولذلك ظلت المكتبات تؤدي الوظيفة التّعليميّة التّثقيفيّة إلى جانب وظيفة الحث على الجهاد، ويذكر عبد العزيز الفلالي أن وظيفة هذه المكتبات ظلت قائمة حتى مجيئ الفرنسيين الذين اندهشوا من حجم الكتب المخطوطة التي وجدوها فيها أثناء حملاتهم الاستعماريّة، وخاصّة المكتبات العائليّة التي ظلت تتوارث كمكتبة عائلة الفكون بمدينة قسنطينة وغيرها.

ويذكر المؤرخون أن المكتبات ظلت خاضعة للأحباس، حتى أن مدرسة العباد المشهورة استفادت من تحبيسات الكتب التي قضى بها السّلطان أبو الحسن المريني (ت: 751ه).

وممن اشتهر بالفقه والعلوم الدّينيّة، نجد: **أبا زيد عبد الرّحمن وأبا موسى عيسى** اللذين تفقها على أصحاب "**أبي عبد الله بن شعيب الدّكالي** (...) وممن اشتهر في المعقول والمنقول، **أبو عبد الله محمّد بن أحمد بن علي الشّريف التّلمساني** ويُعرَفُ بـ: «العلوِي». كذلك برز في الأصول والفقه والتّفسير، الحفيد أبو عبد الله محمّد بن أحمد بن مرزوق. وفي الأدب...»**أبو حمّو موسى الثّاني**» و**ابن خميس التّلمساني**» الذي يقول:

أنا مِنْ بقيّة معشرٍ عرَكتْهُمْ
هذي النّوى عَرْكَ الرّحى بِثفالِها
أكْرِمْ بها فئةً أُريقَ نَجيعُهَا
بَغْيا؛ فَرَاقَ العيْنَ حُسْنُ مآلها

حلّتْ مُدامةُ وَصْلِها وحَلَتْ لهم
فإنِ انْتشوْا فبحُلْوِهَا وحَلالهَا.

ومن متصوفة الجزائر في الدّولة الزّيانيّة الغوث أبو مدين بن شُعيْب بن الحسن الذي سُئل عمّا خصّهُ الله به فقال: «مقامي العبوديّة وعلومي الألوهيّة وصفاتي مستمدة من الصّفات الرّبانيّة. ملأتْ علومُه سِرّي وجَهْرِي، وأضاء بنوره بَرّي بَحْري» ومنهم عفيف الدّين التّلمساني»وله ديوان شعْر فلْسَفي صُوفِي رَمْزي في حبّ الحقيقة والجمَال وفي وحْدة الوُجود، وكان مؤوّلا بارعا لنصوص المواقف والمخاطبات للنّفري.

وقريب من التّصوف نشأ غرض خاصّ في تلمسان، هو شعر المولديات وهو غرض جديد من أغراض الشّعر العربي ومن النّصوص التي تمثل هذا النّوع، وتكتب خصيصا في مدح خصال وأخلاق الرّسول ﷺ وطلب شفاعته مثل أشعار أبي حمو موسى الثّاني كقوله:

وما أرتجي إلاّ شفاعة خير منْ
أتى بالهدى يهدي بدين حنيفي
به يرتجي العاصون غفران ذنبهم
وما عملوا في الدّهر من عمل سيّ
فمولده قد أشرق الكون كله
وكلّ سنا شمس وبدر ودُري

ازدهر التّعليم في الدّولة الزّيانيّة، في الكتاتيب والمساجد، وحرصا على التّعليم الجيد كانت تبنى للمدرسين ملحقات للمبيت فيها، وكمساكن أخرى للطلبة، وهو النّظام الذي حافظت عليه الزّوايا إلى الآن، وتعتمده طرق التّعليم الحديثة فيما يسمى بالنّظام الدّاخلي الذي يستدعى له كبار العلماء والمدرسين، مثل استقدام ابن خلدون، وغيره من العلماء لتدريس الطّلبة علوم اللغة العربيّة.

ومما زاد في إشعاع الدّولة هو انتقال علماء إليها من الأندلس، فكثرت مراكز تعليم العربيّة وعلومها، وما اتصل بها بعلوم القرآن وكان المدرّسون يتقاضون رواتب شهريّة، وقد ساهم انتشار المذهب المالكي، بعد نزوح الشّيعة عن الجزائر والمغرب عامّة، في ازدهار التّعليم، وظهور مدرسة في النّحو العربي على غرار المدارس المشرقيّة كان لها علماؤها الأفذاذ كالجزولي والمرسي اللورقي، وابن آجروم وغيره ممن عايشوا الدّول المختلفة كالمرينيّة والحماديّة والزّيانيّة الحفصيّة وانتقلوا بين مختلف عواصم هذه الدّول ومدن المغرب الإسلامي.

8 –أما الدّولة المرينيّة658ه، فقد أسّسها بنو مرين الذين تعود اصولهم الى زناتة الأوراس، كان موطنهم الأصلي بلاد الزّاب شرق الجزائر وفي مدينة بسكرة بالتّحديد ثم رحلوا الى غرب المغرب الأوسط في تيهرث ثم وهران وتلمسان ومن تم استولوا على المغرب الأقصى ودولة الموحدين وأنهوا حكم الدّولة التي أسسها علي بن عبد المؤمن الكومي النّدرومي الجزائري وفرضوا حكمهم واسسوا دولتهم في المغرب الحالي.

كان المغرب الإسلامي في العصر المريني مالكي المذهب، أشعري العقيدة متخذاً من التّصوف السّني شعاراً له. واشتهرت في الفترة المرينيّة مدرستان صوفيتان أساسيتان، الأولى طريقة أبي مدين شعيب التّلمساني، والثّانيّة طريقة أبي الحسن الشّاذلي، وتفرعت عن طريقة أبي مدين طريقتان انتشرتا في المغرب الأقصى، هما: طريقة الشّيخ أبي محمّد صالح الماجري بآسفي، التي وصل عدد زواياها ستاً وأربعين انتشرت فيما بين المغرب ومصر، لتيسير رحلة الحجاج إلى مكة.[92] وطريقة أبي زكريا الحاحي الذي كان يعرف أتباعها بالحاحيين.

ولذلك يجمع الدّارسون مثلما يذهب إلى ذلك عبد الله العروي «على أن العهد المريني –الحفصي– الزّياني يمثل ذروة الثّقافة العربيّة الإسلاميّة في بلاد المغرب، لأنها لم تعد كما كانت من قبل محصورة في منطقة معربة دون سواها، بل شاركت كل المناطق بنصيبها في حفظها ونشرها ولذلك امتد إشعاعها إلى الجزائر غربا والأندلس شرقا. وقد عرفت حركة التّأليف نشاطاً كبيرا في ميدان الدّراسات الفقهيّة المالكيّة، نظرا لتشجيع الدّولة المرينيّة للفقهاء، فكثرت بذلك التّآليف الفقهيّة، واهتم الفقهاء كثيرا بشرح أمهات الفقه المالكي، كالمدونة الكبرى؛ حيث خصوها بعنايّة خاصّة ورجحوها على غيرها من سائر المصنفات في المذهب المالكي، ويتجلى ذلك في كثرة الشّروح والاختصارات التي وضعت عليها والتي تذكرها كتب الطّبقات والتّراجم بالتّفصيل الدّقيق، ويذكر الإمام المقري كيف كان وزراء بني مرين «لا يسمحون للقاضي تولي القضاء حتى يكون مستظهرا للمدونة النّحويّة، كما لم يكن مسموحا للفقيه بصعود المنبر إذا لم يكن حافظا للمدونة. وظلت كتب النّحو الأساسيّة التي ألفت في عهد المرينيين تدرس حتى القرن العشرين. من العوامل التي ساعدت على التّلاقح الثّقافي مع المشرق حرص المرينيين أكثر من الموحدين على تمتين الوحدة الإسلاميّة مع المشرق حيث تضاعف الاتصال بهذا القطاع عن طريق

السّفارات، وبواسطة ركب الحجاج، مما كان له دخل - إلى حد ما - في التّمهيد لأدب الرّحلات إلى الحج.

وتحول المغرب المريني إلى نقطة استقطاب فكري، حيث تردد طلاب إمبراطوريّة مالي على المراكز الفكريّة المرينيّة، نتيجة لسيادة المذهب المالكي وتمركزت المدارس بفاس ومراكش وغيرها من المغرب الأقصى وكذا في تلمسان، والجزائر. ذلك أن المرينيين كانوا يتوزعون في المغرب الأوسط والأقصى (المغرب والجزائر الحاليين)، عند نهر ملويّة، وصولاً إلى مدينة جرسيف المغربيّة.

تذكر الدّكتورة شميسة غربي في محاضراتها عن الأدب الجزائري القديم أن الشّعر من الأشكال التّعبيريّة الهامّة، خلال هذه الفترة، إلى جانب النّثر الذي تـرَاوَح بين فنّ الخطابة على يد «ابن مـرْزوق الخطيب» والرّحْلة والتّراجم على يدِ «ابن قنفذ القسنطيني».

ومن النّصوص الشّعْريّة لِجزائرِ تِلكَ الفتْرة؛ قول أبي الحسن عليّ الخزاعي التّلمساني، في مدح موسى بن أبي عنان المريني لمّا كبا به فرسُه بالشّمّاعين بفاس إثر صلاته الجمعة بالقروِيّين:

مولاي لا ذنب للشقراء إن عثرت
ومن يلمها لعمري فهو ظالمها
وهالها ما اعتراها من مهابتكم
من أجلِ ذلك لم تثبت قوائمها
ولم تزل عادة الفرسان مُذْ ركبوا
تكبو الجياد ولم تثب عزائمها
في النّبي رسول الله أسوتنا
أعلى النّبيين مقداراً وخاتمها
كبا به فرس أبقى بسقطته
في جنبه خدشة تبدو معالمها
صلّى عليه الإله دائماً أبداً
أزكى صلاة تُحييها نواسمها

ولقد اشتهر الخزاعي بكتابه التّخريج الخاصّ بالمعاملات الإداريّة استند فيه إلى نوع من البحث الاصطلاحي، مثلما يذهب إلى ذلك عبد الحي الكتاني. وقد أبان الخزاعي عن حسّه اللغوي حين قال عن كتابه: «طالعته وضمنته فوائدي في شرح جملة من الألفاظ اللغويّة الواردة فيها، وضبطت ما أشكل فيها بالمواضع التي نقلت منها، جميع ما اشتمل عليه من كتب العلماء رحمهم الله، ليقف عليها هنا من تطمح نفسه لذلك، فأبرأ من عهدة النّقل وأسلم من تبعة النّقد».

ومن نصوص النّثر، نجد تَراجمُ «ابن قنفذ القسنطيني» صاحب كتاب «الوفيات» وهو عينة فريدة في الكتابة الجزائريّة القديمة مثلما تذهب إلى ذلك الدّكتورة شميسة غربي حيث «حرص الرّجلُ على تدوين تواريخ رحيل النّماذج العليا في التّاريخ الإسلامي، مستهلاّ بضبط زمن رحيل النّبي محمّد ، وابْنته فاطمة رضي الله عنها، ثمّ الصّحابة، وأزواج النّبي (بعضهن)، فالمحدثون والمفسرون والمؤلفون، وهكذا حوى مؤلف الوفيات لابن قنفذ ثلاث فئات كبرى تحت مظلة مرجعيّة أساسيّة.

كتَبَ ابن قنفذ في الرّحلة أيضا كتابَهُ المشهور الموْسُوم بـ: «أنْسُ الفقير وعِزُّ الحَقير» ويتحدث فيه عن زيارته للشيخ الصّالح، أبي العباس أحمد بن العاشر الأندلسي، بمدينة «سلا» المغرب الأقصى وذلك سنة 763هـ، ويُحَدّثُ عنْ وُقوفهِ على قبْر «السّبْتي» ثم يُخْبر عن سبب كتابة هذا الكتاب؛ فيُرْجعُ ذلك إلى اهتمامه بالشّيخ العارف الإمام القطب "أبي مدين التّلمساني وبعض الصّوفيّة، ويعد هذا الكتاب نموذجا رفيعا في الرّحلة الصّوفيّة التي تعيد الاعتبار لمفهوم النّموذج الأعلى للإنسان الكامل الذي كان يبحث عنه ابن قنفذ، وتمثله من مجموع النّماذج الصّوفيّة التي زارها أو بحث عنها للالتّقاء بها أو الوقوف عند قبرها.

وهكذا، إذن، ساهمت الدّول التي قامت في المغرب الإسلامي، في نشر اللغة العربيّة وتعريب المجتمع المغاربي، وفي بلاد الجزائر، مثلما يسميها ابن خلدون، فكانت شبكة نفوذ اللغة العربيّة وعلومها، تتسع بذلك التّنافس العلمي والنّشاط الثّقافي المتنوع وبناء المدارس والمكتبات والزّوايا، الأمر الذي أسهم في جعل الأمازيغ يتبنون العربيّة كلغة علم وتواصل في مختلف المناطق، كما كانت لغة تلك الدّول دون أن تنازعها لغة أخرى، مثلما هي عليه في المساجد والزّوايا، والرّباطات، وبات تعلمها بمثابة فرض عين على كل أفراد المجتمع حتى بدأت اللهجات المحليّة في التّواري شيئا فشيئا وحدث تزاوج بينها وبين اللغة العربيّة، وخاصّة عندما أصبح جزءا من التّعليم إجباريا كما سنّه الموحّدون، الذين رفعوا شعار ألا يكون في دولتهم إلا المتعلّمون.

خاتمة:

لقد عرفت اللغة العربيّة اهتماما كبيرا في الدّول التي تم تأسيسها على أرض الجزائر الحاليّة، ولقد بلغ هذا الاهتمام أوجه في أن ساهم أبناؤها في تأسيس مدارس في النّحو وعلم الشّعر والفقه والتّصوف والتّفسير وغيره كابن معطي والنّهشلي وابن رشيق وابن قنفذ والعفيف التّلمساني و**هود بن محكم الهواري**، وابن قاضي ميلة، والمقري، وغيرهم واستحدثوا إلى جانب هذه العلوم والفنون أشكالا تعبيريّة جديدة كالرّحلة والمولديات والمنامات،

ساهمت كلها في الحفاظ على اللغة العربيّة وبقائها، ولذلك تقاس أهميّة اللغة العربيّة وموقعها تاريخ الجزائر القديم، بمستوى الحركة العلميّة والأدبيّة التي ظهرت في الدّول التي عرفتها الجزائر، وما زخرت به مكتباتها من تآليف، وكذا بعدد الكتاب والعلماء الذين كان لهم أثر واضح في توطيد أركان اللغة العربيّة، وتأصيلها في المجتمع الأمازيغي الجزائري.

وباللغة العربيّة وصرحها الذي شيده الأمازيغ، أصبحت الجزائر بحواضرها المختلفة كتيهرت وتلمسان والجزائر والمسيلة وبجايّة وقسنطينة وجزائر بني مزغنة وغيرها، أمّة قائمة تمتد شرقا وغربا وتفيض على أطرافها وعلى أفريقيا بفتوحاتها العلميّة واللغويّة، وكان ذلك من أسباب التّكالب الاستعماري عليها، وكان من بين أهدافه هو طمس اللغة العربيّة التي شكلت رافدا أساسيا في تشكيل الهويّة الجزائريّة العربيّة الأمازيغيّة المسلمة.

ولئن ارتبط سلطان العربيّة بتبنّي الجزائريين الأمازيغ لها، فإن هذه المكانة نفسها هي التي مكنتهم من اكتساب الغلبة لعلاقتها بالدّين الإسلامي، ولذلك ارتبط الاهتمام باللغة العربيّة بالدّعوة الدّينيّة، بمختلف مذاهبها، وكانت العصبيّة الدّينيّة على حد تعبير ابن خلدون أقوى من كل العصبيات، ومثلما لا تزال الأنساب تسقط إلى أصل نسب آخر بقرابة أو بحلف أو ولاء، مثلما رأى ذلك ابن خلدون فكذلك أمر اللغات؛ يسقط بعضها في أصل نسب آخر، ولعل قوة الدّين الإسلامي واعتزاز الأمازيغ به، كان نسبا أقوى من أي حلف أو ولاء، فكانت للغة العربيّة المنعة والعزة بعزة الإسلام في بلاد الجزائر، أو المغرب الأوسط، ولعل ما تمت الإشارة إليه من اهتمام بالتّعليم باللغة العربيّة، أسست له موجّهات تعتبر بمثابة الأسباب التي ساهمت في التّمكين للغة العربيّة، والعمل بها، ولعل الرّحلة إلى المشرق لأداء فريضة الحج كان من العوامل الأساسيّة التي وطدت هذه العلاقة باللغة العربيّة، إضافة إلى ظهور الفرق والمذاهب الإسلاميّة وما دار بينها ومن أجلها من تنافس في التّفقه في اللغة من أجل حسن التّفقه في كتاب الله، دون أن نغفل عصبيّة السّلطان التي جعلت هذه الدّول الأمازيغيّة تثبت قدرتها على السّياسة وعلى التّمكن من اللغة العربيّة وإنشاء نهضات علميّة بها، على الرّغم من الصّراعات والحروب التي ارتبطت بتاريخ هذه الدّول، غير أن اللغة العربيّة كما بدأنا القول، لم تكن طرفا في النّزاع ولا موضوع صراع، بل كانت أداة وموضوعا مقدّسا قداسة الدّين الإسلامي في المغرب الأوسط والإسلامي بعامّة.

• أ.د آمنة بلعلى
جامعة تيزي-وزو

المصادر

1. ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر.
2. الغبريني، عنوان الدّرايّة.
3. مبارك بن محمّد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث.
4. يحيى بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر.
5. محمّد بوركبة، الجزائر الاجتماعيّة في عهد الدّولة الرّستميّة.
6. محمّد عيسى الحريري، الدّولة الرّستميّة بالمغرب الإسلامي
7. عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزّياني

موقف النّخبة الجزائريّة وجهودها حيال اللغة العربيّة

أ.د بوبكر صابري

1 – الحاج محمد بن رحال:

محمد بن رحال رجل علم ودينوسياسة، أديب وباحث، كان تعليمه الأول قرآنيا بمسقط رأسه ندرومة بتلمسان ثم بالمدرسة الفرنسيّة، أرسله والدّه إلى الجزائر العاصمة ليواصل دراسته بالمدرسة السّلطانيّة، وهذا ما غذى ثقافته فكانت ثقافة مزدوجة، وعلى الرّغم من ذلك بدأت ملامح شخصيته تتضح في نهايّة القرن التّاسع عشر عندما دافع بشراسة عن حق أبناء الجزائر في التّعليم باللغة العربيّة، وهنا تجلى موقفه من اللغة العربيّة؛ إذ بالرّغم من قيود المستدمر وجبروته إلا أنه كان يملك الشّجاعة التي بها كان صوته يصدح في المنابرداعيا بكل جرأة إلى ضرورة تعليم اللغة العربيّة للجزائريين، فتكوينه في المدرسة الفرنسيّة لم يمنعه ليكون مدافعا لسِنا وبليغا عن العربيّة.

ويظهر موقفه من العربيّة في مواقفه الميدانيّة؛ إذيشهد عرضه الذي قدمه أمام مجلس الشّيوخ الفرنسي عام 1891 بشأن القضاء الإسلامي، فمن بين ما ورد فيه ضرورة إجادةاللغة العربيّة في ما يتعلق بقضاة السّلم وتكوينهم لمدة سنتين أو ثلاثة، وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على المكانة التي تحتلها اللغة العربيّة عند ابن رحال، وإدراكه للتهميش الذي تعرضت له، فصحيح الاهتمام بالقضاء باللغة العربيّة ييسر تسيير شؤون السّاكنة لكن في الوقت نفسه يمنح فسحة للغة العربيّة حتى تتموقع وتتخذ لها مكانا ولو ضيقا، فهذاالصّنيع فتح له المجال عام 1892 أن يطلب في مراسلة لبعض أعضاء مجلس الشّيوخ بضرورة إصلاح التّعليم وتعريبه عندما انتقد قانون 1866. فانتقد المناهج التّعليميّةالتي غيبت خصوصيّة المجتمع الجزائري، وقدم تصوره للنهوض بالتّعليم الأهلي الذي قوامه اللغة العربيّة مع اعتماد الطّرائق الوظيفيّة والآليات المناسبة لتجاوز التّعليم التّقليدي بوسائل تربويّة فاعلة وإمكانات ماديّة كافيّة تماما كالمدارس الفرنسيّة، ويعد انتقاده لمرسوم 1892 الذي أصدرته السّلطات الفرنسيّة القاضي بإجباريّةالتّعليم ومنع المساجد المجاورة للمدارس الفرنسيّة من استقبال التّلاميذ أثناء أوقات الدّراسة عاملا رفعه إلى تصدر طلائع المدافعينعن التّعليم العربي؛ فمن بين مقترحاته جلب أساتذة من المشرق لصيانة اللسان العربي الذي تراجع في الاستعمال واضمحل استعماله. وطالب بإنشاء مدارس إبتدائيّة في كل قريّة مع ترقيّة اللغة العربيّة وإضافة دروس في الأدب العربي، واقترح الاهتمام باللغة العربيّة باعتباره حافزا لأبناء الأهالي وعاملا لتحريك الهمم للتعلم ككل، وليس هذا فحسب فمن بين مقترحاته في مشروعه على لجنة الأعيان عام 1892 تعيين معلمين فرنسيين ذووي خبرة يتكلمون ويكتبون باللغة العربيّة لتعليم الفرنسيّة والعلوم الابتدائيّة. وقدم في 17 جوان 1921 مداخلة أمام مجلس النّيابات الماليّة حول تعليم اللغة العربيّة حيث عارض فيه تهميش اللغة العربيّة في برنامج بعض المدارس الأساسيّة وعدم وجودها في التّعليم الابتدائي بشكل رسمي، هذا مقتطف منها:

(لا تعلّم العربيّة الابتدائيّة رسميا في أي مكان رغم أن هذه اللغة هي اللغة الأم لعدة ملايين من السّكان المسلمين الذين عليهم كذلك تعلم الفرنسيّة دون أن تحل تماما مكان اللغة الأم. فهل تتصورون شعبا دون لغة يعبر بها عن أفكاره ويدرك بها أفكار الآخرين، ويتثقف بها فكره، ويترجم أحاسيسه ويحسن أخلاقه وبها يحيا وأخيرا يتطور؟). وبذلك يكون في دفاعه عن اللغة العربيّة أن جعلها لغة الأم للملايين من الجزائريين، وهي بذلك لغة تعبير وتواصل وإفصاح عن الفكر، وعامل إدراك لفكر الآخر، وهذا ما يستوجب إيلاءها أهميّة لا تقل شأنا عن اللغة الفرنسيّة ميدانيا، وبدون ذلك تكون الإدارة الفرنسيّة قد سلبت الجزائري مما به يحيا ويتطور ويحسّن أخلاقه.

2 – محمد بن أبي شنب:

كان هذا العالم المثقف الجامعي الجزائري العصري عالما معربا أصيلا

وناقدا أدبيا صارما ومحققا لنصوص تاريخيّة وأدبيّة. فقد اشتهر بين النّاس بتواضعه وميله إلى العزلة، واحتلت اللغة العربيّة عنده مكانة مرموقة، ومن مظاهر ذلك أنه كان ملتزم الحديث باللغة العربيّة في كل المناسبات ما لم تدع الضّرورة لغير ذلك، ومن مظاهر إعجاب العالم باللغة اهتمامه بعلومها والبحث فيها وبها ومن بين اسهاماته:

– كان محمد بن أبي شنب عالما بالعربيّة، متضلعا في علومها وآدابها، يحفظ الكثير من نصوصها ومفرداتها حتى وصف بأنه «معجم يمشي على الأرض «لكثرة محفوظه من مفردات اللغة المدونة بالمعاجم العربيّة وكانت له عنايّة بجميع الكلمات الكثيرة والتّراكيب اللغويّة التي تجري على السّنة الأدباء في القديم والحديث ولم تدون في المعاجم ثم يقوم بدارستها دراسة وافيّة ويحاول ردها إلى أصولها العربيّة، ولم تكن مثل هذه المهمة سهلة بل تحتاج إلى معرفة تامة بالقديم وبصر دقيق بالحديث حتى يستطيع التّوفيق بينهما في سهولة ويسر ودون تعسف أو تلفيق. وحرصه على اللغة العربيّة لم تبرح حياته الاجتماعيّة؛ إذ سجل الدّارسون لشخصيّة الرّجل نهره لابنه ذات مرة قائلا:» ألم نتفق على الحديث بالعربيّة» فإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على مكانة اللغة العربيّة ليس في ميدان البحث العلمي تنظيرا وإنتاجا فحسب، بل حتى استعمالا بحرص شديد على أفراد عائلته.

– ولما كانت لغة الجسد عنوان هويّة الفرد كما أكدت ذلك الأداءات الثقافيّة للدول اليوم، فإن ابن شنب انتبه لوظيفيّة الهندام ودلالاته والدّور الذي يلعبه الهندام الرّسمي للشعوب في الحفاظ على هويّة الأمم، فحرص أن يظهر دائما وأبدا بما يشير إلى هويته العربيّة الإسلاميّة؛ فجاءت أشكال الهندام وألوانه حروفا وكلمات تعيّن لغة الضّاد هويّة وعنوان انتماء وهذا يعتبر طريقة تعبيريّة نضاليّة تصب في خانة التّميز عن المستدمر الفرنسي، وفي ذلك اعتزاز بمكوناته المائزة عن الإدارة الاستدماريّة التي يعمل عندها. فقد كان على الرّغم من تقلده للمناصب العليا والمكانة المرموقة التي وصل إليها محافظا على برنوسه وعمامته وسرواله العريض التّقليدي الجزائري الصّنع في غير رياء ولا غرور. لا يتخلى على هندامه حيثما حلّ، مع كثرة أسفاره إلى أوربا وتمثيله للحكومة الفرنسيّة في عدة مؤتمرات وندوات عالميّة، وفي هذا نستشف وطنيّة الرّجل وقوميته وعروبته، وأكبر دليل على ذلك رفضه للتجنيس والإدماج اللذين أتيحا له. ويتحدد أكثر موقف العلامة من اللغة العربيّة الحرص على استعمالها حتى في المؤتمرات الأوربيّة بالرّغم من إتقانه للغات الأجنبيّة الأخرى، ولا سيما لغة المستعمر.

3 – عبد الحميد بن باديس:

جاهد الإمام عبد الحميد في سبيل أن تكون العربيّة في مكانها الشّرعي في الجزائر، إذ هي لسان دينها، ووعاء قرآنها. وكان يرى أن اللغة أقوى في توحيد الأمة من العرق والدّم.. وفي هذا المجال يقول «... تكاد لا تخلص أمة من الأمم لعرق واحد، وتكاد لا تكون أمة من الأمم لا تتكلم بلسان واحد، فليس الذي يكوّن الأمة ويربط أجزاءها، ويوحد شعورها، ويوجهها إلى غايتها هو هبوطها من سلالة واحدة، وإنّما الذي يفعل ذلك هو تكلمها بلسان واحد. ولو وضعت أخوين شقيقين يتكلم كل واحد منهما بلسان، وشاهدت ما بينهما من اختلاف نظر وتباين قصد، وتباعد تفكير، ثم وضعت شاميا وجزائريا –مثلا– ينطقان باللسان العربي، ورأيت ما بينهما من اتحاد وتقارب في ذلك كله، لو فعلت هذا لأدركت بالمشاهدة الفرق العظيم بين الدّم واللغة في توحيد الأمم» ولهذا البعد السّامي للغة بذل الإمام قصارى جهده في تعليم اللغة العربيّة ونشرها، والحفاظ عليها، وكان يأمر طلبته أن يتحدّثوا ويتحاوروا بها، وكان يدربهم على الخطابة بها حتى تتدرّب السّنتهم بها. وكان من المطالب التي تقدم بها إلى فرنسا أن تعتبر اللغة العربيّة رسميّة مثل اللغة الفرنسيّة، وتكتب بها مع الفرنسيّة جميع المناشير الرّسميّة، ... وتعطي الحريّة في تعليمها في المدارس الحرة مثل اللغة الفرنسيّة.

إنّ الإمام عبد الحميد يعرف أهميّة التّفتح على العالم بتعلم لغات أهله، ولكنه يعلم ما في تعلم الفرنسيّة بالخصوص من الخطورة على العربيّة في الجزائر التي تعاني القهر والهيمنة والاضطهاد قرنا كاملا من الزّمان، ولذلك رفضها، وقد روى المرحوم الشّيخ محمد الصّالح بن عتيق أنَّ الإمام قال ذات يوم: «إني أرضى أن تدخل رصاصة في صدري بدلا من أن تدخل اللغة الفرنسيّة إلى المدارس العربيّة».

ونضال الإمام في إثبات فضل العربيّة ومكانتها في الدّنيا والدّين لم يبرح وجوده في الحياة، وكان يرى في استقلال اللغة مظهر استقلال الذات، ووحدة اللسان جزء من الأمة وسبيل إلى توحيد الرّأي والثقافة، لأنها عامل وجود وعنوان حياة لذلك سعى المستدمر إلى محاربتها

والقضاء عليها، وقد عبّر ابن باديس، عن إصرار أمته وتحديها لمحاولات فرنسا بقوله:» إن الأمة الجزائريّة ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تريد أن تصير فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا لو أرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد، في لغتها، وفي أخلاقها وعنصرها، وفي دينها، لا تريد أن تندمج، ولها وطن محدد معين هو الوطن الجزائري» وأعطى ابن باديس أهميّة بالغة للغة العربيّة في المدارس والكتاتيب التي أنشأها لأن التّعليم يتم بها، وبذلك يُعدّ الجانب التّعليمي والتّربوي من أبرز إسهامات ابن باديس التي لم تقتصر على الصغار، بل شملت الكبار أيضًا، وتطرقت إلى إصلاح التّعليم وتطوير ومناهجه، وكانت المساجد هي الميادين التي يلقي فيها دروسه، مثل الجامع الأخضر، ومسجد سيدي قموش، والجامع الكبير بقسنطينة، وكان التّعليم في هذه المساجد لا يشمل إلا الكبار، في حين اقتصرت الكتاتيب على تحفيظ القرآن للصغار، فعمد ابن باديس إلى تعليم هؤلاء الصّغار بعد خروجهم من كتاتيبهم. وحثّ ابن باديس الجزائريين على تعليم المرأة، وإنقاذها مما هي فيه من الجهل، وتكوينها على أساسٍ من العفة وحسن التّدبير، والشّفقة على الأولاد، وحمّل مسئوليّة جهل المرأة الجزائريّة أولياءها، والعلماء الذين يجب عليهم أن يعلّموا الأمة، رجالها ونساءها، وقرر أنهم آثمون إثمًا كبيرًا إذا فرطوا في هذا الواجب، وهذا ما منح الفرصة للغة العربيّة أن تتوسع أفقيا توسعا يضمن لها الدّخول إلى البيوت الجزائريّة على أوسع نطاق، ونوع من الحظوظ الممنوحة للغة العربيّة حتى تستبدل في الاستعمال عند الجزائريين بالخطب والمواعظ التي كان يقدمها في المناسبات التي كانت تجمع الجزائريين، وعلى أوسع نطاق وأرفعه أنشأ جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين، وما صحبها من فتح للمدارس الحرة على أوسع نطاق، والصّحف والمجلات التي كان لها دور فاعل في الحفاظ على اللغة العربيّة وتوسعها على نطاق نوعيّ هذا على المستوى المحلي، أما على المستوى الخارجي فقد شارك ابن باديس في محاولة إصلاح التّعليم في جامع الزّيتونة بتونس، وبعث بمقترحاته إلى لجنة وضع مناهج الإصلاح التي شكّلها حاكم تونس سنة (1350 هـ=1931م)، وتضمن اقتراحه خلاصة آرائه في التّربيّة والتّعليم، فشمل المواد التي يجب أن يدرسها الملتحق بالجامع، من اللغة والأدب، والعقيدة، والفقه وأصوله، والتّفسير، والحديث، والأخلاق، والتّاريخ، والجغرافيا، ومبادئ الطّبيعة والفلك، والهندسة، وجعل الدّراسة في الزّيتونة تتم على مرحلتين: الأولى تسمى قسم المشاركة، وتستغرق الدّراسة فيه ثماني سنوات، وقسم التّخصص ومدته سنتان، ويضم ثلاثة أفرع: فرع للقضاء والفتوى، وفرع للخطاب والوعظ، وفرع لتخريج الأساتذة. ومادام التّعليم به يقوم على اللغة العربيّة مهما كانت المواد المقررة فيه ففي ذلك خدمة جليلة قدمها الشّيخ للغة العربيّة، ولا سيما هو العارف بمكانة جامع الزّيتونة العلميّة، ونوعيّة قاصديه والمتخرجين منه.

4 – محمد البشير الإبراهيمي:

تلقيه التّعليم الأول تلقيا رصينا على يد عمه المكي – الذي كان عالم الجزائر لوقته، انتهت إليه علوم النّحو والصّرف والفقه في الجزائر، وصار مرجع النّاس وطلاب العلم – جعله يتضلع في ما تلقاه؛ إذ عني بمحمد البشير الإبراهيمي عنايّة فائقةً، وفتح له أبوابًا كثيرةً في العلم، حتى إنه ليحفظ قدرًا كبيرًا من متون اللغة، وعددًا من دواوين فحول الشّعراء، ويقف على علوم البلاغة والفقه والأصول، لما مات عمه تصدَّر هو لتدريس ما تلقاه عليه لزملائه في الدّراسة، وكان عمره أربعة عشر عامًا.

وبعد رحيل وترحال بين مصر والمدينة المنورة ثم سوريا عاد إلى الوطن وبدأ في إلقاء الدّروس العلميّة للطلبة، والدّروس الدّينيّة للجماعات القليلة، وتحرك بين القرى والمدن خطيبًا ومحاضرًا، فأيقظ العقول وبعث الحياة في النّفوس التي أماتها الجهل والتّخلف، ورأى الشّيخ أن دروسه قد أثمرت، وأن النّاس تتطلع إلى المزيد، فشجعه ذلك على إنشاء مدرسة يتدرب فيها الشّباب على الخطابة والكتابة في الصّحف على غرار ما قام به زميله عبد الحميد بن باديس قبله، وقد تعرض لمضايقات كبيرة من المستدمر الفرنسي جراء نشاطه الدّؤوب في هذا، وتردده على المدارس الحرة التّابعة لجمعيّة العلماء المسلمين التي فتحت في القرى والمداشر، هذا ما جعل الإدارة الفرنسيّة تتابعه هو ومعلمي اللغة العربيّة قضائيا وتحرر في حقهم استدعاءات وتخضعهم لتحقيقات كثيرا ما انتهت بالتّوقيف والسّجن، ويجسد ذلك في مقال له في عيون البصائر بالقول: «بدأت دعوة المعلمين إلى المحاكم، ونقدر أنها ستعم لأن أول المطر قطرة، وأن الأحكام ستكون بالغرامة والسّجن، ولكننا سندخل هذه المحاكم برؤوس مرتفعة، وسنستقبل هذه الأحكام بنفوس مطمئنة بالإيمان وسندخل السّجن بأعين قريرة، وسنلتقي مع إخواننا المجرمين

في مجالسّ الأحكام، ومقاعد الاتهام. وحسبنا شرفا أن يكون ذلك في سبيل ديننا ولغتنا، وحسبنا فخرا أن تكون التّهمة فتح مدرسة قرآنيّة بدون رخصة وحسب الاستعمار ديموقراطيّة أن يحاكم معلمي العربيّة والإسلام وبسجنهم على التّعليم كما يحاكم المجرمين وبسجنهم على الإجرام في محكمة واحدة، وسجن واحد.» ولم يضعف دفاع الشّيخ عن اللغة العربيّة وهو في أحلك أيامه فإن أقعده المرض عن أداء واجب التّعليم والوعظ والإرشاد فلم يقعده المرض عن الدّفاع عنها ولو بالكلمة، ؛ إذ صادفه مرة موقف مماثل وهو طريح الفراش وبالرّغم من ذلك لم يضعف في الدّفاع والحث على تعلم اللغة العربيّة قائلا: «أنا مريض، والموضوع طويل عريض وقد أصبحت بين عالمين همّ يتجدد، وطبيب يتشدد، وإنّ حق الضّمير لأوكد عندي من حق الجسد، وليقع الاستعمار أو ليطر فإننا نتعلم لغتنا وديننا، ولو في سمّ الخياط، أو على مثل حدّ الصّراط.» كلام قوي جدا ينم على شدة اقتناع الرّجل باللغة العربيّة وما يجب بذله في شأنها.

وقد ضاعف خدمته للغة العربيّة بتأطيره ما ينشر في المجلات والصّحف التي تصدرها الجمعيّة وتوجيهه لها لِما يخدم القضيّة الوطنيّة، ومسايرة للأحداث ولا سيما نصرة الدّين واللغة ومطالب الشّعب المقهور. وظهر أكثر دفاعه الشّرس عن اللغة العربيّة في المقالات، والمحاضرات والخطب التي كانت تتبع القوانين الجائرة للمستدمر الفرنسي والمستغربين من أبناء وطنه ومن بين ما قاله في اللغة العربيّة:» اللغة العربيّة في القطر الجزائري ليست غريبة ولا دخيلة، بل هي في دارها، وبين حماتها وأنصارها، وهي ممتدة الجذور مع الماضي، مشتدة الأواخي مع الحاضر، طويلة الأفنان في المستقبل، ممتدة مع الماضي لأنها دخلت هذا الوطن مع الإسلام على ألسّنة الفاتحين ترحل برحيلهم وتقيم بإقامتهم. فلما أقام الإسلام بهذا الشّمال الأفريقي إقامة الأبد وضرب بجرانه فيه أقامت معه العربيّة لا تريم ولا تبرح، ما دام الإسلام مقيما لا يتزحزح، ومن ذلك الحين بدأت تتغلغل في النّفوس، وتنساغ في الالسّنة واللهوات، وتنساب بين الشّفاه والأفواه. يزيدها طيبا وعذوبة أن القرآن بها يتلى، وأن الصّلوات بها تبدأ وتختم، فما مضى عليها جيل أو جيلان حتى اتسعت دائرتها، وخالطّت الحواس والشّواعر، وجاوزت الإبانة عن الدّين إلى الإبانة عن الدّنيا، فأصبحت لغة دين ودنيا معا، وجاء دور القلم والتّدوين فدونت بها علوم الإسلام وآدابه وفلسفته وروحانيته، وعرف البربر على طريقها ما لم يكونوا يعرفون، وسعت إليها حكمة اليونان، يستجديها البيان، وتستعديها على الزّمان، فأجدت وأعدت. وطار إلى البربر منها قبس لم تكن لتطيره لغة الرّومان، وزاحمت البربريّة على السّنة البربر فغلبت وبزت، وسلطت سحرها على النّفوس البربريّة فأحالتّها عربيّة، كل ذلك باختيار لا أثر فيه للجبر، واقتناع لا يد فيه للقهر، وديمقراطيّة لا شبح فيها للاستعمار. وكذب وفجر كل من يسمي الفتح الإسلامي استعمارا. وإنما هو راحة من الهم النّاصب، ورحمة من العذاب الواصب، وإنصاف للبربر من الجور الرّوماني البغيض.

من قال إن البربر دخلوا في الإسلام طوعا فقد لزمه القول بأنهم قبلوا العربيّة عفوا، لأنهما شيئان متلازمان حقيقة وواقعا، لا يمكن الفصل بينهما، ومحاول الفصل بينهما كمحاول الفصل بين الفرقدين.» وتتلخص مواقف الشّيخ محمّد البشير الإبراهيميّ من اللغة العربيّة حيال ما يقوم به المستدمر ضدها في مقال نُشر بجريدة البصائر سنة 1947 م، تحت عنوان «جمعيّة العلماء موقفها من السّياسة والسّاسة»، وقد جاء فيه ما يلي: «يا حضرة الاستعمار، إن جمعيّة العلماء تعمل للإسلام بإصلاح عقائده، وتفهيم حقائقه، وإحياء آدابه وتاريخه، وتطالبك بتسليم مساجده وأوقافه إلى أهلها. وتطالبك باستقلال قضائه. وتسمي عدوانك على الإسلام ولسانه ومعابده وقضائه، عدواناً بصريح اللفظ. وتطالبك بحريّة التّعليم العربيّ، وتدافع عن الذاتيّة الجزائريّة، التي هي عبارة عن العروبة والإسلام مجتمعين في وطن. وتعمل لإحياء اللغة العربيّة وآدابها، وتاريخها، في موطن عربي وبين قوم من العرب، وتعمل لتوحيد كلمة المسلمين في الدّين والدّنيا. وتعمل لتمكين أخوة الإسلام العامة بين المسلمين كلهم، وتذكر المسلمين الذين يبلغهم صوتها بحقائق دينهم، وسيَر أعلامهم، وأمجاد تاريخهم، وتعمل لتقويّة رابطة العروبة، بين العربيّ والعربي لأن ذلك طريق لخدمة اللغة والأدب».

وكثيرا ما رد على من كان ينعت اللغة العربيّة بالمتخلفة والضّعيفة قائلا:» لو لم تكن اللغة العربيّة لغة عالميّة لما وسعت علوم العالم، وما العالم إذ ذاك إلا هذه الأمم التي نقل عنها المسلمون . قامت العربيّة في أقل من نصف قرن بترجمة علوم هذه الأمم ونظمها الاجتماعيّة وآدابها فوعت الفلسفة بجميع فروعها، والرّياضيات بجميع أصنافها، والطّب والهندسة والآداب

والاجتماع»، ويواصل قائلا: «لو لم تكن اللغة العربيّة لغة مدنيّة وعمران، ولو لم تكن لغة متسعة الآفاق غنيّة بالمفردات والتّراكيب لما استطاع أسلافكم أن ينقلوا إليها علوم اليونان وآداب فارس والهند» .

خدم محمد البشير الإبراهيمي اللغة العربيّة على أوسع نطاق بسعة معرفته شأنه شأن السّلف الأول من حملة الثقافة الإسلاميّة، فكتب في الأصول والتّشريع الإسلامي، وألف في اللغة وقضاياها الدّقيقة، وفي الأخلاق والفضائل الإسلاميّة، وهو كاتب بليغ ذو أسلوب بديع، يحمل نفس مجاهد وروح مصلح وخيال شاعر وقوة ثائر، وتشهد على ذلك مقالاته النّاريّة التي كان يفتتح بها مجلته الشّهريّة (البصائر)، وله ملحمة رجزيّة نظمها في الفترة التي كان فيها مبعدًا في الصّحراء (الوهرانيّة)، وهي تبلغ ستًا وثلاثين ألف بيت، تتضمن تاريخ الإسلام، ووصفًا لكثير من الفرق التي نشأت في عصره، ومحاورات أدبيّة بين الشّيطان وأوليائه، ووصفًا للاستعمار ومكائده ودسائسه.

ومن مؤلفات الشّيخ التي لا يزال بعضها حبيسًا لم ير النّور:

- عيون البصائر؛ وهي مجموعة مقالاته التي نشرت في جريدة البصائر.
- النّقابات والنّقايات في لغة العرب؛ وهو أثر لغوي يجمع كل ما هو على وزن فعالة من مأثور الشّيء ومرذوله.
- أسرار الضّمائر العربيّة.
- التّسميّة بالمصدر.
- الصّفات التي جاءت على وزن فعل.
- الاطراد والشّذود في العربيّة.
- روايّة كاهنة أوراس.
- حكمة مشروعيّة الزّكاة.
- شعب الإيمان (في الأخلاق والفضائل الإسلاميّة)
- الملحمة الرّجزيّة في التّاريخ.
- فتاوى متناثرة.
- وقد طبعت أخيرًا مجموعة من مؤلفات «البشير» في خمسة مجلدات تحت عنوان «آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي»، وأصدرته دار الغرب الإسلامي.

5 – العربي تبسي:

لم يشذ العلامة العربي تبسي عن زملائه في النّظر إلى اللغة العربيّة؛ إذ كان يرى فيها عنوان الرّجولة الكاملة، ومظهرا من مظاهر السّمو، وبناء المستقبل؛ إذ يقول:» يجب علينا أن نستعد، وأن نكون رجالا يتشرفون بحمل لقب الرّجولة الكاملة، وأن نندفع لفتح المستقبل فتحا مبينا؛ ليسمو الإسلام سموا عظيما، ولتنشر العربيّة انتشارا ذريعا، ولتنسف –إلى غير رجعة– تلك الخرافات والبدع والأباطيل التي هي ضد أخلاقنا، وضد أمتنا، وضد ديننا الحنيف» فاللغة عنده من الدّين؛ فإذا كان الاندفاع إلى نشر الدّين يعد من الفتوحات البيّنة للمستقبل فإن هذا الفتح يستحيل أن يتحقق، وإن تحقق فلا يكتمل دون انتشار اللغة العربيّة انتشارا واسعا كانتشار الدّين.

6 – المبارك الميلي:

بعد تلقيه العلم بمسقط رأسه وبعد سنوات مغتربا عن الوطن وعن مدينته وبعد العمل والنّشاط في قسنطينة والأغواط وبوسعادة، عاد الشّيخ إلى ميلة ليواصل رسالته الجهاديّة في خدمة اللغة العربيّة والوطن فتجند للتربيّة والتّعليم في المسجد والكتاتيب والمدارس الحرة التّابعة لجمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين كما أسهم الشّيخ مبارك الميلي بقلمه السّيال في الحياة الصّحفيّة في الجزائر في عهده، فأظهر نشاطاً بارزاً فيها، وكان أحدَ أبرز الطّاقات التي قامت عليها الصّحافة الإصلاحيّة بصفة خاصّة؛ إذ كان من أول المحررين في «المنتقد» و«الشّهاب» منذ أيامهما الأولى ثم في «السّنة» و«البصائر» التي تولى إدارة تحريرها بعد تخلي الشّيخ الطّيب العقبي عنها سنة 1935.

قال عنه البشير الإبراهيمي في البصائر: «يشهد كلّ من عرف مباركا وذاكروه أو ناظره أو سأله في شيء مما يتذاكر فيه النّاس أو يتناظرون أو يسأل فيه جاهله عالمه أو جاذبه الحديث في أحوال الأمم ووقائع التّاريخ وعوارض الإجتماع، أنّه يخاطب منه عالما أيّ عالم، وأنّه يناظر منه فحل عراك وجدل حكاك، وأنّه يساجل منه بحرا لا تخاض لجّته وحبرا لا تدحض حجّته، وأنّه يرجع منه إلى عقل متين ورأي رصين ودليل لا يضلّ ومنطق لا يختلّ، وقريحة خصبة، وذهن لا نختلف في هذا».

وقال عنه العلامة الفقيه أحمد حماني رحمه الله تعالى: «العلامة الجليل مبارك بن محمد الميلي رحمه الله، أكبر تلاميذ الأستاذ ابن باديس ومدرسته علما وفضلا وكفاءة، واحمد علماء الجزائر وبناة نهضتها العربيّة الإصلاحيّة الأفذاذ، وأوّل من ألّف للجزائر باللغة العربيّة والعاطفة الوطنيّة تاريخا قوميّا وطنيّا نفيسا».

ومن بين ما قاله عن الدّين واللغة العربيّة مخاطبا الأمة الجزائريّة:

«أيتها الأمة الجزائريّة ارجعي إلى دينك فإنك بدونه لا تسعدين، ولن

تسعدي بالإسلام إلا إذا أحكمت اللغة العربيّة ومن يعرض عن اللغة العربيّة فقد أعرض عن ذكر ربه، ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا... إننا بالإسلام وبالعربيّة ننطلق في تحقيق أهداف أخرى لنا، وهيهات أن نوفق إلى الفلاح في ما ننشد من أهداف بدون هذين: العربيّة والإسلام... من رام إصلاح أمة إسلاميّة بغير دينها فقد عرّض وحدتها للانحلال وعرّض جسمها للتلاشي، وصار هادما لعرشها بنيّة تشييده، فلا بناء لأمة الجزائر بدون إسلامها وعربيتها»

– آثاره:

– كتاب «رسالة الشّرك ومظاهره»،

– كتاب «تاريخ الجزائر في القديم والحديث « في ثلاثة أجزاء.

– مقالات بحوث كتبها في جريدة «الجمعيّة»..

7 – عبد الرّحمان شيبان:

مصلح، سياسي، مجاهد، تتلمذ بإحدى قرى بجايّة مسقط رأسه، ثم بمدارس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين الذي أضحى أحد أعمدتها في تسيير شؤونها إلى أن بلغ رئاستها. خدم اللغة العربيّة ورجالاتها علميا وأدبيا وسياسيا فمن بين ما سمعناه على لسانه بالتّسجيل الصّوتي قوله في اللغة العربيّة ومنزلتها: «من أراد الجزائر بدون عربيّة ولا إسلام فنقول له إنك لست جزائريا، بالسّلام اهتدينا، وبه قاومنا، وبه جاهدنا، وبه انتصرنا، وبه نبني حاضرنا ونبني مستقبلنا بإذن الله سبحانه وتعالى. إن الإسلام والعربيّة هما أساس نهضتنا... العربيّة تمتاز من بين سائر اللغات بأنها تمنح الجنسيّة لمن يتكلمها... أي لغة في الأرض تمنح الجنسيّة لمن يتكلمها؛ اللغة الإنكليزيّة تتكلمها أمم لا تنسب إلى بريطانيا، أما العربيّة لأنها لغة الكتاب آخر الكتب، ولغة آخر الرّسل فمن تكلمها فهو عربي؛ لأنها لم تقم على العرق والدّم بل قامت على المعاني والرّوحانيّة، فمن أتقن اللغة العربيّة، ومن تكلم بها فهو عربي مثل كل العرب الصّالحين الصّادقين» وبذلك فالعربيّة عنده هي جنسيّة، تمنحها هي لمتكلمها على خلاف اللغات الأخرى، كما أن اللغة العربيّة لا يمكن بأي حال من الأحوال الفصل بينها وبين الدّين الإسلامي؛ إذ هما من الوطنيّة، فإذا كانت اللغة العربيّة تمنح الجنسيّة لمتكلمها فإن اللغة والدّين لا يمنحان الوطنيّة لفاقدها، ومن أجل هذا عاش العلامة وناضل حتى آخر رمق من حياته.

ويشهد التّاريخ أن للرجل بصمة تاريخيّة سياسيا في ما يعني دستور الجزائر الأول، فقد كان من أعضاء اللجنة المكلفة بإعداد دستور الجزائر، حيث أسهم إسهامات إيجابيّة مع مجموعة من النّواب من أهل العلم والجهاد في جعل الإسلام دين الدّولة و"العربيّة اللغة الوطنيّة الرّسميّة»خلافا للتيار التّغريبي الذي طالب بإصرار بأن يكون«الإسلام دين الشّعب»و"العربيّة لغة الشّعب»حتى لا يكون للدولة الجزائريّة الوليدة أي التّزام بتطبيق تعاليم الإسلام، واستعمال اللغة العربيّة في أجهزة الدّولة. هذا داخليا وخارجيا شارك في ندوات في التّربيّة والتّعليم بـ (اليونسكو)، وكان له شرف المشاركة في الوفد الذي ترأسه معالي الدّكتور أحمد طالب إبراهيمي –وزير التّربيّة الوطنيّة– سنة 1966.

ومن المواضيع الأساسيّة التي كانت مطروحة في تلك الدّورة اعتماد لغة رسميّة خامسة تضاف إلى اللغات العالميّة الأخرى (الإنكليزيّة، الفرنسيّة، الإسبانيّة، الرّوسيّة) وكانت اللغات المرشحة لنيل هذا الشّرف العالمي كثيرة منها: العربيّة، والصّينيّة، والهنديّة، والفارسيّة.

ولكن كانت إيران هي أكبر المرشحين حظا لترسيم لغتها الفارسيّة كلغة عالميّة، وقد حرصت إيران على توفير كل فرص النّجاح لمسعاها ماديا ومعنويا، فسعى الشّيخ عبد الرّحمن شيبان إلى الاتصال بالوفد الإيراني لإقناعهم بسحب ترشيحهم، وكان من بين ما قاله لهم: «إن اللغة العربيّة هي لغة عقيدة وحضارة، قبل أن تكون لغة قوميّة، والدّليل على ذلك أن المساهمة في بناء مجد الحضارة العربيّة الإسلاميّة كانت لشخصيات من أصول فارسيّة، نبغوا في مختلف ميادين الثقافة العربيّة، وإن الوفاء لأولائك العباقرة والتّمجيد الحقيقي لهم، إنما يكون بالدّفاع عن اللغة التي كتبوا بها، وخلدوا ذكرهم ببناء صرح حضارتها، وترقيّة ثقافتها.. فاقتنع الوفد الإيراني وسحبوا ترشيحهم لصالح اللغة العربيّة»

كما سعى مع وفود عربيّة لإقناع الوفد الأمريكي باعتراضه على ترسيم اللغة العربيّة، يؤيدهم في ذلك الاعتراض بريطانيا، وفرنسا، وإسرائيل، ونجح الشّيخ شيبان في هذا المسعى أيضا.

وبذلك صدر في هذه الدّورة 14 قرار اعتماد اللغة العربيّة اللغة الخامسة الرّسميّة لهيئة اليونسكو، على أن يطبق هذا القرار في العام 1968، وقد نشرت جريدة الشّعب البيان بتاريخ 19 نوفمبر 1966، في العدد 1219 تحت عنوان: «العربيّة تصبح لغة رسميّة في منظمة اليونسكو» بأغلبيّة 50 صوتا ضد 11، وامتناع 10 عن التّصويت بعد مناقشات دامت عدة أيام.

وقد خدم الأستاذ عبد الرّحمان شيبان اللغة العربيّة بخدمته للدين من ذلك:

– عضو في المجلس الإسلامي الأعلى، والمشاركة في النّدوات العلميّة والدّينيّة والتّربويّة، داخل الوطن وخارجه، دافع فيها عن اللغة العربيّة واستعمالها في الحياة العامّة والخاصّة.

– عُين وزيرا للشؤون الدّينيّة لمدة ست سنوات (1980 – 1986) حيث أشرف على تنظيم (6) ملتقيات سنويّة للفكر الإسلامي منها: ملتقى للقرآن الكريم، فالسّنة النّبويّة، فالاجتهاد، فالصّحوة الإسلاميّة، فالإسلام والغزو الثقافي، فالإسلام والعلوم الإنسانيّة، مبينا دور اللغة العربيّة في الحفاظ على هويّة الشّعب والوطن.

–عضو من المؤسسين لمجمع الفقه الإسلامي الدّولي ممثلا للجزائر.

–أسهم مساهمة فعالة في تأسيس معهد أصول الدّين بالعاصمة كليّة العلوم الإسلاميّة حاليا.

– بذل جهدا في افتتاح«جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميّة»بقسنطينة، وتعيين الدّاعيّة المصلح الإسلامي المرحوم الشّيخ محمد الغزالي رئيسا لمجلسها العلمي، وتمكينه من إلقاء دروسه المتلفزة المشهورة المتمثلة في حديث الاثنين.

– طبع آثار إمام النّهضة الجزائريّة المرحوم الشّيخ عبد الحميد بن باديس، وفي طليعتها: (مجالسّ التّذكير من كلام الحكيم الخبير، ومجالسّ التّذكير من حديث البشير النّذير)، وهي مجموعة من الآيات القرآنيّة والأحاديث النّبويّة التي نشرها في افتتاحيات مجلته (الشّهاب)

– شجع قراءة صحيح البخاري، روايّة ودرايّة، في مساجد العاصمة وفي أرجاء الجزائر.

– ترأس بعثات الحج الجزائريّة إلى الأراضي المقدسة (1986–1980):

– أسهم في تجديد نشاط جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين منذ 1991 بعد صدور الإذن بتكوين مختلف هيئات المجتمع المدني، حيث كان النّائب الأول لرئيس الجمعيّة الشّيخ أحمد حماني – رحمة الله عليه–، ورئيسا لتحرير البصائر لسان حالها.

– داوم على إلقاء دروس دينيّة في التّفسير، والحديث، والسّيرة النّبويّة، والتّاريخ الإسلامي، في المساجد، والمراكز الثقافيّة في العاصمة وغيرها.

– تولى رئاسة جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين، وإدارة جريدة البصائر الأسبوعيّة، لسان حال الجمعيّة منذ سنة 1999 م وعلى صفحاتها دافع كما لم يدافع أحد قبله عن الجمعيّة ورد الشّبهات حولها في سلسلة من المقالات تحت عنوان (حقائق وأباطيل) .

–استرجع في 27 جانفي 2002 (نادي التّرقي) التّاريخي الذي وُلدت في أحضانه جمعيّة العلماء بالعاصمة سنة 1931 فاستأنف نشاطاته بمحاضرات أسبوعيّة.

–بعث تراث جمعيّة العلماء المتمثل في جرائدها: الشّريعة، السّنة، الصّراط، الشّهاب، والبصائر كاملة (12 مجلدا)

– أسس وأشرف على شُعب جمعيّة العلماء في مختلف الولايات.

بعض ما قيل عن الشّيخ وجهوده:

منذ ربع قرن كتب الشّيخ الشّاعر موسى الأحمدي نويوات –رحمة الله عليه– في مجلة الثقافة تحت عنوان: «من ذكريات الماضي»

فقال: «فتح المعهد أبوابه لتلاميذه في شهر ديسمبر 1947، وبالمعهد أساتذة مدرسون يتقاضون أجورا شهريّة محترمة من دخل المعهد... ومن ضمن أساتذة المعهد الأستاذ عبد الرّحمن شيبان، الذي كان والدّه يسهم بنصيب وافر من ماله للمعهد... ويُعير من خزانة كتبه للطلبة الفقراء ما يوافق مشاربهم، وينمي معلوماتهم، فلفتت أريحيته وعطفه على الطّلبة انتباه زميله بالمعهد المرحوم الشّيخ نعيم النّعيمي، فمدحه بقصيدة جاء فيها:

لآل شيبان من دون الورى همم
تستغرق النّثر مختارا وما نظموا
فوق السّماكين حلت غير آبهة
بمن يظل –من البغضاء– يضطرم
الأصل والفرع ملزوزان في قرن
حيث المكارم والأحساب والشّيمُ
وإن طلبت دليلا فالفتى عبد الرّحما
ـن خير مثال تحتذي الأمم
يُنبيك عن طيب أصل حسنُ طلعته
وتدرك النّبل فيه حين يبتسم
لو مدَّ راحته يوما لدا جِيّة
زالتّ على الفور وانجابت به الظّلَمُ
عمت فواضله العافين فاتسعت
آفاق فِكر به له علت قيمُ
فلا أخو الشّرق محظيا لديه ولا
ذو الغرب أحظى، ولا عُرب ولا عجمُ
مدحتُه وهو أهل للمديح ومن
ينكر مديحي له أودت به الغُمم»

ويقول عنه الأستاذ الشّاعر محمد الأخضر السّائحي ما يلي:

شيبانُ ! يا بانِيَ الأمجادِ في وطني
رعاكَ ربُك يا شيبانُ من باني
أقررتَ عين ابن باديس بمضجعه
فراح يختال في محرابه الثاني
حامى عن الدّين في صبرٍ وفي جلدٍ
لم يُثنِه عن أمورٍ سنها ثاني
لولاك شيبانُ ضاع الأمس وانقطعت
أسباب ماض لنا كالشّمس ضحيان

ولا تـردد في أرجـاء مدرسـة
تاريخ عقبة، أو تاريخ حسـان
وقفت وحدك في الميدان منفـردا
ولم تزل واقفا في كل ميـدان
سيذكر الغد والأجيال ما خرست
عن ذكـره اليوم أفـواه لآذان

كمـا كتبـت عنـه مؤسسـة إعلاميّة تسـمى: (indigo-publications) فـي عدد خاصّ بالجزائـر تحت عنوان: (الجزائر ورجـال الحكـم) (Algérie les hommes du pouvoir) مقـال في الصّفحة 73: «عبد الرّحمن شـيبان رئيس جمعيّـة العلماء المسـلمين (حـارس القيم الإسـلاميّة (Le gardien des valeurs Islamiques)».

– كتب عنه الدّكتـور يحيى الغوثاني المشـرف العـامّ لمنتـدى البحـوث والدّراسات القرآنيّة سنة 2006 ما يلي:

«...التّقيـت بعـدد مـن العلمـاء المعمريـن الذيـن أدركوا الشّـيخ عبد الحميـد بـن باديس، والشّـيخ البشـير الإبراهيمي، ومن هؤلاء العلامة المعمر الكبير الشّـيخ عبد الرّحمن شيبان، هذا الرّجل الـذي يبدو عليه أنه شـاب، لما يحتويـه بين جوانحه من همة ونشـاط، وحب لهذه الدّعوة.

اسـتقبلني في مقـر جمعيّـة العلماء المسـلمين الجزائريين، ورحـب بـي ترحيبا كبيرا.

... تلـك الجمعيّـة المباركـة التـي تكالـب عليهـا الموتـورون والحاقدون والجاحدون لتجريدها من دورها الحاسم في مسيرة الثورة الجزائريّة، ونجاحها.»

وكتب الشّهيد أحمد رضا حوحو :

«الشّـيخ عبـد الرّحمـن شـيبان، ديمقراطي الأفكار إلى حد بعيد، ولكنه أرسـتقراطي الشّـخصيّة إلى حـد بعيد أيضا! ومنشـأ هذا التّناقض العجيب هو أن صاحبنا نشـأ في أسـرة أرستقراطيّة، مثاليّـة في التّحفـظ، والتّقاليد، ثم انتقل إلى بيئـة الطّلبـة الدّيمقراطيّة، وحياتهم الشّـعبيّة الحرة، فتغذى بهـذه المبادئ، فآمـن بها دون أن يقطـع صلته بماضيه، وتقاليد أسـرته وذويه.. لكـن أدبه يمثل الجانب الدّيمقراطي منه فقط.

الأسـتاذ شـيبان، أديب يمتـاز بدقة الملاحظـة، ورقـة الشّـعور، وتوقـد الإحسـاس.. ومن هنا تبدو لـك أناقته فـي الأدب، في مطالعاته، في أسـلوبه، في مناقشاته، كما تبدو أناقته في ملبسه، وهندامه.

شـاب في العقد الرّابع، فارع الطّول، قـوي البُنيّـة، أنيـق الملبـس، لطيـف المعشـر، ظريف المظهـر، والمخبر... كثير الثقة بأصدقائه، لكنه كثير الحذر»

وقـد أجـازه بمروياتهـم العلميّـة وأسانيدهم، العلماء الآتيّة أسماؤهم:

– العالـم المكّـي المرحوم الشّـيخ محمد العلوي.

– فضيلة الشّيخ العلامة مفتي سوريا الأسبق المرحوم الشّيخ أحمد كفتارو..

– وسماحة الأسـتاذ الدّكتور محمد الحبيب بلخوجة الأميـن العامّ لمجمع الفقه الإسلامي .

ويعتبر عبد الرّحمان شـيبان من أبرز المدافعين عن اللغة العربيّة ورجالها بعد الاستقلال إلى جانب مولود قاسم نايت بلقاسـم، بكل ما أوتي من حكمة وتبصر وقوة إقناع، وهـو رجل ميدان بأتم معنى الكلمة؛ إذ استغل المناصب العديدة التي وكلت إليه لخدمة اللغـة العربيّة والدّين في ما يعود بالنّفع على الوطن والشّعب.

08 – مولود قاسم نايت بلقاسم:

هو أحـد عمالقة الفكر فـي الجزائر، ومـن كبار العلمـاء الذيـن أنجبهم هذا البلـد، أمازيغـي، ابـن فـلاح، مجاهد فـي ثـورة التّحرير، ومناضل نشـط في الدّفـاع عن قضايا وطنـه العادلة، عاش حاملا لمشـروع التّعريب فـي الجزائر بعـد الاسـتقلال. وهـو أحـد رمـوز الثقافـة الجزائريّـة، وراعي«ملتقيـات الفكر الإسـلاميّ»في سـبعينيات القرن الماضي، المثقف الموسـوعي العاشق لوطنـه تاريـخ الجزائر لم يشـهد رجلا مدافعا عن اللغة العربيّة بجرأة مثله .

عندمـا نالتّ الجزائر اسـتقلالها تبين أن البـلاد كانت بحاجة إلـى وقفة رجل شـجاع للنهوض باللغـة العربيّة بعد 132 سـنة من الاستعمار واسـتكمالا لجهود الشّيخين عبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمي، اللذين أسسا جمعيّة العلماء المسـلمين الجزائريين مطلع ثلاثينيات القـرن الماضـي بجهـود متواضعة، لم تسـتطع وقف المدّ الكبير للغة الفرنسيّة في الجزائر، وكان مولود قاسـم يتحدى الفرنكوفونييـن ويقول لهـم: «إن اللغة العربيّة كانت لغة العالم في يوم من الأيام، وإنها كانت تقود العقول وتطور العلوم».

كان العلامة الرّاحل مسـكونا بمصير اللغـة العربيّة وبهموم الأمة الإسـلاميّة، لذلـك كان دائما يحـث أبناءه على حب الإسلام وتعلم اللغة العربيّة، وكان رجلا محبا لانتمائه العربي الإسلامي، ومعتزا بأصله الأمازيغي، فهـو الأمازيغي الذي خدم العربيّة كما لم يخدمها أحد قبله ولا بعده ورغم أنخراطه في التّعريب أكثر من غيره، إلا أنه ظل رافضـا لكل النّظريات الفكريّة القوميّة والبعثيّـة التي أرادت أن تجعل مـن اللغة دينا. فهو يـرى في هذا السّـياق أن «اللغة هي رمز وجود الأمة، وبقدر أصالة اللغة، والمحافظة على اللغة الأصيلـة أو فقدانهـا تكـون المجموعة البشريّة أمة وشعبا أصيلا أو مجرد أشتات فحسب.»

يؤكد نجله الدّكتور يوغرطة مولود قاسم إن أباه كان محبا للغة العربيّة ومدافعا كبيرا عنها، وإنّه كان انعزل وحده في حزن عميق حين تم التّراجع عن «قانون التّعريب» عامّ 1992، وكان قد أحرز تقدما كبيرا في عهد الرّئيس الرّاحل هواري بومدين، ويقول يوغرطة أن أباه كان شديدا مع أبنائه في دعوتهم لتعلم اللغة العربيّة، فكان يأمرهم بالمطالعة حتى عند الحلاق.

وشغل مولود قاسم عدة مناصب ساميّة في الدّولة، فقد كان وزيرا للتعليم والشؤون الدّينيّة ومستشارا للرئيس ومسؤولا مكلفا بتعميم استعمال اللغة العربيّة في الجزائر، وقد جلبت له مواقفه الكثير من الخصومات من التيارات المناهضة لعروبة الجزائر، رغم أنه كان يرى أن الدّفاع عن العربيّة لغة للجزائريين، يرافقه دائما التّمسك بالأصول الأمازيغيّة للشعب، الذي عليه الافتخار بتاريخ أجداده.

يتقن لغات أجنبيّة عديدة؛ إذ يكتب ويحاضر بخمس لغات هي: العربيّة والفرنسيّة والإنكليزيّة والألمانيّة والسّويديّة. وعلى الرّغم من إتقانه لكل تلك اللغات، تمسك مولود قاسم باللغة العربيّة، وخاض معركة التّعريب في الجزائر بنفس طويل، وكتب عدة مقالات دافع فيها بشكل علمي عن اللغة العربيّة كرمز من رموزنا الحضاريّة العليا، وهو ما أوجع نفوس «بعض» الفرنكوفونيين الذين واجههم مولود قاسم بروح النّقد اللاذع بمنطلق حماسي انفعالي أحيانا، لكنه لا يخلو من وعي راسخ بجوهر هذه المسألة.

لهذه الأسباب، تبنى مشروع التّعريب كمشروع إصلاحي، وواجه المد الفرنكوفوني، وكانت له مواقف وقرارات خالدّة؛ فأول قرار اتخذه مولود قاسم حين تم تعيينه كوزير سنة 1970، أن لا يوقع أيّة وثيقة جزائريّة مكتوبة بالفرنسيّة، أما القرار الثاني فلا يرد ولا يقرأ أي بريد باللغة الأجنبيّة مهما كان مصدر الرّسالة، ولم يتنازل عن هذا الموقف رغم تدخل الرّئيس هواري بومدين، بل رفض التّنازل عن قراراته الدّاعمة للغة العربيّة، ووصل به الأمر إلى الإشراف على صدور قانون تعميم استعمال اللغة العربيّة في الوزارات ومختلف القطاعات، وكان صارما في تطبيقه إلى أن ألفت الإدارة التّعامل باللغة العربيّة.

كما تحكي روايات تتحدث عن اهتمامه البالغ باللغة العربيّة، بأنه كان يجوب الشّوارع بسيارته حاملا معه علبة «طلاء» يصحح بها أخطاء على جدران محلات البيع واللافتات والفضاءات الاشهاريّة ويعمد إلى إعادة كتابة مضامينها المخطوطة بالفرنسيّة ويستبدلها باللغة العربيّة. وأشهد أنا كاتب هذه السّطور في ملتقى مغاربي بجامعة قسنطينة حول التّعريب، صرح أن فاتورة الماء والغاز والكهرباء كانت الإدارة تحرص أن تصله باللغة العربيّة دفعا لكل مواجهة معه في هذه القضيّة، في حين جيرانه تصلهم باللغة الفرنسيّة.

يعتبر مولود قاسم شخصيّة متعددة المواهب ومكسبا للجزائر، حيث أسهم في إثراء الحياة العامّة بفكره الذي يدافع عن الأصالة والانتماء العربي والإسلامي وللأمازيغيّة، والانفتاح على العالم، وقد قام بجلب كتب اللغة العربيّة من دمشق وبغداد وزود بها المؤسسات والمكتبات الجزائريّة لرعايّة مشروع تعريب الجامعة الجزائريّة. كما أسهم في تقديم صورة جميلة عن الجزائر العريقة التي تحافظ على التّقاليد وتسعى نحو الحداثة والعصرنة، فقد كان يسعى للمزاوجة بين مسعى ترسيخ قيم الإسلام والعروبة وتوطين الحداثة والتّقدم.

وعند توليه الإشراف على ملتقيات الفكر الإسلامي العالميّة، استورد المراجع والكتب العلميّة من سوريا والعراق لتعريب الجامعة الجزائريّة، كما أشرف على إصدار مجلة «الأصالة"، وألّف العديد من الكتب، التي أسهمت في إبراز دور اللغة العربيّة في التّقدم وبناء الحضارة العربيّة والإسلاميّة في العالم، مثل كتاب «إنيّة وأصالة» و"أصاليّة أم انفصاليّة» و"شخصيّة الجزائر الدّوليّة".

ولأن المفكر مولود قاسم كان صريحا جدا، ولا يخفي آراءه وأفكاره بل يجاهر بها في أي مقام ومقال، حدثت له العديد من المواقف الطّريفة في جلسات وسفريات رسميّة، جمع فيها مولود قاسم بين الصّراحة والدّعابة وعزة النّفس، ففي إحدى جلسات مجلس الوزراء التي يحضرها الرّئيس هواري بومدين، وعندما جاء دور وزير الخارجيّة آنذاك عبد العزيز بوتفليقة ألقى كلمته باللغة الفرنسيّة، فلما جاء دور مولود قاسم كوزير للشؤون الدّينيّة تحدث باللغة الألمانيّة فتفاجأ الجميع وضحك الرّئيس بومدين وقال له: «لماذا تفعل بنا هكذا يا سي مولود ومن سيفهمك الآن؟"، فأجابه مولود قاسم غاضبا: «من حقي أن أتكلم بأي لغة مادمتَ سمحتَ لبوتفليقة بالتّحدث بغير اللغة الرّسميّة للبلد"، فقرر بومدين منذ ذلك الحين أن لا أحد من الوزراء يتكلم بغير العربيّة في مجلس الوزراء.

09 – أحمد رضا حوحو:

تجلت مواقف أحمد رضا حوحو من اللغة العربيّة وهو في المدينة المنورة، حين التّحق الشّاب بمدرسة العلوم

الشّرعيّة في عام 1934، ليتخرج فيها بعد أربع حجج، وقد اعترف حوحو بفضل هذه المدرسة عليه، فكتب مقالا عنها تحت عنوان«اعتراف بالجميل"، ومما جاء في هذا المقال: «لقد تربيت يامدرستي العزيزة في مدارس أجنبيّة، واكترعت من علوم أجنبيّة كنت مغترا بها، ظانا أنها العلوم التي يفتخر بها الإنسان، وبها تكون سعادته، ولمّا منّ الله عليّ بالهجرة إلى هذه الدّيار المقدسة.. وجدت نفسي غريبا بين قومي، شاذا في معلوماتي، متطرفا في أفكاري، وحيدا في عاداتي، فريدا في أطواري، فأدركت آنئذ أني كنت تائها في بيداء الغرور، غارقا في بحر الأوهام، وعلمت ساعتئذ أنه لا فخر للإنسان إلا بلغته وقوميته، أنه لا شرف له إلا بعلومه وآدابه، وأصبحت من يومي أطوف يمينا وشمالا باحثا عمن يعلمني لغتي، مفتشا عمن يعلمني علوم قومي وآدابهم..» فالأديب يرى في اللغة العربيّة شرفا وجهلها وجهل علومها تجعل المعني شاذا في معلوماته تائها في حياته؛ فلا علم يستقيم إلا بتعلمها ولا فكر يستنير إلا بنورها، لذلك سعى سعيا جادا في تعلمها وتعلم علومها. (أنظر المقال في: صالح خرفي –المرجع السّابق – صص 266 – 267).

10– عبد الرّحمان حاج صالح:

أحد أعمدة اللسانيات في الوطن العربي، وأبو اللسانيات في الجزائر صال وجال داخل الوطن وخارجه طلبا للعلم والمعرفة. تنوع مصادر معرفته وتنوع التّخصصات التي واظب على طلب العلم فيها مكنتاه من خدمة اللغة العربيّة في مسار توازى فيه عمره الحياتي؛ فخدم اللغة العربيّة أيما خدمة، مستغلا تضلعه فيها وثقافته الثريّة وإتقانه اللغات الأجنبيّة، فحيثما حلّ وارتحل، ومهما كان المنصب الذي تولاه في شأنها كان نافعا لها؛ فبعد حصوله على التّبريز في اللغة العربيّة أوكل إليه الإخوة في المغرب تدريس اللسانيات في كليّة الآداب بالرّباط باللغة العربيّة في 1961م/ 1962 (لأول مرة في المغرب العربي)، وهذا ما جعل اللغة العربيّة تتفتح على عوالم أخرى خدمتها وارتقت بها إلى مصاف اللغات الأخرى.

وبعد الاستقلال قضى حياته أستاذًا وباحثًا في جامعة الجزائر، وعيّن في سنة 1964م رئيسًا لقسم اللغة العربيّة وقسم اللسانيات، ثم انتخب عميدًا لكليّة الآداب، وبقي على رأس هذه الكليّة إلى غايّة 1968م. وفي سنة 1968 كان أستاذا زائراً بجامعة فلوريدا، وتفرغ بعد ذلك للدراسة والبحث في علوم اللسان حيث استطاع بمساعدة الدّكتور أحمد طالب الإبراهيمي (وزير التّربيّة آنذاك) أن ينشئ معهدًا كبيرًا للعلوم اللسانيّة والصّوتيّة وجهّزه بأحدث الأجهزة وأسس أيضًا مجلة اللسانيات المشهورة. وفي هذا المعهد واصل الأستاذ بحوثه بفضل المختبرات المتطورة الموجودة فيه وأخرج تلك النّظريّة التي لقبت في الخارج «بالنّظريّة الخليليّة الحديثة»(وهي مطروحة في الرّسالة التي نال بها دكتوراه الدّولة في اللسانيات من جامعة السّوربون في سنة 1979م).

وفي عام 1980م أنشأ ماجستير علوم اللسان وهو نسيج وحده لأنه متعدد التّخصصات، وقد نوقشت عشرات الرّسائل منذ أن أنشئ. وبقي معهد اللسانيات والصّوتيات سابقًا صامدًا يؤدي مهامه بفضل سهر الأستاذ على النّوعيّة العلميّة التي كان يهتم بتخريجها.

وقد تولدت لديه فكرة أطروحة الدّكتوراه التي أنجزها بعد عناء عشر سنوات من البحث والتّنقيب حول أصالة النّحو العربي، واهتدى آنذاك إلى مشروع الذخيرة اللغويّة العربيّة عن طريق البرمجة الحاسوبيّة، وكان أول عالم عربي يدعو إلى ذلك المشروع، كما كان أول الدّاعين إلى تبني المنهج البنوي وإنشاء محرك بحث عربي « قوقل google عربي» وفي سنة 1988عين الدّكتور عبد الرّحمن الحاج صالح عضوًا مراسلاً بمجمع اللغة العربيّة بالقاهرة، ثم انتخب عضوًا عاملاً به سنة 2003م في المكان الذي خلا بوفاة الدّكتور إبراهيم السّامرائي، وسبق ذلك أن عُيِّن عضوًا في مجمع دمشق في 1978م، ومجمع بغداد (1980م) ومجمع عمّان (1984م).

وهو عضو في عدة مجالس علميّة دوليّة وعضو أيضًا في لجنة تحرير المجلة الألمانيّة التي تصدر ببرلين.

الإنتاج العلمي والمنشورات:

للدكتور الحاج صالح عديد البحوث والدّراسات نشرت في مختلف المجلات العلميّة المتخصصة (بالعربيّة والفرنسيّة والإنكليزيّة) منها:

– «معجم علوم اللسان»، (بالمشاركة)، مكتب تنسيق التّعريب، 1992م.

– «علم اللسان العربي وعلم اللسان العام» (في مجلدين)، الجزائر.

– مقالة «لغة» و مقالة «معارف» في دائرة المعارف الإسلاميّة الطّبعة الجديدة.

– «بحوث ودراسات في علوم اللسان»، (عربيّة وفرنسيّة وإنكليزيّة) بالجزائر2012. يضم الكتاب سلسلة من البحوث والدّراسات نشرت في مجلة ((اللسانيات في تاريخ علم اللسان من أقدم العصور)) ويحتوي أيضا على

بحوث نشرت في مختلف المجلات الدّوليّة في علوم اللسان باللغة الأجنبيّة، ولاسيما الدّراسات المخبريّة.

– بحوث ودراسات في اللسانيات العربيّة في جزأين الجزائر2012. يضم مجموعة من الدّراسات تخص اللسانيات العربيّة والكثير منها كان أصله بحثا قدمه العلامة في مؤتمر علمي دولي مثل المؤتمرات الدّوريّة لمجمع اللغة العربيّة بالقاهرة وغيرها (من1965 إلى2005) ومن أهم ما جاء فيها البحوث التي تعالج النّظريّة الخليليّة الحديثة.

– الخطاب والتّخاطب في نظريّة الوضع والاستعمال العربيّة، الجزائر 2012. وفيه وضح المفاهيم العلميّة التي تخص الكلام كحدث في مقابل اللغة كنظام في إطار نظريّة الوضع والاستعمال العربيّة وبصفة خاصّة ما يتعلق بالخطاب وظواهر التّخاطب وأوصافه وأصوله.

– السّماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة. الجزائر.

– **أربع مقالات:** الخليل بن أحمد، والأخفش، وابن السّراج، والسّهيلي، في موسوعة أعلام العرب (المنظمة العربيّة للتربيّة والثقافة والعلوم).

وعيّن رئيسًا للمجمع الجزائري للغة العربيّة سنة 2000م، وقد تحصل على جائزة الملك فيصل عام 2010 تقديراً لجهوده العلميّة المتميزة في تحليله النّظريّة الخليليّة النّحويّة وعلاقتها بالدّراسات اللسانيّة المعاصرة، ودفاعه عن أصالة النّحو العربي، وإجرائه مقارنات علميّة بين التّراث ومختلف النّظريات في هذا الموضوع، فضلا عن مشاركاته في الدّراسات اللسانيّة بحثاً وتقويماً وتعليماً، وجهوده البارزة في حركة التّعريب.

نشاطه المجمعي:

منذ أن عين الدّكتور عبد الرّحمن الحاج صالح عضوًا بالمجمع وهو يشارك في مؤتمرات المجمع بالأبحاث وبإلقاء المحاضرات، ومنها:

– «أصول تصحيح القراءة عند مؤلفي كتب القراءات وعلوم القرآن قبل القرن الرّابع الهجري». (مجلة المجمع ج 90).

– «الجوانب العلميّة المعاصرة لتراث الخليل وسيبويه». (مجلة المجمع ج 92).

– «تأثير الإعلام المسموع في اللغة العربيّة، وكيفيّة استثماره لصالح العربيّة». (مجلة المجمع ج 94).

– «تأثير النّظريات العلميّة اللغويّة المتبادل بين الشّرق والغرب: إيجابياته وسلبياته». (مجلة المجمع ج 96).

– «المعجم العربي والاستعمال الحقيقي للغة العربيّة». (مجلة المجمع ج 98).

– «حوسبة التّراث العربي والإنتاج الفكري العربي في ذخيرة محوسبة واحدة، كمشروع قومي». (مجلة المجمع ج 103).

وتعبر النّظريّة الخليليّة الحديثة لعبد الرّحمن الحاج صالح من أبرز ما يمثل لسانيات التّراث في الفكر العربي المغاربي المعاصر لقيامها على أسس أصيلة تميز النّظريّة من غيرها هي «الأصالة، والتّحكم في المنهج الامتداد الزّماني والمكاني، والتّطور في المفاهيم وصلاحها لكثير من اللغات، ولها أتباع ومريدون» ويشير صاحبها إلى أن موضوعها اعتمد على» ما وصل إلينا من تراث في ما يخص ميدان اللغة، وبخاصّة ما تركه لنا سيبويه(180ه) وأتباعه ممن ينتمي إلى المدرسة التي سماها بالخليليّة وكل ذلك بالنّظر في الوقت نفسه إلى ما توصلت إليه اللسانيات الغربيّة»، ويتحدد بذلك موضوع هذه النّظريّة في مقارنة حصيلة الدّراسات اللغويّة القديمة بنتائج اللسانيات، وفي تصريح آخر يشير صاحب النّظريّة إلى معالم المنهج المعتمد لتناول هذا الموضوع بالدّراسة، ويحدده في «قراءة جديدة لما تركه الخليل بن أحمد الفراهيدي (170ه) وتلميذه سيبويه خاصّة، وجميع من جاء بعدهما من النّحاة الذين اعتمدوا في بحوثهم على كتاب سيبويه، إلى غايّة القرن الرّابع، كشروح كتاب سيبويه وغيره أضف إلى ذلك البحوث التي كتبها بعض العباقرة من العلماء كالسّهيلي (581ه) وعبد القاهر الجرجاني(471ه) والرّضي الأستراباذي (686ه) وغيرهم» في حين يفصح عن غايّة هذه النّظريّة بالقول :» تقويم النّظريّة اللغويّة العربيّة التي كانت أساسا لأغلب ما يقوله سيبويه وشيوخه، ولا سيما الخليل وكيفيّة مواصلة هذه الجهود الأصيلة في الوقت الرّاهن، ويبدأ بوصف المبادئ المنهجيّة التي بنيت عليها هذه النّظريّة، وذلك بالمقارنة بين المبادئ التي تأسست عليها اللسانيات الحديثة وخاصّة البنويّة والنّحو التّوليدي التّحويلي وبين هذه النّظريّة» مبديا ولاءه المطلق للنظريّة اللغويّة العربيّة الذي يشكل التّراث الرّافد الأصيل لها، وجاءت بأسس إجرائيّة حددت به المفاهيم وفق منطق علمي رياضي بنيت عليه، وهذا ما أهلها لتكون أعم وأشمل من النّظريّة اللسانيّة البنويّة والنّظريّة اللسانيّة التّوليديّة التّحويليّة، نقاط فارقة جعلتها مدعاة لتسليط الضّوء عليها ومقارنتها مع النّظريات اللسانيّة الحديثة. وبالعودة إلى التّراث اللغوي العربي والتّعمق في ما تركه السّلف تمكن العلامة من استخلاص مقاييس النّظريّة النّحويّة العربيّة وبنى عليه نموذج لساني حديث مؤهل لإثراء اللغة العربيّة على مستوى التّنظير وخدمتها على مستوى التّطبيق هذا من جهة، ومن جهة أخرى لإظهار قيمتها وانفرادها بالسّبق في الطّرح مقارنتها بغير ها من النّظريات

اللسانيّة الغربيّة التي برزت عند الغرب أضحى إجراء لابد منه. وفي موضع آخر يشير إلى المفاهيم الأساسيّة التي بنيت عليها النّظريّة وكيفيّة استغلالها حيث يقول:» اعتمد العلماء العرب- وزعيمهم في ذلك الخليل- على عدد من المفاهيم والمبادئ لتحليل اللغة وأهمها هي: - مفهوم الاستقامة وما إليها وما يترتب على ذلك من التّفريق المطلق بين ما يرجع إلى اللفظ وبين ما هو خاصّ بالمعنى.

- مفهوم الانفراد في التّحليل وما يتفرع من هذا المفهوم.

- مفهوما الموضع والعلامة العدميّة.

- مفهوما اللفظة والعامل.»

نتج عن مفهوم الاستقامة التّمييز بين اللفظ والمعنى، وتحديد العلمين اللذين يدرسانهما فإذا كان الأول موضوعا للنحو فالثاني مؤهل ليكون موضوعا للبلاغة.

ونتج عن مفهوم الانفراد إظهار الحدود الحقيقيّة التي تحصل في الكلام فالمنطلق الواقعي في ذلك هو اللفظة بخلاف التّوليديين الذين ينطلقون من الجملة. واللفظة يمكن أن تنفصل ويمكن أن يبتدأ بها وهذا ما يجعلها تتسم بصفة الانفراد وبذلك فهي الأصل وما يمتد منها هو الفرع والأوجب أن يتم الانطلاق من الأصل أو لنقل من أقل ما ينطق به مما ينفصل ويبتدأ.

ونتج عن تحديد مفهوم الوضع اختلاف النّواة التي يمكن أن تكون اسميّة أو فعليّة، وحسب طبيعة النّواة تتحدد مواضع العناصر اللغويّة (الوحدات) وتتعين مواضعها.

ومفهوم العلامة العدميّة نتج في حقيقة الأمر من مفهوم الوضع، فخلو الموضع من العناصر التّفريعيّة التي تتفرع إليها النّواة هو خلو من العلامة، وهو ما سماه بالعلامة العدميّة(expression zero).

الوقوف عند معنى اللفظة أدى إلى تحديد معنى الكلمة فاللفظة أعم من الكلمة والكلمة جزء من اللفظة ومقياس تحديد مفهوم اللفظة عنده هو الانفصال والابتداء؛ فكل وحدة لغويّة يمكن أن تنفصل عن غيرها وأن يبتدأ بها الكلام فهي لفظة نحو: آدم، محاضرة، جامعة. فهي ذات معنى سواء وظفت مع غيرها في الاستعمال أو انفصلت عنها. وبهذا فالكلمة هي العلامة اللغويّة التي لا تخضع لهذين المقياسين (الابتداء والانفصال في آن) نحو: الضّمائر المتصلة في قولنا: جامعتنا؛ فنون المتكلم التي هي ضمير متصل كلمة وليست لفظة باعتبار استحالة البدء بها والانفصال عن كلمة جامعة مع الإبقاء على دلالتّها. والكلام نفسه ينطبق على حروف الجر وآل التّعريف.

أما مفهوم العامل فيأخذ مكانه في التّركيب وطبيعة البناء النّاتج من الألفاظ المكونة له والعامل المؤثر في هذا البناء فلاحظ النّحاة أن الزّوائد على اليمين تغير اللفظ والمعنى بل تؤثر وتتحكم في بقيّة التّركيب كالحركات الإعرابيّة مثلا.

هذا أهم ما يمكن قوله عن النّظريّة الخليليّة الحديثة جسد بها عبد الرّحمن الحاج صالح الموقف التّراثي من الدّرس اللغوي العربي ولا سيما النّحوي منه ويرى فيه كفاءة علميّة؛ تنظيرا يجب الإشادة بسبقها وتطبيقا يجب إحياؤها وتوظيفها في ما يخدم اللغة العربيّة في العصر الحديث سواء على مستوى الحوسبة أم التّعليم.

11 - محمد الصّالح الصّديق:

لقد كتب الأستاذ محمد الصّالح الصّديق كثيرا عن اللغة العربيّة، وبيّن دورها في تأسيس الثقافة والحضارة الإسلاميّة في القرون الخاليّة، وعبّر بصراحة في عدة مؤلفاته عن تفاؤله - الذي ليس له نظير - في مستقبلها الزّاهر رغم وجود عدة مؤشرات تقول عكس ذلك، مستأنسا دائما بأقوال وآراء العلماء والأدباء العرب والمسلمين وغيرهم. يبرز تشبث العلامة محمد صالح الصّديق باللغة العربيّة وحبه لها من خلال عدد ما ألفه من كتب في شأنها الذي تجاوز المئة كتاب؛ وأذكر في تسجيل صوتي بمناسبة تكريمه من وزارة الشّؤون الدّينيّة له في زمن غير بعيد أن سأله أحد الصّحفيين المكلفين بتغطيّة الحدث بالقول: «كم عمرك؟ فأجابه: «عمري مئة كتاب ونيف» ففي كتاب «العربيّة لغة العلم والحضارة «الصّادر في عام 2009 عن ديوان المطبوعات الجامعيّة، شرح بالتّفصيل هذه العلاقة الوثيقة التي كانت تربطه بالعربيّة، مبيّنا قصته معها التي بدأت مبكرا، وهو مازال طفلا صغيرا، فقال: «لقد أحببت اللغة العربيّة منذ طفولتي إلى حد العشق والهيام، وكان والدّي -رحمه الله- يحدثني بالفصحى، ويشجعني على التّحدث بها، وربما كافأني على جمل أكتبها، أو أنطق بها صحيحة سليمة.» كما شجّعه معلموه وأساتذته على التّحصيل اللغوي خاصّة شيخه العالم أرزقي الشّرفاوي العائد من مصر بعد سنوات عديدة التي أمضاها في جامع الأزهر طالبا ثم مدرّسا. في هذا المناخ الذي يسوده حب الإسلام والعربيّة، واظب محمد الصّالح على تعلم اللغة وعلومها حتى أتقنها، ثم اقتحم مختارا التّأليف بحروفها مخاطرا لا يأبه بالسّلطة الاستعماريّة التي كانت تحارب الحرف العربي في الجزائر، وتضايق كل من يروّج للثقافة العربيّة وينشر أنوارها بين النّاس. وكان دائب النّصح لتعلم اللغة العربيّة واستعماله مقدما العوامل الوظيفيّة لذلك استرشادا بالتّجربة النّوعيّة التي شحذت شخصيته العلميّة؛ إذ التّمكن في ناصيّة اللغة وأسرارها في نظره تكون بـ» الرّياضة الفكريّة واللسانيّة» أي ترويض الإنسان

نفسه على التّفكير العميق، والحرص على التّعبير الدّقيق والدّأب على الكتابة السّليمة. وحرص المؤلف على إبراز ما قدمه القرآن الكريم لهذه اللغة التي أنزل بها، وأقر ببيانها المبين. ونظرا لأهميّة هذا الموضوع ولمتانة العلاقة بينهما، أعاد المؤلف الحديث عن علاقة اللغة بالقرآن في هذا الكتاب في رالفصل الثاني. بينما تحدث عن ذلك في الفصل الأول... بل الإسلام هو دين علم ومعرفة ويغذي غريزة الاكتشاف سمحت للعقل المسلم أن يبدع في كل المجالات العلميّة باللغة العربيّة التي كانت لسان كل اختراع واكتشاف. والخلل يمكن في نظره ليس في اللغة العربيّة في حد ذاتها وإنما في عجز الإنسان العربي الذي أتخذ لسانه المبين مهجورا.

واللغة العربيّة في نظر المؤلف أفضل اللغات وأشرفها على الإطلاق غير أن عشقه لهذه اللغة لا يعني أبدا أنه متعصب لها تعصبا أعمى. ربما يكفي أن نستدل هنا بقصة ذكرها هو بنفسه في كتاب «العربيّة لغة العلم والحضارة « يدعو فيها غيره إلى مخاطبة النّاس على قدر عقولهم، فقال: «وأذكر هنا أن لي صديقا درسنا معا في جامع الزّيتونة، وجمعتنا ثورتنا التّحريريّة في الميدانين: العسكري والسّياسي. وكانت عروة المودة بيننا وثيقة، ولكني أنكر عليه سلوكا، ربما تكدر الصّفو بيننا بسببه، ذلك أنه يقف أمام متجر للمواد الغذائيّة، أو أمام بقال فيحدثه بالعربيّة الفصحى، وأحيانا يبالغ في تقعره فيجمع له ألفاظا من قاموس الجاهليّة، فيخاطبه بها، مما يثير حفيظة صاحب المتجر فيعرض عنه لا يبيع له. وكنت أعاتبه على ذلك، وأحيانا أؤنبه، وأقول له: »خاطب النّاس بما يفهمون". ولكنه اعتاد ذلك فلم يكن عتابي يجديه نفعا.» إنه يقول في هذا الكتاب أنه من أنصار تعلم اللغات الأجنبيّة لأن ذلك لا يتعارض مع تعلم المرء للغته الأم، بل تساعده على نشر ثقافته واكتشاف عوالم جديدة: »إجادة المرء للغته الوطنيّة أمر ضروري، إذ لا يتحقق وجوده المعنوي إلا بها، وهو بها فرد واحد، ولكنه إذا تعلم لغة أخرى وأضافها إلى لغته فإنه يصبح بها شخصين اثنين!" وتأسف العلامة على عدم تعلمه اللغات الأجنبيّة، فقال:» وما اجتمعت بأجنبي يبحث عن حقيقة الإسلام وحاورني فيه بواسطة مترجم إلا أدركت ضرورة تعلم ما أمكن من اللغات الأجنبيّة.» قناعته بضرورة تعلم لغات أجنبيّة خاصّة بالنّسبة للعلماء والدّعاة ويستدل في ذلك بتجربة عايشها:» إنني ذات يوم كنت أتحدث بواسطة مترجم إلى صحافي فرنسي عن الإسلام، وكنت أقدم له صورا رائعة عن مواقف بعض الصّحابة، ولكنه كان لا يتأثر ولا يبدي أي حراك. وفي جلسة ثانيّة تغيّر المترجم، فتغير الصّحافي فكان يطرب لصور ومواقف دون التي كنت أقدمها له في الجلسة الأولى، فأدركت إذ ذاك أن العلة في المترجم، وأن أفضل السّبل أن يتعلم المرء ما أمكن من اللغات الأجنبيّة.»

توسعت خدمته للغة العربيّة بالمؤلفات الغزيرة التي أغنى بها المكتبة العربيّة التي فاق عددها المئة كتاب، إذ بدأ الكتابة وهو لا يزال طالبا بالزّيتونة، حيث نشر مقالات في صحيفة الطّالب الزّيتوني ومجلة وحي الشّباب. كما كتب في مختلف الصّحف بالجزائر وخارجها. ومن مؤلّفاته المنشورة نذكر عينة منها:

1. أدباء التّحصيل. ألّفه وهو ما يزال طالبا بتونس. نشره على حسابه الخاصّ سنة 1951م.
2. مقاصد القرآن، 1955م.
3. صورة من البطولة في الجزائر (مجموعة قصصيّة). بمشاركة فاضل المسعود. دار البعث، قسنطينة، 1981م.
4. من قلب اللهب.
5. الجزائر بين الماضي والحاضر
6. سفينة الإيمان. الشّركة الوطنيّة للنشر والتّوزيع، الجزائر، 1977 م.
7. عميروش وقصص ثوريّة. دار لبنان للطباعة والنّشر، بيروت، ط 1، 1964 م.
8. صفحات خالدّة من جهاد الجزائر.
9. وقفات ونبضات. الشّركة الوطنيّة للنشر، الجزائر، 1972م.
10. الدّروب الحمر.
11. الجزائر بلد التّحدي والصّمود.
12. مشاعل على الطّريق.
13. شخصيات ومواقف.
14. من الخالدّين، 1988م.
15. أوراق في الدّين والأدب والأخلاق [1]
16. أيام خالدّة في حياة الجزائر
17. محمد في نظر المفكرين الغربيين [2]. ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، الطّبعة الأولى، 2005 م.
18. رحلة في أعماق الثورة مع العقيد اعزوران محمد (بريروش)، دار هومة، 2002م.
19. البيان في علوم القرآن. المؤسسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، 1989م.
20. القرآن الكريم في محيط العقيدة والإيمان.
21. عبد الحميد بن باديس من آرائه ومواقفه. دار البعث، قسنطينة، 1983م، ط 1.
22. أعلام من منطقة القبائل. ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 2007م.
23. من روائع الاعجاز. ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 2005م.
24. الشّعب الليبي الشّقيق في جهاد الجزائر. دار الامة للطباعة والنّشر والتّوزيع، الجزائر، 2000م.
25. العصفور الأزرق 1991
26. الشّيخ أرزقي الشّرفاوي 1998

27. أعلام من المغرب العربي 2000
28. هذا هو الإسلام 2003
29. الأستاذ مولود قاسم نايت بلقاسم 2004
30. المصلح المجدد عبد الحميد بن باديس 2006
31. عالميّة الإسلام وأخلاقيات رسوله (2008)
32. ألوان من الحياة. دار مقامات (2013)
33. مستقبل اللغة العربيّة.

12 – صالح بلعيد:

الأستاذ الدّكتور صالح بلعيد رئيس المجلس الأعلى للغة العربيّة بالجزائر، أستاذ التّعليم العالي بجامعة تيزي-وزو، مارس التّعليم الجامعي وله العديد من المؤلفات في اللسانيات الخاصّة باللغة العربيّة، ابن مشدالة معقل العلم والمعرفة في منطقة البويرة، كرس حياته في طلب العلم، فرحل وارتحل متخطيا الصّعاب، وجال وصال متقفيا معاقل المعرفة إلى أن وجه قريحته للتخصص في اللغة العربيّة وعلومها حبا فيها، فكان له ما طلب، فجنّد نفسه لخدمتها والدّفاع عنها بتقصي نقائص من سبقه من مجاهديها فجمع بين حكمة عبد الرّحمان شيبان وحجة مولود قاسم نايت بلقاسم، وتتجلى قيمة مكانة اللغة العربيّة عند العلامة في تجنيد معارفه اللسانيّة وتجربته الميدانيّة أستاذا لما قبل التّعليم الجامعي، وأستاذا للتعليم العالي لتكون إسهاماته في خدمة اللغة العربيّة إسهامات الخبير العارف والطّبيب الواصف، ليهتدي إلى علاج ما استعصى على غيره من أدواء نالتّ من اللغة العربيّة، وجاءت مقترحاته من خلال الكتب والمقالات التي أثرى بها المكتبة العربيّة والوطنيّة واصفا كاشفا ومقترحا شافيا كافيا، ويظهر هذا من خلال اهتمامه بمسألة الأمن اللغوي، والسّياسة اللغويّة؛ لئن كانت كلمة«الأمن»مرتبطة في واقعنا إلى حد بعيد، بقضايا الغذاء والبيئة والطّبيعة والعمران، فإن الباحث صالح بلعيد قد وسّع من مجالها، ليدرج فيه القضيّة اللغويّة المرتبطة بالهويّة الوطنيّة في كتابه الموسوم«في الأمن اللغوي". ومن مقولته المؤثرة أن اللغة العربيّة اليوم:«تئن من أهلها الذين فقدوا ثقتهم في أنفسهم وفي لغتهم، فما سايروا اللغات، وما تقدموا بالأجنبيات، وما حصلت لهم الطّفرات، فهم تبّع في كل الحالات.»

كما يرى العلامة أن سياسة الاستعمار من جهة، وتداعيات العولمة من جهة أخرى، قد تظافرت من أجل خلق المشكلة اللغويّة في العالم العربي:«ماذا أقول في موضوع الأمن اللغوي الذي كثر الحديث فيه منذ استفحال ظاهرة العولمة، وما تعرفه الهويات الوطنيّة والأصالة من تراجع، والشّكوك التي تلحق اللغات الوطنيّة؛ على أنها في طريق الانقراض، والسّيطرة/ الهيمنة الثقافيّة التي تتنامى بفعل لغات المستعمر القديم والحديث، واندفاع المواطنين لتعليم أبنائهم اللغات الأجنبيّة توهّما منهم أنها سبيل اللحاق بالرّكب ... وفي الوقت الذي تشهد فيه التّقارير الدّوليّة بسموّ مكانة اللغة العربيّة في عالم الحضارة، وتصنفها السّلطات الأمريكيّة في خانة اللغات الإستراتيجيّة، وترسمها إسرائيل إلى جنب العبريّة، فإن الأنظمة العربيّة والكثير من نخبنا، لا تعتبرها حاملا طبيعيا لبناء مجتمع المعرفة في العالم العربي.»

ويظهر تأثر العلامة بالواقع المزري للغة حين قال:«...ومن هنا يجب الإقرار بواقع مرّ، وهو اللامبالاة السّائدة لدى عرب اليوم، والتي لا مثيل لها في تاريخ العرب والعربيّة، لامبالاة خلقت أزمة علاقة الأمة العربيّة بالعربيّة؛ حيث أصبحنا أمام سوء تقدير للغة العربيّة دون مراعاة أسبابها، ودون إبداء مقاومة التّغيير، ورد الأمور إلى نصابها، فأين التّغيير والمقاومة يا عرب اليوم؟!"، وليس هذا فحسب فقد جعل هيبة الدّولة في المحافل الدّوليّة مرهونة بمدى الاهتمام باللغة القوميّة:«وهل قامت دولة في العالم دون لغة البلد؟ فإن قامت فهل حصلت لها قائمة بما قامت؟ وهل هي في قائمة الدّول التي هي في قائمة القماقم؟ فأعدْ حسابك أيها القائل، فلا يمكن قيام دولة عربيّة دون لغة عربيّة يا بشر! «

وتظهر جرأة الرّجل في العلاقة التي ربطها بين القرار السّياسي، والأمن اللغوي المفضي إلى الأمن الحضاري والثقافي والفكري، لذا أكد بما لا يدع مجالا للشّك إلى أن الإشكال يكمن في غياب قرار سياسي يعطي دفعا لتعميم استعمال العربيّة على مراحل:«إذا دققنا في المصطلح«القرار السّياسي»فيعنى به قرار السّلطة الحاكمة في أعلى مستوياتها، والتي لها فعل الخميرة في العجين، حيث لها أثر التّغيير الفعلي والسّريع، فالنّاس على دين ملوكهم، وقد قال عثمان بن عفان رضي الله عنه «إن الله يزع بالسّلطان ما لا يزع بالقرآن»وأؤكد القول وأضيف: إن الله يزع بالحاكم ما لايزع بالعالم (2)، وبالأمير ما لايزع بالأثير، وبالرّئيس ما لا يزع بالكنيس، وبالملك ما لا يزع بالفلك، وبالزّعيم ما لايزع بالعليم، وبالقائد ما لايزع بالرّشيد...»

رأي بعض المفكرين فيه وفي جهوده خدمة للغة العربيّة:

محمد أرزقي فراد: «يكون الدّكتور صالح بلعيد حيث يكون النّقاش حول مستقبل اللغة العربيّة، التي عشقها حتى النّخاع، دون أن

يفرّط في اللغة الأمازيغيّة التي يعالجها علاجا هادئا بغيّة إبعادها عن الطّرح الإيديولوجي الذي يدمر أكثر مما يبني.

صالح بلعيد باحث في اللسانيات وقضيّة الهويّة، وصاحب قلم مِكتاب، وفكر وقاد، يمارس وظيفة النّقد بحثا عن الحقيقة، يكتب أكثر ممّا يتكلم، أثرى المكتبة الجزائريّة بعدد هام من المؤلفات. يكون الدّكتور صالح بلعيد حيث يكون النّقاش حول مستقبل اللغة العربيّة، التي عشقها حتى النّخاع، دون أن يفرّط في اللغة الأمازيغيّة التي يعالجها علاجا هادئا بغيّة إبعادها عن الطّرح الإيديولوجي الذي يدمر أكثر مما يبني... فهو ابن البويرة التي أسهم أبناؤها المشذاليون (إمشذالنّ) في إثراء الحضارة الإسلاميّة لقرونٍ عديدة، وقد اعترف ابن خلدون أن العلامة ناصر الدّين المشذالي قد ساهم إلى حد كبير في تجديد طرائق التّدريس، بما أبدعه من الأساليب التّربويّة العقلانيّة طيلة مساره المهني. فهل نحن أمام مشروع مفكر يسم«ديوان الثقافة الجزائريّة» ببصمته مستقبلا؟ «

– يوسف وغليسي:

«يسألونك عن العبد الصّالح صالح بلعيد، قل إنه سليلُ المشذاليين ذوي الأيادي الغراء على حضارتنا الإسلاميّة، وحفيد ابنِ معطي الزّواوي (ت. 628 هـ)؛ صاحب«الدّرة الألفيّة»التي ما كان لألفيّة ابن مالك أن تكون لولا استنادُها إليها... أمازيغيّ الأرومة، عربيُّ اللسان والحال؛ بقوة القانون النّبوي الشّريف: «من تكلم العربيّة فهو عربيّ» .

شَرَح تراثنا اللغويّ وشرَّحَهُ، وقرأ المنظومات النّحويّة وأقرأَها، ودرس (اللسانيات التّطبيقيّة) ودرَّسَها... أحاط بالنّحو وتراكيبه وأصوله، وشَمَلَه ويسَّرَه، ونبش (مصادر اللغة)، وتفقّه في اللغة، وتابع قضاياها المعاصرة... دافع عن (الهويّة الوطنيّة)، ونافح عن العربيّة ونهضتها...كرّس قدرا ليس باليسير من جهوده للاهتمام بهموم اللغة، وقضايا المواطنة اللغويّة، والأمن اللغوي، والتّعايش اللغوي السّلمي...»

من مؤلفاته:

– التّراكيب النّحويّة عند عبد القاهر الجرجاني. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعيّة، 1994م.

– الإحاطة في النّحو، ج1. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعيّة، 1994م.

– الإحاطة في النّحو، ج2. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعيّة، 1994م.

– النّحو الوظيفي. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعيّة، 1994.

– مصادر اللّغة. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعيّة، 1994م.

– ألفيّة ابن مالك في الميزان. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعيّة، 1995.

– المؤسّسات العلميّة وقضايا مواكبة العصر. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعيّة 1995م.

– الآليات الأساسيّة للنّمو اللّغوي. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعيّة، 1995م.

– قضايا معاصرة في فقه اللّغة. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعيّة، 1995م.

– الصّرف والنّحو. الجزائر: دار هومة للطباعة والنّشر والتّوزيع، 1998م.

– فقه اللّغة العربيّة. الجزائر: دار هومة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، 1998م.

– في المسألة الأمازيغيّة. الجزائر: دار هومة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، 1999م.

– دروس في اللّسانيات التّطبيقيّة. الجزائر: دار هومة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، 2000م.

– محاضرات في قضايا اللّغة العربيّة. عين مليلة: دار الهدى للطّباعة والنّشر، 2000م.

– نظريّة النّظم. الجزائر: دار هومة للطّباعة والنّشر والتّوزيع 2001م.

– اللّغة العربيّة العلميّة. الجزائر: دار هومة للطّباعة والنّشر والتّوزيع 2002.

– لماذا نجح القرار السّياسي في الفيتنام وفشل في...؟ الجزائر: دار هومة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، 2002م.

– الشّامل المُيسّر في النّحو. الجزائر: دار هومة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، 2003.

– مقالات لغويّة. الجزائر: دار هومة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، 2004.

– مقاربات منهاجيّة. الجزائر: دار هومة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، 2004.

– في أصول النّحو العربيّ. الجزائر: دار هومة للطبّاعة والنّشر والتّوزيع، 2005.

– في المناهج اللّغويّة وإعداد الأبحاث. الجزائر: 2005، دار هومة للطباعة والنّشر والتّوزيع.

– منافحات في اللّغة العربيّة. تيزي- وزو: منشورات مخبر تحليل الخطاب، قسم اللّغة والأدب، بجامعة تيزي- وزو طبع دار الأمل للطبّاعة والنّشر والتّوزيع، 2006.

– الخليل بن أحمد عبقري العرب. الجزائر: كراسات مركز البحوث العلميّة لتطوير اللّغة العربيّة. الجزائر: 2007.

– في الهُويّة الوطنيّة. طبع دار الأمل للطّبع والنّشر والتّوزيع، عام 2007.

– في نهضة اللّغة العربيّة. الجزائر: دار هومة للطّبع والنّشر والتّوزيع، عام 2008.

– علم اللّغة النّفسي. الجزائر: دار هومة للطّبع والنّشر والتّوزيع، عام 2008م.

– في المواطنة اللّغويّة وأشياء أخرى... الجزائر: دار هومة للطّبع والنّشر والتّوزيع، عام 2008م.

– كتيب تعريفي بالمعجم التّاريخي للغة العربيّة. طبع في اتّحاد المجامع اللّغويّة بالقاهرة، سنة 2009م.
– في قضايا التّربيّة. طبع دار الخلدونيّة بالجزائر، سنة 2009م.
– يزع بالحاكِم ما لا يزع بالعالِم) الجزائر: دار هومة للطّبع والنّشر والتّوزيع، 2010.
– في الأمن اللّغوي. الجزائر: دار هومة للطّبع والنّشر والتّوزيع، 2010م
– المازيغيّة في خطر. الجزائر: منشورات مختبر الممارسات اللغّويّة بجامعة تيزي– وزو، 2012.
– هموم لغويّة. الجزائر: منشورات مختبر الممارسات اللّغويّة في الجزائر، بجامعة تيزي– وزو، 2012.
– هذه مقاماتي. الجزائر: منشورات مختبر الممارسات اللّغويّة في الجزائر، بجامعة تيزي– وز، 2012.
– المازيغيّات: الجزائر: منشورات مختبر الممارسات اللّغويّة في الجزائر بجامعة تيزي– وزو، 2012.
– في المناهج اللّغويّة والمنهجيّة. مختبر الممارسات اللّغويّة في الجزائر، جامعة تيزي– وزو، 2013.
– النّخبة والمشاريع. مختبر الممارسات اللّغويّة في الجزائر. جامعة تيزي–وزو، 2014.
– قراءة معاصرة تنشد التّغيير. مختبر الممارسات اللّغويّة في الجزائر. جامعة، تيزي–وزو، 2014.
– تقنيات التّعبير. مختبر الممارسات اللّغويّة في الجزائر. جامعة تيزي–وزو. 2014.
– هكذا رقّى الفرنسيون لغتهم، فهل نعتبر؟ مختبر الممارسات اللّغويّة في الجزائر. ج، تيزي–وزو، 2015.
– أساليب التّعبير. مختبر الممارسات اللّغويّة في الجزائر. تيزي–وزو، 2015.
– اللّغة الجامعة. مختبر الممارسات اللّغويّة في الجزائر. تيزي–وزو؛ 2015.
– محاضرات في التّربويات والإسلاميات. مختبر الممارسات اللّغويّة في الجزائر. ج، تيزي–وزو، 2015.
– الاهتمام بلغة الأمّة –العبرة من الفرنسيين–. مختبر الممارسات اللّغويّة في الجزائر. ج، تيزي–وزو، 2016.
– هل تشتعل حرب الحروف؟ ط1. مختبر الممارسات اللّغويّة في الجزائر: ج، تيزي–وزو، 2016.
– هل تشتعل حرب الحروف؟ ط2. الجزائر: 2017، طبع دار الأمّة.

• **أ.د بوبكر صابري**
جامعة برج بوعريريج

المصادر
1. أبو القاسم سعدالله:
– تاريخ الجزائر الثقافي 1954–1830، دار الغرب الإسلامي، لبنان.
– أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996.
2. أحمد طالب الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1997.
3. عبد الرّحمن الحاج صالح: النّظريّة الخليليّة الحديثة: مفاهيمها الأساسيّة، د ط. الجزائر: مركز البحث العلمي والتّقني لتطوير اللغة العربيّة. 2007.
4. صالح بلعيد:
– في الأمن اللّغوي. الجزائر: دار هومة للطّبع والنّشر والتّوزيع، 2010.
– يزع بالحاكِم ما لا يزع بالعالِم، الجزائر: دار هومة للطّبع والنّشر والتّوزيع، 2010.
5. تسجيل بالصّورة والصّوت لكلمة عبد الرّحمان شيبان.

الأطاريح الجامعية الجزائرية حول اللغة العربية

أ. د باديس فوغالي

بلعيد صالح. التراكيب النّحوية ودلالاتها في السّياقات الكلامية والأحوال التي ترتبط بها عند الإمام عبد القاهر الجرجاني. رسالة ماجستير. جامعة الجزائر. 1986–1987.

بلعيد صالح. دور المجامع اللغوية العربية في تطوير اللغة العربية. أطروحة دكتوراه. جامعة مولود معمري. تيزي وزو. 1991–1992.

عثمان بدري. وظيفة اللغة في الخطاب الرّوائي الواقعي عند نجيب محفوظ، أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر، السّنة الجامعية 1996–1997.

بن مالك آمنة. مصطلحات الدّراسة الصوتية في التراث العربي. أطروحة دكتوراه. جامعة الجزائر. 1986–1987.

ميلة الطّاهر. مصطلحات الرّياضيات في التعليم المتوسط والثانوي بالجزائر. رسالة ماجستير. جامعة الجزائر 1984–1985.

بلهاشمي جلول. برنامج اللغة العربية للسنة الأولى من التعليم الأساسي–دراسة تحليلية للبرنامج، ودراسة ميدانية لتطبيقه. أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر، السّنة الجامعية 1990–1991.

أبورقية علي. بحث في المبادئ الأساسية للسانيات العامة والأسلوبية من خلال دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني. ماجستير. جامعة الجزائر. 1987–1988.

إدير نصيرة، دراسة مصطلحية اجتماعية لميدان الاتصالات السّلكية واللاسلكية بالجزائر، أطروحة لنيل درجة الدّكتوراه في الترجمة، معهد الترجمة، جامعة الجزائر، 2012 السّنة الجامعية 2012–2013.

الطّيب الحسين. تحليل أخطاء متعلمي اللغة العربية من غير أهلها بالمركز الإسلامي الإفريقي بالخرطوم. أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر، السّنة الجامعية. 1984–1985.

بن عزوز زبيدة. دراسة المشتقات العربية للأسماء والأفعال الواردة في القصائد العشر الطّوال وآثارها البلاغية. جامعة الجزائر.

عبد المجيد عيساني. النّحو العربي بين الأصالة والتجديد. أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر. 2003–2004.

حمودي جميلة. طريقة تعليم قواعد اللغة العربية في المدرة الأساسية الجزائرية– تحليل نقدي وميداني لسنوات الطّور الثاني الأساسي جامعة الجزائر. 1993–1994.

كشرود زبيدة. دراسة نحوية لكتاب المختار في قواعد اللغة العربية السّنة المتوسطة الثانية بالمدرة الجزائرية–دراسة نقدية على ضوء اللسانيات الوظيفيّة. أطروحة دكتوراه. جامعة الجزائر 1986–1987.

عميري باني. دراسة نحوية في كتاب مختار قواعد اللغة العربية المقرر للسنة الأولى من التعليم المتوسط بالمدرسة الجزائرية–دراسة تحليلية في ضوء اللسانيات التطبيقي. ماجستير. جامعة الجزائر، 1981–1982.

دوراري عبد الرّزاق. مدخل إلى النّحو التفريعي التحويلي من خلال كتاب تشومسكي–البنى التركيبية. رسالة ماجستير. جامعة الجزائر، 1982–1983.

الطّيبي مصفى سعيد. الجملة الفعلية في مختارات ابن الشّجري –دراسة نحوية تطبيقية– رسالة ماجستير. جامعة الجزائر. 1994–1995.

رتيمة محمّد العيد. الأنماط النّحوية للجملة الاسمية في العربية من خلال كتاب الفخري في الآداب السّلطانية وقيام الدّولة العربية الإسلامية. أطروحة دكتوراه. جامعة الجزائر. 1984–1985.

مادن سهام. بين الفصحى والعامية دراسة مقارنة لتركيب اللغة العربية. رسالة ماجستير. جامعة الجزائر. 1995–1996.

بوحساين نصر الدّين. منهج تدريس اللغة العربية في مراكز التكوين الإداري. رسالة ماجستير. جامعة الجزائر. 1994–1995.

بوزياني خالدّ. القياس النّحوي عند يون بن حبيب من خلال كتاب سيبويه. رسالة ماجستير. جامعة الجزائر. 1997 – 1998.

ربيع كيفوش، الحصيلة اللغوية وفق المقاربة بالكفاءات مرحلة التعليم

المتوسط نموذجا، أطروحة دكتوراه، جامعة الحاج لخضر، باتنة' السّنة الجامعية 2013 – 2014

بودرام الزّايري. النّحو الوظيفي والدّرس اللغوي العربي – دراسة في نحو الجملة. دكتوراه علوم. جامعة الحاج لخضر باتنة. 2013 – 2014.

بلقاسم بن قطاية، دور اللسانيات في تعليم اللغة العربية وتطبيقاتها على الطّور الأول الابتدائي، مذكرة ماجستير، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، السّنة الجامعية 2009 – 2010

الشّافعي بديار. طبيعة الأحكام النّحوية في شرح المفصل لابن يعيش. ماجستير. جامعة منتوري. قسنطينة. 1992 – 1993.

بودية محمّد. الدّرس اللغوي من الخطاب النّحوي والبلاغي إلى الخطاب اللساني قراءة استقرائية. دكتوراه علوم. جامعة الإخوة منتوري قسنطينة. 2019 – 2020.

بوالعيش مريم. التوابع في الرّبع الأول من القرآن الكريم. دكتوراه علوم. جامعة الإخوة منتوري قسنطينة. 2020 – 2021.

بومود طارق. أثر التداخل المعرفي في المصطلح النّحوي عند ابن جني. دكتوراه علوم. جامعة الإخوة منتوري قسنطينة. 2020 – 2021.

بن مالك آمنة. الحروف العربية دراسة لغوية صوتية. رسالة ماجستير. جامعة قسنطينة. 1981 – 1982.

الزّبير القلي. المعجم اللغوي لديوان ابن شهيد الأندلسي. اطروحة دكتوراه. جامعة منتوري. قسنطينة. 2006 – 2007.

محمّد الصبيحي. المناهج اللغوية الحديثة في تدريس النّصوص لمرحلة التعليم الثانوي. شعبة العلوم الإنسانية. أطروحة دكتوراه. جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة. 2005 – 2006.

مشري محمّد. مركب النّداء في القرآن بين المعاني ودلالة الخطاب. أطروحة دكتوراه. جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة. 2008 – 2009.

قدادرة عبد السّلام. المبحث التركيبي في الدّراسة اللسانية الحديثة بين كتاب القواعد للسنة السّابعة أساسي، وكتاب اللغة العربية للسنة الأولى من التعليم المتوسط. رسالة ماجستير. جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة. 2004 – 2005.

قرني يمينة. الجملة الطّلبية في عيون البصائر للبشير الإبراهيمي – دراسة نحوية دلالية – رسالة ماجستير. جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة. 2005 – 2006.

جعلاب بوجمعة. الجملة عند النّحاة والتقديم والتأخير في باب المدفوعات. رسالة ماجستير. جامعة قسنطينة 1994 – 1995.

ابن بوزيد أحمد. موقف النّحاة من القراءات. أطروحة دكتوراه. جامعة قسنطينة. 1978–1979.

غجاتي عبد السّلام. غريب الحديث لابن قتيبة – دراسة لغوية – رسالة ماجستير. جامعة قسنطينة 1995 – 1996.

دراجي شيماء. تدريس أنشطة اللغة العربية في السّنة الرّابعة من التعليم المتوسط في ظل المقاربة بالكفاءات. دكتوراه علوم. جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة. 2017 – 2018.

لعشوري توفيق. ترجمة أزمنة الأفعال ودلالاتها من الفرنسية إلى العربية – دراسة تحليلية تقابلية – أطروحة دكتوراه. جامعة الإخوة منتوري. 2008 – 2009.

طيبي عبد الحفيظ. ترجمة أسماء الله الحسنى إلى الفرنسية بين الدّلالة المعجمية والسّياق القرآني سورة الحشر أنموذجا – دراسة مقاربة لترجمات كازيميرسكي شوراكي. وأبي بكر حمزة. دكتوراه. جامعة الإخوة منتوري. 2008 – 2009.

بوقدح هشام. ترجمة المتلازمات اللفظية إلى اللغة الفرنسية الرّبع الأول من القرآن الكريم أنموذجا. دراسة تحليلية نقدية. أطروحة دكتوراه. جامعة الإخوة منتوري، 2008 – 2009.

بوقعود إيمان. ترجمة المصطلح اللساني عند دوسوسير بين تعدد الدّوال والمدلولات. ماجستير. جامعة الإخوة منتوري. 2009 – 2010.

بحشاشي يامين. ترجمة معاني ودلالات أسماء السّور القرآنية من اللغة العربية إلى اللغة الفرنسية ترجمات كزيموسكي ماسون وحميد عبد الله أنموذجا دراسة مقارنة. ماجستير. جامعة الإخوة منتوري. 2008 – 2009.

لوشن نور. حروف الجر في العربية بين المصطلح والوظيفة. ماجستير. جامعة الإخوة منتوري. 1985 – 1986.

عون خيرة. خصائص التركيب اللغوي الفصيح في روايات العشق والموت في الزّمن الحراشي، وقائع من اوجاع رجل غامر صوب البحر. الجازية والدّراويش. طيور في الظهيرة. أطروحة دكتوراه. جامعة الإخوة منتوري. 1993 – 1994.

لمونيس زينب. المنحى الوظيفي في النّحو العربي القديم – الزّمخشري والسّكاكي أنموذجا. دكتوراه علوم. جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة. 2007 – 2008.

محمودي شعيب. النّظام اللغوي العربي نحو توصيف حاسوبي جديد. دكتوراه علوم. جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة. 2019 – 2020.

حطاب خضراء. بناء الجملة الاسمية البسيطة في شعر المتنبي. ماجتسير. جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة. 1996 – 1997

حميدات الجمعي. بناء الجملة العربية في ديوان دريد بن الصمة. ماجتسير. جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة. 2006 – 2007.

مختار بوعناني. الدّراسة الصرفية عند المازني وابن مالك. اطروحة دكتوراه. جامعة الإخوة منتوري، 1989 – 1989.

لميش عبد الصمد. دور ام الموصول في بناء الجملة وتطبيقاته على سورة البقرة – دراسة تحليلية – رسالة ماجستير. جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة. 2005 – 2006.

بولخصايم طارق. ظاهرة التغير الدّلالي للألفاظ في السّياق القرآني. دكتوراه علوم. جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة. 2017 – 2018.

بن عزيزة هدى. علاقة البنية الوظيفيّة في مفتاح العلوم للسكاكي. جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة. 2007 – 2008.

سالم محي الدّين. علل القراءات القرآنية دراسة لغوية وصفية تحليلية. أطروحة دكتوراه. جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة. 2004. 2005.

بوعمامة محمّد. علم الدّلالة بين التراث وعلم اللغة الحديث. جامعة الإخوة منتوري، قسنطنة. 1994 – 1995.

مرش نورة. عيوب النّطق عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين. رسالة ماجستير. جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة. 2012 – 2013.

زواوي ليندة. فقه اللغة للثعالبي (350 ه – 429 ه)دراسة دلالية. رسالة ماجستير. جامعة الإخوة منتوري، قسنطينة. 2007 – 2008.

بوزغاية رزيق. لغة الهندسة في كتاب الرّياضيات للسنة الادة من التعليم الأساسي. – درا دلالية في التركيب اللغوي، جامعة الإخوة منتوري، قسنطينة. 2004 – 2005.

عوفي عبد الكريم. لهجة بريكة وصلتها بالعربية الفصحى دراسة لغوية وصفية – ماجستير. جامعة الإخوة منتوري، قسنطينة. 1985 – 1986.

بدوي محمود. دور الأغنية والموسيقى في تنشيط التفاعل اللفظي في مجال تعليمية العربية للأجانب المبتدئين. دكتوراه علوم. جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة. 2015 – 2016.

بن حويلي ميدني. دراسة بعض ألفاظ الحضارة في ضوء علم الدّلالة.. أطروحة دكتوراه. جامعة منتوري، قسنطينة. 1990 – 1991.

الشّريف ميهوبي. نظام الرّبط في الجملة العربية طرقه وأدواته. أطروحة دكتوراه. جامعة الإخوة منتوري. 2003 – 2004.

الحاج عيلان. الزّمخشري النّحوي في كتابيه الفصل والكشاف. 467ه – 538ه. أطروحة دكتوراه. جامعة الإخوة منتوري. 1980 – 1981.

مسعود بودوخة. مقومات النّظرية الجمالية في البلاغة العربية. أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر2007 – . 2008

آمنة بن مالك. مصطلحات الدّراسة الصوتية في التراث العربي. أطروحة دكتوراه. جامعة ا لجزائر2007 – . 2008.

طيبة عثمان. الافتراض اللغوي في العربية. العصر الجاهلي وصدر الإسلام. رسالة ماجستير. جامعة قسنطينة. 1981 – 1982.

أحمد سليمان الشّريف. دلالة الصيغ. أطروحة دكتوراه. جامعة الإخوة منتوري. 1985 – 1986.

زين الدّين بن موسى. أثر المعاني اللغوية في توجيه دلالات النّصوص من خلال آيات أحكام القرآن الكريم – آية الصلاة نموذجا. أطروحة دكتوراه، جامعة الإخوة منتوري. 2010 – 2011.

يون شهرزاد. المشتقات في سورة الكهف دراسة دلالية رسالة ماجستير. جامعة الإخوة منتوري. 2001 – 2002.

عمر صبور. الألفاظ الحضارية. دكتوراه. جامعة الإخوة منتوري، 1982 – 1983.

عبد الله بوخلخال. التحليل الصوتي للمتغيرات الصوتية عند النّحاة العرب. أطروحة دكتوراه. جامعة الإخوة منتوري، 1988 – 1989.

بوشريكة فتيحة. اللسانية والتكوين دراسة عند أساتذة التعليم المتوسط في اللغة الفرنسية. أطروحة دكتوراه. جامعة الإخوة منتوري. 1983 – 1984.

سميرة رجم. نحو مقاربة تواصلية في تدريس اللغة العربية في مرحل التعليم الابتدائي

في اللسانيات وتطبيقاتها. أطروحة دكتوراه. جامعة الإخوة منتوري. 2015 – 2016.

جحيش نجيب. إشكاليات المصطلح العروضي بين القديم والحديث. دكتوراه علوم من جامعة الإخوة منتوري. 1993 – 1994.

قلاتي ابراهيم. ابن ولاد وجهوده في اللغة العربية. أطروحة دكتوراه. جامعة الإخوة منتوري، 1993 – 1994.

عمار شلواي. درعيات أبي العلاء المعري – دراسة دلاليّة الألفاظ الخاصّة بالإنسان وحياته الاجتماعية والاقتصادية. رسالة ماجستير. جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة. 1994. 1995.

عبيب حورية. أاليب الحقيقة والمجاز في القرآن الكريم – سورة الكهف

أنموذجا – أطروحة دكتوراه. جامعة الإخوة منتوري. 1997 – 1998.

بن العربي بن سديرة. استعمال اللغة العربيّة إبان حرب التحرير الجزائرية. أطروحة دكتوراه. جامعة الإخوة منتوري. 1988 – 1989

كريم فايزة. الفعل العربي وصيغه الزّمنية في جزء عم. رسالة ماجستير. جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة. 2014 – 2015.

جربوعة إيمان. القصص القرآني في ضوء اللسانيات التداولية قصتا ابراهيم ويوسف عليهما السّلام أنموذجا. دكتوراه علوم. جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة. 2016 – 2017.

محفوظي خديجة. بنية الملفوظ الحجاجي للخطبة في العصر الأموي. رسالة ماجستير. جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة. 2007 – 2008.

بنيون شهرزاد. المشتقات في سورة الكهف. رسالة ماجستير. جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة. 2003 – 2004.

قروي زهيرة. المصطلحات الصوتية والنّحوية عند البصريين في القرنين الثاني والثالث الهجريين. أطروحة دكتوراه. جامعة الإخوة منتوري. 2008 – 2009.

خلدون كريم. آليات الأنساق والانسجام في الحديث القدسي دراسة أسلوبية. دكتوراه علوم. جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة2015 – 2016.

أبو رقية علي. بحث في المبادئ الآليّة للسانيات العامة والأسلوبية من خلال دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني. رسالة ماجستير. جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة. 1987 – 1988.

سطوف عزوز. بلاغة مقام القص القرآني سورة يوسف أنموذجا. رسالة ماجستير. جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة. 2010 – 2011.

رويبح زهية. بناء الجملة الاستفهامية والجملة المنفية في سورة يوسف. رسالة ماجستير. جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة. 2012 – 2013.

مناصر هدى. المصطلحات الفقهية في معجم التعريفات للشريف الجرجاني دراسة في ضوء نظرية التحليل التكويني. أطروحة دكتوراه. جامعة الإخوة منتوري. 2015 – 2016.

بعيطيش يحيى. الوظائف الإبلاغية لقواعد اللغة العربية لدى أساتذة العلوم الإنسانية المكونين باللغة الفرنسية. رسالة ماجستير. جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة. 1989 – 1990.

بعيطيش يحيى. نحو نظرية وظيفية للنحو العربي. أطروحة دكتوراه. جامعة الإخوة منتوري، قسنطينة. 2005 – 2006.

رشاد أحمد عبد الغاني. نظام الجملة الاسمية في شعر عبد الله البردوني – دراسة نحوية دلالية – . أطروحة دكتوراه. جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة. 2008 – 2009.

خلدون كريم. آليات الأنساق والانسجام في الحديث القدسي – دراسة أسلوبية. رسالة ماجستير. جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة. 2015 – 2016.

كبودي فارس. الدّراسات اللغوية لمحمّد تقي الدّين الهلالي وأثرها في تحليل الخطاب الدّيني. رسالة ماجستير. جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة. 2012 – 2013.

حفيظي بوبكر. الفصاحة اللغوية والبلاغية في القرن الثالث الهجري. رسالة ماجستير. جامعة الجزائر. 1985 – 1986.

توامة عبد الجبار. القرائن المعنوية في النّحو العربي. رسالة ماجستير. جامعة الجزائر. 1985 – 1986.

بدرون عبد القادر. المصطلحات اللسانيّة في كتاب كشاف اصطلاحات الفنون للنهناوي. دكتوراه علوم. جامعة الإخوة منتوري، 2019 – 2020.

بولخصايم طارق. نظام الوصل والفصل بين البلاغة والنّحو. رسالة ماجستير. جامعة الإخوة منتوري، قسنطينة. 2003 – 2004.

ليبارير بلقاسم. نمو اللغة وتكاثرها من خلال لسان العرب لابن منظور. جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة. 1982 – 1983.

مشري محمّد. وظيفة همزة الاستفهام عند اللغويين وتطبيقاتها في القرآن الكريم. جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة. 2002 – 2003.

خان محمّد. الدّراسات اللغوية في تفسير المحيط لأبي حيان الأندلسي. رسالة ماجستير. جامعة الجزائر. 1996 – 1997.

فايزة حسناوي. «أثر التفكير اللغوي في تأويل النّص الشّرعي – دراسة وصفية تحليلية من خلال كتابي الموافقات والاعتصام للإمام الشّاطبي»، أطروحة دكتوراه علوم، قسم اللغة العربية وآدابها جامعة الجزائر2017 – 2018.

علوي سالم. الأسس العامة للنحو عند الزّمخشري. ماجستير. جامعة الجزائر. 1987 – 1988.

لكحل حمزة. البعد التداولي للمجاز في كتاب نهج البلاغة للإمام علي. أطروحة دكتوراه. جامعة محمّد خيضر. بسكرة. 2018 – 2019.

زروقي عبد القادر. الخطاب الحجاجي في صحيح البخاري دراسة تداولية – أطروحة دكتوراه. جامعة محمّد خيضر. بسكرة2017 – 2018.

زايدي لمين. بناء اختبارات اللغة العربية في إصلاحات الجيل الثاني وأثرها في التحصيل اللغوي – الطّور الإكمالي ولاية خنشلة انموذجا. أطروحة دكتوراه. جامعة محمّد خيضر.. بسكرة2020 – 2021..

النّذير ضبعي. الأبعاد التداولية في مقامات الحريري. ماجستير. جامعة محمّد خيضر. بسكرة. 2014 – 2015.

النّذير ضبعي. المقولات الاستلزامية وآليات تأويلها في فتح الباري لشرح صحيح البخاري. دكتوراه علوم. جامعة محمّد خيضر. بسكرة.

صالح زيتوني. التأويل النّحوي عند ابن عادل الحنبلي في اللباب على علوم الكتاب. دكتوراه علوم. جامعة محمّد خيضر. بسكرة. 2017 – 2018.

فايزة يخلف. دور الصورة في التوظيف الدّلالي للرسالة الإعلانية – دراسة سيميولوجية لعينة من إعلانات مجلة الثورة الإفريقية، رسالة ماجستير. جامعة الجزائر 1996 – 1997

محمّد بوعمامة. علم الدّلالة بين التراث وعلم اللغة الحديث، رسالة دكتوراه. جامعة قسنطينة. 1995 – 1996

عمر زاير. حركية المصطلح في مصادر النّقد العربي في القرن الرّابع الهجري. أطروحة دكتوراه علوم. جامعة الجزائر. 2017 – 2018

عبيدة فتيحة. (لكن) في القرآن الكريم – دراسة تركيبية دلالية – رسالة ماجستير. جامعة الجزائر 2002 – 2003.

حدوارة عمر. البحث الدّلالي عند الرّاغب الأصفهاني من خلال كتابه المفردات. رسالة ماجيستير. جامعة الجزائر 2007 – 2008،

لخلف نوال. الانسجام في القرآن الكريم. أطروحة دكتوراه. جامعة الجزائر 2007 – 2008.

لعساكر يوسف. الجدل في القرآن الكريم خصائصه ودلالاته جدال بعض الأنبياء مع أقوامهم نموذجا – دراسة لغوية دلالية. رسالة ماجستير. جامعة الجزائر 2006 – 2007.

فارس شاشة. المعالجة الآلية للغة العربية إنشاء نموذج لساني صرفي إعرابي للفعل العربي، ماجستير. جامعة الجزائر. 2008 – 2009.

مبارك تريكي. النّداء في القرآن الكريم. أطروحة دكتوراه. جامعة الجزائر 2006 – 2007

فطيمة بغراجي. النّشاط القرآني لدى تلاميذ السّنة الرّابعة من التعليم المتوسط – دراسة تحليلية ميدانية في ضوء المقاربة النّصية. أطروحة دكتوراه. جامعة الجزائر 2020 – 2021.

نعيمة عيشوش. نظرية التلفظ وانسجام الخطاب السّردي القرآني. دكتوراه علوم. جامعة الجزائر 2020 – 2021.

خديجة قويدري. المفردات الصعبة في النّصوص الشّعرية للسنة الأولى من التعليم الثانوي. دراسة دلالية معجمية. أطروحة دكتوراه. جامعة الجزائر2020 – 2021.

حفيان آمنة. عناصر أنساق النّص وانسجامه في نصوص كتاب اللغة العربية للسنة الأولى من التعليم المتوسط. دراسة تحليلية نقدية. أطروحة دكتوراه. جامعة الجزائر 2020 – 2021.

فريدة بلهدة. تعليم النّحو بين البرامج الدّراسية والمعجم الدّراسي. دكتوراه علوم. جامعة الجزائر 02. 2017 – 2018.

زكرياء مخلوفي. مظاهر الأنساق والانسجام في تعليم النّصوص الأدبية في السّنة الأولى من التعليم الثانوي – دراسة تحليلية – أطروحة دكتوراه. جامعة الجزائر 02. 2016 – 2017.

بلهواري محمّد. الأدوات البلاغية ووظائفها في تسفير البيضاوي – دراسة تحليلية. أطروحة دكتوراه. جامعة وهران 01. أحمد بن بلة. 2019 – 2020.

عبد العزيز رهية. الخطاب اللغوي الأشكال التعبيرية والأنماط الثقافية عبر شبكات التواصل الاجتماعي – مقاربة تحليلية سيميوتصالية لعينة من صفحات الفايسبوك. أطروحة دكتوراه. جامعة أحمد بن بلة. وهران. 2020 – 2021.

بلول أحمد. قراءة في القراءات القرآنية معجم القراءات القرآنية من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة آل عمران – دراسة إحصائية تحليلية – أطروحة دكتوراه. جامعة وهران 01 2008. – 2009.

قارة حداش الهواري. أهمية مخارج الحروف وصفاتها في إعجاز القرآن. أطروحة دكتوراه. جامعة وهران 2011 – 2012.

لغرام عبد الجليل. البنية التركيبية ودلالاتها في القرآن الكريم. سورة الأنعام أنموذجا. أطروحة دكتوراه. جامعة وهران 01 أحمد بن بلة. 2016 – 2017.

بوعناني سعاد آمنة. الدّرس الصوتي عند علماء القرن الخامس الهجري أطروحة دكتوراه. جامعة وهران 2011 – 2012.

بن قبلية مختارية. أثر السّياق في تفسير الرّازي أطروحة دكتوراه. جامعة وهران 01. 2013 – 2014.

بولاح فايزة. السّلالم الحجاجية في القصص القرآني – مقاربة تداولية – أطروحة دكتوراه. جامعة وهران 01. 2015 – 2016.

بن دحو نورالدّين. الانتارنات وتعليمية اللغات – قراءة في المواقع العربية. ماجستير. جامعة وهران 01. 2015 – 2016.

لغرام عبد الجليل. التراكيب الاسنادية في ديوان ابن الآبار» لابي عبد الله محمّد ابن الأبار القضاعي البلنسي(595-658 هـ/ 1198-1260م). ماجستير. جامعة وهران. 2012 – 2013

الهاشم عبد المالك زين الدّين. علم الدّلالة وأثره في الاستنباط. أطروحة دكتوراه. جامعة وهران أحمد بن بلة. 2019 – 2020.

شرموطي رحاب. أثر القرآن في تنمية المهارات اللغوية المدرسة القرآنية أنموذجا. جامعة وهران. 2019 – 2020.

صدار رضوان. أثر المنهج اللغوي في النّقد العربي القديم، أطروحة دكتوراه. جامعة وهران، 2019 – 2020.

بوحسون عبد الله. الجهود اللسانية للمجمع اللغوي الجزائري. أطروحة دكتوراه. جامعة وهران أحمد بن بلة. 2019 – 2020.

سكران ناصر. البنى التركيبية في تفسير ابن عطية. مقاربة وظيفية. أطروحة دكتوراه. جامعة وهران 01. 2019 – 2020.

بن عبد الله فتيحة. الأفعال الكلامية غير المباشرة في الخطاب اللغوي. أطروحة دكتوراه. جامعة وهران 01. 2019 – 2020.

طواوالة عثمان. القراءات القرآنية وأثرها في التصحيح اللغوي، دراسة في معجم الصواب اللغوي لأحمد مختار عمر نموذجا. أطروحة دكتوراه. جامعة وهران 01. 2019 – 2020.

السّباعي بحاري. صورة المنافق في القرآن الكريم. دراسة الدّلالات الصوتية والصرفية، سورة التوبة أنموذجا، ماجستير. جامعة وهران01، 2006 – 2007.

حزام فهيمة. تعليمية اللغة العربية من منظور اللسانيات الوظيفية مرحلة التعليم المتوسط نموذجا. دكتوراه. جامعة سطيف 02 2019 – 2020.

بوعافية محمّد عبد الرّازق. نظرية البلاغة في المغرب مقاربة نسقية في ضوء البلاغة الجديدة. دكتوراه. جامعة سطيف 02. 2019 – 2020.

عيشون خيرة. توليد الأنساق الدّلالية في المعجم العربي الحديث – المعجم الوسيط نموذجا – دكتوراه. جامعة سطيف 02. 2020 – 2021

لعبابسة صافي الدّين. الفصل والوصل في القرآن الكريم من البنية الوظيفية إلى القوة الإنجازية – دراسة وظيفية تداولية في سورتي البقرة وآل عمران. دكتوراه. جامعة سطيف 02. 2020 – 2021.

قدور نبيلة. النّظرية الخليلية وإسهاماتها في معالجة مشكلات تدريس اللغة العربية. دكتوراه. جامعة سطيف 02. 2020 – 2021.

حراث خديجة. النّسخ في الجملة العربية – دراسة وظيفية في القرآن الكريم – دكتوراه. جامعة سطيف 02. 2020 – 2021.

أبو غنيمة محمّد علي. الجهود النّحوية في ليبيا في النّصف الثاني من القرن العشرين. دكتوراه. جامعة باتنة. 2006 – 2007.

بن بوزة أحمد. الجملة الاسمية وأنماطها في الدّراسات الإعجازية، ماجستير. جامعة باتنة. 2006 – 2007

بونقطة مريم. تعليمية الدّرس اللساني في الجامعة دراسة تحليلية مقارنة في المنهج والمصطلح بين جامعة، وبوزريعة الجزائر. دكتوراه. جامعة سطيف 02. 2019 – 2020. 2، وجامعة ليون 2بفرنسا

قريش طارق. أثر دلالات حروف العطف في التّفسير دراسة نحويّة دلاليّة. دكتوراه. جامعة سطيف 02. 2019 – 2020.

رواق هادية. آليات الصّوغ القياسي ودورها في تنمية اللّغة العربية. دكتوراه. جامعة سطيف. 2018 – 2019

بن زايد نضيرة. التأويل والمعنى عند: الفقهاء والمفسرين من القرن الثاني الهجري إلى القرن الثامن الهجري – دراسة لسانية تداولية. دكتوراه. جامعة سطيف 2018. 2019.

بن عياش نجيب. الكفاية التقسيرية في النّحو الوظيفي وتطبيقاته على اللغة العربية –دراسة في كتابات احمد المتوكل. دكتوراه، جامعة سطيف. 2018 – 2019

قرقور أحلام. أثر السّياسة اللغوية في ممارسة اللغة العربية جهود المجلس الأعلى للغة العربية في الجزائر – أنموذجا. دكتوراه. جامعة سطيف. 2017 – 2018

بركات الحسين. أثر الدّلالات اللغوية في التفسير عند فخر الدّين الرّازي في كتابه (التفسير الكبير) دكتوراه، جامعة سطيف 02، 2017 – 2018.

منديل نوال. الاتساق والانسجام في الحديث النّبوي الشّريف، دكتوراه، جامعة سطيف 02. 2017 – 2018.

حسين عبد الكريم. فضاءات المفردة القرآنية في الخطابين المكي والمدني. دكتوراه. جامعة سطيف 02. 2017 – 2018

بن محمّد عبد الكريم. تدريس اللّغة العربيّة في مرحلة التّعليم الثانوي العام – مقاربة نصيّة، دكتوراه. جامعة سطيف 02. 2016 – 2017..

دراجي صافية. تلقي الخطاب القرآني في ضوء علم اللغة النّصي جزء «تبارك» وجزء «عم» أنموذجا دكتوراه. جامعة سطيف 02. 2016 – 2017.

بوزناشة نورالدّين. الحجاج بين الدّرس البلاغي العربي والدّرس اللساني الغربي دراسة تقابلية مقارنة دكتوراه، جامعة سطيف 02. 2016 – 2017

مذكور نورالدّين. المعجم العربي بين الاتباع والابتداع معجم مقاييس اللغة لابن فارس –أنموذجا دكتوراه. جامعة سطيف 02. 2016 – 2016.

حمار نسيمة. المصطلح النّحوي في كتاب الخصائص لابن جني دراسة نقديّة من منظور معجم اللسانيات الحديث. دكتوراه. جامعة سطيف 02. 2015 – 2016.

قرفة زينة. المعجم المختص دراسة في المادة والمنهج المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات دكتوراه. جامعة سطيف 02. 2015 – 2016.

طبطوب بوزيد. الظواهر اللغوية في القراءات الثلاث المتممة للعشر، دكتوراه. جامعة سطيف 02. 2015 – 2016.

حميدات الجمعي. الأساليب الطّلبية وأداءاتها الإبلاغية في الحديث النّبوي الشّريف(مقاربة تداولية دكتوراه. جامعة سطيف 02. 2015 – 2016.

مرغم أحمد. دلالة الجملة الاعتراضية في القرآن الكريم. دكتوراه. جامعة سسطيف 02. 2014 – 2015

جغبوب صورية. قضايا اللسانيات العربية الحديثة بين الأصالة والمعاصرة من خلال كتابات أحمد مختار عمر، دكتوراه. جامعة سطيف 02. 2012 – 2013.

بوادي محمّد. ألفاظ العقائد والعبادات والمعاملات في صحيح البخاري–دراسة دلالية، دكتوراه، جامعة سطيف 02. 2010 – 2011.

رحماني زاهر الدّين. الدّلالة التركيبية في كتابي معاني القران لأبي جعفر النّحاس ومعاني القران للقراء دكتوراه. جامعة سطيف. 2015 – 2016.

قادري دلولة. الفكر اللغوي عند شيخ الإسلام أبي يحيى زكريا الأنصاري في كتابه « فتح الرّحمان بكشف ما يلتبس في القرآن. دكتوراه. جامعة سطيف 02. 2012 – 2013.

لدول كاهنة. ممارسة اللغة العربية الفصيحة عند طلبة السّنة الثالثة (ل م د) بقلم اللغة العربية وآدابها. جامعة مولود معمري. تيزي – وزو. دراسة وصفية تحليلية. دكتوراه. جامعة مولود معمري2020.

مريح يوف. استثمار المفاهيم النّحوية العربية في خدمة برمجيات الإعراب الآلي، حسب النّظرية التحليلية الحديثة، دكتوراه. جامعة مولود معمري. 2021.

حمودي فتيحة. المصطلحات بين الوضع والاستعمال في ميدان علم المصطلح. دراسة وصفية تحليلية دكتوراه. جامعة مولود معمري. 2020 – 2021

نسيمة نابي، مناهج البحث اللغوي عند العرب في ضوء النّظريات اللسانيات الحديثة. ماجستير. جامعة مولود معمري. تيزي وزو. 2011 – 2012.

نسيمة نابي. رواد النّهضة وجهودهم في ترقية اللغة العربية. دكتوراه علوم. جامعة مولود معمري. تيزي وزو. 2016 – 2017.

حجبار رادية. شكل الصيغ الصرفية ودلالاتها في المعجم الوسيط، مقاربة عرفانية. جامعة مولود معمري. 2020.

برارات عائشة. المعطيات السّياقية وصلتها بإبانة المعنى في الدّرس اللغوي، دراسة تطبيقية في (الكتاب)، و(دلائل الإعجاز)و(شرح كافية ابن الحاجب). دكتوراه. جامعة قاصدي مرباح. ورقلة. 2016.

محمّدي عبد الرّؤوف. صعوبات تعليم اللغة العربية وتعلمها في المرحلة الابتدائية بين النّظرية والتطبيق. دكتوراه. جامعة قاصدي مرباح. ورقلة. 2018.

ابن سباع زبيبة. المنهج اللغوي في تفسير مفاتيح الغيب للفخر الرّازي – دراسة في علم اللغة الحديث. دكتوراه. جامعة قاصدي مرباح. 2018.

عبد القادر بقادر. تعليمية النّحو والصرف في مرحلة التعليم الثانوي. شعبة الآداب والفلسفة. دكتوراه. جامعة قاصدي مرباح، ورقلة. 2020 – 2021.

عنيشل خديجة. الأخطاء النّحوية والكتابية في التعبير الكتابي لدى المتعلمين في الطّور الثانوي. دكتوراه. جامعة قاصدي مرباح 2020 – 2021.

شيباني محمّد. بلاغة المتشابهات اللفظية في القصة القرآنية. قصة إبليس نموذجا. دكتوراه. جامعة قاصدي مرباح. 2019 – 2020.

عبد الرّحمان عبدالي. نظريات التعلم وتطبيقاتها في تعليم اللغة العربية في الجزائر في المرحلة الابتدائية عينة. ماجستير. جامعة قاصدي مرباح. ورقلة 2011 – 2012.

هالة سليمة. المدخل في المعاجم العربية الحديثة المعجم العربي الأساسي للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم أنموذجا. ماجستير. جامعة قاصدي مرباح، 2013 – 2014.

بركات مبروك. الفكر النّحوي عند تمام حسن. ماجستير، جامعة قاصدي مرباح. ورقلة. 2012 – 2013.

بن عبد الباسط مولدي. ابن يعيش وجهوده في النّحو من خلال كتابه شرح

المفصل. ماجيستير. جامعة، جامعة قاصدي مرباح. 2009 – 2010.

بلول علي. العامل عند الدّكتور عبد الرّحمان الحاج صالح نموذج لربط التراث النّحوي باللسانيات الحديثة، ماجستير. جامعة قاصدي مرباح. 2011 – 2012.

جحراب سعاد. التقويم اللغوي، طرقه ومعاييره في المدرسة الجزائرية. ماجستير. جامعة قاصدي مرباح، 2009 – 2010.

مراد قفي. المعنى الإسنادي في الجملة العربية بين التأصيل والفنية، ماجستير. جامعة باتنة. 2007 – 2008.

أسلالوكية. الوظائف اللغوية للزوائد. ماجستير، جامعة باتنة، 2006 – 2007.

بلعمش اليزيد. الجمل التي لا محل لها من الإعراب ووظائفها الإبلاغية(الجملة الاعتراضية والجملة التفسيرية، وجملة الصلة. ماجستير. جامعة باتنة، 2007 – 2008.

بودرامة الزّايدي. التحليل النّحوي والتوجيه وتوجيه الدّلالة قراءة كتاب الأمالي لابن حاجب. ماجستير. جامعة باتنة. 2007 – 2008.

ميلود حركاتي. التركيب اللغوي في شعر الخنساء في ضوء علم اللغة الحديث. ماجستير، جامعة باتنة، 2007 – 2008.

عقيلة بنور. الأنساق الدّلالية اللفظية في النّصف الأول من القرآن الكريم. ماجستير. جامعة باتنة، 2007 – 2008.

لطفي حمدان. تدريس اللغة العربية في المرحلة الثانوية بين المناهج المستعملة واللسانيات التداولية. ماجستير. جامعة باتنة. 2008 – 2009.

محفوظي سليمة. وسائل الإقناع في خطبة طارق بن زياد. دراسة تحليلية في ضوء نظرية الحجاج. ماجستير. جامعة باتنة. 2011 – 2012.

حاجي عبد العزيز. قرينة الرّبط بين النّحو العربي ولسانيات النّص – دراسة وصفية تحليلية في سورة الأعراف. ماجستير. جامعة باتنة. 2011 – 2012.

لمديلي العربي. معالجة المادة المعجمية في القاموس المحيط للفيروزابادي. ماجستير جامعة باتنة. 2012 – 2013.

أم كلثوم حوشي. كتاب الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري. ماجستير. جامعة باتنة. 2012 – 2013.

ثلجة شتاح. سورة يس دراسة دلالية. ماجستير. جامعة باتنة. 2009 – 2010.

رزوق النّواري. المعاني الوظيفية لمباني التصريف والتركيب في معلقة طرفة بن العبد، لخولة أطلال... ماجستير. جامعة باتنة. 2009 – 2010.

عيسى قيرة. وظيفة المتمم الفعلي في الجملة العربية. ماجستير. جامعة باتنة. 210 – 2011.

بدرالدّين سالمي. مشكلات الدّلالة في المعاجم العربية الحديثة. ماجستير. جامعة باتنة. 2016 – 2017.

فطيمة زايدي. تيسير النّحو العربي من خلال كتاب الوظائف التداولية في اللغة العربية لأحمد المتوكل. ماجستير. جامعة باتنة. 2016 – 2017.

وردة سخري. الجهود اللغوية عند الدّكتور عبد الرّحمان الحاج صالح. من خلال (بحوث ودراسات في علوم اللسان). جامعة باتنة. ماجستير. 2016 – 2017.

ربيحة صالحي. البنية الصرفية ودلالاتها في القرآن الكريم – سورة ابراهيم أنموذجا – ماجستير. جامعة باتنة. 2016 – 2017.

سليمة بوغرارة. الاستلزامات الحوارية لأسلوبي الأمر والنّداء والنّهي في سورة البقرة. ماجستير. جامعة باتنة. 2016 – 2017.

عرف حليمة. نظرية الحقول الدّلالية عند العرب – دراسة تأصيلية تطبيقية في كتاب الفرق لابن فارس اللغوي. ماجستير. باتنة. 2014 – 2015.

بيطام نجمة. الحقيقة والمجاز في معجم البلاغة للزمخشري. ماجستير. جامعة باتنة. 2014 – 2015.

طاوس عائشة. الحقول الدّلالية – دراسة تطبيقية في صحيح البخاري. ماجستير. جامعة باتنة. 2014 – 2015.

حمادي خميسة. البنية اللغوية لقصيدة الكعبة الزّهراء لبدوي الجبل. ماجستير. جامعة باتنة. 2014 – 2015.

بن بوزة أحمد. الجملة الاسمية وأنماطها في السّبع الطّوال. دكتوراه علوم. جامعة باتنة. 2005 – 2006.

عادل محلول. الصوت والدّلالة في شعر الصعاليك. دكتوراه علوم. جامعة باتنة. 2007 – 2008.

كادة ليلى. المكون التداولي في النّظرية اللسانية العربية. – ظاهرة الاستلزام التخاطبي أنموذجا. دكتوراه علوم. جامعة باتنة. 2012 – 2013.

برباق ربيعة. الأدلة المعجمية عند العرب. دراسة نظرية تطبيقية. دكتوراه علوم. جامعة باتنة. 2012 – 2013.

محمّد بن صالح. قرينة المطابقة في النّحو العربي وتطبيقها في القرآن الكريم. دكتوراه علوم. جامعة باتنة. 2010 – 2011.

ابتسام بن فراق. الخطاب الحجاجي السّياسي في كتاب الإمامة والسّياسة لابن قتيبة. دكتوراه علوم. باتنة. 2010 – 2011.

الأمين ملاوي. قراءة في نظرية النّحو العربي بين النّموذج والاستعمال. دكتوراه علوم. باتنة 2009 – 2010.

عائشة عبيرة. دراسة وظيفية لأسلوب التوكيد في القرآن الكريم. دكتوراه علوم. جامعة باتنة. 2009 – 2010.

عاشور لطرش. مقاربات الدّارسين العرب المحدثين للنحو العربي دراسة تحليلية نقدية لأبرز الاتجاهات المنهجية الحديثة. دكتوراه علوم. جامعة الحاج لخضر. باتنة. 2016 – 2017.

يحي بن مخلوف. جماليات الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم. دكتوراه علوم. جامعة محمّد خيضر. باتنة. 2015 – 2016.

نورالدّين مهري. بنية الفعل في قراءة الإمام نافع دراسة في الوظائف النّحوية الدّلالية. دكتوراه علوم. جامعة الحاج لخضر. باتنة. 2015 – 2016.

عبد النّاصر مشري. دلالة العدول الصرفي في القرآن الكريم. دكتوراه علوم. جامعة الحاج لخضر. باتنة. 2014 – 2015.

الزّايدي بودرامة. النّحو الوظيفي والدّرس اللغوي العربي دراسة في نحو الجملة. دكتوراه علوم. جامعة الحاج لخضر. باتنة. 2014 – 2015.

سليمان بوراس. القرائن اللفظية والأنساق النّصية. دكتوراه علوم. جامعة الحاج لخضر. باتنة. 2014 – 2015.

ميزاب اسمهان. الزّمن النّحوي ودلالته. دراسة تطبيقية في ديوان أبي فراس الحمداني. دكتوراه علوم. جامعة الحاج لخضر. باتنة. 2014. 2015.

نصر الدّين وهاب. مستويات الأداء البلاغي في القراءات القرآنية دراسة دلالية بلاغية. دكتوراه علوم جامعة الحاج لخضر. باتنة. 2013 – 2014.

جمال كويحل. الظواهر اللغوية في القراءات الأربع الشّاذة. دكتوراه علوم. جامعة الحاج لخضر. باتنة. 2012 – 2013.

حاجي عبد القادر. قرينة الرّبط بين النّحو العربي ولسانيات النّص – دراسة وصفية تحليلية في سورة الأعراف. ماجستير. جامعة الحاج لخضر. باتنة. 2011 – 2012.

زهور شتوح. تعليمية التمارين اللغوية في كتاب اللغة العربية للسنة الرّابعة متوسط. ماجستير جامعة الحاج لخضر. باتنة. 2001. – 2002.

عائشة طاوس. المصطلح الصرفي في كتاب المنصف لابن جني في ضوء الدّرس اللساني الحديث. ماجستير. جامعة الحاج لخضر. باتنة. 2020 – 2021.

عبد الله باوني. الدّلالة النّحوية للأبنية التركيبية في ديوان البرزخ والسّكين لعبد الله حمادي. جامعة الحاج لخضر. باتنة. 2020 – 2021.

عبد العزيز شوحة. منهج الاحتجاج اللغوي للقراءات القرآنية وتوجيهها، دكتوراه علوم. جامعة الحاج لخضر. باتنة. 2019 – 2020.

محمود بوستة. نحو النّص في كتاب – أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي. دكتوراه علوم. جامعة الحاج لخضر. بانتة ز 2018 – 2019.

قفي مراد. نظرية المعنى في النّحو العربي. دكتوراه علوم. جامعة الحاج لخضر. باتنة. 2017 – 2018.

عبد الحليم معزواز. تأصيل اللسانيات العربية عند تمام حسن وعبد الرّحمان الحاج صالح. دكتوراه علوم. جامعة الحاج لخضر. باتنة، 2017 – 2018.

حفناوي شيخة. المسند في تراكيب العربية من منظور نحوي بلاغي. ماجستير. جامعة تبسة. 2009 – 2010.

ثليثة بليردوح. بنية الخطاب الشّعري عند عزالدّين ميهوبي. قصيدة عولمة الحب عولمة النّار أنموذجا – دراسة لسانية نصية – رسالة ماجستير. جامعة العربي التبسي. تبسة. 2007 – 2008.

حفناوي شيخة. الأغراض التواصلية في شعر المعري. دكتوراه علوم. جامعة الأمير عبد القادرللعلوم الإسلامية. قسنطينة. 2019 – 2020.

بلقاسم ين موناح. سورة الحجرات دراسة بيانية. ماجستير. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 2003 – 2004.

بلقاسم بن موناح. ألفاظ من القاموس القرآني في إلياذة الجزائر لمفدي زكرياء – دراسة دلالية –

دكتوراه علوم. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 2013 – 2014.

أبرير بشير. البعد اللساني الثقافي في النّص المدرسي – دراسة في مناهج اللغة العربية بالمرحلة الثانوية. ماجستير. جامعة عنابة. 2011 – 2012.

إبريربشير. توظيف النّظرية التبليغية في تدريس النّصوص بالمدارس الثانوية الجزائر، أطروحة دكتوراه. جامعة عنابة. 2000 – 2001.

ابريربشير. تعليم القراءة وفهم النّصوص للكبار الجزائريين المتعلمين بلغة أجنبية. ماجستير، جامعة عنابة. 1991 – 1992.

رابح بوحوش. البنية اللغوية لبردة البصيري. ماجستير. جامعة عنابة. 1986 – 1987.

رابح بوحوش. اللغة الشّعرية لدى البحتري، أطروحة دكتوراه الدّولة. جامعة عنابة. 1998 – 1999.

زينب شاوي. تهذيب اللغة للأزهري واللهجات العربية. ماجستير. جامعة عنابة. 1991 – 1992.

رشيد سهلي. ظواهر لسانية في القراءات القرآنية من خلال كتاب معاني القراء دراسة وصفية تحليلية. ماجستير. 1997 – 1998.

لكحل عائشة. البنية والدّلالة دراسة سيميائية في مقامات ناصف اليازجي. ماجستير. جامعة عنابة. 2011 – 2012.

جاصمي آمنة. آليات الانسجام النّصي في خطب مختارة من مستدرك نهج البلاغة للهادي كاشف غطاء. ماجستير. جامعة عنابة. 2012 – 2013.

أبرير نسيمة. مفاهيم لسانيات النّص وتحليل الخطاب في دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني – دراسة في ضوء علم المصطلح. رسالة ماجستير. جامعة عنابة. 2011 – 2012.

زعلان مليك. المرأة في الخطاب الإشهاري بين الصورة واللغة. ماجستير. جامعة عنابة. 2011 – 2012.

طيهاز نسيبة. الموضوعاتية وآليات إنتاج الدّلالة دراسة في قصص رضا حوحو. أطروحة دكتوراه جامعة عنابة، 2020 – 2021.

محمّد كراكبي. بنية الجملة في الأدب الكبير لابن المقفع. رسالة ماجستير. جامعة عنابة. 1985 – 1986.

محمّد كراكبي. خصائص الخطاب الشّعري في ديوان أبي فراس الحمداني – دراسة صوتية تركيبية. أطروحة دكتوراه. جامعة عنابة 1998 – 1999.

بلقاسم بلعرج. لهجة جيجل وصلتها بالعربية الفصحى – دراسة لغوية للهجة بني فتح. ماجستير. جامعة عنابة. 1986 – 1987.

بلقاسم بلعرج. إبنية المشتقات في القرآن الكريم – دراسة لغوية في الرّبع الأول. أطروحة دكتوراه الدّولة، جامعة عنابة 1998 – 1999.

محمّد خان. نظام الجملة ودلالاتها في سورة البقرة. رسالة ماجستير. جامعة عنابة. 1985 – 1986.

فصيح أمقران. البناء اللغوي لشعر السّجون عند أحمد الصافي النّجفي، ومفدي زكرياء. رسالة ماجستير، جامعة عنابة. 1985 – 1986.

كمال عطاب. التراكيب وخصائصها في مقامات الحريري. ماجستير، جامعة عنابة. 1991 – 1992.

إسماعيل مغمولي. بناء الجملة في آليات الأحكام. ماجستير. جامعة عنابة. 1997 – 1998.

عبد السّلام شقروش. بعد الأعاصير للعقاد – دراسة توليدية تحويلية. ماجستير. جامعة عنابة. 2001 – 2002.

عمر لحسن. ديوان الخنساء، معجم ودراسة صرفية ودلالية. ماجيستير. جامعة عنابة. 1991 – 1992.

عقيلة عليوة. معجم ودراسة دلالية لمدونة مختارة من ديوان دي الرّمة. ماجستير، جامعة عنابة. 1990. 1991.

السّعدي بوعسلة. المصطلح السّياسي في مقدمة ابن خلدون. دراسة معجمية دراسية. ماجستير. جامعة عنابة. 1994 – 1995.

عمار قرفي. المصطلحات الكلامية عند المعتزلة دراسة دلالية. ماجستير. جامعة عنابة. 1995 – 1996.

نعمان بوقرة. التفكير اللغوي عند أبي حامد الغزالي – بحث في المنهج والدّلالة. ماجستير. جامعة عنابة. 1995 – 1996.

عبد الرّحمان مشتل. التفكير اللساني في رسائل إخوان الصفا. ماجستير. جامعة عنابة. 1995 – 1996.

سليمة بونعيجة راشدي. تحليل الأخطاء اللغوية لمتعلمي العربية – فئة المغتربين دراسة ميدانية – ماجستير، جامعة عنابة. 1992 – 1993.

الاطرش سامية. الجلالة عند ابن جني من خلال الخصائص، ماجستير. جامعة عنابة. 1996 – 1997.

هادف محمّد. منهاج النّحو العربي للسنة الثامنة من التعليم الأساسي. جامعة باجي مختار. عنابة. 1992 – 1993.

سعيدة كوحيل. مشاكل التعبير الشّفوية وحلولها – دراسة ميدانية – ماجستير. جامعة عنابة. 1992 – 1993 –

مليكة بوراوي. تحليل الأخطاء في اللغة العربية. مدونة طلبة قسم اللغة الفرنسية. ماجستير. جامعة عنابة. 1993 – 1994.

الطّاهر شينون. كتب القراءة والنّصوص السّنة السّابعة من التعليم الأساسي بالمدرسة الجزائرية – دراسة تحليلية نقدية. رسالة ماجستير، جامعة عنابة. 1999 – 2000.

سعاد شقرون. الجملة الاستفهامية بين اللغة العربية واللغة الفرنسية – دراسة تقابلية. ماجستير. جامعة عنابة 1999 – 2000.

محمّد هادف. مناهج النّحو للتعليم الأساسي – دراسة وصفية تحليلية نقدية، رسالة ماجستير. جامعة عنابة، 1999 – 2000.

أحمد حابس. التعبير عن الزّمن في اللغة العربية – دراسة معجمية دلالية. ماجستير. جامعة عنابة. 1999 – 2000.

بوزيد ساسي هادف. الدّلالة الزّمنية للأفعال والأسماء الجارية مجراها – دراسة في لغة الرّسائل الدّيوانية في المغرب والأندلس من خلال صبح الأعشى، ماجستير. جامعة عنابة. 1999 – 2000.

فاتح زيوان. المصطلحات اللسانية عند الشّريف المرجاني 740ه – 816ه. ماجستير. جامعة عنابة. 2000 – 2001.

شريف بوشحدان. دراسة نقدية تحليلية لثلاث طرق في تعليم العربية للمبتدئين غير النّاطقين بها. ماجستير. جامعة عنابة. 1990 – 1991.

عبد الحميد عليوة. الجملة البسيطة في اللغتين العربية والفرنسية – دراسة تقابلية – ماجستير. جامعة عنابة. 1990 – 1991.

خليفة صحراوي. العقبات الصوتية في تعليم اللغة العربية – دراسة تقابلية بين اللغتين العربية والفرنسية. ماجستير. جامعة عنابة. 1990 – 1991.

رمضان عابد. ديوان بشر بن أبي حازم الأسدي معجم ودراسة دلالية. ماجستير. جامعة عنابة. 2001 – 2002.

صاري محمّد. التمارين اللغوية– دراسة تحليلية نقدية–ماجستير. جامعة عنابة. 1991 – 1992.

لعور آمنة. الأفعال الكلامية في سورة الكهف. رسالة ماجستير. جامعة منتوري. قسنطينة. 20111 – 2012.

اليزيد سلطان. الألفاظ السّياسية وتطورها الدّلالي في الجزائر. ماجستير. جامعة قسنطينة 01. 2013 – 2014.

خوالدّية الضّاوي. الألفاظ العربية من الجاهلية إلى القرن الأول الهجري – دراسة في النّشأة والتطور والدّلالة، رسالة ماجستير. جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة. 1998 – 1999.

عبد الرّحمان دحماني. أفعال الكلام في لزوم ما يلزم لأبي العلاء المعري، رسالة ماجستير. جامعة بسكرة، 2015 – 2016.

حمزة لكحل، البعد التداولي للمجاز في كتاب نهج البلاغة، للإمام علي كرم الله وجهه، جامعة محمّد خيضر، 2018 – 2019.

مباركة رفرافي، التراكيب النّحوية بين البلاغة العربية والتداولية، دكتوراه. جامعة محمّد خيضر. بسكرة. 2019 – 2020. ا

نزيهة روينة، التفكير التداولي عند ابن وهب في كتابه البرهان في وجوه البيان، دكتوراه. جامعة محمّد خيضر. بسكرة2019 – 2020

رزقي الطّيب. الإيجاز والإطناب في شعر زهير بن أبي سلمى – دراسة أسلوبية – ماجستير. جامعة منتوري2001 – 2002.

عبد الحميد بوفاس. الإيقاع البلاغي في شعر مفدي زكرياء. دكتوراه علوم. جامعة الإخوة منتوري، 2017 – 2018.

عبد الحميد قدادرة. البحث التركيبي في الدّراسة اللسانية بين كتاب القواعد للسنة السّابعة وكتاب اللغة العربية للسنة الأولى من التعليم المتوسط. رسالة ماجستير. جامعة الإخوة منتوري. 2005 – 2006.

حفصي مريم. البنى الأسلوبية في شعر المتلمس الضّبعي. رسالة ماجستير. جامعة الإخوة منتوري. 2012 – 2013.

بن يونس شهرزاد. البنية اللغوية في القرآن الكريم من خلال العنوان والاعتراض والفاصلة. دكتوراه علوم. جامعة الإخوة منتوري. 2013 – 2014.

رابح بوحوش. البنية اللغوية لبردة البصيري. ماجستير. جامعة عنابة. 1986. – 1987.

بوادي محمّد. البنية النّحوية والدّلالية في سورة البقرة. رسالة ماجستير. جامعة منتوري. 2001 – 2002.

بن شعبان عبد الغاني. التحليل الدّلالي لأسماء الله الحسنى وأفعاله في سورة الحشر، رسالة ماجستير، جامعة الإخوة منتوري. 1985 – 1986

قدور نبيلة. التداخل اللغوي بين العربية والفرنسية وأثره في تعليمية اللغة الفرنسية في قسم اللغة العربية وآدابها. ماجستير. جامعة الإخوة منتوري، 2006 – 2007.

زهيرة قروي. التركيب ألإسنادي في العربية في ضوء اللسانيات الحديثة. ماجستير. جامعة الإخوة منتوري. 1993 – 1994.

خلاف مسعودة. التعليمة وإشكالية التعريب في الجزائر. دكتوراه علوم. جامعة الإخوة منتوري. 2011 – 2012.

مباركي محمّد. التكافؤ الدّينامي بين لسانيات النّص وعلم الترجمة. ترجمة أساليب القصر في القرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية أنموذجا ترجمة ريجيس بلاشار – دراسة تحليلية ونقدية. أطروحة دكتوراه. جامعة الإخوة منتوري، قسنطينة. 2010 – 2011.

بوبقار زينب، التوجيه اللغوي لقراءة أبي جعفر المدني. رسالة ماجستير. جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة. 2010 – 2011.

بن مسيسية رفيقة. التنوع الدّلالي للصيغ الصرفية الاسمية في القرآن الكريم. دكتوراه علوم. جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة. 2018 – 2019.

شتوح خضرة. الجملة الخبرية البسيطة. ماجستير. جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة. – 2002 – 2003.

قرفي يمينة. الجملة الطّلبية في عيون البصائر للبشير الإبراهيمي – دراسة نحوية دلالية – ماجستير. جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة. 2005 – 2006.

بوجادي خليفة. الجملة الطّلبية وأغراضها التواصلية في ديوان طرفة بن العبد. رسالة ماجستير. جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة. 1999 – 2000.

غرس الله أحمد. الجملة الفعلية البسيطة في رسالة الغفران لأبي العلاء

المعري. ماجستير. جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة. 1993 – 1994.

بوجمعة جعلاب. الجملة عند النّحاة والتقديم والتأخير في باب المرفوعات. ماجستير. جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة. 1995–1996.

فنيط جمال. الحاجات اللغوية للكبار. رسالة ماجستير. جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة. 2008 – 2009.

جمعة مسعودي. الجملة الشّعرية في ديوان الارهاصات لعثمان لوصيف دراسة لغوية. رسالة ماجستير، جامعة العربي بالمهيدي. أم البواقي. 2002 – 2003.

مريم بوقرة. اللسانيات الوظيفية في الكتابات العربية الحديثة – أحمد المتوكل–أنموذجا. أطروحة دكتوراه. جامعة عباس لغرور. خنشلة. 2019–2020.

أنور طراد. موقف اللسانيات العربية الحديثة من التراث. الكتابة – أبو صفية أنموذجا – أطروحة دكتوراه. جامعة عباس لغرور. خنشلة. 2019 – 2020.

بحري نوارة. القيمة الدّلالية للصوت اللغوي في قصيدة البردة للبصيري – دراسة وظيفية. رسالة ماجستير. المركز الجامعي. خنشلة. 2005 – 2006.

سايح جودي. دور المكتبة المدرسية في تطوير اللغة العربية عند الطّفل الجزائري المتمدرس من التعليم الابتدائي في مكتبات مدينة بجاية. رسالة ماجستير. جامعة بجاية. 2006–2007.

فلكاوي رشيد. أثر التداخلات اللغوية في الأداء الكلامي عند الطّالب الجامعي – دراسة في عينة من طلبة قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة بجاية. رسالة ماجستير. جامعة بجاية. 2006 – 2007.

كيفوش ربيعة. الإملاء والتحصيل اللغوي لدى تلاميذ السّنة الثالثة من التعليم الابتدائي – دراسة ميدانية. رسالة ماجستير. جامعة بجاية. 2006 – 2007.

عماموش كهينة. مكانة المنطوق الفصيح في بحوث مابعد التدرج؟أطروحة دكتوراه. جامعة بجاية. 2018 – 2019.

ساحل كريمة. تعليمية علوم اللسان الواقع والآفاق. دكتوراه. جامعة بجاية. 2018 – 2019.

رقية كركوري. أثر السّياق اللغوي في توجيه المعنى. أضواء البيان في توضيح القرآن بالقرآن لمحمّد الأمين الشّنقيطي نموذجا. اطروحة دكتوراه. جامعة حسيبة بن بوعلي. الشّلف. 2018 – 2019.

فاطمة الزّهراء السّبع. التراث والحداثة في التفكير اللساني عند الرّحمان الحاج صالح بحوث ودراسات في اللسانيات العربية نموذجا. اطروحة دكتوراه. جامعة حسيبة بن بوعلي. الشّلف. 2018 – 2019.

حياة كاي. استثمارات اللسانيات الحاسوبية في معالجة الأخطاء اللغوية. اطروحة دكتوراه. جامعة حسيبة بن بوعلي. الشّلف. 2018 – 2019.

سليم قرعوط. التعليل النّحوي في ضوء مراجعات الدّرس اللساني العربي الحديث. اطروحة دكتوراه. جامعة حسيبة بن بوعلي. الشّلف. 2018 – 2019.

رضوان شيهان. الحقول الدّلالية في القرآن الكريم البناء وملامح التشكيل–حقل ألفاظ الرّؤية أنموذجا–أطروحة دكتوراه. جامعة حسيبة بن بوعلي. الشّلف. 2018 – 2019.

أحمد عدي. البناء اللغوي في البيان النّبوي من خلال المتواتر لفظا. رسالة ماجستير. جامعة حسيبة بن بوعلي. الشّلف، 2002 – 2003.

طارق لعرابي. الكفايات اللسانية والتواصلية في منهاج اللغة العربية للصفين الابتدائيين الأول والثاني – دراسة لسانية موازنة بين المقررات المغاربية – الجزائر. وتونس والمغرب – أطروحة دكتوراه. جامعة 20 أوت 1955. سكيكدة. 2020–2021.

بوفامة سارة. تفاعل الحقول الدّلالية النّحوية في مجالسّ التذكير من كلام الحكيم الخبير لدى عبد الحميد بن باديس. دكتوراه علوم. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 2018 – 2019.

توهامي نادية. ابراهيم أنيس وآراؤه اللغوية من خلال كتبه. رسالة ماجستير. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 2004 – 2005.

قربوعة إيمان. القصص القرآني في ضوء اللسانيات التداولية. دكتوراه علوم. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 2014 – 2015.

حديق العيد. المسائل اللغوية التي تفرد بها الأصوليون عن اللغويين. دكتوراه. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 2017 – 2018.

كعواش آمال الأصول اللسانية والاتجاهات النّقدية العربية المعاصرة. أطروحة دكتوراه. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 2015 – 2016.

بن نبري محمّد. الدّراسات اللغوية في التحرير والتنوير تفسير الشّيخ محمّد الطّاهر الحداد. رسالة ماجستير. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 1992 – 1993.

بن نبري محمّد. التفكير اللغوي عند الشّيخ محمّد الطّاهر بن عاشور. أطروحة دكتوراه. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 2003 – 2004.

بورويس ذهبية. حروف المعاني عند ابن هشام. – دراسة منهجية دلالية. رسالة ماجستير. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 1993 – 1994.

بورويس ذهبية. حروف المعاني بين البصريين والكوفيين–دراسة دلالية–

أطروحة دكتوراه. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 2004 – 2005.

دودا شامية. ألفاظ العبادات من خلال تفسير الكشاف للزمخشري. دراسة دلالية. رسالة ماجستير. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 1996 – 1997.

عياش فرحات. الاشتقاق ودوره في نمو اللغة العربية. رسالة ماجستير. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 1981 – 1982.

فديدح الحاج. الأفعال في المعلقات السّبع. – دراسة دلالية – أطروحة دكتوراه. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 2003 – 2004.

كشاط عائشة. دراسة المشتقات العربية في سورة الشّعراء – دراسة معجمية بيانية – رسالة ماجستير. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 2005 – 2006.

كعواش عزيز. الدّلالة اللغوية عند ابن جني دراسة في ضوء علم اللغة الحديث. أطروحة دكتوراه. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 2010 – 2011.

نعيجة الطّاهر. التطور الدّلالي من خلال لسان العرب لابن منظور. رسالة ماجستير. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 1995 – 1996.

لحسن عمر. ديوان الخنساء معجم ودراسة صرفية ودلالية. رسالة ماجستير. جامعة عنابة. 1989 – 1990.

بوربيع عبد الله. صيغ المبالغة في عيون البصائر للبشير الابراهيمي – دراسة لغوية دلالية. رسالة ماجستير. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 1997 – 1998.

حاجي الصديق. الاصطلاح الصوتي والبياني في الكشاف للزمخشري (– ت 538 ه) أطروحة دكتوراه. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 2010 – 2011.

سلولة عزيزة. بنية المصدر في القرآن الكريم، الرّبع الأول دراسة لغوية. رسالة ماجستير. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 1996 – 1997.

شويط سلمى. أساس البلاغة للزمخشري – دراسة معجمية بيانية دلالية. رسالة ماجستير. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 2003 – 2004.

مزعاش مراد. المصطلح البلاغي في تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمّد الطّاهر بن عاشور. أطروحة دكتوراه. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 2008 – 2009.

بن بوزة أحمد. موقف النّحاة من القراءات القرآنية إلى نهاية القرن الرّابع الهجري. رسالة ماجستير. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 1989 – 1990.

بان طناش عبد النّاصر. قضايا الخلاف النّحوي بين البصريين والكوفيين في تفسير جامع البيان في تفسير القرآن لابن جبير الطّبري. أطروحة دكتوراه. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 2010 – 2011.

السّبع محمّد كمال. أوجه الإعراب في تفسير البيان في غريب إعراب القرآن لأبي الأنباري(513 – 577ه) – دراسة تطبيقية في سورة آل عمران. رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 2015 – 2016.

يعيشي عبد الحميد. سينية البشير الإبراهيمي – دراسة لسانية مقارنة. رسالة ماجستير، الجامعة الإفريقية – أحمد دراية. أدرار. 2013 – 2014.

بلحاج آمال. التوجيه النّحوي لقراءة خلف ابن هشام وأثره في المعنى. رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 2014 – 2015.

بلقاسم جمال. القياس اللغوي عند البصريين ودوره في تطوير اللغة – الخصائص لابن جني نموذجا – رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 2004 – 2005.

بوقطة عبد الرّحيم. شرح المقدمة الأزهرية في علم اللغة العربية للشيخ خالدّ الأزهري. دكتوراه علوم. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 2018 – 2019.

توهامي نادية. نظرية العامل النّحوي العربي في ضوء النّظرية التوليدية التحويلية. دكتوراه علوم. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 2014 – 2015.

بلقاسم جمال. القياس اللغوي عند البصريين ودوره في تطوير اللغة – الخصائص لابن جني نموذجا – رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 2004 – 2005.

بوزيادة سامية. ظاهرة الزّيادة في اللغة العربية – دراسة دلالية – . دكتوراه. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 2011 – 2012.

بوزياني خالدّ. القياس النّحوي عند يونس بن حبيبي من خلال كتابه سيبويه. رسالة ماجستير. جامعة الجزائر. 1997 – 1998.

حجاج حليمة. الجواب بنعم، وبلى في القرآن الكريم. دراسة نحوية بلاغية. ماجستير. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 2014 – 2015.

حمـروش ادريـس. الاختـلاف فـي العامل النّحوي بين البصريين والكوفيين. ماجستير. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 1998 – 1999.

خطـاب صالـح. العمدة فـي الجملة العربية في ضوء النّظرية التوليدية التحويلية. ماجستير. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 2014 – 2015.

دقة بلقاسـم. بنيـة الجملـة الطّلبية في السّـور المدنية – دراسـة نحويـة دلالية. دكتوراه. جامعة الأميـر عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 2000 – 2001.

رزاق فاطمة. تيسير تعليم النّحو العربي في نظر ابن رشد في ضوء تعليمية اللغات.. دكتوراه علـوم. جامعة الأميـر عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 2016 – 2017.

روبحي لخضـر. الشّـاهد النّحوي في تفسـير جامع البيان عن تأويـل آي القرآن لأبـي جعفـر محمّد بـن جريـر الطّبري. دكتوراه. جامعة الأميـر عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 2004 – 2005.

غرس الله أحمد. المشـكلات اللغوية في رسـالة الغفران لأبي العـلاء المعري. دكتوراه. جامعة الأميـر عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 2005 – 2006.

قـادم رشـيد. الجملـة البسـيطة فـي معلقة عمـرو بن كلثوم – دراسـة توليدية تحويلية – رسـالة ماجستير. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسـلامية. قسـنطينة. 2004 – 2005.

مدلل علـي. المناظـرات النّحوية بين البصريـين والكوفييـن مـن نشـأة النّحو إلى نهاية القـرن الثالث الهجري. رسـالة ماجستير. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 1998 – 1999.

مرابط خليفة. الأنماط النّحوية للجمل الفعلية المؤكدة بالقصـر والنّفي والاتثناء في القرآن الكريم – دراسـة نحوية بلاغية تطبيقية. رسـالة ماجسـتير. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسـلامية. قسـنطينة. 2001 – 2002.

نطور محمّد الشّريف. التوجيه النّحوي للمعنـى في تفسـير ابـن عطية – سـورة هـود أنموذجا – ماجسـتير. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسـلامية. قسـنطينة. 2014 – 2015.

نـكاع زهيـة. بنيـة الخطـاب القرآني الموجـه إلـى محمّـد @ بصيغتي يـا أيها النّبي، ويا أيها الرّسول – دراسـة إحصائية اسلوبية، بلاغية. رسـالة ماجستير. جامعة الأميـر عبـد القـادر للعلوم الإسـلامية. قسنطينة. 2007 – 2008.

بوخالفـة السّـعيد. اللهجـات العربية في معجـم الجمهرة لابن دريد – دراسـة لغوية – رسـالة ماجسـتير. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسـلامية. قسـنطينة. 1992 – 1993.

بولغيتـي مانت. جهـود عبـد الجليل مرتـاض فـي مجـال علـم اللهجـات العام – دراسـة وصفية – ماجسـتير. الجامعـة الافريقية. أحمـد درارية. أدرار. 2013 – 2014.

شـاوي زينب. تهذيب اللغة للأزهري واللهجات العربية. ماجستير. جامعة عنابة. 1990 – 1991.

مزعاش مـراد. جهود جمعيـة العلماء المسـلمين الجزائريين في خدمـة اللغة العربيـة فـي الجزائر. رسـالة ماجسـتير. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 2000 – 2001.

بوجـادي خليفة. خصائـص التركيب اللغوي في بوابات النّور للشاعر الجزائري عبد القادر بن محمّد بن القاضي – دراسة فـي الوظيفة التداوليـة. أطروحة دكتوراه. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة 2005 – 2006.

بوحـوش رابـح. اللغة الشّـعرية لدى البحتـري، أطروحـة دكتـوراه. جامعـة الجزائر، 1997 – 1998.

• **أ. د باديس فوغالي**
جامعة قسنطينة

المصادر

رقمنة اللّغة العربيّة في البحث العلميّ الجزائريّ

أ.د. مختاريّة بن قبليّة
أ.د. فاطمة الّزهراء حبيب زحماني

توطئة:

كتَبَ اللّه عزّ وجلّ للّسانِ العربيِّ أن يتخلّص من قيود العِرقيّة، ويُصبح لسانَ أمّةٍ فلِسانًا عَالمِيًّا، واصطفى له من يخدمه بالتّدريس والبحث والتّأليف، ابتداءً من عصر التّدوين إلى يومنا هذا، وكان أن أنجبت الجزائر من رحمها من يحمل هذا المشعل، فكانوا خيرَ خلفٍ لخيرِ سلفٍ. ولمّا تبدّلت الأحوال، وصنعت العولمة بالعالم ما صنعته، صار لزاما على كلّ غيور على لغة الضّاد من العلماء والباحثين أن يُشَخّصَ التّحدّيات المُستجدّة التي تواجهها للوقوف على آليات النّهوض بها، وجعْلِها مواكبة لكلّ جديد، ومن هنا جاء الاهتمام برقمنة اللّغة العربيّة.

بدأ حُلم المحاكاة الآليّة للبشر يتحقّق في الدّول المتطوّرة منذ ما يُقارب القرن، وكان في هذه المرحلة أشبه بالهذيان أو بأفلام الخيال العلمي، لكنّه سرعان ما أخذ يحقّق بعض الانتصارات التي تجسّدت في أجهزة الحاسب وما اقترب منها من آلات ذكيّة. «ولمّا كان الذّكاء الاصطناعي قائما على محاكاة مهارات البشر، كان من الضّروري أن يدخل إلى ميدان اللّغة»، وكان من المنطقي أن تكون اللّغة الإنكليزيّة هي المستفيد الأوّل بحكم ازدهار الذّكاء الاصطناعي في أمريكا، وبقيت هذه اللّغة مستحوذة على ميدان الرّقمنة لفترة طويلة، في حين تأخّرت اللّغة العربيّة عن الرّكب بسبب طابعها الخاص نطقًا وكتابةً، لكنّها مع ذلك التّحقت به بفضل مجهودات المعلوماتيّين النّاطقين بها.

رقمنة اللّغة العربيّة في البحث العلمي الجزائري:

بَدَتْ الخطوات الأولى لرقمنة اللّغة العربيّة متعثّرة نوعا ما نظرًا لوجود الكثير من المُعيقات؛ حيث استصعب المعلوماتيّون في -البدايّة- العمل بلغة جديدة بعد أن كانت الأرضيّة جاهزة باللّغة الإنكليزيّة وقريباتها من اللّغات الأجنبيّة، هذا بالإضافة إلى عدم وجود بنوك معطيات كافيّة باللّغة العربيّة، وكذا خصوصيّة الحرف العربي وغيرها من التّفاصيل التي تستدعي جهودا كبيرة.

إنّ حاجة الجزائر إلى رقمنة لغتها الرّسميّة جعلتها تخطو خطوات نحو الأمام بفضل سواعد أبنائها من المعلوماتيّين، ونلمس ذلك في بحوث وإصدارات أقسام الإعلام الآلي في الجامعات الجزائريّة، وكذا المدارس العليا ومراكز البحث والمختبرات العلميّة ذات الصّلة. ولعلّ بعض هذه الجهود لا تمسّ اللّغة العربيّة بشكل مباشر، إلا أنّها تعمل على جعلها لغة التّداول في الجزائر؛ خاصّةً إذا ما تعلّق الأمر بلغة المواقع الرّسميّة.

تتمّ رقمنة اللّغة العربيّة بطريقتين مختلفتين: أمّا الأولى فتكون بتصويب الجهود مباشرة نحو خدمة مستوًى من مستويات اللّغة العربيّة أو أكثر (الصّوتي والصّرفي والنّحوي والدّلالي)؛ من مثل: برامج وتطبيقات التّعرّف الآلي على الكلام المسموع، والتّعرف البصري على الخط العربي، والألعاب اللّغويّة، وبرامج تصريف الأفعال العربيّة، والمعاجم الآليّة، والمترجم الآلي، وتطبيقات تعليم اللّغات للنّاطقين بغيرها. بينما تكون الطّريقة الثّانيّة غير مباشرة: «أيّ أنّها مخصّصة لمجالات مختلفة لكنّها تشتغل باللّغة العربيّة، فتعمل على تعزيز استعمالها؛ من مثل: الألعاب غير اللّغويّة، والبرامج والتّطبيقات المتعلقة بمجالات الصّحة وأحوال الجوّ والخرائط وغيرها من المجالات».

يخدم الذّكاء الآلي اللّغة البشريّة بطريقتين مختلفتين: أولاهما طريقة التّعرّف البصري على الحروف (OCR) التي تُحوّل صور النّصوص الممسوحة ضوئيّا إلى نص معالَج آليًا، «والذي يتم ترميزه عادةً باستخدام نظام تمثيلي. والتّعرّف البصري على الحروف هو النّسخ الذي تقوم به الآلة محاكاةً للقراءة البشريّة». وثانيهما طريقة تصنيف

النّصوص العربيّة وهي «عمليّة تعيين مستند نصّي (أو مجموعة من الوثائق) لموضوع محدّد مسبقًا استنادًا إلى محتواه. وهو مجال بحث مهم نظرا لضرورته أمام الكمّ الهائل من الوثائق النّصيّة المتاحة على الشّابكة، وكذا في المؤسسات. ويعمل التّصنيف على استرجاع المعلومات من الوثائق التي تفتقر إلى الكلمات المفتاحيّة، بالإضافة إلى وجود بعض المستندات النّصيّة التي تحتوي على كلمات مفتاحيّة لكنها لا تعبّر بمصداقيّة عن المحتوى الكامل للمستند، وهو ما يعيق استرجاعه».

I. رقمنة اللّغة العربيّة في الجامعة الجزائريّة:

قدّم المعلوماتيّون الجزائريّون الكثير في ميدان رقمنة اللّغة العربيّة بحسب ما أُتيح لهم من إمكانات، ومن تلك الجهود ما ارتقى إلى أن يُقدَّم في شكل أطروحة دكتوراه أو رسالة ماجستير، وتعتمد هذه الأعمال في الغالب على تكييف أنظمةٍ وتقنياتٍ عالميّة مع متطلبات اللّغة العربيّة. ومن بين ما أُنجز في الجامعات الجزائريّة (أنظمة فهرسة واسترجاع النّصوص العربيّة) لما لها من أهمّيّة في شتى المجالات، وهذه الأنظمة تعتمد على تقنيات المعالجة الآليّة للّغات الطّبيعيّة، وبفضل هذه الجهود يُنجَز المحلِّل الصّرفي الذي من شأنه التّدخّل في مرحلة الفهرسة والبحث. إلا أنّ مثل هذه الإنجازات لا يسلم من العقبات التي تحول دون معالجة اللّغة العربيّة بشكل خالٍ من الأخطاء، ويعود ذلك إلى طبيعة هذه اللّغة التي تختلف عن بقيّة اللّغات في تفاصيل كثيرة؛ نذكر من بينها عدم اعتمادها على التّشكيل للتّرميز للصّوائت نظرا لعدم أهمّيته في الرّسم الإملائي (الكتابة) بالرّغم من أهميّته في النّطق، وغياب الحركات في النّصوص يَحولُ -غالبا- دون الخروج بنتائج جيدة في حوسبة اللّغة العربيّة.

إنّ زيارةً لمكتبات البحث العلمي العربيّة عموما والجزائريّة خصوصا ستكشف كثرة البحوث التي كُتبت في مجال رقمنة اللّغة العربيّة في الآونة الأخيرة، ولعلّ الجزء الأكبر منها ينتمي إلى ميدان العلوم الإنسانيّة، ويهتمّ بوصف المنجزات التي قُدّمت في هذا الميدان، أمّا الجزء الآخر فهو ما صدر من أعمال تطبيقيّة تنتمي إلى مجال علوم الحاسب، وهي على قلّتها تُعدُّ في غايّة الأهمّيّة، وتتوزّع في الجزائر على مختلف أقسام ومختبرات الإعلام الآلي، وهذه الأعمال هي التي يجب علينا الاهتمام بها وتصويب الضّوء عليها. ولتوضيح ما سبق؛ لا بأس من الاطّلاع على عيّنة من منجزات طلبة الإعلام الآلي بالجامعات الجزائريّة في أطروحات ورسائل مرحلة ما بعد التّدرّج، ولتكن من جامعة العلوم والتّكنولوجيا بوهران، حيث وجدنا أنّ الكثير من أبنائها قد اختاروا الاشتغال على حوسبة اللّغة العربيّة، ومن بين تلك الإنجازات نذكر:

أطروحات الدّكتوراه:

• **دعم اتخاذ القرار لإعداد مسارات تعلّم تتكيّف مع الملامح المعرفيّة للأشخاص المصابين بالتّوحد:** ويقع هذا العمل بين مجالين، أوّلهما الألعاب الجادة وثانيهما هو الرّؤيّة الحاسوبيّة. ونتج عن هذا العمل صُنْع MEDIUS: نظام لدعم القرار، يستند على استراتيجيّة اتصال جديدة، يتم تقديمه في شكل ألعاب صغيرة/ micro-jeux باللّغة العربيّة ونظام كشف الوجه بغرض حساب ومراقبة درجة تركيز اللّاعبين المتعلّمين.

• **الحواشي الدّلاليّة في مستندات الويب: تطبيق على النّصوص النّفسانيّة باللّغة العربيّة:** «يعدّ التّعرّف على الكائنات مكوّنًا مهما جدًّا في معالجة اللّغة الطّبيعيّة البيوطبّيّة. مما يتيح استخراج المعلومات واكتشاف المعارف من النّص. وقد تطوّرت مثل هذه الدّراسات المتعلقة بالميدان البيوطبي باللّغة الإنكليزيّة وبعض اللّغات الأخرى، وغابت اللّغة العربيّة عن هذا المسار، إلى أن أنجزت الباحثة خيرة لكال أطروحتها لنيل شهادة الدّكتوراه في الإعلام الآلي في 2018».

• **المساهمة في البحث الذّكي على الويب:** الفهرسة الدّلاليّة للنصوص غير المنظّمة: شهد الويب تطورًا كبيرًا من حيث المحتوى والاستخدام منذ أن تمّ التّرويج له بين العامة في أوائل التّسعينيّات، لكن لسوء الحظ، فإن الطّبيعة غير المنظّمة لكمياتٍ هائلةٍ من المعلومات المتاحة على الشّابكة جعلت مسألة استهداف واسترجاع المعلومات ذات الصّلة أمرًا في غايّة الصّعوبة». وجاء عمل عبد الرّزاق الإبراهيمي هذا ليُقدّم بعض الإسهامات الكبرى التي نوجزها فيما هو آت:

1. اعتماد المدونات (corpus) الواقعيّة،
2. اقتراح مقياس جديد يعتمد على (تباعد كولباك ليبلير)،
3. تطوير خوارزميّة جذعيّة لتحليل وفهرسة النّصوص العربيّة،
4. إعداد ثلاث مجموعات عربيّة مبنيّة على مقالات صحفيّة متعلّقة بفترة 2007/ 2010 لإجراء التّجارب.

ومن بين النّتائج التي خرجت بها هذه الدّراسة نذكر: «تبيين فعاليّة النّظر في المستوى المورفولوجي وكذا في الاختلافات الطّباعيّة في الفهرسة

الدّلاليّة للّغات التي تعتمد بشكل كبير على التّصريف من مثل اللّغة العربيّة».

• **المساهمة في تحسين التّعَرُّف التّلقائي على الكلام بطرق إحصائيّة:** بُذلت مجهودات كبيرة في تطوير نظام قوي للتعرُّف الآلي على الكلام (Automatic speech recognition) /ASR في السّنوات الأخيرة، مما أدّى إلى هيمنة الطّرق الإحصائيّة على هذا المجال. وجاء عمل (فريحة مزوج) هذا «لتعويض الطّرق المبنيّة على التّعرف على الأصوات والكلمات المعزولة التي تشكل مفردات مغلقة صغيرة، بطرق يمكنها التّعرف التّلقائي على الكلام المستمر بما فيه المفردات الكبيرة». ومن نتائج هذا الإنجاز أيضا «تطوير النّماذج القائمة على القواعد الجيّدة والمناسبة للمهام الصّغيرة جدًا باستخدام نماذج لغة إحصائيّة قويّة وشاملة للمفردات الكبيرة. ووفقًا لأحدث التّقنيات؛ يمكن تحسين التّعرّف التّلقائي على الكلام عبر تحسين النّماذج السّمعيّة/ acoustic models والمفردات و/ أو نماذج اللّغة. كما يتسنّى ذلك بحسن اختيار البيانات المتاحة في الشّابكة وبتطبيق التّعديلات اللّائقة عليها».

• **التّعرف المتصل بالشّابكة على المخطوطات العربيّة:**

إنّ الدّافع الرّئيس للعمل في مجال التّعرف على الأحرف العربيّة بالاتصال بالشّابكة هو دراسة المخطوطات العربيّة عبر هذه التّكنولوجيا. وقد اعتمد صاحب هذه الأطروحة رضوان التّلمساني على نظام ماركوف/ Markovian system المبني على الافتراض والملاحظة. وتكمن الأهميّة الكبرى لهذه الأنظمة في التّعلّم الكامل للنّماذج انطلاقا من المعطيات.

• **تطوير نظام التّعرف على الكلام باللّغة العربيّة للكلمات المتصلة باستخدام HTK:**

«اقترحت الباحثة نهال مراد بوديّة في هذا البحث، طريقة فعّالة للتّعرف على الكلام العربي المستمر مستقلا عن المتحدّث، بناءً على مدوَّنة كلام مكوّنة من مجموعتين من المعطيات: 1) الأرقام العربيّة المنطوقة (SAD)، المسجلة من كلام 66 متحدثًا (33 رجلًا و33 امرأة)، تؤخذ 6600 كلمة من الأرقام؛ يَنطق فيها كل متكلم الأرقام من صفر إلى تسعة، عشر مرات لكل رقم. 2) تقتصر المجموعة الثّانيّة من المعطيات على الجمل القرآنيّة لثلاثة متحدثين مشهورين تُراعى فيها قواعد التّجويد وحُصرت في آخر ثلاثين سورة من القرآن الكريم».

• **وضع نظام لاكتشاف وتحديد الارتباطات السّمعيّة للصوامت العربيّة المفخّمة:**

«تحوي اللّغة العربيّة مجموعة من الصّوامت/ Consonant المعقّدة التي تُسمى بالصّوامت المفخّمة، ويُعدّ التّعرف عليها تحدّيا حقيقيّا، وتهدف دراسة الهادي الهلايلي هذه إلى وضع مقياس لفك التّشفير السّمعي الصّوتي القادر على التّعرّف على الصّوامت التي تختصّ بها اللّغة العربيّة. ويقترح هذا البحث معالجة آليّة للتّفخيم على المستوى السّمعي النّطقي بإجراء توليفة من الأعمال والتّجارب لفهم سلوك الأعضاء أثناء النّطق، ونتيجتها السّمعيّة، ويتم ذلك بمعاينة علاقاتها مع نظائرها غير المفخّمة. وقد استعمل الباحث ها هنا المصنّفات العصبيّة (MPC Network Gamma، LVQ)».

• **التّعرّف والتّأكّد من النّاسخ استنادًا إلى تركيبة من الخصائص المتعدّدة للكتابة غير المباشرة للمخطوطات:** «يتناول العمل المقدم في هذه الأطروحة مُشكِلة تحديد هويّة النّاسخ الذي كتب المخطوطة دون الاستعانة بالشّابكة (بدون اتصال) والتّحقق منه من خلال خط اليد. يقترح هذا العمل نظاما يشتغل وفق مهمّتين متكاملتين مستقلتين عن النّص. وتُعدُّ مهمة استخلاص الخصائص مرحلة في غايّة الأهميّة بالنّسبة لنظام التّعرُّف على النّاسخ، ويكمن الهدف منها في جمع المعلومات ذات الصّلة القويّة لإنجاز مهمة تصنيف المعطيات. وقد مثّلت هذه الأطروحة عيّنات الكتابة اليدويّة انطلاقا من سماتها، التي نذكر منها: الاتجاه والانحناء وسُمك الخط وحجم الكتابة».

رسائل الماجستير:

• **تحليلٌ صرفيٌّ للنصّ العربي بغرض فهرسته دلاليًّا:**

يكمن «الهدف من هذا المشروع في تحقيق دراسة مقارنة لمختلف المقاربات التّجذيعيّة، ودراسة إمكانيّة استعمال أيّ منها لصالح نماذج الفهرسة الدّلاليّة للنّصوص العربيّة»، بالإضافة إلى تطوير مُحلّل صرفي لاستخلاص الجذور والمداخل المعجميّة العربيّة من المدونات النّصيّة وتقييمها.

• **مساهمة العصبيّة الماركوفيّة في التّعرّف الآلي على اللّغة العربيّة:**

إنّ «الدّافع من هذه الدّراسة هو تقييم أداء المصنِّفات الارتباطيّة (connexionnists) مقارنة بالنّماذج الإحصائيّة المستخدمة بكثرة -في القديم- للتعرف على الأشكال. أما مجال التّطبيق فكان: المعالجة الآليّة للكلام، وبالأخص التّعرف عليه».

• **تصميم واجهة لغة طبيعيّة (عربيّة) لتصميم نُظُم معلومات:**

يهدف هذا المشروع إلى «دعم تصميم نظم المعلومات لتحقيق أداة إنشاء رسم بياني للغة نمذجة موحّدة/

UML unified modelling language استنادًا إلى مواصفات اللّغة العربيّة، من وجهة نظر المعالجة الآليّة للّغة. وتُعدّ طريقة (لغة النّمذجة الموحدة) UML معيارًا للطُّرُق المُوجّهة نحو تصميم نُظم المعلومات».

ومن بين أطروحات الدّكتوراه المسجّلة في المؤسّسة نفسها نذكر:

- المساهمة في التّعرف على خط اليد دون الاتّصال بالشّابكة،
- المساهمة في استنساخ الأجزاء المفقودة في المخطوطات العربيّة،
- دمج الحوسبة النّاعمة في تجزئة الكتابة اليدويّة العربيّة دون اتصال بالشّابكة،
- فهرسة مستندات الصّور العربيّة للبحث عن الكلمة،
- نماذج المعالم المميّزة لتحديد المحاور الصّوتيّة للغة العربيّة: نظريّة الكم،
- التّحديد التّلقائي لطراز SVM، تطبيق التّعرف على خط اليد العربي.

II. مركز البحث العلمي والتّقني لتطوير اللّغة العربيّة:

هو مؤسسة جزائريّة عموميّة ذات طابع علميّ وتكنولوجيّ، يكتسي صبغة قطاعيّة مشتركة، أسّسه العلّامة البروفيسور عبد الرّحمان الحاج صالح رحمه اللّه في 14 ديسمبر 1991 بالمرسوم التّنفيذي رقم 91-477، خلفًا لمعهد العلوم اللّسانيّة والصّوتيّة، ولوحدة البحث في علوم اللّسان والتّبليغ اللّغوي، وأصبح مؤسسة عموميّة ذات طابع علمي وتكنولوجي في: 31 ديسمبر 2003. وهو يخضع لأحكام المرسوم التّنفيذي رقم 99-256 المؤرخ في: 16 نوفمبر 1999. ويشتغل المركز تحت وصايّة وزارة التّعليم العالي والبحث العلميّ.

يسعى مركز البحث العلمي والتّقني لتطوير اللّغة العربيّة منذ تأسيسه على يد العلّامة عبد الرّحمن الحاج صالح رحمه اللّه إلى الارتقاء باللّغة العربيّة والدّرس اللّساني العربي بحِرصه على تلاقح العلوم ذات الصّلة، حيث تتكاتف جهود اللّغويّين والمعلوماتيّين لِيَشُقُّوا لهم طريقًا مُشتركا نحو ميادين: اللّسانيات العصبيّة وتعليميّة اللّغة العربيّة واللّسانيات العربيّة واللّسانيات الحاسوبيّة، وهي المهام التي تأخذها أقسام المركز الأربعة على عاتقها، ويشتغل عليها ثُلّة مِن الباحثين تنظيرًا وتطبيقًا.

يأخذ المركز موقعه الرّيادي الفعّال من اهتمامه الفائق بالرّقمنة والمعالجة الآليّة للغة العربيّة، وهذا ما نلمسه في أشغال كلّ الأقسام وعلى رأسها قسم اللّسانيات الحاسوبيّة، ولا شكّ أنّ هذا الميدان شاسع وشائك، ممّا يستدعي الكثير من العمل باستغلال نتائج البحث الحديثة، وهذا ما يتّضح من خلال المشاريع التي يتبنّاها المركز.

يبني المركز جسرا بين مجال علوم اللّسان العربي والدّراسات اللّسانيّة المعاصرة، وهو عملٌ يستدعي الكثير من الحذر، حيث يمزج الكثير من الباحثين بين الدّرسين بشكل مُبتذل، وهو أمرٌ حذّر منه العلامة الحاج صالح رحمه اللّه، وترك لنا ما نتحصّن به لتجنُّب الوقوع في هذا الزّلل، ولا شكّ أنّ المركز يمشي على خُطى مؤسّسه من أجل الأخذ بالدّرس اللّساني العربي إلى الأمام، وبالأخصّ ما تعلّق بالجانب التّطبيقي، كالصّناعة المعجميّة وعلم المصطلح والتّرجمة.

يُعدّ مجال تعليميّة اللّغة العربيّة من المجالات الحسّاسة التي تحمل نتائج يتوقّف عليها مصير الأجيال على طول المسار الدّراسي، وهذا ما يستدعي الكثير من الأعمال الميدانيّة المواكبة للعصر والقائمة على التّحديث المستمرّ، ونحن نطمح إلى أن يصل الباحثون داخل المركز وخارجه إلى نتائج عصريّة بعد الاستفادة من أحدث النّظريات وتَبَنّي أحدث الاستراتيجيات، وعلى رأسها استراتيجيّة التّعلّم الانغماسي الذي أعطى نتائج مثمرة في كندا وأمريكا وبلجيكا وغيرها.

لاحظنا اهتمامًا جادًّا من المركز باستثمار نتائج اللّسانيات العصبيّة، وبالأخصّ ما تعلّق بأمراض الكلام، وهو مجهود نُثمّنه، وندعو إلى دعمه بالدّراسات الحاسوبيّة التي تعمل على برمجة تطبيقات خاصة بتعليم اللّغة العربيّة لذوي الاحتياجات الخاصّة، وبالأخصّ أطفال التّوحُّد والمصابين بمتلازمة داون.

سطر المركز لباحثيه مجموعة من المهام الأساسيّة التي تمثّلت في: «إجراء بحوث نظريّة وتطبيقيّة حول تطوير اللّغة واللّسانيات العربيّة؛ بالتّعاون مع الهيئات والمؤسّسات المعنيّة بتوحيد المصطلحات وإقرارها، وإنجاز مشاريع بحث في المجالات الخاصة بعلوم اللّسان وتقنياته المطبقة على اللّغة العربيّة واللّغات واسعة الذّيوع؛ قصد تطوير اللّغة العربيّة على المستوى التّعليمي والتّكنولوجي».

أمّا عن مجالات البحث التي أعلن عنها المركز ونشرها في موقعه الإلكتروني الرّسمي (http: / /crstdla.dz)، فتمثّلت في:

اللّسانيّات العربيّة: وتنطلق من النّظريّة الخليليّة الحديثة التي أسّسها

عبد الرّحمان الحاج صالح رحمه اللّه، وهذا سعيًا من المركز إلى تعميقها وتطويرها وإجراء المقارنة بينها وبين النّظريّات اللّسانيّة الأخرى.

علم تعليم اللّغات وتعليم العربيّة: تمُسّ هذه الدّراسات مختلف المستويات التّعليميّة؛ وتقوم في الأساس على نقد تعليميّة اللّغة العربيّة واللّغات الأجنبيّة في الجزائر ومقارنتها مع غيرها، لتُقدّم الاقتراحات والحلول من أجل تحسين وضبط طرائق التّعليم اللّغوي.

علم المعاجم والمصطلحات العربيّة: تُساهم البحوث المدرجة ضمن هذا المجال في ضبط المصطلحات العلميّة والتّقنيّة العربيّة على مستوى الوطن العربيّ.

فنّ وعلم التّرجمة: تُقدِّم البحوث العلميّة المُنطلقة من هذا المجال نتائجها لتقويم طرائق التّرجمة وضبط تقنيّاتها لتسهيل عمل مترجمي الكتب العلميّة.

العلاج الآلي للّغة أو اللّسانيات الحاسوبيّة: يهتمّ هذا المجال بالنّظريات اللّسانيّة المختلفة، وعلى رأسها النّظريّة الخليليّة الحديثة. ويسعى أيضا إلى دراسة وتقويم النّظريات العلميّة المتعلّقة بميدان حوسبة اللّغات، ومن ثمّ القيام بضبط البرمجيّات والأنظمة والأدوات الحاسوبيّة؛ لاستثمارها في تعليميّة اللّغات والمعجميات وأمراض الكلام وقواعد المعطيات وغيرها من العلوم اللّسانيّة الفرعيّة أو العلوم ذات الصّلة التي لا تستغني عن الرّقمنة وعالم التّقانة.

قواعد المعطيات الآليّة: يُشرفُ المركز من خلال هذا المجال على إنجاز المشروع الدّوليّ الذي أسّس له البروفيسور عبد الرّحمان الحاج صالح والموسوم بمشروع الذّخيرة العربيّة، وهو مشروع الأمّة الذي اختار له دولة الجزائر مركزا للعمل، وتكون المساهمة في هذا الإنجاز بكيفيّة دائمة، وهذا بفضل الاستفادة من كلّ ما يصدر من بحوث علميّة في ميدان المعالجة الآليّة للّغة العربيّة، وبالتّعاون بصفة خاصّة مع الهيئة العليا الدّوليّة لمشروع الذّخيرة العربيّة.

الصّوتيات والعلاج الآلي للكلام المنطوق: يتمّ الاشتغال على هذا المجال بإجراء «الدّراسات المخبريّة وإعداد الأدوات الحاسوبيّة المناسبة لتحليل الكلام المنطوق وتركيبه الاصطناعي، واستكشاف هويّة عناصره بكيفيّة آليّة؛ وذلك للتّمكن من وضع الأجهزة الخاصّة بالتّعرف الصّناعي على الكلام واصطناعه».

علم أمراض الكلام: ينطلق العمل في هذا المجال من اللّسانيات العصبيّة، ويتمّ بإجراء دراسات عياديّة على مختلف أمراض الكلام وعلى رأسها مرض الحبسة، وبإعداد منهجيّة لتشخيص اضطرابات هذا المرض وضبط طرائق مناسبة لعلاجه.

إنّ صعوبة المجال الذي يشتغل عليه المركز وتعلّقه بمواضيع حسّاسة تَمُسّ اللّغات البشريّة والسّلوك الكلامي -بصفة عامة- واللّغة العربيّة -بصفة خاصّة- جعلته يتبنّى استراتيجيّة خاصة لتحقيق مهامّه وأهدافه العلميّة، وهي كالآتي:

1. يُعدّ المركز المؤسّسة العلميّة الوحيدة التي تجمع بين خبراء متعدّدي التّخصّصات للعمل في مشاريع موحّدة تستثمر توجّهاتهم في خدمة اللّغة العربيّة؛ فمنهم من يشتغل في مجال هندسة اللّغة؛ وهم: مهندسون، ولسانيّون، ومختصّون في تعليميّة اللّغات، ومعجميّون. ومنهم من يشتغل في مجال أمراض الكلام، وهم: أطبّاء، ومختصّون في الحبسة، وأرطوفونيّون، ومختصّون في اللّسانيّات العياديّة، إلخ.

2. يعتمد المركز في عمله على التّكنولوجيّات المختلفة، مثل: الإعلام الآليّ، والإلكترونيك الأكوستيكيّ الفونيتيكي، وغير ذلك من الوسائل التّقنيّة التي تستجيب لمتَطَلّبات البحوث الحديثة متعدّدة التّخصّصات.

3. يعمل المركز على خلق حالة من التّوافق والانسجام بين الفِرَق التي تشتغل على مجالات مختلفة، بحيث تتّحد كلّ الجهود من أجل تأسيس بحوث قائمة على نظريّات علميّة مترابطة إبستيمولوجيًّا. ويعكس تعدّد التّخصّصات في المركز والاعتماد على ما تنتجه الميادين التّقنيّة وُجهةَ الحداثة التي يتبنّاها، مع المحافظة على الرّصيد العربيّ الأصيل وترقيته.

من نقاط القوّة التي تدفع المركز إلى الأمام ما يَعقِدُه من شراكات مع المؤسّسات الفاعلة التي ترتقي باللّغة العربيّة إلى مصاف العالميّة، من مثل الشّراكة التي عقدها مع المجلس الأعلى للغة العربيّة، ونحن نرى في مثل هذه الخطوات ما يفتح المجال أمام الباحثين الجزائريّين المنتسبين إلى مختلف الهيئات العلميّة لتبادل الخبرات خدمةً للغة الضّاد.

استمدّ المركز الوطني لترقيّة اللّغة العربيّة قيمته العلميّة من إنتاجاته ومن شخصيّة عبد الرّحمن الحاج صالح، الذي تبنى عدّة أفكار ومشاريع؛ منها ما تحقق ومنها ما لم يكتمل بعد، بالرّغم من الخطوات الكبيرة التي حقّقها، وإنّنا هاهنا نقصد مشروع الذّخيرة اللّغويّة، وفيما يلي حديث مستفيض عن هذا المشروع الثّقافي الضّخم.

مشروع الذّخيرة:

بلاد العرب ولاّدة أبد الدّهر، ففيها رجالٌ عاهدوا اللّه على حبّه وحبّ رسوله ﷺ، وحبّ لغة القرآن، ومن هذه

المحبّة ولد فكر لغـويّ رصين، ندّعي أنّه لم تكتشـف أسـراره بعـد، اجتمعت فيه الرّوح والمـادة، وقلّما يحـدث ذلك في تاريخ الدّراسـات اللّغويّة العالميّة. فبعد أن تباعـدت الأزمنة وظهرت اللّسـانيات العامـة لمع نجم الأسـتاذ الدّكتـور عبد الرّحمن الحاج صالح، ابن الجزائر الأبرّ، ملوحًا بمشـروعٍ كبيرٍ أسـماه: «مشـروع الذّخيرة» سـاعيًا إلى خدمة اللّغة العربيّة؛ فكرتُه الجنينيّة هي فكـرة جريئة اقترحها في بدايّة الثّمانينيّـات من القرن الماضي، حاول من خلالها الرّجوع إلى الاستعمال الحقيقي للّغة العربيّة واستثمار ما وصلت إليـه تقنيات الإعـلام الآلي، كمـا اقترح إشـراك أكبر عدد ممكن من المؤسّسات العلميّة في إنجاز هذا المشروع، لامتيازه بأبعاد تتجاوز المؤسسة الواحدة، بل البلد الواحد، على حد تعبيره. وفي ديسمبر من سنة 1988م عرضت الجزائر هذا المشروع على المجلـس التّنفيذي للمنظّمة العربيّة للتربيّـة والثّقافة والعلـوم، ونال موافقتها فتبنّتـه فـي حـدود إمكانياتهـا الماديّـة والبشريّة. وتفاعلت الكثير من المؤسسات كالمجامـع اللّغويّة والجامعـات ومراكز البحـوث ووزارات التّربيّـة بإجماع على أهميّة المشروع وضرورة إنجازه.

انعقدت إثر ذلـك أوّل ندوة بجامعة الجزائر بالتّعـاون مع المنظّمـة العربيّة للتربيّـة والثقافـة والعلـوم لدراسـة المشـروع واتخـاذ القـرارات اللّازمة، وخرجت النّدوة بتوصيات بشـأن تنظيم العمـل والمشـاركة وإنشـاء اللّجـان لمتابعـة سـيرورة المشـروع. ومن هنا كانت الانطلاقة الفعليّة للذّخيرة.

فلسفة المشروع وروافده الفكريّة:

يسـتمدّ مشـروع الذّخيرة روحه من نظريّة لغويّة متماسكة العناصر، واضحة المفاهيـم، مسـتقلّة الرّوافـد، سـمتُها الشّـموليّة، إنّها النّظريّة اللّغويّة العربيّة، كما ألفيناهـا عند علمـاء اللّغة القدامى هـؤلاء الذّيـن أبدعـوا علـى مسـتوى المفهوم، وقد تنتابنا الدّهشة عندما نجد أنّ المصطلحـات الصّوتيّـة والنّحويّـة كانت قد اسـتقرّت وشاع استعمالها بين أهل الصّنعـة منذ القرن الأوّل الهجريّ، ومنه ما وجدناه منسـوبا إلى أبي الأسود الدّؤليّ والخليل بـن أحمد الفراهيديّ. ومؤدّى هذا الكلام أنّ المفاهيم اللّسانيّة أغلبهـا كانت قد توطّدت لـدى العلماء فـي تلـك الفتـرة المبكـرة مـن تاريخ الدّرس اللّغويّ العربـيّ القديم. والأمر نفسـه ينطبق علـى المناهـج التّحليليّة. لذلـك رامت الذّخيـرة اللّغويّـة التّوكّؤ علـى نظريّة لغويّة متماسـكة ومسـتقلّة وشـاملة، وليـس هنالـك أفضـل مـن ذخائر ونفائس الـدّرس اللّغوي العربيّ التّراثي للاستفادة منها من قبل اللّغويين والحاسـوبيّين في العلاج الآلـي للّغة. أليس هذا حظ من الحظوظ التي توفّرت لمشروع الذّخيرة اللّغويّة؟

لنجـاح هـذا المشـروع كان مـن الضّروري تفكيك شـيفرات منطق علم اللّسـان العربـيّ، وهذا الأخيـر إطلاقٌ اقترحـه العلاّمة عبـد الرّحمـن الحاج صالـح بدل اللّسـانيات العربيّة، وله في ذلك موقف صريح ومقنـع إلى حدّ ما. وأوضح تلك الشّـيفرات أو المنطلقات مفهوم الباب ومفهوم المثال.

مفهـوم البـاب والمثـال: يصـرّح الحـاج صالـح، معرّفا لمفهـوم الباب، قائلا: يعتبر مفهوم البـاب من المفاهيم المفاتيح عند سـيبويه. فهـو يطلقه أوّلا على المجموعات المرتّبة من الحروف الأصليّـة للكلمـة الثّلاثيّـة (ض ر ب) – (ر ب ض) وكـذا على أبنيّـة الكلمة وأوزانهـا (مسـتوى المفـردات). كما يطلـق على أنواع التّراكيـب. والباب لا يخصّ مستوى من مسـتويات اللّغة ولا جانبا من جوانبها، فهو عموما (مجموعة مـن العناصر تنتمـي إلى فئـة أو صنف وتجمعهـا بنيّـة واحدة). فأفـراد الباب تجمعها صيغـة أو مجرى لا صفة فقط. وهكذا يكون البـاب مجموعة بالمعنى المنطقـيّ الرّياضـيّ لا جنسـا بالمعنى الأرسـطيّ. وإذا كان البـاب، بصفتـه مجموعة منطقيّة رياضيّة، يشـبه الجنس الأرسـطيّ في أنّه صنف له صفة مميّزة. فإنّ القـدر المشـترك بين أفـراد الباب الواحد ليس مجرّد صفة بل بنيّة تحصل وتكتشـف عمل كلّ فـرد على الآخرين لتتـراءى فيها هـذه البنيّة، وهـذه البنيّة تستنبط بهذا العمل وهذا الإجراء.

وأضـاف الحـاج صالـح أنّ ذلـك يمكن أن يرسـم بالكيفيّة الآتيّة: م ك ت ب، م ل ع ب، م ج م ع، م ح ل ل ... وأنّ بـاب مفعـل مثلا، (مثالـه مفعل)، وأنّ فـي المثـال مفعل هنـاك متغيّرات هـي الحـروف الأصـول، وثوابت هي الحركات والسّكنات والزّوائد. والمثال في التّـراث اللّغويّ العربيّ، هو مجموع الرّموز المرتّبـة التي تمثّـل بنيّة الباب، سواء أكانت مفردات أم تراكيب. ولقضيّة الباب وكونـه مجموعة أفـراد ذات بنيّة مشـتركة، علاقة بمفهـوم المجموعات نفسـه الموجود في الرّياضيـات، حتى في مسألة وجود مجموعات لا فرد فيها في الرّياضيات ومـا يقابلها في اللّغة من نحو باب (فعُـل) الذي ليس له مثال في الاستعمال العربي، ويطلق عليها الحاج صالح المجموعة الخاليّة.

ولا بـأس ههنا من تلخيـص مفهوم الباب في التّـراث اللّغـوي العربيّ، إنّه يضمّ المجموعات المرتّبة من الحروف

الأصليّة للكلمة الثّلاثيّة من نحو:(ض ر ب) (ر ب ض)، وقد يعني، أبنيّة الكلمة وأوزانها (مستوى المفردات أو أنواع التّراكيب، أو مجموعة من العناصر تنتمي إلى فئة أو صنف وتجمعها بنيّة واحدة).

مفهوم الأصل والفرع:

تكوّن مفهوم الأصل والفرع، «نتيجةً لتصوّر تراتبي بين العناصر اللّغويّة يفيد أنّ كلّ كيان لغويّ إمّا أصل يّبنى عليه غيره أو فرع يبنى على أصل أو أصول»، ومن الأمثلة على ذلك، بعض المفاهيم الصّوتيّة، كالفتح والإمالة، فيقال الفتح أصل والإمالة فرع، كتحقيق الهمز وتخفيفه، فالأوّل أصل والثّاني فرع...

وهناك مثال آخر على المستوى الصّرفي، يتعلّق بظاهرة الاشتقاق، حيث يقوم المتكلّمون خلاله بعمليّات تحويليّة على مستوى اللّفظ، فينتج عنها الفروع. وفضلا عن تحقق معنى الأصل والفرع على المستويين الصّوتي والصّرفي، نجده متحقّقا في المستوى التّركيبي، وعن ذلك يقول الحاج صالح: «أمّا التّركيب فأقلّها عناصر تعدّ أصولا لما هو أكثر منها بنفس العمليات، لكن بتسليط لا على الحروف بل على الكيانات الدّالة ودائما على مثال سابق»، وقد يقصد بالكيانات الجمل.

مفهوم القياس في النّحو العربيّ:

القياس عند النّحاة هو توافق في البناء، وقبل أن نشرح معنى التّوافق نفسه نقول، ردفا على ما سبق من تعريف للباب، إنّ للقياس علاقة بهذا الأخير، وكذا النّظائر، والنّظائر هي مجموعة الأفراد أو العناصر التي تنتمي إلى باب معيّن، ولذلك قيل في شرح مفهوم القياس: للقياس علاقة بمفهوم الباب ومفهوم النّظائر. والنّظائر مجموعة الأفراد تنتمي إلى باب. وهذا التّوافق في البناء هو القياس عند النّحاة. إنّ القياس بصفته مصدرا لفعل قاس هو تلك العمليّة المنطقيّة الرّياضيّة التي سمّيناها تفريعا من الأصل على مثال سابق، أيّ بناء كلمة أو كلام باستعمال مواد أوّليّة واحتذاء صيغة الباب الذي ينتمي إليه العنصر المحدث. أمّا القياس بصفته اسما فهو هذا التّوافق في البناء نفسه. ومن حيث المنطق الرّياضي هو تكافؤ العناصر في البنيّة وهو نتيجة تطبيق مجموعة على مجموعة بعد التّقابل التّنظيريّ، ومن هنا يمكن أن يسمى الباب قياسا. ونحن نثبت مجدّدا أنّ التّشكيل اللّغوي ومنطقه يتوافق تماما مع التّشكيل الرّياضي ومنطقه.

مستويات التّحليل اللّساني عند العرب القدامى:

وقف العرب القدامى من خلال المفاهيم المنطقيّة السّابقة على البُنى اللّغويّة الآتيّة:

أ_ مستوى اللّفظة: اللّفظة التي يتحقّق خلالها الحدّ الإجرائيّ للاسم والفعل، وهي المستوى الذي ينطلق منه النّحاة العرب في تحليل العربيّة، مع وعيهم أنّ هذا المستوى تتّحد فيه الوحدة اللّفظيّة والوحدة الإعلاميّة أو الإفاديّة. مع امتناع الوقف على جزء منها، «وذلك مثل (كتاب) (بالوقف عليه) الذي يصحّ أن يكون جوابا عن سؤال _ (ما هذا؟). فتكون منطلقا للحدّ الإجرائي الذي سيتحدّد به الاسم والفعل وما يدخل عليهما بكيفيّة صوريّة محضة دون اللّجوء إلى المعنى أو أيّ جانب آخر غير اللّفظ الدّال. ويكون ذلك بعمليات خاصّة تتمثّل في الزّيادة اللّفظيّة المتدرّجة على اليمين واليسار».

وهذه الخطاطة التي قدّمها عبد الرّحمن الحاج صالح لتوضيح ما سبق:

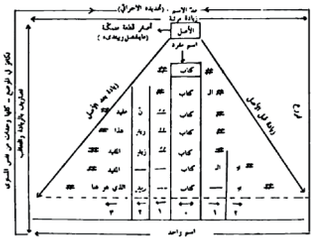

وتمثل الزّيادة اللّفظيّة إلى اليمين واليسار احتماليّة ظهور «بنيّة الوحدة اللّفظيّة الأولى التي ينطلق منها التّحليل إلى ما تحت هذا المستوى وهو الكلم، وإلى ما فوق وهو أبنيّة الكلام. ثمّ بعد ظهور البنيّة يلجأ إلى المدلولات الخاصة بكل عنصر في موضعه الذي يتحدد به في الحدّ الإجرائي». ولابدّ أنّ هذه العمليّة هي إحدى مبادئ عمل البرامج الحاسوبيّة المعتمدة في مثل تأليف معجم إلكتروني ذكيّ.

ب– مستوى الكلم: الكلم، مفهوم لغويّ نحويّ، وردت الإشارة إليه في أوائل أبيات ألفيّة ابن مالك:

كلامنا لفظ مفيد كاستقم

واسم وفعل ثمّ حرف الكلم

الكلم لفظ مركّب من ثلاث كلمات فأكثر سواء أفاد أم لم يفد، نحو: قد قام خالدٌ، إن قام خالدٌ، وقيل هو مجموع العناصر التي تتكوّن منها اللّفظة. وقد تتكوّن اللّفظة من كلمة واحدة أو أكثر لذلك قيل: واحده كلمة. «ومهما تعدّدت الكلمات المكوّنة للّفظة الواحدة فإنّها تحلّ كلّها في الموقع المحدّد لهذه اللّفظة في بنيّة الكلام. وتنقسم طرق تركيب اللّفظة إلى ثلاثة أقسام: علاقة بناء بين كلمة ومورفيم، وعلاقة وصل بين كلمتين، ومرتبة وسطى بين البناء والوصل. ذلك مثل علامات التّأنيث وضمائر الرّفع

المتّصلة بالفعل وعلاقها بما تدخل عليه». والكلم موضوع مناسب للّغة المنطوقة أكثر من اللّغة المكتوبة، إذ لا تكترث الأولى لقواعد اللّغة الصّارمة حتى وإن ارتقت إلى ما يعرف باللّغة القياسيّة، أمّا الثّانيّة فينبغي لها أن تكون وفيّة لقواعدها المعياريّة. ودليلنا على هذه الفكرة الخاطفة قولهم: سواء أفاد أم لم يفد، وهو أيضا ممّا يدخل في المنهج الوصفي للغة، حيث إنّه لا يفرق بين الجيّد من الكلام والرّديء، ولا بين الغث والسّمين.

مستوى أبنيّة الكلام: نظريّة العامل:

أرجع النّحويون التّغيرات التي تطرأ على أواخر الكلمات العربيّة إلى ظاهرة نحويّة تفسّرها نظريّة أطلق عليها بنظريّة العامل، وتقوم على فكرة أنّ التّغيّر الذي يتبدّى على أواخر الكلمات على شكل حركات إعرابيّة، يحدّد بسبب من عامل، وكلّما اختلف العامل اختلف الإعراب، والأمثلة التي قدّمناها تشرح ذلك. وتضمّ هذه المجموعة من الأمثلة نوعين من العوامل، اللّفظيّة والمعنويّة، الأولى نحو: إنّ زيدا قائمٌ، والثانيّة نحو: زيدٌ قائمٌ، فالعامل في الرّفع هو الابتداء.

ويحدّد النّحاة التّراكيب التي ليست أصليّة للّفظة أو الكلم حدّا إجرائيا، وينطلق من أقلّ ما يكون عليه الكلام ممّا هو فوق اللّفظة لاكتشاف البناء أو الوصل في مستوى أعلى من اللّفظ. وأقلّ ما يكون عليه اللّفظ يتكوّن من لفظتين، مثل: زيد قائم، وهذه العبارة هي الأساس الذي يقبل زيادة الزّوائد المحتملة عليها، دون أن تفقدها وحدتها، فضلا عن بقائها بنفس البنيّة، (زيد قائم)، وينبغي الإشارة إلى أنّ الزّيادة تكون على اليمين دون اليسار.

إنّ	زيدا قائم
كان	زيد قائما
حسبت	زيدا قائما
أعلمت عمرا	زيدا قائما

والزّيادات التي قد تطرأ على اللّفظ، مؤثّرات وتسمّى عاملا، وتسمّى العناصر المتأثّرة معمولات. «وإذا كانت اللّفظتان المكوّنتان للبناء الأصلي تجمع بينهما علاقة بناء فإنّ العناصر الأخرى التي تدخل على هذا البناء ترتبط به بعلاقة وصل وهي (مخصصّات)»، ويصاغ الحدّ التّركيبيّ هكذا، على هيئة رياضيّة، وهو مقترح عبد الرّحمن الحاج صالح.

[(ع ـ م1) # م2] # خ

ظاهرة الإطالة: التّكرار والتّثنيّة

شرح العلامة عبد الرّحمن الحاج صالح ظاهرة الإطالة، وهو مفهوم وجدناه عند سيبويه، ويعني: «أنّ للكلام مواضع بنائيّة، وهناك وحدات تحلّ فيها، والموضع يمكن أن تحلّ فيه كلمة أو لفظة أو تركيب، كالخبر مثلا، ويسميه تشومسكي بالقدرة على التّكرار إلى ما لا نهايّة. والإطالة كما يقدّمها سيبويه نوعان على حدّ تعبير عبد الرّحمن الحاج صالح:

أ – إطالة اندراجيّة وهي اندراج الأعلى في الأسفل: تركيب في موضع كلمة أو لفظة. أو لفظة في موضع كلمة.

ب- إطالة خطيّة غير اندراجيّة: وهي تكرار ما يحتوي عليه الموضع هو نفسه أو ما يقوم مقامه».

وقد نلحظ أنّ التّفكير اللّساني العربي القديم، قد أفضى إلى مفاهيم معقدّة وعميقة جدا يدلّ الخوض فيها على التّزام هذا الدّرس وجدّته وإبداعه.

أعلى مستويات التّحليل: ما فوق العامّ:

يمثّل هذا المستوى ما يطلق عليه بأدوات الصّدارة التي تستعمل للأساليب الإنشائيّة، وهي الشّرط والاستفهام. ومحلّها كما حدّده سيبويه الابتداء المطلق، ولهذا العامل معمولان، وقد صاغها عبد الرّحمن الحاج صالح في الجدول الآتي:

عـ	ف	مـ1			مـ2		
مـ		ع	م1	ع	م1	م2	م2
ا	ـ	خرج	زيد	ـ	ـ	ـ	ـ
ـ ا	إنْ إنْ	خرج ضرب	زيد زيد	عالبـا	ـ عمرا	عالبـا	
ـ	إنْ	لم يخرج	زيد	تأخر	ـ	Ø	لمن يوعده

انطلقت الذّخيرة اللّغويّة من هذه المفاهيم العميقة الدّقيقة، وهي من أصل التّراث اللّغوي العربيّ القديم، وهي مفاهيم تحيل إلى الصّياغة المنطقيّة للّغة وليس للّغة نفسها، وهنا نفتح قوسا للردّ على الكسالى الذّين يتساءلون عن جدوى دراسة وتدريس النّحو والصّرف العربيّين في الأقسام الابتدائيّة والمتوسّطة من التّعليم، فليتهم يدركون أنّ بهما يقف المتعلّم عند حدود الصّياغة المنطقيّة للغته، فيدرك بعدها من تلقاء نفسه أنّ هذا لفظ عربيّ وأنّ ذاك ليس بعربيّ، فضلا عن حوسبة لغته في زمن الحوسبة الذي نعيشه اليوم، فقد صرنا نرى اليوم الأمم تتسابق من أجل الوصول إلى تلك الغايّة، بل إنّ منهم من وصل إليها فعلا. فالعلاج «الآلي للّغات إذن يحتاج أيّما احتياج إلى منطق دقيق جدا على قدر الدّقّة التي تمتاز بها اللّوجيستيقا الحديثة».

إنّنا لا نرى فائدة تذكر من تطبيق إجراءات النّحو التّوليدي على اللّغة العربيّة، خاصّة تلك التّطبيقات الجاهزة، التي وضعت أساسا للغة أجنبيّة لا تنتمي إلى العائلة اللّغويّة العربيّة، وبالتّالي فمنطقها مختلف، ولذلك لن تكون النّتائج في مستوى التّطلعات بل ستكون مضطربة لا محالة. ثمّ إنّ هناك حقيقة

تقول إنّ التّوليديّة متوافقة مع النّظريّة اللّسانيّة العربيّة، فلم نطيل الزّمن ونهدر الوقت باتّخاذ تطبيقاتها نماذج تحتذى. والسّؤال الذي لابدّ من طرحه هو كيف نملك مستويات تحليليّة عاليّة الدّقّة وقابلة للصّياغة التي تتوافق تماما مع منطق الحواسيب، ونبحث فيما يعطّل عمليّة حوسبة لغتنا؟

النّظريّة الخليليّة:

إنّه من الضّروري بمكان أن نتعرّض في هذا المقام إلى مفهوم النّظريّة الخليليّة التي نادى بها العلّامة عبد الرّحمن الحاج صالح، وعلى أساسها بنى مشروع الذّخيرة الذي لا يزال قيد الإنجاز بالرّغم من الخطوات الكبيرة التي أنجزت صوبه. إنّ المقصود بالنّظريّة الخليليّة، هو كلّ ما أنتجته الدّراسة اللّغويّة العربيّة طيلة القرون الأربعة الأولى للهجرة، وإنّما نسبت إلى الخليل لتفرّده بالسّبق العلميّ والزّمنيّ.

اتّسم الخليل بن أحمد بذهن رياضّي مبتكر، واشتغل بجميع فروع العلم، فتحقّقت له كشوف وفتوح علميّة بالغة الدّقة، فقد أسّس علم العروض لمّا حصر أشعار العرب عن طريق أوزانها في العروض، واكتشف أصناف النّغم الموسيقيّة في الشّعر العربيّ، وقد أهّلته إمكانياته الذّهنيّة الفائقة إلى التّفكير في صناعة معجم عربيّ، رتّبه وفق نظريّة صوتيّة مشيرا بذلك ضمنا إلى أنّ مادّة اللّغة هي أصوات، «وقد هداه اشتغاله بالموسيقى والأنغام إلى هذا المنهج لأنّ اللّغة في مجملها صوت، فهو اعتمد على مخارج الحروف عندما ينطق بها ونظر إلى الأوتار الصّوتيّة والأصوات اللّغويّة فصنع سلّما صاعدا عليه من أسفل حتى ينتهي إلى أعلاه، فالخليل أسبق العرب إلى تدوين اللّغة، وترتيب ألفاظها على حروف المعجم قبل الأصمعيّ وسيبويه وسواهما من الأدباء والنّحاة، حيث جمع ما كان معروفا في أيّامه من ألفاظ اللّغة وأحكامها وقواعدها وشروطها، ورتّب ذلك على حروف الهجاء حسب مخارجها من الحلق فاللّسان فالأسنان فالشّفتين، وبدأ بحرف العين، وجعل حروف العلّة في الآخر متدرّجا من الأعلى إلى الأسفل». وفضلا عن ترتيب معجمه وفق التّرتيب التّصاعدي لأصوات العربيّة، فإنّه فكّر في ترتيبه وفق طريقة رياضيّة غير مسبوقة، هدف من خلالها إلى ضبط اللّغة وحصرها، والتّمييز بين ما هو مستعمل وما هو مهمل.

ويسمّى هذا العمل بالإحصاء وسلّم الكثرة، زمن الفصاحة. وقد حصر به اللّغويّون ما يعرف بظواهر التّعاقب والوحدات اللّغويّة من مفردات وصيغ وأصناف التّراكيب، وكان نهجهم في ذلك استقراء النّصوص الشّعريّة والنّثريّة ووقفوا على المطّرد في كلام العرب وشاذّه وما هو ليس من كلامهم. «فتبيّن لهم ما هو من كلامهم وما هو من غير كلامهم، وما هو عربيّ جيّد ممّا هو عربيّ دون ذلك ونحوها من الأوصاف التي هي في حقيقتها اصطلاحات مبكّرة سابقة لعصرها إذا ما نظرنا في نسبة تداولها بين التّراثيّين الأوائل. وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه الخطوات العملاقة في البحث اللّغويّ عن طريق الإحصاء سمحت لهؤلاء الأعلام أن يكتشفوا العلاقة المجرّدة بين الرّياضيات وجزيئات اللّغة في الإفراد والتّركيب، كما ربطت الأمم السّاميّة قبلهم بين الحرف والرّقم في منظومة عجيبة».

لقد اقتفى العلّامة عبد الرّحمن الحاج صالح أثر ذلك الفكر الفلسفي والمنطقّي، واستعان بعلم الإحصاء وطبّقه على علم اللّسان العربيّ القديم، فقد شرح بعض الطّرق التّقليديّة في إحصاء كلمات العربيّة، وقدّم نموذج الخليل المتمثّل في دائرة ذات الاتّجاهين المتعاكسين، والنّموذج الذي قدّمه ابن دريد، وهو عبارة عن دائرة تتقلّب فيها حروف الجذر الواحد، ومثاله ض، ر، ب.

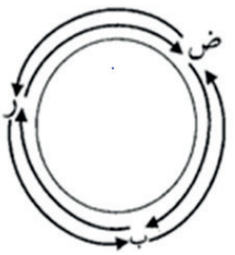

وهي مقابلة لفكرة الاحتمالات في الرّياضيات القائمة على حساب التّبديلات/ Factorial والتّوفيقات/ Combinatory، للوصول إلى عدد احتمالات صياغة أبواب المفردات في كلّ الأبنيّة، من الثّنائيّة إلى الخماسيّة في العربيّة بكاملها، إلاّ أنّ أكثرها مهمل.

ولا بأس من ذكر تجاوز الخليل لعادة العرب في ترتيب الحروف، ليس عندما رتّبها ترتيبا صوتيّا فحسب، بل حينما بدأ بالعين معتبرا إيّاها صوتًا واضحًا، ومردّ ذلك الاختيار، ذوقه للأصوات وتأمّله لها وهو القائل: «لم أبدأ بالهمزة لأنّها يلحقها النّقص والتّغيير والحذف، ولا بالألف لأنّها لا تكون في ابتداء الكلمة ولا في الاسم ولا فعل إلاّ زائدة أو مبدلة، ولا بالهاء لأنّها مهموسة خفيّة لا صوت لها، فنزلت إلى الحيّز الثّاني وفيه العين والحاء، فوجدت العين أنصع الحرفين، فابتدأت به ليكون أحسن في التّأليف، وليس العلم بتقديم شيء، لأنّه كلّه ممّا يحتاج إلى معرفته فبأيّ

بدأت كان حسنا، وأولاها بالتّقديم أكثر تصرّفا». فجاء ترتيبه كالآتي:

ع، ح، ه، خ، غ ـــــــــ حلقيّة
ق، ك ـــــــــ لهويّة
ج، ش، ض ـــــــــ شجريّة
ص، س، ز ـــــــــ أسليّة
ط، د، ت ـــــــــ نطعيّة
ث، ذ، ظ ـــــــــ لثويّة
ر، ل، ن ـــــــــ ذلقيّة
ن، ب، م ـــــــــ شفويّة
و، ا، ي، + الهمزة ـــــــــ حروف العلّة

1. النّظريّة الخليليّة المعجميّة:

تفطّن الخليل إلى طبيعة العربيّة وأنّها لغة اشتقاقيّة بالدّرجة الأولى، كما تفطّن إلى ما يدخل على موادّها من زيادات وما يطرأ على صيغها وألفاظها من تغير وتطوّر. وما للعلاقات أو الرّوابط بين الألفاظ من أهمّيّة، فابتكر نظام التّصريفات (التّقليبات) في تأليف معجمه العين، وأسّس بذلك مدرسة التّقليبات الصّوتيّة. وقد وضعت هذه المدرسة الكلمة وجميع تقليباتها تحت أبعد الحروف مخرجا، فمادّة (ضرب) وتقليباتها السّتّ :ضرب، ضبر، رضب، ربض، برض، بضر، نبحث عنها في باب الضّاد لأنّه أبعد الحروف مخرجا في المادّة، وقد «حاول الخليل أن يظهر ضروب المعاني مع تقليب المادّة، وترتيب حروفها في موضع واحد، ومعنى هذا أنّ الخليل استطاع عندما وضع معجمه بهذه الطّريقة أن يحصي عدد الكلمات المعجميّة العربيّة وأن يشير إلى الصّيغ المهملة في كلّ التّقليبات الثّلاثيّة والرّباعيّة والخماسيّة، فمدخل الموادّ بالنّسبة إلى الخليل أحرف ثلاثة توزّع وفقا لعمقها الصّوتي ثمّ تقلب تدريجيا».

وبالمناسبة سنعرض أمثلة على ترتيبه للمداخل المعجميّة حتى نشرح طريقته بشكل أفضل بالكيفيّة الآتيّة:

(لعب) تأتي في حرف العين لأنّه أقصاها مخرجًا.

(رزق) تأتي في حرف القاف لأنّه أقصاها مخرجًا.

(حزن) حرف الحاء.

(شدّ) حرف الشّين.

(جرى) حرف الجيم.

(وقى) حرف القاف.

(كرسوع) حرف العين.

(عندليب) حرف العين.

العنصر الرّياضي:

قلنا سالفا إنّ طريقة الخليل في معجم العين تقوم على الجمع والحصر والإحصاء المعتمد في الرّياضيات؛ فحصر بذلك أبواب العربيّة وجذورها رياضيّا ثم صنّفها إلى: محتمل، ممكن، مستعمل، ومحتمل مهمل ومستحيل غير ممكن، معتمدا في ذلك على قانون التّبديلات، وهناك من يسمّيه بالبدائل في محور الاحتمالات الرّياضيّة، «التي تعني أن مضروب عناصر المجموعة (س) في بعضها يساوي احتمالات أشكالها المختلفة، فلو كانت لدينا (س) المكوّنة من ثلاثة عناصر هي (ب، ر، ق) فهذا يعني أنّ لها ستة أشكال اعتمادا على مضروبها وهو 3 ضرب 2 ضرب 1، وناتجه 6 وهذه الأشكال هي: (ب ر ق)، و(ق ر ب)، و(ر ب ق)، و(ق ب ر)، و(ب ق ر)، و(ر ق ب)»، مما أدى به إلى حساب ما يمكن أن يتشكّل من جذور مستعملة أو مهملة في حدود الحروف الهجائيّة العربيّة.

ولا تتمّ عمليّة التّبديل أو التّقليب على حدّ تعبير اللّغويّين العرب القدامى إلاّ بين عناصر مختلفة، وقد شرح الخليل هذه الفكرة عن طريق الدّائرة التي رسمناها أعلاه. ووزّع عليها ثلاثة أحرف، ض، ر، ب، وجعل لها اتجاهين متقطّعين يمثل كلّ فراغ نقطة الحرف المراد البدء به، فيعدّ الضّاد المفكّ في ضرب، وأما الرّاء فهي مفكّ جذر ربض، ويصبح الباء مفكّ برض، وهكذا يؤتى على جميع الاحتمالات التي يتوزّع عليها مجموع حرف الضّاد والرّاء والباء. وإذا اخترنا حالة الجذر الثّلاثي في اللّغة العربيّة، فإنّ التّبديلة ستكون: عدد طرق ترتيب ثلاثة أحرف من ثلاثة مواضع في الصّيغة الثّلاثيّة، أي أنّ الحروف تتحرّك في كلّ المواضع لتشكّل تصاريف/ تقاليب مختلفة. ولا يسمح فيها بالتّكرار، فإذا أردنا البحث عن المفردات «ضمّ، ضمم، أو ضمضم، مثلا، فإنّنا سنجدها تحت باب الضّاد مع الميم».

حساب التّبديلات المحتملة للصّيغ في اللّغة العربيّة:

التّبديلة عند الرّياضيّين المحدثين، هي عدد طرق ترتيب عنصر من العناصر في مجموعة في موضع من المواضع ولا يسمح فيها بالتّكرار كما مرّ بنا في تقليب حروف الجذر الواحد في مدرسة التّقليبات، ويتمّ حساب التّبديلات بتطبيق قانون الفاكتوريال، أمّا عند العرب القدامى فالأمر لا يختلف كثيرا؛ يقول الخليل: «اعلم أنّ الكلمة الثّنائيّة تتصرّف على وجهين... والكلمة الثّلاثيّة تتصرف على ستّة أوجه... والكلمة الرّباعيّة تتصرف على أربعة وعشرين وجها، وذلك أنّ حروفها وهي أربعة أحرف تُضرب في وجوه الثّلاثيّ الصّحيح وهي ستّة أوجه فتصير أربعة وعشرين وجها... والكلمة الخماسيّة تتصرّف على مئة وعشرين وجها»، ومعنى كلامه، أنّ التّبديلة

الجديدة تحسب بضربها في نتيجة التّبديلة السّابقة، وتتطابق تبديلة 2 ونتيجتها 2، «ومع أنّ الطّريقة التّقليديّة أبسط وأسهل، لكنّ مراحلها مرتبطة ببعضها البعض، حيث تعتمد كلّ عمليّة على نتيجة العمليّة التي سبقتها. بعكس الطّريقة الحديثة التي تعطينا القاعدة جاهزة لتطبيقها على أيّ تبديلة نريد حسابها، لكن قصور الطّريقة القديمة لا يؤثر في حالتّنا هذه، لأنّ عدد التّبديلات وفقا لأنواع الصّيغ الموجودة في الكلام العربيّ هو أربعة، ونقصد بها الصّيغ الثّنائيّة والثّلاثيّة والرّباعيّة والخماسيّة، وهذا عدد بسيط جدا يتلاءم مع بساطة القاعدة». وهكذا تكون نتيجة الإحصاء وفق قانون التّبديلات، ووفق حروف العربيّة الثّمانيّة والعشرين على هذه الشّاكلة:

حساب التّوفيقات:

لنعرض القاعدة أولا، ثم نتبيّن كيف طبّقها الخليل في معجمه، وهي كالآتي:

التّوفيقة هي عدد طرق أخذ الجزء (k) من الكلّ (n)، ولا يُشترط فيها التّرتيب، أي أنّ سحب العناصر يتم دفعة واحدة بدون تعيين رتبة كل عنصر (أي موضعه من التّركيبة)، ويرمز للتوفيقة بعدة رموز، تختصرها الصّورة الآتيّة:

$$\mathbf{C}(n,k) = \mathbf{C}_k^n = {}_nC_k = \binom{n}{k}$$

ونقرؤها: توفيقة k من n، ولحساب التّوفيقات؛ يمكننا اعتماد قاعدتين مختلفتين من حيث الشّكل لا من حيث المضمون:

القاعدة 1: (قاعدة عامة).

$$\binom{n}{k} = \frac{n!}{k!\,(n-k)!}$$

القاعدة 2: (قاعدة خاصة)، بحيث يُشترط أن يكون k عددا طبيعيا أصغر أو يساوي n:

$$0 \le k \le n \overset{\text{فإنّ}}{\Rightarrow} \binom{n}{k} = \binom{n}{n-k}$$

وقد وقع اختيارنا على القاعدة الثّانيّة لأنّ k عندنا محصور بين 0 و28، لأنّه يمثل الثّنائي والثّلاثي والرّباعي والخماسي. «وقبل تطبيق هذه القاعدة لا بد من أن نشير إلى أنّ شرط عدم التّكرار في التّوفيقات يتطابق تماما مع طريقة الخليل الذي لم يهتم بترتيب حروف التّركيبة، لأنّه كان يُحصي أبواب الأصول (الجذور) ويرتبها صوتيا في معجمه، ثم بعد ذلك ينتقل إلى مرحلة أخرى؛ وهي تقليب حروف كل تركيبة داخل بابها، وتبيين دلالاتها من كلام العرب الأصيل. فالتّوفيقات إذن لا تحسب لنا عدد التّقليبات، بل عدد الأبواب في مسوّدة كتاب العين. ولنمثّل كلامنا هذا بِباب (الضّاد والرّاء والميم معهما) الذي جمع كل تقليبات هذا الأصل، وذكرها الخليل كاملة نظرا لاستعمالها جميعها في كلام العرب، وهي: ض ر م، ر ض م، ر م ض، م ر ض، م ض ر، ض م ر. فإذا أردنا أن نبحث عن التّقليبة «م ض ر» -مثلا- فإنّنا نجدها في حرف الضّاد وتحته باب (الضّاد والرّاء والميم معهما) . وهذا يعني إذن أنّنا سنستغل طريقة التّوفيقات لحساب عدد الأبواب المحتملة في اللّغة العربيّة فقط، لا عدد التّصريفات (التّقليبات)».

وفيما يأتي النّتائج التي توصلنا إليها سلفا:

توفيقات الصّيغ الثّنائيّة: عدد حروف الصّيغة الثّنائيّة: k=2، وعدد حروف اللّغة العربيّة n=28.

K=2, n=28

$$\binom{n}{k} = \binom{28}{2} = \binom{28}{28-2} = \binom{28}{26}$$

$$\binom{28}{2} = \frac{28!}{26!\,(28-26)!} = \frac{28!}{26!\times 2!} = \frac{28\times 27\times 26!}{26!\times 2!} = \frac{28\times 27}{2\times 1} = \frac{756}{2} = \mathbf{378}$$

378 هو عدد احتمالات وجود أبواب الصّيغ الثّنائيّة في اللّغة العربيّة، لكنّ أغلبها غير مستعمل في كلام العرب.

توفيقات الصّيغ الثّلاثيّة: عدد حروف الصّيغة الثّلاثيّة: k=3، وعدد حروف اللّغة العربيّة n=28.

K=3, n=28

$$\binom{n}{k} = \binom{28}{3} = \binom{28}{28-3} = \binom{28}{25}$$

$$\binom{28}{3} = \frac{28!}{25!\,(28-25)!} = \frac{28!}{25!\times 3!} = \frac{28\times 27\times 26\times 25!}{25!\times 3!} = \frac{28\times 27\times 26}{3\times 2\times 1} = \frac{19656}{6} = \mathbf{3276}$$

3276 هو عدد احتمالات وجود أبواب الصّيغ الثّلاثيّة في اللّغة العربيّة، لكنّ الكثير منها غير مستعمل في كلام العرب.

توفيقات الصّيغ الرّباعيّة: عدد حروف الصّيغة الرّباعيّة: k=4، وعدد حروف اللّغة العربيّة n=28.

K=4, n=28

$$\binom{n}{k} = \binom{28}{4} = \binom{28}{28-4} = \binom{28}{24}$$

$$\binom{28}{4} = \frac{28!}{24!\,(28-24)!} = \frac{28!}{24!\times 4!} = \frac{28\times 27\times 26\times 25\times 24!}{24!\times 4!} = \frac{28\times 27\times 26\times 25}{4\times 3\times 2\times 1} = \frac{491400}{24} = \mathbf{20475}$$

20475 هو عدد احتمالات وجود أبواب الصّيغ الرّباعيّة في اللّغة العربيّة، لكنّ أغلبها غير مستعمل في كلام العرب.

توفيقات الصّيغ الخماسيّة: عدد حروف الصّيغة الخماسيّة: k=5، وعدد حروف اللّغة العربيّة n=28.

K=5, n=28

$$\binom{n}{k} = \binom{28}{5} = \binom{28}{28-5} = \binom{28}{23}$$

$$\binom{28}{5} = \frac{28!}{23!\,(28-23)!} = \frac{28!}{23!\times 5!} = \frac{28\times 27\times 26\times 25\times 24\times 23!}{23!\times 5!} = \frac{28\times 27\times 26\times 25\times 24}{5\times 4\times 3\times 2\times 1} = \frac{11793600}{120} = \mathbf{98280}$$

98280 هو عدد احتمالات وجود أبواب الصّيغ الخماسيّة في اللّغة العربيّة، لكنّ أغلبها غير مستعمل في كلام العرب.

وانطلاقا من حساب تلك التّوفيقات؛ توصلنا إلى أنّ مجموع الأبواب المحتملة في اللّغة العربيّة هو 122409، بما في ذلك المهمل والمستعمل، وقد احتفظ الخليل بالمستعمل فقط. ولعلّ المتمعّن في نتائج عمل الخليل يدرك

أنّه حقا عالم استغل قوانين الرّياضيات في إبداع لسانيّ فريد من نوعه.

تقاطعات بين النّظريّة الخليليّة والفكر اللّساني المعاصر:

اتّهم المستشرقون الغربيون والمستغربون من تلاميذهم، المناهج العلميّة التي انتهجها النّحاة العرب القدماء، بالجمود والسّطحيّة بل والبدائيّة، وأنّ علومهم لا تندرج ضمن ما أسماه أوغست كونت بالعلم الإيجابي، على إثر حديثه عن تطوّر العلوم التي مرت في تاريخها بالطّور اللّاهوتي ثمّ الميتافيزيقي ثمّ العلميّ أو الإيجابي. وذكر أنّ الطّور الأخير نشأ في أوروبا واكتمل، ونفى أن يكون هناك تأثّر أو تأثير بين الأمم والحضارات، فقد ينشأ العلم حسب رأيه في بقعة من الأرض وزمان معيّنين ثمّ يندر ويقبع العالم من غير علوم ردحا من الزّمن إلى أن ينبعث في مكان وزمان آخرين، باقتباس وبغير اقتباس. وهذا هو سبب ظهور نزعة استشراقيّة تنعت الفكر العربيّ بالجمود وبأنّه فكر لا يرقى إلى مصافّ الدّراسات اللّغويّة الرّصينة.

انتصارًا للفكر اللّغوي العربيّ جاءت جهود عبد الرّحمن الحاج صالح مكمّلةً لأعمال الخليل وسيبويه وغيرهما من نجوم الدّرس اللّساني العربي إلى غايّة القرن الرّابع الهجري كما حدّد من قبل المختصّين. وإنّ خير ما يمكن أن يدفع الشّكّ عن جهود العرب القدامى وقيمتها العلميّة، هو ذلك الإطار النّظري المنطقيّ الرّياضيّ والإطار التّجريبيّ الفيسيولوجيّ الذّين سلكهما الخليل. إنّ المنهج المعياريّ الذي اتُّخذ من قبل المدارس النّحويّة في الفترة الذّهبيّة إنّما هو عمل شاقّ للغايّة؛ حفظ به العلماء البناء العامّ للّغة العربيّة وكيانها، أمّا مسألة توافقه مع الفكر اللّسانيّ المعاصر الدّاعي إلى دراسة كلّ المنطوق بغضّ النّظر عمّا إذا كان مقنّنا لغويّا أم لا، فهذا شأن لا يعنينا ههنا.

وإذا أردنا أن نردّ على هؤلاء، فإنّ الذي يقرأ لسيبويه «يلاحظ الكثرة الهائلة من الشّواهد ومن الكلام الذي سمعه هو وشيوخه وزملاؤه من فصحاء العرب، كما يلاحظ أيضا تحرّجه وتحرّج شيوخه الشّديد من أن يدلي برأي ويستنبط ضابطا لا يعتمد فيه على ما يقوله أكثر العرب وعامّتهم، ومع ذلك لا يهدر ما قلّ استعماله إذا لم يخالف القياس ويستقبح كلّ ما استقبحته العرب بدليل قلّته وعند القليل النّادر من النّاطقين».

وممّا يمكن الرّدّ به على أولئك المشكّكين في قيمة الدّراسة اللّغويّة العربيّة التّراثيّة، نقول لهم انظروا إلى الميراث الذي تركه الخليل في الجانب الصّوتي من اللّغة، إنّه علم صافٍ دقيق حدّد من خلاله مخارج الحروف العربيّة وفق تصوّر واضح لجهاز النّطق عند الإنسان بالرّغم من غياب أجهزة التّصوير المتوفّرة اليوم. بل إنّ الخليل تذوّق الأصوات حال تجاورها ونشوء بعض الظّواهر الصّوتيّة ووصفها وصفا بالغ الدّقّة، ومن ذلك الإدغام والإمالة والوقف وغيرها، وإنّ مجرّد الحديث عن صفات الحروف مثل الجهر والهمس لدليل على أنّ هذا الفكر بلغ مبلغ الفتح بل الفتوح. ناهيك عن الجهاز المفاهيمي على حدّ تعبير المحدثين، وما ولّده من مصطلحات توافق خلالها المعنى الاصطلاحي مع المعنى اللّغويّ بطريقة عجيبة، ويبدو أنّ ذلك عائد إلى طبيعة العربيّة نفسها الغنيّة بالمفردات المتفاوتة في المعاني وفي درجات الدّقّة والوصف.

ولنعرج على مفهوميّ الحركة والسّكون، و«هما مفهومان اختص بهما النّحاة ولا يوجد ما يماثلهما في الصّوتيات الغربيّة الحديثة اللّهم إلاّ فيما أثبته المهندسون المختصّون في العلاج الآلي لأصوات اللّغة، كالتّركيب الاصطناعي للكلام المنطوق واستكشافه الآلي أيضا. قال الرّماني إنّ الحرف لا يمكن أن يحدث إلاّ موصولا مع غيره فالوصل هو الأصل في الكلام». يعني الرّماني أنّ الحرف لا يمكن أن يحدث إلاّ موصولا مع غيره والوصل هنا يعني الإدراج أي الاحتواء مع التّنقل، فالحرف لا يمكن أن يحدث إلاّ في مدرج صوتي أي في سياق متسلسل من الحروف، والحركة هي التي تمكّن من إخراج الحرف، و«تحرّك الحرف اقتضى الخروج منه إلى حرف آخر، وفي هذا الصّدد يقول السّيرافي في شرح كتاب سيبويه: «وما كان من المبنيّات أسكن آخره إذا كان قبل آخره حركة». وقد يخفى على البعض أن فكرة السّكون هي التي أوحت للخليل بن أحمد رمز الصّفر، وهو يؤسّس لعلم العروض، ولولا رمز الخليل للصّفر لمّا تطوّر البحث الإلكتروني.

إنّ النّظرة العربيّة الخليليّة هي نظرة ديناميّة يهتمّ فيها أصحابها بما يجري من الأحداث في حدوث الكلام، ولا يهتمّ بذوات الوحدات في نفسها، ولذلك لا يكتفون بتقطيع الكلام، بل يتجاوزون ذلك إلى كيفيّة إدراج عناصره في سياق متسلسل. وهذه بعض المصطلحات المعجميّة العلميّة عند الخليل المستعملة في العلم الحديث والتي تمثل ذروة منهجه العلمي: الجهاز النّطقي، وأعضاء النّطق، وصفات الحروف بحسب مخارجها، وصفات الحروف بحسب الحركة والسّكون»، وبعد هذا أليس من الضّروري أن نواصل درب الخليل وسيبويه ومن تلاهما من العلماء الأفذاذ في سبيل حوسبة اللّغة، ولتأخذ بيدنا الذّخيرة اللّغويّة ونأخذ نحن أيضا بيدها إلى الاكتمال والدّقّة؟

أهداف مشروع الذّخيرة:

يتمحور الهدف الرّئيسي لمشروع الذّخيرة حول محاولة تمكين الباحث العربي من مختلف المعلومات بطريقة إلكترونيّة، بعد إنشاء بنك آلي يضمّ أمّهات الكتب التّراثيّة في مختلف العلوم بل على عموم الإنتاج الفكري العربي المعاصر. هو إذن بنك نصوص وليس بنك مفردات، ولبّ الأمر هو الاعتماد على النّصوص على امتداد خمسة عشر قرنا من تاريخ العربيّة في أروع صورها وأشكالها، وعبر بلدان الوطن العربيّ الكبير، ذلك أن النّص يمثّل الاستعمال الحقيقي للّغة العربيّة الفصحى المكتوبة أو المنطوقة، بدل المفردات التي إن اجتمعت في قائمة لا تمثل اللّغة وإنّما جزءا من رموزها فقط، كما تُعنى الذّخيرة «بأهمّ ما ينتجه الفكر العالميّ منقولا إلى العربيّة، من أفكار علميّة جديدة في جميع الميادين من نظريات وتنقيحات وانتقادات لنظرّيات سابقة وأوصاف لتقنيات جديدة مما ينشره العلماء باللّغات الأجنبيّة يوميا في المجلّات العلميّة العالميّة المتخصّصة. وتُعنى كذلك بكلّ المعلومات التي يحتاج إليها طالب العلم في جميع المستويات العلميّة. فالذّخيرة العربيّة هي نصوص تعكس الحياة العامّة للشّعب العربي في مختلف البلدان، ويتراءى فيها الاستعمال العفويّ للّغة العربيّة في الحياة اليوميّة، وتكون عيّنة مفتوحة ممّا تنشره الصّحف العربيّة من المقالات والتّحليلات وما يُسمع من الأحاديث والمحاضرات والموائد المستديرة في وسائل الإعلام المختلفة، وغير ذلك من النّصوص الحيّة»، لتنتظم في صورة شابكة تشبه الشّبكة العنكبوتيّة، والفرق هو اهتمامها بشؤون اللّغة العربيّة في ربوع بلاد العرب كلّها.

وإنّنا بالدّكتور عبد الرّحمن الحاج صالح، يتمثّل المنهج الوصفي عند اللّسانيين الغرب، على اعتبار أنّه تلقى تكوينا لسانيا في جامعة السّوربون.

مميّزات الذّخيرة:

تتميّز الذّخيرة بشموليتها فهي لا تستثني نصّا جيّدا يمثّل اللّغة العربيّة في صورتها المستعملة حقّا. وتتمتّع بترتيب نصوصها حسب العصور وفنون المعرفة. كما أنّها تكتسي صفة العالميّة إذ إنّها تقتضي موقعا في الشّابكة، وهي بذلك تتميّز بما تتميّز به هذه الأخيرة من حيث سرعة الحصول على المعلومات، وهي فضلا عن كونها بنكا لمجموعة هائلة من النّصوص الخاصّة ذات المحتوى النّوعي، تُشكّلُ محتوى محوسبًا، ممّا يسمح للمستخدمين بطرح مختلف الأسئلة التي يبحثون عن إجابة لها، فهي كما علمنا ليست خزانة ترصف خلالها النّصوص النّفيسة أو أوراق الكتب والأسفار أو الوثائق المصوّرة، بل هي أكثر من ذلك، هي شكل من أشكال الذّكاء الاصطناعي، وطرف من طرفي الحوار الحقيقيّ، من متلقي إلى ملقي وهكذا، ولعلّ هذه الميزة في حدّ ذاتها تحقّق حلمًا من أحلام الإنسان الأكثر «جنونا» بعدما أحدثته الثّورة الإلكترونيّة من إنجازات علميّة، كما أنّها تطبيق عالي الجودة للّسانيات الحاسوبيّة، أو ما يسمّى بعلم حوسبة اللّغة.

لقد انتبه العلامة عبد الرّحمن الحاج صالح إلى المشاكل التي تعترض حوسبة اللّغة الطّبيعيّة، وعلى رأسها العلاقات السّياقيّة أو كما يحلو للبعض تسميتها بالعلائق السّياقيّة، وأنّه من الصّعب جدا أن تخزّن في الحواسيب بالرّغم من تقنيتها العاليّة، ولذلك اقترح أن تجمع النّصوص الجيّدة، لاستنطاق الألفاظ ضمن سياقاتها ومن ثمَّ الوقوف على دلالاتها، عبر الزّمان والمكان. وكان من الممكن أن يتوقّف عند هذا الاقتراح، إلاّ أنّه فتح الباب أمام الباحثين ليقترح عليهم توجّها إضافيا يهدف إلى تمكين الحاسب من معالجة اللّغة العربيّة معالجة آليّة تكشف المكنونات والعناصر الأساسيّة لنظامها، وتحدّد خصائصها بغيّة استخدامها في البحث لاحقا، ومن بين نحو هذه الخصائص على سبيل المثال لا الحصر، القاعدة التي تقول إن العربيّة لا تبدأ بساكن، أو قاعدة الجملة العربيّة جملة فعليّة في الأساس، وأن الفاعل يرفع مطلقا... وهكذا. والأمر ممكن جدّا من النّاحيّة العمليّة طالما سبقنا الغرب –ومنهم الفرنسيون– إلى تخزين لغتهم وفق هذا المبدأ، فقد صيغت صياغة رياضيّة، وألحقوا قواعدها المحدِّدة لها بإطار توليدي تحويلي حسابي مبرمج.

فوائد الذّخيرة:

من الفوائد المرجوّة من الذّخيرة، البحث في التّراث ومسحه عن طريق برامج الحاسب، بعد أن يتم إدراج وتخزين التّراث العربي المكتوب قديمه وحديثه، ليصبح بعد ذلك أداة طيّعة بين أصابع مستخدمي الشّابكة عموما والباحث العربي خصوصا. مع الأخذ بعين الاعتبار الحصول على إجابات لحظيّة لمختلف «الأسئلة عن تاريخ العرب والمسلمين وعن لغتهم في استعمالهم الحقيقي لها، وعن أفكارهم العلميّة وغيرها، وكيفيّة معيشتهم، وعن كل ما يتعلّق بالدّين والعلوم والفنون مع الحصول على الإجابة الفوريّة، وهذا مالم يحدث بعد في الوطن العربي ولم يهيّأ له إلاّ بالشّيء الجزئي المحدود جدًا»، وبالرّغم من صعوبة المسح النّاجمة عن صعوبة الجمع، إلا أن الأمر ليس مستحيلا.

ومن الفوائد المرجوة أيضا، اطلاع المهتمين من علماء وباحثين

على مستجدات البحث العلمي على السّاحة العالميّة، فالكل يعرف ما تفرزه الحضارة الغربيّة باللغة الإنكليزيّة والألمانيّة والفرنسيّة، من سيول عارمة من المعلومات والأفكار والمعاجم والمصطلحات التي لا تكاد تنقطع يوما، بل إنّ تردّدها يقاس بالدّقائق. ممّا يصبح عائقا أمام أغلب الباحثين العرب وجمهور الطّلبة الذّين لا يَسْمَح لهم تكوينهم أن يطّلعوا على الأبحاث العلميّة والتّكنولوجيات المتطوّرة. ولعلّ أمثل حلّ لهذه الفجوة، هو التّرجمة؛ إنّها الوسيلة التي هيّأت لليابان في عزلتها الحضاريّة موقعا في تاريخ اليوم، حيث كانت ترسل بالنّخبة إلى بلاد الغرب ليتعلّموا لغاته، ثم يعودون إلى الوطن للاضطلاع بمهمة التّرجمة، فاقتطعوا حقّ الملكيّة الفكريّة وطوّروا لغتهم في ذات الوقت. ومفاد هذا الكلام أنّه إذا تُرجمت المحتويات العلميّة العالميّة إلى اللّغة العربيّة، ستحدث الطّفرة الحضاريّة كما حدثت في القرون الأربعة الأولى من التّاريخ الهجري.

ستنتشر الفائدة بين طلاب العلوم على اختلاف مستوياتهم ومشاربهم، كما أنّه وبعد أن ترجّح كفة العرب عن طريق التّرجمة؛ سيضطر العالم إلى الاطلاع على أحوالهم وعلى الاستعمال الفعلي للغتهم، من خلال تسجيل الحياة اليوميّة والاجتماعيّة والفنيّة، وما تقيّده الأحداث والمقالات الصّحفيّة، إذ تتكون من ثروة من المعلومات يمكن أن يستفيد منها المواطن أيّا كان اختصاصه؛ وبخاصة منه اللّغوي وواضع المصطلحات الذي سيجد في الذّخيرة اللّغة العربيّة الفصحى المستعملة بالفعل ضالتّه، فيمكن أن يقف على الشّائع من المصطلحات وعلى الشّاذ منه في الاستعمال في عموم أقطار الوطن العربي. وجدير بالذكر ههنا أنّه يمكن استثمار الذّخيرة، في التّعرف على الشّيوع الحقيقي للألفاظ والمصطلحات، ويمكن لها بذلك أن تصبح مادة تقييم ودراسة وانتخاب في المجامع العربيّة، وأما تلك الألفاظ التي أُتفق على صلاحيتها، فتُنشر في الذّخيرة لتنتشر بفعل ذلك قرارات المجامع العربيّة بدل أن تظل حبرا على ورق، ويقضى بذلك على ما يعرف بالأخطاء الشّائعة.

واستكمالا لفوائد الذّخيرة، نستحضر فكرة المعاجم وانتعاش المعجميّة في الوطن العربي، بحيث أفاد الأستاذ الدّكتور عبد الرّحمن الحاج صالح، في مقالة له عرّف من خلالها مشروعه بل وأرخ له بكثير من التّفاصيل، أنّ الذّخيرة -وهي ذلك البنك المسمّى عند المهندسين بقاعدة المعطيات النّصيّة- ستتيح الفرص لتولُّد مجموعة من المعاجم المختلفة من حيث الأهداف والتّخصّصات، من نحو: المعجم الآلي الجامع لألفاظ العربيّة المستعملة، إذ سيضم جميع المفردات العربيّة التي وردت في النّصوص المخزّنة قديمها وحديثها، كما تُحدّد فيه معاني كل مفردة باستخراجها من السّياقات التي ظهرت فيها، ثم يضاف إلى ذلك تحديدات العلماء، وسيأتي وصف هذا المعجم فيما هو آتٍ:

المعجم الآلي للمصطلحات العلميّة والتّقنيّة المستعملة بالفعل: ويحتوي على المصطلحات التي دخلت في الاستعمال ولو في بلد واحد أو جهة معيّنة لأنّها وردت في نص واحد على الأقل، ويذكر مع كل مصطلح ما يقابله في اللّغتين الإنكليزيّة والفرنسيّة، أما ما لم يدخل في الاستعمال وورد فقط في معجم حديث، فيشار إليه فقط مع ذكر مصدره، وسيُجزّأ هذا المعجم العام إلى معاجم متخصّصة بحسب فنون المعرفة ومجالات المفاهيم. وكل واحد من هذين المعجمين آلي مثل الذّخيرة في شكلها الأول، ومعنى ذلك أنّه يقوم على ركيزة متّصلة بالحواسيب في أحدث صورها التي يمكن أن تخزّن ملايين النّصوص، كما يمكن أن يُنشر كل معجم على الشّكل التّقليدي.

إنّ ما يميز هذه المعاجم ضمن المحتوى العام وهو الذّخيرة، أنّها قابلة لإضافة معلومات أو إدراج كتب، كما أنّها قابلة لأي نوع من أنواع التّعديلات الممكنة. وإضافة إلى المعجم الآلي الجامع لألفاظ العربيّة المستعملة والمعجم الآلي للمصطلحات العلميّة والتّقنيّة المستعملة بالفعل، هناك المعجم التّاريخي للغة العربيّة[1]، ومعجم الألفاظ الحضاريّة القديمة والحديثة، ومعجم الأعلام الجغرافيّة، ومعجم الألفاظ الدّخيلة والمولّدة، وكذا معجم الألفاظ المتجانسة والمترادفة والمشتركة والأضداد، وغيرها من المعاجم ذات الوظائف العلميّة المختلفة. وميزة هذه المعاجم كلّها أنّ مادتها مأخوذة من الاستعمال الفعلي للغة. ولابد أن ينجرّ عن هذا المسعى أو المنهج إدراج جميع ما توصّلت إليه المعاجم وقوائم المصطلحات التي اقترحتها المجامع العربيّة أو المؤسسات العلميّة.

وبمناسبة الحديث عن فوائد الذّخيرة، نشير إلى كونها تعتمد في اختيار اللّفظ الذي يبحث عنه على مقياس الشّيوع والدّقة في دلالة المعنى المراد. كما يعتمد على هذا البنك النّصي الآلي في

(1) تجدُر الإشارة ها هنا إلى أنّ الجزائر دخلت هذه المغامرة التي تحوّلت فعلا إلى واقع، برعايّة المجلس الأعلى للغة العربيّة وبسواعد أساتذة وباحثين في قطاع التّعليم العالي والبحث العلمي. وهذا المشروع هو مشروع أمّةٍ تبنّاه مجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة بالشّراكة مع مجموعة من المجامع اللّغويّة العربيّة، وقد صدر من هذا المعجم 17 مجلّدا إلى حدِّ السّاعة تشمل الجذور التي تندرج ضمن مجموعة الحروف المحصورة بين الألف والجيم؛ هذا في انتظار إنجاز بقيّة المجلّدات، مع العلم أنّ المادة الجاهزة قد وُضعت بين يديّ المستعملين عبر الشّابكة، ويمكن الوصول إليها عبر هذا الرّابط: https://www.almojam.org/

البحث عن التّطور الدّلالي للألفاظ العربيّة مع إمكانيّة إنشاء معجم تاريخي دقيق للغة العربيّة. وهناك إمكانيّة إضافيّة تجلي فوائد الذّخيرة، وهي إمكانيّة الفهرسة الآليّة لكل النّصوص العربيّة ذات القيمة العلميّة والأدبيّة. كما يمكن إقامة الدّراسات العلميّة المقارنة في مختلف الميادين حول مجموعة معيّنة من المفاهيم العلميّة؛ الأمر الذي من شأنه أن يحيل المتخصّصين إلى البحث المنتظم عن تطور الفكر العلمي العربي بالاعتماد على تطور دلالات الألفاظ العلميّة داخل حقول دلاليّة عبر الزّمان. وتبقى قائمة الفوائد مفتوحة، لما لهذا المشروع الفكري واللغوي والحاسوبي من أبعاد علميّة من شأنها أن تفتق ذهنيّة الباحث العربي.

اللّجنة الوطنيّة للذّخيرة العربيّة:

نُصّبت اللّجنة الوطنيّة للذّخيرة العربيّة بقرار رقم 104 مؤرخ في 25 أفريل 2015 يتضمن تعيين الرّئيس وأعضاء اللّجنة الوطنيّة للذّخيرة العربيّة. وتتكون هذه اللّجنة التي تم إنشاؤها لدى المجمع الجزائري للغة العربيّة، من رئيس، ومن ممثلي القطاعات الوزاريّة وعددهم 12 عضوا. ومن ممثلي المؤسسات الجامعيّة وعددهم 12 عضوا كذلك. وتمّ تنصيب خلايا، موزعة على المؤسسات الجامعيّة، بمعنى خليّة واحدة لكل مؤسسة جامعيّة. وكان ذلك في إطار اجتماع اللّجنة الأول، المنعقد في 26 يناير 2012، وتتكون كل خليّة من خمسة موظفين مكلفين بالحيازة أي الرّقمنة، وأستاذين مشرفين على تصحيح النّصوص المحسوبة ومطابقتها بأصولها المطبوعة. إلى جانب متخصّص في الحاسوبيات من ذوي الشّهادات الجامعيّة من نحو مهندس في الإعلام الآلي، ومشرف متخصص في اللّغة العربيّة. وقامت اللّجنة بمراسلة المؤسسات الجامعيّة لتسهيل مهمة إنشاء الخلايا مع توفير الوسائل الماديّة والبشريّة اللّازمة قصد إنجاح المشروع، فهي إذن أرمدة من المختصين إداريا وعلميا تلك التي ساهمت في إطلاق المشروع على أرض الواقع.

تكمن مهمة كلّ خليّة على مستوى المؤسّسة الجامعيّة بعد تعيينها، بالعمل الفعلي باتجاه تفعيل الحيازة، في حدود حصة الجزائر التي حددتها لها الهيئة العليا للذخيرة بجامعة الدّول العربيّة. «وقد وضع رئيس الهيئة الوطنيّة للذخيرة عبد الرّحمن الحاج صالح بالتّنسيق مع مهندس المجمع الجزائري للغة العربيّة برمجيّة تتمثل في كيفيّة تخزين المعلومة، وكيفيّة البحث عنها بطريقة آليّة بحيث يمكن استرجاعها بطريقة إلكترونيّة. وفي هذا الإطار أبرمت عدّة اتفاقيات مع القطاعات الجزائريّة، ومنها وزارة الاتصال، حيث تم وضع صندوق لاقتناء معدّات لتدعيم الخلايا الموجودة في مستوى المجمع الجزائري للغة العربيّة، وهذا كمرحلة أولى، إذ يتم العمل بين المُرقّمين والمُصحّحين في آن واحد عن طريق الموقع الذي تمّ إنشاؤه لهذا الغرض؛ ومن ثَمّ فإنّ الذّخيرة تعمل بصفة تقنيّة تكون بناء على خدمات من خلال وضع برمجيّة توزع عن طريق موقع الذّخيرة. وتكون بهذا كل الخلايا مرتبطة بواسطة الشّبكة الإلكترونيّة».

توسعت اللّجنة الوطنيّة بعد أن كانت في بدايّة تأسيسها تضم عددا محدودا من الأساتذة الجامعيين وبعض المتخصّصين في الحوسبة، والإداريين، وضمت مجموعة من الكفاءات من بعض القطاعات التي تعدّ خدماتها ضروريّة للمشروع بعامة وللجنة الوطنيّة بخاصة، كما كانت تستدعي خبراء عند الضّرورة.

منجزات مشروع الذّخيرة:

سخّر المجمع الجزائري للغة العربيّة إمكانيات كبيرة في سبيل تحقيق مشروع الذّخيرة العربيّة، وبالفعل تمت حيازة مجموعة كبيرة من كتب التّراث اللّغوي والأدبي، بخلاف الجامعات الوطنيّة، حيث عرف العمل بها تقاعصا، فلم تتم حيازة أكثر من عشرين كتابا رقميا.

وتمّ استحداث خليّة مكوّنة من مهندسين وتقنيّين قاموا بإعداد دليل للمواقع الإلكترونيّة للمحتوى الرّقمي العربي المتمثل في الكتب والقصص والرّوايات، وكل خدمات البرمجيات التي طورت خدمة اللّغة العربيّة وكذا خدمات التّرجمة من وإلى العربيّة. وحصروا المواقع ووقفوا على محتوياتها ليتسنى لهم فيما بعد الاستفادة من المحتويات والمجالات التي تتوزع عليها هذه المواقع، وللتمكن من حصرها باعتبارها أرصدة بصيغة pdf أو كتب أخرى مرقمنة في شكلword «. وفي هذا الشّأن تم الحصول على 205 كتاب بصيغة word و679 كتابا تراثيا في مختلف المجالات المعرفيّة بحسب الأزمنة بصيغة pdf، وقد واجهت هذه الخليّة مشكل تحميل وتحويل الكتب من pdf إلى word ولذلك تمّت مراسلة قطاعات عديدة لتعزيز تعاونها خدمة للذخيرة العربيّة ومنها: وزارة التّربيّة ووزارة التّعليم العالي والبحث العلمي ووزارة التّكوين المهني ووزارة البريد والمواصلات ووزارة الدّفاع». ولم

تبخل بعض الهيئات والمؤسسات الوطنيّة كالمؤسسة الوطنيّة للفنون المطبعيّة، بنسخ من الكتب القديمة في هيئتها الورقيّة بغيّة تصويرها. كما استعانت الذّخيرة من وزارة الثّقافة؛ حيث قدّمت رصيدا رقميا معتبرا. واستفادت من الصّندوق الوطني لدعم الفنون والآداب. ولعل أهم إنجاز توصلت إليه الذّخيرة، هو منصة رقميّة خاصة بالمشروع، وهي عبارة عن برنامجيات إلكترونيّة رقميّة من شأنها أن تدمج الذّخيرة في عالم الشّابكة، والأهم من ذلك أنها تخدم حوسبة اللّغة العربيّة بطريقة أو بأخرى.

وتم وضع مخطط يرمي إلى مسح 5000 كتاب سنويا وإدراجها في البوابة الإلكترونيّة. كما نصّبت أربع خلايا في مجمع اللّغة العربيّة سنة 2019. وفضلا عن ذلك كلّه صمم شعار الذّخيرة، واستحدث موقعا خاصّا باللّجنة الوطنيّة للذخيرة، وأُختيرت شارتها، وأطلق الموقع الإلكتروني للجنة، ومضت إدارة المشروع في تعزيز التّعاون بين اللّجنة الوطنيّة ومختلف الدّوائر الوزاريّة، وكذا مخابر البحث، وعلى رأسها مخبر المخطوطات بجامعة أدرار. وتكللت الجهود بإنشاء خليّة متابعة متكوّنة من ثلاثة موظّفين مع أستاذ في مستوى المركز الوطني للبحث وتطوير اللّغة العربيّة مختصين في علم المكتبات.

آفاق مشروع الذّخيرة العربيّة:

تعتزم إدارة الذّخيرة اقتناء معدّات للتّخزين، وكذا جهاز الوصل عن طريق الشّابكة، وتجهيز مكاتب الخلايا الأربع، بأجهزة الحاسب والماسحات الضّوئيّة ذات الكفاءة العاليّة، كأن تمسح ضوئيا مائة ورقة في الدّقيقة الواحدة. وأجهزة إلكترونيّة تستطيع أن تتعرف على الحرف العربي، بما في ذلك لوحات مفاتيح خاصة بالإملاء العربي. هذا وتعتزم الذّخيرة أيضا، إنشاء موقع «ويب» ليتم التّعاون من خلاله على مهام الذّخيرة المستقبليّة، كالمسح، الذي يفترض منه أن يحتوي على تطبيقات تصحيح الأخطاء في حال وجودها. تحويل ما مسح إلى word وتصحيحه إن كان فيه خطأ. وكذا نقل ومسح الفهرسة كما هي في الكتاب المشتغل عليه. وبعدها عرض العمل على المدقق اللّغوي باعتبار عمله مرحلة نهائيّة مكملة لجميع المراحل التي تم من خلالها حيازة المحتوى اللّغوي في البوابة.

ويفترض أن تقدم الذّخيرة إنجازها في صورة متكاملة وذلك بتقديم أدوات تساعد على التّصفّح والقراءة الآليّة من خلال عرض وثائق الذّخيرة على الشّاشة، وخلق فضاءات للقراءة على شكل حسابات خاصّة لكلّ مشترك تمكّنه من حفظ المؤلّفات التي اختار قراءتها. وكذا تدوين الملاحظات على الهوامش، أو وضع علامات على ما هو مهمّ في المؤلفات. فضلا عن التّمكّن من أدوات العرض: الكبير، والصّغير، ودوران الصّورة، وتصفح الصّفحة... وتقديم أدوات أخرى لذوي الاحتياجات الخاصة. وإنشاء الموقع الإلكتروني للجنة الوطنيّة بحيث يكون باللّغات الثّلاث: العربيّة والفرنسيّة والإنكليزيّة، وزيادة في الدّقة خاصة تلك التي يقتضيها البحث الإلكتروني وهو وضع دليل لموقع الذّخيرة.

قيمة مشروع الذّخيرة العربيّة:

أول ما يمكن الحديث عنه هو انتماء الذّخيرة إلى تطبيق حوسبة اللّغة العربيّة، الذي تتضافر فيه التّقنيّة الحديثة ذات الدّقة العلميّة ونظام اللّغة العربيّة بمستوياتها المختلفة، وما ينطوي عليه من دلالات ثقافيّة وسياقات حضاريّة. ومشروع الذّخيرة مشروع ضخم جدّا موجه، يرمي إلى ترقيّة اللّغة العربيّة عن طريق الحفاظ عليها أولا ثم نشرها في أوساط الطّلبة والباحثين والمؤلفين من أبناء العروبة وغيرهم ممن يعشق العربيّة أو من له فيها مآرب أخرى.

هو مشروع يحاول ما وسعته المحاولة أن يرتب وينسق ويحفظ ويسهل استعمال اللّغة العربيّة، ما دام يركز على الاستعمال الحقيقي للغة، ومع ذلك فهو لا يقصي الشّاذ، أو الاستعمال الذي لم يعد متداولا منذ زمن مما وجد أثره في المعاجم القديمة أو حتى الحديثة. ومما يعزز قيمة الذّخيرة العربيّة أنها تهتم باللغة العربيّة في إطارها العلمي والاجتماعي والتّربوي والاقتصادي والسّياسي. وبمعنى أشمل هي تُعنى باللغة في إطار حياة الإنسان العربي بمختلف مظاهرها، لذلك حقيق بنا أن نعدّها مشروعا فكريّا بالأساس، فقد ثبت أنّه يعتني باللّغة في أي مجال تواجدت فيه.

ربطت الذّخيرة الماضي بالحاضر، ليس فقط عن طريق جمع ورقمنة كل ما دونته العرب، قديمه وحديثه، وإنما لأنّها مشروع استثمر نظريّة لغويّة عربيّة أصيلة نابعة من واقع الفكر العربي وتاريخه، ألا وهي نظريّة الخليل اللّسانيّة، ومحاولة اتخاذها أساسا لنظريّة لسانيّة عربيّة معاصرة.

فالأحرى بنا إذن أن نكمل الصّرح حتى وإن قضينا من أجل بنائه عشرين عاما قادما، خاصة أن ثمة صعوبات لم

يتخطاها الباحث العربي كلغة الحاسب الأصليّة، وهي الإنكليزيّة التي تقف حجر عثرة أمام رقمنة العربيّة، ومع ذلك إلا أن العرب نجحوا في رقمنة جزء كبير من اللّغة العربيّة المكتوبة، بل هناك من ابتدع لوحة مفاتيح خاصة برموز شديدة الدّقة ولا بأس من ذكر هذا الجهد المحمود في هذا المقام، وهو ابتكار محمّد بن منصور الغامدي المتمثل في نظام أ.ص.د.ع للأبجديّة الصّوتيّة العربيّة، وما هذا المثال إلا لتعزيز الأمل في نفس الباحث العربي السّاعي إلى تقديم الأفضل للغته ولموروثه الحضاري.

- **أ.د. مختاريّة بن قبليّة**

جامعة عبد الحميد بن باديس – متسغانم

- **أ.د فاطمة الزّ هراء حبيب زحماني**

جامعة أحمد بن بلّة – وهران 1

المصادر

- أعمال البروفيسور عبد الرّحمن الحاج صالح.
- مختاريّة بن قبليّة ولطيفة دخيسي، إسهامات المعلوماتيين الجزائريين في ميدان اللّغة العربيّة –جامعة العلوم والتّكنولوجيا بوهران أنموذجا، كتاب أعمال اليوم الدّراسي: واقع اللّغة العربيّة محليا ودوليا، جامعة مستغانم، والمجلس الأعلى للغة العربيّة، 2019.
- مختاريّة بن قبليّة، وفاطمة الزّهراء حبيب زحماني، الإحصاء بين الرّياضيات واللّسانيات من منظور عبد الرّحمن الحاج صالح، كتاب أعمال ملتقى الجهود اللّغويّة لدى عبد الرّحمن الحاج صالح.
- صفيّة مطهري، أهميّة النّظريّة الخليليّة في الدّرس اللّساني العربي الحديث.
- سارة لعقد، دور اللّسانيات الحاسوبيّة في ترقي استعمال اللّغة العربيّة، مشروع الذّخيرة العربيّة لعبد الرّحمن الحاج صالح، أنموذجا. مجلة البدر، جامعة بشار.
- سعيدي عبد الحليم، نظام فهرسة واسترجاع النّصوص العربيّة، كتاب أعمال النّدوة الوطنيّة: البرمجيات التّطبيقيّة للغة العربيّة – خطوة نحو الإدارة الإلكترونيّة، المجلس الأعلى للغة العربيّة، 2007.

اللغة العربيّة في مجال الآداب

د. طارق ثابت

تتدخل اللغة والثّقافة في عمليّة التّنشئة الاجتماعيّة للفرد باعتبارهما ضابطين أو قانونين يأتيان لتأطير الفرد ومنحه في المقابل هويّة تُدْرَكُ بعبارات التّماهي مع الوسط الذي يَقبل هذا الفرد لغته واستعمالاتها؛ فاللغة هي القانون الأول الذي يفرض نفسه على كل فرد خلال عمليّة التّنشئة الاجتماعيّة؛ وبما أن العصر الذي نعيشه هو عصر الانفجار المعلوماتي والتّقدم التّقني الهائل في سهولة وسرعة الحصول على المعلومات، وحيث أن هذه المعلومات قد صيغت في الغالب بلغة أجنبيّة سارعت الكثير من الدّول لتعليم أبنائها لغة أجنبيّة واحدة على الأقل في مراحلهم الدّراسيّة المبكرة على الرّغم مما يشكله هذا من مخاطر على الهويّة الثّقافيّة الأولى وعلى استيعاب اللغة العربيّة، واللغة العربيّة في الوقت الرّاهن تعيش تدهورا على مستويات كثيرة، لا سيما في ظل المتغيرات الدّوليّة الجديدة أو ما أصطلح على تسميته «بعصر العولمة» الذي باتت فيه هويات الشّعوب الثّقافيّة، لاسيما الهويّة اللغويّة مهددة بالتّراجع إن لم نقل بالزّوال والاندثار، فاللغة هي قوام الأمة، وقوام كيانها التّاريخي والثّقافي والحضاري، وهي العنصر الأساس في التّكوين القومي للشعوب؛ إذ ليست اللغة أداة للتخاطب فحسب، بل وعاء يحمل في طياته الفكر نفسه، ولغة كل أمة هو لسان حالها الذي يعبر عن ألامها وآمالها، وبواسطتها تحفظ تراثها الفكري والثّقافي والعلمي والحضاري، كي ينقل من جيل إلى آخر؛ حيث تقاس حضارة أمة من الأمم بكم التّراث الأدبي، والعلمي والفني، المدون بلغتها، كما تضطلع اللغة بدور رئيس في عمليتي التّنميّة الحضاريّة والتّبادل الثّقافي، لا لكونها أداة تواصل واتصال نعبر بها عن المفاهيم والأفكار والتّصورات والقيم، ونحفظ بها التّراث الفكري والثّقافي والعلمي فحسب؛ بل بوصفها أحد العناصر الجوهريّة من العناصر المكونة للثقافة والفكر؛ تتجاوز أهميتها من التّعبير والحفظ إلى التّغيير أيضا، ولا تقل أهميّة اللغة في الدّراسات التّاريخيّة أيضا، فهي مفتاح معرفة الحوادث والوقائع والانجازات المدونة في الوثائق؛ حيث تعتبر اللغة الوسيلة التي اعتمدها الإنسان في تدوين الأخبار والانجازات المختلفة، فالوثائق التي تعتبر الرّكيزة الأساسيّة في المعرفة التّاريخيّة، سواء أكانت هذه الوثائق مدونة على الجدران أم على أوراق أم على ألواح أم على جلود حيوانات و غيرها، تعتمد في أغلب الحالات على تحتويه من معلومات وصور ومخططات وأشكال على اللغة وكيفيّة استعمالها في التّعبير عن الحوادث والحالات، فتحفظ المندثر وتدعم الباقي بالشّاهد اللغوي.

❊ واللغة العربيّة هي جزء من هويّة الفرد والمجتمع عندنا؛ وقد اكتسبت بفضل الإسلام بعدا دينيا تجلى في كل مظاهر الحياة الدّينيّة عند العرب وعند غيرهم من الأقوام والشّعوب التي أسلمت، فأصبحت بذلك لغة التّعبير عن الإرادة الإلهيّة، والفعل الإنساني. وإذا كانت اللغة العربيّة في ظل الحضارة الإسلاميّة قد عرفت ازدهارا كبيرا حيث وصلت إلى العالميّة؛ إذ كانت الشّعوب تتهافت عليها للتزود بالعلوم والفنون وأسباب الرّقي، فإنها في الوقت الرّاهن تعيش تدهورا على مستويات كثيرة، لا سيما في ظل المتغيرات الدّوليّة الجديدة أو ما أصطلح على تسميته «بعصر العولمة» الذي باتت فيه هويات الشّعوب الثّقافيّة، لاسيما الهويّة اللغويّة مهددة بالتّراجع إن لم نقل بالزّوال والاندثار.

❊ والعولمة تعتبر من إفرازات النّظام العالمي الجديد؛ حيث ارتبطت به ارتباطا وثيقا، بل تعد قوام هذا النّظام، والعولمة لها صلة وثيقة بتجديد الغرب لنفسه، وبتجديد رؤيته للعالم وفهمه للآخر، وبالتّالي العلاقة معه، هذه

العلاقة التي انقلبت من القهر المباشر؛ أي الاستعمار والصّراع الأيديولوجي في فترة الحرب الباردة وعهود ما بعد الاستقلال في الدّول المستعمرة إلى الاختراق في شتى صوره، لذلك يرى الكثير أن العولمة كمفهوم متداول اليوم، ينتمي إلى عالم الغلبة الحضاريّة الذي طرح هذا المشروع كوسيلة لتعميم غلبته ومشروعه السّياسي و الاقتصادي والحضاري، فاعتبر التّقدم الغربي تقدما للجنس البشري.

❋واللغة العربيّة تمر في وقتنا المعاصر بأزمات نتيجة تأثرها بالوضع السّياسي والاجتماعي العام المنتشر في وطننا العربي والنّزاعات بين الدّول المتجاورة والنّزاعات الدّاخليّة وبروز العصبيات القبليّة، إلا أنها بفضل الله سبحانه وتعالى استمرت لغة واحدة طيلة هذه القرون رغم ما يهددها من مخاطر خارجيّة، ومما تعانيه اللغة العربيّة في عصرنا الرّاهن؛ من إدبار أبنائها عنها وسعيهم الأكبر لإتقان اللغات الأوروبيّة ولاسيما الإنكليزيّة منها – لسيطرتها الغالبة – على حساب التّمكن من اللغة الأم، فاللغة الانكليزيّة قوتها الفعليّة مأخوذة من قوة سيطرة أصحابها على هذه الحقبة الرّاهنة مما جعل انتشارها أسهل من غيرها وهنا نعود إلى نظريّة ابن خلدون في تقليد المغلوب للغالب وتمثله لكل ما يقربه إليه من لغة وهيئة، فالعولمة بهذا تشكل تهديدا على التّنوع الثّقافي، إذ ستؤدي إلى ظاهرة التّوحيد الثّقافي[1]؛ أي إلى سيادة ثقافة عالميّة واحدة تكون هي المرجع و المحور لكل الشّعوب، لكن الحقيقة، أن العولمة لن تؤدي إلى التّوحيد الثّقافي، ولا إلى الثّقافة العالميّة؛ لأن التّجانس الثّقافي يستحيل تحقيقه، والوصول إلى ثقافة عالميّة ضرب من المستحيل أيضا، وهذا ما يؤكده الغربيون أنفسهم حيث يشير العالم الفرنسي(كلود ليفي شتراوس)أن الوصول إلى ثقافة عالميّة، وحضارة عالميّة بالمعنى المطلق لا يمكن تحققه؛ حيث يقول: «إن فكرة الحضارة العالميّة يمكن تقبلها كنوع من مفهوم مجدد، أو خلاصة مصغرة لعمليّة شديدة التّعقيد لا توجد ولا يمكن أن توجد حضارة عالميّة بالمعنى المطلق طالما أن الحضارة تتضمن وتتكون في الواقع من تعايش ثقافات تعرض أقصى ما يمكن من التّنوعات، والثّقافة العالميّة يمكن في الحقيقة ألا تمثل أكثر من تآلف عالمي النّطاق من الثّقافات، كل منها يحتفظ بأصالته»[2]، و هذا طبعا ما لا يريده الغرب .

❋ إن أخطر ما ستعانيه الثّقافات في ظل العولمة هو التّهميش، وبما أن اللغة مكون رئيس من مكونات الثّقافة فإنها ستعاني بدورها من التّهميش أمام لغة الطّرف المهيمن، فرياح العولمة حملت في ثناياها إسقاط الحواجز اللغويّة تمهيدا لفرض سيادة اللغة الانكليزيّة، لغة الدّولة التي تفردت بالهيمنة على العالم؛ هذه التّحديات الثّقافيّة، لاسيما اللغويّة منها لن تعاني منها دول الجنوب فحسب، بل أيضا ثقافات ولغات دول الشّمال؛ جاء في الخطة الشّاملة للثقافة العربيّة الصّادرة عن المنظمة العربيّة للتربيّة والثّقافة والعلوم (ألكسو)، أنه «ليست دول الجنوب وحدها التي ثقافتها مهددة؛ فالثّقافات الأخرى جميعها تعاني من الوضع نفس. وهذا يعني أن ثمة أزمة ثقافيّة عالميّة تريد القضاء على التّنوع الثّقافي في سبيل نمطيّة ثقافيّة واحدة»[3] .

والحال اليوم حينما نتكلم عن استعمال العربيّة في مجال الآداب أن نتكلم أولا عن اختيار الأسر العربيّة لمدارس أبنائها ابتداءً من المرحلة الابتدائيّة حيث يتوجهون بهم مباشرة إلى مدارس اللغات والتي يقصد بها التّركيز على اللغات الأوروبيّة أكثر من العربيّة في توزيع المناهج مع تمكين التّلاميذ منها كلغة اللسان الأم، ويجد هؤلاء الأبناء التّشجيع من حولهم لاستخدام تلك اللغة الأوروبيّة في ساعات الدّرس وخارجه مما يؤثر سلباً غالباً على تغذيّة انتمائهم للغتهم العربيّة وإتقانهم لها بصورتها الفصيحة، وقد أضحت هذه من أكبر المشكلات التي تواجه نسبة غير قليلة من خريجي بعض البلاد العربيّة الذين يجدون أنفسهم غير مؤهلين بما يكفي للكتابة والتّعبير عن أنفسهم بلغتهم العربيّة ويواجهون صعوبات فيها مما يجعلهم يلجئون لتعلمها من جديد في مراحل متقدمة كأبناء اللغات الأجنبيّة.

❋ وإنه مما زاد في التّضييق على اللغة العربيّة في عقر دارها، تعالي أصوات من أبناء الأمة العربيّة أنفسهم تنادي بأفضليّة اللغة الأجنبيّة على اللغة العربيّة بدعاوى مختلفة منها:

1 – تخلف اللغة العربيّة وعجزها عن مسايرة مستجدات العصر.

(1) هويّة بلاهويّة – نحن والعولمة، ورقة مقدمة لمؤتمر القاهرة، مصر، 1998، بعنوان العولمة وقضايا الهويّة الثّقافيّة صحيفة «المدينة» السّعوديّة، 1998م.

(2) التّنوع الإنسان المبدع، تقرير اللجنة المعنيّة بالثّقافة العالميّة و التّنميّة، تحرير خافير دي كويلار، منشورات اليونسكو، الطّبعة العربيّة القاهرة، مصر، مركز مطبوعات اليونسكو، سنة 1996م.

(3) الخطة الشّاملة للثقافة العربيّة، المنظمة العربيّة للتربيّة والثّقافة والعلوم، تونس، دار الثّقافة، ط2، 1997.

2 – مرجعيّة ثقافة أكثريّة النّخبة المثقفة في العالم العربي هي الثّقافة الغربيّة بلغتها الأجنبيّة.

3 – اللغة الأجنبيّة لاسيما الإنكليزيّة والفرنسيّة والألمانيّة، هي لغة العلم والتّكنولوجيا؛ حيث أصبحت تؤدي الدّور الرّئيس في نقل المعلومات وأساليب تنظيم المؤسسات وإدارتها ، واستعمال الآلات.

ودفاع هؤلاء عن اللغة الأجنبيّة، هو في الواقع دفاع عن امتيازات نخبويّة ثقافيّة أدركوها في ظروف معينة، ونشأت عنها بالضّرورة امتيازات اجتماعيّة، واقتصاديّة؛ فهم في الواقع يدافعون عن امتيازاتهم ومصالحهم الخاصة التي اكتسبوها بسبب إلمامهم بهذه اللغة الأجنبيّة، والدّور المهيمن الذي تلعبه، وهكذا ترتبط مصالحهم بمصالح الهيمنة اللغويّة – الثّقافيّة الأجنبيّة – ويستفيدون من مواقعهم التّنفيذيّة في الإدارة وفي المؤسسات التّربويّة، ليجعلوا مقاييس العلم، والبحث والنّجاعة في العمل الإداري والفني متماشيّة مع هذه الهيمنة، ومستجيبة لتلك المصالح»[1].

إن اللغات يحدث بينها ما يحدث بين بني الإنسان من احتكاك وصراع في سبيل البقاء والسّيطرة، احتكاك من شأنه أن يفضي إلى تداخل اللّغات وتفاعلها وتأثر إحداها بالأخرى، فالاحتكار بين اللّغات نتيجة حتميّة للاحتكاك بين المجتمعات.

❋ اللغة العربيّة والكتابة الأدبيّة:

ظلّ الأدب دائماً العامل الأساسي في رفد اللغة العربيّة بجماليات ترتقي بها وتنعكس لاحقاً في حقول ثقافيّة أخرى مثل الأغنيّة والسّينما، حقيقة يؤكدها تاريخ الثّقافة العربيّة خلال القرن الماضي والذي شهدت عقوده السّتة الأولى تيارات أدبيّة كانت تحفر طريقها عبر آليتين: الأولى ترتكز على التّجريب في الشّكل الأدبي وفي الدّخول إلى فضاءاته المتعددة، والثّانيّة الاهتمام بإكساب اللغة الفصحى جماليات البساطة مع الاحتفاظ بجزالة الأسلوب وفخامته ومنذ فترة قصيرة بدأت انتقادات عدة توجّه إلى لغة الأدب نفسها، بل ذهب البعض إلى أنها لم تعد تؤثر بأي شكل في اللغة العربيّة، وربما تنعكس عليها بالسّلب؛ فالأدب في كل العصور كان دائماً هو المنوط به إثراء اللغة وإثراء متخيلها وتنميّة كفاءتها التّعبيريّة سواء كانت نثراً أم شعراً، وبتعدد الأجناس الأدبيّة في العصر الحديث من روايّة وقصة ومسرح وأشكال حديثة مرتبطة بتطور الصّورة، وأخرى مرتبطة بالتّقنيات الرّقميّة، وكل هذا يزيد بالضّرورة من طاقة اللغة وكفاءتها في التّعبير ومستوى شعريتها، ودرجة إنضاجها للتقنيات التّعبيريّة والفنيّة، إلى جانب انتشار التّعليم وشيوع الصّحافة المقروءة والوسائل المرئيّة كالتّلفزيون، ما يضاعف مئات المرات من إمكانات النّمو اللغوي والتّنميّة المعجميّة، إلى جانب عامل آخر بالغ الأهميّة في العصر الحديث، وهو كثافة التّواصل البشري بين الثّقافات واللغات المختلفة، فكل كتاب جديد فلسفي أو أدبي أو تواصلي عادي يصدر يضيف بالتّالي إلى ثروة اللغة العربيّة.

إن الدّور الأكبر في تنميّة الوعي بأهميّة اللغة العربيّة يقع على الأدباء، لأن الأدب هو المرآة الصّادقة لتطور اللغة، وهو حياة أخرى بالنّسبة لها، والمجدد الدّائم لأنساقها، وهذا ليس وليد اللحظة الرّاهنة فقط، بل يمتد عبر تاريخ الأدب العربي منذ العصر الجاهلي حتى الآن، فقديماً كان الشّعر الجاهلي قبل الإسلام هو النّموذج للحفاظ على قوة وسلامة اللغة، والدّليل على تعدد روافدها، وتنوع منابعها، وتأكيد جمالياتها الفنيّة، وقد احتفى العرب قديماً بالشّعر ليس باعتباره فن العربيّة الأول، وإنما لأنه المحافظ على العادات والتّقاليد والأعراف القبليّة التي كانت منتشرة في ذلك الوقت، وبالتّأكيد يلعب الأدب دوراً مهماً ورئيسياً في هذا الإطار للنهوض باللغة، من خلال تطعيمها بمفردات الحياة اليوميّة، وغيرها مما يعد إثراء لها وإضافة حقيقيّة لها، خاصة مع تنوع فنون الكتابة، فلم يعد الشّعر وحده في هذا المجال، فهناك الرّوايّة التي تطورت تطوراً مذهلاً في السّنوات الأخيرة، وكذلك المسرح بأشكاله المتعددة والقصة القصيرة وفن المقال وغيرها من الأشكال التي بإمكانها أن تعيد اللغة العربيّة لمكانتها التي تستحقها.

❋ إن الأدب بأنواعه المختلفة سواء كان شعراً أم قصّة أم روايّة أم مسرحاً أم نقداً أدبياً أم أدب أطفال أم أدب رحلات، كل هذه الأنواع من أهم مصادر إحياء اللغة العربيّة، فهي تغذي اللغة بالأساليب البلاغيّة والجماليّة، فالشّعر مثلا قراءته تساعد على تطوير اللغة؛ لأنه يستخدم اللغة من خلال ثلاثة أبعاد مركبة وأولها البعد الجمالي، فلغة الشّعر هي لغة الاستعارة والكنايّة والجناس والطّباق، وثانيها أن لغة الشّعر هي لغة تاريخيّة بمعنى أنها

(1) اللغة العربيّة والهويّة الثّقافيّة، وتجارب التّعريب، مجلة «المستقبل العربي»، السّنة (4)، عدد (27)، 1981م.

امتصاص لرحيق هذه اللغة عبر عصور مختلفة، لكن الأهم من ذلك هو البعد الثّالثّ، وهو لغة الإبداع والتّطور والحداثة والدّهشة والإضافة، فالشّعر الحقيقي يعمل على تدوير اللغة من خلال استحداث مفردات جديدة من المفردات القديمة، والكتابة المسرحيّة كذلك أضافت للغة العربيّة الكثير بدايّة من مسرح أحمد شوقي الذي أدخل الأدب التّمثيلي إلى الشّعر، وكان أول من التّفت إلى أهميّة ثقافة العرض الشّعري في الوطن العربي، وتبعه بعد ذلك جيل من الرّواد أمثال عزيز أباظة، وعبد الرّحمن الشّرقاوي، وصلاح عبد الصّبور الذين وسعوا من جماليات الكتابة باللغة العربيّة الفصحى، فالعقود السّتة الأولى من القرن الماضي شهدت نقلات نوعيّة مهمة في الأدب العربي بأجناسه وموضوعاته المختلفة، الشّيء الذي أسهم على نحو إيجابي في دعم ورفد اللغة العربيّة، ولذلك فالمتصفح للصحافة العربيّة في الخمسينات والسّتينات مثلاً سيلاحظ ذلك، والشّيء نفسه في اللغة الفصيحة التي تم توظيفها في الأغنيّة (مثل بعض أغنيات كوكب الشّرق وغيرها)، كذلك امتد التّأثير إلى لغة الفن السّابع التي استفادت من الثّراء الذي عرفته اللغة في ذلك الوقت ، أما لاحقاً في نهايّة التّسعينات من القرن الماضي وبعد ذلك، وربما حتى الألفيّة الجديدة، فحدث تراجع في لغة الأدب العربي إلى درجة الابتذال والميوعة والرّكاكة، وهو ما أدى إلى سلبيات كثيرة عانتها اللغة العربيّة التي باتت تعيش في وضع أشبه بوضع عصور الانحطاط التي انحدرت فيها اللغة إلى هوة سحيقة من الضّعف أهم سماته التّكلف والابتذال والصّنعة الرّديئة والسّطحيّة والتّقليد الممجوج، وغير ذلك مما هو متداول ومعروف.

لم يعد الأدباء العرب يولون أهميّة للغة العربيّة الفصيحة5، فبعد أن كان الأدب يخدم اللغة، ويمنحها أبهتها وقداستها، ويفتتن الأدباء في تطويع عصي اللغة وتدجين وحشيها، حتى صار الأدب وسيلة لتعلم مفردات اللغة العربيّة واستقراء قواعدها واستنباط أحكامها، فقد كان النّحاة يستشهدون بالشّعر حجة على صحة ما يقررونه من قواعد لغويّة .

وقد تعالت في بدايّة القرن الماضي صيحات تتهم العربيّة بالقصور عن مواكبة العصر، وتدعو لاعتماد اللغة العاميّة لغة أدب وإبداع، فوصل الأمر إلى درجة كتابة القصص والرّوايات بها، أو اتخاذها لغة الحوار في الرّوايات والقصص، إلا أن الأمر لم يحظ بقبول المتلقي العربي، الذي اعتبر أن في الأمر تحاملا على العربيّة، وقد وصل الأمر بالعالم اللغوي (تمام حسان) أن قال «إن العربيّة بلغتها وبشعرها في قالبه الخليلي التّقليدي هو تعويذة هذه الأمة الذي يحفظها ويصون بيضتها» مؤكدا أنه «كلما غيّرت الأمة في ذلك أصيبت في جسدها العربي، فحين استحدثوا الموشحات أصيبت الأمة في الأندلس، وحين كتبوا شعر التّفعيلة أصيبت الأمة في فلسطين».

إن الفقر اللغوي الذي يعاني منه الكتّاب العرب قد أضر كثيراً باللغة العربيّة، وقد جعل من الجزالة اللغويّة مأخذا يأخذه النّقاد أحيانا على الأديب، فيعتبرونه إغرابا، يصعب فهمه على المتلقي العادي، في حين أن في المسألة ما يسميه أهل المنطق بالدّور؛ حيث إن الفقر اللغوي للأدباء والشّعراء العرب المعاصرين هو السّبب في الضّعف اللغوي الذي يعانيه المتلقي العربي.

❋ إن ازدهار الفنون الأدبيّة يساعد على وضع اللغة العربيّة على الخريطة الثّقافيّة والإبداعيّة العالميّة، فهناك كثير من الأعمال العربيّة تترجم إلى جميع لغات العالم في الرّوايّة والقصة والشّعر، وهناك مشاركات عربيّة كثيرة في المهرجانات والمؤتمرات الثّقافيّة العالميّة، ما يجعل هناك حضوراً عربياً مميزاً، ومما يعطي للعالم انطباعاً مميزاً عن تطور اللغة العربيّة عبر أنساق الكتابة المختلفة، وهناك عدد كبير من الأدباء العرب يعملون في إبداعاتهم على الاهتمام بعنصر اللغة، الذي هو أساس للعناصر الإبداعيّة الأخرى التي يجب أن تتوافر ويتضمنها العمل الإبداعي، فبدون لغة جيدة لا يوجد إبداع حتى لو كان هناك تخيل وتأمل وغير ذلك. فاللغة هي الحاضنة الأولى لأي إبداع أدبي أو فني، لذا فعلى الأدباء دور كبير في النّهوض باللغة؛ لأن الاستسهال قد يؤدي إلى ضياعها وانهيارها، فعلى كل من يريد الكتابة الإبداعيّة أن يدرس اللغة ويتذوقها، لأن اللغة العربيّة لغة تذوق، وهي أكثر اللغات التي تحتوي على تنوع في المفردات، وتنوع في الجماليات والرّؤى.

❋ واللغة العربيّة مؤسّسة تمكنت من بناء صرح أدبي عبر تاريخها، حيث أصبح الأدب العربي متنا أدبيا لا يمكن تجاوزه حينما نتكلم عن الآداب العالميّة، نبغ الشّعراء منذ عصر ما قبل الإسلام وقالوا شعرا استعصى على شعراء الحصر الحديث تجاوزه، وعليه بنيت علوم أسست لصرح العربيّة، وقس على ذلك ما شهده الأدب العربي من روايّة، وقصة، ومسرح، فالكتابة الأدبيّة في مفهومها6[1]، فعل جسدي ينبني على

(1) في معنى الكتابة الأدبيّة، https://www.alquds.co.uk.

فاعليّة الذهني في ممارسة عمليّة الوعي والإدراك، فما يتحقق إخضاعه للوعي والإدراك يثبت لغة، حيث يتعلق بالذاتي في صيغته المحض، ولئن كان كل ذاتي مفردا يحوي الجمعي ويقوله، فمن الممكن ارتباطه بغيره، بما يمثل الخارج في تفاعلات صراعاته. ويحدث في سياق عمليّة الإنتاج، الجمع بين الذاتي/ الدّاخلي، والآخر/ الخارجي، من ثم فالكتابة الأدبيّة إعلان عن ذات، هويّة، وعالم لم يكن وقد صار إلى الحضور، بيد أن ما يفعّل الحضور، وعي وإدراك التّلقي، وكأن العمليّة صراع تفاعل بين وعيين وإدراكين؛ لكن الكتابة ككتابة لا تنحصر في الهويّة الأدبيّة، إذ من الممكن توافر عناصرها لمن يأنس حدود الأدب، وبالتّالي يمارس حسب الاكتفاء الممتلك من/ وباللغة، فلا كتابة أدبيّة دون قراءة أدبيّة وفلسفيّة في الجوهر والعمق، وعلى هذا فالكتابة الأدبيّة كمنجز، ينهض بوظيفة التّعبير، تتفرد باشتراطات في غيابها لا يتأتى الحديث عن كتابة أدبيّة، إلاّ بكفاءة اللغة، وامتلاك الصّنعة، إذ من خلالها يمكن بناء عالم خيالي على أنقاض واقعي معروف، نص أدبي خيالي تؤسسه اللغة، ونص واقعي يؤسسه الوجود.

❋ إن عالم الكتابة الأدبيّة يهب الصّورة، الصّورة التي تؤسس وجودها من واقع ليس المعروف المتداول، وإنما القائم على بلاغة خاصيتها التّرتيب، الحذف، التّقديم والتّأخير، فالخاصيات تستهدف المتلقي إبلاغا وإقناعا، ومن ثم، تخلق أسئلة النّص القلقة والمقلقة أيضا. على أن الكتابة الأدبيّة في صورتها البلاغيّة الهادفة الإقناع، لا يتشكل بناؤها على الصّورة ذاتها، وإنما تتمظهر في أجناس أدبيّة محددة من طرف المؤلف، وتعامل من طرف قارئها وناقدها بما دعي/ يدعى ميثاق القراءة، ذلك أن شخص المؤلف وهو يشكل الصّورة يستحضر مكونات تحقق التّواضع عليها، وبانتفائها لا يمكن اعتبار القصيدة كذلك، وقس الرّوايّة، القصة، المسرحيّة، السّيرة الذاتيّة، وما يندرج في أفقها (اليوميات، المذكرات، الرّسائل، الاعترافات والتّأملات، فمقصديّة الكتابة الأدبيّة إنتاج معنى لا يمكن إدراكه ووعيه إلا وقد صار عالم النّص إلى الحضور، دون الغفلة عن التّباين الذي يحصل في الأفهام، والمحتكم لنوعيّة القارئ وطبيعة انفتاحه وتعامله مع النّصوص الأدبيّة، لكن تاريخيّة الكتابة الأدبيّة، وبالتّالي المعاني المتناسلة، تكشفان من الوجهة النّفسيّة، عن المعاني المطبوعة بالحنين، الفقدان والألم والاعتراف، والواقع أن هذه رغم تباينها واختلافها تتقاطع وتتداخل ضمن الكتابة الأدبيّة الواحدة.

❋ تدوين الكتابة الأدبيّة باللغة العربيّة(نظرة تاريخيّة):

❋ توسعت كلمة كتابة أدبيّة لتشمل مجموعة من العلوم والمعارف فأصبحت تدل على الشّعر والنّثر والأخبار والأيام والأخذ من كل علم بطرف، وبهذا المعنى أُلفت مجموعة من الكتب منها البيان والتّبيين للجاحظ والكامل للمبرد وعيون الأخبار لابن قتيبة والعقد الفريد لابن عبد ربه...، والكتابة الأدبيّة التي نعنيها والتي كُتبت باللغة العربيّة يمكن أن نحصرها في شكلين كبيرين هما:الأشكال النّثريّة، والأشكال الشّعريّة، كما يلي[1]:

1 -الأشكال النّثريّة: الخطب والوصايا والرّسائل والأمثال والقصص والرّحلة: ظهرت بعض هذه الأشكال منذ جاهليّة العرب وتم تدوينها أما بعضها فقد تأخر وجودها أو تدوينها:

أ- الخطب: ظهرت الخطب في الجاهليّة تحت تأثير البيئة العربيّة وطبيعة الإنسان العربي بالإضافة إلى طبيعة اللغة العربيّة، وقد اشتهر من خطباء الجاهليّة (قس بن ساعدة) و(عتبة بن أبي ربيعة) في مكة و(أكتم بن صيفي) و(عمرو بن معد يكرب الزّبيدي) وغيرهم، أما في الإسلام فرسول الله صلى الله عليه وسلم أفصح الخطباء وبعده خلفاؤه الرّاشدين وبعض الخلفاء والولاة وأعلام البيان كـ(معاويّة) و(عبد الملك بن مروان) و(زياد بن أبيه) و(الحجاج) و(الحسن البصري) و(الأحنف بن قيس)، وقد بدأ التّدوين في الخطب مع تدوين الحديث الشّريف حيث تضمنت كتب الحديث خطب الرّسول وبعض الصّحابة، وفي عصر التّدوين تم جمع الخطب الجاهليّة والإسلاميّة وتدوينها، وتنوعت الخطب حسب موضوعها فهناك الخطب الحماسيّة والفخريّة والأخلاقيّة وخطب المناسبات.

ب- الوصايا: هي نثر أدبي تربوي يهدف إلى النّصح والإرشاد والتّوجيه ويجمع بين القصة والمثل والحكمة، وأشهر الكتب التي ألفت في الوصايا(كتاب تاريخ العرب الأوليّة للأصمعي)، وكتاب (الوصايا لعلي بن دعبل الخزاعي) (246هـ) وكتاب (الوصايا لأبي حاتم السّجستاني) (ت248هـ)، وكتاب(وصايا الملوك وأبناء الملوك للوشاء).

(1) تاريخ الكتابة والتّأليف عند العرب، https://www.alukah.net/sharia/0/123523/#ixzz74YEmF4ux

ت- الرّسائل: كانت الرّسائل عند العرب قليلة لقلة الكتابة عندهم، وقد عرفوا أنواعا من الرّسائل نجمعها في نوعين أما الأول فهو الرّسائل الشّخصيّة التي يتراسل بها النّاس في أمور حياتهم، ومنها رسالة (عبد المطلب) إلى أخواله بيثرب. والنّوع الثّاني هي الرّسائل الرّسميّة والتي تكون بين الملوك أو الملوك وولاتهم وغير ذلك ومنها رسالة (المنذر لـ(أنو شروان) ورسالة (عمرو بن هند) إلى (المكعبر) بخصوص (المتلمس)، كما ظهر نوع من الرّسائل المشفرة، وقد تميزت الرّسائل بالإيجاز بدون مقدمات، وكانت قريش تبدأ باسمك اللهم فلما جاء الإسلام غيرها إلى البسملة، وأشهر رسائل الإسلام هي رسائل الرّسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء والولاة، ولما عربت الدّواوين في العهد الأموي ظهر ديوان الرّسائل وأصبحت كتابتها فنا خاصا يحتاج للدربة، وكان (عبد الحميد الكاتب) (ت132هـ) كاتب (مروان بن محمّد) آخر ملوك الأمويين أول من لمع فيه وترك بصمة واضحة وقد سار على نهجه من جاء بعد وأشهرهم (ابن العميد) (ت359هـ) الذي سمي بالجاحظ الثّاني .

ث- الأمثال: ظهرت الأمثال عند العرب منذ القديم وكانت تحفظ وتنقل بالرّوايّة الشّفويّة، وعندما هبّ العرب لجمع لغتهم كانت للأمثال نصيبها من الاهتمام بالجمع والشّرح وذكر المناسبة التي قيلت فيها أو القصة المرتبطة بها. أما بدايّة التّأليف فقد بدأت حسب ما وصلنا في القرن الأول مع (المفضل الضّبي) (195هـ) و(أبي عبيد القاسم ابن سلام) (ت224هـ) وكتاب (الدّرة الفاخرة لحمزة الأصفهاني) (ت350هـ)، إلا أن أشهر المؤلفات في الأمثال هي (المستقصى في الأمثال للزمخشري) (ت538هـ) و(مجمع الأمثال للميداني).

ج- القصص: ارتبطت القصص عند العرب في الجاهليّة بأحاديث السّمر وكان القاص يحكي عن الأمم البائدة وأيام العرب وأخبارهم، وقد امتزج التّاريخ الحقيقي بالموضوع وبالأسطورة، أما في الإسلام فقد ارتبطت القصة بالموعظة وأخذ العبرة وقد كانت قصص القرآن الكريم اليقينيّة بديلا عما راج في الجاهليّة من خرافات وأساطير، وكانت القصص تجمع بين التّشويق والإثارة مع الحكمة والأمثال والشّعر فكانت وعاء لكل ذلك، والملاحظ أن الأدوار في النّثر العربي تتبدل فنجد مرة أن الشّعر في القصة والخطبة كما نجد القصة والوصيّة والمثل والحكمة في الشّعر.

وإذا ما تصفحنا تراثنا الأدبي نجده يزخر بالقصص المستقلة أو في بطون الكتب الأدبيّة العامة ومنها (سيرة عنترة)، و(سيرة سيف بن ذي يزن)، و(كليلة ودمنة)؛ لـ(ابن المقفع) (ت146هـ) (رسالة النّمر والثّعلب)؛ لـ(سهل بن هارون) (ت 215هـ)، وقصص (ألف ليلة وليلة)، و(البخلاء)؛ لـ(لجاحظ) (ت255هـ) و(رسالة التّوابع والزّوابع؛ لابن شهيد) (ت 426هـ)، و(رسالة الغفران)، و(رسالة الصّاهل والشّاحج؛ للمعري) (363 – 449هـ)، و(رسالة حي بن يقظان)؛ لكل من (ابن سينا) و(ابن الطّفيل) (ت 581هـ، وقد اشتهر من أصحاب المقامات علمان أولهما (بديع الزّمان الهمداني) وثانيهما (الحريري.

ح- أدب الرّحلة: ارتبط هذا الأدب بالجغرافيين أكثر من ارتباطه بالأدباء؛ فأول الكتب في الرّحلة (رحلة ابن فضلان) (ت310هـ) ونقل (أبو زيد السّيرافي) الجغرافي (ت 330هـ) ما سمعه من (سليمان التّاجر) مع بعض الإضافات في كتاب (رحلة السّيرافي)، كما كتب الجغرافي (ابن خُرْدَاذْبَهْ) (ت 272 هـ) أخبار رحلة (سلام التّرجمان) إلى جبال القوقاز والتي كانت بأمر من الخليفة (الواثق)، أما أشهر الذين ألفوا في رحلاتهم فهم (المسعودي في كتابه الشّهير مروج الذهب ومعادن الجوهر)، و(المقدسي) (ت380هـ) في كتابه (أحسن التّقاسيم في معرفة الأقاليم)، و(الشّريف الإدريسي) (ت560) في كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، ورحلة (ابن جبير) (614) ورحلة (ابن بطوطة) (ت779هـ) ورحلة (ابن خلدون) (ت808هـ).

2 – الشّعر: بدأ جمع الشّعر وتدوينه في البدايّة للاستشهاد به في تفسير القرآن ووضع قواعد اللغة، لكنه سرعان ما بدأ يجمع لذاته، وظهرت مدرستان في روايّة الشّعر وجمعه، مدرسة البصرة ومنها (ابن العلاء) و(الأصمعي) و(خلف الأحمر)، ومدرسة الكوفة وكانت أكثر روايّة وأكثر وضعا، وقد ألّف هؤلاء الرّواة وغيرهم كتبا جمعوا فيها الشّعر وأشهرها (المفضليات للضبي) (ت164هـ) و(الأصمعيات للأصمعي) (ت216) بالإضافة إلى دواوين الجاهليين وغيرهم، وعنهم أخذ رواة القرن الثّالث كـ(أبي تمام) في حماسته، وجمهرة أشعار العرب لـ(أبي زيد القرشي) وشعر الهذليين لـ(أبي سعيد السّكري)، وهذه المؤلفات تعد أهم مصادر الشّعر الجاهلي، أما الشّعر الإسلامي فقد دون في الأغلب على يد الشّعراء أنفسهم أو مريديهم.

3 – التّاريخ والأخبار والأنساب: أوّل من دون في الأخبار والأنساب (الخليفة معاويّة) الذي استقدم (عبيد بن شريّة

الجرهمي) وكان نسابة وإخباريا، وكان لـ(معاويّة) مجلس للنسابة المشهور (دغفل بن حنظلة السّدوسي) (ت 70) الذي جمع ما قاله في هذا المجلس في كتاب بعنوان(التّضافر والتّناصر)، وألف في التّاريخ (محمّد ابن سائب الكلبي) (ت146هـ) وابنه (أبو المنذر هشام بن محمّد) (ت203هـ) الذي تابع نهج أبيه في التّنقيب عن تاريخ العرب وأخبارهم وأنسابهم فألف الجمهرة في النّسب، وكتاب الأصنام، وكتاب مثالب العرب، وكتاب أسواق العرب، وقد توالى التّأليف بعد ذلك فهناك من ألف في تاريخ المدائن وتاريخ العرب القديم وتاريخ الأمم والدّول، وقد جمع (الطّبري) في تاريخه ما تفرق وتبعه ابن كثير في البدايّة والنّهايّة.

4 –**البلاغة**: لقد ارتبطت البلاغة بالنّقد الأدبي، يمكن أن نربط بدايّة التّأليف في البلاغة بتلك المباحث التي ظهرت في كتب المتقدمين كـ(مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى) (ت209هـ) و(الكتاب لسيبويه)، و(البيان والتّبيين للجاحظ)، و(الكامل للمبرد)، (وابن المعتز) في البديع، وكتب النّقاد؛ كنقد الشّعر لـ(قدامة ابن جعفر) و(الموازنة للآمدي)، و(الوساطة للقاضي الجرجاني)، و(عيار الشّعر لابن طباطبا)، و(العمدة للقيرواني)، و(سر الفصاحة للخفاجي)

5 –**النّقد الأدبي**: أسهم اللغويون والنّحويون في تطور النّقد حيث ظهرت المفاضلات المعللة من جانب اللفظ والصّياغة فجعلوا للشعراء طبقات على أساس الكثرة والجودة وبذلك بدأت بوادر النّقد الموضوعي تظهر في سماء النّقد العربي، أما الطّبقات فقد بدأ التّأليف فيها مع (محمّد ابن سلام الجمحي) (ت 232هـ) فهو الذي جمع ونظّم كلام من سبقوه في طبقات الشّعراء، ولاشك أن تصنيف الشّعراء في طبقات هو في جوهره عمل نقدي، وقد زاد هذا النّقد خطوات إلى الأمام مع ظهور الخصومة بين أنصار القديم وأنصار الجديد فحمي الوطيس بين الفريقين وعمد كل منهم إلى إفحام خصمه بالحجة، وفي القرن الثّالث تأثر النّقد بالبلاغة والمنطق والفلسفة والجدل، وبلغ من تأثر بعضهم باليونان أن أسقطوا النّقد الأرسطي على الشّعر العربي ومنهم (قدامة بن جعفر) في كتابه نقد الشّعر، إلا أن بعض النّقاد حافظوا على هويتهم العربيّة كـ(ابن قتيبة) في كتابه الشّعر والشّعراء و(ابن المعتز) الذي ألف رسالة في محاسن ومساوئ أبي تمام، وألف كتاب البديع الذي تأثر به النّقاد كثيرا، وفي القرن الرّابع وصل النّقد العربي إلى ذروته مع علمين من أعلام النّقد العربي هما (الحسن بن بشر بن يحيى الآمدي) (ت370هـ) في كتابه الموازنة بين الطّائيين و(علي بن عبد العزير القاضي الجرجاني) (ت392هـ) في كتابه الوساطة بين المتنبي وخصومه.

6 –**التّرجمة**: التّرجمة الأدبيّة في ميادين المعرفة فقد بدأت خجولة في بدايّة الدّولة العباسيّة ثم سرعان ما ازدهرت خاصة في عصر المأمون، الذي أسس بيت الحكمة وقد ذكر المستشرق (بروكلمان) طائفة من المترجمين في تاريخه.

7 –**التّراجم والطّبقات**: اعتنى العرب بعلمائهم في كل مجال من مجالات المعرفة فنجدهم قد ترجموا حياتهم بدقة وتفصيل وصنفوهم في طبقات، وقد بدأ هذا الفن في علم الحديث بتسجيل فضائل الصّحابة والتّابعين وتتبع حياة رواة الحديث النّبوي، وقد تفنن أهل الحديث في تقسيم الطّبقات حيث قسموا على أساس الزّمان والمكان والدّرجة العلميّة فألفوا في طبقات الثّقات والضّعفاء والمتروكين، ويعد كتاب الطّبقات الكبرى لـ(ابن سعد) (ت230هـ) من أول الكتب في بابه، وفي طبقات الشّعراء كتب (الجمحي) و(ابن المعتز)، وكتبوا في طبقات أهل اللغة والنّحو وجمع (السّيوطي) أغلب ما قيل قبله في كتابه بغيّة الوعاة في طبقات اللغويين والنّحاة، وفي الفقه ألفوا في طبقات الفقهاء والمذاهب، أما أشهر من ألف في الصّحابة فـ(ابن الأثير) صاحب الكامل في كتابه أسد الغابة في معرفة الصّحابة، و(ابن حجر العسقلاني) (ت852) في كتابه الإصابة في معرفة الصّحابة، وألف (ابن أبي أصيبعة) (المتوفى: 668هـ) كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ومن أشهر كتب التّراجم عامة معجم الأدباء لـ(ياقوت الحموي) (626هـ) ووفيات الأعيان لـ(ابن خلكان) (ت681هـ) وسير أعلام النّبلاء لـ(لذهبي).

❋ **أما حديثا**؛ ولما كان العصر العربي الحديث؛ أي القرنان التّاسع عشر والعشرون – الذي كانت التّبعيّة هي سمته الكليّة، فكان الأدب العربي فيه متأثراً بالضّرورة بهذا الوضع التّاريخي الحضاري التّابع؛ سواء من حيث تاريخيّة إنتاجه أم من حيث أنماطه الفنيّة، ولدلالاته الفكريّة والنّفسيّة، فكانت هناك يقظة عربيّة عامة قد ابتدأت، نشطة، في مصر في زمن حكم (محمّد علي باشا)، فلقيت تجاوباً سريعاً نسبياً في بلاد الشّام، وأخذت القوى الكامنة في الأمة تتيقظ بفعل مختلف البواعث المختلفة؛ فتسارع

إنشاء المدارس الوطنيّة، وتوالى صدور المجلات والصّحف وتأسيس المطابع، وتزايدت ترجمات الكتب العلميّة والأدبيّة الأجنبيّة إلى اللغة العربيّة، ونشر كثير من كتب التّراث، وتألفت الجمعيات والنّوادي الأدبيّة، وأنشئت المكتبات العامة والمسارح ومجامع اللغة العربيّة، كما تزايد إنشاء الجامعات ومعاهد البحث ومؤسساته المختلفة إضافة إلى المراكز الثّقافيّة وسائر مؤسسات وسائل الاتصال الجماهيري؛ من إذاعات ومحطات بث تلفزيوني. ولا يكاد بلد عربي يخلو اليوم من وزارة للثقافة، وكل ذلك يساعد بصورة مباشرة أو غير مباشرة في ارتقاء الإنتاج الأدبي العربي المعاصر وتعميم إيصاله إلى جماهير المثقفين والمتعلمين بمختلف السّبل والوسائل المعتمدة في بقيّة أنحاء العالم، وقد كان لترجمة الكتب إلى العربيّة أثر كبير في النّهضة الأدبيّة، وقد بدأت حركة التّرجمة في بلاد الشّام على يد بعض رجال البعثات الدّينيّة، إذ ترجم هؤلاء بعض الكتب التي احتاجوا إليها في التّدريس. لكن حركة التّرجمة لم تقو وتتنوع إلا بعد عودة رجال البعثة المصريّة الأولى الذين بدؤوا بترجمة بعض الكتب العلميّة. ويعود الفضل الأكبر في تنشيط هذه الحركة إلى (الطّهطاوي) الذي أنشأ «مدرسة الالسّن» عام (1835.)، وقد عنيت هذه المدرسة بتعليم اللغات الأجنبيّة المختلفة، وترجم خريجوها مئات الكتب والقصص والمسرحيات. وشارك السّوريون واللبنانيون بقوة في تلك الحركة، ولاسيما بعد أن هاجر بعضهم إلى مصر، مثل: (نجيب الحداد)، و(بشارة شديد)، و(طانيوس عبده)، حتى بلغ عدد الكتب المترجمة نحواً من ألفي رسالة وكتاب، ثم اتسع نطاق التّرجمة بازدياد مطرد وما زال يتسع حتى اليوم إذ تشمل المترجمات أهم روائع الأدب العالمي في سائر اللغات الأجنبيّة الحيّة.

❋ **تنوع الكتابة باللغة العربيّة وأشكالها:** تتنوع أشكال الكتابة حسب الهدف الذي يقصده الكاتب، والكتابة الإبداعيّة أحد هذه الأشكال، هذا الشّكل الكتابي يُعنى بإنتاج نصّ أدبي جديد ومبتكر، يتميز بأصالة أفكاره، يختار له الأديب الجنس الأدبي الذي يراه مناسبا لترجمة تلك الأفكار، شعرا كان أو نثرا، وإن اختار النّثر فسيجد أمامه العديد من الأجناس والأطياف الأدبيّة، فهناك الرّوايّة، والقصة، والسّيرة الذاتيّة، وأدب الرّحلات، وغيرها، وعبر هذا النّص تتضح خبرة الكاتب وقدراته اللغويّة ومهاراته الكتابيّة، وتهدف الكتابة الإبداعيّة إلى إمتاع القارئ، ومشاركته خبراته وتجاربه الذاتيّة، حيث يقوم الكاتب بهندسة نصه، من خلال استغلال جميع مكونات العمل الأدبي النّاجح، من أفكار، وعاطفة، وأحاسيس، وانفعالات، وخيال؛ ليخرج عمله بأسلوب أدبي رفيع؛ بغيّة التّأثير في المتلقي، وجعله يتعايش مع الحدث، وقمة التّأثير تكون حين يستطيع الكاتب أن يجعل المتلقي ينفعل لا إراديا، فيجد نفسه يبكي، ويضحك، يغضب، وتنفرج أساريره، ويقطّب حاجبيه، دون أن يشعر.

❋ للكتابة الأدبيّة أساسيات لا بد أن يعرفها الكاتب ويتقنها، لتنعكس على عمله الأدبي، وأهمها ضرورة معرفة اتجاهات الكتابة الإبداعيّة وأنواعها، وجماليات اللغة، وإمكانات التّعبير، والنّص الإبداعي وأنواعه، والنّص التّواصلي، والحقول الدّلاليّة والمعجميّة، وأنواع لمفردة، والمذاهب الأدبيّة المختلفة في الكتابة؛ إضافة إلى ذلك، من الضّرورة أن يتعمّق الكاتب في السّرد القصصي ومكوناته، وأساليب صياغة السّياقات اللغويّة، كل هذه الأساسيات مهمة للحكم على نجاح العمل الأدبي من عدمه، فبناء اللغة هو أهم عنصر في اكتساب لغة الأدب، يأتي بعدها القدرة على السّرد المشوق ولغة الحوار الفني ودقة المعاني والقدرة على التّصوير الإيحائي المفعّل لعقل المتلقي ليتفاعل مع الصّورة إيجابا، فالكتابة الإبداعيّة تعتمد قوة الخيال وقوة التّحكم بالعاطفة والقدرة على توجيه ذهن المتلقي داخل الصّورة دون مبالغة ولا تهويل ولا تكلف، فاللغة الإبداعيّة هي قوالب تحريريّة حريريّة الملمس إلى درجة تحريك كامل الحواس والأحاسيس، ولأن للأدب ألوانه وفنونه المتعددة فلكل منها مقومات نجاح وقواعد إتقان[1].

وفنيات كتابة سيناريو القصة والرّوايّة وتضمينها بالحوار تعتمد أسسا شتى، لكنها تجتمع كلها في بوتقة التّناغم الفني والتّحريري، وتتناسق بتوليفة مكوناتها المتنوعة، من بساطة في الحوار، والتّسلسل الزّمني بحرفيّة، والتّجديد بالمضمون والتّعبيرات، وامتلاك الحس الفني بالكتابة، فخلق قالب عام يُسكب فيه الموضوع الأدبي الخاص، يحتاج لإلمام كامل بأسلوب التّنقل بين صورة وصورة، وبين فكرة وأخرى، وترابط الصّور ببعضها لتكون في مستوى الاستيعاب، حيث تتبدى

(1) مهارات الكتابة الأدبيّةالإبداعيّة، الموقع الالكتروني، https://www.makalcloud.com/post/vwqirhrmy.

القدرة على المحاكاة وتأليف وتوليف الصّور المتخيلة، وهذه الخاصيّة تبدأ منذ مراحل الطّفولة المبكرة، ربما لاحقا لعمر العامين، وتكبر مع الطّفل بصورة مطردة تبعا لأشكال الدّعم، أو امتلاك فرص التّطور، من خلال دعم الأهل والمدرسين، أو تنميّة اللغة من خلال المواظبة على الحوار الجاد، وعلى القراءة واكتساب الرّصيد اللغوي، وتطوير استخداماتها، واستخدام محسناتها وقواعدها الصّحيحة.. والمعروف أنّ الطّفل حتى سن السّابعة تعد هذه الفترة مرحلة التّطور في شخصيّة الطّفل، واكتسابه اللغة بالصّورة الكاملة، وحفظ أكبر عدد من مصطلحاتها ومعانيها، والقدرة على التّعبير بها قولا وكتابة، بعد ذلك تنمو شخصيته على ما نهل وتعلم في هذه المرحلة، فتكون أساس تكوّن شخصيته وقاعدة بنائها، والتّمكن من التّعبير الواضح كتابيا، وشفويا، وإملاء، ونحوا وصرفا، مع استخدام علامات التّرقيم المناسبة في مواقعها الصّحيحة، والبناء اللغوي في الجملة، فعلى الكاتب امتلاك ناصيّة اللغة والقدرة على التّعبير الواضح والإبداعي في آن معاً، وامتلاك عنصر التّشويق، من خلال لغة متمكن منها جيدًا، وامتلاك تعابير مختلفة، ومصطلحات متعددة تعبر عن ذات المعنى الواحد، فالمخزون اللغوي هو أهم مكونات امتلاك القدرة على الكتابة الجيدة والمحكمة، و تنظيم الأفكار، ومهارة ترتيب الجمل، والمعاني داخل المقطع الواحد في ضوء المعنى المطلوب، حيث وضوح الرّؤيا والهدف من أساسيات الكتابة الأدبيّة السّليمة، تقود إلى حالة الانسجام ما بين الكاتب والمتلقي، وتجعل للفكرة منفذاً سلساً إلى العقول بالقبول، وتشد القارئ للمادة ونصوصها المشوقة، فتعد عمليّة تنظيم الأفكار، ومهارة ترتيب التّعبير الفني عنها، وسكبها في قالب جميل لا تخلو من المحسنات البديعة، والأفكار العميقة، والرّؤيّة المنفتحة على ثقافة واسعة، لتحاكي أوسع شريحة من المتلقين، وتصل إلى عقولهم دون مُعاندة تُذكر، وكذلك مهارة استخدام أدوات الرّبط بين الجمل والمعاني، بحيث يمكن أن تكون سلسة سليمة ومترابطة بقوة، وتلعب أدوات التّرقيم دوراً كبيراً في توضيح الفكرة، والتّمييز بين مكوناتها، كما تجعل الفكرة المطروحة أكثر وضوحاً، والجملة أكثر تحديداً للاتجاه المراد قوله أو بيانه، فأدوات التّرقيم هي مُحدِّدات للتوضيح والوصول للفهم الصّحيح، ولا يمكن لدورها أنْ يكون هامشيا، فهي أساسيّة في فن الكتابة وعلى الكاتب أن يتقن استخداماتها، فالفاصلة والنّقطة وعلامة الشّرط وعلامة السّؤال تعد أهم علامات التّرقيم في الاستخدام، ومما ينبغي أيضا اكتسابه اكتساب مهارة القراءة المفيدة والصّحيحة في مستوياتها السّليمة، واستخدام مهارة النّطق بها بمهارة وحرفيّة، باستخدام طبقات الصّوت وتعبيراته، القدرة على التّعبير الصّوتي يساعد في عمليّة الكتابة بشكل ايجابي، لأنها تتيح للتصور رسم صورة أوضح لاستقدام الجمل المناسبة، وتوضيح لتفاصيل الصّورة وتعبيراتها، وشكل الحوار وقدرته على جذب المتلقي، واستخدام التّصوير، والتّعليل، والوصف، والاستعانة بعلوم البلاغة، وبيان اللغة لاختراق ذهنيّة المتلقي وذاكرته الحاضرة، وإدراكه، واستنهاض جماليات ذائقته، والاستئثار بانتباهِهِ، واستخراج دهشتِهِ وهي الإضاءة المُنيرة التي تبعث لبّ القضيّة أو الفكرة، فاستخدام فنيات اللغة وفنيات التّشويق، ووسائل التّعبير تعد من أساسيات الأدب النّاجح، و استخدام فنيات المُراوحة بين الجملة الاسميّة والفعليّة، وبين ضمير الحاضر والغائب، وبين الصّورة واختراق العمق الإنساني فيها، بمعنى القدرة على تطويع كل الفنيات، وتقديم عمل متكامل سليم فيه كل عناصر التّقارب بين المؤلف والمتلقي، للتأثير عليه، وإيقاعه بسحر التّأثير بمقومات الجودة، وفنيات الإبداع، فعلى الكاتب أنْ يكون مُلماً ذهنياً وعاطفياً ولغوياً بالطّرق التي تُثير القارئ وتجذب اهتمامه؛ فالمؤثرات الوجدانيّة؛ وطريقة استخدامها بشكل صحيح، وبأسلوب تشويقي مثير، وبمعاني رائدة، وتصوير غير مسبوق، وتحليل ذكي متوائم والفكرة، ومناصرة للتعبير الأدبي الجميل، كون اختراق النّفس البشريّة والدّخول إلى أعماقها يعد من ركائز النّص الأدبي المتعمق، والفكر الايجابي الواضح، فالإنسان الطّبيعي خُلق ليَحس ويشعر ويتفاعل مع المُؤثرات الحِسيّة والوجدانيّة، تتحكم به الحالة الوجدانيّة، ولهذا على الكاتب امتلاك ميزة إلباس شخصياته ثوب الإحساس، مثل ربط القص بالحدث التّاريخي المرتبط بزمن القصة، وهي ميزة هامة لإعطاء الأحداث شيئا من التّناسق التّاريخي والتّسلسل الزّمني، وتقريب الصّورة من الحدث العام، كي يمنح السّرد شكلا من أشكال الدّعم بالمعلومة، ولإشراك ذهن المتلقي بالزّمن ومحددات وجوده، فإشراك العمل الأدبي بزمن محدد، يُظهر قدرة الكاتب على تمثل الأزمان بظروفها الحضاريّة، وأحداثها التّاريخيّة، ومقوِّمات تفاصيلها المتراكبة مع المصداقيّة والخيال، و القدرة على توليد الأفكار، وتقريبها من ذهنيّة القارئ،

وسكبها في بوتقة لغويّة مقنعة، ومعاني تصويريّة واضحة، ومعبرة، تجعل من العمل الأدبي كتلة متماسكة ومترابطة، وتمنح مجالاً رحباً لتوالدّ أفكار تُسنِدُ العمل وتشدُّ أواصر أركانه، وتجعل منه النّص المُشوِّق الأكثر إمتاعاً، والأكثر إقناعاً والأكثر ترابطاً.

الكتابة الأدبيّة باللغة العربيّة والوسائط التّكنولوجيّة: تدخل الإنترنت وكافة الوسائط التّكنولوجيّة اليوم في صياغة مفاهيم الثّقافة والعلم والمعرفة، وتدخلت كذلك في الإبداع الأدبي عموماً (الشّعر والرّوايّة والقصة والمسرحيّة)[1]، وذلك ما يمكن رصده عبر مستويين: الأول، عبر وسائط تداول هذه النّصوص، وهو ما يؤثر بدوره في إقرار ما يمكن تسميته بجماليات التّلقي، والثّاني، عبر آليّة اشتغال عقل المبدع في كتابة نصه، وطرق إبداعه للأدب.

وبفعل التّطور التّكنولوجي والفضاء الإلكتروني الذي أتاحه الإنترنت ووسائل الاتصال المعاصرة عموماً، لم تعد الكتابة تحتكم إلى الوصايّة لكي تأخذ طريقها إلى النّشر، وإنما أصبح في إمكان الكاتب أو المبدع أن ينشر عمله على صفحات «السّوشيال ميديا»، واستقبال التّعليقات والرّدود السّريعة المباشرة، وبشكل عام فإن التّكنولوجيا و«الميديا» قد أحدثتا خلخلة في منظومات المجتمعات بمؤسساته الاقتصاديّة والتّعليميّة والأخلاقيّة والإنتاجيّة، وأدت إلى تطورات بعيدة المدى على المستويات السّياسيّة والدّينيّة والفكريّة، وهو ما سمح لكثير من شباب الأمة العربيّة بأن يظهروا بأفكارهم ويسهموا في الفضاء الثّقافي، ويبدعوا في مجالات العلوم والفنون، وهو أيضاً ما استطاع جيل من شعراء قصيدة النّثر، والقصة القصيرة جداً جداً أن يعتمدوا عليه اعتماداً كلياً في نشر إبداعاتهم عبره، والتّقائهم من خلاله على نحو يخالف وسائل النّشر الورقيّة التي كانت هي السّبيل الأوحد من قبل، وهو ما أوجد في إجماله تحديات ثقافيّة أمام التّراث الإنساني عموماً، وظهرت معطياته في كثير من جوانب حياتنا المعاصرة.

من هذه التّحديات، تحدي تحول أدوات ووسائل الثّقافة من الشّفاهيّة والكتابيّة إلى الصّورة والحركة و«الملتيميديا» (الوسائط المتعددة)، واعتمادها على التّكنولوجيا متقدمة الصّنع، ما تطلب التّحول في طبيعة الكتابة ذاتها، ووسائل تقديمها من جهة، واستيعاب هذه الكتابة للقيم المعاصرة التي لحقت العلاقات الإنسانيّة من جهة أخرى، فظهرت على السّطح مثلاً قضايا مثل الهويّة الثّقافيّة، وإقامة جسور التّواصل بين التّراث والمعاصرة، ورصد الذات الإنسانيّة عبر هذا الخضم المتلاحق من التّطور، وهذا ما يرد مثلاً على حصر وتضييق مجال قصيدة النّثر في مجرد اليومي والمعيش في ما سمي بالقصيدة اليوميّة والاهتمام بالتّفاصيل والمشاهدات العابرة، غير أن الأمر له خطورته من جهة أخرى، ففي غيبة الوعي النّقدي المتابع القادر على تقديم تنظير وتحليل لمنجز قصيدة النّثر، حادت كثير من نماذج قصيدة النّثر عن مفاهيم الشّعريّة تماماً، فمال بعضها إلى السّرديّة المفرطة، أي السّرديّة التي تحكي عن مشاهد ما من دون إحداث أيّة انحرافات دلاليّة أو تفكيك في بنيّة الزّمن (وهي أحد شروط الشّعريّة الحداثيّة)، كما مال بعضها إلى مجرد صف ورص الجمل والعبارات على نحو تغريبي، بما ينتمي إلى اللامعنى واللاهويّة تماماً، أما عن المستوى الثّاني والخاص باشتغال عقل المبدع، فالتّكنولوجيا سمحت بإمكانات على مستوى الكتابة النّصيّة لم تكن متاحة من قبل، منها على سبيل المثال أساليب المبدع في صياغة نصه، من تشكيل بصري، وطباعي، يسمح له بتقديم النّص في صورة ما، وبدلالات مقصودة من قبل المبدع، وتختلف على مستوى التّلقي عما لو كان قد تم تقديمها بأساليب الكتابة التّقليديّة، فقد غدا المبدع أقرب إلى شروط ومتطلبات ما يعرف بـ«علم الاختراع» أو علم الإبداع والتّطوير، وهناك تحولات جذريّة قد لحقت التّوجهات المؤسسة للمبدعين بدءاً من الألفيّة الثّالثة، فلم يعد على الأديب مثلاً أن ينتمي إلى جماعة أدبيّة، وإنما أصبح المبدأ الحاكم هو الانتقال من الوعي الجماعي إلى اليقين الفردي، وغدا الأدباء يمارسون وعيهم على مستوى التّجريب، ويكفي مثلاً النّظر إلى بنيّة المجاز وبناء الصّورة في الأدبيّة المعاصرة، التي وسعته وخرجت به من مجرد كونه استعارة أو تشبيه حذف أحد طرفيه إلى كونه بنيّة تعتمد على الانحراف الدّلالي بكافة أنواعه وأشكاله التي تم رصدها، أو التي يحتمل رصدها، ذلك أن النّص الأدبي غدا ينتج مجازات جديدة في بنيتها وتركيبها.

❋ إن وسائل التّواصل الاجتماعي، وتحديداً «فيسبوك»، صارت ذات تأثير طاغ في حياتنا الثّقافيّة والإبداعيّة، هذا التّأثير يمكن إجماله في أمرين:

-الأول: أن «فيسبوك» عمل على ترويج الأخبار والشّخوص والأعمال الإبداعيّة بشكل كبير تجاوز كثيراً ما

(1) وسائل التّواصل ترسم خريطة جديدة للكتابة الأدبيّة، جريدةالبيان، الموقعالالكتروني، https://www.albayan.ae/five-senses/culture/2018-12-16-1.3435538.

كانت تقدمه الصّحف الورقيّة في ما سبق، وهذا أمر إيجابي لا ريب، لأنه يسمح للمزيد من القرّاء بأن يتعرفوا على الكُتّاب والمبدعين ونصوصهم المختلفة.

-أما الأمر الثّاني، فمردوده سلبي على المستوى الثّقافي واللغوي، إذ إن «فيسبوك» سمح لأي شخص بأن يكتب ما يشاء، بلهجة محليّة لا تخلو من ركاكة وخشونة فتراجعت اللغة العربيّة الفصحى بشكل مخيف ينذر بخطر حقيقي.

❋ إن الكتابة الأدبيّة تُطور نفسها باستمرار عبر الاتجاهات الجماليّة السّائدة أو الجديدة، لكن ثمة وسيط إلكتروني شرع في رسم خريطة جديدة لجماليات النّص الأدبي، ووسع كثيراً من دائرة التّلقي، ذلك الوسيط هو وسائل التّواصل الاجتماعي، وفي طليعتها «فيسبوك» الذي نجح في إحداث نقلات كبيرة في عالم الكتابة الأدبيّة، وباتت تنمو على ضفافه حدائق من الشّعر المختلف والمغاير، جاذباً إليه فئات جديدة من المتلقين، على اختلاف توجهاتهم وأعمارهم وتخصصاتهم وأذواقهم، حتى بات كثير من المبدعين يرون أن وسائل التّواصل أحدثت ثورة في الكتابة الأدبيّة وفي التّلقي لها في آن واحد، حتى إنها أعادت بعضهم من غياهب الصّمت إلى ألق الإبداع من جديد.

وسائل التّواصل الاجتماعي قدمت خدمات جليلة للكتابة الشّعريّة في ما يتعلق بالانتشار والتّواصل المباشر مع القارئ العام، وهو ما انعكس بدوره على لغة وجماليات الكتابة.

وفي ما يتعلق بجماليات الكتابة الشّعريّة التي برزت مع بروز وسائل التّواصل، هناك أشكال للكتابة كانت موجودة قبل تلك الوسائل لكنها ازدادت بروزاً مع فيسبوك، ومن ذلك تكثيف العبارة الشّعريّة، واللجوء إلى اليومي والحياتي وانصهار الفكري مع الوجداني في بوتقة واحدة، وسيادة شكل القصيدة القصيرة المكثفة، مؤكداً أن وسائل التّواصل قد نجحت في ظهور أشكال جديدة للكتابة الأدبيّة والشّعريّة إلى حد كبير[1].

والجمهور على وسائل التّواصل ربما يتجاوز 10 أضعاف الجمهور العادي ، وبالتّالي فإن هذا الجمهور الواسع على وسائل التّواصل يقدم محفزات إضافيّة للمبدع لم تكن موجودة من قبل.

❋ في عصرنا كل من يملك جوّالاً أصبح كاتباً، له جمهوره وله قراؤه أيضاً، وهو ما ينعكس بشكل واضح على الكتابة عبر وسائل التّواصل الاجتماعي وكان لها أثرها المنعكس شكلاً ومضموناً على الكتابة والتّلقي، ويمكننا رصد أثرين واضحين، متضادين: أثر إيجابي وآخر سلبي

ويرصد الأثر إيجابي في عدد من النّقاط:

1 – تعدّد المنابر، وهو ما يمثل اتساع مساحة النّشر، فلم يعد الكاتب في حاجة للسعي وراء الصّحف بوصفها جهة النّشر الوحيدة.

2 – ممارسة الكتابة السّريعة الدّالّة تمشياً مع سرعة القراءة وظروف الحياة في إيقاعها السّريع.

3 – القدرة على التّوصيل عبر أقصر الطّرق، وهي واحدة من المهارات المكتسبة من ممارسة الكتابة عبر «السّوشيال ميديا» (تويتر) نموذجاً.

4 – تخلي اللغة عن عرشها قليلاً لصالح الصّورة التي أخذت مكانها بشكل أكثر فاعليّة واتسعت مساحتها في نطاق الخطاب المكتوب.

5 – اختزال المضمون الفكري للرسالة النّصيّة.

6 – تحوّل الكتابة إلى صيغة خبريّة أكثر منها تحليليّة، حيث نصب الكثير من أنفسهم منصات إخباريّة فكل من يملك «هاتفا» بإمكانيات محدودة يمكنه متابعة الأحداث وبثها عبر التّطبيقات المختلفة.

7 – تعدّد مصادر المعرفة بتعدد الصّفحات والمجموعات.

8 – الكشف عن أسماء جديدة لم يمكن لها أن تظهر أو تتحقق من دون وجود الوسيط الحر وهو ما فجر طاقات كامنة لدى بعض الموهوبين حين منحتهم الفرصة للكتابة.

أما الأثر السّلبي، فيرى الضّبع أنه يتمثل في:

1 – ترهل الكتابة بدخول مئات ممن لا يملكون أدواتها ولا يمتلكون مؤهلات للكتابة.

2 – زيادة حجم الأخطاء مما عرض اللغة العربيّة لكثير من الجوانب السّلبيّة، حيث يغيب الرّقيب على اللغة ويتداول النّاس الخطأ من دون إدراك أو وعي به.

3 – إعادة تدوير المعرفة الإنسانيّة وهو ما يعني الجمود لدى الكثير من المستخدمين.

4 – ظهور ما يمكن تسميته بالكتابة السّهلة والمجانيّة التي لا قيمة لها على الإطلاق وهو ما شجع عدداً كبيراً من النّاس على ممارسة الكتابة ومزاحمة الكتاب الحقيقيين حتى على صفحات الدّوريات الورقيّة، ففي الآونة الأخيرة اعتمدت بعض الصّحف على كتاب ضعاف المستوى حد الهزل، وقد أثبت «فيسبوك» مثلا قدرته الفائقة على

(1) وسائل التّواصل ترسم خريطة جديدة للكتابة الأدبيّة، جريدةالبيان، الموقع الالكتروني، https://www.albayan.ae/five-senses/culture/2018-12-16-1.3435538

الوصول إلى جمهور عريض جداً من القرّاء والكتّاب والنّقّاد والمفكرين، ولا يمكن أن نهمل ذكر دوره الثّقافي بين النّاس، والذي لا ينكره أحد، هو دخول عدد مهول من البشر إلى عالم الكتابة، وبخاصة من الذين تم إهمالهم أدبياً والمهمشين وصغار الكتاب، والمبتدئين والجمهور العادي غير النّخبوي.

❋ لقد قام الواقع الإلكتروني الجديد، وفضاؤه الرّحب بحل مشكلة النّشر على نطاق واسع، بل أوسع من كل ما تخيله المثقفون على مدار الأزمنة السّابقة كلها، وأصبح «فيسبوك» وسيلة يوميّة للنشر، بل أصبح وسيلة لحظيّة، أي يستطيع أي أحد، في أي لحظة، نشر ما يريد أن ينشره من كتاباته، وأصبح النّشر الآن متاحاً للجميع، والكتابة الأدبيّة اليوم، بكل أنواعها: (الشّعر، القصة، الرّوايّة، وغيرها) لا بد من أن تستند إلى مبدأين أساسيين:

– **المبدأ الأول:** البساطة المطلقة، وعلى المتلقي أن يضع عينيه على الكلمات ليفهم على الفور طبيعة الرّسالة المرسلة له وقدراً –على الأقل– من عمقها.

– **المبدأ الثّاني:** أن تقدّم الكتابة الجديدة الاكتشافات المدهشة التي لم تقدم من قبل، ولم تمر على خلد أحد من قبل، سواء كان الكاتب نفسه أم غيره من الكتاب.

هذان هما المبدآن الأساسيان اللذان لو سقط واحد منهما فلا معنى للكتابة البتة. ولقد نجح «فيسبوك» في تأكيد المبدأ الأول على الأقل، لكن المبدأ الثّاني ما زال مختلفاً بين من يطرحون إبداعاتهم في ساحته الواسعة باتساع العالم كله.

❋ إن كثيراً من نصوص «فيسبوك» تُحقّق بوعي مآلات جديدة للقصيدة العربيّة، خاصةً بين شعراء قصيدة النّثر التي بفضل «فيسبوك» صارت متناً بعد 50 عاماً من انطلاقها في المشهد الشّعري العربي، بغض النّظر عن جودة الشّعر أو عدمه، فالمهم الآن تحقيق لحظة حريّة الكتابة، وإذا كان (رولان بارت)، قد دشّن في الأدبيات العالميّة فكرة موت المؤلف، فإن (مارك زوكربرج) –دون أن يقصد، قد دشّن موت النّاقد «إكلينيكياً»، فلم يعد الشّاعر بحاجة إلى ناقد بعدما فتحت الدّائرة بين الشّاعر والعوام الذين لم يعد أحد قادراً على إلجامهم عن الكلام، ولولا «فيسبوك» لما عرفنا ملامح الخريطة الشّعريّة العربيّة العالميّة في الوقت ذاته، حيث التّواصل مع النّص الحي في اللحظة ذاتها وعرفنا شعراء تجاهلتهم الأوراق.

❋ إن وسائل التّواصل الاجتماعي إحدى هبات التّقنيّة الحديثة، فلقد وهبتنا فضاءً أكثر اتساعاً للتعبير عن الرّأي، واستطاعت إلغاء الحواجز بين المُبدع والمُتلقي، ووفرت التّفاعل الفوري من الجمهور تجاه ما ننشره، نتيجة التّواصُل المُباشر بين الكاتب والقارئ، كما أنها أصبحت وسيلة مثاليّة للإفصاح عن المواهب، والكتابة على مواقع التّواصل تتطلب قدراً من التّكثيف والاختزال الضّروري لجذب اهتمام القارئ الملول في عصر السّرعة، لاسيما أن الكاتب هنا هو الذي يذهب إليه بأفكاره وكلماته، فلا يمكن إنكار حجم تأثير أدوات التّواصل الحديثة في سرعة نقل المعلومة ونشرها حيث فقدت الوسائل التّقليديّة الكثير من البريق والإشعاع لذلك صارت هذه الأدوات ملجأ العديد من الباحثين عن تواصل حيّ ومباشر مع من يهتمون بكتاباتهم وآرائهم ومنشوراتهم عموماً، ولعلّ «فيسبوك» أبرزها وأهمّها في تحقيق التّواصل المثالي المرجو.

❋ إن مسألة علاقة الأدب العربي بهذه الوسائط[1]، أو أكثر تحديدا علاقة الأدب العربي بالزّمن التّكنولوجي، وهل استفاد من ثقافة هذا الزّمن؟ وإلى أي حد يمكن الحديث عن تجربة تكنولوجيّة للأدب العربي؟ وهل أنتجت التّجربة كتابة وقراءة مفاهيم جديدة للممارسة الأدبيّة؟، وهل غيّرت التّكنولوجيا مفاهيم الكتابة والأدب والقراءة والتّلقي؟ وهل قامت مؤسسات ثقافيّة عربيّة من عينة المؤسسات المسؤولة عن الكتابة والأدب العربيين، بدراسات تحليليّة لهذه العلاقة؟ وهل تتابع تجليات الأدب العربي بمختلف تعبيراته في الوسيط التّكنولوجي؟ وهل لديها مشروع للتفكير في تحولات الأدب وتلقيه بناء على موقع الوسائط التّكنولوجيّة في حياة الكُتاب والقراء؟ ثم هل دور النّشر لديها وعي بنسبة القراءة مع ثقافة الزّمن التّكنولوجي؟ هل لديها انشغال بهذا المستوى من العلاقة؟ وهل أنجزت إحصائيات مُقارنة بين عدد القراءات على الوسيط الورقي ثم الوسيط التّكنولوجي؟ وهل تهتم بمتابعة وضعيّة الأدب والكتابة عبر الوسيط التّكنولوجي؟ هل لديها إستراتيجيات للكتاب الإلكتروني؟ وهل تستعد تقنيا وتكنولوجيا لدخول زمن الكتاب/ الأدب الرّقمي؟ يدخل اقتراح هذه الأسئلة في إطار التّفكير في وضعيّة الثّقافة التّكنولوجيّة في التّجربة العربيّة، وتأمل طبيعة الوعي بتصريف هذه الثّقافة، لأنه بالنّظر إلى طبيعة تجليات علاقة الأدب العربي بالوسائط التّكنولوجيّة، نُسجل حضورا للبعد الإلكتروني أكثر من الرّقمي في مستوى تفعيل علاقة الكتابة/

(1) القراءة والكتابة عبر الوسيط التّكنولوجي، الموقع الالكتروني، https://alahdatalarabia.wordpress.com.

الأدب مع الزّمن التّكنولوجي، بناء على التّمييز المفهومي بين الكتابة الإلكترونيّة والكتابة الرّقميّة، كما تم تحديدها في النّظريات التي تهتم بكل ما هو ترابطي وتفاعلي ورقمي وإلكتروني، التي تجعل النّص الإلكتروني تجليا إلكترونيا للنص الورقي، الذي تتم إعادة نشره إلكترونيا، مما يساعد على نشره على أوسع نطاق، ووصوله إلى عدد كبير من القراء عبر مفتاح البحث، وتقنيّة التّحميل. وهو وضع يسمح بالتّعرف على عدد القراء الافتراضيين، وعدد القراء المُتفاعلين الذين يتركون تعليقات أو ملاحظات حول قراءتهم للنص، وهذا المستوى من التّجلي الإلكتروني للكتاب/ النّص الأدبي أو الفكري يقدم عدة مؤشرات لمؤلف النّص، ودار النّشر، وللجهات المعنيّة بسؤال القراءة، من خلال تتبع عمليات التّحميل، ومتابعة نوعيّة التّعليقات، وبناء على ذلك يمكن للشركاء في صناعة الكتاب، تأليفا ونشرا وتلقيا اتخاذ تدابير منهجيّة من أجل تطوير عمليّة تسويق الكتاب. لقد حققت عمليّة تحويل الكتاب الورقي إلى الإلكتروني في التّجربة العربيّة تجربة مهمة، لكوننا بتنا نلتقي بنصوص كثيرة على مواقع النّت، التي يسهل الدّخول إليها، وتحميلها، وقراءتها إما على الشّاشة، أو إعادة طبعها على الورق، ما يجعل النّص الورقي يمر من عمليتين اثنتين حتى يعود من جديد إلى الورقي، لكن بعد أن يكون قد مر بالوسيط التّكنولوجي، وتم تحميله، باختيار من القارئ، وبإرادة منه، غير أننا ما زلنا في التّجربة العربيّة نكتفي بعمليّة إلكترونيّة النّص الورقي، من دون استثمار نتائج هذه العمليّة، والاستفادة منها في أفق تطوير ثقافة القراءة، ولعل الأمر بات يحتاج إلى مؤسسات ذات رؤيّة جديدة، ليست لها علاقة بالمؤسسات التّقليديّة، من أجل الوعي بثقافة التّكنولوجيا ودورها في الأدب والكتابة والمعرفة. أما الشّق الثّاني من علاقة الأدب بالوسائط التّكنولوجيّة، والمتمثل في ما يصطلح عليه بالنّص الرّقمي، الذي يأتي مُفارقا للإلكتروني، من حيث كونه لا يتحقق إلا باستعمال لغة البرمجة المعلوماتيّة التي أصبحت لغة جوهريّة في بناء النّص، إلى جانب مكونات الملتيميديا، مع الحضور الأساسي والوظيفي لمُكون الرّابط باعتباره تقنيّة أساسيّة تدفع بالنّص/ الكتابة نحو التّحقق الرّقمي، الذي يربط بين معلومتين، وينتج عن هذا الارتباط المعنى، ويجعل القارئ ينتقل من موقع التّلقي، إلى موقع التّأليف والكتابة، عبر تفعيل الرّابط تبعا لاختياراته ورغباته ومزاجه وثقافته، فإن التّجربة العربيّة ما تزال تخطو ببطء في هذا المجال، وإن كانت البدايّة مُشجعة مع ظهور نصوص رقميّة، وإن كانت قليلة جدا، فإنها سمحت للتجربة العربيّة بالانخراط في ثقافة هذا الأدب.

❋ وختاما لهذا البحث يمكن أن نقول أنّ الدّور الأكبر في تنميّة الوعي بأهميّة اللغة العربيّة يقع على الأدباء، لأن الأدب هو المرآة الصّادقة لتطور اللغة، وهو حياة أخرى بالنّسبة لها، والمجدد الدّائم لأنساقها، وهذا ليس وليد اللحظة الرّاهنة فقط، بل يمتد عبر تاريخ الأدب العربي منذ العصر الجاهلي حتى الآن، فقديماً كان الشّعر الجاهلي قبل الإسلام هو النّموذج للحفاظ على قوة وسلامة اللغة، والدّليل على تعدد روافدها، وتنوع منابعها، وتأكيد جمالياتها الفنيّة، وقد احتفى العرب قديماً بالشّعر ليس باعتباره فن العربيّة الأول، وإنما لأنه المحافظ على العادات والتّقاليد والأعراف القبليّة التي كانت منتشرة في ذلك الوقت، وبالتّأكيد يلعب الأدب دوراً مهماً ورئيسياً في هذا الإطار للنهوض باللغة، من خلال تطعيمها بمفردات الحياة اليوميّة، وغيرها مما يعد إثراء لها وإضافة حقيقيّة لها، خاصة مع تنوع فنون الكتابة، فلم يعد الشّعر وحده في هذا المجال، فهناك الرّوايّة التي تطورت تطوراً مذهلاً في السّنوات الأخيرة، وكذلك المسرح بأشكاله المتعددة والقصة القصيرة وفن المقال وغيرها من الأشكال التي بإمكانها أن تعيد اللغة العربيّة لمكانتها التي تستحقها؛ فازدهار الفنون الأدبيّة يساعد على وضع اللغة العربيّة على الخريطة الثّقافيّة والإبداعيّة العالميّة، فهناك كثير من الأعمال العربيّة تترجم إلى جميع لغات العالم في الرّوايّة والقصة والشّعر، وهناك مشاركات عربيّة كثيرة في المهرجانات والمؤتمرات الثّقافيّة العالميّة، ما يجعل هناك حضوراً عربياً مميزاً، ومما يعطي للعالم انطباعاً مميزاً عن تطور اللغة العربيّة عبر أنساق الكتابة المختلفة، وهناك عدد كبير من الأدباء العرب يعملون في إبداعاتهم على الاهتمام بعنصر اللغة، الذي هو أساس للعناصر الإبداعيّة الأخرى التي يجب أن تتوافر ويتضمنها العمل الإبداعي، فبدون لغة جيدة لا يوجد إبداع حتى لو كان هناك تخيل وتأمل وغير ذلك. فاللغة هي الحاضنة الأولى لأي إبداع أدبي أو فني، لذا فعلى الأدباء دور كبير في النّهوض باللغة؛ لأن الاستسهال قد يؤدي إلى ضياعها وانهيارها، فعلى كل من يريد الكتابة الإبداعيّة أن يدرس اللغة ويتذوقها، لأن اللغة العربيّة لغة تذوق، وهي أكثر اللغات التي تحتوي على تنوع في المفردات، وتنوع في الجماليات والرّؤى.

وأخيرا فاللغة العربيّة مؤسسة تمكنت من بناء صرح أدبي عبر تاريخها، حيث

أصبح الأدب العربي متنا أدبيا لا يمكن تجاوزه حينما نتكلم عن الآداب العالميّة، نبغ الشّعراء منذ عصر ما قبل الإسلام وقالوا شعرا استعصى على شعراء الحصر الحديث تجاوزه، وعليه بنيت علوم أسست لصرح العربيّة، وقس على ذلك ما شهده الأدب العربي من روايّة، وقصة، ومسرح، فالكتابة الأدبيّة في مفهومها، فعل جسدي ينبني على فاعليّة الذهني في ممارسة عمليّة الوعي والإدراك، فما يتحقق إخضاعه للوعي والإدراك يثبت لغة، حيث يتعلق بالذاتي في صيغته المحض، ولئن كان كل ذاتي مفردا يحوي الجمعي ويقوله، فمن الممكن ارتباطه بغيره، بما يمثل الخارج في تفاعلات صراعاته، ويحدث في سياق عمليّة الإنتاج، الجمع بين الذاتي/ الدّاخلي، والآخر/ الخارجي، من ثم فالكتابة الأدبيّة باللغة العربيّة إعلان عن ذات، وهويّة، ؛ لكن الكتابة ككتابة لا تنحصر في الهويّة الأدبيّة، إذ من الممكن توافر عناصرها لمن يأنس حدود الأدبي، وبالتّالي يمارس حسب الاكتفاء الممتلك من/ وباللغة؛ إنه لا يجسد كفاءة واقتدارا ، فلا كتابة أدبيّة دون قراءة أدبيّة وفلسفيّة في الجوهر والعمق، وعلى هذا فالكتابة الأدبيّة كمنجز ينهض بوظيفة التّعبير، تتفرد باشتراطات في غيابها لا يتأتى الحديث عن كتابة أدبيّة، إلاّ بكفاءة اللغة، وامتلاك الصّنعة، إذ من خلالها يمكن بناء عالم خيالي على أنقاض واقعي معروف، نص أدبي خيالي تؤسسه اللغة، ونص واقعي يؤسسه الوجود.

● **د. طارق ثابت**
جامعة باتنة

المصادر

– هويّة بلاهويّة – نحن والعولمة، ورقة مقدمة لمؤتمر القاهرة، مصر، 1998، بعنوان العولمة وقضايا الهويّة الثّقافيّة صحيفة "المدينة " السّعوديّة، 1998 م.
3 – التّنوع الإنسان المبدع ، تقرير اللجنة المعنيّة بالثّقافة العالميّة و التّنميّة، تحرير خافير دي كويلار، منشورات اليونسكو، الطّبعة العربيّة القاهرة، مصر، مركز مطبوعات اليونسكو ، سنة 1996 م.
–الخطة الشّاملة للثقافة العربيّة، المنظمة العربيّة للتربيّة والثّقافة والعلوم، تونس، دار الثّقافة، ط2، 1997 .
– اللغة العربيّة والهويّة الثّقافيّة، وتجارب التّعريب، مجلة "المستقبل العربي "، السّنة (4)، عدد (27)، 1981 م.
مقال هل انتهى تأثير الأدب في اللغة العربيّة؟، في صحيفة الخليج، https: / /www.alkhaleej.ae
في معنى الكتابة الأدبيّة، https://www.alquds.co.uk
مهارات الكتابة الأدبيّة الإبداعيّة، الموقع الالكتروني ،
https://www.makalcloud.com/post/vwqirhrmy
وسائل التّواصل ترسم خريطة جديدة للكتابة الأدبيّة، جريدة البيان ، الموقع الالكتروني ، https://www.albayan.ae/five-senses/culture/2018-12-16-1.3435538
وسائل التّواصل ترسم خريطة جديدة للكتابة الأدبيّة، جريدة البيان ، الموقع الالكتروني ، https://www.albayan.ae/five-senses/culture/2018-12-16-1.3435538
القراءة والكتابة عبر الوسيط التّكنولوجي، الموقع الالكتروني ،
https://alahdatalarabia.wordpress.com

اللغة العربيّة في مواقع التّواصل الاجتماعي

د.تسعديت لحول-د. فتيحة بوتمار

تعد اللغة العربيّة من اللغات الرّاقيّة فهي لغة الثّقافة والفكر وحاملة القرآن الكريم وركيزة الأمة وهي من الأسس التي تقوم عليها الحضارة العربيّة فهي جوهر الفكر والمعرفة، وللحفاظ على هذه المكانة للغة العربيّةلا بد من تطويع تكنولوجيا المعلومات لصالح اللغة العربيّة. نظرا لأن هذه التّكنولوجيا تؤثر على المتلقي كما أن التّكنولوجيا أصبحت تسيطر بشكل كبير على الحياة اليوميّة وتدخل في كل تفاصيلها سواء في الحياة العمليّة أم العلميّة. وتعود كلمة التّكنولوجيا في أصولها التّاريخيّة والمجتمعيّة إلى الإغريق فشقها الأول «التّكنو» (techno) يعني مجموعة الأساليب والفنون الإنسانيّة، وشقها الثّاني «logie» يعني النّطق والحوار. واللفظان معا يشيران إلى معرفة فنيّة تنطوي على منطق وتبعث جدلا.

على هذا فالتّكنولوجيا مركب أساسي من أنماط المعرفة، ونقل العمليات الضّروريّة من أجل تحويل عوامل الإنتاج إلى إنتاج جاهز، واستخدام تلك المعرفة أو توفير الخدمات. كما أنها أداة التّنميّة الاقتصاديّة. ولها قيمة فقط عند الذين لهم المقدرة على فهمها والاستفادة منها. ولا تقتصر التّكنولوجيا على أدوات وأساليب الإنتاج، بل تتعديذل إلى الأبنيّة الاجتماعيّة والسّياسيّةالتي تعززها نفس تلك التّكنولوجيا.

إن التّكنولوجيا في العصر الحديث منحت الإنسان الحريّة، حيث سهلت عليه الحصول على ما يشاء وقت ما يريد، وأتاحت له الفرصة للتواصل وتبادل الآراء والأفكار مع الآخرين. ولقد شهدنا في السّنوات الأخيرة قدرة التّكنولوجيا الحديثة على جعل المعلومات تتدفق بسرعة هائلة حيث القنوات الفضائيّة وشبكة الإنترنت العالميّةالتي جعلت الوصول للمعلومات والمعرفة متاحين. فهذا العصر هو عصر الإعلام والاتّصال والانترنت والفضائيات ـ فهي عبارة عن «مجموعة المعارف والمهارات والخبرات المتراكمة والمتاحة والأدوات والوسائل الماديّة والتّنظيميّة والإداريّة التي يستخدمها الإنسان لاستغلال موارد البيئة وتطويع ما فيها من طاقات لخدمته في أداء عمل أو وظيفة في مجال ما أو في مجال حياته اليوميّة لإشباع الحاجات الماديّة والمعنويّة، سواء على مستوى الفرد أم المجتمع. وأولى هذه الحاجياتتحقيق التّواصل والذي يعد من المجالات التي أصبحت تكتسي أهميّة قصوى كونها الإطار الأساسي للعلوم الحديثة كما أنه ركيزة العلاقات الماديّة والمعنويّة بين الأفراد والجماعات.

1 -تعريف التّواصل:

إذا كان التّواصل موضوعا لمجموعة من العلوم والحقول المعرفيّة المختلفة مثل الرّياضيات والإعلام وهندسة الطّيران والاقتصاد والطّب واللسانيات وغيرها وتتجاذبه أيضا مظاهر الحياة الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسّياسيّة والثّقافيّة، فمن الطّبيعي أن تتعدد تعاريفه ومفاهيمه ودلالاته ومعانيه. وبالرّغم من تداوله في مجالات متباينة لا زال غير واضح ودقيق لدى مستخدميه بسبب تفرع أهدافه وتنوع وسائطه وتداخل أبعاده.

لغة: على المستوى اللغوي يعتري التّواصل بعض الغموض بسبب غناه المعجمي، فهو من جهة يتقاطع في الدّلالة مع مجموعة من المصطلحات مثل التّرابط الالتّئام، الجمع الإبلاغ، الإخبار، التّخاطب، التّحاور والاقتران...، ومن جهة ثانيّة يتقاطع فيالدّلالة والجذر مع مجموعة أخرى من الكلمات مثل الوصل، الصّلة، الصّلة، الاتّصال، الوصول، التّوصيل، الإيصال، المواصلة، الوصال والتّوصل.حيث ورد في لسان العرب لابن منظور كلمة تواصل من الجذر وصل: وصلت الشّيء وصلا وصلة، والوصل ضد الهجران، وهو بهذا لم يصف التّواصل بمرادفه بل بنقيضه في محاولة منه لحصر معناه وتمييزه عن معاني الألفاظ الأخرى.

أما ابن سيدة (صاحب معجم المحكم والمحيط الأعظم) فيقول في التّواصل: «الوصل خلاف الفصل. وصل الشّيء بالشّيء يصله وصلا وصلة ووصلة، واتصل الشّيء بالشّيء: لم ينقطع. والوصل ضد الهجران والتّواصل ضد التّضارم».

فالتّواصل في اللغة العربيّة هو: الاقتران والاتّصال والصّلة والتّرابط والالتّئام والجمع والإبلاغ والانتهاء والإعلام. أما في اللغة الأجنبيّة فكلمة «communication» تعني إقامة علاقة وتراسل وترابط وإرسال وتبادل وإخبار وإعلام.

وللتواصل ثلاث وظائف بارزة يمكن إجمالها في:

* التّبادل (Echange)
* التّبليغ (Transfert)
* التّأثير (Impact)

2 –عناصر العمليّة التّواصليّة:

لكي يتم التّواصل لابد أن تتوفر فيه مكونات أو عناصر أو ما يعرف بأطراف التّواصلوقد حددها رومان جاكبسون وهو عالم لغوي وناقد أدبي، اهتم باللغة منذ صغره في مجموعة منالعوامل التي من شأنها أن تحقق التّواصل اللفظي الفعال. وهذه العوامل هي:

الرّسالة / المرسل (المتكلم) / المرسل اليه (المتلقي) / قناة الاتّصال / السّنن (الشّيفرة) / السّياق.

المرسل Emetteur: وهو المتكلم أو الباث أو المخاطب، وهو الأساس الأول في عمليّةالتّواصلهو الملقي الباث، المتكلم النّاقل أوهو الذي يرسل الرّسالة، سواء أكانت سمعيّة أم بصريّة أم غيرها، ويمكن أن تكون ذاتا أو آلة أو عنصرا طبيعيا.

ومن هنا نتوصل إلى أن المرسل هو عبارة عن منشئ الرّسالة وقد يكون شخصا يتكلم أو يكتب أو يحاضر أو محطة إذاعيّة أو تلفزيون...

المرسل إليه Recepteur: وهو الطّرف الثّاني في عمليّة التّواصل، وهو الذي يستقبل الرّسالة ويمكن أن يكون شخصا منفردا أو جماعة أو ما يشبه الجماعة (نقابة، حزب...) أو آلة من الآلات مثل أجهزة الاستقبال. نفهم من خلال هذا التّعريف أن المرسل إليه هو الطّرف الآخر الذي يوجه اليه المرسل خطابه عمدا. والمعنى من هذا أن المرسل إليه هو المكون الأساسي الثّاني في عمليّة التّواصل.

الرّسالة Message: هي عبارة عن ثمرة العمليّة التّواصليّة بين الطّرفين، «وهي المحتوى الذي يريد المرسل توصيله إلى المستقبل».

نفهم من خلال هذا أن الرّسالة نص كلامي أو شفوي يقوم المرسل بإيصاله إلى المرسل إليه. فالرّسالة هي «النّص الكلامي أو الشّفوي أو الإيحائي أو أي شكل كان فهو يمثل رسالة موحيّة تتحرك لتصل إلى الطّرف الآخر الذي يكون مهيئا لمثل هذه الحركات أو الأفعال الخطابيّة» ونستخلص من كل ما سبق أن الرّسالة لها أشكال وأنواع مختلفة إما كلاما لفظيا أو شفهيا أو إيحائيا عن طريق الإشارات أوغيرها.

السّنن Codes أو الشّيفرة: هي نسق القواعد المشتركة بين الباث والمتلقي والتي بدونها لا يمكن للرسالة أن تفهم أو تؤول «ويتبين من هذا أن التّواصل هو ميكانيزم العلاقات الإنسانيّة بين المرسل والمتلقي في نقل المعلومات أو الرّسالة، كما يتبين أيضا أن التّواصل له وظيفتان هما: الوظيفة المعرفيّة والوظيفة التّأثيريّة الوجدانيّة.

القناة Canal:

وتعتبر وعاء العمليّة التّواصليّة «فهي التي تسمح بقيام التّواصلبين المرسل والمرسل إليه، وعبرها تصل الرّسالة من نقطة معينة إلى نقطة أخرى. ويتضح لنا أن القناة تشكل عنصرا هاما من عناصر العمليّة التّواصليّة إذ هي الوسيلة التي تنقل عبرها الرّسالة من المرسل إلى المرسل إليه.

السّياق Contexte: لكلّ رسالة مرجع تحيل عليه وسياق معين مضبوط قيلت فيه، ولا تفهم مكوناتها الجزئيّة أو تفكك رموزها السّننيّة إلاّ بالإحالة على الملابسات التي أنجزت فيها هذه الرّسالة. وفي هذا يقول جاكبسون: «ولكي تكون الرّسالة فاعلة، فإنها تقتضي بادئ ذي بدء سياقًا تحيل إليه – (وهو ما يدعى أيضًا المرجع، ويكون قابلًا لأن يدركه المرسل إليه، وهو إما أن يكون لفظيًّا وإما قابلًا لأن يكون كذلك».

3 – أنواع التّواصل:

هناك العديد من أنواع التّواصل، حيث قسم العلماء والخبراء في مجال التّواصل ولغة الجسد «علم التّواصل الانساني» وحددوا نوعين رئيسيين هما: التّواصل اللغوي / التّواصل غير اللغوي.

التّواصل اللغوي Verbal Communication: يتميز هذا النّوع باستعمال اللغة الملفوظة سواء كانت منطوقة أم مكتوبة «وهو استخدام الكلام كرموز لغويّة للتعبير عن الأفكار والمشاعر والحاجات بين الأفراد وهنا يعتبر الاتّصال سلوكاً مختصاً بالبشر ويميز الإنسان عن باقي الكائنات الحيّة. كما أن اللغة هي التي تصنع الفكر وهي أساس التّواصل والتّفكير

والتّخطيط والبحث وبدونها يصعب علينا أن نتصور تطور الثّقافة الإنسانيّةإلى الصّورة التي نجدها اليوم. فمن هنا يتبين لنا أن التّواصل اللغوي عبارةعن أصوات مبعثرة من الأفكار والمعارف والأغراض التي يراد نقلها مباشرة من المرسل إلى المرسل إليه بغيّة تحقيق التّواصل، فاللغة اللفظيّة تعتبر وعاء الفكرفبها نفكر وبها نخطط، إذ هي مرآة عاكسة للحضارة الإنسانيّة كما تعتبر اللبنة الأساسيّة في تكوين الفرد والمجتمع، مما تحمله من مفاهيم ورصيد فكري، كما تمكن البشر من التّواصل فيما بينهم وتكسبهم ضوابط وقوانين تسهم في رقي وتطور سلوك الفرد.

فالتّواصل اللغوي يستخدم العلامات اللغويّة وسيطا له، ويجعل سونسكي Sensky من العلامات اللفظيّة»نظم العلامات التي تمكن من نقل المعلومات بمساعدة علامات لفظية، كالقوالب الحسابية والرّياضية، وعلامات الإعلام ولغة الصّم». أما هكيت Hockett فيعرفه «بأنه المؤشر على إحداث استجابة «أي أنّ العلامات اللّغويّة هي وسيط الاتصال الأقوى فاعلية والأشد طواعية وتأثيرا في نقل التّراث والثّقافة، كما يعتبر همزة وصل وربط لتبادل الأفكار والمعاني بهدف تحقيق التّفاهم.

أما أندري مارتيني «André martinet» يعتبر اللّغة على أنها تلفظ مزدوج وظيفتها الأساسيّة التّواصل «ويعني باللفظين المونيمات والمورفيماتكما يؤكد أنّ» اللسان ظاهرة اجتماعية ذهنية، هي الوضع الذي تمّ الإصطلاح عليه في مجتمع من المجتمعات ويقابله الكلام، التّأدية، الفردية أو الجماعية للّسان وخاضع لعوامل عدة اجتماعية ونفسية وتاريخية وغير ذلك. بهذا يعني أنّ اللسان يستودع في الأشخاص الذين ينتمون إلى مجتمع واحد بفضل مباشرتهم للكلام ويخضع لعوامل وأسباب عديدة.

أمّا الاتّصال اللّغوي المكتوب فأعم أنواع الاتصال وأهمها على الإطلاق فيقول تسالزمان tsalzman: «اللّغة المنطوقة -الكلام- أعم الوسائل التي يتصل بها البشر أحدهم بالآخر وأهمها، ولكن هذه اللّغة ليست الوسيلة الوحيدة، بل أنظمة الكتابة المتعددة المختلفة والمستعملة في العالم ذات أهمية عظيمة في الاتصال. وهذه الاعتبارات المختلفة تمتازعلى اللّغة المنطوقة ببقائها النّسبي خاصة.

يتّضح لنا أنّ التّواصل اللّغوي المنطوق والمكتوب يخضع لمقتضيات أخرى هامة تنعكس في بنيته انعكاسا مباشرا. حيث يستنبط براون بول/ braun bolمن بيانه «المتكلم يدرك أنّ أية كلمات تنطق من شفتيه سوف يسمعها محاوره، ولذلك يأخذ ما على عاتقه إصلاح كلامه إصلاحا نشطا شاملا، أمّا الكاتب يستطيع أن يشطب ما كتب ويعيد كتابته» أي أنّ اللغة المنطوقة عبارة عن أصوات تخرج من شفتي المتكلّم تصل إلى أذن المتلقي عبر ذبذبات صوتية لا محالة ولا مرد لها بينما نجد اللغة المكتوبة هي تعبير عن رأي الكاتب من خلال تجسيد كلمات مدونةمكتوبة حيث يمكن للكاتب أن يغيّرها، يحذف منها أو يزيد عليها دون علم المتلقي.

ويقول سمير شريف استيتيعن التّواصل اللغوي: «الشفاهية هي أصل التواصل اللغوي تاريخيا وواقعيا وربما يكون الإنسان قد تبرج في هذا التواصل حتى وصل إلى ابتكار أسلوب الحوار، وهو ليس أسلوبا في بث الرّسالة فقط ولكنه أسلوب في تلقيها كذلك. ويقوم الحوار في أساسهعلى إحالات مشتركة بين المتحاورين، تعطي للكلمات دلالات موقعية خاصة لبيت لها في غير ذلك الموقع وبسبب ذلك أنّ الذّات تصبح ذات رؤية حوارية، أو الأصل أنّ الواحد يعرض ما عنده بأحسن ما يستطيعمن العرض ليتلقى أحسن ما عنده الآخر.

يتضح لنا مما سبق أنّ الأصل هو التّواصل، فالإنسان قد يحدث تلقائيا بواسطة الحوار الذي يقوم على أساس تناول أطراف الحديث وتبادل الأفكار بين طرفين مختلفين بتقديم الحجج والبراهين وكل منها يعطي طريقة مناسبة لإقناع الطّرف الآخر والتأثير عليه.

فالتّواصل اللّغوي، تواصل تستخدم فيه اللّغة الشفهية والأصوات المعبرة عن الأفكار التي يراد نقلها إلى المستقبل، سواء كانت مباشرة من المرسل أو باستخدامه آليات كالهاتف ومكبر الصوتواليوم يوجد، محرك البحث/ Yahoo / Messengerskype... هذه الوسائل تستخدم في التّواصل بين النّاس عن بعد بحيث تظهر الصّورة والصوت عن طريق استخدام كاميرا «webcam» بشكل مباشر عن طريق الشّبكة العنكبوتية (Internet.

التّواصل غير اللّغوي (Non verbal communication):

يمثل الجانب غير المنطوق من اللغة، لأن التّواصل غير اللغوي هو تعبيرات الوجه وحركة الجسم، والتّواصل بالعين، والتلميحات، وحتى طريقة غلق أو فتح الأبواب قد تكون وسيلة تعبير عن حالتنا المزاجية.

إذن فالتّواصل غير اللغويّ هو كل عملية تواصلية لا تعتمد على اللغة اللفظية لتحقيق أغراضها التّواصلية، أي أنها تعتمد على وسائل خارج إطار اللغة. لقد قام أيسنبرج «Esenberg» وسميث «Smith» بتقسيم التواصل غير اللغوي إلى ثلاث فئات هي:

- التواصل المرتبط باللّغة، يتضمن متغيرات الصّوت.
- التّواصل الحركي: يشمل حركات الجسم.
- التّواصل الجسدي: يشمل الجسم والعلاقات المكانية.

فالتّواصل غير اللغوي دلالتّهأقوى وأوضح من التّواصل اللغوي، لأنّالتّواصل غير اللغوي لا يتوقف الإنسان عنه ولا يستطيع تزييفه.

وكذا السلوك غير اللّغوي يعتبر لغة صامتة أكثر صدقا في نقل العواطف والانفعالات، من خلال تغيرات الوجه وأوضاع الجسم وحركاته والإيماءات، ونغمة الصّوت ومعدله، يرجع ذلك إلى أنّ السلوك غير اللغويّ أقل خضوعا للتحكم الفردي الشّفوي، لأن لغة الجسم تعبر عن صورة صادقة للحياة، فنظرا لقصور الكلمة عن التّعبير الذي نودّ إيصاله للآخر نجد أنفسنا مجبرين على الاستعانة بأعضاء جسمنا كتّعبيرات الوجه والتّحديق بالعين أو تحريك الرّأس أو تدعيم الأفكار بحركات اليدين، كل هذه تساعد على التّواصل وعلى تدعيم التواصل اللفظي نفسه.

يتبين لنا أنّ كل عنصر من أعضاء الجسم يؤدي دورا مهما في إيصال وتمرير المنبهات إلى الدّماغ وبعدها يتم إدراكها واستجابتها كرسائل صوتية. أمّا اللساني فيرديناند دي سوسير يؤكّد في قوله: «ويمكننا أن نتصور علما موضوعه دراسة حياة الإشارات في المجتمع، مثل هذا العلم يكون جزءا من علم النفس العام وسأطلق عليه علم الإشارات «sémiologie» علم العلامات».

يحدّد دي سوسير هنا علاقة اللغة بهذا العلم بأنّها جزء منه، فالتّواصل غير اللّغوي يعتبر أحد أنواع التّواصل التي تستخدم فيه الإشارات لأنّها تؤثر أكثر من اللّغة المنطوقة على نفسية الفرد، كما نلاحظ أنّه لم يضع قوانين خاصة لعلم السيمولوجيا، بل أشار إليه إشارة جوهرية، وذلك من خلال بحثه عن موقع اللّغة بين الحقائق، مؤكدا أنّ اللّغة لا يمكن أن تحدّد باعتبارها مجموعة كلمات وإنما باعتبارها كلا مركبا من عناصر تربطها علاقة. ويعرف اللّغة بأنها نظام من الإشاراتَ «système of signes» التي تعبر عن الأفكار ويمكن تشبيه هذا النّظام بنظام الكتابة أو الألف باء المستخدمة عند فاقدي السّمع والنّطق أو الطّقوس الرّمزية أو الصّيغ المهذبة أو العلامات العسكرية».

من خلال هذا التّعريف نقول أنّ التواصل غير اللّغوي هي إشارات معبّرة عن الأفكار والأغراض التي يرد نقلها من المرسل إلى المرسل إليه بغية تحقيق التّواصل، فكل العلامات والأنساق لها دور مهم لا يمكن تجاهله خاصة عند فاقدي السّمع والنطق.

فيما يلي نبين بعض الحركات ومدلولاتها:

* تكرار: تحريك الرّأس (نعم).
* الاستبدال: هز الكتفين (لا أعرف).
* تعليق: حك الرّأس.
* تركيز: نبرة الصوت.
* التنظيم: رفع اليدين.
* تناقض: حك الرّأس.
* خيبة أمل: تحريك العينين.
* الاستسلام: النظر فوق أو بعيدا.
* المعاشرة الطّيبة: المصافحة.
* الإشارة: التلمس، التقبيل.
* التفاخر: التزيين المفرط.

يعرف لوريل. ج دون (laurel. j. dunn) التّواصل غير اللغوي كالآتي: «هو عبارة عن مرشَح صامت، له تأثير واسع على محيطنا الاجتماعي، إنه يمدنا بأسلوب في نقل الوسائل الاتّصالية دون استخدام اللّغة اللفظية، وربما الاتصال غير اللفظي بتدعيم الاتّصال اللّفظي أو بسبب جزء منه، وينظم العلاقات بالتأثير في تقديم التّفاعل واستمراريته».

وهذا ما يدّل على أنّ الاتصال غير اللّغوي له دور فعّال في الحياة الاجتماعية، وذلك عبر الإشارات، كما يعتبر الاتصال اللغوي جزءا أهم ويجعله أكثر تأثيرا واستمرارية.

«الصمت يتكلم والإيماءات والتّعبيرات توضح ما يدور داخل الإنسان ونبرات الصوت وشكل الابتسامة، كل هذا يعبر عما يدور داخل الإنسان. وهذا التّواصل غير اللفظي إما أن يكون مكملا للتّواصل اللّفظي وإمّا أن يكون معاكسا لما ينطق به الفرد».

نعني بهذا التّعريف أنّ الإيماءات تبيّن ما يجول في ذواتنا، فالتّواصل غير اللغوي يمكن أن يكون مكملا للتّواصل اللغوي، كما يمكن أن يعكس ما يتلفظه الفرد. والمثال على ذلك نجد شخصا ينطق كلمات لكن تلميحات وجهه وطريقته في الكلام تعكس ما ينطقه ففي هذه الحالة تكون معاكسة لما ينطق به لفظيا.

يتضح لنا في الأخير أنّ التّواصل غير اللّغوي هو كل تواصل يهدف إلى تبادل الأفكار والآراء دون استعمال الكلمات، ويمكننا أن نقول أنه لا بد من ربط العلاقة بين التواصل اللغوي وغير اللغوي، لأنهما عنصران متكاملان ومترابطان حيث يجب أن تكون لغة كأداة للتواصل ولكي يتحقق هذا الأخير لا بد من وجود إشارات وحركات جسدية، فهما وجهان لعملة واحدة. كما يمكن أن نستخلص أنواعا عدّة للتواصل منها:

التّواصل الذاتي:

هو عبارة عن الحوار الدّاخلي الذي يقع في النفس فيكون الفرد هو المتكلم والسامع في الوقت نفسه وذلك يكون في داخله. حيث نجد من التّعريفات أنّ التّواصل الذّاتي: إنه قدرة ذهنية مكتسبة يمثلها نسق من رموز اعتباطية منطوقة يتواصل بها أفراد المجتمع.

نستخلص من هذا التّعريف أنّ التّواصل الذّاتي قبل أن يكون منطوقا يتم أولا في الذّهن من خلال أداء تواصله مع الغير. كما يقول كسيلر Xeleer: «إنّ التّفكير ليس سوى الحركات اللّاشعورية الصّوتية وأنه من الهمس غير المسموع الذي يدور بين المرء ونفسه».

ومن هنا فالتّواصل الذّاتي عبارة عن تفكير في ذهنيّة لا شعورية لا تتم بالصوت إنما تتم في داخله كهمس لا يستطيع السّمع به سوى المرء الذي يدرك هذا في نفسه كأنه حوار بين شخص، وهو المتكلّم والسّامع في آن واحد؛ أي هو عبارة عن مناقشة وتحليل وتفكير في داخل الإنسان. كما يعرّفه آخر: «هو التّواصل الذي يتم بين الفرد وذاته ويتمثل في الشّعور والوعي، والفكر والوجدان وسائل العمليات النّفسيّة الدّاخلية»

وهنا نستنتج أنّ التّواصل الذاتي هو تواصل في ذات الفرد؛ أي يكون في داخل الفرد تواصل وذلك بالشّعور والوعي والتّفكير ووجدانه وكذلك كل الخلايا الدّماغية تكون في اتصال مع تفكيره وتحليله ومناقشة للأمور التي تخصه.

التّواصل الشّخصي:

إذا كان الإنسان يحدث في نفسه تواصلا بينه وبين نفسه في تفكيره وتحليله ومناقشته للأمور فإنه يستوجب أن يتواصل مع غيره عن طريق وسائل مختلفة. فالتّواصل الشّخصي هو عبارة عن حوار بين شخصين متخاطبين حاضرين حيث : «يبنى التّواصل على أساس تبادل الوظائف بين المخاطَب والمخاطِب عبر نفس الوضع Maine code، ليتحول المتلقي نفسه إلى مرسل، والمرسل إلى متلقي خلال عملية الإرسال والاستقبال».

نستخلص من خلال هذا أن التّواصل الشّخصي هو عبارة عن حوار بين شخصين أو فردين أي مخاطِب ومخاطَب وفي الوقت نفسه يمكن أن يكون المخاطَب هو المخاطِب والمخاطَب هو المخاطِب وذلك عبر الحوار الذي يدور بينهما؛ أي سؤال وجواب. كما يعرّفه أيضا بأنه: «الاتصال الذي يتم بين فردين أو شخصين» نتوصل إلى أن التّواصل الشّخصي هو اتصال بين شخصين أو فردين وهو نوعان: مباشر وغير مباشر.

* **أ: مباشر:** ويتم وجها لوجه بين المرسل والمرسل إليه.

* **ب: غير مباشر:** ويتم عبر الأجهزة أو الوسائل المختلفة مثل الهاتف.

التواصل الاجتماعي:

هو «نقل معلومات ومهارات وتبادل فكري ووجداني وسلوكي بين أبناء البشر أو هو العمليّةالتي يتم من خلالها نقل رسالة معينة أو مجموعة من الرّسائل من مرسل أو مصدر معيّن إلى مستقبل».

ويستعمل أيضا مصطلح الاتّصال الجماهيري ويقصد بـ«ذلك النّمط من الاتّصال الذي يتم بيم أكثر من شخصين لإتمام العمليّة الاتّصاليّة والتي غالبا ما

تقوم بها بعض المؤسّسات عن طريق رسائل جماهيريّة».

ونعني بالاتّصال أو التّفاعل الاجتماعي هنا جميع أشكال الاحتكاك والتّواصل التي تفرضها العلاقات الاجتماعية الإنسانيّة وندعو لها الأغراض الحياتية أو المعيشية للفرد والجماعة وتستدعي استخدام اللغة في إطارها اللّفظي أو الرّمزي العام.

نفهم مما سبق أنّ التّواصل الاجتماعي هو عبارة عن تواصل يتم بين شخص وعدد من الأشخاص في المكان نفسه مثل التواصل بين المعلم وتلاميذه، وهذا كله من أجل التّعبير والتفاهم بين المجتمع لتحسين الأوضاع الاجتماعية ويكون ذلك إما لفظيا أو غير لفظي «علاقة متبادلة بين طرفين أو انفتاح الذّات على الآخرين». يعني هذا أنّ التّواصل الاجتماعي هو حوار بين مجموعة من الأشخاص ويقوم واحد من الأشخاص التعبير أو التّحدث عن ظاهرة ما إلى الأشخاص الآخرين ويكون ذلك بتفاهم للوصول إلى نتيجة فيما يدور حولهم.

4 – وسائل التّواصل الاجتماعي:

أو كما يسميها بعضهم شبكات التّواصل الاجتماعي، لقد تعددت هذه الوسائل وتنوعت في السّنوات الأخيرة وعرفت استعمالا وانتشارا واسعا وأهمها (Twitter, Facebook, Myspace, LinkedIn, ...) وغيرها.

وقبل التّحدث عن كل شبكة بالتّفصيل سنقدم بعض التّعريفات حول شبكات التّواصل الاجتماعي:

جون بارنز (1954): الشّبكات الاجتماعيّة بشكلها التّقليدي تتمثل في نوادي المراسلة العالميّة التي كانت تستخدم في ربط العلاقات بين الأفراد من مختلف المناطق باستعمال الوسائل الاعتياديّة المكتوبة، ومع ظهور شبكة الأنترنت انتشرت ظاهرة التّواصل الاجتماعي بشكل كبير.

بالاس 2006 (Balas): أنّها برنامج يستخدم لبناء مجتمعات على شبكة الانترنت أين يمكن للأفراد أن يتصلوا ببعضهم البعض.

بريس (Preece) ومالوني كريشمار (Maloney Krichmar): مكان يلتقي فيه النّاس لأهداف محددة وهي موجهة من طرف سياسات تتضمن عدد من القواعد والمعايير التي يقترحها البرنامج.

زاهر راضي: مواقع التّواصل الاجتماعي منظومة من الشّبكات الالكترونيّة التي تسمح للمشترك فيها بإنشاء موقع خاص به ومن ثم ربطه عن طريق نظام اجتماعي الكتروني مع أعضاء آخرين لديهم الاهتمامات والهوايات نفسها.

بويد وإليسون: مواقع الشّبكات الاجتماعيّة هي خدمات عبر شبكة الانترنت تسمح للأفراد بناء شخصيّة عامة أو شبه عامة من خلال نظام محدد، وتوضيح لائحة خاصة بالمستخدمين الذين يشاركونهم الاتّصال. إضافة إلى عرض واختيار قائمة الاتّصالات الخاصة بهم والقوائم الخاصة بآخرين خلال نفس النّظام.

أنديـاس كابـلان (Koplan) ومايكل هانلين (Michael Haelein): الشّبكات الاجتماعيّة هي مجموعة من تطبيقات الانترنت التي تبنى على أسس أيديولوجيّة وتكنولوجيّة من الويب 2، والتي تسمح بإنشاء وتبادل المحتوى الذي تم إنشاؤه.

الشّبكات الاجتماعيّة حسب بعض الباحثين أنّها مواقع الكترونيّة تسمح للأفراد بالتّعريف بأنفسهم والمشاركة من خلالها في إنشاء علاقات اجتماعيّة.

5 – أنواع شبكات التّواصل الاجتماعي:

يمكن تصنيف شبكات التّواصل الاجتماعي حسب أهدافها كما يلي:

– شبكات التّنشئة الاجتماعيّة: وهي الشّبكات التي أنشئت من أجل التّرفيه والتّواصل الاجتماعي مثل الفيسبوك وماي سبيس.

– شبكة التّواصل الاجتماعي: هي الشّبكة التي تستخدم من أجل إيجاد علاقات جديدة وتضم عددا كبيرا من أسماء المستخدمين غير المعروفة مثل موقع لينكد إن.

– الشّبكات الاجتماعيّة للإبحار: وهي وسيلة لمساعدة المستخدمين على إيجاد نوع من المعلومات أو المصادر أو لأجل نشر قوائم الاتّصال وسبل الوصول للمعلومات بها مثل موقع Digg (وهو موقع روابط انترنت).

– الشّبكات الاجتماعيّة العامة مثل فيسبوك وماي سبيس.

– المدونات مثل: سكاي بلوج وويكيبيديا.

– أدوات التّشارك لتسجيلات الفيديو من اليوتيوب والموسيقى.

– أدوات الدّردشة مثل المنتديات ph pbb نظام المراسلة الآتي ماسنجر، ووينـدوز لايف، منصات....

– إنشاء الشّبكات الاجتماعيّة مثل Ning.

- وسائل الإشهار الصّغيرة تويتر والمواقع المشتقة منها تويتكسر إضافة إلى غيرها من المواقع الأخرى.

6 -وسائل التّواصل الاجتماعي الحديثة:

انتشرت طرق التّواصل الاجتماعي الحديثة في العصر الحديث وأصبح هناك الآلاف من التّطبيقات التي تسهل على الجميع إمكانيّةالتّواصل مع الآخرين حول العالم بكل سهولة ومن أبرز التّطبيقات الشّائعة هي فيس بوك، وواتساب، وتويتر وانستقرام، والآلاف من تطبيقات التّواصل الأخرى والتي بدورها تسهيل الأمور على البشريّة في التّواصل مع الآخرين.

تعددت تطبيقات التّواصل الاجتماعي للهواتف المحمولة وأجهزة الحاسوب لكي يستطيع كل شخص التّواصل مع الأخر بالطّريقة التي تناسبه، وتتوفر جميع تطبيقات التّواصل بشكل مجاني بالكامل لجميع المستخدمين لن تحتاج سوي الاتّصال بشبكة الإنترنت علي هاتفك أو الحاسوب فقط. وهو ما يمكن تسميته بالتّواصل الإلكتروني: ويمثل التّواصل الإلكتروني منظومة جديدة تحقق مجالا شبكيا يتحول فيه الفرد باستمرار بين موقعي الإرسال والتّلقي، وتنصهر في داخله العوالم الفردية، وتمثل شبكة الانترنت فضاء جماعيا يشترك المستخدمون في إنتاجه، وهو بهذا المعنى يمكن النّظر إليه على أنه نموذج تواصلي لا يتعلق بعملية بث مركزية، ولكن يتفاعل داخل حالة ما، يسهم كل فرد (مرسل- مستقبل) في اكتشافها بطريقة أو تغييرها أو الحفاظ عليها.

الاتصال الالكتروني هو نوع من أنواع التواصل الجديد عبر الشّبكة العنكبوتية فيقوم فيه الفرد بالاتصال عبر الآلات منها الكمبيوتر أو الهاتفويكون ذلك بإرسال رسائل وصور إلى المتلقي ويتبادلان الحديث وكما يعتبر هذا نموذجا تواصليا.

7 - أنواع وسائل الاتّصال الحديثة:

ساعدت التّكنولوجيا الحديثة جميع البشريّة في حل جميع مشاكل التّواصل والمشاكل التي يعاني منها البشريّة في العصور القديمة ولعل من أفضل ما قامت به التّكنولوجيا في العصر الحديث هي توفير وسائل الاتّصالات وساعدت في توفير الجهد والأموال علي البشريّة لكي تستطيع التّواصل مع الآخرين.

سهلت التّكنولوجيا على الجميع إمكانيّة التّواصل مع الآخرين حيث وفرت مجموعة كبيرة من التّطبيقات ومنصات التّواصل التي تسهل على البشريّة إمكانيّة التّواصل مع بعضهم البعض دون بذل مجهود أو أموال لكي يستطيعون القيام بذلك، وهناك انواع وسائل الاتّصال الحديثة والتي نوضحها في الخطوات التّاليّة.

الاتّصال المتزامن

الاتّصال المتزامن

هو واحد من انواع وسائل الاتّصال الحديثة التي تساعد البشريّة في التّواصل ببعضهم البعض في وقت واحد من خلال تطبيقات التّواصل الاجتماعي وإرسال الرّسائل النّصيّة والصّوتيّة ومن أمثلة الاتّصال المتزامن الشّائعة هي:

الرّسائل النّصيّة: يتم تبادل هذه الرّسائل من خلال التّطبيقات المخصصة للتواصل الاجتماعي والتي يمكنك تحميلها على الهاتف المحمول، وتساعدك هذه التّطبيقات في إرسال الرّسائل النّصيّة للآخرين والتّواصل معهم بشكل مجاني وطريقة التّواصل هذه هي الأكثر استخداما في العصر الحديث.

المكالمات الصّوتيّة: واحدة من أفضل الطّرق التي تسهل على البشريّة في عصرنا الحالي التّواصل مع الآخرين صوت فقط مجانا من خلال الهاتف ومع أي شخص حول العالم، وساعدت هذه الطّريقة البشريّة في توفير الأموال من أجل الاتّصال بأشخاص تعيش في دول أخرى.

مكالمات الفيديو: ويحدث الاتّصال هنا عن طريق اتّصال طرف بالطّرف الأخر من خلال الهاتف ليستطيع التّحدث معه صوت وصورة ويمكنك فعل ذلك من خلال تطبيقات التّواصل علي الحاسوب أو الهاتف ومن أبرز التّطبيقات التي توفر هذه الخاصيّة هي سكايب.

الاجتماعات: واحدة من أحدث طرق التّواصل الحديثة في العصر الحديث حيث أصبحت توفر هذه الخاصة على الشّركات والمؤسسات إمكانيات التّواصل مع العاملين وموظفي الشّركة من خلال تطبيقات لعمل الاجتماعات والتّشاور في الأمور من خلال الهاتف مما يسهل عليهم الأمر وتوفير الجهد والوقت.

المكالمات الجماعيّة: وهي طريقة تواصل مميزة للغايّة وشائعة الاستخدام يتم من خلالها التّواصل بين مجموعة كبيرة من الأفراد في وقت واحد من خلال الهاتف المحمول أو الحاسوب.

الاتّصال الغير متزامن

الاتّصال الغير متزامن واحد من انواع وسائل الاتّصال الحديثة ولكن الفرق هنا هو أن الرّسائل التي تقوم بإرسالها للآخرين لا يستطيع مشاهدتها في

الوقت ذاته والرّد عليها مثل تطبيقات التّواصل الاجتماعي والاتّصال المتزامن بشكل عام وأبرز الأمثلة عن الاتّصال الغير متزامن هي:

الإرسال من خلال البريد: هذه الطّريقة توفر على البشريّة إمكانيّة إرسال المستندات والملفات الورقيّة في أي مكان تريده من خلال البريد والطّرود.

الفاكس: واحد من أقدم طرق التّواصل والتي مازالتّ مستمرة للتواصل حتى الآن وتساعدك على نقل الملفات والمستندات ولكن قد يكون هناك بعض الشّروط لكي تتمكن من استخدامها.

البريد الإلكتروني: واحد من انواع وسائل الاتّصال الحديثة الشّائعة وتستخدم هذه الطّريقة أيضا في التّواصل بين الأطراف وإرسال الأوراق والملفات بكل سهولة.

والتّواصل يكون إما باللّغة المكتوبة أو المنطوقة وكل منهما يؤدي وظيفة التّواصل والتّبليغ، وفي هذا الصدد نجد أنّ التّواصل اللّغوي يتم ايصاله بعدّة طرق وذلك بالمختصرات اللّغوية التي أصبحنا نتحدث بها عبر مواقع التّواصل الاجتماعي والتي تشمل الاقتصاد اللغوي.

أ - مفهوم الاختصارات اللغويّة

الاقتصاد اللّغوي في معناه العام «هو من القصد وهو الاستقامة والعدل والتّوسط بين الإسراف والتّقتير، فإن الاقتصاد في اصطلاح علماء اللّغات يكون بمعنى أن يبلغ المتكلّم بمضامين كلامه الفوائد القصوى مع اكتفائه بأقل قدر من الجهود الذّهنية والوظيفية لأداء الخطاب».

نستخلص من خلال هذا التّعريف أنّ الاقتصاد لغة هو الاعتدال والاستقامة، بلا إفراط ولا تقتير، والغاية منه التّوفير، وهو في الدّلالة اللّغوية: اتّخاذ القصد. أما في الاصطلاح يعني الاعتدال في التّصريف؛ أي أنّ المتكلم يجب أن يأخذ الحيطة والحذر في الإفراط في الكلام دون فوائد.

وقد عرفه فخر الدّين قباوة كالآتي: «واللغة هي أيضا وسيلة اقتصادية لأنها رموز صوتية محدّدة تؤدّي معان كثيرة غير ذات حدود».

نستنتج من خلال هذا التّعريف أن اللغة هي وسيلة اقتصاديّة وتعتبر رموزا صوتيّة مقنّنة تؤدي وظائف ومعان ولها فوائد قصوى لا حدود لها.

ب-مفهوم الاختصارات اللغويّة:

هي اختصار اللّغة المتداولة وبالنّسبة للاختصار لنا أن نقول: «هو الاقتصاد في المساحة ومن أجل تحقيق ذلك تقوم هذه الكتابة باستعمال عدّة طرق والتي تختلف من لغة لأخرى باختلاف خصائص كل لغة «نفهم من خلال هذا أنّ الاختصار اللّغوي هو تغيير بنية الكلمات وشكل الحروف بشكل ضيّق ومختصر؛ أي تقليصها، فتحولت اللّغة إلى مزيج من لفظ عربي يكتب بأحرف لاتينية ورموز وأرقام مثل حرف الحاء يكتب رقم «5» وحرف العين بـ«3». ولكل لغة خصائص، وكذلك في اللّغة العربية توجد بعض الاختصارات «التي تعبّر عن تغيير مهم مثل: حرف (م) اختصار لكلمة «مهندس» وحرف (د) اختصار لكلمة «دكتور».

نستخلص من هذا أنّ في اللغة العربية تستخدم المختصرات اللّغوية مثلا (آ (يطلق على «آنسة»، و(ه) على «السنة الهجرية» و(م) على «السّنة الميلاديّة».

ج- خصائص المختصرات اللغوية

* حذف الحروف الصامتة مثل:

Alor: alors / /Mai: mais Dabor: d'habord

*اختصار الكلمة؛ أي حذف الحروف الوسطى: مثل:

Slt:salut /Bnr: bonsoir /Bnj: bonjour / Dacc: d'accord /Tfq: tu fais quoi Tkp: t'inquiète pas /Nn: non /Tt: tou

* استعمال كلمات جديدة: كرموز مثل:

Mdr: mort de rire

OMG: oh my god

* مزج الحروفوالأرقام؛ أي تعويض الحروف بالأرقام:

2m1: demain/2R1: derien/Bn8: bonne nuit B1: bien/7: cette/mrc: merci

* استخدام لغة أجنبية أخرى بحثا عن الاختصار وقلة الحروف:

Bye:aurevoir/Hi: salut

*التعبير عن المشاعر (البهجة، الفرح، الحزن) بواسطة ملصقات أو رموز معينة.

* عدم مراعاة القواعد النحوية والبلاغية.

د- واقع اللغة في ظلّ المختصرات اللّغوية:

رغم التّطورات والاختراعات المنتشرة في وقتنا الحالي ألا وهي تكنولوجيا الاتّصال التي أفضت

إلى شيوع ثورة المعلومات ومعرفة أشكال اللّغة بالكم الهائل من قبل الأفراد والمجتمع في استعمال الانترنت، والانترنت هو عبارة عن خدمات ومعلومات تقدمها مواقع مختلفة يستخدمها الإنسان لغرض التّواصل، ومن هذه المواقع: مواقع التّواصل الاجتماعي (الفايسبوك) الذي أدمن عليه الشباب في الآونة الأخيرة ويستخدم بكثرة.

إنّ موقع التّواصل الاجتماعي وهو الفايسبوك والذي سيطر على بقاع العالم ودخل كل البيوت وبشكل كبير ومن خلاله انتشرت لغة المختصرات عبر الدّردشة بين الشّباب وذلك بتغيير بنية الكلمةبأكملها كما أطلق عليها لغة جديدة بمصطلحات خاصة، فتحولت اللغة إلى مزيج من لفظ عربي يكتب باللغة الأجنبية ورموز وأرقام: مثلا: الرّقم «3» يمثل حرف العين. والرّقم «9» يمثل حرف القاف. وسبب استعمال هذه المختصرات توفير الوقت لدى مستخدميها.» المتحضر هو الذي يتحدث العامية مدرجا كلمات أجنبية وهو الذي يتداول هذه الاختصارات وذلك لجهل اللّغة وعدم إتقانها ومعرفة أساليبها والمقدرة على الكتابة بها على نحو سليم وفصيح وهو القاسم المشترك الذي يدفع الكثيرين إلى الهرب نحو العامية في الكتابة.

وفي الأخير إنّ اللغة كونها وسيلة للتعبير والتّفكير، إلا أنه غير مجراها وطبيعتها وذلك بالاختصارات اللّغوية التي بدورها أصبحت اللّغة تزول بمعانيها وكذلك الإضافات الجديدة لها مثل الأرقام في وسط الكلمات وتقليصها بشكل ضيق، وعلى الأمة الإسلامية أن تعمل ما بوسعها لتفادي هذه الظّاهرة التي جعلت اللّغة تزول وتحل محلها هذه الاختصارات. وعدم وجود قواعد وقوانين للّغة جعل المجتمع يتكلم عشوائيا بسبب استعماله للمختصرات.

لقد طورت التّكنولوجيا في حياتنا بشكل كبير جداً حتى أصبح عصرنا يحتوي على أنواع متعددة من وسائل الاتّصال وأطلق على هذا العصر هو عصر الثّورة في عالم التّكنولوجيا حيث سهلت التّطورات الكبيرة التي تحدث على الجميع إمكانيّة التّواصل مع الآخرين وتوفير جميع سبل الرّاحة للبشريّة،

8 - تعريف شبكة التّواصل الاجتماعي:

يقصد بوسائل التّواصل الاجتماعيالمواقعُ والتّطبيقاتُ المصمّمةُ لتسهيل عمليّةالتواصلٍ بين البشر في جميع أنحاء العالم، وذلك عبر التّفاعل من خلال إمامنشوراتٍ أو محادثاتٍ أو المكالمات الصّوتيّة والمرئيّة. تهدف وسائل التّواصل الاجتماعي لبناء وتسهيل التّواصل بين المجتمعات في جميع أنحاء العالم، وذلك عبر مشاركة الأشخاص اهتماماتهم ونشاطاتهم وآرائهم عبر تلك التّطبيقات.

كما أدت القدرة على مشاركة المحتوى من صورٍ ومنشوراتٍ وأحداثٍ إلى تغيير الطّريقة التي نعيش بها، وأضافت طرقًا جديدةً تساعد في تسهيل الكثير من أعمالنّا، حتى أن معظم الشّركات ضخمةٌ، تملك حساباتٍ على مختلف وسائل التّواصل الاجتماعي.

انتشرت الشبكات الاجتماعية في نهاية عام 2007 وهي مواقع تستخدم للتّواصل والتّشبيك الاجتماعي وأشهرها الفايسبوك (Facebook) ومايسبيس (My space)، الإنستغرام (Instagram)، والتّويتر (twitter) وتميّزت بسرعة نقل الخبر وتدعيمه بالصورة الحية، وسرعة مواكبة الأحداث على مدار السّاعة ونقلها مباشرةمن مكان حدوثها. وهذه الشبكات مكّنت النّاس من التّعبيرعن طموحاتهم ومطالبهم في حياة حرّة من خلال مشاركتهم في تغذية هذه الشّبكات بالأخباروالمعلومات الإسهامبشكل فعال في صناعة وإدارة المضامين الإعلامية وجعلتهم أكثر تفاعلا ومشاركة في مختلف القضايا.

نستخلص من خلال هذا التعريف أنّ شبكة التواصل الاجتماعي هي عبارة عن وسائل أو مواقع أو تطبيقات مخصّصة يستخدمها الأفراد لغرض التّواصل فيما بينهم وتختصّ في إيصال المعلومات والأخبار بسرعة فائقة من خلال وضع المعلومات، والتّعليقات والرّسائل والصّور. حيث تنقل بصفة مباشرة وفي زمان ومكان حدوثها. ومن هذا كله نستنتج أن شبكات التّواصل مكنت الفرد والمجتمع من التّعبير عن مشاعرهم وطموحاتهم وآمالهم في مختلف القضايا وجعلتهم شعوبامثقفة واعية.

تقول بشرى جميل الرّاوي: «إن مواقع التّواصل الاجتماعي وسائل يستخدمها من يشاء لنشر الأخبار، ولا تمثل هذه المواقع العامل الأساسي للتغيير في المجتمع ولكنها أصبحت عاملا مهما في تهيئة متطلبات التّغيير عن طريق تكوين الوعي، ورأت الدّراسة أن التّغيير السّياسي الحقيقي

لم يولد في الأنترنت بل في الشّارع وجاءت وسائل التّواصل الاجتماعي مكملة له».

نفهم مما سبق أن مواقع التّواصل الاجتماعي لها دور كبير في حياة المجتمع وذلكفي التّغيير إلى الأحسن، ويستعملها الفرد في نقل الأخبار ومعرفة المعلومات المتعلّقة به وذلك بالوعي السّليم، وكما أثبتت الدّراسة أنّ سبب التّغيير لم يخلق في وسائل التّواصل الاجتماعي، بل مكملة فقط.وتعرفها مروى عصام صلاح بأنها مواقع إلكترونيّةعلى الشبكة العنكبوتية تؤسّسها وتبرمجها شركات كبرى لجمع المستخدمين والأصدقاء ومشاركة الأنشطة والاهتمامات وللبحث عن تكوين صداقات والبحث عن اهتمامات وأنشطة لدى الآخرين.

نفهم من هذا السّياق أن مواقع التّواصل تتشكلمن خلال الانترنت تؤسسها شركات ضخمة وذلك لجمع مستعمليها من أجل الانضمام إليها والمشاركة والاهتمام فيها، تسمح للأفراد التعبير عن حياتهم وإتاحة الفرصة للاتصال ولذلك تختلف طبيعة التواصل من موقع لآخر.

ومن وسائل التّواصل الاجتماعي نذكر: الفايسبوك facebook / اليوتيوب youtube / الفايبرviber / تويترtwitter.

9 – دور وسائل التّواصل الاجتماعي:

*سهولة التّعارف والتواصل بين البشر.

* نشر الوعي والسّهولة والسّرعة في تداول المعلومات.

* صقل المعرفة وزيادة الثّقافة.

* التّسلية والتّرفيه.

* التجارة الإلكترونية كعرض المنتجات وترويج السّلع.

* التعبير عن الذّات.

10 – أبرز وسائل التّواصل الاجتماعي في عصرنا:

مسنجر Messenger

تطبيق المحادثات الشّهير، والذي كان في البدايّة ميزة مراسلة ضمن تطبيق فيسبوك فقط، إنما ومنذ عام 2011؛ جُعِل تطبيق مسنجر منفصل بذاته وأخذت ميّزاته بالتّوسّع أكثر فأكثر. بفضل ميزات وتحديثات مسنجر المتكررة؛ يمكن للشركات الآن الإعلان عن منتجاتها وبرمجة روبوتات للدردشة مع العملاء، وإرسال رسائل إخباريّة والمزيد من التّفاصيل على مسنجر.

واتس اب WhatsApp

واتساب تطبيق المراسلة الأكثر شهرة، يستخدمه النّاس في أكثر من 180 دولة. استُخدم واتساب في البدايّة كتطبيق للتواصل مع الأسرة والأصدقاء فقط، وتدريجيًا؛ أصبح النّس يستخدمونه للتواصل مع الشّركات؛ إذ استخدمت الشّركات الصّغيرة تطبيق WhatsApp Business للتواصل، بينما هناك تطبيق WhatsApp Business API خاص بالشّركات المتوسطة والكبيرة. يعمل Whatsapp على بناء منصة الأعمال الخاصة به للسماح للشركات بالحصول على ملف تعريف أعمال مناسب، والتّواصل مع العملاء وتقديم الدّعم لهم، ومشاركة آخر التّحديثات معهم حول مشترياتهم منها.

ج– وي شات WeChat

على غِرار الواتس اب والمسنجر، تطوّر وي شات من تطبيق مراسلة عادية إلى نظام أساسي شامل، إذ بالإضافة إلى إمكانيّة إجراء المكالمات وإرسال الرّسائل؛ يمكن للمستخدم التّسوق عبر الانترنت والدّفع في وضع عدم الاتّصال، وإجراء الحجوزات وتحويل الأموال وغيرها.

حقيقةً، نمت شعبيّة وي شات في الصّين وبعض أجزاء من آسيا، حيث يتم حظر بعض منصات التّواصل الاجتماعي في تلك المناطق، ويُعتبر وي شات بديلًا ممتازًا للتطبيقات الأخرى في حال قمت بأعمال تجاريّة هناك.

د– تويترTwitter

تأسس على يد جاك دورسي وإيفان ويليامز ونوى غلاس، ويمكن تعريفه بأنه موقع تواصل اجتماعي، يتواصل فيه الأشخاص عبر رسائلٍ قصيرةٍ لا تتجاوز 115 حرف تسمى التّغريدات، كما تستطيع نشر الصّور والفيديو، بالإضافة إلى أن معظم الشّركات العالميّة والشّخصيات المؤثرة لديها حسابات رسميّة على تويتر مثل إيلون ماسك Elon Musk.

يعتبر المنافس الأكبر لفيسبوك فقد أنشئ عام 2006 عندما أقدمت شركة (Obvious) الأمريكيّة على إجراء بحث تطويري لخدمة التّدوين المصغرة ثم أتاحت هذه الشّركة استخدامه على نطاق واسع والتّسميّة جاءت من مصطلح (تويت) الذي يعني التّغريد فرمز له بالعصفور، وهو تطبيق يجمع أصدقاء من مختلف أنحاء العالم، ومن ميزاته أنه يقدم أخبارا في حينها وإجراء محادثات مع المشاهير.

ذ- لينكد ان LinkedIn

وهو من وسائل التّواصل الاجتماعي كما يعتبر كأكبر موقعٍ للعلاقات المهنيّة في أنحاء العالم، كما أنه أفضل وسيلةٍ للتواصل بين الآخرين. يستخدم لينكد إن في تبادل المعرفة ونشر الأفكار وعرض السّير الذاتيّة والشّهادات الموثوقة التي حصل عليها المستخدم، كما أن العديد من الشّركات الكبرى تستخدم الموقع في عرض فرص العمل، تأسس في عام 2002 على يد كونستانتين جيريك وريد هوفمان وجان لوك فيلانت.

هـ- يوتيوب YouTube

تأسس في عام 2005 على يد جواد كريم وستيفن تشن وتشاد هارلي، واشترته غوغل عام 2006 مقابل 1.65 مليار دولار، وهو عبارةٌ عن موقعٍ يقوم بعرض الفيديوهات المتنوعة في شتى المجالات، ويعطي الفرصة لمستخدميه بالقيام بالبث المباشر أيضًا، كما أنه من أفضل منصّة لصنّاع المحتوى. يمكنك إنشاء الحساب بشكلٍ مجانيٍّ، ورفع ما ترغب من فيديوهات على الموقع، ولكن ذلك يقتضي الالتّزام بأخلاقيات الموقع.

عبارة عن موقع إلكتروني يعرض فيديوهات متنوعة في شتى المجالات، دون تحميل أو فتح حساب لذلك، ويسمح بإبداء الآراء حول هذه الفيديوهات بالإعجاب أو الرّفض أو تعليقات وهو من أشهر مواقع الفيديو الالكترونيّة المجانيّة والتي يسهل استخدامها والاستفادة منها في العمليّةالتّعليميّة خاصة وأنه يمكن المتعلم من استعمال حاستي السّمع والبصر. ومن مميزاته انه يمكن أن يكون أداة تعليميّة فعالة (ما تعلق بالأبحاث أو العروض وغيرها).

م- ميديوم Medium

تأسس في عام 2012 على يد أحد مؤسسي تويتر إيفان ويليامز، وهو منصة التّدوين الأولى لروايّة القصص والتّجارب الشّخصيّة، لمن لديهم تجارب في العديد من المجالات ومنها ريادة الأعمال والعمل الحر والإدارة، وعلى عكس أغلب منصات التّدوين العالميّة، يتم تصنيف المحتوى أو المدونات في الموقع بحسب معاييرٍ مختلفةٍ، ومنها نسبة القراءة ومشاهدة المقال.

ن- تيك توكTik Tok

تيك توك هو شبكة اجتماعيّة لمشاركة مقاطع الفيديو الموسيقيّة القصيرة، يقوم النّاس وبخاصةً الشّباب الصّاعد؛ بتصوير فيديوات قصيرة يقومون فيها بتحريك شفاههم تناغمًا مع الأغنيّةالتي يريدون مع إدخال التّعديلات -إذا أرادوا- منهم من يستخدمه أيضًا بغرض تعليمي كبرامج الطّبخ وغيرها، وأقصى مدة للتصوير هي 60 ثانيّة.

كان تيك توك التّطبيق الأكثر تنزيلًا في العالم في الرّبع الأول من عام 2018، حيث تغلّب وقتها على وسائل الاتّصال الأخرى كالفيسبوك والانستغرام، واستحوذ تيك توك مؤخرًا على تطبيق ميوزكلي Musical.ly والذي هو شبكة اجتماعيّة لفيديوات موسيقيّة مماثلة لتيك توك، ولكن دُمجت معه مؤخرًا ليصبح تيك توك ميوزكلي.

و- فايبر Viber

يشبه فايبر تطبيقات المراسلة الاجتماعيّةالرّئيسيّة مثل واتساب أو مسنجر، إذ يسمح بإرسال الرّسائل والوسائط المتعددة، والملصقات وملفات GIF، والاتّصال الاعتيادي. كما يقدّم العديد من الفرص للشركات، مثلًا؛ في حال كنت رجل أعمال، سيكون فايبر الحل الأمثل لك لشراء

الإعلانات والتّرويج لعلامتك التّجاريّة، وعرض منتجاتك في قسم التّسوق وتقديم الخدمات للعملاء.

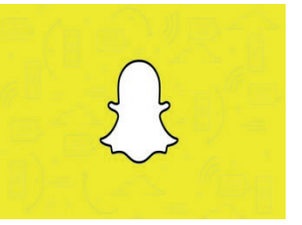

ي- سناب شات Snapchat

يركّز تطبيق سناب شات على مشاركة الصّور ومقاطع الفيديو القصيرة بين الأصدقاء، مع إمكانيّة إضافة فلاتر لطيفة، وتحديد زمن (ثوانٍ إذا أردت)؛ يختفي فيه المقطع من جهاز المتلقّي، وهو ما جعل من إضافة القصّة أمرًا شائعًا، والذي امتدّ وانتشر في النّهايّة على جميع وسائل التّواصل الاجتماعي وأهمها الانستغرام، إذ احتلّ انستغرام مكان سناب شات في ميزة إضافة القصص، وأصبح سناب شات محطّ اهتمام المسوّقين لعرض علاماتهم التّجاريّة فقط.

ح- بنترستPinterest

على عكس معظم وسائل التّواصل الاجتماعي، فإنّ تركيز بنترست ليس الحصول على تفاعل أو التّسليّة؛ إنما هي واحدة من المنصات الرّائدة في العالم لتبادل الأفكار والحصول على الإلهام في مواضيع مختلفة. يزور هذه المنصّة أكثر من 200 مليون شخص كل شهر، للحصول على منتجات جديدة ووصفات، واكتشاف وجهات جديدة، مقالات وغيرها الكثير. ليس ذلك فقط، بل تعتبر بنترست فرصة كبيرة للشركات والعلامات التّجاريّة التي تتطلّع إلى بناء جمهور متفاعل وجذب زيارات قيّمة إلى مواقعها على الويب.

خ- تلغرامTelegram

يشبه التّلغرام معظم تطبيقات التّواصل الاجتماعي، ويتميز بمدى أمانه وخصوصيته كتطبيق مراسلة. تستفيد العلامات التّجاريّة من تلغرام عن طريق برمجة روبوتات دردشة للنظام لتوفير الدّعم للعملاء، كما تستفيد من ميزة قناة التّلغرام (Telegram Channel)؛ والتي تبثّ عن طريقها الرّسائل إلى عدد غير محدود من العملاء.

ر- ريديتReddit

هو موقع الإنترنت الرّائد لنشر الأخبار عن مختلف المجالات، يحوي منشورات مختلفة ضمن تصنيفات متنوعة؛ إذ يمكن للمستخدمين من خلاله إرسال أسئلة ومناقشتها، وروابط وإدراج صور، والتّصويت أيضًا بالإيجاب أو الرّفض.

على الرّغم من أن ريديت عبارة عن مجتمع ضخم من المنتديات المخصصة (Subreddit)، إلا أنّ بإمكانك اختيار اهتمامك الذي تريد من التّصنيفات، حيث تُكتب مجالات ريديت الواسعة بالشّكل r/interest؛ مثلًا r/Sience المجال الخاص بالعلوم، وr/Food الذي يهتم بالتّغذيّة، وغيرها الكثير.

ز- الإنستغرام:: Instagram

هو أحد وسائل التّواصل الاجتماعي المخصصة لالتّقاط الصّور والفيديو ومن ثم تعديلها ومشاركتها بعد أن ينشأ الشّخص حسابًا على الموقع، كما أنه كل من لديه حساب على التّطبيق سيتمكن من رؤيّة المنشورات والتّفاعل معها، وأضيف إليه مؤخرًا ميزة المحادثات عبر الرّسائل النّصيّة والصوتيّة أيضا.

يُعرّف الإنستغرام بأنّه أحد منصات التّواصل الاجتماعي التي تُعنى بتحرير ورفع الصّور ومقاطع الفيديو من خلال منشورات يتمّ نشرها عبر حساب المُستخدِم على هذه المنصة، كما يسمح الإنستقرام بمُشاركة تلك الصّور ومقاطع الفيديو بسهولة عبر منصات التّواصل الاجتماعي الأخرى كالفيسبوك وتويتر.يعرض الإنستغرام محتوى حساب المُستخدِم بتنسيق موجز يُمكن استعراضه من خلال التّمرير إلى الأسفل، ويُمكن استخدام منصة التّواصل الاجتماعي هذه من خلال تطبيق خاص بالهواتف المحمولة أو من خلال موقع إلكتروني مُتوافرعلى شبكة الإنترنت. وتأسست منصة التّواصل الاجتماعي الإنستغرام في أواخر العام 2010م من قِبل كيفين سيستروم ومايك كرايغر، حيث قرّر كلاهما إنشاء تطبيق اجتماعي بسيط يتطلّب استخدامه خطوات بسيطة، ويُركّز بشكل أساسي على الصّور التي يتمّ التّقاطها من خلال الهواتف المحمولة، ليُقرّروا إطلاق تطبيق جديد يُعرف باسم

الإنستغرام (Instagram)؛ حيث جمع هذا الاسم بين كلمة (Instant) التي تعني كاميرا فوريّة وكلمة (telegram) والتي تعني برقيّة.كان تطبيق الإنستغرام تطبيقاً مُعدلّاً من تطبيق مُسبق عُرف باسم (Burbn) كان سيستروم قد طوّره في وقت سابق من حياته المهنيّة، وفي السّادس من شهر تشرين أول عام 2010م تمّ إطلاق التّطبيق بشكل رسمي عبر الهواتف التي تعمل بنظام تشغيل (iOS)، حيث تمّ تنزيل هذا التّطبيق بمجرّد إطلاقه من قِبل مئة ألف مُستخدِم، ولاقى الإنستغرام انتشاراً واسعاً ليُصبح عدد مُستخدِميه بحلول شهر كانون أول من نفس العام مليون مُستخدِم. واستمرّ تطبيق الإنستغرام بالنّجاح بشكل لافت إلّا أنّ مؤسّسيه فضّلوا إبقاء شركة الإنستغرام شركةً صغيرةً لا يزيد عدد موظّفيها عن بضعة عشرات الموظفين، ممّا شجّع شركة فيسبوك على شراء منصة الإنستغرام في ربيع عام 2012م مقابل صفقة ماليّة تبلغ بمجملها مليار دولار أمريكي توزّعت بين النّقد وسندات الأسهم، وفي الوقت الحالي يستخدم الإنستقرام ما يزيد عن مئة مليون مُستخدِم حول العالم.

وتجدر الإشارة إلى أنّ استخدام الإنستغرام من خلال موقعه الإلكتروني يُعتبر استخداماً محدوداً حيث لا يُمكن من خلاله القيام ببعض العمليات الأساسيّة المُتوافرة كتحميل الصّور والفيديوهات ومُشاركتها مع المُستخدِمين الآخرين حيث يكون ذلك مُمكناً فقط من خلال استخدام التّطبيق الخاص بالهواتف المحمولة.

ويُمكن استخدام تطبيق الإنستغرام بشكل مجاني عبر الهواتف المحمولةالتي تعمل بأيّ من نظامي تشغيل أندرويد أو (iOS)، ويُتيح التّطبيق لمُستخدِميه إمكانيّة مشاركة الصّور ومقاطع الفيديو مع المُستخدِمين الآخرين للتطبيق، كما يُمكن من خلاله التّعليق على المُشاركات المُختلفة للمُستخدِمين وإبداء الإعجاب بها، ويُسمح للأشخاص الذين تزيد أعمارهم عن 13 عام استخدام هذا التّطبيق عبر هواتفهم من خلال تحميله والتّسجيل كمستخدم جديد.

كما يسمح تطبيق الإنستغرام لمُستخدِميه إضافة علامات مرجعيّة على المنشورات التي يتمّ نشرها عبر الحسابات الخاصة بهم؛ كعلامات الهاشتاغ والعلامات الجغرافيّة المُستندة إلى الموقع، حيث يسمح هذا الأمر بفهرسة تلك المنشورات وجعلها قابلةً للبحث من قبل المُستخدِمين الآخرين للتطبيق، وتظهر المشاركات التي ينشرها المُستخدِم عبر الإنستغرام من خلال ما يُعرف بـ(Feeds) الخاصة بمُتابعي حساب هذا المُستخدِمويوفّر الإنستغرام ميزة جعل الملف الشّخصي الخاص بالمستخدِم خاصّاً (Private) بحيث لا يتمكّن الأشخاص غير المُتابعين لحساب المُستخدِم من مُشاهدة ما ينشره.

ميزات الإنستغرام:يوجد العديد من الميزات المُختلفة التي يُوفّرها تطبيق الإنستغرام لمُستخدِميه عدا عن تلك الميزات الأساسيّةالتي تتمثّل في نشر الصّور ومقاطع الفيديو، ومن أبرز هذه الميزات ما يأتي:

قصة الإنستغرام (Instagram Story): وهي خاصيّة عرض يُمكن للمُستخدِم من خلالها عرض صور، ومقاطع فيديو، أو حتّى روابط لمواقع خارجيّة، أو ردود تفاعليّة عبر حسابه الشّخصي لمدّة يوم واحد فقط، وتكون القصة الخاصة بمُستخدِم مُعيّن ظاهرةً على شكل حلقة مُتوهجة فوق صورة ملفه الشّخصي الخاص بحساب الإنستغرام، ويُمكن للمُستخدِمين الآخرين استعراض هذه القصة من خلال النّقر على تلك الحلقة.

فلاتر الإنستغرام (Instagram filters): وهي أحد الميزات الأساسيّةالتي تجعل تطبيق الإنستغرام مُفضّلاً لدى عدد كبير من المُستخدِمين، حيث يُمكن تطبيق الفلاتر على الصّور التي يتمّ التّقاطها وذلك لمنحها مظهرا مُميّزا، ويكون ذلك من خلال إضافة تلك الفلاتر لتأثيرات بصريّة على الصّور ومقاطع الفيديو لتحسينها.

الرّسائل المُباشرة (Direct Messages): أو ما يُشار إليه باختصار (DM) حيث تُمكّن هذه الخاصيّة مُستخدِمي الإنستغرام من إرسال رسائل خاصة بين مُستخدِم وآخر.

البث المباشر للإنستغرام Instagram) (Live: وهي خاصيّة يُمكن للمُستخدِم من خلالها عمل بث مباشر عبر القصة الخاصة به، بحيث يُمكن للمُستخدِمين الآخرين مُشاهدة هذا البث المُباشر والتّفاعل معه من خلال التّعليقات أو حتّى عبر انضمام المُستخدِمين إلى البث المباشر.

تلفزيون الإنستغرام (Instagram TV): وهو ما يُشار إليه باختصار (IGTV)وهي ميزة مُتوافرة في تطبيق الإنستغرام لعرض مقاطع الفيديو التي تزيد مدّتها عن دقيقة واحدة والتي قد تصل إلى ساعة كاملة، وتوفير أدوات تُمكّن المُستخدِم من التّحكّم بعرض الفيديو كأداة الإيقاف المؤقت.

* **تعريف تويتر (Twitter):** موقعَ تواصل اجتماعيّ يسمح للمستخدمين بتبادل الأفكار، والرّوابطوالصّور،

والفيديو، كما يعرض الأخبار المختلفة من أيّ مكان في العالم، حيث إنّ كلّ مشاركة في تويتر تسمّى تغريدةً (Tweet)، ويمكن أن تحتوي على صورةأو فيديو، أو كلمات.ومن الجدير بالذكر ضرورة امتلاك بريد إلكترونيّ بالإضافة إلى الاتّصال بالإنترنت للتسجيل في تويتر. وتمّت برمجة موقع تويتر باستخدام لُغة تُدعى (روبي (Ruby) عام 2006م من قبل إيفان ويليامز ((Evan Williams) وبيز ستون (Biz Stone)، في البدايّة كان تويتر برنامج رسائل قصيرة مجّانيّة (SMS)، وقد افتقر تويتر في بدايته إلى الإيرادات التي يمكن تحصيلها من الإعلانات أو رسوم العضويّة، إلا أنه في عام 2009م لُوحظ زيادة عدد الزّوار بنسبة ٪1300، وفي عام 2010م تمّت إضافة خدمة التّغريدات المروجةPromoted Tweets) وهي إعلانات ستظهر في نتائج البحث لتصبح المصدر الأساسيّ لإيرادات تويتر.

استخدامات تويتر:

* يُمكن لمستخدمي تويتر كتابة التّغريدات ونشرها والتي يُمكن أن يصل عدد حروفها إلى 280 حرف، كما يُمكن إضافة ما يصل إلى 4 صور بالإضافة إلى الفيديوهات والصّور المتحركة.

* ويُمكن للمُستخدمين حذف التّغريدات بعد كتابتها. كما يُمكن لمستخدمي تويتر استخدام أيقونة إعادة التّغريد أو الرّيتويت (Retweet)، وهي خاصيّة تُمكن المُستخدمين من نشر تغريدات الآخرين وإضافة تعليقاتهم عليها، كما يُمكن حذف الرّيتويت وإلغاءها عند الحاجة.

* يُمكن لمستخدمي تويتر مُتابعة الأشخاص المُهمّين بالنّسبة لهم ومُتابعة كلّ التّحديثات المُتعلقة بهم. يُمكن لمستخدمي تويتر البحث عن تغريدات الأصدقاءأو مشاهير أو قادة سياسيين عن طريق البحث عن الكلمات المُفتاحيّة أو الهاشتاغويُمكن التّحكم بنتائج البحث وفلترتها للتأكد من خلوّها من المحتوى الحساس.

* يمكن إرسال رسالة خاصة مباشرةً للأشخاص المتابَعين على موقع تويتر، إذ لا يُمكن تلقّي رسائل مباشرة سوى من المتابعين، ومع ذلك يُمكن تغيير هذا الخيار من خلال الإعدادت، وذلك عن طريق وضع علامة في مربّع خيار: (تلقّي الرّسائل من أي شخص) Receive) (Direct Messages from anyone، حيث يمكن إرسال رسالة تصل إلى 1000 حرف لكلّ رسالة. يمكن لشخصٌ ما أن ينشر معلومات شخصيّة خاصّة بغيره، مثل: رقم الهاتف الشّخصيّ، وعنوان المنزل، ومعلومات بطاقة الائتمان، فإذا كان هنالك رغبة في إزالتّها فيجب مراجعة إدارة موقع تويتر، كما أنّه يمكن انتهاك قوانين وسياسة تويتر، وفي هذه الحالة يتمّ تقديم تقرير للإدارة ليقوموا بالتّحقيق بشأنه، حيث سيتمّ إغلاق الحساب مؤقتاً لحين إزالة تلك المعلومات.

* **التّرينـد:** يُمكن تعريف التّريند (trend) في تويتر على أنّه موضوع رائج ومُتداول في النّقاشات في وقت مُعيّن على تويتر، فقد يكون التّرند كلمةً أو اسماً أو عبارة مُعيّنة مسبوقة برمز الهاشتاغ (#)، وكلّ منطقة جُغرافيّة تملك ترند خاصّ بها وعند الضّغط على تريند مُعيّن ستظهر نتائج البحث المُتعلقة بتلك الكلمةأو العبارة، حيث يتضمّن البحث جميع التّغريدات التي تضمّنت ذلك التّرند، ويُحدد التّريند عدّة عوامل هي: اهتمامات المُستخدم والأشخاص الذين يُتابعهم وموقعه الجغرافيّ، بالتّالي سيتمكّن المَستخدم من مُتابعة الأخبار والأحداث العالميّة والمحليّة من خلال التّرند.

* **الهاشتاغ:** يُكتب الهاشتاغ باستخدام الرّمز (#) والذي يُستخدم لفهرسة الكلمات الرّئيسيّة بالتّالي يُسهل ظهورها في نتائج البحث مما يُتيح للناس مُتابعة المواضيع المُهمّة بالنّسبة إليهم، وعند الضّغط على ذلك الهاشتاغ تظهر جميع التّغريدات التي تتضمّن ذلك الهاشتاغ.

*** ص-الفايس بوك (Facebook):**

بدأ كشبكةٍ اجتماعيّة في عام 2004 من قبل مؤسسه مارك زوكربيرغ، وتابعت شركة فيسبوك النّمو لتتحول إلى واحدةٍ من كبرى الشّركات التي تستحوذ على معظم تطبيقات التّواصل الاجتماعي في العالم، وهو موقع تواصلٍ اجتماعيٍّ يسمح بمشاركة الصّور والمنشورات والتّعليقات والأخبار المحليّة والعالميّة، بالإضافة إلى وجود الدّردشة والألعاب وبث الفيديو المباشر، وبحسب إحصائيّة سابقةٍ، وجد في نهايّةعام 2018 على فيسبوك حوالي 2.32 مليار مستخدم في جميع أنحاء العالم، والموقع دائم التّوسع والتّطور.

يعرف على أنّه موقع إلكتروني مجاني عبر الإنترنت خاص بالتّواصل الاجتماعيّ، حيث يتمكّن المُستخدِم من خلاله من التّواصل والتّفاعل مع الأصدقاء والعائلة، والزّملاء، أو أيّ مُستخدِم آخر للموقع، حيث يسمح

هذا الموقع للمُستخدِمين بإنشاء ملفات شخصيّة تُحمّل من خلالها الصّور ومقاطع الفيديو وتُشارك عبر الموقع، وإرسال الرّسائل واستقبالها، بالإضافة إلى التّحدّث عما يفعله المُستخدِم، وغيرها العديد من الخدمات الأُخرى التي يوفرها هذا الموقع. وتجدر الإشارة إلى أنّ اسم الفايس بوك جاء من اسم المُستند الورقي الذي يتضمن أسماء وصور الطّلبة الجدد الوافدين إلى الجامعة والذي يُساعدهم على التّعرف على بعضهم البعض.

تاريخ نشأة الفايس بوك:

تعود فكرة تأسيس موقع الفيس بوك إلى مارك زوكربيرغ طالب السّنة الثّانيّة في جامعة هارفارد، وذلك عندما أنشأ زوكربيرغ خدمة فيس ماتش (Facemash) التي تُتيح لطلاب جامعة هارفارد التّصويت على جاذبيّة زملائهم في الجامعة، ولأنّ هذه الخدمة انتهكت بعض سياسات الخصوصيّة في الجامعة أُغلقت بعد يومين فقط من إطلاقها، وعلى الرّغم من الفترة البسيطة التي أُطلقت فيها هذه الخدمة إلّا أنّها شهدت إقبالاً كثيفاً من طلاب الجامعة. قرر مارك زوكربيرغ عقب عدم نجاح تجربته الأولى إطلاق موقع إلكتروني خاص بالتّواصل الاجتماعي بين طلاب جامعة هارفارد، وفي شهر شباط من العام 2004م أُطلق الموقع الإلكتروني (www.thefacebook.com) الذي أتاح لطلاب الجامعة فرصة نشر صور خاصة بهم بالإضافة إلى إمكانيّة نشر تفاصيل أُخرى مُتعددة عن الطّلاب كجداولهم الدّراسيّة والنّوادي التي ينتمون إليها، وبشكل سريع انتشرت شعبيّة الموقع الجديد وسُمح لطلاب جامعات أخرى كجامعة ييل وجامعة ستانفورد بالانضمام إلى المنصة الجديدة. وصل عدد المشاركين في موقع الفيس بوك بحلول شهر حزيران من عام 2004م إلى ما يزيد عن 250 ألف طالب من جامعات مُختلفة، أمّا في نهايّة العام وصل عدد المستخدمين إلى ما يُقارب مليون مُستخدِم نشِط، ليُصبح الفيس بوك مُنافساً لموقع ماي سبيس (Myspace) الذي كان يُعتبر موقع التّواصل الاجتماعي الأشهر في ذلك الوقت. أصبح الفيس بوك في عام 2006م موقعاً مُتاحاً للاستخدام من قِبل أيّ مُستخدِم عبر الإنترنت بشرط أنّ يتجاوز عمره 13 عاماً وبحلول عام 2009م أصبح الفيس بوك أكثر مواقع التّواصل الاجتماعي استخداماً حول العالم، حيث وصل عدد مُستخدِميه خلال الرّبع الأول من العام 2019 مإلى ما يزيد عن 2 مليار مُستخدِم نشِط، ويجدر بالذكر أنّ ملكيّة موقع الفيس بوك حالياً تعود إلى شركة فيس بوك الأمريكيّة التي يقع مقرها في حديقة مينلو في ولايّة كاليفورنيا.

الخدمات الأساسيّة في الفيس بوك:

يتضمن الفيس بوك مجموعة من الخدمات الأساسيّة، ومنها ما يأتي:

* **الملف الشّخصي (Profile):** وهو الجزء الذي يتضمّن كل ما يتعلق بالمُستخدِم لحساب الفيس بوك، حيث يشمل الاسم الخاص بالمُستخدِم، وصوره، ومكان عمله، ومؤهله العلمي، وغيرها الكثير من المعلومات الشّخصيّة الأخرى.
* **آخر الأخبار (Newsfeed):** وهو الجزء الذي تظهر خلاله المُشاركات التي ينشُرها أصدقاء المُستخدِم، بالإضافة إلى تحديثات الصّفحات التّجاريّةالتي يشترك بها المُستخدِم.
* **الجدول الزّمني (Timeline):** وهو السّجل الشّخصي لكل ما قام المُستخدِم بمشاركته ونشره، بالإضافة إلى المُشاركات التي تفاعل معها المُستخدِم، ويجدر بالذكر أنّه لا يُمكن رؤيّة آخر مُشاركات الأصدقاء في الجدول الزّمني.
* **الحالة (Status):** أو ما يُشار له أيضاً بالمنشور (Post؛ وهي الخدمة التي يتمكن من خلالها المُستخدِم من نشر صورة، أو نص، أو مقطع فيديو، أو حتى نشر موقع مكان مُعين، عبر حسابه الشّخصي.
* **الأصدقاء (Friends):** وهم المُستخدِمون الآخرون الذين أرسل لهم المُستخدِم طلب صداقة ووافقوا عليه، أو الأشخاص الذين أرسلوا طلبات صداقة ووافق عليها المُستخدِم، وتجدر الإشارة إلى أنّه يتعذر على الحساب الشّخصي عبر الفيس بوك أنّ يكون لديه أكثر من 5000 صديق.
* **المجموعات (Groups):** وهي خدمة يُنشأ من خلالها مجموعة تستضيف عدداً من المُستخدِمين، بحيث يتشارك أفراد هذه المجموعات التّفاعل فيما بينهم على مواضيع تُهم أفراد المجموعة، وتُدار كل مجموعة من قِبل مُشرف أو أكثر.
* **الصّفحات (Pages):** وهي خدمة خاصة بالأعمال حيث تُشبه إلى بحد كبير الملف الشّخصي الخاص بالمُستخدِم العادي إلّا أنّ الصّفحة يُمكن استخدامها لإعداد الحملات الإعلانيّة.
* **القصة (Story):** وهي خدمة يتمكن من خلالها مُستخدِم الفيس بوك من التّواصل مع الأصدقاء والتّفاعل معهم عبر النّشر من خلالها، إلّا أنّ القصص تمتاز بأنّه يُمكن رؤيّة محتواها لمدة يوم واحد فقط، حيث تختفي تلقائياً بعد ذلك.

مزايا الفيس بوك: يُوجد العديد من المزايا التي يتمتع بها موقع الفيس بوك، ومنها ما يأتي:

* إنشاء حساب مجاني بطريقة سهلة.

إمكانيّة ضبط إعدادات الخصوصيّة بحيث يُحدد الأشخاص المسموح لهم برؤيّة المحتوى الذي ينشره المُستخدِم.

* إجراء الدّردشة التّفاعليّة بين المُستخدِمين.

* تحميل الصّور التي تُشارك عبر الموقع.

* إضافة التّعليقات على مُشاركات المُستخدِمين الآخرين.

* استخدام صفحات الفيس بوك كوسيلة للتسويق عبر وسائل التّواصل الاجتماعي.

* إمكانيّة نشر مقاطع فيديو بخاصيّة البث المُباشر.

* حظر أيّ محتوى ضار يُنشر من خلال الموقع، حيث يُبلّغ عن المُستخدِم الذي ينشر هذا المحتوى ويُحظر من قِبل إدارة الموقع.

* توافر الموقع بلغات مُتعددة تصل إلى 37 لغة مُختلفة.

* الوصول إلى بعض الألعاب الإلكترونيّة وتشغيلها.

نستنتج من خلال التّعريفين أن الفايسبوك عبارة عن شبكة اجتماعية نشأت في الولايات المتحدة الأمريكية سنة 2004من طرف مارك زكاربيرج «Mark zeckerberg» وهو موقع على الأنترنت يقوم على التّعرفوالاتصال مع أناس وأصدقاء من مختلف أنحاء العالم، وإرسال الرّسائلوالصّور إليهم للتعرف والتّقرب والتّفاعل معهم وبفضل هذا الموقع أصبح العالم قريّة صغيرة.

التَواصل باستخدام المختصرات اللَغوية عبر الفايسبوك، وقد كان سبب اختيارنا لهذه العينة تبيان طريقة وخصائص استعمالها في الموقع، كما تحتوي المدونة المعتمدة لإجراء البحث على مصطلحات لغوية جمعناها من الفايسبوك عبر محادثات ودردشات جرت بين أصدقاء بمختلف اللَغات منها اللغة الفرنسية، العربية والأمازيغية وكذا الإنجليزية.

وتعتبر لغة الشّات والاختصارات لغة خاصّة بجماعة معينة تخص أغلب الشباب ويتميزون بها ويتقنونها لاحتوائها على أكبر قدر من المعلومات بطريقتهم الخاصة، وتعتبر شفرة سرَية بين الشَباب ومستخدمي التّكنولوجيا الجديدة، حيث تسهّل عليهم الأمر في الدّردشة.

ومن أهمّ الخصائص التي تحققها لغة الاختصارات «السّرعة»، لأنّ العصر الحاضرومتطلباته الحديثة أنشأبجيله الجديد لغة جديدة نظرا لانتشاره الواسع، فأغلبية الشّباب تحتّم عليهم السّرعة الخلط بين الحروف والرّموز والأرقام.

ومن دوافع استخدامهم لهذه المختصرات: تعوّد الشباب على استعمالها باعتبارها لغة سلسة وبسيطة ومتداولة لا تتطلب الكثير من الوقت لكتابتها، في حين هناك من يعتبره سببا تقنيا خاصا بلوحة المفاتيح كونها لا تحتوي على اللغة العربية دائما أو عدم تواجدها من الأصل في الجهاز المستعمل، كما تسهّل المختصرات اللغوية التّعبير عن آرائهم واتجاهاتهم الفكرية التي لا يستطيعون التعبيرعنها صراحة في المجتمع.

وقد قمنا باختيار موقع «الفايسبوك» نموذجا، لأنه الموقع الأكثر استعمالا وتداولا للدردشة والشّات والأكثر استخداما للألفاظ المختصرة وقمنا بدراستها من خلال التقاطنا لصور المحادثات التي جرت بين الأصدقاء، والأقارب، رغم اختلاف الجنس والشخص والمستوى.

أن استخدام المختصرات اللغويّة هي إحدى الوسائل الفعّالة في مجال التّواصل اللغوي، ولبلوغ الغايّة تستخدم مجموعة من الأدوات لعلّ أبرزها اللّغة سواء كانت مكتوبة، أم بواسطة رموز وملصقات...، حيث يتم من خلالها التّعبير عن آراء وأفكار أو أحاسيس تختلج من ذواتنا للوصول إلى الأهداف المنشودة....

ونظرا لهذه الأهمّية البالغة في إيصال رسائل مختلفة إلى الطّرف الآخر، فإن الاختصارات هي من أبرز الوسائل والطّرق، وعليه احترنا مجموعة من المحادثات (conversation) والتي تشكّل مادة البحث (المدونة)، حيث قمنا بالتّقاط رسائل المحادثة (capture d'écran) لتسجيل كل ما هو لغوي وغير لغومن إشارات وملصقات معبّرة عن الفرح والحزن وغير ذلك من الرّموز والإيماءات.

إنّ الأغلبية يتواصلون بالاختصارات اللّغوية بنسبة مرتفعة بصفتها اللّغة الجديدة في عملية التواصل لاحتوائها على حروف أقل معوضة برموز وأرقام يتم كتابتها بسرعة وكونها وليدة المواقع. والجيل الشّبابي الجديد يحدّدون الاختصار إمّا بالعربية المفرنسة (العربية المكتوبة بالحروف اللّاتينية) أو(الفرنسية المعربة أو القبائلية المفرنسة)، وهي اختصار للوقت والجهد ومفهومة من الطّرف الآخر.

المختصرات باللّغة العربية:

معناها بالعربية الفصحى	المختصرات باللّغة العربية المفرنسة
سلام	SLm
لا بأس	Lbs
إن شاء الله	Nchl
عيدكم سعيد	Sa7a 3idkm
أنا أعتذر	Sem7ili
لا أستطيع	Man9derch
لا تقلقي	Mat9L9iche
ذاهبة	Ray7a
قريبا	9rib
سأصل	naL7a9
تجدينني	Tel9ayni
لماذا	wa3lach
البارحة(أمس)	Lbare7
لدي	3andi
لايهم	Ma3lich
سنعوضها	N3awdhoha
أعرضك عندي	N3ardek 3end
شكرا حبيبتي	Sahite ala7biba
بصحتك	Bs7tk
بصحتكم	Bs7tkm
حبيبتي	Hbiba
مساء النور	Massa1nor

المختصرات باللغة الفرنسيّة:

معناها بالعربيّة	معناها بالفرنسيّة	المختصرات باللغة الفرنسيّة
كوكو	Coucou	Cc
إلى	Pour	Pr
متى	Quand	Qnd
لكن	Mais	Ms
أنا في انتظارك	Je t'attends	J t 'att
غدا	Demain	1m2
جميع	Tous	Ts
من فضلك	s'il vous plait	Svp
هذا جيد	c'est bon	C bn

إيداع	Dépôt	Depo
من	De	2
أين أنت ؟	Tu es ou ?	T ou ?
دقيقة	Minute	Min
ليس	Pas	P
آسف	Desole	Dsl
أسبوع	Semaine	Semne
التّالي	Prochain	Prchn
طارئ	Urgent	Urg
طبيب	Docteur	Dr
بالضّبط	Exactement	Extmnt
لماذا ؟	Pourquoi	Prk
أنا	Moi	Mwa
نفس الوقت	Meme temp	Mm tps
أنا	Je suis	Chui

المختصرات باللغة الأمازيغيّة:

معناها بالعربيّة	معناها بالأمازيغيّة	المختصرات باللغة الأمازيغيّة المدونة بالفرنسيّة
العاقبة للخدمة	لعقوبة غوخديم	La39ouba ghoxdim
هذا هو الأهم	ذوينا إذصح	Dwina idssa7
لماذا ندرس ؟	إيواش إنقرا	Iwach inqara
من أجله	علاجاليس	3lajalis
إذا تطورت البلاد	ماثقعذ ثمورث	Mat9a3ad tmurth
اعمل أو لا تعمل	أخذم نغ قيم	Xdem negh qim
الدّفع	لخلاص	Lexlass
قليل	يعيا	Ye3ya
لا تتعب	أتنعتاب أرا	Otan3atabara
الرّياح	أوبحري	Obe7ri
أشتغل	أذخذمغ	Ad5admagh
العمل	لخدمة	Lxedma
جميعا	أجماعين	Ajma3ine
سنحافظ عليها	أنحاذر فلاس	Aten7ader
بخير	بخير	B5ir
نسيت	حقا	7e9a
عزيزتي	ثاعزيزثيو	Ta3ziztiw
مرحبا	أزول	Azul

يا شاطرة	أثوحريشث	Ato7richt
ماذا تفعلين ؟	أشو ثخدمط	Acho ʕadmt i3ni
تقرئين	تقراط	T9erat
لا أستطيع الانتظار	غصبغ	Xesvagh

11 – واقع استخدام اللغة العربيّة في وسائل التّواصل الاجتماعي كالواتساب والفايبر والفيسبوك:

حسب بعض الدّراسات فإن استخدام اللغة العربيّة في وسائل التّواصل الاجتماعي قد أصبح في تزايد مستمر وعلى سبيل الذكر فإن الويكيبيديا تنشر مقالات باللغة العربيّة، وأيضا تم توفير محتوى موقع اليوتيوب بـ61 لغة منها اللغة العربيّة وشرع في تعريب أكبر تطبيق للمحادثات الفوريّة في العالم «whats app» سنة 2013 وإعلان عن إطلاق نسخة عربيّة «لتويتر» وهذا ما تؤكده دراسة أخرى حول اللغة العربيّة ووسائل التّواصل الاجتماعي التّأثر والتّأثير، حيث «لا يمكن إغفال الجهود الفعالة التي تمتاز بالكفاءة عند بعض المواقع الالكترونيّة العربيّة والتي أسهمت في المحافظة على صورة اللغة العربيّة عن طريق تقديمها وتوفيرها محتويات رقميّة باللغة العربيّة في مختلف المجالات الفكريّة مما أدى إلى بناء محتوى عربي ساعد على تعزيز وجود اللغة العربيّة في ظل تقنيات عصر التّكنولوجيّة الحديثة».

وبالمقابل يجب الانتباه إلى بعض الأمور فيما يخص استعمال اللغة العربيّة في مواقع التّواصل الاجتماعي فقد خلصت دراسة إلى كشف ذلك الإهمال الكبير في الكتابة باللغة العربيّة الصّحيحة في هذه الشّبكات خاصة من النّاحيّة الإملائيّة أو كما يسميها بعضهم اللغة الأنترنينيّة تلك العربيّة التي أدخل عليها بعض الرّموز ليتمكن الشّباب

من استعمالها على الفيسبوك خاصة أو مختلف المواقع الأخرى، هذا النّوع من اللغة سماه اللسانيون والباحثون بمصطلح (العربيزي ARAB-EZ) وهي كتابة اللغة العربيّة الفصحى والعاميّة بحروف لاتينيّة مع الخلط بينها وبين اللغات الأجنبيّة وأطلق عليها آخرون مصطلحات كثيرة منها (الفرانكو آراب والعربيزي والاجلو عربي، والأرابيش).

بعض النّماذج لاستعمال اللغة العربيّة في الواتساب والفايبر بالطّريقة السّليمة أو باستعمال العربيّة بالحروف اللاتينيّة أو اللغة الانترنيتيّة كما أشير إليها سابقا:

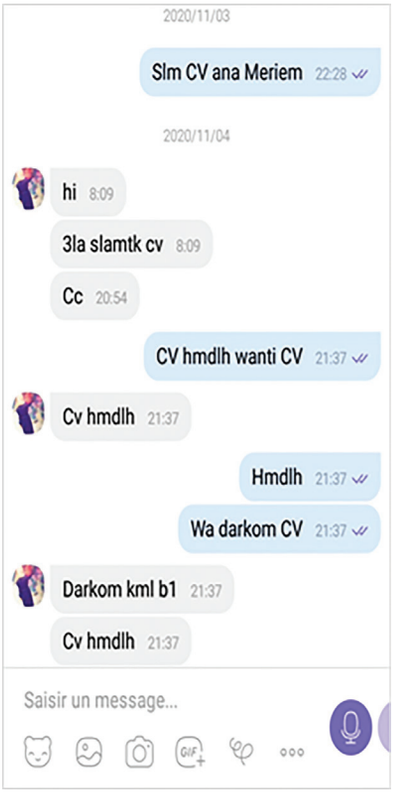

• د. تسعديت لحو ل
د. فتيحة بوتمار
جامعة بجاية

المصادر

1. أبو القاسم سعدالله:

* أحمد عمر عبد الرّسول، دور شبكات التّواصل الاجتماعي في رفع مستوى الوعي باللغة العربيّة لدى طلاب الجامعات السّودانيّة، كتاب الأبحاث (الكتاب الأول) المؤتمر الدّولي الثّامن للغة العربيّة، 11 – 13 أبريا 2019 الموافق 6 – 8 شعبان 1440هـ.
* إسماعيل أمين نواهضة، مأمون إسماعيل نواهضة، «ضوابط استخدام وسائل الاتّصال الحديثة»، أعمال المؤتمر العلمي الدّولي السّنوي الرّابع لكليّة الشّريعة (وسائل التّواصل الاجتماعي وأثرها على المجتمع نظرة شرعيّة اجتماعيّة قانونيّة)، جامعة فلسطي
* صافيّة كساس، الاستعمال اللغوي في وسائل التّواصل الاجتماعي عند الشّباب العربي الواقع والأسباب والآثار، مجلة إشكالات في اللغة العربيّة والأدب، مجلد 08، ع 03، 2019، المركز الجامعي لتامنغست، الجزائر.
* رقاد حليمة، آثار استخدام التّواصل الاجتماعي على الممارسة اللغويّة للطلبة الجامعيين –الفيسبوك نموذجا– دراسة على عينة من طلبة جامعة وهران، أطروحة دكتوراه، إشراف العربي بوعمامة، كليّة العلوم الاجتماعيّة، جامعة وهران.

اللّغة العربيّة ورقمنة الوثائق الإدارية في الجزائر

د. مختارية بن عابد

«أيها الإخوان: لو لم تكن اللّغة العربيّة لغة مدنية وعمران، ولو لم تكن لغة متّسعة الآفاق غنيّة بالمفردات والتراكيب، لما استطاع أسلافكم أن ينقلوا إليها علوم اليونان وآداب فارس والهند ...، لو لم تكن اللّغة العربيّة لغة عالمية لما وَسعتْ علومَ العالم، وما العالم إذ ذاك إلاّ هذه الأمم التي نَقل عنها المسلمون».

هذه كلمات قالها إمامنا العلامة (محمد البشير الإبراهيمي) عن اللّغة العربيّة التي اتّسعت لمختلف العلوم في وقت مضى؛ لأنها لغة عالمية علميّة ذات وزن حضاريّ بالغ، فما الذي سيخلع عنها هذه الصفة اليوم، أو ما الذي سيجعلها ضيّقة قاصرة متخلّفة كما يدّعي الكثيرون، واللهِ لا شيء ولا أحد يمكن أن يمَسّها بسوء فهي لغة محفوظة من خالقها سبحانه وتعالى، وإنّما الواجب علينا نحن أبناؤها أن نبلّها ببَلالها، وأن نرعى حقّها في كل منسوب إليها، وأن نخّف لنجدتها كلّما مسّها ضُرّ أو حَزبها أمر؛ ففي المحافظة عليها محافظة على جنسية ودين وحضارة وهُويّة، وهي فعلا تعاني وتئنّ في زماننا هذا، الذي يشهد فيه العالم تحوّلات علمية ومعلوماتية وتكنولوجية جذرية تقتضي العمل المستمر والدؤوب لمواكبة هذا التطور السريع، وإعادة النظر في خطط التنمية على مستوى مختلف الأصعدة والميادين، وفي ظل كل هذه التحولات، تبقى المفارقة في نظرة العربي إلى لغته؛ فهي لغة البيان والبديع، لغة المجاز العبقري القادر على صناعة الجميل الفائق، ومع ذلك يتهرّب منها ويتركها وراءه عندما يتعلق الأمر بالعلوم والتكنولوجيا، ويتقدّم مسرعا نحو اللغات الأجنبية ولا سيما اللغة الإنكليزية التي يزداد عدد مستخدميها يوما بعد يوم، وكأن العربية ليست جديرة بتحمّل متطلبات العِلم المحسوس، وعاجزة عن خوض غمار تقنيات العصر الحديثة، مع العلم أنها لغة قادرة على التكيّف مع كل جديد، وبها من الإمكانات والطاقات ما يؤهّلها لذلك أكثر من أي لغة أخرى، على أن هذا لم يعد من الإشكالات المطروحة ولا ما يجب مناقشته على كل حال، بل الأهم هو ما ينبغي عمله من أجل جعل هذه اللغة الراقية أكثر فاعلية واستعمالا في ظل هذه التحدّيات والرهانات، ولذلك لابد لنا من الإسراع والتشمير على السّواعد لنجدتها والنهوض بها وإعادتها لمكانتها الحَقّة، وترقية استعمالها وتحديث مضامينها لتواكب حركية التطور العلمي والتكنولوجي الحاصل، وتشارك في الثورة الرقمية المعلوماتية الواقعة في العالم.

والحقيقة أن واقع اللغة العربية اليوم ما هو إلا انعكاس للوضع الذي وصلت إليه الأمة العربية الإسلامية، وصورة معبّرة عن الحالة التي آلت إليها في وقتنا الراهن، والتي تعدّ هذه القفزة المعلوماتية والتقنية الملحوظة والمتسارعة من الأسباب المؤدّية لذلك، فلا أحد ينكر إيجابياتها ومزاياها المذهلة، ولكن في المقابل لا يمكن أبدا إنكار حقيقة أنها «السلاح الأكثر سطوة وفاعلية، كونه بات يخترق العقول والأذهان ويعيد هيكلتها وبرمجتها، ليؤسّس ملامح ثقافية ومعرفية وأيديولوجية جديدة متجانسة والعولمة المراد تطبيقها، مع تجاهل كامل ذاكرة الشعوب ولغتها وتاريخها وحضارتها، ومناهجها المدرسية والجامعية والثقافية، وأخلاقياتها القيمية والسلوكية كأفراد ومؤسسات اجتماعية؛ لأنها لا تخضع لرقابة، وتدخل البيوت والعقول بلا استئذان، ومرتبطة كلية بأيديولوجية الفئات الأقلية المالكة والمسيطرة»، ولذلك يعدّ الاهتمام بمعالجة مشكلات اللغة العربية، وبحث قضاياها للخروج من الدائرة التي تتراجع فيها أهميتها لدى فئات واسعة من أبنائها، والوقوف أمام ما يواجهها من تحدّيات ورهانات، جزءا لا يتجزأ من الاهتمام بقضايا البناء

الحضاري للعالم العربي الإسلامي، وحفاظا على هُويّة وشخصية هذا العالم، حيث يمكن تلخيص جملة من هذه التحدّيات والمعيقات التي تواجه العربية في ظل عصر التقنية والرقمنة في النقاط التالية:

– انتشار الأميّة، وخاصة الأميّة المعلوماتية بين أفراد المجتمعات العربية.

– ضعف البنية التحتية لشبكات الإنترنت، وضعف المستوى المادّي لغالبية الشعوب العربية، وهذا يمنعها من الاستفادة والحضور في العالم الرقمي الذي يُنظَر إليه في المستويات الاقتصادية الدنيا على أنه ترفٌ فكري.

– ضعف حركة النشر وغياب شبكات التوزيع.

– انتشار ما يُعرف بـ (franco–arabe) وهو كتابة اللغة العربية بحروف أجنبية، وهذا قد جنى على اللغة العربية كثيرا.

– مسألة التدقيق الآلي وشيوع الأخطاء، فمعظم محركات البحث عندها خوارزميات ثابتة تتعلق بشيوع الاستخدام بغض النظر عن السلامة اللغويّة، فكلما كان اللفظ مستخدماً أكثر تعاملت معه على أنه هو الصحيح.

– غياب دور الجامعات والمؤسسات الأكاديمية ومراكز البحث في رقمنة المخطوطات والدراسات والبحوث العلمية التي تتم على مستوى هذه المؤسسات.

– غياب الموسوعات والمصادر العربية المفتوحة أو ما يُسمى OCMO وهو اختصار للعبارة الإنكليزية Online Courses Massive Open وهي مواقع متخصصة في كل فرع من العلوم، وفيها معلومات موثّقة، وغياب هذه الموسوعات يزيد الفجوة المعرفية ويُتيح المجال لانتشار المعلومات المغلوطة.

– الفجوة الكبيرة بيننا وبين العالم المتقدم في العلوم الحديثة، وعدم تمكّننا من مسايرة تطوراته ومستجدّاته، وما يُصاحب ذلك من مصطلحات وتعابير جديدة.

– الحاجة الماسة إلى حوسبة اللغة العربية ورقمنتها، وتحليلها بشكل عملي دقيق، مما يسهّل استعمالها تقنيا على الحاسب، فالمعالجة الآلية تتطلب توفّر «مجموعة من الوسائل والتقنيات تتعلق باللسانيات، المعلوماتية، الرياضيات (الجبر، المنطق، الإحصاء،...)، الذكاء الاصطناعي، علم النفس التجريبي...، فاللسانيات النظرية تعطي وصفا شاملا للكائنات اللغوية تسهل استغلالها من طرف اللسانيات الحاسوبية، أما الحاسوبيات النظرية فتسمح باختيار الحل الأمثل في الخوارزميات وبرامج المعالجة، بينما تعرف الرياضيات الخصائص الشكلية لوسائل المعالجة والنظريات اللغوية، فيما يسمح الذكاء الاصطناعي بإيجاد الطرق المناسبة لتمثيل المعلومة».

– الحاجة إلى بحوث في كيفية تصميم وصناعة المعاجم لتوليد المصطلحات واستحداثها وتوحيدها؛ إذ لابد من صناعة معاجم تتمشى مع متطلبات الإنسان المعاصر الذي تُستجدّ له مسائلُ وأشياء واختراعات تحتاج إلى مصطلحات ومفردات جديدة للتعبير عنها.

– اختلاف طبيعة اللغة العربية عن اللغات الأجنبية الأخرى، من حيث كتابتها من اليمين إلى اليسار، ومن حيث اعتمادها على (الجذر) بدل التسلسل الأبجدي، مما قد يجعل البحث في مفرداتها ومضامينها صعباً خصوصا على غير المتكلّمين والناطقين بالعربية.

– وجود إشكاليات ترجمة المصطلحات وتعريبها، ودورها في التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وخاصة إشكالية توحيد هذه الترجمات.

فكل ذلك وأكثر قد أثّر بشكل كبير على نسبة المحتوى الرقمي العربي في الشابكة الذي لا يتوافق وقيمة هذه اللغة العظيمة ولا يتناسب مع أهميتها ولا يستطيع احتواء إشعاعها الثقافي التاريخي كلغة أولى للعلوم والمعارف، حيث قدّر حجم المحتوى العربي الرقمي المنشور على صفحات شبكة الإنترنت وعلى مختلف الوسائط الإلكترونية حسب تقديرات أكبر محركات البحث العالمية مثل (غوغل وياهو) بما يزيد قليلاً على 1٪ من مجمل المحتوى الرقمي العالمي، وهذه النسبة طبعًا دون المستوى المقبول ولا ترقى لمكانة هذه اللغة.

ومن أجل مواجهة هذه التحدّيات وغيرها علينا أن نسعى جاهدين إلى توسيع استعمال لغتنا العربية، والحفاظ عليها وإبقائها حيّة بيننا بدءا بإدخالها في تعاملاتنا اليومية في جميع مجالات الحياة، وأن نمكّنها من مرافقة جميع المؤسسات والإدارات الوطنية في بلدنا الجزائر، فكل هذه المجالات والميادين تفتقر إلى برمجيات وتقنيات تطبيقية باللّغة العربيّة، ينعكس أثرها على المجتمع بهدف ترقيته وتطويره ورفع مستوى الأداء فيه ليواكب التطورات الحديثة في توظيف المعلوماتية والتقنية خدمة لإرساء وبناء نظام تسييري ثقافي معرفي خدماتي يندرج في إطار ما يسمى بالإدارة الإلكترونية التي تعدّ قضية محورية بالنسبة لجميع دول

العالـم؛ فقـد أصبحـت هـذه الأخيرة تعمل على رقمنـة البيانات والمعطيات والوثائـق المختلفـة والمتعلقة بشـتى الميادين، وتحويـل كل ما هـو ورقي إلـى رقمي لمـا يوفّـره هـذا الأمر من جهد ومـال ووقت وجودة، فمشـروع الإدارة الإلكترونيـة الإلكترونـي الذي يعبّر عن السـرعة والتفاعل الآني وإزالة المسـافات الجغرافية قـد أحدث فعلا تغييرا مميّزا وملحوظا في حياة الإنسان المعاصر، وأصبح من الركائز الجوهرية المعوّل عليها لإنشـاء وتحقيـق التنمية الشـاملة، بل «يعـدّ خطوة أولـى لبلوغ مجتمع المعرفـة والتقانة والمعلوماتية، الذي تتظافر فيـه الجهود بين القطاعات المختلفة، وتتقاسـم فيه الأفـراد أفكارا ومعارف على جميع المستويات، تمسّ كل جوانـب حياة الإنسـان الاقتصادية والثقافيـة والاجتماعيـة والسياسـية وغيرها...».

فـالإدارة الإلكترونيـة بمفهومهـا الواسـع هـي إدارة بلا أوراق ملموسـة لوجـود الأوراق الرقمية، والأرشـيف الإلكترونـي، والبريـد الإلكترونـي، والأدلـة والمفكـرات الإلكترونيـة والرسـائل الصوتيـة، ونظـم تطبيقات المتابعـة الآليـة. وإدارة بـلا مـكان؛ تعتمد أساسـا على الهاتـف المحمول والهاتف الدولي الجديد (التليديسك)، والعمل عن بعد من خلال والمؤتمرات الافتراضيـة الإلكترونيـة. وإدارة بـلا زمـان؛ فالعالـم أصبـح يعمل بشـكل متواصـل لمـدة 24 سـاعة فـي اليـوم، وبالتالـي فـإن الليل والنهـار والصيف والشـتاء أصبحت أفـكارا لـم يعد لها مكان فـي العالـم الجديـد. وإدارة بلا تنظيمات جامـدة؛ فهي تعمل من خلال المؤسسـات الشـبكية والمؤسسـات الذكيّة التـي تعتمد علـى صناعة/ عالم المعرفـة. كما أنها تتميز بعـدّة مميّزات وسـمات يمكـن تلخيصها فـي النقاط التالية:

– «**الإتقان**: الإدارة الإلكترونية تعمل علـى إجـراء المعاملات بسـرعة فائقة وبدقة ووضوح تام.

– **تخفيـض التكاليـف**: حيث تعتمد الإدارة الإلكترونيـة علـى الكمبيوتـر بنسـبة كبيرة ممـا يجعلها فـي غنى عن اليـد العاملة، وهذا ما يـؤدي إلى تقليل التكاليف وتوفير المال.

• **التبسـيط**: تبسـيط الإجراءات من خلال الاسـتخدام الأمثـل للمعلومات مما يسـمح بتلبية حاجـات المواطنين بشكل مبسط وسريع.

• **الشـفافية**: الاعتمـاد علـى الرقابة الإلكترونيـة التي تضمن الرقابة الدورية لمختلف الخدمات المقدمة».

وهكذا يتضح أن للإدارة الإلكترونية عدة توجّهات تنحصر فيما يلي:

– «إدارة الملفات بدلا من حفظها.

– اسـتعراض المحتويـات بدلا من القراءة.

– مراجعـة محتـوى الوثيقة بدلا من كتابتها.

– البريد الإلكتروني بدلا من الصادر والوارد.

– الإجـراءات التنفيذيـة بـدلا مـن محاضر الاجتماعات.

– الإنجازات بدلا من المتابعة.

– اكتشـاف المشـاكل بـدلا مـن المتابعة.

– التجهيز الناجح للاجتماعات».

ولذلك فإن التوجّه نحو هذا النوع من الإدارات (الإدارة الإلكترونيـة) أصبح ضـرورة، واسـتجابة لا منـاص منهـا لمتطلبـات العصـر الحديـث، وحتميّة حضاريـة مأمولـة فـي المجتمعـات الواعـدة، خاصـة فـي الـدول النامية، ومـن بينهـا الجزائـر، علـى الرغم من أنّ مفهـوم هـذا المصطلـح (الإدارة الإلكترونية) إلـى مرحلـة متأخرة كان مفهومـا يكتنفـه الغمـوض فـي أذهان المسـؤولين والأخصائيّين في الجزائر، حيـث ظهر أنـه محصور في «مـا يقوم بـه قطـاع وزارة البريـد وتكنولوجيات الإعـلام والاتصـال، ويبقـى تطبيـق الإدارة الإلكترونيـة مهمّة هـذا القطاع بشـكل انفـرادي، إلـى غايـة صـدور اسـتراتيجية (الجزائر الإلكترونية 2013) E–Algérie 2013، وهـي الوثيقـة التـي صدرت في ديسـمبر 2008، والتي تمثّل حسـب مـا ورد فيها أول وثيقة رسـمية تحمـل معالـم برنامـج إدارة إلكترونية متكاملـة فـي الجزائر، وهـو عبارة عن اسـتراتيجية تهدف إلى تعميم استخدام التكنولوجيـات المتطـورة فـي أغلب الإدارات العامـة، ومجـالات النشـاط الاقتصادي»، وهذا هـو الصواب؛ لأنه يدخل فـي إطـار المفهوم العـام الذي حدّدتـه الأمـم المتحـدة لمـا تسـمّيه بالحكومة الإلكترونية والذي مفاده أنها «عملية تحـوّل في أسـاليب وعلاقات العمـل، سـواء داخـل مؤسسـات الحكومـة أم فـي تعاملاتها مـع بعضها البعـض، أم في تعامـلات الحكومة أو أيّ مؤسسـة أو فـرد خارجها من خلال تكنولوجيـا المعلومات والاتصالات»؛ أي أن الحكومـة الإلكترونيـة تشـير إلـى ربـط المؤسسـات الحكومية مع بعضها، ومع المواطنين والمؤسسـات العموميـة الأخـرى، وتغييـر نمـط المعامـلات والعلاقـات بيـن الـكل، وتوفير المعلومات والخدمات بسـهولة وفاعليـة وكفـاءة وبأقل وقـت وجهد،

وذلك باستخدام تكنولوجيا المعلومات والاتصال، والوسائل التقنية الحديثة على رأسها الحواسيب وشبكات الاتصال العالمية.

إن مشروع (الجزائر الإلكترونية 2013) الذي نتج بعد عمليات تشاور واسعة مع المؤسسات والإدارات العمومية، والمتعاملين الاقتصاديين والاجتماعيين، والجامعات مراكز البحث العلمي، والنقابات والجمعيات المهنية التي تنشط في المجال -والذي تضمن مجموعة من المحاور والأهداف المسطرة وبرامج التنفيذ، حيث تنحصر محاوره في ثلاثة عشر (13) محورا رئيسيا سُطّرت على مدى خمس سنوات (05)- يندرج ضمن المشاريع التي اعتمدتها الحكومة الجزائرية لتحقيق تنمية مستدامة في مختلق المجالات، من خلال بناء منظومة شاملة قائمة على البنية التحتية لتكنولوجيات الإعلام والاتصال في كل مؤسسات الدولة، وفي مختلف القطاعات الإستراتيجية، ذلك أن بناء منظومة خدمات إلكترونية فعّال، سريع، وآمن هو السبيل الوحيدة لنجاح مشروع الحكومة الإلكترونية في الجزائر، بل إن الدولة ذهبت إلى أبعد من ذلك في رؤية مستقبلية، حيث جعلت من «الرقمنة أساسا لنجاح (استراتيجية الجزائر رؤية 2035) الموضوعة حديثا من قبل وزارة المالية، والتي بدورها تهدف إلى تطوير وتنويع الاقتصاد الوطني من خلال ثمانية قطاعات وهي: السياحة، الصناعات الغذائية، الكيماوية، مواد البناء، السيارات، الإلكترونيك، الكهرباء، الطاقات المتجددة والنسيج». على أن هناك فعلا جهودا حثيثة مبذولة من طرف العديد من الباحثين والدارسين الساعية إلى دعم تحقيق مثل هذه المشاريع التنموية المهمة والضرورية في بلادنا، وإعطاء أفكار قيّمة تفيد في هذا المجال حتى وإن كانت بسيطة لكنها تظهر بوضوح روح المبادرة والمسؤولية والرغبة في تطور البلاد، من مثل ما طرحه أحد الباحثين حول تطوير الرقمنة في الجزائر الممثَّل في المخطط التالي:

نموذج مفاهيمي لتطوير الرقمنة في الجزائر.

وبالرجوع إلى وثيقة مشروع (الجزائر الإلكترونية 2013) فإنه يتبيّن من خلالها مجموعة الأهداف الرئيسية المسطرة في هذا المشروع، والتي يمكن حصرها في النقاط الآتية:

- ضمان الفعالية في تقديم الخدمات الحكومية للمواطن وأن تكون متاحة للجميع، وذلك بتسهيل وتبسيط المراحل الإدارية التي يتم من خلالها الحصول على الوثائق والمعلومات، مما يسهم في تجسيد مبادئ العدالة الاجتماعية والمساواة على أرض الواقع.
- التنسيق بين مختلف الوزارات، والهيئات الرسمية، والإدارات، والمؤسسات العمومية.
- القضاء على البيروقراطية التي تشكل كبحا لتنمية البلاد، وزيادة الشفافية.
- تحسين نوعية الخدمات المقدمة للمواطن في مختلف مجالات الحياة. وتقريب الإدارة منه مما يسهم في تحقيق السياسة الوطنية الحوارية.
- حماية مجتمعنا وبلادنا ووقايته ضد آفة الجريمة المنظمة والعابرة للحدود، بتبنّي إجراءات صارمة فيما يتعلق بوثائق الهوية.
- القضاء على معاناة المواطن من عدة جوانب في حياته اليومية، فالإدارة الإلكترونية توفر عن المواطن مشقة التنقل لاستخراج وثائقه أو الاستفسارات حول انشغالاته.

إن المتفحص لمشروع (الجزائر الإلكترونية) يلاحظ بأنه مشروع متكامل من جميع النواحي، إلا أنه يحتاج إلى تكاثف الجهود، وتوفير المبالغ اللازمة لذلك، بالإضافة إلى إرادة سياسية وشعبية حقيقية لتجسيده على أرض الواقع. وعلى الرّغم من تحقيق بعض المنجزات والمشاريع التي قامت بها مختلف الدوائر الوزارية في الجزائر، كل حسب طبيعة اختصاصاتها، في إطار رقمنة عملها الإداري، محقّقة بذلك نتائج متفاوتة وغير كافية، فإنه مازال من المبكّر جدا الحديث عن وجود خدمات إلكترونية متكاملة تحترم المعايير الدولية في هذا المجال؛ لأن الجزائر تسجّل تأخرا ملحوظا بالنظر إلى المقاييس العالمية في استعمال التكنولوجيا والنفاذ إلى المعلومات، حيث احتلت سنة 2019 المرتبة 98 من بين 121 دولة شملها تقرير الاتحاد الدولي للاتصالات فيما يخص مؤشر الجاهزية الشبكية، وهي مرتبة متأخرة عن دول الجوار، حسب ما هو مبيّن في الجدول التالي:

البلد	السويد	سنغافورة	قطر	السعودية	تونس	المغرب	الجزائر	طاجيكستان	اليمن
الرتبة	01	02	33	45	84	87	98	99	121
المعدل	82,65	82,13	63,73	56,49	42,04	41,38	35,30	34,90	12,33

الجدول رقم (01): رتبة ومعدل مؤشر الجاهزية الشبكية لبعض الدول سنة 2019.

كما تحرز الجزائر أيضا مرتبة متأخرة بين الدول العربية والدول المجاورة لها فيما يخص مؤشر التنمية لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات لسنة 2019، رغم زيادة الاستثمارات الوطنية في البنية التحتية والأنترنت مؤخرا، وهذا يدل على عدم كفاية هذه الاستثمارات في تغطية كامل المناطق، وتوفير الخدمات لجميع المؤسسات الجزائرية باختلاف طبيعتها وأشكالها القانونية، وهو ما يوضّحه الجدول الآتي:

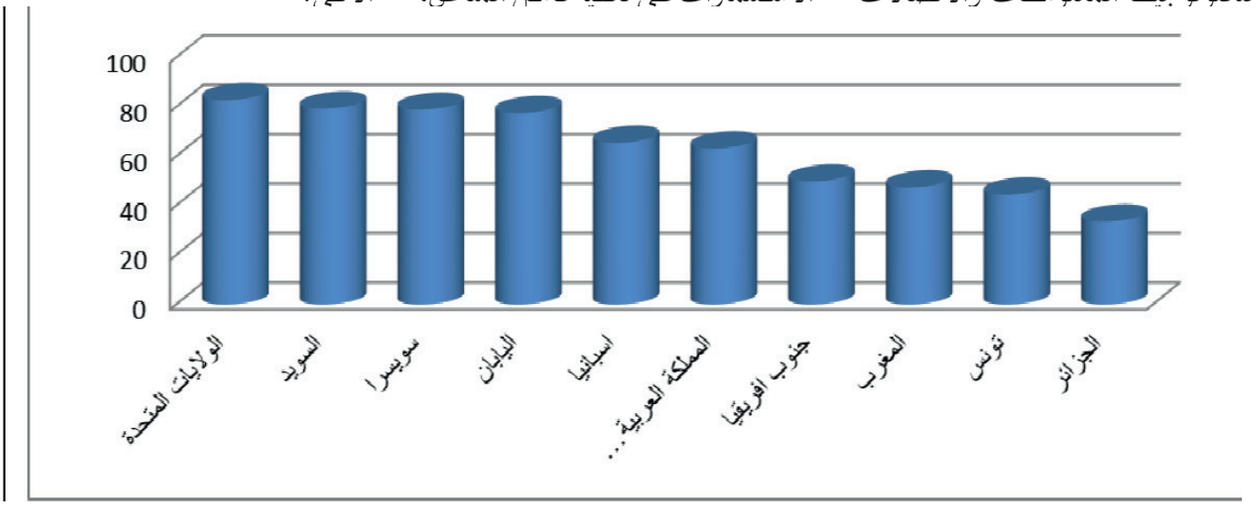

الجدول رقم (02): معدلات مؤشر التنمية لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات للجزائر وبعض الدول لسنة 2019.

والجدول التالي يبيّن المراتب التي شغلتها الجزائر في مؤشر نضج الحكومة الالكترونية، والمعدلات المحققة في تطور هذا المؤشر خلال الفترة الممتدة من 2008 إلى غاية 2020، والذي يظهر فيه تراجع ملحوظا بعد سنة 2016، لتصل الجزائر إلى أدنى المراتب سنة 2020 مقارنة بالسنوات الماضية.

الدولة	القارة	2008	2010	2012	2014	2016	2018	2020
الجزائر	افريقيا	0.3515	0.3181	0.3608	0.3106	0.2999	0. 4227	0.5173
الترتيب		121	131	132	136	150	130	120

الجدول رقم (03): قيم مؤشر نضج الحكومة الالكترونية EGDI.

مما سبق نستنتج أن واقع الإدارة الجزائرية يعاني العديد من النقائص والاختلالات من النّاحية الهيكلية والوظيفية وحتى القانونية، مما يشكل عائقا نفسيا وماديّا يحول دون بلوغ مستوى تطلّعات المواطنين، لأن تحديث وعصرنة الإدارة العمومية والعمل على الارتقاء بالخدمات المقدمة من طرفها يتطلّب جهازا إداريا قادرا على فهم واستيعاب المتعاملين معه على اختلاف ظروفهم وانتماءاتهم، ولعل أبرز معيقات تطبيق مشروع الجزائر الإلكترونية تتمثل فيما يلي:

– تأخر الجزائر في مجال البنى التحتيّة للتكنولوجيا في مختلف الميادين كالإدارة، والتعليم، والصحة، والاقتصاد، والتجارة ...إلخ، بالإضافة إلى عجزها عن تحقيق التوازن بين مختلف المناطق في مجال ضمان الربط بشبكات الهاتف الذي يعد أهم القنوات للتواصل عبر الانترنت، كما لا تستفيد الكثير من بلديات الوطن من تعميم استخدام هذه الأخيرة.

– انخفاض مستوى الوعي بأهمية ودور تكنولوجيا المعلومات في الحياة اليومية للمواطن، وكذا بالمميزات والفوائد من تطبيقات الحكومة الإلكترونية.

– غياب التنسيق بين الإدارات والقطاعات الوزارية بشكل فعّال، فحتى يكون المجتمع المعلوماتي الرقمي مجتمعا شبكيّا متكاملا لابد من وجود تنسيق عالي بين الإدارات والقطاعات الوزارية المختلفة.

– محدودية استخدام الأنترنت من قبل المواطنين وحتى بعض الإدارات والمؤسسات، بالإضافة إلى ارتفاع تكاليف استخدامها من خلال شبكات الهواتف، وينسحب ذلك أيضا على تكاليف المعدات، والتجهيزات، والبرامج الضرورية لتشغيل منظومة معلوماتية متكاملة.

– عدم وضوح الرؤية في مجال بناء استراتيجيات وخطط التسيير، والأهداف المستقبلية، وتوزيع المهام والأدوار.

– عدم تكيّف التشريعات والقوانين والأنظمة واللوائح الجزائرية بشكل كامل مع متطلبات مجتمع المعرفة المرجو بلوغه.

– نزوح جماعي للكوادر البشرية والكفاءات المتخصصة إلى الخارج، فمستوى الدخل وظروف العمل لا يشجعان على بقاء الإطارات في الجزائر، مع توفّر عروض عمل أحسن تتوافق مع الكفاءة في الدول الأجنبية.

– صعوبة الانتقال من النمط التقليدي إلى النمط الرقمي في التواصل والاتصال بين مؤسسات الدولة وملحقاتها، وكذلك لدى المواطن الجزائري، وهذا أمر مرتبط أساسا بذهنية الفرد الجزائري سواء كان مسؤولا أم مواطنا.

– سيطرة المفاهيم التقليدية السائدة المتمثلة خاصة في البيروقراطية السلبية، وعدم إمكانية التغلّب عليها.

– ضعف المحتوى الوطني على شبكة الإنترنت، وخاصة باللغة العربية، حيث لم تنل اللغة العربية الرسمية في الجزائر مكانتها في مجال الإدارة الإلكترونية، والتعامل الإداري الرقمي، مع أنه قد ورد في «تقرير منظمة التعاون والتطوير الاقتصادي (OCDE) أن الإدارة الإلكترونية تسهم في تحسين السياسات الاجتماعية، وتساعد الإدارات العمومية على ترقية اللغات الأم للسكان، ويوصي البنك العالمي بوجوب تركيز استراتيجيات الإدارة الإلكترونية على اللغة أو اللغات الوطنية فيما يتعلق بمضمون الخدمات المقدمة».

والذي يلاحظ في الجزائر مختلف تماما على ما هو مقرر في إستراتيجيات الإدارة الإلكترونية هذه، وذلك من خلال الاطّلاع على المواقع الإلكترونية للإدارات والمؤسسات العمومية الجزائرية، خاصة المركزية منها، فإن الكثير منها: إما لديها موقع باللغة الفرنسية فقط، وليس لديها موقع باللغة العربية، أو تجد هذا الأخير في طور الإنجاز دون تحديد تاريخ معين لانطلاقه (رغم أن موقعها باللغة الفرنسية يشتغل بصفة عادية). وإما لديها نسختان من الموقع باللغتين العربية والفرنسية، ولكن موقعها باللغة الفرنسية ثري بالوثائق والملفات والمعلومات والإحصائيات مقارنة بموقعها باللغة العربية. أو أن الموقع قبل الولوج إليه يضعك في فرصة الاختيار بين اللغة العربية (اللغة الوطنية والرسمية) واللغة الفرنسية على قدم المساواة؛ أي عدم الولوج التلقائي إليه باللغة العربية.

وربما يكون البحث في معالجة هذه المشكلات والعراقيل، وبخاصة ما تعلّق منها باللغة العربية في مضامين خدمات الإدارة الرقمية/ الإلكترونية، بالرجوع إلى البحث في أسباب تلك المشكلات في مضامين خدمات الإدارة التقليدية، والعمل على إيجاد الحلول الجذرية؛ لأنها لا تعدو أن تكون إلا امتدادا لها، ذلك أن الإدارة الإلكترونية في الأساس ما هي إلا طريقة في التسيير الإداري تحقّق فعالية أكبر وسرعة أكثر مقارنة بالطرق التقليدية المعهودة، حيث تستعمل أدوات جديدة غير الأوراق والأقلام تتمثل في الوسائل التقنية الحديثة أهمها الحواسيب وشبكات الاتصال العالمية، فليس من الصواب حقا التفكير في استعمال الإنترنت في التسيير الإداري مع بقاء التنظيمات والعلاقات والمعاملات على نفس الطريقة التي كانت عليها في الإدارة التقليدية؛ إذ ليس الهدف هو التكنولوجيات والتقنية فحسب، بل أيضا التغييرات التي يجب إحداثها على طريقة العمل ومنهجية التسيير من أجل زيادة إنتاجية وكفاءة الإدارة العمومية وفعاليتها، وكسب رضا المنتفعين والمتعاملين بها.

بالإضافة إلى ذلك، فهناك من يرجع سبب المشاكل التي تعاني منها اللغة العربية في تعاملات ووثائق الإدارة الرقمية/ الإلكترونية إلى عدم وجود أي نص قانوني صريح ودقيق يُلزم الإدارات العمومية باستعمال اللغة العربية في تعاملاتها الإلكترونية، لكن هذا الأمر ليس بالضرورة صحيح، وليس هناك حاجة إلى إضافة نصوص قانونية أو تنظيمية في هذا الصدد، لأنه يعدّ كافيا حقا إلزامية العمل بها واستعمالها في خدمات الإدارة التقليدية المنصوص عليها في «قانون تعميم استعمال اللغة العربية في الجزائر رقم 91-05 المؤرخ في 30 جمادى الثانية عام 1411ه الموافق 16 يناير سنة 1991، الذي يجعل من استعمال اللغة العربية أمرا ملزما، إذ يقول في المادة (2): اللغة العربية من مقومات الشخصية الوطنية الرّاسخة، وثابت من ثوابت الأمّة يجسّد العمل بها مظهرا من مظاهر السيّادة واستعمالها في النظام العام. وفي المادة (3): يجب على كل المؤسسات أن تعمل على ترقية اللغة العربية وحمايتها والسهر على سلامتها وحسن استعمالها. وفي المادة (4): تلزم جميع الإدارات العمومية والهيئات والمؤسسات والجمعيات على اختلاف أنواعها باستعمال اللغة العربية وحدها في كل أعمالها، من اتصال وتسيير إداري ومالي وتقني وفنّي. وفي المادة (5): تحرر الوثائق الرسمية والتقارير ومحاضر الهيئات العمومية والهيئات والمؤسسات والجمعيات باللغة العربية»، وبالتالي فإنه من المفروض أن ينسحب تطبيق كل ما هو منصوص في هذا القانون وموادّه تلقائيا إلى الإدارة الجديدة وحسب.

هذا، وفي الجانب الآخر هناك بعض التجارب العربية الرائدة التي تقوم بتعزيز المحتوى العربي على شبكة الإنترنت، إذ ترتبط الخدمات الحكومية الإلكترونية وتعاملات الإدارة الرقمية ارتباطا وثيقا بالإنترنت وبنيتها التحتية، كما تقوم بالاستفادة من الخبرات المتراكمة في تعريب هذه الخدمات والمعاملات، وتطوير برامج خدماتية عربية، بما يتيح للغة العربية أن تفرض نفسها كلغة للتكنولوجيا في الدول العربية. ولذلك تحتاج الجزائر ذات التجربة الحديثة المزيد من دراسة وفهم تلك التجارب المتقدمة عليها، خاصة مع وجود رصيد مشترك بينها، تمثل اللغة العربية أحد أهم أركانه في عالم يقدم يوميا مزيدا من الحلول والتطبيقات المتعلقة بالخدمات الإلكترونية/ الرقمية التي تمت برمجتها بنظام عشري وخوارزميات تتحدث كل اللغات بما فيها اللغة العربية. ومع ذلك فإن الجزائر لا تمثل الاستثناء خاصة بعدما أطلقت رسميا – على غرار العديد من الدول العربية، وإن كانت متأخرة عنها نوعا ما – بوابتها الإلكترونية التي تشكّل المدخل الرئيس لكل الوزارات والهيئات ومختلف مصالح الدولة، وذلك في شهر أوت 2010 تحت مسمى (بوابة المواطن)، باعتبار أن البوابة الحكومية هي محطة أساسية في عالم الأعمال والخدمات لأي دولة تسعى لتجسيد الإدارة الإلكترونية/ الرقمية.

وقد تم توكيل مهمة الإشراف على هذه البوابة لوزارة تكنولوجيات الإعلام والاتصال، وهدفها طبعا هو تقريب الإدارة من المواطن، من خلال تقديم تسهيلات أكثر، وتوفير المعلومات والخدمات بشكل أسهل وأسرع وأضمن، وبالتالي تقليل البيروقراطية وزيادة الشفافية.

البوابة الرسمية للحكومة الإلكترونية في الجزائر

وجدير بالذكر أن الموقع الرسمي للبوابة (http: / /www.elmouwatin.) dz– 2016 يتوفر على نسختين بالعربية والفرنسية؛ إذ يمكن ملاحظة ذلك في الصورة الموضحة، كما أنها شاملة لكل ما يحتاجه المواطن من خدمات ومعاملات، وأيضا تنشر دوريا معلومات متعلقة بالإجراءات المتخذة والمعلن عنها من قبل السلطات العمومية، إضافة إلى إمكانية تحميل استمارات ووثائق رسمية، فمتصفح هذه البوابة يجد عدة خدمات عن بعد منها:

– موقع التسجيلات الأولية الجامعية: وهو موقع يسمح للناجحين في شهادة البكالوريا بالتسجيل الأولي: https: / /www.orientation–esi.dz

– خدمة الجريدة الرسمية: التي توفر الحصول على نسخ رقمية من أعداد الجريدة الرسمية.

– خدمة فاتورة الهاتف الثابت والنقال: توفر هذه الخدمة معرفة فاتورة الهاتف الثابت، وكذا معرفة فاتورة الهاتف النقال موبيليس.

–خدمة مسابقات الوظيف العمومي: التي توفر جميع المسابقات المعلنة في الوظيف العمومي التي تقام في الجزائر، وجميع ما يحتاجه المترشّح لهذه المسابقات.

– صحيفة السوابق العدلية: تقدم هذه الخدمة طلب صحيفة السوابق العدلية (الكشف رقم 3) بنقل المتصفّح إلى موقع وزارة العدل.

– مراجعة الحساب الجاري: توفر هذه الخدمة إمكانية الاطّلاع على رصيد الحساب الجاري عن طريق تقديم الرقم السري.

– محتويات أخرى: تقدم بوابة المواطن أيضا مجموعة خدمات أخرى كأخبار المطارات والسفارات، البنوك والتأمينات، والمراكز الاستشفائية، والمؤسسات الجامعية، والوزارات... وغيرها، وذلك عن طريق تقديم معلومات اتصال وروابط هامة للمؤسسات، كما تتوفر البوابة على شريط خاص بأحوال الطقس لبعض الولايات، وخدمة استطلاع الرأي، ومناقشات البرلمان، وبوابة القوانين، والتشغيل ...إلخ.

وانطلاقا مما سبق فإن التعامل مع تكنولوجيا المعلومات والاتصال في ترشيد وتطوير العمل الإداري، واستثمار اللّغة في هذا المجال وتسهيل استعمالها فيه قد أضحت مسألة في غاية الأهمية، وضرورة ملحّة في بلدنا الجزائر، لا سيما بعد إدراج البرمجة المعلوماتية داخل نسق العمل الإداري في مختلف القطاعات الوطنية، وبهذا التحوّل التدريجي في مجال الإدارة من التقليدية الورقية إلى الإلكترونية/ الرقمية، فإنّ الجزائر قد اجتازت خطوات لا بأس بها من أجل اللّحاق بركب الدول المتطورة، من خلال تطبيق مجموعة من المشاريع لرقمنة الوثائق الإدارية، فهذه الأخيرة تعدّ موردا ثمينا، ودعامة مادية لها مضمون معرفي، صُمّمت من أجل تحقيق هدف معيّن كالتعريف، أو التأكيد والتثبيت، أو الحفاظ على المعلومات ...، وذلك مهما كانت طريقة تسجيلها (الكتابة، النقش، الصوت، السمع، الإلكترونية ...)، كما أنها من الأصول المهمة للعمل، فهي دليل على إنجاز الأعمال، وشاهد على حقوق الأشخاص وممتلكاتهم، وتكون سندا لأيّ شيء موضوعه الماضي، ولذلك فإن المنهجية المنتظمة في إدارة وتسيير الوثائق ضرورية للمؤسسات والمجتمع للحفاظ على الوثائق وحمايتها، والتي تفضي بالضرورة إلى تكوين مصادر معلومات وقواعد بيانات حول النشاطات والأعمال الرسمية، لدعم القرارات وتسهيل اتخاذها، بالإضافة إلى كفالة حق المساءلة للجهات المعنية في الحاضر والمستقبل.

إن رقمنة الوثائق الإدارية هي عملية يتم بمقتضاها تحويل الوثائق من شكلها الورقي إلى الشكل الرقمي، ومعالجتها بواسطة الحاسب، سواء كانت هذه البيانات نصا مطبوعا أو صورا أو أصواتا، وذلك عن طريق استخدام أجهزة التحويل الرقمي المناسبة كالماسحات الضوئية، وأجهزة التصوير الرقمية، وذلك باتباع مجموعة من الخطوات تتلخّص في:

– «فرز وإعداد الوثائق.
– فهرسة الملفات.
– الرقمنة والتحويل.
– تحسين الصورة وحلّها.
– العلاج باستخدام برنامج التعرف الضوئي على الحروف ((OCR.
– نقل الصور.
– إعادة تجميع الملفات.
– التخزين.
– صفات إمكانية الاسترجاع الآلي للوثيقة.
– التوزيع عبر الشبكات الحاسوبية المختلفة».

وفي حالة غياب الدقّة خلال كل هذه المراحل السابقة، فإن المسح الضوئي قد يؤدي إلى فقدان البيانات، ولذلك لابد من الصرامة والجدية في متابعة هذه الخطوات، وبعد إتمامها تصبح الوثائق الرقمية أكثر فاعلية، مما يمكّن من الحصول على تسيير أفضل لها، وسهولة في الاستخدام، وقلة في

التكلفـة؛ إذ أن رقمنة الوثائـق لها مزايا وفوائد عديدة سواء بالنسـبة للإدارة أو المتعامليـن معها، يمكـن حصرها فيما يلي :

– الحـد من تلـف الوثائـق الورقية لكثـرة الاسـتعمال دون حجبهـا على المسـتفيدين منها باسـتعمالهم الشكل الرقمي للوثيقة.

– تيسـير عمل الأعوان المستعملين للوثائق الرقمية نظرا لسـهولة التنقل بها عند الحاجة.

– سـهولة البحث عن الوثائق، حيث أن الوثائق الورقية تحفظ وترتب بمراكز الأرشـيف وفقا للمصدر وحسب نظام التصنيـف الوظيفي المعتمـد، وبالتالي عند البحث عن موضوع معين –والذي يمكن أن يشـمل عدة أطراف متداخلة– وجـب البحـث فـي جميـع المصادر المنشـئة للوثائـق، أما بالنسـبة للوثائق الرقمية وباستعمال البرمجيات الحديثة، فيمكـن كتابـة موضوع البحـث لتظهر النتيجـة في جميـع الملفـات والوثائق المتعلقـة بنفس الموضـوع بالرغم من اختلاف مصادرها وتصنيفها.

– ربـح الوقـت؛ فالوثائـق الرقميـة يمكـن للمسـتفيد اسـترجاعها في أقل وقت ممكن بخلاف الوثائق الورقية، مع إمكانية تعامل العديـد من الأطراف مع الوثيقة الرقمية نفسها في الوقت ذاته.

– اسـتغلال الكـوادر البشـرية فـي الأعمـال التقنيـة والرقميـة بـدلا مـن التعامل مع المسـتفيدين بجلب الوثائق المطلوبة وإرجاعها إلى أماكنها.

– ربح فضاءات التخزين والأرشفة، حيـث أن نُسـخ الوثائـق الرقميـة/ الإلكترونية لا تتطلب فضاءات شاسـعة للحفظ، ففي مجرد قرص ليزري صغير الحجـم يمكـن أن يحفظ كميـة هائلة مـن الملفـات والوثائـق، فـي حين لا يتطلب حفظ هذا القرص سـوى بعض المليمترات من أماكن التخزين.

– إمكانيـة التعامـل عن بعد سـواء تعلق الأمر بالمؤسسـات فيمـا بينها أو بالمؤسسات مع الأفراد.

– التقليل من اسـتعمال واسـتهلاك الورق، ومن ثم ربـح الأموال الضخمة المخصصة في الميزانية لشـراء الورق، واسـتغلالها فـي أشـياء أو مؤسسـات أخـرى تعاني النقص والعجـز وتحتاج إلى الدعم.

ولضمان الحصـول على هذه المزايا والفوائـد لابـد بطبيعة الحـال من توفر جملة مـن المتطلبات أهمهـا التخطيط العلمـي، والبنيـة التحتيـة الماديـة والبرمجية، إضافة إلى اختيار أسـاليب وتقنيات الرقمنة المناسبة لطبيعة الرصيد المرقمـن، ودراسـة أهـداف مشـاريع الرقمنة، وعليه فإن رقمنة الوثائق تعدّ من المشاريع التي تتطلب تصورا وتخطيطا علميا واستراتيجيا مسبقا لضمان تنفيذه في أحسـن الظروف، وتجاوز المشاكل والمعيقات التي قـد تعترضه، حيث أن لا يكون قرار الرقمنة عشـوائيا فقط من أجـل مواكبـة التطـورات التكنولوجية الحاصلة فـي المجال، بـل لا بد له من الدراسـات المسـبقة والإعـداد الجيد الـذي ينظّم ويضبط مختلـف الجوانب التقنية والبشـرية والقانونية والاقتصادية للمشروع. ومن بين الإمكانات البشرية والمادية التي ينبغي توفّرها لإتمام عملية رقمنة الوثائق بالإدارات والمؤسسات، نذكر ما يلي:

أ) الإطـار البشـري :تحتـاج عملية رقمنة الوثائق إلى توفر الإطار البشـري الـذي يتميـز بالكفاءة في مجـال إعداد الوثائق، وتصنيفها وأرشـفتها لتسـهيل عملية الرجـوع إليها، مما يتطلب معرفة كافية وتكوينـا خاصا في هـذا المجال بالنسـبة للمشـتغلين بالوثائق الإدارية، كمـا تحتاج إلى السـلك التقنـي المُلمّ ببرامج الرقمنة، وكيفية إعدادها، وتطبيق أنظمتها المتعددة.

ب) الإطار المـادي :وهي مجموعة الوسـائل المعتمدة للقيام بعملية رقمنة الوثائق كالماسحات الضوئية والأجهزة الإعلاميـة التي يجـب أن تكـون ذات جودة ومميزات عالية، وهذا الأمر يعود طبعا لأصحاب التخصـص، كما أنه لا بد من اختيار برامج تخزين واسـترجاع الوثائق تسـتجيب لمتطلبات إنجاز هذا العمل. ومن بيـن البرامج/ البرمجيات الإعلامية المعتمدة في هذه العملية :

– برمجيـات إدارة الشـبكة والاتصالات.

– برمجيات مسح الوثائق.

– نظـام التعـرف علـى الحـروف (OCR)، وهنـا لابـد مـن الإشـارة إلى أن هـذا النظام يجـد صعوبـة كبيرة في التعرف على حروف اللغة العربية، بينما لا توجد هذه الصعوبة بالنسـبة لأحرف اللغات اللاتينية.

– نظـام القـراءة التلقائيـة للوثائـق (LAD).

– التعـرف التلقائـي علـى الوثائـق (RAD).

– نظام استرجاع الوثائق.

ونظـرا لتلـك المزايـا والفوائد التي توفّرهـا عمليـة رقمنـة الوثائـق، فقـد بادرت مختلف الإدارات والمؤسسات الجزائرية إلى تبني هذه العملية في إطار مشـروع الحكومة الإلكترونية/ الإدارة الإلكترونيـة، بحيث لا يمكـن في هذا المقام حصـر جميع المحـاولات التي تمت فـي الجزائر، لكـن يمكن عرض

بعضها على سبيل التمثيل لا الحصر، وهي كالتالي:

أ) قطاع التأمين: قام هذا القطاع برقمنة الوثائق في العديد من الإدارات والمؤسسات التابعة له من مثل الصندوق الوطني للتأمينات الاجتماعية للعمال الأجراء الذي مكّن المواطنين من استخراج وثائق رقمية تتمثل في شهادات الانتساب أو عدم الانتساب، حيث تتوفر هذه الخدمة أيضا عن بعد. كما قامت مؤسسة الضمان الاجتماعي، وذلك في إطار بناء قاعدة معطيات وطنية، من تأسيس مكتبة وطنية رقمية، تتيح إمكانية الاتصال مع جميع وكالاتها، والتأكد من المشترك، فمن خلال بطاقة الشفاء الإلكترونية للتأمينات الاجتماعية التي حلّت محل وثيقة التأمينات الاجتماعية السابقة، يتم التعرف على هوية المؤمَّن اجتماعيا وذوي الحقوق، وأيضا تسهيل مستحقات المؤمَّن لدى مصالح الضمان الاجتماعي.

ب) قطاع العدل: الذي قام برقمنة المؤسسات التابعة له، ومن بين الوثائق الرقمية التي يقدّمها للمواطنين مثلا: صحيفة السوابق القضائية (الكشف رقم 3)، وشهادة الجنسية... إلخ. كما يقدم عدة خدمات عن طريق أيقونة الخدمات الإلكترونية الموجودة في موقع وزارة العدل كالتحقق من مصدر الوثائق الإلكترونية، والنيابة الإلكترونية، والبطاقة المهنية البيومترية لقطاع العدالة، وتصحيح أخطاء الحالة المدنية، والاطلاع على مسار القضايا الخاصة بالمتقاضين ...إلخ.

ج) قطاع البريد والمواصلات: الذي عمد إلى رقمنة وثائقه التي يتعامل بها مع زبائنه من مثل الوثيقة الخاصة بفاتورة الهاتف الثابت والنقال.

د) المؤسسة الجزائرية للمياه: التي قامت برقمنة الوثائق المتعلقة بفواتير الماء.

ه) الشركة الوطنية للكهرباء والغاز: التي تقدّم فواتير الكهرباء والغاز بصورة رقمية، والأهم من ذلك أنها أصبحت تقدّمها باللغة العربية بعدما كانت باللغة الفرنسية.

و) وزارة التربية: التي عملت على رقمنة القطاع بشكل واسع، فأصبحت مختلف الوثائق التي تتعامل بها رقمية نحو: شهادات التسجيل والشهادات المدرسية وشهادة تغيير المؤسسة بالنسبة للمتعلمين، وشهادات العمل ومجمل الخدمات بالنسبة للأساتذة والموظفين ... وغير ذلك.

ز) قطاع التعليم العالي: حيث أصبحت الجامعات الجزائرية تقدّم وثائق رقمية كشهادات التسجيل بالنسبة للطلبة مثلا. وفي مجال التكوين والبحث قامت بإنشاء شبكة معلوماتية داخلية مرتبطة بالأنترنت على مدار 24 ساعة تُعرف بالشبكة الأكاديمية والبحثية، وذلك لتمكين الأساتذة والباحثين والطلبة من تصفح المواقع التي تهمّهم، كما تمنحهم فرصة الاتصال بالجامعات والمراكز البحثية على المستوى العالمي، بالإضافة إلى توفير المكتبات الرقمية في سبيل تسهيل وصول المعلومات إلى أفراد المجتمع الأكاديمي بأقل جهد وفي أسرع وقت.

ح) قطاع التكوين المهني: إذ قام هذا القطاع ببناء شبكة داخلية تقوم بالربط بين كل مؤسساته ضمن برنامج واحد للتمكن من بناء قاعدة معطيات، إضافة إلى قيامه بمشروع آخر يعرف بنظام المعلومات الجغرافية الذي يختزل مؤسسات التكوين المهني في خريطة جغرافية رقمية، كما عمد أيضا إلى دعم مؤسساته بفهرس لمختلف تجهيزات القطاع، وخصائصها التقنية، ويجزئ التحاليل الإحصائية بناء على المعطيات الرقمية.

ط) مؤسسة سوناطراك: نظرا لازدياد وتيرة إنتاج الوثائق على هذه المؤسسة الجزائرية المختصة في مجال البترول والمحروقات، والتي تتمتع بمكانة معتبرة على المستوى الإفريقي والعالمي، باعتبارها شركة اقتصادية كبيرة وكثيرة النشاط، أصبح من الضروري العناية بمعلوماتها ووثائقها لتسهيل الوصول إليها واسترجاعها في أسرع وقت بهدف اتخاذ القرارات المناسبة في الوقت المناسب، فكانت الرقمنة إحدى الحلول المختارة من طرف المؤسسة، حيث أولت عناية كبيرة لرقمنة الوثائق على مستوى دائرة الأرشيف العامة الخاصة بها، من خلال مشروع تولاّه – حسب تصريح مدير دائرة الأرشيف بالمؤسسة وموظّفيها – الموظفون بدائرة أرشيف المؤسسة المتخصصين في المكتبات والمعلومات والإعلام الآلي، لاتصافهم بإحاطة شاملة برصيد الدائرة الوثائقي، وخبرة في التعامل مع التكنولوجيا الحديثة بما فيها التكنولوجيا الرقمية، وقد تشارك في تخطيط هذا المشروع كل من مسؤولي دائرة الأرشيف وهم: مدير دائرة الأرشيف، وبعض رؤساء المصالح الأرشيفية، وكذلك موظفون من الإدارة العامة لمؤسسة سوناطراك، كما تمت الاستعانة بالمعهد العالي للإعلام الآلي بالجزائر العاصمة في عملية التخطيط للمشروع.

ولا بأس أن نشير في هذا السياق إلى أن العديد من البحوث والدراسات

الميدانية أكّدت على أن مديريات الموارد البشرية بالمؤسسات المينائية في العديد من ولايات الوطن قد بادرت بمشاريع لرقمنة الوثائق بمكاتب الأرشيف الخاصة بها كالمؤسسة المينائية -جن جن- بولاية جيجل على سبيل التمثيل لا الحصر، والتي تعد من المؤسسات الاقتصادية في الجزائر السباقة لإدخال التكنولوجيا في معاملاتها الإدارية من خلال رقمنة أرصدتها الوثائقية، خصوصا بمديرية الموارد البشرية التي تعتبر من أهم المديريات الرئيسية الداعمة للإدارة العامة بهذه المؤسسة، وذلك بهدف الحفاظ على الوثائق، وتسهيل عملية تداولها واستخدامها من قبل مختلف مديريات المؤسسة، وقد تم التركيز في البداية على رقمنة وثائق ملفات الموظفين بها. كما أولت العناية والاهتمام لتدريب وتكوين الكوادر البشرية الموجودة بها، وتحفيزها من أجل تنمية القدرات والمهارات اللازمة للقيام بعملية رقمنة الوثائق على مستوى مكتب أرشيف مديرية الموارد البشرية بالمؤسسة.

ي) البلدية: التي تمت فيها عملية الرقمنة بشكل واسع جدا، حيث تعد البلدية الإلكترونية نمطا متطورا وجديدا من الإدارة المحلية الذي يندرج في إطار تطبيق خارطة الطريق الوزارية نحو الجزائر الإلكترونية، يهدف إلى رفع مستوى الأداء والكفاءة الإدارية والمالية، وتحسين الخدمات والأعمال التي تقدمها البلديات للمواطنين من جهة، ولمختلف جهات الوصاية والرقابة من جهة أخرى. وقد نتج عن مشروع رقمنة البلدية/ البلدية الإلكترونية الذي توسّع في مختلف ولايات القطر الجزائري القضاء على الوثائق الورقية/ الكلاسيكية وتعويضها بالوثائق الرقمية/ البيومترية، ومن بين الوثائق التي تمت رقمنتها على مستوى بلديات الوطن ما يلي:

1. سجلات الحالة المدنية: إن رقمنة سجلات الحالة المدينة التي تعدّ منطلق الهوية الشخصية لكل مواطن جزائري هي من أهم الإنجازات التي تحققت في إطار رقمنة الإدارة المحلية، حيث سمحت هذه العملية بعصرنة المرفق العام للحالة المدينة عن طريق استخدام تكنولوجيا الإعلام والاتصال على مستوى البلديات وملحقاتها، وحفظ سجلات ووثائق الحالة المدنية الورقية عن طريق رقمنتها، وتحسين جودتها وتقليص آجال تسليمها. وتشير مصادر إعلامية إلى أنّ أول بلدية طُبِّق فيها مشروع رقمنة وثائق الحالة المدنية كانت في ولاية باتنة مطلع مارس 2010.

2. وثائق إثبات الهُوية: حيث أصبحت هذه الوثائق عبارة عن وثائق بيومترية تحتوي على معلومات حيوية مخزنة إلكترونيا، يمكن استخدامها لمصادقة هوية الأفراد، ويستخدم في هذه الوثائق تقنية البطاقات الذكية حيث تشمل شريحة إلكترونية تخزن فيها المعلومات (الاسم، اللقب، تاريخ الميلاد...)، ومعلومات بيومترية (بصمات العين أو الأصابع أو الوجه)، وصورة صاحبها تكون في الغلاف الأساسي الأمامي أو الخلفي أو في وسط الوثيقة، وهذه الوثائق تتمثل في:

- بطاقة التعريف الوطنية البيومترية وجواز السفر البيومتري: أطلقت مديرية السندات والوثائق العامة خدمات إلكترونية جديدة للمواطنين، حيث وضعت حيز التنفيذ بوابة إلكترونية منذ أفريل 2015 تحت تصرف كل الدوائر والبلديات وقنصليات الجزائر بالخارج بهدف ضمان المتابعة الآنية لمراحل دراسة وإنتاج الوثائق البيومترية، والغرض من هذا الموقع هو تسهيل عملية متابعة مراحل إنتاج الوثائق البيومترية، وأيضا ضمان أحسن تنسيق بين السلسلة المحلية والمركزية، وهذا ما يسمح بتسهيل الإجراءات الإدارية المتعلقة بطلب، وتسليم، واستعمال، وتجديد الوثائق البيومترية لاسيما جواز السفر البيومتري. بالإضافة إلى أنه يمكن للمواطنين الحاصلين على جواز السفر البيومتري تقديم طلب بطاقة التعريف الوطنية البيومترية دون اللجوء إلى مكان دفع الملف، وهذه الخدمة جعلت مسار تسليم هذه الوثيقة سريعا، كما سمح هذا النمط الرقمي بشكل عام بمتابعة طلب الوثائق والاستعلام، وإدخال المعلومات والبيانات المطلوبة من قبل المواطن عن طريق حجز رقم هاتفه النقال وتلقي رسالة نصية قصيرة تعلمه عن تاريخ ومكان سحب وثائقه فور جاهزيتها.

- رخصة السياقة البيومترية: استكمالا لمشروع البلدية الإلكترونية بهدف عصرنة الإدارة العمومية وتقريبها من المواطن تم أيضا إصدار رخصة السياقة البيومترية كوثيقة رقمية/ إلكترونية تضاف إلى الوثائق الأخرى التي يكتسبها المواطن الجزائري كبطاقة التعريف وجواز السفر البيومتريين.

وبالعودة إلى الحديث عن رقمنة مصلحة الحالة المدنية فقد تم بها إنشاء تطبيق (موقع الويب) يسمح بإدخال البيانات الخاصة بالمواطنين الجزائريين من عقود ووثائق الحالة المدنية على قاعدة بيانات متطورة متواجدة على

أجهزة رئيسية، وحفظها ليتم استرجاعها لاحقا سواء بهدف الحصول على معلومات دقيقة بواسطة بحث يجريه موظف البلدية، أو من أجل تمكين ضابط الحالة المدنية من عرض نسخ إلكترونية لهذه الوثائق والعقود الخاصة بالمواطن على الشّابكة، والتحقق من المعلومات الموجودة بها، ليتمكن من حفظها أو طباعتها، حيث يقدم هذا الموقع الذي يسمح بخلق فضاءات المهام لكل من مسيّري الموقع، وموظفي البلدية، وضابطيْ الحالة المدنية الرئيسي والخاص بالتحقيق، وكذلك فضاء للمواطن، مجموعة من الخدمات يمكن إيجازها في النقاط الآتية:

– السماح بإصدار جميع وثائق الحالة المدنية (شهادة الميلاد، عقد الزواج، شهادة الوفاة...).

– التحقق من صحة الوثائق المستخرجة عبر الموقع من خلال مراقبة الرقم المرفق بالوثيقة المستخرجة.

– مشاركة المواطن في عملية إدخال المعلومات الخاصة به إلى قاعدة البيانات عبر شبكة للاتصال عن بعد (موقع الويب للبلدية الإلكترونية).

– تمكين المواطن من تقديم طلباته الخاصة وإعلاناته على شكل طلبات وإعلانات إلكترونية ضمن الفضاء المخصص له.

– إمكانية التحقق من الطلبات، والإعلانات، والمعلومات الخاصة بالحساب مع استمرار متابعة عملية التحقق هذه، وكذا عملية إصدار الوثائق عبر الموقع.

– يؤمّن الموقع حماية المعلومات خلال عملية تبادل البيانات من نظام إلى آخر، أو من خلال تبادل البيانات من النظام إلى المواطن، مما يعمل على دعم مناخ الثقة والأمان لخدمات الإدارة عبر الانترنت.

– خلق فضاء لتبادل المعلومات والوثائق الإلكترونية بين مختلف مواقع البلديات، وهذا من أجل التواصل بين البلديات من خلال شبكة الانترنت، وحتى يتسنى لها الاطّلاع على قواعد البيانات دون اللجوء إلى طلب أي وثيقة من المواطن.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ السّجلات الجديدة تَسمح بنقل المعلومات مباشرة وإدخالها في قاعدة البيانات؛ لأنها مدونة باللّغة العربيّة أساسا، أما السجلات القديمة المدوّنة باللّغة الفرنسية فيتم ترجمتها وتعريبها قبل إدخالها إلى قاعدة البيانات، وهذا الأمر ضروري وحتميّ لأنه يتعلّق بمسألة مهمة وهي تعريب الوثائق الإدارية التي تعدّ من القضايا المتعلقة بإحدى ثوابت ومقومات الهوية الوطنية وهي اللّغة العربيّة، وتندرج ضمن الإصلاحات التي قامت بها الجزائر في إطار السعي إلى تعريب المؤسسات والإدارات العمومية بعد الاستقلال حين وجدت الجزائر نفسها دون تأطير كافٍ وعجز على كافة المستويات والقطاعات، فقد ورثت قطاعات هشّة تصبو إلى محو الشخصية الجزائرية، وطمس الهويّة الوطنية، ودفن معالم تاريخ الشعب الجزائري، وكان من الضروري إجراء الإصلاحات اللازمة التي تعكس خصوصيات وملامح الشخصية والهويّة الجزائرية العربيّة الإسلامية، ولكن هذا الأمر لم يكن هيّنا، وتعريب الإدارة العمومية لم يكن بالأمر السهل، فما زالت العديد من المؤسسات والإدارات العمومية وحتى الخاصة –إلى يومنا هذا– تستعمل في معاملاتها الداخلية والخارجية وثائق باللّغة الفرنسية، ونادرا ما يتم إستعمال اللّغة الإنكليزية فيها. وفي المقابل لا تزال الجهود والمساعي المبذولة في سبيل تعريب الوثائق الإدارية في الكثير من المؤسسات الوطنية مستمرة إلى يومنا هذا أيضا، فمنها ما تم في السنوات الأخيرة، وكانت متعلقة بوثائق العديد من الإدارات التي نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: شهادات التخرج وشهادات التسجيل في المؤسسات الجامعية والأكاديمية، وفواتير الشركة الوطنية للكهرباء والغاز، وفواتير المؤسسة الجزائرية للمياه، ووثائق بريد الجزائر، وكذا العقود والمراسلات الإدارية، والصفقات العمومية، ودفاتر الشروط، والاستشارات والاتفاقيات، والمقررات، وكشوفات أجور العمال والموظفين، والمزايدات والمناقصات، وعقود الإيجار، وأيضا سجلات الحالة المدنية (سجلات شهادات الميلاد، وسجلات شهادات الوفيات، وسجلات عقود الزواج) كما سبق وأشرنا، وغيرها من الوثائق الإدارية المختلفة.

على الرغم من هذه الجهود الساعية إلى تعريب الوثائق الإدارية المسجلة بغير لغتنا العربية من أجل رقمنتها بإدخالها إلى أجهزة الإعلام الآلي مع السجلات الجديدة الأخرى، والتي تمت تقريبا بشكل كلّي في مختلف إدارات المؤسسات الوطنية، وذلك توجّها نحو تجسيد الجزائر الإلكترونية على أرض الواقع، وسعيا إلى عصرنة الإدارة وتحديث مصالحها، وتقريبها من المواطن عن طريق تقديم خدماتها وإصدارها من الشبابيك إلكترونيا، وتفادي كثرة الانتظار والوقوع في

الأخطاء، فإن هذه الأخيرة لا تزال تتكرر خاصة في الوثائق الرقمية للحالة المدنية، وهو ما أدى إلى استمرار معاناة المواطنين وربما زاد من حدّتها؛ لأنها تجرّ الكثير منهم إلى أروقة المحاكم من أجل تصحيحها، فالمتاعب بقيت ذاتها وإن قلّت ونقصت، ولكنّ الفرق في أنّها كانت تتم سابقا بجرة قلم وصارت اليوم تُنجز بالنقر على أزرار الحاسب.

فمثلا عندما يرد الخطأ في كتابة الاسم أو اللقب في شهادة الميلاد رقم 12، يتم تصحيحها على مستوى بلدية مكان الازدياد بعد التأكّد من أنّ الخطأ ليس واردا في السجلات؛ وهنا يكون الأمر هيّنا لأنّه لا يستلزم حكما قضائيا، أي أنّ الخطأ وقع عند نقل الاسم من السجل إلى الحاسب، لكن في حالة ما إذا كان الخطأ واردا في السجلات فسيتمّ توجيه المعني إلى المحكمة لتصحيحه، وهكذا يجد المواطن نفسه تائها بين المحكمة وبلدية مكان الازدياد، أو بين المحكمة والبلدية التي تم بها عقد الزواج في حالة الأخطاء في عقود الزواج... وهكذا.

ولعلّ أغلب هذه الأخطاء ترجع لسوء التعريب أثناء نقل المعلومات من السجلات الأصلية القديمة المكتوبة باللّغة الفرنسية إلى أجهزة الإعلام الآلي، حيث كثيرا ما تنحصر الأخطاء الواقعة في سوء كتابة الأسماء والألقاب، وكذا تواريخ الميلاد ومكان الازدياد، كما هو الحال -على سبيل المثال- بالنسبة لحرف **H** باللّغة الفرنسية، فهو يُنقل إلى اللّغة العربيّة في بعض الأسماء بحرف الهاء وفي أسماء أخرى بحرف الحاء، وكذلك بالنسبة لحرف **R** فيتم نقله في بعض الأسماء بحرف الغين وفي أخرى بحرف الراء، وأيضا بالنسبة لحرف **K** الذي يتم نقله في بعض الأسماء بحرف الكاف وفي أسماء أخرى بحرف القاف، والأمر نفسه مع الحرف **A** الذي يتم نقله في بعض الأسماء بحرف الألف وفي أخرى بحرف العين...، ومثل هذه الأمثلة كثيرة، لتبدأ بعد ذلك معاناة المواطن الذي وقع الخطأ في وثائقه، ورحلة بحثه عن التصحيح.

وقد تسبّبت مثل هذه الأخطاء وغيرها في الوثائق الإدارية التي يتم رقمنتها عن طريق أجهزة الإعلام الآلي في عدة مشاكل للكثير من المواطنين، من بينهم -مثلا- أولئك المقبلين على المسابقات الوظيفية الذين وجدوا أنفسهم مضطرين لإلغاء مشاركاتهم في هذه المسابقات؛ لأن الفترة التي تستغرقها عملية تصحيح هذه الأخطاء طويلة ولا تسمح بتقديم الوثيقة المطلوبة في الملف ضمن الآجال القانونية المحدّدة لإيداع الملفات، ناهيك عن التعطيلات الأخرى التي أرهقت من يسعون إلى تجديد وثائقهم الإدارية كبطاقات الهوية الوطنية، ورخص السياقة، وكذا جوازات السفر، حيث أمضى بعضهم أسابيع طويلة من أجل استرجاع هوياتهم الحقيقية بعدما ظلّوا يتناوبون ذهابا وإيابا بين إدارة مصالح الحالة المدنية وقاعات المحاكم التي اضطرّوا إلى الولوج إليها من أجل تصحيح هذه الأخطاء.

ومهما يكن من أمر هذه الأخطاء والهفوات، إلا أن هذه المهمة ضرورية وحتمية من أجل الحفاظ على الهوية والشخصية الوطنية من جهة، وحماية اللّغة العربيّة من جهة أخرى، كما أنها تخدم كلّا من المواطنين المستفيدين وعمال الإدارة؛ فكلهم يتكلمون العربيّة فهي لغتهم الأم، وبالتالي سيتمكن المواطن من فهم الوثائق المقدمة له، وتسهُل المهام على الموظف الإداري أيضا. فإنه قد لاحت في الأفق بعض ملامح التقدم نحو الأمام في ميدان رقمنة البلدية الجزائرية، يمكن حصرها فيما يلي:

- عصرنة المرفق العام باستعمال الوسائل التكنولوجية الحديثة، وتحسين أداء الإدارة العمومية وجعلها تتميز بالفعالية والشفافية من خلال رقمنة جميع السجلات والوثائق الإدارية على مستوى جميع بلديات الوطن.

استعمال اللّغة العربيّة في مختلف الوثائق الرقمية أو التي يتم استخراجها عن بعد بواسطة الشّابكة سواء بصفة كلية أو جزئية، بعدما كانت الكثير من الوثائق تستخرج باللّغة الفرنسية.

- إحداث السجل الوطني الرقمي/ الآلي الذي يربط بين مختلف البلديات وملحقاتها الإدارية، والبعثات الديبلوماسية والدوائر القنصلية، والمؤسسات العمومية الأخرى المعنية لاسيما المصالح المركزية لوزارة العدل، الأمر الذي سمح بإلغاء طلب وثائق الحالة المدنية في الملفات والإجراءات التي تطلبها إدارة معينة، فهذا السجل يمكّن من الاطّلاع المباشر على المعلومات المراد معرفتها.

- التخلص من السجلات القديمة الممزقة التي كانت تؤرّق الموظفين والمواطنين على حد سواء.

- سهولة أرشفة وتخزين المعلومات، والعودة إليها في أي وقت، ومن أي مكان في الجزائر وخارجها.

- ربح الوقت والجهد بالنسبة للموظفين، وتخلّص المواطنين من كابوس الانتظار من أجل استخراج وثائقهم الضرورية.

– تمكين المواطن من خدمة عمومية ذات جودة ونوعية وسرعة، حيث أصبح يستطيع استخراج كل وثائق الحالة المدنية في ظرف وجيز من أي بلدية أو ملحقة إدارية عبر الوطن دون أن يتكبَّد عناء التنقل أو السفر إلى البلدية محلّ التسجيل.

– تمكين الجالية الجزائرية المقيمة بالخارج من تقديم طلب الحصول على عقد الميلاد الخاص (12خ) مباشرة عبر خدمة الأنترنت، والحصول عليه من الممثلية الديبلوماسية أو القنصلية المسجّل فيها.

– إنشاء السجل الوطني الآلي لترقيم المركبات الذي مكّن المواطنين من الحصول على بطاقات الترقيم لمركباتهم بصفة آنية، ودون تكبد عناء التنقل إلى ولاية التسجيل.

– تقديم خدمات إلكترونية عن بعد تمكّن المواطنين داخل الوطن وخارجه من طلب واستخراج وثائقهم الإدارية عن بعد من أماكنهم التي يكونون فيها بواسطة الأنترنت.

– رقمنة مكتب الانتخابات، إلا أن هذه العملية ليست تامة ولم تستوف جميع جوانبها بعد، بالإضافة إلى اعتماد برامج لتطوير عملية الاتصالات أثناء الانتخابات، والتي تتكفل بنقل المعلومات والإحصائيات بين البلديات، ثم بين الدوائر والولايات، ومن ثم على المستوى المركزي في الجزائر العاصمة.

– التسجيل الإلكتروني للحج، مما أسهم في تخفيف العبء على المواطنين في التنقل واستخراج الوثائق، والانتظار في شبابيك البلدية التي يخف عليها الضغط أيضا.

هذا، وقد أكد العديد من رؤساء مصالح الحالة المدنية بمختلف بلديات ولايات الوطن على أهمية استحداث خلايا توعية وتحسيس بالبلديات من أجل إطلاع المواطنين على مستجدات التعامل الالكتروني، وكذا القرارات المتخذة في هذا الإطار، ضمانا للسير الجيد والناجح للعملية، وكذلك حفاظا على صحتهم من تفشي العدوى في ظل هذه الأوضاع الصحية والوبائية السائدة، إلى جانب تكوين موظفي وإطارات الإدارة عن طريق اتفاقيات مع مراكز التكوين الإداري من أجل إعطائهم رؤية حول (الرقمنة). ومن جهة أخرى أكدوا على ضرورة التنسيق بين الإدارات لتفادي التناقض، باعتبار أن التعليمة الصادرة عن وزارة الداخلية الخاصة باستخراج وثائق الحالة المدنية الرقمية عن بعد مثل: شهادات الميلاد والوفاة وغيرها هي أمر إيجابي من حيث تخفيف العبء على المواطنين، وتحقيق الشفافية والقضاء على البيروقراطية، غير أنها خلقت التناقض مع الإدارات التي ترفض وثائق غير موّقعة، موضّحين أن المواطنين الذين استخرجوا الوثائق الرقمية عن بعد، عند تسليمها للإدارات الأخرى التي طلبت هذه الوثائق تصرّ على وجوب توقيعها، في حين أن المصلحة لا يمكن لها أن توقّع وثيقة مستخرجة عن بعد، الأمر الذي يستوجب التنسيق والإعلام من أجل تسهيل تعاملات المواطنين، وإنجاح عملية الرقمنة التي تطمح إلي تحقيقها الحكومة الوطنية على أعلى مستوى وأكثر سرعة. والواضح أنه لبلوغ هذا الهدف لابد من تعميم هذا الأمر على جميع الإدارات والمؤسسات والمصالح في الجزائر، وعدم اقتصاره على واحدة دون الأخرى؛ لأن ذلك حتما سيعيق تطبيق مشروع الجزائر الإلكترونية المراد تجسيده بفاعلية وسرعة على أرض الواقع.

والحقيقة التي لا مفر منها أن هذا الأمر الأخير لا يكون ناجحا البتة إذا لم يتم استعمال اللغة العربية والتعامل بها في جميع الإدارات والمؤسسات العمومية والخاصة، وجعلها جزءا لا يتجزّأ من استراتيجيات الجزائر الإلكترونية، مما يسهم ويساعد على تعميمها ونشرها في الوسط الاجتماعي، فتصبح أداة طيّعة تستجيب لمتطلبات الأفراد والمؤسسات، ولكن بشرط أن تعتمد لغة عربية فصيحة حتى لا يُساء إليها؛ لأن هذه الإدارة أساسا يجب أن تكون في خدمة هذه اللغة، لا أن تقلّل من شأنها أو تهملها وتتركها جانبا.

صحيح أن ثمة مؤسسات خطت خطوات هامة في تعريب إدارتها الرقمية، وهو إجراء يعيد الاعتبار للغة الوطنية، ويدعم استعمالها وتعميمها في باقي المؤسسات الأخرى سواء على المستوى الداخلي لها أم على مستوى تعاملها مع المواطنين، حيث تقوم بإصدار أغلب الوثائق باللغة العربية إن لم نقل جميعها، وهو الأمر الذي يسهِّل عليها عملية التحول إلى التعامل الإلكتروني، كمصالح البلدية مثلا، وشركة توزيع الكهرباء والغاز (سونلغاز) في فواتيرها...، ولكن في المقابل، هناك مؤسسات استغنت عن هذه اللغة نهائيا في معاملاتها ووثائقها الرقمية كشركة الخطوط الجوية الجزائرية على سبيل التمثيل لا الحصر، والتي يلاحظ أنها تتعامل باللغتين الفرنسية والإنكليزية في إدارتها الإلكترونية دون اللغة العربية التي تستبعدها تماما؛ فمثلا من يريد الحجز في هذه الخطوط عبر الشابكة، عليه

ملء الاستمارة الإلكترونية المدونة باللغة الفرنسية. على أن البعض الآخر من هذه المؤسسات وهو الغالب، فيتراوح استعماله بين اللغة العربية واللغة الفرنسية مثلما هو موجود في الجامعات التي تتفاوت في درجة الاستعمال بينهما، غير أن منها ما جعل اللغة الفرنسية تحتل المرتبة الأولى في معظم معاملاتها ومهامها ووثائقها الإدارية الورقية منها أو الرقمية مثل جامعة (تيزي وزو) التي أكّد المتعاملون معها أنها تتعامل باللغة الفرنسية أكثر من العربية، بدليل أن أغلب الوثائق التي يتم إرسالها عبر البريد إلى المخابر والكليات مدونة بالفرنسية.

ونظرا لهذا الواقع الذي يبرز المكانة التي تحتلها اللغة العربية في الإدارة الإلكترونية بالجزائر من خلال الهيمنة الفعلية للفرنسية فيها، ولعل السبب في ذلك أن الإدارة التقليدية أصلا كانت تعتمد أكثر على اللغة الفرنسية، وبالتالي ليس من السهل على الإدارة الجديدة أن تنتقل إلى استعمال اللغة العربية ما لم يتم تصميم برمجيات حاسوبية تتناسب مع هذه الأخيرة، فإنه من المهم أن تبذل المؤسسات جهدا أكبر من أجل تعميم استعمال اللغة العربية في إداراتها الإلكترونية، وأن تمنحها الأولوية في تعاملاتها ومعاملاتها ووثائقها – كما يحدث الأمر مع غيرها من اللغات في الأمم التي تحترم لغتها وتحافظ عليها– استيعابا منها وإيمانا بأن هذا الأمر ضروري وحتمي للحفاظ على الهوية الوطنية الجزائرية بل العربية بصفة عامة، وبالتالي تعمل على تطويع وسائل التكنولوجيا لصالح هذه اللغة فتصبح اللغة الأولى للإدارة الجديدة؛ لأن دور هذه الأخيرة يكمن في الاستعمال الواسع للغة العربية، مما يعمل على حمايتها وتوسيع نطاق انتشارها في مختلف ربوع الوطن وبين الأفراد والمجتمعات أيضا.

عموما؛ إنّ مشروع رقمنة الوثائق الإدارية/ الإدارة الإلكترونية في الجزائر قد نجح إلى حد ما نظرًا إلى طبيعة الخدمات المقدمة في جميع المؤسسات العمومية والمصالح الإدارية، والذي يعود بالفائدة على الحكومة وعلى المواطن على حدّ سواء، بالرغم من المعيقات والعراقيل الكثيرة التي تقف في طريق إرساء نظام الإدراة الرقمية/ الإلكترونية على أرض الواقع في بلادنا، فالأمر ليس هيّنا حقا، فهو يستدعي توفير الإمكانات التكنولوجية اللازمة لتحقيق ذلك من أجهزة إلكترونية بما فيها الشّابكة والحواسيب، والموارد البشرية المدرَّبة تقنيا والمكوَّنة لغويا، والأهم من ذلك الوقوف على اللّغة العربيّة لتأخذ مكانتها في هذا المجال المهم، لذلك نعيد تأكيدنا على أنّ تحقيق النجاح والجودة في هذا الميدان لن يكون إلا باعتماد اللّغة العربيّة في كل المعاملات والوثائق الإدارية الرقمية فتصبح لغة التقنية والإدارة الإلكترونية؛ لأن «دور هذه الإدارة يكمن في الاستعمال الواسع للغة العربيّة، مما يعمل على حمايتها وتوسيع نطاق انتشارها أكثر، ولكن لا ننسى تلك المعيقات التي تصادفها المعالجة الآلية للغة العربيّة، فحتى وإن كانت هناك برمجيات محلّية في نفس مستوى الأداء لبرامج أجنبية...، إلا أن التعريب الحقيقي للإدارة الإلكترونية بالجزائر يبقى في حاجة للدعم من الهيئات المختصة في البرمجيات الحاسوبية واللغوية»، وكذا رفع المضايقات اللغوية في العربيّة لتمكينها من التحول من صيغتها الورقية إلى صيغتها التقنية الرقمية فتصبح مستعدة بشكل كامل للتعامل بآليات رقمنة الوثائق الإدارية، ومن بين هذه المضايقات مثلا «التعوّد على الفضاء الافتراضي، والتأقلم مع الإدارة الحديثة، والعمل على رفع اللبس، وإيجاد الحل لمشكل الشَّكل، والتعامل بالمختصرات، واستعمال الرموز، واستيعاب المصطلحات الأجنبية، والعمل بالتسامح اللغوي، والتفاعل مع الفأرة واللمس، والاستغناء عن الورق...». وعليه فإنه من المفيد حقا الأخذ والعمل بجميع الأفكار والاقتراحات التي من شأنها أن تسهم في خدمة اللغة العربية في مجال الإدارة الإلكترونية ورقمنة الوثائق الإدارية، من مثل:

– العمل على الاستخدام المتزايد والجاد للغة العربية في المؤسسات العمومية والخاصة التي تعتمد الإدارة الرقمية/ الإلكترونية، وترقية محتواها الرقمي بالعربية، وذلك من أجل المحافظة على المكانة اللائقة بهذه اللغة بين اللغات الأجنبية التي تزاحمها.

– تكوين وتدريب العاملين في الإدارة على كيفيات استخدام الحاسب الآلي، وبخاصة على كيفية استخدام لوحة المفاتيح العربية، لأننا كثيرا ما نسمع بعض الموظفين في الإدارة يقولون بأنهم لا يتقنون استخدام هذه اللوحة على عكس اللغة الفرنسية التي يتباهون بإتقانهم استخدام لوحة مفاتيحها أفضل من لوحة مفاتيح لغتهم الرسمية.

– إنشاء هيئات وفرق مختصة في المعلوماتية وتصميم البرمجيات التطبيقية باللغة العربية وتطويرها بغرض استغلالها في الإدارة الرقمية/ الإلكترونية، والاستعانة بها من أجل الاستعمال الأمثل لهذه اللغة في الحاسب الآلي؛ لأن التحول إلى الأسلوب الرقمي/ الإلكتروني لا

يقوم فقط على استخدام الجهاز والشابكة، بل لابد أيضا من معالجة لغوية آلية للمعلومات التي يتم إدخالها في الجهاز، فالإدارة الإلكترونية لا تدير نفسها، إنما تحتاج إلى إطارات مؤهّلة في التقنيات والبرمجيات اللغوية.

– الاستعانة كذلك في الإدارة الرقمية/ الإلكترونية بخبراء في اللغة العربية، ومختصين في التدقيق اللغوي الذين يقومون بتصحيح الوثائق الإدارية قبل الانطلاق في استخدامها، مع الاعتماد على الجهود اللغوية التي تخدم القطاع الإداري، ومثال ذلك معجم المصطلحات الإدارية الذي صدر عن المجلس الأعلى للغة العربية.

– التنسيق بين المؤسسات اللغوية كالمجلس الأعلى للغة العربية والمجمع العلمي للغة العربية من جهة، وبينهما وبين مختلف اقطاعات الوزاريّة من جهة أخرى، والتكاثف فيما بينها جميعا من أجل العمل على تعريب الإدارة الإلكترونية بالشكل الذي يسهم في خدمة اللغة العربية وليس العكس، لأن العراقيل لا تتجلى في مرحلة التخطيط لاستعمال هذه اللغة في الإدارة الإلكترونية بقدر ما تنجلي في مرحلة التطبيق الفعلي لهذه اللغة فيها.

– توعية المواطنين بضرورة التعامل الإلكتروني في أداء الخدمات العامة مما يساعد في تجسيد مشروع الإدارة الإلكترونية في بلادنا، كالعمل على تنظيم أيام تحسيسية على مستوى الولايات والدوائر والبلديات وغيرها بأهمية التعامل عبر الوسائل التكنولوجية الحديثة من أجل الاستغلال الأمثل للوقت والجهد والمال.

● **د. مختارية بن عابد**
جامعة عبد الحميد بن باديس – مستغانم

المصادر

1. أعمال ندوة: اللّغة العربيّة وتحديات الإدارة الإلكترونية، 2016، منشورات المجلس الأعلى للغة العربيّة.
2. خطاف ابتسام، غياظ شريف، توجه الجزائر نحو تطبيق الحكومة الإلكترونية عبر مشروع الجزائر الإلكترونية 2013 (الواقع والتحديات)، 2018، مجلة العلوم الاقتصادية والتسيير والعلوم التجارية، جامعة المسيلة، الجزائر.
3. محمود شرقي، صليحة حدوش، 2021، دور رقمنة الإدارة المحلية في إضفاء الشفافية وتعزيزها في الجزائر، مجلة صوت القانون، جامعة خميس مليانة، الجزائر.

اللغة العربيّة والنّشر الإلكترونيّ في الجزائر

د. كريمة زيتوني
د. محمّد بن عمارة

تطوّرت تكنولوجيا المعلومات، وطرق تخزينها ونشرها، بعد أن زحفت الثّورة الرّقميّة على عالم الأبحاث والتّظاهرات العلميّة، وعلى الكتابة والتّأليف والنّشر، لمختلف العلوم والفنون واللّغات، على رأسها اللّغة العربيّة، التي دخلت بقوة متميّزة ميدان الحوسبة والبرمجيات الإلكترونيّة وفضاء الشّابكة في الآونة الأخيرة، خاصّة في الجزائر، وذلك لِما تمّ تجنيده من وسائل وطرق مبتكرة وتقنيات زادت من تفعيل انتشار استعمال اللّغة العربيّة، بإشراف فرق بحث ومؤسّسات تسعى لحفظ لغتنا العربيّة وتوسيع نشرها في نطاق أرحب مُؤَمَّنٌ على الحفظ والاسترجاع لمختلف مدوّناتها.

النّشر الإلكتروني (النّشر الرّقمي):

يُعدّ النّشر الإلكتروني أو الرّقمي ممارسة حاليّة ظهرت في التّسعينيات من القرن الماضي (القرن XX)، وهو نشر الكتب والدّوريات وقواعد البيانات البيليوغرافيّة وغيرها من المعلومات في شكل رقميّ على أقراص مدمجة أو على الخطّ المباشر من خلال الشّابكة لمختلف المستفيدين، وهذا ما سمح بالوصول إلى المعلومات من خلال أشكال جديدة لنشر المعلومات واسترجاعها، ويتم باستخدام كافة إمكانات الحاسب (الأجهزة وملحقاتها، البرمجيات) في تحويل المحتوى المنشور بطريقة تقليديّة إلى محتوى منشور بطريقة إلكترونيّة، ويشمل المكتبات الرّقميّة، والكتب الإلكترونيّة، والمقالات، والفهارس...

وهكذا أصبح النّشر الإلكتروني اليوم يمسّ أغلب المؤسّسات والمعلومات والأحداث فيكاد يتحوّل كلّ حدث من العالم الواقعي إلى العالم الرّقمي، كما أسّست بعض الدّول العربيّة مشروعا في هذا المضمار، وهو الاتّحاد العربي للنّشر الإلكتروني الّذي يعمل على توسيع حركة النّشر العربي، بتوفير المادة المعرفيّة لجميع القرّاء والباحثين في العالم.

ويرتكز النّشر الإلكتروني على الشّابكة لبثّ المعلومات والمعارف، ويُبنى على ثلاثة محاور أساسيّة:

- **الرّقمنة**: مثل كتب گُوگْل المتوفّرة في الموقع.
- **النّشر الرّقمي**: وضع كتب رقميّة في الشّابكة، ولا تفوتنا الإشارة في هذه النّقطة إلى أعمال المجلس الأعلى للّغة العربيّة الّذي عمل على إثراء المحتوى الرّقمي بالعربيّة؛ بإعداد مجموعات من التّطبيقات التي تعالج وتخزّن وتعرض معلومات باللّغة العربيّة، وإنتاج برمجيات لإعداد تطبيقات تتلاءم مع اللّغة العربيّة إلكترونيا، وتشمل هذه المجموعات كل ما يتم تداوله رقميا من معلومات مقروءة أو مرئيّة أو مسموعة وقد بدأ هذا العمل منذ بدايّة سنة 2016.
- **النّشر على الشّابكة**: وهي المنشورات المنجزة داخل الشّابكة مثل ويكيپيديا.

فضاءات ونماذج من التّجارب الجزائريّة في النّشر الإلكتروني للّغة العربيّة:

قبل المرور على أهمّ فضاءات ومناحي ومجالات النّشر الإلكتروني في الجزائر، تستوقفنا الإشارة إلى أهمّ أنواعه وطرقه، فما هو موجود من منشورات إلكترونيّة ليست كلّها ذات طابع واحد، وإنّما هي واردة بأنماط وصيغ مختلفة:

- النّسخ بالماسح الضّوئي (تصوير الوثيقة)؛ وهو نشر إلكتروني مواز يكون فيه النّشر مأخوذا من نصوص مطبوعة ومنشورة مسبّقا، فهو ناتج عنها بالبيانات والمعلومات نفسها، وهو عمليّة نقل كلّي لمختلف نسخ المدوّنات اللّغويّة، من صيغتها الورقيّة إلى صيغتها الرّقميّة

عبر تقنيّة المسح الضّوئي/ Scanner، التي أصبحت في تطبيقات آلات الطّبع والهواتف الذّكيّة.

– النّشر الإلكتروني الخالص أو الكتابة بصيغة وورد/ Word مباشرة على الحاسب (وثيقة مقروءة بالعين)، لا ينطلق فيه من النّصوص المطبوعة بل هو إلكتروني صرف، لا يوجد إلا في شكله الإلكتروني فقط.

– نشر إلكتروني مسجّل صوتا فقط أو صوتا وصورة: قد يكون الإلقاء صوتيا (محتوى مسموع)، وقد يكون أيضا نشرا إلكترونيا مكتوبا/ مقروءًا ومسموعا. وبتعدد الجوانب اللغويّة والحاسوبيّة أصبح النّشر الإلكتروني يغطي جميع جوانب معالجة اللغة العربيّة آليا: حرفا وصرفا ونحوا ودلالة ومعجما، ويشمل كذلك اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة، وذلك نظرا لتزايد استخدام الصّوت للإدخال والإخراج في عمليّة تبادل المعلومات؛ أي أنّ تعدد الأنساق الرّمزيّة جعل النّشر الإلكتروني غير مقتصر على النّصوص المكتوبة فقط، بل شمل أيضا الرّسومات والصّور الثّابتة والمتحركة– وهو الأمر الذي يتطلب سعة تخزين هائلة، علاوة على ضرورة تفهم العلاقة بين النّصوص والبيانات المرئيّة.

وبما أنّ النّشر الإلكتروني قد خدم اللّغة العربيّة ومازال يفعل، بكلّ ما قدّمته التّقانة من وسائل، بُذِلت مجموعة من الجهود المتضافرة في سبيل نشر اللّغة العربيّة إلكترونيا بطرق مختلفة، وضمن كلّ نوع تندرج مجموعة من التّقنيّات المبتكرة، فإنّ الجزائر قد تبنّت كغيرها من الدّول العربيّة النّشر الإلكتروني بصفة عامة وتقنيات التّعليم الإلكتروني في تطوير أنظمتها التّعليميّة بصفة خاصّة، فاتجهت إلى تنويع طرق النّشر لتشمل النّشر الرّقمي. وحتّى لا تندثر لغتنا العربيّة وتذوب في اللّغات الأخرى، ظهرت المكتبات الرّقميّة في الجزائر وتنوعت بين جمع المضامين الرّقميّة وفهرستها وعرضها وبين مجهودات الرّقمنة لكتب ومصادر ورقيّة، ممّا زاد من استثمار النّاشر في المزج بين الكتاب المطبوع والإلكتروني. وهكذا يضمن النّشر الإلكتروني طول عمر الوثيقة، كما يمكّن من الاطّلاع على محتويات المكتبات، ومراكز المعلومات، والأرشيف الإلكتروني والملتقيات والنّدوات، ومختلف الأبحاث، في أي وقت ومن أي مكان؛ إذ نجدها متاحة بصفة دائمة. وانتقلت مختلف الإصدارات العلميّة التي تخصّ اللّغة العربيّة من عالم الطّباعة والورق إلى عالم البرمجيات والرّقمنة والإلكترونيات، ونذكر في هذا المجال:

- **المكتبة الإلكترونيّة/ Electronic Library:**

يمكننا تعريف المكتبة الإلكترونيّة بأنّها المكتبة التي تتكوّن مقتنياتها من مصادر المعلومات الإلكترونيّة المخزّنة في الأقراص المرنة أو المضغوطة أو المتاحة على الخطّ المباشر أو عبر الشّبكات، إذ تعتمد في تقديم خدماتها على وسائط إلكترونيّة، وهي تنشأ وتثبّت من خلال نظام الحاسب.

والمكتبة الرّقميّة هي مكتبة تحوي في طيّاتها مختلف الكتب الإلكترونيّة/ E-Books، وهي عبارة عن وسائط معلوماتيّة رقميّة، وقد تكون هذه الكتب متوفّرة على الخطّ المباشر عبر الشّابكة أو على الخطّ غير المباشر من خلال الأقراص الضّوئيّة أو المرنة، أو أي شريحة اختزانيّة قابلة للقراءة على الحواسيب أو الهواتف الذّكيّة، وغيرها.

وبما أنّ أغلب العلوم الإنسانيّة في الجزائر تقدّم باللّغة العربيّة فإنّه يمكننا التّأريخ لأوّل مكتبة إلكترونيّة في الجزائر بتلك التي كتبت موضوعاتها باللّغة العربيّة، بغضّ النّظر عن تخصّصها، وبذلك تكون مكتبة أحمد عروة بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميّة أولى المكتبات الجامعيّة التي بادرت إلى إنشاء مكتبة رقميّة؛ وقد أجريت حول الموضوع العديد من البحوث والدّراسات الأكاديميّة، وانتهى بعضها إلى نتيجة مفادها أنّ دخول المكتبات الجزائريّة عالم المعلوماتيّة هو من مظاهر التّطوّر التّكنولوجي من جهة، والاستثمار الفعليّ لمختلف المدوّنات من جهة ثانيّة.

ومن هنا لم يكن بإمكان دور النّشر –في ظل الانتشار الرّهيب للهواتف الذّكيّة والوسائط الإلكترونيّة– تجاهل النّشر الإلكتروني، فالأجهزة المحمولة مكّنت المطالعين من قراءة الكتاب في فترات الانتظار، ولأنّ الكتب الإلكترونيّة يسهل الوصول إليها عبر الشّابكة، أصبحت ذات تردّد واسع، ما خوّل الحكومات والجزائر بخاصة من توفير العديد من مواقع الكتب الإلكترونيّة، ممّا سهّل عمليّة الوصول إلى الكتاب بغض النّظر عن البعد والوقت، فزيادة السّرعة في اقتناء كتب اللّغة العربيّة، بدلا من انتظار مدة طويلة للطّبع، مع زيادة مرونة وتواتر المعلومات راجع إلى تقنيّة سرعة النّشر الإلكتروني، التي تستلزم الوصول الفوري للمعلومات الهامّة، إذْ تسمح بذلك لأفراد المجتمع بالتّعرف على البحوث في عدة مناطق من العالم. ومن أهمّ المكتبات الرّقميّة في الجزائر نذكر:

- مكتبة المجلس الأعلى للّغة العربيّة:

تأسست مكتبة المجلس الأعلى للغة العربيّة بتاريخ 15 جانفي 2000، وهي مكتبة متخصّصة؛ إذ كانت تخدم فئة معينة تشكل مجتمع الخدمة، ونقصد بها العاملين بالمؤسّسة وكذا أعضاء المجلس، أمّا حاليا فأصبحت تستقبل قرّاء خارجيّين من باحثين وأساتذة وطلبة جامعيّين وتسعى جاهدة إلى تلبيّة حاجياتهم. ويكشف لنا الجدول الآتي عن الرّصيد الكلي للمكتبة بمختلف منشوراتها:

نوعيّة الوثيقة	عدد العناوين
الكتب	10604
الدّوريات	250
الأطروحات	15
القواميس	240
الموسوعات	80
الأوعيّة الإلكترونيّة	320
المجموع	11509

ويمكن الاطلاع على محتوى المكتبة من خلال الرّوابط الإلكترونيّة الآتيّة:

الفهرس العربي الموحد:

http: / /www.aruc.org

الفهرس المشترك الجزائري:

http: / /www.ccdz.cerist.dz /ccdz_ar

بوابة مكتبات الجمهوريّة الجزائريّة:

http://www.aruc.org/ar/web/auc-algerria/home

- مشروع معلمة المخطوطات الجزائريّة:

مشروع معلمة المخطوطات الجزائريّة هو عمل مشترك بين المجلس الأعلى للّغة العربيّة والمجلس الإسلامي الأعلى ووزارة البريد والمواصلات السّلكيّة واللّاسلكيّة والتّكنولوجيات والرّقمنة، حيث تمّ الإعلان عن رقمنة بعضها وإتاحة الاطّلاع عليها في مناسبة إحياء يوم العلم 04/ 16/ 2019م، إضافة إلى مشروع: الخزانة الجزائريّة للتّراث، ومشروع المَعْلَمَة هو أوّل مشروع جزائريّ لرقمنة المخطوطات؛ الّذي انطلق في خطوته الأولى من نسخ بعض المخطوطات حفاظا على النّسخة الورقيّة من التّلف لكثرة الاستعمال.

- مشروع المعجم الطّوپونيمي الجزائري:

مشروع المعجم الطّوپونيمي الجزائري: وهو معجم مختصّ بأسماء بلديات مختلف الولايات الجزائريّة، حيث يسهم في تحضير أجزائه وإخراجها نخبة من الأكاديميين بتوثيق تراث الأمكنة في المعجم الطّوپونيمي، وبذلك هو يخدم ذاكرة الأمّة الجزائريّة بإحيائها وتصويبها والمحافظة عليها، وكلّ ذلك باللّغة العربيّة، وقد صدر العدد الأوّل منه في يوم الأحد 04 / 07 / 2021م، عن المجلس الأعلى للّغة العربيّة، وهو معجم فريد من نوعه، باللّغة العربيّة، لا يزال العمل فيه متواصلا لبقيّة الأماكن، ويتمّ تغذيّة منصّة موقع المعجم تدريجيا لتُصبح في الخدمة فور صدور بقيّة أجزائه بصيغتَيه الورقيّة والرّقميّة.

صورة غلاف المعجم الطّوپونيمي في جزئه الأوّل:

ومن التّقنيات المبتكرة والمستحدثة التي اعتمدها المجلس الأعلى للّغة العربيّة لإتاحة جميع المعاجم الفرعيّة المتضمّنة لأسماء بلديات كل ولايّة على حدة؛ هي تزويد كل ولايّة بشيفرة القارئ السّريع/ QR، وجاءت هذه التّجربة التي تبنّاها المجلس لتُسرّع من وتيرة وصول العمل الصّادر إلى القارئ.

وشيفرة القارئ السّريع أو كود الاستجابة السّريع/ Quick Response Code: هو رمز ثنائي الأبعاد (طول وعرض)، ويوجد به مربّعات في ثلاث زوايا، توجد بينها المساحة الافتراضيّة التي تحمل البيانات المقروءة ويمكن قراءته عن طريق قارئ رمز الاستجابة السّريعة أو عن طريق آلة التّصوير المثبّتة في الهواتف الذّكيّة، وهذه أهمّ ميزة فيه، أي أنّه يمكّننا من الحصول على الكثير من المعلومات بسهولة فقط بتصوير المربّع.

رمز شيفرة القارئ السّريع:

نموذج من ولايات المعجم وفق شيفرة QR

المكتبات الرّقميّة لديوان المطبوعات الجامعيّة:

المكتبات الرّقميّة لديوان المطبوعات الجامعيّة: وهي تضمّ جزءا من البحوث والكتب والوثائق الموجّهة إلى البحوث البيداغوجيّة الخاصّة بالطّلبة في مرحلة الليسانس والماستر، والجزء الآخر موجه إلى عامّة النّاس. وقد غطّت المكتبة الرّقميّة جميع التّخصّصات ووضعتها تحت تصرف الأساتذة والطّلبة، وجاهزيتها رقميّا جعلتها محط استفادة الكثير من روّادها؛ خاصة في الظّروف الأخيرة (جائحة كوفيد 19) طيلة فترة الحجر الصّحي.

• المجلّات الإلكترونيّة/ E- Review:

لعلّ الدّور الفعّال الّذي لعبته المجلّات المختلفة عامّة والمتخصّصة خاصّة في نشر الفكر والثّقافة والإبداع والعلم والمعرفة لا يكاد يغفل عنه أي قارئ باحث مطّلع، سواء كان ذلك في النّهضة الفكريّة العربيّة المشرقيّة، أم كان في نظيرتها وموازيتها في المغرب العربي؛ الجزائر تحديدا، إذ لا يخفى عنّا أنّ حركة تأسيس المجلاّت بأنواعها لنشر مختلف العلوم كانت من بين الجهود المضنيّة التي دفعت بحركة العلم ومواكبة التّطوّر العلمي إلى الأمام في بدايّة عصر التّنوير وتماشيا مع متطلبات العصر لِما وصلت إليه اليوم في عصر التّكنولوجيا والذّكاء الاصطناعي من جهة، ومن جهة أخرى كانت هناك دعوة إلى وضع مجلّات متخصّصة بعدما كانت شاملة تشبه بذلك الجرائد التي ترصد وتقدّم للقارئ مختلف الأخبار والمعلومات، وبما أنّ العلوم استقلت عن بعضها، فالمجلّات أيضا استقلت حسب ميادين بحثها، فظهر في الدّراسات اللّغويّة والأدبيّة والنّقديّة مجلّات عديدة تهتمّ بذلك، وأنشئت منصّة جزائريّة تسهر على تنظيم عمليّة النّشر، وكلّ هذا أسهم في رقمنة اللّغة العربيّة والنّهوض بها وإعطائها مكانة متميّزة في عالم البرمجيات.

والمجلة هي: كلمة اصطلاحيّة تعني دوريّة تتناول معارف ومعلومات متنوّعة عن جانب أو جوانب من الحياة، وكلمة مجلّة في اللّغة العربيّة تعني قائمة بمجموعة من المعارف وجمعها مجلّات ويعبّر عنها بالإنكليزيّة بـ Review أو Magazine والكلمة الأولى تعني معاينة والكلمة الثّانيّة تعني مخزنا للبضائع – والمعنيان يعبّران عن مضمونها– من كونها معايَنة وفحص لمختلف المواد المعروضة فيها، والتي ستخضع بعد ذلك إلى الحفظ والتّخزين.

والمجلّة هي إحدى الوسائل المهمّة للاتّصال بالجماهير، تصدر في دوريّة معيّنة، وأقلّ فترة لهذه الدّوريّة أسبوع، وأكثرها خمس سنوات، تأخذ من الكتاب عمقه ومن الصّحيفة تنوّع مادتها.

من بين أهم نقاط التّشابه والاتّفاق بينها وبين الصّحيفة والكتاب نذكر:

* كلّها من جنس المطبوعات ورقيّة كانت أم إلكترونيّة.
* أغلب محتوياتها التّحريريّة أو مضامين موادها تمر قبل النّشر والتّوزيع عبر خطوات أساسيّة.
* تكاد تتفق شكلا على عنوان شامل يحمل عنوان المطبوعة ككلّ، وحجم معيّن وفهرس.
* تكون تقريبا بلغة موحّدة على طول المطبوع.
* تقدّم كلّها فائدة لصاحبها وللمطّلع عليها.

أمّا عن أهمّ أوجه الاختلاف بينها فيمكن حصرها في النّقاط الآتيّة:

* في التّأصيل اللّغوي للمصطلح: الكتاب والصّحيفة مذكوران في القرآن الكريم في حين كلمة مجلّة غير مذكورة.
* تختلف من حيث مواعيد النّشر التي تأخذ وقتا في الكتاب عن المجلة وعن الصّحيفة.
* الاختلاف في الحجم وعدد الصّفحات.
* الاختلاف في الغلاف: عنوانه، شكله، رسوماته، ألوانه.
* الاختلاف في مصدر الصّدور بين دُورِ النّشر والمؤسّسات التّعليميّة الجامعيّة خاصّة.
* بالرّغم من أنّها تكون موحّدة اللّغة إلّا أنّه لكلّ منها لغتها الخاصّة بها، وأساليبها، ومستويات تعبيرها الأقرب إلى نوعيّة مادتها التّحريريّة.

وإذا وقفنا على لغة المجلّة الجزائريّة نجد أنّ نسبة الكتابة باللّغة العربيّة في المجلّات الإلكترونيّة الجزائريّة تمثّل ما يقارب نسبة 75 ٪ إلى 90 ٪، وربّما ذلك راجع إلى لغة تدريس مختلف التّخصّصات باللّغة العربيّة أمّا باقي المجلّات فتكون بلغة أخرى لسبب دراسيّ أو علميّ أو بحثيّ أو ثقافيّ مقصود لذاته، كالمجلّات التي تصدر عن أقسام تعليم اللّغات الأجنبيّة، وبعض التّخصّصات العلميّة كالبيولوجيا والرّياضيات فإنّها تكتب باللّغات الأجنبيّة، ومع ذلك تبقى بعض المجلّات متعدّدة اللّغة، إذ يجد متصفّح المنصّة ما يقارب خمسمائة وعشر (510) مجلّة باللّغة العربيّة في مختلف التّخصّصات من مجموع ستمائة وسبعة وثمانين (687) مجلّة.

كما أنّ تغليب اللّغة العربيّة في كتابة المجلّات الجزائريّة يكاد يُتفق عليه،

لأنّها لغة البلد الّـذي تصدر به والقارئ الّـذي تُوَجَّـه إليـه، وتكون لغـة عربيّة فصيحـة إلّا مـا كان مقصـودا لذاته من اسـتخدام بعض التّعبيرات الشّـعبيّة أو العاميّـة القليلـة جدّا، لسـبب جوهريّ ولطبيعة موضـوع البحـث، لكنّها كلّها لغة عربيّة.

وبذلـك تكـون اللّغـة العربيّـة التي يُكتـب بهـا المقـال لغـة نثريّـة فـي أغلبهـا؛ سـهلة واضحـة، قـادرة على إيصـال الأفكار والمعانـي والأوصاف والمواقف والشّروح وغيرها إلى القرّاء والمستفيدين منها.

أمّـا عـن تاريـخ صـدور أوّل مجلّة باللّغة العربيّة في الجزائر حسب ما تشير إليه بعض المصادر فإنّه يرجع إلى **مجلّة الإحياء** التي أسّسـتها المستعربة Jeanne Desrayaux/ جـان ديريّـو (1886م-1914م)، وذلـك تأثّـرا بثقافـة وعمـل بعض النّسـاء الرّائدات فـي المجلّات أثنـاء زيارتهـا لمصر، منهن ألكسـندره أفرينو رئيسة تحرير مجلة أنيس الجليس الأدبيّـة، والأديبـة اللّبنانيّة لبيبة هاشـم صاحبة مجلة فتاة الشّرق.

وجاءت مجلة الإحيـاء بهذا العنوان رغبة مـن صاحبتهـا في إحيـاء التّراث العربـيّ، ففتحـت صفحاتهـا للعلماء والأدباء الجزائريـيـن المتأثّرين بالنّهضة في المشـرق، لتبليغ أفكارهـم والتّعبير عن آرائهم بلغتهم المتداولة.

صـدر أوّل عدد مـن المجلّة في 14/ 02/ 1907م، وكانـت تصـدر مرّتين في الشّـهر بـ: 8 صفحـات، وربّما كان هذا راجعا إلى ظروف تأسيسها، وأيضا إلى كونها البذرة الأولى للنّشـر التي ستؤتي ثمارها بمـرور الوقـت، وكان مقرّها 5 شـارع لالما بمدينـة الجزائـر، وكانت تطبـع في مطبعـة فونتانا الشّـرقيّة، ولم تعمّـر المجلّة طويلا حيـث كان عددها السّـابع والأخيـر فـي 14/ 05/ 1907م، وأعدادها محفوظة فـي المكتبة الوطنيّة بـپـاريس.

وبيـن الأمـس واليـوم، قفـزت المجلّات العلميّة الجزائريّة قفزةً نوعيّة، وسـاعدها الـذّكاء الاصطناعـي علـى تجاوز الإصـدار الورقي الـذي أصبح ثانويّا لتعتمد الإصدار الإلكتروني الذي لعب دورا كبيرا في حفـظ اللّغة العربيّة وترسـيخها ونشـرها وتعزيز استعمالها ودمجها في عالم الرّقمنة والتّكنولوجيا، وبهذا أصبحـت قيمة المجلّـة تضاهي قيمة الكتاب.

والمجلّات العلميّة الإلكترونيّة هي: نسخة رقميّة لمجلة مطبوعة أو لمنشور إلكترونـي ليس لـه نظير مطبـوع، تتاح من خـلال الويـب أو منصـة إلكترونيّة أو أيّ وسـيلة مـن وسـائل الوصـول الأخرى للشّـابكة، والتـي تكون متاحة لمجال البحث العلمي، تخضع لمعايير تضبطهـا، وتكـون محرّرة بلغـة معينة. ووفـق مـا تبيِّنُـه الأبحـاث فـي موقع مدوّنات عربيّة فإنّ أوّل مجلّة إلكترونيّة باللّغة العربيّة نشـرت فـي الجزائر هي: **مجلـة شـمس الجزائـر**، التـي صـدر عددها الأوّل في ديسـمبر 2014م، تحت إشـراف رئيس تحريرها أنور رحماني، وهي تعالـج مختلف القضايـا الفكريّة والثّقافيّـة والاجتماعيّة شـأنها في ذلك شأن الجريدة.

صورة غلاف مجلة شمس الجزائر:

وباتساع فضاء الشّابكة ونشاط رقمنة مختلـف المدوّنـات اللّغويّة، ومختلف العلوم، أخذت المجلّات نصيبا أوفر من عالم الرّقمنة، وانتشرت العمليّة وتطوّرت إلى ظهور منصة علميّة جزائريّة تشـرف على تنظيم عمليّة النّشر العلمي، أسهمت أكثر في تطوير وتعزيز رقمنة اللّغة العربيّة؛ المنصّـة أو البوابـة الجزائريّة للمجلّات العلميّـة ASJP /Algérienne Scientifique journal Plateforme؛ وهي منصّة إلكترونيّة للمجلّات العلميّـة الوطنيّة، وتندرج في إطار وطنيّ للمعلومات العلميّة والتّقنيّة، تأسّسـت من تطوير وإدارة مركز البحث في الإعلام العلمي والتّقنـي (CERIST) بالجزائر.

وتُعـدّ المنصة طرفا ثالثًا وسـيطا بين الكاتـب (صاحـب المقـال) والنّاشـر (المجلـة التي يُنشـر فيها المقـال)، إذ يخضع المقال إلى جملة من الخطوات التّقنيّة الممنهجـة المضبوطة في طريقه إلـى النّشـر. ويُمكـن البحـث عن أي مجلة باللّغة العربيّة مهما كان تخصّصها خـارج الدّراسـات اللّغويّـة بالرّجـوع إلى اسـتخدام كشّـاف هجائـي مرتب بأول حرف مـن المجلّة وفـق التّرتيب الألفبائـي، كمـا أنّ المنصـة مبرمجـة بثلاث لغات من بينها اللّغة العربيّة، ممّا يسهّل على الباحثين اعتمادها.

وسـيجد متصفّح منصـة المجلّات العلميّـة أنّ أغلـب المجـلّات باللّغـة العربيّـة، وعند بحثـه عن مجلّـة معيّنة يكفيـه النّقـر فـي خانـة المجـلّات وسـتظهر له مرتّبـة هجائيـا، نذكر منها علـى سـبيل المثـال: مجلّـة المعيار، والمنار للدّراسـات والبحوث القانونيّة والسّياسـيّة، وحوليـات التّاريـخ والجغرافيا... وغيرها من المجلّات في بقيّة العلـوم التي تكتب باللّغـة العربيّة.

والتي شكّلت مكسبا كبيرا لتفعيل رقمنة اللّغة العربيّة، كما أنّ توحيد سلّم مراجعة وتحكيم المقالات بين مختلف المجلّات في ضرورة مراعاة سلامة اللّغة بكلّ قواعدها، حفظ هو الآخر اللّغة العربيّة وأسّس لها في تحرير البحث.

ومن المزايا التي بإمكان المجلّات الإلكترونيّة تحقيقها في سبيل تفعيل إدراج اللّغة العربيّة في فضاء الرّقمنة نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

– النّشر العلمي في المجلّات الأكاديميّة الجزائريّة الذي زاد من تحدّيّات اللّغة العربيّة في فرض وجودها وتوسيع اعتمادها في الكتابة والقراءة والبحث.

– تُعدّ المجلّات الإلكترونيّة أرشيفا إلكترونيا قائما على نشر وتوزيع وفهرسة ومشاركة المقالات العلميّة باللّغة العربيّة مجّانا وسريعا – في شتّى المجالات التي تقدّم باللّغة العربيّة على غرار المقالات المتخصّصة في اللّغة العربيّة وآدابها– دون حواجز ماديّة أو جغرافيّة.

– المحافظة على اللّغة العربيّة الفصيحة أو القياسيّة بإعطاء الأهميّة الكبرى لسلامة قواعدها النّحويّة والصّرفيّة والإملائيّة والصّوتيّة والدّلاليّة، إذ يشترط في عمليّة النّشر وضع المقال وفق القالب الخاصّ بكل مجلة ولا تكاد تختلف عن بعضها إلّا في بعض الجزئيات، هذا بالإضافة إلى وجود نموذج تقييمي موحّد للمقال عبر المنصّة؛ من بين معاييره درجة سلامة اللّغة العربيّة في الكتابة.

– تيسير وتبسيط وتفعيل عمليّة النّشر باللّغة العربيّة، وحفظ المقالات العربيّة المتخصّصة في كافة الحقول المعرفيّة العلميّة، ذات مستوى رصين ونقاش علميّ جاد وهادف يعزّز دور اللّغة العربيّة في المجال العلمي.

– تشجيع وتحفيز الباحثين والدّارسين والطّلبة على الإنتاج المعرفي باللّغة العربيّة.

– دعم وترسيخ دور اللّغة العربيّة على أنّها لغة علم وتواصل معرفي وثقافي، بما يوازي العدد الكبير للنّاطقين بها وأهميّتها عالميا، إذ أنّ المجلة الإلكترونيّة باللّغة العربيّة متاحة لأي باحث في العالم بأسره للاستفادة منها.

وهكذا جاء مؤخرا اعتماد المجلات الإلكترونيّة في الجزائر لسهولة النّشر وربح الوقت والمال، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر مجلة الإبداع العربي؛ وهي مجلة إلكترونيّة تأسّست في شهر مارس من عام 2015م، تحت إشراف الأستاذ الجزائري صالح كحول، وهي مجلة متميّزة في العالم العربي لها عدّة مسابقات أسبوعيّة وشهريّة، تمنح فرصة الاحتكاك بين الأدباء والكتّاب والمبدعين من مختلف المشارب الأدبيّة والبلدان والثّقافات العربيّة. وهذا ما يسمح بالتّعريف بالثّقافة الجزائريّة ويعطي للبلاد طابعا عربيا، ويؤكد على مكانتها بين الدّول.

ولعلّ من المزايا التي حقّقتها رقمنة المجلّات العلميّة أيضا؛ التّفاعليّة بين هيأة النّشر والمؤلّف؛ الّذي يسهل التّواصل معه من خلال منصة المجلّات. وبالتّالي تسريع وتيسير عمليّة التّقييم والتّقويم.

أمّا على مستوى المجلّات المتخصّصة في اللّغة العربيّة التي توالتّ فيما بعد، فقد شهدت تأسيسا واسعا في الوسط العلمي والثّقافي بشكل عام، والوسط الجامعي بشكل خاص، إذ أصبح لكلّ قسم على الأقلّ مجلّة علميّة خاصّة به، ومن أهمّ تلك المجلات على سبيل التّخصص في اللّغة العربيّة وعلومها وآدابها –وما أكثرها اليوم– نذكر: مجلة اللّغة العربيّة التي يصدرها المجلس الأعلى للغة العربيّة بالجزائر، ومجلّة اللّغة والأدب التي تصدرها جامعة الجزائر 2، ومجلّة الموروث التي تشرف عليها كلّيّة الأدب العربي والفنون بجامعة مستغانم...

وبما أنّ مجلّة المجلس الأعلى للّغة العربيّة قد حازت أهميّة كبيرة نظير ما تقدّمه من خدمات نوعيّة تخصّ البحث عامّة واللّغة العربيّة خاصّة فإنّه وقع عليها الانتقاء في تقديمها متصدّرة مختلف المجلّات في التّخصّص ذاته، وهو اللّغة العربيّة.

مجلّة المجلس الأعلى للّغة العربيّة هي مجلّة فصليّة مُحكّمة تعنى بقضايا اللّغة العربيّة ومجالاتها، وتصدر عن المجلس الأعلى للغة العربيّة، بإدارة الأستاذ صالح بلعيد رئيس المجلس الأعلى للّغة العربيّة بالجزائر، والتي تتلخّص شروط النّشر فيها فيما هو آت (شرط أغلب مجلّات اللّغة العربيّة): المقالات الرّصينة الجادة، ذات العلاقة بقضايا اللّغة العربيّة ومجالاتها؛ المكتوبة باللّغة العربيّة. ويشير آخر تحديث لقائمة المجلّات العلميّة الوطنيّة، إلى أنّ مجلّتي المجلس الأعلى للّغة العربيّة (اللّغة العربيّة ومعالم للتّرجمة) من المجلّات المحكّمة والمصنّفة، ويتمّ الاستفادة إلكترونيا من المجلة عبر الرّابطين الآتيين:

http : / /.www.hcla.dz /wp / ?p=1072

https : / /www.asjp.cerist.dz /en /PresentationRevue /219

صورة غلاف مجلّة المجلس الأعلى للّغة

كما كانت المجلّات من بين الأعمال التي أخضعها المجلس لتقنيّة شيفرة القارئ السّريع التي أشرنا إليها سابقا، وذلك لتيسير وصول القراء والباحثين لمختلف أعدادها وفق مختلف موضوعاتها من جهة، ومن جهة أخرى هي إجراء يكشف عن مدى قابليّة لغتنا العربيّة لمواكبة واستيعاب الطّرق الحديثة في البحث والطّرح لمختلف قضاياها ومدوّناتها، ومن جهة ثالثة هي خطوة تتجلّى فيها للأعيان إسهامات المجلس الأعلى للّغة العربيّة بالجزائر في النّهوض بها وتوسيع نطاقها، ليس محلّيًا وحسب، بل بإعطائها المكانة العالميّة في أوّل قائمة مختلف اللّغات البشريّة.

مطويّة مجلّات المجلس بشيفرة القارئ السّريع:

النّشر الإلكتروني للّتظاهرات العلميّة المصوّرة (الفيديوهات):

منذ أنْ اكتسحت الرّقمنة العالم صارت عمليّة النّشر تتمّ بسرعة فائقة، وأصبحت الجامعات والمؤسّسات الأكاديميّة والمنظّمات العلميّة والثّقافيّة تميل إلى استخدام الشّابكة لنشر نصوص ومحاضرات وملخّصات الأيّام الدّراسيّة والنّدوات والمؤتمرات التي تعقدها. كما تعمد هذه المؤسّسات في كثيرٍ من الأحيان إلى توفير مضمون المحاضرات حتّى قبل إلقائها فعليّا، وقد تقوم بإرسال مطويات تخصّ تلك التّظاهرة، وتشتمل بذلك الموقع الإلكتروني النّموذجي للمؤتمر. وتركّز مثل هذه المطويّات عادة على إدراج: نصّ دعوة المشاركة، وتشكيلة لجنة القراءة والتّنظيم، والبيانات العمليّة (الجهة الرّاعيّة للمؤتمر، والتّوقيت، ومكان انعقاد المؤتمر، وإجراءات المشاركة، وظروف الإقامة والنّقل...) وبرنامج المؤتمر، وغيرها من البيانات المدرجة في ورقة المؤتمر/ E-procee-ding باللّغة العربيّة.

ومن العوامل التي قرّبت الباحث الجزائري أكثر من تقنيّة (Zoom) لاعتمادها في عرض أيّ محتوى بحثيّ عن طريق الإلقاء هي الظّروف الصّحيّة الأخيرة التي مسّت جميع أنحاء العالم (جائحة كوفيد 19)، إذ أصبحت العديد من الملتقيات وما شابهها تقدّم عبر تقنيّة التّحاضر عن بعد من خلال منصة زووم (Zoom) وغيرها. وبهذا أصبحت أغلب أعمال التّظاهرات العلميّة تنشر رقميّا زمن انعقادها مباشرة، كما تحفظ في خزانة خاصّة عبر Youtube، قابلة للعرض في زمن لاحق.

حينما نتحدث عن النّشر الإلكتروني للتّظاهرات العلميّة؛ يكون المجلس الأعلى للّغة العربيّة حاضرا دائما، لذلك انتقينا أعماله للتّمثيل بها، كونها مدرجة في الموقع الرّسمي لهذه المؤسّسة بشكل ممنهج ودائم التّحديث، ونذكر من تلك المنجزات؛ النّدوات الدّوليّة والوطنيّة التي نُقلت إلى كتب:

من بين أهمّ أعمال المجلس المنشورة إلكترونيًّا: أعمال الملتقيات الدّوليّة التي نذكر منها؛ التّعدد اللّساني، والفصحى وعامياتها، ومكانة اللغة العربيّة بين اللّغات العالميّة، ومستقبل اللّغة العربيّة في سوق اللّغات، وغيرها.

وما يمكننا الإشارة إليه فيما يتعلّق بمختلف أعمال المجلس؛ وبالخصوص الملتقيات التي ينظمها ويعقدها بمفرده أو بالشّراكة مع مؤسّسات أخرى -خاصّة مؤسّسات التّعليم العالي والبحث العلمي (الجامعات)- هو أنّها جُمعت في مطويّة مجهّزة بنظام شيفرة القارئ السّريع، مما يجعلها في متناول الطّلبة والباحثين والدّارسين لمختلف الموضوعات والقضايا الخاصّة باللّغة العربيّة، وهو إنجاز اختصر المسافة والوقت أكثر، وكذا الكلفة في العثور على المعلومة، إذ خصّص المجلس لذلك مطويّة تحوي مختلف الأعمال الخاصّة به، ولكلّ واحد منها شيفرة الاستجابة السّريعة في الحصول على المدوّنة المراد البحث عنها وفق ما هو

مبيّن في الصّورة.

صورة مطويّة أعمال المجلس الأعلى للّغة العربيّة:

كما قدّم المجلس العديد من الملتقيات والأيّام الدّراسيّة الوطنيّة: من بينها؛ ازدهار اللّغة العربيّة- الآليات والتّحديات، والبشير الإبراهيمي فارس البيان ومنور الأذهان، وأهميّة التّرجمة وشروط إحيائها، واللّغة العربيّة بين التّهجين والتّهذيب، واللّغة العربيّة وتحديات الإدارة الإلكترونيّة، واللّغة العربيّة في قطاع الفلاحة، واللّغة العربيّة في الصّحافة المكتوبة، ودور جمعيّة العلماء المسلمين في الحفاظ على الهويّة الجزائريّة، ودور جمعيّة العلماء المسلمين في الحفاظ على العربيّة، واللّغة العربيّة والتّقانات الجديدة، والجهود اللّغويّة للدكتور الحاج صالح، وعالميّة اللّغة العربيّة، التّعايش اللغوي، والقران الكريم واللغة العربيّة، وواقع اللّغة العربيّة محليا ودوليا، وغيرها من أعمال الملتقيات.

• الرّسائل والأطروحات الجامعيّة الإلكترونيّة/ Electronic Theses and Dissertations (ETDs) في الجزائر:

استحدثت الجزائر مؤخّرا منصّة إلكترونيّة، بعنوان: البوابة الوطنيّة للإشعار عن الأطروحات/ Portail National de Signalement des Thèses، التي تعمل على الإشعار عن رسائل الماجستير وأطروحات الدّكتوراه، وهي وسيلة لدعم الإنتاج العلمي عامّة واللّغوي خاصّة، حيث تُعنى بإنشاء الملفات المركزيّة لتخزينها وتوضيح كيفيّة إثرائها والاستفادة منها.

أمّا الموقع الإلكتروني فقد وضع من أجل إرساء شبكة تطوير حفظ وتخزين ونشر رسائل الماجستير والدّكتوراه في مختلف التّخصّصات بما فيها: اللّغة العربيّة وآدابها، وبذلك تُمكّن الباحث من إيداع أطروحته إلكترونيّا، وتُمكّن إدارة الجامعة من معالجتها إداريّا، وكذا المكتبة الجامعيّة من معالجتها فنيّا، فيتيسّر بذلك استفادة الكثير من الباحثين من هذه الأطروحات؛ ممّا يسهم في فتح باب واسع يجعل هذه المدوّنات المكتوبة باللّغة العربيّة في متناول أي قارئ في العالم مع ذكر البريد الإلكتروني المهني لصاحب الأطروحة، وهذا ما يجعل المؤلّف في تواصل مباشر مع مختلف الباحثين، فاختصر بذلك الوقت والمسافة لإثراء تلك الرّسائل بالاطّلاع عليها وتطويرها.

ولقد وحّد الموقع بين جامعات الجزائر، حيث يتمّ التّغيير في اسم الجامعة فقط، ثمّ الدّخول إلى الموقع، ثمّ الكلّيّة المراد البحث في أطروحاتها، ثمّ تسجيل الكلمات المفتاحيّة للموضوع، فتظهر لنا كلّ الرّسائل التي تهمّنا في الموضوع نفسه أو ما يقاربه. وبالرّغم من أنّ هذا الموقع يفيد العديد من الباحثين إلّا أنّه مازال مجهولا عند البعض؛ وتجدر الإشارة إلى أنّ رابط الموقع يتغيّر في الجزء المتعلّق باسم الجامعة فقط، فيكون بالنّسبة لجامعة مستغانم مثلا: http://dspace.univ-mosta.dz فيُشكِّلُ بذلك مستودعا رقميّا يضمّ مختلف أطروحات التّخرّج (ماجستير ودكتوراه) التي تمّت مناقشتها في هذه المؤسّسة، ويمكن تغيير اسم الجامعة في الرّابط المذكور أعلاه أثناء البحث للوصول إلى النّتائج التي نريدها.

• المنتديات:

مثّلت المنتديات لمدّة طويلة من الزّمن أهمّ ملتقى تطرح فيه مختلف القضايا والأفكار التي تناقَش بين مجموعة من المشاركين فيه، وقد دخلت المنتديات على اختلاف أنواعها عالم الرّقمنة بشكل ملحوظ من خلال الاجتماعات الافتراضيّة في مكان واحد؛ هو صفحة المنتدى. ولعلّ من

أهمّ وأشهر المنتديات الجزائريّة التي وسّعت من انتشار اللّغة العربيّة في نطاق الرّقمنة: منتدى الجلفة لكلّ الجزائريين والعرب؛ وهو موجود منذ أكثر من 15 سنة على الشّابكة، وله عدّة فروع؛ منها قسم أو منتدى اللّغة العربيّة؛ الّذي يتناول النّقاش في قضايا اللّغة العربيّة وعلومها من نحو وصرف وبلاغة وأدب... وهذا من أجل النّهوض بمكانتها وتطوير مهارات متعلّميها، وتصحيح ما يعتورها من أخطاء شائعة.

ربّما يكون النّشر في المنتديات قد قلّ في أيّامنا هذه وبهت نوره بعد انتشار مواقع التّواصل الاجتماعي، إلا أنّ المخزون الذي تحويه ما زال مطلوبا في بحوث عامّة النّاس وخاصّتهم، ومهما كانت مواضيع المنتديات العربيّة فإنّها أسهمت بشكل أو بآخر في تعميم استعمال اللّغة العربيّة ورفع رصيدها بين اللّغات العالميّة الأخرى، ممّا جعلها تُنافس أقوى اللّغات من حيث نسبة الاستعمال على الشّابكة. ويجدر بنا الإشارة إلى أنّ مواقع التّواصل الاجتماعي وإن كانت ذات طبيعة مختلفة عن المنتديات؛ فإنّها اليوم تحلّ محلّلها بشكل أو بآخر من حيث تعميم استعمال العربيّة بين ناطقيها.

• اللّغة العربيّة في الإعلام الإلكتروني الجزائري:

الإعلام الرّقمي هو نوع من المعلومات يتمّ بثّها من خلال الوسائل الإلكترونيّة المختلفة (حاسب، حاسب لوحي، هاتف ذكي...)، وله أنواع عدّة؛ تتمثّل في: الإعلام السّمعي، الفيديوهات، الصّور/ الرّسوم التّوضيحيّة، النّصوص...

وبتطوّر تكنولوجيا الإعلام والاتّصال لم يبق الخبر حبيس الإعلام الإذاعي أو التّلفزيوني بل تجاوزه إلى استثمار وسائل أكثر تطوّر؛ خاصّة في شبكات التّواصل الاجتماعي من فيسبوك وتويتر وانستگرام وواتساب والتي يمكن لأي شخص نشر المحتوي عليها.

وقد عرفت الجزائر ظاهرة الاتّصال الشّبكي -كما هو معلوم- سنة 1993م عن طريق مركز البحث في الإعلام العلمي والتّقني في إطار اتفاقيّة التّعاون مع اليونسكو التي سمحت للباحثين الجزائريّين التّابعين لمراكز البحث الجامعيّة باكتشاف عالمٍ جديدٍ مَكّنهم من إحداث ثورة في كل المناحي المعرفيّة عمومًا، والإعلام خصوصًا، وذلك بالانتقال من الإعلام التّقليدي المكتوب إلى الإعلام الإلكتروني التّفاعلي.

يُجمِع الكثير من المهتمين بالشّأن الإعلامي في الجزائر على أنّ أوّل تجربة إعلاميّة إلكترونيّة في الجزائر تعود لجريدة الوطن El watan النّاطقة باللّغة الفرنسيّة سنة 1997م التي أنشأت موقعًا خاصًا بها على الشّابكة لتصبح أول جريدة جزائريّة يوميّة تقدم طبعة إلكترونيّة أمام الطّبعة الورقيّة.

أمّا بالنّسبة للصّحافة النّاطقة باللّغة العربيّة، فتعود أوّل تجربة ليوميّة الخبر El khabar التي أسّست موقعها الإلكتروني سنة 1998م، ثمّ تليها جريدة الشّروق Elchourouk 1998م، ليتم بعدها المزاوجة بين النّشر الورقي والإلكتروني في كلّ الصّحف الجزائريّة سواء النّاطقة بالعربيّة أو الفرنسيّة.

يلمس المتأمّل في السّاحة الإعلاميّة في الجزائر أنّ الإعلام الجزائري قد رسم لنفسه طريقا جديدا بالانتقال إلى النّشر الإلكتروني عبر مختلف المواقع الإلكترونيّة التي تتيحها الشّابكة، سواء عبر تصميم مواقع مستقلّة تقوم مختلف الصّحف بإنشائها أم عبر مواقع التّواصل الاجتماعي مثل الفيسبوك وتويتر وغيرها، أم عبر تقنيّة الفيديو مثل اليوتيوب، ليعلن بذلك عن ميلاد ظاهرة سوسيو-إعلاميّة جديدة في الجزائر تواكب التّطور الذي يشهده العالم في ميدان النّشر الإلكتروني.

تندرج اللّغة العربيّة ضمن أساسيات النّشر الإعلامي الإلكتروني في الجزائر بعدِّها اللّغة الرّسميّة للدّولة وللشّعب الجزائري، فهي عصب الإعلام الجزائري، والحجر الأساس في كل العمليات الإعلاميّة التّواصليّة، إلاّ أنّ العلاقة بين اللّغة العربيّة وبين الإعلام الجزائري عموما، والإعلام الإلكتروني خصوصا علاقة جدليّة تطرح الكثير من التّساؤلات حول دور الإعلام الإلكتروني في تنميتها وتطويرها، والدّفع بها نحو دائرة الاستعمال والتّداول لدى شرائح المجتمع.

فاللّغة العربيّة في وسائل الإعلام الإلكتروني الجزائري تعيش توسّعا أكثر ممّا كانت عليه، إذ نجد العديد من الصّفحات على الفيسبوك تهتمّ بقضايا اللّغة العربيّة، كما أصبح لكلّ هيأة أو مؤسّسة عامّة بما فيها المتعلّقة باللّغة العربيّة صفحة إعلاميّة على الفيسبوك أكثر اعتمادا مقارنة بالوسائل الأخرى من تويتر والواتساب، ولعلّ خير مثال على ذلك صفحة المجلس الأعلى للّغة العربيّة.

ومع ذلك تقف التّحديات اللّغويّة أمام الإعلام الإلكتروني الجزائري: في أن تحتل وسائل الإعلام الإلكترونيّة الجزائريّة مكانة مهمة نظرا للانتشار الّذي تعرفه بين مختلف شرائح المجتمع الجزائري الّذي استغنى عن الإعلام

التّقليـدي –تقريبـا– لصالـح الإعـلام الإلكتروني العصـري، ومن هذا المنطلق يُصبح الإعـلام الإلكتروني فـي الجزائر أداة مهمة في إحياء وبعث وترسيخ الوعي اللّغـوي عبر مختلـف قنواته ووسـائطه ومشـاربه الإلكترونيّـة، بل هو الوسـيلة الأقوى للحفاظ على اللّغة العربيّة وتنميتها والعمـل على انتشـارها بما يسـاعد على تحقيق الوحدة اللّغويّة بين أبناء المجتمع الواحد. ويقترح بعض النّقاد الّذين يمثلون حلقة الوصل بين اللّغـة العربيّة والإعلام الإلكتروني في الجزائر بعض المقترحات والحلول التي من شـأنها النّهوض باللّغة العربيّة وإخراجها من أزمتها، ومن بين هذه الحلول:

– ضـرورة الاسـتعانة بمراجعيـن ومدققيـن لغوييـن ذوي كفـاءة تمكّنهم من تقويم الأخطـاء اللغويّة فـي الإعلام الإلكتروني الجزائري،

– الاهتمام بالكفاءة اللغويّة للإعلامي أثناء عمليّة التّوظيف،

– ضرورة تبني سياسـة لغويّة واضحة تؤمِن بالرّسـالة الحضاريّة للغـة العربيّة، وتحمـي الهويّـة والثّقافة مـن التّلاعبات الإعلاميّـة، ويكون ذلك بإصـدار قوانين واضحـة تُلـزم الإعـلام الإلكتروني في الجزائـر بضـرورة الحفـاظ علـى اللغة العربيّة،

– تشجيع المسار الإعلامي الإلكتروني وتوجيهه التّوجيه السّليم في سبيل انتهاج لغة إعلاميّة تراعي ضوابط اللغة العربيّة،

– إنشاء شبكة واسعة للتنسيق الإعلامي الإلكتروني في الجزائر لتبـادل التّجارب في ميدان تعميم اللغة العربيّة،

– العمل على تقليص الفجوة بين اللغة العربيّـة وبين الشّـعب الجزائـري وذلك بالتّركيـز على تقديـم لغة عربيّـة وظيفيّة واضحة وموجزة وعصريّة.

وهكـذا اتّخذ نمط اللّغـة التّفاعليّة في الإعـلام الإلكترونـي الجزائـري منحى إيجابيا، إذ لم يكتـف الإعلام الإلكتروني فـي الجزائـر بتصميـم مواقـع إلكترونيّة خاصة، بل قام بإنشـاء صفحـات خاصّة على مختلف مواقع التّواصل الاجتماعي للاسـتفادة من سـرعة انتشـار المعلومة، أو ما يسمى بالسّـبق الإعلامي، ولضمان التّفاعليّة نظرا للحضـور الكبير لمختلف شـرائح المجتمع الجزائري على منصّات التّواصل الاجتماعي.

وقد قادنا التّأمـل في بعض الصّفحات الإعلاميّة الإلكترونيّة التي تتّخذ من مواقع التّواصـل الاجتماعـي منبرا لها في نشـر مختلف المسـتجدات إلى حضـورٍ مهمٍّ لمختلف شرائح المجتمع الجزائري الذي يتفاعل بقوة مع مختلف الأخبار، واللّافت للنظر في هذا التّفاعل هو الحضور القوي والمهم للّغة العربيّة عبر مستويات متفاوتة في شكل تعليقات نصيّة يُبدي فيها المتلقي رأيه وموقفه من الخبـر المنقول ويتفاعل معـه وفق نسـق لغوي يعكس المسـتوى الفكري والثّقافي واللّغوي للمتلقي.

وفـي قراءة موجـزة لمسـتويات اللّغة التّفاعليّة على صفحة قناة النّهار مثلا، نجد من عـرض العنوان العام للحـدث المراد تقديمـه باللّغـة العربيّة الفصحـى؛ مثل: «تحرّيـات»، «عنّابة»، «رجـال الجمارك في مهمّة خطيرة لمحاربة التّهريب»، ولمّا نفتـح الفيديو على الصّفحـة نلفي أغلب تعليقاتها باللّغة الدّارجـة، وأندرها باللّغة العربيّة القياسيّة كـ: «ربي يحفظك»، وهذا راجع إلى أنّ الصّفحـة مفتوحة للجميع، لمن يتقن اللّغة ومن لا يتقنها.

غير أنّ فـي الصّفحات المعلنة من قبل أصحـاب التّخصّـص نجـد العكس من ذلك تماما، ففي صفحة نشـرة الأخبار في التّلفزيون الجزائـري نجد أحد التّعليقات بأسـلوب أفصح، يقول صاحبه معلّقا عن الأخبار في السّبعينيات: «الزّمن الجميل، لا يمكن أن ننسى هؤلاء الصّحفيّين».

وبذلك فإنّ لغة الإعلام الإلكتروني في الجزائر تحدّد بدرجة كبيرة نوعيّة التّعليقات التّفاعليّة، فكلّما كانت لغة الإعلام سليمة، كان التّفاعل معها سليمًا في الغالب، وكلّما كانـت اللّغـة الإعلاميّة تتخلّلهـا أخطاء، كانـت التّعليقات غير سـليمة في الغالب أيضـا، وبناء عليه يمكن القـول إنّ الوعي باللغـة العربيّـة وقواعدهـا لدى شـرائح كبيرة من المجتمع الجزائري قد تزايد في الآونة الأخيرة نظرا لانتشارها الواسع في مواقع التّواصل الاجتماعي، فأصبحت لغة التّداول والقراءة والكتابـة والتّفاعل لدى معظم الشّـباب الجزائري باستثناء بعض العيّنات التي تُفضّل استعمال اللّغة العامّيّة المتداولة في أوْساط المجتمع الجزائري، إلاّ أنهـا تحافظ على الحـرف العربي في الكتابة في معظم الحالات.

هذا وقد قادنا التّأمل في بعض المواقع الإلكترونيّـة الجزائريّة إلـى وجود جهود مضنيّة وجـادة تعمل بخطـى حثيثة على إعادة اللغـة العربيّة إلـى موقعها الطّبيعي ومكانتهـا اللائقـة بها من خـلال ترقيتها وتنميتها ونشرها وإثراء معجمها التّعبيري الـذي يمنح للمتلقـي رصيـداً يمّكنه من امتلاك ناصيّة اللغة العربيّة، ولا شـك في أن هذه المبـادرات المهمة من شـأنها أن تحافظ على كينونة اللغة العربيّة وإشعاعها، وتضمـن بصـورة كبيـرة اسـتمراريتها الوجوديّة، وتنبني هذه الأحكام الإيجابيّة التي رصدناها علـى جملة من المعطيات والحقائق التي لمسناها أثناء زيارتنا لبعض المواقـع الإلكترونيّـة الجزائريّة، ويمكن إجمالها في النّقاط التّاليّة:

– العمل على التّقريب بين اللغة العربيّة الفصحـى والعاميّـة من خـلال محاولة

إخضاع العاميّة لقواعد اللغة العربيّة القياسيّة.

– تقديم الأخبار في قوالب وصيغ لغويّة تمتاز بالمرونة والوضوح والاختصار والجاذبيّة، وهذه العوامل مجتمعة من شأنها أن تساعد المتلقي على التّفاعل بصورة إيجابيّة من خلال الرّدود والتّعليقات.

– استحداث ألفاظ وتراكيب عربيّة جديدة مسايرة للتطور التّكنولوجي والإعلامي الذي يشهده العالم وذلك من خلال إيجاد مقابلات تساير المفاهيم الفكريّة والحضاريّة المستحدثة في شتى الحقول والمعارف.

– تركيز مختلف المواقع الإلكترونيّة الجزائريّة على تقديم لغة عربيّة حيّة متجدّدة لها علاقة مباشرة بالحياة اليوميّة لمختلف المواطنين.

– ترسيخ خاصيّة الانتقال من الكتابة بالحرف اللاتيني إلى الكتابة بالحرف العربي، إذْ وجدنا أن معظم الأخبار التي تمت صياغتها بالحرف العربي تكون فيها الرّدود والتّعليقات والتّفاعلات بالحرف العربي.

وعلى الرّغم من القصور الذي تعاني منه اللغة العربيّة في المواقع الإلكترونيّة الجزائريّة، إلاّ أنّه علينا الاعتراف بفضائل هذه المواقع على اللغة العربيّة إذْ أسهمت بطريقة مباشرة في إحياء الفصحى بعدما كانت مهددة من قِبل الدّعوات البغيضة التي أرادت فرض اللهجات العاميّة، وكانت هذه المحاولات المغرضة والمشبوهة أقرب إلى التّحقق لولا جهود هذه المواقع التي عززت من تواجد اللغة العربيّة وقامت بتحدي كل هذه الدّعوات الرّاميّة إلى تحطيم اللغة العربيّة وتقويض أسسها والتّشكيك في قدرتها وفعاليتها العلميّة وسط اللغات الأخرى، وعليه يمكن القول إنّ المواقع الإلكترونيّة في الجزائر تمثل صمام أمان للغة العربيّة والذي من شأنه صونها والحفاظ على سلامتها والارتقاء بها والعمل قدر الإمكان على نشرها وفرضها في التّداول والحوار والتّدوين.

وبناءً على ما سبق يمكن القول إن الاهتمام بالنّشر الإلكتروني في الجزائر هو من صميم الدّفاع عن اللّغة العربيّة التي أخذت منحى جديدًا مع تكنولوجيا الإعلام والاتّصال التي مكّنت هذه اللّغة من أن تحقّق أقصى إمكانات المشاركة المعرفيّة في مختلف الميادين، لتضمن لنفسها حضورًا هامًا في المشهد اللّغوي العالمي، فالنّشر الإلكتروني السّليم يساعد بدرجة كبيرة على تنميّة اللّغة العربيّة وضمان انتشارها في أوْساط الشّباب الجزائري الذي أثبت قدرته على احتضان لُغته والتّفاعل معها أكثر من أيّ لغة أخرى.

د. كريمة زيتوني
د. محمّد بن عمارة
جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم

المصادر
– صالح بلعيد. مناسبة وكلمة، منشورات المجلس الأعلى للغة العربيّة، الجزائر.
– عبد العزيز بن محمّد بن الزّبير، اتجاهات النّشر التّجاري للكتب بالمملكة العربيّة السّعوديّة.
– رميسة سدوس، عبد المالك بن السّبتي، المنصة الجزائريّة للمجلّات العلميّة/ PJSA ودورها في ترقيّة النّشر العلمي الجامعي.
– المجلس الدّولي للغة العربيّة، صحيفة اللّغة العربيّة صاحبة الجلالة.

اللغة العربيَّة عند الفنّانين التّشكيليّين الجزائريّين

د. عبد النّاصر بوعلي

تُشكّل اللُّغة العربيّة الوعاء اللساني الحامل لقيم المجتمع الجزائري وتُراثِه وفنونه. فكانت عنوان الإبداع المستمر القائم على محاولة تخليص الوجدان من قيدِ الزّمان والمكانِ، ورسم معالمه التّعبيرية الجذّابة. فمن الخطِّ إلى المسرحِ، مرورًا بالغناءِ والموسيقى وغيرها من الأجناس الفنّية، ظلّت لغة الضّاد المفضَّلة عند جلّ الفنّانين الجزائريّين في التّعبيرعن مكنوناتهم، واستجلاء خوالجهم الرّوحانية. فبلسان الفنّانين وبريشة الخطّاطين استطاع الجزائريّون أن يبدعوا ويخلّدوا فنونَهم، بل ويُنافسوا في السّوق الإبداعيّة العالميّة. فهل هناك علاقة بين اللُّغة العربيّة والفنّ عند الفنّان الجزائري؟ وهل كانَ الحفاظُ على العربية الرّاقية في الفنِّ احتراما لقيم الجمال والذّوق الرّفيع لدى الجزائريّين؟ إنَّ الارتباط بالهُويّة والتّطوّر والحداثة كلّها فرضت على الفنّان الجزائري مواكبة لغوية لمستجدات السّاحة الفنية، فوظّف المُستويات اللغويّة من أجل تحقيق إبداع فنّي يحقّق أذواقًا رفيعة في النّفوسِ، ويعبّر عن الصّلة الوثيقة باللغة الأمّ.

وإذا كانَ الفنّ هو الصّنف أو الزّينة من كلّ شيء، حيث نقولُ فنَّنَ النّاسَ أي جعلهم فنونًا أي صنَّفهم، هذا المعنى العام يجعل المعنى الذّي تعارفَ النّاس عليه معنى اصطلاحيًا استفيد من أحد معاني الكلمة، وهو التّزيين، فصار الفنُّ هو ذلك الصّنف الجميل الذّي نصنّفه بوصفه عملًا مُميزًا مزينًا يتمتّع بصفات الجمال والحُسن والزّخرف، وهنا تطرحُ جماليات اللّغة العربية، وما تسهم به في كلّ إبداع فنّيّ يحقّق من جانبٍ المتعةَ الفنية المرجوة من كل عملٍ فنّيٍّ، ثمّ ما يعكسه هذا الإبداع من الجوانب الثّقافية التي ترتبطُ بها الأمّة.

إنَّ لغة الفنّ هي اللغة المعرفيّة المكوّنة من الألفاظ والمفاهيم والمصطلحات التي تشكل البؤرة الدّلالية لموضوعات الفنّ، والكلمات المفتاحية للبحث العلمي فيه. وتعدّ هذه اللغة المعرفية الخاصّة إشكالية مركّبة من الحداثة والتّغريب؛ فرضتها الدّراسات على اللغة العربية والثّقافة الإسلاميّة عبر تقرير الكثير من الألفاظ والمصطلحات والمفاهيم المتعلّقة بالفن الجزائري. وقد تصدى البحث اللغوي العربي الحديث والمعاصر لهذه الإشكالية وتحدياتها؛ فقام بعمليات التّرجمة والتّكييف والاستيعاب والوضع والتّعريب لأغلب تلك الألفاظ والمصطلحات والمفاهيم وتوجيهها معرفيًا في ضوء اللغة العربية بوصفها لغة الفنّ.

إنّ لغة الفنّ التّشكيلي هي لغة خاصّة، فمفردات اللغة التّشكيلية بألوانها وموادها وخاماتها هي الأجمل للإبداع التّشكيلي، هي حين تُصاغ تولّد معاني جديدة من المُيوعة، والقوّة والرّزانة، والشّدة، والصّلابة، ومعاني تنسجها اللّوحة التّجريدية من نقاط مجمعة لتصنع بدورها الخطوط وتعبّر بدورها عن البداية والنّهاية، وعن التّناقض والتّماثل والتّوازي بينها والاحجام وفق منظومة منطقيّة يضعها الفنّانُ حسب رؤيته الفكريّة وإحساسه بعيدًا عن الموروث المُتعارف عليه. لأن مشاعر الفنّان هي التي تنصبُّ على فضاء اللّوحة لتجسيد تجاربه وروحه، وتشكّل تلك الألوان والخامات على سطح الرّخام الأبيض لتسبحَ بين ثنايا مشاعره وخلجات نفسه، لتخلق نغمَ الخطوط وتراقص الألوان، وإيقاعًا للوحة وتجانسها معًا.

وإذا كنّا قد عمدنا الحديث في هذا الموضوع عن لغة الخطّ العربي في حملِ جوانب هامة من الفن الجزائري، فإنّه من المهمِّ أن نذكر أنّ الطّبيعة التّجريدية لإشارات رسم الخطّ العربي، والتي هي صوتيّة في طبيعتها غير حركيّة تؤجّج تطوّر تصوير إيقاع غير عادي، وبدون أن يؤدي ذلك إلى أيّ تهميش لشكل الحروف، قاد التّطور الطّبيعي للكتابة العربية إلى سيولة الشّكل، فالأساليب المختلفة لا تتبع بعضها بعضًا فحسب، ولكنها تتواجد جنبًا إلى جنب، وخصوصًا في الأعمال النّقشية العظيمة.

الخطَّاط الجزائري يستخدمُ ريشة من القشِّ دبَّبَ رأسَها إلى نقطتين ليرسمَ خطوطًا دقيقة عادة ما تتقاطع، وبقدر ما يستطيع فهو يوصل الحروفَ ببعض، ومؤكِّدًا بنفس الوقت انفصالها، وتجري الكتابةُ من اليَمين إلى اليسار، وبهذا الاتّجاه الأفقي تتواصل الأشكال وتتزاوج ببعض، بينما تقف أجزاء الحروف في الاتجاه العمودي في عزلة وبحسّ ما تعارض النّغم السّائل للخطوط الأفقية.

ولعل موضوع استخدام الخط العربي في الفنون البصريَّة والتّشكيليّة، والذّي يضفي عليها طابعًا عربيًّا واسلاميًّا، أحد الموضوعات المهمّة، التي لا تقتصر على الجانب التّطبيقي في هذا الاستخدام، وإنّما تستند الى منطلقات فكريّة وجماليّة وثيقة الصّلة بالفكر العربي الاسلامي، وبما يحمله من نقاط التّقاء وتقاطع مع الفكر الغربي.

إنَّ اِختلاف المنطق الجمالي للخطِّ العربي الجزائري، والفنون الإسلامية عمومًا عن المنطق الجمالي للفنّ الغربي، يدعو الى تعدّد وسائل ومعايير القياس بينهما، وعدم قياس القيم الجماليّة لاحدهما بمقاييس الآخر، أو الدّعوة الى المزاوجة بينهما، كونهما ينتميان إلى منطقين مختلفين ومتناقضين أحيانا في العديد من النّواحي.

عند إعادة قراءة الخط ّالعربي وفق الرّؤى الحديثة فإنّنا نجدُ أنَّ الحرف العربي يتضمَّن كل القيم الفنيّة التي تجعل منه فنًّا مستقلا بذاته، بل تبلغ استقلاليته العالية الى درجة تأْخذ بالألباب والعقول والقلوب، بوحدة متكاملة عند النّظر إليه، فيطغى على كل ما حولَه من أشكال وعناصر، ولعلّ سَعة اِستخداماته المُختلفة دليلًا واضحًا على قدرته الفنيّة العالية، والجمالية والوظيفيّة على تغطية العديد من الحاجات الانسانيّة المختلفة.

اِعتمد الفنّانون التّشكيليون الجزائريّون الواعون على الخطّ العربي في إثبات الهّوية الثّقافية الجزائرية، فلا يكاد يخلو بيت من بيوت الجزائريين من إطار معلَّق في الجدار وقد كتب ماله علاقة بالانتماء الحضاري للجزائر.

وفي خضم الزّخم الفكري والثّقافي الذّي تفرضه العولمة والتي تعمل على طبع الأمم بطابع موحّد، يحول دون التّمييز بين الشّعوب العريقة التي استبحرت آنفًا في الحضارة بما تتضمنه من أنواع الفنون، وبين الشّعوب المستحدثة العمران التي لا تاريخ لها، وقد تبلور هذا الاهتمام في عدد من الأعمال الفنيّة المتفاوتة نسبيًّا في التّعريف بالهّويّة الثّقافية الجزائريَّة.

وهو المجال الذّي يتمّ الاستكتابُ فيه ضمن هذا العمل.

1 – الفنُّ من اللُّغة المنطوقة إلى اللُّغة المكتوبة:

إذا كانت اللُّغة المنطوقة توصف عادة أنّها الوعاء الفكري للأمّة، وحاضنة الوعي والثّقافة، وكل ما يختزن في الذّهن والوجدان الفردي والجمعي، فإنَّ الحروف والكتابة المخطوطة هي صورة ذلك الوعاء المرئيّة المُعاينة حسيًّا، كوسيلة للتّعبير، وجزءٌ أساسيٌّ من جماليات اللُّغة وروحها وبنائها في مستوياته وتطوراته المختلفة، عبر الأمكنةِ والأزمنةِ، من هنا كان اِحتفاء الحضارات الإنسانيّة القديمة كافة بالخطوط المكتوبة، ليس بوصفها جزءًا من العمليّة التّعبيريّة والتّواصل اللُّغوي فقط، وإنَّما كمحفّز محوري لعدَّة حقول من الفنون البصريّة كالرّسم والنّحت والخزف.

إنَّ الحديث حول علاقة اللُّغة العربيّة بصورتها المكتوبة مع الفنون التّشكيليّة، ولا سيَّما اللَّوحة الفنيّة المرسومة، والمخطوطات والمنمنمات وغيرها من أشكال الفنون البصريَّة، التي انتشرت في الجزائر وفي وبقاع العالم الاسلامي، موضوع متشعّب للغاية، ويتطلّب من الباحث العودة الى بدايات الكتابة العربيّة النّبطيّة والتي تطوّرت عن الكتابة الآرامية، حيث تلازم التّطوّر الفنّي للخطّ مع تطور اللُّغة نفسها وانفتاحها على العديد من المؤثّرات الحضاريّة والثّقافية، ولا سيّما تلك التي جاءت في مرحلة ما بعد ظهور الإسلام، ذلك أنَّ ما وصلنا من محاولات التّوظيف التّشكيلي للخطّ العربي قبل ظهور الاسلام يكاد يكون محدودًا للغاية، وما نعرفه من أنواع الخطوط العربيّة في تلك الفترة يكاد ينحصر في الخطوط: الكوفيّة، البصرية، المدني، الأنباري الملكي، وفي هذه المحاولات لم ينظر للحرف العربي ككيان تشكيلي مستقلّ يمكن أن يكون جزءا من فضاء فنّي للّوحة أو جدارية ما، وانحصرت استخداماته في المراسلات وتدوين الخطب والأشعار وتحديد الجهات الجغرافيّة، إلّا أنَّ الأمر اختلف تمامًا مع وصول اللغة العربيّة، بشقّيها المكتوب والمنطوق، إلى خارج نطاق الجزيرة العربيّة ومنطقة الهلال الخصيب، حيث انتشر الاسلامُ في بلاد فارس، وآسيا الوُسطى، وآسيا الصّغرى وصولا للهند وأصبحت الكتابة العربيّة هي السّائدة رغم اِحتفاظ تلك الشّعوب التي اعتنقت الاسلام بلغاتها وثقافاتها الأصليّة، إلّا أنّها وجدت في الحرف العربي تلك الرّوحانية المرتبطة بالقرآن الكريم وديناميكية عالية وخصائص فنيّة مميزة كانت محفّزًا كبيرًا لهم من أجل إعمال خيالاتهم الفنية واستنهاض كافة خبراتهم الإبداعية في إعادة رسم الحرف العربي، فكانت مدارس الخط الفارسيّة والتّركيّة

التي بثت روح جديدة في الحرف العربي واستنطقت بلاغة اللغة العربيّة وجمالياتها، ولا سيّما في الآيات القرآنية، فتعدَّدت طرق رسم الحرف العربي وظهر الخطُّ الفارسي وخط الثّلث والخطّ الدّيواني وخطّ الرّقعة وخطّ الطّغرى وغيرها من الخطوط التي تطورت بفعل قابلية الخط العربي لاكتساب أشكال هندسية مختلفة من خلال المد والاستدارة والتّشابك وغيرها من الميزات والعناصر.

تلك الابداعات الخطيّة التي صاغها بصورة رئيسية العرب والفرس والأتراك، لا زالتّ حيّة ويلجأ اليها الكثير من التّشكيليين المُعاصرين العرب منهم والأجانب في أعمالهم ليس بهدف تزويقي وزخرفي فقط، وإنّما كصورة تجريدية وجزء من الإيقاع الموسيقي للعمل الفنّي، وحول ذلك يقول النّاقد التّشكيلي الدّكتور مازن عصفور: «لقد أثبتت اللغة العربيّة بأنّها قادرة على المشاركة في سطح اللّوحة متحررةً من النّظرة الزّخرفية والدّيكورية فلم يعد الحرف العربي يظهر نفسه كقاعدة خطيّة تقليديّة، وإنّما كوحدة تشكيليّة خاصّة لها روحها ومدلولاتها ومساهمتها في اللغة اللّونية والموسيقيَّة للعمل».

3 – تعريف الخطّ العربي:

الخطّ هو رسومٌ وأشكال حرفيّة تدلّ على الكلمات والعبارات المسموعة الدّالّة على ما في النّفس الإنسانيّة من معانٍ ومشاعر، وليس هناك تشريفٌ أرفع لعلم الخطِّ من إضافة الله سبحانه تعليم الخطِّ لنفسه وامتنانه بذلك على عباده. فقال تعالى: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ (سورة العلق 1 – 4).

قال صاحبُ كتاب زاد المسافر: «الخطُّ لليدِ لسانٌ، وللخَلَد ترجمانٌ، جودته تبلغ شرائف الرّتب، وفيه المرافق العظام التي منّ الله بها على عباده».

كانت الكتابة ولا زالتّ سجّلا للحضارة الإنسانيّة، تجلّى فيها تاريخُها وتطورها. وفي ثنايا هذه الملحمَة الإنسانية نشأ الخطُّ العربي ليتطور ويبلغ مبلغًا من الجمال حاملا معه حضارة تركت معالمها على أطراف الصّين وحتّى غرب أفريقيا. وقال الخليفةُ المأمونُ «لوْ فاخرنا الملوكَ الأعاجم بأمثالها، لفاخرناها بما لنا من أنواعِ الخطِّ، يُقْرأُ في كل مكانٍ، ويترجم بكل لسانٍ، ويوجد في كل زمانٍ».

قال ابنُ خلدون في مقدّمته عن الخط: «إنّه صِناعةٌ شريفةٌ يتميّز بها الإنسانُ عن غيره، وبها تتأدّى الأغراضُ؛ لأنّها المرتبة الثّانيّة من الدّلالة اللُّغويّة».

ويُعَرَّف الخطُّ العربي على أنّه فنٌّ وتصميم عمليّة الكتابة في جميع اللُّغات التي تستخدم الحروفَ العربيَّة. وتمتاز الكتابةُ العربيَّة بكونها متّصلة، الأمر الذّي يجعل منها عمليّة قابلة لاكتساب العديد من الأشكال الهندسيَّة. ويكون ذلك من خلال الرّجع، والمدّ، والتّشابك، والتّزويّة، والاستدارة، والتّركيب، والتّداخل.

ويقترن فنُّ الخطِّ العربي بالزّخرفة العربية، إذ يُستخدم لتزيين القصور، والبويوتِ، والمساجد، كما يستخدمُ في تحليّة الكتب والمخطوطات، وتحديدًا لنسخ آيات القرآن الكريم.

وقد انحدر إلينا فنُّ الخطِّ العربي بحلّته الرّائعة والبهيّة التي اكتسبها بمرور الوقت منذ زمن الخلافة الإسلامية، ليعيشَ بيننا اليوم رافعًا رأسه مكتسيًا حللاً جديدة يعود الفضل فيها إلى عددٍ من الفنّانين الذّين يستخدمونه كوسيلة للتعبير الشّعري المتضمن بقوّة في الصّورة.

مرَّ الخطُّ العربي بمراحل كثيرة بعد نزول القرآن الكريم، وتطوَّر في عصر الخلفاء الرّاشدين، ثم العصر العبّاسي، والعصر الأندلسي، والعصر العثماني حتّى العصر الحديث.

و يمتدُّ تاريخه إلى ما قبل الإسلام' فقد كان الخط العربي فنًّا من الفنون، وصل إلينا عبارة عن خطوط كوفية. ويعود انتقال الكتابات القديمة لمرحلة الحرف إلى الدّولة الفينيقيَة منذ أكثر من ثلاثين قرنًا. وبعدها تفرَّعت الحروفُ الفينيقيَّة إلى أربعة أفرع: العبريّة، والآرامية، والحميرية، واليونانية.

وقد دوِّن القرآن الكريم على خطِّ الجزم، وسُميَّ يومها بالخطِّ المكّي. وقد عرف العرب في بداية الإسلام نوعين من الخطوط هما:

– الخطُّ الحجازي، والذّي كان يسمّى بالخطّ الدّارج.

– الخطُّ الكوفي والذّي يعد أساس الخطوط العربية كلها، وقد ظهر في منطقة الكوفة، ويقوم على أساس الخطوط المستقيمة القاسية.

وفي العصر الأموي تطوَّر الخطُّ العربي تطورًا نوعيًا، حيث نشأت الحركات الإعرابية، وتمَّ وضع النّقاط على الحروف لتمييز الحروف المُتشابهة.

وفي العصر العبّاسي تابع الخطُّ العربي تطوّره متفرعًا إلى أحد عشر نوعًا وهي: الدّيباج، والسّجلات، والزّنبور، والجليل، والعهود، والأسطوحار، والخرفاج، والمدمّرات، والقصص، والسّجلات، والمفتح.

وفي العصر الأندلسي استعمِل الخطّ الشّامي، إلى جانب الخط القيرواني في نسخ المصاحف. وقد طوّر الأندلسيون الخطّ القيرواني مدخلين عليه ليونَة جديدة، فنشأ خطٌّ يسمَّ بالخطِّ المغربي.

واستمر هذا الخط في النّمو والازدهار في عصور الفاطميين، والمماليك، والعثمانيين. كما شهد تطورًا في إيران حيث أبدع الفنانون الإيرانيون في الفنّ التّصويري لمضامين المخطوطات الفارسيّة والعربيّة.

أما في العصر الحديث، فابتدع الفنّانون العرب أنماطًا وخطوطًا هجينة، بما فيها خطّ التّاج، وسميّت بحروف التّاج لأن الفكرة كانت فكرة صاحب التّاج ملك مصر الأسبق فؤاد، وهو عبارة عن الإشارة كأنّها لام ألف مقلوبة مقوّسة، وموضعها فوق رأس الحرف على غرار الحروف «الكابيتال» في اللُّغة الإنكليزية، وذلك ليهتدي القارئ لما ترمي إليه الجمل أو الكلمات، وقد رجحَ استعمالها في حروف خطِّ النّسخ لأنها أجمل وقعا عليه من سائر الخطوط الأخرى.

يرجع الخطّ إلى أصلين لا ثالثّ لهما: المستقيمُ والدّائر. إنَّ هاتين الصّفتين متواجدتان في كل كتابات العالم، عبر كل العصور. منذ الكتابات التّصويرية فالكتابات «الفكرية» وثم «الصّوتية»، أي الأبجدية التي بنيت الكتابة المسمارية على شكلها أي على الشّكل الأبجدي أو شكل المقاطع الصّوتية. منذ اختراع الكتابة المسماريّة كانت الخطوط بنوعين المستقيم والدّائر. ولنا في كتابات وادي الرّافدين شواهد وأمثلة كثيرة على ذلك. وعلى رأسها نصّ تشريع حمّورابي، الذّي تتميّز حروفه باستقامتها خلافًا لما كان يستعمله النّاس فيما بينهم آنذاك.

4 – طبيعةُ الخطِّ العربي

الخط العربي علم، لأنَّه يعتمد على أصول ثابتة وقواعد دقيقة تستند إلى موازين وضعها الأقدمون، كما دخل هذا العلم كمادة دراسية في حقل التّعليم، وهذه القواعد العامّة لا تختلف من خطاط لآخر.

الخطُّ العربي فنٌّ، لأَنَّ محوره الجمال في التّعبير يتوخّاه ويهدف إليه، كما يتطلّب استعداداً فنيًّا يقوم على دقَّة الملاحظة والانتباه والقدرة على المُحاكاة، ويحتاج إلى تدريب طويل ومران مستمرٍّ.

الخطُّ العربي فلسفة، لكل نوع من أنواع الخط فلسفة خاصة عبرت عن فلسفة مجتمعها وطبيعته. فالخطُّ الكوفي عبارة عن خطوط مستقيمة قاسيّة وجافة، عبَّرت عن قسوة الحياة في العصر الجاهلي، أمّا في خطّ الثّلث الذّي ظهر في العصر الإسلامي، فقد جاء ت حروفه جميلة ورائعة عبّرت عن وروعة وعظمة الحضارة الإسلامية، وفي خطّ الرّقعة الذّي تتميَّز حروفه بالكتابه السّريعة والسّهلة، الذّي تمَّ اختراعه في العصر العُثماني عبَّر عن فلسفة اجتماعية معينة تمثّل فنّ التّطوّر الاجتماعي المُتسارع في ذلك العصر.

5 – أنواع الخطّ العربي:

الخطوطُ العربيَّة متعدّدة، أبرزها:

الخطّ الكوفي الذّي ظهر في الكوفة. وهو الخط الذّي يميلُ إلى التّربيع والهندسة؛

– الخطُّ الموزون وقد ظهر في الشّام بعد تعريب الدّواوين في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان؛

– الخطُّ المنسوبُ وهو الخطّ الموزون، له نسبٌ قياسيّة خاصّة، وعدد أقلامها 24. وتمّ تشكيل 6 أنواع من الخطوط هي: الثّلث، والرّيحان، والتّوقيع، والمحقّق، والبديع، والرّقاع؛

– خطُّ الرّقعة هو خطٌّ عربي ليس بالصّعب، يتميَّز بجماله وقوَّته في وقت واحد والسّرعة عند كتابته، وهو منتشرٌ في جميع الدّول العربية واستخداماته قليلة لكن كثيرة في الآياتِ القرآنيَّة؛

– خطّ النّسخ وأوجد أساسيّاته الوزير ابن مُقلة، سمّي بالنّسخ لأنّه يستخدم كثيرًا في نسخ الوثائق والكتب ونقل ما تحويه؛ لسهولة رسمِه، ولوضوح أحرفه وكبرها، ولجمال منظرها؛

– خطّ الثّلث يمتاز هذا الخطّ بالمرونة، وبتشكّل أنواع وأشكال الحروف فيه، ويمكن كتابة جملة واحدة عدّة مرّات بأشكالٍ مختلفة. ويقلّ هذا النّوع في كتابة القرآن الكريم. ويُستخدم في كتابة العناوين، ويعدّ رسم هذا الخطّ صعبًا شيئًا ما؛

– الخطّ الفارسي ومن صفات هذا الخطّ الزّخرفة الموجودة فيه، واللُّيونة، والرّشاقة، والأحرف الدّائريّة، والانحناءات، والالتّفاتات؛

– الخطّ الدّيواني وهو الخطّ الرّسمي في كتابة الدّواوين، ويكتب هذا الخطّ على سطرٍ واحدٍ بمرونة عالية.

6 –الخطُّ العربي في بلاد المغربِ والأندلس:

يُعدّ الخطُّ العربي فنّا وثيق الصّلة بالإسلام، وقد انتقل إلى شمال أفريقيا منذ القرن السّابع الميلادي في سياق الفتوحات الإسلاميّة، وسار مع اِستعمال اللُّغة العربيّة، يبقى ببقائها ويرحلُ برحيلها، وانتقل إلى الأندلس وهنا تطوّر وعلا شأنُهُ بتشجيع الحكّام والأمراء. وظهرت منه ستّة أنواع أساسيّة، منها خطُّ "الدّيواني" المُعتمد في مراسلات السّلاطين العثمانيّين، و"الكوفي" الذّي استعمل في نسخ المَصاحف، وتغيّرت تسميتُه بحسب

المدينة أو الجهة التي انتشر فيها على غرار الخطّ المغربي، نسبة لمنطقة المغرب العربي. ويقول ابنُ خلدون في ذلك: «وأمّا أهلُ الأندلسِ انتشروا في الأقطارِ في عدْوَة المَغربِ وأفريقيا، ويعلقوا بأذيال الدّولة، فغلبَ خطُّهم على الخَطّ الأفريقي، وعَفا عليْه الزّمنُ. ويسمّى خطّ القيروان والمَهديّة. وصارت خطوط أهل أفريقيا كلّها على الرّسم الأندلسي بتونُس. أمّا بالنّسبة لهجرةِ الأندلسيّين للمغرب فقد أثروا في مناطق أفريقيا والمَغربين الأوسط والأقصى».

7 – الخطُّ العَربي في الجَزائر (المغرب الأوسط):

دخل الخطُّ العربي الجزائر مع بداية الفتوحات الإسلاميّة، ونال اِهتمامَ الملوك البربر الذّين أسّسوا دولًا إسلاميّة بمسمّيات عدّة، فقد اتَّخذه المُرابطون والموحّدون والحمّاديون والرّستميّون والزّيانيون خطًّا لدواوينهم الحكوميّة، ومراسلاتهم الإداريّة، وزخرفوا به واجهات قصورِهم، وضَربوا به سكّة نقدهم، وكان للمساجدِ في عهدهم الاهتمامُ الكبير، فتمّت زخرفتها بالخطّ العربي خصوصًا الكوفي منه، بكتابة الآيات والأحاديث في نقوشها.

واِنْكبَّ الجزائريّون على تَعلمّه، واستعماله في كتاباتهم، ومُراسلاتهم، وأكثر ما اشتهر الخطّ العربي في بناءِ المساجدِ وتزيتنها، والمدارس والمعاهد العلميّة، ومن ثمَّ الجامعات في كلٍّ من بِجابة، وتلمسان، والقلعة، ووهرانَ، وبسكرة، وغيرها من الحواضر. وبهذا يكونُ الخطُّ العربي قد سافر مع العرب الفاتحين للجزائر، ويشيرُ المؤرّخون إلى أنَّ أوّل نوع خطٍّ استقدم للمنطقة هو الخطّ الكُوفي، وإنَّ الكتابة الوافدة هي ما يطلق عليها اسمُ الكوفي المجرّد من النّقط والشّكل، كما كان في المشرقِ وقتئذ، وقد اشتهرت العديدُ من المُدنِ الجزائريّة بالنّساخ والخطّاطين حتّى مثَّلهم بعض الكُتّاب بابنِ مُقلة في حُسن الخطّ، ومن أبرز هؤلاء أبي عبدالله بن العَطّار الذّي قال فيه يحي بنُ خَلدون:« وكانَ أبو عبد الله...وهرانِيَّ الأصل، نشأ بتلمسان، شلوباني الأوّل، روى عن أبي موسى عيسى بن عمران، وروى عنْه أبو جعفر بن ثعبان. وكان فقيهًا مُستبحرًا في حفظ المسائل، ماهرًا في النّظر، حسنَ الخطّ، سري الهمّة، ولي قضاء تلمسان، ثم استقدمَه المَنصورُ لقضاء الجَماعة بمرّاكش عند حركته إلى قفصة؛ فكان بها حَميد السّيرَةِ، عادلًا في الأحْكام، قيل لم يَجْلدْ أحَدًا بسوط أيّام قضائه، مع كونه شديدَ الهيبَة، بصيرًا بالأحكام، حظيًا عند المَنصور، توفيَّ رحمه اللهُ ليلةَ الأحدِ تاسع جُمادَى الأولى سنةَ إحدى وستّمائة، واحتفل النّاس في جنازتِه».

ومحمّد الزّجاي، وبكير حفيظ خوجة، وحُسين بن عبدالله الجزائري، الذّي أسهم في إدْخال الخطِّ المشرقي إلى الجزائر، ومن أهمّ العائلات الجزائريّة التي برزت بهندسة البناء والنّقش والخطوط خاصّة، عائلة ابن صاري بمدينة تلمسان، ومنها المُعلم محمّد بن صاري مَشق، الذّي وجدت نقوشُه الخَطيّة على عدَّة آثار عمرانيّة، وعلي بن محمّد التّونسي، وأحمد بن عمر التّونسي، وإبراهيم الجركلي الذّي نقش الآيات المحفورة بجامع كتشاوة، والمّعلم اللبلابشي الذّي نقش باب جامع علي بتشين، ومن هنا فإنَّ الخطّ العربي بالجزائر في تواصل مستمر مع الماضي، فاستجابته لنوازع الخطّاطين الإبداعية جعلت منه عنصرًا تشكيليًا مهمًا.

وقدَ تبنّى الملوك البربر للدّول المُتعاقبة في الجزائر الخطَّ العربي في حياتِهم الثّقافية وفي زخرفة وتزيين عُمرانهم، ومن الخطوط التي عملوا على تثبيتها في نقوشهم الخطّ الكوفي الحجازي، فلا يكاد يخلو مدخل جامع من جوامعهم إلّا ونقشت فيه الآية الكريمة «**لا غالبَ إلّا اللهُ**» وهو الأصل الذّي تطوَّرت منهُ الأنواع المغربيّة الأخرى، ونجدُه مكتوبًا على رقّ الغزالِ في المَصاحفِ، والكتب القديمة، والعقود والوثائق الرّسميّة للملوك والأمَراء، ومنقوشًا في الحجر على أبواب المدُن والقصباتِ، ومحفورًا في الجبسِ على جُدْرانِ المَدارس، والمساجد، وقبور الملوك، وأضرحة الأولياء والصّالحين.

لقد ورث المغاربة هذا الخطّ عن الاندلسيّين، وشجّع الملوك الخطّاطين في الكتابة ووفَّروا لهم مستلزمات الكتابة، حتّى نشأ خطٌّ مغاربي سمّاه البعض بالخطّ الكوفي القَيرواني، وقد أمر الملك باديس الزّيري الخطّاط الجزائري عليَّ بن أحمد الورَّاق لكتابة مُصْحَفٍ به، فكتب مُصحف «الحَاضِنَة» وهو مصحفٌ ذو شكلٍ طولي على جلد قضيم.

ثم ظهرَ الخطُّ النّسخي المغاربي، هو في الحقيقة اختراع للخطّ الكوفي الأوّل، فيه ليونة في اتّصال الكتب في بعضها، وهكذا خرجت الدّول المغاربية من الخطّ الكوفي المشرقي واستعملت خطَّها، وانفتح الباب على خطوط كثيرة منها، وأصبح هناك خطوط مغربيّة محلية ثلثي ونسخي.

وفيما يلي نماذج لهذا الخطّ التي تركها بعضُ الملوك بالمغربِ الأوسط (الجزائر).

هذه العبارة مكتوبة في العديد من مساجد تلمسان، وهي شعار وفد من الأندلس، حيث تمتلئ به جدران قصور وجوامع ودور غرناطة وقرطبة، ولهذا الشّعار قصة ترتبط بسقوط الأندلس.

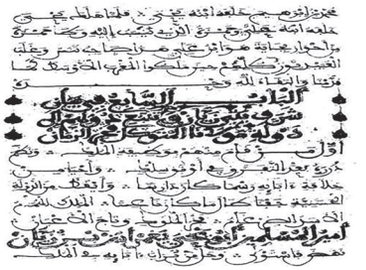

صفحة من مخطوط: «نظم الدّر والعقيان في بيان شرف بني زيان» لمحمّد بن عبد الله التّنسي وهذه نسخة خطُّها مغربي جيد، وهي فاخرة مذهّبة مزوّقة من المحتمل أن تكون نسخت لأحد أمراء بني زيان أو أحد أثرياء البلاط الزّياني.

مصحف ملكي زياني بخط السّلطان أبي زيّان، مكتوب على رقّ غزال، و كلّ أسماء الله الحسنى فيه محلّاة بالذّهب.

كتب بتلمسان سنة 801 للهجرة.

مكانُ الحفظ : الخزانة الملكية بالرّباط.

دينار من عهد الدّولة المومنية (الموحّدية) ضرب بتلمسان. كانت السّكّة ايام الموحّدين تضرب في ثلاث عواصم : مراكش، تلمسان، واشبيلية نلاحظ كلمة تلمسان في الأسفل.

شاهدة ضريح السّلطَان الأدِيب أَبِي حَمُو مُوسَى الثّاني و قد نقش عليها:

«الحمد لله وحده، هذا قبر مولانا السّلطان أمير المسلمين الملك العادل الحافل الأثين الأثيل الأصيل الأمجد الأوحد الأسهى الأسنى الأفضل الأكمل مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل الله رب العالمين مولانا أبو حمّو بن مولانا الأمير الشّهير الكبير الجليل الكامل مولانا أبي يعقوب برد الله ضريحه وغفر له بيمنه و كرمه و جوده و صلى الله على سيّدنا و مولانا محمّد و آله».

أداة قيّاس (ذراع) قماش من العهد الزّياني(حكما لسّلطان أبو تاشفين الأوّل) 1328م،مكتوب «الحمد لله و الشّكر لله هذا قياس الذّراع بالقيصريّة، عمرها الله في شهر ربيع الثّاني عام ثمانيّة و عشرين و سبع مئة»

القيساريّة هي سوق تلمسان القديمة و لا تزال باقية الى يومنا هذا.

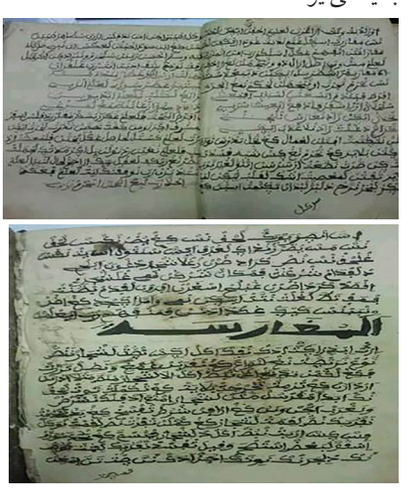

مخطوطات إسلاميّة مكتوبة باللّغة الأمازيغيّة، وبالحرف العربي ببلدية آيت يحي، دائرة عين الحمّام، بولاية تيزي وزو التي تأسّست في القرن 15 ميلادي.

7 – الخـطُّ العربي في عهـد الجزائر العُثمانيَّة:

اِعتنى العثمانيُّون في الجزائرِ بالخطّ العربي، وجاء اهتمامهم بدافع التّقرُّب من الدّين الإسلامي لأنّ اللغة العربيّة هي لغة القرآن الكريم، وهذا ما أكّد عليه شيخُ الخطّاطين الأتراك حسن جلبي بقوله «الارتباط بالخطِّ العربي منطقةُ ديني، فالأتراكُ من الشّعوب التي عضَّت بالنّواجذِ على الدّين الإسلامي منذ دخل ديارَها».

درس الأتراك هذا الفنَّ وحاولوا تطويره وتحسينه وجعلوه السّمة الثّقافيَّة الأكثر وضوحًا على أهمِّ الأماكن في الدّولة، مثل الجوامع، والمتاحف، والقصور، والمقابر، التي تنوّعت كتاباتهم المخطَّطة والمذهّبة على شكل آبيات شعريّة، وحكم، والآيات القرآنية، والأحاديث النّبوية.

جاء في كتاب «فنّ الخطّ العربي في المدرسة العثمانيّة» للمؤلّف وليد سيد حسنين محمّد، بأنّ «فنّ الخطّ العربي الجميل جاء على رأس الفنون الإسلاميّة التي اهتمّ بها الأتراك العثمانيّون، وقد ورث العثمانيّون هذا الفنّ ناضجًا مستويًا على عوده، وساروا به إلى الأمام، حتّى جرت على السّنة بعض الباحثين والمؤرّخين مقولة: «لولا التّرك ما كان فنُّ الخطّ الجميل».

واعتبر الكاتب أنّ تأثرهم بالخطّ العربي جاء على ثلاث مراحل، أوّلها مرحلة التّقليد، ثمّ مرحلة التّحسين وأخيرًا مرحلة الابتكار، حيث أتقنوا في المرحلة الأولى تقليد الأقلام السّتة التي ابتكرتها المدرسة العربيّة في الكوفة على يد ياقوت المُستعصمي في القرن السّابع عشر، وتطورت على يد الأندلسيين والمغاربة، وظلَّ الخطّاطون الأتراك العثمانيّون يقلِّدون هذه الكتابة حتّى عقود طويلة.

وفي القرن العاشر للميلاد، تطوَّرت مرحلة التّحسين والتّجويد على يدِ الشّيخ

حمد الله الأماسي، الذّي اشتهر باختراعه طريقة مبتكرة في بَرْيِ القلم، ما مكّنه من تطويرِ طريقته، وإضافة رونق مختلف على الحُروفِ.

مخطوط: التّحفة المرضيّة في الدّولة البكداشيّة في بلاد الجزائر المحميّة.

المؤلف: محمّد بن ميمون الجزائري.

تاريخ النّسخ: أواخر جمادي الثّانية 1121هـ/ بخط المؤلف.

مادية المخطوط: نسخة حسنة، كتبت بعض العناوين باللون الذّهبي.

نوع الخط: مغربي معتاد. **عدد الصّفحات:** 162.

حجم الملف: 21 ميجا.

مصدر المخطوط: البوابة المفتوحة للمخطوطات الإسلامية والفارسية. http://albordj.blogspot.com

«الجزائرُ المَحْمِيّة بالله» – «الجزائرُ المَحْروسَة» عبارةٌ مكتوبة بخطٍّ مغربيٍّ عُثْماني، كانَ العاصميُّون يكتبونها بهذا الخطّ ويعلّقونها في منزلهم ومَتاجرهم ومحلّاتهم، وفي المحاكمِ الشّرعيّة والبيوتاتِ.

وقصتها:

أوّل من قالها هو العلّامَة المشهور عبد الرّحمن الثّعالبي الجزائري.

ترتبطُ بالحملةِ الصّليبيّة التي قادَها ملكُ إسبانيا شَرْلُكانْ في سنة 1541 م، ضدَّ مدينة الجزائر.

وكان بالمدينةِ رجلٌ صالحٌ يُسَمّى «**والي دَادَة، صاحبُ الخَيْزُرانة**» فلمّا رأى أزْمَدة الإسبان أمامَ الشّاطئ الشّرقي للجزائر، نَزَل إلى البحرِ، ودعا اللهَ، وضربَ البحرَ بخَيزرانته، وببركته، ودعائه، اِكفهرَّ الجوُّ وتلبّدت السّماءُ بسحبٍ كثيفةٍ، وسالتّ أمطارٌ غزيرةٌ لم تشهد «البهجةُ» مثْلَها، فقامت عاصفَةٌ هوجاءُ من أَغْرَبِ العواصفِ التي عَرفتْها الجزائر، هبَّت كالصّاعقةِ وحَرَّكَتْ أَمْواجَ البحر العاتيَّة، فكانت ضَربةً قاضيةً ضدَّ الأسطولِ الصّليبي وقوّاتِه المُرابطة على مشارفِ القصبَة، فتحوَّلت الحملةُ المَسيحيَّةُ الرّهيبةُ إلى بَردٍ وسَلامٍ على البلادِ، وَتحطَّمت في يوم واحدٍ 140 قِطعةً بَحريَّة بِمُؤَنِها وعُدَّتِها وجُنودِها على صخورِ ورمالِ شاطئ وادي الحَرَّاش والحَامَّة، ثمَّ استغلَّ السّكّانُ والجيْشُ الجزائريُّ هذه الفوضَى والارتباك في صفوفِ العَدوّ لتكثيفِ الهجماتِ الحاسمةِ، ونجتِ البَهجةُ من الدّمارِ والاجتياحِ وبعد هذه الواقعة قال سيّدي عبد الرّحمن الثّعالبي قصيدةً مَطلعها:

إنّ الجَزائرَ في أحْوالِها عَجَبُ
ولا يَدومُ بها للنّاسِ مَكْروهُ
ما حَلّ عُسْرٌ بها أوْ ضاقَ مُتَّسعُ
إلّا ويُسْر من الرّحْمنِ يتْلوهُ

فكُتب البيتان بخطٍّ مغاربي عُثْماني في لوحَةٍ، وكانت بدورها تعلّق في البُيوتِ والمحلّات.

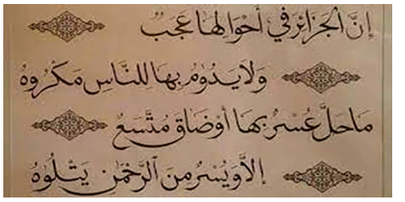

8 – الخطُّ العربي بالجزائر خلال الفترة الاستعماريّة:

رغم محاولات طمس الهُويّة العربية الإسلاميّة من طرف المستعمر الفرنسي إلا أنّ الجزائر قاومت وبكل والوسائل، ففي بداية القرن العشرين حظيت بخطّاطين حافظوا على أحدِ أهم الموروثات ألا وهو الخطُّ العربي، فأتقنوه وتفنّنوا فيه ومن أبرزهم: الشّيخ محمّد السّفطي الذّي كان فنّاناً مُتكاملاً فعلاوة على اِهتمامه بالخطّ، كان يعمل على تجليد الكتب والنّقش على الجلد، ويعد هذا الشّيخ من الأشخاص الذّين حازوا فضل كتابة المصحف لثلاث دفعات، يتميّز الخطُّ العربي عنده كما وصفه الأستاذ محمّد شريفي، «بالرّسم على السّطر بوتيرة موحّدة، تدلُّ على تمكّن يده، وصبره الدّؤوب على مواصلة الكتابة بنفس مركّزة، وبرصانة كبيرة».

ونذكر أيضاً الخطّاط السّعدي حكار، درس بجامع الزّيتونة وتعلّم الخطّ على يد الأستاذ الخماسي، سجن لمدّة خمس سنوات على يد السّلطات الفرنسية من 1954م، إلى غاية 1959م، وخطَّ مجموعةً من القصائد والأدعيّة عام 1960م، كما قام بتدريس الخطِّ العربي بالمدرسة الوطنيّة للفنون الجميلة، توفي سنة 1963م.

كما لا يجوز عدم ذكر فضل عائلة راسم لما لها من فضل ودور في إثراء فن الخطّ العربي والفن الجزائري على العموم، عرفت هذه العائلة بالخطِّ والزّخرفة، وقد أنشأ أبناؤها (علي وأخوه عبدالرّحمن ومحمّد) مرسماً أصبح منتدى لكبار العلماء والمفتين، ومن أكثر المؤثرين في الفنِّ الجزائري هو الحفيد عمر راسم بن علي، ارتبط اسمُه بعدَّة مجلات، فهو خطّاط كبير اشتهر بخطه العربي الجميل ومقدرته على رسم المُنمنمات، ومهتمّ بالإصلاح الدّيني والاجتماعي والصّحافة فهو من

أنشأ جريدة (الجزائر) 1908م، ثم أصدرَ جريدة (ذو الفقار) 1913م، وفي هذا العام سجن وحكم عليه بالنّفي وخرج من السّجن بعد سبع سنوات، وكان الفنّان عمر راسم بارعًا في فنّه الذّي تعلّمه بفطرته على يد والدّه وعمّه، وكان أستاذًا في الرّسم، ولقّبته مجلّة المباحث التّونسية بشيخ الفنّانين حينًا، وبكبيرهم أحيانًا

كما شهدت الجزائر وفي أشدِّ أزماتها الاعتناء بالفنّانين وأكبر مثال هو اعتناء الثّورة التّحريرية بالفنّان فارس بوخاتم الذّي كان يعمل ضمن جيش التّحرير الوطني، وكان خطّاطًا وراسم المطبوعات والمناشير الخاصّة بالثّورة الجزائرية، وبعد الاستقلال درس بالمدرسة الوطنية للفنون الجميلة عام 1963.

9 – الخطُّ العربي فجر الاستقلال إلى يومنا هذا:

شهدت الحركة التّشكيلية في هذه الفترة عودة الفنانين من المهجر، حيث بدأت مجموعات من الفنانين تتخرَّج من مختلف أكاديميات العالم ومن أبرز الخرّيجين الفنّان الخطّاط عبدالحميد إسكندر من مدرسة تحسين الخطوط من القاهرة، والخطاط محمّد سعيد شريفي من مدرسة تحسين الخطوط بالقاهرة، كذلك ممن لهم شرف كتابة المصحف الشّريف، وهو يرى أنَّ الحروف العربية كتابة أو خطًّا، اكتسبت حظًّا لا يطال من الإبداع الفني، ومحاولة تجريدها انتقاص لهذا الإبداع فهو من روّاد الفن الكلاسيكي. كما شهدت السّاحة الفنية في هذه الفترة الخروج عن النّمط الكلاسيكي، فتحوَّل بعض الفنّانين إلى الحروفية، أي الظّاهرة الإبداعيّة التي استخدم فيها الخطّ العربي كمفردة تشكيليّة وقد استطاعت الحروفيّة قراءة معالم الاتّجاه الفنّي الجديد بتحدياته الجديدة، فبدأ التّدقيق والبحث عند بعض الفنّانين والدّراسة لتطورات شكل الخطّ العربي ويصعب تحديد أو تعيين أوّل روّاد الحروفيّة الحديثة في الجزائر، فمن المعروف أنّ تراث الحروفيّة قديم قدم التّاريخ، ولكن الحروفية التّشكيلية الحديثة بدأت بداية جادّة في أواخر السّتينات من القرن العشرين، وذلك على أيدي مجموعة من الرّواد الذّين بدؤوا تجاربهم في ميدان استلهام الحرف العربي كما ذكرنا سابقاً.

ونذكر من الفنانين المؤثرين دوني مارتيناز من مواليد 30-11-1941م ولد بمرسى الحجاج بوهران، وأثر على العديد من الفنانين الموجودين حالياً بالسّاحة الفنية، وأحد المؤسسين، مع شكري مسلي، لمجموعة (الوشم) (Aouchem) عام 1967م، وقد جعل من الخط العربي مادة لينة يحولها ويحورها كما يشاء فأبدع في ذلك، حيث قام بتحوير أشكال الخطوط العربية مستعيناً بالخط النّسخي وخط الثّلث لإنجاز مجموعة من اللوحات التّعبيرية يمكن من خلالها رؤية مدى تمكن الفنان من إتقان العمل التّعبيري.

و نذكر عميد الحروفية بالجزائر الفنان رشيد قريشي فهو من أشهر الفنانين المعاصرين العالميين من مواليد 1947م، درس بالمدرسة العليا للفنون الجميلة بالجزائر، وتخرج من معهد الفنون الزّخرفية ومدرسة الدّراسات الحضارية في باريس، ينظر هذا الفنان للعالم بعيون المتصوّفة، ويمارس فنّ الخطّ العربي عنده تعبيراً فلسفيّاً كطرحه لفلسفة ابن عربي وترجمته لأعمال ابن الرّومي.

10 – أهم الأماكن التي تمَّ فيها تلقين فنّ الخطّ في الجزائر:

لقد تمَّ تلقين الخطّ العربي، وأنواعه في المدارس القرآنية الجزائرية والزّوايا منذ القديم، والتي كان لها الفضل في المحافظة على هذا الموروث خاصَّة في زمن الاستعمار الذي احتل أرض الجزائر، وإنَّ أكثر ما اهتمّت به الجزائر في الوقت الحالي أي بعد الاستعمار هو أنّ الجامعات والمدارس قد أخذت على عاتقها التّكوين الأوّلي للخطّاط المبتديْ دون أن تقلّل من أهميّة المعلّم. لم يقتصر الاهتمام بالخط فقط بالمدارس والجامعات بل توسّع ذلك الاهتمام إلى المتاحف المنتشرة مثل، متحف تلمسان، ومتحف وهران، والمتحف الإسلامي بالعاصمة، وكذلك المتاحف الموجودة في مديريات المراكز المنتشرة في العديد من الولايات والبلديات.

11 – أهمَّ المجالات التي تفرَّعت منها الخطوط العربيّة في الجزائر:

خطُّ المصاحف، أو ما يسمّى الخطّ المبسوط.

خطُّ الجزم، وهو الخطّ الكوفي المتغرّب.

الخطُّ المجوهر وهو الذّي يستعمل للرّسائل ونسخ الكتب.

الخطُّ المشرقي: وهو خطٌّ منبسط من الثّلث المشرقي وقد سمي هذا الخطُّ أيضاً بالمغربي الأندلسي.

المسند الزّمامي: وتميل قوائم هذا الخطّ نحو اليمين كالخطّ الفارسي، ومنه تشابه لبعض الحروف.

12 – مـا هـي أهـمّ المهـارات التي يستخدمها الخطّاطون لإجادة الخطّ؟

تتمثّل هذه المهـرات في العديد من الوسائل والفنّيات منها:

تحضيـر الحبر الجيّد الذّي يتناسـب مع الخطّ الذّي يكتبون به.

بـريُ القلـم وتعتمـد جـودة الخطّ علـى نوعية القصب الذّي يسـتخدمونه وكذلك في نوع البرية للخط.

تحضيـر الـورق المناسـب للكتابة، حيث يختار الخطّاط أوراقه بشكل جيّد وملائم للخطِّ الذّي يكتب به.

13 – أشهرُ الخطّاطين في الجزائر.

عرفـت السّـاحة الفنيّة فـي الجزائر العديد من الخطّاطين نذكر منهم:

1 – محمّـد بن القاسـم القندوسـي:

(رائدُ الخطّ القندوسي)

هو الشّـيخ أبو عبـد اللـه محمّد بن القاسـم القندوسـي، نسـبة إلـى بلدته القنادسـة التي أخذ مـن زاويتها علومه، ثمّ رحل إلى فـاس بالمغرب، أين ازداد علمًـا، والظّاهر أنّه كان موجـودًا ببلدة القنادسة إلى حدود عام 1201هـ/ 1828م، مـن الخطّاطيـن الصّوفييـن، وقد ترك العديدَ من مؤلّفاته وقد نسخ العديد من المَصاحـف بيده في اثنتي عشـر مجلّداً بخطٍّ مغربي، وقدْ أبدع فيها على طريقة الخطّاطيْـن الأخويـن عمـر، ومحمّـد راسـم، وهؤلاء من عباقرة فنّ الرّسـم، والخطّ العربي خاصـة في مجال الخطّ الأندلسـي، والخطّ الكوفـي، وقد ترك رصيداً من الدّراسات القيمة عن الرّسم الموسيقى، والصّحافة، كما كان له تأثير واسعٌ على صفاء مواهب طلبتِه.

2 محمّد راسـم: هو الفنّان محمّد بن علي بن سـعيد بن محمّد البجّائي يرجعُ نسـبُهُ إلى قبيلةِ صنهاجـة وُلدَ في 5ربيع الأوّل عـام 1302هـ المُوافـق 24جوان 1896م بحـيّ القصَبـة العتيـق بالجزائرِ العاصمة، سـليلُ عائلةٍ عريقـةٍ اِمتهنت الرّسـمَ والنّقش علَى الْخَشبِ، وعُرفت بالصّناعـات الفنيّة. حفظَ القرآنَ الكريم مثـل أضرابِه فـي ذلك الوقـتِ، وتعلّم علـوم العربيّة على يدِ مشـايخ القصبة، دخلَ المدرسـةَ الابتدائيّـة وتعلّم اللّغةَ الفرنسيّة، التّحقَ في سنِّ الرّابعة عشر من عمره بمكتبِ الرّسم للتّعليم المهني، ثمَّ عملَ فـي المطبعة الرّسـميّة التي كانت تطبع فيها جريدة المُبشـر الاسـتعماريّة التي تأسّسـت سـنةَ 1847 لتكـونَ صلةَ وصـلٍ بيـن الإدارة الاسـتعماريّة والمُواطنين حتّى تطلعهم على القوانين الجديدة والمشاريع الاسـتعماريّة التي كانت تُصدرها السّلطات الفرنسيّة، أخذَ فنَّ الرّسـم على يدِ والـدّه، واهتمَّ كثيراً بالمُنمنمـات، ليلتحقَ بعدَها بمدرسـة الفنـونِ الجميلـة بالجزائـر العاصِمة. وظهَر عليـه التّفـوّق والنّبوغ فـي الفنِّ الذّي ورثه عن والدّه.

تأثيراتُ العصر على نشأتِه:

لقـد عايـشَ محمّـد راسـم فترات الاحتـلال الفرنسـي للجزائر، وشـاهدَ مظاهـرَ الفقـرِ والحرمـان التـي ألمّت بالجزائرييـن، كمـا عايـشَ الاسـتبدادَ والظّلـم، كان يتابـعُ عـن قـربٍ أخبارَ العالم عـن طريق الصّحافـة، كان يتابعُ أيضا باهتمـام حركات الإصـلاح التي تولّدت عـن فكر جَمال الدّين الأفْغاني، التّقَى رفقـةَ أخيهِ عمر راسـم بالشّـيخ محمّد عبده أثنـاء زيارته للجزائر سـنةَ 1903 وحضـر الـدّرس الـذّي قدّمه في الجامع في تفسير سورةِ العصر وهو ابن عشرين سنة.

رحلاتُه وأسْفارهُ:

حفـلَ إبـداع محمّـد راسـم الفنّي بـكلِّ مظاهـر الحياة التي كان يعيشـها، وحملـت رسـوماتُه ماضـي الأمّـة وحاضرَهـا، وبذلـك عُـدَّ بحـقٍّ فنـان الجزائر الـذّي صوَّر حياةَ شـعبها بكل جـدارةٍ، وهكـذا عـاشَ حيـاةً حافلـة بالنّشـاطِ، ففي عام 1914 التّقَى بالرّسام المُستشـرق نصر الدّين دينه الذّي كلّفه بتزيين كتابـه «**حَياة محمّد**»، وفي سـنة 1917 قـدَّم أوَّلَ مُنَمْنَمَـةٍ بعنـوان: حَياة شـاعِر، وأصبحت أعمالُه الفنيّة تُعرضُ فـي باريس، والقاهـرة، وروما، وفيِّنا، وغيرهـا من العواصمِ والمـدُنِ الكبرى في العالـم، وحصـلَ علـى العديدِ من الجوائزِ والأَوْسِـمةِ، وخلَّـد في أعماله العديدَ من المعالـم الوطنيّة والمواقف التّاريخيّـة والحضاريّـة للجزائر، وبقيَ يعمـلُ من أَجـل اِزدهـارِ وتطويـر فنّ المُنمنماتِ الذّي أخـذت صورتُه تزدادُ وضوحاً وتأكّـداً يوماً بعدَ يوم. وفي عام 1916 تحصَّل على مِنحة **كازا فلاسكويز** التي سـمحت له بزيارةِ إسـپانيا، فاطَّلع على الآثـار الفنيَّة التي خلَّفتها الحضارةُ العربيَّـة في بـلادِ الأَندلسِ مـن زخرفة في بناء المساجد، والقصور، والحدائق والمباني، والموسـيقى. وفي سنة 1919 نظَّـم أوَّل معـرض له بعنوان: «إسـپانيا الأندلسـيَّة، والجزائر القديمة»، واِبتداءً من عام 1922 اِسـتقرَّ بباريس، وهناك قام بأعمال النّشـر الفنّي (بيـازا) منها تزيين مجلّدات رواية ألف ليلة وليلة. وفي عام 1924 مُنحَ الوسـام الذّهبي من مؤسَّسـة الرّسامين المُستشرقين الفرنسيِّين.

وَفي عـام 1933 مُنـح الجائـزة الفنيَّة

للجزائـر، وفـي عـام 1934 عُيِّن أسـتاذاً بمدرسـةِ الفنـون الجميلـة لتدريس فنّ المُنمنمـات الجزائريَّـة، وهنـا تفتّقـت شـخصيتُه وبرزت عبقريَّتُـهُ وذاع صيتهُ بين أهل والفـنِّ والاختصاصِ، وفي عام 1937 عرضت أعماله بالجناح الجزائريّ بالمعرض الدّوليّ. وفي عام 1950 أُنتخِب عضـواً شـرفياً فـي المؤسَّسـة الملكيَّة لرسّامي وفنّاني المُنمنمات لإنجلترا.

يمثِّـلُ محمّد راسـم بإنتاجـه الفنِّي المتنوّع والشّـامل مدرسة كاملة وتجربة غنيّة وفذّة، إسـتقطبَ إهتمـام أهل الفنّ ومُحبّيه، فهـو من رجال الفـنِّ القلائل الذّين جمعوا بيـن الثّقافة الفنيّة الأصيلة والإلمـام بالفـنّ الأوربـي وتصوّراتـه ومناهجـه ومدارسـه، وذلـك بحكـم تنقّلاته عبر العواصـمِ العالميّة. ثم كان شـاهدَ عيّان أيضاً على رحيل المستعمرِ من أرضِ الوطـن، تحت ضغط النّضال السّياسي والكفاح المسلّح الذّي خاضَه الشّـعبُ الجزائـريّ، ثـمَّ عايـن أيضـاً تناقضات فترة ما بعد الاستقلال.

كان محمّـد راسـم مُولعـاً بالجزائر لأنَّها موطنه ومسقط رأسه أحبَّ ماضيها القريب والبعيـد، إجتهد فـي إحياءِ هذا الماضـي المجيد بمـا في ذلـك الحياة العائليّة بواسـطة ذكرياتـه الحيّة المنبثقة عن المحيط الذّي يعيش فيه. اقتنع محمّد راسم أنَّ المقاومة يمكن كذلك خوضها علـى الجبهة الفنيّة، لهذا السّـبب حاول جاهـداً أنْ يُحمِّـل إنجازاتـه علامـات العظمة والفخـر، كما كانت الجزائر قبل الحقبة الاستعمارية وكما كان يريدها بعد إستعادة الجزائر استقلالها.

بعيداً عن الطّـرق التّقليديّة والقديمة لمُنمنمات وزخارف المدارس الفارسيّة والتّركيّـة، التي ولّى عهدُهـا، منذ القرن الثّامن عشر.

أسَّـس محمّـد راسم مدرسـة المُنمنمـات الجزائريَّـة. وقـد كان لـه الفضـل أيضـاً فـي تكويـن العديد من أجيـال التّلاميذ الحاملين لفنّـه والذّين تمكَّنـوا بموهبتهم من الرّقي إلى سـلَّم الشّـهرة والمحافظـة على فنِّـه وإثرائه، وإرتقـى بعالـم المنمنمـات فأعطاهـا خصائص لوحة التّشكيل الفنيِّ الحديث وفق قواعد المنظـور الأوربي وتقنيّات النّظريّـة اللّونيـة التي تميّز بها (الرّسـام بول سيزان).

كان لمحمّد راسم الفضل في تكوين العديد من أجيال التّلاميذ الحاملين لفنّه والذّيـن تمكّنـوا بموهبتهم مـن الرّقي إلى سـلّم الشّـهرة والمحافظة على فنِّه وإثرائه، ومن هؤلاء: الخطّاط الجزائري هاشم محمّد، وإسـماعيل بن مصطفى الأنوري، وعباس العـزّاوي الذّي أبدع فـي فـنِّ المنمنمـاتِ والخـطِّ العربي، وغيرهم ممن طوَّروا فنّ المنمنمات.

كتبَ مُصطفى بلكحلة مدير المتحف الوطني للمنمنمـات و الزّخرفة و الخطّ العربـي، يقـول:« إنَّ قـراءة منجـزات محمّد راسم الإبداعية، هي قراءة عميقة لتاريـخ الجزائـر، وإنَّـه لا يمكن تحقّق تلك القراءة دون التّمعـن في حركاته و سـكناته، وخصائص بيئتـه، والملامح الاثنيـة الانسـانيّة التـي اسـتعرضت منجزاته الفريدة من نوعها في بناء الحياة و إعمـار الأرض الخصبة و الدّفاع عنها في معارك الوجود الحيّ».

ويـرى مُوسَـى كشـكاش، -وهـوَ المُختـصّ والمُـدرك لطبيعـةِ فـنّ المُنمنمات وبصفتِـه محافظ المِهرجان الثّقافي الدّولي للمُنمنمات والزّخرفة-، «أَنَّ الجزائـرَ تملـكُ فعليـا مدرسـة خاصَّـة بها فـي فـنِّ المُنمنمـات ولها شـواهد ظاهِرة للعيّانِ في أزقَّـةِ المدنِ وجدرانِها، وأيضاً عبر الأَرياف والقُرى. وتمتـدُّ تأثيـراتُ المدرسـة الجزائريَّـة للمُنمنمـات، إلى بـلادِ العِـراق وبلادِ فـارس، وبُخـارى، وطشـقند، والهند، متحدّية كل الصّراعات القوميّة».

من آثاره التي خلَّدها نذكر:

– أسَّس محمّد راسم في بدايةِ حياتِه مجلَّة سمَّاها مَجلّة الجزائر عام 1908 كان يَكتبُ فيها رفقة أخيه عمَر راسم مقالاتِه باللُّغـة العربيَّـة، كان يندِّد فيها بسيّاسـة التّجنيس والتّجنيدِ الإجبـاري، وخُبْثَ اليهود فـي تعاونِهم مع المسـتعمرِ، ثمَّ أسَّس عام 1913 جريدةَ «ذوالفِقار».

– خلَّفَ محمّد راسم مَضامين خطيَّة كُتبـت بالخطّيـن المَغربي والمَشـرقي تضمَّنت:

– سُوراً وآياتٍ من القرآنِ الكريم؛

– عناوين داخليّة وخارجيّة لمجلّات وجرائد؛

– أسماء أزقَّة وشوارع القَصبة؛

– عناوين كتب ومجلّات؛

مُنمنمات كثيرة مُنتشرة هنا وهناك؛

ترك آثاراً فنيَّـة ثريَّة تتمثّل في المئاتِ مـن اللَّوحـاتِ الفنيّـة التي تزخـرُ بها معارض العالم شرقِه وغربِه؛

ألَّف عام 1960 كتابَه «الحياة الإسـلاميَّة في الماضي». وفـي عام 1972 نشـر كتابه بعنوان: «محمّد راسـم الجزائري». تُوفيَّ محمّد راسم سـنة1395 هـ الموافق 1975م بالجزائـرِ العاصِمـة فـي ظـروفٍ أليمَـةٍ وغامضة رفقة زوجتِه.

3 – محمّد سَعيد شريفي:

وهوأحد الباحثين القلائل في العالمين العربي والإسلامي في شؤون الخطوط الإسلامية والكتابة العربية، وهو أوّل جزائري أستاذ برز في شؤونها، وقد كانت له اليد الطّولى في نشر الخطوط الإسلامية في الجزائر، وتدريسها على أصولها الفنية في المعهد العالي للفنون الجميلة في الجزائر العاصمة.

تخرج من كلّية الفنون الجميلة بمصر عام 1963م، ونال شهادة دبلوم في الخط، وإجازة الخطاط المصري الكبير سيّد إبرهيم، بد ان قدم له عملا فنيا تبه بعدة خطوط. كما تعلم أيضا اللغة الإيطالية في هذه الكلية مع إتقانه للّغة الفرنسية، وسافر إلى إيطاليا واطلع على فنونها وزار متاحفها ورأى تماثيلا ورسومها، وقدم دراسة فن الفنّ الإيطالي نال بها مجموع 90 في المائة من الكلية.

ثم عاد إلى الجزائر بعد تخرجه، واشتغل بتدريس الخطوط الإسلاميّة في المدرسة الوطنية للفنون الجميلة، واشتغل أيضا خطاطا في المعهد التّربوي لإعداد الكتب المدرسية يُعتبر محمّد شريفي أول من كتب المصحف الشّريف برواية ورش عن نافع بخط النّسخ، لأن هذه القراءة المنتشرة في بلاد المغرب لم تكتب إلا بالخط المغربي. لذلك كان إخراج مثل هذا المصحف يتطلب جهودا كبيرة ومعرفة واسعة، كان محمّد شريفي هو الأقدر على فعل ذلك، وقد كتب المصحف الشّريف 5 مرات، وكتب العملة الجزائرية بصنفيها الماز والعُشار، كما كتب شهادات التّخرّج الجامعية.

خلال مسيرته حاز عدة تكريمات، مُنح شهادة التّقدير من رئيس جمهورية الجزائر في الذّكرى الخامسة والعشرين لاستقلال الجزائر، سنة 1987م. كما مُنح جائزة التّقدير في مهرجان بغداد العالمي للخط العربي والزّخرفة الإسلامية، في رمضان من عام 1408 الموافق لأبريل من سنة 1988م. ومُنح جائزة التّقدير في مهرجان بغداد العالمي الثّاني للخط العربي والزّخرفة الإسلامية، في ذي القعدة من عام 1413 الموافق لأبريل من سنة 1993م، في بغداد. كما نال جائزة السّلطان قابوس للثقافة والفنون والآداب سنة 2015م، في تخصص الخطوط الإسلامية، وهي جائزة سنوية تمنح بالتّناوب دوريا كل سنتين حيث تخصص عاما للعُمانيين وحدهم، وعاما آخر للعمانيين وغيرهم ممن لهم إسهامات كبيرة في مجال دراسات اللغة العربية وأدب الطّفل والخِطوط الإسلامية.

لوحة لمحمّد سعيد شريفي

4 – بشير يلّس:

وُلدَ الخطّاطُ الجزائري بشير يلّس في 12/ 09/ 1921م بتلمسان، وهو من عائلة تلمسانيّة عريقة في العلم والتّصوف فقد كان جدّه صاحب الطّريقة الدّرقاويّة بتلمسان، الذّي أفتى للشّباب الجزائري برفض التّجنيد الإجباري وعدّه كفرا، وأشار عليهم بالهجرة وعصيان فرنسا.

تعلّم بشير يلّس بمدارس تلمسان من عام 1932 إلى عام 1942 وانتسب إلى ثانويّة دي سلان (ابن زرجب حاليا) في تلمسان. وفي سنّ الثّالثّة عشرة، اتّجه بشير يلّس إلى الرّسم من خلال إنجاز بورتريهات لأقاربه وأفراد أسرته، وفي سنة 1942 التّحق بمدرسة الفنون الجميلة بالجزائر العاصمة، وكان من أساتذتها في ذلك الوقت الفنّان الشّهير محمّد راسم الذّي أخذ عنه فنون الرّسم.

التّحق بالمدرسة العليا للفنون الجميلة بباريس عام 1947، وتعلّم على يد العديد من أساتذتها منهم:

أندري باك Andre Back، والفنّان الشّهير لويس فاريز Louis Farez.

نظّم أوّل معرض له بالجزائر العاصمة، ثم توالتّ معارضه في الجزائر وخارجها.

وفي سنة 1952، حصل بشيريلّس على منحة دراسيّة إلى مدريد الإسبانيّة، وهناك تفتّقت عبقريّته عند اتّصاله بكبار الفنّانين الأسبان.

ومن أنشطته نذكر:

قدّم بشير يلس الكثير من الإنجازات الفنيّة، وأصبحت أعماله من ضمن مقتنيات عدد من السّفارات الجزائرية.

ومن أهمّ مراحل حياة يلّس الفنيّة ما أنجزه في الفترة 1970 – 1980، التي كانت حافلة بأعماله التّذكارية التي تجسّد عدداً من محطّات الجزائر التّاريخيّة.

وفي سنة 1961، غادر يلّس مدرسة الفنون الجميلة التي قضى بها 20 سنة

مدرّساً، ليكتشف عالماً آخر لطالما حلم به وأحبّه، وهو الهندسة المعماريّة.

تُوّجت أعماله بنيله الجائزة الأولى في الهندسة المعماريّة العربيّة مرّتين في سنتي 1983 و1988.

1962 – 1982 عمل مديراً للمدرسةِ الوطنيّة للهندسة المِعماريّة والفنون الجميلة في الجزائر

أومن أعماله التي خلَّدته نذكر:

– مسؤول عن وضع الجناح الجزائري في المعرض العالمي باشبيلية؛

– في عام 1944 عرض منمنة قاضي تلمسان، وعرس في تلمسان؛

– في عام 1946 عرض منمنة ابن باديس؛

– في عام 1947 نال جائزة الشّرف للفنون الجميلة؛

– في عام 1962 قدّم روائع لمجموعة متناغمة عن الاستقلال؛

– رسم بورتري الأمير عبد القادر.

وفي رسم هذه الصّورة يروي بشير يلس قصة حدثت له مع أحد أثرياء تلمسان فيقول: «إنّ أحد أثرياء تلمسان طلب منه أن يرسم له بورتريه للأمير عبد القادر، فوافق الفنّان واستغرق منه العمل أكثر من شهر ونصف، وعندما أنهى البورتريه جاء به حسب الاتّفاق إلى صاحبه، وعند الحديث عن الأتّعاب، طلب بشير يلس 10 آلاف فرنك بعملة ذلك الزّمن طبعا، فما كان من هذا الثّري التّلمساني سوى أن ضحك ضحكة استغربها الفنّان يلّس، وعندما سأل عن سببها، أجابه هذا الثّري بأنّ 10 آلاف فرنك يمكنه بواسطتها أن يشتري بقرةً، والبقرة تلد له عجلا ناهيك عن كونها تزوّده يومياً بكميّة من الحليب ينتفع بها، وهكذا راح هذا الثّري يعدّد محاسن هذه البقرة.. وهنا اندهش يلّس من مستوى تفكيرهذا الثّري، ثم عاد أدراجه مصطحبا بورتريه الأمير عبد القادر الذّي قضى في رسمه ما يقارب الشّهرين» يتساءل مهندس مقام الشّهيد:«كيف للمواطن أمام هذه الوضعيّة أن يهتمّ بالفنِّ، أو أن يُخصّص جزءا من وقته لمعرفة مَنْ يكون بشير يلّس «.

يروي الأستاذ بشير يلس أنّ حكاية مقام الشّهيد لا تعود إلى مرحلة الرّئيس السّابق الشّاذلي بن جديد مثلما يعتقد البعض، ولكنّها تضرب بجذورها إلى أبعد من ذلك، فهي ترجع إلى بداية سنوات الاستقلال، فقد أكّد أنّ موضوع إنجاز معلم يُخلّد تضحيات الجزائريين سواء من خلال ثورتهم المسلّحة أم انتفاضاتهم الشّعبية، جاء في مرحلة مبكرة من الاستقلال، حيث تمّ الاتّصال به على عهد الرّئيس الأسبق أحمد بن بلة، وكان يومها يلس مديراً للمدرسة الوطنية للفنون الجميلة.

طُلب منه التّفكير في إنجاز عمل يخلّد تلك التّضحيات، لكنّ العمليّة لم يُكتب لها النّجاح، ولم يتم تجسيدها، ربما للظّروف التّاريخية المعروفة التي أحاطت بمرحلة الرّئيس بن بلة. غير أنّ إنجاز هذا المعلم لم يوضع في الأدراج، لكنّه بقي ضمن اهتمامات القيادة السّيّاسية في الجزائر، ولمّا استلم الرّئيس هواري بومدين مقاليد السّلطة، أُعيد تحريك الموضوع.

في بداية الثّمانينيات من القرن الماضي، عاودت السّلطات السّياسية، بعد استلام الرّئيس الأسبق الشّاذلي بن جديد السّلطة خلفا لبومدين، إحياء المشروع، وتمّت عملية الاتّصال ببشير يلّس من أجل الإشراف على الموضوع ثانية. وهنا يؤكّد يلّس للشّروق قائلاً: «في بداية الثّمانينيات جاء الكنديون إلى الجزائر من خلال شركة لافاليـن لإنجاز مشروع بابن عكنون، وانتهزت السّلطات وجودهم لتعرض عليهم إنجاز مقام الشّهيد. قمت بمعيّة ممثلي الشّركة الكندية، باختيار المكان الذّي سيحتضن المشروع، فكان أن اتّفقنا على الأرضيّة التي يوجد عليها مقام الشّهيد حاليا بالمدنية (صالومبي) سابقا، كما ناقشنا المخطّطات وكيفية تجسيدها على أرض الواقع، ولم يمرّ عام حتى أُنجز المشروع بالكيفية الموجود عليها اليوم».

صورة عبد الحميدبن باديس وقد ضمنها خطوطًا بالحرف الكوفي.

5 – محمّد صفّار باتي

ولدعام 1971 ، تحصّلَ على شهادة اللّيسانس في علم النّفس التّربوي، أجيز من طرف الدّكتور محمّد بن سعيد شريفي، حاصل على شهادة الدّكتوراه الفخريّة من المركز الثّقافي الدّولي الألماني.

يعمل خطّاطًا محترفًا وأستاذًا بمؤسّسات خاصّة بالجزائر العاصمة، ترأّس الكثير من لجان التّحكيم الجزائرية، وعمل عضوًا بلجان التّحكيم

والفرز الدّولية، وكُرِّم في العديد من المرّات في المحافل الدّوليّة، وأسهم في إنجاز خطوط جامع الجزائر الأعظم التي بلغ طولها 6000 متر، وشارك في العديد من المعارضِ والفعّاليات الدّوليَّة (طهران- دمشق- تونس-المغرب- الكويت- السّعودية- الصّين- تركيا- فرنسا- دبي- الشّارقة- أبوظبي- قطر- لبنان ...). وفاز بالعديد من المراتب الأولى، وجوائز التّميز الدّولية، وشارك في أكثر من 50 تظاهرة دوليّة.

ومن بين أبرز الخطوط المعروضة، الخطُّ المغربي المتميّز عن الخطوط العربيّة المشرقية، وهذا الخطّ حسب دراسة سابقة للباحث محمّد الصّادق عبد اللطيف «يحمل في ثناياه نفحة أولية من تلك الحضارات الأولى التي تشكَّلت في المشرق، وتطوَّرت إلى أن استقل عن النّفوذ المشرقي وصاغ لنفسه شخصيّة، وميزة عامة له خصوصياتها وذاتها وقواعدها». لامرية أنَّ الحضارة المغربيّة الأندلسيّة طبعته بما لها من مميّزات، كالفسيفساء التي دخلته فتداخلت الحروف في فنٍّ رائع، تزيد في روعته صعوبة قراءته، وكأنَّه يحتوي على أسرار يتدلّل في الكشف عنها، إذ يبدي زينته للقارئ ويخفي عنه مفاتنه، ومفاتيح فكّ رموزه». وحسب الباحث فقد «قبل المغاربة الخط العربي، وهجروا كتابتهم القديمة، وقد أنشأوا خطاً ذا خصائص مغربية لا يزال يحافظ على ثلث حروف الخط اليابس (الكوفي)، والخط المغربي يمتاز بعراقته الواسعة ورسو سطره، فكان نوعًا فريدًا من الخطوط العربية، وقد تطور بمعزل عن الخط المشرقي وخالفه في ترتيب الحروف الأبجدية: أنواعه قليلة، تطوره بطيء، جنى عليه ارتباطه بالكوفي وخلوه من القواعد والموازين، أو ضياعها فبقي خط تدوين، قاصراً في مجال اللوحات واللافتات إلا النّادر، وقد أثر في ترقيته تعاقب الدّويلات في المغرب وقصر أعمارها حتى لقد استعصى على النّاشئة قراءته، وابتعد عنه الخطاطون المعاصرون وتقاعسوا عن إحيائه وتطويره، ولا يزال يظهر في بعض المجالات، خصوصًا في المغربوموريتانيا، أما في أواسط أفريقيا فلا يزال هو السّائد خصوصًا في المصحف الشّريف».

والخطُّ المغربي التّقليدي حسب الباحث «واضح كلّ الوضوح ولا يخلو من جماليّة بعيدة عن كل تصنّع، إنّ أهل فاس مثلاً أخفوا بالنّسيج وفوقه الجبس الكتابة المزخرفة التي تزيّن قوس محراب جامع الأندلس المجاور له، عندما دان المغرب إلى المُرابطين الذّين تشدَّدوا في أمور الدّين فمنعوا كلّ زخرف ونقش، الشّيء الذّي فعله أهل الأندلس بمساجدهم للحفاظ على زخارفها في نفس العهد، ولم يَحدْ المُوحّدون عن هذه السّياسة، وذلك جلي في المساجد التي بنوها، إذْ لم تكشفْ المساجد الأولى عن فسيفسائها إلّا بعد اندحار المُرابطين والموحّدين».

14 - الخطُّ العربي في المنظومة التّربويّة الجزائريّة:

ليس للخطِّ العربي في الجزائر مكانة كباقي الفنون، ويعودُ السّبب إلى تغاضي المنظومَة التّربويّة عن هذا الفنّ، فلا نملك مادة تعليم الخط العربي، بالإضافة إلى قلّة المدارس المتخصّصة، والحصص التّلفزيونيّة في بلادنا التي تسهم في غرس هذا الفنّ في نفوس أبنائنا.

تعدّ مادّتا الخطّ والكتابة من أولويات العمليّة التّربوية، وخاصة في مرحلة الدّراسة الأساسية، ومن المؤكد أن غياب هذه الأولوية كان السّبب المباشر في رداءة الخط عند الأطفال. فالخطُّ والكتابة يعتبران مادتين أساسيتين في المدارس الإعداديَّة في دول المشرق العربي، ويطلقُ عليها اسم مدارس تحسين الخُطوط العربيَّة، ونجدها بكثرة في سوريا ومِصر.

زد على ذلك فإنَّ التّكنولوجيا الحديثة أخلطت كلَّ الحسابات، وأصبحَ هذا الجيلُ آلة راقنة أو آلة حاسبة، فأصبحت مُمارسة الخطّ عند الكثير في طيّ النّسيان مثله مثل الرّسالة التي كنّا نبعث بها إلى أهلنا وأصدقائنا لننتظرَ بعد ذلك موزِّع البريد حاملًا الرّد، ويبقى في النّهاية للخطِّ العربي مكانته العظيمة فمهما تطوّر عقلُ الإنسان البشري فإنَّه يبقى يميل لخطٍّ اليد خصوصًا لمّا يقف أمامَ لوحةٍ خطيّة من إبداع فنّان في الخطّ العربي بهندسة عبقريّة.

وحتّى ترجعَ للخطّ العربي مكانته في المدرسة الجزائريَّة ينبغي:

- عودة الخطّ العربي بقوة في مناهج اللغة العربية؛
- إنشاء مراكز متخصّصة لتعليم فنون الخطّ العربي؛
- طرح المُبادرات والمسابقات النّوعية لإتقان مهارة الخطّ العربي؛
- تعميم مبادرة أندية الخطّ العربي في المدارس كافّة؛
- احتضان المواهب في الخطّ العربي وتشجيعهم لتنمية قدراتهم؛
- خضوع المعلّمين لدورات تدريبيّة في طرق تدريس الخطّ العربي، إذْ لا

يمكن تحسين خطّ الطّفل إذا كان خطّ المعلّم نفسه سيّئا، فمعلّم الخطّ يجب عليه أن يكونَ مُلمًّا بقواعد الخطّ وأصوله وذلك عبر التّدريب والنّمذجة والمُحاكاة، هذه الأخيرة تكون من قبل المعلّم حيث يؤدي عمليًّا كلّ مهارة من مهارات الخطّ أمام تلاميذه، ومن ثم يقوم الطّفل بتقليد المهارة، ومع التّدريب يرتقي من المحاكاة والتّقليد إلى الممارسة. وهنا ينبغي للمعلم كذلك أن لا يخلط بين تعليم الكتابة وتعليم الخط، فالكتابة مجالها تهجئة الكلمات وأصوات الحروف، أما الخطّ فمجاله طريقة رسم الحروف.

15 – أدوات كتابة الخطّ العربي:

من بين أسباب تَحسين الخطّ وتجميله، ما يرتبط بالأدوات التي تستخدم في الكتابة، وأهمّها القلم والورق والكرّاسات، فطول القلم وحجمه وشكله، ينبغي أن يكون مناسبًا للطفل، ذلك أنَّ القلم القصير جدًّا أو حجمه السّميك أو الرّقيق جدًّا، لن يُمكِّن المتعلم من الإمساك الجيّد به، ما يضعف القدرة على الكتابة بخط جيّد. كما أنَّ الورق ينبغي أن يكون مسطرًا واضح الخُطوط. إنّ التّدريب على الكتابة وتحسين الخط يخضعان لمجموعة من القواعد التي تضبط ممارسة الكتابة بخط صحيح وجيد، وهي قواعد معروفة عند الخطّاطين.

ومن بين هذه القواعد المقاييس الصّحيحة للحروف نزولا وارتفاعًا ليتحكم المتعلم برسمها على الورقة، والتّأكد من سلامة وضعية الجلوس، والزّاوية والوضعية الصّحيحة لمسك القلم ووضعية الورقة.

الخلاصة:

تعدّ اللّغة المكتوبَةُ في الفنِّ ركيزة من الرّكائز الأساسيّة التي تقوم عليها المنظومَة الفنيّة، لتأثيرها البالغ على الفنونِ التّشكيلية، خاصّة وأنّها تقوم بدورِ الوصفِ والتّحليل والتّفسير والتّقييم والتّقويم والتّأويل، وما إلى ذلك من أفعال تُحاول تقديم الإبداعات التّشكيليّة والتّجارب الفنيّة ككلّ ومحيطها العام وتبرز أهمّ سماتها.

وإن اختلفت صياغاتها وتمثّلاتها بين نقد، أواستيطيقا، وفلسفة فن، أو تاريخ فن، أو علم دلالة، أو كتابات مُصاحبة للنّصوص التّشكيليّة وغيرها، أوفنونٍ خطّية، وتنوّعت انتماءات الذّوات المُمارسة لها وهويّتهم، تتّحد في ما بينها في اِرتباطها بالعمل التّشكيلي الذّي يكون نقطة بِداية العمليّة النّظريّة، والمؤسّس للمفاهيم والمعاني التي نتوق باستمرار لتلمّسها، وهي تتجدّد وتتبدّل مع كلّ تجربة إبداعيّة ومع كلّ عمل فنيّ، مع كلّ فنّان أو اتّجاه أو قضيّة فنيّة، فتستنطق الدّلالات وتفسّر الإشارات، في سجلّ هدفه الوصول إلى ما وراء الأشياء لتصوير المشهَدِ الفنّي.

كيفما كانت الكتابات البَصريّة فلا بدّ أن تكون لها رسالتّها التي تجعلها موضع الاهتمام، باعتباراتها التّوثيقيّة والتّحليليّة والمنهجيّة. الثّقافيّة والفكريّة والفلسفيّة. ومختلف الطّاقات التي تؤهّلها لمخاطبة الذّات والآخر، وعبر المُقارنات التي تقودُ تجاوزًا لتطبيق نظريّات الكتابة الغربيّة في دراسة العمليّة البَصريّة المنتجة وطنيًا، والتي تَنتجُ عنها الكثير من الإشكاليّات المتّصلة باللّغة والبناء الفنّي وأساليب التّعبير وعسر التّطبيقات المتداولة بفعل التّرجمات، لعدم تكيّف مفاهيمها بشكل عام مع الظّواهر البصريّة المحليّة، أو مع مرجعيّات الأفكار ومصادرها ورموزها، ممّا يغلق الطّريق على العديد منَ التّجارب في الوصول إلى الدّلالة والهُويّة المُميّزة للاشتغالات النّقديّة والمعرفيّة الجزائريّة، والتي يحاول العديد من الكتّاب والباحثين تمييز خصائصها وبناها، ليس من خلال اتّباع الأفكار والنّظريّات، وإنّما بالمشاركة المبدعة فيها، وفي نقدها، والإضافة عليها عميقة حول هذه الوضعيّة.

يحيلنا هذا الواقع إلى الحديثِ عن المأزق الذّي يُحيط بالكتابة في الفنِّ العربي، في مُستوى اللّغة التي تفترض مناهج ومعايير وآليّات وأدوات مُتخصّصة من أجل الخوضِ في العمليّة الإجرائيّة وفي مواجهة المُنجزات الإبداعيّة. هو واقع قد بشّرت ملامحه بوضع حرج أقرّ حضوره العودة إلى العِديد منَ الكتابات الفنيّة العربيّة الموجودة على السّاحة الثّقافيّة، والتي على وفرتها وتعدّد إنتاجاتها في الكثير من المُؤلّفات، من كتب ومجلاّت وجرائد ومواقع الكترونيّة وغيرها من الوسائط التّعبيريّة، فقد بيّنت مكامنَ نقصان في العديد من الجوانب المتعلّقة بهذه المَسائل.

تتطلّبُ المُمارسات النّظريّة الفنيّة قدرًا بالغًا من الحذقِ، والإتقان، والتّمرّس في الأداء وفي الكتابة والإنتاج المعرفي التّشكيلي، خاصّة وأنّها ستكون المرآة العاكسة للتّجارب التّشكيليّة في مُستوى تقديمها وبسطها وتشخيصِها لخاصيّاتها ومستوياتها وسماتها التي تميّزها.

● د. عبد النّاصر بوعلي.
جامعة تلمسان

المصادر

1 –إبراهيم مردوخ، الحركَةُ التّشْكيليّة في الجزائر، مطبعة دارهومَة، الطّبعة الأولى، عام 2005.

2 – أحمد شوحان، رحلة الخطّ العربي، الدّار التّونسية للنّشر والتّوزيع، تونس، بالاشتراك مع الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع الجزائر، الطّبعة الأولى، السّنة 1986.

3 – اِبنُ خلدون، تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشّأن الأكبر، ضبط المتن ووضَّع الحواشي خليل شحّادة، مراجعة الدّكتور سهيل زكّار، دار الفكر، بيروت، الطّبعة الرّابعة، السّنة 1421 هـ/ 2000م.

4 –الدّرجيني أبو العبّاس أحمد بن سعيد، طبقات المشائخ بالمغرب، حقّقه وقام بطبعه إبراهيم طَلاّيْ، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، السّنة 1394هـ/ 1974م.

5 – أبو زكريّاء يحي بن خلدون، بغية الرّواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق عبد الحميد حاجيّات، المكتبة الوطنيّة، الجزائر، السّنة 1400 هـ1980م.

6 –ابن سعيد الأندلسي، الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السّابعة، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار المعارف، القاهرة، الطّبعة الرّابعة، السّنة 1990م.

7 – أبو القاسم سعد الله، تاريخُ الجزائر الثّقافي، دارالبصائر، الجزائر، الطّبعة 4، 2007.

8 –عبد الرّحمن جعفر الكناني، مُنمنمات محمّد راسم الجزائري، منشورات الإبريز، الجزائر، الطّبعة الأولى، السّنة 1994.

9 – لسانُ الدّين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق وشرح محمّد بن عبد الله عنان، دار النّشر مكتبة الخانجي، مصر، الطّبعة الثّانية، السّنة 1991.

10 –محمّد خالدّي، تُحف الفنون التّشكيليّة بالجزائر خلال حقبة الاستعمار الفرنسي من سنة 1830 إلى 1962، أطروحة دكتوراه، تخصّص فنون تشكيليّة، جامعة الجزائر، السّنة الجامعيّة 1999/ 2000.

11 – محمّد بن مَيمون الزّواوي الجزائري، التّحفة المرضيّة في الدّولة البكداشيّة في بلاد الجزائر المَحميّة، تحقيق وتقديم الدّكتور محمّد بن عبد الكريم، الطّبعة الثّانيّة، النّاشر الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع الجزائر، الطّبعة الأولى، السّنة 1981.

12 – المرّاكشي (عبد الواحد)، المُعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمّد سعيد العريان ومحمّد العربي العلمي، القاهرة، الطّبعة الثّالثّة، السّنة 1980.

13 – النّميري بن الحاج، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السّعديّة إلى قسنطينة والزّاب، تحقيق محمّد بن شقرون، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، السّنة 1990.

اللّهجات في منطوق تلمسان

د. مهدية بن عيسى
د. فرح ديدوح

يتميّز ساكنة تلمسان بتعدّد لهجاتهم وتباينها وهذا راجع لعدّة عوامل نذكر منها: إرثها التّاريخي الممزوج بما بقي في منطوقهم من الأندلسيين والعثمانيين ولغة المستعمر، بالإضافة إلى موقع الولايّة الحدودي، مما جعل سكانها يتأثرون بلهجة الدّولة المجاورة، وسوف نعرض في مقالنّا هذا بعض العادات الكلاميّة في منطوقهم.

1. القاف الهمزيّة:

ينطق أهالي تلمسان (الحضر)[1] القاف همزة مخفّفة؛ حيث استثقلوا إطلاق هذا الصّوت بخواصه المعروفة له في الفصيح، فأبدلوه بأقرب الأصوات شبها به، وعليه، فالقاف التّلمسانيّة همزة دخلها بعض التّخفيف. ومن أمثلة هذا النّطق، قولهم: آل في (قال)، و(أَلْبْ) في (قلب) و(أَرْآبْ) في (قرقاب)، أي نعل.

ويلاحظ في نطق بعض التّلمسانيين أنهم آثروا إخراج القاف گافا ساميّة، نحو قولهم: (حگودي) في حقودي، و(گربة) في قربة. ولعلّ هذا النّطق تسرب إليهم من أحواز تلمسان.

2. التّاء السّينيّة:

ينطق التّلمسانيون (الحضر) التّاء مشربة سينا، في نحو قولهم: (أُتسلك) في قلت لك، و(لكتْساب) في لكتاب، و(التّسمر) في التّمر.

3. الثّاء الكافيّة:

يخرج التّلمسانيون (الحضر) الثّاء السّاكنة في بدايّة الكلمة كافا، نحو قولهم: (كلاتة) في ثلاثة. ويبدو أن مسوّغ هذا الإبدال، أنهم حين أبدلوا الثّاء الأخيرة تاء مالوا إلى إبدال الأولى كافا إيثارا للصوتين الشّديدين (ك و ت)؛ لأنهما أقصرا زمنا وأسرعا نطقا من الثّائين الرّخوين المكلف نطقهما جهدا مضنيا.

4. الجيم التّلمسانيّة DJ :

من الأصوات اللّهجيّة المتداولة في منطوق حضر تلمسان الجيم، فهي مسموعة في كلامهم بنطقين:

- أولهما يقترب من الجيم الفصيحة، كما نسمعها من مجيدي القراءات القرآنيّة، فهم يخرجونها (دج) في نحو قولهم: (دْجي) في أجي، بمعنى تعال، وقولهم: (دْجنان) في لجنان أي البستان.
- أمّا الثّاني فهي جيم مركبة من صوتي التّاء والشّين (تش)، وهذا الصّوت من بقايا النّطق التّركي في منطوق التّلمسانيين الحضر، ومن الأمثلة على ذلك عند نداء شخص اسمه مبدوء بالجيم، نحو: (جْوار) و(وجنار) فهم يلفظونهما هكذا: (تْشوار) و(تْشنار).

5. الأصوات المطبقة في نطق حضر تلمسان (ض،ظ، ط):

ينطق الحضر صوتي: (ض، ظ) دالا، يظهر هذا واضحا في نطق الرّجال خاصة، نحو قولهم: (دهر و دو) في ظهر و ضو. في حين نسمع الصّوتين على السّنة النّساء خاصة (طاء)، يبدو هذا في قولهم: (طْهر، وطَو، ورمطان، وطْليلة) في ظهر ورمطان وظل. والفرق بين النّطقين، أن الرّجال آثروا صوتا مجهورا مرققا، في حين مال النّساء إلى الطّاء المهموس المفخم.

أما صوت الطّاء فيحافظون غالبا على خصائصه النّطقيّة، كما في قطن وطين وطاجين وطريز، ولكنهم يميلون به نحو التّاء المفخمة في بعض الألفاظ، كما في قولهم: (تريق) بدل طريق. فصوت الطّاء في هذه الكلمة وسط بين التّاء والطّاء.

6. الدّال التّائيّة:

يسمع الدّال تاء في نطق بعض حضر تلمسان، وذلك في سياق صوتي معين

(1) يقصد عادة بكلمة (الحضر) سكّان تلمسان القاطنين داخل السّور الذي يحيط بالمدينة العتيقة، ويوصف هؤلاء بأنهم أهل حضارة وتمدّن. في حين تُطلق لفظة (الحوز) على سكان ضواحي تلمسان.

تأتي فيه التّاء ساكنة متلوّة بصوت مهموس، نحو قولهم: (يتْفَنْ) في يدفن. والظّاهر أن إبدال الدّال تاء سوّغه تأثير الفاء بما فيه من الهمس في الدّال المجهور؛ الذي اتصل به اتصالا مباشرا؛ لأنه ساكن، ثم وقوعه في نهايّة مقطع، والتّاء في بدايّة مقطع (يدْفَنْ)، والصّوت الـذي في بدايّة مقطع أقوى من الذي في نهايته.

والأمـر نفسـه نلاحظـه فـي مناطق أخرى من ولايّة تلمسـان، كما هو جار على السّـنة سـكان دائرة صبرة بقبائلها المتعددة فـي تمكسـالتّ وأولاد حمّو وأولاد عـدّو وبلغافـر، فهـم يقولون: (يتفع) فـي يدفع،و(يتفل) في يدفل، أي يبصق..و(يتفن) في يدفن.

7. الدّال الطّائيّة:

وهناك فئـة قليلة من حضر تلمسـان مـن يخرج الـدّال طاء في مثـل قولهم: (يَطْحِـي فَلْفوزْ) في: يَدْحـي في الفُرْن. أي يضع شيئا في الفرن.

8. التّاء الطّائيّة:

ويميل بعض التّلمسانيين إلى تفخيم التّاء بإبدالها إلـى نظيرها المفخم، أي: الطّاء، فيقولون: (طاصيلة) في تأصيلة، و(يلطخ) في يلتخ. أي يلقي الشّيء بقوة على الأرض.

9. الأصـوات الصّفيريّـة فـي نطـق التّلمسانيين:

ينطقون السّين صادا، وذلك في نحو قولهم: (صلطـان، وسـور، وخْصارة) في سلطان وسور وخسـارة. والمسوّغ الصّوتي لهذا الإبدال تحقيق الانسـجام بإبـدال الصّـوت المرقـق إلـى نظيـره المفخم ليعمل اللسان في مستوى واحد أي العلوّ.

وهو أمـر يلاحظ في منطـوق معظم سكان ولايّة تلمسان على اتساعها. بيد أن السّين تبقى سـينا والصّاد تبقى صادا في معظم الألفاظ المنطوقة، حينما لا يكون الدّاعي ملحا كما في الأمثلة السّالفة.

10. الفاء المجهورة v:

تسـمع الفـاء بخواصهـا الصّوتيّـة المعروفـة لها فـي الفـصيح في نطق التّلمسـانيين (حضـر وحـوز) في نحو قولهـم: (فْتـح، فْرح، فْـراش)، إلاّ أنها قد تُجهر في سياق صوتي معيّن؛ فتلفظ قريبـة مـن(v)، وذلك في مثـل قولهم: (يفْسـد)، فإنها تلفظ:(يفْـزد). ويمكن تفسـير هذا الاسـتعمال، على أنه عندما أثّـرت الـدّال بما فيهـا مـن الجهر في السّـين فأبدلتها إلى نظيرهـا المجهور، وهو الـزّاي، ثم أثّرت الزّاي بما فيها من الجهر تأثيرا رجعيا في الفاء فأبدلتها إلى نظيرها المجهور، وهـو صوت v،الذي لا يميّـزه عن الفاء العربي سـوى وجود الجهر فـي الأول والهمس فـي الثّاني، وطلبا للخفة والانسجام آثر التّلمسانيون إبدال الفاء v نطقا.

وينبغـي أن ننبّـه إلى أن هـذا الأمر لا يطـرد عند باقي سـكان ولايّة تلمسـان، إذ أن أهل صبرة مثـلا بقبائلها المختلفة يحافظون على السّين بخصائصها النّطقيّة في مثـل هذه المواضع، وهو ما لمسـناه عند الصّبراويين مشافهة..فهم يحافظون على صوت السّين في مثل يفسد.

11. السّين الشّينيّة :

تنطـق السّـين شـينا في نطـق بعض التّلمسـانيين في سـياق صوتي محدد، وهو مجيء السّـين مجاورة للشـين في كلمة واحـدة في مثل قولهم: (شـمش وشميشـة) في شـمس وشميسة. ولعل هذا النّطـق من بقايا نطـق اليهود الذين سـكنوا تلمسـان بعـد نزوحهـم مـن الأندلـس أو وفـدوا علـى المدينـة مع الاحتلال الفرنسـي، فكلمة (شـمس) تلفظ بالعبريّة (شِمِشْ).

بيـد أن هـذه السّـين تبقى سـينا بعد القلـب المكاني، في مناطـق عديدة من ولايّة تلمسان، كما عند قبائل صبرة، فهم يقولون (سمش)، في (شمس) الفصيحة.

12. الشّين الصّاديّة :

يُسـمع في منطوق تلمسـان أنّ بعضا من هـؤلاء من يلفظ الشّـين صـادا عند مجاورتها للجيم في نحو قولهم: (صجرة و صجور) في (شجرة وشجور).

أما قبائل صبرة فيحذفون الشّـين في (شـجرة وشـجور)، فيقولـون (جرَّة) في المفـرد، و(جَرْ) في حالـة الجمع، ويحصل ذلـك أيضا إذا كانـت الكلمة معرّفة، فهم يقولـون (الجَّرّة) و(الجَّرْ). وأما في بعض الحالات فتقلب الشّـين سينا في مثل هذه الكلمة فيقال (سجرة).

13. اللام النّونيّة:

ينطق أغلب التّلمسـانيين اللام نونا في نحو قولهم: (جبرين وسـماعين وسنسلة وطحان) في جبريل وإسـماعيل وسلسلة وطحال.

ويشـترك معظم سـكان ولايّة تلمسان فـي ذلك، على تفاوت فيمـا بينهم، فأهل صبرة يقولون أيضا (سنسلة) و(سماعين) و(طِحان)، ولكنهم لا يقولون (جبرين) بل يثبتون اللام فهي عندهم (جبريل).

14/ الغين الخائيّة:

تُهمس الغيـن في نطق التّلمسـانيين فتتحـول إلـى نظيرها المهمـوس، أي: الـخاء في قولهم: (خْسل وخْطس) في

غسل وغطس. والظّاهر في المنطوق المسجّل أن إخراج الغين خاء عند مجاورتها لصوت مهموس في نطق (حضر) تلمسان قد شاع في أحياء (سيدي بومدين وأغادير وبروانة). كما سُمعت الغين خاء في نطق بعض الحوز على ما سمع في أحياء (سيد الحلوي وسيدي سعيد وسيدي لحسن وإمامة والكيفان وشتوان وأوزيدان وأوجليدة.)

أما في مناطق أخرى من الولايّة،كما عند قبائل صبرة مثلا، فتحافظ الغين على خصائصها النّطقيّة، فهم يقولون: (غسل) و(غطس) دون تغيير.

15. نطق القاف على السّنة التّلمسانيين:

إن السّامع لنطق الأحواز لصوت القاف يقف على تنوع في نطقهم لهذا الصّوت، فهو مهموس شديد من أقصى اللسان وما يقابله من اللهاة على نحو ما هو معروف في الفصيح.

وسُمع هذا الصّوت على السّنتهم گافا ساميّة مجهورة شديدة من أقصى اللسان وما يقابله من أقصى الحنك.

وسمع صوت القاف همزة على نحو ما هو جار على السّنة بعض (الحوز)، و هم قلة قليلة ممن قلدوا (الحضر) في نطقهم، ومن كلامهم في هذا قولهم: (التيأ) في الطّيوق، أي النّوافذ، في حين سمعت الكلمة في نطق (الحضر) (الطّيئان) مفردها (طاءة)، وقولهم: (نْآوة) في نْقاوة، في حين هي في نطق الحضر:(النّأى).

ومن الغريب في نطق بعض التّلمسانيين الحضر وبخاصة الذكور عند خروجهم من بيئتهم، فإنهم يعودون إلى نطق القاف گافا ساميّة، وذلك نحو قولهم:(نكَلع والسّاكيّة وكَاديّة وكُدام)، أي نقلع والسّاقيّة وقاديّة وقدام.

16. الجيم الدّاليّة والدّال الجيميّة:

يقلب بعض أهل تلمسان الدّال جيما والجيم دالا، فيقولون (الجْدَاذْ) في (الدّجَاجْ)..ولعل السّبب في ذلك هو الميل نحو السّهولة والانسجام الصّوتي والموسيقي.

17. الدّال الطّائيّة:

يبدل أهل تلمسان الدّال طاء في بعض الألفاظ، من ذلك أنهم يقولون: (حْفيطْ) في (حْفيد) أي حَفيد، وفي الجمع(حفايط) في (حفايد).. وكل ذلك يرجع إلى ميلهم نحو السّهولة والخفة، لأن الفاء تطلب التّاء لاشتراكهما في صفة الهمس.

ثانيا: الأصوات اللّهجيّة المسموعة في المناطق الشّماليّة من الولايّة:

عرفت هذه المنطقة بجهتيها الشّماليّة الشّرقيّة والشّماليّة الغربيّة أصواتا لهجيّة نذكر منها:

1. نطق القاف:

يسمع هذا الصّوت بنطقين، أوّلهما يقترب من الفصيح على السّنة أهالي السّاحل الشّرقي، فهم يخرجونه مهموسا شديدا مستعليا من أقصى اللسان وما يقابله من اللهاة، وسُمع هذا في مدن وقرى (هنين وبني خلاد وندرومة وبني ورسوس والعين الكبيرة وفلاوسن)، وقد يمتدّ هذا النّطق إلى المنطقة الشّماليّة الغربيّة من السّاحل مع بعض الإخفاء في مثل قول أهل مسيردة الفاقة.

ويطّرد هذا النّطق أيضا في منطقة بني سنوس، أي الجنوب الغربي للولايّة (الخميس، بني بحدل، بني عشير، تافسرة، زهرة، الفحص.) فهم ينطقونها فصيحة دائما إلا في مواطن محدودة، حيث تتحول عندهم إلى ما يشبه الجيم المصريّة، كما في قولهم: (الكَرنين) بدل (القرنين)، وهو نبات شوكي لذيذ ينبت في فصل الرّبيع.و (الكَافلة) في (القافلة)،و(الكَيطون) في (القيطون).

2/ القاف الكافيّة:

ويمثّل النّطق الثّاني للقاف وساد في المناطق السّاحليّة الشّماليّة الشّرقيّة والشّماليّة الغربيّة كالغزوات ودار يغمراسن والسّواحليّة وتيانت، وتونان، ومسيردة التّحاتة. وقد اعتاد هؤلاء على إخراج هذا الصّوت كافا مهموسة.

ومن أوجه التّغيرات التي طرأت على هذا الصّوت في منطوق الغزوات نورد:

إبداله كافا مطلقا: وذلك على اختلاف مواقعه في الكلمة، مثال ذلك قولهم: لَكْصَرْ في القصر، وكال في قال، وأيضا عْكَل في عَقْل، وغيرها من المواضع التي لا يمكن حصرها. وهذا الإبدال بين القاف والكاف له ما يسوّغه من النّاحيّة الصّوتيّة، فالقاف والكاف متجاورتان في المخرج.

3/ الضّاد الطّائيّة:

إذا كان الشّريط السّاحلي بقسميه قد عرف قاطنوه اختلافا في نطق القاف، فإنهم في المقابل قد اتفقوا في نطق بعض الأصوات، نحو الضّاد الطّائيّة، أي إخراج الضّاد طاء مهموسة، في مثل قولهم: (طْرب وطْحك).في ضرب وضحك وأيضا قولهم: بيط في بيض.

4/ الجيم الشّينيّة:

يتفق النّاطقون في الشّريط السّاحلي بجهتيه في نطق الجيم شينا مجهورة غير مركّبة كما في نطق التّلمسانيين الحضر خاصة، وذلك في مثل قولهم: (جْبل ولْجْلابة).

ويقترب نطق الجيم من صوت الشّين في حالة ما إذا جاور صوتا مهموسا نحو صوت التّاء في قولهم شْتمعوا في اجتمعوا. وشُحا في جُحا، ففي المثال الأخير وقعت الجيم ساكنة في نهايّة المقطع الأول من الكلمة وهذا ما أضعفها وجعلها تتأثر بصوت التّاء المهموس؛ الذي وقع في بدايّة المقطع الثّاني من الكلمة.

5/ الجيم الكَافيّة GA:

تتحول الجيم إلى گاف في المنطقة السّاحليّة برمتها في سياق صوتي معين تتّابع فيه الجيم والسّين والزّاي، وذلك في مثل قولهم: (كَزار وعكَوز وكَاسوس وكَبس)، في جزار وعجوز وجاسوس وجبس.

ولوحظ أيضا إبدال الجيم كَافا في بعض الكلمات خارج السّياق المذكور، وذلك في نحو قولهم:(فكَعني في فجَعني).

6/ الصّاد السّينيّة:

ومن الأصوات اللهجيّة التي التّقى فيها النّاطقون في المنطقة السّاحليّة إخراجهم للصاد سينا في مثل قولهم:(السّدقة وسندوق وسحابي) في الصّدقة وصندوق وصحابي). ونحو قولهم: لاسَك في لاصق، وسِيّاغ في صائغ،وهذان الصّوتان متجانسان، فكلاهما من طرف اللسان و وسط الأسنان العليا، ولا فرق بينهما إلا في التّرقيق والتّفخيم.

7/ السّين الصّاديّة:

وسمعت على لسان بعض النّاطقين على الشّريط السّاحلي، وذلك في نطقهم للألفاظ التّاليّة: (عرص وغرص ويقصم ويصقصي) في عرس وغرس ويقسم ويسقصي، فقد أخرجوا السّين صادا مهموسة رخوة صفيريّة مفخمة. ويتجلى هذا النّطق أيضا في مثل قولهم: صَرْوال في السّروال، ويْكَصَّر في يَسهر، وأيضا قولهم: يَغْطَصْ في يغطسُ. ومصخوط في مسخوط. وفي نحو قولهم: راصْ في رأس، وأيضا صوكْ في سوق.

غير أنه في المنطقة الغربيّة من تلمسان، كما في صبرة وسيدي مجاهد، والكاف، وبني بوسعيد تحافظ السّين على خصائصها النّطقيّة كاملة، ونسجل ههنا أن الرّاء لا تفخم كما عند السّواحليين، ولذلك تحافظ السّين على صفاتها في هذه المنطقة الغربيّة.

8/ القاف الخائيّة:

ومن الأصوات اللهجيّة التي سمعت عند بعض النّاطقين في المنطقة السّاحليّة بواجهتيها الشّماليّة الشّرقيّة والشّماليّة الغربيّة إخراجهم القاف خاء في سياق صوتي خاص، قولهم: (دروخْ ودوخْ وبواخة) في دروق ودوق وبواقة).

9/ نطق الهمزة عينا أو هاء أوياء أو واوا :

عرف صوت الهمزة على لسان بعض أهل السّاحل تنوعا نطقيا تمثّل في إخراجها عينا في نحو قولهم: (قرعان ومسعول) في قرآن ومسؤول.

وتبدل الهاء من الهمزة في حالات نادرة وقليلة جدا، نحو قولهم هرّق وتهرّق؛ إذا أرادوا أراق، بمعنى انقلب وانسكب الماء، فأبدلوا الهمزة هاء. وأيضا قولهم: مهدّب في مؤدب.

ونُطق الصّوت نفسه واو عند غيرهم، كقولهم: (ودّن) في أذن، وتبدل الهمزة واو أو ياء من أجل تسهيل نطقها، في مثل يْوكّد في يأكّد، أما مثال إبدال الياء من الهمزة فهو في مثل قولهم: يَنا في أَنا، ويَبْرَ في إِبْرة، ويَبْليس إذا أرادوا: إبليس. والملاحظ أن إبدال الهمزة هاء لا يقتصر على كونها في أول الكلمة وإنما تبدل ياء في اسم فاعل الثّلاثي الأجوف؛ مما سمعناه في قولهم: لْقايَد في القائد، ولْعايْلة في العائلة،كما تبدل الهمزة ياء في صيغة فعائل، نحو قولهم: صمايَم في صمائم.

ويتلاقى سكان المنطقة الغربيّة (صبرة وتمكسالتّ، وسيدي مجاهد، والكاف، وبني بوسعيد..) في كل ذلك، باستثناء ما ذكرناه من قلبها ياء، إذ تحافظ الهمزة في قولنا(أنا) على نطقها في مختلف مناطق الولايّة.

10/ نطق الهاء:

لم يطرأ على هذا الصّوت في النّطق العامي لمنطقة الغزوات تغيير كبير عدا حذف الهاء في بعض الكلمات الشّائعة الاستعمال، نحو قولهم في الفاكهة: فاكيّة، وفي: من هنا: منّا؛ فحذف الهاء استلزم التّقاء صوتين مثلين، هما النّون الأولى في «منْ»، والنّون الثّانيّة في نا، وهذا بدوره استلزم ادغام وفناء النّون السّاكنة في المتحركة فاستحالتّ إلى منّا.

أيضا نلاحظ إبدال الهاء صوت مدّ في مثل قولهم: صاريج وهم يريدون صهريج، كما تُحذف في بعض المواضع، نحو قولهم رِيتم وهم يريدون: رأيتُهُم، وطْرَبْتُ في ضربته؛

ففي هذه الحالة أُخفيت الهاء أو حذفت عندما وقعت ضميرا للمفعول به الغائب.

11/ الذال الدّاليّة:

ومن الشّائع في منطوق المنطقة السّاحليّة بواجهتيها الشّرقيّة والغربيّة اختفاء الذال من كلامهم؛ بحيث أصبحت دالا خالصّة في مثل قولهم: (ديب وذْبيحة) في ذئب وذْبيحة.وأيضا قولهم: دابْ في ذابَ، وفْخَذْ بدلا من فخذٍ، والحاصل في منطوق هؤلاء تخلّيهم عن رخاوة الذال لصالح شدة الدّال، وذلك طلبا للخفة والسّهولة في النّطق؛ لأن الصّوت الشّديدة أقصر زمنا وأقلّ كلفة على اللّسان.

أما في المناطق الغربيّة(صبرة وتمكسالتّ وسيدي مجاهد، والكاف، وبني بوسعيد.) فيحافظ سكانها على كل خصائص الذال النّطقيّة، وذلك بإخراج اللسان عند إصدار هذا الصّوت- ولا سيما عند قبائل صبرة- فهم يقولون (ذيب) و(ذبان)..ولا شك أن البيئة الجبليّة القاسيّة لها تأثير قوي على إخراج هذا الصّوت من مخرجه الأصيل دون قلب أو تغيير.

12/ الكاف الشّينيّة أو التّشينيّة:

ومن الأصوات اللهجيّة البارزة في نطق المنطقة السّاحليّة، وهو إخراجهم للكاف شينا أو صوتا مركبا (تش)، ويتجلى هذا النّطق بخاصة في الجهات التي تلفظ القاف كافا، كأهل الغزوات ودار يغمراسن وتيانت وتونان ومسيردة التّحاتة والسّواحليّة، وبعض قرى مرست بن مهيدي، يبدو هذا في قولهم: (كتلشْ، وفي في مثل قولهم: عْليشْ في عليك، وشَبْش في الشّبكة، وأيضا مَالشّ في مالك (استفسار عن الحال).

كذلك أُبدلت الكافا بصوت تْشْ، في مثل قولهم: تْشفي. ويبدل تش من الكاف إذا وقعت الكاف في بدايّة مقطع أو إذا توسّطت الكلام، نحو قولهم: تْشَرتشار في كركار، وأيضا يتشمّش في ينكمش، ولْتْشرسي إذا أرادوا الكرسي.

وهذه الإبدالات الحاصلة في صوت الكاف حدثت نتيجة تقدم مخرج الصّوت ناحيّة وسط الحنك مع بعض الاحتكاك المصاحب للصوت أثناء النّطق.

و الكشكشة في منطقة السّواحليّة لصيقة بها وحدها دون سائر مناطق تلمسان، وقد بالغ بعض النّاطقين فأبدلوا الكاف تاء في نحو قولهم: (تلشي) في كلشي.

13/ الشّين الصّاديّة:

يُخرج بعض أهالي الجهة السّاحليّة الغربيّة الشّين صادا في كلمات بعينها، نحو: (صجرة وصجور) في شجرة شجور، في حين حافظ أبناء الجهة الشّرقيّة من السّاحل على النّطق الفصيح للشين.

14/ الشّين السّينيّة:

احتفظ صوت الشّين بخصائصه الصّوتيّة عدا مواضع وكلمات قليلة جدا أبدل فيها بصوت السّين، وذلك في مثل قولهم: سَجْرة في شجرة، وسَجْعان في شُجعان، وطبعا مثل هذا الإبدال له ما يسوغه من النّاحيّة الصّوتيّة؛ فهما صوتان متجانسان، يتفقان في المخرج والصّفة. و تُبدل الشّين تاء في نحو قولهم: أتايْ في الشّايْ، ولم نسمع إبدالا بين هذين الصّوتين في مواضع وكلمات أخرى.

/ الصّاد الزّائيّة:

تبدل الصّاد زايا في مثل قولهم: قزْدير في قصدير وزْدَم في صدم، وبْزَق في بصَقَ.

من هذه الأمثلة نلاحظ أن إبدال صوت من صوت يخضع لقوانين التّجاور والقرابة المخرجيّة، بحيث أن الصّاد أُبدلت زايا عندما جاورت صوتا من أصوات الاستعلاء؛ وهو القاف. وأيضا لتأثره بصوت الدّال المجهور في نحو قولهم: يزْدر في ينام.

16/ الثّاء التّائيّة:

الملاحظ في منطوق الشّريط السّاحلي بقسميه إبدالهم الثّاء تاء على نحو صنيعهم في نطق الذال دالا إيثارا للشديد على الرّخو لخفته، وذلك في مثل قولهم: (التّورة والتّور وتلاتة) في الثّورة والثّور وثلاثة، وأيضا في قولهم: توم بدل ثوم. وتْريا في ثُريا. في حين أن هذه الثّاء تحافظ على خصائصها النّطقيّة في المناطق الغربيّة(صبرة، وتمكسالتّ، وسيدي مجاهد، والكاف، وبني بوسعيد)، فهم يقولون (ثورة) و(ثعبان).بيد أنهم في كلمة مثل (ثلاثة) ينطقون الثّاء الأولى تاء تفاديا لتواجد ثاءين في كلمة واحدة،فيقولون (تلاتة).

17/ التّاء الطّائيّة:

الثّابت في نطق أهل السّاحل اختلافهم في لفظ التّاء بين التّرقيق والتّفخيم، فقد تحولت التّاء إلى نظيرها المفخم عند من أخرج القاف كافا، كالغزوات وتيانت ومسيردة التّحاتة ودار يغمراسن وجبالة والسّواني وباب العسة، ومن أمثلة هذا قولهم: الطّراب والطّمر). وعْطَر في عثَر فيفخمون التّاء لتصبح طاء.

18/ الطّاء التّائيّة:

تتنـازل الطّـاء عن تفخيمهـا لصالح نظيرهـا المرقـق وهو التّـاء، وذلك في بعـض الجهـات مـن مسـيردة التّحاتة وجبالة وبوطراق، فهم يقولون: (التّريق والتّبسـي) فـي الطّريـق والطّبسـي. ولكن هـذا الأمر لا يطرد فـي كل طاء. وهو المـــلاحظ أيضا فـي منطقة بني سـنوس، فهم يقولون أيضا (التّريق) في (الطّريـق)، و(التّبق) فـي (الطّبق).غير أنهم يحافظـون على الطّـاء في مواطن أخرى، كما في (الطّاولة) و(الطّين).

19/ الجيم الكَـافيّة GA :

والظّاهـر أن هـذا الصّـوت مرهون بسـياق صوتي معين وهو وجود السّين أو الـزّاي إلى جانب الجيـم، وذلك في نحو قولهم: (كَـلس) في اجلسْ.

20/ الجيم الدّاليّة:

أيضا فإن الجيم تبـدل دالا في ألفاظ قليلـة نحـو قولهـم : دْزايـر إذا أرادوا الجزائر، وفي هذه الحالة انتقل المخرج من وسـط اللسـان إلى طرفـه، والجيم والذال صوتان متقاربـان في الصّفات، فهمـا يشـتركان فـي الجهـر والتّرقيق والانفتاح.

21/ الزّاي الجيميّة:

ومن صور تأثيـر اللهجة المغربيّة في القـرى الحدوديّة نطق الـزّاي جيما في مثل قولهم: (جـوج ومْجوج) في زوج ومْـزوج. وقد سـمع هـذا الصّوت في قرى: الرّافيل والعابـد وربان وعصفور والزّويّة.

22/ نطق الجـيم: دج DJ:

تنفـرد منطقـة سـواحليّة بمختلـف قراها: تونان ومزّورو وسـيدي إبراهيم وزاويّـة الميـرا وبغـاون وبوخنايـس، بنطـق الجِيم (دج)، وذلـك في كلمات معينة، نحو: (نْدجيل ونْدجيلو ولدْجاّرو ودْجاطو) في نْكَـيل ونْكَيلو ولْكَـارو ولْكَاطو. وفي مثـل قولهم: لَدْجْمل في الجمل ولْدْجامع في الجامع، ولْدْجلابة فـي الجلابة، وفي غيرها مـن الكلمات التي تبـدأ بلام التّعريـف أو في الألفاظ التي لا تكون فيها الجيم في أول الكلمة؛ لأنها متى استهلت النّطق فإنها تحقّق.

23/ الدّال الطّائيّة:

يتفـق النّاطقـون فـي الغـزوات وسواحليّة في نطق الدّال طاء في قولهم: (عَطْس) في عَدْس.

24/ القاف الكافيّة (الصّوت السّامي):

وسـمعت القاف گـيما على لسـان بعـض النّاطقين مـن بَلديّة مرسـت بن مهيـدي، ولعل هـذا النّطـق وافد على الجهة مـن النّازحين إليهـا من المناطق الأخرى، وسمع هذا الصّوت أيضا على لسـان أهالي قريتي الكرايمة والنّجاجرة بدائرة بني خلاد.

25/ القاف الكافيّة والقاف الگـافيّة:

تنفرد منطقة مسـيردة العلويّة (لفاقة) في قرى مرسى بن مهيدي وبني منقوش بنطقين للقـاف، فهناك من يخرجها كافا مهموسة شـديدة منفتحة مستفلة مرققة من أقصى اللسـان وما يقابله من أقصى الحنك، نحو قولهـم: (كَلب) في قلب، في حين استسـاغ آخرون فـي المنطقة نفسها إخراجها كَـافا سـاميّة كقولهم: (كَـال) في قال.

وإذا اتجهنا صـوب القرى المجاورة لمرسـى بـن مهيـدي، نحـو: (العنابرة وسـرمرام وشـايب راسـو) وقفنا على تنـوع صوتي قد يختلف عن المسـموع في مرسـت بـن مهيـدي، فالقـاف في هـذه القرى تلفظ كافا، في حين تسـمع في قـرى مجـاورة للحـدود المغربيّة، نحـو (بوكانون وجامع الوسـطى وحد الصّبابنة) گـافا سـاميّة.ويقترب أهالي مسيردة التّحاتة في نطقهم من نطق أهل الغزوات وسـواحليّة فالقاف تلفظ كافا والكاف تنطق شينا أو تْش.

26/ الضّاد الطّائيّة:

ينطق أهل مسـيردة الضّـاد طاء، فقد سمع عنهم قولهم: (طْحك وطْرب) في ضحك وضرب.

27/ التّناوب بين المصوتات في منطوق المناطق السّاحليّة.:

أ ـ بين الفتح والكسـر: من أمثلة ذلك قولهم فـي البَيْض: (البِيـط)، والمائدَ: (المِيـدة)، وفـي السّيف:(السّـيف)، طبشور:(طَباشير)، وفي لَيل:(لِيل).

وفـي ألفـاظ أخـرى حلـت الفتحة محـل الكسـرة، وذلـك فـي نحـو قولهم:(المَفتـاح) فـي المِفتـاح، و(المَسمار) في المِسمار، و(سَلْك) في سِـلك، و(البَرميل) في البِرميل، وأيضا قولهم: البارَح في البارحة.

ب ـ بين الفتح والضّـم: ومن الألفاظ التي حدثـت فيها معاقبة بيـن مصوّتي: الفتحـة والضّمـة، قولهـم: (دْرُج) في دَرج، و(الصّـوم) فـي الصّـوم، وأيضا قولهم فـي الجُـرح: جَـرح و(الصّبَع) فـي الأُصبع، و(كَرسـي) بدل كُرسـي، و(فَلفَل) فُلفُل.

ج ـ بين الضّم والكسـر: ومما وقع في هذا الباب، قولهم في شَرِبَ: (شْرُبْ) و في رَغوة: (رُغْوة).

ثالثًا: الأصوات اللهجيّة الجاريّة عند أهل المناطق الشّرقيّة من الولايّة

تتربع المنطقة الشّرقيّة على مجموعة من الدّوائر والبلديات نذكر منها: (الرّمشي وسبع شيوخ والفحول وعين يوسف وابن سكران وسيد العبدلي وأولاد ميمون وعين النّحالة والشّولي وعين تالوت)، إذ يكاد يتفق أهالي الجهات المذكورة في منطوقهم. ومن الأصوات اللهجيّة المسموعة على السّنة هؤلاء نذكر:

1/ القاف الگافيّة:

فهو يسمع على السّنتهم مجهورا شديدا في مخرجه من أقصى اللسان وما يقابله من أقصى الحنك، ومن الأمثلة المسموعة في هذه المناطق، قولهم: (صوگْ وگداش وگْطع وگْريب وبگْرة وگُول ورگاد) في سوق وقداش وقطع وقريب وبقرة وقول ورقاد.وقد يُهمس هذا الصّوت في سياق صوتي محدد، وهو أن ترد القاف ساكنة متبوعة بالتّاء في نحو قولهم:(كْتْل وكْتيلة) في: قتل وقتيلة.

ونلاحظ ذلك أيضا في المنطقة الغربيّة (صبرة وتمكسالتّ، وسيدي مجاهد، والكاف، وبني بوسعيد..) فالقاف عندهم تنطق كذلك..بيد أنها في بعض الألفاظ تحافظ على فصاحتها، فتنطق قافا، كما في (قهوة) و(قرقرة) أي ضفدعة، و(قَرْعَة) أي زجاجة.

2/ الذال الدّاليّة والثّاء التّائيّة:

حافظ هذان الصّوتان على خواصهما الصّوتيّة المعروفة لهما في الفصيح عند أغلب النّاطقين في المناطق المذكورة، ومن نماذج هذا في كلامهم قولهم:(يذكر ويأذن ولكذب ولعذاب وثلاثة). غير أن المسموع عند أهل الرّمشي وبن سكران وعين يوسف يؤكد تحوّل هذين الصّوتين إلى (د وت) أي: إلى صوتين شديدين في منطوقهم، من ذلك قولهم: (ديب ولعداب وتلاتة).

3/ التّاء الطّائيّة:

تُسمع التّاء طاء مفخمة في منطوق قريتي سيدي السّنوسي وسيد العبدلي، يبدو هذا في مثل قولهم: (حطارمو وكنطور وموطور).

4/ الضّاد الظّائيّة:

الظّاهر في منطوق أهل الرّمشي وبن سكران وعين يوسف، أنهم يبدلون الضّاد طاء في مثل قولهم: (بعظ ومْرظ ويعرظ).

5/ نطق الجيم:

تُنطق الجيم في المنطقة الشّرقيّة قليلة التّعطيش أي قريبة من الجيم الفصيحة كما نسمعها من مجوّدي القراءات القرآنيّة، ومن أمثلة هذا قولهم: (جْبل وجامع ولجماعة وجْنازة وجار).

وهو الأمر نفسه الذي نسجله في المنطقة الغربيّة (صبرة وتمكسالتّ وسيدي مجاهد، والكاف، وبني بوسعيد)، فالجيم في هذه الجهة تقترب من صفاتها في الفصحى.

6/ نطق الجيم گِيما:

وقد تُلفظ الجيم گِيما عند مجاورة الزّاي أو السّين عند بعض النّاطقين من المنطقة المذكورة، وذلك نحو قولهم: (سِگارة و گزار) في سجارة وجزار.

7/ الطّاء التّائيّة:

حافظ هذا الصّوت على خصائصه الفصيحة في نطق أغلب سكان المناطق الشّرقيّة باستثناء قلّة قليلة؛ سُمع هذا الصّوت في كلامهم تاء مهموسة مرققة، وذلك في مثل قولهم: (تْريق ويتبخ وتابخ وبتاتا) في طريق ويطبخ وطابخ وبطاطا.

8/ الباء المفخمة:

تفخم الباء في منطوق المناطق الشّرقيّة في نحو قولهم: (بّا واصحابات ويخبّر)، ومسوّغ هذا تأثير الصّاد والخاء بما فيهما من التّفخيم في الباء.

9/ الدّال التّائيّة:

وتلفظ الدّال تاء مهموسة في منطوق بعض الجهات من المنطقة الشّرقيّة، على نحو ما يجري على السّنة أهل سيد العبدلي، فهم يقولون: (تفشة) في دفشة.

10/ العين الحائيّة:

المعروف في منطوق (عين فزة وعين تالوت وأولاد ميمون) إخراجهم للعين حاء، في نحو قولهم: (حْشا وحْسل وحْشيّة في عشاء وعسل وعشيّة.

وهو ما لمسته أيضا في المنطقة الغربيّة، وبالتّحديد في أولاد حمو وأولاد عدو وبلغافر وتمكسالتّ..فهم يقولون (حسل) و(حدس) و(حشا) في عسل وعدس وعشاء.

11/ الصّاد السّينيّة:

يُخرج النّاطقون في جهات من المنطقة الشّرقيّة، نحو (عين تالوت وعين يوسف وأولاد ميمون وبني ورسوس وبرج عريمة) الصّاد سينا في

نحو قولهم:(ناقسين و ساقرين وسغير وسدقة) في ناقصين وصاقرين وصغير وصدقة.

رابعاً: الأصوات اللهجيّة عند ساكنة المناطق الدّاخليّة:

يدخل في نطاق هذا التّقسيم جميع المدن والقرى المحيطة بتلمسان المدينة ومن جميع الجهات الشّماليّة والجنوبيّة والشّرقيّة والغربيّة، نحو مدن وقرى: (سبدو وتيرني وعين غرابة وصبرة وبوحلو وأولاد رياح وزناتة والحنايا والشّولي وبني صميل)، ومن أوضح الأصوات اللهجيّة السّائرة على السّنة أهالي المناطق المذكورة، هو لفظهم للقاف گافا ساميّة، في نحو قولهم: (يْگصرو ويْگابل وگْبيل وصوگْ وطريگْ) في يقصرو ويقابل وقبيل وسوق وطريق.

ولم يبق صوت القاف محافظا على خصائصه الفصيحة سوى في كلمات محدودة، نحو قولهم:(القهوة والقريّة والقرايّة).

1/ الضّاد الظّائيّة:

تُسمع الضّاد ظاء في كلام المناطق المذكورة في مثل قولهم: (نحظر وخظرا وبعظها وتظحكو) في نحضر وخضرا وبعضها وتضحكو.

2/ الذال الظّائيّة:

يبدو أن بعض أهل هذه المناطق يؤثرون التّفخيم، حيث أخرجوا الذال ظاء، فقالوا: (نْظوكَ) في نذوق.

3/ الظّاء الضّاديّة:

إن المسجّل في نطق أهل الحنايا وزناتة إبدالهم الظّاء ضادا في نحو نطقهم: (ضالم وضلام) في ظالم وظلام. وفي الوقت الذي حافظ أغلب سكان المناطق الدّاخليّة على نطق الذال والثّاء كما هما في الفصيح، فقد تحوّل الصّوتان إلى دال أو تاء في نطق أهل الحنايا وزناتة في قولهم: (تلاتة والتّورة والتّريد وندكر وندبح) في ثلاثة والثّورة والثّريد ونذكر ونذبح.

4/ الثّاء الذاليّة:

سُمع هذا الصّوت في منطوق أهالي صبرة في نحو قولهم: (ذقيلة) في ثقيلة للمرأة الحامل.

5/ الطّاء التّائيّة:

ينطق أهل سبدو وبوحلو الطّاء تاء في نحو قولهم: (تْريق وتْبق) في طْريق وطْبق.

6/ الطّاء الظّائيّة:

هذا النّطق في مدينة صبرة، فقد سُمع قولهم: (نظرب والمقروظ) في نضرب والمقروط.

7/ السّين الصّاديّة:

يُلاحظ في منطوق بعض الجهات الدّاخليّة ميلهم إلى إبدال السّين صادا وبخاصة في قريّة أولاد أرياح، فهم يقولون: (عْفص وعرص وراص وصوكَ).

8/ الجيم الگيميّة:

حافظ النّاطقون في جل الجهات الدّاخليّة على نطق الجيم قريبة من الفصيح في نحو قولهم: (جْبل وجْنان)، غير أنهم يخرجون الجيم گيما عند مجاورتها للسين أو الزّاي في نحو قولهم: (گزار وگاسوس). في جزار و جاسوس.

9/ الجيم الزّائيّة:

لاحظنا أن بعض النّاطقين، يبدلون الجيم زايا. فيقولون مثلا (الزّزاير) في الجزائر و(الزّزِيرَة) في الجزيرة.

10/ الغين الخائيّة:

يلاحظ في منطقة صبرة أنهم يبدلون الغين خاء حينما تجاور صوت السّين، فيقولون: (يخسل) و(الخسيل) في يغسل والغسيل. فالسّين صوت صفيري مهموس ينسجم مع صوت الخاء المهموس. فتتحقق الخفة المطلوبة.

11/ الحذف في الأصوات:

هناك ظاهرة تتميز بها قبيلتا أولاد حمّو وأولاد عدّو في منطقة صبرة، وهي أنهم يحذفون الميم الدّالة على الجمع في مثل (عليكم) و(منكم) و(نتاعكم) و(منهم) و(عليهم)..فيقولون (عْلِيكُ) و(مَنْكُ) و(نْتاعْكُ) و(مَنْهُ) و(عْلِيهُ).. والملاحظ أن الضّمة تنوب عن الميم المحذوفة. ومن الأمثلة المشهورة في هذا الشّأن قول النّاس، من غير القبيلتين، دلالة على هذه الظّاهرة عند القبيلتين : ياوْ عَنْدْكُ حْمِيرْكُ في زْرَعْكُ.

خامسا: الأصوات اللهجيّة في منطوق المناطق الجنوبيّة:

الظّاهر من المنطوق المسجل في أغلب المناطق الجنوبيّة، أنه لا يختلف عن منطوق المناطق الدّاخليّة الشّماليّة والشّرقيّة، وكل ما بدا لنا هو ميلهم إلى تفخيم بعض الأصوات المرققة، نحو قولهم: (ظُرْكْ وياخظْ وظوكَ) في الآن ويأخذ وذوق. ومن المظاهر اللّهجيّة التي سادت منطوق المناطق الجنوبيّة:

1/ الضّاد الظّائيّة:

سقط صوت الضّاد من كلام أهل الجنوب من الولايّة ليُلفظ ظاء، وذلك في قولهم: (نظرب ونظحك ورمظان والظّو).

2/ الضّاد الدّاليّة:

وسُمع في نطق بعض القرى من جنوب الولايّة إبدالهم الضّاد دالا في نحو قولهم: (نْديّقْ) في نْضيق.

3/ الصّاد السّينيّة:

حافظ سكان جنوب الولايّة على النّطق الفصيح للصاد إلا أن بعضهم أخرجها سينا في مثل قولهم: (سغير وسبته وسْداقي) في صغير وصبته وصْداقي.

4/ القاف الگافيّة:

إن الغالب في نطق سكان جنوب الولايّة إخراجهم القاف گافا ساميّة، وذلك في مثل قولهم: (گالْ ويگْدر والعگْرب گْبيل ويگسمو)، ولا تسمع القاف الفصيحة في نطقهم إلا في كلمات محدودة، نحو: (قهوة وقْمجة وقريّة)، وقد تتحول على السّنة بعضهم إلى كاف خالصّة في مثل قولهم:(كْتل وكْتيلة).

5/ الجيم في نطق جنوب الولايّة:

إن المسموع في منطوق هذه المنطقة مبالغتهم في تعطيش الجيم، إذ تتحول في نطقهم إلى شين مجهورة، وذلك في مثل قولهم: (الجّبلْ والجّمل والجّيران والجّاه والجّامع).

6/ الهمزة العينيّة:

والملاحظ أيضا في نطق أهل جنوب الولايّة إخراجهم الهمزة عينا في نحو قولهم: (حدلعان ولْعاثار) في لحد الآن و الآثار.

سادسا: الأصوات اللهجيّة في المناطق الغربيّة من الولايّة:

يتناول هذا الجزء من الدّراسة الأصوات الدّائرة على السّنة المدن والقرى الآتيّة:

(مغنيّة وحمام بوغرارة وسيدي مجاهد وقبائل بني سنوس وبني بحدل والعزايل)، ومن

الأصوات اللهجيّة البارزة في كلام هذه المناطق، نذكر:

1/ القاف الگافيّة :

يُسمع هذا الصّوت في مدن وقرى (مغنيّة وحمام بوغرارة وسيدي مجاهد) بالإضافة إلى (أولاد قدور والبطيم وتربان والمصامدة). كما جرى هذا على السّنة قرى (زهرة وبني عشير وأولاد موسى)، فقد اعتادوا نطقه مجهورا شديدا كالگاف السّاميّة. في حين تلفظ القاف قريبة من النّطق الفصيح في منطقة بني بوسعيد، مثل قريتي: سيدي مبارك والزّويّة.

2/ الضّاد الطّائيّة:

يشيع هذا الصّوت في منطوق جلّ مدن وقرى المنطقة الغربيّة، فهم يقولون: (طحكْ وطربْ وعطم) في ضْحك وضْرب وعضم.

3/ الضّاد الدّاليّة:

الظّاهر من منطوق المناطق الغربيّة أنّ بعض النّاطقين فيها كأهالي تافسرة وبني حمو وجزء من سكان مغنيّة يلفظون الضّاد دالا في مثل قولهم:(مْدغ) في مْضغ.

4/ التّاء الطّائيّة:

تُنطق التّاء طاء مفخمة في جهات من المنطقة الغربيّة، نحو قرى (الفحص وزهرة والخميس وبني عشير والعزايل وبني حمو)، فهم يقولون: (الطّمر ونحطارمو والطّراب) في التّمر ونحترمو والتّراب. أما باقي المناطق فتخرج التّاء كما هي معروفة في الفصيح.

5/ التّاء السّينيّة:

سُمع هذا الصّوت في تكلّمات قرى (العزايل وتافسرة والثّلاثا وبني بحدل)، فهم يُشربون التّاء قليلا من صوت السّين على نحو ما يسمع في كلام أهالي تلمسان وندرومة، فهم يقولون: (قوتسلك).

6/ الثّاء التّائيّة:

لم يحافظ صوت الثّاء على خصائصه الفصيحة إلا في مناطق محدودة، نحو قريّة (زهرة)، فهم يقولون:(ثْمنيّة وثْريد). في حين تحوّل الثّاء إلى نظيره الشّديد عند أغلب سكان المناطق الغربيّة، في مثل قولهم: (نحرتو وتيقة والورت) في نحرثو وثيقة والورث.

7/ القاف الخائيّة:

يلاحظ في نطق أهل تافسرة إخراجهم القاف خاء، إذا كانت ساكنة نهائيّة، نحو قولهم: (دروخْ ودوخْ) في دروق ودَوْقْ.

8/ الصّاد السّينيّة:

يُنطق هذا الصّوت في مدينة مغنيّة، في نحو قولهم: (سغير السّخّارة والسّدقة) في صغير الصّخارة والصّدقة.

9/ الجيم الگـافيّة:

يسـود هذا الصّوت فـي نطق معظم مناطق الجهات الغربيّة، غير أنه مشروط بسـياق صوتي معين وهو مجيء الجيم مجاورة للزاي أو السّين في مثل قولهم: (عْگَـزت وگـزار وگْـلَس) بـدل: عجزت وجزار وجْلس.

10/ القاف التي بين القاف والكاف:

يبدو هذا الصّوت في مسـموع منطقة بني سـنوس بقُراها (العزايل وتافسـرة والثّلاثـا بما فيها الجعانيـن والمغانين) ينضاف إليها قرى (الخميس وبني حمو وبني بحدل)، فهم يخرجون القاف بينها وبين الكاف.

توزيع الأصوات اللهجيّة على الجدول

الصّوت	المنطقة التي ساد فيها
القاف الهمزيّة	مدينة تلمسان
التّاء السّينيّة	حضر تلمسان، العزايل، تافسرة، بني بحدل.
الثّاء الكافيّة	حضر تلمسان
DJ الجيم المركبة	حضر تلمسان ـ الغزوات، تونان، مزاورو، سيدي ابراهيم، زاويّة الميرا، بغاون، بوخنايس.
الدّال التّائيّة	حضر تلمسان، سيد العبدلي.
الدّال الطّائيّة	حضر تلمسان، الغزوات، السّواحليّة.
التّاء الطّائيّة	حضر تلمسان، الغزوات، تيانت، مسيردة التّحاتة، دار يغمراسن، جبالة، السّواني، باب
V	حضر وحوز تلمسان
السّين الشّينيّة	حضر وحوز تلمسان
الشّين الصّاديّة	حضر وحوز تلمسان
اللام النّونيّة	حضر وحوز تلمسان
الغين الخائيّة	حضر تلمسان، سيدي بومدين، أغادير، بروانة، سيدي الحلوي، سيدي سعيد، سيدي لحسن، إمامة.
القاف الگافيّة	أحواز تلمسان، الخميس، بني بحدل، بني عشير، تافسرة، زهرة، الفحص. مرسى ين مهيدي، الكرايمة، النّجاجرة، بني خلاد، مسيردة الفاقة، بني منقوش، بوكانون، جامع الوسطى، حد الصّبابنة، الرّمشي، سبع شيوخ، الفحول، عين تالوت،ابن سكران، سيد العبدلي،أولاد الميمون،عين النّحالة، عين يوسف،سبدو، تيرني، عين غرابة، صبرة، بوحلو،أولاد رياح،زناتة، الحنايا، الشّولي،بني صميل، المناطق الجنوبيّة، مغنيّة، حمام بوغرارة، سيدي مجاهد، أولاد قدور، البطيم، أولاد موسى، المصامدة.
الجيم الدّاليّة	حضر وحوز تلمسان، الغزوات.
القاف الكافيّة	الغزوات، دار يغمراسن، السّواحليّة، تيانت،تونان،مسيردة التّحاتة،مرست بن مهيدي، العنابرة، سرمرام،شايب راسو.
الضّاد الطّائيّة	الشّريط السّاحلي، مسيردة، المناطق الغربيّة من الولايّة.
الجيم الشّينيّة	الشّريط السّاحلي، المناطق الجنوبيّة.
الجيم الگافيّة	المنطقة السّاحليّة، المناطق الحدوديّة مع المغرب،المنطقة الشّرقيّة.المناطق الدّاخليّة، المناطق
الصّاد السّينيّة	المنطقة السّاحليّة،عين تالوت، عين يوسف، أولاد ميمون، بني وارسوس، برج عريمة، المناطق الجنوبيّة، المناطق الغربيّة.
السّين الصّاديّة	المنطفقة السّاحليّة، أولاد رياح.
القاف الخائيّة	المنطقة السّاحليّة

إبدال الهمزة هاء أو واوا أو ياء	الشّريط السّاحلي
حذف الهاء	الغزوات
الذّال الدّاليّة	المنطقة السّاحليّة
الكاف الشّينيّة أو التّشينيّة	المنطقة السّاحليّة
الشّين السّينيّة	مدينة تلمسان، الغزوات.
الصّاد الزّائيّة	الغزوات
الثّاء التّائيّة	الشّريط السّاحلي، الرّمشي، بن سكران، عين يوسف، المناطق الغربيّة.
الطّاء التّائيّة	مسيردة التّحاتة، جبالة، بوطراق، بني سنوس، بوحلو.
الزّاي الجيميّة	عين تالوت، الرّفايل، العابد،ربان، عصفور، الزّويّة.
الذال الدّاليّة	الرّمشي، بن سكران، عين يوسف.
الضّاد الظّائيّة	الرّمشي، ابن سكران، عين يوسف، سبدو، تيرني، عين غرابة، صبرة، بوحلو،أولاد رياح،زناتة، الحنايا، الشّولي،بني صميل، المناطق الجنوبيّة.
الباء المفخمة	المنطقة الشّرقيّة.
العين الحائيّة	عين فزة، عين تالوت، أولاد ميمون.صبرة.
الذّال الظّائيّة	سبدو، تيرني، عين غرابة، صبرة، بوحلو،أولاد رياح،زناتة، الحنايا، الشّولي،بني صميل، المناطق الجنوبيّة.
الظّاء الضّاديّة	الحنايا، زناتة.
الطّاء الظّائيّة	صبرة.
الجيم الزّائيّة	المناطق الدّاخليّة.
حذف الميم الدّالة على الجمع	أولاد حمو، أولاد عدّو.
الضّاد الدّاليّة	المناطق الجنوبيّة، تافسرة، بني حمو، معنيّة.
الهمزة العينيّة	المناطق الجنوبيّة.
القاف التي بين القاف والكاف	بني سنوس، العزايل تافسرة، الجعانين، المغانين، الثّلاثا.

سابعا: العادات الكلاميّة في منطوق عاميات ولايّة تلمسان

بعد تتبع العادات الكلاميّة ذات الطّابع الصّوتيّ، والظّاهر من منطوق عاميات ولايّة تلمسان وجدنا: أنّ من العادات الكلاميّة ما مسّ الصّوائت كالميل إلى جعلها على نمط واحد، أو الزّيادة في طولها على الطّول الطّبيعي، أو الانتقاص من زمنها أو حذفها. ومن العادات الكلاميّة التي شاعت في منطوق التّلمسانيين نذكر:

تنميط المصوتات وتوحيدها:

عرف منطوق تلمسان المدينة بحضره وأحوازه هذه الظّاهرة؛ أي الميل إلى المماثلة بين المصوتات القصيرة في نحو قولهم: (كِرِكْ) في (كِراكْ) وقولهم: (رِيها ورِيهْ) في (راها وراه)، في حين تنطق عند غيرهم من سكان الولايّة، (كِراكْ وراها وراه).

ومن سكان تلمسان من خالف ذلك فاختاروا المصوّت الخلفيّ، أي الضّم، وآثروه على غيره من المصوتات الأماميّة (الفتح والكسر) في نحو قولهم: (حُمُّص) في (حِمَصْ) و(العُجُلة) في (العَجْلة) عند سكان المنطقة الجنوبيّة والشّرقيّة؛ أي المناطق التّاليّة (سبدو، صبرة، عين تالوت، بن سكران، سيدي العبدلي، العريشة، المقور، البويهي). في حين سمعت اللفظة بالكسر في جهات أخرى، نحو قولهم: (حِيمص).

ومن صور هذه العادات الكلاميّة الضّاربة في منطوق عاميات تلمسان إيثار جهات للكسر على الضّم، نحو قول أهل (ترارة) للسطل من الحديد أو بلاستيك (بودي)، في حين يفضّل غيرهم الكسر، فيقلون: (بيدو) كما هو جار على السّنة بعض أهالي سواحليّة ومدينة مغنيّة وصبرة وما جاورها من القرى.

ومن مظاهر هذه العادات الكلاميّة التي ارتبطت ببيئة النّاطق وما ميّزها من بداوة وخشونة أو تمدّن وليونة، نذكر ما جاء في منطوق بعض قبائل

تـرارة وبخاصـة بني عابـد وأولاد رياح والخلافنـة، فهـم يميلـون إلـى الضّم مؤثرين له على المصوّت الأمامي، نحو قولهم:(لْكوزينه، لْحوسـين، زوليخه)، بدل (لْكِيزُونَه ولْحِيسُون وزِيلُوخَه) عند غيرهم من مثل سواحليّة.

ونشـير ههنا إلى وجود عـادة كلاميّة اشـترك فيها جـلّ النّاطقين من سـكان الولايّة، وهـي مخاطبة الجنسـين بأحد اللفظيـن (نْتِيـنْ أو نْتِينَـا)، فـي حيـن فضّل غيرهـم مخاطبة المـذكر:(نْتَ) والمؤنث: (نْتِ).

وشاع على السّنة أولئك الذين يتفقون في توحيد كلمة المخاطب على استعمال كلمة (عْرُوصْ) براء مفخمة متبوعة بصاد مبدلة من السّـين بتأثير من الرّاء، كما هو فـي الفصحـى (عْرِيسْ) بالسّـين. أما باقي المناطـق فحافظ أهلها على الكلمة الفصيحة (عْرِيس) بكسر الرّاء وترقيقها.

2 – اختزال المصوّت أو اختلاسه:

مـن طبيعة اللغـات أنّهـا تعطي لكل صـوت من أصواتهـا حقّه فـي التّحقيق النّطقـي، إذ لـكل صوت زمنـه الطّبيعي وقد يكون له زمن مكتسب يمليه السّياق الذي يرد فيه. غير أنّه قد يعرض للصوت عـارض يدعـو المتكلم إلـى الانتقاص مـن مدّته؛ وتكثر هـذه الظّاهرة عند أهل الباديّـة المتمركزين بالمناطـق الجنوبيّة والشّـرقيّة أمثـال (الـقور والعريشـة وسـبدو وصبـــرة وسـيدي العبدلي وعين تالوت وأولاد ميمون وعين غرابة وزلبون وبوحلو وسيدي مجاهد والوادي الأخضر وبني صميل وعين نحالة وعين فـزة)، وذلك في مثل قولهـم: (بُوخَالدّ) باختـزال الضّمـة الطّويلة فـي الباء إلى قصيـرة، والفتحة الطّويلة فـي الخاء إلى قصيـرة؛ فتصبـح (بُخَلَـدْ)، ومـن نحو ذلك أيضا قولهم: (مَرْتُ) بدل (مْرَاتُو)؛ أي زوجتـه وهـذا النّطق الثّانـي متداول علـى السّـنة سـكان تلمسـان المدينة، وسـكان المناطق الشّـماليّة السّـاحليّة والدّاخليّـة للولايّة وأهالي بني سـنوس ومن جاورهم. ونلمح هذا الاختزال في زمن الصّوت في مثل قولهم: (خُرْشُف) دون مـدّ صوت الشّـينّ بينمـا عند باقي الأهالي يمدّون الصّوت؛ فتصبح الكلمة (خَرْشُـوف)، والقول نفسـه فـي كلمة) صُكَّرْ) بدل (صَكُّورْ) أي السّكر، وقولهم كذلك (مَكَنْـشْ) بدل (مَكانْـشْ)، وقد تقودهم السّـرعة إلى خطف الحركة؛ أي إضعاف صوتها لتقترب من السّكون بغيّة تحقيق الحدّ الأدنى من الجهد المبذول، والتّفسـير نفسـه ينطبق على قولهم (هَذ مَكَـنْ)؛ أي (هـاذا مـاكان)، حيـث تم الاسـتغناء عن مصـوّت الفتـح الطّويل بصِنوه القصير.

3 – تحقيـق الـواو والياء فـي حالتّهما اللينة:

هذه حالة نطقيّة يكون فيهما الصّوتان المذكـوران فـي وضـع متوسـط بيـن الصّامت والمصوت من حيث الخواص الصّوتيّـة والوظيفيّة، وهـو مجيئهما في الاتصال ساكنين مسبوقين بفتح، وذلك على نحو ما سُـمع في المناطق الشّرقيّة والجنوبيّة الشّرقيّة، بالإضافة إلى المناطق الدّاخليّة المحيطة بتلمسان المدينة، ممن عرفوا بطابعهم البـدوي، مثل: (الفحول وسبعة شـيوخ وسـيدي العبدلي وعين نحالة وأولاد ميمـون والوادي الأخضر وبنـي صميـل وعيـن تالـوت وسـبدو والمقوروالعريشـة و سـيدي الجيلالي و البويهي وعيـن غرابة). يبدو هذا في مثل قولهم (لْخَيْل، لْخَيْمَة، لْخَوْف، لْمَيْلودْ، لْقَوْر، رَيْحان، زَيْتون، شَوْلي)

غير أن بعـض النّاطقين في تلمسـان المدينـة وباقي المناطق الأخـرى. آثروا التّخفيـف واليسـر؛ فتخلّصـوا من هذه الحالة الوسطيّة، فقالـــــوا: (لْخِيلْ، لْخُوفْ، زِيتُونْ).

4 – الجنوح نحو الضّم أو الفتح:

يسـود فـي منطـوق عاميـات ولايّة تلمسان جنوح بعض الجهات في عاداتها الكلاميّـة نحـو الضّـم، في حيـن اعتاد غيرهـم الفتح. فمن المناطـق التي اعتاد أهلها الضّم نذكر أهالي تلمسـان المدينة بحضرها وأحوازها،فقد آثروا الضّم على الفتح، ومما جاء على لسـانهم، قولهم: (لْحُرْفَـه ولْبُـرْؤوءْ ومْخُبِّـي وعُشْـرِينْ وسُخَانه) ؛ أي (الحرفة والبرقوق ومخبي وعشـرون والحرارة)، فنرى أن الصّوت المبـدوء به في الأمثلـة التّاليّة؛ أي الحاء والخـاء والبـاء والعيـن و السّـين على التّرتيب قد حُرك بالضّـم. وامتدت هذه الظّاهرة إلى أهالي هنين وبني وارسوس وندرومة وفلاوسـن وباب العسـة، في حين حافظ سـكان باقـي المناطق على الفتـح، ولا تتوقف هـذه الظّاهـرة؛ أي الميـل نحـو الضّم فـي الأسـماء فقط، وإنّما شـملت الأفعال أيضا، من ذلك ما سـمع على لسـانهم (حَلْحَاجَه تُعْجُبْ، أو عُجْبَتْنِـي)؛ حيـث جنحـوا نحو ضم الحرف الأول وإن كان الأصل فيه الفتح؛ لأنه فـي الزّمـن الماضي، غيـر أنهم لا يتفقون في ضم جميع الأفعال أو الأسماء التي أصلهـا الفتح، فهناك منهم من يضم ومنهـم من يفتـح، فمثلا كلمة (شُـرْبه) ضمـت شـينها ومنهم مـن آثـر فتحها، فقالوا: (شَـرْبه)، وهذا النّطق جرى على ألسنة أهالي الغزوات وهنين وبني خلاد وبنـي وارسـوس وندرومة وفلاوسـن وجبالة وتونان وسواني وباب العسة وبني

سنوس ومسيردة التّحاتة.

وتأرجح هؤلاء النّاطقون بين الفتح والضّم في مثل قولهم: (تَقْعُدْ) و(تَقْعَدْ) كذلك (تاكُل وتاكَلْ)، فالمثالان المذكوران في حالة الضّم عند أهالي بني وارسوس وهنين وبني خلاد، بينما المثال نفسه في حالة الفتح سُمع عند أهالي الغزوات ومن يبدلون القاف كافا، وكذلك ندرومة وبني سنوس. والتّفسير نفسه يقال عند هؤلاء الفريقين في نماذج من مثل قولهم: (خافْتْ وخُفْتْ وتْغاشيتْ وتْغُوشيتْ) بمعنى (خفتُ وأُغمي عليّ)، ومثال الاسم نجده عند أهالي صبرة؛ إذ يضمون الرّاء مع تفخيمها في نحو قولهم: (الرّكْبَه) وهم يقصدون بها وسائل التّنقل، بينما يفتح باقي الأهالي في معظم مناطق الولايّة وذلك في قولهم (الرّكْبه).

5 – الجنوح نحو الكسر أو الفتح:

هناك ميل نحو الكسر في بعض المفردات التي يكثر دورانها على السّنة بعض النّاطقين في الجهة الشّرقيّة والجنوبيّة والدّاخليّة، نحو قولهم: (كِيشْ) بمعنى (كيف؟) بكسر الكاف مع الإشباع، في حين نسمع في منطقة ترارة سواء ما قطن منهم في السّاحل الشّرقي أم الغربي أم المناطق الدّاخليّة القريبة من السّاحل، فإنهم يفتحون الكلمة المذكورة فيقولون: (كاشْ)، ومنهم من يضيف ياء مدّ بين صوتي الكاف والشّين؛ فتصبح الكلمة (كاياشْ ؟) كأهالي فلاوسن وهنين وبني وارسوس وبني خلاد والغزوات والسّواحليّة والمناطق المجاورة لندرومة المدينة.

ونشير ههنا إلى أن بعض الأسماء مما يفتح في الفصحى أصبح ساكنا عند معظم سكان الولايّة في نحو قولهم: (بْنادَم) أي ابن آدم و(مْساكنْ) أي مساكين، غير أنه ندّ عن هذا النّطق سكان قريّة التّعاونيّة بدائرة الرّمشي، فإنهم يضمّون الصّوت الأول جنوحا به نحو التّفخيم، فيقولون: (بُونادَمْ) أي ابن آدم، أما كلمة (مُساكَنْ) بضم الميم؛ فقد عمّت هذه الظّاهرة كثيرا من المناطق وبخاصة الجنوبيّة منها والغربيّة والشّرقيّة على السّواء باستثناء المناطق السّاحليّة والدّاخليّة القريبة من السّاحل؛ فقد فضّل النّاطقون فيها التّسكين.

من أمثلة الميل نحو الضّم في الأفعال في حالة الجمع الخاص بالمتكلم والمخاطب والغائب وقد جاء على لسان هؤلاء(نَدُّو ويْرَبُّو ويْلَقُّو ويْعَزُّو وتَقْرُو ويْراعُو ويْوَرُّو) ومعانيها في الفصحى كالآتي: (نأخذ ونربي ويلاقون، ويعزون وتدرسون ويراعون ويظهرون)، حيث حافظ أهل المناطق الشّرقيّة والجنوبيّة الشّرقيّة على هذه الواو وحذفوا النّون، فمالتّ هذه الأفعال عندهم إلى الضّم، كما اختص أهالي أولاد ميمون باشتقاق فعل فقالوا: (نَتْأَتَّو)، أي نشرب (لتاي) لأنهم يسمون الشّاي في عاميتهم (تاي) فاشتقوا منها (تَأتى) بمعنى شرب الشّاي، وقد سايرهم في هذا الاستخدام أهالي عين غرابة وبني هديّل.

كما يكسر معظم أهالي المناطق الدّاخليّة المائلة في نطقها إلى البداوة كسبدو وصبرة وعين غرابة والرّمشي وسبعة شيوخ وعين يوسف والفحول والحنايّة، الفعل الدّال على المخاطبة المؤنثة المفردة في نحو قولهم: (تَقْرِ) أي (تقرئين)، بينما نسمع هذا الفعل عند آخرين هكذا: (تَقْرايْ) بإشباع فتحة الرّاء متبوعة بياء ساكنة؛ كما يستخدمون في مخاطبة المؤنثة التّعبيرين معا، فيقولون مثلا: (نْتِ تَقْرايْ؟) أي (هل أنت تقرئين؟)، وفي الأمر يستخدمون التّعبير المكسور الآخر في قولهم: (رُوحِي تَقْرِ) أي (اذهبي إلى الدّراسة).

5 – الضّمة المشربة كسرا:

اختصت به قبائل التّرارة، أي كل المناطق السّاحليّة الشّرقيّة والغربيّة والدّاخليّة القريبة منها، فهم ينحون بصائت الضّم نحو صائت الكسر الذي يليه فيشربونه شيئا من الضّم، وذلك في مثل قولهم: (مَدْعُور، مَشْعُول) فأشربوا ضمة العين في هذين المثالين شيئا من الكسر فلا نسمعها ضمة خالصّة ولا كسرة محققة، وإنما هي ضم مشوب برائحة الكسر. الأمثلة في هذا كثيرة سواء كانت للأسماء، أم الأفعال أم أسماء الأفعال مثل (يَشَعْلُو، يَجَمْعُو، يَدَرْسُو، لْيُوم، عَنْدُ، يْصَّيْدُو، نْتُومْ، شُهَدا، عُلَما، لْقُوتْ، مَسْمُوعْ، مَعْجُونْ...).

6 – عادة القلب المكاني:

لم تخل التّعابير اليوميّة للتلمسانيين من هذه الظّاهرة، فقد جاء على لسان أهالي المدينة في تسميتهم للدجاجة جْداده بدل دْجاجه وحتى البيض ينعتونه(وْلا جْداد أوولاد جْداد).

وإذا كان التّلمسانيون أهل المدينة يستعملون عبارة (ما هو؟) للسؤال عن الشّيء المبهم فإنّ أهالي ترارة وبخاصة أهل هنين وفلاوسن وبني وارسوس وبني خلاد، فكلهم يستعملون هذه اللّفظة مقلوبة في قولهم: (وامِيهْ). ومن صور القلب المكاني أيضا نذكر ما حدث في لفظة (الزّنَاجَه) بدل (الجْنازَة)، وذلك في معظم مناطق تلمسان باستثناء بعضها في الجهة الشّرقيّة كسيدي العبدلي وبن سكران. ومن نماذج هذا القلب نورد ما جرى من قلب في كلمة (يَلْتَمُّو) ومعناها

(يجتمعـون) فـي مناطـق تـرارة كهنين وبنـي وارسـوس وندرومة وفلاوسـن، بينمـا تقلب إلى (يْتْلايْمُـو) بتغير مكاني بين اللام والتّاء فـي مناطق كعين تالوت وأولاد رياح والحنايّة والرّمشـي والمقور وعين غرابة.

من أمثلة القلب أيضا ما جاء في أسـماء الإشـارة للدلالة على الشّيء البعيد فأهالي المدينة (تلمسان) ومن جاورهم من المنطقة الدّاخليّة والمنطقتين الشّـرقيّة والجنوبيّة، فهم يقولون: (لْهِيهْ) بينما نسـمع في أجزاء أخـرى مـن الولايّـة، وهم أهـل الجهتين الشّماليّة والدّاخليّة أعني ههنا قبائل ترارة، فإنهم يقلبون الكلمة السّابقة ويبدلون الهاء الأخيرة نونا في قولهم:(لِيهَنْ)،

ومن أمثلة ظاهرة القلب المكاني ما شاع فـي نطق أهالي تـرارة خاصـة قبائل أولاد صالح والخلافة من بني عابد، فهم يقولون: (حْسـابْني): بـدل (سْـحابْني) أي ظننت، وعلـى العكس من هـذا القلـب المتعلق بصوت الحاء نجد أهالي سـيدي العبدلي يقلبون الكلمة (شْـحالْ) إلى (حْشالْ) أي (كـم)، ويقلب أهالـي الحنايّة والرّمشـي وسبعة شيوخ وسـكان البلديات المجاورة لهم بين الصّوتين النّون والكاف في قولهم (نَكْسُـو) بـدل نَكَنْسُـو) أي نزيـل الغبار وننظف المكان.

7 – الحذف واختزال الكلام:

يلجـأ النّاطقون في تلمسـان بمختلف مناطقها إلى الحذف بوصفه مسربا للهروب من ثقـل الكلمات لطولها أو لـدرء التّنافر أو لعدم الانسـجام الحاصل بين أصواتها، ونعنـي بالحـذف ههنا التّخلـص من أحد أصوات الكلمة والاستغناء عنه لثقله أو لأن الكلام مفهوم من دونه. فقد شاع عند أهالي منطقة ترارة و بخاصة المنطقتين الشّـرقيّة والغربيّة من السّاحل بالإضافة إلى المناطق الدّاخليّة القريبة من السّـاحل اسـقاط هاء ضمير الغائب سواء كان للمذكر أم المؤنث وفي حالـة الإفراد أو الجمـع فهم يقولون مثـلا: (دْيَالْمْ أي دْيالْهُم، قُلْمْ أي قُلْ لهم وقُلَّا أي قُـلْ لها) وغيرهم لا يسـقطها بل ينطقها واضحة بيّنـة. والحاصل أنه حدث تحويل داخل بنيّة الكلمة فقد حذف صوت الهاء ونقلت حركة الصّوت الذي قبله وهي الفتحة في الفصحـى في مثل (قُلْ لها) إلى صوت اللام السّـاكن قبله وتـم إدغامهما، نفس التّفسير يقـال عن (قُلَّمْ أيْ قُلْ لهم).

لكن صوت الهاء لم يسـقط فقط حين يكون ضميرا، وإنما شاع إسقاطه عند معظم سكان تلمسان على اختلاف جهاتهم. فقد أسقطوا الهاء من أسـماء الأشياء كقولهم: (صَارِيج) بـدل (سَـهْرِيج)، حيث احتفظ بهذه الهـاء أهل تلمسـان المدينـة، لكنها سـقطت بالإجماع فـي كلمة (فْـوَاكِ) أي فواكه.

وسـقط صوت الهـاء أيضا فـي منطقة بني سـنوس وبخاصة عند سكان الخميس والفحص، فهم حين يسـألون عن الشّـيء يستعملون التّعبير (واسْمُو؟) وأصله(واسمْ هُو) فحذفـت الهاء واحتفـظ بضمتها مع صـوت الميم الـذي كان سـاكنا وفي هذا تخفيف للكلام وتيسير له.

ونرى سقوط الهاء أيضا في قولهم (مَنَّا) والمقصود (مـن هنا) وهذه سـمعت عند غالبي سكان تلمسان إلا أهل المدينة فإنهم يحافظون عليها وبالتّالي لا وجود للإدغام. لكن ما يميزهم في حالة إسقاط الهاء حين يتلفظون بالعبارة المتداولـة عندهم والتي تميزت بتنميط الصّوائت، فقالوا (رِ تَخْدمْ) أي (راها تخـدم) بمعنى أنها تعمل، وذلك حيـن يتعلق الحديـث بالغائـب أو الغائبة فيلجئون إلى إسـقاط الهاء، أمـا إن عادوا إلـى الخطاب المباشـر فإنهـم لا يكتفون بصوت الـرّاء وحده بـل يلصقونه بضمير الخطـاب الـكاف كقولهم (رِيـكْ تخْدم، رِيـكْ تلْعَبْ).ويمتد هـذا الحذف عندهم إلى عبارة السّـؤال، حين يقولـون: (فارِيهَا أو فارِيهْ) أي (أين هي؟ أو أين هو؟) وباقي أهالي المنطقة يقولون (فايَـنْ راها أو وِين راها أوفِين راها؟) ولمخاطبة المذكر (فايَنْ راه أو فِيـن أو وِيـن راه؟) فالعبارة دخلتها المماثلة بيـن الصّوائت، لكنها لم تخل من حذف الياء والنّون.

ويحذف سـكان مدينة تلمسـان الذال من الفعـل (خذْ) فيقولون (خُو)، وشـمل هذا الحذف صوت العيـن الحلقي خاصة في حالة النّطـق بالأعداد، فأهل تلمسـان يسـتغنون عنه نهائيا في قولهم: (ثْناشْ 12، سْـبَطاشْ 17). أما غيرهم في باقي المناطق فإنهم لا يكتفون بعدم الحذف بل يحافظون كذلـك على جهره، فيقولـون: (ثْناعَشْ 12 وسْباطاعَشْ 17).

من العادات اللّسـانيّة الشّائعة في منطقة صبرة، ولاسيما عند عشـيرتي أولاد حمو وأولاد عـدو، أن هؤلاء يتميـزون بحذف الميـم الدّالة علـى الجمع، فهـم يقولون (عْليهُ) بدل عليهُمْ و(عَنْدْكُ) بدل عندكم...

إن ظاهرة الحذف هـذه لم تتوقف عند هذه الأصـوات فقد حذف صـوت الحاء عند أهالي مسيردة التّحاتة في قولهم: (تَّى) وأصلهـا (حتَّى)، كما حـذف أهل ندرومة وهنين وبني وارسوس وفلاوسـن ومن جاورهم من البلديات فقد استغنى بنو خلاد عن صوت الدّال من كلمة الدّجاج فصارت عندهـم (لْجـاجْ). نفس الظّاهـرة أصابت قولهم:(لْتَحْ)بـدل (لْتَحْـتْ) أضف إليهم أهالـي زهرة مـن قبائل بني سـنوس، فقد حذفوا التّاء تسهيلا والتّفسير نفسه يقال عن استخدامهم: (لَعْشِي) بـدل (لَعْشِيَه).

الظّاهـرة نفسـها نلحظها فـي حذف صوت الفاء من فعل الأمر (شُـوفْ)، أي أنظر فقد جاء على لسـانهم (شُو) بتفخيم

الشّين، و نفس الفعل في زمن الماضي فإنه يتعرض إلى حذف الفاء فنسمع قولهم (شَتْ بدل شَفْتْ أو شَتُو بدل شَفْتُو) وكل هذا مرده السّهولة والتيسير في نطق الكلمة والبحث عن أدنى جهد للنطق بالكلمة. بقي أن نشير إلى منطقة سيدي العبدلي فقد سمع عنهم حذف اللام في قولهم: (كُشْ) أي (كُلْشْ)، وحذف آخر يخص دوار الكبارتة التّابع لبلديّة المقور، فهم يقولون: (كِكْ ظاكْ) ومعناها (مثل ذلك) وأصل التّعبير (هاكْ ظاكْ).

7 – الإبدال:

وهو أن يأخذ صوت مكان صوت آخر في الكلمة تجمع بينهما قرابة صوتيّة، مع بقاء الكلمة محافظة على معناها، ومنطوق تلمسان بعامياتها المختلفة لم يخل من هذه الظّاهرة، فأهل تلمسان المدينة مثلا اعتادوا إبدال القاف همزة في الكلمات التي احتوت عليها، لكن هذا الإبدال لم يبق محصورا في القاف بل تعداه إلى صوت الكاف، فقد أبدلت هي الأخرى همزة، ولكن في كلمات محدودة في مثل قولهم: (بأْبُوأَة ودرْبُوأَة وإيرَانْ) أي (بكْبُوكَة): وهو نوع من الطّعام؛ (ودربوكة): وهي آلة الموسيقى المعروفة و(كيران): أي الحافلات) لكن نشير ههنا إلى أن هذا النّطق لا تسمعه إلا عند كبار السّن الذين لم يختلطوا بغيرهم كثيرا. ويبدل أهل تلمسان الميم نونا خيشوميّة في مثل قولهم (نَقلوب بدل مقلوب أي المنقلب) و(نْخُطْ بدل مْخُطْ أي مخض) و(نْقيل بدل مقيل أي القيلولة)، وفي هذا المثال الأخير تشترك مع أهل تلمسان قبائل بني سنوس كلها في هذا الإبدال إذ يقولون المنْقيله والمنْقيل بدل المقيل)، أي أن الميم والنّون كلاهما من الأصوات المائعة، إذ جاز الإبدال بينهما. وهو منتشر في باقي مناطق الولايّة كالحنايّة والرّمشي وغيرهما، فهم يقولون بدل (مْفاتَح) (نْفاتَح). و الظّاهرة نفسها سجلناها في منطوق صبرة، كما في قولهم: محمّد التي تصير على السّنتهم :(مُحَنْد) ولاسيما إذا كانت مضافة في أثناء النّداء على شخص باسم أبيه كما في محمّد سعيد التي تصير محند سعيد، أي محمّد بن سعيد. وتبدل الميم نونا في جل مناطق تلمسان، في مثل قولهم: (ندرومة) نطقت (مدرومة) في كثير من جهات تلمسان الواسعة.

ويتناوب صوتا الرّاء والنّون الإبدال فيما بينهما،لأنهما من الأصوات المائعة، ومن أمثلة هذا قولهم: (قزّان بدل قزّار) وهي الطّنجرة الكبيرة.

وأبدلت الزّاي من الجيم في كثير من هذه المناطق خاصة سبدو وصبرة والشّولي والمناطق الشّرقيّة والجنوبيّة، إذ جاء على السّنتهم (زِيش بدل جِيش) و(زَزَايْري بدل جزايري.

نشير ههنا إلى إبدال انفرد به التّلمسانيون (الحضر) وهو إخراجهم للهمزة الممدودة في كلمة (القرآن) قافا خالصّة، إذ يقولون: (قُرقَان)، ولعل ذلك كان أسهل عليهم من إبدال القاف كعادتهم همزة فتجتمع همزتان ولما ثقل عليهم النّطق بهما معا آثروا إبقاء القاف الأول على حالها مع إبدال الهمزة الثّانيّة قافا، ورأوا ذلك أيسر وأسهل عليهم من النّطق بهمزتين في كلمة واحدة.

ويبدل جل سكان ولايّة تلمسان الميم باء في نحو قولهم: (مُقْراج) (بُقْراجْ)، ويشيع إبدال الباء من الفاء في الجهة السّاحليّة وبخاصة قبائل ترارة في مثل قولهم: (عْبَسْتْ) بدل (عْفَسْتْ) أي دست، ومنهم من يبالغ في هذا فيقول: (عْمَصْتْ) بإبدال الفاء ميما والسّين صادا، وقد سمع هذا في منطقة أولاد رياح وزناتة والحنايّة. كما سمع عن هؤلاء معاقبتهم بين الطّاء والصّاد في نحو قولهم: (طَوْحُو) و (صَيْحُو) وكلتا اللفظتين مستعملة، كما اختصت هذه المناطق أيضا بإبدال تمثل في إحلال الخاء مكان القاف في مثل قولهم: (دَرْوَخْ بدل دَرْوَقْ) و(دُوخْ بدل دُوكْ) و(بُوَّاخة بدل بُوَّاقة أي بالونة)، وقد ساير هؤلاء أهالي تافسرة وبني سنوس، في المحافظة على هذا الإبدال.

كما مالوا إلى التّرقيق، حيث أبدلوا الطّاء في في (طُماطِيش) تاء فقالوا: (تُماطِيشْ)، وقد تبعهم في هذا الإبدال منطقة ترارة ممثلة في : هنين وندرومة وبني خلاد وبني وارسوس وفلاوسن وجبالة.

كما أبدلت الهمزة عينا عند كبار السّن بخاصة في معظم جهات الولايّة في نحو قولهم: (قُرْعان ومَسْعُول)، أي (قرآن ومسؤول). نحو قبائل ترارة بما فيها الغزوات وجبالة وتونان ومسيردة وباب العسة وهنين وبني وارسوس وبني خلاد ينضاف إليها المناطق الدّاخليّة كسبدو وصبرة.

ومن العادات الكلاميّة ميل بعض المناطق إلى التّفخيم، فيقولون للشيء السّاخن (طابَخْ) بطاء مفخمة، في حين جنحت مناطق أخرى إلى التّرقيق، فقالوا: (تابخْ). وقد ساد هذا في مناطق سيدي العبدلي وبن سكران والرّمشي وسبدو وصبرة وفي جهات من المنطقتين الشّرقيّة والجنوبيّة.

8 – عادة مطل الصّوائت والالصّاق والإلحاق

مطل الصّوائت أو الزّيادة في زمنها عادة كلاميّة شاعت في جل مناطق تلمسان، فمن ذلك المناطق الشّماليّة الشّرقيّة والغربيّة بالإضافة إلى المناطق الدّاخليّة التي تنتمي إلى قبائل ترارة أضف إلى ذلك قبائل بني سنوس، فإنهم يقولون: (يستاهل) بإشباع

صائت الفتح،كما يطيلون في صائت المقطع الأول من أسماء الألوان فيقولون مثلا: (حُومَر وخُوطَر وصُوفَر).

ويتميز سكان منطقة بوحلو بدائرة صبرة بإشباع جميع الأصوات أثناء النّطق خاصة ما جاء في المقطع الأخير أو ما قبل الأخير كقولهم (مُحمّاد بدل محمّد أو قولهم بن عمّي بإطالة ياء المد أي ابن عمّي).

ومن السّوابق التي يكثر دورانها في منطوق عاميات تلمسان الصّاق الشّين في مستهل لفظة (شْواي وشْويه)، فقالوا: (شِشْواي وشِشْويّة)، ولعل المقصود من هذا التّركيب، أن صوت الشّين المتصدر هو اختزال للفظة (شيء)، وأن كلمة (شواي وشويه)، هي تصغير للفظة (شيء) على منوال عاميات تلمسان، وبهذا يكون المقصود من العبارة شيئاً من شويئ على طريقة الفصحى.

ومن صور هذه اللاصقة المضافة في مقدمة الكلمة قولهم: (شِناسْ)، أي أفراد غير معروفين، وهو استخدام أرادوا به الدّلالة على القلة. ومنها كذلك لاصقة الدّال في مثل قولهم: (داك الرّاجل دِي جَا لْبارحْ، هالدّار دِي جدّي، دِ كايَنْ) ويشيع استعمال هذه اللاصقة في المناطق الشّماليّة الشّرقيّة والشّماليّة الغربيّة بالإضافة إلى أجزاء من المنطقة الدّاخليّة.

يستخدم أهل ترارة وبني سنوس و أهل صبرة (الهاء) في فعل الأمر للحث على تنفيذ الحدث، فيقولون للشخص مثلا: (هاهْدَرْ، وهاسْمَعْ...)، في تكلم واسمع.

يستعمل النّاطقون في مختلف جهات تلمسان الكاف لاصقة في مقدمة الفعل للدلالة على حدوث فعل مشروط، فهم يقولون: (كِييَمْشي، كِييْكَمَّل، كِيْسافرْ) والمعنى الذي تفيده الكاف ههنا (عندما يذهب، حينما يكمل أو إذا يسافر أولما يأكل..).

وتستخدم جهات من ولايّة تلمسان لاحقة التّاء للدلالة على جمع المؤنث السّالم في نحو قولهم: (شّجْرات وخْواتاتْ وسَرْبيتاتْ) وتعد هذه التّاء علامة زائدة لتأكيد التّأنيث. والملاحظ ههنا أن الأعداد المؤنثة تبقى عند جميع سكان الولايّة في صيغة المفرد أي (أربعة، تلاته، خمسه). أما عند قبائل ترارة بمختلف بلدياتها المتمركزة في الشّمال والدّاخل، فإنهم يجمعون هذه الأعداد أيضا بإضافة الألف والتّاء فيقولون: (تلاتات وربعات وخمسات).

وتستخدم الشّين لاحقة للدلالة على نفي الفعل في نحو قولهم: (ما مْشاشْ وماكانْشْ وما كْلاشْ وما مْرَبيشْ وماجاشْ). وتجنح جهات من ولايّة تلمسان إلى إلحاق الياء بعد ضمير المتكلم المفرد (أنا) للتأكيد، فيقولون: (أنايا) وبعد ضمير جمع المتكلمين (حْنا)، فتسمع (حْنايا) أي (نحن)، وقد يتوسعون في استخدامها للدلالة على المكان، نحو (هنا) التي تصبح على لسانهم: (هْنايَ). وقد انتشر هذا الاستعمال في كثير من مناطق تلمسان وبخاصة الدّاخليّة كسبدو وصبرة وعين غرابة وبني هديل والشّولي والمناطق الشّرقيّة كالرّمشي وعين يوسف وسبعة شيوخ وعين تالوت وأولاد ميمون وعين نحالة وعند أهالي المناطق الجنوبيّة بكاملها.

إن هذه الاستخدامات اللهجيّة التي جاءت في منطوق التّلمسانيين باختلاف مناطقهم الهدف منها الاقتصاد اللغوي والميل للسهولة واليسر في النّطق.

د. مهدية بن عيسى
د. فرح ديد وح

جامعة تلمسان

المصادر

-صالح بلعيد. مناسبة وكلمة، منشورات المجلس الأعلى للغة العربيّة، الجزائر.
- عبد العزيز بن محمّد بن الزّبير، اتجاهات النّشر التّجاري للكتب بالمملكة العربيّة السّعوديّة.
- رميسة سدوس، عبد المالك بن السّبتي، المنصة الجزائريّة للمجلّات العلميّة/ ASJP ودورها في ترقيّة النّشر العلمي الجامعي.

الفهرس

الرقم	الموضوع	الكاتب	الصفحة	QR
1	المازيغيّة/ تمزيغت، واللغة العربيّة في الجزائر	أ.د صالح بلعيد رئيس المجلس الأعلى للّغة العربيّة	5	
2	اللغة العربيّة عند ملوك البربر في المغرب الأوسط (الجزائر-حاليا)	د. عبد النّاصر بوعلي جامعة تلمسان	25	
3	اللغة العربيّة في شمال أفريقيا قبل الفتح الاسلاميّ	أ.د صالح بلعيد رئيس المجلس الأعلى للّغة العربيّة	41	
4	اللغة العربيّة في عهد الاحتلال الإسپانيّ	د. عبد الحليم بن عيسى جامعة وهران – أحمد بن بلة	55	
5	اللغة العربيّة في الجزائر في العهد التّركيّ	د. عبد الحليم بن عيسى جامعة وهران – أحمد بن بلة	71	
6	اللغة العربيّة في فترة الاحتلال الفرنسيّ	أ.د السعيد هادف د. رضوان بيش قسم اللغة والأدب العربي والفنون، جامعة باتنة01-الحاج لخضر-جامعة (Jean Jaurès /جون جوراس- تولوز/ فرنسا	87	
7	كتابات العسكر الفرنسيّ عن اللغة العربيّة في فترة الاحتلال	أ.د كريم ولدالنبية– مدير مخبر الجزائر- تاريخ ومجتمع/ جامعة سيدي بلعباس	103	
8	الزّوايا والكتاتيب ودورها في الحفاظ على اللغة العربيّة.	د. نسيمة لوح جامعة البليدة	117	
9	تاريخ الخطّ العربيّ في الجزائر	أ.د الطيب دبّة جامعة الأغواط	135	

10	كتابة اللغات الأفريقيّة بالحرف العربيّ	د. طارق ثابت جامعة باتنة	153
11	اللغة العربيّة والمخطوط	د. أمينة طيبي د. نجيدة ولهاصي جامعة سيدي بلعباس	167
12	اللغة العربيّة في المواثيق والقوانين والمراسيم الجزائريّة	أ عامر بغدادي ديبلوماسي (سفر سابق)	187
13	اللغة العربيّة في المجلّة الأفريقيّة/ La revue Africaine	د. أحمد عزوز جامعة وهران – أحمد بن بلة	205
14	اللغة العربيّة في جهود الإصلاحيين الجزائريين	أ.د محمّد رويسات جامعة سعيدة	213
15	تعليم اللغة العربيّة بين القديم والحديث	د. عبد الحميد بوفاس د. زوبير سخري جامعة ميلة	229
16	مكانة اللغة العربيّة في المغرب الأوسط (الجزائر-حاليا)	أ.د آمنة بلعلى جامعة تيزي-وزو	245
17	موقف النّخبة الجزائريّة وجهودها حيال إلى اللغة العربيّة	أ.د بوبكر صابري جامعة برج بوعريريج	259
18	الأطاريح الجامعيّة الجزائريّة حول اللغة العربيّة	أ.د باديس فوغالي جامعة قسنطينة	275
19	رقمنة اللّغة العربيّة في البحث العلميّ الجزائريّ	أ.د مختارية بن قبلية أ.د فاطمة الزهراء حبيب زحماني جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم	289
20	اللغة العربيّة في مجال الآداب	د. طارق ثابت جامعة باتنة	307

21	اللغة العربيّة في وسائل التّواصل الاجتماعيّ	د. تسعديت لحول د. فتيحة بوتمار جامعة بجاية	321	
22	اللغة العربيّة ورقمنة الوثائق الإداريّة في الجزائر	د. مختارية بن عابد جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم	341	
23	اللّغة العربية والنّشر الإلكترونيّ في الجزائر	د. كريمة زيتوني د.محمّد بن عمارة جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم	357	
24	اللغة العربيّة عند الفنّانين التّشكيليّين الجزائريّين	د. عبد النّاصر بوعلي جامعة تلمسان	369	
25	الأصوات اللهجيّة المسموعة في منطوق تلمسان	د. مهدية بن عيسى د. فرح ديدوح جامعة تلمسان	385	